

فهرست الموضوعات

صفحة

تصدير لمعالي الشيخ أحمد زكي يماني س - ع

مقدمة المحقق

- لماذا هذه النشرة ؟ ١ - ٤
- المقريزي وكتابه «المواعظ والاعتبار» ٥ - ٦٨
- الكتاب ومؤلفه ٨ - ٣٠
- ١ - موضوع الكتاب وما أُلّف فيه من قبل ٨ - ٣٠
- كُتِبَ الخِطَطُ قَبْلَ المقريزي ٩ - ٢١
- القاهرة في عصر الناصر محمد بن قلاوون ١٦ - ١٧
- القاهرة المقريزي ١٩ - ٢١
- كُتِبَ الخِطَطُ بَعْدَ المقريزي ٢١ - ٢٧
- خرائط القاهرة ٢٤ - ٢٥
- كُتِبَ الزيارات ٢٧ - ٣٠
- ٢ - مؤلف الكتاب - ترجمة جديدة للمقريزي ٣٠ - ٣٩
- حياته ٣١ - ٣٦
- نسبه ٣٦ - ٣٧
- دار المقريزي وقبره ٣٧ - ٣٩
- مؤلفاته ٤٠ - ٥٣
- التاريخية (تاريخ مصر - التاريخ الإسلامي - سيرة النبي ﷺ) ٤٠ - ٤٧
- المؤلفات الصغيرة ٤٨ - ٥٠
- المختصرات ٥٠ - ٥٢

| صفحة | |
|---------|--|
| ٥٢-٥٣ | - كتاب منسوب للمقرئزي |
| ٥٣-٦٦ | ٣ - المَوَاعِظُ وَالْإِغْتِيَابُ فِي ذِكْرِ الْخِطَطِ وَالْآثَارِ |
| ٥٣-٥٦ | - تَرْتِيبُ الْكِتَابِ وَمَنْهَجُهُ |
| ٥٦-٦٦ | - مُشْكَلَةٌ تَحْرِيرُهُ |
| ٥٧-٦٦ | - الْخِطَطُ بَيْنَ الْمُقْرِئِزِيِّ وَالْأَوْحَدِيِّ وَابْنِ دُقْمَاقٍ |
| ٦٦-٦٨ | متى أَلْفُ الْمُقْرِئِزِيِّ كِتَابَهُ ؟ |
| ٦٩-٩٨ | مَصَادِيرُ الْكِتَابِ |
| ٧١-٩٨ | - مَصَادِيرُ الْمَجْلَدِ الْأَوَّلِ |
| ٩٩-١٠٦ | نَشْرَاتُ الْخِطَطِ وَالذَّرَاسَاتُ الْمَعْتَمَدَةُ عَلَيْهَا |
| ٩٩-١٠٠ | - النُّشْرَاتُ الْجُزْئِيَّةُ |
| ١٠٠-١٠٢ | - نَشْرَةُ بُولَاقٍ |
| ١٠٢-١٠٣ | - نَشْرَةُ قَيْتٍ |
| ١٠٣ | - تَرْجَمَاتُ الْخِطَطِ |
| ١٠٣-١٠٤ | - فَهَارِسُ الْخِطَطِ (الْكَشَافَاتُ) |
| ١٠٤-١٠٦ | - الذَّرَاسَاتُ الْمَعْتَمَدَةُ عَلَى الْخِطَطِ |
| ١٠٧-١٢٢ | مَخْطُوطَاتُ الْكِتَابِ |
| ١٢٣-١٢٥ | طَرِيقَتِي فِي إِخْرَاجِ النَّصِّ |
| ١٢٧-١٣٨ | عُرُوضُ مُسَوَّدَةِ الْمَوَاعِظِ |
| ١٣٩-١٤٠ | الرُّمُوزُ وَالْإِخْتِصَارَاتُ |
| | اللُّوْحَاتُ |

المَوَاعِظُ وَالْإِغْتِيَابُ فِي ذِكْرِ الْخِطَطِ وَالْآثَارِ

| | |
|-------|---|
| ١٠-٣ | خُطْبَةُ الْكِتَابِ |
| ٩-٦ | ذِكْرُ الرُّمُوسِ الثَّمَانِيَةِ |
| ١٠-٩ | فَضْلُ أَوَّلِ مَنْ رَتَّبَ خِطَطَ مِصْرَ |
| ١٩-١١ | ذِكْرُ طَرَفٍ مِنْ هَيْئَةِ الْأَفْلَاقِ |

| | |
|--|--|
| ٣٤-٢٠ | ذِكْرُ صُورَةِ الْأَرْضِ وَمَوْضِعِ الْأَقَالِيمِ مِنْهَا |
| جَمَلٌ مِنْ أَخْبَارِ مِصْرَ وَأَحْوَالِ نِيلِهَا وَخَرَايِجِهَا وَجِبَالِهَا | |
| ٤٦-٣٤ | ذِكْرُ مَحَلِّ مِصْرَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَوْضِعِهَا مِنَ الْأَقْسَامِ السَّبْعَةِ |
| ٤٠-٣٦ | ذِكْرُ مُحَدُودِ مِصْرَ وَجِهَاتِهَا |
| ٤٢-٤٠ | ذِكْرُ بَحْرِ الْقَلْزَمِ |
| ٤٦-٤٣ | ذِكْرُ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ |
| ٥٩-٤٦ | ذِكْرُ اشْتِاقِ مِصْرَ وَمَعْنَاهَا وَتَعْدَادِ أَسْمَائِهَا |
| ٨١-٥٩ | ذِكْرُ طَرَفٍ مِنْ فِضَائِلِ مِصْرَ |
| ١٠٥-٨١ | ذِكْرُ الْعَجَائِبِ الَّتِي كَانَتْ بِمِصْرَ مِنَ الطَّلْسِمَاتِ وَالْبَرَايِي وَنَحْوِ ذَلِكَ |
| ١٠٩-١٠٦ | ذِكْرُ الدَّفَائِنِ وَالْكُنُوزِ الَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُ مِصْرَ الْمَطَالِبِ |
| ١١١-١١٠ | ذِكْرُ هَلَاكِ أَمْوَالِ أَهْلِ مِصْرَ |
| ١٣٢-١١٢ | ذِكْرُ أَخْلَاقِ أَهْلِ مِصْرَ وَطِبَائِعِهِمْ وَأَمْزِجَتِهِمْ |
| ١٣٣-١٣٢ | ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ فِضَائِلِ النَّيْلِ |
| ١٤٤-١٣٤ | ذِكْرُ مَخْرَجِ النَّيْلِ وَأَنْبِعَاثِهِ |
| ١٥٠-١٤٤ | فَضْلٌ فِي الرُّدِّ عَلَى مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ النَّيْلَ مِنْ سَيْلٍ يَفِيضُ |
| ١٦٣-١٥٠ | ذِكْرُ مَقَائِسِ النَّيْلِ وَزِيَادَتِهِ |
| ١٦٣ | ذِكْرُ الْجِسْرِ الَّذِي كَانَ يُعْبَرُ عَلَيْهِ فِي النَّيْلِ |
| ١٧٣-١٦٤ | ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي مَاءِ النَّيْلِ مِنْ مَدْحٍ وَذَمٍّ |
| ١٧٩-١٧٣ | ذِكْرُ عَجَائِبِ النَّيْلِ |
| ١٨٢-١٨٠ | ذِكْرُ طَرَفٍ مِنْ تَقْدِيمَةِ الْمَعْرِفَةِ بِحَالِ النَّيْلِ فِي كُلِّ سَنَةٍ |
| ١٨٥-١٨٣ | ذِكْرُ عِيدِ الشُّهَيْدِ |
| ١٩٢-١٨٦ | ذِكْرُ الْخَلْجَانِ الَّتِي شَقَّتْ مِنَ النَّيْلِ |
| ١٨٧ | خَلِيجُ سَحَا |
| ١٨٩-١٨٨ | خَلِيجُ سَرْدُوسَ |

| صفحة | |
|---------|---|
| ١٨٩-١٩٠ | تخليج الإسكندرية |
| ١٩٠ | تخليج الفيوم والمنهى |
| ١٩٠-١٩١ | تخليج القاهرة |
| ١٩١ | بحر أبي المنجأ |
| ١٩٢-١٩٢ | الخليج الناصري |
| ١٩٢-١٩٣ | ذكر ما كانت عليه أرض مصر في الزمن الأول |
| ١٩٣-١٩٨ | ذكر أعمال الديار المصرية وكورها |
| | ذكر ما كان يُعمل في أراضي مصر من حفر الترع وعمارة الجسور ونحو ذلك من أجل |
| ١٩٩-٢٠١ | ضبط ماء النيل وتصريفه في أوقاته |
| ٢٠١-٢٠٣ | ذكر مقدار خراج مصر في الزمن الأول |
| ٢٠٤-٢١٢ | ذكر ما عمله المسلمون عند فتح مصر في الخراج وما كان من أمر مصر في ذلك مع القبط |
| ٢١٢-٢١٤ | ذكر ائتيقاص القبط وما كان من الأحداث في ذلك |
| ٢١٤-٢١٨ | ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشًا وما كان في نزولهم من الأحداث ... |
| | ذكر قبالات أراضي مصر بعد ما فشا الإسلام في القبط ونزول العرب في القرى وما كان |
| ٢١٨-٢٣٥ | من ذلك إلى الرؤك الأخير الناصري |
| ٢٣٥-٢٤٤ | ذكر الرؤك الأخير الناصري |
| ٢٤٤-٢٦٥ | ذكر الديوان |
| ٢٤٦-٢٥٧ | ذكر ديوان العساكر والجيش |
| ٢٥٧-٢٦٤ | ذكر القطائع والإقطاعات |
| ٢٦٤-٢٦٥ | ذكر ديوان الخراج والأموال |
| ٢٦٥-٢٧٠ | ذكر خراج مصر في الإسلام |
| ٢٧٠-٢٧٨ | ذكر أصناف أراضي مصر وأقسام زراعتها |
| ٢٧٨-٢٩٩ | ذكر أقسام مال مصر |
| ٣٠٠-٣٣١ | ذكر الأهرام |
| ٣٣١-٣٣٤ | ذكر الصنم الذي يُقال له أبو الهول |

| | |
|---------|-------------------------------------|
| ط | |
| صفحة | |
| ٣٣٩-٣٣٤ | ذِكْرُ الْجِبَالِ |
| ٣٣٨-٣٣٥ | ذِكْرُ الْجَبَلِ الْمُقَطَّمِ |
| ٣٣٩-٣٣٨ | الْجَبَلُ الْأَحْمَرُ |
| ٣٣٩ | جَبَلُ بِشْكَرٍ |
| ٣٤٠ | الْكَبْشُ |
| ٣٤٠ | الشَّرْفُ |
| ٣٤٦-٣٤٠ | ذِكْرُ الرُّضْدِ |

ذِكْرُ مَدَائِنِ أَرْضِ مِصْرَ

| | |
|---------|---|
| ٣٦٣-٣٥٠ | ذِكْرُ مَدِينَةِ أَمْشُوسَ وَعَجَائِبِهَا وَمَلُوكِهَا |
| ٣٩١-٣٦٤ | ذِكْرُ مَدِينَةِ مَنَّفَ وَمَلُوكِهَا |
| ٤٧٤-٣٩٢ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ |
| ٤١١-٤٠٧ | ذِكْرُ الْإِسْكَانْدَرِ |
| ٤١٤-٤١١ | ذِكْرُ تَارِيخِ الْإِسْكَانْدَرِ |
| ٤١٧-٤١٤ | ذِكْرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِسْكَانْدَرِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ وَأَنْهُمَا رَجُلَانِ |
| ٤٢٢-٤١٨ | ذِكْرُ مَنْ وَلِيَ الْمَلِكُ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بَعْدَ الْإِسْكَانْدَرِ |
| ٤٢٩-٤٢٢ | ذِكْرُ مَنَارِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ |
| ٤٣٢-٤٢٩ | ذِكْرُ الْمَلْعَبِ الَّذِي كَانَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ |
| ٤٣٨-٤٣٢ | ذِكْرُ عَمُودِ السُّوَارِي |
| ٤٤١-٤٣٨ | ذِكْرُ طَرَفٍ مِمَّا قِيلَ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ |
| ٤٥١-٤٤١ | ذِكْرُ فَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ |
| ٤٥٨-٤٥١ | ذِكْرُ مَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَانْتِقَاضِ الرُّومِ |
| ٤٥٩-٤٥٨ | ذِكْرُ بُحَيْرَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ |
| ٤٦٦-٤٥٩ | ذِكْرُ خَلِيجِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ |
| ٤٧٤-٤٦٦ | ذِكْرُ مَجْمَلِ حَوَادِثِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ |

| صفحة | |
|---------|---|
| ٤٧٦-٤٧٤ | ذِكْرُ مَدِينَةِ أُتْرِب |
| ٤٩١-٤٧٦ | ذِكْرُ مَدِينَةِ تَيْس |
| ٤٩٢ | سَمْنَاي |
| ٤٩٢ | بورا |
| ٤٩٣-٤٩٢ | القَس |
| ٤٩٤-٤٩٣ | ذِكْرُ مَدِينَةِ صَا |
| ٣٩٦-٣٩٤ | رَمْلُ الْغَرَابِي |
| ٤٩٦ | مراقبه |
| ٤٩٧-٤٩٦ | كوم شريك |
| ٤٩٧ | غيفا |
| ٤٩٧ | سَمْنُود |
| ٤٩٩-٤٩٨ | ذِكْرُ مَدِينَةِ بَلَيْس |
| ٥٠٠-٤٩٩ | ذِكْرُ بَلَدِ الْوَرَادَةِ |
| ٥٠٠ | الصَّالِحِيَّة |
| ٥٠٥-٥٠١ | ذِكْرُ مَدِينَةِ أَيْلَةَ |
| ٥٠٦-٥٠٥ | مَرْيُوط |
| ٥٠٧-٥٠٦ | وادي هبيب |
| ٥١٢-٥٠٧ | ذِكْرُ مَدِينَةِ مَدَّيْن |
| ٥١٢ | ذِكْرُ مَدِينَةِ فَارَانَ |
| ٥١٣ | ذِكْرُ أَرْضِ الْجِفَار |
| ٥١٧-٥١٣ | ذِكْرُ صَعِيدِ مِصْر |
| ٥٢١-٥١٧ | ذِكْرُ الْجَنَائِدِ وَلَمَعٍ مِنْ أَخْبَارِ أَرْضِ الثُّوبَةِ |
| ٥٢٦-٥٢١ | ذِكْرُ تَشْعُبِ النَّيْلِ مِنْ بِلَادِ عِلْوَةٍ وَمَنْ يَسْكُنُ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمَمِ |
| ٥٣٦-٥٢٧ | ذِكْرُ الْبَحْجَةِ |
| ٥٤٠-٥٣٦ | ذِكْرُ مَدِينَةِ أُسْوَانَ |

| صفحة | |
|---------|--|
| ٥٤١-٥٤٠ | ذِكْرُ بِلَاقٍ |
| ٥٤٢-٥٤١ | ذِكْرُ حَائِطِ الْعُجُوزِ |
| ٥٤٩-٥٤٢ | ذِكْرُ الْبَشَطِ |
| ٥٥٢-٥٤٩ | ذِكْرُ صَخْرَاءِ عَيْذَابٍ |
| ٥٥٢ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الْأَقْضَرِ |
| ٥٥٣-٥٥٢ | ذِكْرُ الْبَلْبِئِنَا |
| ٥٥٣ | ذِكْرُ سَمْعُوْدٍ |
| ٥٥٣ | ذِكْرُ إِزْجَنْوَسٍ |
| ٥٥٣ | ذِكْرُ أُتْرُوبِطٍ |
| ٥٥٤ | ذِكْرُ مَلُويٍ |
| ٥٥٥-٥٥٤ | ذِكْرُ مَدِينَةِ أَنْصِنَا |
| ٥٥٧-٥٥٥ | ذِكْرُ الْقَيْسِ |
| ٥٥٧ | ذِكْرُ دَرُوطِ بَلْهَاسَةَ |
| ٥٥٨ | ذِكْرُ أُسْكَرٍ |
| ٥٥٨ | ذِكْرُ مِئِيَةِ الْخَصِيبِ |
| ٥٥٩ | ذِكْرُ مِئِيَةِ الْبَاسَاكِ |
| ٥٦٢-٥٥٩ | ذِكْرُ الْحَيْزَةِ |
| ٥٦٥-٥٦٢ | ذِكْرُ سِجْنِ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ |
| ٥٦٥ | ذِكْرُ قَرْبَةِ تَرْسَا |
| ٥٦٥ | ذِكْرُ مِئِيَةِ أُنْدُونَةَ |
| ٥٦٦-٥٦٥ | ذِكْرُ وُسَيْمٍ |
| ٥٦٧-٥٦٦ | ذِكْرُ مِئِيَةِ عُقْبَةَ |
| ٥٦٩-٥٦٨ | ذِكْرُ حُلْوَانَ |
| ٥٧٢-٥٦٩ | عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ |
| ٥٧٤-٥٧٢ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الْقَرِيشِ |

| صفحة | |
|---------|---|
| ٥٧٨-٥٧٥ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الْفَرَمَا |
| ٥٧٩-٥٧٨ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الْقُلُومِ |
| ٥٨٠-٥٧٩ | الثَّيْبُ |
| ٦١١-٥٨٠ | ذِكْرُ مَدِينَةِ دِمْيَاطَ |
| ٦١٢-٦١١ | ذِكْرُ شَطَا |
| ٦١٣-٦١٢ | دَبِيقُ |
| ٦١٣ | التَّحْرِيرِيَّةُ |
| ٦١٣ | جَزِيرَةُ بَنِي نَضْرَ |
| ٦١٦-٦١٤ | ذِكْرُ الطَّرِيقِ فِيمَا بَيْنَ مَدِينَةِ مِصْرَ وَدِمَشْقَ |
| ٦١٦ | ذِكْرُ مَدِينَةِ حِطَّيْنِ |
| ٦١٧ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الرَّقَّةِ |
| ٦٢٦-٦١٧ | ذِكْرُ عَيْنِ شَمْسِ |
| ٦٢٨-٦٢٦ | الْمَنْصُورَةُ |
| ٦٢٩-٦٢٨ | الْقَبَّاسَةُ |
| ٦٣٣-٦٢٩ | ذِكْرُ مَدِينَةِ قِفْطَ بِصَعِيدِ مِصْرَ |
| ٦٣٣ | ذِكْرُ مَدِينَةِ دَنْدَرَةَ |
| ٦٣٧-٦٣٤ | ذِكْرُ الْوَاحَاتِ الدَّاخِلَةِ |
| ٦٣٨-٦٣٧ | ذِكْرُ مَدِينَةِ سَنْتَرِيهِ |
| ٦٣٩-٦٣٨ | ذِكْرُ الْوَاحَاتِ الْخَارِجَةِ |
| ٦٤٢-٦٤٠ | ذِكْرُ مَدِينَةِ قُوصَ |
| ٦٤٢ | ذِكْرُ مَدِينَةِ إِسْنَا |
| ٦٤٢ | ذِكْرُ مَدِينَةِ أُدْفُو |
| ٦٤٣ | إِهْنَسَ |
| ٦٤٧-٦٤٣ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الْبَهْتَسَا |
| ٦٤٩-٦٤٧ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الْأَشْمُونِيِّنَ |

| صفحة | |
|---------|--|
| ٦٥١-٦٤٩ | ذِكْرُ مَدِينَةِ إِحْمِيم |
| ٦٥٥-٦٥٢ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الْعُقَاب |
| ٦٧٤-٦٥٥ | ذِكْرُ مَدِينَةِ الْفَيْيُوم |
| ٦٦٨-٦٦٧ | يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ |
| ٦٧٤-٦٦٨ | ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الْفَيْيُومِ وَخُلْجَانِهَا وَضِيَاعِهَا |
| ٦٧٥-٦٧٤ | ذِكْرُ فَتْحِ الْفَيْيُومِ وَمَبْلَغِ خَرَايجِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَرَاقِقِ |
| ٦٧٦ | مَدِينَةُ النَّحْسَرِيَّةِ |

ذِكْرُ تَارِيخِ الْخَلِيقَةِ

| | |
|---------|--|
| ٦٩٩-٦٧٨ | ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي مُدَّةِ أَيَّامِ الدُّنْيَا بِاقْبِيهَا وَمَاضِيهَا |
| ٧٠٦-٧٠٠ | ذِكْرُ التَّوَارِيخِ الَّتِي كَانَتْ لِلْأُمَّمِ قَبْلَ تَارِيخِ الْقَيْبِطِ |
| ٧٠٤-٧٠١ | تَارِيخُ الْخَلِيقَةِ |
| ٧٠٥-٧٠٤ | تَارِيخُ الطُّوفَانِ |
| ٧٠٦-٧٠٥ | تَارِيخُ بُخْتَنْصَرِ |
| ٧٠٦ | تَارِيخُ الْإِسْكَانْدَرِ |
| ٧٠٦ | تَارِيخُ أُغْشَطُسَ |
| ٧٠٦ | تَارِيخُ أَنْطَنِيسَ |
| ٧١٠-٧٠٦ | ذِكْرُ تَارِيخِ الْقَيْبِطِ |
| ٧١٢-٧١٠ | ذِكْرُ دَقْلِدِيَانُوسَ الَّذِي يُعْرَفُ تَارِيخُ الْقَيْبِطِ بِهِ |
| ٧١٢ | أَسْمَاءُ شَهْرِ الْقَيْبِطِ |
| ٧١٤-٧١٢ | ذِكْرُ أَسَابِيحِ الْأَيَّامِ |
| ٧٢٩-٧١٤ | ذِكْرُ أَعْيَادِ الْقَيْبِطِ مِنَ النَّصَارَى بِدِيَارِ مِصْرَ |
| ٧١٩-٧١٥ | الأعياد الكبار |

| صفحة | |
|---------|---|
| ٧١٥ | عيدُ البشارة |
| ٧١٥ | عيدُ الزُّيُونَة |
| ٧١٦-٧١٥ | عيدُ الفِضْح |
| ٧١٦ | عيدُ الأَرْبَعين |
| ٧١٧-٧١٦ | عيدُ الخَمْسِين |
| ٧١٨-٧١٧ | الميلاد |
| ٧١٩-٧١٨ | العِطَّاس |
| ٧٢٤-٧١٩ | الأعياد الصُّغَار |
| ٧١٩ | الخِتان |
| ٧١٩ | الأَرْبَعون |
| ٧٢٠-٧١٩ | خَميسُ العَهْد |
| ٧٢٠ | سَبْتُ النُّور |
| ٧٢٠ | حَدُّ الحُدُود |
| ٧٢٠ | عيدُ التَّجَلِّي |
| ٧٢٤-٧٢١ | عيدُ الصُّليب |
| ٧٢٤-٧٢٠ | ذِكْرُ قُسْطَنْطِين |
| ٧٢٩-٧٢٤ | النُّوروز |
| | ذِكْرُ ما يُوافقُ أيامَ الشُّهور القِبْطِيَّة من الأعمال في الزُّراعات وزيادة النُّيل وغير ذلك ممَّا نَقَلَهُ |
| ٧٣٩-٧٣٠ | أهل مصر عن قُدمائهم واعتمدوا عليه في أمورهم |
| | ذِكْرُ تحويلِ السَّنَةِ الخِراجِيَّة القِبْطِيَّة إلى السَّنَةِ الهلالية العربية وكَيْفَ عُمِلَ ذلك |
| ٧٦٣-٧٤٠ | في الإسلام |
| ٧٧٢-٧٦٤ | تاريخُ العَرَب |
| ٧٦٩-٧٦٧ | التَّسْمِيءُ والتَّسَاءَةُ |
| ٧٧٢ | تاريخُ الفُرْس |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

تُعَدُّ المخطوطات الإسلامية السَّجِلُ الحافل الذي يَجْمَعُ خُلاصَةَ ما أُنتَجَ الفِكرُ العربي والإسلامي على امتداد أربعة عشر قَرْنًا . وكان إحياء هذه المخطوطات في عَصْرِ الطُّبَاعَةِ بِنَشْرِها نَشْرًا علميًّا وتوفيرها لجمهور أكبر من العُلَماء والباحثين والقُرَّاء ، عَمَلًا بدأه المُشْتَرِقون ثم قام بعبئه العُلَماء العرب والمسلمون .

ورأت مُؤَسَّسَةُ الفُرْقان للتراث الإسلامي أن تُساهم في هذا المجال الهام بِنَشْرِ بعض المخطوطات القديمة في تحقيقات جديدة تُواكب ما وَصَلَ إليه علم المخطوطات الحديث ، وتَدْفَعُ بالقديم من تراثنا إلى طريق حضارة إنسانية شاملة .

والكتاب الذي تُقدِّمه المُؤَسَّسَةُ اليوم «المواعظ والاعتبار في ذِكر الخِطَط والآثار» لشيخ مؤرِّخي مصر الإسلامية تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م ، يُعدُّ أَحَدَ مَفَاخِرِ التُّراثِ العربي وأهمِّ مَصَادِرِ تاريخ مصر الإسلامية ، فهو مُصَدَّرٌ لا غنى عنه لدارسي تاريخ مصر الإسلامية وآثارها فقد حَفِظَ لنا المقرئ في هذا الكتاب - إضافةً إلى ملاحظاته الشَّخصيَّة - نُقُولًا مهمَّةً للمؤلفين القُدماء الذين فُقِدَت مؤلفاتهم اليوم .

وكان الدكتور أيمن فؤاد سيِّد قد قام بتحقيق مُسَوِّدَةَ هذا الكتاب المحفوظة في متحف طوبقوسراي باستانبول ونَشَرَتْها له مُؤَسَّسَةُ الفُرْقان سنة ١٩٩٥ ، وكان للاستقبال الطَّيِّب الذي قوبلت به هذه النُشْرَةُ من جانب المتخصِّصين والمعنيين بتاريخ وجغرافية وآثار مصر ، دافعًا قويًّا له للإقدام على تحقيق وإخراج نصِّ الكتاب كاملاً بعد أن تعرَّف على نُسخه الأصليَّة ، سواء مُسَوِّدات المقرئ أو النُسخ الكاملة المنسوخة عن أصوله المكتوبة بخطه والمحفوظة على الأخصِّ في مكتبات استانبول .

وقد عَهَدت المُؤَسَّسَةُ ممثِّلةً في مجلس الخُبراء إلى الدكتور أيمن فؤاد بالقيام بعبء إخراج هذا الكتاب ، فهو من المتخصِّصين في دراسة تاريخ القاهرة حيث كَتَبَ أطروحةً

تقدير

عن «عاصمة مصر حتى نهاية عصر الفاطميين» ، ونشر العديد من مصادر التاريخ المصري في العصر الفاطمي ، وكتب تقييمًا جديدًا للدولة الفاطمية في مصر ، كما أنه من خبراء علم المخطوطات وأصدر فيه كتابه «الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات» .

وقام الدكتور أمين فؤاد بتحقيق الكتاب اعتمادًا على أقدم نسخ الكتاب وأهمها المنقولة عن خط المؤلف ، وأضاف إليه شروحا وتعليقات غنية اعتمادًا على ما ظهر من نصوص جديدة ودراسات متخصصة حديثة ، كما قام بربط أجزاء الكتاب بعضها ببعض وخرّج معلوماته من مصادرها الأصلية . وسيقوم في الأجزاء الخاصة بوصف المدينة ومساجدها ومدارسها وخوانيقها بإضافة صور ومخططات لهذه المعالم الأثرية مع خرائط توضح تطوّر نمو المدينة وأحيائها المختلفة منذ إنشائها وحتى عصر المقرئ في منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي .

ومؤسسة الفرقان إذ تُسهم بنشر هذا الكتاب ، تأمل أن تُؤدّي جزءًا من واجب كبير يُلقى على عاتقها وعاتق المؤسسات العلمية التي تُشاركها أهدافها .
والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

محمد يحيى يساوي

رئيس مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

لندن يناير ٢٠٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَرَّفَ وَفَهَّم وَعَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُن يَعْلَمُ ، وَأَسْبَغَ عَلَى عِبَادِهِ نِعْمًا ظَاهِرَةً
وَبَاطِنَةً^(a) ، وَوَالَى عَلَيْهِمْ مِنْ مَزِيدِ آيَاتِهِ مِنَّا مُتَّظَايِرَةً مُتَوَاتِرَةً ، وَبَثَّهِمْ فِي أَرْضِهِ حِينًا يَتَقَلَّبُونَ ،
وَاسْتَخْلَفَهُمْ فِي مَالِهِ فَهَمَّ بِهِ يَنْتَعِمُونَ . وَهَدَى قَوْمًا إِلَى اقْتِنَاصِ سُورِدِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ، وَشَوَّقَهُمْ
لِلتَّفَنِّ فِي مَسَارِحِ التَّدْبِيرِ وَالرُّكُضِ بِمِيَادِينِ الْفُهْمِ ، وَأَرْشَدَ قَوْمًا إِلَى الْإِنْقِطَاعِ مِنْ دُونَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ ،
وَوَقَّفَهُمْ لِلْإِعْتِمَادِ فِي كُلِّ أَمْرٍ عَلَيْهِ . وَصَرَّفَ آخَرِينَ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ وَفَضِيلَةٍ ، وَقَيَّضَ لَهُمْ قُرْنَاءَ
قَادُوهُمْ إِلَى كُلِّ ذَمِيمَةٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَرَذِيلَةٍ . وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِ آخَرِينَ فَلَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ،
وَيُبْطِئُهُمْ عَنْ سُبُلِ الْخَيْرَاتِ فَمَا اسْتَطَاعُوا قُوَّةً وَلَا حَوْلًا . ثُمَّ حَكَمَ عَلَى الْكُلِّ بِالْفَنَاءِ ، وَنَقَلَهُمْ
جَمِيعًا مِنْ دَارِ التَّمْحِيصِ وَالْإِتِّلَاءِ ، إِلَى بَرْزَخِ الْبُيُودِ وَالْبَلَاءِ ، وَسَيَّخَشُرُهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ ،
لِيُؤْفَى كُلُّ عَامِلٍ مِنْهُمْ عَمَلَهُ ، وَيَسْأَلَهُ عَمَّا أَعْطَاهُ وَخَوَّلَهُ ، وَعَنْ مَوْقِفِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ شُبْحَانَهُ وَمَا أَعَدَّ لَهُ ،
﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الآية ٢٣ سورة الأنبياء] .

أَحْمَدُهُ شُبْحَانَهُ حَمْدًا مَنْ عِلِمَ أَنَّهُ إِلَهٌ لَا يُعْبَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، وَلَا خَالِقٌ لِلْخَلْقِ سِوَاهُ ، حَمْدًا يَقْتَضِي
الْمَزِيدَ مِنَ النُّعْمَاءِ ، وَيُوَالِي الْمِنْنَ بِتَجَدُّدِ الْآلَاءِ .

١٥ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ، وَنَبِيِّهِ وَخَلِيلِهِ ، سَيِّدِ الْبَشَرِ ، وَأَفْضَلِ مِنْ مَضَى
وَعَبَّرَ ، الْجَامِعِ لِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَالسَّيْرِ ، وَالْمُسْتَحِقِّ لِاسْمِ الْكَمَالِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنَ الْبَشَرِ ، الَّذِي
كَانَ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ ، وَرُقِمَ اسْمُهُ مِنَ الْأَزَلِّ فِي عِلِّيِّينَ ، ثُمَّ تَنَقَّلَ مِنَ الْأَصْلَابِ الْفَاخِرَةِ
الزَّكِيَّةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ الْمَرْضِيَّةِ ، حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَى الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ ، وَخَتَمَ بِهِ
الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَأَعْطَاهُ مَا لَمْ يُعْطَ مِنَ الْفَضْلِ^(b) أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبَاتِهِ
والتَّابِعِينَ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

٢٠

(a) بولاق: باطنة وظاهرة . (b) ساقطة من بولاق .

وبعد ، فإنَّ عِلْمَ التَّارِيخِ مِنْ أَجْلِ الْعُلُومِ قَدْرًا ، وَأَشْرَفُهَا عِنْدَ الْعُقَلَاءِ مَكَانَةٌ وَخَطَرًا ، لِمَا يَحْوِيهِ مِنْ الْمَوَاعِظِ وَالْإِنذَارِ بِالرَّحِيلِ إِلَى الْآخِرَةِ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ ، وَالإطْلَاعِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ لِيُقْتَدَى بِهَا ، وَاسْتِعْلَامِ مَذَامِ الْفِعَالِ لِيَرْغَبَ عَنْهَا أَوْلُو النَّهْيِ ؛ لَا جَزَمَ أَنْ كَانَتْ الْأَنْفُسُ الْفَاضِلَةَ بِهِ وَامِقَّةً ، وَالهِمَمُ الْعَالِيَةَ إِلَيْهِ مَائِلَةً وَلَهُ عَاشِقَةً ، وَقَدْ صَنَّفَ فِيهِ الْأَيْمَةُ كَثِيرًا ، وَضَمَّنَ الْجِلَّةُ^(a) كُتُبَهُمْ مِنْهُ شَيْئًا كَبِيرًا .

وَكَانَتْ مِصْرُ هِيَ مَسْقَطُ رَأْسِي ، وَمَلْعَبُ أَثْرَابِي وَمَجْمَعُ نَاسِي ، وَمَعْنَى عَشِيرَتِي وَحَامَتِي ، وَمَوْطَنَ خَاصَّتِي وَعَامَّتِي ، وَجَوِّي^(b) الَّذِي رُئِيَ جَنَاحِي فِي وَكْرِهِ ، وَعِشَ مَأْرَبِي فَلَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ غَيْرَ ذِكْرِهِ . لَا زِلْتُ مُذْ شَدَّوْتُ الْعِلْمَ ، وَأَتَانِي رُئِيَ الْفَطَانَةَ وَالْفَهْمَ ، أَرْغَبُ فِي مَعْرِفَةِ أَخْبَارِهَا ، وَأُحِبُّ الْإِشْرَافَ عَلَى الْإِعْتِرَافِ مِنْ آبَارِهَا ، وَأَهْوَى مُسَاءَلَةَ الرَّكْبَانِ مِنْ سُكَّانِ دِيَارِهَا .

فَقَيَّدْتُ بِخَطِّي فِي الْأَعْوَامِ الْكَثِيرَةِ ، وَجَمَعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَوَائِدَ قَلَّ مَا يَجْمَعُهَا كِتَابٌ ، أَوْ يَحْوِيهَا لِعِزَّتِهَا وَغَرَابِئِهَا إِهَابٌ . إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَتْ بِمُرْتَبَةٌ عَلَى مِثَالِ ، وَلَا مُهَدَّبَةٌ بِطَرِيقَةٍ مَا نُسِجَ عَلَى مِثَالِ . فَأَرَدْتُ أَنْ أُخْصَّ مِنْهَا أَنْبَاءَ مَا بَدِيَارِ مِصْرَ مِنَ الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ عَنِ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ، وَمَا بَقِيَ بِفُسْطَاطِ مِصْرَ مِنَ الْمَعَاهِدِ غَيْرِ مَا كَادَ يُفْنِيهِ الْبَلَى وَالْقِدَمُ ، وَلَمْ يَتَّقِ إِلَّا أَنْ يَمْحُو رَسْمَهَا الْفَنَاءُ وَالْعَدَمُ .

وَأَذْكُرُ مَا بِمَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ مِنْ آثَارِ الْقُصُورِ الزَّاهِرَةِ ، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْخِطَطِ وَالْأَصْقَاعِ ، وَخَوْتِهِ مِنَ الْمِبَانِي الْبَدِيعَةِ الْأَوْضَاعِ ، مَعَ التَّعْرِيفِ بِحَالِ مِنْ أَسَسَ ذَلِكَ مِنْ أَعْيَانِ الْأُمَثَالِ ، وَالتَّثْوِيهِ بِذِكْرِ الَّذِي شَادَهَا مِنْ سُرَاةِ الْأَعَاظِمِ وَالْأَفَاضِلِ ؛ وَأَثَّرَ خِلَالَ ذَلِكَ نُكْتًا لَطِيفَةً وَجِحْمًا بَدِيعَةً شَرِيفَةً ، مِنْ غَيْرِ إِطَالَةٍ وَلَا إِكْتَارِ ، وَلَا إِجْحَافٍ مُخِلٍّ بِالغَرَضِ وَلَا اخْتِصَارِ ، بَلْ وَسَطٌ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ ، وَطَرِيقٌ بَيْنَ بَيْنٍ ؛ فَلِهَذَا سَمَّيْتُهُ كِتَابَ «الْمَوَاعِظِ وَالْإِعْتِبَارِ فِي ذِكْرِ الْخِطَطِ وَالْآثَارِ» .

وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَحْظَى - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - عِنْدَ الْمُلُوكِ ، وَلَا يَتَّبِعُوا عَنْهُ طِبَاعَ الْعَامِيِّ وَالصُّغْلُوكِ ، وَيُجِلُّهُ الْعَالِمُ الْمُنتَهِي ، وَيُعْجَبُ بِهِ الطَّالِبُ الْمُتَبَدِّي ، وَتَرْضَاهُ خَلَائِقُ الْعَابِدِ النَّاسِكِ ، وَلَا يَمُجُّهُ سَمْعُ الْخَلِيعِ الْفَاتِكِ ، وَيَتَّخِذُهُ أَهْلُ الرَّفَاهَةِ وَالْبَطَالَةِ^(c) سَمْرًا ، وَيَعُدُّهُ أَوْلُو الرِّأْيِ وَالتَّوْبِيرِ مَوْعِظَةً وَعِبرًا ، يَسْتَدَلُّونَ بِهِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ^(d) - فِي تَبْدِيلِ الْأَبْدَالِ ، وَيَعْرِفُونَ بِهِ عَجَائِبَ صُنْعِ رَبِّنَا سُبْحَانَهُ مِنْ تَنْقُلِ الْأُمُورِ إِلَى حَالٍ بَعْدَ حَالٍ .

(a) بولاق: الأجلة. (b) بولاق: جوجوي. (c) بولاق: أهل البطالة والرفاهية. (d) بولاق: تعالى.

فَإِنْ كُنْتُ أَحْسَنْتُ فِيمَا جَمَعْتُ ، وَأَصَبْتُ فِي الَّذِي صَنَنْتُ^(a) وَوَضَعْتُ ، فَذَلِكَ مِنْ عَمِيمِ
مِنِّ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ^(b) - وَجَزِيلِ فَضْلِهِ ، وَعَظِيمِ أَنْعَمِهِ عَلَيَّ وَجَلِيلِ طَوْلِهِ . وَإِنْ أَنَا أَسَأْتُ فِيمَا
فَعَلْتُ ، وَأَخْطَأْتُ إِذْ صَنَعْتُ^(c) ، فَمَا أَجْدَرُ الْإِنْسَانَ بِالْإِسَاءَةِ وَالْغُيُوبِ ، إِنْ لَمْ يَعْصِمَهُ أَوْ يَحْفَظْهُ^(d)
عَلَامُ الْغُيُوبِ :

[الكامل]

وما أبرئ نفسي أنني بشرٌ
ولا ترى عُذْرًا أُولَى بذي زَلَلٍ
أشهو وأخطئ ما لم يحميني قدراً
من أن يقول مُقِرّاً: إنني بشرٌ
فليسبيل الناظر في هذا التأليف على مؤلفه ذليل ستره إن مرّت به هفوة ، وليغض تجاوزاً
وصفحاً إن وقف منه على كبوّة أو نبوّة ، فأبي جواد - وإن عتق - ما يكبو؟ وأي غضب
مهتد لا يكل ولا يئبو؟ لاسيما والناظر بالأفكار مشغول ، والعزم لالتواء الأمور وتعرّسها
فاتر محلول ، والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل ، والقلب لتوالي المحن وتواتر
الإحـن غليل :

[الطويل]

يُعَايِدُنِي ذَهْرِي كَأَنِّي عَدُوهُ
فَإِنْ رُمْتُ شَيْئاً جَاءَنِي مِنْهُ ضِدُّهُ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ بِالْكَرِيهَةِ يَلْقَانِي
وَإِنْ رَاقَ لِي يَوْمًا تَكَدَّرَ فِي الثَّانِي
اللَّهُمَّ غُفْرًا مَا هَذَا مِنَ التَّبَرُّمِ بِالْقَضَاءِ ، وَلَا التَّضَجُّرِ بِالْمَقْدُورِ ، بَلْ إِنَّهُ سَقِيمٌ وَنَفْسُهُ مَصْدُورٌ ،
يَسْتَرْوِحُ إِنْ أَبْدَى التَّوَجُّعَ وَالْأَيْنِ ، وَيَجِدُ خَفًّا مِنْ ثِقَلِهِ ، إِذَا بَاخَ بِالشُّكُوى وَالْحَنَنِ :

[الطويل]

وَلَوْ نَظَرُوا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَا
وَلَوْ جَرَّبُوا مَا قَدْ لَقِيْتُ مِنَ الْهَوَى
رَأَوْا مِنْ كِتَابِ الْحُبِّ فِي كَيْدِي سَطْرًا
إِذَنْ عَذَّرُونِي أَوْ جَعَلْتُ لَهُمْ عُذْرًا
وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يُحَلِّيَ هَذَا الْكِتَابَ بِالْقَبُولِ عِنْدَ الْجِلَّةِ وَالْعُلَمَاءِ ، كَمَا أَعُوذُ بِهِ مِنْ تَطَرُّقِ أَيْدِي
الْحُسَادِ إِلَيْهِ وَالْجُهْلَاءِ ، وَأَنْ يَهْدِينِي فِيهِ وَفِيمَا سِوَاهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ إِلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ ، إِنَّهُ
حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَفِيهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ لِي سِلْوًا مِنْ كُلِّ حَادِثٍ ، وَعَلَيْهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَتَوَكَّلُ فِي
جَمِيعِ الْحَوَادِثِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ^(e) .

(a) بولاق: صنعت. (b) بولاق: تعالى. (c) بولاق: وضعت. (d) بولاق: إذا ... ويحفظه. (e) بعد ذلك في

بولاق: ولا معبود سواه.

ذِكْرُ الرُّؤُوسِ الثَّمَانِيَةِ

اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي: الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمزئبة، وصحة الكتاب، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه، فنقول:

أما «الغرض» في هذا التأليف، فإنه جمع ما تفرق من أخبار أرض مصر وأحوال سكانها كي يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر، وهي التي إذا حصلت في ذهن إنسان، اقتدر على أن يخبر في كل وقت بما كان في أرض مصر من الآثار الباقية والبايدة، ويقص أحوال من ابتدأها ومن حلها، وكيف كانت مصائر أمورهم وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر.

وأما «عنوان» هذا الكتاب - أعني الذي سمي به - فإني لما فحصت عن أخبار مصر، وجدتها مختلطة متفرقة، فلم يتهيأ لي إذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتباً على السنين، لعدم ضبط وقت كل حادثة، لا سيما في الأعصر الخالية، ولا أن أضعها على أسماء الناس / لعل آخر تظهرو عند تصفح هذا التأليف.

فلهذا فرقتها في ذكر الخطط والآثار، فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه ويشاكله، وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدد من أخبار مصر. ولم أتخاش من تكرار الخبر إذا احتجت إليه، بطريقة يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب، كي يستغنى مطالع كل فصل بما فيه عمماً في غيره من الفصول، فلذلك سميت كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر^a الخطط والآثار».

وأما «منفعة» هذا الكتاب، فإن الأمر فيها يتبين من الغرض في وضعه ومن عنوانه، أعني أن منفعته هي أن يشرف المرء في زمن قصير على ما كان في أرض مصر من الحوادث والتغيرات في الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة، فتتهذب بتدبر ذلك نفسه وتتناض أخلاقه، فيحب الخير ويفعله، ويكره الشر ويجتنبه^b، ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالعزوف^c عنها والإقبال على ما ينقى.

(a) بولاق: بذكر. (b) بولاق: بتجنبه. (c) بولاق: بالإعراض.

وأما «مَرْتَبَةٌ» هذا الْكِتَابِ ، فإنه من جُمْلَةِ أَحَدِ قِسْمَيْ الْعِلْمِ اللَّذَيْنِ هُمَا : الْعَقْلِي وَالنَّقْلِي ، فينبغي أن يَتَفَرَّغَ لِمَطَالَعَتِهِ وَيَتَدَبَّرَهُ^(a) مواعِظُهُ بعد إِثْقَانِ مَا تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ مِنَ الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ . فإنه يحصل بِتَدَبُّرِهِ ، لِمَنْ أزالَ اللهُ أَكِنَّةَ قَلْبِهِ وَغِشَاوَةَ بَصَرِهِ ، نَتِيجَةَ الْعِلْمِ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ أُبْنَاءُ جِنْسِهِ ، بعدَ التَّخَوُّلِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ ، مِنَ الْفِتَاءِ وَالْبُيُودِ . فإذا نَزَّ بِمَعْرِفَتِهِ بعدَ مَعْرِفَةِ أَقْسَامِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ ، ليعرفَ مِنْهُ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانوا مِنْ قَبْلِ .

وأما «واضِعٌ» هذا الْكِتَابِ وَمَرْتَبَتُهُ ، فاسْمُهُ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، وَيُعْرَفُ بِابْنِ^(b) الْمُقْرِزِيِّ⁽¹⁾ ، وُلِدَ بِالْقَاهِرَةِ الْمُعَرِّبِيَّةِ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ بعدَ سِنَةِ سِتِينَ وَسَبْعِ مِائَةٍ مِنْ سَنَةِ الْهِجْرَةِ الْمُحَمَّديَّةِ ، وَرُتِبَتْهُ مِنَ الْعِلْمِ^(c) مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ وَغَيْرُهُ مِمَّا أَلْفَهُ وَجَمَعَهُ .

وأما «مِنْ أَيِّ عِلْمٍ» هَذَا الْكِتَابِ ، فإنه مِنْ عِلْمِ الْأَخْبَارِ ، وَبِهَا عُرِفَتْ شَرَائِعُ اللهِ تَعَالَى الَّتِي شَرَعَهَا ، وَحَفِظَتْ سُنَنُ أَنْبِيَاءِ اللهِ^(b) وَرُسُلِهِ ، وَدُونَ هَدْيِهِمْ^(d) الَّذِي يَقْتَدِي بِهِ مِنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى^(e) إِلَى عِبَادَتِهِ ، وَهَدَاةٍ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَحَفِظَهُ مِنْ مُخَالَفَتِهِ . وَبِهَا نُقِلَتْ أَخْبَارُ مَنْ مَضَى مِنَ الْمُلُوكِ وَالْفَرَاغَةِ ، وَكَيْفَ حَلَّ بِهِمْ شُحْطُ اللهِ تَعَالَى لِمَا أَتَوْا مَا نُهُوا عَنْهُ . وَبِهَا اقْتَدَرَ الْخَلِيقَةُ مِنْ أُبْنَاءِ الْبَشَرِ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا ذَوَّنُوهُ مِنَ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ ، وَتَأْتَى لَهُمْ عِلْمٌ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ وَالْأَمْصَارِ الْمُتَنَائِيَةِ^(f) ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُنْكَرُ فَضْلُهُ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْ أُمَّةِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، عَلَى تَبَائِنِ آرَائِهِمْ وَاخْتِلَافِ عَقَائِدِهِمْ ، أَخْبَارٌ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَهُمْ مَشْهُورَةٌ ذَائِعَةٌ بَيْنَهُمْ . وَلِكُلِّ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ الْمَعْمُورَةِ حَوَادِثُ قَدْ مَرَّتْ بِهِ ، يَعْرِفُهَا عُلَمَاءُ ذَلِكَ الْمِصْرِ فِي كُلِّ عَصْرِ . وَلَوْ اسْتَقْصَيْتُ مَا صَنَّفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فِي ذَلِكَ لِتَجَاوُزَ حَدَّ الْكَثْرَةِ ، وَعَجَّزَتْ الْقُدْرَةُ الْبَشَرِيَّةُ^(g) عَنْ حَضْرِهِ .

وأما «أجزاء» هذا الكتاب فإنها سبعة :

(a) بولاق: تدبر. (b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: العلوم. (d) بولاق: هداهم. (e) ساقطة من الأصل. (f) بولاق:

النائية. (g) ساقطة من بولاق.

¹ واضح مما جاء في نسخة الأصل - وهي نقلا عن خط المقرئ - أن المقرئ لقب لجد مؤلفنا أحمد بن علي المقرئ ، يؤكد ذلك ما كتبه بخطه علي ظهريه الجزء الأول من كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» المحفوظة في مكتبة بني جامع باستانبول ، فبعد أن ذكر نسبه قال: الشهير جده بالمقرئ .

أولها: يَشْتَمِلُ على جُمَلِ أخبار^(a) أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها .

وثانيها: يَشْتَمِلُ على كثير من مُدُنِهَا وأجناسِ أهلِهَا .

وثالثها: يَشْتَمِلُ على أخبارِ فسطاط مصر ومن ملكها .

ورابعها: يَشْتَمِلُ على أخبارِ القَاهِرَةِ وخلايقها، وما كان لهم من الآثار .

وخامسها: يَشْتَمِلُ على ذكر ما أذركتُ عليه القَاهِرَةُ وظواهرها من الأحوال .

وسادسها: يَشْتَمِلُ على ذكر قلعة الجبل وملوكها .

وسابعها: يَشْتَمِلُ على ذكر الأسباب التي نشأ عنها خرابُ إقليم مصر .

وقد تَضَمَّنَ كلُّ جزءٍ من هذه الأجزاء السبعة عدَّةً أقسام .

وأما «أي أنحاء التَّعاليم» قَصَدْتُ^(b) في هذا الكِتَابِ، فإنِّي سَلَكْتُ فيه ثلاثة أنحاء، وهي:

«النَّقْلُ من الكُتُبِ المُصَنَّفَةِ في العُلُومِ»، و«الرُّوَايَةُ عَمَّنْ أذَرَكْتُ من مَشِيخَةِ العِلْمِ وِجَلَّةِ النَّاسِ»،

و«المُشَاهَدَةُ لما عَايَنْتُهُ ورَأَيْتُهُ» .

فأما «النَّقْلُ» من دَوَاوِين العُلَمَاءِ التي صَنَّفُوهَا في أنواعِ العُلُومِ، فإنِّي أَعَزُّو كَلَّ نَقْلِ إلی الكِتَابِ

الذي نَقَلْتُهُ منه، لِأَخْلَصَ من عُهُدِيهِ وَأَبْرَأَ من جَرِيرَتِهِ؛ فَكثِيرٌ مِمَّنْ ضَمَّنِي وَإِيَّاهُ العَصْرُ وَاسْتَمَلَّ

عَلَيْنَا المِصْرُ، صَارَ لِقِلَّةِ إِشْرَافِهِ على العُلُومِ وَقُصُورِ بَاعِهِ في مَعْرِفَةِ^(c) عُلُومِ التَّارِيخِ وَجَهْلِ^(c) مَقَالَاتِ

النَّاسِ، تَهَجَّمُ بِالإِنْكَارِ على ما لَا يَعْرِفُهُ، وَلَوْ أَنْصَفَ لَعَلِمَ أَنَّ العَجْزَ من قِبَلِهِ . وَليس ما تَضَمَّنَهُ

هَذَا الكِتَابُ من العِلْمِ الذي يُقَطِّعُ عَلَيْهِ وَلَا يُحْتَاجُ في الشَّرِيعَةِ إِلَيْهِ، وَحَسِبْتُ العَالِمَ أَنْ يَعْلَمَ ما قِيلَ

في ذَلِكَ وَيَقِفُ عَلَيْهِ .

وأما «الرُّوَايَةُ» عَمَّنْ أذَرَكْتُ من المَشَايخِ وَالجَلَّةِ^(d)، فإنِّي - في الأَكْثَرِ وَالعَالِبِ^(e) -

أَصْرَحُ بِاسْمِ من حَدَّثَنِي، إِلَّا أَلَّا يُحْتَاجُ إِلَى تَعْيِينِهِ، أَوْ أَكُونُ قد أَنْسَيْتُهُ، وَقَلُّ ما يَتَّفِقُ

مِثْلَ ذَلِكَ .

وأما «ما شَاهَدْتُهُ»، فإنِّي أَرَجُو أَنْ أَكُونَ - وَلِلَّهِ الحَمْدُ - غَيْرَ مُتَّهَمٍ وَلَا ظَنِينٍ^(f) .

وقد قُلْتُ في هذه الرُّؤُوسِ الثَّمَانِيَةِ ما فِيهِ مَقْنَعٌ^(g) وَكِفَايَةٌ، وَلَمْ يَبْتَقِ إِلَّا أَنْ أُشْرَعَ فِيما قَصَدْتُ .

وَعَزَمِي أَنْ أَجْعَلَ الكَلَامَ في كُلِّ حُطٍّ مِنَ الأَخْطَاطِ، وَفي كُلِّ أَثَرٍ مِنَ الأَثَارِ على جِدَّةٍ، لِيَكُونَ

(a) بولاق: جمل من أخبار. (b) بولاق: التي قصدت. (c-c) ساقطة من الأصل. (d) بولاق: من الجملة

والمشايخ. (e) بولاق: في الغالب والأكثر. (f) الأصل: ضنين. (g) بولاق: متاع.

العِلْم بما يَشْتَمَل عليه من الأَخْبَار أَجْمَع وأكثر فائِدَة وأسهل تناوُلًا ، والله يَهْدِي من يَشَاء إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

فصل

وأوَّلُ^(a) من رَتَّبَ خِطَطَ مصر وآثارها^(b) ، وذَكَرَ أسبابها في ديوانِ جَمَعته ، أبو عُمرَ محمد بن يُوسُفَ الكِنْدِي . ثم كَتَبَ / بعده القاضي أبو عبد الله مُحَمَّد بن سَلَامَةَ القُضَاعِي كِتَابَهُ المَثْعُوت بِـ «المُخْتَار في مَعْرِفَةِ^(c) الخِطَط والآثار» ، ومات في سنة أربع^(d) وخمسين وأربع مائة قبل سِنِي الشُّدَّة . فدَثَرَ أَكْثَرَ ما ذَكَرَاهُ ، ولم يَبْقَ إِلَّا لَمَعٌ ومَوْضِعٌ بَلَقَعٌ ، بما حَلَّ بِمصر من سِنِي الشُّدَّة المُسْتَنْصِرِيَّة من سنة سبع وخمسين إلى سنة أربع وستين وأربع مائة من الغلاء والوباء : فمات أهلها ، وخربت ديارها ، وتغيَّرت أحوالها ، واستولى الخرابُ على عَمَلٍ فَوْقَ^١ من الطَّرَفَيْنِ بِجَانِبِ^(e) القُضَطَاطِ الغَرْبِيِّ والشَّرْقِيِّ .

فأمَّا الغَرْبِيُّ فمن قَنْطَرَةَ بني وَايِل ، حيث الوَرَاقات الآن قَرِيبًا من باب القَنْطَرَةَ خارج مَدِينَةِ مِصر ، إلى الشَّرَفِ المعروف اليوم^(f) بالرضد وأنت مارٌّ إلى القَرَاة الكُبْرَى . وأمَّا الشَّرْقِيُّ فمن طَرَفِ بَرْكَةِ الحَبَشِ التي تلي القَرَاة إلى نحو جامع أحمد بن طُولون .

ثم دَخَلَ أميرُ الجيوش بَدْرُ الجَمَالِيِّ إلى مصر في سنة ست وستين وأربع مائة ، وهذه المَوَاضِعُ خَاوِيَةٌ على عُروشِها ، خَالِيَةٌ من سُكَّانِها وَأَنْبِيئِها ، قد أَبَادَهُم الوَبَاءُ واليَّبَابُ ، وسَتَّتَهُم المَوْتُ والخرابُ . ولم يَبْقَ بِمِصرَ إِلَّا بَقَايَا من النَّاسِ كأنَّهُم أمواتٌ قد اصْفَرَّتْ وُجُوهُهُم ، وتَغَيَّرَتْ سِخْنُهُم من غَلَاءِ الأشعار وكثرة الخَوْفِ من العَشْكَرِيَّةِ ، وفَسَادِ طَوَائِفِ العَبِيدِ والمِلْحِيَّةِ ، ولم يَجِدْ من يَزْرَعُ الأَرْضِي^٢ .

هذا ، والطَّرَقَاتُ قد انْقَطَعَتْ^(g) (بِرًّا وبَحْرًا^(g)) إِلَّا بِخِفَارَةٍ وكُلْفَةٍ كَبِيرَةٍ وصَارَتِ القَاهِرَةُ أيضًا يَبَابًا دائِرَةً ، فأَبَاحَ للناسِ من العَشْكَرِيَّةِ والمِلْحِيَّةِ والأَزْمَنِ ، وكلُّ من وَصَلَتْ قُدْرَتُهُ إلى عِمَارَةٍ ، أن يُعَمَّرَ

(a) بولاق: أول. (b) ساقطة من الأصل. (c) بولاق: في ذكر. (d) بولاق: سبع. (e) بولاق: بجانيبي. (f) بولاق: الآن. (g-g) بولاق: بحرا وبراً.

^٢ انظر فيما يلي ٣٦٤:١ .

^١ انظر عن عمل فوق فيما يلي ٢٩٩:١ .

ما شاء في القاهرة ، مما خلا من دور القسطنطين بموت أهلها . فأخذ الناس في هدم المساكن ونحوها بمصر ، وعمروا بها في القاهرة ، فكان^(a) هذا أول وقت اختط الناس في القاهرة^١ .

ثم كان المنبث بعد القضاعي على الخطط والتعريف بها ، تلميذه أبو عبد الله محمد بن بركات النحوي ، في تأليف لطيف نبه فيه الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، على مواضع قد اغتصبت وتملكت بعد ما كانت أقباسا .

ثم كتب الشريف محمد بن أشعد الجواني كتاب «النقط لعجم^(b)» ما أشكل من الخطط^(c) فنبه^(d) فيه على معالم قد جهلت ، وآثار قد دثرت .

وآخر من كتب في ذلك القاضي تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج كتاب «اتعاظ المتأمل وإيقاظ المتغفل في الخطط» بين فيه جمل أحوال^(e) مصر وخططها ، إلى أغوام بضع وعشرين وسبع مائة . فدثرت بعده معظم ذلك في وباء سنة تسع وأربعين وسبع مائة ، ثم في وباء سنة إحدى وستين ، ثم في غلاء سنة ست وسبعين وسبع مائة .

وكتب القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كتاب «الروضه البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة» ففتح فيه بابا كانت الحاجة داعية له^(f) .

ثم تزايدت العمارة من بعده ، في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون بالقاهرة وظواهرها ، إلى أن كادت تضيق عن^(g) أهلها ، حتى حل بها وباء سنة تسع وأربعين ، وسنة إحدى وستين ، ثم غلاء سنة ست وسبعين ، فخربت بها عدة أماكن .

فلما كانت الحوادث والمحج من سنة ست وثمان مائة ، شمل الخراب القاهرة ومصر وعمامة الإقليم . وسأورد من ذكر الخطط ما تصل إليه قدرتي إن شاء الله .

(a) بولاق: وكان. (b) بولاق: بعجم. (c) بولاق: نبه. (d) بولاق: جملا من أحوال. (e) بولاق:

إليه. (f) بولاق: على.

Khitat en Égypte musulmane» dans *The Historiography of Islamic Egypt (C. 950-1800)*,

Leiden-Brill 2001, pp. 77-92 ، ودراسة مصادر المقرئ في

مقدمة الكتاب .

^١ انظر فيما يلي ١: ٣٦٤ .

^٢ انظر عن هذه الكتب وعن تاريخ التأليف في الخطط

المصرية قبل المقرئ وبعده Fu'âd Sayyid, A., «L'évolution de la composition du genre de

ذِكْرُ طَرْفٍ مِنْ هَيْئَةِ الْأَفْلَاقِ

اعْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ مِصْرُ قِطْعَةً مِنَ الْأَرْضِ ، تَعَيَّنَ - قَبْلَ التَّعْرِيفِ بِمَوْقِعِهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَتَبْيِينِ مَوْقِعِهَا^(a) مِنَ الْفَلَكِ - أَنْ أَدْكَرَ طَرْفًا مِنْ هَيْئَةِ الْأَفْلَاقِ ، ثُمَّ أَدْكَرَ صُورَةَ^(b) الْأَرْضِ وَمَوْقِعِهَا^(a) الْأَقَالِيمِ مِنْهَا ، وَأَدْكَرَ مَحَلَّ مِصْرَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَوْضِعِهَا مِنَ الْأَقَالِيمِ ، وَأَدْكَرَ حُدُودَهَا وَاشْتِقَاقَهَا وَقَضَائِلَهَا وَعَجَائِبَهَا وَكُنُوزَهَا وَأَخْلَاقَ أَهْلِهَا ، وَأَدْكَرَ نَيْلَهَا وَخُلُجَانَهَا وَكُوزَهَا وَمَبْلَغَ خَرَاجِهَا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَا ، قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي ذِكْرِ خِطِّطِ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ ، فَأَقُولُ :

عِلْمُ النُّجُومِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامُ :

الأولُ : مَعْرِفَةُ تَرْكِيبِ الْأَفْلَاقِ ، وَكَمِّيَّةِ الْكَوَاكِبِ ، وَأَقْسَامِ الْبُرُوجِ ، وَأَبْعَادِهَا ، وَعِظْمِهَا ، وَحَرَكَتِهَا ، وَيُقَالُ لِهَذَا الْقِسْمِ «عِلْمُ الْهَيْئَةِ» .

والقسمُ الثاني : عِلْمُ حَلِّ^(c) الزِّيْجِ وَعِلْمُ التَّقْوِيمِ .

والقسمُ الثالثُ : مَعْرِفَةُ كَيْفِيَّةِ الاسْتِدْلَالِ بِدَوْرَانِ الْفَلَكِ وَطَوَالِعِ الْبُرُوجِ عَلَى الْخَوَادِثِ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَيُسَمَّى هَذَا الْقِسْمُ «عِلْمُ الْأَحْكَامِ» .

وَالغَرَضُ هُنَا إِيرَادُ نَبْذٍ مِنْ «عِلْمِ الْهَيْئَةِ» تَكُونُ تَوْطِئَةً لِمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ .

اعْلَمَ أَنَّ الْكَوَاكِبَ أَجْسَامَ كُرِّيَّاتٍ ، وَالَّذِي أَدْرَكَ مِنْهَا الْحُكَمَاءُ بِالرَّضْدِ أَلْفَ كَوْكَبٍ وَتِسْعَةَ وَعِشْرُونَ كَوْكَبًا . وَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : سَيَّارَةٌ ، وَثَابِتَةٌ . فَالسَّيَّارَةُ سَبْعَةٌ ، وَهِيَ زُحَلُ وَالْمُشْتَرِيُّ وَالْمَرْيِخُ وَالشَّمْسُ وَالزُّهْرَةُ وَعُطَارِدُ وَالْقَمَرُ . وَقَدْ نُظِّمَتْ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ وَهُوَ :

[الكامل]

زُحَلٌ مُشْتَرِيٌّ مَرْيَخُهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ بِعُطَارِدِ أَقْمَارِ^(d)

وَيُقَالُ لِهَذِهِ السَّبْعَةِ : الْخُنُسُ ، وَقِيلَ إِنَّهَا الَّتِي عَنَّاها اللهُ سَبْحَانَهُ^(e) بِقَوْلِهِ : ﴿فَلَا أُقْسِمُ

بِالْخُنُسِ * الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾ [الآيَاتُ ١٥ ، ١٦ سُوْرَةُ التَّكْوِيْنِ] ، وَالَّتِي عَنَّاها اللهُ بِقَوْلِهِ : ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ [الآيَةُ ٥ سُوْرَةُ النَّازِعَاتِ] ، وَقِيلَ لَهَا الْخُنُسُ ، لِاسْتِقَامَتِهَا فِي سَيْرِهَا وَرُجُوعِهَا . وَقِيلَ لَهَا الْكُنُسُ ، لِأَنَّهَا تَجْرِي فِي الْبُرُوجِ ثُمَّ تُكْنَسُ ، أَيْ تَسْتَرُ ، كَمَا يَكْنَسُ الظُّبْيُ .

(a) بولاق: موضع. (b) الأصل: صوب. (c) ساقطة من بولاق. (d) بولاق: الأقمار. (e) بولاق:

وقيل : الكُنُسُ والخنسُ منها خمسة ، وهي ما سَوَى الشَّمْسِ / والقَمَرِ ، سُمِّيَتْ بذلك من الانخِساس ، وهو الانقباض . وفي الحديث : «الشَّيْطَانُ يُوسِسُ لِلْعَبْدِ ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَنَسَ» ، أي انقبَضَ ورجع ، فيكون الخنسُ على هذا في الكواكب بمعنى الرجوع ، وسُمِّيَتْ بالكُنُسِ من قولهم : كَنَسَ الظُّبْيُ إِذَا دَخَلَ الْكِنَاسَ ، وهو مَقَرُّهُ . فالكنسُ على هذا في الكواكب بمعنى اختفائها تحت ضوءِ الشَّمْسِ .

ويقال لهذه الكواكب : المتخيرة ، لأنها تزجج أحياناً عن سمت مسيرها بالحركة الشرقية وتتبع الغربية في رأي العين ، فيكون هذا الارتداد لها شبه التخيير . وهذه الأسماء التي لهذه الكواكب يُقال : إنها مُسْتَقَّةٌ من صِفَاتِهَا . فزُحَلُ مُسْتَقَّةٌ من زُحَلٍ فَلَانٌ إِذَا أَبْطَأَ ، سُمِّيَ بذلك لبطء سيره ، وقيل الزُّحَلُ ^(a) ، والزُّحِيلُ ^(b) الحِقْدُ ، وهو بزغمهم يدلُّ على ذلك . ويُقال إنه المراد في قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ وما أَدْرَكَ مَا الطَّارِقُ * النُّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿ [الآيات ١ - ٣ سورة الطارق] .

والمُشْتَرِي سُمِّيَ بذلك لحسنه ، كأنه اشترى الحسن لنفسه ، وقيل لأنه نجم الشراء والبيع ، ودليل الرُّبْحِ والمال في قولهم . والمَرِيخُ مأخوذٌ من المَرُخِ ، وهو شَجَرٌ يَحْتَكُ بَعْضُ أَغْصَانِهِ بَعْضَ فَيُورِي نَارًا ، سُمِّيَ بذلك لاجتماره . وقيل المَرِيخُ سَهْمٌ لا ريش له ، إِذَا رُمِيَ بِهِ لا يَسْتَوِي فِي مَرِّهِ ، وكذا المَرِيخُ فِيهِ التَّوَاءُ كَثِيرٌ فِي سَيْرِهِ ، ودلالته بزغمهم تُشَبِّهُ ذَلِكَ . والشَّمْسُ لما كانت واسِطَةً بَيْنَ ثَلَاثَةِ كَوَاكِبٍ عُلوِيَّةٍ ، لأنَّهم من فَوْقِهَا ، وَثَلَاثَةِ كَوَاكِبٍ ^(c) سُفْلِيَّةٍ لأنَّهم من تَحْتِهَا ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْوَاسِطَةَ الَّتِي فِي الْخَنَقَةِ تُسَمَّى شَمْسَةً .

وَالزُّهْرَةُ مِنَ الزَّاهِرِ ، وَهُوَ الْأَبْيَضُ النَّبِيْرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَعُطَارِدُ هُوَ النَّافِذُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهُ أَيْضًا الْكَاتِبُ ، فَإِنَّهُ كَثِيرُ التَّصَرُّفِ مَعَ مَا يُقَارِنُهُ وَيُلَاقِيهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ . وَالقَمَرُ مَأْخُودٌ مِنَ الْقَمْرَةِ ، وَهِيَ الْبَيَاضُ ، وَالْأَقْمَرُ : الْأَبْيَضُ .

(a) بولاق : للزحل . (b) بولاق : والزحل . (c) ساقطة من بولاق .

وَيُقَالُ لِرُحْلِ كَيَوَانٍ، وَلِلْمُشْتَرِيِّ تَبْرًا وَالتَّبْرَجِيْسُ أَيْضًا، وَلِلْمَرْيَخِ بَهْرَامٌ، وَلِلشَّمْسِ مِهْرٌ،
وَلِلزُّهْرَةِ أَنَاهِيدٌ وَيُدْحَتُ أَيْضًا، وَلِلْعَطَارِدِ هِرْمِسٌ، وَلِلْقَمَرِ مَاهٌ. وَقَدْ جُمِعَتْ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ
وَهُوَ (a):

[البسيط]

٥ لا زِلْتُ تَبْقَى وَتَرْقَى لِلْعَلَا أَبَدًا مَا دَامَ لِلسَّبْعَةِ الْأَفْلَاقِ إِحْكَامُ
مِهْرٌ وَمَاهٌ وَكَيَوَانٌ وَتَبْرٌ مَعًا وَهِرْمِسٌ وَأَنَاهِيدٌ وَبَهْرَامُ

وَيُقَالُ لَمَّا عَدَا هَذِهِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةُ مِنْ بَقِيَّةِ نُجُومِ السَّمَاءِ: الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ
لثَبَاتِهَا فِي الْفَلَكَ بِمَوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَقِيلَ لِطُءِ حَرَكَتِهَا، فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الْفَلَكَ بِزَعْمِهِمْ بَعْدَ كُلِّ سِتَّةِ
وِثْلَاثِينَ أَلْفِ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ مَرَّةً وَاحِدَةً. وَلِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ فَلَكٌ مِنَ
الْأَفْلَاقِ يَخْصُهُ.

١٠ وَالْأَفْلَاقُ أَجْسَامٌ كُرِّيَّاتٌ مُشَقَّاتٌ، بَعْضُهَا فِي جَوْفِ بَعْضٍ، وَهِيَ تِسْعَةٌ: أَقْرَبُهَا إِلَيْنَا فَلَكُ
الْقَمَرِ، وَبَعْدَهُ فَلَكُ عَطَارِدِ، ثُمَّ بَعْدَهُ فَلَكُ الزُّهْرَةِ، وَبَعْدَهُ فَلَكُ الشَّمْسِ، وَفَوْقَهُ فَلَكُ الْمَرْيَخِ، ثُمَّ
فَلَكَ الْمُشْتَرِيِّ، وَفَوْقَهُ فَلَكُ زُحَلٍ، ثُمَّ فَلَكُ الثَّوَابِتِ وَفِيهِ كُلُّ كَوْكَبٍ يُرَى فِي السَّمَاءِ سِوَى
السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ، وَمِنْ فَوْقِ فَلَكِ الثَّوَابِتِ الْفَلَكَ الْمُحِيطُ، وَهُوَ الْفَلَكَ التَّاسِعُ وَيُسَمَّى الْأَطْلَسَ،
وَفَلَكَ الْأَفْلَاقِ، وَفَلَكَ الْكُلِّ.

١٥ وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي الْأَفْلَاقِ: فَقِيلَ هِيَ السَّمَلَوَاتُ، وَقِيلَ بِلِ السَّمَلَوَاتِ غَيْرُهَا، وَقِيلَ هِيَ
كُرِّيَّةٌ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَقِيلَ الْفَلَكَ الثَّامِنُ هُوَ الْكُرْسِيُّ، وَالْفَلَكَ التَّاسِعُ هُوَ الْعَرْشُ، وَقِيلَ
غَيْرَ ذَلِكَ.

٢٠ وَهَذَا الْفَلَكَ التَّاسِعُ دَائِمُ الدَّوْرَانِ كَالدُّوْلَابِ، وَيَدُورُ فِي كُلِّ أَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ سَاعَةً مُسْتَوِيَةً
دَوْرَةً وَاحِدَةً. وَدَوْرَانُهُ يَكُونُ أَبَدًا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ. وَيَدُورُ بِدَوْرَانِهِ جَمِيعُ الْأَفْلَاقِ الثَّمَانِيَةِ،
وَمَا حَوْتَهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ، دَوْرَانًا حَرَكَتَهُ قَسْرِيَّةً لِإِدَارَةِ التَّاسِعِ لَهَا. وَعَنْ حَرَكَةِ التَّاسِعِ الْمَذْكُورِ
يَكُونُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَالنَّهَارُ مُدَّةُ بَقَاءِ الشَّمْسِ فَوْقَ أَفْقِ الْأَرْضِ، وَاللَّيْلُ مُدَّةُ غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ تَحْتَ
أَفْقِ الْأَرْضِ.

(a) بولاق: وهو هذا.

^١ ورد الاسم هكذا في سائر النسخ، وفضل Wiet قراءتها «ويل» وهو الاسم السرياني للمشتري.

وفلك الكواكب الثابتة مقسومٌ باثني عشر قسمًا كحجز البطيخة ، كل قسم منها يُقال له بُرج ، وهي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . وكل بُرج من هذه البروج الاثني عشر ينقسم ثلاثين قسمًا ، يُقال لكل قسم منها درجة ؛ وكل درجة من هذه الثلاثين مقسومة ستين قسمًا ، يُقال لكل قسم منها دقيقة ؛ وكل دقيقة من هذه الستين مقسومة ستين قسمًا ، يُقال لكل قسم منها ثانية ، وهكذا إلى الثوالت والرابع والخوامس إلى الثواني عشر وما فوقها من الأجزاء .

وكل ثلاثة بُروج تُسمى فضلًا ، فالزمان على ذلك أربعة فصول ، وهي : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء .

وجِهات الأقطار أربعة : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب .

والأركان أربعة : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

والطبائع أربعة : الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة .

والأخلاق أربعة : الصفراء ، والسوداء ، والبغمة ، والدم .

والرياح أربعة : الصبا ، والذبور ، والشمال ، والجنوب .

فالبروج : منها ثلاثة ربيعية ، صاعدة في الشمال ، زائدة النهار على الليل ، وهي الحمل والثور

والجوزاء . وثلاثة صيفية ، هابطة في الشمال ، آخذة الليل من النهار ، وهي السرطان والأسد /

والسنبلة . وثلاثة خريفية ، هابطة في الجنوب زائدة الليل على النهار ، وهي الميزان والعقرب

والقوس . وثلاثة شتوية ، صاعدة في الجنوب آخذة النهار من الليل ، وهي الجدي والدلو

والحوت .

والفلك المحيط - كما تقدم - دائم الدوران كالدولاب ، يدور أبدًا من المشرق إلى المغرب

فوق الأرض ، ومن المغرب إلى المشرق تحتها . فيكون دائمًا نصف الفلك - وهو ستة بُروج بمائة

وثمانين درجة - فوق الأرض ، ونصفه الآخر - وهو ستة بُروج بمائة وثمانين درجة - تحت

الأرض .

وكلما طلعت من أفق المشرق درجة من درجات الفلك التي عدتها ثلاث مائة وستون درجة ،

غرب نظيرها في أفق المغرب من البروج السابع ، فلا يزال دائمًا ستة بُروج طلوعها بالنهار ، وستة

بُروج طلوعها بالليل .

والأفقُّ عبارة عن الحدِّ الفاصِل من الأرض بين المرئي والخبّي من السماء .
والفلكُ يدور على قُطْبَيْنِ : شمالي وجنوبي ، كما يدور الحُقُّ على قُطْبَيْ المَخْرُوطَةِ ، ويُقسَّم
الفلكُ خطًّا من دائرة تُقسِّمه نصفين مُتساويين ، بُعْدها من كلا القُطْبَيْنِ سَوَاء ، وتُسَمَّى هذه
الدائرة دائرة مُعَدَّلِ النَّهَارِ ، فهي تُقاطعُ فلكَ البُرُوجِ . ودائرة فلكَ البُرُوجِ تُقاطعُ دائرة مُعَدَّلِ
النَّهَارِ . ويميل نصفُها إلى الجانبِ الشمالي بقَدْرٍ أربعٍ وعشرين دَرَجَةً تقريبًا ، وفي هذا النصف^(a)
قُسِّمَتِ البُرُوجُ الستة الشماليَّة ، وهي من أوَّلِ الحَمَلِ إلى آخرِ السُّنْبُلَةِ . ويميل نصفُها الثاني عنها
إلى الجنوبِ بمثل ذلك ، وفيه قُسِّمَتِ البُرُوجُ الستة الجنوبيَّة ، وهي من أوَّلِ بُرْجِ المِيزانِ إلى آخرِ بُرْجِ
الحُوتِ .

ومَوْضِعُ تقاطعِ هاتين الدائرتين - أعني دائرة مُعَدَّلِ النَّهَارِ ودائرة فلكَ البُرُوجِ - من الجانبين ،
هما نُقْطَتَا الاعتدالين ، أعني رأسَ الحَمَلِ ورأسَ المِيزانِ .

ومدارُ الشَّمْسِ والقَمَرِ وسائر النُّجُومِ على مُحَاذَاةِ دائرة فلكَ البُرُوجِ دونِ دائرة مُعَدَّلِ النَّهَارِ ؛
وتَمُرُّ الشَّمْسُ على دائرة مُعَدَّلِ النَّهَارِ عندِ حُلُولِهَا بِنُقْطَتَيْ الاعتدالين فقط ، لأنها مَوْضِعُ تقاطعِ
الدائرتين ، وهذا هو خطُّ الاستواء الذي لا يختلف فيه الزَّمَانُ بزيادة اللَّيْلِ على النَّهَارِ ، ولا النَّهَارُ
على اللَّيْلِ ، لأنَّ مِثْلَ الشَّمْسِ عنه إلى كلا الجانبين ، الشمالي والجنوبي ، سَوَاء .

فالشَّمْسُ تَدُورُ الفلكَ ، وتَقْطَعُ الاثني عشر بُرْجًا ، في مُدَّةِ ثلاثِ مائةٍ وخمسة وستين يومًا
ورُبْعِ يومٍ بالتقريب ، وهذه هي مُدَّةُ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ ، وتُقِيمُ في كُلِّ بُرْجٍ ثلاثين يومًا وكَثْرًا من
يومٍ ، وتكونُ أبدًا بالنَّهَارِ ظاهرةً فوقِ الأرضِ وباللَّيْلِ بخلاف ذلك .

وإذا حَلَّتْ في البُرُوجِ الستة الشماليَّة - التي هي الحَمَلُ والثَّورُ والجُوزَاءُ والسرطانُ والأسدُ
والسُّنْبُلَةُ - فإنَّها تكونُ مُرْتَفِعَةً في الهَوَاءِ ، قريبةً من سَمْتِ زُؤوسِنَا ، وذلك زَمَنُ فَصْلِ الرَّبِيعِ
وفَصْلِ الصَّيْفِ .

وإذا حَلَّتْ في البُرُوجِ الجنوبيَّة - وهي المِيزانُ والعقربُ والقوسُ والجذِّي والذُّلُو والحُوتُ - كان
فَصْلُ الخَرِيفِ وفَصْلُ الشِّتَاءِ ، وانْحَطَّتِ الشَّمْسُ وَبُعِدَتْ عن سَمْتِ الرُّؤُوسِ .

وزَعَمَ وَهْبُ بنِ مُنَبِّهٍ أنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ تعالى من الأَزْمِنَةِ الأربعة الشِّتَاءِ ، فَجَعَلَهُ بارِدًا
رَطْبًا ، وَخَلَقَ الرَّبِيعَ فَجَعَلَهُ حَارًّا رَطْبًا ، وَخَلَقَ الصَّيْفَ حَارًّا يَابِسًا ، وَخَلَقَ الخَرِيفَ بارِدًا
يَابِسًا .

(a) بولاق: وهذا النصف فيه.

وأولُ الفصول ، عند أهل زماننا ، الربيع ؛ ويكون فصلُ الربيع عندما تنتقل الشمسُ من بُرج الحوت .

وقد اختلف القدماءُ في البداية من الفصول : فمنهم من اختار فصل الربيع وصيّره أول السنة ، ومنهم من اختار تقديم الانقلاب الصيفي ، ومنهم من اختار تقديم الاعتدال الخريفي ، ومنهم من اختار تقديم الانقلاب الشتوي .

فإذا حلت أول جزء من بُرج الحمل ، استوى الليل والنهار ، واعتدل الزمان ، وانصرفت^(a) الشتاء ، وحل^(b) الربيع ، وطاب الهواء ، وهب النسيم ، وذاب الثلج ، وسالت الأودية ، ومدت الأنهار - فيما عدا مصر - وتبت العشب ، وطال الزرع ، ونما الحشيش ، وتلاأ الزهر ، وأورق الشجر ، وتفتح النور ، واخضر وجه الأرض ، ونتجت البهائم ، ودرت الصروع ، وأخرجت الأرض زخرفها وازينت ، وصارت كصبيّة شابة قد تزينت للناظرين^(c) .

ولله درّ القائل ، وهو الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليعموري^(c) ، رحمه الله تعالى :

[الكامل]
 واستنشقوا لهُوا الربيع فإنه
 نعم الصديق^(d) وعنده الطاف
 يُغذي الجسوم نسيمه فكأنه^(e)
 روح خواها جوهر شفاف

وقال ابن قتيبة⁽³⁾ : ومن ذلك الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذي يتبع الشتاء ، ويأتي فيه

(a) بولاق: انصرف. (b) بولاق: ودخل. (c) بولاق: اليعموري. (d-d) بولاق: النسيم. (e) بولاق: وكأنه.

¹ عن ذكر الفصول وأزمنتها وطبائعها راجع، القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٤٠٣-٤١٦.

² الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليعموري الدمشقي المتوفى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، عرف باليعموري لمصاحبته للأمير شهاب الدين بن يعفور وملازمته له (ابن شاعر: فوات الوفيات ٤: ٣٣٨-٣٣٩؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٢٤٧).

³ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أحد أئمة الأدب والمصنفين الأكثرين توفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ/

٨٨٩م. اعتمد المقرئ علي كتابين من مصنفاته: «أدب الكاتب» و«غريب الحديث». (راجع، ابن النديم: الفهرست ٨٥-٨٦؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠: ١٧٠-١٧١؛ القفطي: إنباه الرواه ٢: ١٤٣-١٤٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٤٢-٤٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣: ٢٩٦-٣٠٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٧: ٦٠٧-٦٠٩؛ Le comte, G; *Ibn Qutayba (mort en 276/609)*, l'homme, son œuvre, ses idées, Damas IFD 889), (1965; id., *El² art. Ibn Qutayba III*, pp. 868-71).

النُّورُ والوَرْدُ^(a)، ولا يَعْرِفُونَ الرَّبِيعَ غَيْرَهُ . والعَرَبُ تَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ : فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ الرَّبِيعَ الْفَضْلَ الَّذِي تُدْرِكُ فِيهِ الثُّمَارُ - وهو الخَرِيفُ - وَفَضْلَ الشُّتَاءِ بَعْدَهُ ؛ ثُمَّ فَضْلَ الصَّيْفِ بَعْدَ الشُّتَاءِ - وهو الْوَقْتُ الَّذِي تَدْعُوهُ الْعَامَّةُ الرَّبِيعَ - ثُمَّ فَضْلَ الْقَيْظِ [بَعْدَهُ]^(b)، وهو [الوقت]^(b) الَّذِي تَدْعُوهُ الْعَامَّةُ الصَّيْفَ ؛ وَمَنْ الْعَرَبِ مَنْ يُسَمِّي الْفَضْلَ الَّذِي تُدْرِكُ فِيهِ الثُّمَارُ - وهو الخَرِيفُ - الرَّبِيعَ الْأَوَّلَ، وَيُسَمِّي الْفَضْلَ الَّذِي يَتْلُوهُ الشُّتَاءَ، وَيَأْتِي فِيهِ الْكَمَاءُ^(c) والنُّورُ، الرَّبِيعَ الثَّانِي، وَكُلَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ^(d) عَلَى أَنَّ الْخَرِيفَ هُوَ الرَّبِيعُ^(e) .

فَإِذَا حَلَّتِ الشَّمْسُ آخِرَ بُرْجِ الْجُوزَاءِ وَأَوَّلَ بُرْجِ السَّرَطَانِ، تَنَاهَى طَوْلُ النَّهَارِ وَقَصُرَ اللَّيْلُ، وَابْتَدَأَ نَقْصُ النَّهَارِ وَزِيَادَةُ اللَّيْلِ، وَانصَرَمَ فَضْلُ الرَّبِيعِ، وَدَخَلَ فَضْلُ الصَّيْفِ، فَاشْتَدَّ الْحَرُّ، وَحَمِيَ الْهَوَاءُ، وَهَبَّتِ السَّمَائِمُ، وَنَقَصَتِ الْمِيَاهُ إِلَّا بِمَصْرَ، وَيَسَّ الْعُشْبُ، وَاسْتَحْكَمَ الْحَبُّ، وَأَدْرَكَ حَصَادُ الْغِيَالِ، وَنَضِجَتِ الثُّمَارُ، وَسَمِنَتِ الْبَهَائِمُ، وَاسْتَدَّتْ قُوَّةُ الْأَبْدَانِ، وَدَرَّتْ أَخْلَافُ النَّعَمِ، وَصَارَتِ الْأَرْضُ كَأَنَّهَا عَرُوسٌ .

فَإِذَا بَلَغَتْ آخِرَ بُرْجِ السُّنْبُلَةِ وَأَوَّلَ بُرْجِ الْمِيزَانِ، تَسَاوَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَأَخَذَ اللَّيْلُ فِي الزِّيَادَةِ وَالنَّهَارُ فِي النُّقْصَانِ، وَانصَرَمَ فَضْلُ الصَّيْفِ وَدَخَلَ فَضْلَ الْخَرِيفِ، فَبَرَدَ الْهَوَاءُ، وَهَبَّتِ الرِّيَّاحُ، وَتَغَيَّرَ الزَّمَانُ، وَجَفَّتِ الْأَنْهَارُ، وَغَارَتِ الْعَيُونُ، وَاصْفَرَّ وَرَقُ الشُّجَرِ، وَصَرَمَتِ الثُّمَارُ، وَدَرَسَتِ الْبِيَادِرُ، وَاخْتَزَنَ الْحَبُّ، وَفَنِيَ^(f) الْعُشْبُ، وَاعْتَبَرَهُ وَجْهُ الْأَرْضِ إِلَّا بِمَصْرَ، وَهَزَلَتِ الْبَهَائِمُ، وَمَاتَتِ الْهَوَامُّ، وَانْحَجَرَتِ الْحَشْرَاتُ، وَانصَرَفَ الطَّيْرُ وَالْوَحْشُ يُرِيدُ الْبِلَادَ الدَّافِئَةَ، وَأَخَذَ النَّاسُ يَخْزِنُونَ الْقُوتَ لِلشُّتَاءِ، وَصَارَتِ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا امْرَأَةٌ كَهْلَةٌ قَدْ أَدْبَرَتْ وَأَخَذَتْ شَبَابَهَا يُولِي .

وَاللهُ دَرُّ الْقَاتِلِ - وهو الإمامُ عِزُّ الدِّينِ أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مَعْقِلِ الْأَزْدِيِّ الْمُهَلَّبِيِّ

الْحِمَاصِيِّ^٢ - حَيْثُ يَقُولُ :

(a) عند ابن قتيبة: الورد والكمأة والنور. (b) زيادة من ابن قتيبة. (c) بولاق: الكمام. (d) بولاق: مجتمعون.

(e) بولاق: الربيع هو الخريف. (f) بولاق: اقتنى.

^١ ابن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين

توفي سنة ٦٤٤هـ (الذهبي: العبر في خبر من عبر ٥: عبد الحميد، القاهرة ١٣٥٥هـ، ٢٨؛ القلقشندي: صبح

١٨٢-١٨٣، سير أعلام النبلاء ٢٣: ٢٢٢-٢٢٣؛ الأعشى ٤١٥:٢ .

الصفدي: الوافي بالوفيات ٧: ٢٣٩-٢٤٠).

[البيسط]

بَرَدَ الْهَوَاءَ لَقَدْ أَبْدَى لَنَا عَجَبًا
وَالْأَرْضُ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُهْدِيَ الذَّهَبَا

لِلَّهِ فَضْلُ الْخَرِيفِ الْمُسْتَلَدِّ بِهِ
أَهْدَى إِلَى الْأَرْضِ مِنْ أَوْرَاقِهِ ذَهَبَا

وقال أيضًا :

[المنسرح]

رَقَّتْ حَوَاشِيهِ فَهُوَ رَائِقٌ
وَالدَّمْعُ يَبْدُو بِوَجْهِ عَاشِقٍ
يَلْدَهُ ذَائِقٌ وَرَائِقٌ

لِلَّهِ فَضْلُ الْخَرِيفِ فَضْلًا
فَالْمَاءُ يَجْرِي مِنْ قَلْبِ سَالٍ
فَبَرَدَ هَذَا وَلَوْ أَنَّ هَذَا

وقال أيضًا :

[الوافر]

وَحُسْنٍ مُعْجِبٍ قَلْبًا وَعَيْنَا
وَصَافِي الْمَاءِ مُبَيِّضًا لِحِينَا
وَأَنْعَمَ كُلُّ إِنْعَامٍ عَلَيْنَا

أَتَى فَضْلُ الْخَرِيفِ بِكُلِّ طَيْبٍ
أَرَانَا الدَّوْحَ مُضْفَرًا نُضَارًا
فَأَحْسَنَ كُلَّ إِحْسَانٍ إِلَيْنَا

وقال آخر يذم الخريف :

[الكامل]

مُسْتَوْبِلٌ وَنَسِيمُهُ خَطَّافٌ
كَصَدِيقِهَا، وَمَنْ الصَّدِيقُ يُخَافُ

تُخَذُ فِي التَّدَثُّرِ فِي الْخَرِيفِ فَإِنَّهُ
يَجْرِي مَعَ الْأَجْسَامِ جَزْوِي حَيَاتِهَا

وقال آخر :

[الكامل]

عَنْ فَضْلِهِ فِي ذَمِّهِ لَزَمَانِهِ
أَبَدًا يُعْرِي الْغُضْنَ مِنْ قُعْصَانِهِ
فَاعْتَجَبَ لِرَأْفَتِهِ وَقَرِظَ حَنَانِهِ
وَقَتَّ الرَّحِيلَ وَحَانَ حِينَ أَوَانِهِ

يَا عَائِبًا فَضْلَ الْخَرِيفِ وَغَائِبًا
لَا شَيْءَ أَلْطَفُ مِنْهُ عِنْدِي مَوْقِعًا
وَتَرَاهُ يَفْرَشُ تَحْتَهُ أَثْوَابَهُ
وَأَلْدَّ سَاعَاتِ الْوِصَالِ إِذَا دَنَا

فَإِذَا حَلَّتِ الشَّمْسُ آخِرَ بُرْجِ الْقَوْسِ وَأَوَّلَ بُرْجِ الْجَدْيِ، تَنَاهَى طَوْلُ اللَّيْلِ وَقَصُرَ النَّهَارُ، وَأَخَذَ
النَّهَارُ فِي الزِّيَادَةِ وَاللَّيْلُ فِي النَّقْصَانِ، وَأَنْصَرَمَ فَضْلُ الْخَرِيفِ وَحَلَّ فَضْلُ الشِّتَاءِ، وَاشْتَدَّ الْبُرْدُ
وَخَسُنَ الْهَوَاءُ، وَتَسَاقَطَ وَرَقُ الشَّجَرِ وَمَاتَ أَكْثَرُ النَّبَاتِ، وَغَارَتِ الْحَيَوَانَاتُ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ،
وَضَعُفَ قُوَى الْأَبْدَانِ، وَعُرِّيَ وَجْهُ الْأَرْضِ مِنَ الزُّيْنَةِ، وَنَشَأَتِ الْغُيُومُ وَكَثُرَتِ الْأَنْدَاءُ، وَأَظْلَمَ
الْجَوُّ، وَكَلَّخَ وَجْهُ الْأَرْضِ إِلَّا بِمِصْرَ، وَامْتَنَعَ النَّاسُ مِنَ التَّصَرُّفِ، وَصَارَتِ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا عَجُوزٌ
هَرِمَةٌ قَدْ دَنَا مِنْهَا الْمَوْتُ.

فَإِذَا بَلَغَتْ آخِرَ بُرُوجِ الْحُوتِ وَأَوَّلَ بُرُوجِ الْحَمَلِ ، عَادَ الزَّمَانُ كَمَا كَانَ عَامَ أَوَّلِ هَذَا دَأْبِهِ ؛ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَتَدْبِيرُ الْخَبِيرِ الْحَكِيمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وَقَدْ شَبَّهَ بَطْلَمَيْوسَ فَضَلَ الرَّبِيعَ بِزَمَانِ الطُّفُولِيَّةِ ، وَفَضَلَ الصَّيْفَ بِالشَّبَابِ ، وَالْخَرِيفَ بِالْكُهُولَةِ ، وَالشِّتَاءَ بِالشَّيْخُوخَةِ .

٥. وَعَنْ حَرَكَةِ الشَّمْسِ ، وَتَنَقُّلِهَا فِي الْبُرُوجِ الْإِثْنِي عَشَرَ الْمَذْكُورَةِ ، تَكُونُ أَرْزَامَانُ السَّنَةِ وَأَوْقَاتُ الْيَوْمِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَسَاعَاتُهُمَا .

وَعَنْ حَرَكَةِ الْقَمَرِ فِي الْبُرُوجِ الْإِثْنِي عَشَرَ تَكُونُ الشُّهُورُ الْقَمَرِيَّةُ وَالسَّنَةُ الْقَمَرِيَّةُ .

فَالْقَمَرُ يَدُورُ الْبُرُوجَ الْإِثْنِي عَشَرَ ، وَيَقْطَعُ الْفَلَكَ كُلَّهُ ، فِي مُدَّةٍ ثَمَانِيَّةٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا وَبَعْضُ

يَوْمٍ ، وَيُقِيمُ فِي كُلِّ بُرُوجٍ يَوْمَيْنِ وَثَلَاثَ يَوْمٍ بِالتَّقْرِيبِ ، وَيُقِيمُ فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ مِنْ مَنَازِلِ الْقَمَرِ الثَّمَانِيَّةِ

١٠. وَالْعِشْرِينَ مَنْزِلَةً يَوْمًا وَلَيْلَةً ، فَيُظْهِرُ عِنْدَ إِهْلَالِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ بَعْدَ غُرُوبِ جُزْمِ الشَّمْسِ ، وَيَزِيدُ

نُورَهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قَدْرَ نِصْفِ شُبْعٍ حَتَّى يَكْمُلَ نُورُهُ ، وَيَمْتَلِئُ فِي لَيْلَةِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ إِهْلَالِهِ ، ثُمَّ

يَأْخُذُ مِنَ اللَّيْلِ الْخَامِسَةِ عَشَرَ / فِي التَّنْقِصَانِ ، فَيَنْقُصُ مِنْ نُورِهِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ نِصْفَ شُبْعٍ كَمَا بَدَأَ ،

إِلَى أَنْ يُنْتَقِ نُورُهُ فِي آخِرِ ثَمَانِيَّةٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ إِهْلَالِهِ .

وَيَمُرُّ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ - مِنْذُ يُفَارِقُ الشَّمْسَ ، وَيَتَدَوُّ فِي نَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ ، وَإِلَى (a) أَنْ يُجَامِعَهَا -

١٥. بِشَمَانٍ (b) وَعِشْرِينَ مَنْزِلَةً ، وَهِيَ : السَّرَطَانُ وَالْبَطِينُ وَالْثُرَيَّا وَالذُّبْرَانُ وَالْهَقَّةُ وَالْهَنْعَةُ وَالذُّرَاعُ وَالنُّزْرَةُ

وَالطَّرْفُ وَالْجَبْهَةُ وَالزُّبْرَةُ وَالصَّرْفَةُ وَالْعَوَاءُ وَالسَّمَاكُ وَالْعَقْرُ وَالزُّبَانَا وَالْإِكْلِيلُ وَالْقَلْبُ وَالشُّوْلَةُ

وَالنَّعَائِمُ وَالْبَلْدَةُ وَسَعْدُ الدَّابِحِ وَسَعْدُ بُلْعٍ وَسَعْدُ السُّعُودِ وَسَعْدُ الْأَنْحَبِيَّةِ وَالْفَرْعُ الْمُقَدَّمُ وَالْفَرْعُ الْمُوَخَّرُ

وَبَطْنُ الْحُوتِ .

وَلِحِسَابِ ذَلِكَ كُتِبَ مَوْضُوعَةٌ ، وَفِيمَا ذُكِرَ كِفَايَةٌ ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الآية ١٩

٢٠. سُورَةُ النُّورِ .

ذِكْرُ صُورَةِ الْأَرْضِ وَمَوْضِعِ الْأَقَالِيمِ مِنْهَا

ولما تقدّم من القول في الأفلاك ما يتبيّن به ، لمن ألهمه الله تعالى ، كيف تكون الحركة التي بها الليل والنهار وتركب الشهور والأعوام منهما ، جاز حينئذ الكلام على الأرض ، فأقول : الجهات من حيث هي ست : الشرق ، وهو حيث تطلع الشمس والقمر وسائر الكواكب في كل قطر من الأفق . والغرب ، وهو حيث تغرب . والشمال ، وهو حيث مدار الجدي والفرقدنين . والجنوب ، وهو حيث مدار شهيل . والفوق ، وهو مما يلي السماء . والتحت ، وهو مما يلي مركز الأرض . ذهب الجمهور إلى أن الأرض كالكرة ، موضوعة في جوف الفلك كالمخ في البيضة ، وأنها في الوسط ، وبُعْدُهَا فِي الْفَلَكِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ^١ عَلَى التَّسَاوِي .

وزعم هشام بن الحكم^١ أن تحت الأرض جسماً من شأنه الارتفاع ، وهو المانع للأرض من الانحدار ، وهو ليس محتاجاً إلى ما بعده ، لأنه ليس يطلب الانحدار بل الارتفاع . وقال آخر^٢ :
إِنَّ اللَّهَ وَقَفَّهَا بِلا عِمَاد .

وقال ديمقراطيس : إنها تقوم على الماء ، وقد حصر الماء تحتها حتى لا يجد مخرجاً فيضطّر إلى الانتقال^٢ .

وقال آخر : هي واقفة على الوسط على مقدار واحد من كل جانب ، والفلك يجذبها من كل وجه ، فلذلك لا تميل إلى ناحية من الفلك دون أخرى^٣ ، لأن قوة الأجزاء متكافئة ، وذلك كحجر المغناطيس في جذب الحديد ، فإن الفلك بالطبع مغناطيس الأرض ، فهو يجذبها فهي واقفة في الوسط ، وسبب وقوفها في الوسط سرعة تدوير الفلك ودفعه إليها من كل جهة إلى

(a) بولاق : الجهات . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : ناحية .

^١ أبو محمد هشام بن الحكم الكوفي شيخ الإمامية في وقته ، وكان منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وكان ينزل بالكرخ في الجانب الغربي من بغداد ، توفي بعد نكبة البرامكة بفترة قصيرة وهو مستر . (ابن النديم : الفهرست ٢٢٣ -

٢٢٤ ؛ المسعودي : مروج الذهب ٤ : ٢٣٨) ، وانظر فيما يلي ٢٤٨ : ٢ ، ٣٥٣ .

^٢ انظر ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٦ .

الْوَسْطِ ، كَمَا إِذَا وَضَعْتَ تُرَابًا فِي قَارورَةٍ وَأَدْرَجْتَ بِقُوَّةٍ فَإِنَّ التُّرَابَ يَقُومُ فِي الْوَسْطِ ^١ .

وقال محمد بن موسى الخوارزمي ^٢ : الْأَرْضُ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ ، وَالْوَسْطُ هُوَ الشَّفَلُ بِالْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ مَدْوَرَةٌ مُضْرَبَةٌ مِنْ جِهَةِ الْجِبَالِ الْبَارِزَةِ وَالوِهَادِ الْغَائِرَةِ ، وَذَلِكَ لَا يُخْرِجُهَا عَنِ الْكُرِّيَّةِ إِذَا عَتَبْتِ بِجُمْلَتِهَا ، لِأَنَّ مَقَادِيرَ الْجِبَالِ - وَإِنْ شَمَخَتْ - يَسِيرَةٌ بِالْقِيَاسِ إِلَى كُرَّةٍ ^(a) الْأَرْضِ ، فَإِنَّ الْكُرَّةَ الَّتِي قَطَرُهَا ذِرَاعٌ أَوْ ذِرَاعَانِ مِثْلًا إِذَا نَتَأَ مِنْهَا شَيْءٌ أَوْ غَارَ فِيهَا لَا يُخْرِجُهَا عَنِ الْكُرِّيَّةِ ، وَلَا هَذِهِ التُّضَارِيسُ لِإِحَاطَةِ الْمَاءِ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا ^(b) وَغَمْرُهَا بِحَيْثُ لَا يَظْهَرُ مِنْهَا شَيْءٌ ، فَحَيْثُذِ تَبْطُلُ الْحِكْمَةُ الْمَوْدَعَةُ فِي الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ ^٣ ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَسْرَارَ حُكْمِهِ إِلَّا هُوَ .

وَالْأَرْضُ جِسْمٌ مُسْتَدِيرٌ كَالْكُرَّةِ ، وَقِيلَ لَيْسَتْ بِكُرِّيَّةِ الشَّكْلِ ، وَهِيَ وَاقِفَةٌ فِي الْهَوَاءِ بِجَمِيعِ جِبَالِهَا وَبِحَارِهَا وَعَامِرِهَا وَغَامِرِهَا ، وَالْهَوَاءُ مُحِيطٌ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا كَالْمُخِّ فِي جَوْفِ الْبَيْضَةِ . وَبُعْدُهَا مِنَ السَّمَاءِ مُتَسَاوٍ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ . وَأَسْفَلُ الْأَرْضِ مَا تَحْقِيقُهُ هُوَ عُمُقُ بَاطِنِهَا مِمَّا يَلِي مَرْكَزَهَا مِنْ أَيِّ جَانِبٍ كَانَ .

وَأَمَّا سَطْحُهَا الظَّاهِرُ ، الْمُتَمَسُّ لِلْهَوَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، فَإِنَّهُ فَوْقَ ، وَالْهَوَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ يُحِيطُ بِهَا وَيَجْذِبُهَا مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ . وَفَوْقَ الْهَوَاءِ الْأَفْلَاقُ الْمَذْكُورَةُ فِيمَا تَقَدَّمَ ، وَاحِدًا فَوْقَ آخَرَ ، إِلَى الْفَلَكَ التَّاسِعِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى الْأَفْلَاقِ وَنَهَايَةِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْرِهَا .

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ : فَقِيلَ خَلَاءٌ ، وَقِيلَ مَلَاءٌ ، وَقِيلَ لَا خَلَاءٌ وَلَا مَلَاءٌ .

(a) فِي مَعْجَمِ الْبِلْدَانِ : كُلٌّ . (b) فِي مَعْجَمِ الْبِلْدَانِ : وَلَوْلَا هَذَا التُّضْرِيسُ لِإِحَاطَةِ بِهَا الْمَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ .

^١ قَارَنَ يَاقُوتُ : مَعْجَمُ الْبِلْدَانِ ١٦:١ - ١٧ .
^٢ فِي جَمِيعِ النُّسخِ : مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْخَوَارِزْمِيَّ وَهُوَ سَبَقَ قَلَمُ مِنَ الْمُقْرِيزِيِّ تَابِعٌ فِيهِ يَاقُوتُ مَصْدَرُهُ فِي هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ ، فَالْمَقْصُودُ هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (جَعْفَرُ) مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الْخَوَارِزْمِيِّ صَاحِبُ كِتَابِ «الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ» ، كَانَ يَنْتَسِبُ إِلَى الْفَلَائِكِيِّينَ الَّذِينَ عَمَلُوا فِي بَيْتِ الْحِكْمَةِ فِي بَغْدَادَ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ الْعَبَّاسِيِّ وَتَوَفَّى بَعْدَ سَنَةِ ٢٣٢هـ / ٨٤٧م . وَالْكِتَابُ الَّذِي يَقْصِدُهُ الْمُقْرِيزِيُّ هُنَا هُوَ كِتَابُهُ الْمَعْرُوفُ بِصُورَةِ الْأَرْضِ الَّذِي اسْتَخْرَجَهُ مِنْ كِتَابِ جُغْرَافِيَا الَّذِي أَلْفَهُ بَطْلَمِيُوسُ الْقَلُوذِيُّ وَالَّذِي تَوَجَدَ مِنْهُ نَسْخَةٌ وَحِيدَةٌ كَتَبَتْ فِي

رَمَضَانَ سَنَةِ ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م مَوْجُودَةٌ الْآنَ فِي مَكْتَبَةِ سْتِرَاسْبُورْجِ Strasburg بفرنسا ، نَشَرَهَا هَانْسُ فُونْ مَزِيكُ Mzik فِي فِينَا سَنَةِ ١٩٢٦ ، وَهُوَ عَلَى هَيْئَةِ زَيْجٍ ، أَيُّ جَدَاوِلِ فَلَائِكِيَّةٍ (رَاجِعْ ، Nallino, C., «al, Khuwarismi et son remaniement de la Géographie de Ptolémée», BSKG IV série n° 8 (1896), pp. 525-43 كِرَاتَشْكَوْفْسْكِ : تَارِيخُ الْأَدْبِ الْجُغْرَافِيِّ الْعَرَبِيِّ ١٠٦-١١٣ ؛ فُؤَادُ سَزْكِينَ : مَسَاهِمَةُ الْجُغْرَافِيِّينَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي صَنْعِ خَرِيْطَةِ الْعَالَمِ ، فِرَانْكَفُورْتِ ١٩٨٧ ، ٢١-٢٢ . أَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْخَوَارِزْمِيَّ فَهُوَ مُؤَلِّفُ كِتَابِ «مِفْتَاحِ الْعُلُومِ» . انظُرْ فِيمَا يَلِي ٢٥٨:١ .

^٣ يَاقُوتُ : مَعْجَمُ الْبِلْدَانِ ١٧:١ .

وكل موضع يقف فيه الإنسان من سطح الأرض ، فإن رأسه أبداً يكون ممّا يلي السماء إلى فوق ، ورجلاه أبداً تكون أسفل ممّا يلي مركز الأرض ، وهو دائماً يرى من السماء نصفها ، ويشتر عنه النصف الآخر خدبة الأرض . وكلما انتقل من موضع إلى آخر ، ظهر له من السماء بقدر ما خفي عنه .

والأرض غامرة بالماء كعينة طافية فوق الماء قد انحسر عنها نحو النصف وانعمر النصف الآخر في الأرض ، وصار المتكشّف من الأرض نصفين ، كما قسم بخطّ مسامت لخطّ معدّل النهار يمرّ تحت دائرته .

وجميع البلاد التي على هذا الخطّ لا عرض لها ألبتة ، والقُطبان غير مرتّبين فيها ، ويكونان هناك على دائرة الأفق من الجانبين . وكلّما بعد موضع بلدٍ عن هذا الخطّ إلى ناحية الشمال قدر درجة^١ ، ارتفع القطب الشمالي الذي هو الجدي على أهل ذلك البلد درجة ، وانخفض القطب الجنوبي الذي هو سهيل درجة ، وهكذا ما زاد .

ويكون الأمر فيما بعد ، من البلاد الواقعة في ناحية الجنوب كذلك ، من ارتفاع القطب الجنوبي وانحطاط القطب الشمالي . وبهذا عرف عرض^٢ البلدان ، وصار عرض البلد عبارة عن ميل دائرة معدّل النهار عن سمت رؤوس أهله وارتفاع القطب عليهم ، وهو أيضاً بعد ما بين سمت رؤوس أهل ذلك البلد وسمت رؤوس أهل بلدٍ لا عرض له .

فأمّا ما انكشف من الأرض ، ممّا يلي الجنوب من خطّ الاستواء ، فإنه خراب . والنصف الآخر ، الذي يلي الشمال من خطّ الاستواء ، فهو الربع العامر ، وهو المسكون من الأرض .

ونخطّ الاستواء لا وجود له في الخارج ، وإنما هو فرض توهمنا أنه خط ، ابتداءً من المشرق إلى المغرب تحت مدار رأس الحمل ، وسمي بذلك من أجل أن النهار والليل هناك أبداً سواء ، لا يزيد أحدهما عن الآخر شيئاً ألبتة في سائر أوقات السنة كلها . ونقطتنا هذا الخطّ ملازمان للأفق : إحداهما على مدار سهيل في ناحية الجنوب ، والأخرى ممّا يلي الجدي في ناحية الشمال^٣ .

^١ الدرّجته . قدر ما تقطعه الشمس في يوم وليلة من الفلك ، وفي مساحة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً (ياقوت : معجم البلدان ٣٩:١) .
^٢ عرض البلد مقابل لطوله ، ومعناه عند المنجمين هو بُعد الأقصى عن خطّ الاستواء نحو الشمال (نفسه ٣٩:١) .
^٣ قارن مع ياقوت : معجم البلدان ١: ١٨ .

وَالْعِمَارَةُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ دَرَجَةً ، مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ نَخَطِ أَرِين^a إِلَى بَنَاتِ نَعَشِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعُونَ دَرَجَةً ، وَهُوَ مِقْدَارُ مَيْلِ الشَّمْسِ مَرَّتَيْنِ ، وَخَلْفَ نَخَطِ أَرِين^a وَهُوَ مِقْدَارُ سِتَّةِ عَشَرَ دَرَجَةً . وَجُمْلَةُ مَعْمُورِ الْأَرْضِ نَحْوَ مِنْ سَبْعِينَ دَرَجَةً ، لِاعْتِدَالِ مَسِيرِ الشَّمْسِ فِي هَذَا الْوَسَطِ ، وَمُرُورِهَا عَلَى مَا وَرَاءَ الْحَمَلِ وَالْمِيزَانِ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ . وَأَمَّا الشَّمَالُ وَالْجَنُوبُ فَالشَّمْسُ لَا تُحَادِيهِمَا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَلِأَنَّ أَوْجَ الشَّمْسِ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ ، كَانَتْ الْعِمَارَةُ فِيهِ ، لِارْتِفَاعِهَا وَإِنْتِفَاءِ ضَرَرِ قُرْبِهَا عَنْ سَاكِنِيهِ ، وَلِأَنَّ حَضِيضَهَا فِي الْجَنُوبِ عُدِمَتْ الْعِمَارَةُ هُنَالِكَ .

وقد اختلف الناسُ في مَسَافَةِ الْأَرْضِ ، فَقِيلَ مَسَافَتُهَا خَمْسَ مِائَةِ عَامٍ : ثَلَاثُ عُمُرَانِ ، وَثَلَاثُ خَرَابٍ ، وَثَلَاثُ بَحَارٍ .

وقيل المَعْمُورُ مِنَ الْأَرْضِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً : تِسْعُونَ لِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَاثْنَا عَشَرَ لِلشُّودَانَ ، وَثَمَانِيَةَ لِلرُّومِ ، وَثَلَاثَةَ لِلعَرَبِ ، وَسَبْعَةَ لِسَائِرِ الْأُمَمِ .

وقيل الدُّنْيَا سَبْعَةَ أَجْزَاءَ : سِتَّةَ لِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَوَاحِدَ لِسَائِرِ النَّاسِ .

وقيل الْأَرْضُ خَمْسَ مِائَةِ عَامٍ : الْبِحَارُ ثَلَاثَ مِائَةٍ ، وَمِائَةُ خَرَابٍ ، وَمِائَةُ عُمُرَانِ .

وقيل الْأَرْضُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ فَرْسَخٍ^١ : لِلشُّودَانَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا ، وَلِلرُّومِ ثَمَانِيَةَ أَلْفٍ ، وَلِلْفَارِسِ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ ، وَلِلعَرَبِ أَلْفًا^٢ .

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُثَنَّبَةَ : مَا الْعِمَارَةُ مِنَ الدُّنْيَا فِي الْخَرَابِ إِلَّا كَقُفْطَاطٍ فِي الصُّحْرَاءِ .

وَقَالَ أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابَكٍ^b : الْأَرْضُ أَرْبَعَةٌ أَجْزَاءَ : جُزْءٌ مِنْهَا لِلتُّرُكِ ، وَجُزْءٌ لِلعَرَبِ ، وَجُزْءٌ لِلْفُرْسِ ، وَجُزْءٌ لِلشُّودَانَ^٣ .

وقيل الْأَقَالِيمُ سَبْعَةٌ ، وَالْأَطْرَافُ أَرْبَعَةٌ ، وَالنَّوَاحِي خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ ، وَالْمَدَائِنُ عَشْرَةٌ أَلْفًا ، وَالرَّسَاتِيقُ^٤ مِائَتَا أَلْفٍ وَسِتَّةَ وَخَمْسُونَ أَلْفًا .

(a) بولاق : أريس . (b) بولاق : تابك .

^٢ ياقوت : معجم البلدان ١ : ٢٠ .

^٣ نفسه ١ : ١٨ .

^٤ الرساتيق جمع ، مفردة : الرشتاق ، وهو مشتق من روده فستا . =

^١ الفَرَسَخ . فارسي معرب وأصله فَرَسَنُك ، وهو ثلاثة أميال ، والميل ألفا خطوة وثلاث مائة وثلاث وثلاثون خطوة .

(ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣٥-٣٦) .

وقيل المَدُن والحُصُونُ أٌخَد وعشرون ألفًا وستُ مائة مَدِينَةٌ وَحِصْنٌ . ففي الإقليم الأوَّل ثلاثة آلاف ومائة مَدِينَةٌ كبيرة ، وفي الثاني ألفان وسبع مائة وثلاثة عشر مَدِينَةٌ وَقَرْيَةٌ كبيرة ، وفي الثالث ثلاثة آلاف وتسع وسبعون مَدِينَةٌ وَقَرْيَةٌ كبيرة ^(a) ، وفي الرابع - وهو بابل - ألفان وتسع مائة وأربع وسبعون مَدِينَةً ، وفي الخامس ثلاثة آلاف مَدِينَةٌ وستُ مُدُن ^(b) ، وفي السادس ثلاثة آلاف وأربع مائة وثمان مُدُن ، وفي السابع ثلاثة آلاف وثلاث مائة مَدِينَةٌ في الجزائر .

وقال ^(c) الخوارزمي : قَطْرُ الأَرْضِ سبعة ^(d) آلاف فَرَسَخ ، وهو نصف سُدُسِ الأَرْضِ والجبال والمفاوِز والبحار ، والباقي خرابٌ يَبَابُ لا نَبَاتُ فيه ولا حَيَوَانٌ ^(e) .

وقيل المَعْمُورُ من الأَرْضِ مثل طائرٍ : رَأْسُهُ الصِّينُ ، والجَنَاحُ الأيمنُ الهِنْدُ والسُّنْدُ ، والجَنَاحُ الأيسرُ الحَزْرُ ، وَصَدْرُهُ مَكَّةُ والعِراقُ والشَّامُ ومِصرُ ، وَذَنَبُهُ المَغْرِبُ ^(e) .

وقيل قَطْرُ الأَرْضِ سبعة آلاف وأربع مائة وأربعة عشر مِيلًا ، ودورها عشرون ألف ميل وأربع مائة ميل ، وذلك جَمِيعُ ما أَحاطَتْ به من بَرٍّ وبحرٍ .

وقال أبو زَيْدٍ أحمد بن سَهْلِ البَلْخِيِّ ⁽²⁾ : طُولُ الأَرْضِ ، من أَقْصَى المَشْرِقِ إلى أَقْصَى المَغْرِبِ ، نحو أربع مائة مَرْحَلَةٌ ؛ وَعَرْضُهَا من حيث العُمُرانُ الذي من جِهَةِ الشَّمَالِ ، وهو مَسَاكِينُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، إلى حيث العُمُرانُ الذي من جِهَةِ الجَنُوبِ ، وهو مَسَاكِينُ الشُّودانِ ، مائتان وعشرون مَرْحَلَةٌ . وما بين ^(f) بَراري يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ إلى البحرِ المُحِيطِ في الشَّمَالِ ، وما بين ^(f) بَراري الشُّودانِ

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : مدائن . (c) بولاق : قال . (d) ياقوت : تسعة . (e) بولاق : الغرب . (f)

في الأصل : مائتين .

وظيفة كاتب لأمير بلخ أحمد بن سهل (حوالي عام ٣٠٧هـ/٩٢٠م)، ارتبط اسمه بما يقرب من ستين مصنفًا لا نعرف منها إلا أسماءها . ووضع البلخي نحو سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م - أي وهو في شيخوخته حيث ولد سنة ٢٣٥هـ/٨٥٠م - مصنفًا في الجغرافيا ذكرته المصادر بأسماء مختلفة ، فهو مرة «صُور الأقاليم» وحيثًا «أشكال البلاد» وتارة «تقويم البلدان» ، مما يدل على أنه لم يكن معروفًا في صورته الأصلية حتى في العهد القريب من زمن المؤلف . وهو يمثل شيئًا أشبه بالأطلس =

= زُوْدَه اسم للسطر والصف والسماط ، وفستا اسم للحال ، ومعناه أنه على التسطير والنظام . ويعني الفرس بالرساق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، وهو عند الفرس بمنزلة الشواد عند أهل بغداد . (ياقوت : معجم البلدان ١: ٣٧-٣٨) .

^١ ياقوت : معجم البلدان ١: ١٨ .

^٢ أبو زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى نحو سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م ، عالم من أهل بلخ شغل لفترة من الزمن

والبحر المحيط في الجنوب ، خراب ليس فيه عِمَارَةٌ ، ويُقالُ إنَّ مَسَافَةَ ذلكَ خمسةَ آلافِ فَرَسَخٍ .
وهذه أقوالٌ لا دليل على صِدْقِهَا .

والطَّرِيقُ في مَعْرِفَةِ مِسَاحَةِ الْأَرْضِ ، أَنَا لو سِيرْنَا على نَحْطِ نِصْفِ النَّهَارِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ بِقَدْرِ مِثْلِ دَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَنِ سَمْتِ زُرُوسِنَا إِلَى الْجَنُوبِ دَرَجَةَ مِنْ دَرَجِ الْفَلَكَ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنْ ثَلَاثِ مِائَةٍ وَسِتِّينِ جِزْءًا ، وَارْتَفَعَ الْقُطْبُ عَلَيْنَا دَرَجَةَ نَظِيرَ تِلْكَ الدَّرَجَةِ ، فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّا قَدْ قَطَعْنَا مِنْ مُحِيطِ جَزَمِ الْأَرْضِ جِزْءًا مِنْ ثَلَاثِ مِائَةٍ وَسِتِّينِ جِزْءًا ، وَهُوَ نَظِيرُ ذَلِكَ الْجِزْءِ مِنَ الْفَلَكَ .
فَلَوْ قَسَمْنَا مِنْ ابْتِدَاءِ مَسِيرِنَا إِلَى انْتِهَاءِ مَكَانِنَا الَّذِي وَصَلْنَا إِلَيْهِ ، حَيْثُ ارْتَفَعَ الْقُطْبُ عَلَيْنَا دَرَجَةَ ، فَإِنَّا نَجِدُ حَقِيقَةَ الدَّرَجَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْفَلَكَ قَدْ قَطَعْتَ مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةَ وَخَمْسِينَ مِيلًا وَثُلُثِي مِيلٍ ، عَنْهَا خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرَسَخًا .

١٠ فَإِذَا ضَرَبْنَا حِصَّةَ الدَّرَجَةِ الْوَاحِدَةِ - وَهُوَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْأَمْيَالِ - فِي ثَلَاثِ مِائَةٍ وَسِتِّينِ ، نَخْرُجُ مِنَ الضَّرْبِ عِشْرُونَ أَلْفًا وَأَرْبَعِ مِائَةٍ مِيلٍ ، وَذَلِكَ مِسَاحَةُ دَوَّرِ الْأَرْضِ .

فَإِذَا قَسَمْنَا هَذِهِ الْأَمْيَالِ - الَّتِي هِيَ مِسَاحَةُ دَوَّرِ الْأَرْضِ / - عَلَى ثَلَاثَةِ وَسْبَعٍ ، نَخْرُجُ مِنَ الْقِسْمَةِ سِتَّةَ أَلْفِ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ مِيلًا ، وَهِيَ مِسَاحَةُ قُطْرِ الْأَرْضِ .

١٥ فَلَوْ ضَرَبْنَا هَذَا الْقُطْرَ فِي مَبْلَغِ دَوَّرِ الْأَرْضِ ، لَبَلَّغْتَ مِسَاحَةَ بَسِيطِ الْأَرْضِ بِالتَّكْسِيرِ مِائَةَ أَلْفِ أَلْفٍ وَائْتِنِينَ وَثَلَاثِينَ أَلْفِ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةِ أَلْفِ مِيلٍ بِالتَّقْرِيبِ .

فَعَلَى هَذَا مِسَاحَةُ رُبْعِ الْأَرْضِ الْمَسْكُونِ بِالتَّكْسِيرِ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفِ أَلْفِ مِيلٍ وَمِائَةُ (a) أَلْفِ مِيلٍ (a) وَخَمْسُونَ أَلْفِ مِيلٍ . وَعَرَّضَ الْمَسْكُونُ مِنْ هَذَا الرَّبْعِ بِقَدْرِ بُعْدِ مَدَارِ السَّرَطَانِ عَنِ الْقُطْبِ ، وَهُوَ سِتَّةٌ (b) وَخَمْسُونَ جِزْءًا وَشُدُسَ جِزْءٍ ، وَهَذَا هُوَ سُدُسُ الْأَرْضِ ، وَانْتِهَاؤُهُ إِلَى جَزِيرَةِ ثُولِي فِي

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : خمسة .

= المصحوب ببعض التوضيحات . وكان الكتاب نادرًا حتى في العصور المبكرة ، وربما كان نقل المقرئ عن غير نقلاً مباشراً وإنما عن طريق مصادر سابقة عليه . (انظر حول أبي زيد البلخي وكتابه في الجغرافيا ، كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢١٣-٢١٤) ، ونُسب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي أيضاً كتاب البدء والتاريخ الذي تبين أن مؤلفه هو مُطَهَّرُ بْنُ طَاهِرِ الْمُقَدَّسِيِّ المتوفى بعد سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م كما أوضح ناشر الكتاب Clement Huart .

برطانية ، وهي آخر المعمور من الشمال ، وهو من الأميال ثلاثة آلاف وسبع مائة وأربعة وستون ميلاً^١ .

فإذا ضربنا هذا السُدس الذي هو مساحة العَرْض^(a) في النصف وهو قَدْر^(b) الطُول ، كان المَعْمورُ من الشَّمال قَدْر نصف سُدس الأرض^٢ . وأمَّا الطُول فإنه يَقِلُّ لتضايق أقسام كُرَّة الأرض ، ومقداره مثل خُمس الدور ، وهو بالتقريب أربعة آلاف وثمانون ميلاً .

وفي الرُّبع المسكون من الأرض سبعة أَبْحُر كِبَار ، وفي كلِّ بَحْر منها عِدَّة جَزَائِر ، وفيه خمسة عشر بُحَيْرَةً منها مِلْح وَعَذْبٌ ، وفيه مائتا جَبَل طَوَال ، ومائتا نَهْر وأربعون نَهْرًا طَوَالًا ، ويشتمل على سبعة أقاليم تحتوي على سبعة عشر ألف مَدِينَة كَبِيرَة .

وقال في كِتَاب هِرُوشِيُوش^٣ : لَمَّا اسْتَقَامَت طَاعَةُ يُولِيس الملقَّب «قَيْصِر» المَلِك ، في عَامَّة الدُّنْيَا ، تَخَيَّرَ أَرْبَعَة مِنَ الفَلَاسِيفَة سَمَّاهُم ، فَأَمَرَهُم أَنْ يَأْخُذُوا لَهُ وَصْفَ حُدُودِ الدُّنْيَا وَعِدَّةَ بِحَارِهَا وَكُورِهَا أَرْبَاعًا . فَوَلَّى أَحَدَهُم أَخَذَ وَصْفَ جُزْءِ المَشْرِقِ ، وَوَلَّى آخَرَ أَخَذَ وَصْفَ جُزْءِ المَغْرِبِ ، وَوَلَّى آخَرَ^(c) أَخَذَ^(d) وَصْفَ جُزْءِ الشَّامِ ، وَوَلَّى الرَّابِعَ أَخَذَ^(d) وَصْفَ جُزْءِ الجَنُوبِ ، فَتَمَّتْ كِتَابَةُ الجَمِيعِ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي نَحْوِ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَة . فَكَانَتِ جُمْلَةُ البِحَارِ المَسْمُومَةِ فِي الدُّنْيَا تِسْعَةً وَعِشْرِينَ قَد سَمَّوْهَا^٤ : مِنْهَا لُجْزُ^(e) الشَّرْقِ ثَمَانِيَة ، وَلُجْزُ^(e) الغَرْبِ ثَمَانِيَة ، وَلُجْزُ^(e) الشَّامِ أَحَدَ عَشْرَ ، وَلُجْزُ^(e) الجَنُوبِ اثْنَانِ . وَعِدَّةُ الجَزَائِرِ المَعْرُوفَةِ الأُمَّهَاتِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ جَزِيرَةً : مِنْهَا فِي الشَّرْقِ ثَمَانِ ، وَفِي الغَرْبِ سِتِّ عَشْرَة ، وَفِي جِهَةِ الشَّامِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ ، وَفِي جِهَةِ الجَنُوبِ سِتِّ عَشْرَة .

(a) بولاق : مساحة عرض الأرض . (b) بولاق والمسعودي : مقدار . (c) بولاق : الثالث . (d) ساقطة من الأصل . (e) في الأصل وبولاق : بجزء والتصويب من الترجمة العربية لكتاب أورو سيوس .

الأندلس عن الأصل اللاتيني في زمن الخليفة الأموي الحاكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) . وورد اسم المؤلف في الكتب العربية على صور مختلفة : هروسيوس ، هروشيوش ، هروسيس (انظر دراسة مصادر المقرئ في المقدمة) .
^٤ في ترجمة كتاب هروشيوش : «وقد سموها في مواضعها وتركنا ذكرها إذ كانت أسماؤها غير معروفة في اللسان العربي» . (أورو سيوس : تاريخ العالم ٧٣) .

^١ قارن المسعودي : مروج الذهب ١ : ٩٩ .
^٢ المسعودي : مروج الذهب ١ : ٩٩-١٠٠ .
^٣ هو المؤلف الأسباني باولوس أورو سيوس Paulus Orosius الذي عاش في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ، كلفه القديس أوغسطين St. Augustin بكتابة مختصر للتاريخ العام للإنسانية منذ البداية وحتى سنة ٤١٦ ميلادية أتمه سنة ٤١٨م ، وعنوانه باللاتينية *Historica Adversus Paganos* . وعرف المؤرخون العرب هذا الكتاب عن طريق ترجمة عربية تمت في

وَعِدَّةُ الْجِبَالِ الْكِبَارِ الْمَعْرُوفَةِ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ ، وَهِيَ أُمَّهَاتُ الْجِبَالِ ، وَقَدْ سَمَّوْهَا فِيمَا فَسَّرُوهُ : مِنْهَا فِي جِهَةِ الشَّرْقِ سَبْعَةٌ ، وَفِي جِهَةِ الْغَرْبِ خَمْسَةٌ عَشْرٌ ، وَفِي الشَّمَالِ اثْنَا عَشْرًا ، وَفِي الْجَنُوبِ اثْنَانِ .

وَالْبُلْدَانُ الْكِبَارُ ثَلَاثَةٌ وَسِتُونَ : مِنْهَا فِي الْمَشْرِقِ سَبْعَةٌ ، وَفِي الْمَغْرِبِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ ، وَفِي الشَّمَالِ تِسْعَةٌ عَشْرٌ ، وَفِي الْجَنُوبِ اثْنَا عَشْرًا ؛ وَقَدْ سَمَّوْهَا .

وَالْكُورُ الْكِبَارُ الْمَعْرُوفَةُ تِسْعٌ وَمِائَتَانِ : مِنْهَا فِي الْمَشْرِقِ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ ، وَفِي الْمَغْرِبِ سِتَّةٌ وَسِتُونَ ، وَفِي الشَّمَالِ سِتَّةٌ ، وَفِي الْجَنُوبِ اثْنَانِ وَسِتُونَ .

وَالْأَنْهَارُ الْكِبَارُ الْمَعْرُوفَةُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا سِتَّةٌ وَخَمْسُونَ : مِنْهَا لِحِزِّ الشَّرْقِ سَبْعَةٌ عَشْرٌ ، وَلِحِزِّ الْغَرْبِ ثَلَاثَةٌ عَشْرٌ ، وَلِحِزِّ الشَّمَالِ تِسْعَةٌ عَشْرٌ ، وَلِحِزِّ الْجَنُوبِ سَبْعَةٌ .^١

وَالْأَقْلِيمُ السَّبْعَةُ ، كُلُّ إِقْلِيمٍ مِنْهَا كَأَنَّهُ بِسَاطٍ مَفْرُوشٍ قَدْ مُدَّ ، طَوَّلُهُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ ، وَعَرَّضُهُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ .

وَهَذِهِ الْأَقْلِيمُ مَخْتَلِفَةُ الطُّولِ وَالْعَرَضِ ؛ فَالْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ مِنْهَا يَمُرُّ وَسَطُهُ بِالْمَوَاضِعِ الَّتِي طَوَّلُ نَهَارِهَا الْأَطْوَلُ ثَلَاثَةٌ عَشْرُ سَاعَةٍ ، وَالسَّابِعُ مِنْهَا يَمُرُّ بِالْمَوَاضِعِ الَّتِي طَوَّلُ نَهَارِهَا الْأَطْوَلُ سِتَّةٌ عَشْرُ سَاعَةٍ ، لِأَنَّ مَا حَادَى حَدَّ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى نَحْوِ الْجَنُوبِ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْبَحْرُ وَلَا عِمَارَةَ فِيهِ ، وَمَا حَادَى الْإِقْلِيمِ السَّابِعَ إِلَى الشَّمَالِ لَا يُعْرِفُ^(a) فِيهِ عِمَارَةَ .

فَجَعَلَ طَوَّلَ الْأَقْلِيمِ السَّبْعَةِ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ مَسَافَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً مِنْ دَوَّرِ الْفَلَكَ ، وَصَارَتْ عُرُوضُهَا تَتَفَاضَلُ نِصْفَ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ الْأَطْوَلِ . فَأَطْوَلُهَا وَأَعْرَضُهَا الْإِقْلِيمُ الْأَوَّلُ ، وَطَوَّلُهُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافِ فَرَسَخٍ ، وَعَرَّضُهُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ فَرَسَخًا . وَأَقْصَرُهَا طَوَّلًا وَعَرَّضًا الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ ، وَطَوَّلُهُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ أَلْفٌ وَخَمْسٌ مِائَةٌ فَرَسَخٍ ، وَعَرَّضُهُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ نَحْوَ مِنْ سَبْعِينَ فَرَسَخًا ؛ وَبَقِيَّةُ الْأَقْلِيمِ الْخَمْسَةِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ .

(a) بولاق : لا يعلم .

^١ أوروبسيوس : تاريخ العالم ٧٣ - ٧٤ .

وهذه الأقاليم خطوطٌ متوهّمة لا وجودَ لها في الخارجِ ، وَضَعَهَا القُدَمَاءُ الذين جالوا في الأرض ليَقِفُوا على حقيقةِ حدودها ، ويتيقَّنوا مواضعَ البُلدان منها ، وَيَعْرِفُوا طُرُقَ مَسَالِكِهَا . هذا حالُ الرُّبْعِ المَشْكُونِ .

وأما الثلاثة الأرباع الباقية فإنها خراب ؛ فجهةُ الشَّمالِ واقعةٌ تحت مدارِ الجَدِّي ، قد أَفْرَطَ هناك البردُ ، وصارت ستة أشهرٍ ليلًا مستمرة ، وهي مُدَّةُ الشِّتَاءِ عندهم لا يُعْرَفُ فيها نهارٌ ، وَيُظْلَمُ الهَوَاءُ ظُلْمَةً شديدةً ، وتجمدُ المياهُ لِقُوَّةِ البردِ فلا يكون هناك نباتٌ ولا حيوانٌ .

ويُقابِلُ هذه الجهةُ الشَّماليةُ ناحيةَ الجَنُوبِ حيث مدارُ شَهَيْلٍ ، فيكون النَّهَارُ ستة أشهرٍ بغيرِ لَيْلٍ ، وهي مُدَّةُ الصَّيْفِ عندهم ، فيَحْمِي الهَوَاءُ وَيَصِيرُ سَمُومًا مُحْرِقًا يُهْلِكُ بِشِدَّةِ حَرِّهِ^a الحيوانَ والنباتَ ، فلا يمكنُ سلوكه ولا السكنى فيه .

وأما ناحية الغربِ فيمنع البحرُ المحيطُ من السلوكِ فيه ، لتلاطمِ أمواجهِ وشِدَّةِ ظُلُماته . وناحيةُ الشَّرْقِ تَمْنَعُ من سلوكها الجبالُ الشَّامِخَةُ .

وصارَ الناسُ أَجْمَعَهُم قد انحصَرُوا في الرُّبْعِ المَشْكُونِ من الأرضِ/، ولا عِلْمَ لأحدٍ منهم بالثلاثة الأرباع الباقية .

والأرضُ كُلُّها ، بجميع ما عليها من الجبالِ والبحارِ ، نُسِبَتْها إلى الفلَكِ كُنُقْطَةَ في دائرة . وقد اعتُبرَتِ حدودُ الأقاليمِ السَّبْعَةِ بساعاتِ النَّهَارِ ؛ وذلك أَنَّ الشَّمْسَ إذا حَلَّتْ برأسِ الحَمَلِ ، تساوى طولُ النَّهَارِ واللَّيْلِ في سائرِ الأقاليمِ كُلِّها . فإذا انتَقَلَتْ في دَرَجاتِ بُرْجِ الحَمَلِ والثَّوَرِ والجَوْزَاءِ ، اختلفت ساعاتُ نهارِ كُلِّ إقليمٍ . فإذا بَلَغَتْ آخِرَ الجَوْزَاءِ وأوَّلَ بُرْجِ الشَّرْطَانِ ، بَلَغَ طولُ النَّهَارِ في وَسَطِ الإقليمِ الأوَّلِ ثلاثَ عشرةَ ساعةً سَوَاءً ، وصارت في وَسَطِ الإقليمِ الثاني ثلاثَ عشرةَ ساعةً ونصفَ ساعةً ، وفي وَسَطِ الإقليمِ الثالثِ أربعَ عشرةَ ساعةً ، وفي وَسَطِ الإقليمِ الرابعِ أربعَ عشرةَ ساعةً ونصفَ ساعةً ، وفي وَسَطِ الإقليمِ الخامسِ خمسَ عشرةَ ساعةً ، وفي وَسَطِ الإقليمِ السَّابعِ ستَ عشرةَ ساعةً سَوَاءً ، وما زادَ على ذلك إلى عَرَضِ تسعينِ دَرَجةً يصيرُ نهارًا كَلَّهُ .

(a) الأصل : حرارة .

وَمَعْنَى طُولِ الْبَلَدِ، هُوَ بُعْدُهَا مِنْ أَقْصَى الْعِمَارَةِ فِي الْغَرْبِ، وَعَرَضُهَا هُوَ بُعْدُهَا عَنْ خَطِّ
الِاسْتِواءِ. وَخَطُّ الْاسْتِواءِ - كَمَا تَقَدَّمَ - هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ طَوْلَ الزَّمَانِ
سَوَاءً. فَكُلُّ بَلَدٍ عَلَى هَذَا الْخَطِّ لَا عَرَضَ لَهُ. وَكُلُّ بَلَدٍ فِي أَقْصَى الْغَرْبِ لَا طُولَ لَهُ. وَمَنْ أَقْصَى
الْغَرْبِ إِلَى أَقْصَى الشَّرْقِ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ دَرَجَةً. وَكُلُّ بَلَدٍ يَكُونُ طُولُهُ تِسْعِينَ دَرَجَةً، فَإِنَّهُ فِي وَسْطِ
مَا بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ. وَكُلُّ بَلَدٍ كَانَ طُولُهُ أَقَلَّ مِنْ تِسْعِينَ دَرَجَةً، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْغَرْبِ وَأَبْعَدُ
مِنَ الشَّرْقِ. وَمَا كَانَ طُولُهُ مِنَ الْبِلَادِ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ دَرَجَةً، فَإِنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الْغَرْبِ وَأَقْرَبُ إِلَى
الشَّرْقِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْقُدَمَاءُ أَنَّ الْعَالَمَ السُّفْلِيَّ مَقْسُومٌ سَبْعَةَ أَقْسَامٍ، وَكُلُّ قِسْمٍ يُقَالُ لَهُ إِقْلِيمٌ: فَإِقْلِيمُ الْهِنْدِ
لِرُحْلِ، وَإِقْلِيمُ بَابِلَ لِلْمُشْتَرِيِّ، وَإِقْلِيمُ التُّرْكِ لِلْمَرِيخِ، وَإِقْلِيمُ الرُّومِ لِلشَّمْسِ، وَإِقْلِيمُ مِصْرَ لِعُطَارِدِ،
وَإِقْلِيمُ الصِّينِ لِلْقَمَرِ.

وَقَالَ قَوْمٌ: الْحَمَلُ وَالْمُشْتَرِيُّ لِبَابِلَ، وَالْجَدِيُّ وَعُطَارِدُ لِلْهِنْدِ، وَالْأَسَدُ وَالْمَرِيخُ لِلتُّرْكِ، وَالْمِيزَانُ
وَالشَّمْسُ لِلرُّومِ؛ ثُمَّ صَارَتْ الْقِسْمَةُ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا: فَالْحَمَلُ وَمُثَلَّثَتُهُ^(a) لِلْمَشْرِقِ، وَالثَّوْرُ
وَمُثَلَّثَتُهُ^(a) لِلْجَنُوبِ، وَالْجُوزَاءُ وَمُثَلَّثَتُهُ^(a) لِلْمَغْرِبِ، وَالسَّرَطَانُ وَمُثَلَّثَتُهُ^(a) لِلشَّمَالِ. قَالُوا: وَفِي كُلِّ
إِقْلِيمٍ مَدِينَتَانِ عَظِيمَتَانِ بِحَسَبِ بَيْتِي كُلِّ كَوْكَبٍ، إِلَّا إِقْلِيمَ الشَّمْسِ وَإِقْلِيمَ الْقَمَرِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي
كُلِّ إِقْلِيمٍ مِنْهُمَا سِوَى مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ عَظِيمَةٍ. وَجَمِيعُ مَدَائِنِ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَحُصُونُهَا أَحَدُ
وَعِشْرُونَ أَلْفَ مَدِينَةٍ وَسِتِّ مِائَةِ مَدِينَةٍ وَحِصْنٍ بِقَدْرِ دَقَائِقِ دَرَجِ الْفَلَكَ.

وَقَالَ هِرْمِسٌ^١: إِذَا جُعِلَتْ هَذِهِ الدَّقَائِقُ رَوَابِعَ كَانَتْ بَعْدُ^(b) أَنَا هَذِهِ الْأَقَالِيمِ، وَإِذَا مَاتَ
أَحَدٌ وُلِدَ نَظِيرُهُ.

وَيُقَالُ إِنَّ عَدَدَ مَدُنِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ وَقَرَاهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَمِائَةَ مَدِينَةٍ وَقَرْيَةٍ
كَبِيرَةٍ، وَإِنَّ فِي الثَّانِي أَلْفَانِ وَسَبْعَ مِائَةٍ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ مَدِينَةً وَقَرْيَةً كَبِيرَةً، وَفِي الثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ
آلَافٍ وَتِسْعَ وَسَبْعُونَ، وَفِي الرَّابِعِ - وَهُوَ بَابِلَ - أَلْفَانِ وَتِسْعَ مِائَةٍ وَأَرْبَعِ وَسَبْعُونَ،
وَفِي الْخَامِسِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَسِتِّ مَدُنٍ، وَفِي السَّادِسِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ وَثَمَانِ

(a) بولاق : ومثلاه . (b) ساقطة من بولاق .

^١ عن هيرمس المعروف بهرمس المثلث الحكمة (انظر فيما يلي ٣١٩-٣٢٠).

مُدُن، وفي السَّابع ثلاثة آلاف وثلاث مائة مَدِينَة وَقَرْيَة كَبِيرَة في الجَزَائِر .

فـ«الإقليم الأول» يمرُّ وَسَطُه بالمَوَاضِع التي طُول نهارها الأطول ثلاث عشرة ساعة، ويرتفع القُطْبُ الشَّمَالِي فيها عن الأفق ست عشرة دَرَجَة وثُلثا دَرَجَة وهو العَرَض . وانتهاء عَرَض هذا الإقليم من حيث يكون طُول النَّهَار الأطول فيه ثلاث عشرة ساعة ورُبْع ساعة، وارتفاعُ القُطْبُ الشَّمَالِي، وهو العَرَض، عشرون دَرَجَة ونصف دَرَجَة؛ وهو مَسَافَة أربع مائة وأربعين ميلاً، وابتدأؤه من أَقْصَى بلاد الصِّين، فيمرُّ فيها إلى ما يلي الجَنُوب، ويمرُّ بسواحل الهِنْد ثم ببلاد السُّنْد، ويمرُّ في البحر على جَزِيرَة العَرَب وأرض اليَمَن، ويقطع بَحْر القُلُزْم فيمرُّ ببلاد الحَبَشَة، ويقطع نيل مصر إلى بلاد الحَبَشَة ومَدِينَة دُمُقْلَة^(a) من أرض الثُّوبَة، ويمرُّ في أرض المغرب على جنوب بلاد البَرْبَر إلى بَحْر المغرب المُحِيط^(b).

وفي هذا الإقليم عشرون جبلاً، فيها ما طوله من عشرين فرَسَخًا إلى ألف فرَسَخ . وفيه ثلاثون نَهْرًا طويلًا، منها ما طوله ألف فرَسَخ إلى عشرين فرَسَخًا . وفيه خمسون مَدِينَة كَبِيرَة . وعامَّةُ أهل هذا الإقليم سُود الألوان .

ولهذا الإقليم من البُرُوج الحَمَل والقُوس، وله من الكواكب^(c) المُشْتَرِي؛ وهو - مع فَرْط حرارته - كثيرُ المياه كثير المُرُوج، وَزَرَع أهله الذُّرَة والأرز، إِلَّا أَنَّ الاعتِدال عندهم مَعْدُوم، فلا يُثمر عندهم كَرْمٌ ولا جِنَطَة، والبَقَرُ عندهم كثير لكثرة المُرُوج، وفي مَشْرِقه البَحْر الخَارِج وراء نَحْط الاستواء بثلاث عشرة درجة، وفي مَغْرِبِه النُّيل وبَحْر العَرَب . ومن هذا الإقليم يأتي نيل مصر، وشرقهم مَعْمُور بالبَحْر الشَّرْقِي الذي هو بَحْر الهِنْد واليَمَن .

و«الإقليم الثاني» حيث يكون طُول النَّهَار الأطول ثلاث عشرة ساعة ونصف، وَيَرْتَفِعُ القُطْبُ الشَّمَالِي، وهو العَرَض^(d)، أربعة وعشرين جزءًا وعُشْر جزء؛ وَعَرَضُه، من حَدِّ الإقليم الأول إلى حيث يكون النَّهَار الأطول ثلاث عشرة ساعة ونصف ورُبْع ساعة . وارتفاعُ القُطْبُ الشَّمَالِي، وهو العَرَض، سبعة وعشرون دَرَجَة ونصف درجة .

ومِسَاحَة هذا الإقليم أربع مائة ميل/، وَيَتَدَيُّ من الشَّرْق مازًا ببلاد الصِّين إلى بلاد الهِنْد والسُّنْد، ثم يَلْتَقِي البحر الأَخْضَر وبَحْر البَصْرَة، ويقطع جَزِيرَة العَرَب في أرض نَجْد وتِهَامَة،

(a) بولاق : دنقلة . (b) بولاق : إلى نحو البحر المحيط . (c) بولاق : الكواكب السيارة . (d) بولاق : فيه قدر .

فَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْيَمَامَةُ وَالْبَحْرَيْنِ وَهَجَرَ وَمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ وَأَرْضَ الْحِجَازِ ، وَيَقْطَعُ بَحْرَ الْقُلْزُمِ فَيَمُرُّ بِصَعِيدِ مِصْرَ الْأَعْلَى ، وَيَقْطَعُ النَّيْلَ فَيَصِيرُ فِيهِ مَدِينَةَ قُوصٍ وَإِخْمِيمَ وَإِسْنًا وَأَنْصِنًا وَأُسْوَانَ ، وَيَمُرُّ فِي أَرْضِ الْمَغْرِبِ عَلَى وَسَطِ بِلَادِ إِفْرِيْقِيَّةِ فَيَمُرُّ عَلَى بِلَادِ الْبَرْبَرِ إِلَى الْبَحْرِ فِي الْمَغْرِبِ .

وَفِي هَذَا الْإِقْلِيمِ سَبْعَةٌ عَشَرَ جَبَلًا ، وَسَبْعَةٌ عَشَرَ نَهْرًا طَوَالًا ، وَأَرْبَعٌ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ مَدِينَةً كَبِيرَةً . وَأَلْوَانُ أَهْلِ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَا بَيْنَ السُّمَّرَةِ وَالسُّوَادِ ، وَلَهُ مِنَ الْبُرُوجِ الْجَدْيِ ، وَالسِّيَّارَةِ زُحَلٌ .^٥

وَيَسْكُنُ هَذَا الْإِقْلِيمَ الرَّحَالَةَ : فَفِي الْمَغْرِبِ مِنْهُمْ جَدَالَةٌ وَصِنَّهَاجَةٌ وَلَثُونَةٌ وَمَسُوفَةٌ ، وَيَتَّصِلُ بِهِمْ رَحَالَةُ مِصْرَ مِنَ الْوَوَاحِ . وَفِي هَذَا الْإِقْلِيمِ يَكُونُ التَّخْلُ^(a) ، وَفِيهِ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ ، وَمِنْهُ السَّمَاءُ مِنَ أَهْلِ الْعِرَاقِ إِلَى رَحَالَةِ التُّرْكِ .

و«الْإِقْلِيمُ الثَّلَاثُ» وَسَطُهُ حَيْثُ يَكُونُ طُولُ النَّهَارِ الْأَطْوَلَ أَرْبَعٌ عَشْرَةَ سَاعَةً . وَارْتِفَاعُ الْقُطْبِ ، وَهُوَ الْعَرَضُ ، ثَلَاثُونَ دَرَجَةً وَنِصْفٌ وَخُمْسٌ دَرَجَةً . وَعَرَضُ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ حُدِّ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي إِلَى حَيْثُ يَكُونُ النَّهَارُ الْأَطْوَلَ أَرْبَعٌ عَشْرَةَ سَاعَةً وَرُبْعٌ سَاعَةً . وَارْتِفَاعُ الْقُطْبِ وَهُوَ الْعَرَضُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً . وَمَسَافَتُهُ ثَلَاثٌ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ مِيلًا ، وَيَبْتَدِئُ مِنَ الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِشَمَالِ الصُّينِ وَبِلَادِ الْهِنْدِ وَفِيهِ مَدِينَةُ الْقَنْدَهَارِ^(b) ، ثُمَّ بِشَمَالِ السُّنْدِ وَبِلَادِ كَابُلِ وَكِرْمَانَ وَسِجِسْتَانَ إِلَى سَوَاحِلِ بَحْرِ الْبَصْرَةِ ، وَفِيهِ إِصْطَخْرٌ وَسَابُورٌ وَشِيرَازٌ وَسِيرَافٌ ، وَيَمُرُّ بِالْأَهْوَازِ وَالْعِرَاقِ وَالْبَصْرَةَ وَوَاسِطَ وَبَغْدَادَ وَالْكُوفَةَ وَالْأَنْبَارَ وَهَيْتَ ، وَيَمُرُّ بِبِلَادِ الشَّامِ إِلَى سَلْمِيَّةَ وَضُورَ وَعَكَّا وَدِمَشْقَ وَطَبْرِيَّةَ وَقَيْسَارِيَّةَ وَيَتُّ الْمَقْدِسَ وَعَشَقْلَانَ وَعَغْزَةَ وَمَدْيَنَ وَالْقُلْزُمَ ، وَيَقْطَعُ أَسْفَلَ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ شَمَالِ أَنْصِنًا إِلَى قُسْطَاطِ مِصْرَ وَسَوَاحِلِ الْبَحْرِ وَفِيهِ الْفَيْيُومُ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةُ وَالْفَرَمَا وَتَيْسَ وَدِمِيَاطَ ، وَيَمُرُّ بِبِلَادِ بَرْقَةَ إِلَى إِفْرِيْقِيَّةِ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْقَيْرَوَانَ ، وَيَنْتَهِي إِلَى الْبَحْرِ فِي الْمَغْرِبِ .

وَبِهَذَا الْإِقْلِيمِ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ جَبَلًا كِبَارًا ، وَاثْنَانِ وَعَشْرُونَ نَهْرًا طَوَالًا ، وَمِائَةٌ وَثَمَانِيَةٌ وَعَشْرُونَ مَدِينَةً . وَأَهْلُهُ سُمَّرُ الْأَلْوَانِ . وَلَهُ مِنَ الْبُرُوجِ الْعَقْرَبُ ، وَمِنْ السِّيَّارَةِ الزُّهْرَةُ . وَفِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْعَمَائِرُ الْفَاضِلَةُ^(c) مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ . اهـ .

و«الْإِقْلِيمُ الرَّابِعُ» وَسَطُهُ حَيْثُ يَكُونُ النَّهَارُ الْأَطْوَلَ أَرْبَعٌ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفٌ سَاعَةً ، وَارْتِفَاعُ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ ، وَهُوَ الْعَرَضُ ، سِتٌ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً وَخُمْسٌ دَرَجَةً . وَحُدُّ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، مِنْ حُدِّ

(a) بولاق : النحل . (b) بولاق : الهندهار . (c) بولاق : المتواصلة .

الإقليم الثالث إلى حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة ونصف ورُبْع ساعة ، والعَرْضُ تسعًا وعشرين دَرَجَة وتُلث دَرَجَة .

ومسافة هذا الإقليم ثلاث مائة ميل ، ويتدئ من الشَّرْقِي فيمُرُّ ببلاد التَّيْتِ وخراسان وُحَجَنْدَة وفَرَغانَة وسَمَرْقَنْد وبُخَارَى وهَرَاة ومَزْوَالرُود وسَرخَس وطُوس ونَيْسَابُور وجزجان وقومس وطبرستان وقزوين والدَّيْلَم والرَّيِّ وَأَصْفَهَان وهَمْدَان ونَهَاوَنْد ودينور والمُؤَصِل ونَصِيبين وأمد ورأس العين وسَمَيْسَاط والرَّقَّة ، ويمرُّ ببلاد الشَّام فيدخل فيه بَالِس ومَنْبِج ومَلَطِيَّة وحَلَب وأنطاكية وطرابُلُس والمِصْبِيصَة وحَمَاة وصَيْدا وطَرَسُوس وعمُورِيَّة واللَّذِقِيَّة ، ويقطع بَحْرُ الشَّام على جزيرة قَبْرُس وزُودس ، ويمرُّ ببلاد طَنْجَة فينتهي إلى بحر المغرب .

وفي هذا الإقليم خمسة وعشرون جَبَلًا كِبَارًا ، وخمسة وعشرون نَهْرًا طَوَالًا ، ومائتا مَدِينَة واثنتا عشرة مَدِينَة . وألوانُ أهله بين السُّمْرَة والبياض . وله من البُرُوج الجُوزَاء ، ومن السَّيَّارة عَطَارِد ، وفيه البحر الرُّومي من مغْرِبِه إلى المُسْطَنْطِينِيَّة .

ومن هذا الإقليم ظَهَرَت الأنبياء والرُّسُلُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ أَجْمَعِينَ - ومنه انْتَشَرَ الحُكَمَاءُ والعُلَمَاءُ ، فَإِنَّهُ وَسَطُ الأقاليم ثلاثة جنوية وثلاثة شمالية ، وهو في قِسْمِ الشَّمْسِ ، وبعده في القُضِيَّة الإقليم الثالث والخامس ، فَإِنَّهُمَا على جَنْبَيْهِ ، وبقِيَّة الأقاليم أهلُوهَا ناقِصون ومُنْحَطُّون عن القُضِيَّة لِسَمَاجَة صُورِهِم وتَوَحُّشِ أخلاقِهِم ، كالزُّنُج والحَبَشَة ، وأكثر أُمَّمِ الإقليم الأوَّل والثاني والسادس والسابع يَأْجُوج وَمَأْجُوج والتُّغْرُغُزَّا والصَّقَالِيَّة ونحوهم .

و«الإقليم الخامس» وَسَطُهُ حيث يكون النهار الأطول خمس عشر ساعة . وارتفاعُ القُطْبِ الشَّمَالِي ، وهو العَرْضُ ، إحدى وأربعون دَرَجَة وتُلث دَرَجَة . وابتدأه من نهاية عَرْضِ الإقليم الرابع إلى حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة ، والعَرْضُ ثلاثًا وأربعين دَرَجَة .

ومسافته خَمْسُونَ ومائتا ميل ، ويتدئ من المَشْرِقِ إلى بلاد يَأْجُوج وَمَأْجُوج ، ويمرُّ بِشَمَالِ خُرَاسَانِ وفيه خُوارزْم وإشبيجاب وأذريجان وبَرْدَعَة وسِيحِسْتَان وأزْدَن وخَلَاط ، ويمرُّ على بلاد الرُّوم إلى رُومِيَّة الكِبْرَى والأَنْدَلُس حتى ينتهي إلى البحر في الغرب .

وفي هذا الإقليم من الجبال الطوال ثلاثون جبلاً ، ومن الأنهار الكبار خمسة عشر نهرًا ، ومن المدائن الكبار مائتا مدينة . وأكثر أهله بيض الألوان ، وله من البروج الدلو ، ومن السيارة القمر .
 «الإقليم السادس» وَسَطُهُ حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة . وارتفاع القطب الشمالي ، وهو العرض ، خمستا/ وأربعين درجة وخمسة درجة . وابتدأؤه من حدّ نهاية عرض الإقليم الخامس إلى حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ورُبْع ساعة . والعرض سبعا وأربعين درجة ورُبْع درجة .

ومسافة هذا الإقليم مائتا ميل وعشرة أميال ، ويبتدئ من المشرق ، فيمرُّ بمساكن التُّرك من الخرخيز^(a) والتُّغزُّغز ، إلى بلاد الخزر من شمال تخومهم^(b) على اللان والشير وأرض بُرجان والقُسطنطينية وشمال الأندلس إلى البحر المحيط الغربي^١ .

١٠ وفي هذا الإقليم من الجبال الطوال اثنان وعشرون جبلاً ، ومن الأنهار الطوال اثنان وثلاثون نهرًا ، ومن المدن الكبار تسعون مدينة . وأكثر أهل هذا الإقليم ألوانهم ما بين الشقرة والبياض . وله من البروج السرطان ، ومن السيارة المريخ .

«الإقليم السابع» وَسَطُهُ حيث يكون النهار الأطول ست عشرة ساعة سواء . وارتفاع القطب الشمالي ، وهو العرض ، ثمانيا وأربعين درجة وثلاثي درجة .

١٥ وابتداءً هذا الإقليم من حدّ نهاية الإقليم السادس إلى حيث يكون النهار الأطول ست عشرة ساعة ورُبْع ساعة ، والعرض خمسين درجة ونصف درجة . ومسافته مائة وخمسة وثمانون ميلاً . فتبين أن ما بين أول حدّ الإقليم الأول وآخر حدّ الإقليم السابع ، ثلاث ساعات ونصف ، وأن ارتفاع القطب الشمالي ثمانية وثلاثون درجة ، تكون من الأميال ألفين ومائة وأربعين ميلاً .

ويبتدئ الإقليم السابع من المشرق على بلاد يأجوج ومأجوج ، ويمرُّ ببلاد التُّرك على سواحل بحر جرجان مما يلي الشمال ، ويقطع بحر الروم على بلاد جرجان والصقالية إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط في الغرب .

(a) بولاق : أبخرخير . (b) بولاق : نجومهم .

^١ انظر المسعودي : التنبيه والإشراف ٨٣؛ ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣١ .

وبهذا الإقليم عشرة جبال طوال ، وأربعون نهرًا طوالًا ، واثنان وعشرون مدينة كبيرة . وأهله شقير الألوان ؛ وله من البروج الميزان ، ومن السّيارة الشمس .

وفي كل إقليم من هذه الأقاليم السبعة أُمم مختلفة الألسن والألوان ، وغير ذلك من الطّبائع والأخلاق والآراء والديانات والمذاهب والعقائد والأعمال والصنائع والعادات والعبادات ، لا يُشبهه بعضهم بعضًا ، وكذلك الحيوانات والمعادن والنبات مختلفة في الشكل والطعم واللون .

والريخ بحسب اختلاف أهوية البلدان ، وتربة البقاع وغذوبة المياه وملوحتها على ما اقتضته طولج كل بلد من البروج على أفقه ، وممر الكواكب على مسامته البقاع من الأرض ، ومطارح شعاعاتها على المواضع ، كما هو معروف^(a) في مواضعه من كتب الحكمة ، ليتدبر أولو النهى ، ويعتبر ذور الحجاج بتدبير الله في خلقه ، وتقديره لما يشاء وفعله لما يريد ، لا إله إلا هو .

ومع ذلك فإن الرّبع المسكون من الأرض - على تفاوت أقطاره - مقسوم بين سبع أُمم كبار ، وهم الصين والهند والشودان والبربر والروم والتّرك والفرس . فجنوب مشرق الأرض في يد الصين ، وشماله في يد التّرك ، ووسط جنوب الأرض في يد الهند ، وفي وسط شمال الأرض الروم ، وفي جنوب مغرب الأرض الشودان ، وفي شمال مغرب الأرض البربر ، وكانت الفرس في وسط هذه الممالك قد أحاطت بهم الأُمم الست .

ذكر محل مصر من الأرض

وموضِعها من الأقاليم السبعة

وإذ يسر الله سبحانه بذكر جمل أحوال الأرض ومعرفة ما في كل إقليم من أقاليم الأرض ، فلنذكر محل مصر من ذلك فنقول :

ديار مصر بعضها واقع في الإقليم الثاني ، وبعضها واقع في الإقليم الثالث : فما كان منها في الصّعيد الأعلى ، كقوص وإخميم وإسنا وأنصنا وأسوان ، فإن ذلك واقع في أقسام الإقليم الثاني . وما كان من ديار مصر في جهة الشمال من أنصنا ، وهو الصّعيد الأدنى من شيوخ إلى فسطاط مصر والفيوم والقاهرة والإسكندرية والقرمّا وتيس ودمياط ، فإن ذلك من أقسام الإقليم الثالث .

(a) بولاق : مقرر .

وَطُولُ مَدِينَةِ مِصْرِ الْفُسْطَاطِ وَالْقَاهِرَةِ - وَهُوَ بُعْدُهُمَا مِنْ أَوَّلِ الْعِمَارَةِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ -
خَمْسَ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً ، وَالْعَرُوضُ - وَهُوَ الْبُعْدُ مِنْ حَظِّ الْاِسْتِوَاءِ - ثَلَاثُونَ دَرَجَةً ، وَطُولُ النَّهَارِ
الْأَطْوَلُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَاعَةً ، وَغَايَةُ اِرْتِفَاعِ الشَّمْسِ فِي الْفَلَكِ بِهَا ثَلَاثَ وَثَمَانُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثَ وَرُبْعَ
دَرَجَةٍ .

٥ وَفُسْطَاطُ مِصْرٍ مَعَ الْقَاهِرَةِ مِنْ مَكَّةَ - شَرْفَهَا اللَّهُ تَعَالَى - وَاقِعَانِ فِي الرُّبْعِ الْجَنُوبِيِّ الشَّرْقِيِّ ،
وَالصَّعِيدُ الْأَعْلَى أَشَدَّ تَشْرِيقًا لِبُعْدِهِ عَنِ مَدِينَةِ الْفُسْطَاطِ بِأَيَّامٍ عَدِيدَةٍ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ ، فَيَكُونُ
عَلَى ذَلِكَ مُقَابِلًا لِمَكَّةَ مِنْ غَرْبِهَا .

١٠ وَمِصْرٌ لَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهَا إِلَّا مِنْ مَفَازَةٍ : فَفِي شَرْقِهَا بَحْرُ الْقُلْزُومِ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ الشَّرْقِيِّ ، وَفِي
غَرْبِهَا صَخْرَاءُ الْمَغْرِبِ ، وَفِي جَنُوبِهَا مَفَازَةُ الثُّوبَةِ وَالْحَبَشَةِ ، وَفِي شِمَالِهَا الْبَحْرُ الشَّامِيُّ ،
وَالرُّمَالُ الَّتِي فِيهَا بَيْنَ بَحْرِ الرُّومِ وَبَحْرِ الْقُلْزُومِ . وَبَيْنَ مِصْرٍ وَبَغْدَادَ - عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ
خُرْدَاذِبِهِ^١ فِي كِتَابِ «الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ» - أَلْفٌ وَسَبْعُ مِائَةٍ وَعِشْرَةَ أَمْيَالٍ ، يَكُونُ خَمْسُ مِائَةٍ
وَسَبْعِينَ فَرْسَخًا وَمِائَةً وَبِضْعًا وَأَرْبَعِينَ بَرِيدًا^٢ .

وَبَيْنَ مِصْرٍ وَالشَّامِ - أَعْنِي دِمَشْقَ - ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ وَسِتُونَ مَيْلًا ، تَكُونُ مِنَ الْفَرَايِخِ مِائَةً
وَاحِدَةً وَعِشْرِينَ فَرْسَخًا وَثَلَاثِينَ فَرْسَخًا ، عَنْهَا ثَلَاثُونَ بَرِيدًا^٣ وَكَثْرًا .

١٥ وَقَالَ ابْنُ خُرْدَاذِبِهِ : أَرْضُ الْحَبَشَةِ / وَالسُّودَانَ مَسِيرَةَ سَبْعِ سِنِينَ ، وَأَرْضُ مِصْرَ جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ
سِتِينَ جُزْءًا مِنْ أَرْضِ السُّودَانَ ، وَأَرْضُ السُّودَانَ جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا^٤ .

١ أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه (أو خرداذبه) مؤلف فارسي الأصل ، اتصل ببلاط الخليفة العباسي المقتدر على الله بسامرا ، وشغل وظيفة «صاحب البريد» بنواحي الجبال بإيران ، ومن المحتمل أن هذا الوضع هو الذي دفعه إلى تأليف كتابه الجغرافي استجابة لطلب أحد العباسيين . وعُدَّ كراتشكوفسكي كتابه «المسالك والممالك» أول مصنف يصل إلينا في الجغرافيا الوصفية ، ويرى دي خويه De Goeje أن للكتاب مسودتين الأولى كتبها نحو سنة ٨٤٦/٢٣٢ م والثانية قبل سنة ٨٨٥/٢٧٢ م ، أما ما نشر من الكتاب فلا يمثل سوى موجز متأخر ، وتوفي ابن خرداذبه حوالي عام ٩١٢/٣٠٠ م وشمل القسم الرئيسي من الكتاب وصف الطرق بدرجات متفاوتة بالتفصيل . وترجع أغلب نقول المقريري من كتابه إلى هذا القسم . (كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي Hady-Sadok, M., EI² art. Ibn ١٦٧-١٧١) . (Khurrâdadhbih III, p. 863)

٢ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٨٣ .

٣ البريد . ذكر ياقوت أن فيه خلافاً ، وأنه في البادية اثنا عشر ميلاً وبالشام وخراسان ستة أميال (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٣٥) .

٤ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٩٣ .

١ أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه (أو خرداذبه) مؤلف فارسي الأصل ، اتصل ببلاط الخليفة العباسي المقتدر على الله بسامرا ، وشغل وظيفة «صاحب البريد» بنواحي الجبال بإيران ، ومن المحتمل أن هذا الوضع هو الذي دفعه إلى تأليف كتابه الجغرافي استجابة لطلب أحد العباسيين . وعُدَّ كراتشكوفسكي كتابه «المسالك والممالك» أول مصنف يصل إلينا في الجغرافيا الوصفية ، ويرى دي خويه De Goeje أن للكتاب مسودتين الأولى كتبها نحو سنة ٨٤٦/٢٣٢ م والثانية قبل سنة ٨٨٥/٢٧٢ م ، أما ما نشر من الكتاب فلا يمثل سوى موجز متأخر ، وتوفي ابن خرداذبه حوالي عام ٩١٢/٣٠٠ م وشمل القسم الرئيسي من الكتاب وصف الطرق بدرجات متفاوتة بالتفصيل . وترجع أغلب نقول المقريري من كتابه إلى هذا القسم . (كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي Hady-Sadok, M., EI² art. Ibn ١٦٧-١٧١) . (Khurrâdadhbih III, p. 863)

وفي كتاب هروشيوش : بلدُ مصر الأذنى شرقه فلسطين^(a)، وغربه أرض ليبيا، وأرض مصر الأعلى تمتد إلى ناحية الشرق، وحده في الشمال^(b) خليج العرب، وفي الجنوب^(c) البحر المحيط، وفي الغرب مصر^(d) الأذنى، وفي الشرق بحر القلزم، وفيه من الأجناس ثمانية وعشرون جنسًا.

ذِكْرُ حُدُودِ مِصْرَ وَجِبَاتِهَا

اعلم أن التَّحْدِيدَ هو صِفةُ المَحْدُودِ على ما هو عليه، والحُدُّ هو نِهايَةُ الشَّيْءِ، والحُدُودُ تَكْثُرُ وتَقِلُّ بحسبِ المَحْدُودِ. والجِهَاتُ التي تُحَدُّ بها المَسَاكِنُ والبِقَاعُ أَرْبَعُ جِهَاتٍ، وهي :
جِهةُ الشَّمَالِ التي هي إِشارةٌ إلى مَوْضِعِ قُطْبِ الفَلَكِ الشَّمَالِيِّ، المعروف من كَوَاكِبِ الجَدِيِّ والفَرَقدَانِ.

وَيُقَابِلُ جِهةَ الشَّمَالِ الجِهةُ الجَنُوبِيَّةُ؛ والجَنُوبُ عبارةٌ عن مَوْضِعِ قُطْبِ الفَلَكِ الجَنُوبِيِّ، الذي يقرب منه سُهَيْلٌ وما يَتَّبِعُه من كَوَاكِبِ الشَّفِينَةِ.

والجِهةُ الثالِثةُ جِهةُ المَشْرِقِ، وهو مَشْرِقُ الشَّمْسِ في الاعتدالين اللذين هما رأسُ الحَمَلِ أوَّلُ فَصْلِ الرَّبِيعِ، ورأسُ المِيزَانِ أوَّلُ فَصْلِ الخَرِيفِ.

والجِهةُ الرَّابِعةُ جِهةُ المَغْرِبِ، وهو مَغْرِبُ الشَّمْسِ في الاعتدالين المذكورين.

فهذه الجِهَاتُ الأَرْبَعُ ثابِتَةٌ بِثُبُوتِ الفَلَكِ، غيرَ متغيِّرةٍ بِتَغْيِيرِ الأَوْقَاتِ، وبها تُحَدُّ الأَرْضِيَّةُ ونحوها من المَسَاكِنِ، وبها يَهْتَدِي النَّاسُ في أَشْفَارِهِمْ، وبها يَسْتَخْرِجُونَ سَمْتِ مَحَارِبِهِمْ. فالْمَشْرِقُ والمَغْرِبُ معروفان. والشَّمَالُ والجَنُوبُ جِهَتَانِ مُقَاطِعَتَانِ بِجِهَتِي^(e) المَشْرِقِ والمَغْرِبِ على تَرْبِيعِ الفَلَكِ.

فالْحَطُّ المَارُّ بِنُقْطَتِي الشَّمَالِ والجَنُوبِ يُسَمَّى خَطَّ نِصْفِ النَّهَارِ، وهو مُقَاطِعٌ لِلْحَطِّ المَارِّ بِنُقْطَتِي المَشْرِقِ والمَغْرِبِ المُسَمَّى بِخَطِّ الاِسْتِواءِ، على زَوَايَا قَائِمَةٍ وَأَبْعَادٍ ما بين هَذَيْنِ الخَطِّينِ

(a) في كتاب أورو سيوس : فإن شرقه بلد سورية فلسطين . (b) في كتاب أورو سيوس : وحده في الجوف . (c) في كتاب أورو سيوس : وفي القبلة . (d) في كتاب أورو سيوس : مبتدأ من مصر . (e) بولاق : لجهتي .

مُتساوية . فالمُسْتَقْبِلُ لِلجَنُوبِ يَكُونُ أَبَدًا مُسْتَدْبِرًا لِلشَّمَالِ ، وَيَصِيرُ المَغْرِبُ عَنِ يَمِينِهِ وَالْمَشْرِقُ عَنِ يَسَارِهِ .

وهذه الجهات الأربع هي التي يُنسب إليها ما يُحدُّ من البلاد والأراضي والدور؛ إلا أن أهل مِصْرَ يَسْتَعْمِلُونَ فِي تَحْدِيدِهِمْ بَدَلًا مِنَ الجِهَةِ الجَنُوبِيَّةِ لِقِطَّةِ القِبْلِيَّةِ ، فيقولون الحدَّ القِبْلِيَّ يَنْتَهِي إِلَى كَذَا وَلَا يَقُولُونَ الحدَّ الجَنُوبِيَّ ، وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ الحدَّ البَحْرِيَّ يَنْتَهِي إِلَى كَذَا ، وَيُرِيدُونَ بِالْبَحْرِي الحدَّ الشَّمَالِيَّ^١ .

وقد يَقَعُ فِي هَاتَيْنِ الجِهَتَيْنِ العَلَطُ فِي بَعْضِ البلاد؛ وذلك أن البلاد التي تُوافق عروضها عرض مكة، إذا كانت أطولها أقل من طول مكة، فإن القبلة فيها تكون^(a) نفس المشرق، بخلاف البلاد^(b) التي تُوافق عروضها عرض مكة إلا أن أطولها أكثر^(c) من طول مكة، فإن القبلة في هذه البلاد تكون نفس المغرب . فمن حدَّد في شيء من هذه البلاد أرضًا أو مسكنًا بحدود أربعة، فإنه يصير منها حدان^(d) حدًا واحدًا . وكذلك جهة البحر لما جعلوها قبالة جهة القبلة، وحددوا ما بينهما من الأراضي والدور بما يُسامتها منه، فإنهم أيضًا ربما غلطوا، وذلك أن القبلة والبحر يكونان في بعض البلاد في جهة واحدة .

فإذا عرفت ذلك، فاعلم أن أرض مصر لها حد يأخذ من بحر الروم من الإسكندرية - ويَزْعَم قوم من بزقة في البر - حتى ينتهي إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلد الثوبة، ثم يعطف على حدود الثوبة في حد أسوان - على حد أرض البجة^(e) في قبلي أسوان - حتى ينتهي إلى بحر القلزم، ثم يمتد على بحر القلزم، ويُجاوز القلزم إلى طور سيناء، ويعطف على تيه بني إسرائيل مارًا إلى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورَفَح^(f)، ويرجع إلى الساحل مارًا على بحر الروم إلى الإسكندرية، ويتصل بالحد الذي قدَّمْتُ ذِكره من نواحي بزقة .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي^(g)، في «رسالته المصيرية»: أرض مصر بأشرفها واقعة في المعمورة في قسم^(h) الإقليم الثاني والإقليم الثالث، ومعظمها في الثالث .

(a) بولاق : فإن القبلة تكون في هذه البلاد . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : أطول . (d) بولاق : حدان منها . (e) بولاق : السبخة . (f) بولاق : رمح . (g) ساقطة من بولاق . (h) بولاق : قسمي .

^٢ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي المتوفى نحو =

^١ انظر أيضًا فيما يلي ١ : ٣٤٣ .

وحكى المقيثون^a بأخبارها وتواريخها : أن حدها في الطول من مدينة بركة التي في جنوب البحر الرومي ، إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين ، ومسافة ذلك قريب من أربعين يوماً . وحدها في العرض من مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض الثوبة إلى رشيد وما حاذها من مساقط النيل في البحر الرومي ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً^١ .

ويكتنفها في العرض إلى مئتهاها جبلان : أحدهما في الضفة الشرقية من النيل وهو المقطم ، والآخر في الضفة الغربية منه ، والنيل متسرب فيما بينهما . وهما جبلان أجردان غير شامخين ، يتقاربان جدًّا في وضعيهما من لدن أسوان إلى أن ينتهيا إلى الفسطاط ، ثم يتسع ما بينهما ويتفرج قليلاً ، ويأخذ المقطم منهما مشرقاً والآخر مغرباً ، على وراب في مأخذيهما وتغريج في مسلكيهما ، فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومي الذي عليه الفرما وتيس ودمياط ورشيد والإسكندرية ، فهناك تنقطع في عرضها الذي هو مسافة ما بين أوغلاها في الجنوب وأوغلاها في [الغرب و]^b الشمال .

وإذا نظرنا بالطريق البرهانية في مقدار / هذه المسافة من الأميال ، لم تبلغ ثلاثين ميلاً بل تنقص

(a) بولاق : المعتنون . (b) زيادة من الرسالة المصرية .

العماد الكاتب : خريدة القصر (قسم المغرب) ١: ١٨٩-٢٧٠ ، ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ٢: ٥٢-٦٢ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٩: ٤٠٢-٤٠٦ ؛ محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ١٧٩-١٨٧ ؛ Brockelmann, C., GAL I, 641; SI 889; Millos, (J.M., El² art. Abûl-Salt I, p. 153 . ونشر «الرسالة المصرية» عبد السلام هارون أولاً في مجلة الكتاب المصرية سنة ١٩٤٧-١٩٤٨م ثم في المجموعة الأولى من «نوادير المخطوطات» ، القاهرة ١٩٥١ ، ٣-٥٦ .

^١ أمية بن عبد العزيز : الرسالة المصرية ١٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٣٦ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١: ١٢ .

= سنة ١١٣٥/٥٢٩م ، عالم أندلسي زار مصر وأقام بها في الفترة بين سنتي ١٠٩٦/٤٨٩م و١١١٢/٥٠٦م وسجل ملاحظاته وما شاهده فيها في رسالة سماها «الرسالة المصرية» ، وأشار فيها إلى أنه لم يجد من علماء مصر في الطب من يستفيد منه أو يستزيد بمذاكرته ، وأن أكثر أطبائها الميرزين هم النصارى واليهود . كما ذكر أن المصريين هم أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلاً عليها . وذكر في نهايتها بعض من لقيه من أدبائها وظرفائها وفضلائها وعلمائها وشعرائها ، وبعضهم غير مذكور في كتب التراجم . ونقل عن «الرسالة المصرية» ، إضافة إلى المقرئ ، ياقوت الحموي والعماد الأصفهاني الكاتب (ياقوت : معجم الأدباء ٧: ٥٢-٧٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ١: ٢٤٣-٢٤٧ ؛

عنها نُقْصَانًا مَا لَهُ قَدْرٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ فَضْلَ مَا بَيْنَ عَرَضِ مَدِينَةِ أُسْوَانَ - الَّتِي هِيَ أَوْغَلَهَا فِي الْجَنُوبِ - وَعَرَضِ مَدِينَةِ تَيْسٍ - الَّتِي هِيَ أَوْغَلَهَا فِي الشَّمَالِ - تِسْعَةَ أَجْزَاءٍ وَنَحْوِ سُدُسِ جُزْءٍ ، وَلَيْسَ بَيْنَ طُولَيْهَا فَضْلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ ، وَيَتُوبُ^(a) ذَلِكَ نَحْوَ خَمْسِ مِائَةِ وَعِشْرِينَ مِيلًا بِالتَّقْرِيبِ ، وَذَلِكَ مَسَافَةَ عِشْرِينَ يَوْمًا أَوْ قَرِيبَ مِنْهَا .

٥ وفي هذه المدة من الزمان تقطع السفار [أبدًا]^(b) ما بين البلدَيْن بالسَّيْرِ المعتدل أو أكثر من ذلك [قليلاً]^(b) ، لما في الطريق من التَّعْرِيجِ وَعَدَمِ الاسْتِقَامَةِ^(a) .

١٠ وقال القضاعي^٢ : الذي يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ مِصْرَ مِنَ الْعَرِيشِ إِلَى آخِرِ لُؤَيْيَّةٍ وَمَرَاقِيَّةٍ ، وَفِي آخِرِ أَرْضِ مَرَاقِيَّةٍ تَلْقَى أَرْضَ أَنْطَابُلُسَ وَهِيَ بَرْقَةٌ . وَمِنَ الْعَرِيشِ فَصَاعِدًا يَكُونُ ذَلِكَ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَهُوَ سَاحِلٌ كُلُّهُ عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ ، وَهُوَ بَحْرِي أَرْضِ مِصْرَ ، كَذَلِكَ مَهَبُ الشَّمَالِ مِنْهَا إِلَى الْقِبْلَةِ شَيْئًا مَا .

١٥ فإذا بَلَغْتَ آخِرَ أَرْضِ مَرَاقِيَّةٍ ، عُدْتَ ذَاتَ الشَّمَالِ وَاسْتَقْبَلْتَ الْجَنُوبَ ، وَتَسِيرُ فِي الرَّمْلِ - وَأَنْتِ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى الْقِبْلَةِ - يَكُونُ الرَّمْلُ مِنْ مَصْبِهِ عَنْ يَمِينِكَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَعَنْ يَسَارِكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْفَيْيُومِ مِنْهَا ، وَأَرْضُ الْوَاخَاتِ الْأَرْبَعِ ، فَذَلِكَ غَرْبِي مِصْرَ وَهُوَ مَا اسْتَقْبَلْتَهُ مِنْهُ . ثُمَّ تَعْرِجُ مِنْ آخِرِ أَرْضِ الْوَاخَاتِ ، وَتَسْتَقْبِلُ الشَّرْقَ سَائِرًا إِلَى النَّيْلِ تَسِيرُ ثَمَانِي مَرَّاجِلَ إِلَى النَّيْلِ ، ثُمَّ عَلَى النَّيْلِ فَصَاعِدًا ، وَهِيَ آخِرُ أَرْضِ الْإِسْلَامِ هُنَاكَ ، وَيَلِيهَا بِلَادُ الثُّوبَةِ . ثُمَّ تَقْطَعُ^(c) النَّيْلَ ، فَتَأْخُذُ مِنْ أُسْوَانَ فِي الشَّرْقِ مُنْكَبًا عَنْ بَلَدِ أُسْوَانَ إِلَى عَيْذَابِ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْحِجَازِيِّ ، فَمِنْ أُسْوَانَ إِلَى عَيْذَابِ خَمْسِ عَشْرَةَ مَرْحَلَةً ، وَذَلِكَ كُلُّهُ قِبْلِي أَرْضِ مِصْرَ ، وَمَهَبُ الْجَنُوبِ مِنْهَا . ثُمَّ تَقْطَعُ^(c) الْبَحْرَ الْمِلْحَ مِنْ عَيْذَابِ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ ، فَتَنْزِلُ الْحَوْرَاءَ أَوَّلَ أَرْضِ مِصْرَ ، وَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِأَعْرَاضِ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ .

(a) الأصل : ويتعرف . (b) زيادة من الرسالة المصرية . (c) يولاق : ينقطع .

١ أمية بن عبد العزيز : الرسالة المصرية ١٥ - ١٦ .
 ٢ القضاعي ، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر المتوفى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م مؤرخ مصري وأحد رواد التأليف في الخطط ، اشتهر بكتابه «عيون المعارف» ، والمختار في معرفة الخطط والآثار» ، وهذا الكتاب الأخير هو الكتاب الذي ينقل عنه المقرئ في الخطط (انظر المقدمة) .

وهذا البحر المحدود هو بحر القلزم، وهو داخل في أرض مصر بشرقه وغربه وبحريه : فالشرقي منه أرض الحوزاء وطنسه والنبتك وأرض مدين وأرض أيلة فصاعداً إلى المقطم بمصر، والغربي منه ساحل عيذاب إلى بحر النعام إلى المقطم، والبحري منه مدينة القلزم وجبل الطور. ومن القلزم إلى الفرما مسيرة يوم وليلة، وهو الحاجز فيما بين البحرين، بحر الحجاز وبحر الروم، وهذا كله شرقي أرض مصر من الحوزاء إلى العريش وهو مهتب الصبا منها^١. فهذا المحدود من أرض مصر. وما كان بعد هذا من الحد الغربي، فمن فتوح أهل مصر وثغورهم من بركة إلى الأندلس.

ذكر بحر القلزم

^a القلازم : الدواهي والمضايقة، ومنه بحر القلزم^٢، لأنه مضيق بين جبال^a، ولما كانت أرض مصر منحصرة بين البحرين، هما بحر القلزم من شرقها وبحر الروم من شمالها، وكان بحر القلزم داخلاً في أرض مصر كما تقدم، صار من شرط هذا الكتاب التعريف به، فنقول :

هذا البحر إنما عُرف في ناحية ديار مصر بالقلزم، لأنه كان بساحله الغربي في شرقي أرض مصر مدينة تُسمى القلزم، وقد خربت - كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى في موضعه من هذا الكتاب^٣ عند ذكر قري مصر ومُدنها - فسمي هذا البحر باسم تلك المدينة وقيل له «بحر القلزم» على الإضافة، ويُقال له بالعبرانية : يَم سوف^b.

وهذا البحر إنما هو خليج يخرج من البحر الكبير المحيط بالأرض الذي يُقال له بحر أقيانس، ويُعرف أيضاً ببحر الظلمات، لتكاثف البخار المتصاعد منه وضعف الشمس عن حله، فيغلظ وتشتد الظلمة، ويغظم موج هذا البحر وتكثر أهواله، ولم يوقف من خبره إلا على ما عُرف من بعض سواحله وما قرب من جزائره.

(a-a) ساقطة من الأصل . (b) بولاق : ثم منسوب .

Beckingham, C.H., *El*² art. *Bahr al-Kulzum* I, pp. 960-61.

^١ ابن زهير : الفضائل الباهرة ٩ - ١٠.

^٢ انظر عن بحر القلزم وهو المعروف الآن بالبحر

^٣ فيما يلي ٢١٣.

الأحمر، ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٣٨٧ - ٣٨٨.

وفي جانب هذا البحر الغربي - الذي يخرج منه البحر الرومي الآتي ذكره إن شاء الله - الجزائر الخالدات^١، وهي فيما يُقال ستّ جزائر يسكنها قومٌ مُتَوَحِّشُونَ. وفي جانب هذا البحر الشرقي، ممّا يلي الصين، ستّ جزائر أيضًا تُعرف بجزائر السبلي، نزلها بعض العلويين في أول الإسلام خوفاً على أنفسهم من القتل.

ويخرج من هذا المحيط ستة أبحر: أعظمها اثنان، وهما اللذان عناهما الله تعالى بقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الآية ١٩ سورة الرحمن]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [الآية ٦١ سورة النمل]. فأحدهما من جهة الشرق، والآخر من جهة الغرب.

فالخارج من جهة الشرق يُقال له «البحر الصيني»، و«البحر الهندي»، و«البحر الفارسي»، و«البحر اليمني»، و«البحر الحبشي»، بحسب ما يمرّ عليه من البلدان. وأمّا الخارج من الغرب، فيقال له «البحر الرومي».

فأمّا البحر الهندي الخارج من جهة الشرق، فإنّ مبدأ خروجه من مشرق الصين، وراء خطّ الاستواء بثلاثة عشر درجة، ويجري إلى ناحية الغرب، فيمرّ على بلاد الصين وبلاد الهند إلى مدينة كَنبَايَة وإلى التبير من بلاد مُكرَان. فإذا صار إلى بلاد مُكرَان ينقسم هناك قسمين: أحدهما يسمّى بحر فارس، والآخر يسمّى بحر اليمن، فيخرج بحر اليمن من رُكن جبل خارج في البحر يسمّى هذا الركن رأس الجُمُجَمَة، فيمتدّ من هناك إلى مدينة ظَفَار، ويسير إلى الشَّعْرِ وساحل بلاد حَضْرَمَوْتِ إلى عَدَنَ وإلى باب المندب. وطول هذا البحر الهندي ثمانية / آلاف ميل، في عرض ألف وسبع مائة ميل عند بعض المواضع، ورُبَّمَا ضاقَ عن هذا القدر من العرض.

فإذا انتهى إلى باب المندب يخرج إلى بحر القلزم؛ والمندب جبلٌ طوله اثنا عشر ميلاً، وسعة فوهته قدر ما يرى الرجل الآخر من البرّ تجاهه.

فإذا فارق باب المندب، مرّ في جهة الشمال بساحلي زبيد والحريزة إلى عثّر - وكانت عثّر مقرّ الملك في القديم - ويمرّ من هناك على حلي إلى عشفان والجار، وهي فُرْضَة المدينة النبوية - على الحال بها أفضل الصلاة والسلام والتَّحِيَّةُ والإكرام - ومنها على ما يُقابل الجُحْفَة - حيث يُسمّى اليوم رابغ - إلى الحوراء ومدّين وأبلة والطور وفاران ومدينة القلزم. فإذا وصل إلى القلزم انعطفت

^١ الجزائر الخالدات. جزائر في المحيط الأطنطلي كانت تعرف بـ Iles Fortunée ومنها Canaries كانت مبدأ الأطوال عند فريق من العلماء (المسعودي: مروج الذهب ١: ٩٩).

من جهة الجنوب، ومر إلى القصير وهي فُرْضَة قُوص، ومن القصير إلى عَيْذَاب وهي فُرْضَة البُحَّة، ويمتد من عَيْذَاب إلى بَلَدِ الرِّيلَع - وهو ساحل بلاد الحَبَشَة - ويتصل ببربرا.

وطول هذا البحر ألف وخمسة مائة ميل، وعرضه من أربع مائة ميل إلى ما دونها. وهو بحر كرية المنظر والرائحة.

وفي هذا البحر مَصَبُ دِجَلَة والفرات، وعلى أطرافه بلاد السُّنْد وبلاد اليَمَن كأنها جزائر أحاط بها الماء من جهاتها الثلاث، وهو يزدع نهر مَهْرَان كَرْدَع البحر الرومي لنيل مصر.

وفيه - فيما بين مدينة القُلْزُم ومدينة أَيْلَة - مكان يُعرف بمدينة فاران، وعندها جبل لا يكاد يُنجم منه مَرَكَبٌ لشدّة اختلاف الرِّيح وقوّة تمرّها من بين شعبتَي جَبَلَيْن^١، وهي بركة سعتها ستة أميال تُعرف ببركة الغُرُنْدَل، يُقال إن فرعون غرق فيها. فإذا هبَّت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة.

ويقال إن الغُرُنْدَل اسم صنم كان في القديم هناك، قد وُضِعَ ليحبس من خرج من أرض مصر مُغاضِبًا للملك أو فارًا منه، وإن موسى - عليه السلام - لما خرج بيني إسرائيل من مصر وصار بهم مُشْرِقًا، أمره الله سبحانه أن ينزل تجاه هذا الصنم، فلما بلغ ذلك فرعون ظن أن الصنم قد حبس موسى ومن معه ومنعهم من المسير، كما يَعْهَدُونه منه، فخرج بجنوده في طلب موسى وقومه ليأخذهم بزعمه، فكان من غرقه ما قصه الله سبحانه.

وسيرد خبر موسى - عليه السلام - عند ذكر كنيسته دَمُوه من هذا الكتاب في ذكر كنائس اليهود^٢.

وفي بحر القُلْزُم هذا خمس عشرة جزيرة. منها أربع عامرات، وهي: جزيرة دَهْلَك، وجزيرة سَوَاكِن، وجزيرة التُّعْمَان، وجزيرة السَّامِرِي.

ويخرج من هذا البحر خَلِيجَان: خَلِيجٌ لطيفٌ ببلاد الهند المتصلة بالبحر الأعظم، وخليج يحول بين بلاد السودان وبلاد اليَمَن عرض زُقاقه نحو من فَرْسَخَيْن.

ويقرب هذا البحر من البحر الرومي في أعالي بلاد الشَّام وديار مصر حتى يكون بينهما نحو يوم.

^٢ انظر فيما يلي ٢: ٤٦٥.

^١ انظر فيما يلي ٥١٢.

ذِكْرُ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ

ولما كانت عدّة بلادٍ من أرض مصر مُطلّة على البحر الرُّومي^١ كمدينة الإسكندرية ودمياط وتّيس والفرّما والعريش وغير ذلك ، وكان حدُّ أرض مصر ينتهي في الجهة الشماليّة إلى هذا البحر وهو نهاية مصبّ النيل ، حَسُنَ التّعريف بشيءٍ من أخباره :

٥ وقد تقدّم أنّ مَخْرَجَ البحر الرُّومي هذا من جهة الغرب ، وهو يخرج في الإقليم الرابع بين الأندلس والغرب سائراً إلى القسطنطينيّة .

ويقال إنّ هركلش^(a) الجبّار حَفَرَهُ وأجرّاه من البحر المحييط الغربي ، وأنّ جزيرة الأندلس وبلاد البرّبر كانت أرضاً واحدّة يسكنها الأشبان والبرّبر^(b) ، فكان بعضهم يُغير على بعض ، إلى أن ملك هركلش^(a) الجبّار بن ملكا بن^(c) بيديعوس^(d) بن إغريقش بن يونان ، فرغّب إليه الأشبان في أن يجعل بينهم وبين البرّبر خليجاً من البحر يمكن به اختراز كلّ طائفة عن الأخرى ، فحَفَرَ زُقَاقاً طوله ثمانية عشر ميلاً في عرض اثني عشر ميلاً ، وبَنَى بجانبه سِكرين وعَقَدَ بينهما قنطرة يُجَازُ عليها ، وجَعَلَ عندها حرساً يمنعون البرّبر من الجواز عليها إلّا بإذن . وكان قاموسُ البحر أعلا من أرض هذا الزُقَاق ، فَطَمَى الماء حتى غَطَّى السُكرين مع القنطرة وساقَ بين يديه بلاداً كثيرة ، وطمى على عدّة بلاد .

١٥ ويُقال إنّ المُسافرين في هذا الزُقَاق بالبحر يُخبرون أنّ المراكبَ في بعض الأوقات يتوقّف سَيْرُها مع وُجود الرّيح فيجدون المانع لها كونها قد سلّكت بين شرافات الشور وبين حائطين . ثم غَطَمَ هذا الزُقَاق في الطول والعرض حتى صارَ بحرًا عرضه ثمانية عشر ميلاً ، ويذكرون أنّ البحرَ إذا جَزَرَ ترى القنطرة حينئذ .

وهذا الخبرُ أَظُنُّه غير صحيح ، فإنّ أخبارَ هذا البحر وكونه بسواجل مصر ، لم يزل ذكره في الدهر الأوّل قبل هركلش^(a) بزمان طويل ، فإنّما أن يكون ذلك قد كان في أوّل الدهر ممّا عمله

(a) بولاق : إسكندر . (b) بولاق : البربر والأشبان . (c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : سلقوس .

^١ عن بحر الروم المعروف الآن بالبحر المتوسط La Méditerranée ، انظر مقال Dunlop, D.M., *El art. Bahr al-* *Rûm* I, pp. 963-65 .

بعض الأوائل ، وإما أن يكون خبرًا وإهيتًا ، وإلا فزمان هركلش^a حادث بعد كَوْن هذا البحر ، والله أعلم .

وهذا الزقاق صَعْبُ السُّلوك ، شديد الهَوْل ، مُتلاطِمُ الأمواج . وإذا خَرَجَ البحرُ من هذا الزقاق ، مَرَّ مشرِّقًا في بلاد البَرِّبَرِ وشمال الغرب الأقصى إلى وَسَطِ بلاد المغرب على إفريقية وبرقة والإسكندرية وشمال التيه وأرض فلسطين والسواجل من بلاد الشام ، ثم يعطف / من هناك إلى العُلايا وأنطاكية إلى ظُهر بلاد القُسطنطينية ، حتى ينتهي إلى البحر المحيط الذي خَرَجَ منه .

وطولُ هذا البحر خمسة آلاف ميل ، وقيل ستة آلاف ميل ، وعرضُه من سبع مائة ميل إلى ثلاث مائة ميل ، وفيه مائة وسبعون جزيرة عامرة فيها أُمم كثيرة معروفة ، إلا أنه ليس من شرط هذا الكتاب ، منها صِقْلِيَّة وميوزقة وإقريطش .

وقباله البحر الهندي من جهة المغرب بحرٌ خارج من المحيط في مَغرب بلاد الرُّبج ، ينتهي إلى قريب من جبل القمر ، وفيه مَصَبُ النيل المار على بلاد الحبشة ، وفي أسفله جزائر الخاليدات التي هي مُنتهى الطول في المغرب .

ويُقابلُ البحر الشامي من ناحية المشرق بحرٌ مجزجان ، وقيل إنه يتصل بالبحر المحيط من بين جبال شامخة .

وبَحْرُ الصَّقَلْبِ بحرٌ يخرج من جهة المغرب بين الإقليم السادس والإقليم السابع ، وهو مُتسع ، وفيه جزائر كثيرة ، ومنها جزيرة الأندلس إلا أنها تتصل بالبرِّ الكبير ، وهو جبل كالذراع يتصل بهذا البرِّ عند بَرِّشلونة ، ولهم بحر - يُعرف بـ : يأجوج ومأجوج - غزير وفيه عجائب ، إلا أنه ليس من شرط هذا الكتاب ذكرها . ويُقال إن مسافة هذا البحر الرومي نحو أربعة أشهر .

وقال أبو الرِّيحان محمد بن أحمد البيروني^١ في كتاب «تحدد نهايات الأماكن لتصحح مسافات المساكن» : وقد كان حِرْصُ^b بعض ملوك الفرس في بعض استيلائهم على مصر ، على

(a) بولاق : إسكندر . (b) بولاق : حرص .

^١ أبو الرِّيحان محمد بن أحمد البيروني ، أحد أكبر كبار العلماء المسلمين ، وأكثرهم أصالة وعمقًا ، وتخصص في العلوم الرياضية والفلك والطبيعة ، كما اشتهر أيضًا كجغرافي ومؤرخ ، وأطلقت عليه المصادر لقب «الأستاذ» ، وتوفي في =

أَنْ يَخْفُرُوا مَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ : الْقُلْزُومِ ، وَالرُّومِيِّ ، وَيَزْفَعُوا الْبَرْزَخَ^(a) مِنْ بَيْنَهُمَا ، وَكَانَ أَوْلَهُمْ سَاسِيْسُ طِرَاطِسَ^(b) الْمَلِكِ ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ دَارِيُوشُ الْمَلِكِ ، فَلَمْ يَتِمَّكَنْ لَهُمْ ذَلِكَ لِارْتِفَاعِ مَاءِ الْقُلْزُومِ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ . فَلَمَّا كَانَتْ دَوْلَةُ الْيُونَانِيِّينَ جَاءَ بَطْلَمَيْوسُ الثَّالِثُ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى يَدِ أَرْشَمِيدَسَ ، بِحَيْثُ يَحْصُلُ الْغَرَضُ بِلَا ضَرَرٍ . فَلَمَّا كَانَتْ دَوْلَةُ الرُّومِ الْقِيَاصِرَةَ طَمَّوهُ مَنَعًا لِمَنْ يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ^١ .

وَذَكَرَ بَعْضُ أَصْحَابِ السِّيَرِ مِنَ الْفَلَاسِيفَةِ أَنَّ مَا بَيْنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَبِلَادِهَا وَبَيْنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ كَانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ أَرْضًا تُنْبِتُ الْجَمِيمِيزَ ، وَكَانَتْ مَسْكُونَةً وَنَحْمَةً ، وَكَانَ أَهْلُهَا مِنَ الْيُونَانِيَّةِ ، وَأَنَّ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ خَرَقَ إِلَيْهَا الْبَحْرُ فَغَلَبَتْ أَمْوَاهُ^(c) عَلَى تِلْكَ الْأَرْضِ .

وَكَانَ بِهَا - فِيمَا يَزْعُمُونَ - الطَّائِرُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ قِقْنُسُ ، وَهُوَ طَائِرٌ حَسَنُ الصَّوْتِ ، وَإِذَا حَانَ مَوْتُهُ زَادَ حُسْنَ صَوْتِهِ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَبْعَةِ أَيَّامٍ حَتَّى لَا يُتِمَّكَنْ أَحَدٌ يَسْمَعُ صَوْتَهُ لِأَنَّهُ يَغْلُبُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ حُسْنِ صَوْتِهِ مَا يُمَيِّتُ السَّمَاعَ ، وَأَنَّهُ يُدْرِكُهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَيَّامٍ طَرَبَتْ عَظِيمٌ وَسُرُورٌ فَلَا يَهْدَأُ مِنَ الصَّيَاحِ .

وَزَعَمُوا أَنَّ عَامِلَ الْمَوْسِيقَى مِنَ الْفَلَاسِيفَةِ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتِ قِقْنُسٍ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، فَخَشِيَ إِنْ هَجَمَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلَهُ حُسْنُ صَوْتِهِ ، فَسَدَّ أُذُنِيهِ سَدًّا مُتَحَكِّمًا ، ثُمَّ قَرَّبَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَفْتَحُ مِنْ أُذُنِيهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ حَتَّى اسْتَكْمَلَ فَتَّحَ الْأُذُنِينَ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، يُرِيدُ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى سَمَاعِهِ رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ ، فَلَا يَبْتَعَثُهُ حُسْنُهُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ فَيَأْتِي عَلَيْهِ .

وَزَعَمُوا أَنَّ ذَلِكَ الطَّائِرَ هَلَكَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ وَلَا مِنْ فِرَاحِهِ شَيْءٌ بِسَبَبِ هُجُومِ مَاءِ الْبَحْرِ عَلَيْهِ وَعَلَى رَهْطِهِ بِاللَّيْلِ فِي الْأَوْكَارِ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ بَقِيَّةٌ .

(a) بولاق : ورفعوا من بينهما البرزخ ، البيروني : ورفعوا البرزخ عما بين البحرين . (b) بولاق : ثاسيس بن طراطس ، البيروني : سيس طراطس . (c) ساقطة من بولاق .

= غزوة بعد سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م . كتب البيروني سلسلة من المؤلفات المهمة اعتمد المقرئ في الخطط على ثلاثة منها . حيث نقل مرة واحدة عن كتاب «تحديد نهايات الأماكن» وعن كتاب «القانون المسعودي» (فيما يلي ٢٥١:١) . أما كتابه الثالث «الآثار الباقية عن القرون الخالية» فقد اعتمد عليه المقرئ في مواضع كثيرة ، وخاصة عند حديثه عن «تاريخ الخليفة» وتواريخ الأمم السابقة على الإسلام ، أحياناً دون الإشارة إليه ، ولكن في أغلب الأحيان كان يسند إليه ما نقله عنه (انظر المقدمة) .
١ البيروني : تحديد نهايات الأماكن وتصحيح =

ويقال إن بعض الفلاسفة أراد ملكاً من الملوك قتله، فأعطاه قَدْحًا فيه سُمٌ ليشربه فأعلمه بذلك، فظهر منه مسرّة وقرح، فقال له ما هذا أيها الحكيم؟ فقال: هل أعجز أن أكون مثل قنّس؟

ذكر اشتقاق مِصر ومعناها وتعداد^(a) أسمائها

يقال كان اسمها في الدهر الأول قبل الطوفان «جزلة»^١، ثم سُمّيت «مِصر».

وقد اختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله سُمّيت هذه الأرض بِمِصر، فقال قوم: سُمّيت بمصرم بن مراكثيل بن دوائيل بن عرياب بن آدم، وهو مِصر الأول^٢. وقيل: بل سُمّيت بِمِصر الثاني، وهو مِصرام بن نَقراوس الجبار ابن مِصرم الأول، وبه سُمّي مِصر بن يِصْر بن حَام بعد الطوفان^٣. وقيل: بل سُمّيت بِمِصر الثالث، وهو مِصر بن يِصْر بن حَام بن نُوح، وهو اسم أعجمي لا يَنصرف؛ وقال آخرون: هي اسم عربي مُشتق.

فأما من ذهب إلى أن مِصر اسم أعجمي، فإنه استدلّ بما رواه أهل العلم بالأخبار من نزول مِصر بن يِصْر بهذه الأرض، وقسمتها بين أولاده فعرفت به^٤.

وذكر الحسن بن أحمد الهمداني^٥ أن مِصر بن حَام هو^(b) مِصرايم. وقيل: إنما سُمّي بمِصر^(c)

(a) بولاق: تعدد. (b) بولاق والإكليل: وهو. (c) بولاق: وقيل إن يبصر والمثبت من الإكليل.

الهمداني المعروف بلسان اليمن وبابن الحائك، أحد كبار علماء اليمن كان فقيهاً ونشابة ومؤرخاً وطبيباً، وكان عارفاً بكتابة المُسند وضمن كتابه الإكليل في أنساب جُمُير وملوكها - وهو في عشرة مجلدات - جميع تاريخ اليمن القديم، لذلك اعتبره اليمنيون كتاب مجدها وحضارتها وتاريخها وسجل أنسابها وقبائلها وشعوبها. ويقف مصنفه هذا دليلاً ساطقاً على سعة معارفه حيث أفرغ فيه جماع معارفه بالأنساب والتاريخ والآثار، ولم يكتف بعرض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي قبل الإسلام بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد وذلك على ضوء دراسته المباشرة للنقوش التاريخية، واستطاع في كثير من

= مسافات المساكن، حققه پ. بولجاكوف، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثامن، القاهرة ١٩٦٢، ٤٩.

^١ في النجوم الزاهرة. زجلة من الزجلة.

^٢ انظر فيما يلي ٣٥٠.

^٣ قارن مع ابن خرداذبة: المسالك والممالك ٨٠؛ القلقشندي: صبح ٢: ٣١٤؛ وكذلك الزبيدي: تاج العروس ٣: ٥٤٣ (ربما نقلاً عن المقرئ أو ابن إياس).

^٤ ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٩؛ وقارن ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٩، وفيما يلي ٤٢: ١.

^٥ أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف

ابن هُرْمِيسَ بنِ هَرْدَسَ جَدِّ الإِسْكَندَرِ^١. قَالَ وَنَكَحَ فُوطَ^(a) بنِ حَامِ بَحْتِ^(b) بنتِ تَبَاوِيلَ بنِ تَرَسِ^(b) ابنِ يَافِثِ بنِ نُوحٍ، فَوَلَدَتْ لَهُ بُوْقِيرَ وَقِبْطَ - أبا القِبْطِ قِبْطَ مِصْرَ - وَمِنْ هِهْنَا [وَهُمَ الَّذِينَ قَالُوا]^(c) إِنَّ مِصْرَ بنِ حَامٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِصْرُ بنِ هُرْمِيسَ بنِ هَرْدَسَ بنِ مِيطُونِ بنِ رُومِي^(d) بنِ لِيْطِي بنِ يُونَانَ، وَبِهِ سُمِّيَتْ مِصْرُ فَهِيَ مَقْدُونِيَّةٌ^٢.

وَذَكَرَ أَبُو الحَسَنِ المَسْعُودِي^٣ فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الزَّمَانِ» أَنَّ بَنِي آدَمَ لَمَّا تَحَاسَدُوا وَبَغَى^(e) عَلَيْهِمُ بَنُو قَائِيلَ بنِ آدَمَ، رَكِبَ نَقْرَاوُسَ الجَبَّارِ ابنِ مِصْرِيمَ بنِ مَركَائِيلَ بنِ دَوَائِيلَ بنِ غَرِيَابِ^(f) بنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي نَيْفٍ وَسَبْعِينَ رَاكِبًا مِنْ بَنِي غَرِيَابِ^(f) جَبَابِرَةَ، كُلَّهُمْ يَطْلُبُونَ مَوْضِعًا مِنَ الأَرْضِ يَقْطُنُونَ فِيهِ فِرَارًا مِنْ بَنِي أَبِيهِمْ. فَلَمَّ يَزَالُوا يَمْتَشُونَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى النَّيْلِ فَأَطَالُوا المَشْيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَوْا سَعَةَ البَلَدِ فِيهِ وَحُسْنَهُ، أَعْجَبَتْهُمْ وَقَالُوا: هَذِهِ بَلَدٌ زَرْعٌ وَعِمَارَةٌ، فَأَقْطَنُوا فِيهِ وَاسْتَوْطَنُوا؛ وَبَنَوْا فِيهِ الأَبْنِيَةَ / المَحْكَمَةَ وَالصَّنَائِعَ العَجِيبَةَ، وَبَنَى نَقْرَاوُسَ مِصْرَ وَسَمَّاهَا بِاسْمِ أَبِيهِ مِصْرِيمَ^٤.

وَكَانَ نَقْرَاوُسَ جَبَّارًا لَهُ قُوَّةٌ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ عَالِمًا، وَلَهُ ائْتَمَرَ الجِئُّ فِي هَلَاكِ بَنِي أَبِيهِ، وَلَمْ يَزَلْ مُطَاعًا. وَقَدْ كَانَ وَقَعَ إِلَيْهِ مِنَ العُلُومِ، الَّتِي كَانَ دَوَائِيلَ عَلَّمَهَا لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا قَهَرَ بِهِ الجَبَابِرَةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ وَمُلُوكَهُمْ.

ثُمَّ أَمَرَ، حِينَ مَلَكَ، بِنِيبَاءِ مَدِينَةٍ فِي مَوْضِعِ نَحِيمَتِهِ، فَقَطَّعُوا لَهُ الصُّخُورَ مِنَ الجِبَالِ، وَأَثَارُوا مَعَادِنَ الرِّصَاصِ، وَبَنَوْا مَدِينَةَ سَمَّاهَا أُمُّسُوسُ^٥، وَأَقَامُوا فِيهَا أَغْلَامًا [طَوَالًا]^(g) طُولَ كُلِّ عِلْمٍ مِنْهَا

(a) بولاق : لو ما . (b) ساقطة من بولاق . (c) إضافة من الإكليل . (d) بولاق : ييطون بن روي .
(e) المسعودي : فغلب . (f) كذا في الأصل وعند قبيث والمسعودي : عرباق . (g) زيادة من المسعودي .

^١ الهمداني : الإكليل ١ : ٦٣ .

^٢ نفسه ٦٤ - ٦٥ .

^٣ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي أكثر الكُتَّابِ الجغرافيين العرب أصالة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وهو مؤلف العديد من المصادر الموسوعية اعتمد المقرئزي على ثلاثة منها هي : مروج الذهب، والتنبيه والإشراف بالإضافة إلى «أخبار الزمان» المنسوب إليه، وتوفي سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م (انظر المقدمة).

^٤ انظر فيما يلي ١٣٦ .

^٥ انظر فيما يلي ٣٥٠ .

= مواضع كتابه أن يوازن بين ما ورد في القرآن الكريم وبين ما جاء في الكتابات الحميرية، فجاءت استنتاجاته مطابقة لكثير من الكشوف الحديثة. توفي بعد سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م (صاعد الأندلسي : التعريف بطبقات الأمم ٢٢٩-٢٣١؛ ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٣٠-٢٣١؛ القفطي : إنباه الرواة ١ : ٢٧٩-٢٨٥؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١٨٧-١٨٩؛ Löfgren, O., *El² art. al-Hamdāni III*, pp. 126-28؛ أمين فؤاد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، القاهرة ١٩٧٤، ٦٨-٧٦).

مائة ذراع، وزرعوا وعمروا الأرض. ثم أمرهم ببناء المدائن والقري، وأسكن كل ناحية من الأرض من رأى؛ ثم حفروا النيل حتى أجروا مائه إليهم، ولم يكن قبل ذلك معتدل الجري، إنما كان ينبتح ويترق في الأرض حتى وجه إلى الثوبة [جماعة حتى]^(a) هندسوه وساقوا منه أنهاراً إلى مواضع كثيرة من مدينتهم التي بنوها، وساقوا منه نهراً إلى مدينتهم أمسوس يجري في وسطها^١.

ثم سُميت مصر، بعد الطوفان، بمصر^(b) بن بيصير بن حام بن نوح. وذلك أن فليمون الكاهن خرج من مصر ولحق بنوح - عليه السلام - وآمن به هو وأهله وولده وتلاميذه، وزكبت معه في السفينة، وزوج ابنته من بيصير بن حام بن نوح. فلما خرج نوح من السفينة وقسم الأرض بين أولاده - وكانت ابنة فليمون قد ولدت لبيصير ولداً سماه مصرية - فقال فليمون لنوح: اتبعث معي يا نبي الله ابني حتى أمضي به إلى^(c) بلدي، وأظهره على كنوزي، وأوقفه على علومه وزموزه؛ فأفنده معه في جماعة من أهل بيته - وكان غلاماً مرفهاً - فلما قرب من مصر بنى له عريشاً من أغصان الشجر، وستره بحشيش الأرض، ثم بنى له بعد ذلك في هذا الموضع مدينةً وسماها دزسان أي باب الجنة. فزرعوا وغرسوا الأشجار والأجنة من دزسان إلى البحر، فصارت هناك زروع وأجنة وعمار. وكان الذي مع مصرية جبايرة، فقطعوا الصخور، وبنوا المعالم والمصانع، وأقاموا في أزغد عيش^٢.

ويقال إن أهل مصر أقاموا عليهم مصرية بن بيصير ملكاً في أيام تالغ بن عابر بن شايخ بن أرفخشيد بن سام بن نوح، فملك مصر وبنى مدينة منف^(d) على النيل وسماها باسمه. ويقال إن مصرية غرس الأشجار بيده، وكانت يمارها عظيمة بحيث تُشق الأثرجة نصفين فيحمل على البعير نصفها، وكان القثاء في طول أربعة عشر شبراً. ويقال إنه أول من صنع السفن بالنيل، وإن أول سفينة كانت ثلاث مائة ذراع طولاً في عرض مائة ذراع^٣.

(a) إضافة من المسعودي . (b) المسعودي : مصرية (c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : وهي مدينة منبجة .

^١ المسعودي : أخبار الزمان ١١٠-١١١؛ النويري :
نهاية الأرب ١:١٥-٢ (نقلًا عن ابن وصيف شاه)؛ أبو
المحسن : النجوم الزاهرة ١: ٤٨-٤٩ (نقلًا عن المسعودي)؛
^٢ المسعودي : أخبار الزمان ١٥٢-١٥٣، وفيما يلي
٢٢٧ .
^٣ أبو المحسن : النجوم الزاهرة ١: ٤٩ .
وفيما يلي ١٣٦ .

وَيُقَالُ إِنَّ مِصْرِيمَ نَكَحَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي الْكَهَنَةِ فَوَلَدَتْ لَهُ وَوَلَدًا فَسَمَّاهُ قُبْطِيمَ ، وَنَكَحَ قُبْطِيمَ بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ عَمْرِهِ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ : قُبْطِيمَ وَأَشْمُونَ وَأَثْرِيْبَ وَصَا ، فَكَثُرُوا وَعَمَّرُوا الْأَرْضَ وَبُورِكَ لَهُمْ فِيهَا .

وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ عَدَدُ مَنْ وَصَلَ مَعَهُمْ ثَلَاثُونَ رَجُلًا ، فَبَنَوْا مَدِينَةً سَمَّوْهَا نَافَةَ ، وَمَعْنَى نَافَةَ ثَلَاثُونَ بَلْغَتِهِمْ ، وَهِيَ مَنَفٌ . وَكَشَفَ أَصْحَابُ قَلِيمُونَ الْكَاهِنَ عَنْ كُنُوزِ مِصْرَ وَعُلُومِهِمْ ، وَأَثَرُوا الْمَعَادِنَ ، وَعَلَّمُوهُمْ عِلْمَ الطُّلُوسِمَاتِ ، وَوَصَّفُوا لَهُمْ عَمَلَ^(a) الصَّنْعَةِ ، وَبَنَوْا عَلَى غَيْرِ الْبَحْرِ مُدُنًا مِنْهَا رَقُودَةٌ مَكَانَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ . وَلَمَّا حَضَرَ مِصْرِيمَ الْوَفَاةَ عَهْدَ إِلَى ابْنِهِ قُبْطِيمَ ، وَكَانَ قَدْ قَسَمَ أَرْضَ مِصْرَ بَيْنَ بَنِيهِ ، فَجَعَلَ لِقُبْطِيمَ مِنْ قِفْطٍ إِلَى أَسْوَانَ ، وَلِأَشْمُونَ مِنْ أَسْمُونَ إِلَى مَنَفٍ ، وَلِأَثْرِيْبَ الْحَوْفَ كُلَّهُ ، وَلِصَا مِنْ نَاحِيَةِ صَا الْبَحْرِيَّةِ إِلَى قُزْبَ بَرْقَةَ ، وَقَالَ لِأَخِيهِ فَارِقَ : لَكَ مِنْ بَرْقَةَ إِلَى الْقَرْبِ ، فَهُوَ صَاحِبُ إِفْرِيْقِيَّةِ وَوَالِدُ الْأَفَارِقِ ، وَأَمَرَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِيهِ أَنْ يَتَنِي لِنَفْسِهِ مَدِينَةً فِي مَوْضِعِهِ^١ .

وَأَمَرَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ يَحْفَرُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ سَرَبًا ، وَأَنْ يَفْرِشُوهُ بِالْمَرْمَرِ الْأَبْيَضِ وَيَجْعَلُوا فِيهِ جَسَدَهُ ، وَيَدْفِنُوا مَعَهُ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ وَيَزَيَّرُوا عَلَيْهِ أَسْمَاءَ اللَّهِ تَعَالَى الْمَانِعَةَ مِنْ أَخْذِهِ ؛ فَحَفَرُوا لَهُ سَرَبًا طُولُهُ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ ذِرَاعًا ، وَجَعَلُوا فِي وَسَطِهِ مَجْلِسًا مُصَفَّحًا بِصَفَائِحِ الذَّهَبِ ، وَجَعَلُوا لَهُ أَرْبَعَةَ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا تِمْتَالٌ مِنْ ذَهَبٍ ، عَلَيْهِ تَاجٌ مُرْصَعٌ بِالْجَوْهَرِ ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ مِنْ ذَهَبٍ قَوَائِمُهُ مِنْ زَبَرْجَدٍ ، وَزَيَّرُوا فِي صَدْرِ كُلِّ تِمْتَالٍ آيَاتَ مَانِعَةٍ ، وَجَعَلُوا جَسَدَهُ فِي جُزْنٍ^(b) مَرْمَرٍ مُصَفَّحٍ بِالذَّهَبِ ؛ وَزَيَّرُوا عَلَى مَجْلِسِيهِ :

«مَاتَ مِصْرِيمَ بِنُ بَيْتَصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ بَعْدَ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ مَضَتْ مِنْ أَيَّامِ الطُّوفَانِ ، وَلَمْ يَغْتَبِدِ الْأَصْنَامَ ، إِذْ لَا هَرَمَ وَلَا سِقَامَ وَلَا حُزْنَ وَلَا اِهْتِمَامَ ، وَحَصَّنَهُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْعِظَامِ ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا مَلِكٌ وَوَلَدَتُهُ سَبْعَةٌ مُلُوكٌ تَدِينُ بِدِينِ الْمَلِكِ الدِّيَّانِ ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَجْبُوتِ بِالْفَرْقَانَ الدَّاعِي إِلَى الْإِيمَانِ آخِرَ الزَّمَانِ» .

(a) بولاق : ووضعوا لهم عمل . (b) بولاق : جمد .

^١ انظر كذلك فيما يلي ٣٧٠ ، ٥١٤ .

وَجَعَلُوا مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَلْفَ قِطْعَةٍ مِنَ الزَّبْرِجَدِ الْمَخْرُوطِ، وَأَلْفَ تَمْثَالٍ مِنَ الْجَوْهَرِ النَّفِيسِ،
وَأَلْفَ بَرْنِيَّةٍ مَمْلُوءَةٍ مِنَ الدَّرِّ الْفَاخِرِ وَالصَّنْعَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْعَقَاقِيرِ وَالطَّلْشَمَاتِ الْعَجِيبَةِ، وَسَبَائِكَ
الدَّهَبِ، وَسَقَّفُوا ذَلِكَ بِالصُّخُورِ، وَهَالُوا فَوْقَهَا الرُّمَالَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، وَوَلِيَ ابْنَهُ قُبْطِيمَ الْمَلِكِ^١.

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام^٢ في كتاب «التيجان»^(a): أَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ بَنَ يَشْجَبَ بْنَ
يَعْرُبَ بْنَ قَحْطَانَ بْنَ هُودٍ أَخِي عَادِ بْنِ عَائِرِ بْنِ شَالِيحِ بْنِ أَرْفَخْشِيدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَاسْمُ عَبْدِ شَمْسٍ هَذَا عَامِرٌ، وَغَرِفَ بَعْدَ شَمْسٍ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَبَدَ الشَّمْسَ^٣، وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا سَبَأٌ
لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَبَى، وَهُوَ سَبَأُ الْأَكْبَرِ أَبُو حَمِيرٍ وَكَهْلَانَ، مَلَكَ بَعْدَ أَبِيهِ يَشْجَبَ بِأَرْضِ الْيَمَنِ^٤،
جَمَعَ بَنِي قَحْطَانَ وَبَنِي هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَحَثَّهِمْ عَلَى الْعَزْوِ، ثُمَّ سَارَ بِهِمْ إِلَى أَرْضِ بَابِلَ
فَفَتَحَهَا، وَقَتَلَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الثُّورِ حَتَّى بَلَغَ أَرْضَ أَرْمِينِيَّةٍ، وَمَلَكَ أَرْضَ بَنِي يَافِثَ بْنِ نُوحٍ،
وَأَرَادَ أَنْ يَغْتَبِرَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الشَّامِ وَأَرْضِ الْجَزِيرَةِ، فَقِيلَ لَهُ لَيْسَ لَكَ مَجَازٌ غَيْرَ الرَّجُوعِ فِي
طَرِيقِكَ، فَبَنَى قَنْطَرَةً عَلَى الْبَحْرِ بِنَاحِيَةِ^(b).... وَجَازَ عَلَيْهَا إِلَى الشَّامِ، فَأَخَذَ تِلْكَ الْأَرْضِيَّ إِلَى
الدُّزْبِ، وَلَمْ يَكُنْ خَلْفَ الدُّزْبِ إِذْ ذَاكَ أَحَدٌ.

ثُمَّ نَهَضَ يُرِيدُ بِلَادَ الْمَغْرِبِ^(c)، فَتَزَلَّ عَلَى الثَّلِّيلِ، وَجَمَعَ أَهْلَ مَشُورَتِهِ وَقَالَ لَهُمْ: لِأَنِّي رَأَيْتُ أَنَّ
أَبْنِي مِصْرًا - أَي حَدًّا^(d) - بَيْنَ هَذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ - يَعْنِي بَحْرَ الرُّومِ وَبَحْرَ الْقُلُزْمِ - فَيَكُونُ فَاصِلًا بَيْنَ
الْمَشْرِقِ^(e) وَالْمَغْرِبِ^(c)، فَقَالُوا: نِعْمَ الرَّأْيُ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

(a) بولاق: التحائف . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق: الغرب . (d) بولاق: إلى حد . (e) بولاق: الشرق.

^١ المسعودي: أخبار الزمان ١٥٣-١٥٥؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٤-٤٦ (عن ابن وصيف شاه)؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٩-٥٠.

^٢ أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الذهلي عالم ينتمي إلى أسرة من أصل حميري انتقلت من البصرة إلى مصر حيث استقرت بها، وبها ولد عبد الملك وأمضى بها حياته حتى وفاته سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م. اشتهر بكتابه في «السيرة النبوية» الذي اختصر فيه سيرة محمد بن إسحاق، والذي أصبح المصدر الرئيسي لدراسة السيرة النبوية، وكذلك بكتابه حول تاريخ اليمن القديم «التيجان» في ملوك حمير، وهو الذي

ينقل عنه المقرئ هنا (ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ١٧٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠: ٤٢٨-٤٢٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩: ٢١٤؛ Montgomery Watt, W., *El² art. Ibn Hishâm III*, p. 824).

^٣ قارن ابن هشام: التيجان في ملوك حمير ٢٥-٤٧ (حيث نقل المقرئ النسب فقط دون سائر التفاصيل التي أوردها ابن هشام رواية عن وهب بن منبه مؤلف الكتاب الأصلي). وانظر كذلك أخبار عبيد بن شربة الجرهمي ٣٩٧، ٣٩٩.

^٤ نفسه ٤٩، ٥٠، وأخبار عبيد بن شربة ٣٩٧، ٣٩٩.

فَبَتِيَ مَدِينَةَ سَمَّاهَا مِصْرَ وَوَلَّى عَلَيْهَا ابْنَهُ بَابِلْيُونَ ، وَمَضَى إِلَى بَنِي حَامِ بْنِ نُوحٍ - وَهُمْ نُزُولُ فِي الْبَرَارِيِّ إِلَى قَمُونِيَّةٍ وَبَقْمُونِيَّةٍ^(a) الْقَبْطُ - فَأَوْقَعَ بِجَمِيعِ تِلْكَ الطَّوَائِفِ ، وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ كَمَا فَعَلَ بِلِلَادِ الشَّرْقِ ، فَقِيلَ لَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ «سَبَأٌ» . ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ وَمَضَى فِيهَا إِلَى الشَّامِ يُرِيدُ الْحِجَازَ ، وَأَوْصَى ابْنَهُ بَابِلْيُونَ عِنْدَ رَحِيلَةَ فَقَالَ :

[الطويل]

أَلَا قُلْ لِبَابِلْيُونَ وَالْقَوْلُ حِكْمَةٌ
وَأَخَذَ لِبَنِي حَامٍ مِنَ الْأَمْرِ وَسَطَهُ
وَإِنْ جَنَحُوا بِالْقَوْلِ لِلرَّفَقِ طَاعَةً
وَلَا تُظْهِرَنَّ الرَّأْيَ فِي النَّاسِ يَجْتَرُوا
وَلَا تَأْخُذَنَّ الْمَالَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ
وَلَا تُنْفِقَنَّ الْمَالَ فِي غَيْرِ حَقِّهِ
وَدَاوِ ذَوِي الْأَخْقَادِ بِالسَّيْفِ إِنَّهُ
وَأَخَذَ لِدَوِي الْأَخْسَابِ لَيْتًا وَشِدَّةً
وَكَفَى لِسُؤَالِ النَّاسِ غَوْثًا وَرَحْمَةً
وَإِيَّاكَ وَالسُّفْرَ الْقَرِيبَ فَإِنَّهُ

مَلَكْتَ زِمَامَ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ فَاجْمِلُ
فَإِنْ صَدَفُوا يَوْمًا عَنِ الْحَقِّ فَاقْبِلُ
يُرِيدُونَ وَجْهَ الْحَقِّ وَالْعَدْلَ فَاغْدِلُ
عَلَيْكَ بِهِ وَاجْعَلْهُ ضَرْبَةً فَيَصِلُ
فَإِنَّكَ إِنْ تَأْخُذَهُ بِالرَّفَقِ يَسْهَلُ
وَإِنْ جَاءَ مَا لَا يَبْدُ مِنْهُ فَايْزِلُ
مَتَى يَلْقَى مِنْكَ الْعَزْمَ ذُو الْحِقْدِ يُجْمِلُ
وَلَا تَكُ جَبَّارًا عَلَيْهِمْ وَأَجْمِلُ
وَمَنْ يَكُ ذَا عُرْفٍ مِنَ النَّاسِ يُسْأَلُ
سَيُغْنِي بِمَا يُؤَلِيهِ فِي كُلِّ مَسْئَلِ

ثُمَّ عَادَ إِلَى الْيَمَنِ وَبَنَى سَدًّا مَأْرِبَ ، وَهُوَ سَدٌّ فِيهِ سَبْعُونَ نَهْرًا ، وَيَصِلُ إِلَيْهِ الشَّيْلُ مِنْ مَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ فِي مِثْلِهَا ، ثُمَّ مَاتَ عَنْ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ^١ .

وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ حِمَيْرُ بْنُ سَبَأَ ، فَعَتَا بَنُو حَامِ عَلَى بَابِلْيُونَ وَأَرَادُوا تَخْرِيْبَ مِصْرَ ، فَاسْتَدْعَى أَخَاهُ حِمَيْرَ لِيُنْجِدَهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ مِصْرَ ، وَمَضَى إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، فَأَقَامَ بِهَا مِائَةَ عَامٍ بَيْنَ الْمَدَائِنِ وَيَتَّخِذُ الْمَصَانِعَ ، فَمَاتَ [بَعْدَهُ أَخُوهُ]^(b) بَابِلْيُونَ بْنُ سَبَأَ بِمِصْرَ ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ امْرُؤُ الْقَيْسِ ابْنُ بَابِلْيُونَ^٢ .

ثُمَّ مَاتَ حِمَيْرُ بْنُ سَبَأَ عَنْ أَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ وَخَمْسِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، مِنْهَا فِي الْمَلِكِ أَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ ؛ وَأَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ وَائِلُ بْنُ حِمَيْرَ ثُمَّ مَاتَ^٣ .

(a) بولاق : بعمونية . (b) زيادة من التيجان .

^١ ابن هشام : التيجان ٤٨ - ٥٠ ، وفيما يلي ٢٨٧ .^٢ نفسه ٥١ - ٥٥ .^٣ نفسه ٥٣ .

فقام من بعده ابنه الشكسك بن وائل الذي يُقال له مُقَعِّعُ الْمَلِكِ^(a) - وقد افترق مُلْكُ حَمِيرٍ -
فحارِبِ الثُّوَارِ، وسارَ إلى الشَّامِ، فلقية عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن سبأ بالرملة - وقد
مَلَكَ بعد أبيه - وقَدَّم له هدية، فأقرَّه على مصر حتى قَدِمَ عليه إبراهيم الخليل - عليه السَّلام -
ووهبته هاجر^١.

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم^٢ في كتاب «فتوح مصر وأخبارها»،
عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما / قال : كان لئوح - عليه السَّلام - أربعة من الولد : سام
وحام ويافث ويخطون، وأن نوحاً رَغِبَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وسأله أن يَرْزُقَه الإجابة في ولده
وذريته حين تكاملوا بالنماء والبركة، فوعده ذلك . فنادى نوحٌ ولده وهم نيام عند السَّحر، فنادى
ساماً فأجابه يسعَى، وصاح سامٌ في ولده فلم يُجِبْه أحدٌ منهم، إلا ابنه أرفخشيد، فانطلق به معه
حتى أتياه، فوضع نوحٌ يمينه على سام وشماله على أرفخشيد بن سام، وسأل الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن
يُبارِك في سام أفضل البركة، وأن يجعل الملك والثبوة في ولد أرفخشيد.

ثم نادى حاماً وتلفت يمينا وشمالاً، فلم يُجِبْه ولم يَقُمْ إليه هو ولا أحدٌ من ولده، فدعا الله -
عَزَّ وَجَلَّ - نوحٌ أن يجعل ولده أذلاء، وأن يجعلهم عبيداً لولد سام.

وكان مصر بن ينصر بن حام نائماً إلى جنب جدّه، فلما سمع دُعاء نوح على جدّه وولده،
قام يسعَى إلى نوح وقال : يا جدي قد أجبتك إذ لم يُجِبْكَ أبي^(b) ولا أحدٌ من ولده، فاجعل لي
دعوة من دعائك؛ ففرح نوح، ووضع يده على رأسه وقال : «اللهم إنه قد أجاب دعوتي فبارك
فيه وفي ذريته، وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وعرث العباد، التي نهرها أفضل أنهار
الدنيا، واجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض وذلّلها لهم وقوهم عليها». ثم دعا
ابنه يافث، فلم يُجِبْه [هو]^(c) ولا أحدٌ من ولده، فدعا الله عليهم أن يجعلهم شرار الخلق^٣.

(a) بولاق : الحمد، والتيجان : العمدة . (b) بولاق : جدي . (c) زيادة من ابن عبد الحكم .

الوحيد الذي سجل أحداث الفتح العربي الإسلامي لمصر
وكان عليه اعتماد كل الذين تناولوا هذا الموضوع (انظر
المقدمة).

^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ٧-٨؛ ابن
إياس : بدائع الزهور ١/١: ٩-١٠.

^١ ابن هشام : التيجان ٥٧-٥٨.

^٢ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم
مُحَدِّثٌ ومؤرخ مصري المولد والوفاء، توفي بمصر سنة
٢٥٧هـ/٨٧١م. يعد أول مؤرخ لمصر الإسلامية، كما يعد
كتابه الذي وصل إلينا «فتوح مصر وأخبارها»، المصدر

وعاش سامٌ مُبارَكًا إلى أن مات ؛ وعاش ابنه أَرْفَخُشِيدُ بن سامٍ مُبارَكًا حتى مات . وكان المَلِكُ الذي يَهَبُهُ^(a) الله والتُّبُوَّةُ والْبَرَكَةُ في وُلْدِ أَرْفَخُشِيدِ بن سام .

وكان أكبرُ وُلْدِ حام / كَنَعان بن حام - وهو الذي حَبِلَ به في الرِّجْزِ في القُلُك - فدَعَا عليه نُوحٌ فَخَرَجَ أَسْوَدُ ، وكان في وُلْدِهِ الجَفَاءُ والمَلِكُ والجَبْرُوتُ ، وهو أبو السُّودانِ والحَبَشِ كُلِّهِمْ .
وابنه الثاني كُوش بن حام ، وهو أبو السُّنْدِ والهِندِ . وابنه الثالثُ فُوط بن حام ، وهو أبو البَرَبْرِ ،
وابنه الأصغرُ الرابعُ يَيْصَرُ بن حام ، وهو أبو القِبْطِ كُلِّهِمْ^١ .

فَوُلْدُ يَيْصَرَ بن حام أربعة : مصر بن يَيْصَرَ وهو أكبرُهم والذي دَعَا له نُوحٌ بما دَعَا له ، وفارِقُ ابن يَيْصَرَ ، وماح بن يَيْصَرَ [وياح بن ييصر]^(b) . وقيل وُلْدُ مصر أربعة : قِفْطُ بن مصر ، وأشْمُنُ بن مصر ، وأثريب بن مصر ، وصا بن مصر^٢ .

١٠ وعن ابن لَهيعة وعبد الله بن خالِد : أَوَّلُ مَنْ سَكَنَ مِصْرَ يَيْصَرُ بن حام بن نُوح - عليه السَّلَام - بعد أن أَغْرَقَ اللهُ تَعَالَى قَوْمَهُ ، وَأَوَّلُ مَدِينَةٍ عُمِّرَتْ بِمِصْرٍ مَنَّفٌ : فَسَكَنَهَا يَيْصَرُ بَوَلَدَهُ وَهُمْ ثَلَاثُونَ نَفْسًا ، مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ أَوْلَادُ لَهُ قَدْ بَلَغُوا وَتَزَوَّجُوا ، وَهُمْ مِصْرُ وَفَارِقُ وَيَاحُ وَمَاح - وَكَانَ مِصْرُ أَكْبَرَهُمْ - فَبَنُوا مِصْرَ ، وَكَانَ إِقَامَتُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَفْحِ الْمُقَطَّمِ ، وَنَقَرُوا هُنَاكَ مَنَازِلَ كَثِيرَةً^٣ .

وكان نُوحٌ - عليه السَّلَام - قد دَعَا لِمِصْرَ أَنْ يُسَكِّنَهُ اللهُ الأَرْضَ الطَّيِّبَةَ المُبَارَكَةَ الَّتِي هِيَ أُمُّ البِلَادِ وَغَوْثُ العِبَادِ ، وَنَهَرُهَا أَفْضَلُ الأَنْهَارِ ، وَيَجْعَلُ لَهَا فِيهَا أَفْضَلَ البَرَكَاتِ ، وَيُسَخِّرُ لَهَا الأَرْضَ وَلَوْلَدَهُ وَيُدَلِّلُهَا لَهُمْ وَيُقَوِّيَهُمْ عَلَيْهَا ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَوَصَفَهَا لَهُ وَأَخْبَرَهُ بِهَا .

١٥ قالوا : وَكَانَ مِصْرُ بن يَيْصَرَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ لَمَّا دَعَا لَهُ ، وَكَانَ يَيْصَرُ بن حام قد كَبُرَ وَضَعُفٌ ، فَسَاقَ وَوَلَدَهُ مِصْرَ وَجَمِيعَ إِخْوَتِهِ إِلَى مِصْرَ فَتَزَلَّوْهَا ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ مِصْرُ^٤ .

٢٠ فَلَمَّا قَرَّ قَرَارُ يَيْصَرَ وَبَنِيهِ بِمِصْرَ ، قَالَ لِمِصْرَ إِخْوَتِهِ فَارِقُ وَمَاحُ وَيَاحُ بَنُو يَيْصَرَ : قَدْ عَلِمْنَا أَنَّكَ أَكْبَرُنَا وَأَفْضَلُنَا ، وَأَنَّ هَذِهِ الأَرْضُ الَّتِي أَسَكَّنَكَ إِيَّاهَا جَدُّكَ نُوحٌ ، وَنَحْنُ نُضَيِّقُ عَلَيْكَ أَرْضَكَ -

(a) بولاق : يحبه . (b) زيادة من ابن عبد الحكم . (c) في الفضائل الباهرة : نبط .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨ . يلي ٣٦٤ .

^٢ نفسه ٨ . ^٤ نفسه ٤٩ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٦ .

^٣ نفسه ٤٩ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٣١٣ وفيما

وذلك حين كثر ولده وأولادهم - ونحن نطلب إليك البركة التي جعلها فيك جدنا نوح أن تبارك لنا في أرض تلحق بها ونسكنها وتكون لنا وأولادنا .

فقال : نعم ، عليكم بأقرب البلاد إلي ولا تباعدوا مني ، فإن لي في بلادي مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسي ، فتكون لي ولولدي وأولادهم .

فحاز مضر بن يئصر لنفسه ما بين الشجرتين التي بالعريش إلى أسوان طولاً ، ومن بركة إلى أيلة عرضاً . وحاز فارق لنفسه ما بين بركة إلى إفريقية ، وكان ولده الأفارقة ، ولذلك سُميت إفريقية ، وذلك مسيرة شهر . وحاز ماخ ما بين الشجرتين من منتهى حد مصر إلى الجزيرة مسيرة شهر ، وهو أبو قبطن الشام . وحاز ياخ ما وراء الجزيرة كلها ما بين البحر إلى الشرق مسيرة شهر ، وهو أبو قبطن العراق . ثم توفي يئصر بن حام ، ودُفن في موضع دير أبي هرميس غربي الأهرام ، فهي أول مقبرة قبر فيها بأرض مصر^١ .

وكثر أولاد مصر ، وكان الأكابر منهم قفط وأثريب وأشمون وصا ، والقبطن من ولد مصر هذا ويُقال إن قبطناً أخو قفط ، وهو بلسانهم قفطيم وقبطين ومضرايم^٢ .

قال : ثم إن يئصر بن حام توفي ، واشتخلف ابنه مصر ، وحاز كل واحد من إخوة مصر قطعة من الأرض لنفسه سوى أرض مصر التي حازها لنفسه ولولده . فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم ، قطع مصر لكل واحد من ولده قطعة يحوزها لنفسه ولولده ، وقسم لهم هذا النيل . فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها ، وبه سُميت قفط قفطاً ، وما فوقها إلى أسوان وما دونها إلى أشمون في الشرق والغرب . وقطع لأشمون من أشمون فما دونها إلى منب في الشرق والغرب ، فسكن أشمون فسُميت به . وقطع لأثريب ما بين منب إلى صا ، فسكن أثريب فسُميت به . وقطع لصا ما بين صا إلى البحر ، فسكن صا فسُميت به . فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء : جزأين بالصعيد ، وجزأين بأشقل الأرض^٣ .

قال البكري^٤ : ومصر مؤنثة . قال تعالى : ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ ، وقال : ﴿ ادخلوا مصر ﴾ . وقال عامر بن وائلة الكِناني لمعاوية : أمّا عمرو بن العاص فأنطقته مصر . وأمّا قوله سبحانه :

^١ ابن عبد الحكم : فتوح ٩٩ ، وفيما يلي ٣٦٨ . ودير أبي هرميس هو الموضع المعروف الآن باسم «سقارة» حيث يوجد الهرم المدرج المعروف بهرم زوسر (فيما يلي ٣١٧) .
^٢ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٧ .
^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٩٩ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٨ .
^٤ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري «أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة»، وكانت اهتماماته الجغرافية =

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ فَإِنَّهُ أَرَادَ مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ . وَقَرَأَ سَلِيمَانُ الْأَعْمَشُ : (اهْبِطُوا مِصْرًا) . وَقَالَ : هِيَ مِصْرُ التِّي عَلَيْهَا سَلِيمَانُ بْنُ عَلِيٍّ ، فَلَمْ يُجْرَهَا ^١ .

وَقَالَ الْقُضَاعِيُّ : وَكَانَ يَبْصُرُ بْنُ حَامٍ قَدْ كَبُرَ وَضَعَفَ ، فَسَاقَهُ وَلَدُهُ مِصْرَ وَجَمِيعَ إِخْوَتِهِ إِلَى مِصْرَ فَتَزَلُّوْهَا ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ مِصْرُ . وَهُوَ اسْمٌ لَا يَنْصَرِفُ فِي الْمَعْرِفَةِ لِأَنَّهُ اسْمٌ مُذَكَّرٌ ، سُمِّيَتْ بِهِ هَذِهِ الْمَدِينَةُ ، فَاجْتَمَعَ فِيهَا التَّأْنِيثُ وَالتَّعْرِيفُ فَمِنَعَاهَا الصَّرْفُ ، ثُمَّ قِيلَ لِكُلِّ مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ يَطْرُقُهَا الشُّفَارُ مِصْرٌ ، فَإِذَا أُريدَ مِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ صُرِفَ لِزَوَالِ إِحْدَى الْعِلْتَيْنِ وَهِيَ التَّعْرِيفُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ﴾ [الآيَةُ ٦١ سُوْرَةُ الْبَقْرَةِ] . فَإِنَّهُ مَصْرُوفٌ فِي قِرَاءَةِ سَائِرِ الْقُرْآنِ ، وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ وَالْأَعْمَشِ غَيْرِ مَصْرُوفٍ . فَمَنْ صَرَفَهَا فَلَهُ وَجْهَانٌ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَرَادَ اهْبِطُوا مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَوْمَئِذٍ فِي التِّيهِ ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ أَرَادَ مِصْرَ هَذِهِ بَعَيْنِهَا ، وَصَرَفَهَا لِأَنَّهُ جَعَلَ مِصْرًا اسْمًا لِلْبَلَدِ ، وَهُوَ اسْمٌ مُذَكَّرٌ سُمِّيَ بِهِ مُذَكَّرٌ فَلَمْ يَمْتَنِعِ الصَّرْفُ . وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَصْرِفْهُ فَإِنَّهُ أَرَادَ بِمِصْرٍ هَذِهِ الْمَدِينَةَ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿ادْخُلُوا مِصْرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ [الآيَةُ ١٠٠ سُوْرَةُ يُوسُفَ] ، وَقَوْلُ فِرْعَوْنَ : ﴿الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الآيَةُ ٥١ سُوْرَةُ الزَّخْرَفِ] . إِتْمَا يُرَادُ بِهِ مِصْرُ هَذِهِ ^٢ .

فَأَمَّا الْمِصْرُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فَهُوَ الْحَدُّ بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ . وَيُقَالُ إِنَّ أَهْلَ هَجْرٍ يَقُولُونَ : اشْتَرَيْتُ الدَّارَ بِمِصْرِهَا ، أَيَ بِحُدُودِهَا ^٣ . وَقَالَ الْجَاهِظُ / فِي كِتَابِ «مَدْحِ مِصْرٍ» ^٤ : إِتْمَا سُمِّيَتْ مِصْرٌ بِمِصْرٍ لِمِصْرِهَا ^(a)

(a) ساقطة من الأصل .

١٧: ٢٩٠-٢٩٢؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢٩٦-٣٠٢؛ حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ١٠٨-١٤٨؛ عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكري ومنهجه الجغرافي ، الكويت ١٩٩٦ ، Lévi-Prevençal, E., *El² art. Abu^c Ubayd* , (*al-Bakrî* I, pp. 159-61) .

= تخضع إلى حد كبير لميوله الأدبية واللغوية ، وتوفي بقرطبة بالأندلس سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م . وضع البكري مصنفين في الجغرافيا أحدهما وهو «معجم ما استعجم» يمثل نمط الكتب الجغرافية التي وضعها اللغويون ، واعتمد عليه المقرئزي كثيرا في ضبط أسماء المواضع المصرية ، تماما مثلما اعتمد على لغوي أندلسي آخر هو ابن سيدة لنفس الغرض . أما الكتاب الثاني وهو «المسالك والممالك» الذي أتم تأليفه سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م ونحا فيه منحى كتب المسالك والممالك المشرقية في وصف الطرق والمراحل مع بيان بلدان العالم الإسلامي المختلفة ، فلم يعتمد عليه المقرئزي كثيرا (الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٩: ٣٥-٣٦؛ الصفدي : الوافي بالوفيات

^١ البكري : معجم ما استعجم ١٤٠٦ .

^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٢٧٩ .

^٣ ابن قتيبة : غريب الحديث ١: ٤٧٧ وفيما يلي ٥٩ .

^٤ لم أقف في تراجم الجاهظ على كتاب «مدح مصر» .

الناس إليها واجتماعهم بها، كما سُمِّيَ مَصِيرَ الخَوْفِ مَصِيرًا ومُضْرَانًا لمَصِيرِ الطَّعَامِ إليه^١.

قَالَ: وَجَمَعَ المِضْرَ مِنَ البُلْدَانِ أَمْضَارًا، وَجَمَعَ مَصِيرَ الطَّعَامِ مُضْرَانًا، وَلَيْسَ لِمِضْرٍ هَذِهِ جَمْعٌ لِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ.

قَالَ: وَقَالَ الأَخْطَلُ: هَمَمْتُ بِالْإِسْلَامِ ثُمَّ تَوَقَّفْتُ عَنْهُ؛ قِيلَ: وَلِمَ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَتَيْتُ امْرَأَةً لِي وَأَنَا جَائِعٌ فَقُلْتُ: أَطْعِمْنِي شَيْئًا، فَقَالَتْ: يَا جَارِيَةَ، ضَعِي لَأَبِي مَالِكٍ مَصِيرًا فِي النَّارِ، فَفَعَلْتُ؛ فَاسْتَعْجَلْتُهَا بِالطَّعَامِ فَقَالَتْ: يَا جَارِيَةَ، أَيْنَ مَصِيرِ أَبِي مَالِكٍ؟ قَالَتْ: فِي النَّارِ. قَالَ: فَتَطَيَّرْتُ، وَهَمَمْتُ بِأَنْ أُسَلِّمَ فَتَوَقَّفْتُ.

وَقَالَ الجَوْهَرِيُّ فِي كِتَابِ «الصَّحَاحِ»: مِضْرٌ هِيَ الْمَدِينَةُ الْمَعْرُوفَةُ تُذَكَّرُ وَتُؤنَّثُ؛ عَنْ ابْنِ السَّرَّاجِ: وَالْمِضْرَانُ: الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ^٢.

وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ «لَيْسَ»^٣: لَيْسَ أَحَدٌ فَسَّرَ لَنَا لِمَ سُمِّيَتْ مِصْرٌ مَقْدُونِيَّةً قَدِيمًا إِلَّا فِي اللُّسَانِ الْعِبْرَانِيِّ، قَالَ: مَقْدُونِيَّةٌ مَغِيثٌ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ مِصْرًا لِأَنَّهَا سَكَنَهَا بَيْضَرُ ابْنُ حَامٍ.

وَتَزَعُمُ الرُّومُ أَنَّ بِلَادَ مَقْدُونِيَّةً جَمِيعًا وَقَفَتْ عَلَى الْكَنِيسَةِ الْعَظْمَى الَّتِي بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَيُسَمُّونَ بِلَادَ مَقْدُونِيَّةَ الْأَوْصَفِيَّةِ، وَهِيَ عِنْدَهُمُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَمَا يُضَافُ إِلَيْهَا، وَهِيَ مِصْرُ كُلِّهَا بِأَسْرَافِهَا إِلَّا الصَّعِيدَ الْأَعْلَى.

وَيُقَالُ لِمِصْرَ: أُمُّ خَنْزُورٍ، وَتَفْسِيرُهُ النُّعْمَةُ. وَالْمِضْرُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ. قَالَ الشَّاعِرُ يَصِفُ اللَّهَ تَعَالَى:

[البسيط]

وَجَعَلَ^(a) الشَّمْسُ مِضْرًا لَا خَفَاءَ بِهِ بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ قَدْ فَصَلَا

(a) بولاق: جاعل.

^١ الفلَقَشْنَدِيُّ: صَبْحُ الْأَعْمَى ٣/٣١٤؛ ابْنُ ظَهْرَةَ: الْعَرَبُ ٧: ٢٤٤؛ الزَّيْدِيُّ: تَاجُ الْعُرُوسِ ٣: ٥٤٣.

^٢ الْفَضَائِلُ الْبَاهِرَةُ ٧. ^٣ لَا يَوْجَدُ هَذَا النَّصُّ فِي الْقِسْمِ الَّذِي وَصَلْنَا مِنْهُ.

^٤ الْجَوْهَرِيُّ: الصَّحَاحُ ٢: ٨١٧؛ ابْنُ مَنْظُورٍ: لِسَانُ كِتَابِ «لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ» لِابْنِ خَالَوَيْهِ.

هذا البيتُ قائله عديُّ بن زيد العبادي^١، ويُرْوَى لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْتِ الثَّقَفِي^٢، وهو من أبيات أولها :

[البيسط]

اشمَعُ نَحْدِيثًا كَمَا يَوْمًا تَحْدَثُهُ
 كَيْفَ بَدَا ثُمَّ رَبِّي اللَّهُ نِعْمَتَهُ
 كَانَتْ رِيَاخٌ وَسَيْلٌ ذُو كِرَانِيَةٍ
 فَأَمَرَ الظُّلْمَةَ السُّودَاءَ فَانْكَشَفَتْ
 وَبَسَطَ الْأَرْضَ بَسْطًا ثُمَّ قَدَّرَهَا
 وَجَاعِلَ الشَّمْسِ مِصْرًا لَا خَفَاءَ بِهِ
 وَفِي السَّمَاءِ مَصَابِيخٌ تُضِيءُ لَنَا
 قَضَى، لَسْتُةَ أَيَّامٍ، خَلِيفَتَهُ
 فَأَخَذَ اللَّهُ مِنْ طِينٍ فَصَوَّرَهُ
 دَعَاهُ آدَمَ صَوْتًا فَاسْتَجَابَ لَهُ
 ثَمَّةَ أَوْزَرْتَهُ الْفِرْدَوْسَ يَشْكُنُهَا
 لَمْ يَنْهَهُ رَبُّهُ عَنْ غَيْرِ وَاحِدَةٍ
 وَكَانَتْ الْحَيَّةُ الرَّقِشَاءُ إِذْ خُلِقَتْ
 فَلَامَهَا اللَّهُ إِذْ أَطَعَتْ خَلِيفَتَهُ
 تَمَّشِي عَلَى بَطْنِهَا فِي الْأَرْضِ مَا عَمُرَتْ
 ٥
 ١٠
 ١٥
 ٢٠

وقال الحافظُ أبو الخطَّابِ مَجْدُ الدِّينِ عُمَرُ بْنُ دِيحِيَّةَ^٣ : وَمِصْرٌ أَخْصَبُ بِلَادِ اللَّهِ ، وَسَمَّاها اللَّهُ بِمِصْرَ ، وَهِيَ هَذِهِ دُونَ غَيْرِهَا يَأْجُمَاعُ الْقُرَاءِ عَلَيَّ تَرَكُ صَرْفِهَا . وَهِيَ اسْمٌ لَا يَنْصَرِفُ فِي مَعْرِفَةِ

^١ عديُّ بن زيد العبادي التميمي ، شاعرٌ جاهليٌّ نصرانيٌّ من فحول الشعراء ، لا يعرف تاريخ وفاته ، قيل إنه توفي قبل الإسلام وقيل إنه توفي في زمن الخلفاء الراشدين (ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١٤٠-١٤٢ ؛ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ : ٢٢٥-٢٣٣ ؛ أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ٤ : ١٢٠-١٣٣ ؛ ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ٢٦٢-٢٦٨ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٩ : ٣٩٥-٤٠٠) .

^٢ أبو الخطَّابِ عمر بن الحسن بن علي بن محمد ينتهي نسبه إلى ديحِيَّة الكَلْبِيِّ الصَّحَابِيِّ المعروف بشيبه جبريل عليه السلام ، الأندلسي البُلَنْسِيُّ الدَّانِي ، من أعيان العلماء متقنًا لعلم الحديث وشغل بطلبه في أكثر بلاد الأندلس . ثم =

^١ عديُّ بن زيد العبادي التميمي ، شاعرٌ جاهليٌّ نصرانيٌّ من فحول الشعراء ، لا يعرف تاريخ وفاته ، قيل إنه توفي قبل الإسلام وقيل إنه توفي في زمن الخلفاء الراشدين (ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١٤٠-١٤٢ ؛ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ : ٢٢٥-٢٣٣ ؛ أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ٢ : ٩٧-١٠٤ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥ : ١١٠-١١١ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩ : ٥٣٠-٥٣١) .

^٢ أُمَيَّة بن أبي الصَّلْتِ عبد الله بن أبي ربيعة بن عَوْف

لأنه اسمٌ مُذَكَّرٌ سُمِّيَتْ به هذه المَدِينَةُ ، واجتمع فيه التَّأْنِيثُ والتعريفُ فمنعاه الصَّرْفُ . وهي عندنا مُشْتَقَّةٌ من : مَصْرَتِ الشَّاةِ إِذَا أَخَذَتْ مِنْ ضَرْعِهَا اللَّبَنَ ، فَسُمِّيَتْ مِصْرَ لِكثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ مِمَّا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا ، فَلَا يَخْلُو سَاكِنُهَا مِنْ خَيْرٍ يُدَرِّ عَلَيْهِ مِنْهَا كَالشَّاةِ الَّتِي يُتَنَفَّعُ بِلَبَنِهَا وَصُوفِهَا وَوِلَادَتِهَا ^١ .

وقال ابنُ الأعرابي ^٢ : المِصْرُ الوُعَاءُ ، ويُقَالُ لِلْمِعَا : المَصِيرُ ، وجمعه مُصْرَانٌ وَمِصَارِينٌ .

وكذلك هي خَزَائِنُ الأَرْضِ ، قال أبو بَصْرَةَ الغِفَارِيُّ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : مِصْرُ خَزَائِنِ الأَرْضِ كُلِّهَا ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ يُوسُفَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية ٥٥ سورة يوسف] . فَأَغَاثَ اللَّهُ بِمِصْرٍ يَوْمَئِذٍ وَخَزَائِنِهَا كُلَّ حَاضِرٍ وَبَادٍ ؛ ذَكَرَهُ عَنْ ^(a) الْحَوْفِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ .

وقال البَكْرِيُّ : أُمُّ خَنْزُورٍ . بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَتَشْدِيدِ ثَانِيهِ وَبِالرَّاءِ الْمَهْمَلَةِ - اسْمٌ لِمِصْرَ ؛ وَقَالَ أَرْطَاةُ بْنُ شَهِيَّةٍ :

[البسيط]

يا آلَ ذُبْيَانَ ذُوذُوا عَنْ دِمَائِكُمْ وَلَا تَكُونُوا لِقَوْمِ أُمِّ خَنْزُورٍ
يقول : لَا تَكُونُوا أَذِلَّةً ، يِنَالِكُمْ مِنْ أَرَادَ ، وَيَأْخُذُ مِنْكُمْ مِنْ أَحَبَّ ، كَمَا تُنْتَارُ مِصْرُ وَهِيَ أُمُّ خَنْزُورٍ .

(a) ساقطة من بولاق .

النبلاء ٢٢:٣٨٩-٣٩٥؛ تذكرة الحفاظ ٤: ١٤٢٠-
١٤٢٢؛ المقرئ: نفع الطيب ٢: ٩٩-١٠٤، مقدمة
عباس العزاوي لكتاب النبراس ومقدمة إبراهيم الإياري
لكتاب المطرب؛ *El² art. Ibn de la Granja, F.,*
(Dihya, III, p. 770) .

^١ قارن ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٩؛ الزبيدي: تاج
العروس ٣: ٥٤٣ .

^٢ محمد بن زياد الأعرابي من أئمة علم اللغة توفي سنة
٢٣١هـ/٨٤٦م (راجع ابن النديم: الفهرست ٧٥-٧٦؛
الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٥: ٢٨٢-٢٨٥؛ القفطي:
إنباه الرواة ٣: ١٢٨-١٣٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات
٣: ٧٩-٨٠؛ *Sezgin, F., GAS VII, pp. 127-129* .

= رحل منها إلى بَرِّ العَدْوَةِ ودخل مُرَاكَشَ وارتمل منها إلى
إفريقية ومنها إلى الديار المصرية ثم إلى الشام والشرق
والعراق ، كما دخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها
ومازندران ، كل ذلك في طلب الحديث . وفي زيارته الثانية
لمصر ولأه السلطان الكامل محمد رئاسة دار الحديث الكاملة
التي أنشأها سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٧م - وهي ثاني مدرسة
عملت للحديث - (انظر فيما يلي ٢: ٣٧٥) وظل بمصر إلى
أن توفي بها سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عن سبع وثمانين سنة
ودفن في سفح المقطم . من مؤلفاته : النبراس في تاريخ خلفاء
بني العباس ، والمطرب من أشعار أهل المغرب (راجع ، ابن
خلكان : وفيات الأعيان ٣: ٤٤٨-٤٥٠؛ أبا شامة ، تراجم
رجال القرنين السادس والسابع ١٦٣؛ الذهبي : سير أعلام

وقال كُرَاعٌ : أُمُّ خَنْوَرِ النَّعْمَةِ ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ مِصْرُ أُمِّ خَنْوَرٍ لِكَثْرَةِ خَيْرِهَا .
وقال علي بن حمزة^١ : سُمِّيَتْ أُمُّ خَنْوَرٍ ، لِأَنَّهَا يُسَاقُ إِلَيْهَا / الْقِصَارُ الْأَعْمَارُ . وَيُقَالُ لِلضَّبْعِ :
خَنْوَرٌ وَخَنْوَزٌ ، بِالْبَاءِ وَالزَّيِّ ^٢ .

وقال ابن قُتَيْبَةَ فِي «غَرِيبِ الْحَدِيثِ» : وَمِصْرُ الْحَدِّ ، وَأَهْلُ هَجْرٍ يَكْتُبُونَ فِي شُرُوطِهِمْ : اشْتَرَى
فُلَانٌ الدَّارَ بِمُصَوْرِهَا كُلِّهَا ، أَي بِحُدُودِهَا ؛ وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ^٣ :

[البسيط]

وَجَعَلَ^٤ الشَّمْسُ مِصْرًا لَا خَفَاءَ بِهِ بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ قَدْ فَصَلَا
أَي : حَدًّا^٤ .

ذِكْرُ طَرْفٍ مِنْ فَضَائِلِ مِصْرَ

- ١٠ ولمصر فضائل كثيرة ، منها أن الله - عز وجل - ذكَّرها في كتابه العزيز بضعا وعشرين مرة ، تارة
بصريح الذكر وتارة إيماء ؛ قال تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ ﴾ [الآية ٦١ سورة البقرة] .^٥ قال
أبو محمد عبد الحق بن عطية في «تفسيره للقرآن»^٦ : وَجُمُهِورُ النَّاسِ يَقْرَأُونَ مِصْرًا بِالتَّنْوِينِ ، وَهُوَ
نَحْوُ الْمَصَاحِفِ ، إِلَّا مَا حُكِيَ عَنْ بَعْضِ مَصَاحِفِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ^٧ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
وقال مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ : مَنْ صَرَفَهَا أَرَادَ مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ غَيْرِ مُعَيَّنٍ ، وَاسْتَدَلُّوا بِمَا اقْتَضَاهُ الْقُرْآنُ
١٥ مِنْ أَمْرِهِمْ بِدُخُولِ الْقَرْيَةِ ، وَبِمَا تَطَاهَرَتْ بِهِ الرَّوَايَةُ أَنَّهُمْ سَكَنُوا الشَّامَ بَعْدَ التَّيِّهِ .
وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ صَرَفَهَا : أَرَادَ مِصْرَ فِرْعَوْنَ بَعِينَهَا ، وَاسْتَدَلُّوا بِمَا فِي الْقُرْآنِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْزَرَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ دِيَارَ فِرْعَوْنَ وَأَنَارَهُ ، وَأَجَازُوا صَرَفَهَا . قَالَ الْأَخْفَشُ : لَخِفَّتِهَا وَشَبَّهَهَا بِهَيْدٍ وَدَعَدَ .
وَسَبَّوْهُ لَا يُجِيزُ هَذَا . وَقَالَ غَيْرُ الْأَخْفَشِ : أَرَادَ الْمَكَانَ فَصُرِفَ .

(a) بولاق : وجاعل . (b) ساقطة من بولاق .

^١ أي علي بن حمزة الكسائي .

^٢ البكري : معجم ما استعجم ٥١٤ .

^٣ ديوان عددي بن زيد ، نشره محمد جبار المعيد ، بغداد

١٩٦٥ ، ١٥٩ .

^٤ ابن قتيبة : غريب الحديث ١ : ٤٧٧ ، وفيما تقدم ٥٦ .

^٥ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٤ : نقلًا عن ابن زولاق ،

وفيما يلي ١ : ٢٤ ؛ وانظر كذلك المسعودي : مروج الذهب

٢ : ٦٥ - ٦٨ ؛ ابن الكندي : فضائل مصر المحروسة ٥ - ١١ ؛

ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ٣ - ٥ ؛

القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٧٩ ؛ أبا المحاسن :

النجوم الزاهرة ١ : ٢٧ - ٢٨ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة

١ : ٥ - ٩ .

وقرأ الحسن وأبان بن تغلب وغيرهما: ﴿اهْبِطُوا مِصْرَ﴾، بترك الضرف، وكذلك هي في مضعف أبي بن كعب، وقال: هي مِصْرُ فِرْعَوْنَ؛ قال الأعمش: هي مِصْرُ التي عليها صالح بن علي^١.

وقال أشهب: قال لي مالك: هي عندي مِصْرُ قريتك مسكن فِرْعَوْنَ؛ قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الآية ٩٩ سورة يوسف] .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في «تفسيره»، عن فرقد السبخي^(a)، قال: خرج يوسف - عليه السلام - يتلقى يعقوب - عليه السلام - وركب أهل مصر مع يوسف وكانوا يعظمونه؛ فلما دنا أحدهما من صاحبه، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على رجل من ولده يقال له يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيل وإلى الناس فقال: يا يهوذا، هذا فِرْعَوْنُ مصر؟ قال: لا، هذا ابنك! فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه قال يعقوب - عليه السلام - : السلام عليك يا ذاهب الأخران عني؛ هكذا قال: يا ذاهب الأخران عني^٢.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الآية ٨٧ سورة يونس]. قال الطبري عن ابن عباس وغيره: كانت بنو إسرائيل تخاف فِرْعَوْنَ، فأمرُوا أن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلون فيها. قال قتادة: وذلك حين منعهم فِرْعَوْنُ الصلاة، فأمرُوا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم، وأن يوجهوا نحو القبلة.

وعن مجاهد: (بُيُوتِكُمْ قِبْلَةً)، قال: نحو الكعبة حين خاف موسى ومن معه من فِرْعَوْنَ أن يصلوا في الكنائس الجامعة، فأمرُوا أن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلية الكعبة، يصلون فيها سراً^٣.

وعن مجاهد في قوله: ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ قال: مِصْرُ الإسكندرية. وقال تعالى مخبراً عن فِرْعَوْنَ إنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف]^٤.

(a) بولاق: الشيخي.

^١ انظر فيما تقدم ٥٥.

^٢ الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن (نشرة محمود

شاكس ١٦: ٢٦٥).

^٣ ابن الكندي: فضائل مصر ٧.

^٤ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٨١-٢٨٢.

قال ابنُ عبدِ الحكم، وأبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس^١ وغيرهما، عن أبي رَهم السَّماعي، أَنَّهُ قال في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ قال: ولم يكن يومئذٍ في الأرض مُلْكٌ أَكْثَمُ من مُلْكِ مِصْرَ، وكان جميعُ أَهْلِ الْأَرْضِ يَحْتَاجُونَ إِلَى مِصْرَ. وَأَمَّا الْأَنْهَارُ فَكَانَتْ قَنَاظِرَ وَجُسُورًا بِتَقْدِيرٍ وَتَذِيرٍ، حتَّى إنَّ الْمَاءَ يَجْرِي من تحت مَنَازِلِهَا وَأَفْنِيَّتِهَا فَيَحْبِسُونَهُ كَيْفَ شَاءُوا^٢.

فهذا ما ذَكَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ في مِصْرَ من آيِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بِصَرِيحِ الذِّكْرِ. وَأَمَّا مَا وَقَعَتْ إِلَيْهَا الْإِشَارَةُ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ فَعِدَّةٌ.

قال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقًا﴾ [الآية ٩٣ سورة يونس]؛ وقال تَعَالَى: ﴿وَأَوَّيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [الآية ٥٠ سورة المؤمنون]، قال ابنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: هِيَ مِصْرَ، وقال عبدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عن أبيه: هِيَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ. وقال تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الآيات ٥٧، ٥٨ سورة الشعراء]؛ وقال تَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَلْيَكْفُرُوا﴾ [الآيات ٢٥ - ٢٧ سورة الدخان]. قال ابنُ يُونُسَ: وفي قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال أبو رَهم: كانت الْجَنَّاتُ بِحَافَتِي النَّيْلِ من أولِهِ إِلَى آخِرِهِ مِنَ الْجَانِبِينَ، ما بين أسوان إلى رَشِيدَ، وَسَبْعَةُ خُلُجٍ: خَلِيجُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، وَخَلِيجُ سَخَا، وَخَلِيجُ دِمْيَاطَ، وَخَلِيجُ سَرْدُوسَ، وَخَلِيجُ مَنَفَ، وَخَلِيجُ الْفَيُومِ وَخَلِيجُ الْمُنْهَى [جَنَّاتٌ]^٣ مُتَّصِلَةٌ لَا يَنْقَطِعُ مِنْهَا شَيْءٌ عَنِ شَيْءٍ، وَزُرُوعٌ ما بين الْجَبَلَيْنِ كُلَّهُ من أولِ مِصْرَ إِلَى آخِرِهَا مِمَّا

(a) زيادة من ابن عبد الحكم .

^١ أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصُّدْفِي المتوفى سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م محدث حافظ ثبت، قال الصفدي: «كان إمامًا في فن التاريخ، روى عن ابن منته وأبي محمد بن النحاس وعبد الواحد بن محمد البلخي وجماعة من الرحالة والمغاربة، وله كلام في الجرح والتعديل يدل على بصره بالرجال ومعرفته بالعلل» (الصفدي الوافي بالوفيات ١٠٨: ١٠٩-١٠٩). ألف في تاريخ مصر كتابين أحدهما «تاريخ مصر» وهو الأكبر يختص بالمصريين؛ والآخر

^٢ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٦؛ ابن الزيات: الكواكب السيارة ٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/٥: ٦-٦.

«كتاب الغزباء» وهو صغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين عليها. وميز ابن حجر العسقلاني بين الكتابين وذكر أنه إذا قيل «تاريخ ابن يونس» فالمقصود «تاريخ مصر». (انظر المقدمة).

يَتَلَفُهُ الْمَاءُ . وَكَانَ جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا تُرْوَى يَوْمَئِذٍ مِنْ سِتَّةِ عَشَرَ ذِرَاعًا ، لَمَّا قَدْ دَبَّرُوا مِنْ قَنَاطِرِهَا وَجُسُورِهَا ^١ . قَالَ : وَالْمَقَامُ الْكَرِيمُ : الْمَنَابِرُ . كَانَ بِهَا أَلْفُ مَنبَرٍ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : الْمَقَامُ الْكَرِيمُ : الْمَنَابِرُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : (وَمَقَامُ كَرِيمٍ) ، أَيِ حَسَنٍ . (وِنِعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَالْكَاهِنِينَ) / ، نَاعِمِينَ ؛ قَالَ : أَيِ وَاللَّهِ أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ جَنَّتِهِ وَعُيُونَهُ وَزُرُوعَهُ حَتَّى وَرَّطَهُ فِي الْبَحْرِ .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ كَثِيرٍ بِنِ كَثِيرٍ : كُنَّا بِبُقْعَةِ الْهَوَاءِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ لَمَّا قَدِمَ مِصْرَ ، فَقَالَ لَنَا : مَا أَذْرِي مَا أَعْجَبَ فِرْعَوْنَ مِنْ مِصْرٍ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف] ؟ فَقُلْتُ : أَقُولُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : قُلْ يَا سَعِيدُ ، فَقُلْتُ : إِنَّ الَّذِي تَرَى بِقِيَّةِ مُدَمَّرٍ ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الآية ١٣٧ سورة الأعراف] ؛ قَالَ : صَدَقْتَ ، ثُمَّ أَمْسَكَ ^٢ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْتَزُّونَ﴾ [الآيات ٥ ، ٦ سورة القصص] .

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿يَتَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٢٩ سورة غافر] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الآية ١٣٧ سورة الأعراف] .

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ١٢٧ سورة الأعراف] ، يَعْنِي أَرْضَ مِصْرٍ .

وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ : ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية ٥٥ سورة يوسف] ؛ رَوَى ابْنُ يُونُسَ عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : مِصْرُ خَزَائِنُ الْأَرْضِ كُلِّهَا ، وَسُلْطَانُهَا سُلْطَانُ الْأَرْضِ كُلِّهَا ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَلِكِ مِصْرَ : ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [الآية ٥٥ سورة يوسف] ،

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٦ ، نفسه ٦ ؛ السيوطي : ٣٥٤ : ٣٥٥ ؛ ابن الزيات : الكواكب السيارة ٦٦ ؛ حسن المحاضرة ١ : ١٩ .

^٢ ابن زولاق : فضائل مصر ٥٤ ؛ النويري : نهاية الأرب الفضائل الباهرة ١١١ .

فَفَعَلَ ، فَأُغِيَتْ بِمِصْرَ وَخَزَائِنِهَا يَوْمَئِذٍ كُلُّ حَاضِرٍ وَبَادٍ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ١ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ [الآية ٥٦ سورة يوسف] ، فَكَانَ لِيُوسُفَ بِسُلْطَانِهِ بِمِصْرَ جَمِيعِ سُلْطَانِ الْأَرْضِ كُلِّهَا ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ وَإِلَى مَا تَحْتَ يَدَيْهِ .

٥ وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الآية ٨٨ سورة يونس] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الآية ١٢٩ سورة الأعراف] .

١٠ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [الآية ٢٦ ، سورة غافر] ، يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الآية ٤ سورة القصص] يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ .

وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بَعْضِ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ [الآية ٨٠ سورة يوسف] ، يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ .

١٥ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الآية ١٩ سورة القصص] ، يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : سُمِّيَتْ مِصْرَ بِالْأَرْضِ كُلِّهَا فِي عَشْرَةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ . فَهَذَا مَا يَحْضُرُنِي مِمَّا ذُكِرَتْ فِيهِ مِصْرَ مِنْ آيِ كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ . وَقَدْ جَاءَ فِي فَضْلِ مِصْرَ أَحَادِيثٌ :

٢٠ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهَيْعَةَ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مِصْرَ فَاتَّخِذُوا فِيهَا جُنْدًا كَثِيفًا ، فَذَلِكَ الْجُنْدُ خَيْرُ أَجْنَادِ الْأَرْضِ » ؛ قَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : وَلِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « لِأَنَّهُمْ فِي رِبَاطٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ٢ .

١ انظر فيما تقدم ٥٨ . الزيات : الكواكب السيارة ٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى

٢ انظر كذلك ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤١٤١ ابن ٣ : ٢٧٩ ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٢٩ ؛ السيوطي :

الكندي : فضائل مصر ١١١ ؛ ابن زولاق : فضائل مصر ١٦ ؛ ابن ١٤١ - ١٥ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور =

وعن عمرو بن الحمق أن رسول الله ﷺ قال : «تكونُ فِتْنَةٌ أَسْلَمَ النَّاسُ فِيهَا (أو خَيْرَ النَّاسِ فِيهَا) الْجُنْدُ الْغُرَبِيُّ» ؛ قال : «فلذلك قُدِّمَتْ عَلَيْكُمْ مِصْرُ» .

وعن ثُبَيْعِ بْنِ عَامِرِ الْكَلَاعِيِّ قَالَ : أَقْبَلْتُ مِنَ الصَّائِفَةِ فَلَقِيْتُ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ لِي : مَنْ أَيْنَ أَنْتَ ؟ فَقُلْتُ : مِنْ أَهْلِ مِصْرَ ؛ قَالَ : مِنَ الْجُنْدِ الْغُرَبِيِّ ؛ فَقُلْتُ : نَعَمْ ؛ قَالَ : الْجُنْدُ الضَّعِيفُ ؛ قُلْتُ : أَهْوَى الضَّعِيفُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ قَالَ : أَمَا أَنَّهُ مَا كَادَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا كَفَاهُمُ اللَّهُ مَوْرَثَتَهُ ، أَذْهَبَ إِلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حَتَّى يُحَدِّثَكَ .

قال : فَذَهَبْتُ إِلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فَقَالَ لِي : مَا قَالَ لَكَ الشَّيْخُ ؟ فَأَخْبَرْتَهُ ، فَقَالَ لِي : وَأَيُّ شَيْءٍ تَذْهَبُ بِهِ إِلَى بِلَادِكَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ فِي (a) أَشْفَلِ الْوَاحِكِ : فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى مُعَاذِ أَخْبَرَنِي أَنَّ بِذَلِكَ أَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .^١

١٠ وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ عَشَّالٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «فَتَحَ اللَّهُ بَابًا لِلتَّوْبَةِ فِي الْغَرْبِ عَرْضُهُ سَبْعُونَ عَامًا ، لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ» .
وَرَوَى ابْنُ لَهَيْعَةَ مِنْ حَدِيثِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ : حَدَّثَنِي عُمَرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - سَيَفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مِصْرَ ، فَاسْتَوْصُوا بِقَبْطِهَا خَيْرًا ، فَإِنَّ لَهُمْ مِنْكُمْ صِيْهْرًا وَذِمَّةً» .^٢

١٥ وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي حَزْمَلَةُ بْنُ عِمْرَانَ الشُّجَيْبِيُّ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَمَّاسَةَ الْمَهْرِيِّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقَبْرَاطُ ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَجِمًا ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ رَجُلَيْنِ يَفْتَتِلَانِ فِي مَوْضِعٍ لَبِنَةٌ فَاخْرُجْ (b) مِنْهَا» ؛ قَالَ : فَمَرُّ بَرِيْعَةَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنِي شُرْحَبِيلٍ يَتَنَازَعَانِ فِي مَوْضِعٍ لَبِنَةٌ ، فَخَرَجَ مِنْهَا . وَفِي رِوَايَةٍ : « سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقَبْرَاطُ ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَخْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَجِمًا (أو قَالَ : ذِمَّةً وَصِيْهْرًا) ... » الْحَدِيثُ . وَرَوَاهُ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ وَزَادَ « فَاسْتَوْصُوا بِالْقَبْطِ خَيْرًا » .

(a) الأصل : أحسن من هذا كنت ، بولاق : الحديث أكتب في . (b) بولاق : فاخرجوا .

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣ ؛ السيوطي : حسن = ٧ : ١ / ١ ؛ وفيما يلي ٢ : ٢٦٠ .

^١ قارن مع السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٦ ، ٢٢ . المحاضرة ١ : ١٢ .

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي الطَّاهِرِ عَنِ ابْنِ وَهْبٍ ^١.

قال ابنُ شهابٍ ^٢، وكان يُقالُ إنَّ أُمَّ إسماعيلَ منهم. قال اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ : / قُلْتُ لابنِ شهابٍ : ما رَجِمَهُمْ ؟

قال : إنَّ أُمَّ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ ، صلواتُ اللهِ عليهم ، منهم . وقال محمد بنُ إسحاق : قُلْتُ لِلزُّهْرِيِّ : ما الرَّجْمُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ قال : كانت هاجِرُ أُمَّ إسماعيلَ منهم ^٣.

وَرَوَى ابْنُ لَهْيَعَةَ ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَالِمٍ الْجَيْشَانِيِّ ، أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : «إِنَّكُمْ سَتَكُونُونَ أَجْنَادًا ، وَإِنْ خَيْرَ أَجْنَادِكُمْ أَهْلُ الْغَرْبِ مِنْكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْقِبْطِ : لَا تَأْكُلُوهُمْ أَكْلَ الْخَضِرِ» ^٤. وَعَنْ مُسْلِمٍ بِنِ يَسَّارٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : «اسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا ، فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَهُمْ نِعَمَ الْأَعْوَانِ عَلَى قِتَالِ الْعَدُوِّ» ^٥.

١٠ وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَوْصَى عِنْدَ وَفَاتِهِ أَنْ تَخْرُجَ الْيَهُودُ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَقَالَ : «اللَّهُ اللَّهُ فِي قِبْطِ مِصْرَ ؛ فَإِنَّكُمْ سَتَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ ، وَيَكُونُونَ لَكُمْ عُدَّةً وَأَعْوَانًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ^٦.

وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَيُّوبَ الْعَافِقِيِّ ، عَنْ رَجُلٍ مِنَ الزُّبَيْدِ ^٧، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرِضٌ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ : «اسْتَوْصُوا بِالْأَذْمِ الْجُعْدِ» ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ الثَّانِيَةَ ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ الثَّالِثَةَ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ الْقَوْمُ : لَوْ سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَذْمِ الْجُعْدِ ؟ فَأَفَاقَ فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : «قِبْطُ مِصْرَ ، فَإِنَّهُمْ أَخْوَالٌ وَأَصْهَارٌ ، وَهُمْ أَعْوَانُكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ،

(a) بولاق : الرند .

^١ مسلم : صحيح مسلم ، القاهرة - عيسى الحلبي ٣٢٦:٥ - ٣٥٠.

د.ت ، ٤ : ١٩٧٠ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣ ؛ ابن زولاق : فضائل مصر ٦ ؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٢٧٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٢ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١١ .
^٤ نفسه ٣ ؛ ابن الكندي : فضائل مصر ١٠ ؛ ابن زولاق : فضائل مصر ٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٢ .

^٢ أي ابن شهاب الزهري ، الحافظ أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي المتوفى سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م (الذهبي : تذكرة الحفاظ ١ : ١٠٨ - ١١٣ ، سير أعلام النبلاء المحاضرة ١ : ١٢ .
^٥ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٣ .
^٦ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٢ .

وأَعْوَانُكُمْ عَلَى دِينِكُمْ» : قالوا : كيف يكونون أَعْوَانًا عَلَى دِينِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : «يَكْفُونَكُمْ أَعْمَالَ الدُّنْيَا ، وَتَتَفَرَّغُونَ لِلْعِبَادَةِ : فَالرَّاضِي بِمَا يُؤْتَى إِلَيْهِمْ كَالْفَاعِلِ بِهِمْ ، وَالكَارِهَ لِمَا يُؤْتَى إِلَيْهِمْ مِنَ الظُّلْمِ كَالْمُتَنَزِّهِ عَنْهُمْ»^١ .

وَعَنْ عَمْرٍو بْنِ حُرَيْثٍ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُلَيْبِيِّ^(a) ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنَّكُمْ سَتَقْدَمُونَ عَلَى قَوْمٍ يُجْعِدُ رُؤُوسَهُمْ ، فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا ، فَإِنَّهُمْ قُوَّةٌ لَكُمْ ، وَبَلَاغٌ إِلَى عَدُوِّكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ» ، يَعْنِي قَيْطَ مِصْرَ^٢ .

وَعَنْ ابْنِ لَهَيْعَةَ ، حَدَّثَنِي مَوْلَى غُفْرَةَ^(b) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَهْلِ الْمَدْرَةِ السُّودَاءِ ، الشُّحْمِ الْجِعَادِ ، فَإِنَّ لَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا» ؛ قَالَ عَمْرٍو مَوْلَى غُفْرَةَ^(b) : صِيَّهْرُهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسَرَّى فِيهِمْ ، وَنَسَبُهُمْ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْهُمْ ؛ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : فَأَخْبَرَنِي ابْنُ لَهَيْعَةَ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ هَاجَرَ أُمَّ الْعَرَبِ مِنْ قَرْيَةٍ^(c) كَانَتْ أَمَامَ الْفَرَمَاتِ مِنْ مِصْرَ^٣ .

قَالَ مَرْوَانَ الْقَصَّاصُ : صَاهَرَ إِلَى الْقَيْطِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ثَلَاثَةٌ : إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَسَرَّرَ^(d) هَاجَرَ ، وَيُوسُفَ تَزَوَّجَ بِنْتَ صَاحِبِ عَيْنِ شَمْسٍ ، وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسَرَّرَ^(d) مَارِيَةَ ؛ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : قَرْيَةُ هَاجَرَ يَاقُ الَّتِي عِنْدَ^(e) أُمَّ دُنَيْنَ^٤ .

وَقَالَ هِشَامُ : الْعَرَبُ تَقُولُ : هَاجَرَ وَأَجَرَ ، فَيَبْدُلُونَ مِنَ الْهَاءِ الْأَلْفَ ، كَمَا قَالُوا : هَرَّاقُ الْمَاءِ وَأَرَّاقُ الْمَاءِ وَنَحْوَهُ^٥ .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ : الْأَمْصَارُ سَبْعَةٌ : فَاَلْمَدِينَةُ بِمِصْرَ ، وَالشَّامُ مِصْرَ ، وَمِصْرَ ، وَالْجَزِيرَةُ ، وَالبَحْرَيْنِ ، وَالبَصْرَةَ ، وَالكُوفَةَ .
وَقَالَ مَكْحُولٌ : أَوَّلُ الْأَرْضِ خَرَابًا أَرْمِينِيَّةً ، ثُمَّ مِصْرَ^٦ .

(a) بولاق : الحلبي . (b) بولاق : عفرة . (c) الأصل وبولاق : هاجر من أم العرب قرية ... والتصويب من ابن سعد وابن عبد الحكم وابن الكندي . (d) بولاق : تسري . (e) بولاق : عندها .

^١ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٣ . الأرب ١ : ٣٥٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٣ .

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣ - ٤ . السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٤ .

^٣ نفسه ٥ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ١٣ . ^٤ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤ .

^٥ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤ . ^٦ انظر فيما يلي ٨١ ، ١ : ٣٣٤ .

مصر ١٠ ؛ ابن زولاق : فضائل مصر ٨ ؛ النويري : نهاية

وقال عبد الله بن عمرو: قَبِطُ مصر أَكْرَمُ الأعاجِمِ كُلِّها ، وَأَسْمَحُهُم يَدًا ، وَأَفْضَلُهُم عُضْرًا ، وَأَقْرَبُهُم رَحِمًا بالعرب عامةً وبقریش خاصةً ، ومن أراد أن يذُكر الفِرْدَوْس أو يَنْظُر إلى مثلها في الدنيا ، فليَنْظُر إلى أرض مصر حين تَحْضُرُ زُرُوعُها^٥ ، وتُتَوَّرُ ثِمَارُها .

وقال كَعْبُ الأَخْبَار: من أراد أن يَنْظُر إلى شَبِّه الجنة ، فليَنْظُر إلى مصر إذا أَخْرَفَتْ ، (وفي رواية إذا أزهرت)^١ .

ومن فضائل مصر

أنه كان من أهلها السَّحْرَة وقد آمنوا جميعًا في ساعة واحدة ، ولا يُعَلِّم جماعةً أسَلَمَتْ في ساعة واحدة أكثر من جماعة القِبْط ؛ وكانوا - في قول يزيد بن أبي حبيب وغيره - اثني عشر ساجِرًا رؤساءً ، تحت يد كلِّ ساجِرٍ منهم عشرون عريفًا ، تحت يد كلِّ عريفٍ منهم ألف من السَّحْرَة ، فكان جميع السَّحْرَة مائتي ألف وأربعين ألفًا ومائتين واثنين وخمسين إنسانًا بالرؤساء والعرفاء . فلما عَايَنُوا ما عَايَنُوا أُيقِنُوا أن ذلك من السماء ، وأن السَّحْرَة لا يقوم لأمر الله ، فخرَّ الرؤساء الاثنا عشر عند ذلك سُجْدًا ، فأتبعهم العرفاء ، وأتبع العرفاء من بقي ، **﴿وقالوا آمنا برب العالمين﴾** ربِّ موسى وهارون **﴿[الأنعام ١٢١ ، ١٢٢ سورة الأعراف]﴾** قال تَبَيُّع : كانوا من أصحاب موسى - عليه السلام - ولم يفتن منهم أحدٌ مع من افتتن من بني إسرائيل في عبادة العجل . قال تَبَيُّع : ما آمن جماعة قط في ساعة واحدة مثل جماعة القِبْط^٢ .

وقال كَعْبُ الأَخْبَار: مثلُ قِبْط مصر كالغَيْضَة كلما قُطِعَتْ نَبَتَتْ ، حتى يُخْرِب الله - عزَّ وجلَّ - بهم وبصناعتهم جزائر الروم^٣ .

وقال عبد الله بن عمرو: خُلِقَتْ الدُّنْيَا على خَمْسِ صُورٍ ، على صورة الطَّيْرِ برأسه وصدره وجناحيه وذنبه ؛ فالرأس مكة والمدينة واليمن ، والصدر الشام ومصر ، والجناح الأيمن العراق ، وخلف العراق أمة يُقال لها وَاق ، وخلف وَاق أمة يُقال لها وَاق وَاق ، وخلف ذلك من الأمم ما لا يَعْلَمه إلا الله عزَّ وجلَّ ؛ والجناح الأيسر السُّنْد ، وخلف السُّنْد الهِنْد ، وخلف أمة الهِنْد أمة يُقال

(a) بولاق : يُحضر زرعها .

^٢ التويري : نهاية الأرب ١ : ٣٤٩ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم

^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٥ .

الزاهرة ١ : ٣١ .

لها ناسك ، وخلف ناسك أمة يقال لها منسك ، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ؛ والدنّب من ذات الحمام إلى مغرب الشمس ، وشتر ما في الطير الدنّب^١ .

وقال الجاحظ : الأمصار عشرة : الصنّاعة بالبصرة ، والقصّاحة بالكوفة / ، والتخنيث ببغداد ، والعي بالري ، والجفاء بنيسابور ، والحسن بهراة ، والطرمذة بسمرقند ، والمروعة ببلخ ، والتجارة بمصر ، والبخل بمزو . (الطرمذة الدولة ، كلام^٢ ليس له فعل) .^٣

وعن بُجَيْر^٤ بن داخر العافري أنه سمع عمرو بن العاص يقول في خطبته : واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة ، لمكث الأعداء حولكم ، ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدين الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية .

وعن عبد الرحمن بن غنم الأشعري أنه قديم من الشام إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : ما أقدمك إلى بلادنا ؟ قال : كنت تُحدّثني أن مصر أسرع الأرض خرابًا ، ثم أراك قد اتّخذت منها وبنيت فيها القصور واطمأنت فيها ؛ قال : إن مصر قد أوفت خرابها ، حطّمها البخت نصر فلم يدع فيها إلا السباع والضباع ، فهي اليوم أطيب الأرضين ثرابًا ، وأبعدها خرابًا ، ولا يزال فيها بركة ما دام في شيء من الأرض بركة^٥ .

ويقال : مصر متوسطة الدنيا ، قد سلّمت من حرّ الإقليم الأوّل والثاني ، ومن برد الإقليم السادس والسابع ، ووقعت في الإقليم الثالث فطاب هواؤها ، وضعف حرّها ، وخفّ بردها . وسلم أهلها من مشاتي الأهواز ، ومصايف عمان ، وصواعق تهامة ، ودمامل الجزيرة ، وجرب اليمن ، وطواعين الشام ، وبزسام العراق ، وعقارب عسكر مكرم ، وطحال البحرّين ، وحمى خيبر وأمنوا من غارات الترك ، وجيوش الروم ، وهجوم العرب ، ومكايد الديلم ، وسرايا القرامطة ، ونزف الأنهار ، وقحط الأمطار .

(a) بولاق : الطرمذة كلام . (b) بولاق : يحيى .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١ ، وهذا النص موجود
رواية عن ابن عبد الحكم عند المسعودي : أخبار الزمان ٤١٨
وانظر أيضًا ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣١-٣٢ ؛ ابن
إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٨ .

^٢ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٨ ؛ وهذا النص نقله عن
كتاب «البلدان» للجاحظ وهو من مؤلفاته المفقودة ، وانظر
فيما يلي ٨١-٨٢ .

^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣٢ .

وبها ثمانون كورة، ما فيها كورة إلا وبها طرائف وعجائب من أنواع التبر والأبنية والطعام والشراب والفاكهة، وسائر ما تنتفع به الناس وتدخره الملوك، يُعرف بكل كورة وجهاتها، ويُنسب كل لون إلى كورة:

فصعيدُها أرض حجازية، حره حرّ العراق، ويُنتج النخل والأراك والقُرظ والدُّوم والعشر. وأسفل أرضها شامي يُمطر مطر الشام، ويُنتج ثمار الشام من الكروم والزيتون واللوز والتين والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين، ويقع به الثلج والبرد. وكورة الإسكندرية ولوية ومراقية براري وجبال وغياض تُنتج الزيتون والأغاب، وهي بلاد إبل وماشية وعسل ولبن.

وفي كل كورة من كور مصر مدينة، في كل مدينة منها آثار، كريمة من الأبنية والصخور والرخام والعجائب.

وفي نيلها السفن التي تحمل السفينة الواحدة منها ما يحمله خمس مائة بعير.

وكل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة، يؤيد ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَبَعَثَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الآية ٣٦ سورة الشعراء] ^١.

ويُعمل بمصر معامل كالثنانير، يُعمل بها البيض بصنعة، يُوقد عليه فيحاكي نار الطبيعة في حضانة الدجاجة لبيضها، ويخرج من تلك المعامل الفراريج، وهي مُعظم دجاج مصر، ولا يتم عمل هذا بغير مصر ^٢.

وقال عمرو^(a) بن ميمون: خرج موسى - عليه السلام - ببني إسرائيل، فلما أصبح فزعون أمر بشاة فأتى بها، فأمر بها أن تُذبح ثم قال: لا يُفرغ من سلعها حتى يجتمع عندي خمس مائة ألف من القبط؛ فاجتمعوا إليه فقال لهم فزعون: إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وكان أصحاب موسى - عليه السلام - ست مائة ألف وسبعين ألفاً.

(a) بولاق: عمر.

^١ المسعودي: أخبار الزمان ١٠٢. مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ١٨؛ السيوطي:

^٢ انظر عن معامل الفراريج بمصر، عبد اللطيف حسن المحاضرة ٢: ٣٣٣.

البغدادي: الإفادة والاعتبار ٣٥؛ ابن فضل الله العمري:

ووصف بعضهم مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء . فأما اللؤلؤة البيضاء ، فإن مصر في أشهر أيب وميسرى ونوت يركبها الماء فتري الدنيا بيضاء ، وضياعتها على زواب وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بها المياه من كل وجه ، فلا سبيل إلى قرية من قرأها إلا في الزوارق ؛ وأما المسكة السوداء ، فإن في أشهر بابته وهاتور ويهك ينكشف الماء عن الأرض فتصير أرضا سوداء ، وفي هذه الأشهر تقع الزراعات . وأما الزمردة الخضراء ، فإن في أشهر طوبة وأمشير وبرمهاات يكثر نبات الأرض وزيغها فتصير خضراء كأنها زمردة . وأما السبيكة الحمراء فإن في أشهر برمودة وبشنش وبؤونة يتورد العشب ويبلغ الزرع الحصاد ، فيكون كالسبيكة التي من الذهب منظرا ومنفعة^١ .

وسأل بعض الخلفاء الليث بن سعد عن الوقت الذي تطيب فيه مصر ، فقال : إذا غاض ماؤها ، وارتفع وبأها ، وجف ثراها ، وأمكن مرعاها .

وقال آخر : نيلها عجب ، وأرضها ذهب ، وخيرها جلب ، وملكها سلب ، ومالها رغب ، وفي أهلها صخب ، وطاعتهم زهب ، وسلامهم شعب ، وخزبهم حزب ، وهي لمن غلب .
وقال آخر : مضر من سادات القرى ورؤساء المدن . وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿فإن لم يصبها وابل فقل﴾ [الآية ٢٦٥ سورة البقرة] : هي مصر ، إن لم يصبها مطر أزكت ، وإن أصابها مطر ضغفت ، قال المسعودي في «تاريخه»^٢ .

ويقال لما خلق الله آدم - عليه السلام - مثل له الدنيا شرقها وغربها ، وسهلها وجبلها ، وأنهارها وبحارها ، وبنائها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك ؛ فلما رأى مصر أرضا سهلة ، ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة ، ورأى جبلا من جبالها مكسوا ثورا ، لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة ، في سفحه أشجار مثيرة ، وفروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة ؛ فدعا آدم - عليه السلام - في النيل / بالبركة ، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى ، وبارك في نيلها وجبيلها سبع مرات ، قال : «يا أيها الجبل المرحوم ، سفحك جنة ،

^١ نقلًا عن المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٦٥ - ٦٦ ؛ المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٤ - ٣٥ ؛ ابن إياس : بدائع وقارن مع المسعودي : التنبيه والإشراف ٢١ ؛ النويري : نهاية الزهور ١/١ : ٣٨ .
^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٦٦ - ٦٨ .

وتزبثك مسكة ، يُذفن فيها غراس الجنة ، أرض حافظة مطبقة^(a) رحيمة ، لا خلثك يا مصر بركة ، ولا زال منك حفظ^(b) ، ولا زال منك ملك وعز . يا أرض مصر ، فيك الخبايا والكُنوز ، ولك البر والثروة ، وسال نهرك عسلاً . كثر الله زرعك ، ودرّ ضرعك ، وزكى نباتك ، وعظمت بركتك ، وخصبت ، ولا زال فيك خير ما لم تتجبري وتتكبري أو تخوني ، فإذا فعلت ذلك عداك شر ، ثم يغور خيبرك^(c) . فكان آدم أول من دعا لها بالرحمة والخصب والرفقة والبركة^(d) .

وعن ابن عباس أن نوحاً - عليه السلام - دعا لمصر بن بيصير بن حام فقال : «اللهم إنه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته ، وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد ، التي نهرها أفضل أنهار الدنيا ، واجعل فيها أفضل البركات ، وسخر له ولولده الأرض ، وذلها لهم ، وقوهم عليها» .

وقال كعب الأختار : لولا رغبتي في بيت المقدس ، لما سكنت إلا مصر ؛ فقل له : لم ؟ فقال : لأنها بلد معافاة من الفتن ، ومن أرادها بسوء كبه الله^(e) على وجهه ، وهو بلد مبارك لأهله فيه^(f) . وقال ابن وهب : أخبرني يحيى بن أيوب ، عن خالد بن يزيد ، عن ابن أبي هلال ، أن كعب الأختار كان يقول : إني لأحب مصر وأهلها ، لأن مصر بلد معافاة ، وأهلها أصحاب عافية ، وهم بذلك مضافون^(g) .

ويقال إن في بعض الكتب الإلهية : «مصر خزائن الأرض كلها ، فمن أرادها بسوء قصمه الله تعالى»^(h) .

وقال عمرو بن العاص : ولاية مصر جامعة تغدل الخلافة ، يعني إذا جمع الخراج مع الإمارة⁽ⁱ⁾ .

(a) بولاق : مطبعة . (b) بولاق : بك حفظه . (c) الأصل وبولاق : أكله الله بالهمز ، والمشهور : كتب بدون همز وهو المتعدي (النجوم الزاهرة ١: ٣١هـ) . (d) بولاق : مفارقون .

^١ النويري : نهاية الأرب ١: ٣٤٧ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٣١ .
الزاهرة ١: ٣٠ .
^٢ نفسه ١: ٣٤٨ نفسه ١: ٣٠ القلقشندي : صبح

الأعشى ٣: ٢٨٠ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١: ٩ .
المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٣١ ، وفيما يلي ٤٥٥ .

^٣ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٢٧٩ أبو المحاسن :

وقال أحمد بن مُدبِّر : تَحْتَاج مِصْرَ إِلَى ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ أَلْفَ فِدَّانٍ ، وَإِنَّمَا يُعَمَّرُ مِنْهَا أَلْفُ أَلْفِ فِدَّانٍ . وَقَدْ كَشَفَتْ أَرْضَ مِصْرَ فَوَجَدَتْ غَامِرَهَا أضعافَ عَامِرِهَا ، وَلَوْ اشْتَغَلَ السُّلْطَانُ بِعِمَارَتِهَا لَوَقَّتْ لَهُ بِخَرَاJِ الدُّنْيَا ١ .

وقال بعضهم : إِنَّ خَرَاJَ الْعِرَاقِ لَمْ يَكُنْ قَطُّ أَوْفَرَ مِنْهُ فِي أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَإِنَّهُ بَلَغَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَسَبْعَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . وَلَمْ تَكُنْ مِصْرُ قَطُّ أَقَلَّ مِنْ خَرَاJِهَا فِي أَيَّامِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، وَأَنَّهُ بَلَغَ اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ . وَكَانَتْ الشَّامَاتُ بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ سَوِي الثُّغُورِ .

وَمِنْ فَضَائِلِ مِصْرَ أَنَّهُ وُلِدَ بِهَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مُوسَى وَهَارُونَ وَيُوشَعَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَيُقَالُ إِنَّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - أَخَذَ عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ الْمُقَطَّمِ وَهُوَ سَائِرٌ إِلَى الشَّامِ ، فَالْتَقَتْ إِلَى أُمِّهِ وَقَالَ : يَا أُمَّاهُ ، هَذِهِ مَقْبَرَةُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ ٢ .

وَيُذَكَّرُ أَنَّهُ وُلِدَ فِي قَرْيَةِ أَهْنَسَ مِنْ نَوَاحِي صَعِيدِ مِصْرَ ، وَأَنَّهُ كَانَتْ بِهِ نَخْلَةٌ يُقَالُ إِنَّهَا النَّخْلَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَهَزَى إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ ﴾ [الآية ٢٥ سورة مريم] . وَهَذَا الْقَوْلُ وَهُمْ ، فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْأَخْبَارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمَنْ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ عِيسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - وُلِدَ بِقَرْيَةِ بَيْتِ لَحْمٍ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ٣ .

وَدَخَلَ مِصْرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ، وَقَدْ ذُكِرَ خَبْرُ ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ خَلِيجِ الْقَاهِرَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ٤ . وَدَخَلَهَا أَيْضًا يَعْقُوبُ وَيُوشَعَ وَالْأَسْبَاطُ ، وَقَدْ ذُكِرَ ذَلِكَ فِي خَبْرِ الْفَيْيُومِ . وَدَخَلَهَا أَرْمِيَا ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِهَا مُؤْمِنٌ آلَ فِرْعَوْنَ الَّذِي أَتَى عَلَيْهِ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْقُرْآنِ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ ابْنُ فِرْعَوْنَ لَصُلبِهِ ، وَأُظِنُّهُ أَنَّهُ غَيْرُ صَاحِبِ ٥ .

وَكَانَ مِنْهَا جُلَسَاءُ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ أَبَانَ اللَّهُ فَضِيلَةَ عَقْلِهِمْ بِحُشْنِ مَشُورَتِهِمْ فِي أَمْرِ مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - لَمَّا اسْتَشَارَهُمْ فِرْعَوْنُ فِي أَمْرِهِمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوَلَةَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ، وَإِبعَثْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ * يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ [الآيات ٣٤-٣٧ سورة الشعراء] .

١ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٤٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٢ .

٢ نفسه : ٣٤٩ .

٣ انظر فيما يلي ٢٩٦ .

٤ انظر فيما يلي ١٩١ ، ٢ : ٢٤١ ؛ وقارن الكندي :

فضائل مصر ٢٠ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٥٢-٥٧ ؛

ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٩-٣١ .

٥ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٤٩ ؛ وفيما يلي ٣١١ .

وأين هذا من قول أصحاب النمرود في إبراهيم - صلوات الله عليه - حيث أشاروا بقتله ، قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ قَالُوا خَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الآية ٦٨ سورة الأنبياء] .
ومن أهل مصر امرأة فزعون التي مدحها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِزْعُونَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِزْعُونَ وَعَمَلِيهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الآية ١١ سورة التحريم] .

ومن أهلها ماشطة بنت فزعون ، وأمّت بموسى - عليه السلام - فمشطها فزعون بأمشاط الحديد كما يمشط الكتان ، وهي ثابتة على إيمانها بالله ^١ .

وقال صاعد اللغوي ^٢ في كتاب «طبقات الأمم» : إن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن هرميس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، وهو أول من تكلم في الجواهر العلوية ، والحركات النجومية ، وهو أول من ابتنى الهياكل ومجدد الله فيها ، وأول من نظر في علم الطب ، وألف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية . وقالوا : إنه أول من أنذر بالطوفان ، ورأى أن آفة سماوية تُصيب الأرض من الماء أو النار ، فخاف ذهاب العلم ودروس ^(a) الصنائع ، فبنى الأهرام والبرابي التي في صعيد مصر الأعلى ، وصوّر فيها جميع الصنائع والآلات ، ورسم فيها صفات العلوم ، جزواً على تخليدها لمن بعده ، وخيفة أن يذهب رسمها من العالم ^٣ ؛ وهرميس هذا هو إدريس عليه السلام .

وقال أبو محمد الحسن بن إسماعيل / بن الضراب ^(b) ^٤ في «أخبار مصر» : إن الخضر جاز البحر مع موسى - عليه السلام - وكان مقدماً عنده ، وكان بمصر من الحكماء جماعة ممن عمّرت الدنيا

(a) بولاق : اندراس . (b) بولاق : ابن الفرات .

^١ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٠ .

^٢ أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد

^٣ صاعد الأندلسي : التعريف بطبقات الأمم ١٩٦ -

ابن صاعد التغلبي قاضي طليطلة وبها توفي سنة ٤٦٢هـ /

١٩٧ ؛ وانظر عن هرمس فيما يلي ١ : ١١٨ .

^٤ الضراب أو ابن الضراب ، أبو محمد الحسن بن

١٠٧٢ م ، اشتهر بكتابه «طبقات الأمم» أو «التعريف بطبقات الأمم» وهو من الكتب العربية القليلة التي تعرضت لوصف

إسماعيل بن محمد المصري ، مؤرخ ومحدث ولد في مصر سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥ م وتوفي بها سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠٢ م ، ويعدّ

العلوم عند الأمم السابقة (ابن بشكوال : كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، عني بنشره عزت العطار الحسيني ،

الدارقطني من رواه مع أنه كان أسن منه ، واعتمد على كتابه في التاريخ - الذي ينقل عنه المقرئ - الشريف الإدريسي =

القاهرة ١٩٥٥ ، ٢٣٢ : El² art. Martinez-Gros, G.,

بكلابهم وحكمهم وتذبيرهم ، وكان من علومهم علم الطب ، وعلم النجوم ، وعلم المساحة ،
وعلم الهندسة ، وعلم الكيمياء ، وعلم الطلسمات . ويقال : كانت مصر في الزمن الأول يسير
إليها طلاب العلوم لتزكو عقولهم وتجوّد أذهانهم ، ويتميّز عندهم الذكاء ، وتُدقّ الفطنة .

ومن فضائل مصر أنّها تميّز أهل الحرمين ، وتوسّع عليهم .

ومصر فرضة الدنيا ، يُحمّل خيرها إلى ما سواها : فساحلها بمدينة القلزم يُحمّل منه إلى
الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر ، وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما
فرضة بلاد الروم والإفرنج وسواجل الشام والثغور إلى حدود العراق ، وثغر إسكندرية فرضة
أقريطش وصقلية وبلاد المغرب ، ومن جهة الصعيد يُحمّل إلى بلاد العرب والثوبة والبجة والحبشة
والحجاز واليمن .

وبمصر عدّة من الثغور المعدة للرباط في سبيل الله تعالى ، وهي البرّيس ورشيد والإسكندرية
وذات الحمّام والبحيرة وإخنا ودمياط وشطا وتنيس والأشوم والفرما والورادة والعريش وأشوان
وقوص والواحات ؛ فيغزى من هذه الثغور الروم والفرنج والبربر والثوبة والحبشة والسودان .

وبمصر عدّة مشاهد وكثير من المساجد ، وبها النيل والأهرام والبرابي والأديار والكنائس .
وأهلها يستغنون بها عن كل بلد ، حتى إنّه لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بشور لاستغنى أهلها بما
فيها عن جميع البلاد ^١ .

وبمصر دهن البلسان الذي عظمت منفعته ، وصارت ملوك الأرض تطلبه من مصر وتعتني به ،
وملوك النصرية تترامى على طلبه ، والنصارى كافة تعتقد تعظيمه ، وترى أنّه لا يتمّ تنصير
نصراني إلا بوضع شيء من دهن البلسان في ماء المعمودية عند تعطيسه فيها ^٢ .

وبها السقنقور ومنافعه لا تُنكر ، وبها الثمس والعزس ولهما في أكل الثعابين فضيلة لا تُنكر ،
فقد قيل : لولا العزس والثمس لما سكنت مصر من كثرة الثعابين ، وبها السمكة الرعادة ونفعها في
البزء من الحمى إذا علقت على المحموم عجيب ^٣ .

= صاحب «تاريخ الأهرام» ونقل عنه في مواضع متعددة (أسرار
علوي الأجرام ١٣ ، ٩٠ ، ٩٨) . (انظر أخباره عند المقرئ :
المقفي الكبير ٥ : ٢٠٨ ، ٤٥٢ ؛ ابن حجر العسقلاني : لسان
الميزان ٢ : ٩٦٧ ؛ Sezgin, F., GASI, p. 213) .
^٢ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر
والشام) ١٣ ؛ الفلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٨٣ ؛ وفيما
يلي ١ : ٢٣٠ .
^٣ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم
الزاهرة ١ : ٤٣ ؛ وفيما يلي ١ : ٦٦ .

^١ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٤ .

وَمِصْرَ حَطْبُ السَّنْطِ ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فِي مَعْنَاهُ ، فَلَوْ وَقَدَّ مِنْهُ تَحْتَ قَدْرِ يَوْمًا كَامِلًا لَمَا بَقِيَ مِنْهُ زَمَادٌ . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ صُلْبُ الْكُشْرِ ، سَرِيعُ الْاشْتِعَالِ ، بَطِيءُ الْخُمُودِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ أَبْتُوسٌ غَيْرَتَهُ بَقْعَةٌ مِصْرَ فِصَارَ أَحْمَرَ^١ .

وَبِهَا الْأَفْيُونُ عُصَارَةُ الْحُشْحَاشِ ، وَلَا يَجْهَلُ مَنَافِعَهُ إِلَّا جَاهِلٌ . وَبِهَا اللَّبَخُ ، وَهُوَ ثَمَرٌ قَدْرُ اللَّوْزِ الْأَخْضَرِ ، كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ مِصْرَ إِلَّا أَنَّهُ انْقَطَعَ قَبْلَ سِنَةِ سَبْعِ مِائَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ^٢ .

وَبِهَا الْأُتْرُجُ ، قَالَ أَبُو دَاوُدَ صَاحِبُ «السَّنَنِ»^(a) فِي كِتَابِ الزُّكَاةِ : سَبَّرْتُ قِثَاءَةَ بِمِصْرَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَبْرًا ، وَرَأَيْتُ أُتْرُجَةً عَلَى بَعِيرٍ بِقِطْعَتَيْنِ [قُطِعَتْ]^(b) وَصُيِّرَتْ مِثْلَ عَدْلَيْنِ^٣ .

قَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي «التَّارِيخِ» : وَالْأُتْرُجُ الْمُدَوَّرُ حُمِلَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ بَعْدَ الثَّلَاثِ مِائَةٍ مِنْ سِنِي الْهِجْرَةِ ، وَزُرِعَ بِعُمَانَ ، ثُمَّ نُقِلَ مِنْهَا إِلَى الْبَصْرَةِ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ ، حَتَّى كَثُرَ فِي دُورِ النَّاسِ بِطَرَشُوسٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الثُّغُورِ الشَّامِيَةِ وَفِي أَنْطَاكِيَةِ وَسَوَاحِلِ الشَّامِ وَفِلَسْطِينَ وَمِصْرَ ، وَمَا كَانَ يُعْتَدُّ وَلَا يُعْرَفُ ، فَغَدِمَتْ مِنْهُ الْأَرَاهِجُ الْحَمْرَاءُ الطَّيْبَةُ ، وَاللُّؤُنُ الْحَسَنُ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِأَرْضِ الْهِنْدِ لَعَدَمَ ذَلِكَ الْهَوَاءِ وَالثَّرْبَةِ وَخَاصِيَّةِ الْبَلَدِ^٤ .

وَفِي مِصْرَ مَعْدِنُ الزُّمْرُودِ ، وَمَعْدِنُ النَّفْطِ ، وَالشُّبِّ ، وَالْبِرَامِ ، وَمَقَاطِعُ الرُّخَامِ . وَيُقَالُ كَانَ بِمِصْرَ مِنَ الْمَعَادِنِ ثَلَاثُونَ مَعْدِنًا^٥ .

وَأَهْلُ مِصْرَ يَأْكُلُونَ صَيْدَ بَحْرِ الرُّومِ وَصَيْدَ بَحْرِ الْيَمَنِ طَرِيًّا ؛ لِأَنَّ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ مَسَافَةٌ مَا بَيْنَ مَدِينَةِ الْقُلْزُمِ وَالْفَرَمَا ، وَذَلِكَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ، وَهُوَ الْحَاجِزُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [الآيَةُ ٦١ سُورَةُ النَّمْلِ] ، وَقِيلَ هُمَا بَحْرُ الرُّومِ وَبَحْرُ الْقُلْزُمِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الآيَتَانِ ١٩ وَ ٢٠ سُورَةُ الرَّحْمَنِ] ، قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : الْبَرْزَخُ مَا بَيْنَ الْقُلْزُمِ وَالْفَرَمَا^٦ .

(a) بولاق : السير . (b) زيارة من سنن أبي داود .

^١ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٥ .
^٢ يؤكد ذلك ما ذكره النويري قال : المأكول منه الظاهر ، ورأيتُه أنا بها وأكلت منه سنة ثلاث وتسعين وست مائة (نهاية الأرب ١ : ٣٥٦) .
^٣ أبو داود : صحيح سنن المصطفى ، القاهرة - المطبعة
^٤ غير موجود في مروج الذهب أو التنبية أو أخبار الزمان .
^٥ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٥٦ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٣ .
^٦ قارن مع أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٣ .

ومن محاسن مِصْرَ أَنَّهُ يُوْجَدُ بِهَا فِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ شَهْرِ السَّنَةِ الْقِبْطِيَّةِ صِنْفٌ مِنَ الْمَأْكُولِ [والمشروب] ^(a) وَالْمَشْمُومِ دُونَ مَا عَدَاهُ مِنْ بَقِيَّةِ الشُّهُورِ ، فَيُقَالُ : رُطْبُ ثُوتٍ ، وَرُمَّانُ بَابِهِ ، وَمَوْزُ هَاتُورٍ ، وَسَمَكُ كَيْهَكَ ، وَمَاءُ طُوبَةِ ، وَخَرُوفُ أَمْشِيرٍ ، وَلَبَنُ بَرْمَهَاتٍ ، وَوَزْدُ بَرْمُودَةٍ ، وَنَبَقُ بَشْنَسٍ ، وَتَيْنُ بُوُؤَنَةٍ ، وَعَسَلُ أَبِيبٍ ، وَعِنَبُ مِسْرَى .

ومنها أَنَّ صَيْفَهَا خَرِيفٌ لكَثْرَةِ فَوَاكِهِهِ ، وَشِتَاءُهَا رَيْيْعٌ لِمَا يَكُونُ بِمِصْرَ حَيْثُئِذٍ مِنَ الْقَرْظِ وَالكَثَّانِ .

ومن محاسنِهَا أَنَّ الَّذِي يَنْقَطِعُ مِنَ الْفَوَاكِهِ فِي سَائِرِ الْبُلْدَانِ أَيَّامَ الشُّتَاءِ ، يُوْجَدُ حَيْثُئِذٍ بِمِصْرَ . وَمِنْهَا أَنَّ أَهْلَ مِصْرَ لَا يَخْتَاجُونَ فِي خَرِّ الصَّيْفِ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْحَيْشِ ، وَالذُّخُولِ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ كَمَا يُعَانِيهِ أَهْلُ بَغْدَادٍ ، وَلَا يَخْتَاجُونَ فِي بَرْدِ الشُّتَاءِ إِلَى لِبْسِ الْقَرْوِ وَالْإِضْطِلَاءِ بِالنَّارِ الَّذِي لَا يَسْتَعْنِي عَنْهُ أَهْلُ الشَّامِ . كَمَا أَنَّهُمْ أَيْضًا فِي الصَّيْفِ غَيْرُ مُحْتَاجِينَ إِلَى اسْتِعْمَالِ الثَّلْجِ ^١ .

وَيُقَالُ : زَبْرَجْدُ مِصْرَ ، وَقَبَاطِي مِصْرَ ، وَخَمِيرُ مِصْرَ ، وَتَعَابِينُ مِصْرَ ، وَمَنَافِقُهَا فِي الدَّرِّيَاقِ جَلِيلَةٌ .

ومن فضائلِ مِصْرَ أَنَّ الرُّخَامَةَ الَّتِي فِي الْحِجْرِ مِنَ الْكَعْبَةِ مِنْ مِصْرَ ، بَعَثَ بِهَا مُحَمَّدُ بْنُ طَرِيفٍ مَوْلَى الْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ مَعَ رُخَامَةٍ أُخْرَى خَضْرَاءَ هَدِيَّةً لِلْحِجْرِ . فَجُعِلَتْ إِحْدَى الرُّخَامَتَيْنِ عَلَى سَطْحِ جِدْرِ الْكَعْبَةِ ، وَهَمَا مِنْ أَحْسَنِ الرُّخَامِ فِي الْمَسْجِدِ خُضْرَةٌ ، وَكَانَ الْمُتَوَلَّى / عَلَيْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ ، ذَرَعَهَا ذِرَاعَ وَثَلَاثِ أَصَابِعَ ؛ قَالَ الْفَاكِهِيُّ ^٢ فِي «أَخْبَارِ مَكَّةَ» ^٣ .

ومن فضائلِ مِصْرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَسَرَّى مِنْ أَهْلِهَا ، وَوُلِدَ لَهُ ﷺ مِنْ نِسَاءِ مِصْرَ ، وَلَمْ يُوَلَدْ لَهُ وَوَلِدٌ مِنْ غَيْرِ نِسَاءِ الْعَرَبِ إِلَّا مِنْ نِسَاءِ مِصْرَ .

(a) زيادة من النويري .

الشمين في تاريخ البلد الأمين ١: ٤١٠-٤١١ ، Rosenthal,

(F., *El*² art. *al-Fâkihî* II, p. 775 .

^٣ انظر الأزرقى : كتاب أخبار مكة (نشرة وستنفلد) ٢٢٤

ابن فهد : إتخاف الورى ٢: ٣٢١ ؛ حسين بن عبد الله باسلامة :

تاريخ الكعبة المعظمة ، جدة ١٩٨٢ ، ١٧٠-١٧٢ .

^١ النويري : نهاية الأرب ١: ٣٥٦ .

^٢ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهني

المكي مؤلف «أخبار مكة» ، أهمل أصحاب التراجم

والطبقات الترجمة له هو وسلفه الأزرقى ، وتعجب الفاسي

من ذلك ، وتوفى بعد سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٥م (الفاسي : العقد

قال ابن عبد الحكم : لما كانت سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ ، ورجع رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّة ، بعث إلى الملوك . فمضى حاطب بن أبي بلتعة بكتاب رسول الله ﷺ ، فلما انتهى إلى الإسكندرية وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر ، فركب البحر ، فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله ﷺ بين أصبعيه ، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض ، وأمر به فأوصل إليه .

فلما قرأ الكتاب قال : ما منعه إن كان نبيا أن يدعو علي فيسلط علي ؟ فقال له حاطب : ما منع عيسى بن مريم أن يدعو علي من أبي عليه أن يفعل به ويفعل . فوجم ساعة ثم استعادها ، فأعادها عليه حاطب ، فسكت . فقال له حاطب : إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا تعتبر بك ، وإن لك ديننا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي الله به فقد ما سواه ، وما بشاره موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاونا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، ولسنا ننهك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

ثم قرأ الكتاب فإذا فيه :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، من مُحَمَّد رسول الله إلى المقوقس عظيم

القبط ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم ، يؤتلك الله أجرَكَ

مرتين . ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ

وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [الآية ٦٤ سورة آل عمران] .

فلما قرأه أخذَه فجعله في حُق من عاج وختم عليه .

عن أبان بن صالح قال : أرسل المقوقس إلى حاطب لئلا وليس عنده أحد إلا التزجمان فقال

له : ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها فإني أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك ؟ قلت : لا

تسألني عن شيء إلا صدقتك . قال : إلام يدعو محمد ؟ قال : إلى أن تعبد الله ولا تُشرك به

شيئا ، وتخلع ما سواه ، ويأمر بالصلاة ؛ قال : فكم تُصلون ؟ قال : خمس صلوات في اليوم

والليلة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، والوفاء بالعهد ، وينتهي عن أكل الميتة والدم ؛ قال :

من أتباعه ؟ قال : الفثيان من قومه وغيرهم ، قال : وهل يُقبل قوله ؟ قال : نعم ؛ قال : صفه لي ؛

قال : فوصفته بصفة من صفته ولم أت عليها . قال : قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها : في عينيه حمرة قل ما تفرقه ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتري بالثمرات والكسر ، لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم ؛ قلت : هذه صفته ؛ قال : قد كنت أعلم أن نبيًا بقي ، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج في أرض العرب ، في أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعني في اتباعه ، ولا أحب أن تعلم بمحاورتني إياك ، وسيظهر على البلاد ، ويترنل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ههنا ، وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفًا ، فارجع إلى صاحبك .

قال : ثم دعا كاتبًا يكتب بالعربية فكتب :

«لحمّد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام .

أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيًا قد بقي ، وقد كنت أظن أن نبيًا يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتزكبها ، والسلام .»

وعن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : لما مضى حاطب بكتاب رسول الله ﷺ ، قبل المقوقس الكتاب ، وأكرم حاطبًا ، وأحسن نزله ، ثم سرّحه إلى رسول الله ﷺ ، وأهدى له كسوة وبغلة بسروجها ، وجاريتين : إحداهما أم إبراهيم ، وهب الأخرى لجهم بن قيس العبدي ، فهي أم زكرياء ابن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر ، ويقال : بل وهبها رسول الله ﷺ لحمّد بن مسلمة الأنصاري ، ويقال : بل لديحية بن خليفة الكلبي ، وقيل : بل لحسان بن ثابت .^١

وعن يزيد بن أبي حبيب أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله ﷺ ضمّه إلى صدره وقال : هذا زمان يخرج فيه النبي الذي نجد نعته وصفته في كتاب الله تعالى ، وأنا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين ولا نكاح ، وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وأن مجلساء المساكين ، وأن خاتم النبوة بين كتفيه .

ثم دعا رجلًا عاقلًا ، ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية وأختها ، وهما من أهل جفن بفتح أوله وسكون ثانية ثم نون بعده من كورة أنصنا ، فبعث بهما إلى رسول الله ﷺ ،

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤٥ - ٤٧ ؛ وانظر أيضًا ، القلقشندي : صبح الأعشى ٦ : ٣٧٨ ؛ محمد حميد الله :

مجموعة الوثائق السياسية في العصر النبوي والخلافة الراشدة ، القاهرة ١٩٤١ ، ٥٧ - ٦٣ .

وأهدى له بَغْلَةً شَهْبَاءَ ، وَحِمَارًا أَشْهَبَ ، وَثِيَابًا مِنْ قِبَاطِي مِصْرَ ، وَعَسَلًا مِنْ عَسَلِ بَنِيهَا ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمَالٍ صَدَقَهُ ^١ .

وَيُقَالُ : إِنَّ الْمُقَوْقِسَ أَهْدَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ جَوَارِي ، وَقِيلَ : جَارِيَتَيْنِ ، وَبَغْلَةً اسْمَهَا الدُّدْلُ ، وَحِمَارًا اسْمُهُ يَغْفُورُ ، وَقَبَاءٌ ، وَأَلْفٌ مِثْقَالُ / ذَهَبًا ، وَعِشْرِينَ ثَوْبًا مِنْ قِبَاطِي ^٢ مِصْرَ ، وَخَصِيًّا يَسْمَى مَأْبُورَ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ ابْنُ عَمِّ مَارِيَةَ ، وَفَرَسًا يُقَالُ لَهَا : الْكَرَّارُ ، وَقَدَحًا مِنْ زُجَاجٍ ، وَعَسَلًا مِنْ عَسَلِ بَنِيهَا ، فَأَعْجَبَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَدَعَا فِيهِ بِالْبَرَكَاتِ ، وَقَالَ : «ضَنَّ الْحَبِيثُ بِمُلْكِهِ ، وَلَا بَقَاءَ لِمُلْكِهِ» . فَإِنَّ الْمُقَوْقِسَ قَالَ خَيْرًا ، وَأَكْرَمَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَقَارَبَ الْأَمْرَ وَلَمْ يُسَلِّمْ .

قال ابن سعد ^٣ : أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الْوَاقِدِيُّ ، أَنبَأَنَا يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ قَالَ : أَهْدَى ^٤ الْمُقَوْقِسُ صَاحِبَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ مَارِيَةَ وَأَخْتَهَا سِيرِينَ ، وَأَلْفَ مِثْقَالِ ذَهَبًا ، وَعِشْرِينَ ثَوْبًا ، وَبَغْلَتَهُ الدُّدْلُ ، وَحِمَارَهُ عُفَيْرًا ، وَخَصِيًّا يُقَالُ لَهُ مَأْبُورٌ . فَعَرَضَ حَاطِبٌ عَلَى مَارِيَةَ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَتْ هِيَ وَأَخْتَهَا ، ثُمَّ أَسْلَمَ الْخَصِيُّ بَعْدَ ^٤ . وَكَانَ الَّذِي بَعَثَهُ الْمُقَوْقِسُ مَعَ مَارِيَةَ اسْمُهُ جَبْرِ ^٥ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقِبْطِيُّ ، مَوْلَى بَنِي غِفَارٍ .

قال ابن عبد الحكم : وَأَمَرَ رَسُولُهُ أَنْ يَنْظَرَ مَنْ جُلَسَاؤُهُ ، وَيَنْظُرَ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ يَرَى شَامَةً كَبِيرَةً ذَاتَ شَعْرٍ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ الرَّسُولُ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَدَّمَ إِلَيْهِ الْأُخْتَيْنِ وَالذَّابْتَيْنِ وَالْعَسَلَ وَالثِّيَابَ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ هَدِيَّةٌ . فَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهَدِيَّةَ ، وَكَانَ لَا يَزِدُّهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ .

(a) ابن سعد : بعث . (b) بولاق : جبير .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤٨ .
^٢ القباطي . نسبة إلى أقباط مصر ، نوع من النسيج يمتاز بأن زخارفه تتكون من لحمات غير ممتدة في عرض المنسوج وغير منقطعة ويعرف أيضًا بالتبستري Tapestry (أبين فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٤٧٣) .
^٣ أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الهاشمي ، كاتب الواقدي . محدث مشهور ولد في البصرة نحو سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م وتوفي ببغداد سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م . ويدين ابن سعد بشهرته إلى كتابه «الطبقات الكبرى» الذي ترجم فيه

لطبقات العلماء والمحدثين من الصحابة والتابعين حتى عصره وجعلهم «طبقات» ، وهو بذلك من أوائل المؤلفات العربية التي أثبتت نظام الترتيب على الطبقات (ابن النديم : الفهرست ١١١-١١٢ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٣٢١:٥-٣٢٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٥١:٤-٣٥٢ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠ : ٦٦٤-٦٦٧ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٣ : ٨٨ ؛ Fück, J. W., *El art. Ibn Sa'd* III pp. 946-47 .

^٤ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٨ : ٢١٢ .

قَالَ: فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى مَارِيَةَ وَأَخْتِهَا أَعْجَبَتْهُمَا وَكَرِهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا، وَكَانَتْ إِخْدَاهُمَا تُشْبِهُ الْأُخْرَى، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اخْتَرْ لِنَبِيِّكَ». فَأَخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَارِيَةَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهَا: «أَشْهَدَا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». فَبَادَرَتْ مَارِيَةُ فَشَهِدَتْ وَأَمَّنتَ قَبْلَ أُخْتِهَا، وَمَكَثَتْ أُخْتُهَا سَاعَةً ثُمَّ تَشَهِدَتْ وَأَمَّنتَ، فَوَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُخْتَهَا لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ وَهَبَهَا لِذَخِيَّةِ بْنِ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ^١.

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُمِّ إِبْرَاهِيمَ أُمِّ وَلَدِهِ الْقِبْطِيَّةِ، فَوَجَدَ عِنْدَهَا نَسِيئًا لَهَا كَانَ قَدِمَ مَعَهَا مِنْ مِصْرَ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ فَرَجَعَ، فَلَقِيَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَعَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ، فَأَخَذَ عُمَرُ السَّيْفَ ثُمَّ دَخَلَ عَلَى مَارِيَةَ وَقَرِيبَتِهَا عِنْدَهَا، فَأَهْوَى إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ كَشَفَ عَنِ نَفْسِهِ وَكَانَ مَعْجُوبًا لَيْسَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ شَيْءٌ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ جِبْرِيلَ أَنَا نَبِيٌّ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ بَرَّأَهَا وَقَرِيبَتَهَا، وَأَنَّ فِي بَطْنِهَا غُلَامًا مِنِّي، وَأَنَّهُ أَشْبَهُ الْخَلْقَ بِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أُسَمِّيَهُ إِبْرَاهِيمَ، وَكَتَبَنِي بِأَبِي إِبْرَاهِيمَ».

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ عَنْ أَنَسٍ: لَمَّا وُلِدَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ وَقَعَتْ فِي نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ، حَتَّى جَاءَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ»؛ وَيُقَالُ: إِنَّ الْمُقَوْقِسَ بَعَثَتْ مَعَهَا بِخَصِيصٍ كَانَ يَأْوِي إِلَيْهَا^٢. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُقَوْقِسَ أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَوَارِيًا^(a) مِنْهُنَّ أُمَّ إِبْرَاهِيمَ، وَوَأَحَدَةً وَهَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي جَهْمِ بْنِ حُذَيْفَةَ الْعَبْدَرِيِّ^(b)، وَوَأَحَدَةً وَهَبَهَا لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ. فَوُلِدَتْ مَارِيَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ حَتَّى مَاتَ فَوَجَدَ بِهِ، وَكَانَ يَسْتُهِمُ يَوْمَ مَاتَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا^٣.

وَكَانَتْ الْبَغْلَةُ وَالْحِمَارُ أَحَبَّ دَوَابِّهِ إِلَيْهِ، وَسَمَّى الْبَغْلَةَ الدُّلْدُلَ، وَسَمَّى الْحِمَارَ يَغْفُورًا، وَأَعْجَبَهُ الْعَسَلُ، فَدَعَا فِي عَسَلِ بَنَتِهَا بِالْبَرَكَةِ، وَبَقِيَتْ تِلْكَ الثِّيَابُ حَتَّى كُفِّنَ فِي بَعْضِهَا ﷺ^٤.

(a) بولاق: جوارى. (b) إضافة من فتوح مصر.

^٣ نفسه ٥٠.

^٤ نفسه ٥٢.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٤٨-٤٩.

^٢ نفسه ٤٩.

وكان اسمُ أختِ ماريّة قَيْصَرَ ، وقيل : بل كان اسمُها شيرين ، وقيل : حَنَّة^(a) .

وَكَلَّمَ الحَسَنُ بنَ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ بنَ أَبِي سُفْيَانَ فِي أَن يَضَعَ الحِزْبِيَةَ عَنْ جَمِيعِ قَرْيَةِ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ الحِزْمِيَّةِ ، فَفَعَلَ وَوَضَعَ الخِرَاجَ عَنْهُمْ . فَلَمْ يَكُنْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ خِرَاجٌ ، وَكَانَ جَمِيعُ أَهْلِ القَرْيَةِ مِنْ أَهْلِهَا وَأَقْرِبَائِهَا فَانْقَطَعُوا .

٥. وَيُرْوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «لَوْ بَقِيَ إِبْرَاهِيمُ مَا تَرَكَتُ قِبْطِيًّا إِلَّا وَضَعْتُ عَنْهُ الحِزْبِيَةَ» . وَمَاتَتْ مَارِيَّةُ فِي مُحْرَمٍ سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةَ بِالمَدِينَةِ^١ .

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ : أَخْبَرَنِي يَحْيَى بنُ أَيُّوبَ وَابْنُ لَهْيَعَةَ ، عَنْ عَقِيلٍ ، عَنْ الزُّهْرِيِّ ، عَنْ يَعْقُوبَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ المُغِيرَةَ بنِ الأَخْفَشِ ، عَنْ ابْنِ عُمرَ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «دَخَلَ إبْلِيسُ العِرَاقَ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا ، ثُمَّ دَخَلَ الشَّامَ فَطَرَدُوهُ حَتَّى دَخَلَ جَبَلَ شَافٍ ، ثُمَّ دَخَلَ مِصْرَ فَبَاضَ فِيهَا وَفَرَّخَ وَبَسَطَ عِبقْرِيهِ» ؛ حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

١٠. وَقَدْ عَابَ بَعْضُهُمْ مِصْرَ فَقَالَ : مَحَاسِنُهَا مَجْلُوبَةٌ إِلَيْهَا ، حَتَّى العِنَاصِرُ الأَرْبَعَةُ : المَاءُ ، وَهُوَ فِي الثُّبُلِ مَجْلُوبٌ مِنَ الجَنُوبِ ، وَالثَّرَابُ مَجْلُوبٌ فِي حَمْلِ المَاءِ ، وَإِلَّا فَهِيَ رَمْلٌ مَخْضٌ لَا تُنْبِتُ الزُّرْعَ ، وَالتَّارُ لَا يُوجَدُ بِهَا شَجَرُهَا ، وَالهَوَاءُ لَا يَهَبُ بِهَا إِلَّا مِنْ أَحَدِ البَحْرَيْنِ ؛ إِمَّا مِنَ الرُّومِيِّ وَإِمَّا مِنَ القُلُومِ ؛ وَقَدْ زَادَ هَذَا فِي تَحَامِلِهِ .

١٥. وَقَالَ كَعْبُ الأَخْبَارِ : الجَزِيرَةُ أَمِينَةٌ مِنَ الخَرَابِ حَتَّى تُخْرَبَ أزمينية ، وَمِصْرُ أَمِينَةٌ مِنَ الخَرَابِ حَتَّى تُخْرَبَ الجَزِيرَةُ ، وَالكُوفَةُ أَمِينَةٌ مِنَ الخَرَابِ حَتَّى تَكُونَ المَلْحَمَةُ^٢ .

ذِكْرُ العَجَائِبِ الَّتِي كَانَتْ بِمِصْرَ مِنَ الطَّلْسِمَاتِ وَالْبِرَائِي وَنَحْوِ ذَلِكَ

ذَكَرَ فِي كِتَابِ «عَجَائِبِ الحَرَكَاتِ»^(b) وَغَرَائِبِ المَاجْرِيَّاتِ أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ حَجَرٌ مِنْ جَمْعِ كَفَيْتِهِ عَلَيْهِ تَقِيًّا جَمِيعُ مَا فِي جَوْفِهِ .

٢٠. / قَالَ القُضَاعِيُّ : ذَكَرَ الجَاحِظُ^٣ وَغَيْرُهُ أَنَّ عَجَائِبَ الدُّنْيَا ثَلَاثُونَ . أُعْجُوبَةٌ : مِنْهَا بِسَائِرُ الدُّنْيَا عَشْرُ أُعْجُوبَاتٍ ، وَهِيَ : مَسْجِدُ دِمَشْقَ ، وَكَنْسِيَةُ الرَّهَا ، وَقَنْطَرَةُ سِنْجَرِ^(c) ، وَقِصْرُ عَمْدَانَ ،

(a) بولاق : حمنة . (b) بولاق : الحكايات . (c) الإدريسي : طنجة .

^١ ابن عبد الحكم : فترح مصر ٥٢-٥٣ . ^٢ أورد الإدريسي في كتاب «أنوار علوي الأجرام» ١٦

^٣ فيما يلي ١ : ٣٣٤ . هذا النص ونص على النقل من كتاب البلدان للجاحظ .

وكنيسة زومية، وصنم الزيتون، وإيوان كشرى بالمداين، وبيت الريح بتدمر، والخوزنق والسدير بالحيرة، والثلاثة الأحجار بعلبك، وذكر أنها بيت المشتري والزهرة، وأنه كان لكل كوكب من السبعة بيت فيها فتهدمت^١.

ومنها بمصر عشرون أعجوبة: فمن ذلك «الهرمان»، وهما أطول بناء وأعجبه، ليس على وجه الدنيا بناء باليد حجر على حجر أطول منهما، وإذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان، ولذلك قال بعض من رآهما: ليس من شيء إلا وأنا أرحمه من الدهر إلا الهرمين، فإني لأرحم الدهر منهما^٢.

ومن ذلك «صنم الهرمين»، وهو «بلهوبه»، ويقال: «بلهيب»، ويقال: إنه طلسم للرمل لئلا يغلب على إبليز الجيزة^٣.

ومن ذلك «بربا سمثود»، وهو من أعاجيبها. وذكر عن أبي عمر الكندي أنه قال: رأيت وقد خزن فيه بعض عمالها قرظًا، فرأيت الجمال إذا دنا من بابه بحمله وأراد أن يدخله سقط كل ديب في القرظ لم يدخل منه شيء إلى البربا، ثم خرب عند الخمسين والثلاث مائة.

ومن ذلك «بربا إخميم» عجب من العجب بما فيه من الصور والعجائب وصور الملوك الذين يملكون مصر، وكان ذو الثون الإخميمي يقرأ البرابي، فرأى فيها حكمًا عظيمة فأفسد أكثرها.

ومن ذلك «بربا دندرة» وهو بربا عجيب فيه ثمانون ومائة كوة تدخل الشمس كل يوم من كوة منها، ثم الثانية حتى تنتهي إلى آخرها، ثم تكو راجعة إلى موضع بدايتها.

ومن ذلك «حائط العجوز» من العريش إلى أسوان، يحيط بأرض مصر شرقًا وغربًا^٤.

ومن ذلك «الإسكندرية» وما فيها من العجائب، فمن عجائبها المنارة والسواري والملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة ثم يزومون بكرة فلا تقع في حجر أحد إلا ملك مصر. وحضر عيدًا من أعيادهم عمرو بن العاص، فوقع الكرة في حجره، فملك البلد بعد ذلك في الإسلام. ثم حضر هذا الملعب ألف ألف من الناس، فلا يكون فيهم أحد إلا وهو ينظر في وجه

^٤ الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ١٦-١٧ ومصدره

كتاب البلدان للجاحظ؛ وانظر فيما يلي ٥٤١.

^١ انظر أيضًا فيما تقدم ٦٨.

^٢ انظر فيما يلي ٣٢١.

^٣ انظر فيما يلي ٣٣١.

صَاحِبِهِ . ثُمَّ إِنْ قُرِئَ كِتَابُ سَمْعُوهِ جَمِيعًا أَوْ لُعِبَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ اللَّعْبِ رَأَوْهُ عَنْ آخِرِهِمْ ، لَا يَطَّأَوْنَ فِيهِ بِأَكْثَرِ مِنَ الْمَرَاتِبِ الْعَلِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ ^١ .

وَمِنْ عَجَائِبِهَا «الْمَسَلَّتَانِ» ، وَهُمَا جَبَلَانِ قَائِمَانِ عَلَى سَرَطَانَاتِ نُحَاسٍ فِي أَرْكَانِيهَا ، كُلُّ رُكْنٍ عَلَى سَرَطَانٍ . فَلَوْ أَرَادَ مُرِيدٌ أَنْ يُدْخِلَ تَحْتَهَا شَيْئًا حَتَّى يُعْبِرَهُ مِنْ جَانِبِهِ الْآخَرَ لَفَعَلَ ^٢ .

٥ وَمِنْ عَجَائِبِهَا «عَمُودَا الْإِغْيَاءِ» ، وَهُمَا عَمُودَانِ مُلْقِيَانِ ، وَرَاءَ كُلِّ عَمُودٍ مِنْهُمَا جَبَلٌ حَصْبًا كَصُبْرِ الْجِمَارِ بِمَنْى ، يَقْبَلُ الْمُعْتَى الثَّعْبُ النَّصْبَ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ حَتَّى يَلْتَقِيَ عَلَى أَحَدِهِمَا ، ثُمَّ يَرْمِي وَرَاءَهُ السَّبْعَ ، وَيَقُومُ وَلَا يَلْتَفِتُ ، وَيَمْضِي لَطِيئِهِ ، فَكَأَنَّمَا يَحْمِلُ حَمَلًا لَا يَحْسُ بِشَيْءٍ مِنْ تَعْبِهِ .

١٠ وَمِنْ عَجَائِبِهَا «الْقُبَّةُ الْخَضْرَاءُ» ، وَهِيَ أَعْجَبُ قُبَّةٍ مُلْبَسَةٌ نُحَاسًا كَأَنَّهُ الذَّهَبُ الْإِبْرِيذُ ، لَا يُتْلِيهِ الْقَدَمُ ، وَلَا يُخْلِقُهُ الذَّهْرُ .

وَمِنْ عَجَائِبِهَا «مُنِيَّةُ عُقْبَةَ» ، وَ«قَصْرُ فَارِسَ» ، وَ«كَنْيَسَةُ أَسْفَلِ الْأَرْضِ» ، ثُمَّ هِيَ مَدِينَةٌ عَلَى مَدِينَةٍ ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَدِينَةٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ سِوَاهَا . وَيُقَالُ : إِنَّهَا إِزْمٌ ذَاتُ الْعِمَادِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّ عُمُدَهَا وَرُخَامَتَهَا مِنَ الْبَدَنْجِنَا وَالْأَصْطَفِينْدَسِ الْمَخْطَطِ طَوْلًا وَعَرْضًا .

١٥ وَمِنْ عَجَائِبِ مِصْرَ أَيْضًا «الْجِبَالُ الَّتِي هِيَ بِصَعِيدِهَا عَلَى نَيْلِهَا» ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ أَجْبُلٌ : فَمِنْهَا جَبَلُ الْكَهْفِ ، وَيُقَالُ : الْكَفِّ ، وَمِنْهَا الطَّيْلَمُونَ ، وَمِنْهَا جَبَلُ زَمَانِخِرِ ^٣ الشَّاحِرَةِ ، يُقَالُ : إِنَّ فِيهِ خَلْقَةً مِنَ الْجِبَلِ ظَاهِرَةٌ مُشْرِقَةٌ عَلَى النَّيْلِ ، لَا يَصِلُ إِلَيْهَا أَحَدٌ ، يُلُوحُ فِيهَا نَخْطٌ مَخْلُوقٌ بِأَشْيِكِ اللَّهِ .

٢٠ وَمِنْ عَجَائِبِهَا «شُعْبُ الْبُوقِيرَاتِ» بِنَاحِيَةِ أَشْمُونِ مِنَ أَرْضِ الصُّعَيْدِ ، وَهُوَ شُعْبٌ ^٤ فِي جَبَلٍ فِيهِ صُدْعٌ ، تَأْتِيهِ الْبُوقِيرَاتُ فِي يَوْمٍ مِنَ السَّنَةِ كَانَ مَعْرُوفًا ، فَتَعْرِضُ أَنْفُسَهَا عَلَى الصُّدْعِ ، فَكُلَّمَا أَدْخَلَ بُوقِيرٌ مِنْهَا مِيقَارَهُ فِي الصُّدْعِ مَضَى لِسَبِيلِهِ ، فَلَا يَزَالُ يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى يَلْتَقِيَ الصُّدْعَ عَلَى بُوقِيرٍ مِنْهَا فَيَخْبِسُهُ ، وَتَمْضِي كُلُّهَا وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ الَّذِي يَحْبِسُهُ مَتَعَلِّقًا حَتَّى يَتَسَاقَطَ وَيَتَلَاشَى ^٥ .

(٥) بولاق : زماجير .

^١ انظر فيما يلي ٤٢٩ - ٤٣٢ .

^٢ انظر فيما يلي ٦٢١ .

^٣ الشُّعْبُ الْوَادِي الصَّغِيرُ أَوْ الطَّرِيقُ يَخْتَرِقُ الْجِبَالَ

^٤ انظر ابن رسته : الأعلام النفيسة ٨٢ .

ومن عجائبها «عين شمس» ، وهي هيكل الشمس ، وبها العمودان اللذان لم يُرَ أعجب منهما ولا من شأنهما ، طولهما في السماء نحو من خمسين ذراعاً ، وهما محمولان على وجه الأرض ، وفيهما صورة إنسان على دابة ، وعلى رأسهما شبه الصومعتين من نحاس ، فإذا جاء النيل قَطَرَ من رأسهما ماءً ، وتستبينه وتراه منهما واضحاً يتبع حتى يجري في أسفلهما فيُنبت في أصلهما العوسج وغيره . وإذا حلت الشمس دقيقة من الجدي ، وهو أقصر يوم في السنة ، انتهت إلى الجنوبي منها فطلعت عليه قمة رأسه ، وهي مُنتهى المليون ، وخط الاستواء في الواسطة منهما ، ثم حطرت بينهما ذاهبة وجائية سائر السنة ؛ كذا يقول أهل العلم بذلك ^١ .

ومن عجائبها «منف» وعجائبها وأصنامها وأبنيئها ودفائنها وكنوزها ، وما يُذكر فيها أكثر من أن يُحصى من آثار الملوك والحكماء والأنبياء ، لا يدفع ذلك ^٢ .

ومن عجائبها «الفرما» ، وهي أكثر عجائب وأكثر آثاراً ^٣ .

ومن عجائبها «القيوم» ^٤ . ومن عجائبها الحجز المعروف بحجر الخلل ، يطفو على الخلل ويسبح فيه كأنه سمكة .

/وكان يوجد بها حجز إذا أمسكه الإنسان بكلتا يديه تقاياً كل شيء في بطنه ^٥ . وكان بها خرزة تجعلها المرأة على حقوها فلا تحبل . وكان بها حجز يوضع على حرف الثور فيتساقط خبزه . وكان يوجد بصعيدها حجارة رخوة تكسر فتتقد كالمصايح .

ومن عجائبها حوض كان بدولاب مُدَوَّر^(a) من حجارة ، يزكب فيها الواحد والأربعة ويُخركون الماء بشيء ، فيعبرون من جانب إلى جانب ، لا يُعلم من عمله ، فأخذه كافر الإخشيدي إلى مصر ، فنظر إليه ثم أخرج من الماء فألقي في البر ، وكان في أسفله كتابة لا يُدرى ما هي ، ثم بطل .

ومن عجائبها أن بصعيدها ضيعة تُعرف بدشنا ، فيها سنطة إذا تهددت بالقطع تدبّل وتجتمع وتضمّر ، فيقال لها : قد عفونا عنك وتركناك فتراجع ، والمشهور وهو الموجود الآن سنطة في

(a) بلاق : بدالات تدور .

^١ انظر فيما يلي ٦٢٢ ومصدره فيه القضاعي .

^٢ فيما يلي ٣٦٤ - ٣٩١ .

^٣ فيما يلي ٥٢٩ .

^٤ فيما يلي ٣٠٨ - ٣١٧ .

^٥ فيما تقدم ٨١ .

الصُّعِيدِ، إِذَا نَزَلَتْ الْيَدُ عَلَيْهَا ذَبُلَتْ، وَإِذَا رُفِعَتْ عَنْهَا تَرَاجَعَتْ، وَقَدْ حُمِلَتْ إِلَى مِصْرَ وَشُوهِدَتْ. وَبِهَا نَوْعٌ مِنَ الْخَشَبِ يُزْسَبُ فِي الْمَاءِ كَالْأَبْتُوسِ، وَبِهَا الْخَشَبُ السَّنْطُ الَّذِي يُوقَدُ مِنْهُ الْقَدْرُ الْكَثِيرُ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ فَلَا يُوجَدُ لَهُ رَمَادٌ.

- وَذَكَرَ ابْنُ نَضْرٍ الْمِصْرِيَّ أَنَّهُ كَانَ عَلَى بَابِ الْقَصْرِ الْكَبِيرِ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ: بَابُ الرِّيحَانِ عِنْدَ الْكَنِيسَةِ الْمُعَلَّقَةِ، صَنَمٌ مِنْ نُحَاسٍ عَلَى خِلْقَةِ الْجَمَلِ، وَعَلَيْهِ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَيْهِ عِمَامَةٌ، مَمْتَكِبٌ قَوْسًا عَرَبِيَّةً، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ، كَانَتْ الرُّومُ وَالْقِبْطُ وَغَيْرُهُمْ إِذَا تَطَالَمُوا بَيْنَهُمْ، وَاعْتَدَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، تَجَارَوْا إِلَيْهِ حَتَّى يَقْفُوا بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ الْجَمَلِ، فَيَقُولُ الْمَظْلُومُ لِلظَّالِمِ: «أَنْصِفْنِي قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ هَذَا الرَّايِبُ الْجَمَلُ فَيَأْخُذَ الْحَقَّ لِي مِنْكَ شَيْئًا أَمْ أُيْتِيَ» - يَعْنُونَ بِالرَّايِبِ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا ﷺ - فَلَمَّا قَدِمَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، غَيَّبَتْ الرُّومُ ذَلِكَ الْجَمَلُ لَعَلَّا يَكُونُ شَاهِدًا عَلَيْهِمْ.
- ٥
- ١٠ قال ابنُ لهيعةَ: بَلَغَنِي أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ قَدِ اتَتْي الْآنَ عَلَيْهَا سَنِينَ لَا يُدْرِي مِنْ عَمَلِهَا. قال القُضَاعِيُّ: فَهَذِهِ عَشْرُونَ أُعْجُوبَةً مِنْ جُمْلَتِهَا مَا يَتَضَمَّنُ عِدَّةَ عَجَائِبَ، فَلَوْ بَسَطْتَ لِحَاءَ مِنْهَا عَدَدٌ كَثِيرًا.

وَيُقَالُ: لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ فِيهِ شَيْءٌ غَرِيبٌ إِلَّا وَفِي مِصْرَ مِثْلُهُ أَوْ شَبِيهَةٌ بِهِ. ثُمَّ تَفْضُلُ مِصْرَ عَلَى الْبُلْدَانِ بِعَجَائِبِهَا الَّتِي لَيْسَتْ فِي بَلَدٍ سِوَاهَا.

- ١٥ وفي كِتَابِ «تُحْفَةِ الْأَلْبَابِ» أَنَّهُ كَانَ بِمِصْرَ بَيْتٌ تَحْتَ الْأَرْضِ فِيهِ رُهْبَانٌ مِنَ النَّصَارَى، وَفِي الْبَيْتِ سَرِيرٌ صَغِيرٌ مِنْ خَشَبٍ، تَحْتَهُ صَبِيٌّ مَيِّتٌ مَلْفُوفٌ فِي نَطْعٍ قَدِيمٍ^(a) مَشْدُودٌ بِخَبْلٍ، وَعَلَى السَّرِيرِ مِثْلُ الْبَاطِيَةِ فِيهَا أَنْبُوبٌ مِنْ نُحَاسٍ فِيهِ قَتِيلٌ، إِذَا اشْتَعَلَ الْقَتِيلُ بِالنَّارِ وَصَارَ سِرَاجًا خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْأَنْبُوبِ الزَّيْتُ الصَّافِي الْحَسَنَ الْفَائِقُ^(b)، حَتَّى تَمْتَلِئُ تِلْكَ الْبَاطِيَةُ وَيَنْطَفِئُ السَّرَاجُ بِكَثْرَةِ الزَّيْتِ، فَإِذَا انْطَفَأَ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّهْنِ شَيْءٌ، فَإِذَا خَرَجَ الصَّبِيُّ الْمَيِّتُ مِنْ تَحْتِ السَّرِيرِ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الزَّيْتِ شَيْءٌ، وَالْبَاطِيَةُ يَرْفَعُهَا^(c) الْإِنْسَانُ فَلَا يَرَى تَحْتَهَا شَيْئًا وَلَا مَوْضِعًا فِيهِ ثُقْبٌ؛ وَأَوْلَيْكَ الرُّهْبَانُ يَتَعَيِّشُونَ مِنْ ذَلِكَ الزَّيْتِ يَشْتَرِيهِ النَّاسُ مِنْهُمْ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ^٢.
- ٢٠

(a) بولاق: أديم. (b) في تحفة الألباب: الرائق. (c) بولاق: يريقها.

^١ ينتهي هنا نصُّ القضاعي المنقول عن كتاب «البلدان» للمجاهظ، ونقله كذلك ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ١٣-
١٧ وبقية ولا يحصى وليس في بلد شيء عجيب إلا وفي
٢ أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ١٣٣؛ وانظر عن المؤلف فيما يلي ٣١٣.

وقال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه^١: عديم الملك ابن قفطريم كان جبارًا لا يُطاق ، عظيم الخلق ، فأمر بقطع الصخور ليعمل هرمًا كما عمل الأولون ، وكان في وقته الملكان اللذان أُهبطا من السماء ، وكانا في بئر يُقال له : أفتاوه ، وكانا يُعلِّمان أهل مصر السحر . ويُقال : إن الملك عديم بن البودسير اشتكَّر من علمهما ، ثم انتقلا إلى بابل .

وأهل مصر من القبط يقولون : إنهما شيطانان يُقال لهما «مُهَلَّة» و«مهالَّة» ، وليس هما الملكين ، والملكان بابل في بئر هناك يَغشاها السحرة إلى أن تقوم الساعة ، ومن ذلك الوقت عُبدت الأصنام^٢ .

وقال قوم : كان الشيطان يُظهر ويتصَّبها لهم .

وقال قوم : أول من نصبها تدورة ، وأول صنم أقامه صنم الشمس .

وقال آخرون : بل النمرود الأول أمر الملوك بتصبها وعبادتها .

وعديم أول من صلب ، وذلك أن امرأة زنت برجل من أهل الصناعات ، وكان لها زوج من أصحاب الملك ، فأمر بصليهما على منارَين ، وجعل ظهر كل واحد منهما إلى ظهر الآخر ، وزبر على المنارَين اسمهما ، وما فعلاه ، وتاريخ الوقت الذي عُمل ذلك بهما فيه ، فانتهى الناس عن الزنا^٣ .

وبنى^(a) أربع مدائن ، وأودعها صنوفًا كثيرة من عجائب الأعمال والطلسمات ، وكثر فيها كنوزًا كثيرة ، وعمل في الشرق^(b) منارًا ، وأقام على رأسه صنمًا موجهًا إلى الشرق ، مادًا يديه ، يمتنع دواب البحر والرمال أن تتجاوز حده ، وزبر في صدره تاريخ الوقت الذي نصبه فيه ؛ ويُقال : إن هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا ، ولولا هذا لغلَّب الماء المالح من البحر الشرقي على أرض مصر .

(a) الأصل : وهي . (b) عند المسعودي : على البحر الشرقي .

^١ إبراهيم بن وصيف شاه مؤلف لا تعرف على وجه الدقة الفترة التي عاش فيها ، ويعرف أحيانًا عند المؤلفين الأندلسيين بالوصيفي ، اشتهر بكتابه في العجائب الذي تناول فيه تاريخ مصر القديم ، ويتفق ما ينسب إلى ابن وصيف شاه مع كتاب «أخبار الزمان» المنسوب إلى المسعودي . واعتمد على كتاب ابن وصيف شاه ، «الذي تحتفظ مكتبة سان بطرسبرج تحت رقم ٩٥٩٤ بأقدم نسخة منه بعنوان «كتاب العجائب الكبير» وهي نسخة كتبت في القاهرة سنة ٦٠٧ هـ ، كل من النويري في «نهاية الأرب» والمقرئ في «الخطط» (انظر المقدمة) .

^٢ المسعودي : أخبار الزمان ١٦١ ؛ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٥١ - ٥٢ نقلًا عن ابن وصيف شاه .

^٣ انظر أيضًا فيما يلي ٣٧٣ .

وَعَمِلَ عَلَى النَّيْلِ قَنْطَرَةً فِي أَوَّلِ بَلَدِ الثُّوبَةِ ، وَنَصَبَ عَلَيْهَا أَرْبَعَةَ أَصْنَامٍ مُوَجَّهَةً إِلَى أَرْبَعِ جِهَاتِ الدُّنْيَا ، فِي يَدَيْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَصْنَامِ حَرْبَتَانِ يَضْرِبُ بِهِمَا إِذَا أَتَاهُمْ آتٍ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ ، فَلَمْ تَزَلْ بِحَالِهَا إِلَى أَنْ هَدَمَهَا فِرْعَوْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَعَمِلَ الْبِرْبَا عَلَى بَابِ الثُّوبَةِ ، وَهُوَ هُنَاكَ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا .

وَعَمِلَ فِي إِحْدَى الْمَدَائِنِ الْأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا حَوْضًا مِنْ صَوَّانٍ أَسْوَدٍ مَمْلُوءًا مَاءً ، لَا يَنْقُصُ طُولَ الدَّهْرِ وَلَا يَتَغَيَّرُ مَائُهُ ، لِأَنَّهُ اجْتَلَبَهُ إِلَيْهِ مِنْ رُطُوبَةِ الْهَوَاءِ . وَكَانَ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ وَأَهْلُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ يَشْرَبُونَ مِنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مَائُهُ وَعَمِلَ ذَلِكَ [لَهُمْ] ^(a) لِبُعْدِهِمْ عَنِ النَّيْلِ .

وَذَكَرَ بَعْضُ كَهَنَةِ الْقَيْطِ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا تَمَّ ^(b) لِقُرْبِهِ مِنَ الْبَحْرِ الْمِلْحِ ، فَإِنَّ الشَّمْسَ تَرْفَعُ بِحَرِّهَا بُخَارَ الْبَحْرِ فَيَتَّخِذُ مِنَ ذَلِكَ الْبُخَارِ جُزْءًا بِالْهِنْدَسَةِ أَوْ بِالسُّحْرِ ⁽¹⁾ ، وَتَجْعَلُهُ يَنْحَطُّ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ بِالْجَوْهَرِ مِثْلَ الظِّلِّ ، وَتَمُدُّهُ بِالْهَوَاءِ فَلَا يَنْقُصُ بِذَلِكَ مَائُهُ عَلَى الدَّهْرِ ، وَلَوْ شَرِبَ مِنْهُ الْعَالَمُ .

وَعَمِلَ قَدْحًا لَطِيفًا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ ، وَأَهْدَاهُ حَوْمَلًا ^(c) الْمَلِكُ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِ الْيُونَانِيِّ .

وَمَلَكَهُمْ عَدِيمٌ مِائَةٌ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ مِائَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَدُفِنَ فِي إِحْدَى الْمَدَائِنِ ذَاتِ الْعَجَائِبِ ⁽²⁾ ، وَقِيلَ : فِي صَخْرَاءِ قَيْطِ ⁽³⁾ .

وَذَكَرَ بَعْضُ الْقَيْطِ أَنَّ نَاوُوسَ عَدِيمِ عَمِلَ فِي صَخْرَاءِ قَيْطِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، تَحْتَ قُبَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ زُجَاجٍ أَخْضَرَ بَرَّاقٍ ، مَعْقُودٍ عَلَى رَأْسِهَا كُرَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، عَلَيْهَا طَائِرٌ مِنْ ذَهَبٍ مُوَشَّحٌ بِجَوْهَرٍ مَنُشُورٍ الْجَنَاحِينَ يَمْنَعُ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى الْقُبَّةِ ، وَكَانَ قَطْرُهَا مِائَةٌ ذِرَاعٍ فِي مِثْلِهَا ، وَجُعِلَ جَسَدُهُ فِي وَسْطِهَا عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُشَبَّكَ ، وَهُوَ مَكْشُوفُ الْوَجْهِ ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مَنُسُوجَةٌ بِالذَّهَبِ الْمَقْرُوزِ بِالْجَوْهَرِ الْمَنْظُومِ ، وَطُولُ الْقُبَّةِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا .

وَجُعِلَ [مَعَهُ] ^(a) فِي الْقُبَّةِ مِائَةٌ وَسَبْعُونَ مُصْحَفًا مِنْ مَصَاحِفِ الْحِكْمَةِ ، وَسَبْعُ مَوَائِدَ بِأَوَانِيهَا ،

مِنْهَا مَائِدَةٌ مِنْ دُرِّ رُمَّانِي أَحْمَرَ ، وَأَوَانِيهَا مِنْهَا ، وَمَائِدَةٌ مِنْ ذَهَبٍ فَلَمُونِي وَأَوَانِيهَا مِنْهَا ، وَمَائِدَةٌ مِنْ

(a) زيادة من المسعودي . (b) بولاق : الماء ثم ، والتصويب كذلك من المسعودي . (c) في الأصل وعند المسعودي : حويل .

¹ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٥٧-٥٨ (نقلًا عن ابن وصيف شاه) .
كل النص المنسوب هنا إلى ابن وصيف شاه ورد في كتاب «أخبار الزمان» المنسوب للمسعودي ١٦١-١٦٣ ،

² نفسه ١٥ : ٥٨ .
وكذلك النص التالي .

حَجَر الشَّمْس المَضِيء بآنيتها ، وهو الزُّبْرُجْد الذي إذا نَظَرْت إليه الأفاعي سألت أعيُنُها ، ومائِدَة من كِبْرِيَت أَحْمَر مُدَبَّر بآنيتها ، ومائِدَة من مِلْح أبيض مُدَبَّر براق بآنيتها ، ومائِدَة من زُبُّق معقود .
وجَعَلَ في القُبَّة جِوَاهِر كثيرة وبرابي صَنَعَة مُدَبَّرَة ، وحَوَّلَه سبعة أشياف وأطراس من حديد أبيض مدبر وتمائيل أفراس من ذهب ، عليها سُروِج من ذهب ، وسبعة ثوابيت من دنانير عليها صُورَتَه . وجَعَلَ معه من أصناف العَقَاقِير والشمومات والأدوية في برابي من حجارة .

وقد ذَكَر من رَأَى هذه القُبَّة أَنَّهُم أَقاموا أَيامًا فما قَدَرُوا على الوُصُول إليها ، وأنَّهُم إذا قَصَدُوها وكانوا منها على ثمانية أذرع دارت القُبَّة عن أيمانهم أو عن شمائلهم [من أزج] ^a . ومن أعجب ما ذَكَرُوهُ أَنَّهُم كانوا يُحاذون أزاجها أزجا أزجا ، فلا يَرَوْنَ [من أزج] ^a غير الصُورَة التي يرونها من الأزج الآخر على معنَى واحد . وذَكَرُوا أَنَّهُم رَأَوْا وَجْه المَلِك قَدْر ذراع ونصف بالكبير ، ولحيتُه كبيرة مكشوفة ، وقدرُوا طُول بَدَنه عشرة أذرع وزيادة ^١ .

وذَكَر هؤلاء الذين رَأَوْها أَنَّهُم خَرَجُوا لِحاجة فَوَجَدوها اتِّفاقًا ، وأنَّهُم سألوا أَهل قِطْع عنها فلم يَجِدُوا أَحَدًا يعرفها سوى شَيْخٍ منهم ^٢ .

وأوصى عَدِيمُ المَلِك ابنه شَدَّات بن عَدِيم أن يَنْصِب في كُلِّ حَيِّز من أحياز ولايته منارًا ويَزيِّر عليه اسمَه ، فأنحدر إلى الأشمونين وعَمِلَ مناراتها ، وزَبَّر عليها اسمَه ، وعمل بها مَلاعِب ، وعمل في صحرائها منارًا أقامَ عليه صَنَمًا برأسين ، على اسم كَوَكَبين كانا مُقْتَرنين في الوَقْت الذي خَرَج فيه إلى أثريب ، وبَنَى فيها قُبَّة عَظِيمَة مرتفعة على عُمُد وأساطين بعضها فَوْق بعض ، وعلى رأسها صَنَمًا صغيرًا من ذهب ، وعمل هَيْكَلًا للكواكب . ومَضَى إلى حَيِّز صَا ، فَعَمِلَ فيه منارًا على رأسه مرآة من أخلاط توري الأقاليم ، ورَجَع ^٣ .

وعَمِلَ شَدَّات بن عَدِيم هَيْكَلًا أَرَمَت ، وأقامَ فيه أصنامًا بأسماء الكواكب من جميع المعادين ، وزَيَّنَه بأحسن الزِينَة ، ونَقَشَه بالجواهر والزجاج الملون ، وكَساه الوُشِي والديباج ، وعَمِلَ في المدائن

(a) زيادة من المسعودي .

^١ المسعودي : أخبار الزمان ١٦٣ - ١٦٤ ؛ النويري : ^٣ النويري : نهاية الأرب ٦١:١٥ وقارن المسعودي :

نهاية الأرب ١٥:٥٩-٦٠ (عن ابن وصيف شاه) . أخبار الزمان ١٦٥ .

^٢ نفسه ١٦٤ .

الداخلة من أَنْصِنَا هَيْكَلًا ، وَأَقَامَ فِيهِ بِأَثْرِيْب ، وَهَيْكَلًا شَرْقِي الْإِسْكَندَرِيَّة .

وَأَقَامَ صَنْمًا مِنْ صَوَّانِ أَسْوَدَ بِاسْمِ زُحَلٍ عَلَى عِبْرَةِ النَّيْلِ مِنَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ، وَبَنَى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مَدَائِنَ فِي إِخْدَاهَا صُورَةَ صَنْمٍ قَائِمٍ وَلَهُ إِخْلِيلٌ ، إِذَا أَتَاهُ الْمَعْقُودُ وَالْمَشْحُورُ وَمَنْ لَا يَنْتَشِرُ ذَكَرَهُ فَمَسَحَهُ^(a) بِكِلْتَا يَدَيْهِ ، انْتَشَرَ ذَكَرُهُ وَقَوِيَ عَلَى الْبَآءِ . وَفِي إِخْدَاهَا بَقْرَةٌ لَهَا ضَرْعَانِ كَبِيرَانِ ، إِذَا انْعَقَدَ لَبَنُ امْرَأَةٍ أَتَتْهَا وَمَسَحَتْهَا بِيَدَيْهَا ، فَإِنَّهُ يُدْرَى لَبَنُهَا^١ .

وَجَمَعَ التَّمَّاسِيحُ بِطَلْسَمِ عَمَلِهِ بِنَاحِيَةِ أَسْيُوطَ ، فَكَانَتْ تَنْصَبُ مِنَ النَّيْلِ إِلَى إِخْمِيمِ أَنْصِبَابًا ، فَيَقْتُلُهَا وَيَسْتَعْمِلُهَا جُلُودًا فِي السُّفُنِ وَغَيْرِهَا^٢ .

وَعَمِلَ مَتَقَاوُسُ الْمَلِكُ بَيْتًا تَدُورُ بِهِ تَمَائِيلٌ لِجَمِيعِ الْعِلَلِ ، وَكَتَبَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ تِمْتَالٍ يَصْلُحُ [لَهُ]^(b) مِنَ الْعِلَاجِ ، فَانْتَفَعَ النَّاسُ بِهَا زَمَانًا إِلَى أَنْ أَفْسَدَهَا بَعْضُ الْمُلُوكِ .

١٠ وَعَمِلَ صُورَةَ امْرَأَةٍ مُتَبَسِّمَةٍ ، لَا يَرَاهَا مَهْمُومٌ إِلَّا زَالَ هَمُّهُ وَنَسِيَتْهُ ، فَكَانَ النَّاسُ يَتَنَاوَبُونَهَا وَيَطُوفُونَ حَوْلَهَا ، ثُمَّ عَبَدُوهَا مِنْ جُمْلَةِ مَا عَبَدُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ .

١٥ وَعَمِلَ تِمْتَالًا مِنْ صُفْرِ مُذَهَّبٍ بِجَنَاحَيْنِ ، لَا يَمُرُّ بِهِ زَانٍ وَلَا زَانِيَةٌ إِلَّا كَشَفَ عَوْرَتَهُ بِيَدِهِ . وَكَانَ النَّاسُ يَمْتَحِنُونَ بِهِ الزُّنَاةَ ، فَاثْتَمَعُوا مِنَ الزُّنَاةِ فَرَقًا مِنْهُ . فَلَمَّا مَلَكَ كَلْكَنَ عَشِيقَتِ حَظِيئَةَ عِنْدَهُ رَجُلًا مِنْ خَدَمِهِ ، وَخَافَتْ أَنْ تُثَمَّتَحَنَّ بِذَلِكَ الصَّنَمِ ، فَأَخَذَتْ فِي ذِكْرِ الزُّوَانِيِّ مَعَ الْمَلِكِ وَأَكْثَرَتْ مِنْ سَبِّهِنَ وَذَمِّهِنَ ، فَذَكَرَ كَلْكَنَ ذَلِكَ الصَّنَمِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ ؛ فَقَالَتْ : صَدَقَ الْمَلِكُ ، غَيْرَ أَنَّ مَتَقَاوُسَ لَمْ يُصَبِّ فِي أَمْرِهِ ؛ لِأَنَّهُ أَتَعَبَ نَفْسَهُ وَحُكَمَاءَهُ فِيمَا جَعَلَهُ لِإِصْلَاحِ الْعَامَّةِ دُونَ نَفْسِهِ ، وَكَانَ حُكْمُ هَذَا أَنْ يُنْصَبَ فِي دَارِ الْمَلِكِ حَيْثُ يَكُونُ نِسَاؤُهُ وَجَوَارِيهِ ، فَإِنْ اقْتَرَفَتْ إِخْدَاهُنَّ ذَنْبًا عَلِمَ بِهَا فَيَكُونُ رَادِعًا لِهِنَّ مَتَى عَرَّضَ بِقُلُوبِهِنَّ شَيْءًا مِنَ الشَّهْوَةِ . فَقَالَ كَلْكَنُ : صَدَقْتَ ، وَظَنُّ أَنْ هَذَا مِنْهَا نُصْحٌ ، فَأَمَرَ بِنَزْعِ الصَّنَمِ مِنْ مَوْضِعِهِ وَنَقْلِهِ إِلَى دَارِهِ فَبَطَلَ عَمَلُهُ ، وَعَمِلَتِ الْمَرْأَةُ مَا كَانَتْ هَمَّتُ بِهِ .

٢٠

وَبَنَى هَيْكَلًا عَلَى جَبَلِ الْقُصَيْرِ لِلشَّحْرَةِ ، فَكَانُوا لَا يُطْلِقُونَ الرِّيَّاحَ لِلْمَرَآكِبِ الْمُقْلَعَةِ إِلَّا بِضَرِيئَةٍ يَأْخُذُونَهَا مِنْهُمْ لِلْمَلِكِ^٣ .

(a) فِي النُّوَيْرِيِّ : فَسَهُ . (b) زِيَادَةٌ مِنَ النُّوَيْرِيِّ .

^٢ نَفْسُهُ ١٥ : ٦٣ ؛ نَفْسُهُ ١٦٧ .

^١ النُّوَيْرِيُّ : نِهَآيَةُ الْأَرْبِ ١٥ : ٦١ - ٦٢ وَقَارَنَ

^٣ النُّوَيْرِيُّ : نِهَآيَةُ الْأَرْبِ ١٥ : ٦٥ - ٦٦ (عَنْ ابْنِ =

الْمَسْعُودِيِّ : أَحْبَابُ الزَّمَانِ ١٦٦ - ١٦٧ .

وبنى مناوش بن منقوش في صحراء الغرب مدينة بالقرب من مدينة السحرة تُعرف بقمَنْطَر^(a) ذات عجائب ، وجعل بوسطها قبة عليها كالسحابة تُمطر شتاءً وصيفًا مطرًا خفيفًا ، وتحت القبة مطهرة فيها ماء أخضر يُتداوى^(b) به من كل داء فيئثرته ، وعمِل في شرقها بربا لطيفًا له أربعة أبواب ، لكل باب عَضادتان ، في كل عَضادة صورة وجه يُخاطب كل واحد منهما صاحبه بما يحدث في يومه . فمن دخل البربا على غير طهارة نَفَخا في وجهه فأصابه رَعْدَةٌ فظيعة لا تُفارقة حتى يموت .

وكانوا يقولون : إن في وسطه مهبط الثور في صورة العمود ، من اعتنقه لم يحتجب عن نظره عن شيء من الرؤحانية ، وسمع كلامهم ، ورأى ما يعملون .

وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة رهب في يده مٌصْحَف فيه علم من العلوم ، فمن أحب معرفة ذلك العلم ، أتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرهما على صدره ، فثبت ذلك العلم في صدره . ويُقال : إن هاتين المدينتين بُنيتا على اسم هزمس وهو عطارِد ، وأتتهما بحالهما .

وحكي عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان ، وهو أمير مصر ، فعرفه أنه تاه في صحراء الشرق^(c) ، فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صنف من الفاكهة ، وأنه أكل منها وتزوّد ؛ فقال له رجل من القبط : هذه إحدى مدينتي هزمس ، وفيها كنوز كثيرة ؛ فوجهه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء وزاد ، فأقاموا يطوفون تلك الصحاري شهرًا فلم يقفوا لها على أثر .

وعملت أم بلاطس^(d) الملك بركة عظيمة في صحراء الغرب ، وجعلت في وسطها عمودًا طوله ثلاثون ذراعًا ، وفي أعلاه قَصعة من حجارة يفور منها الماء فلا ينقص أبدًا . وجعلت حول البركة أضنامًا من حجارة ملوّنة على صور الحيوانات من الوحش والطير والبهائم ، فكان كل جنس يأتي إلى صورته ويألفها ، فيؤخذ باليد وينتفع به .

وعملت لابنها متنزها لأنه كان يحب الصيد ، فجعلت فيه مجالس مركبة على أساطين من مزمر مصفح بالذهب مرصع بالجواهر والزجاج الملون ، وزخرفته بالتصاوير العجيبة والنقوش ،

(a) بولاق : بقنطرة . (b) الأصل وبولاق : يداوي والتصويب من النويري . (c) عند المسعودي : الغرب . (d) الأصل وبولاق : ميلاطس .

= وصيف شاه) وقارن المسعودي : أخبار الزمان ١٦٩ - ١٧١ . وقارن المسعودي : أخبار الزمان ١٧٥ - ١٧٦ .

^١ النويري : نهاية الأرب ٧٠ : ١٥ (عن ابن وصيف شاه)

فَكَانَ الْمَاءُ يَطَّلَعُ مِنْ قَوَارَاتٍ ، وَيُنْصَبُ إِلَى أَنْهَارٍ قَدْ صُفِّحَتْ بِالْفِضَّةِ ، تَجْرِي إِلَى حَدَائِقٍ فِيهَا بَدِيعُ
الْفُرُوشَاتِ ، وَقَدْ أُقِيمَ حَوْلَهَا تَمَائِيلٌ تُصَفِّرُ بِأَنْوَاعِ اللُّغَاتِ . وَأَزْنَحَتْ عَلَى الْمَجْلِسِ سُتُورًا مِنْ دِيبَاجٍ ،
وَاخْتَارَتْ لِابْنِهَا مِنْ حِسَانِ بَنَاتِ عَمِّهِ وَبَنَاتِ الْمُلُوكِ وَأَزْوَاجَتِهِ ، وَحَوَّلَتْهُ إِلَى هَذِهِ الْجَنَّةِ ، وَبَنَتْ
حَوْلَ الْجَنَّةِ مَجَالِسَ لِلزُّرَّاءِ وَالكَهَنَةِ وَأَشْرَافِ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ ، فَكَانُوا يَزْفَعُونَ إِلَيْهِ جَمِيعَ مَا
يَعْمَلُونَهُ ، فَإِذَا فَرَّغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، حُمِلَ إِلَيْهِمُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ ^١ .

وَكَانَ بِلَاطُسُ ^(a) تَقَلَّدَ الْمَلِكَ بَعْدَ أَبِيهِ مَرْقُورَةَ وَهُوَ صَبِيٌّ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ مُدَبِّرَةَ الْمَلِكِ وَهِيَ حَازِمَةٌ
مُجَرَّبَةٌ فَأَجَزَتْ الْأُمُورَ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ ، وَأَحْسَنَتْ وَعَدَلَتْ فِي الرَّعِيَّةِ ، وَوَضَعَتْ
عَنْهُمْ بَعْضَ الْخَرَاجِ ^٢ .

وَكَانَتْ أَيَّامُهُ سَعِيدَةً كُلَّهَا فِي الْخَيْضِ الْكَثِيرِ وَالسَّعَةِ لِلنَّاسِ وَالْعَدْلِ . وَكَانَ لَهُ يَوْمٌ يَخْرُجُ فِيهِ
إِلَى الصَّيْدِ ، وَيَرْجِعُ إِلَى جَنَّتِهِ فَيَأْمُرُ لِكُلِّ مَنْ مَعَهُ بِالْجَوَائِزِ وَالْأَطْعِمَةِ ، وَيَجْلِسُ لِلنُّظَرِ يَوْمًا فِي
مَصَالِحِ النَّاسِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ ، وَيَخْلُو يَوْمًا بِنِسَائِهِ ^٣ .

وَكَانَ مُلْكُهُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَجُدِيرَ فَمَاتَ .

وَعَمِلَ قَرَسُونُ بْنُ فُلَيْمُونِ بْنِ أَثْرِيْبٍ مَنَارًا عَلَى بَحْرِ الْقُلْزَمِ ، وَعَلَى رَأْسِهِ مِرْوَاةٌ [مِنْ أَخْلَاطِ] ^(b)
تَجْتَذِبُ بِهَا الْمَرَائِبَ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، فَلَا يُمَكِّنُهَا أَنْ تَبْرَحَ إِلَّا أَنْ تُعَشَّرَ ، فَإِذَا عُشِّرَتْ سُوِّرَتْ الْمِرْوَاةُ
حَتَّى تَجُوزَ الْمَرَائِبَ .

وَأَقَامَ قَرَسُونُ مَائَتِي سَنَةً وَسِتِينَ سَنَةً ، وَعَمِلَ لِنَفْسِهِ نَاوُوسًا خَلْفَ الْجَبَلِ الْأَسْوَدِ الشَّرْقِيِّ ، فِي
وَسَطِهِ قُبَّةٌ حَوْلَهَا اثْنَا عَشَرَ بَيْتًا ، فِي كُلِّ بَيْتٍ أَعْجُوبَةٌ لَا تُشْبِهُ الْأُخْرَى ، وَزَيَّرَ عَلَيْهَا اسْمَهُ وَمُدَّهُ
مُلْكُهُ ^٤ .

وَكَانَ مَرْقُونِسُ الْمَلِكُ حَكِيمًا مُجِيبًا لِلنُّجُومِ وَالْعُلُومِ وَالْحِكْمَةِ ، فَعَمِلَ فِي أَيَّامِهِ دِرْهَمًا إِذَا ابْتِغَاءَ بِهِ
صَاحِبُهُ شَيْقًا اشْتَرَطَ أَنْ يُوزَنَ ^(c) لَهُ مَا يَبْتَاعُهُ مِنْهُ بِوِزْنِ الدَّرْهَمِ وَلَا يَطْلُبُ عَلَيْهِ زِيَادَةً ، فَيَخْتَرُ الْبَائِعُ
بِذَلِكَ ، وَيَقْبَلُ الشَّرْطَ ، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ بَيْنَهُمَا وَقَعَ فِي وَزْنِ الدَّرْهَمِ أَرْطَالٌ كَثِيرَةٌ تُسَاوِي عَشْرَةَ

(a) الأصل وبولاق : ميلاطس . (b) إضافة من النويري . (c) في النسخ : وزن .

^٣ نفسه ١٥ : ٧٥ .

^٤ نفسه ١٥ : ٨٠ .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٤ - ٧٥ .

^٢ نفسه ١٥ : ٧٤ .

أضعافه . وكان إذا أَحَبَّ أن يدخُل في وزنه أضعاف تلك الأرتال دَخَلَ . وقد وُجِدَ هذا الدرهم في كنوزهم ثم في خزائن بني أمية ، وكان الناس يتعجبون منه .

وَوَجَدُوا دَرَاهِمَ أُخْرَ قِيلَ : إِنَّهَا عُمِلَتْ فِي وَقْتِهِ أَيْضًا ، فَيَكُونُ الدَّرَاهِمُ مِنْهَا فِي مِيزَانِ الرَّجُلِ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَبْتَاعَ حَاجَةً أَخَذَ ذَلِكَ الدَّرَاهِمَ وَقَبَلَهُ وَقَالَ : اذْكُرِ الْعَهْدَ ، وَابْتَاعَ بِهِ مَا أَرَادَ . فَإِذَا أَخَذَ السُّلْعَةَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ ، وَجَدَ الدَّرَاهِمَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَيَجِدُ الْبَائِعُ مَوْضِعَ ذَلِكَ الدَّرَاهِمِ وَرَقَّةَ آسٍ أَوْ قِرْطَاسًا أَوْ مِثْلَ ذَلِكَ بِدَوْرِ الدَّرَاهِمِ .

وَفِي وَقْتِهِ عُمِلَتْ الْآنِيَةُ الزُّجَاجُ الَّتِي تُوزَنُ ، فَإِذَا مُلِئَتْ مَاءً أَوْ غَيْرِهِ ثُمَّ وُزِنَتْ لَمْ تَزِدْ وَزْنُهَا الْأَوَّلَ شَيْئًا . وَعُمِلَ فِي وَقْتِهِ الْآنِيَةُ الَّتِي إِذَا جُعِلَ الْمَاءُ فِيهَا صَارَ خَمْرًا فِي لَوْنِهِ وَرَائِحَتِهِ وَفِعْلِهِ .

وَقَدْ وُجِدَ مِنْ هَذِهِ الْآنِيَةِ بِإِطْفِيحٍ فِي إِمَارَةِ هَارُونَ بْنِ خُمَارَوَيْهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ ، شَرْبَةً جَزَعُ بَعْرُوزَةَ زَرْقَاءَ بِيضًا . وَكَانَ الَّذِي وَجَدَهَا أَبُو الْحَسَنِ الصَّبَائِغِ الْخُرَاسَانِيُّ هُوَ وَنَفَرٌ مَعَهُ ، فَأَكَلُوا عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ وَشَرَبُوا بِهَا الْمَاءَ فَوَجَدُوهُ خَمْرًا سَكِرُوا مِنْهُ ، وَقَامُوا لِيَتَرَقُّصُوا فَوَقَعَتِ الشَّرْبَةُ فَانكَسَرَتْ عِدَّةٌ قِطْعَ ، فَاغْتَمَّ الرَّجُلُ وَجَاءَ بِهَا إِلَى هَارُونَ فَأَسِيفَ عَلَيْهَا وَقَالَ : لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَأَشْتَرَيْتَهَا / بِيَعُضِ مُلْكِي ^١ .

وَأَمَّا الْآنِيَةُ النُّحَاسِيَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْمَاءَ خَمْرًا ، فَإِنَّهَا مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُلُوبَطْرَةَ بِنْتِ بَطْلَمَيْوسَ مَلِكَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، فَكَثِيرَةٌ .

وَفِي وَقْتِهِ عُمِلَتْ الصُّورُ الْحَيِّمِيَّةُ مِنَ الصُّفَادِيعِ وَالْخَنَافِسِ وَالذُّبَابِ وَالْعَقَارِبِ وَسَائِرِ الْحَشْرَاتِ ، وَكَانَتْ إِذَا جُعِلَتْ فِي مَوْضِعِ اجْتِمَاعِ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْجِنْسِ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى مُفَارَقَةِ تِلْكَ الصُّورَةِ حَتَّى يُقْتَلَ ^٢ ؛ وَكَأَنَّهُ يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا بِصُورِ دَرَجِ الْفَلَكَ وَأَسْمَائِهَا وَطَوَالِعِهَا ، فَيَتِمُّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا يُرِيدُهُ .

وَعُمِلَ فِي صَخْرَاءِ الْغَرْبِ مَلْعَبًا مِنْ زُجَاجِ مُلَوَّنٍ فِي وَسْطِهِ قُبَّةٌ مِنْ زُجَاجٍ أَخْضَرَ صَافِي اللَّوْنِ ، فَإِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ أَلْقَتْ شُعَاعَهَا عَلَى مَوَاضِعَ بَعِيدَةٍ ، وَعُمِلَ فِي جَوَانِبِ الْأَرْبَعَةِ أَرْبَعَةَ مَجَالِسٍ عَالِيَةٍ مِنْ زُجَاجٍ ، كُلُّ مَجْلِسٍ لَوْنٌ ، وَنَقَشَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ لَوْنِهَا طَلْسَمَاتٌ عَجَبِيَّةٌ ، وَنُقُوشَاتٌ غَرِيبَةٌ وَصُورًا بَدِيعَةٌ ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ زُجَاجٍ مُطْلَقٍ يَشْفَى . وَكَانَ يَقِيمُ فِي هَذَا الْمَلْعَبِ الْأَيَّامَ ، وَعُمِلَ

^٢ نفسه ١٥ : ٨٣ .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٨٢ - ٨٣ .

له ثلاثة أعياد في كل سنة ، فكان الناس يَحْجُونَ إليه في كل عيد ، وَيَذْبَحُونَ له وَيُقِيمُونَ فيه سبعة أيام . ولم يزل هذا الملعَبُ تَقْصِده الأُمَّمُ ، فَإِنَّه لم يَكُنْ له نَظِيرٌ ، ولا عَمِلَ في العالمِ مثله ، إلى أن هَدَمَهُ بعضُ الملوكِ لَعَجْزِهِ عن عَمَلِ مثله ^١ .

وكانت أم مَرْقُونَسِ ابنة ملك الثوبَةِ ، وكان أبوها يعبد الكوكب الذي يُقالُ له الشها ، ويسميه إلهًا ، سألت ابنها أن يَعْمَلَ لها هَيْكَلًا يُفْردها به ، فَعَمِلَهُ وَصَفَّحَهُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وأقام فيه صَنَمًا ، وأرْحَى عليه الشُّتورَ الحَرِيرَ ، فكانت تَدْخُلُ إليه بجوارِيها وَحَشَمِهَا ، وتَسْجُدُ له في كل يوم ثلاث مَرَّاتٍ ، وَعَمِلَتْ لِكُلِّ شَهْرٍ عِيدًا تُقَرِّبُ له قرايين وتُبَخِّرُهُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ، وَنَصَبَتْ له كاهِنًا من الثوبَةِ يَقُومُ به وَيُقَرِّبُ له وَيُبَخِّرُهُ ، ولم تَزَلْ بائِنِها حتى سَجَدَ له وَدَعَا الناسَ ^(a) إلى عبادته .

- ١٠ فلما رأى الكاهِنُ الأَمْرَ في عِبَادَةِ الكَوَاكِبِ قد تَمَّ وَأُحْكِمَ من جهة الملك ، أَحَبَّ أن يكون لِكوكب الشها مثالًا في الأرض على صورة حيوان يُتَعَبَّدُ له ، فأقامَ يعمل الحيلة في ذلك ، إلى أن اتَّفَقَ أَنَّ العُقْبَانَ كَثُرَتْ بِمِصْرَ وَأَضْرَتْ بالناس ، فأحضرَ الملكَ هذا الكاهِنَ وسأله عن سَبَبِ كَثْرَتِهَا ، فقال : إِنَّ إلهَكَ أَرْسَلَهَا لتعمل لها نظيرًا لِيُسَجَدَ له . فقال مَرْقُونَسُ : إن كان يُرْضِيهِ ذلك فَأَنَا فاعله . فقال : إن ذلك رِضاه . فأمرَ بِعَمَلِ عُقَابٍ طوله ذراعان في عَرْضِ ذراعٍ من ذهبٍ مَسْبُوكٍ ، وَعَمَلَ عَيْنَيْهِ من ياقوتتين ، وَعَمِلَ له وشاحين من لؤلؤٍ مَنْظُومٍ على أنابيبِ جَوْهَرٍ أَخْضَرَ ، وفي مِثْقَالِهِ دُرَّةٌ مُعَلَّقَةٌ ، وَسَرْوَلَةٌ بِالذَّرِّ الأَحْمَرِ ، وَأقامَهُ على قاعِدَةٍ من فِضَّةٍ مَنْقُوشَةٍ ، قد رُكِبَتْ على قَائِمَةٍ زُجاجِ أَرْزَقٍ ، وجَعَلَهُ في أَرْجٍ عن يمين الهَيْكَلِ ، وألْقَى عليه سُتُورَ الحَرِيرِ ، وجَعَلَ له دُخْنَةً من جميع الأفاويه والصُّمُوغِ ، وقَرَّبَ له عِجَلًا أَسْوَدَ وَبَكَارَةَ الفَرَارِيحِ وَبَاكُورَةَ الفَوَاكِهِ وَالرِّياحِينَ . فلما تَمَّتْ له سبعة أيام دَعَاهُم إلى السُّجُودِ إليه فأجابته الناسُ ؛ ولم يَزَلْ الكاهِنُ يُجْهِدُ نَفْسَهُ في عِبَادَةِ العُقَابِ وَعَمِلَ له عِيدًا . فلما تَمَّ لذلك أربعون يومًا نَطَقَ الشَّيْطَانُ من جَوْفِهِ ، وكان أوَّلُ ما دَعَاهُم إليه أن يبحر له في أنصافِ الشهورِ بِالمَنْدَلِ ، وَيُرْسِ الهَيْكَلَ بِالحَمْرِ العَتِيقةِ الَّتِي تُؤْخَذُ من رُعُوسِ الخَوَابِي ، وَعَرَّفَهُم أَنَّهُ قد أزال عنهم العُقْبَانَ وَضَرَّرَهَا ، وكذلك يَفْعَلُ في غيرها مِمَّا

(a) ساقطة من بولاق .

يخافون . فسره الكاهن بذلك وتوجه إلى أم الملك يعرفها ذلك ، فسارت إلى الهيكل وسمعت كلام العقاب ، فسرها ذلك وأعظمته . وبلغ الملك فركب إلى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه . فسجد له ، وأقام له سدنة ، وأمر أن يُزين بأصناف الزينة . وكان مرقونس يقوم بهذا الهيكل ، ويسجد لتلك الصورة ، ويسألها عما يريد فتخبره .

٥ وعمل من الكيبياء ما لم يعمل أحد من الملوك ، فيقال : إنه دفن في صحراء العرب خمس مائة دفين . ويقال : إنه عمل على باب مدينة صا عمودا عليه صنم في صورة امرأة جالسة وفي يدها مرآة تنظر إليها ، وكان العليل يأتي إلى هذه المرآة وينظر فيها أو ينظر له أحد فيها فإن كان يموت من علته تلك ربي ميتا ، وإن كان يعيش رآه حيا ، وينظر فيها أيضا للمسافر فإن رآه مقبلا بوجهه علموا أنه راجع ، وإن رآه مؤليا علموا أنه يتمادى في سفره ، وإن كان مريضا أو ميتا رآه كذلك في المرآة . ١٠

وعمل بالإسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة ، وعلى رأسه كالبرؤس وفي يده كالعكاز ، فإذا مر به تاجر جعل بين يديه شيئا من المال على قدر بضاعته ، فإن تجاوزه ولو عن بعد من غير أن يضع بين يديه المال لم يقدر على الجواز وثبت قائما مكانه ، فكان يجتمع من ذلك مال عظيم يفرق في الزمنى والضعفاء والفقراء .

١٥ وعمل في زمنه كل أعجوبة ظريفة ، وأمر أن يُزبر اسمه عليها وعلى كل علم وكل طلسم وكل صنم . وعمل لنفسه ناووسا في داخل الأرض ، عند جبل يقال له : سدام ، وعمل تحته أزجا يقال : إن طوله مائة ذراع ، وارتفاعه ثلاثون ذراعا ، وعرضه عشرون ذراعا ، وصفحة بالمرمر والزجاج الملون ، وسقفه بالحجارة ، وعمل فيها دائرة مساطب مبلطة بزجاج على كل مسطبة أعجوبة ، وفي وسط الأزج دكة من زجاج ، على كل ركن من أركانها صورة تمنع الدنو إليها ، وبين كل صورتين منارة عليها حجر مضيء ، وفي وسط الدكة حوض من ذهب فيه جسده بعد ما ضمد بالأدوية الماسكة ، ونقل إليه ذخائره من الذهب والجواهر وغيره ، وسد باب الأزج بالصخور والرصاص ، وهيل عليها الرمال .

٢٠ وكان ملكه ثلاثا وسبعين سنة ، وعمره مائتين وأربعين سنة ، وكان جميلا ، ذا وفرة حسنة ، فتنسكت نساؤه ولزمن الهيكل من بعده .^١

^١ التويري : نهاية الأرب ١٥ : ٨٤ - ٨٦ .

وَمَلِكٌ بَعْدَهُ ابْنُهُ أَنْسَادٌ^(a)، ثُمَّ صَا بْنُ أَنْسَادٍ^(a)، وَقِيلَ : صَا بْنُ مَرْقُونَسٍ أَخُو أَنْسَادٍ، فَعَمِلَ مِرَاةً فِي مَدِينَةٍ مَنَفٍ تَرَى الْأَوْقَاتَ الَّتِي تُخَصَّبُ فِيهَا مِصْرٌ وَتُجَدَّبُ، وَبَنَى بِدَاخِلِ الْوَاخَاتِ مَدِينَةً، وَنَصَبَ قُرْبَ الْبَحْرِ أَعْلَامًا كَثِيرَةً .

وَعَمِلَ خَلْفَ الْمُقَطَّمِ صَنَمًا يُقَالُ لَهُ : صَنَمُ الْحَيْلَةِ، فَكَانَ كُلُّ مَنْ تَعَدَّرَ عَلَيْهِ أَمْرًا يَأْتِيهِ وَيُخْرِه فَيَتَيَسَّرُ ذَلِكَ الْأَمْرُ لَهُ . وَجَعَلَ بِحَافَةِ الْبَحْرِ الْمِلْحِ مَنَارًا يَعْلَمُ مِنْهُ أَمْرَ الْبَحْرِ وَمَا يَحْدُثُ فِيهِ مِنْ أَقْصَى مَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْبَصَرُ عَلَى مَسِيرَةِ أَيَّامٍ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا . وَيُقَالُ : إِنَّهُ بَنَى أَكْثَرَ مَدِينَةِ مَنَفٍ، وَكُلَّ بُيَّانٍ عَظِيمٍ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ^١ .

وَلَمَّا مَلَكَ تُدَارِسُ بْنُ صَا الْأَخْيَازَ كُلَّهَا بَعْدَ أَبِيهِ، وَصَفَا لَهُ مِثْلُ مِصْرٍ، بَنَى فِي غَرْبِيِّ مَدِينَةِ مَنَفٍ بَيْتًا عَظِيمًا لِكُوكِبِ الزُّهْرَةِ، وَأَقَامَ فِيهِ صَنَمًا عَظِيمًا مِنْ لَازُورْدٍ مُذَهَّبٍ، وَتَوَجَّهَ بِذَهَبٍ يَلُوحُ بُرْزُقُهُ، سَوْرَهُ بِسُورَاتَيْنِ مِنْ زَبْرُجَدٍ أَخْضَرَ . وَكَانَ الصَّنَمُ فِي صُورَةِ امْرَأَةٍ لَهَا ضَفِيرَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ أَسْوَدَ مُدَبِّرٍ، وَفِي رِجْلَيْهَا خُلْخَالَانِ مِنْ حَجَرٍ أَحْمَرَ شَفَّافٍ، وَنَعْلَانِ مِنْ ذَهَبٍ، وَبِيَدَيْهَا قَضِيْبُ مَرْجَانٍ، وَهِيَ تُشِيرُ بِسَبَائِطِهَا كَأَنَّهَا مُسَلِّمَةٌ عَلَى مَنْ فِي الْهَيْكَلِ؛ وَجَعَلَ بِحِذَائِهَا تِمَالِ بَقْرَةٍ ذَاتِ قَرْنَيْنِ وَضَرْعَيْنِ مِنْ نُحَاسٍ أَحْمَرَ تَمُوهُ بِذَهَبٍ، مُوشِحَةٌ بِحَجَرِ اللَّازُورْدِ، وَوَجْهَ الْبَقْرَةِ تَجَاهَ وَجْهَ الزُّهْرَةِ، وَبَيْنَهُمَا مَطْهَرَةٌ مِنْ أَخْلَاطِ الْأَجْسَادِ، عَلَى عَمُودِ رُخَامٍ مَجْزُوعٍ، وَفِي الْمَطْهَرَةِ مَاءٌ مُدَبِّرٌ يُسْتَشْفَى بِهِ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَفَرَشَ الْهَيْكَلِ بِحَشِيشَةِ الزُّهْرَةِ يُتَدَلَوْنَهَا فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ؛ وَجَعَلَ فِي الْهَيْكَلِ كِرَاسِيًّا لِلْكَهَنَةِ قَدْ صُفِّحَتْ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَقَرَّبَ لِهَذَا الصَّنَمِ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعَزِ وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ، وَكَانَ يَحْضُرُ يَوْمَ الزُّهْرَةِ وَيَطُوفُ بِهِ . وَفَرَشَ الْهَيْكَلِ وَسْتَرَهُ، وَجَعَلَ فِيهِ تَحْتَ قُبَّتِهِ صُورَةَ رَجُلٍ رَاكِبٍ عَلَى فَرَسٍ، لَهُ جَنَاحَانِ، وَمَعَهُ حَزْبَةٌ فِي سِنَانِهَا رَأْسُ إِنْسَانٍ مُعَلَّقٌ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الْهَيْكَلُ إِلَى أَنْ هَدَمَهُ بُخْتِ نَصْرٍ فِي أَيَّامِ مَالِيْقِ بْنِ تُدَارِسٍ^٢ .

وَكَانَ مُوَحَّدًا عَلَى دِينِ قُبْطِيْمٍ وَمِصْرَايِمَ، خَرَجَ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَغَزَا الْبَرْبَرِ وَأَرْضَ إِفْرِيقِيَّةٍ وَبِلَادَ الْأَنْدَلُسِ وَأَرْضَ الْإِفْرِجِ إِلَى الْبَحْرِ، وَعَمِلَ فِي الْبَحْرِ أَعْلَامًا زَبْرُجَدٍ عَلَيْهَا اسْمُهُ

(a) الْأَصْلُ وَبُولَاقُ : إِسَادٌ .

١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٨٨ .
٢ نفسه ١٥ : ٩٣ - ٩٤ ، وانظر عن تحطيم بخت نصر

الهياكل والطلسمات المصرية فيما تقدم ٦٨ .

ومسيره ، وزجج فهابه ملوك الأرض ^١ .

وكان في غربي مصر مدينة يُقال لها : قزميدة بها قومٌ قد ملكوا عليهم امرأةٌ ساحرة ^٢ فغزاهم فلم يتل منهم قَصْدًا وزجج ، فأرادت ملكتهم إفساد مصر ، فعملت من سحرها وأمرت فألقي في النيل ، ففاض الماء على المزارع حتى أفسدها ، وكثرت التماسيح والضفادع ، وفشت الأمراض في الناس ، وانبتت فيهم الثعابين والعقارب . فأخضر ماليق الكهنة والحكماء في دار حكمتهم ، وألزمهم بالنظر لذلك ؛ فنظروا في نجومهم فرأوا أن هذه الآفة أتتهم من ناحية الغرب ، وأن امرأة عملته وألقتة في النيل ، فعلموا حينئذ أنه من فعل تلك الساحرة ، واجتهدوا في دفع ذلك بما عندهم من العلم حتى انكشف عنهم الماء الفاسد وهلكت الدواب المضرة . وجّهزوا قائدًا في جيش إلى المدينة ، فلم يجدوا بها غير رجل واحد ، فأخذوا من الأموال والجواهر والأصنام ما لا يُحصى ؛ فمن ذلك صورة كاهن من زبوجد أخضر ، على قائمة من حجر الأَسْبَازِشْم ^٣ ، وصورة رُوخاني من ذهب رأسه من جواهر أحمر ، وله جناحان من دُرّ ، وفي يده مُصْحَف فيه كثير من علومهم في دقتين مُرْصَعَتَيْن بجواهر ، ومطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة زجاج أخضر ، فيها ماء لدفع الأسقام ، وفرس من فضة ، إذا عزم عليه بعزائمه ودخن بدُخنته وزكبه أحد طار به . فأخضر ذلك وغيره من عجائب السحرة وأصنامهم ، والأموال والجواهر إلى مصر ، ومعهم الرجل ، فسأله الملك عن أعجب أعمالهم ، قال : قصدهم بعض ملوك الزبوج بجمع كثير وتخايل هائلة ، فأغلق أهل مدينتنا حصنهم ولجأوا إلى الأصنام ، فأتى الكاهن إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها فجلس على حافتها ، وأحاط رؤساء الكهنة بها ، وأخذ يُزْمِزِم على الماء حتى فاز ، وخرج من وسطه نار ، في وسطها وجه كدارة الشمس لها ضوء ، فخرت الجماعة لها سُجودًا ، وتلك الصورة تعظم حتى صعدت وخرقت القبة وسمع منها : « قد كفيتم شرَّ عدوكم » . فقاموا وإذا بعدوهم قد هلك وسائر من معه ، وذلك أن صورة الشمس التي ظهرت من الماء مرّت فصاحت عليهم صيحةً هلكوا بها ^٣ .

(a) بولاق : الأسياديم .

^٣ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٩٥ - ٩٩ ، ونص المقرئ مختصر عن نص النويري الذي نقل نص ابن وصيف شاه كاملاً .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٩٥ - ٩٦ .

^٢ عند النويري : يقال لها : سطفا .

ولما ملك كلكن مصر بعد أبيه خزيثا^(a)، كان النمرود في وقته، فاتصل بنمرود خبر حكيمته
وسخره فاستزاره، ووجه إليه أن يلقاه، وكان النمرود يسكن سواد العراق، وغلب على كثير من
الأمم. فأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله، لها أجنحة، قد أحاطت به كالنار، وحوله صور
هايلة، فدخل بها، وهو متوشح بثعبان، ومخزم ببعضه، وذلك الثنين فاغز فاه، ومعه قضيب
أس أخضر، كلما حرك الثنين رأسه ضربته بالقضيب. فلما رأى النمرود ذلك هاله، واعترف له
بجليل الحكيم.

وتقول القبط: إن كلكن كان يزفع فيجلس على الهرم الغربي في قبة تلوح على رأسه، وكان
أهل البلد إذا ذمهم أمرت اجتمعوا حول الهرم. / ويقولون: إنه زبما قام على رأس الهرم أياما لا
يأكل ولا يشرب. ثم إنه استتر مدة حتى توهموا أنه هلك، فطبع الملوك في مصر، وقصدها
ملك من المغرب يقال له: «سادوم» في جيش عظيم، إلى أن بلغ وادي هيب. فأقبل كلكن
وجللهم من سخرة بشيء كالغمام شديد الحرارة، وهم تحته أياما لا يذرون أين يتوجهون، ثم
ارتفع وصار بمصر يعرفهم ما عمل، وأمرهم فخرجوا، فإذا بالقوم ودوابهم قد ماتوا، فهاهه جميع
الكهنة، وصوروه في سائر الهياكل. وبنى هيكلًا لرحل من صوان أسود في ناحية الغرب، وجعل
له عيدًا^١.

وفي أيام دارم بن الرتيان، وهو الفروعون الرابع الذي يقال له عند القبط دريموس، ظهر معدن
فضة على ثلاثة أيام من النيل، أثاروا^(b) منه شيئًا عظيمًا. وعمل صنمًا على اسم القمر، لأن طالعه
كان بزج السرطان، ونصبه على القصر الرخام الذي بناه أبوه في شرقي النيل، ونصب حوله
أصنامًا كلها من الفضة، وألبسها الحرير الأحمر، وعمل للصنم عيدًا، كلما دخل بزج
السرطان^٢.

ولما ولي أكسامس الملك بعد أبيه معدان - أي^(c) معاديوس - بن دارم - أي^(c) دريموس - وهو
الفروعون السادس أقام أعلامًا كثيرة حول منب، وجعل عليها أساطين يمشى من بعضها إلى
بعض، وعمل برقودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الأرض [مدنًا كثيرة و]^(d) أعلامًا ومناير للوقود

(a) عند المقرئ: حرما. (b) النويري: فأبان. (c) في جميع النسخ ابن. (d) زيادة من النويري.

^٢ نفسه ١٥: ١٢٧.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٠٢-١٠٣.

وطلّسّمات كثيرة، وعَمِلَ كُرَّةً^(a) من فِضَّة، ونَقَشَ عليها صورة الكواكب، ودَهَنَهَا بالذَّهْنِ الصُّينِي، وأقامها على منار في وَسَطِ مَنْف، وعَمِلَ في هَيْكَلِ أَبِيهِ زُوحَانِي زُحَلٍ من ذَهَبٍ أَسْوَدٍ مُدَبَّرٍ. وعَمِلَ في وَقْتِهِ مِيزَانًا يَعْتَبَرُ بِهِ النَّاسُ، كَفَّتَاهُ من ذَهَبٍ، وَعَلَّاقَتَهُ من فِضَّةٍ، وَسَلَّاسِلُهُ من ذَهَبٍ، فَكَانَ مُعَلَّقًا فِي هَيْكَلِ الشَّمْسِ، وَكُتِبَ عَلَى إِحْدَى كَفَّتَيْهِ «حَقٌّ»، وَالْأُخْرَى «بَاطِلٌ»، وَتَحْتَهُ فُصُوصٌ قَدْ نُقِشَ عَلَيْهَا أَسْمَاءُ الكَوَاكِبِ، فَيَدْخُلُ الظَّالِمُ والمَظْلُومُ يَأْخُذُ كُلُّ مَنَهُمَا فَصًّا من تِلْكَ الفُصُوصِ، وَيُسَمَّى عَلَيْهِ مَا يُرِيدُهُ، وَيَجْعَلُ أَحَدَ الفَصِّينِ فِي كَفَّةٍ، وَالْآخَرَ فِي كَفَّةٍ، فَتُنْقَلُ كَفَّةُ الظَّالِمِ، وَتَرْتَفِعُ كَفَّةُ المَظْلُومِ؛ وَمَنْ أَرَادَ سَفَرًا أَخَذَ فَصِّينَ، وَذَكَرَ عَلَى أَحَدِهِمَا اسْمَ السَّفَرِ، وَعَلَى الْآخَرَ الإِقَامَةَ، وَجَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ فِي كَفَّةٍ، فَإِنْ ثَقُلَا جَمِيعًا وَلَمْ يَرْتَفِعْ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرَ لَمْ يُسَافِرْ، وَإِنْ اِرْتَفَعَا سَافَرَ، وَإِنْ اِرْتَفَعَ أَحَدُهُمَا أَخَّرَ السَّفَرَ ثُمَّ سَافَرَ. وَكَذَا مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ، وَمَنْ لَهُ غَائِبٌ، أَوْ يَنْظُرُ فِي صَلاَحِ أَمْرِهِ وَفَسَادِهِ.

وَيُقَالُ: إِنْ بُحِثَ نَصْرًا لَمَّا دَخَلَ إِلَى مِصْرَ حَمَلٌ هَذَا المِيزَانَ مَعَهُ فِيمَا حَمَلَ إِلَى بَابِلَ، وَجَعَلَهُ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ النَّارِ.

وَعَمِلَ فِي أَيَّامِهِ أَيْضًا تَنْوُزًا، يُشَوِّى فِيهِ مِنْ غَيْرِ نَارٍ، وَقِدْرًا^(b) يُطَبِّخُ فِيهِ بِغَيْرِ نَارٍ، وَسِكِّينٌ تُنْصَبُ إِذَا رَأَاهَا شَيْءٌ مِنَ البَهَائِمِ أَقْبَلَ حَتَّى يَذْبَحَ نَفْسَهُ بِهَا، وَعَمِلَ مَاءً يَسْتَحِيلُ نَارًا، وَزُجَاجًا يَسْتَحِيلُ هَوَاءً، وَأَشْيَاءَ مِنَ النِّيرَانِيَّاتِ وَالتَّوَامِيسِ^١.

وَأَمَّا «الْبِرَابِي»^٢ فَذَكَرَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهًا أَنَّ سُورِيْدَ الَّذِي بَنَى الأَهْرَامَ هُوَ الَّذِي بَنَى البِرَابِي كُلَّهَا، وَعَمِلَ فِيهَا الكُنُوزَ، وَزَبَرَ عَلَيْهَا عُلُومًا، وَوَكَّلَ بِهَا زُوحَانِيَّةً تَحْفَظُهَا مِمَّنْ يَقْصِدُهَا.

وَقَالَ فِي كِتَابِ «الفِهْرِستِ»: وَبِمِصْرَ أُبْنِيَّةٌ يُقَالُ لَهَا: البِرَابِي مِنَ الحِجَارَةِ العَظِيمَةِ الكَبِيرِ^(c)، وَهِيَ عَلَى أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَفِيهَا مَوَاضِعٌ لِلصُّخْنِ وَالسُّخْقِ وَالحَلِّ وَالعَقْدِ وَالتَّقْطِيرِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا عُمِلَتْ لِصِنَاعَةِ الكِيمِيَاءِ، وَفِي هَذِهِ الأُبْنِيَّةِ نُقُوشٌ^(d) وَكُتَابَاتٌ لَا يُدْرَى مَا هِيَ، وَقَدْ أُصِيبَتْ [خِزَائِنٌ]^(e) تَحْتَ الأَرْضِ فِيهَا هَذِهِ العُلُومُ مَكْتُوبَةٌ فِي التَّوْزِ، وَهِيَ صَفَائِحُ الذَّهَبِ وَالتُّحَاسِ، وَفِي الحِجَارَةِ^٣.

(a) بولاق: كورة. (b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: الكبيرة وابن النديم: المفرطة في الكبير. (d) بعد ذلك عند ابن النديم: بالكلدانية والقبطية. (e) إضافة من ابن النديم.

^١ Barba I, p. 1070

^٢ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٣٢-١٣٣.

^٣ ابن النديم: الفهرست ٤١٨.

^٤ انظر عن البرابي ومفردتها بربا. Wiet, G., *El² art.*

وَذَكَرَ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ الْهَمْدَانِيُّ أَنَّ بَرَابِيَّ مِصْرَ تُنْسَبُ إِلَى بَرَابِ بْنِ الدَّرْمَشِيلِ^(a) بْنِ مَحْوِيلِ^(b) ابْنِ خُنُوحِ بْنِ قَائِنِ^(c) بْنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

وَذَكَرَ أَبُو الرَّيْحَانِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْبَيْرُونِيُّ فِي كِتَابِ «الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ عَنِ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ» أَنَّ كَنِيسَةً فِي بَعْضِ قُرَى مِصْرَ قَدْ شَاهَدَهَا الْمُؤْتَوِّقُ بِقَوْلِهِمُ الْمَأْخُودُ بِرَأْيِهِمْ، الْمَأْمُونُ مِنْ جِهَتِهِمُ التَّمُونَةَ عَلَيْهِمْ^(d)، فِيهَا سِرْدَابٌ يُنْزَلُ إِلَيْهِ بَنِيْفٌ وَعِشْرِينَ مَرْقَاةً، وَفِيهِ سَرِيرٌ تَحْتَهُ رَجُلٌ وَصَبِيٌّ مَشْدُودِينَ فِي نَطْعٍ، وَفَوْقَهُ ثُورٌ رُخَامٌ فِي جَوْفِهِ بَاطِيَةٌ زُجَاجٌ^(e)، بِدَاخِلِهَا قَيْبَةٌ مِنْ نُحَاسٍ، فِي جَوْفِهَا فَتِيلَةٌ كَثَّانٌ، تُوقَدُ فَيَصَبُّ فِيهَا زَيْتٌ، فَلَا يَلْبَثُ إِلَّا أَنْ تَمْتَلِي الْبَاطِيَةُ الزُّجَاجَ زَيْتًا، وَتَفِيضُ إِلَى الثُّورِ الرَّخَامِ، فَيَنْفَقُ عَلَى تِلْكَ الْكَنِيسَةِ وَقَنَادِيلِهَا.

وَذَكَرَ الْجِيهَانِيُّ^(f) أَنَّهُ صَارَ إِلَيْهِ مِنْ وَثَقَ بِهِ، وَرَفَعَ الْبَاطِيَةَ عَنِ الثُّورِ، وَأَفْرَغَ الزَّيْتَ مِنَ الْبَاطِيَةِ وَالثُّورِ جَمِيعًا، وَأَطْفَأَ النَّارَ، وَأَعَادَهَا جَمِيعًا إِلَّا الزَّيْتَ، فَإِنَّهُ صَبَّ زَيْتًا مِنْ عِنْدِهِ، وَأَبْدَلَهُ فَتِيلَةً أُخْرَى وَأَشْعَلَهَا، فَمَا لَبِثَ الزَّيْتُ أَنْ فَاضَ إِلَى الْبَاطِيَةِ الزُّجَاجِ، ثُمَّ فَاضَ إِلَى الثُّورِ الرَّخَامِ مِنْ غَيْرِ مَدَدٍ وَلَا عُنْصُرٍ.

وَذَكَرَ الْجِيهَانِيُّ^(f) أَنَّهُ إِذَا أُخْرِجَ الْمَيْتُ مِنْ تَحْتِ السَّرِيرِ، انْطَفَأَتِ النَّارُ وَلَمْ يَفِيضِ الزَّيْتُ^(٢).
وَذَكَرَ عَنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَنَّ الْمَرَأَةَ الْمُتَوَهِّمَةَ فِي نَفْسِهَا حَمَلًا، تَحْمِلُ ذَلِكَ الصَّبِيَّ وَتَضَعُهُ فِي جِجْرِهَا، فَيَتَحَرَّكُ وَلَدُهَا فِي الْبَطْنِ إِنْ كَانَ الْحَمْلُ حَقِيقَةً، أَوْ تَيَاسُ إِنْ لَمْ تَحْسَسْ بِحَرَكَةٍ.
قَالَ مُؤَلِّفُهُ وَجَامِعُهُ^(g) - أَخْبَرَنِي دَاوُدُ بْنُ رِزْقِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - وَكَانَتْ لَهُ سِيَّاحَاتٌ كَثِيرَةٌ بِأَرْضِي مِصْرَ وَمَعْرِفَةٌ أُخْوَالِهَا^(٣) - أَنَّهُ عَبَّرَ فِي مَغَارَةٍ كَبِيرَةٍ يُقَالُ لَهَا: مَغَارَةُ شَقْلَقِيلِ بِالْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ، فَإِذَا فِيهَا كَوْمٌ عَظِيمٌ مِنْ سَنْدَرُوسٍ، وَأَنَّهُ تَخَطَّاهُ وَمَضَى، فَإِذَا شَيْءٌ كَثِيرٌ إِلَى الْغَايَةِ مِنَ السَّمَكِ

(a) فِي الْإِكْلِيلِ: الدَّرْمَشِيكُ. (b) الْأَصْلُ: فَحْوِيلٌ وَبَوْلَاقٌ: نَحْوِيلٌ. (c) بَوْلَاقٌ: قَارٌ. وَالْأَصْلُ: قَائِنٌ. (d) بَوْلَاقٌ:

الرَّوَايَةُ عَنْهُمْ. (e) الْأَصْلُ: زُجَاجٌ. (f) بَوْلَاقٌ: الْجِيهَانِيُّ. (g) بَوْلَاقٌ: الْمُؤَلِّفُ.

^١ الْهَمْدَانِيُّ: الْإِكْلِيلُ ١: ٤١.
^٢ لَمْ أَجِدْ هَذَا النَّصَّ فِي كِتَابِ «الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ» لِلْبَيْرُونِيِّ، وَلَكِنْ نَجِدُ نَفْسَ النَّصِّ عِنْدَ ابْنِ رُشْتَةَ فِي الْأَعْلَاقِ التَّنْقِيسَةِ ٨١-٨٢، وَالْجِيهَانِيُّ هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ نَصْرِ الْجِيهَانِيُّ، أَحَدُ وَرَثَةِ السَّامَانِيِّينَ، أَلَّفَ كِتَابًا فِي صِفَةِ الْعَالَمِ وَأَخْبَارِهِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْمَدَنِ وَالْأَمْصَارِ وَالْبَحَارِ وَالْأُمَمِ وَمَسَاكِنِهِمْ... (الْمَسْعُودِيُّ: التَّنْبِيهِ وَالْإِشْرَافُ ٧٥)، وَكَذَلِكَ كِرَاتَشْكُوفْسْكِي: تَارِيخُ الْأَدَبِ الْجُغْرَافِيِّ الْعَرَبِيِّ ٢٣٦-٢٤٢).
^٣ انظُرْ أَيْضًا فِيمَا يَلِي ١١١.

وجميعها ملفوفة بثياب كأنها قد كُفنت بعد الموت . وأنه أخذ منها سمكة وفتشها / فإذا في
 فمها دينار عليه كتابة لا يُحسن قراءتها ، وأنه صار يأخذها سمكة سمكة ويُخرج من فم كل
 واحدة دينارًا ، حتى اجتمع له من ذلك عدة دنانير ، وأنه أخذ تلك الدنانير ورجع ليخرج حتى
 جاء إلى الكوم الشندروس وإذا به ارتفع حتى سدَّ عليه الموضع . فعاد إلى السمك وأعاد الدنانير
 إلى مواضعها وخرج ، فإذا الشندروس كما كان أولًا بحيث يتجاوزها ويخرج . فعاد وأخذ الدنانير
 ومشى يخرج بها ، فإذا الشندروس قد ارتفع حتى سدَّ عليه الموضع . فعاد إلى السمك وأعاد
 الدنانير إلى مواضعها وخرج ، فإذا الشندروس على حاله كما كان أولًا بحيث يتجاوزها ويخرج .
 وأنه كثر أخذ الدنانير وإعادتها مرارًا ، والحال على ما ذكر ، حتى خشي الهلاك فتركها وخرج .
 فلما كان مدة سكن موضعها فرأى حَجْرًا في جدار وقد قور ، ووضع حَجْرًا آخر ، فحاول
 الحَجْر الآخر حتى رفعه ، فإذا تحته ستة دنانير من تلك الدنانير التي وجدها في أفواه السمك ،
 فأخذ منها واحدًا وترك البقية في موضعها ، وأعاد الحَجْر على الحَجْر .

وقدر الله بعد ذلك أنه ركب النيل ليعدي من البر الشرقي إلى البر الغربي ؛ قال : فلما تَوَسَّط
 البحر ، وإذا بالأسماك تثب من الماء وتُلقي أنفسها في المركب حتى كدنا نغرق من كثرتها ،
 فصاح الركاب خوفًا من الهلاك . قال : فتذكرت الدينار الذي معي ، وأن هذا ربما كان بسببه ،
 فأخرجته من جيبِي وألقيته في الماء ، فتوائبت الأسماك من المركب وألقت أنفسها في الماء حتى لم
 يتبق منها شيء .

قلت : وأخبرني قديمًا بعض من لا أتهمه أنه ظفر بطلسم من هذا المعنى ، وأنه عنده ، وأراد أن
 يُريني السمك يشب من الماء فلم يُقدر لي أن أرى ذلك .

قال ابن عبد الحكم : لما أغرق الله آل فرعون ، بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف
 أهلها أحد ، ولم يتبق بها إلا العبيد والأجراء والنساء . فاتفق من بمصر من النساء أن يؤلين منهم
 أحدًا ، وأجمع رأيهن أن يؤلين امرأة منهن يُقال لها : دلوكة بنت زباء ، وكان لها عقل ومعرفة
 وتجارب ، وكانت في شرف منهن وموضع ، وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة ، فملكوها ؛
 فخافت أن يتناولها الملوك ، فجمعت نساء الأشراف وقالت لهن : إن بلادنا لم يكن يطمع فيها
 أحد ، ولا يمد عينه إليها ، وقد هلك أكابرنا وأشرافنا ، وذهب السحرة الذين كُنا نقوى بهم . وقد
 رأيت أن أبني حصنًا أُحديق به جميع بلادنا ، فأضع عليه المحاريس من كل ناحية ، فإننا لا نأمن أن
 يطمع فينا الناس .

فَبُنِيَ جِدَارًا أَحاطَتْ به على جميع أرض مصر كلها : المزارع ، والمدائن ، والقري . وجعلت دونه خليجًا يجري فيه الماء ، وأقامت القناطر والترع . وجعلت فيه محارس ومساح على كل ثلاثة أميال محرس ومشلحة ، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل ، وجعلت في كل محرس رجالًا ، وأجرت عليهم الأرزاق ، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس ، فإذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض الأجراس فأتاهم الخبر من أي وجه كان في ساعة واحدة فنظروا في ذلك فمَنَعَتْ بذلك مصر ممن أرادها . وفرغت من بنائه في ستة أشهر . وهو الجدار الذي يُقال له «جدار العجوز» بمصر ، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة ^١ .

قال المسعودي : وقيل : إنما بنته خوفًا على ولدها ، وكان كثير القنص ، فخافت عليه سباع البر والبحر واغتيال من جاوَزَ أرضهم من الملوك والبدوادي ، فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها . وقد قيل [في ذلك من الوجوه] ^(a) غير ما وصفنا ؛ فملكهم ثلاثين سنة في قول ^٢ .

قال كاتبه ^(b) : قد بقي من حائط العجوز هذا في بلاد الصعيد بقايا ، أخبرني الشيخ المعمر محمد بن السعودي أنه سار في بلاد الصعيد على حائط العجوز ومعه رقيقة ، فاقتلع أحدهم منها لبنة ، فإذا هي كبيرة جدًا تُخالف المعهود الآن من اللبن في المقدار . فتناولها القوم واحدًا بعد واحد يتأملونها ، وبينما هم في رؤيتها إذ سقطت إلى الأرض ، فانقلقت عن حبة فول في غاية الكبر الذي يُتَعَجَّب منه لعدم مثله في زماننا ، فقشروا ما عليها فوجدوها سالمة من الشوس والعيب ، كأنها قرية عهد بخصادها ، لم يتغير فيها شيء ألبتة ؛ فأكلها الجماعة قطعة قطعة ، وكأنها إنما خُبِثت لهم من الزمن القديم والأعصر الخالية ؛ إنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها .

قال ابن عبد الحكم : وكان ثم عَجُوزٌ ساحرة يُقال لها : تدورة ^(c) ، وكانت السحرة تُعْظَمها وتُقدِّمها في علمهم وسحرهم ، فبعثت إليها دلوكة ابنة زباء : إنا قد احتجنا إلى سحرك ، وفرغنا إليك ، ولا نأمن أن يطمع فينا الملوك ، فاعملي لنا شيئًا تغلب به من حولنا ، فقد كان فرعون يحتاج إليك ، فكيف وقد ذهب أكابرنا - يعني في العرق مع فرعون موسى - وبقي أقلنا .

(a) إضافة من المسعودي . (b) بولاق : المؤلف ، وعلى هامش الأصل : في الأصل كاتبه . (c) بولاق : بدور .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١: ٢٦-٢٧ وفيما يلي ^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢: ٨٧ .

فَعَمِلَتْ بِرَبَا مِنْ حِجَارَةٍ فِي وَسْطِ مَدِينَةٍ مَنَفٍ وَجَعَلَتْ لَهَا أَرْبَعَةَ أَبْوَابٍ ، كُلُّ بَابٍ مِنْهَا إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ وَالْبَحْرِ وَالغَرْبِ وَالشَّرْقِ ، وَصُوِّرَتْ فِيهِ صُورَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ وَالسُّفُنِ وَالرُّجَالِ ، وَقَالَتْ لَهُمْ : قَدْ عَمِلْتُ لَكُمْ عَمَلًا يَهْلِكُ بِهِ كُلُّ مَنْ أَرَادَكُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ تَوْتُونَ مِنْهَا بَرًّا أَوْ بَحْرًا ، وَهَذَا مَا يُغْنِيكُمْ عَنِ الْحِصْنِ ، وَيَقْطَعُ عَنْكُمْ مَوْثَنَةً مِنْ أَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، فَإِنَّهُمْ إِنْ كَانُوا فِي الْبَرِّ عَلَى خَيْلٍ أَوْ بِغَالٍ أَوْ إِبِلٍ أَوْ فِي سُفُنٍ أَوْ رَجَالَةٍ تَحْرَكَتْ هَذِهِ الصُّورَ مِنْ جِهَتِهِمْ الَّتِي يَأْتُونَ/ مِنْهَا ، فَمَا فَعَلْتُمْ بِالصُّورِ مِنْ شَيْءٍ أَصَابَتْهُمْ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ عَلَى مَا تَفْعَلُونَ بِهِمْ .

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَلُوكَ حَوْلَهُمْ أَنَّ أَمْرَهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى وَايَةِ النِّسَاءِ ، طَمِعُوا فِيهِمْ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ عَمَلِ مِصْرَ ، تَحْرَكَتْ تِلْكَ الصُّورُ الَّتِي فِي الْبِرْبَا ، فَطَفِقُوا لَا يُهَيِّجُونَ تِلْكَ الصُّورَ بِشَيْءٍ وَلَا يَفْعَلُونَ بِهَا شَيْئًا ، إِلَّا أَصَابَ ذَلِكَ الْجَيْشَ الَّذِي كَانَ أَقْبَلَ إِلَيْهِمْ مِثْلَهُ : إِنْ كَانَ خَيْلًا ، فَمَا فَعَلُوا بِتِلْكَ الْخَيْلِ الْمِصُورَةِ فِي الْبِرْبَا مِنْ قَطْعِ رُءُوسِهَا أَوْ سَوْقِهَا أَوْ فِقْءِ عُيُونِهَا أَوْ بَقْرِ بُطُونِهَا ، أَيْزٌ مِثْلَ ذَلِكَ بِالْخَيْلِ الَّتِي أَرَادَتْهُمْ ، وَإِنْ كَانَتْ سُفُنًا أَوْ رَجَالَةً فَمِثْلَ ذَلِكَ . وَكَانُوا أَعْلَمَ النَّاسَ بِالسُّحْرِ وَأَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ ، وَانْتَشَرَ ذَلِكَ فَتَنَادَرَهُمْ^(a) النَّاسُ .

وَكَانَ نِسَاءُ أَهْلِ مِصْرَ حِينَ عَرِقَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَبِيدُ وَالْأَجْرَاءُ ، لَمْ يَضْبِرْنَ عَنِ الرُّجَالِ ، فَطَفِقَتِ الْمَرْأَةُ تُغْتِقَ عَبْدَهَا وَتَتَزَوَّجَهُ ، وَتَتَزَوَّجُ الْأُخْرَى أُجِيرَهَا . وَشَرَطْنَ عَلَى الرُّجَالِ أَلَّا يَفْعَلُوا شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِهِمْ ، فَأَجَابُوهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَكَانَ أَمْرُ النِّسَاءِ عَلَى الرُّجَالِ . قَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : إِنَّ الْقَيْطَ^(b) عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ أَتْبَاعًا لِمَنْ مَضَى مِنْهُمْ ، لَا يَبِيعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا قَالَ : اسْتَأْمِرْ امْرَأَتِي^١ !

فَمَلَكَتْهُمْ دُلُوكَةُ بِنْتُ زَبَاءَ عَشْرِينَ سَنَةً تُدَبِّرُ أَمْرَهُمْ بِمِصْرَ ، حَتَّى بَلَغَ صَبِيٍّ مِنْ أَبْنَاءِ أَكْبَرِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ ، يُقَالُ لَهُ دَزْكَونُ بْنُ بَلُوطِيسَ ، فَمَلَكَوهُ عَلَيْهِمْ .

فَلَمْ تَزَلْ مِصْرُ مَمْتَنَةً بِتَدْبِيرِ تِلْكَ الْعَجُوزِ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَكَلَّمَا انْتَهَدَمَ مِنْ ذَلِكَ الْبِرْبَا الَّذِي صُوِّرَ فِيهِ الصُّورُ ، لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى إِصْلَاحِهِ إِلَّا تِلْكَ الْعَجُوزُ وَوَلَدُهَا وَوَلَدُهَا ، وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ غَيْرَهُمْ . فَانْقَطَعَ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَيْتِ ، وَانْتَهَدَمَ مِنَ الْبِرْبَا مَوْضِعٌ فِي زَمَانِ

(a) بولاق : فتبادرهم . (b) في الأصل وبولاق : نساء القبط . والمثبت من ابن عبد الحكم .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٨٨ ، وفيما يلي ١٢٩ .

لقاس بن مرنئوس ، فلم يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى إِصْلَاحِهِ وَمَعْرِفَةِ عِلْمِهِ ، وَبَقِيَ عَلَى حَالِهِ ، وَانْقَطَعَ مَا كَانَ يَفْهَرُونَ بِهِ النَّاسَ ، وَتَبَقُوا كَغَيْرِهِمْ . إِلَّا أَنَّ الْجَمْعَ كَثِيرًا ، وَالْمَالَ عِنْدَهُمْ ^١ .

فَلَمَّا قَدِمَ بُخْتِ نَصْرُ يَثِثِ الْمَقْدِسِ ، وَظَهَرَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَسَبَائِهِمْ ، وَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى أَرْضِ بَابِلَ ، فَصَدَّ مِصْرَ ، وَخَرَبَ مَدَائِنَهَا وَقُرَاهَا ، وَسَبَى جَمِيعَ أَهْلِهَا ، وَلَمْ يَتْرِكْ بِهَا شَيْئًا ، حَتَّى بَقِيَ مِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً خَرَابًا لَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ ، يَجْرِي نِيلُهَا وَيَذْهَبُ لَا يُنْتَفِعُ بِهِ . ثُمَّ رَدَّ أَهْلَ مِصْرَ إِلَيْهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَعَمَّرُوهَا ، وَلَمْ تَزَلْ مَقْهُورَةً مِنْ يَوْمِئِذٍ ^٢ .

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : رَأَيْتُ التَّبْرَائِي وَأَخَذْتُ أَتَأَمَّلُهَا ، فَوَجَدْتُهَا مُشْتَمِلَةً ^(a) عَلَى جَمِيعِ أَشْكَالِ الْفَلَكَ . وَالَّذِي ظَهَرَ لِي أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْهَا حَكِيمٌ وَاحِدٌ ، ^(b) وَلَا مَلِكٌ وَاحِدٌ ^(b) ، بَلْ تَوَلَّى عَمَلَهَا قَوْمٌ بَعْدَ قَوْمٍ ، حَتَّى تَكَامَلَتْ فِي دَوْرٍ كَامِلٍ ، وَهُوَ سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ لَا تُعْمَلُ إِلَّا بِالْأَرْصَادِ ، وَلَا يَتَكَامَلُ رِصْدُ الْمَجْمُوعِ فِي أَقَلِّ مِنْ هَذِهِ الْمُدَّةِ الْمَذْكُورَةِ .

وَكَانُوا يَجْعَلُونَ الْكِتَابَ حَفْرًا وَنَقْرًا فِي الصُّخُورِ ، وَنَقْشًا فِي الْحِجَارَةِ ، وَحَلْقَةً مَرْكَبَةً فِي الْبُنْيَانِ . وَزُبْمًا كَانَ الْكِتَابُ هُوَ الْحَفْرُ إِذَا كَانَ مُتَضَمِّنًا لِأَمْرٍ جَسِيمٍ ، أَوْ عَهْدًا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، أَوْ مَوْعِظَةً يُرْتَجَى نَفْعُهَا ، أَوْ إِحْيَاءَ شَرْفٍ يُرِيدُونَ تَخْلِيدَ ذِكْرِهِ .

وَقَدْ كَتَبَ غَيْرُ الْمِصْرِيِّينَ كَذَلِكَ كَمَا كَتَبُوا عَلَى قُبَّةِ غَمْدَانَ ، وَعَلَى بَابِ الْقَيْرَوَانَ ، وَعَلَى بَابِ سَمَرْقَنْدَ ، وَعَلَى عَمُودِ مَأْرِبَ ، وَعَلَى رُكْنِ الْمُشْتَقَرِّ ، وَعَلَى الْأَبْلَقِ الْمُفْرَدِ ، وَعَلَى بَابِ الرَّهَاءِ . وَكَانُوا يَعْمَدُونَ إِلَى الْأَمَاكِينِ الشَّرِيفَةِ وَالْمَوَاضِعِ الْمَذْكُورَةِ ، فَيَضَعُونَ الْخَطَّ فِي أَبْعَدِ الْمَوَاضِعِ مِنَ الدُّثُورِ ، وَأَمْتَعَهَا مِنَ الدُّرُوسِ ، وَأَجْدَرُ أَنْ يَرَاهَا مِنْ مَرِّ بِهَا ، وَلَا يَنْسَى عَلَى طَوْلِ الدَّهْرِ .

وَقَالَ الْمَشْغُودِيُّ : وَاتَّخَذَتْ دَلُوكَةُ بِمِصْرِ التَّبْرَائِي وَالصُّورَ ، وَأَحْكَمَتْ آلَاتِ السُّحْرِ ، وَجَعَلَتْ فِي التَّبْرَائِي صُورًا مِنْ يَرِدُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَدَوَابَّهُمْ إِبِلًا كَانَتْ أَوْ خَيْلًا ، وَصَوَّرَتْ فِيهَا مِنْ يَرِدُ مِنَ الْبَحْرِ فِي الْمَرَائِبِ مِنَ بَحْرِ الْعَرَبِ وَالشَّامِ ، وَجَمَعَتْ فِي هَذِهِ التَّبْرَائِي الْعَظِيمَةِ الْمَشِيدَةَ الْبُنْيَانَ أُسْرَارَ الطَّبِيعَةِ ، وَخَوَاصِّ الْأَحْجَارِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ ، وَجَعَلَتْ ذَلِكَ فِي أَوْقَاتِ فَلَكَيَّةٍ ، وَاتَّصَلَهَا بِالْمَوْثِرَاتِ الْعُلُوبِيَّةِ ؛ فَكَانُوا إِذَا وَرَدَ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنْ نَحْوِ الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ ، غَوَّرَتْ تِلْكَ الصُّورَ الَّتِي

(a) بولاق : مستحكمة . (b-b) ساقطة من بولاق .

^٢ نفسه ٣١-٣٢ بتصرف .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٧-٢٨ .

في البربا من الإبل وغيرها، فيتغور ما في ذلك الجيش، وينقطع عنهم ناسه وحيوانه. وإذا كان الجيش من نحو الشام، فعمل في تلك الصور التي من تلك الجهة التي أقبل منها جيش الشام ما فعل بما وصفتنا، فيحدث في ذلك الجيش من الآفات في ناسه وحيوانه ما صنع في تلك الصور التي من تلك الجهة؛ وكذلك من ورد من جيوش الغزب، ومن ورد في البحر من رومية والشام، وغير ذلك من الممالك؛ فهابتهم الملوك والأمم، ومنعوا ناحيتهم من عدوهم، واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز وإتقانها لزم أقطار المملكة وإحكامها السياسة. وقد تكلم من سلف وخلف في هذه الخواص، وأسرار الطبيعة التي كانت ببلاد مصر. وهذا الخبر من فعل العجوز مستفيض [عند المصريين]^a لا يشكون فيه.

والبرابي بمصر، من صعيدها وغيره، باقية إلى هذا الوقت، وفيها أنواع الصور مما إذا صورت في بعض الأشياء أخذت أفعالا على حسب ما رسمت له وصنعت من أجله، على حسب قولهم في الطبائع، والله أعلم بكيفية ذلك^١.

قال: «وأخبرني غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر، عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري الإخميمي الزاهد وكان حكيما، وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يقصدها، وكان ممن يفسر^b أخبار هذه البرابي، [وزارها]^a وامتنحن كثيرا مما صور فيها/ ورسم عليها من الكتابة والصور. قال: رأيت في بعض البرابي كتابا تدبرته، فإذا هو: «أحذر العبيد المعتقين، والأحداث [المغترين]^a والجند المتعبدين، والقبط^c المستعربين». ورأيت في بعضها كتابا تدبرته، فإذا فيه: «يقدر المقدر والقضاء يضحك»، وفي آخره كتابة تبينها^d في ذلك القلم فوجدتها^e:

[الوافر]

تدبر بالنجوم ولست تدري وزب النجم يفعل ما يريد

قال: وكانت هذه الأمة، التي اتخذت هذه البرابي، لهجة بالنظر في أحكام النجوم، من المواظبين على معرفة أسرار الطبيعة. وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفانا سيكون

(a) زيادة من مروج الذهب. (b) الأصل وبولاق: ممن يقر على، والتصويب من مروج الذهب. (c) بولاق:

النبط. (d) بولاق: تبينها. (e) الأصل وبولاق: العلم فوجدتها.

فِي الْأَرْضِ ، وَلَمْ تَقْطَعْ عَلَى ذَلِكَ الطُّوفَانُ مَا هُوَ : أَنَارٌ تَأْتِي عَلَى الْأَرْضِ فَتَحْرِقُ مَا عَلَيْهَا ، أَوْ مَاءٌ يُغْرِقُهَا ، أَوْ سَيْفٌ يُبِيدُ أَهْلَهَا .

فَخَافَتْ [عَلَى] ^(a) دُثُورَ الْعُلُومِ وَفَنَائِهَا بِفَنَاءِ أَهْلِهَا ، فَاتَّخَذَتْ هَذِهِ الْبِرَابِي ، وَرَسَمَتْ فِيهَا عُلُومَهَا مِنَ الصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ وَالكِتَابَةِ ، وَجَعَلَتْ بُنْيَانَهَا نَوْعَيْنِ : طِينًا ، وَحِجَارَةً ، وَفَرَزَتْ مَا بَنِي بِالطِّينِ مِمَّا بُنِيَ بِالْحِجَارَةِ ، وَقَالَتْ : إِنْ كَانَ هَذَا الطُّوفَانُ نَارًا اسْتَحْجَرَ مَا بُنِيَ بِالطِّينِ ، وَإِنْ كَانَ الطُّوفَانُ الْوَارِدُ مَاءً أَذْهَبَ مَا بَنَيْنَا بِالطِّينِ وَيُبْقِي مَا بُنِيَ بِالْحِجَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ الطُّوفَانُ سَيْفًا بَقِيَ كُلُّ مِنَ التَّنُوعَيْنِ ، مِمَّا هُوَ مِنَ الطِّينِ ، وَمَا هُوَ مِنَ الْحَجَرِ .

وَهَذَا مَا قِيلَ وَاللَّهِ أَعْلَمُ إِنَّهُ كَانَ قَبْلَ الطُّوفَانِ ، وَإِنَّ الطُّوفَانَ الَّذِي كَانُوا يَزُقُّونَهُ ، وَلَمْ يُعَيِّنُوهُ أَنَارٌ هُوَ أَوْ مَاءٌ أَوْ سَيْفٌ ، كَانَ سَيْفًا أَتَى عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ مِصْرَ مِنْ أُمَّةٍ غَشِيَتْهَا ، وَمَلَكَ نَزَلَ عَلَيْهَا فَأَبَادَ أَهْلَهَا .

وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنَّ ذَلِكَ الطُّوفَانَ كَانَ وَبَاءً عَمَّ أَهْلَهَا . وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ مَا يُوجَدُ بِيَلَادِ تَيْسٍ مِنَ التَّلَالِ الْمُتَضَّدَةِ ^(b) مِنَ النَّاسِ ، مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ وَذَكَرٍ وَأُنْثَى ، كَالْجِبَالِ الْعِظَامِ ، وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ بِيَلَادِ تَيْسٍ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِذَاتِ الْكُومِ ، وَمَا يُوجَدُ بِيَلَادِ مِصْرَ وَصَعِيدِهَا مِنَ النَّاسِ الْمُدْرَسِينَ ^(c) بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْكُهُوفِ وَالغَيْرَانِ وَالتَّنَاوِيسِ ، وَمَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، لَا يُدْرَى مِنْ أَيِّ الْأُمَمِ هُمْ ، فَلَا النَّصَارَى تُخِيرُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَسْلَافِهِمْ ، وَلَا الْيَهُودُ تَقُولُ إِنَّهُمْ مِنْ أَوَائِلِهِمْ ، وَلَا الْمُسْلِمُونَ يَذَرُونَ مَنْ هُوَ لَاءٌ ، وَلَا تَارِيخٌ يُتَنَبَّأُ عَنْ حَالِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ أَثْوَابُهُمْ ، وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي تِلْكَ الرِّوَابِيِّ ^(d) وَالْجِبَالِ مِنْ حَلِيَّتِهِمْ .

وَالْبِرَابِي بِيَلَادِ مِصْرَ بُنْيَانٌ قَائِمٌ عَجِيبٌ كَالْبِرْبَا الَّتِي [بِيَلَادِ أَنْصِنَا مِنْ صَعِيدِ مِصْرَ ، وَالْبِرْبَا الَّتِي] ^(e) بِإِخْمِيمِ ، وَالَّتِي بِسَمْنُودٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ^١ .

(a) زيادة من مروج الذهب . (b) بولاق : المتقدرة . (c) الأصل وبولاق : المنكسين . (d) بولاق : البرابي .

(e) زيادة من مروج الذهب .

ذِكْرُ الدَّفَائِنِ وَالْكُنُوزِ الَّتِي تَسْمِيهَا أَهْلُ مِصْرَ الْمَطَالِبِ

الأصل في جواز تتبع الدفائن ما رواه أبو عمر بن عبد البر^(a) والبيهقي في «الدلائل»^a من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الطائف، مر بقبر أبي رغال فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، كان إذا هلك قوم صاح في الحرم فمنعه الله، فلما خرج من الحرم رماه بقارعة، وآية ذلك أنه دفن معه عمود من ذهب»، فابتدر المسلمون قبره فنبشوه واستخرجوا العمود منه.

ومن حديث عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك دفن معه عصا من ذهب، إن نبشتم عليه أصبتموه معه»، فابتدره الناس فأخرجوا العصا الذي كان معه^١.

وبمصر كنوز يوسف عليه السلام وكنوز الملوك من قبله والملوك من بعده؛ لأنه كان يكنز ما يفضل عن النفقات والمؤن لنوائب الدهر، وهو قول الله عز وجل: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ﴾ [الآية ٥٧ سورة الشعراء].

ويقال: إن علم الكنوز في كنيسة القسطنطينية نقلت إليها من طليطلة. ويقال: إن الروم لما خرجت من الشام ومصر، اكتنزت كثيرا من أموالها في مواضع أعدتها لذلك، وكتبت كتبا بإعلام مواضعها، وطرق الوصول إليها، وأودعت هذه الكتب قسطنطينية، ومنها يستفاد معرفة ذلك.

وقيل: إن الروم لم تكتب، وإنما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين والكلدانيين والقبط. فلما خرجوا من مصر والشام، حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها في الكنيسة.

وقيل: إنه لا يعطي من ذلك أحد حتى يخيم الكنيسة مدة فيدفع إليه ورقة تكون حظه.

(a - a) ساقطة من الأصل.

^١ البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، خروج أحاديثه وعلق عليه عبد المعطي قلعجي، القاهرة ١٩٨٨، ٦: ٢٩٧.

قال المسعودي^١ : ولمصر أخبارٌ عجيبةٌ من الدَّفَائِنِ والبُنْيَانِ ، وما يوجد في الدَّفَائِنِ من ذخائر الملوك التي استودَعوها الأرض ، وغيرهم من الأمم ممن سكَنَ تلك الأرض ، وتُدعى بالمطالِبِ إلى هذه الغاية . وقد أتينا على جميع ذلك فيما سَلَفَ من كُتُبنا .

فمن أخبارها ما ذكره يحيى بن بُكَيْرٍ قال : كان عبدُ العزيز بن مَرْوانَ عاملاً على مصر لأخيه عبد الملك بن مَرْوانَ ، فأتاه رجلٌ مُتَّصِحٌ فسأله عن نُصْحِهِ ، فقال : بالْقُبَّةِ الفُلَانِيَةِ كَثْرٌ عَظِيمٌ . قال عبدُ العزيز : وما مِضْدَاقُ ذلك ؟ قال : هو أن يَظْهَرَ لنا بِلَاطٌ من المَزْمَرِ والرُّخَامِ عند يسير من الحُفْرِ ، ثم ينتهي بنا الحُفْرُ إلى بابٍ من الصُّفْرِ ، تحته عمودٌ من الذهب ، على أعلاه ديكٌ عَيْنَاهُ يَأْقُوتَانِ تُساوِيَانِ مُلْكَ الدُّنْيَا ، وجناحاه مُضْرَجَانِ باليَاقُوتِ والزُّمْرُودِ ، ورأسُه^(a) على صَفَائِحَ من الذهب على أعلى ذلك العَمُودِ . فأمر له عبدُ العزيز بِنَفَقَةٍ لأَجْرَةِ من يَحْفُرُ من الرُّجَالِ/ في ذلك وَيَعْمَلُ فِيهِ .

وكان هناك تَلٌّ عَظِيمٌ ، فاحْتَفَرُوا حَفِيرَةً عَظِيمَةً في الأرض ، والدَّلَائِلُ المَقْدَمُ ذَكَرَهَا من الرُّخَامِ والمَزْمَرِ تَظْهَرُ . فآزَدَادَ عبدُ العزيز حِرْصًا على ذلك ، وَأَوْسَعَ في التَّفَقُّةِ ، وَأَكْثَرَ من الرِّجَالِ . ثم انْتَهَوْا في حُفْرِهِمْ إلى ظُهُورِ رَأْسِ الدِّيكِ ، فَبَرَقَ عند ظُهُورِهِ لَمَعَانٌ عَظِيمٌ لما في عَيْنِيهِ من اليَاقُوتِ ، ثم بَانَ جَنَاحُهُ ثم بَانَتْ قَوَائِمُهُ ، وَظَهَرَ حَوْلَ العَمُودِ عَمُودٌ من البُنْيَانِ . بأنواعِ الحِجَارَةِ والرُّخَامِ ، وَقَنَاطِرٍ مُقَنْطَرَةٍ وَطَاقَاتٍ على أَبْوَابٍ مَعْقُودَةٍ ، وَلاَحَتْ مِنْهَا تَمَائِلٌ وَصُورٌ أَشْخَاصٍ مِنْ أَنْوَاعِ الصُّورِ الذهبِ ، وَأَجْرَتَهُ مِنَ الأَحْجَارِ قَدْ أَطْبِقَ عَلَيْهَا أَغْطِيَتِهَا وَشُبُكَتِ ، فَرَكِبَ عبدُ العزيز ابنَ مَرْوانَ حَتَّى أَشْرَفَ على المَوْضِعِ ، فَنَظَرَ إلى ما ظَهَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَسْرَعَ بَعْضُهُمْ وَوَضَعَ قَدَمَهُ على دَرَجَةٍ مِنْ نُحَاسٍ يَنْتَهِي إلى ما هُنَاكَ . فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ قَدَمَاهُ على المِرْقَاةِ ، ظَهَرَ سَيْفَانِ عَادِيَانِ عَنِ يَمِينِ الدَّرَجَةِ وَشِمَالِهَا ، فَالتَقِيَ على الرَّجُلِ فَلَمْ يُدْرِكْ حَتَّى جَزَّاهُ قِطْعًا وَهَوَى جِسْمَهُ سَفْلًا . فَلَمَّا اسْتَقَرَّ جِسْمُهُ على بَعْضِ الدَّرَجِ ، اهْتَزَّ العَمُودُ ، وَصَفَرَ الدِّيكُ صَفِيرًا عَجِيبًا أَسْمَعُ مِنْ كَانَ بالبَغْدِ مِنْ هُنَاكَ ، وَحَرَّكَ جَنَاحِيهِ وَظَهَرَتْ مِنْ تَحْتِهِ أَصْوَاتٌ عَجِيبَةٌ قَدْ عَمِلَتْ بالكَوَاكِبِ والحَزَكَاتِ ، إِذَا مَالَ وَقَعَ على بَعْضِ تِلْكَ الدَّرَجِ شَيْءٌ أَوْ مَاسَّهَا شَيْءٌ انْقَلَبَتْ ، فَتَهاوَى مِنْ هُنَاكَ

(a) مروج الذهب : وراثته .

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٩٥ .

من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة ، وكان فيها من يحفر ويعمل وينقل التراب وينظر ويحول ويأمر وينهى نحو ألف رجل ، فهلكوا جميعاً .

فخرج عبد العزيز وقال : هذا رذم عجيب الأمر ممنوع النبل ، نعوذ بالله منه . وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس ، فكان الموضع قبراً لهم ^١ .

قال المسعودي ^٢ : وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالِب ، ومن قد اعتنى وأغري بحفر

الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، قد وقع

إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض

الأهرام ، بأن فيه مطلباً عجيباً . فأخبروا الإخشيد محمد بن طنج بذلك ، فأمرهم بحفره ،

وأباحهم استعمال الحيلة في إخراجها ؛ فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء وحجارة

مجوفة في صخرة ، منقوشة فيها تماثيل قائمة على أزجلها من الخشب ، قد طلي بالأطليّة المانعة من

سرعة البلاء وتفرق الأجزاء ، والصور مختلفة فيها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من

أنواع الجواهر كالياقوت والزمرود والزبرجد والفيروزج ، ومنها ما وجوها ذهب وفضة ؛ فكثير

بعض تلك التماثيل فوجدوا في أجوافها رماً بالية وأجساماً فائية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع

من الآنية ^(a) كالبراني ^(b) وغيرها [من الآلات] ^(c) من المزمر والرُخام ، وفيه نوع من الطلاء الذي قد

طلي منه ذلك الميت الموضوع في التمثال ^(d) الخشب ^(e) ، والطلاء دواءً مسحوقاً وأخلطت معمولة لا

رائحة لها ، فجعل منه على النار شيئاً ، ففاح منه ريح طيبة مختلفة لا تُعرف في نوع من أنواع

الطيب .

وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير

أعمارهم وتباين صورهم ، وبيزاء كل تمثال تمثالاً من الحجر المزمر أو من الرُخام الأخضر ، على

هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور عليها أنواع من الكتابات لم يقف على

استخراجها أحد من أهل الملل . وزعم قوم من أهل الدراية أن لذلك القلم ، منذ فُقد من أرض

مصر ، أربعة آلاف سنة . وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا يهود ولا نصارى ، ولم يؤدبهم

(a) بولاق : الأبنية . (b) بولاق : البراني . (c) زيادة من مروج الذهب . (d) بولاق : التماثيل . (e) بعد ذلك في

مروج الذهب : وما بقي من الطلاء متروك في ذلك الإناء .

الحَفْرُ إِلَّا لَمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ هَذِهِ التَّمَائِيلِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ .
 وَقَدْ كَانَ مَنْ سَلَفَ وَخَلَفَ مِنْ وُلَاةِ مِصْرَ ، مِنْ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ وَغَيْرِهِ ، إِلَى هَذَا الْوَقْتِ وَهُوَ
 سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ^١ - لَهُمْ أَحْبَابٌ عَجِيبَةٌ فِيمَا اسْتُخْرِجَ فِي أَيَّامِهِمْ مِنَ الدَّفَائِنِ وَالْأَمْوَالِ
 وَالْجَوَاهِرِ ، وَمَا أُصِيبَ فِي هَذِهِ الْقُبُورِ مِنَ الْمَطَالِبِ وَالْخَزَائِنِ^(a) ، وَقَدْ أَتَيْتَنَا عَلَى ذِكْرِهَا فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ
 تَصْنِيفِنَا^٢ .

وَرَكِبَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ يَوْمًا إِلَى الْأَهْرَامِ ، فَأَتَاهُ الْحُجَابُ بِقَوْمٍ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ صُوفٌ ، وَمَعَهُمْ
 الْمَسَاحِي وَالْمَعَاوِلُ ، فَسَأَلَهُمْ عَمَّا يُعَانُونَهُ^(b) ، فَقَالُوا : نَحْنُ قَوْمٌ نَطْلُبُ الْمَطَالِبَ . فَقَالَ لَهُمْ : لَا
 تَخْرُجُوا بَعْدَهَا إِلَّا بِمَنْشُورٍ^(c) أَوْ رَجُلٍ مِنْ قِبَلِي . وَأَخْبِرُوهُ أَنَّ فِي سَمْتِ الْأَهْرَامِ مَطْلَبًا قَدْ عَجَزُوا
 عَنْهُ ، فَضَمُّ إِلَيْهِمُ الرَّافِقِيُّ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى عَامِلِ [قَعُونَةَ]^(d) الْجِيزَةَ فِي إِعَانَتِهِمْ بِالرِّجَالِ وَالتَّفَقَّاتِ ،
 وَأَنْصَرَفَ . فَأَقَامُوا مُدَّةً يَعْمَلُونَ حَتَّى ظَهَرَ لَهُمْ .

فَرَكِبَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ يَحْفَرُونَ ، فَكَشَفُوا عَنْ حَوْضٍ مَمْلُوءٍ دَنَانِيرَ ، وَعَلَيْهِ غِطَاءٌ
 مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ بِالْبَرْبَطِيَّةِ ، فَأَحْضَرَ مَنْ قَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ :

«أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، الْمَلِكُ الَّذِي مَيَّرَ الذَّهَبَ مِنْ غِشِّهِ وَدَنَسَهُ ، فَمَنْ أَرَادَ

أَنْ يَعْلَمَ فَضْلَ مُلْكِي عَلَى مُلْكِهِ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى فَضْلِ عِيَارِ دِينَارِي عَلَى عِيَارِ

دِينَارِهِ ، فَإِنَّ مُخْلِصَ الذَّهَبِ مِنَ الْغِشِّ مُخْلِصٌ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ» .

فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، إِنَّ مَا نَبَّهْتَنِي عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْكِتَابَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمَالِ .
 ثُمَّ أَمَرَ لِكُلِّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَطَالِبِيَّةِ بِمِائَتِي دِينَارٍ مِنْهُ ، وَلِكُلِّ مِنَ الصَّنَاعِ بِخَمْسَةِ دَنَانِيرٍ بَعْدَ تَوْفِيَةِ
 أَجْرَةِ عَمَلِهِ ، وَلِلرَّافِقِيِّ ثَلَاثَ مِائَةِ دِينَارٍ ، وَلِتَسِيمِ الْخَادِمِ بِأَلْفٍ / دِينَارٍ ، وَحَمَلَ بَاقِيَ الدَنَانِيرِ
 فَوَجَدَهَا أَجُودَ مِنْ كُلِّ عِيَارٍ . وَشَدَّدَ مِنْ حَيْثُذِي فِي الْعِيَارِ بِمِصْرٍ حَتَّى صَارَ عِيَارُ دِينَارِهِ ، الَّذِي عُرِفَ
 بِالْأَحْمَدِيِّ ، أَجُودَ عِيَارٍ وَكَانَ لَا يُطْلَى إِلَّا بِهِ^٣ .

(a) بولاق : وما أصيب في هذه المطالب من القبور ، والمثبت من مروج الذهب . (b) بولاق : يعملون ، والمثبت من
 ابن الداية . (c) بولاق : بمشورتي . (d) زيادة من ابن الداية .

^١ هذا التاريخ الذي دوّن فيه المسعودي كتابه وهي
 نسخة الأولى (التنبيه والإشراف ٩٧) .
^٢ المسعودي : مروج الذهب ٩٧:٢ - ٩٨ .
^٣ البلوي : سيرة أحمد بن طولون ١٩٤ - ١٩٦ ؛ ابن
 سعيد : المغرب في حلى المغرب ٩٨ - ٩٩ (نقلًا عن سيرة ابن
 طولون لابن الداية) .

ذِكْرُ هَلَاكِ أَمْوَالِ أَهْلِ مِصْرَ

قال الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۚ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ۖ [الآيات ٨٨، ٨٩ سورة يونس] . هذا دُعَاءٌ مِنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ لِكُفْرِهِمْ ، أَنْ يُهْلِكَ اللَّهُ أَمْوَالَهُمْ . قَالَ الزُّجَّاجُ : طَمَسَ الشَّيْءُ إِذَا هَابَهُ عَنْ صُورَتِهِ .

عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - وعن محمد بن كعب القرظي ، أنهما قالا : صارت أموال أهل مصر ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها ، صحاحا وأثلاثا وأنصافا ، فلم يبق معدن إلا طمس الله عليه ، فلم ينتفع به أحد بعدهم .

وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة .
وقال مجاهد وعطية : أهلكتها الله تعالى حتى لا تثرى ، يقال : عين مطموسة أي ذاهبة ، وطمس الموضع إذا عفا ودرس .

وقال ابن زيد : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شيء لهم حجارة .
وقال محمد بن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله وفراشه وقد صاروا حجريين . قال : وقد سألتني عمر بن عبد العزيز ، فذكرت ذلك ، فدعا بخريطة أصيبت بمصر ، فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وإنما لحجارة .

وقال محمد بن شهاب الزهري : دخلت على عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا غلام ، اتيتني بالخريطة ؛ فجاء بخريطة نثر ما فيها ، فإذا فيهم دراهم ودنانير وتمر وجوز وعدس وقول ، فقال : كل يا ابن شهاب ؛ فأهويت إليه ^(a) ، فإذا هو حجارة ، فقلت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا مما أصاب عبد العزيز بن مزوان في مصر إذ كان عليها واليا ، وهو مما طمس الله عليه من أموالهم .

وقال المضارب بن عبد الله الشامي : أخبرني من رأى النخلة بمصر مضروعة وإنما لحجر ولقد رأيت ناسا كثيرا قياما وقعودا في أعمالهم ، لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم أنهم أناس ، وإنما لحجارة . ولقد رأيت الرجل من رقيقهم وأنه لحارث على ثورين وأنه وثورته لحجارة .

(a) ساقطة من بولاق .

وَنَقَلَ وَثِيْمَةَ بَنِ مُوسَى فِي «قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ»^١ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا هَلَكَ وَقَوْمُهُ ، وَأَمِنَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ غَائِلَتَهُ ، نَدَبَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ نُقَبَائِهِ الْإِثْنِي عَشَرَ نَقِيْبِيْنَ : أَحَدُهُمَا كَالِبُ بَنُ يُوْقِنَا^(b) ، وَالْآخَرُ يُوْشَعَ بَنُ نُونٍ ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ سِبْطِهِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا ، وَأُرْسِلَهُمَا إِلَى مِصْرَ وَقَدْ نَحَلَّتْ مِنْ حَامِيَةٍ^(c) لَفَرَّقَ أَهْلِيهَا مَعَ فِرْعَوْنَ فَأَخَذُوا ذَخَائِرَ فِرْعَوْنَ وَكُنُوزَهُ ، وَعَادُوا إِلَى مُوسَى .

فَذَلِكَ تَوْرِيْثُهُمْ أَرْضَ مِصْرَ ، يَعْنِي قَوْلَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ^(d) - عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : ﴿فَأَخْرَجْنَا هُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء الآيات ٥٦ ، ٥٧] ، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(e) [الدخان الآية ٢٨] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [آل عمران الآية ١٣٧] ، يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ ، أَوْرَثَهَا^(e) بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لِأَنَّ هُمْ الْمُسْتَضْعَفُونَ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآيات ٤ ، ٥ سورة القصص] .

قَالَ جَامِعُهُ وَمَوْلَاهُ : أَخْبَرَنِي دَاوُدُ بَنُ رِزْقِ اللَّهِ^(f) بَنُ عَبْدِ اللَّهِ - وَكَانَتْ لَهُ سِيَاحَاتٌ كَثِيرَةٌ بِأَرْضِ مِصْرَ^٢ - أَنَّهُ عَبَّرَ إِلَى وَادٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الْقَلَمُونِ بِالْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ ، فَرَأَى فِيهِ مَقَاتَ كَثِيرَةً ، مَا يَبِينُ بِطَيْخٍ وَقَثَاءٍ وَتَفَّاحٍ ، وَكُلُّهَا حِجَارَةٌ .

وَكَانَ قَدْ أَخْبَرَنِي قَدِيمًا بَعْضُ أَعْيَانِ النَّاسِ^(g) أَنَّهُ شَاهَدَ ، فِي سَفَرِهِ إِلَى بَعْضِ^(h) الْبِلَادِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ، بِطَيْخًا كَثِيرًا كُلَّهُ حِجَارَةٌ ، وَذَلِكَ الْبِطَيْخُ مِنَ الصَّنْفِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «عَبْدَلِي» .

(a) بولاق : وسمه . (b) بولاق : موقيا . (c) بولاق : حاميها . (d) الأصل : تعالى . (e) بولاق : أورثناها . (f) بولاق : بن رزق . (g) بولاق : الأعيان . (h) ساقطة من بولاق .

١٩ : ٢٤٧ - ٢٤٨ ؛ ابن خلكان : وفیات الأعيان ٦ : ١٢ -
٢١ ؛ روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ٥٣٩ (٣٣١) ؛
(Sezgin, F., GASI, p. 315) .

٢ تَخَلَّطَ الْمُقْرِزِيُّ هُنَا بَيْنَ سَوْرَتَيْنِ ، الْآيَاتِ ٢٥ - ٢٨
سورة الدخان والآيات ٥٧ - ٥٩ سورة الشعراء .

٣ انظر فيما تقدم ٩٩ .

١ أبو يزيد وثيمة بن موسى بن الفرات الفارسي الوشاء ،
مؤرخ ومحدث ولد في قنسا - مدينة بقراس بينها وبين شيراز
أربع مراحل - كان يشجر في الوشي (نوع من الثياب) فسافر
إلى البصرة ثم إلى مصر ومنها إلى الأندلس ثم عاد إلى مصر
وعاش بها حتى توفي سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م ، ألف كتابا في
قصة الأنبياء في مجلدين (باقوت) : معجم الأدباء

ذِكْرُ أَخْلَاقِ أَهْلِ مِصْرَ وَطِبَائِعِهِمْ وَأَمْرٍ جَنَّهُمْ

قال أبو الحسن علي بن رضوان الطيب^١: مصر اسم فيما نقلت الرواة يدل على أحد بني^٢ أولاد نوح النبي - عليه السلام - فإنهم ذكروا أن مِصْرَ هذا نزل بهذه الأرض فأنسل فيها وعمرها فسميت باسمه^٣.

والذي يدل عليه هذا الاسم اليوم هو الأرض التي يفيض عليها النيل ويحيط بها حدود أربعة، وهي أن الشمس تشرق على أقصى العِمَارَةِ بالشرق قبل^٤ شروقها على هذه الأرض شماني ساعات وثلاث وتغيب عنها قبل^٥ أن تغيب عن آخر العِمَارَةِ بالمغرب بثلاث ساعات وثلاثي ساعة، فيجب من ذلك أن تكون هذه الأرض في النصف الغربي من الربع العامر.

والنصف الغربي من الربع العامر على ما قال أبقراط وبطلميوس أقل حرارة وأكثر رطوبة من النصف الشرقي، لأنه [في]^٦ قسم كوكب القمر، والنصف الشرقي في قسم كوكب الشمس. وذلك أن الشمس تشرق على النصف الشرقي قبل شروقها على النصف الغربي، والقمر يهبل على النصف الغربي قبل النصف الشرقي.

وقد زعم قوم من القدماء أن أرض مصر في وسط الربع المعمور من الأرض بالطبع، فأما بالقياس فعلى ما ذكرنا من أنها في النصف الغربي.

(a) ساقطة من بولاق. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) زيادة من ابن رضوان.

١٠٦-١١٠؛ سلمان قطاية: الطبيب العربي علي بن رضوان رئيس أطباء مصر، تونس - الأليكسو ١٩٨٤؛ دراسة ماكس مايرهوف عن كتاب دفع مزار الأبدان Meyerhof, M., «Limate and Health in Old Cairo according to Ali Ibn Ridwân (XI century A. D.)» in *Congrès International de médecine tropicale et Hygiène-Comptes reudues, Histoire de la medecine*, Le Caire 1929, pp. 211-35; Schacht, J., *El² art. Ibn Ridwan III*, p. 930-31.

^٢ انظر فيما تقدم ٤٦.

^١ هنا ينقل المقرئ نصًا مطوّلًا عن كتاب «دفع مزار الأبدان» لعلي بن رضوان الطبيب يمتد حتى صفحة ١٢٥ فيما يلي؛ وهو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر رئيس أطباء مصر المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م، من أوائل الأطباء الذين اهتموا بدراسة الأمراض المتوطنة وعلى الأخص في كتاب «دفع مزار الأبدان بأرض مصر» الذي نقله المقرئ كاملاً موزعاً على صفحات كتاب «المواعظ والاعتبار» (القفطي: تاريخ الحكماء ٤٤٣-٤٤٤؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢: ٩٩-١٠٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨: ١٠٥-١٠٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٢١:

والحدُّ الثالث هو أن أوَّل بُعْد هذه الأرض عن خَطِّ الاستِواء/ في جهة الجنوب أُسْوَان ، وبُعْدُهَا عن خَطِّ الاستِواء اثنان وعشرون دَرَجَةً ونصف . فالشَّمْسُ تُسَامِتُ رُؤُوسَ أَهْلِهَا مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ : عند كَوْنِهَا فِي آخِرِ الْجُوزَاءِ ، وَفِي أَوَّلِ الشَّرْطَانِ ، وَفِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ لَا يَكُونُ لِلْقَائِمِ بِأُسْوَانِ نِصْفَ النَّهَارِ ظِلٌّ أَضَلًّا ، فَالْحَرَارَةُ وَالْيَبْسُ وَالْإخْتِرَاقُ غَالِبٌ عَلَى مِزَاجِهَا لِأَنَّ الشَّمْسَ تُنَشِّفُ رُطُوبَاتِهَا ، وَلِذَلِكَ صَارَتْ أَلْوَانُهُمْ سَوْدَاءَ وَشُعُورُهُمْ جَعْدَةً لِإخْتِرَاقِ أَرْضِهِمْ .

والحدُّ الرابع هو أن آخر بُعْد أرض مصر عن خط الاستِواء في جهة الشمال طَرَفَ بَحْرِ الرُّومِ ، وَعَلَيْهِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بُلْدَانٌ كَثِيرَةٌ كَالْإِسْكَندَرِيَّةِ وَرَشِيدٍ وَدِمْيَاطَ وَتِنِيسَ وَالْفَرَمَا . وَبُعْدُ دِمْيَاطَ عَنِ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ فِي الشَّمَالِ أَحَدٌ وَثَلَاثُونَ جِزَاءً^(a) وَثَلَاثٌ ، وَهَذَا الْبُعْدُ هُوَ آخِرُ الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَأَوَّلُ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، فَالشَّمْسُ لَا تَبْعُدُ عَنْهُمْ كُلَّ الْبُعْدِ وَلَا تَقْرُبُ مِنْهُمْ كُلَّ الْقُرْبِ ، فَالغَالِبُ عَلَيْهِمُ الْإِعْتِدَالُ مَعَ مَيْلٍ يَسِيرٍ إِلَى الْحَرَارَةِ ، فَإِنَّ الْمَوْضِعَ الْمُعْتَدِلَ عَلَى الصُّحَّةِ مِنَ الْبُلْدَانِ الْعَامِرَةِ ، هُوَ وَسَطُ^(b) الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ . وَأَيْضًا فَمُجَاوِرَةٌ دِمْيَاطَ لِلْبَحْرِ وَإِحَاطَتُهُ بِهَا ، تَجْعَلُهَا مُعْتَدِلَةً بَيْنَ الْحَرِّ وَالْبُرْدِ ، خَارِجَةً عَنِ الْإِعْتِدَالِ إِلَى الرُّطُوبَةِ ، فَيَكُونُ الْغَالِبُ عَلَيْهَا الْمِزَاجُ الرُّطْبُ الَّذِي لَيْسَ بِحَارٍ وَلَا بَارِدٍ ، وَلِذَلِكَ صَارَتْ أَلْوَانُهُمْ سُفْرًا وَأَخْلَاقُهُمْ سَهْلَةً^(c) ، وَشُعُورُهُمْ سَبْطَةً .

وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ الْغَالِبِ عَلَيْهِ الْإخْتِرَاقُ ، وَأَخْرَهَا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ الْغَالِبِ عَلَيْهَا الْإِعْتِدَالُ مَعَ مَيْلٍ يَسِيرٍ نَحْوَ الْحَرَارَةِ ، فَمَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَوْضِعَيْنِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْحَرَارَةُ ، وَتَكُونُ قُوَّةُ حَرَارَتِهِ بِقَدْرِ بُعْدِهِ عَنِ أُسْوَانِ وَقُرْبِهِ مِنْ بَحْرِ الرُّومِ . وَمَنْ أَجَلَ هَذَا قَالَ أَبُقْرَاطُ وَجَالِيئُوسُ : «إِنَّ الْمِزَاجَ الْغَالِبَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ الْحَرَارَةُ»^(d) .

قَالَ : وَجَبَلُ لُوقَا^(e) فِي مَشْرِقِ هَذِهِ الْأَرْضِ^(f) يُعَوِّقُ عَنْهَا رِيحَ الصَّبَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرِ أَحَدٌ^(g) يَفْشِطُاطُ مِصْرَ صَبَا خَالِصَةً ، لَكِنْ مَتَى هَبَّتْ الصَّبَا عَنْهُمْ ، هَبَّتْ نَكْبًا بَيْنَ الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ أَوْ الْمَشْرِقِ وَالْجَنُوبِ . وَهَذِهِ الرِّيَاحُ يَابِسَةٌ مَائِنَةٌ مِنَ الْعَفْنِ ، فَقَدْ عَدِمَتْ أَرْضُ^(h) مِصْرَ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ ، وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ صَارَتْ الْمَوَاضِعُ الَّتِي تَهْبُ فِيهَا رِيحُ الصَّبَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ غَيْرِهَا ، كَالْإِسْكَندَرِيَّةِ وَتِنِيسَ [وَدِمْيَاطَ]⁽ⁱ⁾ .

(a) عند ابن رضوان : درجة . (b) بولاق : وهو أول وسط . (c) عند ابن رضوان : وأحداقهم شملة . (d) في إحدى نسخ دفع مضار الأبدان : وجبل المقطم . وانظر فيما يلي ١ : ١٢٣ . (e) بولاق : يوجد . (f) بولاق : أهل . (g) زيادة من ابن رضوان .

^١ ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٠٧ - ١١٠ . ^٢ انظر فيما يلي ٣٣٤ .

وَيُعَوَّقُ أَيْضًا هَذَا الْجَبَلُ إِشْرَاقَ الشَّمْسِ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، إِذَا كَانَتْ عَلَى الْأَفْقِ فَيَكُونُ زَمَانُ لَبَثِ الشُّعَاعِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ أَقْلُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْحَالِ سَبَبٌ لِرُكُودِ الْهَوَاءِ وَغِلْظِهِ. وَأَرْضُ مِصْرَ أَرْضٌ كَثِيرَةُ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ جِدًّا، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا مَوْضِعًا خُلُوعًا مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَهِيَ أَرْضٌ مُتَخَلِّخَةٌ، فَإِنَّكَ تَرَاهَا عِنْدَ انْصِرَافِ النَّيْلِ بِمَنْزِلَةِ الْحَمَاءَةِ، فَإِذَا حَلَّتْ الْحَرَارَةُ مَا فِيهَا مِنَ الرُّطُوبَةِ تَشَقَّقَتْ شُقُوقًا عِظَامًا، وَالْمَوَاضِعُ الْكَثِيرَةُ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ أَرْضٌ كَثِيرَةُ الْعُقُوتَةِ.

وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ حَرَارَةٌ مِزَاجِيَّةٌ وَسَخَافَتُهَا^a، وَكَثْرَةٌ مَا فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ اخْتِرَاقَهَا وَسَوَادَ طِينِهَا، وَصَارَتْ أَرْضًا سَوْدَاءَ، وَمَا قَرَّبَ مِنْهَا مِنَ الْجَبَلِ سَبَخَ إِثْمًا بُورِقِيًّا أَوْ مَالِحًا، وَيُظْهِرُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِالْعَشِيَّتَاتِ بُخَارًا أَسْوَدًا أَوْ أَعْبَرَ، وَخَاصَّةً فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ. وَأَرْضُ مِصْرَ ذَاتُ أَجْزَاءٍ كَثِيرَةٍ، وَيَخْتَصُّ كُلُّ لُجْزِيٍّ مِنْهَا بِشَيْءٍ دُونَ غَيْرِهِ. وَعِلَّةُ ذَلِكَ ضَيْقُ عَرْضِهَا، وَاشْتِمَالُ طَوْلِهَا عَلَى عَرْضِ الْإِقْلِيمِ الثَّانِيِ وَالثَّلَاثِ، فَإِنَّ الصَّعِيدَ فِيهِ مِنَ النَّخْلِ وَالسَّنْطِ وَأَجَامِ الْقَصَبِ وَالْبُرْدِيِّ، وَمَوَاضِعُ إِخْرَاقِ الْفَحْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَالْقَيْومُ فِيهِ مِنَ النَّقَائِعِ وَأَجَامِ الْقَصَبِ وَمَوَاضِعُ تَغْطِينِ الْكَثَّانِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأَسْفَلُ أَرْضِ مِصْرَ فِيهِ مِنَ النَّبَاتِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ كَالْقُلُقَاسِ وَالْمَوْزِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَبِالْجَمَلَةِ فَكُلُّ بُقْعَةٍ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لَهَا أَشْيَاءٌ تَخْتَصُّ بِهَا وَتَنْفَضُّ عَنْ غَيْرِهَا^١.

قَالَ: وَالنَّيْلُ يُرَطَّبُ يَبَسَ الصَّيْفِ وَالْخَرِيفِ، فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنَّ الْمِزَاجَ الْغَالِبَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ الْحَرَارَةُ وَالرُّطُوبَةُ الْفَضْلِيَّةُ، وَأَنَّهَا ذَاتُ أَجْزَاءٍ كَثِيرَةٍ، وَأَنَّ هَوَاءَهَا وَمَاءَهَا رَدِيمَانٌ، وَقَدْ بَيَّنَّ الْأَوَائِلُ أَنَّ الْمَوَاضِعَ الْكَثِيرَةَ الْعَفْنَ يَتَحَلَّلُ مِنْهَا فِي الْهَوَاءِ فَضُولٌ كَثِيرَةٌ لَا تَدَعُهُ يَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ لِاخْتِلَافِ تَصَعُّدِهَا.

وَقَدْ كَانَ اسْتَبَانَ أَنَّ هَوَاءَ أَرْضِ مِصْرَ يُسْرِعُ إِلَيْهِ التَّغْيِيرُ، لِأَنَّ الشَّمْسَ لَا يَثْبُتُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ شُعَاعُهَا الْمُدَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ، فَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَثُرَ اخْتِلَافُ هَوَاءِ أَرْضِ مِصْرَ، فَصَارَ يُوجَدُ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ عَلَى حَالَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: مَرَّةً حَرًّا، وَمَرَّةً بَرْدًا، وَمَرَّةً يَابِسًا، وَأُخْرَى رَطْبًا، وَمَرَّةً مَتَحَرِّكًا،

(a) ساقطة من بولاق.

^١ ابن رضوان: دفع مضار الأهدان ١١١ - ١١٤.

وأخرى ساكن، ومرة الشمس صاحبة، ومرة قد سترها الغيث. وبالجملة هواء مصر كثير الاختلاف، غير لازم لطريقة واحدة، فيصير من أجل ذلك ما في الأوعية والغروق من أخلاط البدن، لا يلزم حدًا واحدًا.

وأيضًا فإن ما يتحلل كل يوم من البخار الرطب بأرض مصر، يُعَوِّقُه اختلافُ الهواءِ وقلةُ سُكِّ الجبال وكثرة حرارة الأرض عن الاجتماع في الجو، فإذا بردَ الهواءُ بيزد الليل انحدَرَ هذا البخار على وجه الأرض، فيتولد عنه الضباب الذي يحدث عنه الطل والندى، وربما تحلَّل هذا البخار بالتحلل الخفي، فإذا تحلَّل كل يوم ما كان اجتمع من البخار في اليوم الذي قبله، فمن أجل هذا لا يجتمع الغيث المُمطر بأرض مصر/ إلا في الثدرة، وظاهرًا أيضًا أن أرض مصر يترطب هوائها في كل يوم بما يترقى إليه من البخار الرطب وما يتحلل.

وقد قال بعض الناس: إنَّ الضباب يتكوّن من استحالة الهواء إلى طبيعة الماء، فإذا انضاف هذا إلى ما قلناه، كان أزيد في بيان سرعة تغيير الهواء بأرض مصر وكثرة العفونة فيها، وقد استبان أن أرض مصر كثيرة الاختلاف، كثيرة الرطوبة الفضلية التي يُشرع إليها العفن.

والعلة القسوى في جميع ذلك، هو أن أخص الأوقات بالجفاف في الأرض كلها تكثر فيه بمصر الرطوبة، لأنها تتربط في الصيف والخريف بمد النيل وقيضه، وهذا خلاف ما عليه البلدان الأخر. وقد أعلمنا^(a) أن رطوبة الصيف والخريف فضلية أعني خارجة عن المجري الطبيعي كرتوبة المطر الحادث في الصيف. ومن أجل هذا قلنا إن رطوبة [أرض]^(b) مصر فضلية، وذلك أن الحرارة واليبس هو بالحقيقة مزاج مصر الطبيعي، وإنما عرض له ما أخرجه عن اليبس إلى الرطوبة الفضلية مد النيل في الصيف والخريف، ولذلك كثرت العفونات بهذه الأرض.

فهذا هو السبب الأول^(c) الأعظم في أن صارت أرض مصر على ما هي عليه من سخافة الأرض وكثرة العفن ورداءة الماء والهواء؛ إلا أن هذه الأشياء لا تُحدث في أبدان المصريين استحالة محسوسة إذا جرت على عاداتها، من أجل إلف المصريين لهذه الحال ومشاكلة أبدانهم لها، فإن كل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان والنبات مشابه لما عليه مصر في سخافة الأبدان^(d) وضعف القوى وكثرة التغيير وسرعة الوقوع في الأمراض وقصر المدّة، كالحنطة بمصر فإنها وشيكة الزوال، سريع إليها العفن في المدّة اليسيرة.

(a) بولاق: علمنا. (b) إضافة من ابن رضوان. (c) ساقطة من بولاق. (d) الأصل: الأجسام.

ولا تظن^(a) أن أبدان الناس وغيرهم تُخالِف ما عليه الخِطَّة من سُرعَة الاستِحالة ؛ وكيف لا يكون الأمر كذلك وأبدانهم مَبْنِيَّة من هذه الأشياء . فحال ما يتولَّد بأرض مصر من النبات والحيوان ، في السخافة وكثرة الفُضول والعَفَن وسُرعَة الوُقوع في الأمراض ، كحال سخافة أرضها وعَفَنها وفُضولها وسُرعَة استِحالتها ، لأنَّ النُسبة واجِدَة ، ولذلك أمكن حياة الحيوان فيها ونبات النبات بها ، فإنَّ هذه الأشياء من حيث ناسبتِها ولم تَبْعُد عن مُشاكَلتها أمكن حياتها . فأما الأشياء الغريبة فإنَّها إذا دَخَلت إلى مصر تَغَيَّرت في أوَّل لِقائِها لهذا الهَوَاء ، حتى إذا استقرت وألقت الهَوَاء واستمرَّت عليه ، صَحَّت صِحَّتُه^(b) مُشاكَلَة لأرض مصر⁽¹⁾ .

قال : وأما جنس ما يُؤكَل ويُشرب بأرض مصر ، فإنَّ الغلات سريعة التَغَيُّر ، سَخِيفَة مُتَخَلِّخَة ، تَفْسَد في الزَّمان اليسير ، كالخِطَّة والشَّعير والعدس والخِمْص والباقلَاء والجلبان ، فإنَّ هذه تُسْوَس في المُدَّة القليلة ، ليس لشيء من الأغذية التي تُعْمَل منها لَدَاذَة ما لَنظيره في البُلدان الأخر ، وذلك أنَّ الخُبز المعمول من الخِطَّة بمصر متى لَبِثَ يوماً واحداً بليته لا يُؤكَل ، وإن أُكِلَ لم يُوجَد له لَدَاذَة ولا تماشك لبغضه ببعض ، ولا يُوجَد فيه عُلوكة ، ولكنه يتكوج في الزمان اليسير ، وكذلك الدقيق ، وهذا بخلاف أخبار البُلدان الأخر .

وكذلك الحال في جميع غلات مصر وفواكهها وما يُعْمَل منها^(c) ، فإنَّها وشيكة الزوال ، سريعة الاستِحالة والتَغَيُّر . فأما ما يُحْمَل من هذه إلى مصر ، فظاهر أنَّ مزاجها يتبدل باختلاف الهَوَاء عليها ، ويستحيل عمَّا كانت عليه إلى مُشاكَلَة أرض مصر ، إلا أنَّ ما كان حديثاً قريب العهد بالسفَر ، فقد بقيت فيه من جودته بقايا صالحة ؛ فهذا حال الغلات .

وأما الحيوان الذي يأكله الناس ، فالبلدي منه مزاجه مُشاكَل لمزاج الناس بهذه الأراضي في السخافة وسُرعَة الاستِحالة ، فهو على هذا ملائم لطبائعهم ، والمجلوب كالكبش البريَّة فالسفر يُحدث في أبدانها قَحلاً ويُنسأ وأخلاقاً لا تُشاكَل مزاج^(d) المصريين ، ولهذا إذا دَخَلت مصر مَرَضَ أَكثَرها ، فإذا استقرت زماناً صالحاً تبدل مزاجها ووافق مزاج المصريين .

(a) بولاق : ولا مطعن . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : فيها . (d) بولاق : أخلاط .

¹ ابن رضوان : دفع مزار الأبدان ١١٩ - ١٢٢ .

وَأَهْلُ مِصْرَ يَشْرَبُ الْجُمْهُورُ مِنْهُمْ مِنْ مَاءِ النَّيْلِ ، وَقَدْ قُلْنَا فِي مَاءِ النَّيْلِ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ ، وَبَعْضُهُمْ يَشْرَبُ مِيَاهَ الْآبَارِ ، وَهِيَ قَرِيْبَةٌ مِنْ مُشَاكَلَتِهِمْ ، وَالْمِيَاهُ الْمَخْزُوْنَةُ فَقَلٌّ مِنْ يَشْرَبُهَا بِأَرْضِ مِصْرَ . وَأَجْوَدُ الْأَشْرَبَةِ عِنْدَهُمُ الشَّمْسِيُّ ، لِأَنَّ الْعَسَلَ الَّذِي فِيهِ يَحْفَظُ قُوَّتَهُ وَلَا يَدَعُهُ يَتَّعَيَّرُ بِسُرْعَةٍ ، وَالزَّمَانُ الَّذِي يَعْمَلُ فِيهِ خَالِصُ الْحَرِّ فَهُوَ يُنْضِجُهُ ، وَالزَّبِيْبُ الَّذِي يَعْمَلُ مِنْهُ مَجْلُوْبٌ مِنْ بِلَادِ أَجْوَدِ هَوَاءِ .

وَأَمَّا الْخَمْرُ فَقَلٌّ مِنْ يَغْتَصِرُهَا إِلَّا وَيَلْقَى مَعَهَا عَسَلًا ، وَهِيَ مُغْتَصِرَةٌ مِنْ كُرُوْمِهِمْ فَتَكُونُ مُشَاكَلَةً لَهُمْ ، وَلِهَذَا صَارُوا يَخْتَارُونَ الشَّمْسِيَّ عَلَيْهَا ، وَمَا عَدَا الشَّمْسِيَّ وَالْخَمْرُ مِنَ الشَّرَابِ بِأَرْضِ مِصْرَ ، فَرْدِيٌّ لَا خَيْرَ فِيهِ لِسُرْعَةِ اسْتِحَالَتِهِ مِنْ فَسَادِ مَاذَتَهُ كَالثَّبِيْدِ التَّمْرِيِّ وَالْمَطْبُوخِ وَالْمَزْرُ الْمُعْمُولِ مِنَ الْخِيْطَةِ .

وَأَغْذِيَّةُ أَهْلِ مِصْرَ مُخْتَلِفَةٌ : فَإِنَّ أَهْلَ الصُّعَيْدِ يَغْتَذُّونَ كَثِيْرًا بِتَمْرِ النَّخْلِ وَالْحَلَاوَةِ الْمُعْمُولَةِ مِنْ قَصَبِ السُّكَّرِ ، وَيَحْمِلُونَهَا إِلَى الْفُسْطَاطِ وَغَيْرِهَا ، فَتُبَاعُ هُنَاكَ وَتُؤَكَلُ . وَأَهْلُ أَسْفَلِ الْأَرْضِ يَغْتَذُّونَ كَثِيْرًا بِالْقُلُقَاسِ وَالْجَلْبَانِ ، وَيَحْمِلُونَ ذَلِكَ إِلَى مَدِيْنَةِ الْفُسْطَاطِ وَغَيْرِهَا ، فَتُبَاعُ هُنَاكَ وَتُؤَكَلُ ، وَكَثِيْرٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ يُكْثِرُونَ أَكْلَ / السَّمَكِ طَرِيْقًا وَمَالِحًا . وَكَثِيْرٌ يَكْثِرُونَ أَكْلَ الْأَلْبَانِ وَمَا يَعْمَلُ مِنْهَا ، وَعِنْدَ فَلَاحِيهِمْ نَوْعٌ مِنَ الْخُبْزِ يُدْعَى كَعْكًا ، يَعْمَلُ مِنْ جَرِيْشِ الْخِيْطَةِ وَيُجَفَّفُ ، وَهُوَ أَكْثَرُ أَكْلِهِمُ السَّنَةَ كُلَّهَا .

وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلُّ قَوْمٍ مِنْهُمْ قَدْ نَبَتَ^(a) أَيْدَانُهُمْ مِنْ أَشْيَاءِ بَاعِيَانِهَا وَأَلْفَتْهَا وَنَشَأَتْ عَلَيْهَا ، إِلَّا أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ الْأَغْذِيَّةُ الرَّدِيْقَةُ ، وَليْسَتْ تُغَيِّرُ مِزَاجَهُمْ مَا دَامَتْ جَارِيَةً عَلَى الْعَادَةِ ، وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يُوَكِّدُ أَمْرَهُمْ فِي السَّخَاْفَةِ وَسُرْعَةِ الْوُقُوعِ فِي الْأَمْرَاضِ .

وَأَهْلُ الرَّيْفِ أَكْثَرُ حَرَكَةٍ وَرِيَاضَةٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِيْنِ ، وَلِذَلِكَ هُمْ أَصَحُّ أَيْدَانًا ؛ لِأَنَّ الرِّيَاضَةَ تُصَلِّبُ أَعْضَاءَهُمْ وَتُقَوِّيْهَا .

وَأَهْلُ الصُّعَيْدِ أَخْلَاطُهُمْ أَرْقٌ وَأَكْثَرُ دُخَانِيَّةٍ وَتَخْلُخَلًا وَسَخَاْفَةً ، لِشِدَّةِ حَرَارَةِ أَرْضِهِمْ مِنْ أَهْلِ^(b) أَسْفَلِ الْأَرْضِ . وَأَهْلُ أَسْفَلِ الْأَرْضِ بِمِصْرَ أَكْثَرُ اسْتِيفْرَاحٍ فَضُولِهِمْ بِالْبُرَازِ وَالْبَوْلِ ، لِنُفُورِ حَرَارَةِ أَرْضِهِمْ ، وَاسْتِعْمَالِهِمْ لِلأَشْيَاءِ الْبَارِدَةِ وَالْعَلِيْظَةِ كَالْقُلُقَاسِ .

وَأَمَّا أَخْلَاقُ^(c) الْمِصْرِيِّينَ فَبَعْضُهَا شَبِيْهُ بَعْضٍ ، لِأَنَّ قُوَّةَ النَّفْسِ تَابِعَةٌ لِمِزَاجِ الْبَدَنِ ، وَأَيْدَانُهُمْ سَخِيْفَةٌ سَرِيْعَةٌ التَّغْيِيْرُ قَلِيْلَةٌ الصَّبْرِ وَالْجَلْدِ ، وَكَذَلِكَ أَخْلَاقُهُمْ يَغْلُبُ عَلَيْهَا اسْتِحَالَةٌ ، وَالثَّقَلُ مِنْ

(a) بولاق : ابنتت . ابن رضوان : أنبتت . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : أخلاط .

شيء إلى شيء، والدَّعة والجُبْن والقُنوط والشَّح وقلة الصُّبر، والرَّغبة في العِلْم، وشُرعة الخَوْف، والحَسَد والنَّميمة والكذب والسَّغي إلى السُّلطان وذم الناس.

وبالجُملة فيغلب عليهم الشُّرور الدنيئة التي تكون من دناة النَّفس^(a)، وليس هذه الشُّرور عامة فيهم، ولكنها مَوْجودة في أكثرهم، ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق، وبزأه من الشُّرور.

ومن أجل توليد أرض مصر الجُبْن والشُّرور الدنيئة في النَّفس لم يسكنها الأسد، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل، وكلابها أقل جراءة^(b) من كلاب غيرها من البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الأخر، ما خلا ما كان منها في طبعه مُلائماً لهذه الحال كالخِمار والأزنب^(c).

قال: إن جالينوس يرى أن فصل الربيع طبيعته الاعتدال، ويُناقض [في كتابه في المزاج]^(d) من ظن أنه حار رطب. ومن شأن هذا الفضل أن تصح فيه الأبدان ويجود هضمها، وتنتشر الحرارة الغريزية فيه، ويصفو الروح الحيواني، لا اعتدال الهواء وصفائه، ومساواة ليله لنهاره، وغلبة الدَّم. والهواء المعتدل هو الذي لا يحس فيه ببرد ظاهر ولا حر ولا رطوبة ولا يئس، ويكون في نفسه نقيًا صافيًا، فيقوى فيه الروح الحيواني لهذا السبب، وتصح الأبدان ويكثر نشاط الحيوان، وتنمو الأشياء وتزيد وتتولد^(d).

وإذا طلبنا بأرض مصر مثل هذا الهواء لم نجد في وقت من السنة، إلا في أمشير وبزيمهات وبزمودة وبشنس، عندما تكون الشمس في النصف الأخير من الدلو والحوت والحمل والثور، فإننا نجد بمصر في هذا الزمان أيامًا معتدلة نقيّة صافية، لا يحس فيها بحر ظاهر ولا بريد ولا رطوبة ولا يئوس، وتكون الشمس فيها نقيّة من الغيوم، والهواء ساكنًا لا يتحرك، إلا أن يكون ذلك في بزمودة وبشنس، فإنه يحتاج إلى أن تهب ریح الشمال ليبتدل بزيدها حر الشمس.

وفي هذا الزمان تكثر حركة الحيوان وسفاده، وتحسن أضوائه، وتورق الأشجار، ويعقد الزهر، وتقوى القوة المولدة، ويغلب كيموس الدم^(e). وفي هذا الفضل في أرض مصر يتقدم زمانه

(a) بولاق: الأنفس. (b) ابن رضوان: أقل جدّة. (c) إضافة من ابن رضوان. (d) بولاق: تتوالد.

¹ ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٢٦-١٣١.

^٢ لفظ سرياني معرب بمعنى الخلاصة الغذائية.

^٢ نفسه ١٣٥.

الطَّبِيعِي بِمِقْدَارِ مَا يَنْقُصُ عَنْ آخِرِهِ . وَعِلَّةُ ذَلِكَ قُوَّةُ حَرَارَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ . وَقَدْ يَعْضُضُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْفَصْلِ أَيَّامَ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ ، وَذَلِكَ فِي أَمَشِيرٍ ، إِذَا هَبَّتْ رِيحُ الشَّمَالِ ، وَكَانَتْ الشَّمْسُ غَيْرَ نَقِيَّةٍ مِنَ الْغُيُومِ . وَعِلَّةُ ذَلِكَ دُخُولُ فَصْلِ الرَّبِيعِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ ، فَإِذَا هَبَّتْ رِيحُ الشَّمَالِ بَرْدًا يَبْرُدُهَا الْهَوَاءُ ، فَأَعَادَتْهُ بَعْدَ الْإِعْتِدَالِ إِلَى الْبَرْدِ .

٥ وَلَكثَرَةُ مَا يَضَعُدُ مِنَ الْأَرْضِ فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنَ الْبُخَارِ الرُّطْبِ ، يَرْطَبُ الْهَوَاءَ وَيَعُودُ إِلَى حَالِهِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ ، وَرُبَّمَا بَرَدَ الْهَوَاءُ مِنْ هُبُوبِ رِيحٍ أُخْرَى ، فَإِنَّ رِيحَ الْجَنُوبِ ، الَّتِي هِيَ أَشَدُّ الرِّيحِ حَرَارَةً ، إِذَا هَبَّتْ فِي هَذَا الزَّمَانِ اِكْتَسَبَتْ بُرُودَةً مِنَ الْأَرْضِ وَالْمَاءِ اللَّذِينَ قَدْ بَرَّدَهُمَا هَوَاءُ الشِّتَاءِ ، فَإِذَا مَرَّتْ بِشَيْءٍ يَبْرُدُّهُ بِبُرُودَتِهَا الْعَرَضِيَّةِ ، حَتَّى إِذَا دَامَ هُبُوبُهَا أَيَّامًا كَثِيرَةً مُتَوَالِيَةً عَادَتْ إِلَى حَرَارَتِهَا ، وَأَسْحَنَتْ الْهَوَاءَ وَأَحَدَّتْ فِيهِ يُسِنًا .

١٠ وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّ بَرْدَ رِيحِ الْجَنُوبِ ، الَّتِي تَعْرِفُهَا الْمِصْرِيُّونَ بِالْمَرْيَسِيِّ ، يَتَوَلَّدُ مِنْ بَرْدِ مِيَاهِ مِصْرَ وَأَرْضِهَا لَا مِنْ شَيْءٍ طَبِيعِي لَهَا ، أَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ فِي الْجَوِّ ، فِي أَيَّامِ هُبُوبِهَا ، الضُّبَابُ الَّذِي يَجْتَمِعُ مِنْ تَحْلِيلِ الْحَرَارَةِ لِلْبُخَارِ الرُّطْبِ بِالنَّهَارِ وَجَمْعِ الْبُرُودَةِ لَهُ بِاللَّيْلِ ، فَحَرَارَةُ رِيحِ الْجَنُوبِ تَعُوقُ^(a) الْبُرُودَةَ عَنْ جَمْعِهِ وَتُبَدِّدُهُ فِي الْهَوَاءِ ، وَإِذَا دَامَ هُبُوبُ هَذِهِ الرِّيحِ أَسْحَنَتْ الْمَاءَ وَالْأَرْضَ ، وَعَادَتْ إِلَى طَبِيعَتِهَا فِي الْحَرَارَةِ .

١٥ وَإِذَا كَانَ فَصْلُ الرَّبِيعِ يَتَقَدَّمُ زَمَانُهُ الطَّبِيعِي ، وَيَخْتَلِفُ هَذَا الْاِخْتِلَافُ وَالْهَوَاءُ بِمِصْرَ فِي الْأَصْلِ يَخْتَلِفُ بِكَثْرَةِ اسْتِحَالَتهِ وَمَا يَرْتَقِي إِلَيْهِ مِنَ الْبُخَارِ فَمَا ظَنُّكَ بغيرِهِ مِنَ الْفُضُولِ ؟ وَلِذَلِكَ كَثُرَتْ فِيهِ الرِّيحُ ، وَأَخَّرَ الْأَطِبَّاءُ فِيهِ سَقْيَ الْأَدْوِيَةِ الْمُسَهِّلَةِ إِلَى أَنْ يَسْتَقَرُّ أَمْرُهُ فِي شَمْسِ الْحَمَلِ مَعَ الثَّوْرِ . ثُمَّ يَدْخُلُ فَصْلُ الصَّيْفِ مِنْ^(b) آخِرِ بَشَنَسٍ وَبَثُونَةٍ وَأَيِّبٍ وَبَعْضِ مِشْرَى ، عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ فِي الْجُوزَاءِ وَالشَّرْطَانِ وَالْأَسَدِ وَبَعْضِ السُّنْبُلَةِ ، فَيَسْتَدُّ الْحَرَّ وَالْيَبْسَ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، وَتَجْفُ الْعَلَّاتُ وَتَنْضُجُ الثَّمَارُ ، وَيَجْتَمِعُ مِنْ أَكْلِهَا فِي الْأَبْدَانِ كِيمُوسَاتٌ كَثِيرَةٌ^(c) زَدِيئَةٌ .

٢٠ وَإِذَا نَزَلَتْ الشَّمْسُ الشَّرْطَانَ / أَخَذَ النَّيْلُ فِي الزِّيَادَةِ وَالْفَيْضُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ ، فَيَتَغَيَّرُ مَزَاجُ الصَّيْفِ الطَّبِيعِي بِكَثْرَةِ مَا يَرْتَقِي إِلَى^(d) الْهَوَاءِ مِنْ بُخَارِ الْمَاءِ .

وَيُوجَدُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْفَصْلِ عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ فِي الْجُوزَاءِ أَيَّامَ يُشَاكِلُ هَوَاؤها هَوَاءَ الرَّبِيعِ ، عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ مُسْتَوْرَةً بِالْغُيُومِ ، أَوْ تَكُونُ رِيحُ الشَّمَالِ هَابَّةً . وَلِهَذَا يَغْلَطُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَطِبَّاءِ

(a) بولاق : تفرق . (b) بولاق : في . (c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : يترقى إلى ، ابن رضوان : ما يتولد في .

ويُسْقَى الأدوية المُسهِّلة في هذا الزَّمان ، لظنِّه أنَّ فَضْلَ الرَّبِيعِ لم يَخْرُجْ ؛ إِلَّا أنَّ^(a) من كان منهم أَخَذَقَ ، فهو يَخْتار ما كان في هذه الأَيام أسْكَنَ حَرَارَةَ ، والأَكْثَر لا يَشْعُرُونَ أَلْبَتَّةَ بِهذه الحَالِ .
وفي آخِرِ الصَّيْفِ يكون^(b) فَيْضُ النَّيْلِ ، وظَاهِرٌ أَنَّ هذا الفَضْلَ يَتَقَدَّمُ دُخُولُهُ الزَّمانَ الطَّبِيعِيَّ بقَدْر ما يَتَقَدَّمُ آخِرُهُ ، وَأَنَّهُ كَثِيرُ الاضْطِرَابِ بِكَثْرَةِ ما يَزِقَى إِلَيْهِ مِنْ بُخَارِ المَاءِ^(c) . فلولَا اسْتِمْرَارِ أَبْدَانِهِمْ عَلَى هذا الاختِلافِ ، ومُشاكَكَّتِهِمْ لِهذه الحَالِ ، لَحَدَّثَتْ فِيهِمُ الأَمْرَاضُ الَّتِي ذَكَرَ أُبُقْرَاطُ أَنَّهَا تَحْدُثُ إِذَا كانَ الصَّيْفُ رَطْبًا .

ثم يَدْخُلُ فَضْلُ الحَرِيفِ وطَبِيعَتُهُ يَابِسَةٌ ، مِنْ النُّصْفِ الأَخِيرِ مِنْ مِشْرَى ثُمَّ تَوْتٌ وَبَابَةٌ وَبعضُ أَيامِ هائِثورٍ ، وتكونُ الشَّمْسُ في آخِرِ الشُّبُلَةِ والمِيزانِ والعَقْرَبِ ، فَتَكْمُلُ زِيادَةُ النَّيْلِ في أوَّلِ هذا الفَضْلِ ، وَيُطَلَّقُ عَلَى الأَرْضِينَ^(d) ، فَيُطَبِّقُ أَرْضَ مِصرَ ، وَيَزْتَفِعُ مِنْهُ في الجَوِّ بُخَارًا كَثِيرًا ، فينتقلُ مِزاجُ الحَرِيفِ عَنِ اليَبَسِ إِلَى الرُّطوبَةِ ، حَتَّى إِنَّهُ رَبَّما وَقَعَ فِيهِ الأَمطارُ وَكَثْرَةُ الغَيْمِ في الجَوِّ .

ويوجدُ في هذا الفَضْلِ أَيَّامٌ شَدِيدَةُ الحَرِّ لِأَنَّها عَلَى الحَقِيقَةِ صِيفِيَّةٌ ، فَإِذَا نَقِيَ الجَوُّ مِنَ البُخارِ الرُّطْبِ عَادَتْ إِلَى طَبِيعَتِها مِنَ الحَرَارَةِ . وفيه أَيضًا أَيَّامٌ شَدِيدَةُ الشَّبهِ بِأَيَّامِ الرَّبِيعِ ، تكونُ عِنْدَما يُساوي اللَّيْلُ النَّهارَ وَيُرْطَبُ المَاءُ يُنَسِّ الهَوَاءَ . ويشتدُّ في هذا الفَضْلِ اضْطِرَابُ الهَوَاءِ بِكَثْرَةِ ما يَزِقَى إِلَيْهِ مِنَ البُخارِ الرُّطْبِ ، فيكونُ مَرَّةً حارًّا ، وأُخْرَى بارِدًا ، ومَرَّةً يابِسًا ، وَأَكْثَرُ أَوْقاتِهِ يَغْلِبُ^(e) عَلَيْهِ الرُّطوبَةُ ، فلا يزالُ كَذَلِكَ يَتَمَرَّجُ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَيْهِ رُطوبَةُ المَاءِ في آخِرِ الأَمْرِ .

ويُصادُ في أَيَّامِ الحَرِيفِ مِنَ النَّيْلِ أَشْماكٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا ، يُولَدُ أَكْثَرُها في الأَبْدانِ أَخلَاطًا لَزِجَةً ، وَكَثِيرًا ما يَسْتَحِيلُ إِلَى الصَّفْرَاءِ إِذا صادَقَتْ في البَدَنِ خَلْطًا صَفْرًاوِيًّا ، فَمِنْ أَجْلِ ذلكَ تَضْطَرُّبُ ما في الأَبْدانِ مِنَ الرُّوحِ الحَيوانِيِّ ، وَتَهْيِجُ الأَخْلاطُ ، وَيَفْسُدُ الهَضْمُ في البُطونِ والأَوْعِيَةِ والعُرُوقِ ، وَيَتولَدُ مِنْ ذلكَ كِيموساتٌ رَدِيقَةٌ كَثِيرَةٌ الاختِلافِ^(f) : بَعْضُها مِرَّةٌ صَفْرَاءٌ ، وَبَعْضُها مِرَّةٌ سَوْداءٌ ، وَبَعْضُها بَلْغَمٌ لَزِجٌ ، وَبَعْضُها خَلْطٌ خامٌ ، وَبَعْضُها مِرَّةٌ مُحْتَرِقَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْها يَتَرَكَّبُ مِنْ هذِهِ الأَشْياءِ فَشِيرُ الأَمْرَاضِ ؛ حَتَّى إِذا انْصَرَفَ النَّيْلُ في آخِرِ الحَرِيفِ ، وانْكَشَفَتِ الأَرْضُ ، وَبَزَدَ الهَوَاءُ ، وَكَثُرَتِ الأَشْماكُ ، واخْتَفَنَ البُخارُ ، وَكَثُرَ ما يَزْتَفِعُ مِنَ الأَرْضِ مِنَ العَفُونَةِ ، واسْتَحْكَمَ عِنْدَ ذلكَ وُجودُ العَفَنِ ، تَزايَدَتِ الأَمْرَاضُ . وَلولَا إِلفُ أَهلِ أَرْضِ^(a) مِصرَ لِهذِهِ الأَشْياءِ ، لكانَ ما يَحْدُثُ فِيهِمْ مِنَ الأَمْرَاضِ أَكْثَرَ مِنْ ذلكَ .

(a) ساقطة من بولاق . (b) ابن رضوان : بكسر . (c) بولاق : الأرض . (d) بولاق : الأرض . (e) الأصل :

بكسر . (f) بولاق : الأخلاط .

ثم يَدْخُلُ فَصْلُ الشِّتَاءِ وَطَبِيعَتُهُ بَارِدَةٌ رَطْبَةٌ ، مِنْ النِّصْفِ الْآخِرِ مِنْ هَائُورٍ ثُمَّ كَيْهَكَ وَطُوبَةَ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا تَكُونُ الشَّمْسُ فِي القَوْسِ وَالْجَدْيِ وَبَعْضِ الدَّلْوِ ، وَذَلِكَ أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ قُوَّةُ حَرَارَةِ أَرْضِ مِصْرَ ، وَكَوْنُ الأَبْدَانِ مُضْطَّرِبَةً . وَتَتَكَشَّفُ الأَرْضُ فِي أَوَّلِ هَذَا الفَصْلِ ، وَتُحْرَثُ وَتُعْفَنُ بِالْجَمَلَةِ ، لِكَثْرَةِ مَا يُلْقَى فِيهَا مِنَ البُزُورِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَرْبَابِ الحَيَوَانِ وَفُضُولِهَا ، وَلِأَنَّهَا سَخِيفَةٌ ، وَهِيَ كَالْحَمَاءَةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، فَيَتَوْلَدُ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ القَارِ وَالذُّودِ وَالنَّبَاتِ وَالعُشْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً ، وَيَنْحَلُّ مِنْهَا فِي الجَوِّ أَبْخَرَةٌ كَثِيرَةٌ ، حَتَّى يَصِيرَ الضَّبَابُ بِالْعَدْوَاتِ سَائِرًا لِلأَبْصَارِ عَنِ الأَلْوَانِ القَرِيبَةِ .

وَيُصَادُ أَيْضًا مِنَ الأَسْمَاكِ المَحْبُوسَةِ فِي المِيَاهِ المَخْزُونَةِ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَقَدْ دَاخَلَهَا العَفْنُ لِقَلَّةِ حَرَكَتِهَا ، فَيَتَوْلَدُ أَكْلُهَا فِي الأَبْدَانِ فَضُولًا كَثِيرَةً لِرِجَّةِ شَدِيدَةِ الاستِعْدَادِ للعَفْنِ ، فَتَقْوَى الأَمْرَاضُ فِي أَوَّلِ هَذَا الفَصْلِ . حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ البَرْدُ ، وَقَوِيَ الهَضْمُ فِي الأَبْدَانِ ، وَاسْتَقَرَّ الهَوَاءُ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ ، وَعَادَتِ الحَرَارَةُ القَرِيزِيَّةُ إِلَى دَاخِلِ ، وَتَطَبَّقَتِ الأَرْضُ بِالنَّبَاتِ ، وَسَكَنَتِ عُفُونَتُهَا ، صَحَّتْ عِنْدَ ذَلِكَ الأَبْدَانُ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي آخِرِ كَيْهَكَ أَوْ فِي طُوبَةَ .

فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنَّ الفُضُولَ بِأَرْضِ مِصْرَ كَثِيرَةٌ لِالاخْتِلَافِ ، وَأَنَّ أَرْبَابَ أَوْقَاتِ السَّنَةِ عِنْدَهُمْ وَأَكْثَرُهَا أَمْرَاضًا ، هِيَ ^(a) الحَرِيفُ وَأَوَّلُ الشِّتَاءِ ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِي هَائُورٍ وَكَيْهَكَ ، فَإِذَا اخْتَلَفَ الفُضُولُ مُشَاكِلٌ لِمَا عَلَيْهِ أَرْضُهُمْ مِنَ الرَّدَاعَةِ ، فَمَضْرُةُ الفُضُولِ إِذَا بِالأَبْدَانِ فِي أَرْضِ مِصْرَ أَقَلَّ مِنْهَا فِي البُلْدَانِ الأُخْرَى إِذَا اخْتَلَفَتْ هَذَا الاخْتِلَافِ .

وَاسْتَبَانَ أَيْضًا أَنَّ السَّبَبَ الأَوَّلَ فِي ذَلِكَ ، هُوَ مَدُّ النِّيلِ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ ، وَتَطْبِيقُهُ الأَرْضَ فِي أَيَّامِ الحَرِيفِ ، بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مِيَاهُ الأَنْهَارِ فِي العِمَارَةِ كَلِّهَا ، فَإِنَّهَا إِنَّمَا تَمْتَدُّ فِي أَحْصَ الأَوْقَاتِ بِالرُّطُوبَةِ ، وَهُوَ الشِّتَاءُ وَالرَّيْبُغُ ^١ .

قَالَ : وَقَدْ اسْتَبَانَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الرُّطُوبَةَ الفُضْلِيَّةَ بِأَرْضِ مِصْرَ كَثِيرَةٌ . وَظَاهِرٌ أَنَّ أَمْرَاضَهُمُ البَلَدِيَّةَ تَكُونُ مِنْ نَوْعِ هَذِهِ الرُّطُوبَةِ ، فَإِنِّي أَنَا قَلَّمَا رَأَيْتُ أَمْرَاضَهُمُ البَلَدِيَّةَ تَكُونُ نَوْعَ هَذِهِ كَلِّهَا ، لَا يَشُوبُهَا فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا البَلْغَمُ وَالمُخْلَطُ الخَامُ ، وَالأَمْرَاضُ كَلِّهَا تَحْدُثُ عِنْدَهُمْ فِي الأَوْقَاتِ كَلِّهَا كَمَا

(a) بولاق : هو .

^١ ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٣٥ - ١٤٢ .

قال أبقراط ، وأكثر أمراضهم هي الفضلية ، أعني العفنة من أخلاط صفراوية وبلغمية ، على ما يشاكل مزاج / أرضهم^١ .

قال^(a) : وما ذكرناه فيما تقدم يُوجب حدوث الأمراض كثيرا ، إلا أن مُشاكله هذه بعضها بعضا ، واتفاقها في سنة واحدة ، تمنع من أن تكون في أنفسها مُمرضة حتى لزمّت العادة ، فأما إذا خرجت عن عاداتها ، فهي تُحدث مَرَضًا ، وتُخرجها عن عاداتها بمصر هو الذي أعده اختلافًا مُمرضًا ، لا الاختلاف الموجود فيها على الدائم .

والثبيل ليس يُحدث في الأبدان كل سنة مَرَضًا ، ولكنه إذا أفرطت زيادته ، ودأب مُدَّةً تزيد على العادة ، كان ذلك سببًا لحدوث المَرَض الوافد .

فإن قيل : إذا كانت أبدانُ الناس بأرض مصر من السخافة - على ما ذكرت - فلعلها في مَرَضٍ دائم ؛ فالجواب : لسنا نُبالي في هذا^(b) كيف كان ؛ لأن المَرَض هو ما يضرّ بالفعل ضررًا محسوسًا من غير تَوَسُّط ، فمن أجل ذلك ليست^(c) أبدانُ المصريين في مَرَضٍ دائم ، ولكنها كثيرة الاستعداد نحو الأمراض^٢ .

قال^٣ : أمّا أمراض مصر البلديّة فقد ذكرنا من أمرها ما فيه كفاية ، وظهّر أنّ أكثرها الأمراض الفضلية التي يشوبها صفراء وخام ، على أنّ باقي الأمراض تحدث عندهم بسرعة وقرب ، وخاصة في آخر الخريف وأول الشتاء .

وأما الأمراض الوافدة ومعنى المَرَض الوافد هنا^(a) ، هو ما يعمّ خلقًا كثيرًا في بَلَدٍ واحد وزمان واحد ، ومنه نوع يُقال له : المَوْتان ، وهو الذي يكثر معه المَوْت . وحدثت الأمراض الوافدة يكون عن أسباب كثيرة تجتمع في أجناس أربعة ، وهي : تغيّر كَيْفِيَّةِ الهَوَاءِ ، وتغيّر كَيْفِيَّةِ الماء ، وتغيّر كَيْفِيَّةِ الأَعْدِيَّةِ ، وتغيّر كَيْفِيَّةِ الأحداث النَّفْسَانِيَّةِ .

والهواء^(d) تتغيّر كَيْفِيَّتُهُ على ضَرْبَيْنِ : أحدهما تغيّره الذي جرت به العادة ، وهذا لا يُحدث مَرَضًا وافيًا ، وليس تغيّرًا مُمرضًا . والثاني التغيّر الخارج عن مجرى العادة ، وهذا هو الذي يُحدث

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : بهذا . (c) الأصل وبولاق : ليس والتصويب من ابن رضوان . (d) بولاق : فالهواء .

^٣ نفسه ١٧١ .

^١ ابن رضوان : دفع مزار الأبدان ١٤٧ .

^٢ نفسه ١٥٠ - ١٥١ .

الْمَرَضُ الْوَائِدُ ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي الْأَجْنَاسِ الْبَاقِيَةِ . وَخُرُوجُ تَغْيِيرِ الْهَوَاءِ عَنْ عَادَتِهِ يَكُونُ إِمَّا بِأَنْ يَسْحَنَ أَكْثَرَ أَوْ يَبْزُدَ أَوْ يَرْطُبَ أَوْ يَجْفَأَ أَوْ يُخَالِطَهُ حَالٌ عَفْنِيَّةٌ ^(a) . وَالْحَالَةُ الْعَفْنِيَّةُ ^(a) إِمَّا أَنْ تَكُونَ قَرِيبَةً أَوْ بَعِيدَةً ، فَإِنَّ أَبُقْرَاطَ وَجَالِينُوسَ يَقُولَانِ : إِنَّهُ لَيْسَ يَمْنَعُ مَانِعٌ مِنْ أَنْ يَخْدُثَ بِيَلَدِ الْيُونَانِيِّينَ مَرَضٌ وَائِدٌ عَنْ عَفْوَنَةٍ اجْتَمَعَتْ فِي بِلَادِ الْحَبَشَةِ ، وَتَرَأَتْ إِلَى الْجَوِّ وَانْحَدَرَتْ عَلَى الْيُونَانِيِّينَ ، فَأَخْدَثَتْ فِيهِمُ الْمَرَضَ الْوَائِدَ .

وَقَدْ يَتَغَيَّرُ أَيْضًا مِزَاجُ الْهَوَاءِ عَنْ الْعَادَةِ ، بِأَنْ يَصِلَ وَفْدٌ كَثِيرٌ قَدْ أَنَهَكَ أَبْدَانَهُمْ طَوْلَ السَّفَرِ وَسَاءَتْ أَخْلَاطُهُمْ ، فَيُخَالِطُ الْهَوَاءَ مِنْهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَيَقَعُ الْإِعْدَاءُ فِي النَّاسِ ، وَيُظْهِرُ الْمَرَضَ الْوَائِدَ .

وَالْمَاءُ أَيْضًا قَدْ يُخْدِثُ الْمَرَضَ الْوَائِدَ ، إِمَّا بِأَنْ يُفْرِطَ مِقْدَارَهُ فِي الزِّيَادَةِ أَوْ النُّقْصَانِ ، أَوْ يُخَالِطَهُ حَالٌ عَفْنِيَّةٌ ، وَيُضْطَرُّ النَّاسُ إِلَى شُرْبِهِ ، وَيَعْفَنُ بِهِ أَيْضًا الْهَوَاءُ الْمَحِيطُ بِأَبْدَانِهِمْ ، وَهَذِهِ الْحَالُ تُخَالِطُهُ إِمَّا قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا ، بِمَنْزِلَةِ مَا يَمُرُّ فِي جَزْيَانِهِ بِمَوْضِعِ جِزْبٍ ^(b) قَدْ اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ جَيْفِ الْمَوْتَى شَيْءٌ كَثِيرٌ ، أَوْ بِمِيَاهِ نَقَائِعٍ ^(c) عَفْنَةٍ فَيَخْدُرُهَا مَعَهُ وَيُخَالِطُ جِسْمَهُ .

وَالْأَعْدِيَّةُ تُخْدِثُ الْمَرَضَ الْوَائِدَ ، إِمَّا إِذَا لَحِقَهَا التَّيْرَقَانُ وَارْتَفَعَتْ أَسْعَارُهَا وَاضْطَرَّ النَّاسُ إِلَى أَكْلِهَا ، وَإِذَا أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ كَالَّذِي يَكُونُ فِي الْأَعْيَادِ فَيَكْثُرُ فِيهِمُ التُّخْمُ ، وَيَمْرَضُونَ مَرَضًا مُتَشَابِهًا ، وَإِذَا مِنْ قِبَلِ فَسَادِ مَرْعَى الْحَيَوَانِ الَّذِي يُؤْكَلُ ، أَوْ فَسَادِ الْمَاءِ الَّذِي يُشْرَبُ .
وَالْأَخْدَاثُ النَّفْسَانِيَّةُ تُخْدِثُ الْمَرَضَ الْوَائِدَ مَتَى حَدَثَ فِي النَّاسِ خَوْفٌ عَامٌ مِنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، فَيَطُولُ صَبْرُهُمْ ^(d) وَتَفَكَّرَهُمْ فِي الْخَلَاصِ مِنْهُ وَفِي وَقُوعِ الْبَلَاءِ ، فَيَسُوءُ هَضْمُ أَجْوَافِهِمْ ^(e) وَتَتَغَيَّرُ حَرَازَتُهُمُ الْعَرِيزِيَّةُ ، وَرُبَّمَا اضْطَرُّوا إِلَى حَرَكَةٍ عَنِيفَةٍ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، أَوْ يَتَوَقَّعُونَ قَحْطَ بَعْضِ السَّنِينَ ، فَيُكْثِرُونَ الْحَرَكَةَ وَالْاجْتِهَادَ فِي ادِّخَارِ الْأَشْيَاءِ ، وَيَشْتَدُّ غَمُّهُمْ بِمَا سَيَحْدُثُ .

فَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تُخْدِثُ فِي أَبْدَانِ النَّاسِ الْمَرَضَ الْوَائِدَ ، مَتَى كَانَ الْمَتَعَرِّضُ لَهَا خَلَقٌ كَثِيرٌ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ وَوَقْتٍ وَاحِدٍ . وَظَاهِرٌ أَنَّهُ إِذَا كَثُرَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ الْمَرَضِيُّ بِمَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ ، ارْتَفَعَ مِنْ أَبْدَانِهِمْ بُخَارٌ كَثِيرٌ فَيَتَغَيَّرُ مِزَاجُ الْهَوَاءِ ، فَإِذَا صَادَفَ بَدَنًا مُسْتَعِدًّا أَمْرَضَهُ ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَمَا يَتَعَرَّضُ إِلَيْهِ النَّاسُ .

(a) بولاق : عفنة . (b) بولاق : ضرب . (c) بولاق : تقاطع . (d) بولاق : سفرهم . (e) بولاق : هضمهم .

فالأمرضُ الوافدة بمصر تحدث إما عن فسادٍ لم تجر به العادة يُعرض للهواء سواء كان مادةً فساديه من أرض مصر، أو من البلاد التي تُجاورها كالشودان والحجاز والشام وبزقة، أو يُعرض للنيل أن^a تُفريط زيادته فتكثر زيادة الرطوبة والعفن، أو تقل زيادته جدًا فيجف الهواء عن مقدار العادة ويُضطر الناس إلى شرب مياهٍ رديئة، أو يُخالطه عُفونة تحدث عن حذبٍ يكون بأرض مصر أو ببلاد الشودان أو غيرها يموت فيها خلقٌ كثيرٌ ويترفع بخارٌ جيفهم في الهواء فيُعفنه ويتصل عُفنه إليهم، أو يسيل الماء ويحمل معه العفن، أو يغلو السُّعر، أو يلحق الغلات آفة، أو يدخل على الكباش ونحوها مضرّة أو يلحق الناس خوفٌ عام أو قنوط، وكلُّ واحدٍ من هذه الأسباب يُحدث في أرض مصر مرضًا وإفدًا يكون قوته بمقدار قوة السبب المُحدث له، وإن كان أكثر من سببٍ واحدٍ كان ذلك المرض أشدَّ وأقوى وأسرع في القتل^١.

قال: فيمزاج أرض مصر حارٌّ رطب بالرطوبة الفضلية. وما قرّب من الجنوب بأرض مصر كان أسخن وأقلَّ عُفونة^b في ماء النيل/ بما كان منها في الشمال، ولا سيما من كان في شمال القسطنطينية مثل أهل البشمور^٢، فإن طباعهم أغلظ، والبله عليهم أغلب، وذلك أنهم يستعملون أغذيةً غليظةً جدًا، ويشربون من الماء الرديء. وأمّا الإسكندرية^c وتيس وأمثال هذه، فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد عندهم^d وظهور الصبا فيهم، مما يصلح أمرهم^e ويرق طباعهم ويرفع هممهم، ولا يُعرض لهم ما يُعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع والحمازية. وإحاطة البحر بمدينة تيس، يُوجب غلبة الرطوبة عليها، وتأسيس أخلاق أهلها^٣.

قال: إنه لما كانت أرض مصر وجميع ما فيها، سخيقة الأجسام سريعًا إليها التغير والتعفن، وجب على الطبيب أن يختار من الأغذية والأدوية ما كان قريب العهد حديثًا، لأن قوته بعد باقية

(a) بولاق: بأن. (b) بولاق: عفنا. (c) الأصل وبولاق: سكندرية. (d) بولاق: عنهم. (e) بولاق: أمورهم.

^١ ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٧١-١٧٥. رمزي موقع إقليم البشمور بأنه كان يشمل منطقة الأراضي الزراعية التي تقع اليوم بين فرع دمياط والبحر الصغير بمحافظة الدقهلية: وقد أضيف زمام هذه المنطقة إلى أراضي ناحية دكرنس بمحافظة الدقهلية (محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ١: ٣١-٣٢).

^٢ البشمور، من البلاد المندرسة، وهو اسم كان يطلق قديمًا على إقليم من أخصب أقاليم شرقي الدلتا، ذكر ياقوت أنها كورة قرب دمياط (معجم البلدان ١: ٤٢٨) بينما ذكر ابن دقماق (الانتصار ٥: ٦٩)، والزيدي (تاج العروس، مادة: ب ش م ر) أنها من نواحي الدقهلية. وحدد محمد

^٣ ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٧٩-١٨٠.

- عليه لم تتغير كل التغيير، وأن يجعل علاجه ملائماً لما عليه الأبدان بأرض مصر، ويجتهد في أن يجعل ذلك إلى الجهة المضادة أمثل قليلاً، ويتجنب الأدوية القوية الإسهال وكل ما له قوة مُفْرِطَة. فإن نكايه هذه الأبدان سريعة، سيما وأبدان المصريين سريعة الوقوع في النكايات.
- ويختار ما يكون من الأدوية المسهلة وغيرها ألين قوة، حتى لا يكون على طبيعة المصريين منها كلفة، ولا يلحق أبدانهم مضره، ولا يُقدم على الأدوية الموجودة في كتب أطباء اليونانيين والفرس، فإن أكثرها عملت لأبدان قوية البنية عظيمة الأخلاط، وهذه الأشياء قلما تُوجد بمصر، فلذلك يجب على الطبيب أن يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للمرضى، ويختار ألينها، ويُنقص من مقدار شرباتها، ويُبدل كثيراً منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه، فيتخذ السكنجبين السكري في مقام العسلي، والجلاب بدلاً من ماء العسل.
- واعلم أن هواء مصر يُعمل في المعجونات وسائر الأدوية ضعفاً في قوتها، فأعمار الأدوية المفردة والمركبة المعجون منها وغير المعجون بمصر أقصر من أعمارها في غير مصر، فيحتاج الطبيب بمصر إلى تقدير ذلك وتمييزه حتى لا يشتبه عليه شيء مما يحتاج إليه. وإذا لم يكتف في تنقية البدن بالدواء المسهل دفعة واحدة، فلا بأس بإعادته بعد أيام، فإن ذلك أحمد من إيراد الدواء الشديد القوة في دفعة واحدة^١.
- قال: ولكون أرض مصر تولد في الأجسام سخافةً وسرعة قبول للمرض، وجب أن تكون الأبدان على الهيئة الفاضلة بأرض مصر قليلة جداً، فأما الأبدان الباقية فكثيرة، وأن تكون الصحة التامة عندهم على الأمر الأكثر في القرية من الهيئة الفاضلة.
- والطريق الأولى التي تدبر بها الأبدان في الهيئة الفاضلة يُحتاج فيها بأرض مصر إلى أن يدبر الهواء والغذاء والماء وسائر الأشياء تديراً يصير به في غاية الاعتدال، ولأن الهضم كثيراً ما يشوه بأرض مصر وكذلك الروح الحيواني، فيجب صرف العناية إلى مراعاة أمر القلب والدماغ والكبد والمعدة والغروك والأوراد^٢ وسائر الأغضاء الباطنة، في تجويد الهضم وإصلاح أمر الروح الحيواني وتنظيف الأوساخ اللاججة^٢.

(a) ساقطة من بولاق.

^١ ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٩٩-٢٠٠. ^٢ نفسه ٢٠٣-٢٠٤.

وقال في «شرح كتاب الأربعة لبطلميوس»^١: وأما سائر أجزاء الربع الذي يميل^٢ وَسَطَ جميع الأرض المسكونة أعني بلاد بَرْقَة ، وسواجل البحر من مَرْيوط إلى الإسكندرية ورشيد ودمياط وتيس والفرما ، وأسفل الأرض بمصر ، ونواحي مدينة منف ومدينة القسطنطاط ، وما يلي شرقي النيل من صعيد مصر والفيوم إلى أعلى الصعيد مما في غرب النيل ، وأرض الواحات وأرض الثوبة والبجة ، والأرض التي على البحر في شرقي بلاد الثوبة والحبشة فإن هذه البلاد موضوعة في الزاوية التي تؤثر في جميع الربع الموضوع فيما بين الدبور والجنوب . وهي من جملة النصف الغربي من الربع المعمور ، والكواكب الخمسة المتخيرة تشترك في تديرها . فصار أهلها محبين لله ، ويعظمون الجن ، ويحبون النوح ، ويدفنون موتاهم في الأرض ويخفونهم ، ويستعملون سننًا مختلفة وعادات وآراء شتى لميلهم إلى الأسرار التي تدعو كل طائفة منهم إلى أمر من الأمور الخفية فيعتقده ويوافقه عليه^٣ جماعة .

ومن أجل هذه الأسرار ، كان المستخرج للعلوم الدقيقة كالهندسة والتجوم وغيرها في الزمان الأول ، أهل مصر ومنهم تفرقت في العالم . وإذا ساسهم غيرهم كانوا أذلاء ، والغالب عليهم الجن والاستخذاء في الكلام . وإذا ساسوا غيرهم كانت أنفسهم طيبة وهممهم كثيرة . ورجالهم يتخذون نساء كثيرة ، وكذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال ، وهم منهممكون في الجماع ، ورجالهم كثيرو النسل ، ونساؤهم سريعات الحمل ، وكثير من ذكراهم تكون أنفسهم ضعيفة مؤنثة .

قال أبو الصلت : وأما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفو الأصناف والأجناس ، من قبط وروم وعرب وأكراد وديلم وحبشان [وأزمن]^٤ وغير ذلك من الأصناف ، إلا أن جمهورهم قبط . قالوا : والسبب في اختلاطهم تداول المالكين لها والمتغلبين عليها ، من العمالقة واليونانيين والروم وغيرهم ، فلهذا اختلطت أنسابهم ، واقتصروا من التعريف بأنفسهم على الإشارة إلى مواضعهم والانتماء إلى مساقطهم فيها .

(a) بولاقي : يميل إلى . (b) ساقطة من بولاقي . (c) زيادة من الرسالة المصرية .

^١ هو شرح على كتاب *Quadripartitum de Ptolémée* ، أو المقالات الأربعة لبطلميوس الذي وصل إلينا في ترجمة لاتينية نشرت في البندقية ضمن أوائل المطبوعات العربية ثم نشرت بعد ذلك أكثر من مرة . (Schacht, J., *El² art.*)
^٢ *Ibn Ridwân III*, p. 931 .

وَحُكْمِي أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الزَّمَنِ السَّالِفِ عُبَادَةَ أَصْنَامٍ وَمُدَبَّرِي هَيَاكِلٍ /، إِلَى أَنْ ظَهَرَ دِينُ النَّصْرَانِيَّةِ وَغَلَبَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، فَتَنَصَّرُوا وَبَقُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ، فَأَسْلَمَ بَعْضُهُمْ، وَبَقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ^(a).

وَأَمَّا أَخْلَاقُهُمْ فَالغالبُ عليها اتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ وَالانْهِمَاكُ فِي اللَّذَاتِ، وَالإشْتِغَالُ بِالتُّرَاهَاتِ، وَالتُّضْدِيقُ بِالمَحَالِّاتِ، وَضَعْفُ المَرَاتِرِ وَالعَزَمَاتِ^١. وَلَهُمْ خِيَرَةٌ بِالكَيْدِ وَالمَكْرِ، وَفِيهِمْ بِالفِطْرَةِ قُوَّةٌ عَلَيْهِ وَتَلَطُّفٌ فِيهِ وَهِدَايَةٌ إِلَيْهِ، لَمَّا فِي أَخْلَاقِهِمْ مِنَ المَلَقِ وَالبَشَاشَةِ الَّتِي أَزْبُوا فِيهَا عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ، وَخُصُّوا بِالإِفْرَاطِ فِيهَا دُونَ جَمِيعِ الأُمَمِ، حَتَّى صَارَ أَمْرُهُمْ فِي ذَلِكَ مَشْهُورًا، وَالمَثَلُ بِهِمْ مَضْرُوبًا.

وَفِي خُبْرِهِمْ وَمَكْرِهِمْ يَقُولُ أَبُو نُؤَاسٍ^٢:

١٠ [الطويل]

مَنْخُتِكُمْ^(b) يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي
رَمَاكُمُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ بِحَيَّةِ
فَإِنْ يَكُ بَاقِ إِنْكَ فِرْعَوْنَ فِيكُمْ
أَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحِ بَنِي خَصِيبِ
أَكُولِ لِحْيَاتِ البِلَادِ شَرُوبِ
فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَصِيبِ

قَالَ مُؤَلِّفُهُ: وَقَدْ مَرَّ بِي^(c) قَدِيمًا أَنَّ مَنطِقَةَ الجُوزَاءِ تُسَامِتُ رُؤُوسَ أَهْلِ مِصْرَ، فَلِذَلِكَ يَتَحَدَّثُونَ

بِالأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَيُخْبِرُونَ بِمَا يَكُونُ، وَيُنذِرُونَ بِالأُمُورِ المُسْتَقْبَلَةِ، وَلَهُمْ فِي هَذَا البَابِ أَخْبَارٌ مَشْهُورَةٌ.

قَالَ ابْنُ الطُّوَيْرِ^٣، وَقَدْ ذَكَرَ اسْتِيلاءَ الفِرَنجِ عَلَى مَدِينَةِ صُورَ، فَعَادَ الحِيفُظُ وَالحِرَاسَةُ عَلَى مَدِينَةِ عَشَقْلَانَ، فَمَا زَالَتْ مَحْمِيَّةً بِالأَبْدَالِ المَجْرُودَةِ إِلَيْهَا مِنَ العَسَاكِرِ وَالأَسَاطِيلِ، وَالدَّوْلَةُ تَضَعُفُ أَوَّلًا

(a) بعد ذلك في الرسالة المصرية: ومذهبهم مذهب اليعاقبة. (b) الأصل وبولاق: محضتكم والتصويب من الديوان.

(c) بولاق: لي.

المصري المولد والدار والوفاة. ينتمي إلى نفس طبقة المؤلفين الإداريين الذين أوكلت إليهم وظائف الإشراف العليا على الدواوين الإدارية في مصر أيام الفاطميين والأيوبيين. وهو مؤلف كتاب «نزهة المقلتين في أخبار الدولتين» الذي نقل عنه المقرئ وتوفي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م (انظر دراسة المصادر في مقدمة الكتاب).

^١ أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٣-٢٤.

^٢ نفسه ٣٠-٣١، والأبيات في ديوان أبي نؤاس، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، القاهرة ١٩٥٣، ٤٨٤ يمدح بها الخصب أمير مصر.

^٣ القاضي المرتضى أبو محمد عبد السلام بن الحسن بن عبد السلام بن علي بن أحمد الفهري القيسراني الأصل

فأولاً باختلاف الآراء، فنقلت على الأجناد، وكثير أمرها عندهم، واشتغلوا عنها، فضايقتها الفريج حتى أخذوها في سنة ثمان وأربعين وخمس مائة. ولقد سمعت رجلاً قبل ذلك بسنين يتحدث بهذه الأمور، ويقول: «في سنة ثمان تؤخذ عسقلان بالأمان»^١.

ومن هذا الباب واقعة الكنائس التي للنصارى؛ وذلك أنه لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وسبع مائة، والناس في صلاة الجمعة، كأنما نودي في إقليم مصر كله من قوص إلى الإسكندرية بهدم الكنائس، فهديم في تلك الساعة بهذه المسافة الكبيرة عدد كبير من الكنائس، كما ذكر في موضعه من هذا الكتاب عند ذكر كنائس النصارى^٢.

ومن هذا الباب واقعة الدمر، وذلك أنه خرج الأمير الدمر أمير جندار يريد الحج من القاهرة في سنة ثلاثين وسبع مائة، وكانت فتنة بمكة قتل فيها الدمر يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة، فأشيع في هذا اليوم بعينه في القاهرة ومصر وقلعة الجبل، بأن واقعة كانت بمكة قتل فيها الدمر، فطار هذا الخبر في ريف مصر واشتهر، فلم يكثر الملك الناصر محمد بن قلاوون بهذا الخبر. فلما قديم المبشرون على العادة، أخبروا بالواقعة وقتل الأمير سيف الدين الدمر في ذلك اليوم الذي كانت الإشاعة فيه بالقاهرة^٣.

قال جامع «السيرة الناصرية»^٤: كنت مع الأمير علم الدين الخازن في الغربية وقد خرج إليها كاشفاً فلما صليت أنا وهو صلاة الجمعة وعُدنا إلى البيت، قديم بعض غلمان من القاهرة فأخبرنا أنه أشيع بأن فتنة كانت بمكة قتل فيها جماعة من الأجناد، وقتل فيها الأمير الدمر أمير جندار. فقال له الأمير علم الدين: هل حضر أحد من الحجاز بهذا الخبر؟ قال: لا. فقال: ويحك، الناس ما تحضر من منى بمكة إلا ثالث يوم بعد عيد النحر، فكيف سمعتم هذا الخبر الذي لا يسمعه عاقل؟ فقال: قد استفيض ذلك. وكان الأمر كما أشيع.

سيرة الملك الناصر لموسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المتوفى سنة ١٣٥٨/٥٧٥٩م، والذي اكتشفه بين أجزاء نسخة آياصوفيا من كتاب «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري دونالد ليتل انظر، Little, D., «The Recovery of a Lost Source for Bahri Mamluk History: al-Yusufi's *Nuzhat al-Nâzir fî Sirat al-Malik al-Nâsir*», JAOS 94 (1974), pp. 42-54. حطوط في بيروت وصدر عن عالم الكتب سنة ١٩٨٦، =

^١ ابن الطوير: نزهة المقتلين في أخبار الدولتين ٥، وقارن ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١١٧؛ ابن الأثير: الكامل ١١: ١٨٨؛ ابن ميسر: أخبار مصر ١٤٦؛ النويري: نهاية الأرب ٢٨: ٢٧٢؛ المقرئ: اتعاظ الخفا ٣: ٢٠٤.

^٢ فيما يلي ٢: ٥١٢-٥١٣.

^٣ فيما يلي ٢: ٣٨-٣٩.

^٤ يقصد المقرئ بهذا العنوان كتاب «نزهة الناظر في

وَوَقَعَ لِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ شَهْرِ سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ ، أَنِّي مَرَزْتُ فِي الشَّارِعِ بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ بِالْقَاهِرَةِ بَعْدَ الْعَتَمَةِ ، فَإِذَا الْعَامَّةُ تَتَحَدَّثُ بِأَنَّ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ بَرَقُوقَ خَرَجَ مِنْ سِجْنِهِ بِالكَرْكِ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ؛ فَضَبَطْتُ ذَلِكَ ، فَكَانَ الْيَوْمُ الَّذِي خَرَجَ فِيهِ مِنَ السِّجْنِ . وَفِي هَذَا الْبَابِ مِنْ هَذَا كَثِيرٌ .

٥. وَمِنْ أَخْلَاقِ أَهْلِ مِصْرَ قِلَّةُ الْغَيْرَةِ ؛ وَكَفَاكَ مَا قَصَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ خَبَرِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَمُرَاوَدَةَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَشَهَادَةَ شَاهِدٍ مِنْ أَهْلِهَا عَلَيْهَا بِمَا يَبِينُ لَزُوجِهَا مِنْهَا الشُّؤْمَ ، فَلَمْ يُعَاقِبْهَا عَلَى ذَلِكَ بِسِوَى قَوْلِهِ لَهَا ^(a) : ﴿ اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [الآية ٢٩ سورة يوسف] .

١٠. ^(b) قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَكَانَ نِسَاءُ أَهْلِ مِصْرَ حِينَ غَرِقَ مِنْ غَرِقِ مَنْهُمْ مَعَ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يَتَّقِ إِلَّا الْعَبِيدَ وَالْأَجْرَاءَ لَمْ يَضْرِبُونَ عَنِ الرِّجَالِ ، فَطَفِقَتِ الْمَرْأَةُ تُعْتِقَ عَبْدَهَا وَتَتَزَوَّجَهُ ، وَتَتَزَوَّجَ الْآخَرَ أَجِيرَهَا . وَشَرَطْنَ عَلَى الرِّجَالِ أَلَّا يَفْعَلُوا شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِهِنَّ ، فَأَجَابُوهُنَّ إِلَى ذَلِكَ ، فَكَانَ أَمْرُ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ . فَخَدَّثَنِي ابْنُ لَهَيْعَةَ ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ ، أَنَّ نِسَاءَ الْقِبْطِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ اثْبَاعًا لَمْ مَضَى مِنْهُمْ ، لَا يَبِيعُ أَحَدُهُمْ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا قَالَ : أَشْتَأْمِرُ امْرَأَتِي ^١ .

١٥. وَقَالَ : إِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا غَرِقَ وَمَعَهُ أَشْرَافُ مِصْرَ ، لَمْ يَتَّقِ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْمَمْلَكَةِ ، فَقَدَّ النَّاسُ فِي مَرَاتِبِهِمْ : بَنَتْ الْمَلِكُ مَلِكَةً ، وَبَنَتْ الْوَزِيرُ وَزِيرَةً ، وَبَنَتْ الْوَالِي وَبَنَتْ الْحَاكِمُ عَلَى هَذَا الْحُكْمِ ، وَكَذَلِكَ بَنَاتُ الْقُوَادِ وَالْأَجْنَادِ . فَاسْتَوَلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الْمَمْلَكَةِ مُدَّةَ سِنِينَ ، وَتَزَوَّجْنَ بِالْعَبِيدِ ، وَاشْتَرَطْنَ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْحُكْمَ وَالتَّصَرُّفَ لَهُنَّ ، فَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ . وَلِهَذَا صَارَتِ الْوَأْنُ أَهْلُ مِصْرَ سُخْرًا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ أَوْلَادُ الْعَبِيدِ الشُّوَدِ الَّذِينَ نَكَحُوا نِسَاءَ الْقِبْطِ بَعْدَ الْغَرِقِ وَاسْتَوَلَدُوهُنَّ ^(b) ^٢ .

(a) ساقطة من بولاق . (b-b) هذه الفقرة ساقطة من كثير من مخطوطات الخطط ومن بينها الأصل .

• والجزء المكتشف يشتمل فقط على حوادث السنوات من ٧٣٣ عن ابن عبد الحكم ساقط من الأصل ومن أغلب مخطوطات الخطط المعتمدة على نسخ المقريري ، وقد سبق للمقريري ذكر

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٨ وفيما تقدم ١٠٢ . أول هذا الخبر فيما تقدم ١٠٢ .

^٢ لم أجد هذه الرواية في فتوح مصر ، وكل النص المنقول

/وأخبرني الأمير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد بن الغرابيلي الكزكي^١ - رحمه الله تعالى - أنه منذ سكن مصر يجد من نفسه رياضة في أخلاقه ، وترخصاً لأهله ، ولينا ورقة طبع من قلة الغيرة .

ومما لم نزل نسمعه داعياً^٢ بين الناس أن شرب ماء النيل يُنسي الغريب وطنه .

ومن أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر في العواقب ، فلا تجدهم يدخرون عندهم زاداً كما هي عادة غيرهم من سكان البلدان ، بل يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشياً . ومن أخلاقهم الانهماك في الشهوات ، والإمعان في الملاذ ، وكثرة الاستهتار ، وعدم المبالاة . قال لي شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، رحمه الله : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب^٣ .

وقد روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه سأل كعب الأخبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها ، فقال : إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شيءٍ لشيءٍ ؛ فقال العقل : أنا لاجئ بالشام ، فقالت الفتنه : وأنا معك ! وقال الخصب : أنا لاجئ بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ! وقال الشقاء : أنا لاجئ بالبادية ، فقالت الصحة : وأنا معك ! ويُقال : لما خلق الله الخلق خلق معهم عشرة أخلاق : الإيمان والحياء والتجدة والفتنة والكبر والنفاق والغنى والفقر والذل والشقاء . فقال الإيمان : أنا لاجئ باليمن ، فقال الحياء : وأنا معك ! وقالت التجدة : أنا لاجئة بالشام ، فقالت الفتنه : وأنا معك ! وقال الكبر : أنا لاجئ بالعراق ، فقال النفاق : وأنا معك ! وقال الغنى : أنا لاجئ بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ! وقال الفقر : أنا لاجئ بالبادية ، فقال الشقاء : وأنا معك !^٣

(a) بولاق : دائماً .

^١ المحافظ تاج الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن محمد بن الغرابيلي الكزكي المعروف بابن الغرابيلي المتوفى في جمادى الآخرة سنة ٨٣٥هـ / ١٤٣١م . ودفن في تربة سعيد السعداء ، كانت جنازته مشهودة حضرها ابن الديوري والمحب بن نصر الله والمقرئزي ، وهو من تلاميذ ابن حجر العسقلاني . قال السخاوي : وهو في عقود المقرئزي (ابن حجر : إنباء الفهر ٣ : ٤٨٨ - ٤٨٩ ؛ السخاوي : الضوء اللامع ٩ : ٣٠٦ - ٣٠٨) .

^٢ هذه أحد المرات القليلة التي يروي فيها المقرئزي عن شيخه وأستاذه ابن خلدون .

^٣ قارن مع المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٨٣ - ١٨٤ ؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٥١ .

وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : المَكْرُ عشرة أجزاء : تسعة منها في القِبْطِ ، وواحدٌ في سائر الناس^١ .

ويُقَالُ : أربعةٌ لا تُعْرَفُ في أربعة : السَّخَاءُ في الرُّومِ ، والوَفَاءُ في التُّرْكِ ، والسُّجَاعَةُ في القِبْطِ ، والْعَمُّ^(a) في الزُّنُجِ .

- ٥ . ووَصَفَ ابنُ القَزَّيْنَةِ^(b) أهلَ مِصْرَ فقال : عبيدٌ لمن غلبَ ، أكتيسُ الناسِ صِغَارًا ، وأجهلُهُم كِبَارًا . وقال المَسْعُودِيُّ : لما فَتَحَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ - رضي الله عنه - البلادَ على المسلمين من العِراقِ والشَّامِ ومِصْرَ وغير ذلك ، كَتَبَ إلى حَكِيمٍ من مُحْكَمِي العِصْرِ : «إِنَّا أَنَا سٌ عَرَبٌ قَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْنَا البلادَ ، ونُرِيدُ أَنْ نَتَّبِعَ الأَرْضَ وَنَسْكُنَ البلادَ والأَمْصَارَ ، فَصِيفُ لِي المَدِينِ وَأَهْوِيَّتِهَا وَمَسَاكِينِهَا ، وما تُؤَثِّرُهُ التُّرْبُ والأَهْوِيَّةُ فِي سُكَّانِهَا» ؛ فَكَتَبَ إِلَيْهِ : « . . . وَأَمَّا أَرْضُ مِصْرَ فَأَرْضُ قَوْرَاءَ غَوْرَاءَ ، دِيَارُ الفَرَاغَةِ وَمَسَاكِينِ الجَبَابِرَةِ ، ذَمُّهَا أَكْثَرُ مِنْ مَذْحِهَا ، هَوَاؤُهَا كَدِيرٌ ، وَخَرُّهَا زَائِدٌ ، وَسِرُّهَا بَائِدٌ^(c) ، تُكَدِّرُ الأَلْوَانَ وَالْفِطْنَ ، وَتَرْكِبُ الإِخْنَ . وَهِيَ مَعْدِنُ الذَّهَبِ وَالجَوْهَرِ وَمَغَارِسُ الغَلَّاتِ ، غيرَ أَنَّهَا تُسَمِّنُ الأَبْدَانَ وَتَسْوَدُ الأَبْشَارَ^(d) ، وَتَنَمُو فِيهَا الأَعْمَارُ . وَفِي أَهْلِهَا مَكْرٌ وَرِيَاءٌ وَخُبْثٌ وَذَهَاءٌ وَخَدِيعَةٌ . وَهِيَ بَلَدَةٌ مَكْسَبٌ لَيْسَتْ بَلَدَةٌ مَسْكَنٌ ، لِقَرَادِفِ فِتْنِهَا وَاتِّصَالِ سُورِهَا^٢ .

- ١٥ . وقال عُمَرُ بنُ شَيْبَةَ^٣ بنُ عُبَيْدَةَ^(e) فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ البَصْرَةِ» عَنِ كَعْبِ الأَخْبَارِ : خَيْرُ نِسَاءِ عِلى وَجْهِ الأَرْضِ نِسَاءُ أَهْلِ البَصْرَةِ ، إِلا مَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، وَشَرُّ نِسَاءِ عِلى وَجْهِ الأَرْضِ نِسَاءُ أَهْلِ مِصْرَ .

وقال عبدُ الله بنُ عُمَرَ : ولما أَهْبَطَ إبْلِيسُ ، وَضَعَ قَدَمَهُ بالبَصْرَةِ ، وَفَرَّخَ بِمِصْرَ . وقال كَعْبُ الأَخْبَارِ : ومِصْرُ أَرْضٌ نَجِيسَةٌ كالمِراةِ العاذِلِ ، يُطَهِّرُهَا النِّيلُ كُلَّ عامٍ .

(a) بولاق : العمر . (b) بولاق : العربية . (c) بولاق : وشرها مائد . (d) بولاق : الإنسان . (e) بولاق : وذكر ابن عبيدة .

^١ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٥١ .
^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٧٩ ، ١٨٠ .
^٣ أبو زيد عمر بن شبة النعميري مؤرخ ومحدث من أهل العراق توفي في سامراء سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م . وكتابه أخبار أهل البصرة الذي يشير إليه المقرئ لم يصل إلينا إلا في روايات أوردها الطبري في تاريخه (انظر ابن النديم : الفهرست ١٢٥ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١١ : ٢٠٨ - ٢١٠ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٦ : ٦٠ - ٦٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ : ٤٤٠ ؛ الصفدي : الوافي ٢٢ : ٤٨٨ - ٤٨٩ ، Sezgin, F., GASI, 345) .

وقال معاوية بن أبي سفيان : وَجَدْتُ أَهْلَ مِصْرَ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ : فَثُلُثُ نَاسٍ ، وَثُلُثُ أَشْبَهَ النَّاسِ بِالنَّاسِ^(a) ، وَثُلُثُ لَا نَاسَ . فَأَمَّا الثُّلُثُ الَّذِينَ هُمُ النَّاسُ فَالْعَرَبُ ، وَالثُّلُثُ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ النَّاسَ فَالْمَوَالِي ، وَالثُّلُثُ الَّذِينَ لَا نَاسَ الْمَسَالِمَةَ ، يَعْنِي الْقِبْطَ .

ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ قَضَائِلِ النَّيْلِ^١

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى ، فَإِذَا نَبَقَهَا مِثْلَ قِلَالِ هَجْرٍ ، وَإِذَا وَرَقَهَا مِثْلَ آذَانِ الْفَيْلَةِ . قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيْلُ ؟ قَالَ : هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى . وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ : نَهْرَانِ بَاطِنَانِ ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ . فَقُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيْلُ ؟ قَالَ : أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنَّيْلُ وَالْفُرَاتُ»^٢ .
وَفِي التَّوْرَةِ : وَخَلَقَ فِرْدَوْسًا فِي عَدْنٍ ، وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ فِيهِ ، وَأَخْرَجَ مِنْهُ نَهْرَانِ فَقَسَمَهُمَا أَرْبَعَةَ أَجْزَاءَ : جِيحُونَ الْمُحِيطَ بِأَرْضِ حَوِيلًا ، وَسِيحُونَ الْمُحِيطَ بِأَرْضِ كُوشَ وَهُوَ نَيْلُ مِصْرَ ، وَدِجْلَةَ الْآخِذَ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَالْفُرَاتَ^٣ .

(a) بولاق : يشبه الناس .

BFA-Cairo University III (May 1935), pp. 8-18; Youssouf Kemal, *Monumenta Cartographica Africae et Aegypti*; إبراهيم أحمد رزقانه : «نهر النيل كما ورد في مخطوط معزو إلى ابن سراجيون» ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٢ (مايو ١٩٥٠) ، ١٨٧-١٢٠٤ Abdul-^c Aziz Kamil, «Al-Maqrizi and the Nile Flood, an Analytic and Comparative Study», *BSGE* 39 (1966), pp. 5-24 بشير فيه إلى ما ذكره المقرئ عن النيل في الحطط مقارنا بما أورده عنه في «إغاثة الأمة» ، وانظر كذلك قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٨ ؛ عبد الله يوسف الغنيم : المخطوطات الجغرافية العربية في المكتبة البريطانية ومكتبة جامعة كامبردج ، الكويت ١٩٩٩ ، ٧٥-٧٠ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 215; Kramers, J. H., *El² art. al-Nil VIII*, pp. 38-43

^١ احتل نهر النيل مكانة كبيرة في المكتبة العربية ، وشغل الجغرافيون العرب بمعرفة منابعه ومسلكه حتى مصبه في البحر المتوسط ، وأفردوا له مؤلفات خاصة . ولكن الاكتشاف الحقيقي لأعالي النيل ومنابعه تم في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي على أيدي الرحالة الأوربيين الذين اكتشفوا البحيرات العظمى وحددوا سلسلة جبال Ruwenzovi مع جبل القنتر ، كما يرجع الفضل في اكتشاف جزء كبير من النيل الشرقي إلى الحملة العسكرية المصرية سنة ١٨٢٠-١٨٢٢م حيث أسست مدينة الخرطوم (راجع ، محمد عوض محمد : نهر النيل ، القاهرة ١٩٦٥ ؛ محمد حمدي المناوي : نهر النيل في المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، استقصى فيه ما ورد في المصادر الجغرافية والتاريخية ؛ Kramers, J.H., *El² art. al-Nil VIII*, pp. 38-43; Omar Toussoun, *Mémoire sur l'histoire du Nil*, I-III, *MSAA* le Caire 1925; Guest, R., «The Delta in the Middle Ages», *JRAS* (1912), 941- ; Mazuel, J., «A la recherche des sources du Nil»,

^٢ مسلم : الجامع الصحيح .

^٣ في جميع النسخ وردت جيحون ... وسيحون =

وَرَوَى ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ : نَيْلُ مِصْرَ سَيِّدُ الْأَنْهَارِ ، سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ كُلَّ نَهْرٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُجْرِيَ نَيْلَ مِصْرَ أَمَرَ كُلَّ نَهْرٍ أَنْ يُمِدَّهُ ، فَتَمِدَّهُ الْأَنْهَارُ بِمَائِهَا ، وَفَجَّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَرْضَ غَيُونًا فَأَجْرَتْهُ إِلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِذَا انْتَهت جَرْيَتُهُ أُوحِيَ إِلَى كُلِّ مَاءٍ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عُثْرِهِ .

٥. وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَأَلَ كَعْبَ الْأَخْبَارِ : هَلْ تَجِدُ لِهَذَا النَّيْلِ فِي كِتَابِ اللَّهِ خَبْرًا ؟ قَالَ : إِي وَالَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ لِمُوسَى ، إِنِّي لِأَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ يُوحِي إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّتَيْنِ : يُوحِي إِلَيْهِ عِنْدَ جَرْيَتِهِ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْرِيَ ، فَيَجْرِي مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ، ثُمَّ يُوحِي إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ : يَا نَيْلُ ، عُذِّ حَمِيدًا .

١٠. وَعَنْ كَعْبِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ قَالَ : أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَضَعَهَا اللَّهُ / فِي الدُّنْيَا : النَّيْلُ نَهْرُ الْعَسَلِ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْفُرَاتُ نَهْرُ الْخَمْرِ فِي الْجَنَّةِ ، وَسَيْحَانُ نَهْرُ الْمَاءِ فِي الْجَنَّةِ ، وَجَيْحَانُ نَهْرُ اللَّبَنِ فِي الْجَنَّةِ .^١ وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ : نَهْرُ النَّيْلِ مِنْ سَادَاتِ الْأَنْهَارِ وَأَشْرَافِ الْبِحَارِ ، لِأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَى مَا وَرَدَ بِهِ خَبَرُ الشَّرِيعَةِ .

وقد قالت : إِنَّ النَّيْلَ إِذَا زَادَ غَاضَتْ لَهُ الْأَنْهَارُ وَالْأَعْيُنُ وَالْآبَارُ ، وَإِذَا غَاضَ زَادَتْ ؛ فزِيَادَتُهُ مِنْ غِيضِهَا ، وَغِيضُهَا مِنْ زِيَادَتِهَا وَلَيْسَ فِي أَنْهَارِ الدُّنْيَا نَهْرٌ يُسَمَّى بَحْرًا [وَيْمًا]^٢ غَيْرَ نَيْلِ مِصْرَ لِكِبَرِهِ وَاسْتَبْحَارِهِ .^٢

١٥. وَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ فِي كِتَابِ «غَرِيبِ الْحَدِيثِ» : وَفِي حَدِيثِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «نَهْرَانِ مُؤْمِنَانِ وَنَهْرَانِ كَافِرَانِ ، أَمَّا الْمُؤْمِنَانِ فَالنَّيْلُ وَالْفُرَاتُ ، وَأَمَّا الْكَافِرَانِ فِدِجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخِ» ، إِنَّمَا جَعَلَ النَّيْلَ وَالْفُرَاتَ مُؤْمِنَيْنِ عَلَى التَّشْبِيهِ لِأَنَّهُمَا يَفِيضَانِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَسْقِيَانِ الْحَرْثَ وَالشَّجَرَ ، بَلَا تَعَبٍ فِي ذَلِكَ وَلَا مَثُونَةَ ، وَجَعَلَ دِجْلَةَ وَنَهْرَ بَلْخِ كَافِرَيْنِ لِأَنَّهُمَا لَا يَفِيضَانِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَلَا يَسْقِيَانِ إِلَّا شَيْئًا قَلِيلًا ، وَذَلِكَ الْقَلِيلُ بَتَعَبٍ وَمَثُونَةَ ، فَهَذَانِ فِي الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ كَالْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَانِ فِي قِلَّةِ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ كَالْكَافِرِينَ .^٣

(a) زيادة من المسعودي .

= وأثبت Wiet اعتمادًا على سفر التكوين أن النهرين هما : ٢ : ٣٤٠ .

فيسون وجيحون (نشرة فيت ١ : ٢١٦ هـ^{١٦}) .

^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٦٦ ، ٦٧ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٤٩ - ١٥٠ ، وقارن أبا

^٣ لم أجد هذا الخبر في نشرة غريب الحديث لابن قتيبة ؛

المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٤ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة

وقارن المسعودي ، مروج الذهب ١ : ١١٢ .

ذِكْرُ مَخْرَجِ النَّيْلِ وَاتِّبَاعَاتِهِ

اعْلَمْ أَنَّ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ بِالْمَعْمُورِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ نَهْرُ الْهِنْدِ ، افْتَرَقَ قِطْعًا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَكَانَ مِنْهُ قِطْعَةٌ تُسَمَّى بَحْرَ الزُّنْجِ ، وَهِيَ مِمَّا يَلِي بِلَادَ الْيَمَنِ وَبَحْرَ بَرْبَرٍ . وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ عِدَّةُ جَزَائِرٍ مِنْهَا جَزِيرَةُ الْقَمَرِ (بِضْمِ الْقَافِ وَإِسْكَانِ الْمِيمِ وَرَاءَ مَهْمَلَةٍ) ^١ . وَيُقَالُ لِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَيْضًا جَزِيرَةُ مَلَايَ ، وَطُولُهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ، فِي عَرَضٍ عَشْرِينَ يَوْمًا إِلَى أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ تُحَازِي جَزِيرَةَ سَرَنْدِيبَ ، وَفِيهَا عِدَّةُ بِلَادٍ كَثِيرَةٌ ، مِنْهَا قَمَرِيَّةٌ ، وَإِلَيْهَا يُنْسَبُ الطَّائِرُ الْقَمَرِيُّ .

وَيُقَالُ : إِنَّ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ خَشْبًا يُنْتَحَتُ مِنَ الْخَشْبَةِ سَاقٌ طَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا يَخْدَفُ عَلَى ظَهْرِهِ مِائَةٌ وَسِتُونَ رَجُلًا ، وَإِنَّ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ ضَاقَتْ بِأَهْلِهَا ، فَتَبَتُوا عَلَى السَّاحِلِ مَحَلَّاتٍ يَسْكُنُونَهَا فِي سَفْحِ جَبَلٍ يُعْرَفُ بِهِمْ يُقَالُ لَهُ جَبَلُ الْقَمَرِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْجِبَالَ كُلَّهَا مَتَشَعِّبَةٌ مِنَ الْجَبَلِ الْمُسْتَدِيرِ بِغَالِبِ مَعْمُورِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِـ«جَبَلِ قَافٍ» ، وَهُوَ أَمُّ الْجِبَالِ كُلِّهَا ، تَتَشَعَّبُ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ فِي مَوْضِعٍ وَيَنْقَطِعُ فِي آخَرَ ، وَهُوَ كَالدَّائِرَةِ لَا يُعْرَفُ لَهُ أَوَّلٌ إِذْ كَانَ كَالْحَلْقَةِ الْمُسْتَدِيرَةِ لَا يُعْرَفُ طَرَفَاها ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ اسْتِدَارَةٌ كُرِّيَّةً وَلَكِنَّهَا اسْتِدَارَةٌ إِحَاطَةً .

وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ أُمَّهَاتِ الْجِبَالِ جَبِلَانُ : خَرَجَ أَحَدُهُمَا مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ فِي الْمَغْرِبِ آخِذًا جَنُوبًا ، وَخَرَجَ الْآخَرُ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ آخِذًا شَمَالًا ، حَتَّى تَلَاقِيَا عِنْدَ السُّدِّ ، وَسَمَّوَا الْجَنُوبِيَّ «قَافًا» ، وَسَمَّوَا الشُّمَالِيَّ «قَاقُونًا» . وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ جَبَلٌ وَاحِدٌ وَمُحِيطٌ بِغَالِبِ بَسِيطِ الْمَعْمُورِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُسَمَّى بِجَبَلِ قَافٍ ، فَيُعْرَفُ بِذَلِكَ فِي الْجَنُوبِ وَيُعْرَفُ فِي الشُّمَالِ بِجَبَلِ قَاقُونًا .

وَمَبْدَأُ هَذَا الْجَبَلِ الْمُحِيطِ فِي كَتِفِ السُّدِّ آخِذًا مِنْ وَرَاءِ صَنْمِ الْخَطِّ الْمَحْجُوجِ ^(a) إِلَى شُعْبَتِهِ الْخَارِجَةِ مِنْهُ الْمَعْمُورِ بِهَا بَابُ الصُّينِ آخِذًا عَلَى غَرْبِي صِينِ الصُّينِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ عَلَى جَنُوبِهِ مُسْتَقِيمًا فِي نَهَايَةِ الشَّرْقِ عَلَى جَانِبِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مَعَ الْفُرْجَةِ الْمُتَفَرِّجَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ الدَّاخِلَةِ ، ثُمَّ

(a) بولاق : الخط المشجوج .

^١ ضبطت بعض المصادر جبل القمر حيث منابع النيل فقط بهذا الضبط وأبقيت على ذكر الجبل باسم القمر وضبطه أيضًا بضم القاف وإسكان الميم ، ولكنني آثرت ضبط الجزيرة المعروف .

دائرة الكتب والرسائل القومية
مكتبة مركز تحقيق التراث
التسجيل :
الناشر :
تم

يَنْقَطِعُ عِنْدَ مَخْرَجِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ الْمَحِيطِ مَعَ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ ، حَيْثُ الطُّولُ مِائَةٌ وَسَبْعُونَ دَرَجَةً ، ثُمَّ يَتَّصِلُ مِنْ شُعْبَةِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ الْمَلَاقِي لِشُعْبَةِ الْمَحِيطِ الْخَارِجَةِ إِلَى بَحْرِ الظُّلُمَاتِ مِنَ الشَّرْقِ بِجَنُوبِ كَثِيرٍ مِنْ وَّرَاءِ مَخْرَجِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ . وَتَبْقَى الظُّلُمَاتُ مِنْ هَاتَيْنِ الشُّعْبَتَيْنِ : شُعْبَةُ الْمَحِيطِ الْجَائِيَةِ عَلَى جُنُوبِ الظُّلُمَاتِ شَرْقًا بِغَرْبِ (a) ، وَمَخْرَجِ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ الْجَائِيَةِ عَلَى الظُّلُمَاتِ ، حَتَّى تَتَلَقَّى الشُّعْبَتَانِ عِنْدَ مَخْرَجِ هَذَا الْجَبَلِ كَتَفْصِيلِ الشَّرَاوِيلِ ، ثُمَّ يَنْفَرِجُ بِرَأْسِ الْبَحْرَيْنِ شُعْبَتَانِ عَلَى مَبْدَأِ هَذَا الْجَبَلِ ، وَيَبْقَى الْجَبَلُ بَيْنَهُمَا كَأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ نَفْسِ الْمَاءِ .

وَمَبْدَأُ هَذَا الْجَبَلِ هُنَا وَرَاءَ قُبَّةِ أَرَيْنَ عَنْ شَرْقِيهَا ، وَبُعْدُهُ مِنْهَا خَمْسُ عَشْرَةَ دَرَجَةً . وَيُقَالُ لِهَذَا الْجَبَلِ فِي أَوَّلِهِ الْمَجْرَدُ ، ثُمَّ يَمْتَدُّ حَتَّى يَنْتَهِيَ فِي الْقِسْمِ الْغَرْبِيِّ إِلَى طُولِهِ إِلَى خَمْسِ وَسِتِينَ دَرَجَةً مِنْ أَوَّلِ الْمَغْرِبِ . وَهَنَّاكَ يَتَشَعَّبُ مِنَ الْجَبَلِ الْمَذْكُورِ جَبَلُ الْقَمَرِ ، وَيَنْصَبُ مِنْهُ النَّيْلُ . وَبِهِ أَحْجَارٌ بَرَّاقَةٌ كَالْفِضَّةِ تَتَلَأَأُ تُسَمَّى صَنْجَةَ الْبَاهِبِ (b) ، كُلُّ مَنْ نَظَرَهَا ضَحِكَ وَالتَّصَقَّ بِهَا حَتَّى يَمُوتَ ، وَيَسْمَى مَغْنَاطِيْسُ النَّاسِ ، وَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ شِعْبٌ يُسَمَّى أَسِيفِي ، أَهْلُهُ كَالْوُحُوشِ ، ثُمَّ يَنْفَرِجُ مِنْهُ فُرْجَةٌ ، وَيَمُرُّ مِنْهُ شِعْبٌ إِلَى نَهَايَةِ الْمَغْرِبِ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ يُسَمَّى جَبَلٌ وَخَشِيَّةٌ ، بِهِ سِيْبَاعٌ لَهَا قُرُونٌ طَوَالٌ لَا تُطَاقُ ، وَيَنْعَطِفُ دُونَ تِلْكَ الْفُرْجَةِ مِنْ جَبَلِ قَافِ شِعَابٍ ، مِنْهَا شُعْبَتَانِ إِلَى خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ يَكْتَتِفَانِ مَجْرَى النَّيْلِ مِنَ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ ، فَالشَّرْقِي يُعْرَفُ بِجَبَلِ قَاقُولَا (c) ، وَيَنْقَطِعُ عِنْدَ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ ، وَالْمَغْرِبِي يُعْرَفُ بِأَدْمَدَمَةَ (d) يَجْرِي عَلَيْهِ نَيْلُ السُّودَانَ الْمُسَمَّى بِبَحْرِ الدَّمَادِمِ ، وَيَنْقَطِعُ تَلْقَاءَ مَجَالَاتِ الْحَبْشَةِ مَا بَيْنَ مَدِينَةِ سَمْعَرَةَ وَجِيْمِي وَرَاءَ هَذِهِ الشُّعْبَةِ ، يَمْتَدُّ مِنْهُ شُعْبَةٌ هِيَ الْأُمُّ مِنَ الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ فِيهِ الْجَبَلُ بِأَسِيفِي الْمَذْكُورِ إِلَى خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ ، حَيْثُ الطُّولُ هُنَّاكَ عِشْرُونَ دَرَجَةً ، وَيُعْرَفُ هُنَّاكَ بِجَبَلِ كُوسَقَانَةَ (e) ، وَبِهِ وَحُوشٌ ضَارِيَةٌ .

ثُمَّ يَنْتَهِي إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ وَيَنْقَطِعُ دُونَهُ بِفُرْجَةٍ ، وَذَلِكَ وَرَاءَ التُّكْرُورِ عِنْدَ مَدِينَةِ قَلْتَبُو (f) . وَوَّرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ سُودَانٌ يُقَالُ لَهُمْ تَمْتَمُ يَأْكُلُونَ النَّاسَ . ثُمَّ تَتَّصِلُ الْأُمُّ مِنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ الشَّامِيِّ فِي شِمَالِهِ شَرْقِي رُومِيَةِ الْكُبْرَى مُسَامِتًا لِلشُّعْبَةِ الْمَسْمَاةِ أَدْمَدَمَةَ الْمُنْقَطِعَةَ بَيْنَ سَمْعَرَةَ وَجِيْمِي ، لَا يَكَادُ يَخْطُوهَا حَيْثُ الطُّولُ خَمْسُ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً . وَيَقَعُ مَنْشَأُ اتِّصَالِ هَذِهِ الْأُمِّ عَلَى عَرْضِ خَمْسِينَ دَرَجَةً ، وَكَذَلِكَ تَقَعُ شُعْبَتَا الْآخِذَةِ فِي الْجَنُوبِ عَلَى عَرْضِ خَمْسِينَ دَرَجَةً عِنْدَ آخِرِهَا ، مَا بَيْنَ سِرْدَانِيَّةِ (g) وَبَلْتُسِيَّةِ .

(a) بولاق : مغربا . (b) ضحكة الباهت . (c) بولاق : قاقول . (d) بولاق : بأدمريه . (e) بولاق : كرسفابة . (f) بولاق : قلمتورا . (g) بولاق : سردانة .

وتتأهي وَصَلَة هذه الأم إلى البحر المُحيط في نهاية الشَّمال قُبالة جزيرة بريطانيا^(a)، وتبقى سوسية داخل الجبل . ثم تمدُّ هذه الأم بعد انقطاع لطيف ، وتنعطف مع انعطاف خَرْجَة البحر المحيط في الغرب بشمال على الصُّقْلِب المسماة ببحر الأنقليشين ممتداً إلى غاية المشرق ، ويسمى هناك بجبل قاقونا ، ويبقى ورائه بالبحر الجامدة^(b) لشدة البرد ، ثم ينعطف من الشَّمال إلى المشرق جنوبياً بتغريب إلى كَتِف السدِّ الشمالي ، فيتلاقى هناك الطَّرْفان ، وبينهما في الفُرْجَة المنفرجة ساوى^(c) ذو القرنين بين الصَّدْفَيْن .

وفي جزيرة القمر ثلاثة أنهار : أحدها في شرقها من قنطورا ومغلا ، وثانيها في غربها ينصب من جبل قدام آدم على مدينة سبأ ، ويأخذ ماراً على مدينة فزدر ، وينجر هناك بُحَيْرَة في جنوبها مدينة كيما^(d) حيث محلّ السودان الذين يأكلون الناس ، وثالثها في غربها أيضاً . ويخرج من الجبل المشبه بباء مخدوف^(e) الذيل ، يطوف بمدينة دهمي ، فتبقى مدينة دهمي^(f) بينه وبين البحر الهندي^(g) في جزيرة بينهما يكون هو مُحيطاً بها شرقاً وجنوباً وغرباً ، وتصير لذلك كالجزيرة ، ويتصل شمالها بالبحر الهندي ، وتقع مدينة فورانة^(h) في غربية حيث يصب في البحر الهندي . ومن جبل القمر يخرج نهر النيل ، وقد كان يتبدد على وجه الأرض . فلما قدم نقراس الجبار ابن مصرام الأول بن مراكيل بن دوايل بن غرياب بن آدم - عليه السلام - إلى أرض مصر ومعه عدة من بني غرياب ، واستوطنوها ، وبنوا بها مدينة أمسوس وغيرها من المدائن ، حفروا النيل حتى أجزوا ماءه إليهم ؛ ولم يكن قبل ذلك معتدل الجزوي ، بل يتبطح ويتفرق في الأرض ، حتى وجه إلى الثوبة الملك نقراس [جماعة^(h)] فهندسوه ، وساقوا منه أنهاراً إلى مواضع كثيرة من مدنيهم التي بنوها ، وساقوا منه نهراً إلى مدينة أمسوس⁽ⁱ⁾ .

ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان كانت أيام البودسير بن قفط بن مصر بن يتصر بن حام بن نوح - عليه السلام - عدل جانبي النيل تعديلاً ثانياً بعد ما أتلفه الطوفان .

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه : فملك البودسير وتجبر ، وهو أول من تكهن وعمل بالسحر واحتجب عن العيون . وقد كانت أعمامه أشمن وأثريب وصا ملوكاً على أحيارهم ، إلا

(a) بولاق : بركانية . (b) بولاق : البحر حامداً . (c) بولاق : سوى . (d) بولاق : كيما . (e) بولاق : ماء محدودب . (f-f) ساقطة من بولاق . (g) بولاق : قواره . (h) إضافة مما تقدم ١ : ١٩ .

أَنَّهُ قَهَرَهُمْ بِجَبْرُوتِهِ وَقُوَّتِهِ فَكَانَ الذُّكْرُ لَهُ ، كَمَا تَجَبَّرَ عَلَيْهِمْ^(a) أَبُوهُ مِنْ قَبْلِهِ لِأَنَّهُ كَانَ أَكْبَرَهِمْ ، وَلِذَلِكَ أَغْضَبُوا عَنْهُ .

فَيُقَالُ إِنَّهُ أَرْسَلَ هِرْمِسَ الْكَاهِنَ الْمِصْرِيَّ إِلَى جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي يَخْرُجُ النَّيْلُ مِنْ تَحْتِهِ حَتَّى عَمِلَ هُنَاكَ هَيْكَلًا^(a) التَّمَائِيلِ النَّحَاسِ ، وَعَدَلَ الْبَطِيحَةَ الَّتِي يَنْصَبُ إِلَيْهَا مَاءُ النَّيْلِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ الَّذِي عَدَلَ جَانِبِي النَّيْلِ ، وَقَدْ كَانَ يَفِيضُ ، وَرَبَّمَا انْقَطَعَ فِي مَوَاضِعٍ^١ .

وَهَذَا الْقَصْرُ الَّذِي فِيهِ تَمَائِيلُ النَّحَاسِ يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسٍ وَثَمَانِينَ صُورَةً ، جَعَلَهَا هِرْمِسُ جَامِعَةً لَمَّا يَخْرُجُ مِنْ مَاءِ النَّيْلِ بِمَعَاقِدِ وَمَصَابِ مُدْبِرَةٍ^(b) ، وَقَنَوَاتٍ يَجْرِي فِيهَا الْمَاءُ ، وَيَنْصَبُ إِلَيْهَا إِذَا خَرَجَ مِنْ تَحْتِ جَبَلِ الْقَمَرِ ، حَتَّى يَدْخُلَ مِنْ تِلْكَ الصُّورِ وَيَخْرُجُ مِنْ حُلُوقِهَا وَجَعَلَ لَهَا قِيَاسًا^(c) مَقْلُومًا بِمَقَاطِعِ وَأَذْرَعٍ مُقَدَّرَةٍ ، وَجَعَلَ مَا يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الصُّورِ مِنَ الْمَاءِ يَنْصَبُ إِلَى الْأَنْهَارِ ، ثُمَّ يَصِيرُ مِنْهَا إِلَى بَطِيحَتَيْنِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهُمَا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْبَطِيحَةِ الْجَامِعَةِ لِلْمَاءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ تَحْتَ الْجَبَلِ .

وَعَمَلُ لَتِلْكَ الصُّورِ مَقَادِيرُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ الصَّلَاحُ بِأَرْضِ مِصْرَ وَيَنْتَفِعُ بِهِ أَهْلُهَا دُونَ الْفَسَادِ ، وَذَلِكَ الْإِتِّهَاءُ الْمُضْلِحُ ثَمَانِيَةَ عَشْرٍ ذِرَاعًا بِالذُّرَاعِ الَّذِي مَقْدَارُهُ اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ أَصْبُعًا ، وَمَا فَضَّلَ عَنْ ذَلِكَ عُدْلَ [بِه]^(d) عَنْ يَمِينِ تِلْكَ الصُّورِ وَشِمَالِهَا إِلَى مَسَارِبٍ يَخْرُجُ وَيَنْصَبُ فِي رِمَالٍ وَغِيَاضٍ لَا يُنْتَفَعُ بِهَا مِنْ خَلْفِ نَخَطِ الْاسْتِوَاءِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفَرَّقَ مَاءُ النَّيْلِ الْبُلْدَانَ الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْهَا^٢ .

قَالَ : وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ دَوْمَغِ الْعَمَلِيْقِي قَدْ خَرَجَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ يَنْتَقِلُ فِي الْبُلْدَانِ وَيَقْهَرُ مُلُوكَهَا لِيَسْكُنَ مَا يُوَافِقُهُ مِنْهَا ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى الشَّامِ انْتَهَى إِلَيْهِ حَبْرٌ مِصْرِيٌّ وَعِظَمَ قَدْرَهَا ، وَأَنَّ أَمْرَهَا قَدْ صَارَ إِلَى النِّسَاءِ وَبَادَ مُلُوكُهَا ، فَوَجَّهَ غُلَامًا لَهُ يُقَالُ لَهُ عَوْنٌ إِلَى مِصْرَ ، وَسَارَ إِلَيْهَا بَعْدَهُ وَاسْتَبَاحَ أَهْلَهَا ، وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ ، وَقَتَلَ جَمَاعَةً مِنْ كَهَنَتِهَا .

ثُمَّ سَنَّحَ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ لِيَقِفَ عَلَى مَصَبِ النَّيْلِ فَيَعْرِفَ مَا بِنَاحِيَتِهِ^(e) مِنَ الْأُمَمِ ، فَأَقَامَ ثَلَاثَ سِنِينَ يَسْتَعِدُّ لَخُرُوجِهِ ، وَخَرَجَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ^(f) ، فَلَمْ يَمُرَّ بِأُمَّةٍ إِلَّا أَبَادَهَا ، وَمَرَّ عَلَى أُمَّةٍ السُّودَانِ

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : مدورة . (c) بولاق : قماش . (d) إضافة من المسعودي . (e) بولاق : بحافته . (f) بولاق : عظيم .

^١ النويري : نهاية الأرب ٤٩:١٥ ، وقارن مع ^٢ هذا النص موجود عند المسعودي : أخبار الزمان المسعودي : أخبار الزمان ١٠٦-١٠٧ .

وجاوزهم ، ومَرَّ على أرض الذهب فرأى فيها قُضبانًا نابتة من ذهب .

ولم يَزَلْ يسير حتى بَلَغَ البَطِيخَةَ التي يَنْصَبُ ماءُ النَّيْلِ فيها من الأنهار التي تَخْرُجُ من تحت جَبَلِ القَمَرِ ، وسارَ حتى بَلَغَ هَيْكَلَ الشَّمْسِ وتجاوزَه حتى بَلَغَ جَبَلِ القَمَرِ ، وهو جَبَلٌ عالٍ ، وإنما سُمِّيَ جَبَلِ القَمَرِ لأنَّ القَمَرَ لا يَطَّلِعُ عليه لأنَّه خارجٌ من تحت خَطِّ الاستواء^١ .

وَنَظَرَ إلى النَّيْلِ يَخْرُجُ من تحته فَيَمُرُّ في طَرِيقِ كَانَّها رِقاق^٢ حتى ينتهي إلى حَظِيرَتَيْنِ ، ثم يَخْرُجُ منهما في نَهْرَيْنِ حتى ينتهي إلى حَظِيرَةٍ أُخرى ، فإذا جازَ^٣ خَطَّ الاستواءِ أَمَدَّهُ/ عَيْنُ تَخْرُجُ من ناحية نَهْرٍ مَهْران^٤ بالهند ، وتلك العَيْنُ أيضًا تَخْرُجُ من تحت جَبَلِ القَمَرِ إلى ذلك الوَجْهِ . ويُقالُ إنَّ نَهْرَ مَهْران^٥ مثل النَّيْلِ يزيدُ وَيَنْقُصُ ، وفيه التَّماسيحُ والأَسماكُ التي مثلُ أسماكِ النَّيْلِ . ووَجَدَ الوليدُ بنَ دُوْمَغِ القَصْرِ الذي فيه التَّمائيلُ النُّحاسُ التي عَمِلَها هِرْمِسُ الأوَّلُ في وَقتِ البُودَسِيرِ بنِ قُطَيرِمْ بنِ قُبطِيمِ بنِ مِصْرَيمِ^٦ .

وقد ذَكَرَ قَوْمٌ من أَهْلِ الأَثَرِ أنَّ الأنهارَ الأربعةَ تَخْرُجُ من أَصْلِ واحدٍ من قُبَّةِ في أرضِ الذهبِ التي من وَرَاءِ البَحْرِ المَظْلِمِ ، وهي سَيْنُحُونُ وجَيْحُونُ والفُراتُ والنَّيْلُ ، وأنَّ تلكَ الأرضُ من أرضِ الجَنَّةِ ، وأنَّ تلكَ القُبَّةُ من زَبْرُجَدٍ ، وأنها قَبْلُ أن تَسْلُكَ البَحْرَ المَظْلِمَ أُحْلَى من العَسَلِ وأطيبِ رَائِحَةٍ من الكافورِ ؛ ومَن جاءَ بهذا رَجُلٌ من وُلْدِ العِيصِ بنِ إِسْحاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ عليهما السَّلَامُ وَصَلَ إلى تلكَ القُبَّةِ ، وقَطَعَ البَحْرَ المَظْلِمَ ، وكان يُقالُ له حائِدٌ^٧ .

وقال آخرونَ : تَنقَسِمُ هذه الأنهارُ على اثنينِ وسبعينَ قِسْمًا حِذاءَ اثنينِ وسبعينَ لِسَانًا للأُتَمِّ ؛ وقال آخرونَ : هذه الأنهارُ من ثُلُوجِ تَتَكَاثَفُ ، ويُذِيبُها الحَرُّ فَتَسِيلُ إلى هذه الأنهارِ ، وتَسْقِي من عليها ، لما يُريدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من تَذْيِيرِ خَلْقِهِ ؛ قالوا : ولما بَلَغَ الوليدُ جَبَلِ القَمَرِ ، رأى جَبَلًا عالِيًا فَعَمِلَ حِيلَةً إلى أن صَعِدَ إليه لَيَرَى ما خَلَفَهُ ، فَأَشْرَفَ على البَحْرِ الأَسْوَدِ الرُّفْتِيِّ المُنْتِنِ ، ونَظَرَ إلى النَّيْلِ يَجْرِي عليه كالأنهارِ الرِّقاقِ ، فَأَتَتْهُ من ذلكَ البَحْرِ رَوَائِحُ مُنْتِنَةٌ هَلَكُ كثيرٌ من أَصحابِهِ من

(a) بولاق : وأنهار دقاق . (b) بولاق : جاوز . (c) في جميع النسخ مكران وصوبها فبست إلى مهران .

^١ يتفق النص مع ما نقله النويري عن ابن وصيف شاه في نهاية الأرب ١٥ : ١١٤ ، وقارن كذلك مع المسعودي : أخبار الزمان ١١٣-١١٢ .
^٢ المسعودي : أخبار الزمان ١١٣ وقارن مع النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١١٥ .
^٣ يوجد هذا النص عند المسعودي : أخبار الزمان ٢١٤ .

أجلها ، فأَسْرَعَ التُّزُولَ بعد أن كَادَ يَهْلِكُ . وَذَكَرَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا هُنَاكَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا ، إِلَّا نُورًا أَحْمَرَ كَنُورِ الشَّمْسِ عِنْدَ غِيَابِهَا ^١ .

وَأَمَّا مَا ذَكَرَ عَنْ حَائِدٍ وَقَطَعِهِ الْبَحْرَ الْمُظْلِمَ مَا شِئًا عَلَيْهِ لَا يَلْصِقُ بِقَدَمِهِ مِنْهُ شَيْءٌ وَكَانَ فِيمَا يُذَكَّرُ نَبِيًّا ، وَأُوتِيَ حِكْمَةً ، وَأَنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُرِيَهُ مُنْتَهَى النَّيْلِ فَأَعْطَاهُ قُوَّةً عَلَى ذَلِكَ فَيُقَالُ إِنَّهُ أَقَامَ يَمْشِي عَلَيْهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً فِي عُمُرَانِ ، وَعِشْرِينَ سَنَةً فِي خَرَابٍ ^٢ .

قَالُوا : وَأَقَامَ الْوَلِيدُ فِي غَيْبَتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ^٣ ، وَعَادَ وَدَخَلَ مَنْفَ ، فَأَقَامَ بِمِصْرَ فَاسْتَعْبَدَ أَهْلَهَا ، وَاسْتَبَاحَ خَرِيمَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَمَلَكَهُمْ مِائَةَ وَعِشْرِينَ سَنَةً فَأَبْغَضُوهُ وَسَيَّمُوهُ ، إِلَى أَنْ رَكِبَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ مُتَصَيِّدًا ، فَأَلْقَاهُ فَرَسُهُ فِي وَهْدَةٍ فَقَتَلَهُ ، وَاسْتَرَاحَ النَّاسُ مِنْهُ ^٤ .

وَقَالَ قَدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي كِتَابِ «الْخَرَجِ» : انْبِعَاثُ النَّيْلِ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ وَرَاءَ حَظِّ الاسْتِوَاءِ مِنْ عَيْنِ تَجْرِي مِنْهَا عَشْرَةُ أَنْهَارٍ ، كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا تَصُبُّ إِلَى بَطِيحَةٍ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ كُلِّ بَطِيحَةٍ نَهْرَانِ ، وَتَجْرِي الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ إِلَى بَطِيحَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْبَطِيحَةِ يَخْرُجُ نَهْرُ النَّيْلِ .

وَقَالَ فِي كِتَابِ «نُزْهَةِ الْمُشْتَقِ فِي اخْتِرَاقِ الْآفَاقِ» ^(a) : إِنَّ هَذِهِ الْبَحِيرَةَ تُسَمَّى بِبَحِيرَةِ كُورِي مَنْسُوبَةً لَطَائِفَةٍ مِنَ السُّودَانِ يَسْكُنُونَ حَوْلَهَا مُتَوَحِّشِينَ يَأْكُلُونَ مَنْ وَقَعَ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّاسِ . وَمِنْ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ يَخْرُجُ لَهُمْ نَهْرٌ غَانَةٌ وَبَحْرٌ الْحَبَشَةِ ، فَإِذَا خَرَجَ النَّيْلُ مِنْهَا يَسْقِي بِلَادَ كُورِي وَبِلَادَ يَنَةَ ، وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ السُّودَانِ بَيْنَ كَانِمِ وَالثُّوبَةِ . فَإِذَا بَلَغَ دُمُقْلَةَ مَدِينَةَ الثُّوبَةِ عَطَفَ مِنْ غَرْبِهَا وَانْتَحَدَرَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّانِي ، فَيَكُونُ عَلَى شَطِئِهِ عِمَارَةُ الثُّوبَةِ ، وَفِيهِ هُنَاكَ جَزَائِرٌ مُتَسِعَةٌ عَامِرَةٌ بِالْمُدُنِ وَالْقُرَى ، ثُمَّ يَشْرُقُ إِلَى الْجَنَادِلِ ^٦ .

وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : رَأَيْتُ فِي كِتَابِ «جُغْرَافِيَا النَّيْلِ» مُصَوَّرًا ظَاهِرًا مِنْ تَحْتِ جَبَلِ الْقَمَرِ ، وَمَنْبَعُهُ وَمَبْدَأُ ظُهُورِهِ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا ، فَتَصُبُّ تِلْكَ الْمِيَاهُ إِلَى بَحِيرَتَيْنِ هُنَاكَ

(a) الأصل : إلى اختراع ، بولاق : إلى اختراق .

^١ يتفق النص مع المسعودي : أخبار الزمان ٢١٨ وقارن مع النويري : نهاية الأرب ١١٥:١٥ ومصدره فيه ابن وصيف شاه ؛ مجهول المؤلف : الاستبصار ٤٥ ، ٧٣ .
^٢ تلخيص لما ورد عند المسعودي : أخبار الزمان ٢١٤-٢١٧ .
^٣ المسعودي : أخبار الزمان ٢١٨ .
^٤ المسعودي : أخبار الزمان ٢٢٣ ؛ النويري : نهاية الأرب ١١٩:١٥ نقلًا عن ابن وصيف شاه .
^٥ من هنا يتفق المقرئ مع النويري : نهاية الأرب ١: ٢٦٢ وكتاب الخراج لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي المتوفى سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م نشر قسم منه نشره دي خويه De Goege في القسم السادس من المكتبة الجغرافية ليدن ١٨٩٢ .
^٦ النويري : نهاية الأرب ١: ٢٦٢ ، ولا يوجد هذا =

كالبطائح ، ثم يجتمع الماء منها جارياً فيمر برمال هنالك وجبال ، ويخرق أرض السودان فيما يلي بلاد الزنج ، فيتشعب منه خليج يصب في بحر الزنج ويجري على وجه الأرض تسع مائة فرسخ وقيل ألف فرسخ في عامر وغامر من عمران وخراب ، حتى يأتي أسوان من صعيد مصر .^١

وقال في كتاب هروشيوش : نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم ، ثم يميل إلى ناحية الغرب ، فيصير في وسطه جزيرة ، وآخر ذلك يميل إلى ناحية الشمال فيسقي أرض مصر . وقيل إن مخرجه من عين فيما يجاوز الجبل ، ثم يغيب في الرمال ، ثم يخرج غير بعيد فيصير له محبس عظيم ، ثم يسير البحر المحيط على قفار الحبشة ، ثم يميل على اليسار إلى أرض مصر ، فيحق ما يُظن بهذا النهر أنه عظيم ، إذ كان مجراه على ما حكيتاه .

قال : ونهر النيل وهو الذي يُسمى بأون^(a) مخرجه خفي ، ولكن ظاهر إقباله من أرض الحبشة ، ويصير له هناك محبس عظيم مجراه إليه مائتا ميل . وذكر مخرجه حتى ينتهي إلى البحر .

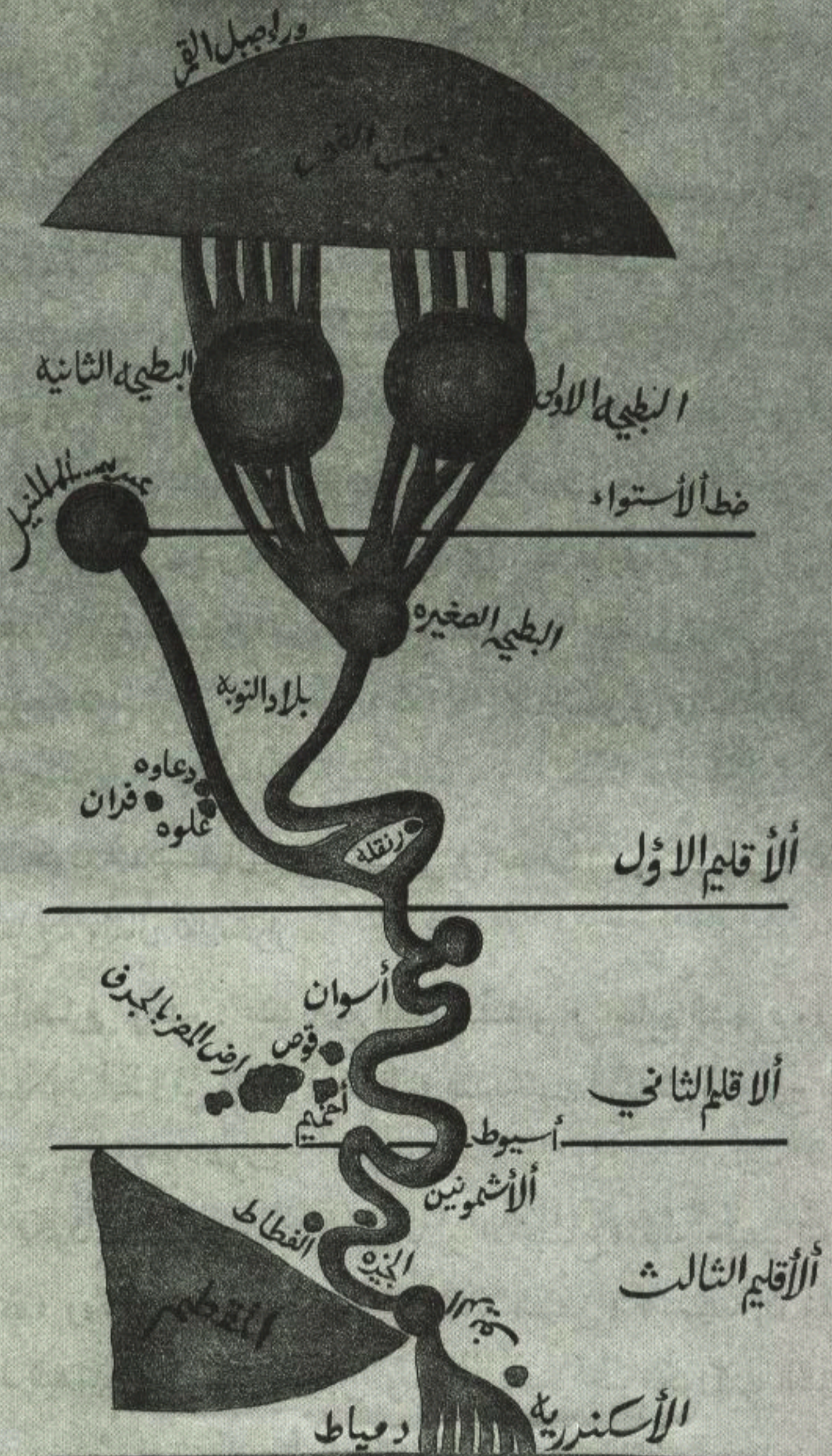
قال : وكثيراً ما يوجد في نهر النيل التماسيح ، وإقبال النيل من أرض الحبشة ليس يختلف فيه أحد ، وعدة أمياله من مخرجه المعروف إلى موقفه مائة ألف وتسعون ألفاً وتسع مائة وثلاثون ميلاً . وماء النيل عكز مرمل عذب دفي^٢ . انتهى .

والنيل إذا وصل إلى الجنادل كان عند انتهاء مراكب التوبة انحداراً ، ومراكب الصعيد إقلاعاً . وهناك حجارة مضرسة لا مرور للمراكب عليها إلا في أيام زيادة النيل ، ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرقه أسوان من الصعيد الأعلى ، ويمر بين جبلين يكتنفان أعمال مصر : أحدهما شرقي ، والآخر غربي ، حتى يأتي مدينة فسطاط مصر فيكون في بزه الشرقي . فإذا تجاوز فسطاط مصر بمسافة يوم ، صار فرقتين : فرقة تمر حتى تصب في بحر الروم عند دمياط ، وتسمى هذه

(a) الأصل : بارون .

^١ المسعودي : مروج الذهب ١ : ١١٢ ، ١١٤ .
^٢ أوروبوس : تاريخ العالم ٦١ - ٦٢ ، ٧٩ - ٨١ .
 ومقدمة عبد الرحمن بدوي ٢٨ - ٢٩ حيث قارن بين نص المقرئ والأصل اللاتيني لبيان دقة الترجمة وصحة النقل .
 = النص فيما وصل إلينا من كتاب «نزهة المشتاق» للإدرسي ، فلم يرجع المقرئ مباشرة إلى كتاب «نزهة المشتاق» وإنما اقتبس ما نقله النويري في نهاية الأرب ، وانظر كذلك نفس النص عند السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ٣٤٦ - ٣٤٧ (نقلًا عن مباحج الفكر للوطواط الكتبي) .

ذِكْرُ مَخْرَجِ النَّيْلِ وَاتِّبَاعَاتِهِ



شكل ١ - خريطة معجزي النيل للخوارزمي (عن عمر طوسون)

الفرقة بحر الشرق ، والفرقة الأخرى هي عمود النيل ومعظمه ، يُقال لها بحر الغروب ، ثم حتى تُصَبَّ في بحر الروم أيضًا عند رشيد ، وكانت مدينة كبيرة في قديم الزمان .

ويُقال : إن مسافة النيل من منبعه إلى أن يُصَبَّ في البحر عند رشيد سبع مائة وثمانية وأربعون فرسخًا ، وإنه يجري في الخراب أربعة أشهر ، وفي بلاد السودان شهرين ، وفي بلاد الإسلام مسافة شهر .

وذهب بعضهم إلى أن زيادة ماء النيل إنما تكون بسبب المد الذي يكون في البحر ، فإذا فاض ماؤه تراجع النيل وفاض على الأراضي ، ووضع في ذلك كتاب حاصله أن حركة البحر التي يُقال لها المد والجزر تُوجد في كل يوم وليلة مرتين ، وفي كل شهر قمرين مرتين ، وفي كل سنة مرتين . فالمد والجزر اليومي تابع لقرص القمر ، ومخرج الشعاعي^(a) عنه من جنبتي جزم الماء ، فإذا كان القمر وسط السماء كان البحر في غاية المد ، وكذا إذا كان القمر في وتد الأرض ، فإذا برع القمر طالعا من الشرق أو غرب ، كان الجزر .

والمد الشهري يكون عند استقبال القمر للشمس في نصف الشهر ، ويُقال له الامتلاء ويكون^(b) أيضًا عند الاجتماع ، ويُقال له السرار .

والجزر يكون أيضًا في وقتين : عند تربع القمر للشمس في سابع الشهر ، وفي ثاني عشره . والمد السنوي يكون أيضًا في وقتين : أحدهما عند حلول الشمس آخر بوج السنبلة ، والآخر عند حلول الشمس بأخر بوج الحوت .

فإن اتفق أن يكون ذلك في وقت الامتلاء أو الاجتماع ، فإنه حينئذ يجتمع الامتلاءان الشهري والسنوي ، ويكون عند ذلك البحر في غاية الفيض ، لا سيما إن وقع الاجتماع أو الامتلاء في وسط السماء ، ووقع مع النيرين أو مع أحدهما أحد الكواكب السيارة ، فإنه يعظم الفيض . فإن وقع كوكب فصاعداً مع أحد النيرين تزايد عظم الفيض ، وكانت زيادة النيل تلك السنة عظيمة جدًا ، وزاد أيضًا نهر مهران .

فإن كان الاجتماع أو الامتلاء زائلاً عن وسط السماء ، وليس مع أحد النيرين كوكب ، فإن النيل ونهر مهران لا يتلغان غاية زيادتهما لعدم الأتوار التي تُثير المياه ، ويكون بمصر في تلك السنة الغلاء .

(a) بولاق : ويخرج الشعاع . (b) ساقط من بولاق .

والجزر السنوي يكون عند^a حلول الشمس برأسي الجدي والسرطان .

فأما المد اليومي الدافع من البحر المحيط ، فإنه لا ينتهي في البحر الخارج من المحيط أكثر من درجة واحدة فلكية ، ومساحتها من الأرض نحو من ستين ميلاً ثم يتصرف ، وانصرافه هو الجزر . وكذلك الأودية إذا كانت الأرض وهذه .

والمد الشهري ينتهي إلى أقاصي البحار ، وهو يمسكها حتى لا تنصب في البحر المحيط ، وحيث ينتهي المد الشهري فهناك منتهى ذلك البحر وطرفه .

وأما المد السنوي فإنه يزيد في البحار الخارجة عن البحر المحيط زيادة يئنة ، ومن هذه الزيادة تكون زيادة النيل وامتلاؤه وامتلاء نهر مهران والديتلو الذي ببلاد السند .

قال : ولما جاء أرسطو إلى مصر مع الإسكندر ، ورأى مصب النيل ، وعلم أنه^b من المحال أن يكون النيل في أسوان واد من الأودية ، وما^c أشحل اتسع حتى إن عرضه في أسفل ديار مصر لينتهي إلى مائة ميل عند غاية الفيض ، وله أفواه كثيرة شارعة في البحر تسع كل ما يهبط من الميزان في ذلك الصنع ، فرأى محالاً أن يكون الوادي بحيث يضيق أسفله عن حمل ما يأتي به أعلاه ، مع ضيق أعلاه وسعه أسفله . فلما رأى ذلك قال : إن رياحا^d تستقبل جزية الماء وتردعه فيفيض لذلك .

وقال الإسكندر الأفروديسي^e : إن من المحال أن يكون الريح يردع الماء السائل في الوادي حتى يفيض أكثر من مائة ميل ، ولو كانت الريح تفعل ذلك لكان الماء ينقل من أسفل الوادي ويسيل إلى البحر ، لأن البحر لا يمسك إلا أعلاه ، ولكن الرياح تقذف الرمل في أفواه تلك الشوارع التي تفضي إلى البحر ، فيغتربها شبه الردم ، فيفيض .

قال : وأغفل أن الرمل جسم متخلخل فالماء يتخلله ويؤفده سائلاً إلى البحر ، مع أن الرمل لم يغفل اغتلاء يظهر للحس ، والماء سائل في كل حين على خلق تيس ودمياط وخلق رشيد وخلق الإسكندرية ، ففطنوا لاستحالة كونه سائلاً عن سئل حامل ، ونسبوا توقفه إلى الريح والرمل . وهم استقصوا الهواء واستقصوا الأرض ، وأغفلوا الاستقصاء الثالث الذي هو الماء ، لأنهم لم يعرفوا حركة البحر السنوية لأنها لا تبلغ الغاية إلا في ثلاثة أشهر ، فلا يظهر مقدار صعودها في كل يوم للحس ، ولذلك وضع أمير مصر المقياس بديار مصر .

(a) ساقطة من الأصل . (b) بولاق : أن . (c) بولاق : وكلما . (d) الأصل : رباط . (e) ساقطة من الأصل .

قال: والمد كله واحد، وهو أن القمر يُقابل الماء كما تُقابل الشمس الأرض. فنور القمر إذا قابل كرة الأرض سخنها، كما تُسخن الشمس الهواء المحيط، فيغترى الهواء المحيط بالماء بعض تسخين يُذيب الماء، فيفيض وينمى بخاصته، كالمرآة المحرقة الملهبة للجو حتى تحرق القطنة الموضوعه بين المرآة والشمس؛ فهذا مثاله في المقابلة.

ومثاله في المسرار كون الزجاج المملوء ماءً يلقى الشعاع إلى حلقها فتحترق القطنة أيضًا، فالقمر جسم نُوري باكتسابه ذلك من الشمس، فإذا حال بين الشمس والأرض خرج عن جانبي الماء شعاع نافذ يمر مع جنبي الماء فيسخن ما قابله فيتمو، والماء جسم شفاف عن جانبيه/ يخرج الشعاع كما يخرج عن جانبي الزجاج، فيتحدث لها نور يُسخن الهواء الذي يُحيط بالزجاج أو بالأرض، فيغترى الماء شبه تسخين ينمى به ويريد، وذلك قبالة القرص، وقبالة مخرج الشعاع من قبالة وتد القمر. فهذا هو المد دائمًا، ويستدير باستدارة الفلك وتدويره لفلك القمر، وتدوير فلك القمر للقمر.

والمد الشهري هو أن يُقابل القمر الشمس أو يستتر تحتها، لأنه ليس إلا كون القمر قبالة الشمس، لكونه في تزويج الشمس أضعف، وفي المقابلة أقوى. وكذلك إذا قابلها على وسط كرة الأرض، بحيث تكون الحركة أشد، والاكْتِناف للماء والأرض أعم، فذلك هو المد السنوي.

فصل في الرد على من اختلف أن النيل من سيل يفيض

أما العامة فليس عندهم ما يجيء على وجه الأرض أنه سيل، ومن تفتن إلى عظيمه واتساعه في أسفله وضيقه في أعلاه، ولم ينظر إلى ماء ولا أرض ولا هواء، نسب ذلك إلى الخيال المحض، كما فعل صاحب كتاب «المسالك والممالك»^١ الذي زعم أن الماء يسافر من كل أرض وموطن إلى النيل تحت الأرض فيمده، لأن النيل إنما يفيض في الخريف، والعيون والآبار في ذلك الوقت يقل ماؤها، والنيل يكثر، فرأوا كثرة وقلة فأضافوا أحدهما إلى الآخر بالخيال.

^١ لم يحدد المقرئ هنا مؤلف كتاب «المسالك والممالك» المقصود، ولم أجد بدوري هذا النص وما ينقله منه للإصطخري أو ابن خرداذبة أو ابن حوقل أو البكري، سواء

(a) وقال آخر: إنما ذلك ملك يضع رجله في الماء فيكثر ويزيله من الماء فيقل (a).

ومما يدل على أنه ليس عن سبيل يفيض أن السبيل يكون في غير وقت فيض البحر، ولا يفيض النيل لكون البحر في الجزر، فيصل السبيل ويمر نحو البحر فلا يزدعه رادع.

ومنها أن فيض النيل على تدرج مدة ثلاثة أشهر من حلول الشمس رأس السرطان إلى حلولها بأخر برج السنبلة، والناس يحسبون به قبل فيضه بمدة شهرين. ولعامل مصر في وسط النيل مقياس موضوع، وهو سارية فيها خطوط يُسَمُّونها أذرعًا يُعلم بها مقدار صعوده في كل يوم.

ومنها أن فيضه أبدًا في وقت واحد، فلو كان بالسبيل لاختلف بعض الاختلاف.

ومنها أنه قد يجيء السبيل في غير هذا الوقت فلا يفيض.

ومنها أن الحدائق بمصر إذا رأوا الحر يزيد، علموا أن النيل يزيد (b)، لأن شدة الحر تذيب الهواء

فيذوب الماء، ولا يكون إلا عن زيادة كوكب ودنو نور.

ومنها أن موضع مصبه من أسوان إنما هو واد من الأودية، وما أسحل اتسع حتى يكون عرض

أوسع نحو من مائة ميل، وأسوان هو منتهى بلوغ الرذع، فما ظنك بسبيل مسيره نصف شهر،

لا نسبة بين مصب أعلاه وأسفله، كيف كان يكون أعلاه لو كان امتلاء أسفله عن السبيل؟

ومنها أن أهل أسوان إنما يرقبون بلوغ الرذع إليهم مراقبة، ويحافظون عليه بالنهار مُحَافِظَةً،

فإذا جن الليل أخذوا حقة خزف فوضعوها فيها مضباحًا، ثم وضعوه (c) على حجر مُعَدَّ عندهم

لذلك وجعلوا يرقبونه، فإذا طفئ (d) حجر المضباح بطفو الماء عليه، علموا أن الرذع قد وصل

غايته المعهودة عندهم بأخذه في الجزر، فكتبوا (e) بذلك إلى أمير مصر يُعلمونه أن الرذع قد وصل

غايته المعهودة عندهم، وأنهم قد أخذوا بقسطهم من الشرب. فحينئذ يأمر بكسر الأشداد التي

على أفواه قرض (f) المشارب، فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة.

ومنها أن جميع تلك المشارب تُسدُّ عند ابتداء صعود (g) النيل بالخشب والثراب، ليجمع ما

يسيل من الماء العذب في النيل، ويكثر فيعم (h) جميع أرضهم، ويمنع بجملته دخول الماء المالح

عليه، فلو كان سيلاً ما احتاج إلى ذلك، ولفتحت له أفواه قرض (i) المشارب عند ابتداء

ظهوره.

(a-a) هذه العبارة ساقطة من بولاق. (b) بولاق: سيزيد. (c) بولاق: يضعونه. (d) بولاق: أطفئ. (e) بولاق:

فيكتبون. (f) بولاق: قرص. (g) ساقطة من بولاق. (h) بولاق: ويعم. (i) بولاق: قرص.

ومنها أن الخُلجان إذا سُدت ولم يكن لها وادِع من البحر، كان السَّيْلُ يُمْدُ^(a) من جنبه إلى البحر، إذ أسفل النيل أوسَع وأخفَض من أعلاه.

ومنها أن ماء البحر يَصعد أكثر من عشرين ميلاً في حلق رَشيد وتَيْس وِدْمياط، كما يَفْعَل في سائر الأدوية التي يَدْخُلها^(b) المَدَّ والجَزْر، فلو كان النيل خالِياً من الماء العَذْب، وَصَلَ البحرُ من أسوان إلى مُنتَهَى بُلُوغ الرَّدْع، لأنَّ الماء يَطْلُب بطَبِيعه ما انخَفَض من الأرض، وأن تكون صَفْحته^(c) كُرَّةً مستوية الخُطوط الخارجة من النُقْطة إلى المحيط مُتساوية.

ومنها أنها إذا فُتحت تلك الأَسداد، وكُسِرَت الخُلج، وفاضَ النيلُ على بَطائِح أرض مصر، شَعَرَ بذلك أهلُ أسوان للحين، وقالوا: في هذه السَّاعَة كُسِرَت الخُلج وفاضَ ماءُ النيل على أرض مصر، لأنَّ ذلك يَتَبَيَّن لهم بتحوُّل الماء دَفْعَةً. فلو كان سَيِّلاً، وهم على أَعْلَى المَصَبِّ، لقالوا: قد ارتَفَعَ المَطَرُ عن الأرض التي يَسِيلُ منها السَّيْلُ.

ومنها أن قَسِيمَه الذي يَمُرُّ ببلاد الحَبَشَة، المُتَبَعِث وإياه من جَبَل القَمَر، لا يفيض كَمُدَّة فيض النيل ثلاثة أشهر، ولا يُقيم على وَجْه الأرض مُدَّةً مقامه، لكنَّهُ إذا كَثُرَ فيه السَّيْلُ غَمَرَ جَوَانِبَهُ على قَدَر انبِساطها، فإذا انصَبَّت^(d) مادُّته أُزْرِع^(e) عليه، فلو كان فيضُ النيل عن السَّيْل، وهما من شِغْبٍ واحد، لكان شأنهما واحِداً.

ولا نقول إنَّ فيضَ النيل بسبب فيض البحر فقط، إذ لولا كَوْنه سَيِّلاً ماءً لما دَخَلَ رَدْعُ البحر إليه، ولكان شاطئ ديار مصر كسائر السَّواجِل المُجاوِرة له، ولولا السَّيْلُ السَّائِلُ فيه لَرَدَمَهُ البحر، إذ عَادَة البحر رَدَمُ السَّواجِل. وأما دَخَلَ/ الشُّكُّ على أهل مصر في أَيَّام النيل لأنَّهم لم يُشاهدوا مَنَشَأه، ولا عَائِثوا مَبْدَأه من جَبَل القَمَر، لأنَّهُ في مَوْضِع لا ساكِن عليه، ولم يَحَقِّقوا^(f) المَدَّ السَّنوي الرادِع له، فلم يتَحَقَّقوا شيئاً من أمره لأنَّهُ بعيدٌ من أذهان العامَّة أن يَعْلَموا أنَّ ماءَ البحر يَعْظُم في أَيَّام الصَّيف، لأنَّ المعهودَ عندهم في البحر أن يَعْظُم في أَيَّام السَّتاء. وطَمَّوُ البحر في السَّتاء إِمَّا^(g) يكون عن الرِّيح الهابَّة عليه من أحد جانبيهِ، فيفيض ويَخْرُج إلى الجانِب الآخر، إلا ما كان من البحر المُحيط فإنَّهُ يتحرَّك أبداً من داخل البحر إلى البَرِّ، وهو أن المحيط يَطْلُب بطَبِيعه أن يكون على وَجْه الأرض، والأرض ليست بِسَطَّةً فهي تُمانِعُه بما فيها من التركيب، فهو يَطْلُب أبداً أن يَغْلُوها وتركيبها يبرزها^(h).

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: تدخل. (c) بولاق: يكون في صفحة. (d) بولاق: وإذا نضبت. (e) بولاق: أَرَدَع. (f) بولاق: ولا تحققوا. (g) بولاق: إِمَّا. (h) بولاق: ويركبها بيردها.

قال: والسبب في عظم المد والجزر كثرة الأشعة، فإذا زاحمت الشمس والقمر الكواكب السيارة، عظم فيض البحر، وإذا عظم فيض البحر ففيض البحر فاضت الأنهار، وكذلك إذا نهض القمر لمقابلة أحد السيارة ارتفع البخار، وصعد إلى كورة^(a) الزمهرير، ونزل المطر. فإذا فارق القمر الكواكب ارتفع المطر لكثرة التحليل، كما يكون في نصف النهار عند توسط الشمس لرؤوس الخلق، وكما يكون عند حلول الكواكب الكثيرة^(b) على وسط خط أرين، والله تعالى أعلم بالصواب.

قال كاتبه^(c): الذي يحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر، وأن زيادته إنما هي من فيض البحر عند المد. فأما كون مخرجه من جبل القمر فمستلزم إذ لا نزاع في ذلك، وأما أن^(d) زيادته لا تكون إلا من رذع البحر له بما حصل فيه من المد، فليس كذلك. نعم توالي هبوب الرياح الشمالية معينة^(e) على وفور الزيادة ورذع البحر له إعانة على الزيادة.

ومن تأمل النيل علم أن سيلاً سال فيه ولا بُد، فإنه لا يزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ماؤه صافياً من الكدرة، فإذا فرغت أيام زيادته وكان في غاية نقصه تغير طعمه، ومال لونه إلى الخضرة، وصار بحيث إذا وُضِعَ في إناء يروّس منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب. وسبب ذلك أن البطيخة التي في أعالي الجنوب تردّها الفيلة ونحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها، فإذا كثرت أمطار الجنوب في فصل الصيف، وعظمت السيول الهابطة في هذه البطيخة، فاض منها ما تغير من الماء، وجرى إلى أرض مصر، فيقال عند ذلك توحّم النيل^١.

ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير، ويؤاد عكسه بزيادة الماء، فإذا وُضِعَ منه أيام الزيادة شيء في إناء رَسَبَ بأسفله طين لم يُعْهَدَ فيه قبل أيام الزيادة، وهذا الطين هو الذي تحمله السيول التي تنصبت في النيل حتى تكون زيادته منها، وفيه يكون الزرع بعد هبوط النيل، وإلا فأرض مصر سبخة لا تثبت ولا يثبت منها إلا ما مرّ عليه ماء النيل، وركد منه هذا الطين.

وقوله^٢: «إن السيل يكون في غير وقت فيض البحر، ولا يفيض النيل لكون البحر في الجزر، فيصل السيل ويمرّ نحو البحر فلا يردّعه رادع» غير مستلزم، وإن العادة أن السيول التي عليها زيادة

(a) بولاق: كورة. (b) بولاق: الكبيرة. (c) بهامش نسخة الأصل: في الأصل كاتبه واستعاض عنها في النص بكلمة مؤلفه. (d) بولاق: كون. (e) ساقطة من بولاق.

^١ انظر فيما يلي ١٦٢. والمسالك والممالك الذي لم يُعَيَّن.

^٢ واضح أن المقرئ يستمر في النقل عن صاحب كتاب

ماء النيل لا تكون إلا عن غزارة الأمطار ببلاد الجنوب، وأمطار الجنوب لا تكون إلا في الصيف^(a)، ولم يعهد قط زيادة النيل في الشتاء.

وأول دليل على أن كون زيادته عن سيل يسيل فيه إنما يزيد بتدرج على قدر ما يهبط فيه من الشبول.

وأما استدلاله بضيق مصب^(b) النيل في أسوان واتساعه أسفل الأرض، فإنما ذلك لأنه يصب من علو في منحرق بين جبلين، يقال لهما الجنادل، ويتبطح في الأرض حتى يصب في البحر، فاتساعه حيث لا يجد حاجزًا يحجزه عن الانبساط.

وأما قوله: «إن الأسداد إذا كثرت فاض الماء على الأرض دفعة» فليس كذلك، بل يصير الماء عند كسر كل سد من الأسداد في خليج، ثم تفتح ثرع من الخليج إلى الخليج إلى ما على جانبه من الأراضي حتى يزوي. فمن تلك الأراضي ما يزوي سريعًا، ومنها ما يزوي بعد أيام، ومنها ما لا يزوي لعلوه.

وأما قوله: «إن جميع تلك المشارب تسد^(c) عند ابتداء صعود النيل، ليجتمع ما يسيل من الماء في النيل ويكثر، فيعم جميع أرضهم، ويمتنع بجملة دخول الماء المالح عليه» فغير مستلم أن تكون السدود^(d) كما ذكر، بل أراضي مصر أقسام كثيرة: منها عال لا يصل إليه الماء إلا من زيادة كثيرة، ومنها منخفيض يزوي من يسير الزيادة^(١). والأراضي متفاوتة في الارتفاع والانخفاض تفاوتًا كثيرًا، ولذلك احتيج في بلاد الصعيد إلى حفر الثرع، وفي أسفل الأرض إلى عمل الجسور حتى يحبس الماء ليتصرف فيه^(e) أهل النواحي على قدر حاجتهم إليه عند الاحتياج، وإلا فهو يزيد أولًا في غير وقت^(f) سقى الأراضي، حتى إذا اجتمع من زيادته المقدار الذي هو كفاية الأراضي في وقت خلوا الأراضي من الغلال وذلك غالبًا في أثناء شهر مسرى، فتح حينئذ^(g) الخليج حتى يجري فيه الماء إلى حد معلوم، ووقف حتى يزوي ما تحت ذلك الحد الذي وقف عنده الماء من الأرض، ثم فتح ذلك الحد في يوم الثوروز^(h) حتى يجري الماء^(f) إلى حد آخر، ويقف عنده حتى يزوي ما

(a) بولاق: أيام الصيف. (b) بولاق: استدلاله بصب. (c) بولاق: تسد. (d) بولاق: السداد. (e) بولاق: ليروي. (f) ساقطة من بولاق. (g) بولاق: سد. (h) بولاق: الثوروز.

تحت هذا الحد الثاني من الأراضي ، ثم يُفْتَحُ هذا الحد في يوم عيد الصليب^١ بعد النوروز بتسعة^(a) عشر يوماً حتى يجري الماء ويقف على حد ثالث حتى يزوي ما تحت هذا الحد من الأراضي /، ثم يُفْتَحُ هذا الحد فيجري الماء ويزوي ما هنالك من الأراضي ، ويصب في البحر الملح ؛ هذا هو الحال في سُود أراضي مصر .

- ٥ وقوله : «إِنَّ مَاءَ الْبَحْرِ يَصْعَدُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ مَيْلًا فِي خَلْقِ رَشِيدٍ وَتَيْسٍ وَدِيمِيَاطٍ ، فَلَوْ كَانَ النَّيْلُ^(b) خَالِيًا مِنْ الْمَاءِ الْعَذْبِ لَوَصَلَ الْبَحْرُ مِنْ أُسْوَانَ إِلَى مُنْتَهَى بُلُوغِ الرَّذِّعِ» ، فنقول : هذا قول من لم يعرف أرض مصر ، فَإِنَّ النَّيْلَ عِنْدَ مَصْبِهِ بِأَعَالِي أُسْوَانَ يَكُونُ أَعْلَى مِنْهُ عِنْدَ كَوْنِهِ أَسْفَلَ الْأَرْضِ بِقَامَاتٍ عَدِيدَةٍ ، فَإِذَا فَاضَ مَاءُ الْبَحْرِ حَسْبَهُ أَنْ يَتَدَافِعَ هُوَ وَمَاءُ النَّيْلِ . وَرُبَّمَا غَلَبَ مَاءُ الْبَحْرِ مَاءَ النَّيْلِ فِي أَيَّامِ نَقْصَانِ النَّيْلِ حَتَّى يَمْلَحَ مَاءُ النَّيْلِ فِيمَا بَيْنَ دِيمِيَاطٍ وَفَارَشَكُورَ . وَأَمَّا فِي أَيَّامِ زِيَادَةِ النَّيْلِ فَإِنِّي شَاهَدْتُ مَصَّبَ النَّيْلِ فِي الْبَحْرِ مِنْ دِيمِيَاطٍ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يُدَافِعُ الْآخَرَ فَلَا يُطِيقُهُ ، حَتَّى صَارَا مُتَمَانِعَيْنِ^(c) وَفِي مَنْظَرِهِمَا حِينِيذٍ^(d) عِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ !

- ١٠ قوله : «إِنَّ الْأَشْدَادَ إِذَا فُتِحَتْ عَلِمَ أَهْلُ أُسْوَانَ بِذَلِكَ فِي الْحَالِ» غير مُسَلَّم ، بَلْ لَمْ نَزَلْ نُشَاهِدِ النَّيْلَ فِي الْأَعْوَامِ الْكَثِيرَةِ إِذَا فُتِحَ مِنْهُ خَلِيجٌ أَوْ انْقَطَعَ مَقْطَعٌ فَأَغْرَقَ مَائِهِ أَرْضِي كَثِيرَةً ، لَا يَظْهَرُ النَّقْصُ فِيهِ إِلَّا فِيمَا قَرَبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ، وَمَا بَرِحَ الْمُفْرَدُ يَخْرُجُ مِنْ قَوْصِ بِيْشَارَةَ وَفَاءَ النَّيْلِ ، وَقَدْ أَوْفَى عِنْدَهُمْ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، فَلَا يُوفِي ذَلِكَ الْمِقْيَاسَ بِمِصْرَ إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَنَحْوِهَا .
- ١٥ وَأَمَّا قَوْلُهُ : «إِنَّ مَا كَانَ مِنَ النَّيْلِ يَمُزُّ بِيَلَادِ الْحَبَشَةِ يُخَالِفُهُ» فَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ الزِّيَادَةُ فِي النَّيْلِ أَيَّامَ زِيَادَتِهِ تَكُونُ بِيَلَادِ الثُّوبَةِ وَمَا وَرَاءَهَا فِي الْجَنُوبِ كَمَا تَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ ، وَلَا فَرْقٌ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ فِي أَرْضِ مِصْرَ يَجْرِي فِي حُدُودِ ، وَهَنَّاكَ يَتَبَدَّدُ عَلَى الْأَرْضِ . وَالثَّانِي أَنَّ زِيَادَتَهُ تُعْتَبَرُ بِالْقِيَاسِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَهَنَّاكَ لَا يُمَكِّنُ قِيَاسَهُ لِتَبَدُّدِهِ . وَمَنْ عَرَفَ أَحْبَارَ مِصْرَ عَلِمَ أَنَّ زِيَادَةَ مَاءِ النَّيْلِ تَكُونُ مِنْ أَمْطَارِ الْجَنُوبِ .

- ٢٠ وَيُقَالُ : إِنَّ النَّيْلَ يَنْصَبُ مِنْ عَشْرَةِ أَنْهَارٍ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ ، كُلُّ خَمْسَةِ أَنْهَارٍ مِنْ شُعْبَةٍ ، ثُمَّ تَتَبَحَّرُ تِلْكَ الْأَنْهَارُ الْعَشْرَةَ فِي بُحَيْرَتَيْنِ^(d) كُلُّ خَمْسَةِ أَنْهَارٍ تَتَبَحَّرُ بُحَيْرَةً بِذَاتِهَا ، ثُمَّ

(a) بولاق : بسبعة . (b) ساقطة من بولاق . (c-c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : بحرین .

^١ عن عيد الصليب انظر فيما يلي ٣٧٤ .

يُخْرَجُ مِنَ الْبُحَيْرَةِ الشَّرْقِيَّةِ بَحْرًا لَطِيفًا يَأْخُذُ شَرْقًا عَلَى جَبَلٍ قَائِمٍ ، وَيَمْتَدُّ إِلَى مَدِينِ هُنَاكَ ، ثُمَّ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ ، وَيَخْرُجُ مِنَ الْبُحَيْرَتَيْنِ سِتَّةَ أَنْهَارٍ ، عَنْ كُلِّ بُحَيْرَةٍ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ . وَتَجْتَمِعُ الْأَنْهَارُ السِتَّةُ فِي بُحَيْرَةٍ مُتَّسِعَةٍ تُسَمَّى الْبَطِيحَةَ ، وَفِيهَا تَضْرِي سِتَّةٌ (a) جَبَلٍ يَفْرُقُ الْمَاءَ نِصْفَيْنِ : يَخْرُجُ أَحَدُهُمَا مِنْ غَرْبِ الْبَطِيحَةِ وَهُوَ نَيْلُ الشُّوْدَانِ وَيَصِيرُ نَهْرًا يُسَمَّى بَحْرَ الدَّمَامِ ، وَيَأْخُذُ مُغْرَبًا مَا بَيْنَ سَمْفَرَةَ وَغَانَةَ عَلَى جَنُوبِي سَمْفَرَةَ وَشَمَالِي غَانَةَ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ هُنَاكَ مِنْهُ فُرْقَةٌ تَرْجِعُ جَنُوبًا إِلَى غَانَةَ ، ثُمَّ تَمُرُّ عَلَى مَدِينَةِ بَرِيَسَةَ ، وَتَأْخُذُ تَحْتَ جَبَلٍ فِي جَنُوبِهَا خَارِجَ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ إِلَى رُفَيْلَةَ ، ثُمَّ تَبْحُرُ فِي بُحَيْرَةِ هُنَاكَ ، وَتَسْتَمِرُّ الْفُرْقَةُ الثَّانِيَةَ مُغْرَبَةً إِلَى بِلَادِ مَالِي وَالتُّكْرُورِ حَتَّى تَنْصَبَّ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ شَمَالِي مَدِينَةَ قَلْتَبُو .

وَيَخْرُجُ النُّصْفُ الْآخَرُ مُتَشَامِلًا آخِذًا عَلَى الشُّمَالِ إِلَى شَرْقِي مَدِينَةِ جِيْمِي (b) . ثُمَّ يَتَشَعَّبُ مِنْهُ هُنَاكَ شُعْبَةٌ تَأْخُذُ شَرْقًا إِلَى مَدِينَةِ سَحْرَتِ ، ثُمَّ تَرْجِعُ جَنُوبًا ، ثُمَّ تَعُطِفُ شَرْقًا بِجَنُوبِ إِلَى مَدِينَةِ سَحْرَتِهِ ، ثُمَّ إِلَى مَدِينَةِ مَرْكَةَ ، وَيَنْتَهِي إِلَى خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ حَيْثُ الطُّوْلُ خَمْسُ وَسِتُونَ دَرَجَةً ، وَيَتَبَحَّرُ هُنَاكَ بُحَيْرَةً ، وَيُسَمَّى عَمُودَ النَّيْلِ ، مِنْ قِبَالَةِ تِلْكَ الشُّعْبَةِ شَرْقِي مَدِينَةِ شِيْمِي مُتَشَامِلًا آخِذًا عَلَى أَطْرَافِ بِلَادِ الْحَبَشَةِ ، ثُمَّ يَتَشَامَلُ عَلَى بِلَادِ الشُّوْدَانِ إِلَى مَدِينَةِ دُمُقْلَةَ حَتَّى يَرْمِي عَلَى الْجَنَادِلِ إِلَى أُسْوَانَ ، وَيَتَخَدَّرُ وَهُوَ يَشُقُّ بِلَادَ الصُّعَيْدِ إِلَى مَدِينَةِ فُسْطَاطِ مِصْرَ ، وَيَمُرُّ حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الشَّامِيِّ .

وَقَدْ اسْتَفِيضَ بِبِلَادِ الشُّوْدَانِ أَنَّ النَّيْلَ فِي أَصْلِهِ (a) يَنْحَدِرُ مِنْ جِبَالِ سُودَانِ تَبِينِ عَلَى بُغْدِ كَأَنَّ عَلَيْهَا الْعَمَامَ ، ثُمَّ يَتَفَرَّقُ نَهْرَيْنِ : يَصُبُّ أَحَدُهُمَا فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى جِهَةِ بَحْرِ الظُّلْمَةِ الْجَنُوبِيِّ ، وَالْآخَرَ يَتَّصِلُ إِلَى مِصْرَ حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الشَّامِيِّ . وَيُقَالُ : إِنَّهُ فِي الْجَنُوبِ يَتَفَرَّقُ سَبْعَةَ أَنْهَارٍ تَدْخُلُ فِي صَخْرَاءِ مُنْقَطِعَةٍ ، ثُمَّ تَجْتَمِعُ الْأَنْهَارُ السَّبْعَةَ وَتَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ الصَّخْرَاءِ نَهْرًا وَاحِدًا فِي بِلَادِ الشُّوْدَانِ .

ذِكْرُ مَقَابِسِ النَّيْلِ وَزِيَادَتِهِ

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : أَوَّلُ مَنْ قَاسَ النَّيْلَ بِمِصْرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَضَعَّ مِقْيَاسًا بِمَنْفٍ ، ثُمَّ وَضَعَتْ الْعَجُوزُ دُلُوكَةَ ابْنَةِ زَبَاءَ وَهِيَ صَاحِبَةٌ حَائِطُ الْعَجُوزِ بِأَنْصِينَا وَهُوَ صَغِيرُ الذَّرْعِ ، وَمِقْيَاسًا

ياخميم، ووضَع عبدُ العزيز ابن مَرْوان مِقْيَاسًا بِحُلُوان، وهو صغير، ووضَع أُسامَة بن زَيْد التُّوخي في خِلافة الوليد مِقْيَاسًا بِالْجَزِيرَة، وهو أكبرُها. قال يحيى بن بُكير: أَدْرَكْتُ القِيَّاسَ يَمِيسُ في مِقْيَاسِ مَنْف، ويَدْخُلُ بزيادته إلى الفُسطاط^١.

وقال القُضاعي: كان أوَّل من قاسَ النَّيْلَ بِمِصرِ يُوسُفَ النَّبِيِّ^(a) - عليه السَّلام - وَبَنَى مِقْيَاسًا بِمَنْف، وهو أوَّل مِقْيَاسٍ وَضَعَهُ عليه السَّلام.

وقيل: إنَّ النَّيْلَ كان يُقاسُ^(b) بأرضِ عَلَوَة إلى أن بُنِيَ مِقْيَاسُ مَنْف، وإنَّ القِبْطَ كانت تقيسُ عليه إلى أن بَطُلَ.

ومن بعده دَلُوكة العَجوز بَنَت مِقْيَاسًا بِأَنْصِنَا، وهو صغير الدُّرع، ومِقْيَاسًا^(a) آخر ياخميم وهي التي بَنَت الحائِطَ المحيِط بِمِصر.

وقيل إنَّهم كانوا يقيسون الماء - قبل أن يوضَعَ المِقْيَاس - بالرصاص، فلم يزل القِيَّاسُ فيما مَضَى قبل الفُتْحِ بِقِيَّاسِ الرِّبَّةِ الأَكْسِيَّةِ/، ومعالِله هناك، إلى أن ابْتَنَى المسلمون بين الحِصْنِ والبَحْرِ أبنيتَهُم الباقية الآن.

وكان للروم أيضًا مِقْيَاسٌ بالقصرِ خَلْفَ البابِ يَمِينَةً من دَخَلَ منه في داخِلِ الرُّقاق، أثَرُهُ قائِمٌ إلى اليوم، وقد بُنِيَ عليه وحوالِته.

ثم بُنِيَ عَمْرُو بن العاص عند فَتْحِهِ مِصرَ مِقْيَاسًا بِأَشْوان، ثم بُنِيَ بِمَوْضِعٍ يُقالُ له دَنْدَرَة. ثم بُنِيَ في أيامِ مُعاوية مِقْيَاسٌ بِأَنْصِنَا، فلم يزل يُقاسُ عليه إلى أن بُنِيَ عبدُ العزيز بن مَرْوان مِقْيَاسًا بِحُلُوان - وكانت مَثْرَلَه - وكان هذا المِقْيَاسُ صغير الدُّراع.

فأمَّا المِقْيَاسُ القَدِيمُ الَّذِي بُنِيَ في الجَزِيرَة، فالَّذي وَضَعَهُ أُسامَة بن زَيْد، وقيل إنَّه كَسَرَ فيه أُلْفِي أوقية^(c)، وهو الَّذي بَنَى بيتَ المالِ بِمِصر. وبني «أبو فتحة»^(d). ثم كَتَبَ أُسامَة بن زَيْد التُّوخي عامِلَ خِراجِ مِصرِ لِسُلَيْمانَ بن عبد الملك يَطْلانَه، فَكَتَبَ إليه سُلَيْمانُ بأن يَبْنِيَ مِقْيَاسًا في الجَزِيرَة، فبَنَاهُ في سَنَةِ سَبْعٍ وَتَسْعِينَ^٢.

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: كان يقاس بمصر. (c) الأصل: القرافتين (d) ساقطة من بولاق، والكلمة غير واضحة في الأصل.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٤١٦ السيوطي: حسن خلكان: وفيات ٣: ١١٦ CIA Van Berchem, M., Egypte I, pp. 18-19; Wiet, G. RCEA I, n°22.

^٢ نفسه ٤١٦ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧١ ابن

ثم بنى المتوكّل فيها مقياسًا في أوّل سنة سبع وأربعين ومائتين في ولاية يزيد بن عبد الله التركي على مصر، وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد، وأمر بأن يُعزّل النصارى عن قياسه. فجعل يزيد بن عبد الله على المقياس أبا الرّداد المَعْلَم، واسمه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي الرّداد المؤدّن^١، كان يقول العمّي: أضله من^٢ البصرة، قديم مصر، وحدث بها، وجعل على قياس النيل، وأجرى عليه سليمان^٣ بن وهب - صاحب خراج مصر يومئذ - سبعة دنانير في كل شهر. فلم يزل المقياس من ذلك الوقت في يد أبي الرّداد وولده إلى اليوم. وتوفي أبو الرّداد سنة ست وستين ومائتين^٤.

ثم ركب أحمد بن طولون سنة تسع وخمسين ومائتين، ومعه أبو أيوب صاحب خراجه، وبكار بن قتيبة القاضي، فنظّر إلى المقياس وأمر بإصلاحه، وقدّر له ألف دينار، فعمر^٥.
وبنى الخازن^٦ في الصنّاعة مقياسًا، وأثره باقٍ لا يُعتمد عليه.

وقال ابن عبد الحكم: فلما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو، حين دخل بؤونة من أشهر العجم^٧، فقالوا له: أيها الأمير، إن لنا هذا سنة لا يجري إلا بها؛ فقال لهم: وما ذلك؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من أبوتها،

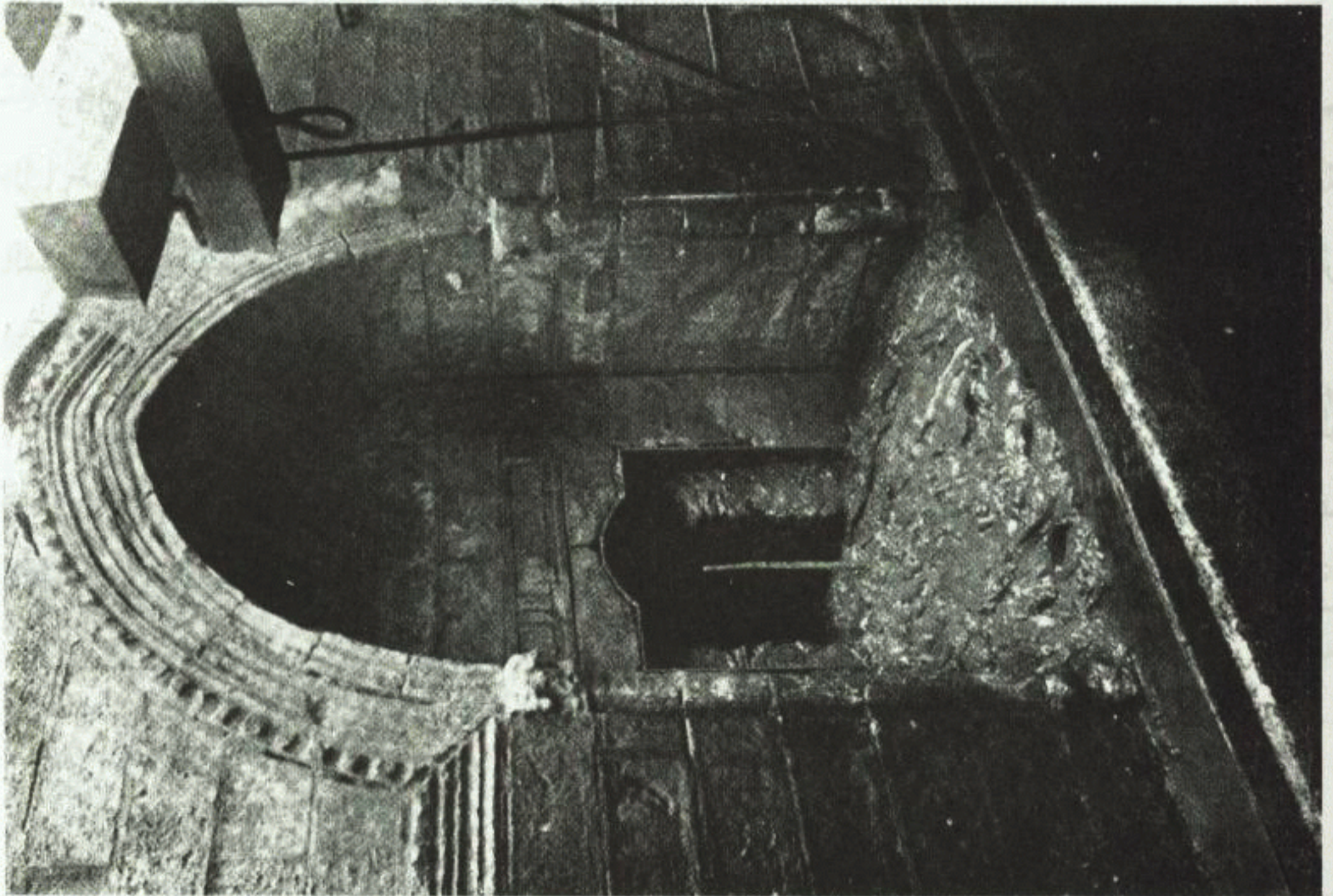
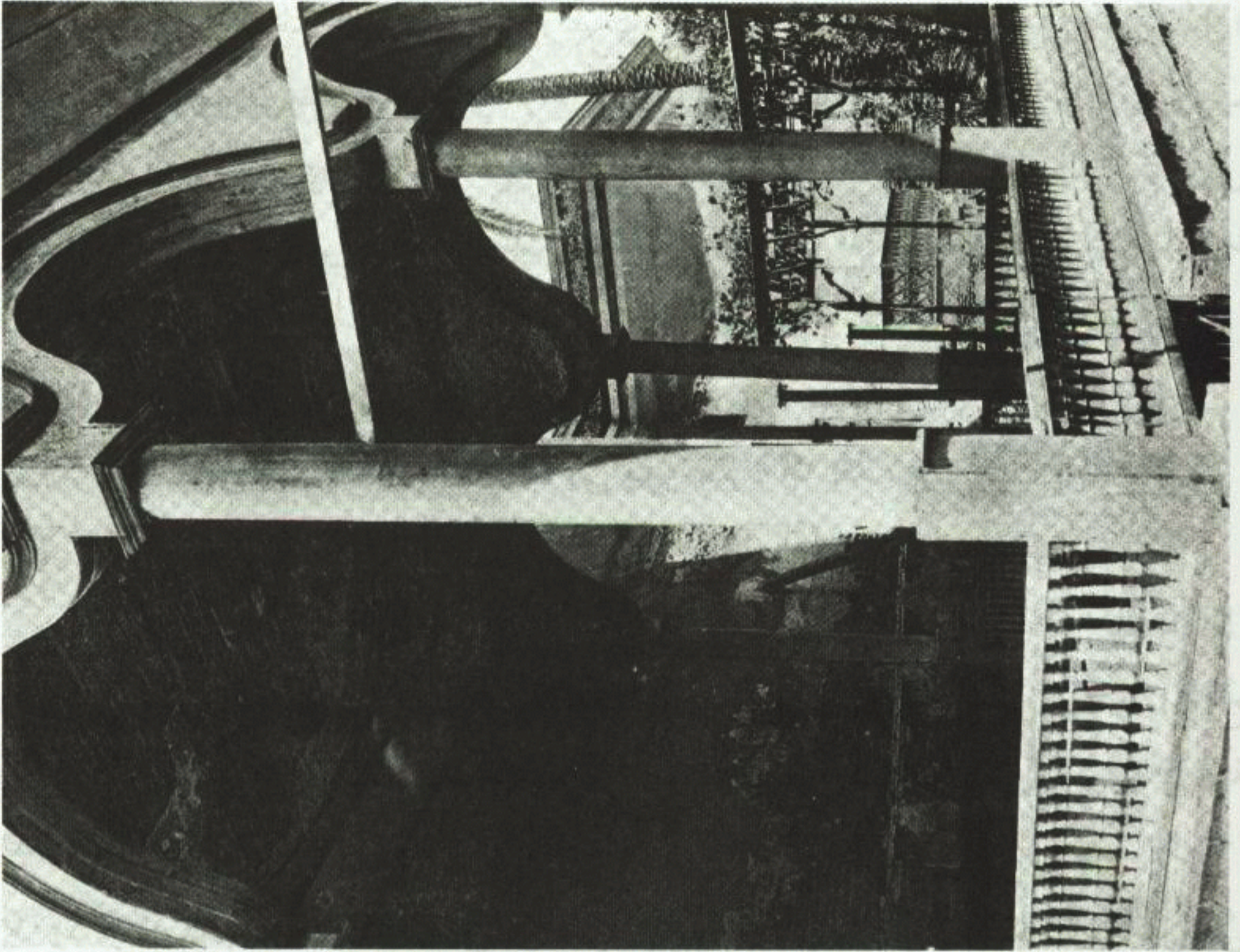
(a) ساقطة من بولاق. (b) الأصل: سليم. (c) بولاق: الحارث. (d) في النجوم الزاهرة: أشهر القبط.

Wiet, G., «Une restauration de Nilomètre de l'île de Rawda sous Mutawakkil (247/861)», *CR. de l'Académie des inscriptions et belles-lettres* (1924), pp. 202-203; id., *RCEA* II, n°460, 61, 72, 76. ١٨٥:٢، ٤٧١:١

٣ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢: ٣١١، وعن تاريخ المقياس راجع Marcel, J.I., «Mémoire sur le Meqyâs de l'île de Roudah», *Description de l'Égypte, Etat Moderne*, XV Paris 1826; Creswell, K.A.C., *EMA* II, pp. 290-307; Ghaleb, K.O., *Le Mikyâs ou Nilomètre de l'île de Rodah*, MIE t. LIV, Le Caire 1951; Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de l'Égypte jusqu'à l'époque fatimide*, pp. 80-82

١ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٢٩٣-٢٩٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢: ٣٠٩-٣١١؛ السيوطي: حسن المحاضرة ٢: ٣٧٤-٣٧٦.

٢ انظر ترجمة ابن أبي الرّداد عند، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ١١٢-١١٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ١٧: ٢٥٦-٢٥٧، ويقدم لنا ابن خلكان في نهاية ترجمة ابن أبي الرّداد نصّ الكتابات الأربعة المنقوشة على الرخام في جوانب المقياس وقت بنائه الذي أمر به المتوكّل على الله العباسي، وكلها مازال موجودًا حتى الآن ونص أحدها... أمر ببناؤه عبد الله جعفر الإمام المتوكّل على الله أمير المؤمنين، أطل الله بقاءه وأدام عزّه وتأييده، على يدي أحمد بن محمد الحاسب سنة سبع وأربعين ومائتين (وفيات الأعيان



شكل ٢ - مِقْيَاسُ النِّيلِ بِالرَّوَضَةِ (عن Creswell)

فأرضينا أبوتها ، وجعلنا عليها من الحلبي والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا^(a) النيل ؛ فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤونة وأيب ومسرى ، وهو لا يجري قليلاً ولا كثيراً ، حتى هموا بالجلأ . فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بذلك ، فكتب إليه عمر أن قد أصبت ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي .

فلما قدم الكتاب إلى عمرو فتح البطاقة فإذا فيها :

« من عبد الله أمير المؤمنين ، إلى نيل مصر . أما بعد ، فإن كنت إنما^(a)

تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك ،

فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » .

فألقي عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب يوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلأ والخروج منها ، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل ، وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة ، وقطع تلك السنة الشوء عن أهل مصر^١ .

وذكر بعضهم أن جاجلاً الصديقي هو الذي قرأ ببطاقة عمر - رضي الله عنه - إلى النيل على النيل^(a) حين توقف ، فجري بإذن الله تعالى .

وقال يزيد بن أبي حبيب : إن موسى - عليه السلام - دعا على آل فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلأ ، فطلبوا إلى موسى أن يدعوا الله ، فدعا الله رجاء أن يؤمنوا - وذلك ليلة الصليب - فأصبحوا وقد أجراه الله في تلك الساعة ستة عشر ذراعاً . فاستجاب الله بتطوله لعمر ابن الخطاب كما استجاب لنبية موسى عليه السلام^٢ .

قال القضاة : ووجدت في رسالة منسوبة إلى الحسن بن محمد بن عبد المنعم قال : لما فتحت العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ما يلقي أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده في مقياس لهم ، فضلاً عن تقاضره ، وأن فرط الاستشعار يدعوهم إلى

(a) ساقطة من بولاق .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥٠-١٥١ ؛ أبو المحاضرة ٢: ٣٥٣-٣٥٤ .

المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٣٥-٣٦ ؛ السيوطي : حسن ^٢ نفسه ١٥١ .

الاختكار، ويدعو الاختكار إلى تصاعد الأسعار بغير قحط. فكتب عمر إلى عمرو يسأله عن شرح الحال فأجابته: إني وجدت ما تزوي به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعًا، والحد الذي يزوي منه سائرهما حتى يفضل عن حاجتهم ويقتي عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعًا، والنهاتان المخوفتان في الزيادة والنقصان، وهما الظمأ والاشتبحار، اثنا عشر ذراعًا في النقصان، وثمانية عشر ذراعًا في الزيادة.

هذا، والتلد في ذلك الوقت مخفور الأنهار، معقود الجسور، عندما تسلموه من القبط، وخميرة العمارة فيه.

فاستشار أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - عليًا - رضي الله عنه - في ذلك، فأمره أن يكتب إليه أن يتي مقياسًا، وأن ينقص ذراعين من اثني عشر ذراعًا، وأن يقم ما بقدها على الأصل، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعًا أصبعين. ففعل ذلك، وبناه بحلوان، فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإزجاف وزوال ما منه كان يخاف، بأن جعل الاثني عشر ذراعًا أربع عشرة، لأن كل ذراع أربع وعشرون أصبعا، فجعلها ثمانية وعشرين من أولها إلى الاثني عشر / ذراعًا يكون مبلغ الزيادة على الاثني عشر ثمانية وأربعين أصبعا، وهي الذراعان، وجعل الأربع عشرة ست عشرة والست عشرة ثماني عشرة والثماني عشرة عشرين^١.

قال القضاعي: وفي هذا الباب^(a) نظر في وقتنا لزيادة فساد الأنهار وانتقاض الأحوال. وشاهد ذلك أن المقياس القديمة^(b) الصعيدية من أولها إلى آخرها أربع وعشرون أصبعا كل ذراع، والمقياس الإسلامية على ما ذكر، منها المقياس الذي بناه أسامة بن زيد التتوخي بالجزيرة، وهو الذي هدمه الماء. وبنى المأمون آخر بأسفل الأرض بالبشروقات، وبنى المتوكل آخر بالجزيرة، وهو الذي يقاس عليه الماء الآن، وقد تقدم ذكره.

قال ابن عفير عن القبط المتقدمين: إذا كان الماء في اثني عشر يومًا من مسرى اثني عشرة ذراعًا، فهي سنة ماء، وإلا فالماء ناقص، وإذا تم ست عشرة ذراعًا قبل الثوروز فالماء يتم، فاعلم ذلك.

(a) بولاق: الحساب. (b) في الأصل: القائمة.

^١ السيوطي: حسن المحاضرة ٢: ٣٧٤-٣٧٥ نقلًا عن ابن حبيب.

وقال أبو الصلت: وأما النيل ويثبوعه، فهو من وراء حط الاستواء من جبل هناك يُعرف بجبل القمر، فإنه يتدئ في التزايد في شهر أيب^a. والمصريون يقولون: «إذا دخل أيب كان للماء ديب». وعند ابتدائه في التزايد تتغير جميع كئيفياته وتفسد، والسبب في ذلك مروره بتقايح مياه آجنة يُخالطها فيجتلبها [ويستخرجها]^b معه [ويشتتضجها]^b، إلى غير ذلك مما يحتمله^١.

فإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعًا، وزاد من السادس عشر أضعًا واحدًا، كسِر الخليج. ولكشره يوم معدود، ومقام مشهود، ومجتمع غاص، يحضره العام والخاص. فإذا كسِر فتحت الشرع - وهي فوهات الخللجان - ففاض الماء وساح، وعمر القيعان والبطاح، وانضم الناس إلى أعالي مساكنهم من الضياع والمنازل، وهي على آكام ورثى لا ينتهي الماء إليها، ولا يتسلط السيل عليها، فتعود أرض مصر بأشرها عند ذلك بحرًا غامرًا لما بين جبلتها، ريثما يبلغ الحد المحدود في مشيئة الله - عز وجل - له، وأكثر ذلك يحوم حول ثماني عشرة ذراعًا.

ثم يأخذ عائداً في صبه إلى مجرى النيل ومشربه، فيتضب أولاً عما كان من الأرض عالياً، ويصير فيما كان منها متطامناً، فيترك كل قرارة كالدرهم، ويُغادر كل تلة كالبرد المسهم^٢. وقال القاضي، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي^٣ في كتاب «الأحكام السلطانية»: وأما الذراع السوداء فهي أطول من ذراع الدور بأضبع وثلاثي أضبع، وأول من وضعها أمير المؤمنين

(a) بعد ذلك في الرسالة المصرية: الذي هو بالرومية يولية. (b) إضافة من الرسالة المصرية. (c) في الرسالة المصرية: وعم الغيطان والبطاح.

^١ أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ١٧.

^٢ نفسه ١٩ - ٢٠.

^٣ القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب

الماوردي، فقيه شافعي ولد بالبصرة سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م،

وتوفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م. تولى القضاء أكثر من

مرة وفي سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م منح لقب «أقضى القضاة»

وأرسله الخليفة العباسي القائم بأمر الله في سفارات متعددة.

وضع الماوردي العديد من المؤلفات في الأدب والتفسير

والأحكام الشرعية. والكتاب الذي اعتمد عليه المقرئ هنا

هو كتابه الشهير «الأحكام السلطانية» وبفضل هذا الكتاب

Brockelmann, C., *El² art. al-Mâwardi VI*, ٤٤٥٣

(pp. 859-60)

هازون الرشيد ، قَدَّرَهَا بِذِرَاعِ خَادِمِ أَشُودِ كَانَ عَلَى رَأْسِهِ قَائِمًا ، وَهِيَ الَّتِي تَتَعَامَلُ النَّاسُ بِهَا فِي ذُرْعِ الْبَزِّ وَالتَّجَارَةِ وَالْأَبْيَةِ وَقِيَاسِ نَيْلِ مِصْرٍ^١ .

وَأَكْثَرُ مَا وُجِدَ فِي الْقِيَاسِ مِنَ النُّقْصَانِ سِتَّةٌ وَسَبْعٌ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٌ ، وَوُجِدَ فِي الْمَقْيَاسِ تِسْعَةٌ أَدْرُعَ وَأَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَصْبُعًا . وَأَقْلُ مَا وُجِدَ مِنْهُ سِتَّةٌ وَخَمْسٌ وَسِتِّينَ وَمِائَةٌ ، فَإِنَّهُ وَجِدَ فِيهِ ذِرَاعٌ وَاحِدٌ وَعِشْرَ أَصَابِعَ . وَأَكْثَرُ مَا بَلَغَ فِي الزِّيَادَةِ سِتَّةٌ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٌ ، فَإِنَّهُ بَلَغَ ثَمَانِيَةَ عَشْرٍ ذِرَاعًا وَتِسْعَةَ عَشْرٍ أَصْبُعًا . وَأَقْلُ مَا كَانَ فِي سِتِّ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةَ الْهَلَالِيَّةِ ، فَإِنَّهُ بَلَغَ اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا وَتِسْعَ عَشْرَةَ أَصْبُعًا ، وَهِيَ أَيَّامُ كَافُورِ الْإِخْشِيدِيِّ .

وَالْمَقْيَاسُ عَمُودٌ رُخَامٌ أَيْضٌ مُثَمَّنٌ ، فِي مَوْضِعٍ يَنْحَصِرُ فِيهِ الْمَاءُ عِنْدَ انْسِيَابِهِ إِلَيْهِ ، وَهَذَا الْعَمُودُ مُفْصَّلٌ عَلَى اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا كُلُّ ذِرَاعٍ مُفْصَّلٌ عَلَى أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ قِسْمًا مُتَسَاوِيَةً تُعْرَفُ بِالْأَصَابِعِ ، مَا عَدَا الْإِثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا الْأُولَى فَإِنَّهَا مُفْصَّلَةٌ عَلَى ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ أَصْبُعًا كُلُّ ذِرَاعٍ .

وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ : قَالَتِ الْهِنْدُ : زِيَادَةُ النَّيْلِ وَنُقْصَانُهُ بِالشُّيُولِ ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ ذَلِكَ بِتَوَالِي الْأَنْوَاءِ وَكَثْرَةِ الْأَمْطَارِ [وَرُكُودِ السُّحَابِ] ^(a) ؛ وَقَالَتِ الرُّومُ : لَمْ يَزِدْ قَطُّ وَلَمْ يَنْقُصْ ، وَإِنَّمَا زِيَادَتُهُ وَنُقْصَانُهُ مِنْ عَيُونِ كَثُرَتْ وَاتَّصَلَتْ . وَقَالَتِ الْقِبْطُ : زِيَادَتُهُ وَنُقْصَانُهُ مِنْ عُيُونٍ فِي شَاطِئِهِ يَرَاهَا مِنْ سَافِرٍ وَحَقِيقٍ بِأَعَالِيهِ . وَقِيلَ لَمْ يَزِدْ قَطُّ ، وَإِنَّمَا زِيَادَتُهُ بِرِيحِ الشَّمَالِ ، إِذَا كَثُرَتْ وَاتَّصَلَتْ تَحْسِبُهُ ، فَيَفِيضُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ^٢ .

وَقَالَ قَوْمٌ : سَبَبُ زِيَادَتِهِ هُبُوبُ رِيحِ تُسَمَّى رِيحَ الْمَلْتَنِ ^(b) ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَحْمِلُ السُّحَابَ الْمَاطِرَ مِنْ خَلْفِ حَظِّ الْأَسْتِوَاءِ ، فَيُمْطِرُ بِيَلَادِ الشُّوْدَانِ وَالْحَبَشَةِ وَالثُّوبَةِ ، فَيَأْتِي مَدَدُهُ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ بِزِيَادَةِ النَّيْلِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْبَحْرَ الْمِلْحَ يَقِفُ مَأْوُهُ عَلَى وَجْهِ النَّيْلِ ، فَيَتَوَقَّفُ حَتَّى يَزُورِيَ الْبِلَادَ .

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ :

[المجتث]

فَاشْفَعْ فَلِلشَّافِعِ ^(c) أَعْلَى يَدَا عِنْدِي وَأَسْمَى مِنْ يَدِ الْمُحْسِنِ

(a) زيادة من مروج الذهب . (b) بولاق : الملتن . (c) بولاق وسائر المخطوطات : فاسمع فالسامع والتصويب من حسن المحاضرة .

^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٦٧ .

^١ الماوردي : الأحكام السلطانية ١٣٧ .

فالنَّيْلُ ذو فَضْلٍ وَلَكِنَّهُ الشُّكْرُ فِي ذَلِكَ لِلْمَلْتِنِ^(a)

ويتدئ النَّيْلُ بالتنفُّسِ والزيادة بقِيَّةِ بَثُونَةٍ - وهو حُزَيْرَانٌ - وأَيْسِبٌ - وهو تَمُوزٌ - ومِشْرَى - وهو آبٌ - فإذا كان الماءُ زَائِدًا زادَ شهرُ ثَوْتِ كَلَّةٍ - وهو أَيْلُولٌ - إلى انْقِضَائِهِ ، فإذا انتهت الزيادة إلى الذُّرَاعِ الثَّامِنِ عشرَ ففيه تمامُ الخَرَجِ ، ويخضبُ الأرضُ ، وهو ضَارٌّ بالبَهَائِمِ لِعَدَمِ الرُّغْمِ وَالكَلاَّ .

وَأَمَّ الزِّيَادَاتِ كُلِّهَا ، العَامَّةُ النَّفْعُ^(b) للبلدِ كُلِّه سبعة عشر ذِرَاعًا ، وفي ذلك كِفَايَتُهَا وَرَبِّي جَمِيعَ أَرْضِهَا . وإذا زادَ على ذلك وَبَلَغَ ثَمَانِيَةَ عَشْرٍ ذِرَاعًا وَغَلَّقَهَا ، اسْتَبْجَحَ مِنْ أَرْضِ مِصْرِ الرُّبْعِ ، وفي ذلك ضَرَرٌ لِبَعْضِ الصُّيَاحِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الاسْتَبْجَاحِ . وإذا كانت الزيادةُ على ثَمَانِيَةَ عَشْرٍ ذِرَاعًا ، كانت العَاقِبَةُ فِي انْصِرَافِهِ مُحْدُوْثٌ وَبَاءٌ . وأكثر الزيادةات ثمان عشرة ذِرَاعًا .

وقد بَلَغَ فِي خِلَافَةِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ / تِسْعَ عَشْرَةَ^(c) ذِرَاعًا ، وَمِسَاحَةُ الذُّرَاعِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ اثْنِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ أَصْبُعًا ، وَمِنْ اثْنِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا إِلَى مَا فَوْقَ ذَلِكَ يَكُونُ الذُّرَاعُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ أَصْبُعًا . وَأَقْلُ مَا يَتَّقَى فِي قَاعِ الْمِقْيَاسِ مِنَ الْمَاءِ ثَلَاثَةُ أَذْرُعَ ، وفي تلك السنة يكون الماء قليلًا . والأَذْرُعُ الَّتِي يُسْتَشْقَى عَلَيْهَا بِمِصْرٍ هِيَ ذِرَاعَانِ تَسْمِيَانِ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا ، وَهِيَ الذُّرَاعُ الثَّلَاثُ عَشْرَ وَالذُّرَاعُ الرَّابِعَ عَشْرَ ؛ فَإِذَا انْصَرَفَ الْمَاءُ عَنْ هَذَيْنِ الذُّرَاعَيْنِ وَزِيَادَةَ نِصْفِ ذِرَاعٍ مِنَ الْخَمْسِ عَشْرَةَ ، اسْتَشْقَى النَّاسُ بِمِصْرٍ ، فَكَانَ الضَّرَرُ الشَّامِلُ لِكُلِّ الْبُلْدَانِ ؛ وَإِذَا تَمَّ خَمْسَ عَشْرَةَ وَدَخَلَ فِي سِتِّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا كَانَ فِيهِ صَلَاحٌ لِبَعْضِ النَّاسِ ، وَلَا يُسْتَشْقَى فِيهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ نَقْصًا مِنْ خَرَجِ السُّلْطَانِ⁽²⁾ .

وَالنَّبِيذُ يُتَّخَذُ بِمِصْرٍ مِنْ مَاءِ طُوبَةِ - وَهُوَ كَانُونَ الثَّانِي - بَعْدَ الْغِطَاسِ ، وَهُوَ لِعَشْرَةِ تَمْضِي مِنْ طُوبَةِ ، وَأَصْفَى مَا يَكُونُ مَاءُ النَّيْلِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . وَأَهْلُ مِصْرٍ يَفْتَخِرُونَ بِصَفَاءِ مَاءِ النَّيْلِ فِي هَذَا الْوَقْتِ ، وَفِيهِ يُخْزَنُ الْمَاءُ أَهْلُ تَيْسٍ وَدِمْيَاطٍ وَثُونَةٍ وَسَائِرِ قَرَايَا^(d) الْبَحِيرَةِ .

وقد كانت مِصْرُ كُلِّهَا تُزَوَّى مِنْ سِتِّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ، غَامِرُهَا وَعَامِرُهَا ، بِمَا أَحْكَمُوا مِنْ جُسُورِهَا ، وَبِنَاءِ قَنَاطِرِهَا ، وَتَنْقِيَةِ حُلْجَانِهَا . وَكَانَ الْمَاءُ إِذَا بَلَغَ فِي زِيَادَتِهِ تِسْعَ أَذْرُعَ دَخَلَ

(a) بولاق : الملتن . (b) في المروج : النافعة . (c) بولاق : اثني عشر . (d) بولاق : قرى .

خَلِيجِ الْمُنْهَى وَخَلِيجِ الْفَيْوَمِ وَخَلِيجِ سَرْدُوسٍ وَخَلِيجِ سَعَا^١.

قَالَ: وَالْمَعْمُولُ عَلَيْهِ فِي وَقْتِنَا هَذَا - وَهُوَ سَنَةٌ خَمْسٌ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ - أَنَّهُ إِنْ زَادَ عَلَى السِّتِّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا أَوْ نَقَصَ عَنْهَا، نَقَصَ مِنْ خَرَاكِ السُّلْطَانِ^٢.

وَقَدْ تَغَيَّرَ فِي زَمَانِنَا هَذَا عَامَّةً مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، لِفَسَادِ حَالِ الْجُسُورِ وَالتَّرْعِ وَالخُلْجَانِ؛ وَقَانُونُهُ الْيَوْمَ أَنَّهُ يَزِيدُ فِي الْقَيْظِ إِذَا حَلَّتِ الشَّمْسُ بُرْجَ الشَّرْطَانِ وَالْأَسَدِ وَالسُّنْبُلَةَ حِينَ تَنْقُصُ عَامَّةً الْأَنْهَارَ الَّتِي فِي الْمَعْمُورِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ إِنَّ الْأَنْهَارَ تَمُدُّهُ بِمَائِهَا عِنْدَ غَيْضِهَا فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ.

وَتَبْدَأُ الزِّيَادَةُ مِنْ خَامِسِ بَكْوَنَةٍ، وَتَظْهَرُ فِي ثَانِي عَشْرِهِ، وَأَوَّلُ دَفْعِهِ فِي الثَّانِي مِنْ أَبِيبِ، وَتَنْتَهِي زِيَادَتُهُ فِي ثَامِنِ بَابَةٍ، وَيَأْخُذُ فِي التَّقْصَانِ مِنَ الْعِشْرِينَ مِنْهُ، فَتَكُونُ مُدَّةُ زِيَادَتِهِ - مِنْ ابْتِدَائِهَا إِلَى أَنْ يَنْقُصَ - ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَخَمْسَةَ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَهِيَ أَبِيبٌ وَمِشْرَى وَثُوتٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا مِنْ بَابَةٍ، وَمُدَّةُ مَكْتِهِ بَعْدَ انْتِهَاءِ زِيَادَتِهِ اثْنَا عَشَرَ يَوْمًا، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي التَّقْصَانِ.

وَمِنَ الْعَادَةِ أَنْ يُنَادَى عَلَيْهِ دَائِمًا فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ بَكْوَنَةٍ بَعْدَمَا يُؤْخَذُ قَاعُهُ، وَهُوَ مَا بَقِيَ مِنَ الْمَاءِ الْقَدِيمِ، فِي ثَالِثِ عَشَرَ بَكْوَنَةٍ، وَيُفْتَحُ الْخَلِيجُ الْكَبِيرُ إِذَا اكْتَمَلَ الْمَاءُ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا. وَأَذْرَكَتُ النَّاسَ يَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَصْبُعٍ مِنْ عِشْرِينَ. وَكُنَّا نَعْتَهْدُ الْمَاءَ إِذَا بَلَغَ أَصَابِعَ مِنْ عِشْرِينَ ذِرَاعًا، فَاضَ مَاءُ النَّيْلِ، وَغَرَّقَ الضُّبَاعَ وَالبَسَاتِينَ، وَفَارَتِ البَلَالِيحُ. وَهِيَ نَحْنُ فِي زَمَنِ، مِنْذُ كَانَتْ الْحَوَادِثُ بَعْدَ سِتِّ وَثَمَانِ مِائَةٍ، إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ فِي سَنَةٍ أَصْبُعًا مِنْ عِشْرِينَ لَا يَعْمُ الْأَرْضَ كُلَّهَا لَمَّا قَدْ فَسَدَ مِنَ الْجُسُورِ، وَكَانَ إِلَى مَا بَعْدَ الْخَمْسِ مِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ قَانُونُ النَّيْلِ سِتَّةَ عَشَرَ ذِرَاعًا فِي مِقْيَاسِ الْجَزِيرَةِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا.

وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ ذِرَاعًا وَاحِدَةً زَادَ خَرَاكِ مِصْرَ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ لَمَّا يَزُوي مِنَ الْأَرْضِ الْعَالِيَةِ، فَإِنْ بَلَغَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا كَانَتِ الْغَايَةُ الْقُضْوَى، فَإِنَّ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا فِي مِقْيَاسِ الْجَزِيرَةِ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا فِي الصُّعِيدِ الْأَعْلَى، فَإِنْ زَادَ عَلَى الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَاحِدًا، نَقَصَ مِنَ الْخَرَاكِ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، لَمَّا يُسْتَبْعَرُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُنْخَفِضَةِ.

قَالَ ابْنُ مَيْسَرٍ^٣ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: وَفِيهَا بَلَغَتْ زِيَادَةُ مَاءِ النَّيْلِ تِسْعَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا وَأَرْبَعَةَ أَصَابِعَ، وَبَلَغَ الْمَاءُ الْبَابَ الْجَدِيدَ أَوَّلَ الشَّارِعِ خَارِجَ الْقَاهِرَةِ، وَكَانَ النَّاسُ

^١ تاج الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف بن

^١ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧١.

جلب راغب المعروف بابن ميسر، مؤرخ مصري عاش =

^٢ المسعودي: التبيين والإشراف ٢٢.

يتوجهون إلى القاهرة من مصر من ناحية المقابر . فلما بلغ الخليفة الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن محمد أن الماء وصل إلى الباب الجديد ، أظهر الحزن والانتقطاع . فدخل إليه بعض خواصه وسأله عن السبب ، فأخرج له كتاباً فإذا فيه «إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عند المجيد» ثم قال : هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا وما يأتي بعدها . فمريض الحافظ في آخر هذه السنة ، ومات في^(a) سنة أربع وأربعين وخمسة مائة^١ .

وقال القاضي الفاضل^٢ في «متجددات» سنة ست وسبعين وخمسة مائة : وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر ربيع الأول ، وهو السادس عشر من مشرى ، وفي النيل^(b) على ستة

(a) بولاق : في أول . (b) الأصل : صار النيل .

= في صدر الدولة المملوكية وتوفي سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م ، ومعلوماتنا عنه قليلة ، وترجع شهرته إلى كتابه في التاريخ الذي دُيِّل به على كتاب «أخبار مصر» للمُسَبَّحِي والذي يعد أهم مصادر تاريخ الفاطميين المتأخرين . وصل إلينا في شكل انتقاء قام به مؤرخنا المقرئ سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م . كما استفاد منه - قبل المقرئ - شهاب الدين التويري صاحب «نهاية الأرب» . ووضع ابن ميسر كتاباً آخر في «قصة مصر» اعتمد عليه كثيراً ابن حجر العسقلاني في كتابه «رفع الإصر» (التويري : نهاية الأرب ٣٠ : ٣٩١ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٤ : ١٨٨ ؛ ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ٧ : ١٢٧ ؛ المقرئ : المقفى الكبير ٦ : ٣٩٥ ؛ Cahen, Cl., *El² art. Ibn Muyassar III*, p. 918 ؛ مقدمة أمين فؤاد للمنتقى من أخبار مصر ، القاهرة ١٩٨١) .

^١ ابن ميسر : أخبار مصر ١٣٩ - ١٤٠ ؛ المقرئ : اتعاظ الخنفا ٣ : ١٨٦ - ١٨٧ .

^٢ القاضي الفاضل محيي الدين أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اليبساني ، كاتب صلاح الدين ورئيس ديوان الإنشاء في عهده ، كان قد التحق بديوان الإنشاء الفاطمي في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، واشتهر بطريقة مميزة في الكتابة الإنشائية ، وإليه نسبت . صحب السلطان صلاح الدين في

حملاته في الشام ، وأقام في مصر بين سنتي ٥٨٥ - ٥٨٦هـ / ١١٨٩ - ١١٩٠م ليشراف على الديوان وإعادة تنظيم الجيش والأسطول . وفي أعقاب وفاة صلاح الدين والخلاف بين أخيه العادل وأولاده ، استقر القاضي الفاضل في مصر حتى وفاته سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م . كتب القاضي الفاضل العديد من الرسائل الذبوانية وصلت إلينا مجاميع منها سواء في نسخ مستقلة أو مُضَمَّنَةً في مصادر عصر صلاح الدين . أما كتابه الذي ينقل عنه المقرئ وسماه «المتجددات» أو «المياومات» وسماه ابن القدام «الماجريات» فلا نعرفه إلا من خلال النقول المطولة التي حفظها منه المؤرخون المتأخرون (أخباره كثيرة في مصادر عصر صلاح الدين وانظر كذلك ، العماد الكاتب : خريدة القصر (قسم مصر) ١ : ٣٥ - ٥٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات ٣ : ١٥٨ - ١٦٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢١ : ٣٣٨ - ٣٤٤ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٧ : ١٦٦ - ١٦٧ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٨ : ٣٣٥ - ٣٧٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم ٦ : ١٥٦ - ١٥٨ ؛ ولأحمد أحمد بدوي : القاضي الفاضل - دراسة ونماذج ، القاهرة د.ت ؛ Cahen, Cl., *El² art. al-Kādī al-Fādīl IV*, pp. 392-99 ؛ وانظر فيما يلي ٢ : ٣٦٦ - ٣٦٧) .

عشر ذراعًا، وهو الوَفَاءُ، ولا يُعْرَفُ وَفَاؤُهُ بهذا التاريخ في زمنٍ مُتَقَدِّمٍ^١. وهذا أيضًا مما تَغَيَّرَ فيه قانونُ النَّيْلِ في زَمَانِنَا، فَإِنَّهُ صَارَ يُوفَى فِي أَوَائِلِ مِشْرَى، ولقد كان الوَفَاءُ في سنة اثنتي عشرة وثمان مائة في اليوم التاسع والعشرين من أَيْسَبِ قَبْلِ مِشْرَى بِيَوْمٍ / وهذا من أَعْجَبِ مَا يُؤرِّخُ فِي زِيَادَاتِ النَّيْلِ.

٥ وَأَتَّفَقَ وَفَاءُ النَّيْلِ^(a) أَنْ حَادِي عَشْرَ مِنْ جَمَادَى الْأُولَى سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ، وَفِي النَّيْلِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ التَّاسِعِ عَشْرَ مِنْ بَابَةِ بَعْدِ الثُّورِوزِ بِتِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا^٢.

قَالَ: وَفِي تِسْعِ عَشْرَةٍ - يَعْنِي سُؤَالَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ - كُسِرَ بَحْرُ أَبِي الْمُنْجَا، وَبَاشَرَ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ عُثْمَانَ كَسْرَهُ، وَزَادَ النَّيْلُ فِيهِ أَصْبُعًا، وَهِيَ الْأَصْبُعُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ مِنْ ثَمَانِ عَشْرَةَ ذِرَاعًا، وَهَذَا الْحَدُّ يُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ / مِصْرَ اللَّجَّةِ الْكُبْرَى^٣.

١٠ فَانظُرْ كَيْفَ يُسَمَّى الْقَاضِي الْفَاضِلُ هَذَا الْقَدْرَ اللَّجَّةِ الْكُبْرَى، وَإِنَّهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - لَوْ بَلَغَ مَاءُ النَّيْلِ فِي سَنَةِ هَذَا الْقَدْرِ فَقَطْ لَحُلَّ بِالْبِلَادِ غَلَاءٌ يُخَافُ مِنْهُ أَنْ يَهْلِكَ فِيهِ النَّاسُ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَمَّا أُهْمِلَ مِنْ عَمَلِ الْجُسُورِ.

وَيَخْصُلُ لِأَهْلِ مِصْرَ بِوَفَاءِ النَّيْلِ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَرَحَّ عَظِيمٌ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ قَانُونُ الرَّيِّ فِي الْقَدِيمِ وَاسْتَمَرَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا. وَيَتَّخَذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا يَرْكَبُ فِيهِ السُّلْطَانُ بَعْسَاكِرَهُ، وَيَنْزِلُ فِي الْمَرَائِبِ لِتَخْلِيقِ الْمِقْيَاسِ.

١٥ وَقَدْ ذَكَرْنَا مَا كَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ، مِنْ الْإِهْتِمَامِ بِفَتْحِ الْخَلِيجِ، عِنْدَ ذِكْرِ مَنَاطِرِ اللَّوْلُؤَةِ^٤. وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ: إِنَّ يَوْمَ الْوَفَاءِ هُوَ الْيَوْمَ الَّذِي وَعَدَ فِرْعَوْنُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْإِجْتِمَاعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى﴾ [الآية ٥٩ سورة طه]، وَقَدْ بَجَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّ اجْتِمَاعَ النَّاسِ لِلتَّخْلِيقِ يَكُونُ فِي هَذَا الْوَقْتِ.

٢٠ وَمَنْ أَحْسَنَ السِّيَاسَاتِ فِي أَمْرِ النَّدَاءِ عَلَى النَّيْلِ مَا حَكَاهُ الْفَقِيهُ ابْنُ زُوَلَّاقٍ^٥، فِي «سِيرَةِ الْمُعْزِ لَدِينِ اللَّهِ»، قَالَ: وَفِي هَذَا الشَّهْرِ - يَعْنِي سُؤَالَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ - مَنَعَ الْمُعْزُ لَدِينِ اللَّهِ

(a) ساقطة من بولاق.

^١ المقرئزي: السلوك ١: ٧١.

^٢ نفسه ١: ١٣٨، وفيما يلي ١: ٤٨٨.

^٢ نفسه ٢: ٥٥ وانظر كذلك أبا المحاسن: النجوم

^٤ انظر فيما يلي ١: ٤٧٠-٤٧٩.

^٥ أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين اللبثي =

الزاهرة ٨: ٢٤٤.

من النداء بزيادة النيل ، وألا يُكْتَبَ بذلك إلا إليه وإلى القائد جوهر ، فلمَّا تمَّ أباح النداء - يعني لما تمَّ ست عشرة ذراعًا - وكسِر الخليج^١ .

فتأمل ما أبدع هذه السياسة ، فإنَّ الناس دائميًا إذا توقَّف النيل في أيام زيادته أو زاد قليلاً يَقلِّقون وتَحَدَّث^٢ أنفسهم بعدم طُلوع النيل ، فيقبضون أيديهم على الغلال ، ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويَجْتَهِد من عنده مال في اختزان الغلال^٣ ، إمَّا لطلب السعر ، أو لطلب إ ذخار قوت عياله ، فيَحَدِّث بهذا الغلاء ، فإن زاد الماء انحَلَّ السعر ، وإلا كان الجذب والقحط . ففي كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة .

وقال المسبَّحي^٤ في «تاريخ مصر» : وخرَج أمرُ صاحب القصر إلى ابن خيران بتحرير ما يستفتح به القياسون كلامهم إذا نادوا على النيل ، فقال : «نعم لا تُحصى ، من خزائن الله لا تفتى ، زاد الله في النيل المبارك كذا» .

ومن عادة نيل مصر إذا كان عند ابتداء زيادته أخضر ماؤه ، فتقول عامة أهل مصر : قد تَوَحَّم النيل . ويرَوْن أنَّ الشرب منه حينئذٍ مُضِر . ويُقال في سبب أخضراره أنَّ الوحوش - سيما الفيلة - ترد البطيحات التي في أعالي النيل ، وتستتبع فيها مع كثرة عددها لشدة الحرِّ هناك ، فيتغير ماء تلك البطيحات . فإذا وَقَعَ المطرُ في الجهة الجنوبية في أوقاته عندهم ، تكاثرت الشبول حينئذٍ في

(a) بولاق : يحدثون . (b) بولاق : خزن الغلة .

Hasan ibn Ibrâhîm ibn Zûlâq», JAOS 38 (1907), pp. 254-70; *El*² art. *Ibn Zûlâq* III, p. 1003 .

^١ الخزومي : المنهاج في أحكام الخراج - خ ٤٧ ظ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ١٦٠ ؛ المقرئزي : اتعاظ الحنفا ١ : ١٢٨ ؛ أمين فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٤٧ .

^٢ الأمير المختار عَزَّ الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد العزيز المسبَّحي ، مؤرخ مصري توفي سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، اشتهر بكتابه «أخبار مصر» الذي اشتمل على حوليات للخمسين عامًا الأولى من حكم الفاطميين في مصر . وهي مذكرات يومية للفترة التي عاصرها ، لم يصل =

= المعروف بابن زولاق ، مؤرخ مصري عاصر فتح الفاطميين لمصر وتوفي سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م . يعد خير من تكلم عن فترة حكم الفاطميين الأوائل في مصر ، وألف عدة كتب في تاريخ مصر وخططها وسير حكامها ، منها «تتمة كتاب أمراء مصر للكندي» ، و«سيرة جوهر القائد» و«تاريخ أسرة الماذرائين» و«سيرة محمد بن طفج الإخشيد» و«سيرة المعز لدين الله» التي وقف عليها المقرئزي بخطه ونقل عنها نقولاً مطولة في «الخطط» و«اتعاظ الحنفا» (راجع ، ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٥٥ - ٢٣٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢ : ٩١ - ٩٢ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١١ : ٣٧٠ ؛ المقرئزي : المقفى الكبير ٣ : ٢٨٤ - ٢٨٦ ؛ Al-Gottheil, R.,

البطليحات ، فخرَج ما كان فيها من الماء الذي قد تَغَيَّرَ ومَرَّ إلى مصر ، وجاء عَقِيْبَهُ الماءُ الجَدِيدُ ، وهو الزيادةُ بمصر ، وحينئذٍ يكون الماءُ مُحَمَّرًا لما يُخَالِطُهُ من الطُّينِ الحَرِّ الذي تأتي به السُّيولُ^١ . فإذا تَنَاهَتْ زيادَتُهُ غَشِيَ أرضَ مصر ، فَتَصِيرُ القَرَى التي في الأقاليمِ فوق التُّلالِ^٢ والرَّوابي وقد أحاطَ بها الماءُ ، فلا يَتَوَصَّلُ إليها إلا في المراكب ، أو من فَوْقِ الجُسُورِ الممتدَّةِ التي يُصْرَفُ عليها - إذا عُمِلَتْ كما يَتَّبَعِي - رُبْعُ الخراج ، ليُحْفَظَ عند ذلك ماءُ النيلِ حتى ينتهي رَيِّ كُلِّ مكانٍ إلى الحدِّ المحتاجِ إليه .

فإذا تكاملَ رَيُّ ناحية من النواحي ، قَطَعَ أهلُها الجُسُورَ المحيطةَ بها من أُمُكِنَّةٍ مَعْرُوفَةٍ عند خَوَلَةِ البلادِ ومشايعِها في أوقاتٍ محدودةٍ لا تَتَقَدَّمُ ولا تَتَأَخَّرُ عن أوقاتها المعتادة ، على حَسَبِ ما يشهد به قوانين كلِّ ناحية من النواحي ، فتزوى كلُّ جِهَةٍ مِمَّا يليها ، مع ما يَجْتَمِعُ فيها من الماءِ المَخْتَصِّ . ولو لا إِتِّقانُ ما هنالك من الجُسُورِ وحَفْرُ التُّرَعِ والخَلْجانِ ، لَقَلَّ الانتفاعُ بماءِ النيلِ ، كما قد جَرَى في زَمَانِنَا هذا .

وقد حُكِيَ أَنَّهُ كان يُرْصَدُ لِعِمَارَةِ جُسُورِ أراضِي مصر في كُلِّ سنة ثُلُثُ الخراج ، لعنايتهم في القَدِيمِ بها من أَجْلِ أَنَّهُ يترتَّبُ على عَمَلِها رَيُّ البلادِ الذي به مَصَالِحُ العبادِ . وستقف - إن شاء اللهُ تعالى - عن قَرِيبِ على ما كان من أَعْمالِ القُدَماءِ وَمَنْ بعدهم في ذلك . وكان لِلِمِقْيَاسِ في الدُولِ المَعاصِرَةِ^٣ رُسُومٌ لِكُنسِ مَجاري الماءِ ، خمسون دينارًا في كُلِّ سنة ، تُطَلَّقُ لابن أبي الرُّدَّادِ .

ذِكْرُ الجِسرِ الذي كان يُغْبَرُ عليه في النيل

اعْلَمَ أَنَّهُ كان في النيلِ جِسرٌ من سُنُنٍ فيما بين الفُسطاطِ والجزيرةِ التي تُعْرَفُ اليومَ بالرَّوَضَةِ ، وكان فيما بين الجزيرةِ والجِيزَةِ أيضًا جِسرٌ ، في كُلِّ جِسرٍ منهما ثلاثون سَفِينَةً^٤ .

(a) الأصل : البلاد . (b) بولاق : الدولة الفاطمية .

^١ انظر فيما تقدم ١٤٧ .

^٢ Fu'ad Sayyid A., *La capitale de l'Égypte*,

pp. 75-77 وفيما يلي ٣٤٢:١ و١٧٠:٢ .

= إلينا منها سوى الجزء الأربعين من الكتاب بالإضافة إلى نقول مطولة أوردتها المقرئزي وعدد آخر من المؤرخين (انظر المقدمة) .

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي مَاءِ النَّيْلِ مِنْ مَدْحٍ وَذَمٍّ

قال الرئيس أبو علي بن سينا^١ عفا الله عنه: وَقَوْمٌ يُفَرِّطُونَ فِي مَدْحِ النَّيْلِ إِفْرَاطًا شَدِيدًا، وَيَجْتَمِعُونَ مَحَامِدَهُ فِي أَرْبَعَةٍ: بُعْدُ مَنَبَعِهِ، وَطَيْبُ مَسْلُكِهِ، وَغُمْورَتُهُ، وَأَخْذُهُ إِلَى الشَّمَالِ عَنِ الْجَنُوبِ؛ فَأَخْذُهُ إِلَى الشَّمَالِ عَنِ الْجَنُوبِ مُلَطَّفٌ لِمَا يَجْرِي فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ، وَأَمَّا غُمْورَتُهُ فَيُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ^٢.

قال: فَأَفْضَلُ الْمِيَاهِ مِيَاهُ الْعِيُونَ، وَلَا كُلُّ الْعِيُونَ، وَلَكِنْ مِيَاهُ الْعِيُونَ الْحُرَّةُ الْأَرْضِ، الَّتِي لَا يَغْلِبُ عَلَى تَرْبَتِهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْكَيفِيَّاتِ الْغَرِيبَةِ، أَوْ تَكُونُ حَجْرِيَّةً / فَتَكُونُ أَوْلَى بِالْأَلْفِغَنِ الْعَفُونََةِ الْأَرْضِيَّةِ، لَكِنَّ الَّتِي هِيَ مِنْ طِينَةِ حُرَّةٍ خَيْرٌ مِنَ الْحَجْرِيَّةِ وَلَا كُلُّ عَيْنٍ حُرَّةٌ، بَلِ الَّتِي هِيَ مَعَ ذَلِكَ جَارِيَةٌ، وَلَا كُلُّ جَارِيَةٍ، بَلِ الْجَارِيَةُ الْمَكْشُوفَةُ لِلشَّمْسِ وَالرِّيَّاحِ، وَأَنَّ هَذَا مِمَّا يُكْسِبُ الْجَارِيَةَ فَضِيلَةً، وَأَمَّا الرَّايكِدَةُ فَرُبَّمَا اِكْتَسَبَتْ بِالْكَشْفِ رَدَاءَةً لَا تَكْسِبُهَا بِالْغُورِ وَالشَّرِّ.

واعلم أن المياة التي تكون طينية المسيل خير من التي تجري على الأحجار، فإن الطين ينقي الماء ويأخذ منه الممزوجات الغريبة ويروقه، والحجارة لا تفعل ذلك، لكنه يجب أن يكون طين مسيله حرا، لا حمأة ولا سبخة، ولا غير ذلك. فإن اتفق أن كان هذا الماء عمرا شديدا الجزية، تحبل بكثرة ما يخالطه إلى طبيعته، فإن كان يأخذ إلى الشمس في جزيانه فيجري إلى المشرق وخصوصا إلى الصيفي منه، فهو أفضل، لاسيما إذا بعد جدا من مبدئه^(a). ثم ماء يتوجه إلى الشمال، والمتوجه إلى المغرب والجنوب رديء، خصوصا عند هبوب ريح الجنوب. والذي

(a) بولاق: ميدانه.

الصفدي: الوافي ١٢: ٣٩١-٤١٢؛ وبمناسبة الاحتفال بألفية ابن سينا ظهرت العديد من الدراسات عن حياته ومؤلفاته، انظر على الأخص جورج شحاتة قنواتي: مؤلفات ابن سينا، القاهرة ١٩٥٠ ومقال جواشون. *Goichon, A., M., El² art. Ibn Sinâ*. (III, pp. 965-72).

^٢ ابن سينا: القانون في الطب، تحقيق إدوارد القش، بيروت، مؤسسة عز الدين ١: ١٣٤.

^١ الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن علي بن سينا، من أكبر علماء العرب والإسلام. كان طبيئا وفيلسوفًا ومنطقيًا، عرفه الأوربيون باسم Avicenne. وكانت مؤلفاته - وعلى الأخص «القانون في الطب» - من أوائل الكتب التي طبعت في أوروبا، وتوفي سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م. (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢: ٢-٢٠؛ ابن خلكان: وفيات ٢: ١٥٧-١٦٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧: ٥٣١-٥٣٧).

يَتَخَدَّرُ مِنْ مَوَاضِعٍ عَالِيَةٍ مَعَ سَائِرِ الْفَضْلِ أَفْضَلُ ، وَمَا كَانَ بِهَذِهِ الصُّفَةِ كَانَ عَذْبًا يُخَيَّلُ أَنَّهُ حُلْوٌ ، وَلَا يَحْتَمِلُ الْخَمْرَ إِذَا مُزِجَ بِهِ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكَانَ خَفِيفَ الْوِزْنِ سَرِيعَ الْبُرُودِ وَالشَّسْحِينَ لَتَخْلُخُلُهُ ، بَارِدًا فِي الشِّتَاءِ ، حَارًّا فِي الصَّيْفِ ، لَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ طَعْمُ أَلْبَتَّةٍ وَلَا رَائِحَةُ ، وَيَكُونُ سَرِيعَ الْإِنْجِدَارِ مِنَ الشَّرَاسِيفِ ^١ ، سَرِيعًا لَهْزِي مَا يُهْرَى فِيهِ ، وَطَبَخَ مَا يُطَبَخُ فِيهِ ^٢ .

٥ قال الرَّئِيسُ عَلَاءُ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْحَرَمِ بْنِ نَفِيسٍ ^٣ فِي «شَرْحِ الْقَانُونِ» : هَذِهِ الْمَحَامِدُ الَّتِي ذَكَرَهَا لَيْسَتْ عَلَامَاتٍ لِلْحَمْدِ ، بَلْ هِيَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجِبَةِ لِكَوْنِهِ مَحْمُودًا . وَأَخَذُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ بَعْدَ مَتَبَعِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ لَطَافَةَ الْمَاءِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ حَرَكَتِهِ ^٤ .

١٠ وَاغْلَمَ أَنَّ مَتَبَعَ النَّيْلِ مِنْ جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جَبَلُ الْقَمَرِ ، وَهَذَا الْجَبَلُ وَرَاءَ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ بِإِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِمَّا بِهِ أَكْثَرُ دَائِرَةِ فِي الْأَرْضِ بِثَلَاثِ مِائَةِ دَرَجَةٍ وَسِتِينَ . وَابْتِدَاءُ هَذَا الْجَبَلِ مِنَ السَّادِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ دَرَجَةً وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً مِنْ أَوَّلِ الْعِمَارَةِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ ، وَآخِرُهُ عِنْدَ آخِرِ إِحْدَى وَسِتِينَ دَرَجَةً وَخَمْسِينَ دَقِيقَةً ، فَيَكُونُ امْتِدَادُ هَذَا الْجَبَلِ بِمِقْدَارِ خَمْسِ عَشْرَةَ دَرَجَةً وَعِشْرِينَ دَقِيقَةً مِمَّا بِهِ أَكْثَرُ دَائِرَةِ فِي الْأَرْضِ ثَلَاثِ مِائَةِ وَسِتُونَ دَرَجَةً .

١٥ وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ عَشْرَةُ أَنْهَارٍ مِنْ أَعْيُنٍ فِيهِ ، تَزْمِي كُلَّ خَمْسَةِ مِنْهَا إِلَى بُحَيْرَةٍ عَظِيمَةٍ مُدَوَّرَةٍ ؛ وَإِحْدَى هَاتَيْنِ الْبُحَيْرَتَيْنِ مَرْكَزُهَا ، حَيْثُ الْبُعْدُ مِنْ ابْتِدَاءِ الْعِمَارَةِ بِالْمَغْرِبِ ، خَمْسُونَ دَرَجَةً ، وَالْبُعْدُ مِنْ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ فِي الْجَنُوبِ سَبْعَ دَرَجٍ وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً . وَمَرْكَزُ الثَّانِيَةِ حَيْثُ الْبُعْدُ عَنِ أَوَّلِ الْعِمَارَةِ بِالْمَغْرِبِ سَبْعَ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً ، وَحَيْثُ الْبُعْدُ مِنْ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ فِي الْجَنُوبِ سَبْعَ دَرَجٍ وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً .

توفى بها سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٩م (راجع، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٨: ٣٠٥-٣٠٦؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢: ٢٤٩؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٧: ٣٧٧؛ أحمد عيسى : معجم الأطباء ٢٩٢-٢٩٦؛ مقدمات يوسف زيدان لمؤلفات ابن النفيس وعلى الأخص المختصر في علم أصول الحديث ورسالة الأعضاء (القاهرة ١٩٩١) ؛ (Schacht, J., *El² art. Ibn al-Nafis* III pp. 921-22).

^٤ لم ينشر «شرح القانون» لابن النفيس، وما نشر كتاب «شرح تشريح القانون» بتحقيق سليمان قطاية، القاهرة ١٩٨٨.

^١ شرسوف ج. شراسيف : غضروف معلق بكل ضلع أو مقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن .

^٢ ابن سينا : القانون في الطب ١: ١٣٣ .

^٣ علاء الدين علي بن أبي الحرم القرشي الدمشقي الشافعي المعروف بابن النفيس رئيس أطباء مصر، لم يكن في عصره من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم، مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وصاحب المؤلفات الطبية الهامة ومنها: الشامل في الطب وشرح القانون لابن سينا وشرح فصول أبقراط وغيرها، ونظرًا لأنه لم يتزوج فقد وقف داره وأملاكه ومكتبته على البيمارستان المنصوري بالقاهرة التي

وهاتان البَحِيرَتَانِ مُتساوِيَتَانِ ، وَقَطْرُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِمِقْدَارِ خَمْسِ دَرَجٍ ، وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبَحِيرَتَيْنِ أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ ، تَزْمِي إِلَى بُحَيْرَةٍ صَغِيرَةٍ مُدَوَّرَةٍ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ ، بَعْدَ مَرْكَزِهَا عَنْ أَوَّلِ الْعِمَارَةِ بِالْمَغْرِبِ ثَلَاثَ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً ، وَعَنْ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ مِنَ الشَّمَالِ دَرَجَتَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ ، وَمِقْدَارُ قَطْرِهَا دَرَجَتَانِ .

وَيَصُبُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْهَارِ الثَّمَانِيَةِ فِي هَذِهِ الْبَحِيرَةِ نَهْرًا وَاحِدًا مِنْهَا^(a) وَهُوَ نَيْلُ مِصْرَ ، وَيَمُرُّ بِيَلَادِ الثُّوبَةِ^(b) وَيَصُبُّ إِلَيْهِ^(b) نَهْرٌ آخَرَ ، ابْتِدَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ مَرْكَزِهَا عَلَى خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ كَبِيرَةٍ مُسْتَدِيرَةٍ ، بِمِقْدَارِ قَطْرِهَا ثَلَاثَ دَرَجٍ ، وَبَعْدَ مَرْكَزِهَا مِنْ أَوَّلِ الْعِمَارَةِ بِالْمَغْرِبِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ دَرَجَةً . وَيَلْقِي نَهْرَ هَذِهِ الْعَيْنِ لِنَهْرِ النَّيْلِ حَيْثُ الْبُعْدُ مِنْ أَوَّلِ الْعِمَارَةِ بِالْمَغْرِبِ ثَلَاثَ وَأَرْبَعُونَ^(b) دَرَجَةً وَأَرْبَعُونَ دَقِيقَةً .

وَإِذَا تَعَدَّى النَّيْلُ مَدِينَةَ مِصْرَ إِلَى بَلَدٍ يُقَالُ لَهُ شَطْنُوفٌ^١ ، يُفْرَقُ هُنَاكَ إِلَى نَهْرَيْنِ يَزِيمِيَانِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَالِحِ : أَحَدُهُمَا يُعْرَفُ بِبَحْرِ رَشِيدٍ ، وَمِنْهُ يَكُونُ خَلِيجُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ . وَثَانِيَهُمَا يُعْرَفُ بِبَحْرِ دِمْيَاطٍ ، وَهَذَا الْبَحْرُ إِذَا وَصَلَ إِلَى الْمَنْصُورَةِ تَفْرَعُ مِنْهُ نَهْرٌ يُعْرَفُ بِبَحْرِ أَشْمُونِ يَزْمِي إِلَى بُحَيْرَةٍ هُنَاكَ ، وَبَاقِيَهُ يَزْمِي إِلَى الْبَحْرِ الْمَالِحِ عِنْدَ دِمْيَاطٍ^٢ .

وَزِيَادَةُ مَاءِ^(a) النَّيْلِ هِيَ مِنْ أَمْطَارِ كَثِيرَةٍ بِيَلَادِ الْحَبَشَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
وَاعْلَمُ أَنَّ الْوِزْنَ مِنَ الدُّسْتُورَاتِ الْمُنْجَحَةِ^(c) مِنْ حَالِ الْمَاءِ ، فَإِنَّ الْأَخْفَ فِي أَكْثَرِ الْأَحْوَالِ أَفْضَلُ . فَهَذَا مَا ذَكَرَهُ الرَّئِيسُ ابْنُ سَيْنَا مِنْ صِفَاتِ الْمِيَاهِ الْفَاضِلَةِ ، وَاعْتَبِرْ مَا قَالَهُ تَجِدُ ذَلِكَ قَدْ اجْتَمَعَ فِي مَاءِ النَّيْلِ .

(a) ساقطة من بولاق . (b-b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : المتخبه .

الهجري/السادس عشر الميلادي وبعد ذلك اتصلت جزيرة
دَرْوَةَ بِأَرْضِ شَطْنُوفٍ فَأَصْبَحَ رَأْسُ الدَّلْتَا عِنْدَ الْقَنَاظِرِ الْخَيْرِيَّةِ
الوَاقِعَةِ فِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ أَرْضِي نَاحِيَةِ دَرْوَةَ ، وَفِي سَنَةِ
١٩١٠ اتَّصَلَتْ جَزِيرَةُ الشَّعِيرِ - الْوَاقِعَةُ وَسَطَ النَّيْلِ - مِنْ
جِهَتِهَا الْبَحْرِيَّةِ بِأَرْضِي دَرْوَةَ فَأَصْبَحَ رَأْسُ الدَّلْتَا وَاقِعًا جَنُوبِيًّا
الْقَنَاظِرِ الْخَيْرِيَّةِ وَعَلَى بَعْدِ كِيلُومَتْرَيْنِ مِنْهَا (مُحَمَّدُ رَمَزِي :
الْقَامُوسُ الْجُغْرَافِيُّ لِلْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ ٢/٢ : ١٦٢-١٦٣) .

^١ شَطْنُوفٌ (أَوْ شَطَانُوفٌ) . مِنْ الْقَرْيَةِ الْقَدِيمَةِ كَانَتْ تَقَعُ
فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُبَكَّرِ عَلَى رَأْسِ الدَّلْتَا ، يَقُولُ الْإِدْرِيْسِيُّ
فِي حَدِيثِهِ عَنْ قَرْيَةِ زَفِيْتَةَ : وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ تَعَاقِبُ مَدِينَةَ شَطْنُوفِ
الَّتِي عَلَى رَأْسِ الْخَلِيجِ الَّذِي يَنْزِلُ إِلَى تَنِيْسٍ وَدِمْيَاطٍ . وَفِي
أَعْلَى شَطْنُوفٍ يَنْقَسِمُ النَّيْلُ عَلَى قَسْمَيْنِ يَنْزِلَانِ إِلَى أَسْفَلِ
وَيَتَصَلَّانِ بِالْبَحْرِ (نَزْهَةُ الْمَشْتَقِ ٣٣٠-٣٣١) وَانظُرْ كَذَلِكَ
يَاقُوتَ : مَعْجَمُ الْبِلْدَانِ ٣ : ٣٤٤-٣٤٥ وَفِي مَا يَلِي (٢١٥) .

^٢ السبوطي : حسن المحاضرة ٢ : ٣٥٢ .

وهي الآن إحدى قرى مركز أشمون بمحافظة المنوفية ،
كانت رأس الدلتا تنتهي عندها إلى منتصف القرن العاشر

فَأَوْلُهُ أَنَّ مَاءَ النَّيْلِ عَيْنٌ تَمُرُّ عَلَى أَرْضِي حُرَّةٍ ، وَلَا يَغْلِبُ عَلَى تُرْبَةٍ مَا يَمُرُّ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْكَيفِيَّاتِ الرَّدِيَّةِ ، كَمَعَادِنِ النَّقْطِ وَالشَّبِّ وَالْأَمْلَاحِ وَالْكَبَارِيَّتِ وَنَحْوِهَا ، بَلْ يَمُرُّ عَلَى الْأَرْضِي الَّتِي تُنْبِتُ الذَّهَبَ ، بِدَلِيلٍ مَا يَظْهَرُ فِي الشُّطُوطِ مِنْ قُرَاضَاتِ الذَّهَبِ . وَقَدْ عَانَى جَمَاعَةٌ تَصْوِيلِ الذَّهَبِ مِنَ الرَّمْلِ الْمَأْخُودِ مِنْ شُطُوطِ النَّيْلِ ، فَرَبِحُوا مِنْهُ مَالًا . وَفَضِيلَةُ كَوْنِ الذَّهَبِ فِي الْمَاءِ لَا تُنْكَرُ . الثَّانِي : أَنَّ النَّيْلَ فِي جَرْيَانِهِ أَبَدًا مَكْشُوفٌ لِلشَّمْسِ وَالرِّيَّاحِ . الثَّلَاثُ : أَنَّ طِينَهُ مِنْ طِينِ مَسِيلٍ مِنْ مِيَاهِ مَجْتَمِعَةٍ مِنْ أَمْطَارِ تَمُرٍّ عَلَى أَرْضِ حُرَّةٍ ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ عِطْرِيَّةِ رَوَائِحِ الطِّينِ إِذَا نَدَّيْتَهُ بِمَاءِ . الرَّابِعُ : غَمُورَةُ مَاءِ النَّيْلِ وَشِدَّةُ جَرِيَّتِهِ الَّتِي تَكَادُ تَقْصِفُ الْعُمُدَ إِذَا اعْتَرَضَتْهَا ، وَتَدْفَعُ الْأَثْقَالَ الْعَظِيمَةَ إِذَا عَارَضَتْهَا . الْخَامِسُ : بَعْدَ مَبْدَأِ خُرُوجِهِ مِنْ مَصْبِهِ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ / مِنْ طَوْلِ مَسَافَتِهِ مَا لَا نَجْدُهُ فِي نَهْرٍ غَيْرِهِ مِنْ أَنْهَارِ الْمَعْمُورِ . السَّادِسُ : انْحِدَارُهُ مِنْ عُلوٍّ ، فَإِنَّ الْجَنُوبَ مُرْتَفِعٌ عَنِ الشَّمَالِ ، لِأَسْيَمَا إِذَا صَارَ إِلَى الْجَنَادِلِ انْحَطَّ مِنْ أَعْلَى جَبَلٍ مُرْتَفِعٍ إِلَى وَادِي مِصْرِ .

وَذَكَرَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابِ «غَرِيبِ الْحَدِيثِ» مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ ، حِينَ سَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ مَنْزِلِهِ بِيَشَّةٍ^(a) ، فَذَكَرَهُ إِلَى أَنْ قَالَ : وَمَاؤُنَا يَمِيعُ^(b) ، أَيِ يَجْرِي مِنْ عُلوٍّ^(c) ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «خَيْرُ الْمَاءِ الشَّنِيمُ» أَيِ مَا كَانَ ظَاهِرًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ . وَالشَّنِيمُ الْمَاءُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عَلا شَيْئًا فَقَدْ تَسَنَّمَهُ ، مَاخُودٌ مِنْ سَنَامِ الْبَعِيرِ لِعُلُوِّهِ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفْسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمِزَاجُهُ مِنَ التَّنِيمِ﴾ [الآية ٢٧ سورة المطففين] : أَيِ يُمَزَّجُ بِمَا يَنْزِلُ مِنْ عُلوٍّ^(d) .

السَّابِعُ : أَنَّهُ يَمُرُّ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ ، فَتَسْتَقْبِلُهُ رِيحُ الشَّمَالِ الطَّيِّبَةِ دَائِمًا . الثَّامِنُ : خِفَّتُهُ فِي الْوِزْنِ ، وَقَدْ اعْتَبِرَ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْمِيَاهِ فَخَفَّ عَنْهَا فِي الْوِزْنِ .

التَّاسِعُ : عُدُوبَةُ طَعْمِهِ ، وَحُسْنُ أَثَرِهِ فِي هَضْمِ الْغِذَاءِ ، وَإِحْدَارُهُ عَنِ الْمَعِدَّةِ ، بِحَيْثُ إِنَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ شُرْبِهِ جُشَاءً .

وَهَذِهِ صِفَاتٌ ، إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ مَارَسَ الْعِلْمَ الطَّبِيعِيَّ وَعَرَفَ الطَّبَّ ، فَإِنَّهُ يَعْظُمُ عِنْدَكَ قَدْرُ مَاءِ النَّيْلِ ، وَتَبَيَّنَ لَكَ غَزَارَةُ نَفْعِهِ وَكَثْرَةُ مَحَاسِنِهِ .

(a) هذه الفقرة وردت في بولاق في غير موضعها بسبب عدم دقة نقل الطيارات التي أضافها المقرئ في مواضعها الصحيحة . (b) بولاق : بيلنسية . (c) بولاق : يمتنع . (d) في غريب الحديث : أي يسيل من علو .

^١ بيشة قرية باليمن بينها وبين تبالة أربع وعشرون ميلًا . معجم البلدان ١ : ٥٢٩ .

وهي في وادي يصب سيله من حجاز الطائف (باقوت) : ^٢ ابن قتيبة : غريب الحديث ١ : ٥٤٢ ، ٥٤٣ .

ويقال: إنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ كَتَبَ كِتَابًا فِيهِ مَا شَاهَدَهُ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا، فَضَمَّنَهُ كُلَّ أُعْجُوبَةٍ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ: «وَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَجَبٍ، بَلِ الْعَجَبُ نَيْلُ مِصْرٍ».

وقال بعض الحكماء: لولا ما جعل الله في نيل مصر من حكمة الزيادة في زمن الصيف على التدرج، حتى يتكامل ربي البلاد وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة، لفسد إقليم مصر وتعدت سكناه، لأنه ليس فيه أمطار كافية، ولا عيون جارية تغم أرضه، إلا بعض إقليم الفيوم.

ولله در القائل:

[الكامل]

واها لهذا النيل أي عجيبة
يلقى الثرى في العام وهو مسلم
مستقبل مثل الهلال فدهره
بكر بمثل حديثها لا يسمع
حتى إذا ما مل عاد يودع
أبدا يريد كما يريد ويوجع

١٠

وقال آخر:

[الوافر]

كان النيل ذو فهم ولب
فيأتي حين حاجتهم إليه
وقال تميم بن المعز^١:
لما يبدو لعين الناس منه
ويمضي حين يستغنون عنه

١٥

[الكامل]

يوم لنا بالنيل مختصر
والشفن تجري كالخيول بنا
فكأما أمواجه عكر
ولكل يوم مسرة قصر
صعدا وجيش الماء منحدر
وكأما دارائه سرر

وقال أيضا^٢:

٢٠

[المجث]

أما ترى الرعد بكى واشتكى
فاشرب على غيم كصبيغ الدجى
وانظر لماء النيل في مده
والبرق قد أومض واستضحكا
أضحك ووجه الأرض لما بكى
كأما صنيدل أو مسكا

وقال آخر:

٢٥

[الطويل]

والله مجري النيل منه إذا صبنا
أرتنا به من برها عسكرا بحرا

٢ نفسه ٣٠٤ .

١ ديوان تميم بن المعز ٢٤١ .

فَسَطُّ نَهْرِ السَّمْهَرِيَّةِ ذَبَلًا وموج نهر البيض هندية بترا
 إِذَا مَرَّ حَاكِي الْوَزْدِ غَضًّا وَإِنْ صَفَا حَكَى مَاءَهُ لَوْنَا وَلَوْ بَعْدَهُ مَرًّا
 وقال أبو الحسن محمد بن الوزير في تدرّيج زيادة النيل وعِظْمِ مَنْفَعَتِهِ :

[الوافر]

أَرَى أَبَدًا كَثِيرًا مِنْ قَلِيلٍ وَبَدْرًا فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ هِلَالٍ
 فَلَا تَعْجَبْ فَكُلَّ خَلِيجِ مَاءٍ بِمِصْرَ مَسِيبِ بَخْلِيجِ مَالٍ
 زِيَادَةُ أَصْبُعٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ زِيَادَةُ أَذْرُعٍ فِي مُحْسِنِ حَالٍ
 وقال الشَّهَابُ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ الْعَمْرِيُّ^١ :

[الرجز]

لِمِصْرَ فَضْلٌ بَاهِرٌ لَعَيْشِهَا الرَّغْدِ النَّضِيرِ
 فِي سَفْحِ رَوْضٍ يَلْتَقِي مَاءَ الْحَيَاةِ وَالْخَضِيرِ
 / وقال ابنُ قَلَاقِسٍ^٢ :

[البيسط]

انْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ فَوْقَ النَّيْلِ غَارِبَةً وانْظُرْ^(a) لَمَّا بَعْدَهَا مِنْ حُمْرَةِ الشُّفْقِ
 غَابَتْ وَأَلْقَتْ سُعَاعًا مِنْهُ يَخْلُفُهَا كَأَنَّهَا^(b) اخْتَرَقَتْ بِالْمَاءِ فِي الْعَرَقِ
 وَلِلْهِلَالِ فَهِيَ^(c) وَاقِي لِيُنْقِذَهَا فِي إِثْرِهَا زَوْزُقٌ قَدْ صَبِغَ مِنْ وَرَقِ
 وقال نَشْوُ^(d) الْمَلِكِ ابْنِ الْمُنْجَمِ :

[البيسط]

يَا رَبِّ سَامِيَّةٍ فِي الْجَوْ قُمْتَ بِهَا أَمَدَ طَرْفِي فِي أَرْضٍ مِنَ الْأُفُقِ
 حَيْثُ الْعَشِيَّةُ فِي التَّمَثِيلِ مَعْتَرِكِ إِذَا رَأَاهَا جَبَانًا مَاتَ لِلْفَرَقِ
 لِلشَّمْسِ غَارِبَةً ، لِلْعَرَبِ ذَاهِبَةً ، بِالنَّيْلِ مُصْفَرَّةً ، مِنْ هَجْمَةِ الْعَسَقِ
 وَلِلْهِلَالِ انْعِطَافٌ كَالسَّنَانِ بَدَا مِنْ سُورَةِ الطَّعْنِ مُلْقَى فِي دَمِ الشُّفْقِ

قال القاضي الفاضل: وأما النيل فقد ملأ البقاع، وانتقل من الأصبغ إلى الذراع،
 فكأنما غار على الأرض فغطاها، وأعار عليها فاستقمعدها وما تخطاها، فما يوجد بمصر

(a) الديوان والصفدي: واعجب. (b) الديوان والصفدي: كأنها. (c) الديوان: فهل. (d) بولاق: بشر.

^١ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك
 مصر والشام) ٩٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٥٢،
 ديوان ابن قلاقس ٤٧٧؛ الصفدي: الوافي =
 وفيما يلي ١: ٣٧٠.

قاطع طريق سواه، ولا مزغوب مزهوب إلا إياه.

ونيل مصر مخالفت في جزئه لغالب الأنهار، فإنه يجري من الجنوب إلى الشمال، وغيره ليس كذلك، إلا نهران فإنهما يجريان كما يجري النيل، وهما نهر مهران بالسند، ونهر الأريط - وهو الذي يُعرف اليوم بنهر العاصي - في حماة؛ إحدى مدائن الشام.

وقد عاب ماء النيل قوم، قال أبو بكر بن وحشية^١ في كتاب «الفلاحة النبطية»: وأما ماء النيل، فمخرجه من جبال وراء بلاد السودان يقال لها جبال القمر؛ وحلاوته وزيادته يدلان على موقعه من الشمس أنها أحرقتة لا كل الإحراق، بل أسختته إسختنا طويلاً لئنا، لا تزعجه الحرارة ولا تقوى عليه، بحيث تبرد أجزاءه الرطبة وتبقى أجزاءه الراسخة، بل يعتدل عليه؛ فصار مأؤه لذلك حلواً جداً، وصار كثرة شربه يُغضن البدن ويُحدث البثور والدمامل والقروح، وصار أهل مصر الشاربون منه دمويين محتاجين إلى استيفراغ الدم عن أبدانهم في كل مدة قصيرة. فمن كان عالماً منهم بالطبيعة، فهو يُحسن مداواة نفسه حتى يدفع عن جسمه ضرر ماء النيل، وإلا فهو يقع فيما ذكرنا من العفونات وانتشار البثر والدمامل [على البدن]^(a). وذلك أن هذا الماء ناقص البرد عن سائر المياه، قد صير له الطبخ قواماً هو أئخن من قوام الماء، فصار إذا خالط الطعام في الأبدان كثر فيها الفضول الرديئة العفنة، فيحدث من ذلك ما ذكرناه.

ودواء أهل مصر الذي يدفع عنهم ضرر ماء النيل إذمان شرب رُبوب الفاكهة الحامضة القابضة، وأخذ الأدوية المُستفْرِغَة للفضول. ولو زادت حرارة الشمس على ماء النيل وطال طبخها له لصار مالحاً بمنزلة ماء البحار الراكدة التي لا حركة لها إلا وقت جزر البحر وهبوب الرياح. وهو أوفق للزروع والمنابت من الحيوان^٢.

(a) زيادة من ابن وحشية.

المعروف المتوفى نحو سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م. وأهم مؤلفات ابن وحشية كتابه «الفلاحة النبطية» الذي ينقل عنه المقرئ هنا وفي مواضع أخرى قادمة (Fahd, T., *El*² art. *Ibn*). (Wahshiyya III, pp. 988-90).

^٢ ابن وحشية: الفلاحة النبطية ١٠٤-١٠٥.

= بالوفيات ٢٧: ٣١.
^١ أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكشداني المعروف بابن وحشية، ومعلوماتنا عنه قليلة جداً، أملى أغلب مؤلفاته على كاتبه أبي طالب أحمد بن الحسين بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الملك الزيات أحد أحفاد الوزير العباسي

وقال ابنُ رِضْوَانَ: والنَّيْلُ يَمُرُّ بِأُثْمٍ كَثِيرَةٍ مِنَ السُّودَانِ، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى أَرْضِ مِصْرٍ وَقَدْ غَسَلَ مَا فِي بِلَادِ السُّودَانِ مِنَ الْعُقُونَاتِ وَالْأَوْسَاخِ، وَيَشُقُّ مَارًّا بَوَسَطِ أَرْضِ مِصْرٍ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ، إِلَى أَنْ يَصُوبَ فِي بَحْرِ الرُّومِ. وَمَبْدَأُ زِيَادَةِ هَذَا النَّهْرِ^(a) فِي فَصْلِ الصَّيْفِ، وَتَنْتَهِي زِيَادَتُهُ فِي فَصْلِ الخَرِيفِ وَيَرْتَقِي فِي الْجَوْ مِنْهُ فِي أَوْقَاتِ مَدَّةِ رُطُوبَاتِ كَثِيرَةٍ بِالتَّحَلُّلِ الخَفِيِّ، فَيَرْتَبِّبُ ذَلِكَ يُنْسِ الصَّيْفِ وَالخَرِيفِ.

وَإِذَا مَدَّ النَّهْرُ فَاصَّ عَلَى أَرْضِ مِصْرٍ فَغَسَلَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَوْسَاخِ - نَحْوِ جِيْفِ الحَيَوَانَاتِ وَأَزْبَالِهَا، وَفُضُولِ الْأَجَامِ وَالتَّنْبَاتِ وَمِيَاهِ النَّقَائِعِ^(b) - وَأَخَذَرَ جَمِيعَ ذَلِكَ مَعَهُ، وَخَالَطَهُ مِنْ تُرَابِ هَذِهِ الْأَرْضِ وَطِينِهَا مِقْدَارًا كَثِيرًا مِنْ أَجْلِ سَخَافَتِهَا، وَبَاضَ فِيهِ مِنَ السَّمَكِ الَّذِي تَرْتَبِّي فِيهِ وَفِي مِيَاهِ النَّقَائِعِ.

١٠. وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ تَرَاهُ فِي أَوَّلِ مَدَّةِ يَخْضُرُ لَوْنُهُ بِكَثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنْ مِيَاهِ النَّقَائِعِ العَفِنَةِ الَّتِي قَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا العُرْمُضُ وَالتُّخْلَبُ، وَاخْضُرَّ لَوْنُهَا مِنْ عَفْنِهَا، ثُمَّ يَتَعَكَّرُ حَتَّى يَصِيرَ آخِرَ أَمْرِهِ مِثْلَ الحَمَاءِ، وَإِذَا صَفَا اجْتَمَعَ مِنْهُ فِي الإِنَاءِ طِينٌ كَثِيرٌ وَرُطُوبَةٌ لَرِجَّةٍ لَهَا شَهْوَكَةٌ وَرَائِحَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ، وَهَذَا مِنْ أَوْكَدِ الْأَشْيَاءِ فِي ظُهُورِ رَدَائَةِ هَذَا المَاءِ وَعَفْنِهِ. وَقَدْ يَبِينُ أَبُقْرَاطُ وَجَالِينُوسُ أَنَّ أَسْرَعَ المِيَاهِ إِلَى العَفْنِ مَا لَطَفَتْهُ الشَّمْسُ بِمِيَاهِ الأمْطَارِ.

١٥. وَمِنْ شَأْنِ هَذَا المَاءِ أَنْ يَصِلَ إِلَى أَرْضِ مِصْرٍ وَهُوَ فِي الغَايَةِ مِنَ اللُّطَافَةِ مِنْ شِدَّةِ حَرَارَةِ بِلَادِ السُّودَانِ، فَإِذَا اخْتَلَطَ بِهِ عُقُونَاتُ أَرْضِ مِصْرٍ زَادَ ذَلِكَ فِي اسْتِحَالَتِهِ، وَلِذَلِكَ يَتَوَلَّدُ فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ السَّمَكِ شَيْءٌ كَثِيرٌ جِدًّا، فَإِنَّ فَضُولَ الحَيَوَانَاتِ وَالتَّنْبَاتِ وَعُقُونَةَ هَذَا المَاءِ وَيَبِيضَ السَّمَكِ يَصِيرُ جَمِيعُهَا مَوَادَّ فِي تَكْوُنِ هَذِهِ الْأَسْمَاكِ كَمَا قَالَ أَرِسْطَاطَالِيسُ فِي كِتَابِ «الحَيَوَانَاتِ».

٢٠. وَذَلِكَ شَيْءٌ ظَاهِرٌ لِلحِسِّ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتَعَفَّنُ يَتَوَلَّدُ مِنْ عُقُونَتِهِ الحَيَوَانَاتِ، وَلِهَذَا صَارَ مَا يَتَوَلَّدُ مِنَ الدُّودِ وَالفَأْرِ وَالتُّعَايِينِ وَالعَقَارِبِ وَالتُّزْنَائِيرِ وَالتُّدَابِابِ وَغَيْرِهَا بِأَرْضِ مِصْرٍ كَثِيرًا. فَقَدْ اسْتَبَانَ أَنَّ المِزَاجَ الغَالِبَ عَلَى أَرْضِ مِصْرٍ الحَرَارَةُ / وَالرُّطُوبَةُ الفَضْلِيَّةُ، وَأَنَّهَا ذَاتُ أَجْزَاءٍ كَثِيرَةٍ، وَأَنَّ هَوَاءَهَا وَمَاءَهَا رَدِيهَانٌ^١.

(a) بولاق: زيادته. (b) الأصل وبولاق: النقايع والتصويب من ابن رضوان.

^١ ابن رضوان: دفع مضار الأبدان ١١٤-١١٦.

وربما انقطع النيل في آخر الربيع وأول الصيف من جهة الفسطاط ، فيغفن بكثرة ما يُلقى فيه إلى أن يبلغ عَفْنُهُ إلى أن يصير له رائحة منكرة محسوسة . وظاهر أن هذا الماء إذا صار على هذه الحالة غيّر مزاج الناس تغيّراً محسوساً .

وينبغي أن يُستقى ماء النيل من الموضع الذي فيه جزئه أشدّ والعفونة فيه أقلّ^١ . ويُصنّف كلُّ إنسان هذا الماء بحسب ما يُوافق مزاجه : أما المحرورون في أيام الصيف فبالطباشير والطين الأزمني والمغرة والنبق المرصوص والزعرور المرصوص والخلّ ، وأما المبرودون في أيام الشتاء فباللوز المرّ وداخل نوى المشمش والصغتر والشب .

وينبغي أن يُقطف^٥ ما يروّق ويُشرب ، وإن شئت أن تُصفيه بأن تجعله في آنية الخزف والفخار والجلود [تأخذ]^٦ ما يمتلئ من ذلك بالرشح ، وإن شئت طبخته بالنار وجعلته في هواء الليل حتى يروق ، ثم قطفت^٧ منه ما يروّق واستعملته . وإذا ظهرت فيه كيفيات رديئات فاطبخه بالنار ، ثم برّده تحت السماء في برودة الليل ، وصفه بأخلاق الأدوية التي ذكرتها .

وأجود ما اتخذ هذا الماء أن يُصنّف مراراً ، وذلك بأن تُسخنه أو تطبخه ، ثم تبرّده في هواء الليل ، وتقطف ما يروق منه ، فتصفيه أيضاً ببعض الأدوية ، ثم تأخذ ما يروّق فتجعله في آنية تمّصل في برد الليل ، وتأخذ الرشح فتشربه .

واجعل آنية هذا الماء في الصيف الخزف والفخار المعمولين في طوبة ، والظروف الحجرية والقرب ونحوها مما يُبرّد ، وفي الشتاء الآنية الزجاج والمدهون وما يُعمل في الصيف من الفخار والخزف . ويكون موضعه في الصيف تحت الأشراب وفي مخاريق ربح الشمال ، وفي الشتاء بالمواضع الحارة .

ويبرّد في الصيف بأن يُخلط معه ماء الورد ، وتؤخذ خزقة نظيفة ، ويُشدّ فيها طباشير أو بزر^٨ رجلة أو خشخاش أبيض أو طين أزمني أو مغرة ، ويلقى فيه كيما يأخذ من بردها ولا يُخالطه جسمها ، وتُغسل ظروفه^٩ في الصيف بالخزف المدقوق وبدقيق الشعير والباقلَاء والصنّدل ، وفي الشتاء بالأشنان والسعد ، ويُخّر بالمضطكى والعود .

(a) الأصل وبولاق : ينطف، والمثبت من ابن رضوان . (b) زيادة من ابن رضوان . (c) بولاق : نظفت . (d) الأصل وبولاق : وبزر والتصويب من ابن رضوان . (e) ابن رضوان : أوعيته .

وأزداً ما يكون ماء النّيل بمصر عند فيضه ، وعند وقوف حرّكته ، فعند ذلك يتبغى أن يطبخ ويألغ في تصفيته بقلوب نوى المشمش ، وسائر ما يقطع لزوجته .

وأجود ما يكون في طوبة عند تكامل البرد ، ومن أجل هذا عرف^(a) المصريون بالشجيرة أن ماء طوبة أجود المياه ، حتى صار كثير منهم يخزنه في القوارير الزجاج والصيني ، ويشربه السنة كلها ، ويؤمن أنه لا يتغير ، وصاروا أيضاً لا يصفونه في هذا الزمان لظنهم أنه على غاية الخالص . وأما أنت فلا تشكن إلى ذلك ، وصفه على أي حالة كان ، فالماء المخزون لا بد أن يتغير^١ .

فهذا ما عندي من دم ماء النّيل ، وحاصله أن الماء تتغير كفيته بما يمر عليه لا أن ذاته رديّة . فلا يهولك ما تسمع ، فما الأمر إلا ما قلت لك . وإذا كان الضرر بحسب ما تغير من كفيته لا من كميته ، فقد عرفت ما تعالجه به كي يزول ما يخالطه من الكيفيات الرديّة . والله الموفق بمنه وكرمه .

ذِكْرُ عَجَائِبِ النَّيْلِ

(b) قال المسعودي : وفي نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من الحيوانات ، فمن ذلك السمك المعروف بالزغاد ، والواحدة نحو الذراع ، إذا وقعت في شبكة الصياد ارتعدت يده وعضده فيعلم بوقوعها ، فيبادر إلى أخذها وإخراجها من شبكته ، ولو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك ؛ وقد ذكرها جالينوس ، وأنها إن جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة - وهي في الحياة - هداً من ساعته^٢ .

قال ابن البيطار^٣ عن جالينوس : هو الحيوان البحري الذي يحدث الخدر ؛ وزعم^(c) قوم أنه إذا أذني من رأس من يشتكي الصداع سكن صداعه ، وإن أذني من مقعدة من انقلبت مقعدته

(a) بولاق : عرفت . (b) انظر فيما يلي ٧٦ . (c) ابن البيطار : وقد ذكر .

^١ ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ٢١٤-٢١٧ . قراميط .

^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٨٤ ؛ وقارن الاصطخري : مسالك الممالك ٥٠ ؛ ابن حوقل : صورة الأرض ١٤٨ ، وهو السمك المعروف الآن بالقرموط ج .
^٣ ابن البيطار ، ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن محمد العبندري المالقي النّباني العشاب المتوفى سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م . عالم في النبات من خلال رحلاته =

أصلحتها . ولكني أنا جربت الأمرين جميعاً فلم أجده يفعل ولا واحداً منهما ، فكفرت أني أذنيه من رأس صاحب الصداع^(a) والحيوان^(b) هو حي ، لأنني ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزلة الأدوية الأخرى^(c) [التي تحدر الحمى]^(d) ، فوجدته ينفع ما دام حياً . قال ديسقوريدس^١ : هو سمكة بحرية مخدرة إذا وضعت على الرأس الذي عرض له الصداع المزمّن سکن شدّة وجعه ، وإذا احتمله ذو المقعدة التي تبرز إلى خارج أصلحها . وقال يونس^(e) : الزيت الذي يطبخ فيه يسكن أوجاع المفاصل الحريفة إذا دهنّت به . قال ابن البيطار : رأيت بساحل مدينة مالقة من بلاد الأندلس سمكة عريضة ، لونها ظاهرها لون رعاد مصر سواء ، وباطنها أبيض ، وفعلها في تخدير مايسكها كفعل رعاد مصر أو أشد ، إلا إنها لا تؤكل البتة^٢ .

(a) بولاق : المصدوع . (b) بولاق : ما . (c) ساقطة من بولاق . (d) إضافة من ابن البيطار . (e) ابن البيطار : بولس .

^١ ديسقوريدس العين زربي طبيب يوناني أعلم من تكلم في أصل علاج الطب ، وهو العلم في العقاقير المفردة ، صاحب كتاب «الحشائش» أو «الأدوية المفردة» ؛ تُرجم هذا الكتاب في بغداد في أيام الخليفة المتوكل ، نقله إصطقن بن بسيل الترجمان من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي ، وتصفح هذه الترجمة حنين بن إسحاق فصحيحها وأجازها . (ابن النديم : الفهرست ٣٥١ ؛ ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ٢١ - ٢٣ ؛ Dubler, C.E., *El² art.* ٢٣ - ٢١ ; *Diyuskurides II*, p. 359; Sezgin, F., *GAS III*, (pp. 58-60)

نشر الكتاب سيزر دبلر وإلياس تليز في برشلونة سنة ١٩٥٧ بعنوان «المقالات السبع من كتاب دياسقوريدس» ، ونشر صلاح الدين المنجد مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس بترجمة مهران بن منصورين مهران في دمشق - المجمع العلمي العربي سنة ١٩٦٥ ، كما نشره في تونس إبراهيم ابن مراد وصدر عن بيت الحكمة سنة ١٩٩١ .

^٢ ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، بولاق ١٢٩١ هـ ، ٢ : ١٤١ .

= في الأندلس ودراسته لمؤلفات ديسقوريدس وجالينوس . رحل في طلب العلم في رحلة طويلة زار خلالها كلاً من الشمال الإفريقي واليونان وآسيا الصغرى وبلاد فارس والعراق والشام ومصر حيث حظي بمنزلة عظيمة عند سلطانها الملك الكامل محمد الأيوبي الذي ألحقه بخدمته وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر العشايين وأصحاب البسطات (ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ١٣٣) ، كما اتصل بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب . وتوفي في دمشق فجأة في شعبان سنة ٦٤٦ هـ / نوفمبر ١٢٤٨ م . وأهم مؤلفاته كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» و«المغني في الأدوية المفردة» و«تفسير كتاب دياسقوريدس في الأدوية المفردة» . (راجع ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢ : ١٣٣ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٣ : ٢٥٦-٢٥٧ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٧ : ٥١-٥٢ ؛ المقري : نفع الطبيب ٢ : ٦٩١-٦٩٢ ؛ Brockelmann, C., *GAL I*, pp. 647-48; *S I*, pp. 896-97; Vernet, J., *El² art. Ibn al-Bâtir III*, pp. 759-60 ؛ ومقدمة إبراهيم بن مراد لكتاب تفسير كتاب دياسقوريدس في الأدوية المفردة لابن البيطار ، تونس - بيت الحكمة ١٩٩٠ ، ١٧-٤١) .

وقال بعضهم : إذا عَلَّقَت المرأة شيئاً من الرَّعَادِ عليها ، لم يَطِقَ زَوْجُهَا البُعْدَ عنها ، وكذلك إن عَلَّقَ منها الرجلُ عليه لم تَكِدْ المرأةُ أن تُفَارِقَهُ .

والسَّقَنْقُورُ وهو صِنْفٌ يتوالدُ من السَّمَكِ والتَّمْسَاحِ ، فلا يُشَاكِلُ السَّمَكَ لأنَّ له يَدَيْنِ وِرْجَلَيْنِ ، ولا يُشَاكِلُ التَّمْسَاحَ لأنَّ ذَنْبَهُ أَجْرَدٌ أَمْلَسٌ عَرِيضٌ غيرُ مُضْرَسٍ ، وذَنْبُ التَّمْسَاحِ مُسَيِّفٌ مُضْرَسٌ ؛ وَيَتَعَالَجُ بِشَحْمِ السَّقَنْقُورِ للجِمَاعِ . ولا يكونُ بمَكَانٍ إِلَّا في النَّيْلِ وفي نَهْرِ مَهْرَانَ من أَرْضِ الهِنْدِ . ولقد بَلَغَنِي أَنَّ أَقْوَامًا شَرَبُوا وأَكَلُوا منها فمَاتُوا كُلُّهُمْ في سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ١ .

والسَّقَنْقُورُ ، قال ابنُ سِينَا : هو وَزَلٌ مَائِيٌّ (a) يُصَادُ من نَيْلِ مِصْرَ ، يقولون إنَّهُ من نَسْلِ التَّمْسَاحِ ، وَأَجْوَدُ ما يُضْطَادُ في الرَّبِيعِ ٢ . وقال آخَرٌ : إنَّهُ فَرُخُ التَّمْسَاحِ ، فإذا خَرَجَ من البَيْضِ : فما قَصَدَ الماءَ صارَ تَمْسَاحًا ، وما قَصَدَ الرَّمْلَ صارَ سَقَنْقُورًا .

١٠ وقال ابنُ البَيْطَارِ : هو جِنْسٌ من الحِرَازِينِ (b) يُجَفَّفُ في الحَرِيفِ ، إذا شَرِبَ منه وَزَنَ درهَمِينَ من المَوْضِعِ الذي يلي كُلاهُ بِشَرَابِ أَنَهَضَ شَهْوَةً (a) الجِمَاعِ ؛ وهو شَدِيدُ الشُّبُهَةِ بالوَزَلِ يُوجَدُ بالرَّمالِ التي تلي نَيْلَ مِصْرَ في نَوَاحِي صَعِيدِهَا ، وهو مِمَّا يَسْتَعَى في البَرِّ وَيَدْخُلُ في الماءِ - يعني النَّيْلِ - ولهذا قِيلَ لَهُ الوَزَلُ المَائِيُّ لِشُبُهَةِ بِهِ وَلِدُخُولِهِ في الماءِ . وهو يَتَوَلَّدُ من ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَيُوجَدُ لِلذَّكَرِ خِصْيَتَانِ كَخِصْيَتِي الدُّيَكِ في خِلْقَتَيْهِمَا وَمَوْضِعَيْهِمَا ، وإنَّاهُ تَبْيَضُ فَوْقَ العَشْرِينَ بَيْضَةً وتَدْفِنُهَا في الرَّمْلِ ؛ ولِلذَّكَرِ من السَّقَنْقُورِ إِخْلِيلَانِ ، ولِلأُنْثَى فَرْجَانِ .

١٥ والسَّقَنْقُورُ يَعْضُ الإنسانَ وَيَطْلُبُ الماءَ ، فإن وَجَدَهُ دَخَلَ فِيهِ وإن لَمْ يَجِدْهُ بِالَ وَتَمَرَّغَ في بَوْلِهِ ، فإذا فَعَلَ ذلكَ مَاتَ المَعْضُوضُ لَوَقْتِهِ وَسَلِمَ السَّقَنْقُورُ ، فإن اتَّفَقَ أن سَبَقَ المَعْضُوضُ إلى الماءِ ، فَدَخَلَهُ قَبْلَ دُخُولِ السَّقَنْقُورِ الماءَ وَتَمَرَّغَهُ في بَوْلِهِ ، مَاتَ السَّقَنْقُورُ لَوَقْتِهِ وَسَلِمَ المَعْضُوضُ . والأَفْضَلُ الذَّكَرُ منه ، والأَبْلَغُ في نَفْعِ البَاهِ ، بل هو المَخْصُوصُ بِذلكَ دونَ الأُنْثَى . والمَخْتَارُ من أَعْضَائِهِ ما يلي [مَتْنَهُ وَ] (c) أَصْلُ ذَنْبِهِ وَمُحَاذِي سُرَّتِهِ .

٢٠ والوَقْتُ الذي يُصَادُ فِيهِ الرَّبِيعُ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ فِيهِ هَائِجًا لِلسَّفَادِ فيكونُ في هَذَا الوَقْتِ أَبْلَغَ نَفْعًا ، فإذا أُخِذَ ذِكِّيٌّ في يَوْمِ صَيْدِهِ ، فَإِنَّهُ إن تَرَكَ حَيًّا زالَ شَحْمُهُ وهَزُلَ لَحْمُهُ وَضَعُفَ فَعْلُهُ ، ثم يُقَطَّعُ

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : الجراد . (c) زيادة من ابن البيطار .

١ انظر كذلك الأدقوي : الطالع السعيد ٢٥ .

٢ ابن سينا : القانون في الطب ١ : ٤٠٣ .

رأسه وطرف ذنبه من غير اشتغال ، ويُشَقَّ جَوْفُهُ طَوَّلًا ، وَيُلْقَى ما فيه إِلَّا كَلَاهُ وَكَيْسُهُ . فإذا نُظِفَ حُشِي مِلْحًا ، وَخِيطَ الشَّقُّ ، وَعُلِقَ مَنكُوسًا فِي ظِلِّ معتدل الهواء حتى يَجِفَّ وَيُؤَمِّنَ فَسَادُهُ ، ثم يُرْفَع فِي إناء مُتَخَرِّقٍ للهواء كالسَّلالِ المَضْفُورَةِ من قُضبان شَجَرِ الصَّفْصَافِ والخُوصِ ونحوه إلى وَقتِ الحاجة .

٥ ولحمه - طريًا - حار رطب ، والمجفف أشد حرارة وأقل رطوبة ، ولا يُوافق استعماله من مزاجه حار يابس ، وإنما يوافق ذوي الأمزجة الباردة الرطبة . وخاصة لحمه وشحمه إنهاض شهوة الجماع ، ويُهَيِّج الشَّبَقَ ، وَيَقْوِي الإنعاط ، وَيَنْفَعُ أمراض العَصَبِ الباردة ، وخاصة ما يلي سُرته ويحاذي ذنبه .

١٠ وَيَنْفَعُ مُفْرَدًا وَمُرَكَّبًا ، واستعماله مفردًا أبلغ ؛ والمقدار منه بعد تخفيفه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل - بحسب السن والمزاج والبلد والوقت الحاضر - يُشْحَقُ وَيُذَابُ بِشَرَابِ أو ماء العسل أو نقيع الزبيب ، أو يُذَرَّ على صُفْرَةِ بَيْضِ الدَّجَاجِ النيمِرِشتِ وَيُحْتَسَى ، وكذلك يُفَعَّلُ بَلْعِمِهِ إذا أُخِذَ مِنْهُ من دِرْهَمٍ إلى دِرْهَمَيْنِ وَذُرَّ على صُفْرَةِ البَيْضِ بمفرده أو مع مثله بزر جرجير مسحوق .

١٥ ولا يوجد السَّقَنْقُورُ إِلَّا فِي بلاد الفَيُومِ خاصَّةً ، وأكثر صَيْدِهِ فِي الأُرْبَعِيناتِ إذا اشتد البرد وخرج / من الماء إلى البر ، فحينئذ يُصَادُ ١ .

٢ ومن عجائب النيل فَرَسُ البَحْرِ ٣ ، قال عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني في كتاب «أخبار الثوب» ٤ : ومسافة ما بين دُمُقَلَّةَ إلى أول بلد عُلُوَّةَ أكثر مما بين دُمُقَلَّةَ وأسوان ، وفي ذلك من القُرَى والصُّياعِ والجزائرِ والمواشي والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف ما في الجانب الذي يلي أرض الإسلام .

٢٠ وفي هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام ، فيها الحيات والوحوش والسباع ، ومفاوز يخاف فيها العطش . وماء النيل ينعطف من هذه النواحي إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسافة أيام ،

الصحيح .

١ ابن البيطار : الجامع ٣ : ٢٠ - ٢٢ .

٢ انظر المسبحي : أخبار مصر ٥٧ ؛ عبد اللطيف

٢ هذه الفقرة وردت في بولاق بعد العنوان وموضعها

البغدادي : الإفادة والاعتبار ٤٠ - ٤١ .

هنا ، ونتج ذلك عن إساءة نقل النساخ للطيارات التي

٤ عن ابن سليم الأسواني . انظر فيما يلي ٥١٧ .

كان يضيفها المقرئ وعدم معرفتهم لموضعها

حتى يصير المصعد^(a) كالمتحدر، وهي الناحية التي تبلغ العُطوف من النيل إلى المغدين المعروف بالشُنْكَة، وهي بلد معروف بشنقير، ومنه يخرج القمري، وفرس البحر يكثر في هذا الموضع. وحدثني سيمون، صاحب عهد علوة، أنه أخصى في جزيرة سبعين دابة منها، وهي من دواب الشطوط: في خلق الفرس، في غلظ الجاموس، قصيرة القوائم، لها خف، وهي في ألوان الخيل بأعراف وآذان صغار كأذان الخيل، وأعناقها كذلك، وأذناها مثل أذنان الجواميس، ولها خطم^(b) عريض، يظن الناظر إليها أن عليها مخللة لها صهيل وأنياب، لا يقوم حذاءها تمساح، وتعرض المراكب عند الغضب فتغرقها، ورعيها في البر العشب، وجلدها فيه متانة عظيمة، يتخذ منه دبايس. انتهى.

وهو كفرس البر إلا أنه أكبر عُرْفًا وذئبًا، وأحسن لونًا، وحافره مشقوق كحافر البقر، وجثته أكبر من الحمار بقليل، وهو يأكل التمساح أكلاً ذريعًا، ويقوى عليه قوة ظاهرة، وربما خرج من الماء ونزا على فرس البر فيتولد بينهما فرس في غاية الحسن.

واتفق أن بعض الناس نزل على طرف النيل ومعه حجر^(c)، فخرج من الماء فرس أذهم عليه نقت بيض، فنزا على الحجر^(c) فحملت منه وولدت مهرًا عجيب الصورة؛ فطمع في مهر آخر، فجاء بالحجر والمهر إلى ذلك الموضع، فخرج الفرس من الماء وشتم المهر ساعة، ثم وثب إلى الماء ومعه المهر؛ فصار الرجل يتعهد ذلك الموضع كثيرًا، فلم يعد الفرس ولا المهر إليه.

وقال المشعودي: والفرس الذي يكون في نيل مصر إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضع من الأرض، علم أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه، لا يختلف ذلك عندهم لطول العادات والتجارب؛ وفي ظهوره من الماء ضرر بأرباب الأرض والغلات لرعيه الزرع، وذلك أنه يظهر من الماء في الليل فينتهي إلى موضع من الزرع، ثم يولي عائدًا إلى الماء فيزعي في حال رجوعه من الموضع الذي انتهى إليه مسيره، ولا يرعى من ذلك الذي قد رعاه شيئًا في ممره، وإذا رعى ورد الماء وشرب، ثم قذف ما في جوفه في مواضع شتى، فيثبت ذلك مرة ثانية؛ وإذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره بأرباب الضياع، طرخوا له من

(a) بولاق: الصعيد. (b) بولاق: خرطوم. (c) بولاق: الحجرة.

¹ الحجر: الأنثى من الخيل.

التُّرْمِس في المَوْضِع الذي يُعْرَف خُرُوجُه منه ، مكاكي^٥ كثيرة ، مبدراً مَبْسُوطاً ، فيأْكُلُه ثم يعود إلى الماء ، فإذا شَرِبَ منه ربا التُّرْمِس في جَوْفِه وانتفخ ، فيَنْشَقُّ جَوْفُه منه ويموت ، وَيَطْفُو على الماء وَيَقْدِف به إلى السَّاجِل ؛ والمَوْضِع الذي يُرَى فيه لا يُرَى به تَمْسَاح وهو على صورة الفَرَس إلا أن حوافِرَه وذَنَبَه بخلاف ذلك ، وجبَهْتَه واسِعة^١ .

وقال المَسْبُحِي : إنَّ الصَّنْفَ المعروف بالبُلْطِي من أصناف السَّمَكِ أوَّل ما عُرِفَ بنيل مصر في أيام الخَلِيفَةِ العَزِيز بالله نزار بن المِعْز لدين الله ، ولم يكن يُعْرَف قَبْلُه في النيل . وظَهَرَ في أَيَّامِه أيضاً سَمَكٌ يُعْرَف باللُّبِيس ، وأُتِمَّ سُمِّي باللُّبِيس لأنَّه يُشْبِه البُورِي الذي بالبحر المِلْح فالتبس به ، وغالب الظَّنُّ أنَّها من أسماك البحر المِلْح دخلت في الحلو^٢ .

ومن حَيَوَان البحر التَّمْسَاح ، قال ابنُ البيطار : التَّمْسَاح حَيَوَانٌ معروفٌ يكون في الأنهار الكِبَار ، وفي النيل كثيراً ، ويوجد في نَهْر مَهْران ، وقد يُوجد في بلاد السُّودان ، وهو التَّوَزَل النَّيْلِي . وقال ابنُ زُهْر^٣ : إنَّ كُلَّ حَيَوَان يُحْرَكُ فَكَّه الأَسْفَل إذا أَكَل ، ما خَلا التَّمْسَاح ، فإنَّه يَحْرَكُ فَكَّه الأَعْلَى دون الأَسْفَل .

وَسَخْمُ التَّمْسَاح إذا عُجِنَ بالسَّمْنِ وجُعِلَ فيه فَيْلَةٌ وأُشْرَجَ في نَهْرٍ أو أَجْمَةٍ ، لم تنق^٤ ضَفَادِعُها ما دامت تَقْد ، وإن طِيفَ بِجِلْدِ تَمْسَاح حَوْلَ قَرْيَةٍ ، ثم عُلقَ على سَطْحِ دِهْلِيز لم يَفْعَ البردُ في تلك القرية .

وإذا عَضَّ التَّمْسَاحُ إنساناً ، فَوَضَعَ على العَضَّةِ سَخْمَ التَّمْسَاح ، برى من سَاعَتِه ؛ وإن لَطَّخَ بِسَخْمِه جَبْهَةَ كَبْشٍ نَطَّاح ، نَفَرَ كُلُّ كَبْشٍ يُنَاطِحُه وَهَرَبَ منه . ومَرَارَتُه يُكْتَحَلُ بها للَبْيَاضِ في العين فتُذْهِبُه . وكَبْدُه يُخْرَبُ بها المَجْنُونُ فَيَبْرَأ .

(a) المسعودي : مكاكيك . (b) بولاق : تنق وابن البيطار : تصح .

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٨٤ - ٨٥ .

^٢ ابن إياس : بدائع الزهور ١ / ١ : ١٩٥ .

^٣ ابن زهر ، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن

زهر الإيادي المتوفى سنة ١١٦٢ / ٥٥٧ م طبيب أندلسي من

أهل إشبيلية ، لم يكن في عصره من يماثله في صناعته واتصل

بعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين وصنف كتباً منها

«التفسير في المداواة والتدبير» و«الأغذية» و«الجامع» في

الأشربة والمعجونات (راجع ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء

١١٦٢ : ١٩ - ٦٦ : ٦٧ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩ : ١١٦٢

، (Arnaldez, R., *El² atr. Ibn Zuhr III, p. 1001*)

ونص ابن زهر هنا مضمن في نص ابن البيطار .

وَزَيْلُ التَّمْسَاحِ يُزِيلُ الْبَيَاضَ مِنَ الْعَيْنِ الْحَدِيثِ وَالْقَدِيمِ ، وَإِنْ قُلِعَتْ عَيْنَاهُ وَهُوَ حَيٌّ وَعُلِقَتْ عَلَى مَنْ بِهِ جُذَامٌ أَوْ قَفَّهُ ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ . وَإِنْ عُلِقَ شَيْءٌ مِنْ [أَسْنَانِهِ] ^(a) الَّتِي بِالْجَانِبِ الْأَيْمَنِ عَلَى رَجُلٍ زَادَ فِي جِمَاعِهِ ، وَعَيْنُهُ الْيُمْنَى لَمْ يَشْتَكِ عَيْنَهُ الْيُمْنَى ، وَعَيْنُهُ الْيُسْرَى لَمْ يَشْتَكِ عَيْنَهُ الْيُسْرَى . وَشَحْمُهُ إِذَا أُذِيبَ بِدُهْنٍ وَزِدَ نَفَعَ مِنْ وَجَعِ الْقَلْبِ ^(b) وَالْكُلَيْتَيْنِ ، وَزَادَ فِي الْبَاهِ .

وَإِذَا أُخِذَ دَمُ التَّمْسَاحِ وَخُلِطَ بِهِ هَلِيلِجٌ وَأَمْلَحٌ وَطَلِيٌّ بِهِ عَلَى الْوَضْحِ ^١ أَذْهَبَهُ وَغَيْرَ لَوْنِهِ ، وَإِذَا طَلِيٌّ بِهِ عَلَى الْجَبْهَةِ وَالصَّدْغَيْنِ نَفَعَ مِنْ وَجَعِ الشَّقِيقَةِ . وَإِذَا أُكُلَ لَحْمُهُ أَشْفِيذُ بَاجَا سَمَّنَ الْبَدَنَ النَّحِيفَ ، وَشَحْمُهُ إِذَا قُطِرَ بَعْدَ أَنْ يُذَابَ فِي الْأُذُنِ الْوَجِيعَةَ نَفَعَهَا ، وَإِنْ أُذِينَ تَقَطِيرُهُ فِي الْأُذُنِ نَفَعَ مِنَ الصَّمَمِ ، وَإِذَا دَهْنٌ بِهِ صَاحِبُ حُمَّى الرَّبْعِ سَكَنَتْ عَنْهُ ؛ وَلَحْمُهُ رَدِيءُ الْكِيمُوسِ ^٢ .

وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ : وَكَذَلِكَ التَّمْسَاحُ آفَتُهُ مِنْ دَوِيَّةٍ تَكُونُ فِي سَوَاحِلِ النَّيْلِ وَجَزَائِرِهِ ، وَهُوَ أَنَّ التَّمْسَاحَ لَا دُبُرَ لَهُ وَمَا يَأْكُلُهُ يَتَكَوَّنُ فِي بَطْنِهِ دُودًا ، فَإِذَا آذَاهُ ذَلِكَ خَرَجَ إِلَى الْبَرِّ فَاسْتَلْقَى عَلَى قَفَاهُ فَاعْرَا فَاهُ ، فَيَنْقَضُ إِلَيْهِ طَيْرُ الْمَاءِ - وَقَدْ اعْتَادَ مِنْهُ ذَلِكَ - فَيَأْكُلُ مَا يَظْهَرُ مِنْ جَوْفِهِ مِنْ ذَلِكَ الدُّودِ الْعَظِيمِ ، وَتَكُونُ تِلْكَ الدَّوِيَّةُ قَدْ كَمُنَتْ فِي الرَّمْلِ ، فَتَسْبُ إِلَى حَلْقِهِ وَتَصِيرُ إِلَى جَوْفِهِ ، وَتَخْرُجُ فَيَخْبِطُ بِنَفْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَيَطْلُبُ قَعْرَ النَّيْلِ ، حَتَّى تَأْتِيَ الدَّوِيَّةُ عَلَى حِشْوَةِ جَوْفِهِ ثُمَّ تَخْرُقُ جَوْفَهُ وَتَخْرُجُ . وَرَبَّمَا قَتَلَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ فَتَخْرُجَ بَعْدَ مَوْتِهِ [مِنْ جَوْفِهِ] ^(c) ؛ وَهَذِهِ الدَّوِيَّةُ تَكُونُ نَحْوَ الذَّرَاعِ ، عَلَى صُورَةِ ابْنِ عَرَسٍ ، ذَاتِ قَوَائِمٍ شَتَّى وَمَخَالِبٍ ^٣ .

وَيُقَالُ كَانَ بِجِبَالِ قُسْطَاطٍ مِصْرَ طُلُوسٍ مَعْمُولٌ بِهَا ، وَكَانَ التَّمْسَاحُ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِضْرَارَ ^(d) حَوْلَهُ ، بَلْ كَانَ إِذَا بَلَغَ حُدُودَهُ انْقَلَبَ وَاسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ فَيَتَعَبَثُ بِهِ الصُّبْيَانُ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ نَهَايَةَ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يَعُودُ مُسْتَوْتًا وَيَعُودُ إِلَى طِبَاعِهِ ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا الطُّلُوسَ كُسِرَ فَبَطَلَ فِعْلُهُ .

وَيُقَالُ إِنَّ التَّمْسَاحَ يَبْيِضُ كَبَيْضِ الْإَوْزِ ، وَرَبَّمَا تَوَلَّدَ فِيهِ جِرَادِينَ صِغَارٍ ، ثُمَّ تَكْبُرُ حَتَّى يَبْلُغَ طَوْلَهَا عَشْرَةَ أَذْرُعَ ، وَتَزْدَادُ طَوْلًا كُلَّمَا عُمِّرَتْ . وَالتَّمْسَاحُ يَجَامِعُ ^(e) سِتِينَ مَرَّةً فِي حَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ وَمَحَلٌّ وَاحِدٌ ، وَسِنَّهُ الْيُسْرَى نَافِعَةٌ لِلنَّافِضِ .

(a) إضافة من ابن البيطار . (b) الأصل وبولاق : الصلب ، والمثبت من ابن البيطار . (c) زيادة من المسعودي .

(d) بولاق : القرب . (e) بولاق : يرتعش .

^١ الوَضْحُ هُوَ الْبَرَصُ .
عن الكيموس فيما تقدم ١١٨ هـ .

^٢ ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية ١ : ١٤١ ، وانظر
^٣ المسعودي : مروج الذهب ١ : ١٢٧ .

ذكر طرف من تقدمت المعرفة بحال النيل في كل سنة

قال ابن رِضْوَانٍ فِي شَرْحِ الْأَرْبَعِ^١: وَقَدْ يَحْتَاجُ أَمْرُ النَّيْلِ إِلَى شُرُوطٍ: مِنْهَا أَنْ تَكُونَ الْأَمْطَارُ مُتَوَالِيَةً فِي نَوَاحِي الْجَنُوبِ قَبْلَ مَدُّهِ وَفِي وَقْتِ مَدُّهِ، وَلِذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ النَّيْلُ - مَتَى كَانَتْ الزُّهْرَةُ وَعُطَارِدُ مَقْتَرَيْنِ فِي مَدْخَلِ الصَّيْفِ - كَثِيرَ الزِّيَادَةِ لِرُطُوبَةِ الْهَوَاءِ، وَمَتَى كَانَ الْمَرِيخُ أَوْ بَعْضُ الْمَنَازِلِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ فِي مَدْخَلِ الرَّبِيعِ / أَوِ الصَّيْفِ، كَانَ قَلِيلًا لِقَلَّةِ الْأَمْطَارِ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ. وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ الرِّيَاحُ شِمَالِيَةً لِتُوقِفَ جَرِيَهُ، فَأَمَّا الْجَنُوبِيَّةُ فَإِنَّهَا تُسْرِعُ انْحِدَارَهُ وَلَا تَدَعُهُ يَلْبَثُ. فَإِذَا عَلِمْتَ مَا يَكُونُ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَمْطَارِ أَوْ قِلَّتِهَا، وَفِي نَاحِيَةِ مِصْرَ مِنْ هُبُوبِ الرِّيَاحِ فِي فَصْلِي الرَّبِيعِ وَالصَّيْفِ، فَقَدْ عَلِمْتَ حَالَ النَّيْلِ كَيْفَ يَكُونُ، وَتَعَلَّمَ مِنْ حَالِهِ مَا يَغْرُضُ بِمِصْرَ مِنَ الْخِيَصْبِ وَالْقَحْطِ^(a).

وَقَالَ ابْنُ يُونُسَ الْمُنْجَمُ^٢ عَنِ بَطْلَمَيْوسَ: إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَعْلَمَ مِقْدَارَ النَّيْلِ فِي الزِّيَادَةِ وَالتَّقْصَانِ، فَانظُرْ حِينَ تَحِلُّ الشَّمْسُ بُرْجَ السَّرَطَانَ إِلَى الزُّهْرَةِ وَعُطَارِدِ الْقَمَرِ: فَإِنْ كَانَتْ أَحْوَالُهَا جَيِّدَةً وَهِيَ بَرِيَّةٌ مِنَ النَّحُوسِ، فَالنَّيْلُ يَمْتَدُّ وَتَبْلُغُ الْحَاجَةُ بِهِ؛ وَإِنْ كَانَتْ أَحْوَالُهَا بِخِلَافِ ذَلِكَ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، فَانكسِ الْقَوْلَ، فَإِنْ ضَعُفَ بَعْضُهَا وَصَلَحَ الْبَعْضُ، تَوَسَّطَ الْحَالُ فِي النَّيْلِ. وَالضَّابِطُ أَنَّ قُوَّةَ الثَّلَاثَةِ تَدُلُّ عَلَى تَمَامِ النَّيْلِ، وَضَعْفُهَا عَلَى تَوَسُّطِهِ، وَانْتِحَاسُهَا أَوْ اخْتِرَاقُهَا أَوْ وَقُوعُهَا فِي بُعْدِهَا الْأَبْعَدِ مِنَ الْأَرْضِ عَلَى النِّقْصِ وَأَنَّهُ قَلِيلٌ جَدًّا، إِلَّا أَنْ اخْتِرَاقَ الزُّهْرَةَ فِي بَرَجِ الْأَسَدِ يَسْتَنْزِلُ الْمَاءُ مِنَ الْجَنُوبِ. وَقَالَ أَبُو مَعْشَرَ^٣: يُنظَرُ عِنْدَ انْتِقَالِ الشَّمْسِ إِلَى بُرْجِ السَّرَطَانَ لِلزُّهْرَةِ وَعُطَارِدِ الْقَمَرِ: فَإِنْ كَانَتْ فِي سَيْرِهَا الْأَكْبَرَ فَإِنَّ زِيَادَةَ النَّيْلِ عَظِيمَةً، وَإِنْ كَانَتْ فِي سَيْرِهَا الْأَوْسَطِ فَاعْرِفْ كَمْ أَكْثَرَ

(a) بولاق: الجذب.

^١ عن هذا الكتاب انظر فيما تقدم ١٢٦.^٢ ابن يونس المنجم، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن ابن

أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري المتوفى سنة

١٠٠٩ هـ / ١٠٠٩ م، ألف للحاكم بأمر الله الفاطمي كتاب

«الزيج الحاكمي» الذي اشتهر به (صاعد الأندلسي: التعريف

بطبقات الأمم ٢٣١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٤٢٩ -

٤٣١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧: ١٠٩-١١٠؛

الصفدي: الوافي بالوفيات ١٩: ٢٢٦؛ كراتشكوفسكي:

تاريخ الأدب الجغرافي ١٢٢-١٢٤؛ Goltstein, B. R.,

El² art. Ibn Yūnus III pp. 969-70.^٣ أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي، أحد

المنجمين العرب، عرفه الغربيون في العصور الوسطى باسم =

مسيرها وكم أقله وأنسيبه بحسب ما تراه ، وإن كانت بطيئة الشير فزيادة النيل قليلة ، وإن اختلفت مسير هذه الثلاثة فكان بعضها في مسيره الأكبر وبعضها بطيء الشير فغلب أقواها وامزج الدلالة ، وقل بحسب ذلك .

وقالت القبط : يُنظر أول يوم من شهر برمودة ، ما الذي يوافقه من أيام الشهر العربي ، فما كان من الأيام ، فزد عليه خمسة وثمانين ، فما بلغ خذ سدسه فإنه يكون عدد مبلغ النيل من الأذرع في تلك السنة .

قالوا : ومن المعتبر أيضا في أمر النيل أن تنظر اليوم الذي تظفر فيه النصارى اليعاقبة بمصر ، وما بقي من الشهر العربي فزد عليها أربعًا وثلاثين ، فما بلغ أسقطه اثني عشر ، فإن بقي بعد ذلك الإسقاط من العدد زيادة على اثني عشر فهو زيادة النيل من الأذرع في تلك السنة مع الاثنى عشر ، وإن بقي اثنا عشر فهي سنة رديئة . قالوا : وإذا كان العاشر من الشهر العربي موافقًا لشهر أيب ، والقمر في برج العقرب ، فإن كان مقارنًا لقلب العقرب كان النيل مقصرًا وإلا فهو جيد . قالوا : ويُنظر أول يوم من بئونة ، فإن هبت الرياح شمالًا في بكرة النهار كان النيل عاليًا ، وإن هبت وسط النهار فإنه متوسط ، وإن هبت آخر النهار كان نيلًا قاصرًا ، وإن لم تهب لم يطلع تلك السنة . وقيل يُعتبر هكذا أول خميس من بئونة .

ومن المعتبر الذي جربته أنا سنين ، وأخبرني بعض شيوخنا أنه جربه وأخبره به من جربه فصح ، أن يُنظر أول يوم من مسرى كم مبلغ النيل ، فزد عليه ثمانية أذرع ، فما بلغ فهو زيادة النيل في تلك السنة .

ومما اشتهر عند أهل مصر - وجربته أيضًا فصح - أن يُؤخذ قبل عيد ميكائيل يوم في وقت الظهر من الطين الذين مرّ عليه ماء النيل قطعة زنتها ستة عشر درهماً سواء ، وتزفع في إناء مغطى

١١٨ ، ١٨١ - ١٨٣ ، ١٨٧ - ١٨٨ ، ٢٠١ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ؛ فزاد سيد : مقدمة طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل صفحة كو - Brockelmann, C., *GALI*, 221-22, SI, 394-98; كط ؛ Sezgin F., *GAS VI*, 156-57, VII, 143-51; Millàs, (J.M., *El² art. Abu Ma^c shar I*, pp. 143-44; ونشر كبحي ياموتو «كتاب الملل والدول» لأبي معشر بعنوان Yamamoto, K., *Abu Ma^c shar on Historical Astrology - The Book of Religions and Dynasties (On the Great Conjunctions)*, Leiden-Brill 2000

= «ألبماسر Albumasar». بدأ حياته بدراسة الحديث ولم يدرس علم النجوم إلا عندما بلغ السابعة والأربعين من عمره ؛ وأتت منه مصنف العرب بانتحال مؤلفات غيره ، وتوفي سنة ٢٧٢ هـ / ٨٨٦ م ، ومن مؤلفاته كتاب «تحويل سني العالم» و«كتاب الألف» أو «كتاب الألف في بيوت العبادات» ، ولم يحدد المقرئ عنوان الكتاب الذي اعتمد عليه هنا أو فيما يلي من صفحات الكتاب (انظر ابن النديم : الفهرست ٣٣٥ - ٣٣٦ ؛ صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ٢٢٧ - ٢٢٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٥٨ : ٣٥٩ ؛ نلينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ٨٧ - ٩٠ ،

إلى بُكرة يوم عيد ميكائيل ، وتوزن ، فما زاد على وزنها من الخرايب كان مبلغ النيل في تلك السنة بقدر عدد تلك الخرايب ، لكل خروبة ذراع ؛ ومع ذلك فلا بد من (a) أخذ شيء من دقيق القمح وعجنه بماء النيل في إناء فخار ، وقد عمِل من طين مر عليه النيل ، وتركه مُعطى طول ليلة عيد ميكائيل ، فإذا وُجد بُكرة يوم العيد قد اختمر بنفسه كان النيل تامًا وافيًا ، وإن وُجد لم يختمر دل على قصور هذا النيل .

ثم ينظرون مع ذلك بُكرة يوم عيد ميكائيل إلى الهواء ، فإن هبت طياتًا فهو نيل كبير ، وإن هبت غير طياب فهو نيل مقصر ، لاسيما إن هبت مريسيًا فإنه يكون نيلًا غير كاف . والشأن عندهم إنما هو في دلالة العلامات الثلاث على شيء واحد ، فأما إذا اختلف الحكم لا يكاد يصح .

وقال أبو الرئحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» : وذكر أصحاب التجارب أنه إذا تُقدّم فعمد إلى لوج ، وزرع عليه من كل زرع ونبات ، حتى إذا كانت الليلة الخامسة والعشرون من شهر تموز - أخذ شهور الروم وهي آخر أيام الباحور - ثم وضع اللوح بارزًا لطلوع الكواكب وغروبها ، [بحيث] (b) لا يحول بينه وبين السماء شيء ، فإن كل ما يركو^(c) في تلك السنة من الزروع يُصبح أصفر ، وما لا يصلح (d) ريغها منها يبقى أخضر ، وكذلك كانت القبط تفعل ذلك .^١

وقد جرّبت أنا - على ما أفادنيه بعض الكتاب - أنه إذا حصل مطر ، ولو قل ، في شهر بابة ، يُنظر ما ذلك اليوم من الشهر القبطي ، فإنه يتلغ سعر الويئة القمح تلك السنة من الدراهم بعدد ما مضى من أيام شهر بابة . وأول ما جرّبت هذا أنه وقع مطر في بابة يوم الخميس الخامس عشر منها ، فبيعت الويئة تلك السنة بخمسة عشر درهماً .

(a) بولاق : ومن ذلك . (b) زيادة من البيروني . (c) الأصل وبولاق : ما لا يركو . (d) الأصل وبولاق : وما يصلح والتصويب من البيروني .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٢٦٨ - ٢٦٩ .

ذِكْرُ عِيدِ الشَّهِيدِ

ومَّا كَانَ يُعْمَلُ بِمِصْرَ عِيدِ الشَّهِيدِ، وَكَانَ مِنْ أَثَرِهِ فُرْجُ أَهْلِ^(a) مِصْرَ، وَهُوَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ مِنْ بَشَنَسٍ - أَحَدِ شَهْرِي الْقِبْطِ -، وَيَزْعَمُونَ أَنَّ النَّيْلَ بِمِصْرَ لَا يَزِيدُ فِي كُلِّ سَنَةٍ حَتَّى يُلْقَى النَّصَارَى فِيهِ تَابُوتًا مِنْ خَشَبٍ، فِيهِ أَصْبُعٌ مِنْ أَصَابِعِ كُبْرَائِهِمْ^(b)، وَيَكُونُ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا تَرْحَلُ إِلَيْهِ النَّصَارَى مِنْ جَمِيعِ الْقُرَى، وَيَرْكَبُونَ فِيهِ الْخَيْلَ وَيَلْعَبُونَ عَلَيْهَا.

وَيَخْرُجُ كَأَفَّةٍ^(c) أَهْلُ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ، وَيَنْضُبُونَ الْحَيْمَ الْكَبِيرَةَ^(d) عَلَى شَطُوطِ النَّيْلِ وَفِي الْجَزَائِرِ، وَلَا يَقِي مَغْنً وَلَا مُغْنِيَةً وَلَا صَاحِبَ لَهْوٍ وَلَا رَبَّ مَلْعُوبٍ وَلَا بَغِيٍّ وَلَا مُخَنَّثٍ وَلَا مَاجِنٍ وَلَا خَلِيعٍ وَلَا فَاتِكٍ وَلَا فَاسِقٍ، إِلَّا وَيَخْرُجُ لِهَذَا الْعِيدِ. فَيَجْتَمِعُ عَالَمٌ عَظِيمٌ^(e) لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا خَالِقُهُمْ، وَتُضْرَفُ أَمْوَالٌ لَا تُحْصَرُ^(f)، وَيَتَجَاهَرُ النَّاسُ مِنَ الْقَبْحِ^(g) بِمَا لَا يُحْتَمَلُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْفُسُوقِ، وَتَثُورُ فِتَنٌ، وَيُقْتَلُ أَنْاسٌ، وَيُبَاعُ مِنَ الْخَمْرِ خَاصَّةً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا يَنِيفُ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ فِضَّةً عَنْهَا خَمْسَةُ أَلْفِ دِينَارٍ ذَهَبًا، وَبَاعَ نَصْرَانِيٌّ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ بَاثْنِي عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فِضَّةً مِنَ الْخَمْرِ. وَكَانَ اجْتِمَاعُ النَّاسِ لِعِيدِ الشَّهِيدِ دَائِمًا بِنَاحِيَةِ شَبْرَا مِنْ ضَوَاحِي الْقَاهِرَةِ، وَكَانَ اعْتِمَادُ قَلَّاحِي شَبْرَا دَائِمًا فِي وَفَاءِ الْخَرَّاجِ عَلَى مَا يَبِيعُونَهُ مِنَ الْخَمْرِ فِي عِيدِ الشَّهِيدِ.

وَلَمْ يَزَلْ الْحَالُ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الْاجْتِمَاعِ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ كَانَتْ سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِ مِائَةٍ - وَالسُّلْطَانُ يَوْمَئِذٍ بَدِيَارُ مِصْرَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ، وَالْقَائِمُ بِتَدْوِيرِ الدَّوْلَةِ الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ بَيْبُزَسُ الْجَاشَنْكِيرُ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَسْتَاذُ السُّلْطَانِ، وَالْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ سَلَارُ نَائِبُ السُّلْطَانَةِ بَدِيَارُ مِصْرَ - فَقَامَ الْأَمِيرُ بَيْبُزَسُ فِي إِبْطَالِ ذَلِكَ قِيَامًا عَظِيمًا، وَكَانَ إِلَيْهِ أُمُورُ دِيَارِ مِصْرَ هُوَ وَالْأَمِيرُ سَلَارُ، وَالنَّاصِرُ تَحْتَ حَجْرِهِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ بَطْنُهُ إِلَّا مِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمَا. فَتَقَدَّمَ أَمْرُ الْأَمِيرِ بَيْبُزَسَ أَلَّا يُزَمَى أَصْبُعٌ فِي النَّيْلِ، وَلَا يُعْمَلُ لَهُ عِيدٌ، وَنَدَبَ الْحُجَّابُ وَوَالِي الْقَاهِرَةَ لَمْنَعِ النَّاسِ مِنَ الْاجْتِمَاعِ بِشَبْرَا عَلَى عَادَتِهِمْ. وَخَرَجَ الْبَرِيدُ إِلَى سَائِرِ أَعْمَالِ مِصْرَ وَمَعَهُمُ الْكُتُبُ إِلَى الْوَلَاةِ بِإِجْهَارِ النَّدَاءِ وَإِعْلَانِهِ فِي الْأَقَالِيمِ بَأَلَّا يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنَ النَّصَارَى، وَلَا يَحْضُرَ لِعَمَلِ عِيدِ الشَّهِيدِ. فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَقْبَاطِ مِصْرَ كُلِّهِمْ، مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ مِنْهُمْ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَمَنْ هُوَ بَاقٍ عَلَى

(a) ساقطة من الأصل وبولاق ومثبتة من مسودة الخطط. (b) الأصل: سلفهم الموتى، بولاق: أسلافهم الموتى، والمثبت من مسودة الخطط. (c) الأصل وبولاق: عامة. (d) من مسودة الخطط. (e) ساقطة من الأصل. (f) الأصل وبولاق: لا تنحصر. (g) الأصل: من هنا، بولاق: هناك.

نصرانيته ، ومشى بعضهم إلى بعض . وكان منهم رجل يُعرف بالثاج بن سعيد الدولة^١ يعاني الكتابة ، وهو يومئذ في خدمة الأمير بيبرس ، وقد احتوى على عقله ، واستولى على جميع أموره ، كما هي عادة ملوك مصر وأمرائها من الأتراك في الانقياد لكتابهم من القبط ، سواء منهم من أسر الكفر ومن جهر به .

وما زال الأقباط بالثاج إلى أن تحدت مع مخدمه الأمير بيبرس في ذلك ، وخبيل له من تلف مال الخراج إذا بطل هذا العيد ، فإن أكثر خراج شبرا إنما يحصل من ذلك ، وقال له : متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل أبداً ، ويخرب إقليم مصر لعدم طلوع النيل ونحو ذلك من هتف القول ، وتتميق المكر . فثبت الله الأمير بيبرس وقواه حتى أعرض عن جميع ما زخرقه من القول ، واستمر على منع عمل العيد وقال للثاج : إن كان النيل لا يطلع إلا بهذا الأصبغ فلا يطلع ، وإن كان الله سبحانه هو المتصرف فيه ، فكذب التصاري . فبطل العيد من تلك السنة ، ولم يزل منقطعاً إلى سنة ثمان وثلاثين وسبع مائة^٢ .

وعمر الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر في بحر النيل ، ليرمي قوة التيار عن بر القاهرة إلى ناحية الجيزة^(a) ، كما ذكر في موضعه من هذا الكتاب^٣ . فطلب الأمير يلْبغا التحياوي والأمير الطنبغا المارديني من السلطان أن يخرجوا إلى الصيد ويغيبا مدة ، فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه في محبتهم ، وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما : نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد - وكان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد - فرضيا منه بذلك ، وأُشيع في الإقليم إعادة عمل عيد الشهيد . فلما كان اليوم الذي كانت العادة بعمله فيه ، ركب الأمراء النيل في الشخاتير^٤ بغير حراريق ، واجتمع الناس من كل

(a) في مسودة الخطط : ليحذف قوة الماء ، عن ناحية بولاق إلى أنبوبة ، وبولاق التكرور .

^١ الوزير الثاج أبو الفرج بن سعيد الدولة كاتب بيبرس الجاشنكير ، وقرره عند سلطنته مشيراً ، توفي في شهر رجب سنة ١٣٠٩/٥٧٠٩ م (بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ٣٨٨ ، ٤٠٧ ؛ المقريري : السلوك ٢ : ٨٥-٨٦ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ : ٢٧٩-٢٨٠ .

^٢ انظر فيما يلي ٢ : ١٦٥-١٧١ .

^٣ انظر فيما يلي ٢ : ١٦٥-١٧١ .

^٤ شخثور ، شخثورة جد . شخاتير . من المراكب النيلية التي كانت تستخدم لتعدية الناس في النيل في إبان زيادته من مصر إلى الجيزة ومن الجيزة إليها (النخيلي : السفن الإسلامية ٧٤-٧٥) .

^٢ انظر أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ : ٢٠٢-٢٠٣ .

جهة ، وبَرَزَ أربابُ الغِناءِ وأصحابُ اللُّهُوِ والخِلاعةِ فركبوا النِّيلَ ، وتَجَاهَرُوا بما كانت عاداتهم المُجَاهزة به من أنواعِ المُتَكَراتِ ، وتَوَسَّعَ الأَمْرَاءُ في تَنوُّعِ الأَطعمَةِ والحِلاواتِ وغيرها توشُّعًا خَرَجُوا فيه عن الحَدِّ في الكثرةِ البالِغةِ ، وعمَّ الناسُ منهم ما لا يمكن وَصْفُهُ لكثرتِهِ ، واستمرُّوا على ذلك ثلاثة أيام .

- ٥ وكانت مُدَّةُ انقِطاعِ عَمَلِ عيدِ الشَّهيدِ منذ أبطله الأميرُ بَيْبُوسُ إلى أن أعادَهُ الملكُ النَّاصِرُ سِتًّا وثلاثين سنة . واستمرَّ عَمَلُهُ في كلِّ سنة بعد ذلك إلى أن كانت سنة خمس وخمسين وسبع مائة^١ تَحَرَّكَ المسلمون على النَّصارَى ، وعُمِلَت أوراقٌ بما قد وَقِفَ من أراضي مصر على كَنائِسِ النَّصارَى ودياراتهم ، وأُلْزِمَ كُتَّابُ الأَمْرَاءِ بِتَحْرِيرِ ذلك وَحْمَلِ الأوراقِ إلى ديوانِ الأَحباسِ . فلَمَّا تَحَرَّزَتِ الأوراقُ ، اشتملت على خمسة وعشرين ألفَ فَدَّانٍ كلِّها مَوْقُوفَةٌ على الدِّياراتِ والكَنائِسِ ، فَعَرِضَتِ على أَمْرَاءِ الدَّوْلَةِ القائِمِينَ بِتَدْيِيرِ الدَّوْلَةِ في أَيَّامِ الملكِ الصَّالِحِ صَالِحِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ قَلاوون - وهم الأميرُ شَيْخو العُمَرِيِّ ، والأميرُ صَرْعَثمُش ، والأميرُ طاز - فَتَقَرَّرَ الحالُ على أن يُنْعَمَ بِذلك على الأَمْرَاءِ زيادةً على إقْطاعاتِهِمْ ، وأُلْزِمَ النَّصارَى بما يُلْزَمُهُم من الصُّغارِ ، وَهَدِمَتِ لَهُمْ عِدَّةٌ كَنائِسِ ، كما هو مذكور في موضعه من هذا الكتاب / عند ذكر الكَنائِسِ^٢ .

- ١٥ فلَمَّا كان العَشرُ الأخيرُ من شهرِ رَجَبٍ من السنة المذكورة ، خَرَجَ الحَاجِبُ والأميرُ عَلاءُ الدينِ عَلِيُّ بنِ الكُوراني والي القاهِرَةِ إلى ناحيةِ شَبْرَا الخِيامِ من ضواحي مصر ، فَهَدِمَتِ كَنيسةُ النَّصارَى ، وَأُخِذَ مِنْهَا أَصْبَعُ الشَّهيدِ في صُندوقٍ وَأُخْضِرَ إلى الملكِ الصَّالِحِ ، وَأُحْرِقَ بَيْنَ يَدَيْهِ في المَيْدانِ ، وَذُرِّي رَمادُهُ في البحرِ حتى لا يَأْخُذَهُ النَّصارَى ، فَبَطُلَ عيدُ الشَّهيدِ من يومئذٍ إلى هذا الشَّهْرِ^(a) ، وللهُ الحَمْدُ^(b)^٣ .

(a) بولاق : العهد . (b) بولاق : الحمد والمنة .

^٣ نشر هذا الفصل عبد المجيد دياب في كتاب تاريخ

الأقباط للمقريري ٢٥٠-٢٥١ .

^١ آخر الموجود في مسودة الخطط ١٧٨ و .

^٢ فيما يلي ٥١٢:٢-٥١٧ .

ذِكْرُ الْخُلُجَانِ الَّتِي شُقَّتْ مِنَ النَّيْلِ

اعلم أن النيل إذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان وتزرع يتخزق الماء فيها يمينا وشمالا إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل . وأكثر الخُلُجان والتُّرع والجُسور والأخوار بالوجه البحري ، وأما الوجه القبلي - وهو بلاد الصعيد - فإن ذلك قليل فيه ، وقد ذهبت معالمه ودرست رؤومته من هناك^(a) .

والمشهور من الخُلُجان : خَلِيجُ سَخَا^(b) ، وَخَلِيجُ مَنَف ، وَخَلِيجُ الْمَنَهَى ، وَخَلِيجُ أَشْمُومِ طَنَاح ، وَخَلِيجُ سَرْدُوس ، وَخَلِيجُ الْإِسْكَندَرِيَّة ، وَخَلِيجُ دِمِيَاط ، وَخَلِيجُ الْقَاهِرَةِ ، وَبَحْرُ أَبِي الْمُنْجَا ، وَالخَلِيجُ النَّاصِرِي ظَاهِرُ الْقَاهِرَةِ^٢ .

قال ابن عبد الحكم ، عن أبي رُهم السَّمَاعِي ، قال : كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير وتدبير ، حتى إن الماء ليجري تحت منازلها وأقنيتها فيحسونه كيف شاءوا ويُرسلونه كيف شاءوا ، فذلك قوله تعالى عما حكى عن قول فِرْعَوْنَ : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الآية ٥١ سورة الزخرف] . ولم يكن يومئذ في الأرض مُلْكٌ أعظم من مُلْكِ مِصْرَ ، وكانت الجنات بحاقتي النيل من أوله إلى آخره في الجانبين معا جميعا - ما بين أسوان إلى رشيد ، وسبع خُلج : خَلِيجُ الْإِسْكَندَرِيَّة ، وَخَلِيجُ سَخَا ، وَخَلِيجُ دِمِيَاط ، وَخَلِيجُ مَنَف ، وَخَلِيجُ الْقِيُوم ، وَخَلِيجُ الْمَنَهَى ، وَخَلِيجُ سَرْدُوس - جنات مُتَّصِلَةٌ لَا يَنْقَطِعُ مِنْهَا شَيْءٌ عَنِ شَيْءٍ ، وَالزَّرْعُ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ مِنْ أَوَّلِ مِصْرَ إِلَى آخِرِهَا مِمَّا يَبْلُغُهُ الْمَاءُ .

وكان جميع أرض مصر كلها تُزَوَّى مِنْ سِتَّةِ عَشَرَ ذِرَاعًا ، لَمَّا قَدَّرُوا وَدَبَّرُوا مِنْ قَنَاطِرِهَا وَخُلُجِهَا وَجُسُورِهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الآيات ٢٥ ، ٢٦ سورة الدخان] . قَالَ : وَالْمَقَامُ الْكَرِيمُ : الْمَنَابِرُ ، كَانَ بِهَا أَلْفٌ مِثْبَرًا^٣ .

(a) بولاق : هنالك . (b) بولاق : منجا .

^١ اقتباسا من ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٠٦ . ٣ : ٢٩٧ - ٣٠٢ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١١٢ ، أبا

^٢ قارن ابن زولاق : فضائل مصر ١٥٤ ، ابن ممتي : قوانين

الدواوين ٢٠٥ - ٢٠٦ ، القلقشندي : صبح الأعشى ^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٦ .

تخليج سخا

وخليج سخا حفزه ثدازس بن صا بن قبطيم بن مضرايم بن بيصير بن حام بن نوح ، وهو أخذ ملوك القبط القدماء الذين ملكوا مصر في الدهر الأول . قال ابن وصيف شاه : ثدازس الملك أول من ملك الأخياز كلها بعد أبيه صا ، وصفا له ملك مصر . وكان ثدازس محنكا مجربا ، ذا أيد وقوة ومعرفة بالأمور ، فأظهر العدل ، وأقام الهياكل وأهلها قياما حسنا ، ودبر جميع الأخياز . ويقال إنه الذي حفز خليج سخا ، وارتفع مال البلد على يده مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار^١ . وقصده بعض عمالقة الشام ، فخرج إليه واستباحه ، ودخل فلسطين وقتل بها خلقا ، وسبى بعض حكمائها وأسكنهم مصر ، وهابته الملوك .

وعلى رأس ثلاثين من ملكه طمع السودان من الزنج والثوبة في أرضه ، وعاثوا وأفسدوا . فجمع الجيوش من أعمال مصر وأعد المراكب ، ووجه قائدا يقال له بلوطس^(a) في ثلاث مائة ألف ، وقائدا آخر في مثلها ، ووجه في النيل ثلاث مائة سفينة في كل سفينة كاهن يعمل أعجوبة من العجائب . ثم خرج في جيوش كثيرة فلقى جمع السودان - وكانوا في زهاء ألف ألف - فهزمتهم وقتل أكثرهم أبحر قتل ، وأسر منهم خلقا ، وتبعتهم جيوشه حتى وصلوا إلى أرض الفيئة من بلاد الزنج ، فأخذوا منها عدة ومن الثمور والوخوش ، وساقوها إلى مصر فذللتها . وعمل على حدود بلده منارا وزبر عليه مسيره وظفره والوقت الذي سار فيه .

ومات بمصر ، فدفن في ناوس نقل إليه شيئا كثيرا من أضنام الكواكب ، ومن الذهب والجوهر والصنعة^(b) والتمثيل ، وزبر عليه اسمه وتاريخ هلاكه ، وجعل عليه طلسمات تمنع منه ، وعهد إلى ابنه ماليق بن ثدازس^٢ .

(a) بولاق : فلوطس . (b) بولاق : الصيغة .

^١ فيما يلي ٢٠١ . شاه المسعودي : أخبار الزمان ١٨٥-١٨٧ وبه بعض

^٢ النوري : نهاية الأرب ١٥: ٩٣-٩٤ عن ابن وصيف إضافات لم ترد عند ابن وصيف شاه .

خليج سزدوس

حَفَرَهُ هَامَانُ ، قَالَ ابْنُ وَصِيفِ شَاهٍ : طَلَمَا بَنَى قَوْمَسُ الْمَلِكِ جَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ ، وَحَازَ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي خَزَائِنِهِمْ ، وَهُوَ الَّذِي تَذَكَّرُ الْقَيْطُ أَنَّهُ فِرْعَوْنُ مُوسَى ، فَأَمَّا أَهْلُ الْأَثَرِ فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُضْعَبٍ ، وَأَنَّهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ ، وَذَكَرُوا أَنَّ الْفِرَاعِيَّةَ سَبَعَةَ . وَكَانَ طَلَمَا - فِيمَا حُكِيَ عَنْهُ - قَصِيرًا ، طَوِيلَ اللَّحْيَةِ ، أَشْهَلَ الْعَيْنَيْنِ ، صَغِيرَ الْعَيْنِ الْيُسْرَى ، فِي جَبِينِهِ شَامَةٌ ، وَكَانَ أُعْرَجٌ . وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ مِنَ الْقَيْطِ ، وَنَسَبُ أَهْلِ بَيْتِهِ مَشْهُورٌ عِنْدَهُمْ ^١ .

وَذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهُ دَخَلَ مَنَفَ عَلَى أَتَانٍ عَلَيْهَا نَطْرُونَ جَاءَ لِيَبْعَهُ ، وَكَانُوا قَدْ اضْطَرَبُوا فِي تَوَلِيَةِ الْمَلِكِ ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ يُمْلِكُوا عَلَيْهِمْ أَوَّلَ مَنْ يَطْرَأُ مِنَ النَّاسِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ مَلِكُوهُ عَلَيْهِمْ ^٢ .
وَلَمَّا جَلَسَ فِي الْمَلِكِ بَدَلَ الْأَمْوَالَ وَقَرَّبَ ^٣ مِنْ أَطَاعِهِ ، وَقَتَلَ مِنْ خَالَفَهُ ، فَأَعْتَدَلَ أَمْرَهُ .
وَاسْتَخْلَفَ هَامَانُ ، وَكَانَ يَقْرُبُ مِنْهُ فِي نَسَبِهِ ، وَأَثَارُ بَعْضِ الْكَنْوَزِ وَصَرَفَهَا فِي بِنَاءِ الْمَدَائِنِ وَالْعِمَارَاتِ ، وَحَفَرَ حُلُجَانًا كَثِيرَةً ، وَيُقَالُ إِنَّهُ الَّذِي حَفَرَ خَلِيجَ سَرْدُوسَ ، وَكَانَ كَلَّمَا عَرَجَهُ إِلَى قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الْحَوْفِ حَمَلَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا مَالًا ، حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْ ذَلِكَ مَالٌ كَثِيرٌ ، فَأَمَرَ بِرَدِّهِ عَلَى أَهْلِهِ ^٣ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ / عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : إِنَّ فِرْعَوْنَ اسْتَعْمَلَ هَامَانَ عَلَى حَفْرِ خَلِيجِ سَرْدُوسَ ، فَلَمَّا ابْتَدَأَ حَفْرَهُ أَتَاهُ أَهْلُ كُلِّ قَرْيَةٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يُجْرِيَ الْخَلِيجَ تَحْتَ قَرْيَتِهِمْ وَيُعْطُوهُ مَالًا .

قَالَ : وَكَانَ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ مِنْ نَحْوِ الْمَشْرِقِ ^٤ ، ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى قَرْيَةٍ مِنْ نَحْوِ دُبْرِ الْقِبْلَةِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى قَرْيَةٍ فِي الْغَرْبِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ فِي الْقِبْلَةِ ، وَيَأْخُذُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ قَرْيَةٍ مَالًا حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مِائَةٌ أَلْفٍ دِينَارٍ ، فَأَتَى بِذَلِكَ يَحْمِلُهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُ بِمَا

(a) الأصل : أرغب . (b) بولاق : الشرق .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٣٥:١٥-١٣٦؛ ولم يحدد المقرئ مصدرها .

المسعودي : أخبار الزمان ٢٤٢-٢٤٣ . ^٢ النويري : نهاية الأرب ١٣٦:١٥ عن ابن وصيف

^٣ لم ترد هذه الفقرة سواء عند النويري أو المسعودي ، شاه ؛ المسعودي : أخبار الزمان ٢٤٣ .

فَعَلَّ فِي حَفْرِهِ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : وَيَحْكُ ، إِنَّهُ يَنْبَغِي لِلسَّيِّدِ أَنْ يَعْطِفَ عَلَى عِبَادِهِ ، وَيُفِيضَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَزْغِبَ فِيمَا بِأَيْدِيهِمْ ، رُدَّ عَلَى أَهْلِ كُلِّ قَرْيَةٍ مَا أَخَذَتْ مِنْهُمْ ؛ فَرَدَّهُ كَلَّهُ عَلَى أَهْلِهِ .
قَالَ : فَلَا يُعْلَمُ بِمِصْرَ خَلِيجٍ أَكْثَرَ انْعِطَافًا مِنْهُ ، لِمَا فَعَلَ هَامَانَ فِي حَفْرِهِ ، وَكَانَ هَامَانٌ نَبَطِيًّا^(a) .^١

خَلِيجُ الإسْكَندَرِيَّةِ

- ٥ قال ابنُ عبدِ الحَكَمِ : وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي بَنَى مَنَارَةَ الإسْكَندَرِيَّةِ قَلْبَطْرَةَ الْمَلِكَةِ ، وَهِيَ الَّتِي سَاقَتْ خَلِيجَهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الإسْكَندَرِيَّةَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُهَا الْمَاءُ ، كَانَ يَغْدَلُ مِنْ يُقَالُ لَهَا كِشَا قُبَالَةَ الْكِرْزِيِّونَ ، فَحَفَرْتَهُ حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الإسْكَندَرِيَّةَ ، وَهِيَ الَّتِي بَلَطَتْ قَاعَهُ^٢ .
- وقال الْكِنْدِيُّ : إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ مِسْكِينَ قَاضِي مِصْرَ حَفَرَ خَلِيجَ الإسْكَندَرِيَّةِ^٣ .
- وقال الْأَسْعَدُ بْنُ مَمَاتِي^٤ فِي كِتَابِ «قَوَانِينِ الدَّوَاوِينِ» : خَلِيجُ الإسْكَندَرِيَّةِ عَلَيْهِ عِدَّةٌ تُرْعَ ، وَطُولُهُ مِنْ قَمِّ الْخَلِيجِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَصْبَةٍ وَسِتِّ مِائَةِ قَصْبَةٍ ، وَعَرْضُهُ مِنْ قَصْبَتَيْنِ وَنِصْفٍ إِلَى ثَلَاثِ قَصْبَاتٍ وَنِصْفٍ . وَمُقَامُ الْمَاءِ فِيهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى النَّيْلِ : فَإِنْ كَانَ مَقْصَرًا قَصُرَتْ مُدَّةُ إِقَامَتِهِ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ عَالِيًا أَقَامَ فِيهِ مَا يَزِيدُ عَلَى شَهْرَيْنِ .
- وَرَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْخَيْزِرَةِ وَذَوِي الْمَعْرِفَةِ يَقُولُونَ : إِنَّهُ إِذَا عُمِلَتْ مِنْ قُبَالَةِ مُنْيَةِ نَتِيجٍ إِلَى نَتِيجِ زَلَّاقَةٍ ، اسْتَقَرَّ الْمَاءُ فِيهِ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَرَوَيْتُ^(b) الْبَحْيِرَةَ جَمِيعَهَا وَخَوْفَ رَمْسِيْسِ وَالْكَفُورِ الشَّاسِعَةِ ، وَزُرْعَ^(c) عَلَيْهِ الْقَصَبُ وَالْقُلُقَاسُ وَالنَّيْلَةُ وَأَنْوَاعُ زِرَاعَةِ الصَّيْفِيِّ ، وَجَرَى مَجْرَى بَحْرِ

(a) الْأَصْلُ : قَبَطِيًّا وَالْمَثْبُوتُ مِنْ ابْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ . (b) بُولَاقٌ : رَأَيْتُ . (c) بُولَاقٌ : وَقَدْ زَرَعْتَ .

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٦-٧؛ وقارن المسعودي: مروج الذهب ٧١:٢-٧٢؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ١:٥٦.

^٢ نفسه ٤١.

^٣ الكندي: الولاية والقضاة (نشرة جست) ٤٦٩؛ ابن حجر: رفع الإصر ١١٩؛ وانظر عن الكندي فيما يلي ٢١٢.

^٤ الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مُهَذَّب

ابن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي مليح مَمَاتِي المصري الكاتب، المتوفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م. كان وأبوه من أقباط مصر وأسلما في صدر الدولة الأيوبية، وتولى الأسعد ابن مَمَاتِي دِيوانَ الجِيشِ لِلنَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ يوسُفَ بنِ أيُوبَ وديوانَ الإقْطَاعَاتِ ثم أصبح ناظرًا للدواوين بالديار المصرية. له مصنفات عديدة أهمها كتاب «قوانين الدواوين» الذي اعتمد عليه المقرئ في مواضع كثيرة من الخطط، والكتاب في أصله في أربعة أجزاء ولكن المتداول منه نسخة مختصرة =

الشرق والمحلة ، وتضاعفت عليه البلاد ، وعظم ارتفاعها . وإقامة هذه الزلافة مُمكنة لوجود الحجازة في رُبوة ، والطوب في البحيرة ، وأنهم قَدَرُوا ما يُحتاج إليه فوجدوه يُناهز عشرة آلاف دينار^١ . ويُقال إنه كان الماء فيه جارياً طول السنة ، وكان السمك فيه غاية من الكثرة بحيث تصيده الأطفال بالحرق ، فضمينه بعض الولاة بمالي ، ومنع الناس من صيده ، فعُدِم منه السمك ، ولم يُر بعد ذلك فيه سمكة ، فصار يخرج بالشباك .

خليج الفيوم والمنهى

يُما حفرة نبي الله يوسف الصديق - عليه السلام - عندما عمّر الفيوم ، كما هو مذكور في خبر الفيوم من هذا الكتاب^٢ . وهو مُشتق من النيل ، لا ينقطع جزئه أبداً ، وإذا قابل النيل ناحية ذروة سربام التي تُعرف اليوم بذرّوة الشريف - يعني ابن يغلن النائب في الأيام الظاهرية ببيروت - تشعبت منه في غزبيه شعبة تُسمى المنهى ، تستقبل^(a) نهراً يصل إلى الفيوم ، وهو الآن يُعرف^(b) بنهر يوسف ، وهو نهراً لا ينقطع جريانه في جميع السنة ، فيسقي الفيوم عامة سقياً دائماً ، ثم يحرق فاضل مائه في بحيرة هناك . ومن العجب أنه يتقطع ماؤه من قوته ، ثم يكون له بلل دون المكان المندى ، ثم يجري جزئياً ضعيفاً دون مكان البلل ، ثم يستقل نهراً جارياً ، لا يُقطع إلا بالشفن ، ويتشعب منه أنهار ، ويتقسم قسماً يعمّ الفيوم يسقي قراه ومزارعه وبساتينه وعامة مساكنه^(c) . والله أعلم .

خليج القاهرة

هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبيها الغربي ، فيما بينها وبين المقس ، عُرف في أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين ، وتُسميه العامة اليوم الخليج الحاكيمي ، وبخليج اللؤلؤة . وهو خليج قديم ،

(a) بولاق : تستقل . (b) بولاق : عرف . (c) بولاق : أماكنه .

= لم يعلم مختصرها (فيما يلي ٢: ١٦٠) (راجع ، ياقوت : معجم الأدباء ٦: ١٠٠-١٢٦ ، القفطي : إنباه الرواة ١: ٢٣١-٢٣٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١: ٢١٠-٢١٣ ، الصفدي : الوافي ٩: ١٩-٢٧ ، المقرئ : المقفى الكبير ٢: ٨٣-٨٧ ، وفيما يلي ٢: ١٦٠-١٦١ ، Atiya, ٢: ٧٢ .

^١ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٢١-٢٢٢ .
^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٢٩٧-٢٩٨ .
^٣ فيما يلي ٢٢١ وانظر المسعودي : مروج الذهب

أَوَّلُ مَنْ حَفَرَهُ طُوَطَيْسُ بْنُ مَالِيَا ، أَحَدُ مُلُوكِ مِصْرَ الَّذِينَ سَكَنُوا مَدِينَةَ مَنَفَ ، وَهُوَ الَّذِي قَدِيمَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ - فِي أَيَّامِهِ إِلَى مِصْرَ ، وَأَخَذَ مِنْهُ امْرَأَتَهُ سَارَةَ وَأَخَذَهَا هَاجِرَ امْرَأَتِ إِسْمَاعِيلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا ؛ فَلَمَّا أُخْرِجَهَا إِبْرَاهِيمُ هِيَ وَابْنُهَا إِسْمَاعِيلُ إِلَى مَكَّةَ ، بَعَثَتْ إِلَى طُوَطَيْسٍ تُعَرِّفُهُ أَنَّهَا بِمَكَانٍ جَدَّبَ وَتَسْتَعِيثُهُ ، فَأَمَرَ بِحَفْرِ هَذَا الْخَلِيجِ ، وَبَعَثَتْ إِلَيْهَا فِيهِ بِالسُّفُنِ تَحْمِلُ الْحِنْطَةَ وَغَيْرَهَا إِلَى جَدَّةَ ، فَأَخْبَا بَلَدَ الْحِجَازِ .

ثُمَّ إِنَّ أُنْدُرُومَانُوسَ الَّذِي يَعْرِفُ بِإِيلِيَا ، أَحَدَ مُلُوكِ الرُّومِ بَعْدَ الْإِسْكَانْدَرِ بْنِ فِيلَيْسِ الْمَجْدُونِيِّ ، جَدَّدَ حَفْرَ هَذَا الْخَلِيجِ ، وَسَارَتْ فِيهِ السُّفُنُ وَذَلِكَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِنَيْفِ وَأَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ .
ثُمَّ إِنَّ عَمْرُوبَ بْنَ الْعَاصِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - جَدَّدَ حَفْرَهُ لَمَّا فَتَحَ مِصْرَ ، وَأَقَامَ فِي حَفْرِهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَجَزَّتْ فِيهِ السُّفُنُ بِحَمَلِ الْمِيرَةِ إِلَى الْحِجَازِ ، فَسُمِّيَ خَلِيجَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَشَارَ بِحَفْرِهِ .

وَلَمْ تَزَلْ تَجْرِي فِيهِ السُّفُنُ مِنْ فُسْطَاطِ مِصْرَ إِلَى مَدِينَةِ الْقُلْزُومِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى حَافَةِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ ، حَيْثُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُعْرَفُ الْيَوْمَ عَلَى الْبَحْرِ بِالسُّوَيْسِ ، وَكَانَ يُصَبُّ مَاءُ النَّيْلِ فِي الْبَحْرِ مِنْ عِنْدَ مَدِينَةِ الْقُلْزُومِ ، إِلَى أَنْ أَمَرَ الْخَلِيفَةُ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورُ بَطْمَهُ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَمِائَةِ فَطَمَ ، وَبَقِيَ مِنْهُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ الْآنَ . وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ مَبْسُوطًا ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، عِنْدَ ذِكْرِ ظَوَاهِرِ الْقَاهِرَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ^١ .

بَحْرُ أَبِي الْمُتَّجَا

هَذَا الْخَلِيجُ يُسَمَّى الْعَامَّةُ بِبَحْرِ أَبِي الْمُتَّجَا الَّذِي حَفَرَهُ الْأَفْضَلُ بْنُ أَمِيرِ الْجُيُوشِ / فِي سَنَةِ سِتِّ وَخَمْسِ مِائَةٍ . وَكَانَ عَلَى حَفْرِهِ أَبُو الْمُتَّجَا بْنُ شَيْخِيَا الْيَهُودِي ، فَعُرِفَ بِهِ . وَقَدْ ذَكَرَ خَبْرَ هَذَا الْخَلِيجِ عِنْدَ ذِكْرِ مَنَاطِرِ الْخُلَفَاءِ وَمَوَاضِعِ نَزْهِهِمْ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ^٢ .

الْخَلِيجُ النَّاصِرِيُّ

هَذَا الْخَلِيجُ فِي ظَاهِرِ الْمَقْصِدِ ، حَفَرَهُ الْمَلِكُ ^(a) النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ فِي سَنَةِ خَمْسِ

(a) ساقطة من بولاق .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٩٨-٢٩٩ ، وانظر ^٢ فيما يلي ١ : ٤٨٧-٤٨٨ .

فيما يلي ٢ : ١٣٩-١٤٤ .

وعشرين وسبع مائة ، وقد ذَكَرَ في موضعه من هذا الكتاب ^١ .

ذَكَرَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ أَرْضُ مِصْرَ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ

قال المسعودي : وقد كانت أرض مصر - على ما زعم أهل الخيرة والعناية بأخبار شأن العالم - يركب أرضها ماء النيل ، ويتبسط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض ، وموضع الفسطاط في وقتنا هذا . وكان بدء ذلك من موضع يُعرَف بالجنادل بين أسوان والثوبة ، إلى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه ، وما ينقل من البرية بتياره ^(a) من موضع إلى موضع ، فنضب الماء عن بعض المواضع من بلاد مصر ، وسكن الناس بلاد مصر ، ولم يزل الماء ينضب عن أرضها قليلاً قليلاً ، حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر ، وطرقوا للماء وحفروا له الخللجان ، وعقدوا في وجهه المستنبات ^(b) ، إلى أن خفي ذلك على ساكنيها ، لأن طول الزمان ذهب بمعرفة أول سُكناهم كيف كان ^٢ . انتهى .

قلت : ومما ذَكَرَ أَرِشَطاطاليس في كتاب «الآثار العلوية» أن أرض مصر كان النيل يتبسط عليها فيطبقها كأنها بحر ، ولم يزل الماء ينضب عنها ، ويبيس ما علا منها أولاً فأولاً ويتسكن ، إلى أن امتلأت بالمدن والقرى والناس .

ويقال إن الناس كانوا قبل سُكْنَى مَدِينَةِ مَنَفَ يسكنون بسفح الجبل المقطم في منازل كثيرة تقروها ، وهي المغاير التي في الجبل المقابل لمنف من قبلي المقطم ، في الجبل المتصل بدير القصر الذي يُعرَف بدير البغل ، المطل على ناحية طرا . ومن وقف عند أهرام نهبيا ، رأى المغائر في الجبل ^(c) الشرقي وبينهما النيل ، ومن صعد من طرا إلى الجبل وسار فيه دخلها ؛ وهي مغاير مُتَّسِعة ، وفيها مغائر تُنفذ إلى القلزم تسع المغارة منها أهل مدينة ، وإذا دخلها أحد ولم يهتد على ما يدلُّه على المخرج هلك في تحيره .

ويقال كانت مصر جزءاء لا نبات بها ، فأقطعها متوشلخ بن حنوخ بن يزد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم لطائفة من أولاده . فلما نزلوها وجدوا نيلها قد سد ما بين

(a) بولاق : وما يتصل من الثوبة بتياره . (b) بولاق : المسبيات . (c) ساقطة من بولاق .

الجَبَلَيْنِ ، فَنَضَبَ المَاءَ عَنِ أَرْضِ زُرُوعِهَا ، فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ بَرَكَاتِهَا . ثُمَّ بَعْدَ زَمَانٍ أَخَذَهَا عَنقَامُ الأَوَّلِ بِنِ غَرِيَابِ بِنِ آدَمَ بِالعَلْبَةِ ، وَنَسَلَ بِهَا خَلْقًا عَظِيمًا ، وَجَهَّزَ لِقِتَالِ أَوْلَادِ يَرْدِ سَبْعِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ ، وَخَفَرَ مِنَ البَحْرِ إِلَى الجَبَلِ نَهْرًا عَرَضَهُ أَرْبَعُونَ قَصَبَةً لِيَمْنَعَ مِنْ يَأْتِيهِ ، فَأَتَاهُ بَنُو يَرْدٍ فَلَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا ، فَفَزِعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَبَعَثَ عَلَى أَرْضِ مِصْرٍ نَارًا .

ذِكْرُ أَعْمَالِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ وَكُورِهَا^١

اعْلَمَ أَنَّ أَرْضَ مِصْرٍ كَانَتْ فِي الزَّمَنِ الغَايِرِ^(a) مِائَةً وَثَلَاثًا وَخَمْسِينَ كُورَةً ، فِي كُلِّ كُورَةٍ مَدِينَةٌ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسَ وَسِتُونَ قَرْيَةً . فَلَمَّا عُمِّرَتِ أَرْضُ مِصْرٍ بَعْدَ بُخْتِ نَصْرٍ ، صَارَتْ عَلَى خَمْسِ وَثَمَانِينَ كُورَةً ، ثُمَّ تَنَاقَصَتْ حَتَّى جَاءَ الإِسْلَامُ وَفِيهَا أَرْبَعُونَ عَامِرَةً بِجَمِيعِ قُرَاهَا لَا تَنقُصُ شَيْئًا . اسْتَقَرَّتْ مِصْرُ كُلُّهَا فِي الجُمْلَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ : «الْوَجْهُ القِبْلِيُّ» ، وَهُوَ مَا كَانَ فِي جِهَةِ الجَنُوبِ مِنْ مَدِينَةِ مِصْرٍ ، وَ«الْوَجْهُ البَحْرِيُّ» وَهُوَ مَا كَانَ فِي شِمَالِ مَدِينَةِ مِصْرٍ . وَقَدْ قُسِّمَتِ الأَرْضُ بِجَمِيعِهَا - قِبْلِيَّهَا وَبَحْرِيَّهَا - عَلَى سِتَّةِ وَعِشْرِينَ عَمَلًا ، وَهِيَ : الشَّرْقِيَّةُ ، وَالمِرْتَاحِيَّةُ ، وَالدَّقْهَلِيَّةُ ، وَالإِبَوَانِيَّةُ ، وَثَغْرُ دِمْيَاطَ .

(a) بولاق : الأول الغاير .

التوفيقية الجديدة الأجزاء ٨-٢٠ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ ، ١-٦ ، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٨ ؛ أمين محمود عبد الله : تطور الوحدات الإدارية في مصر العليا منذ العهد العربي ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٦٣ ؛ عبد العال عبد المنعم الشامي : مدن الدلتا في العصر العربي ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٧ ؛ Maury, R., «Les Kuras d'Egypte dans le Mabâhig de Watwât. Essai de chronologie des listes de Kuras», *An. Isl.* 22 (1986), pp. 155-73; Halm, H., *Agypten nach den mamlukischen Lehensregistern*, I-II, Wiesbaden 1979, 82

^١ حول التقسيم الإداري وأسماء الكور والمدن والقري المصرية راجع ، أبا عبيد البكري : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك ، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت ١٩٨٠ ؛ عبد العال عبد المنعم الشامي : مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي ، الكويت ١٩٨١ ؛ الوطواط الكتبي : من مباحج الفكر ومناهج العبر - صفحات من جغرافية مصر ، دراسة وتحقيق عبد العال عبد المنعم الشامي ، الكويت ١٩٨١ ؛ ابن ممتي : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٤ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ، ٧٩-١٠٢ ؛ ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، القاهرة ١٨٩٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٣: ٣٧٥-٤٠٦ ؛ علي مبارك : الخطط

الوَجْهُ البَحْرِيُّ : جزيرة قويسنا ، والغزبية ، والشَمْثُودِيَّة ، والدُّنْجَاوِيَّة ، والمُنُوفِيَّة ، والنُّسْتَرَاوِيَّة ،
 وَقُوَّة والمُزَاخِمِيَّين ، وجزيرة بني نَصْر ، والبُحَيْرَة ، وإسكَنْدَرِيَّة وضواحيها ، وحوْف رَمْسِيْس^١ .
 والوَجْهُ القِبْلِيُّ : الجيزية ، والإطْفِيحِيَّة ، والبُوصِيرِيَّة ، والفَيُومِيَّة ، والبَهْنَسَاوِيَّة ، والأشْمُونِيَّين ،
 والمنفلوطية ، والأسيوطية ، والإخميمية ، والقوصية^٢ .

وهي أيضًا ثلاثون كُورَة ، وهي :

كُورَة الفَيُوم : وفيها مائة وست وخمسون قَرْيَة ، ويُقال إنها كانت ثلاث مائة وستين قَرْيَة .
 وكُورَة مَنَف وُوسِيم : خمس وخمسون قَرْيَة . وكُورَة الشَّرْقِيَّة ، وتُعرَف بالإطْفِيحِيَّة : سبع عشرة
 قَرْيَة ، وقَرْي أَهْنَس ومنها قَمَن ثمان قَرْي . وكُورَتَا دَلاص وبُوصير ست قَرْي . وكُورَة أَهْنَس
 خمس وتسعون قَرْيَة ، سوى الكُفُور . وكُورَة البَهْنَسَا مائة وعشرون قَرْيَة . وكُورَة الفَشَن سبع
 وثلاثون قَرْيَة . وكُورَة طَحَا سبع وثلاثون قَرْيَة . وخبير^(a) شُودَة ثمان قَرْي . وكورة الأشْمُونِيَّين مائة
 وثلاث وثلاثون قَرْيَة . وكُورَة أَسْفَل أَنصِنَا إحدى عشرة قَرْيَة . وكُورَة سُيُوط سبع وثلاثون قَرْيَة .
 وكُورَة شَطْب ثمان قَرْي . وكُورَة أَغْلَى أَنصِنَا اثنتا عشرة قَرْيَة . وكُورَة فَهَقَوَه سبع وثلاثون قَرْيَة .
 وكورة إِخْمِيم والدَّير^(b) ثلاث وستون قَرْيَة . وكُورَة إِبْشَايَة^(c) والوَاحَات ثلاث وستون قَرْيَة ، سوى
 الكُفُور . وكُورَة هُو عَشْرُون قَرْيَة . وكُورَة فَاو ثمان قَرْي . وكُورَة قِنَا سَبْع قَرْي . وكُورَة دُنْدَرَة
 عَشْر قَرْي . وكُورَة قِفْط ثنتان وعشرون قَرْيَة . وكُورَة الأَقْصُر خَمْس قَرْي . وكُورَة إِسْنَا خَمْس
 قَرْي . وكُورَة أَرْمَنْت سَبْع قَرْي . وكُورَة / أُسْوَان سَبْع قَرْي . فجميع قَرْي الصُّعِيد ألف وثلاث
 وأربعون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور في ثلاثين كُورَة .

كُورَة^(d) أَسْفَل الأَرْض (الحوْف الشَّرْقِي) : خمس وستون قرية . كُورَة أَثْرِيْب مائة وثمان
 قَرْي ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة نَتَو^(e) : سَبْع وثمانون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة تُمِّي^(f)
 مائة وخمسون قَرْيَة ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة بَسْطَلَة تِسْع وثلاثون قَرْيَة . كُورَة طَرَائِيَة ثمان
 وعشرون قَرْيَة ، منها السُّدِير والهَامَة وفاقوس . كُورَة قُرَيْيَط^(g) ثمان عشرة قَرْيَة ، سوى المُنَى

(a) بولاق : حوز . (b) بولاق : الدوير . (c) بولاق : السبابه . (d) بولاق : كورة . (e) بولاق : بنو .
 (f) بولاق : نَمِي . (g) بولاق : هريبط .

^١ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٨٣ - ٩٩ .

كل عمل على حروف المعجم حتى صفحة ٢٠٠ .

^٢ نفسه ٩٩ - ١٠٩ ولم يذكر المنفلوطية ثم ذكر كور

والكُفُور . كُورَتَا صَان وإبْلِيل ست وأربعون قَرْيَةً ، منها سَنُهُور والفَرَمَا والعَرِيش . مجتمع^(a) قُرَى الحَوْفِ الشَّرْقِيِّ خمس مائة وتسع وعشرون قَرْيَةً ، سوى المُنَى في تسع^(b) كُور .

بَطْنُ الرِّيف : كورتَا دَمْسِيس^(c) ومُنُوف مائة وأربع قُرَى ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَتَا طُورَة ومُنُوف : اثنتان وسبعون قَرْيَةً ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة سَخَا مائة وخمسة عشرة قَرْيَةً . كُورَة تَيْدَة والأفْرَاحُون ثلاث وعشرون قَرْيَةً ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة البَشْرُود أربع وعشرون قَرْيَةً . كُورَة نَقِيرَة اثنتا عشرة قَرْيَةً ، سوى المُنَى . كُورَتَا نَبَا وبُوصِير ثمان وثمانون قَرْيَةً ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة سَمَنُود مائة وثمان وعشرون قَرْيَةً ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة نُوسَا إحدى وعشرون قَرْيَةً ، سوى المُنَى . كُورَة الأُوسِيَّة أربعون قَرْيَةً ، سوى المُنَى . كُورَة البُجُوم أربعون قَرْيَةً ، سوى المُنَى . تَيْيس وِدْمِيَاط ثلاث عشرة قرية ، سوى المُنَى ، وهي شيءٌ كثير .

الإسكَنْدَرِيَّة الحَوْفِ الغَرْبِيِّ : كُورَة صَا ثلاث وسبعون قرية ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة شَبَاس اثنان وعشرون قَرْيَةً ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة البَدْقُون ثلاث وأربعون قَرْيَةً ، سوى المُنَى والكُفُور . حَيْزُ البَدْقُون تسع وعشرون قَرْيَةً ، سوى المُنَى والكُفُور . الشَّرَاك : تسع قُرَى . كُورَة تَزْتُوط ثمان قُرَى . كُورَة يَحْرَبْتَا اثنان وستون قَرْيَةً ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَة قَرْطَسَا اثنان وعشرون قَرْيَةً ، سوى المُنَى والكُفُور . كُورَتَا مَصِيل والمَلِيدَس تسع وأربعون قَرْيَةً ، سوى المُنَى . كُورَتَا إِجْنُو وَرَشِيد سبع عشرة قَرْيَةً . وَمَزْيُوط ومَدِينَة الإسكَنْدَرِيَّة ولُؤْيِيَّة ومَرَاقِيَّة : مائة وأربع وعشرون قرية ، سوى المُنَى . فَالْحَوْفِ الغَرْبِيِّ أربع مائة وتسع وأربعون قَرْيَةً ، سوى المُنَى في ثلاث عشرة كُورَة .

قال المَسْبُوحِي فِي «تَارِيخِهِ» : تَصِيرُ قُرَى مِصرَ أَسْفَلَ الأَرْضِ أَلْفًا وَأَرْبَع مِائَةٍ وَتِسْعًا وَثَلَاثِينَ قَرْيَةً ، وَيَكُونُ جَمِيعُ ذَلِكَ بِالصَّعِيدِ وَأَسْفَلَ الأَرْضِ أَلْفِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسًا وَتِسْعِينَ قَرْيَةً . البُحَيْرَة والحِصص بِالإسكَنْدَرِيَّةِ ، والكُرُومَاتِ وَالبُغْل .

وقال القَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامَةَ القُضَاعِي : أَرْضُ مِصرَ قِسْمَيْنِ ، فَمِنْ ذَلِكَ صَعِيدُهَا ، وَهُوَ مَا يَلِي مَهَبَ الجَنُوبِ مِنْهَا ، وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا ، وَهُوَ مَا يَلِي مَهَبَ الشَّمَالِ مِنْهَا . فِقِسْمِ الصَّعِيدِ عَلَى ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ كُورَة . فَمِنْ ذَلِكَ : كُورَة الفَيُومِ كُلِّهَا ، وَكُورَتَا مَنُفٍ وَوَسِيم ، وَكُورَة الشَّرْقِيَّةِ ، وَكُورَتَا دِلَاصِ وَبُوصِيرِ ، وَكُورَة أَهْنَسِ ، وَكُورَة القَيْسِ وَالبَهْنَسَا ، وَكُورَة

(a) بولاق : فجميع . (b) بولاق : سبع . (c) الأصل : دنيس .

طَحَا، وَحَيْزِ شُوْدَةِ، وَكُورَةَ بُوَيْطِ، وَكُورَتَا الأَشْمُونَيْنِ وَأَسْفَلَ أَنْصِنَا وَأَعْلَاهَا، وَشَطْبِ وَقُوصِ قَامِ، وَكُورَةَ سُيُوطِ، وَكُورَةَ قَهْقَوِهِ، وَكُورَتَا إِحْمِيمِ وَالدَّيْرِ وَأَبْشَايَةِ، وَكُورَةَ هُوَ وَإِقْنَا وَفَاوِ وَذَنْدَرَةَ، وَكُورَةَ قِفْطِ وَالْأَقْصُرِ، وَكُورَةَ إِسْنَا وَأَزْمَنْتِ، وَكُورَةَ أُسْوَانَ؛ فَهَذِهِ كُورَةُ الصُّعَيْدِ.

وَمِنْ ذَلِكَ كُورَةُ أَسْفَلِ الأَرْضِ، وَهِيَ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ كُورَةَ (وَفِي نُسخَةٍ ثَلَاثِ وَثَلَاثُونَ كُورَةَ، وَفِي نُسخَةٍ ثَمَانِ وَثَلَاثُونَ كُورَةَ). فَمِنْهَا^(a) كُورَةُ الحَوْفِ الشَّرْقِيِّ: كُورَتَا أَثْرِيْبِ وَعَيْنِ شَمْسِ، وَكُورَتَا بِنَا وَتَمِّي، وَكُورَتَا بَشْطَةَ وَطَرَايِيَةِ، وَكُورَةَ قَرِيْبِطِ، وَكُورَةَ صَانَ وَإِبْلِيلِ، وَكُورَةَ الفَرْمَا وَالعَرِيْشِ وَالجِفَارِ.

وَمِنْ ذَلِكَ كُورَةُ بَطْنِ الرِّيفِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْضِ: كُورَةُ بِنَا وَبُوصَيْرِ، وَكُورَتَا سَمْتُودِ وَنُوسَا، وَكُورَتَا الأَوْسِيَّةِ وَالبُجُومِ، وَكُورَةَ دَقْهَلَةَ، وَكُورَتَا تَيْيْسِ وَدِمْيَاطِ. وَمِنْهَا كُورَةُ الجَزِيْرَةِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْضِ، وَكُورَةَ رَمْسِيْسِ وَمُنُوفِ، وَكُورَةَ طُوْهِ وَمُنُوفِ، وَكُورَةَ سَعَا وَتَيْدَةَ وَالأَفْرَاحُونَ، وَكُورَةَ نَقِيْزَةَ وَدِيصَا، وَكُورَةَ البَشْرُودِ.

وَمِنْ ذَلِكَ كُورَةُ الحَوْفِ الغَرْبِيِّ: كُورَةُ صَا وَكُورَةَ شَبَاسِ، وَكُورَةَ البَذْقُونَ وَحَيْزَهَا، وَكُورَةَ الخَيْسِ وَالشُّرَاكِ، وَكُورَةَ خَزْبِتَا، وَكُورَةَ قَرْطَسَا وَمَصِيْلِ وَالمَلِيْدِسِ، وَكُورَتَا إِخْنَا وَالبَحْيِيْرَةَ وَرَشِيْدِ، وَكُورَةَ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَكُورَةَ مَرْيُوطِ، وَكُورَةَ لُؤْبِيَّةِ وَمَرَاقِيَّةِ.

وَمِنْ كُورِ القِبْلَةِ قُرَى الحِجَازِ، وَهِيَ كُورَةُ الطُّورِ وَفَارَانَ، وَكُورَةُ رَايَةِ وَالقَلْزُومِ، وَكُورَةُ أَيْلَةَ وَحَيْزَهَا، وَمَدْيَنَ وَحَيْزَهَا، وَالعُونِيْدِ^(b)، وَالحَوْرَاءِ وَحَيْزَهُمَا، ثُمَّ كُورَةُ بَدَا وَشَغَبِ.

وَذَكَرَ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالخَرَاجِ وَأَمْرَ الدِّيَوَانِ أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى جَرِيْدَةِ عَتِيْقَةَ بِخَطِّ أَبِي^(c) عِيْسَى بُقْطَرِ ابْنِ نَقَا^(d) - الكَاتِبِ القِبْطِيِّ المَعْرُوفِ بِالبُؤْلُسِ، مُتَوَلِّيِ خَرَاجِ مِصْرَ لِلدَّوْلَةِ الإِخْشِيْدِيَّةِ - يَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ كُورِ مِصْرَ وَقُرَاهَا إِلَى سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثَ مَائَةٍ: أَنَّ قُرَى مِصْرَ بِالصُّعَيْدِيْنَ وَأَسْفَلَ الأَرْضِ أَلْفَانِ وَثَلَاثَ مَائَةٍ وَخَمْسٍ وَتِسْعُونَ قَرْيَةً، مِنْهَا بِالصُّعَيْدِ تِسْعَ مَائَةٍ وَسِتِّ وَخَمْسُونَ قَرْيَةً، وَبِأَسْفَلِ الأَرْضِ أَلْفٌ وَأَرْبَعٌ مَائَةٌ وَتِسْعٌ وَثَلَاثُونَ قَرْيَةً، وَهَذَا عَدْدُهَا فِي الوَقْتِ الَّذِي حُرِّزَتْ^(e) فِيهِ الجَرَايِدُ المَذْكُورَةُ، وَقَدْ تَغَيَّرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَرَابِ مَا خَرِبَ مِنْهَا.

وَقَالَ /ابْنُ عَبْدِ الحَكَمِ، عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمَّا وَلِيَ الوَلِيْدُ بْنُ رِفَاعَةَ مِصْرَ، خَرَجَ لِیُحْصِيَ عِدَّةَ أَهْلِهَا وَيَنْظُرَ فِي تَعْدِيلِ الخَرَاجِ عَلَيْهِمْ، فَأَقَامَ فِي ذَلِكَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ بِالصُّعَيْدِ،

(a) بولاق: فمن ذلك. (b) بولاق: العويند. (c) بولاق: ابن. (d) بولاق: شغا. (e) بولاق: جردت.

حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك بجِدِّ وتشمير، وثلاثة أشهر بأَسفل الأرض. وأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية، فلم يُحص^a في أصغر قرية منها أقل من خمس مائة جُمُجمة من الرجال الذين تُفرض عليهم الجزية، يكون جُملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل^١.

والذي استقر الحال عليه في الرُّوك النَّاصِرِي^b محمد بن قلاوون أن الوجة القبلي تسعة أعمال، وهي: عمل قوص - وهو أجلها، ومنه أسوان وغرب قملوة، وعمل إخميم، وعمل شبوط، وعمل منفلوط، وعمل الأشمونين - وبها الطحاوية - وعمل البهنسا ومنه الغرايب، وهو عبارة عن قرى على غربي المنهى الماد إلى الفيوم، وعمل الفيوم، وعمل إطفيح، وعمل الجزيرة. والوجه البحري ستة أعمال: عمل البحيرة - وهو متصل البر بالإسكندرية وبزقة -، وعمل الغربية جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين، وهما: البحر الماد و^cمشكبه عند دمياط، ويُسمى الشرقي، والبحر الثاني مشكبه عند رشيد ويُسمى الغربي؛ والمنوفية، ومنها إيار، وجزيرة بني نصر. وعمل قليوب، وعمل الشرقية، وعمل أشموم طناح، ومنها الدقهلية والمهتاجية، وهناك موقع نغر البرلس ونغر رشيد والمنصورة، وفي هذا الوجه الإسكندرية ودمياط، ولا عمل لهما^٢.

وأما الواحات فمقطعة وراء الوجه القبلي، مغاربة لم تُعد في الولايات ولا في الأعمال، ولا يحكم عليها والي السلطان، وإنما يحكم عليها من قبل مُقطعيها^٢.

(a) بولاق: يحصر. (b) بولاق: والذي استقر عليه الحال في دولة الناصر. (c) ساقطة من بولاق.

المقريري في نفس السنة وسجل عليه نفس العبارة وهو محفوظ الآن في مكتبة جون ريلاندز John Rylands بمانشستر برقم ٣٤٤ - وسجل بخطه على ما يقابل هذه المعلومات في نسخة آياصوفيا تصويبات وشروح على ما أورده العمري حول مدينة منف وعلى جزيرة بني نصر؛ وانظر فيما تقدم ١٩٣-١٩٦.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٥٦.

^٢ نقل المقريري هذا النص عن ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٩٧-١٠٠، حيث اطلع على النسخة المحفوظة الآن في مكتبة آياصوفيا باستانبول رقم ٣٤١٦ وكتب على ظهرية أجزاءها بخطه وانتقاه داعيًا لمعيره أحمد بن علي المقريري ٤٨٣١- وأحد أجزاء هذه النسخة وهو الجزء العشرون اطلع عليه أيضًا

ذِكْرُ مَا كَانَ يُعْمَلُ فِي أَرْضِي مِصْرَ مِنْ حَفْرِ التُّرَعِ

وَعِمَارَةُ الْجُسُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ ضَبْطِ مَاءِ النَّيْلِ وَتَضْرِيْفِهِ فِي أَوْقَاتِهِ

قال ابنُ عبدِ الحكم، عن يزيد بن أبي حبيب: وكانت فريضة مصر - بحفر خُلجِها، وإقامة جسورها، وبناء قناطرها، وقطع جزائرها - مائة ألف وعشرين ألفاً معهم المساحي والطوريات والأداة، يعتقبون ذلك، لا يدعون شتاءً ولا صيفاً.

وعن أبي قبيل^١ قال: زعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذي كان يعمل به بمصر على عهد ملوكها أنهم كانوا يقرّون القرى في أيدي أهلها، كل قرية بكراة معلوم لا ينقض عنهم إلا في كل أربع سنين من أجل الظلمة وتنقل اليسار. فإذا مضت أربع سنين نُقض ذلك، وعُدل تعديلاً جديداً، فيزفق بمن استحق الرفق، ويزاد على من احتل الزيادة، ولا يُحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم. فإذا جُبي الخراج وجميع، كان للملك من ذلك الربع خالصاً لنفسه، يصنع به ما يُريد. والربع الثاني لجنده، ومن تقوى به على حربه وجباية خراجه ودفع عدوه. والربع الثالث في مصلحة الأرض، وما تحتاج إليه من جسورها وحفر خُلجِها وبناء قناطرها، والقوة للمزارعين على زرعهم، وعمارَة أرضهم. والربع الرابع يخرج منه ربع ما يُصيب كل قرية من خراجها، فيدفن ذلك لنائبة تنزل أو جائحة بأهل القرية، فكانوا على ذلك. والذي يُدفن في كل قرية من خراجها هي كنوز فزعون التي يتحدث الناس بها أنها ستظهر، فيطلبها الدين يتبعون الكنوز^٢.

وذكر أن بعض فراعنة مصر جبي خراج مصر اثنين وسبعين ألف دينار، وأن من عمارته أنه أرسل وئبة قمح إلى أسفل الأرض وإلى الصعيد في وقت تنظيف الأرض والتُّرع من العمارَة، فلم يوجد لها أرض فارغة تُزرع فيها. وذكر أنه كان عند تنامي العمارَة يُرسل بأربع وئيات برسيم إلى الصعيد وإلى أسفل الأرض، وإلى أي كورة، فإن وجد لها موضعاً خالياً فزرعت فيه، ضرب عُثق صاحب الكورة. وكانت مصر يومئذ عمارتها مُتصلة أربعين فرسخاً في مثلها، والفرسخ ثلاثة أميال، والبريد أربعة فراسخ، فتكون عشرة بُرد في مثلها. ولم تزل الفراعنة تسلك هذا

^١ أبو قبيل حنّ بن هانئ بن ناصر المعافري، يمني قدم واستوطن مصر وروى عن عتبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وشقبي بن مانع، وتوفي سنة ١٢٨هـ/٧٤٦م عن عمر يناهز المائة (ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٥١٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥: ٢١٤-٢١٥).

^٢ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٣٢-٣٣.

المسلك إلى أيام فزعون موسى ، فإنه عمرها عدلاً وسماحة ، وتتابع الظمأ ثلاث سنين في أيامه فترك لأهل مصر خراج ثلاث سنين ، وأنفق على نفسه ثم على عساكره^(a) من خزائنه ، ولما كان في السنة الرابعة أضعف الخراج ، واستمر فاعتاض ما أنفق .

قال^(b) : وكتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى عمرو بن العاص - رضي الله عنه : إن أسأل المقوقس عن مصر ، من أين تأتي عمارتها وخرابها ؟ فسأله عمرو ، فقال له المقوقس : عمارتها وخرابها من وجوه خمسة : أن يستخرج خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ، ويؤفح خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم ، وتُحفر في كل سنة خلجانها ، وتُسدُّ ثرعها وجسورها ، ولا يُقبل محل^(c) أهلها ، يريد البغي ؛ فإذا فُعل هذا فيها عمُرت ، وإن عُمل فيها بخلافه خربت .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما استبطن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عمرو بن العاص - رضي الله عنه - في الخراج ، كتب إليه أن ابعث إلي رجلاً من أهل مصر . فبعث إليه رجلاً قديماً من القبط ، فاستخبره عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن / مصر وخراجها قبل الإسلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها ، وعاملك لا يتظر إلى العماره ، وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريد لها إلا لعام واحد ؛ فعرف عمر - رضي الله عنه - ما قال ، وقيل من عمرو ما كان يعتذر به^(d) .

وقال عمرو بن العاص - رضي الله عنه - للمقوقس : أنت وليت مصر ، فم تكون عمارتها ؟ فقال : بخصالي : أن تحفر^(d) خلجانها ، وتسد جسورها وترعها ، ولا تأخذ^(e) خراجها إلا من غلتها ، ولا تقبل مظل أهله ، وتوفى لهم بالشروط ، وتذر الأرزاق على العمال لئلا يوتسوا ، وترتفع عن أهله المعاون والهدايا ليكون قوة لهم ، فبذلك تعمُر ويؤجى خراجها .

ويقال إن ملوك مصر من القبط كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام : قسم لخاصة الملك ، وقسم لأرزاق الجنود ، وقسم لمصالح الأرض ، وقسم يُدخر لحادثة تحدث فينتفق فيها .

(a) بولاق : وعساكره . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : مظل . (d) بولاق : تحفروا . (e) بولاق : يؤخذ .

ولمَّا وُلِّيَ عُبيد الله بن الحَبَّابِ خَرَاكِ مِضْرٍ لِهشام بن عبد الملك ، خَرَجَ بِنَفْسِهِ فَمَسَحَ أَرْضَ مِضْرٍ كُلَّهَا - عَامِرَهَا وَغَامِرَهَا ، مِمَّا يَرِكِبُهُ النَّيْلُ - فَوَجَدَ فِيهَا مِائَةَ أَلْفِ أَلْفِ فِدَّانٍ ، ^(a) وَيُقَالُ إِنْ أَحْمَدُ بْنُ مُدَبِّرٍ اعْتَبَرَ مَا يَصْلُحُ لِلزَّرَاعَةِ بِأَرْضِ مِضْرٍ فَوَجَدَهُ أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفِ أَلْفِ فِدَّانٍ ^(a) ، وَالباقِي اسْتَبَحَرَ وَتَلَفَ ؛ وَاعْتَبَرَ مُدَّةَ الْحَرْثِ فَوَجَدَهَا سِتِينَ يَوْمًا ، وَالْحَرْثَاتُ يَحْرَثُ خَمْسِينَ فِدَّانًا ، فَكَانَتْ ^(b) مُحْتَاجَةً إِلَى أَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفِ وَثَمَانِينَ أَلْفِ حَرْثَاتٍ .

ذِكْرُ مِقْدَارِ خَرَاكِ مِضْرٍ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ

قال ابن وصيف شاه : وكان منقاس قسم خراج البلاد أرباعاً : فربيع للملك خاصة يعمل فيه ما يريد ، وربيع ينفق في مصالح الأرض وما تحتاج إليه من عمل الجسور وحفر الخلل وتقوية أهلها على العمارة ، وربيع يذفن لحادثة تحدث أو نازلة تنزل ، وربيع للجند . وكان خراج البلد ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف ألف دينار ، وقسمها على مائة وثلاث كور بعدة الآلاف ^١ - ويُقال إن كل دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الإسلامية - وهي اليوم خمس وثمانون كورة : أسفل الأرض خمس وأربعون كورة ، والصعيد أربعون كورة . وفي كل كورة كاهن يدبرها ، وصاحب حرب ^٢ .

وازتفع مال البلد على يد تدارس بن صا مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار ، وفي أيام كلكن بن خزيتا بن ماليق بن تدارس مائة ألف ألف دينار وبضعة عشر ألف ألف دينار ^٣ .
ولمَّا زالت دولة القبط الأولى من مصر ، ومملكتها العماليقة ، اختل أمرها . وكان فزعون الأول يجيبها تسعين ألف ألف دينار ، يُخرج من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لمصالح البلد ، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح الناس - من أولاد الملوك ، وأهل التعفف - وعشرة آلاف ألف دينار لأولياء الأمر والجند والكُتاب ، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح فزعون ، ويكتزون لفزعون خمسين ألف ألف دينار .

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : وكانت .

^١ النويري : نهاية الأرب ٦٦:٥ عن ابن وصيف شاه .

^٢ كل النص المنسوب إلى ابن وصيف شاه موجود عند

المسعودي : أخبار الزمان ١٧١-١٧٢ .

^٣ المسعودي : أخبار الزمان ١٨٦ ؛ النويري : نهاية

الأرب ٩٤:١٥ عن ابن وصيف شاه ، وفيما تقدم ١٨٧ .

وَبَلَغَ خَرَّاجُ مِصْرَ فِي أَيَّامِ الرَّيَّانِ بْنِ الْوَلِيدِ - وَهُوَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَبْعَةَ وَتِسْعِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ، فَأَحَبُّ أَنْ يُجْمَعَ مِائَةُ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ، فَأَمَرَ بِوُجُوهِ الْعِمَارَاتِ، وَإِضْلَاحِ جُسُورِ الْبَلَدِ، وَالزِّيَادَةِ فِي اسْتِنْبَاطِ الْأَرْضِ، حَتَّى بَلَغَ ذَلِكَ وَزَادَ عَلَيْهِ ^١.

وَقَالَ ابْنُ دِحْيَةَ: وَجِيَّتْ مِصْرُ فِي أَيَّامِ الْفِرَاعِنَةِ فَلَبَّغَتْ تِسْعِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ بِالْدِينَارِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ مِثْقَالٍ مِنْ مِثْقَالِنَا الْمَعْرُوفِ الْآنَ بِمِصْرَ، الَّذِي هُوَ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ قِيرَاطًا، كُلُّ قِيرَاطٍ ثَلَاثُ حَبَّاتٍ مِنْ قَمْحٍ، فَيَكُونُ بِحِسَابِ ذَلِكَ مِائَتِي أَلْفِ أَلْفٍ وَسَبْعِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ مِصْرِيَّةً ^٢.

وَذَكَرَ الشَّرِيفُ الْجَوَانِيُّ ^٣ أَنَّهُ وَجِدَ فِي بَعْضِ الْبِرَابِيِّ بِالصُّعَيْدِ مَكْتُوبًا بِاللُّغَةِ الصُّعَيْدِيَّةِ مِمَّا نُقِلَ بِالْعَرَبِيَّةِ: مَبْلَغٌ مَا كَانَ يُسْتَخْرَجُ لِفِرْعَوْنَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ - مِنْ أَمْوَالِ مِصْرَ بِحَقِّ الْخَرَاجِ مِمَّا يُوْجِبُهُ الْخَرَاجُ وَسَائِرُ وُجُوهِ الْجَبَايَاتِ لِسَنَةِ وَاحِدَةٍ عَلَى الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَالرُّشُومِ الْجَارِيَةِ، مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَلَا اضْطِهَادٍ وَلَا مُشَاحَّةٍ عَلَى عَظِيمِ فَضْلِ كَانَ فِي يَدِ الْمُؤَدِّي لِرَسْمِهِ، وَبَعْدَ وَضْعِ مَا يَجِبُ وَضَعُهُ لِحَوَادِثِ الزَّمَانِ نَظْرًا لِلْعَامِلِينَ وَتَقْوِيَةً لِحَالِهِمْ: مِنْ الْعَيْنِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ^٤. وَذَكَرَ بَاقِيَهُ ^٥ كَمَا فِي خَبَرِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْأَسَدِيِّ.

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَسَدِيِّ: أَخْبَرَنِي أَبِي، قَالَ: وَجَدْتُ فِي كِتَابِ قِبْطِي بِاللُّغَةِ الصُّعَيْدِيَّةِ - مِمَّا نُقِلَ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - أَنَّ مَبْلَغَ مَا كَانَ يُسْتَخْرَجُ لِفِرْعَوْنَ مِصْرَ بِحَقِّ الْخَرَاجِ الَّذِي يُوجَدُ، وَسَائِرِ وُجُوهِ الْجَبَايَاتِ لِسَنَةِ كَامِلَةٍ عَلَى الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَالرُّشُومِ الْجَارِيَةِ مِنْ غَيْرِ اضْطِهَادٍ وَلَا مُنَاقَشَةٍ عَلَى عَظِيمِ فَضْلِي كَانَ فِي يَدِ الْمُؤَدِّي لِرَسْمِهِ، وَبَعْدَ وَضْعِ مَا يَجِبُ وَضَعُهُ لِحَوَادِثِ الزَّمَانِ رِفْقًا

(a) بولاق: ما فيه.

^١ قارن مع المسعودي: أخبار الزمان ٢٢٤؛ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٢٠.

^٢ لم أقف على هذا النص فيما وصل إلينا من مؤلفات ابن دحية.

^٣ الشريف النسابة أبو عبد الله محمد بن أسعد بن علي بن الحسين المازندراني المعروف بالشريف الجواني المتوفى سنة

١٠٩٢/٥٥٨٨م نقيب الأشراف بمصر ومؤلف العديد من

المصنفات وخاصة في النسب. والكتاب الذي ينقل منه المقريري هنا هو كتاب «النقط لعجم ما أشكل من الخطط» وهو أحد أهم مصادر المقريري فيما يخص خطط الفسطاط في العصر الفاطمي المتأخر (انظر دراسة المصادر في المقدمة).
^٤ يوجد هذا النص في الكراسة التي بخط المقريري المحفوظة في مكتبة Liège.

بِالْعَامِلِينَ وَتَقْوِيَةَ لَهُمْ : مِنَ الْعَيْنِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ مِنْ جِهَاتِ مِصْرَ ، وَذَلِكَ مَا يُضْرَفُ فِي عِمَارَةِ الْبِلَادِ لِحَقْرِ الْخَلْجِ وَإِثْقَانِ الْجُسُورِ^(a) وَسَدِّ الثَّرَاعِ وَإِضْلَاحِ السُّبُلِ وَالشَّانِيَةِ^(b) ، ثُمَّ فِي تَقْوِيَةِ مَنْ يَحْتَاجُ التَّقْوِيَةَ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ عَلَيْهِ بِهَا ، لِإِقَامَةِ الْعَوَامِلِ ، وَالتَّوَسُّعَةِ فِي الْبِدَارِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَمِنَ الْآلَاتِ ، وَأُجْرَةِ مَنْ يُشْتَعَانُ بِهِ مِنَ الْأَجْرَاءِ لِحَمْلِ الْأَصْنَافِ وَسَائِرِ نَفَقَاتِ تَطْرِيقِ أَرْضِيهِمْ : مِنَ الْعَيْنِ ثَمَانِ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ . وَمَا يُضْرَفُ فِي أَرْزَاقِ الْأَوْلِيَاءِ الْمُؤَسَّسِينَ بِالسَّلَاحِ وَحَمَلَتِهِ ، وَالْعِلْمَانِ وَأَشْيَاعِهِمْ ، مَعَ أَلْفِ كَاتِبِ مُؤَسَّسِينَ / بِالذُّوَابِينَ ، سِوَى أَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْخِزَانِ ، وَمَنْ يَجْرِي مَجْرَاهُمْ - وَعِدَّتُهُمْ مِائَةُ أَلْفِ وَأَحَدٌ عَشَرَ أَلْفَ رَجُلٍ - مِنَ الْعَيْنِ ثَمَانِيَةَ أَلْفِ دِينَارٍ . وَمَا يُضْرَفُ فِي الْأَرَامِلِ وَالْأَيْتَامِ فَرَضًا لَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، وَإِنْ كَانُوا غَيْرَ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ ، حَتَّى لَا تَخْلُوَ أَمَالُهُمْ مِنْ بَرٍّ يَصِلُ إِلَيْهِمْ : مِنَ الْعَيْنِ أَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ . وَمَا يُضْرَفُ فِي كَهَنَةِ بَرَايِيهِمْ وَأَيْمَتِهِمْ ، وَسَائِرِ ثُبُوتِ صَلَوَاتِهِمْ : مِنَ الْعَيْنِ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ . وَمَا يُضْرَفُ فِي الصَّدَقَاتِ - وَيُنَادِي فِي النَّاسِ : بَرِيَّتِ الدُّمَّةُ مِنْ رَجُلٍ كَشَفَ وَجْهَهُ لِفَاقَةِ وَلَمْ يَحْضُرْ^(c) ، فَلَا يُرَدُّ عِنْدَ ذَلِكَ أَحَدٌ ، وَالْأَمْنَاءُ مُجْلُوسٌ ، فَإِذَا رُئِيَ رَجُلٌ لَمْ تَجْرُ عَادَتُهُ بِذَلِكَ أُفْرِدَ بَعْدَ قَبْضِ مَا يَقْبُضُهُ ، حَتَّى إِذَا فُرِقَ الْمَالُ وَاجْتَمَعَ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ عِدَّةٌ ، دَخَلَ أَمْنَاءُ فِرْعَوْنَ إِلَيْهِ وَهَنُّوهُ بِتَفْرِيقَةِ الْمَالِ ، وَدَعَّوْا لَهُ بِالْبَقَاءِ وَالسَّلَامَةِ ، وَأَنْهَوْا حَالَ الطَّائِفَةِ الْمَذْكُورَةَ ، فَيَأْمُرُ بِتَغْيِيرِ شَعَثِهَا بِالْحَمَامِ وَاللُّبَّاسِ ، وَتُمَدُّ الْأَسْمِطَةَ ، وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ ، ثُمَّ يَسْتَعْلِمُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ سَبَبَ فِاقَتِهِ ، فَإِنْ كَانَ مِنْ آفَةِ الزَّمَانِ رَدًّا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا كَانَ وَأَكْثَرَ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ شَوْءٍ رَأَى وَضَعْفَ تَذْيِيرِ ، ضَمَّهُ إِلَى مَنْ يُشْرَفُ عَلَيْهِ وَيَقُومُ بِالْأَمْرِ الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ - مِنَ الْعَيْنِ مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ .

فَذَلِكَ جُمْلَةُ مَا تَبَيَّنَ وَفُصِّلَ فِي هَذِهِ الْجِهَاتِ الْمَذْكُورَةِ : مِنَ الْعَيْنِ تِسْعَةُ أَلْفِ أَلْفِ وَثَمَانِ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ؛ وَيَحْضُلُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَتَسَلَّمُهُ فِرْعَوْنَ فِي ثُبُوتِ أَمْوَالِهِ عِدَّةٌ لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ وَحَادِثَاتِ الزَّمَانِ : مِنَ الْعَيْنِ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ وَسِتِّ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ^١ .

وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَتَى عَقَدَتْ مِصْرَ تِسْعِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ ؟ قَالَ : فِي الْوَقْتِ الَّذِي أُرْسِلَ فِرْعَوْنَ بِوَيْيَةِ قَمَحٍ إِلَى أَسْفَلِ الْأَرْضِ وَالِى الصُّعِيدِ ، فَلَمْ يَجِدْ لَهَا مَوْضِعًا تُبَدَّرُ فِيهِ لِشُغْلِ جَمِيعِ الْبِلَادِ بِالْعِمَارَةِ .

(a) فِي سِرَاجِ الْمَلُوكِ : وَالْإِبْقَاءُ عَلَى الْجُسُورِ . (b) بُولَاقُ : السُّبُلُ وَالسِّيَاسَةُ . (c) الْأَصْلُ وَبُولَاقُ : فَلْيَحْضُرْ .

^١ وَرَدَ هَذَا النَّصُّ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الطَّرْطُوشِيِّ فِي كِتَابِ سِرَاجِ الْمَلُوكِ ٥٠٧-٥٠٩ .

ذِكْرُ مَا عَمِلَهُ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ فَتْحِ مِصْرَ

في الخراج وما كان من أمر مِصْرَ في ذلك مع القِبْطِ

قال زُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ : حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَفِيزَهَا ، وَمَنَعَتِ الشَّامُ مِثْلَهَا وَدِينَارَهَا ، وَمَنَعَتِ مِصْرُ أَرْدَبِيَّهَا ، وَعُدَّتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ» .

قال أَبُو عُبَيْدٍ : قَدْ أَخْبَرَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِمَا لَمْ يَكُنْ ، وَهُوَ فِي عِلْمِ اللَّهِ كَائِنٌ ، فَخَرَجَ لِقُضَيْهِ عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي لِأَنَّهُ مَاضٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ . وَفِي إِعْلَامِهِ بِهَذَا قَبْلَ وَقُوعِهِ ، مَا دَلَّ عَلَى إِثْبَاتِ نُبُوَّتِهِ ، وَدَلَّ عَلَى رِضَاهِ مِنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَا وَظَّفَهُ عَلَى الْكَفَرَةِ مِنَ الْخَرَاجِ فِي الْأَمْصَارِ . وَفِي تَفْسِيرِ الْمَنَعِ وَجِهَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُمْ سَيُسْلَمُونَ وَيَسْقُطُ عَنْهُمْ مَا وَظَّفَ عَلَيْهِمْ ، فَصَارُوا مَا يَعِينُ بِإِسْلَامِهِمْ مَا وَظَّفَ عَلَيْهِمْ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ «وَعُدَّتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ» . وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنِ الطَّاعَةِ ، وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ .

وقال ابن عبد الحكم ، عن عبد الله بن لهيعة : لما فتح عمرو بن العاص مصر ، ضولج على جميع من فيها من الرجال من القِبْطِ - مَن رَاهَقَ الْحَلْمَ إِلَى مَا فَوْقَ ذَلِكَ ، لَيْسَ فِيهِمْ امْرَأَةٌ وَلَا صَبِيٌّ وَلَا شَيْخٌ - عَلَى دِينَارَيْنِ دِينَارَيْنِ ، فَأَحْصَوْا لِذَلِكَ^(a) فَبَلَغَتْ عِدَّتُهُمْ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ أَلْفٍ .

وعن هشام بن أبي رُقَيْةَ اللَّحْمِيِّ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ لَمَّا فَتَحَ مِصْرَ قَالَ لِقِبْطِ مِصْرَ : إِنَّ مِنْ كَتَمَنِي كَنْزًا عِنْدَهُ فَقَدَرْتُ عَلَيْهِ قَتْلَهُ . وَأَنَّ قِبْطِيًّا مِنْ أَهْلِ^(b) الصَّعِيدِ يُقَالُ لَهُ بُطْرُسُ ذَكَرَ لِعَمْرُو أَنَّ عِنْدَهُ كَنْزًا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ فَأَنْكَرَ وَجَحَدَ ، فَحَبَسَهُ فِي السَّجْنِ وَعَمْرُو يَسْأَلُ عَنْهُ : هَلْ تَسْمَعُونَهُ يَسْأَلُ عَنْ أَحَدٍ ؟ فَقَالُوا : لَا ، إِنَّمَا سَمِعْنَاهُ يَسْأَلُ عَنِ الرَّاهِبِ فِي الطُّورِ . فَأَرْسَلَ عَمْرُو إِلَى بُطْرُسَ فَنَزَعَ خَاتَمَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى ذَلِكَ الرَّاهِبِ أَنْ ابْعَثْ إِلَيَّ بِمَا عِنْدَكَ ، وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ . فَجَاءَ الرَّسُولُ بِقُلَّةٍ شَامِيَّةٍ مَخْتُومَةٍ بِالرِّصَاصِ ، فَفَتَحَهَا عَمْرُو فَوَجَدَ فِيهَا صَحِيفَةً مَكْتُوبَةً فِيهَا «مَالِكُمْ تَحْتَ الْفَسْقِيَّةِ الْكَبِيرَةِ» . فَأَرْسَلَ عَمْرُو إِلَى الْفَسْقِيَّةِ فَحَبَسَ عَنْهَا الْمَاءَ ، ثُمَّ قَلَعَ الْبِلَاطَ الَّذِي تَحْتَهَا فَوَجَدَ فِيهَا اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ أَرْدَبًا ذَهَبًا مِصْرِيًّا مِصْرُوبَةً . فَضْرَبَ عَمْرُو رَأْسَهُ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ ، فَأَخْرَجَ الْقِبْطُ كُنُوزَهُمْ شَفَقًا أَنْ يُبْعَى عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ فَيُقْتَلَ كَمَا قُتِلَ بُطْرُسُ .

(a) بولاق : فأحصوا ذلك . (b) بولاق : أرض .

وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطي من قبط مصر، لأنه استقرَّ عنده أنه يُظهر الروم على عورات المسلمين، ويكتب إليهم بذلك، فاستخرج منه بضعا وخمسين أزدبا دنائير^١.

قال ابن عبد الحكم: وكان عمرو بن العاص - رضي الله عنه - يبعث إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بالجزيرة بعد حبس ما كان يحتاج إليه. وكانت فريضة مصر لحفر خُلجها، وإقامة جسورها، وبناء قناطرها، وقطع جزائرها، مائة ألف وعشرين ألفا، معهم الطور والمساحي والأداة، يفتقرون ذلك، لا يدعون ذلك صيفا ولا شتاء.

ثم كتب إليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن تخيم في رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأكف عرضا، ولا يضربوا الجزيرة إلا على من جرت عليه المواسي^(a)، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان، ولا تدعهم يشبهون بالمسلمين في ملبوسهم.

وعن زيد^(b) بن أسلم أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتب إلى أمراء الأجناد ألا يضربوا الجزيرة إلا على من جرت عليه المواسي^(a). وجزيتهم أربعون درهما على أهل الوراق، وأربعة دنائير على أهل الذهب، وعليهم من أزراق المسلمين من الحنطة والزيت مدان من حنطة، وثلاثة / أقساط من زيت في كل شهر لكل إنسان من أهل الشام والجزيرة، وودك، وعسل لا أدري كم هو: ومن كان من أهل مصر فأزدب في كل شهر لكل إنسان، ولا أدري كم الودك والعسل، وعليهم من البر والكسوة التي يكسوها أمير المؤمنين الناس، ويضيّفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام، وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل إنسان، ولا أدري كم لهم من الودك. وكان لا يضرب الجزيرة على النساء والصبيان، وكان يخيم في أعناق رجال أهل الجزيرة، وكانت وئبة عمر في ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد^٢.

قال: وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر، أقر قبطها على جباية الروم، فكانت جبايتهم بالتعديل: إذا عمرت القرية وكثر أهلها يزيد عليهم، وإن قل أهلها وخربت نقصوا؛ فيجتمع

(a) بولاق: موسى. (b) في النسخ يزيد والصواب ما أثبتته.

عَرَفُوا كُلَّ قَرْيَةٍ وَأَمْرَاؤُهَا وَرُؤَسَاءُ أَهْلِهَا ، فَيَتَنَظَّرُونَ فِي الْعِمَارَةِ وَالْحَرَابِ ، حَتَّى إِذَا أَقْرَبُوا مِنَ الْقِسْمِ بِالزِّيَادَةِ انْصَرَفُوا بِتِلْكَ الْقِسْمَةِ إِلَى الْكُورِ ، ثُمَّ اجْتَمَعُوا هُمْ وَرُؤَسَاءُ الْقَرْيِ فَوَزَعُوا ذَلِكَ عَلَى اِحْتِمَالِ الْقَرْيِ وَسَعَةِ الْمَزَارِعِ .

ثُمَّ تَزَجُّعُ كُلِّ قَرْيَةٍ بِقِسْمَتِهِمْ فَيَجْمَعُونَ قِسْمَهُمْ وَخَرَجَ كُلُّ قَرْيَةٍ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَرْضِ الْعَامِرَةِ ، فَيَبْتَدِثُونَ وَيُخْرِجُونَ مِنَ الْأَرْضِ قَدَادِينَ لِكِنَائِسِهِمْ وَحَمَامَاتِهِمْ وَمَعْدِيَاتِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عَدَدُ الضِّيَافَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتُزُولُ السُّلْطَانُ . فَإِذَا فَرَعُوا نَظَرُوا لِمَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مِنَ الصُّنَاعِ وَالْأَجْرَاءِ ، فَقَسَمُوا عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ اِحْتِمَالِهِمْ ، فَإِنْ كَانَتْ فِيهِمْ جَالِيَةٌ قَسَمُوا عَلَيْهَا بِقَدْرِ اِحْتِمَالِهَا ، وَقَلَّمَا كَانَتْ تَكُونُ إِلَّا لِلرَّجُلِ الشَّابِّ أَوْ الْمَتَزَوِّجِ ؛ ثُمَّ يَنْظُرُونَ مَا بَقِيَ مِنَ الْخَرَاجِ فَيُقَسِّمُونَهُ بَيْنَهُمْ عَلَى عَدَدِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَقْسِمُونَ ذَلِكَ بَيْنَ مَنْ يُرِيدُ الزَّرْعَ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِمْ : فَإِنْ عَجَزَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَشَكَا ضَعْفًا عَنْ زَرْعِ أَرْضِهِ ، وَزَعُوا مَا عَجَزَ عَنْهُ عَلَى ذَوِي الْاِحْتِمَالِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يُرِيدُ الزِّيَادَةَ أُعْطِيَ مَا عَجَزَ عَنْهُ أَهْلُ الضُّعْفِ ، فَإِنْ تَشَاخَوْا قَسَمُوا ذَلِكَ عَلَى عِدَّتِهِمْ .

وَكَانَتْ قِسْمَتُهُمْ عَلَى قَرَارِيطِ الدَّنَانِيرِ أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ قِيرَاطًا ، يَقْسِمُونَ الْأَرْضَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِذَلِكَ زُوي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ ، فَاسْتَوْضُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا» ، وَجَعَلَ لِكُلِّ قَدَانٍ عَلَيْهِمْ نِصْفَ أَرْدَبٍ قَمْحٍ وَوَيْتَيْنِ مِنْ شَعِيرٍ ، إِلَّا الْقُرْطَ فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ صَرِيَّةٌ ، وَالْوَيْتَةُ سِتَّةَ أَمْدَادٍ .

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَأْخُذُ مِمَّنْ صَالَحَهُ مِنَ الْمَعَاهِدِينَ مَا سَمَّى عَلَى نَفْسِهِ ، لَا يَضَعُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا وَلَا يَزِيدُ عَلَيْهِ . وَمَنْ نَزَلَ مِنْهُمْ عَلَى الْجِزْيَةِ وَلَمْ يُسَمِّ شَيْئًا يُؤَدِّيهِ ، نَظَرَ عُمَرُ فِي أَمْرِهِ ، فَإِذَا اِحْتِاجُوا خُفَّفَ عَنْهُمْ ، وَإِنْ اسْتَفْنَوْا زَادَ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ اسْتِفْنَائِهِمْ ^١ .

وَقَالَ هِشَامُ بْنُ أَبِي رُقَيْةَ اللَّخْمِيِّ : قَدِمَ صَاحِبُ إِخْنَا عَلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ لَهُ : أَخْبِرْنَا مَا عَلَى أَحَدِنَا مِنَ الْجِزْيَةِ فَتَضْبِرَ لَهَا ؛ فَقَالَ عَمْرُو وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى رُكْنٍ كَنِيسَةٍ : لَوْ أُعْطَيْتَنِي مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّقْفِ مَا أَخْبِرْتِكَ مَا عَلَيْكَ ، إِنَّمَا أَنْتُمْ خَزَانَةٌ لَنَا : إِنْ كَثُرَ عَلَيْنَا كَثُرْنَا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ خُفِّفَ عَنَّا خَفَّفْنَا عَنْكُمْ ^٢ .

(a) بولاق : مجتمع .

^٢ نفسه ١٥٤ ، ١٧٦ .

^١ ابن عبد الحكم : فتح مصر ١٥٢ - ٣٥٣ .

ومن ذهب إلى هذا الحديث ، ذهب إلى أن مِصْرَ فُتِحَتْ عَنَوَةً .

وعن يزيد بن أبي حبيب قال : قال عُمَرُ بن عبد العزیز : أَيُّمَا ذِمِّي أَسْلَمَ فَإِنَّ إِسْلَامَهُ يُخْرِزُ لَهُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ ، وَمَا كَانَ مِنْ أَرْضٍ فَإِنَّهَا مِنْ فِئَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ وَأَيُّمَا قَوْمٍ صَالَحُوا عَلَى جِزْيَةٍ يُعْطُونَهَا ، فَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ كَانَتْ دَارُهُ وَأَرْضُهُ لِبَقِيَّتِهِمْ .

وقال الليثُ : كَتَبَ إِلَيَّ يَحْيَى بن سعيد أَنَّ مَا بَاعَ الْقِبْطُ فِي جِزْيَتِهِمْ ، وَمَا يُؤْخَذُونَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِمْ - مِنْ عَبْدٍ ، أَوْ وَلِيدَةٍ ، أَوْ بَعِيرٍ ، أَوْ بَقْرَةٍ ، أَوْ دَابَّةٍ - فَإِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ عَلَيْهِمْ . فَمَنْ ابْتِئَاعَهُ مِنْهُمْ ، فَهُوَ غَيْرُ مَرْدُودٍ عَلَيْهِمْ إِنْ أُبْسِرُوا ، وَمَا أَكْرَوْا مِنْ أَرْضِهِمْ فَجَائِزٌ كِرَاؤُهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ يَضُرُّهُ بِالْجِزْيَةِ الَّتِي عَلَيْهِمْ ، فَلَعَلَّ الْأَرْضَ أَنْ تُرَوَّدَ عَلَيْهِمْ إِنْ أَضْرَّتْ بِجِزْيَتِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ فَضْلًا بَعْدَ الْجِزْيَةِ فَإِنَّا نَرَى كِرَاءَهَا جَائِزًا لِمَنْ كَرَاهَا^(a) مِنْهُمْ .^١

قال يحيى : فنحن نقول : الجزية جزيتان : جزية على رؤوس الرجال ، وجزية جُمَلية تكون على أهل القرية يُؤخذ بها أهل القرية . فمن هلك من أهل القرية التي عليهم جزية مُسَمَّاة على القرية ليست على رؤوس الرجال ، فإننا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له ولا وارث أن أرضه تزجج إلى قريته في جُملة ما عليهم من الجزية ، ومن هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال ، ولم يدع وارثًا ، فإن أرضه للمسلمين .

وقال الليثُ عن عُمَرُ بن عبد العزیز : الجزية على الرؤوس وليست على الأرضين ، يُريدُ أهل الذمَّة .^{١٥}

(a) بولاق : تَكَرَاهَا .

٣٥ ؛ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣١٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ٨ : ٢٣٤ - ٢٤٥ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٥٨ ؛ Cahen, Cl., *EI*² art. *Djawâli* II, 1. p. 573-76 ; id., *EI*² art. *Djizia* II, pp. 573-76 ؛ أيمَن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥٢٢ - ٥٢٧ وانظر فيما يلي ٢٨٨ ، ٢ : ٤٩٢ - ٤٩٣ .

وقيل لأهل الذمة الجالية لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب فسئوا جالية ، ولزمهم هذا الاسم أين حلوا ، ثم لزم من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد وإن لم يجلوها عن أوطانهم (ابن منظور : لسان العرب ١٨ : ١٦٢) .

^١ الجزية ، ويُطلق عليها في مصر أيضًا الجالية جـ . الجوالي ، الضريبة الموضوعية على الرؤوس على الذميين ، تؤخذ طالما ظل الكتاني على عقيدته وتسقط بدخوله الإسلام . وهي واجبة على أهل الذمة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين ، وكانت تجبى متى بلغ الصبي سن التاسعة . وكانت الجزية في العصر الفاطمي على ثلاث طبقات : من الغني أربع دنانير وسدس ، ومن المتوسط ديناران وقيراطان ، ومن الفقير دينار واحد وثلاث وربع وحبان أي دينار و $\frac{5}{8}$. والجزية تجب بحلول الحول ، أي أنها تستأدى مسانهة بعد انقضاء السنة بالشهور الهلالية ، وتستخرج عادة في مصر في شهر المحرم . (راجع ، المخزومي : المنهاج ٣٤ ،

وَكَتَبَ عُمرُ بن عبد العزيز إلى حَيَّان بن شُرَيْح أن يجعل جِزْيَةَ مَوْتَى القِبْطِ على أحيائهم .
وهذا يدلُّ على أنَّ عُمرَ كان يرى أنَّ أرضَ مصرِ فُتِحَتْ عَنوةً ، وأنَّ الجِزْيَةَ إنما هي على القُرَى ،
فمن مات من أهل القُرَى كانت تلك الجِزْيَةَ ثابتةً عليهم ، وأنَّ مَوْتَ من مات منهم لا يَضَعُ عنهم
من الجِزْيَةَ شيئًا . قال : ويُحْتَمَلُ أن تكون مصرُ فُتِحَتْ بِصُلْحٍ ، فذلك الصُّلْحُ ثابتٌ على من بقي
منهم ، وأنَّ مَوْتَ من مات منهم لا يَضَعُ عنهم مَّا صالحوا عليه شيئًا ^١ .

قال اللَّيْثُ : وَضَعَ عُمرُ بن عبد العزيز الجِزْيَةَ على من أسْلَمَ من أهل الذُّمَّةِ من أهل مصر ،
وَأَلْحَقَ في الديوانِ صُلْحَ من أسْلَمَ منهم في عَشَائِرِ من أسْلَمُوا على يديه ، وكانت تُؤْخَذُ قبل ذلك
مَنْ أسْلَمَ . وَأَوَّلُ من أَخَذَ الجِزْيَةَ مِّنْ أسْلَمَ من أهل الذُّمَّةِ الحَجَّاجُ بن يُوْسُفَ .

ثم كَتَبَ عبد الملك بن مَرْوان إلى / عبد العزيز بن مَرْوان أن يَضَعَ الجِزْيَةَ على من أسْلَمَ من أهل
الذُّمَّةِ ، فكلَّمه ابن حُجْبِرَةَ في ذلك قال : أُعِيدُكَ بِاللَّهِ أَيُّهَا الأميرُ أن تكون أَوَّلَ من سَنَّ ذلك
بمصر ، فوالله إنَّ أهلَ الذُّمَّةِ ليتحمَّلون جِزْيَةَ من ترهب منهم ، فكيف تَضَعُها على من أسْلَمَ
منهم ؟ فَتَرَكَهُمْ عند ذلك .

وَكَتَبَ عُمرُ بن عبد العزيز إلى حَيَّان بن شُرَيْح : أن تَضَعَ الجِزْيَةَ عَمَّنْ أسْلَمَ من أهل الذُّمَّةِ ،
فإنَّ الله تبارك وتعالى قال : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴾ [الآية ٥ سورة التوبة] ، وقال : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا
حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ
صَاغِرُونَ ﴾ [الآية ٢٩ سورة التوبة] ^٢ .

وَكَتَبَ حَيَّان بن شُرَيْح إلى عُمرَ بن عبد العزيز :

«أما بعدُ ، فإنَّ الإسلامَ قد أَضْرَبَ بالجِزْيَةَ حتى سَلَفَتْ من الحارِث بن ثابتة
عشرين ألفَ دينارٍ أتممتُ بها عطاءَ أهلِ الديوانِ ، فإن رأى أميرُ المؤمنين أن
يأمرُ بقضائها فَعَلَّ» .

فكَتَبَ إليه عُمرُ :

«أما بعدُ ، فقد بَلَغَنِي كِتَابُكَ ، وقد وَليْتُكَ جُنْدَ مصرَ ، وأنا عارِفٌ
بضعفِكَ ، وقد أَمَرْتُ رَسُولِي بِضَرْبِكَ على رَأْسِكَ عشرين سَوْطًا ، فَضَعَّ

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥٥-١٥٦ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥٤-١٥٥ .

الجزية عن أسلم، فَبِحَ اللهُ رَأْيِكَ، فَإِنَّ اللهَ إِتْمَا بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ هَادِيًا وَلَمْ يَبْعَثْهُ جَائِيًا، وَلَعَمْرِي لَعَمْرُؤُ أَشَقَى مِنْ أَنْ يَدْخُلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْإِسْلَامَ عَلَى يَدَيْهِ»^١.

قال: ولما استبطناً عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الخراج من قتل عمرو بن العاص، كتب إليه:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ عَبْدِ اللهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ، سَلَامُ اللهِ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ وَالَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، فَإِذَا أَرْضُكَ أَرْضٌ وَاسِعَةٌ عَرِيضَةٌ رَفِيعَةٌ، وَقَدْ أَعْطَى اللهُ أَهْلَهَا عُدَدًا وَجَلَدًا وَقُوَّةً فِي بَرٍّ وَبَحْرٍ، وَإِنَّهَا قَدْ عَالَجَتْهَا الْفَرَاغَةُ، وَعَمِلُوا فِيهَا عَمَلًا مُعْكَمًا، مَعَ شِدَّةِ عُنُوتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، فَعَجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَعْجِبُ مِمَّا عَجِبْتَ أَنَّهَا لَا تُؤَدِّي نِصْفَ مَا كَانَتْ تُؤَدِّيهِ مِنَ الْخَرَاجِ قَبْلَ ذَلِكَ، عَلَى غَيْرِ قُحُوطٍ وَلَا جُدُوبٍ^(a). وَلَقَدْ أَكْثَرْتُ فِي مَكَاتِبِكَ فِي الَّذِي عَلَى أَرْضِكَ مِنَ الْخَرَاجِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ سِيَّاتِنَا عَلَى غَيْرِ نَزْرٍ، وَرَجَوْتُ أَنْ تُفِيقَ فَتَرْفَعَ إِلَيَّ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ تَأْتِينِي بِمَعَارِيضٍ تَغْبَأُ بِهَا لَا تُوَافِقُ الَّذِي فِي نَفْسِي، وَلَسْتُ قَابِلًا مِنْكَ دُونَ الَّذِي كَانَتْ تُؤْخَذُ بِهِ مِنَ الْخَرَاجِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَسْتُ أَذْرِي مَعَ ذَلِكَ مَا الَّذِي نَفَرَكَ مِنْ كِتَابِي وَقَبْضِكَ، فَلَمَنْ كُنْتَ مُجْزِيًا كَافِقًا صَاحِبًا، إِنَّ الْبِرَاءَةَ لِنَافِعَةٍ، وَإِنْ كُنْتَ مُضِيعًا نَظِيفًا، إِنَّ الْأَمْرَ لَعَلَى غَيْرِ مَا تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ. وَقَدْ تَرَكْتُ أَنْ أَبْتَلِيَ ذَلِكَ مِنْكَ فِي الْعَامِ الْمَاضِي رَجَاءً أَنْ تَفِيقَ فَتَرْفَعَ إِلَيَّ ذَلِكَ. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعَكَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا عُمَالُكَ عُمَالُ السُّوءِ، وَمَا تَوَالَسَ عَلَيْهِ^(b) وَتُلْفَفَ، اتَّخَذُوكَ كَهَفًا، وَعِنْدِي يَأْذَنُ اللهُ دَوَاءً فِيهِ شِفَاءٌ عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ^(c). فَلَا تَجْزَعُ أَبَا عَبْدِ اللهِ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْكَ الْحَقُّ وَتُعْطَاهُ، فَإِنَّ النَّهْرَ يُخْرِجُ الدَّرَّ، وَالْحَقُّ أَبْلَجُ، وَدَعْنِي وَمَا عَنْهُ تَلْجَلِجُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ. وَالسَّلَامُ»^٢.

(a) بولاق: جذب. (b) بولاق: عليك. (c) بولاق: فيه.

^١ قارن مع ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥: ٣٨٤. ^٢ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٥٨-١٥٩.

فكتب إليه عمرو بن العاص :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، لَعَبَدَ اللَّهُ عُمَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، سَلَامٌ اللَّهُ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .
 أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الَّذِي اسْتَبَطَّانِي فِيهِ مِنَ الْخَرَاجِ ، وَالَّذِي ذَكَرَ فِيهَا مِنْ عَمَلِ الْقَرَاعِنَةِ قَبْلِي ، وَإِعْجَابِهِ مِنْ خَرَاجِهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، وَنَقْصِ ذَلِكَ مِنْهَا مُذْ كَانَ الْإِسْلَامَ . وَلَعَمْرِي لِلْخَرَاجِ يَوْمَئِذٍ أَوْفَرُ وَأَكْثَرُ وَالْأَرْضُ أَعْمَرُ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ أَرْغَبَ فِي عِمَارَةِ أَرْضِهِمْ مِمَّا مَدَّ كَانَ الْإِسْلَامُ ، وَذَكَرْتَ أَنَّ النَّهْرَ يُخْرِجُ الدَّرَّ فَحَلَبْتُهَا حَلَبًا قَطَعَ دُرَّهَا . وَأَكْثَرْتَ فِي كِتَابِكَ وَأَنْبَتَ وَعَرَّضْتَ وَتَرَبَّتْ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ شَيْءٍ تُخْفِيهِ عَلَى غَيْرِ نَجِيرٍ ، فَجِئْتُ لَعَمْرِي بِالْمُقْطَعَاتِ الْمُقْذَعَاتِ ، وَلَقَدْ كَانَ لَكَ فِيهِ مِنَ الصَّوَابِ مِنَ الْقَوْلِ رَصِيحٌ صَارِمٌ بَلِيغٌ صَادِقٌ . وَلَقَدْ عَمِلْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمَنْ بَعْدَهُ ، فَكُنَّا - بِحَمْدِ اللَّهِ - مُؤَدِّينَ لِأَمَانَاتِنَا ، حَافِظِينَ لِمَا عَظَّمَ اللَّهُ مِنْ حَقِّ أَيْمَتِنَا ، نَرَى غَيْرَ ذَلِكَ قَبِيحًا ، وَالْعَمَلُ بِهِ سَيِّئًا . فَيَعْرِفُ ذَلِكَ لَنَا ، وَيُصَدِّقُ فِيهِ قِيلُنَا . مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ تِلْكَ الطُّعْمِ ، وَمَنْ شَرَّ الشُّيْمِ ، وَالْإِجْتِرَاءِ عَلَى كُلِّ مَا تُمْ . فَأَقْبِضْ عَمَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ نَزَّهَنِي عَنْ تِلْكَ الطُّعْمِ الدُّنْيِيَّةِ وَالرَّغْبَةِ فِيهَا بَعْدَ كِتَابِكَ الَّذِي لَمْ تَشْتَبِقْ فِيهِ عَرَضًا ، وَلَمْ تَكْرَمْ فِيهِ أَخَا ، وَاللَّهُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ لَأَنَا حِينَ يُرَادُ ذَلِكَ مِنِّي أَشَدُّ لِنَفْسِي غَضَبًا ، وَلِهَا إِتْرَاهَا وَإِكْرَامًا ، وَمَا عَمِلْتُ مِنْ عَمَلٍ أَرَى عَلَيَّ فِيهِ مَتَعَلِّقًا ، وَلَكِنِّي حَفِظْتُ مَا لَمْ تَحْفَظْ ، وَلَوْ كُنْتُ مِنْ يَهُودٍ يَتْرِبُ مَا زِدْتُ - يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ وَلَنَا - وَسَكَتٌ عَنْ أَشْيَاءٍ كُنْتُ بِهَا عَالِمًا ، وَكَانَ اللُّسَانُ بِهَا مِنِّي ذَلُولًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَظَّمَ مِنْ حَقِّكَ مَا لَا يُجْهَلُ »^١ .

فكتب إليه عمرو بن الخطاب ، رضي الله عنه :

« مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥٩ - ١٦٠ .

أَمَّا بَعْدَ ، فَإِنِّي قَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَثْرَةِ كَتَبِي إِلَيْكَ فِي إِبْطَائِكَ بِالخَرَاجِ ،
وَكِتَابِكَ إِلَى سِيَّاتِ^(a) الطَّرِيقِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي لَسْتُ أَرْضَى مِنْكَ إِلَّا بِالْحَقِّ
الْبَيِّنِ ، وَلَمْ أَقْدِمَكَ إِلَى مِصْرَ أَجْعَلَهَا لَكَ طُعْمَةً وَلَا لِقَوْمِكَ ، وَلَكِنِّي
وَجَّهْتُكَ لِمَا رَجَوْتُ مِنْ تَوْفِيرِكَ الخَرَاجِ وَحُسْنِ سِيَاسَتِكَ . فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي
هَذَا ، فَاحْمِلِ الخَرَاجَ فَإِنَّمَا هُوَ فِيءُ الْمُسْلِمِينَ ، وَعِنْدِي مِنْ قَدْ تَعْلَمُ قَوْمٌ
مَخْصَرُونَ . وَالسَّلَامُ .

/فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، مِنْ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ ،
سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْتَبِطِئُنِي فِي الخَرَاجِ ، وَيَزْعُمُ أَنِّي
أَعْنَيْدُ^(b) عَنِ الْحَقِّ ، وَأَنْكَبُ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَرْغَبُ عَنْ صَالِحِ مَا
تَعْلَمُ ، وَلَكِنْ أَهْلَ الْأَرْضِ اسْتَنْظَرُونِي إِلَى أَنْ تُذْرَكَ غَلَّتْهُمْ ، فَتَنْظَرْتُ
لِلْمُسْلِمِينَ فَكَانَ الرَّفْقُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يُخْرَقَ بِهِمْ فَيَصِيرُوا إِلَى يَتِيمِ مَا لَا
غِنَى بِهِمْ عَنْهُ . وَالسَّلَامُ^١ .

١٥ وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : جَبَاهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ
أَلْفَ دِينَارٍ ، وَجَبَاهَا الْمُقَوْقِسُ قَبْلَهُ بِسِتَّةِ عَشْرِينَ أَلْفَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
بِمَا كَتَبَ بِهِ . وَجَبَاهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْوحٍ ، حِينَ اسْتَعْمَلَهُ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى
مِصْرَ ، أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ عُثْمَانُ لِعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ بَعْدَ مَا عَزَلَهُ عَنْ مِصْرَ : يَا أَبَا عَبْدِ
اللَّهِ ، دَرَّتِ اللَّفْحَةُ بِأَكْثَرِ مَنْ دَرَّهَا الْأَوَّلُ . قَالَ : أَضْرَرْتُمْ بَوْلَدَهَا . فَقَالَ : ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَمِتِ الْفَصِيلُ^٢ .

٢٠ وَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى وَرْدَانَ - وَكَانَ قَدْ وُلِّيَ خَرَاجَ مِصْرَ - أَنْ يَزِدَ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ
مِنَ الْقِبْطِ قِيرَاطًا . فَكَتَبَ إِلَيْهِ وَرْدَانُ : كَيْفَ تَزِيدُ عَلَيْهِمْ وَفِي عَهْدِهِمْ إِلَّا يُزَادَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ ؟ فَعَزَلَهُ
مُعَاوِيَةُ ، وَقِيلَ فِي عَزْلِ وَرْدَانَ غَيْرَ ذَلِكَ .

(a) بولاق : بينيات . (b) بولاق : أحميد .

^٢ نفسه ١٦١ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٦٠ - ١٦١ .

وقال ابن لهيعة: كان الديوان في زمان معاوية أربعين ألفاً، وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين، فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة ومحملان القمح إلى الحجاز، ثم بعث إلى معاوية بست مائة ألف دينار فضلاً^١. وقال ابن عفير: فلما نهضت الإبل لقيهم بزح بن حشك^٢ المهري، فقال: ما هذا؟ ما بال مالنا يخرج من بلادنا؟ زدوه؛ فردوه حتى وقف على باب المسجد فقال: أخذتم أعطياتكم وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونوائبكم؟ قالوا: نعم؛ قال: لا بآرك الله لهم فيه، خذوه فساؤوا به^٣. وقال بعضهم: جبي عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار، فكتب إليه عمر بن الخطاب بعجزه ويقول له: جباية الروم عشرون ألف ألف دينار؛ فلما كان العام المقبل جباه عمرو اثني عشر ألف ألف دينار. وقال ابن لهيعة: جبي عمرو بن العاص الإشكندرية الجزية ست مائة ألف دينار، لأنه وجد فيها ثلاث مائة ألف من أهل الذمة فرض عليهم دينارين دينارين^٤.

ذكر انقراض القبط وما كان من الأحداث في ذلك

خرَّج الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «كيف أنتم إذا لم تجبوا ديناراً ولا درهماً؟» قالوا: وكيف نرى ذلك كائناً يا أبا هريرة؟ قال: أي والذي نفس أبي هريرة بيده عن قول الصادق المصدوق؛ قالوا: عم ذلك؟ قال: تتهك ذمته وذمة رسوله فيشدد الله عز وجل قلوب أهل الذمة فيمنعون ما في أيديهم^٥. قال أبو عمر محمد بن يوسف الكندي في كتاب «أمرأة مصر»: وفي إمرة الحر بن يوسف أمير مصر كتب عبيد الله بن الحبحاب، صاحب خراجها، إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطاً، فانتقضت كورة نتو^٦ وتمي وقربيط وطراينة

(a) بولاق: كسحل. (b) بولاق: بنو.

^١ فيما يلي ٢٥٢. التجميعي الكندي مؤرخ مصري توفي بعد سنة ٣٥٠هـ/

^٢ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٠٢. ٩٦٢م، يُقد - مع ابن عبد الحكم - المصدر الرئيسي لفترة

^٣ فيما يلي ٤٥١. الولاية في مصر الإسلامية، ولم يصل إلينا من مؤلفاته الكثيرة

^٤ البخاري: الجامع الصحيح، باب الجزية ١٧. سوى كتاب «ولاية مصر» - الذي يسميه المقرئ بأمر

^٥ أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص مصر» و«كتاب قضاة مصر». أما سائر مؤلفاته والتي اعتمد

^٥ أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص

وعامة الخوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير، وذلك أول انتقاض القبط بمصر. وكان انتقاضهم في سنة سبع ومائة، ورابط الحر بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر، ثم انتقض أهل الصعيد^١.

وحارب القبط عمالهم في سنة إحدى وعشرين ومائة، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر، أهل الديوان فقتلوا من القبط ناسا كثيرا وظفر بهم^٢.

وخرج يحنس^(a) - رجل من القبط - في سمثود، فبعث إليه عبد الملك بن مروان موسى بن نصير أمير مصر، فقتل يحنس^(a) في كثير من أصحابه^٣، وذلك في سنة اثنين وثلاثين ومائة. وخالفت القبط برشيد، فبعث إليهم مروان بن محمد الجعدي. لما دخل مصر فازا من بني العباس - بعثمان بن أبي نسعة^(b)، فهزمهم^٤.

وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة أمير مصر، بناحية سخا، ونابدوا العمال وأخرجوهم، وذلك في سنة خمسين ومائة، وصاروا إلى شبرا شنباط، وانضم إليهم أهل البشرود والأوسية والبجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد لنصر بن حبيب المهلب على أهل الديوان ووجه مصر، فخرجوا إليهم، فبيتهم القبط وقتلوا من المسلمين، فألقى المسلمون النار في عسكر القبط، وانصرف المسلمون إلى مصر منهزمين^٥.

وفي ولاية موسى بن علي بن رباح على مصر، خرج القبط يلهيب في سنة ست وخمسين ومائة، فخرج إليهم عسكر فهزمهم^٦.

ثم انتقضوا مع من انتقض في سنة ست عشرة ومائتين، فأوقع بهم الأفشين في ناحية البشرود، حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون، فحكّم عليهم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال، فبيعوا وشيبي أكثرهم^٧.

(a) بولاق: يخنس. (b) بولاق: قسعة.

^١ الكندي: ولاية مصر ٩٥؛ وفيما يلي ٢: ٢٦١.

^٢ نفسه ١٠٣.

^٣ نفسه ١١٦. ^٤ نفسه ١١٨.

^٥ نفسه ١٣٧-١٣٨. ^٦ نفسه ١٤١.

^٧ نفسه ٢١٥، ٢١٦.

= عليها المقريري ومعاصره ابن دقماق، فلم تصل إلينا. وقد نقل المقريري تقريرا نص كتاب «ولاية مصر» للكندي موزعا على صفحات كتاب الخطط، تماثا مثلما فعل مع مصادر أخرى مثل ابن عبد الحكم وابن رضوان وابن المأمون وابن الطوير وابن عبد الظاهر... (انظر المقدمة).

ومن حينئذ أذلَّ اللهُ القِبْطَ في جميع أرض مصر، وخذَلَ شوكتهم فلم / يقدر أحدٌ منهم على الخروج ولا القيام على السلطان، وغلب المسلمون على القرى، فعاد القِبْطُ من بعد ذلك إلى كَيْد الإسلام وأهله بأعمال الحيلة واستعمال المكر، وتمكَّنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج. وكان للمسلمين فيهم وقائعُ يأتي خبرها في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ذكر نزول العرب بريف مصر

واتخاذهم الزرع معاشًا وما كان في نزولهم من الأخذات

قال الكندي، في ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي على مصر: نُقِلَتْ قَيْسُ إلى مصر في سنة تسع ومائة، ولم يكن بها أحدٌ منهم قبل ذلك إلا ما كان من فهم وعذوان، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك، فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أحيانًا، فأذن له هشام في إلحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر على ألا ينزلهم بالفسطاط، فقرض^(a) لهم ابن الحبحاب، وقدم بهم، فأنزلهم الحوْفَ الشرقي وقرعهم فيه.

ويقال إنَّ عُبيد الله بن الحبحاب، لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر، قال: ما أرى لقيس فيها حظًا إلا لناسٍ من جديلة وهم فهم وعذوان؛ فكتب إلى هشام: «إنَّ أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف هذا الحي من قيس، ونعشهم ورفع من ذكرهم، وإني قدِمْتُ مصر ولم أر لهم حظًا إلا أحيانًا من فهم، وفيها كورٌ ليس فيها أحدٌ، وليس يضرب بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجًا، وهي بلبيس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس فليفعل». فكتب إليه هشام: أنت وذاك. فبعث إلى البادية، فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر^(b)، ومائة أهل بيت من بني سليم، فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع. ونظر إلى الصدقة من العُشور فصرفها إليهم فاشترؤا إبلًا، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يُصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر. ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرجل يشتري المهر فلا يملك إلا شهرًا حتى يُركب، وليس عليهم مئونة في إغلاف^(c) إبلهم ولا نخيلهم لجودة مرعاهم.

(a) بولاق: فعرض. (b) بولاق: نصر. (c) بولاق: علف.

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمّلوا إليهم ، فوصل إليهم خمس مائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة ، فأتاهم نحو من خمس مائة أهل بيت ، فصار يلبئس ألف وخمس مائة أهل بيت من قيس .

حتى إذا كان زمن مزوان بن محمد ، وولي الخويزة بن سهيل الباهلي مصر ، مالت إليه قيس ، فمات مزوان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قديم^١ .

وفي سنة ثمان وسبعين ومائة كشف إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس أمير مصر أمر الخراج ، وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم ، فخرج عليه أهل الخوف وعشكروا ، فبعث إليهم الجيوش وحاربهم ، فقتل من الجيش جماعة ، فكتب إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد يُخبره بذلك ، فعقد لهزيمة بن أعين في جيش عظيم وبعث به إلى مصر ، فنزل الخوف ، وتلقاه أهله بالطاعة وأذعنوا بأداء الخراج ، فقيل هزيمة منهم واستخرج خراجه كله^٢ .

ثم إن أهل الخوف خرجوا على الليث بن الفضل البيوردي أمير مصر ، وذلك أنه بعث بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم ، فانتقصوا من القصبه أصابع ، فتظلم الناس إلى الليث فلم يسمع منهم ، فعشكروا وساروا إلى القسطنطاط ؛ فخرج إليهم الليث في أربعة آلاف من جنود مصر ، في شعبان سنة ست وثمانين ومائة ، فالتقى معهم في رمضان ، فانهزم عنه الجنود في ثاني عشره ، وبقي في نحو المائتين ، فحمل بمن معه على أهل الخوف فهزمتهم حتى بلغ بهم غيفا^٣ ، وكان التقاؤهم على أرض جب عميرة ، وبعث الليث إلى القسطنطاط بثمانين رأسا من رؤوس القيسية ورجع إلى القسطنطاط .

وعاد أهل الخوف إلى منازلهم وتمعوا الخراج ، فخرج ليث إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد في محرم سنة سبع وثمانين ومائة ، وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الأخواف^٤ إلا بجيش يبعث به معه . وكان محفوظ بن سليم^(b) يباب الرشيد ، فرفع محفوظ إلى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا ، فولاه الخراج ، وصرف ليث بن الفضل عن صلات مصر وخراجها^٤ .

(a) بولاق : الحوف . (b) الكندي : سليمان .

^٣ غيفا : ضيقة تقارب بلبس . (انظر فيما يلي ٤٩٧) .

^١ الكندي : ولاية مصر ٩٨-٩٩ .

^٤ الكندي : ولاية مصر ١٦٦-١٦٧ .

^٢ نفسه ١٦٠-١٦١ .

وفي ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الخوف من أداء الخراج^١، فبعث أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن معاذ في أمرهم، فنزل بلبيس في شوال سنة إحدى وتسعين ومائة. وصرف الحسين بن جميل عن إمارة مصر في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة^٢، وولي مالك بن دلهم.

٥ وفرغ يحيى بن معاذ من أمر الخوف، وقدم الفسطاط في جمادى الآخرة، فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج إليه. فكتب إلى أهل الخوف أن أقدموا حتى أوصي بكم مالك بن دلهم، وأدخل بينكم وبينه في أمر خراجكم، فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية - وقد أعد لهم القيود - فأمر بالأبواب فأخذت، ثم دعا بالحديد فقيدهم، وتوجه بهم للنصف من رجب منها^٣. وفي إمارة عيسى بن يزيد الجلودي على مصر، ظلم صالح بن شيرزاد عامل الخراج الناس وزاد عليهم في خراجهم، فانتقض أهل أسفل الأرض، وعشكروا فبعث / عيسى بابنه محمد في جيش لقتالهم، فنزل بلبيس وحاربهم، ففجأ من المعركة بنفسه ولم ينج أحد من أصحابه، وذلك في صفر سنة أربع عشرة ومائتين^٤.

١٠ فنزل عيسى عن مصر وولي عمير بن الوليد التميمي، فاستعد لحرب أهل الخوف، وسار في جيوشه في ربيع الآخر، فزحفوا عليه واقتلوا، فقتل من أهل الخوف جمع وانهمزوا، فتبعهم عمير في طائفة من أصحابه، فعطف عليه كمين لأهل الخوف فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر^٥. فولي عيسى الجلودي ثانيا، وسار إليهم فلقبهم بمئنة مطر، فكانت بينهم وقعة آلت إلى أن انهزم منهم إلى الفسطاط، وأحرق ما ثقل عليه من راحله، وخندق على الفسطاط، وذلك في رجب [سنة أربع عشرة] (a)^٦.

١٥ وقدم أبو إسحاق بن الرشيد من العراق، فنزل الخوف وأرسل إلى أهله، فامتنعوا من طاعته، فقاتلهم في شعبان ودخل - وقد ظفر بعيدة من وجوههم - إلى الفسطاط في شوال، ثم عاد إلى العراق في المحرم سنة خمس عشرة ومائتين بجمع من الأسارى^٧.

(a) زيادة من الكندي.

^١ الكندي: ولاية مصر ١٦٩. ^٢ نفسه ١٧٠. ^٣ نفسه ١٧١، ١٧٢. ^٤ نفسه ٢٠٨. ^٥ نفسه ٢٠٩-٢١٠.

^٦ نفسه ٢١١. ^٧ نفسه ٢١٢-٢١٣.

فلَمَّا كَانَ فِي جَمَادَى الْأُولَى سَنَةَ سِتِّ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ ، انْتَقَضَ أَشْفَلُ الْأَرْضِ بِأَسْرِهِ - عَرَبُ
الْبِلَادِ وَقَبْطُهَا - وَأَخْرَجُوا الْعُمَّالَ ، وَخَلَعُوا الطَّاعَةَ لِسُوءِ سِيرَةِ عُمَّالِ السُّلْطَانِ فِيهِمْ . فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ عَسَاكِرِ الْفُسْطَاطِ حُرُوبٌ امْتَدَّتْ إِلَى أَنْ قَدِمَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَأْمُونُ إِلَى مِصْرَ ،
لِعَشْرِ خَلْوَانٍ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ ، فَسَخَطَ عَلَى عَيْسَى بْنِ مَنْصُورِ الرَّافِقِيِّ - وَكَانَ
عَلَى إِمَارَةِ مِصْرَ - وَأَمَرَ بِحُلِّ لِيَوَائِهِ وَأَخَذَهُ بِلِيَاسِ الْبِيَّاضِ عُقُوبَةً لَهُ ، وَقَالَ : «لَمْ يَكُنْ هَذَا الْحَدِيثُ
الْعَظِيمُ إِلَّا عَنْ فِعْلِكَ وَفِعْلِ عُمَّالِكَ ، حَمَلْتُمْ النَّاسَ مَا لَا يُطِيقُونَ ، وَكَتَمْتَنِي الْخَبَرَ حَتَّى تَفَاقَمَ
الْأَمْرُ ، وَاضْطَرَبَ الْبَلَدُ»^١ .

ثُمَّ عَقَدَ الْمَأْمُونُ^٢ عَلَى جَيْشٍ بَعَثَ بِهِ إِلَى الصَّعِيدِ ، وَارْتَحَلَ هُوَ إِلَى سَخَا ، وَبَعَثَ بِالْأَفْشِينِ إِلَى
الْقِبْطِ - وَقَدْ خَلَعُوا الطَّاعَةَ - فَأَوْقَعَ بِهِمْ فِي نَاحِيَةِ الْبَشْرُودِ ، وَحَصَرَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ، فَحَكَمَ فِيهِمُ الْمَأْمُونُ بِقَتْلِ الرِّجَالِ وَبَيْعِ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ ، فَسَبِي أَكْثَرُهُمْ . وَتَتَبَعَ الْمَأْمُونُ كُلَّ
مَنْ يُومَأُ^٣ إِلَيْهِ بِخِلَافٍ ، فَقَتَلَ نَاسًا كَثِيرًا ، وَرَجَعَ إِلَى الْفُسْطَاطِ فِي صَفَرٍ ، وَمَضَى إِلَى حُلْوَانَ ، وَعَادَ
فَارْتَحَلَ لِثَمَانِ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ صَفَرٍ . وَكَانَ مُقَامُهُ بِالْفُسْطَاطِ وَسَخَا وَحُلْوَانَ تِسْعَةَ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا^٤ .
وَكَانَ خَرَاجُ مِصْرٍ قَدْ بَلَغَ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ - عَلَى حُكْمِ الْإِنْصَافِ فِي الْجَبَايَةِ - أَرْبَعَةَ آلَافِ أَلْفِ
دِينَارٍ وَمِائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ وَسَبْعَةَ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَيُقَالُ إِنَّ الْمَأْمُونَ لَمَّا سَارَ فِي قَرْيِ مِصْرَ ، كَانَ
يُنْتَقَى لَهُ بِكُلِّ قَرْيَةٍ دِكَّةٌ يُضْرَبُ عَلَيْهَا سُرَادِقُهُ وَالْعَسَاكِرُ مِنْ حَوْلِهِ . وَكَانَ يُقِيمُ فِي الْقَرْيَةِ يَوْمًا
وَلَيْلَةً ، فَمَرَّ بِقَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا «طَاءُ النَّمْلِ» فَلَمْ يَدْخُلْهَا لِحَقَارَتِهَا . فَلَمَّا تَجَاوَزَهَا خَرَجَتْ إِلَيْهِ عَجُوزٌ -
تُعْرَفُ بِمَارِيَةِ الْقِبْطِيَّةِ صَاحِبَةَ الْقَرْيَةِ - وَهِيَ تَصِيحُ ، فَظَنَّتْهَا الْمَأْمُونُ مُسْتَغِيثَةً مُتَظَلِّمَةً ، فَوَقَفَ لَهَا -
وَكَانَ لَا يَمُشِي أَبَدًا إِلَّا وَالتَّرَاجِمَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ الْقِبْطِيَّةَ قَالَتْ : يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ ، نَزَلَتْ فِي كُلِّ ضَيْعَةٍ وَتَجَاوَزَتْ ضَيْعَتِي ، وَالْقِبْطُ تُعَيِّرُنِي بِذَلِكَ ، وَأَنَا أَسْأَلُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ
يُسْرِفَنِي بِحُلُولِهِ فِي ضَيْعَتِي لِيَكُونَ لِي الشَّرْفُ وَالْعُقْبَى ، وَلَا تَشْمَتَ بِي الْأَعْدَاءُ ، وَبَكَتْ بُكَاءً
كَثِيرًا . فَفَرَّقَ لَهَا الْمَأْمُونُ ، وَثَنَى عِنَانَ فَرَسِهِ إِلَيْهَا وَنَزَلَ . فَجَاءَ وَلَدُهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَطْبَخِ وَسَأَلَهُ :
كَمْ تَحْتَاجُ مِنَ الْعَنَمِ وَالذُّجَاجِ وَالْفِرَاحِ وَالسَّمَكِ وَالتَّوَابِلِ وَالسُّكَّرِ وَالْعَسَلِ وَالطُّيْبِ وَالشَّمْعِ

(a) الأصل وبولاق : يومي .

^١ الكندي : ولاية مصر ٢١٦ .^٢ الكندي : ولاية مصر ٢١٦ .^٣ لأبي مغيث موسى بن إبراهيم .

والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته ؟ فأحضرت جميع ذلك إليه بزيادة .

وكان مع المأمون أخوه المعتصم ، وابنه العباس ، وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أئتم والقاضي أحمد بن داود ، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده ، ولم تكل أحدًا منهم ولا من القواد إلى غيره ، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئًا كثيرًا حتى إنه استعظم ذلك . فلما أصبح - وقد عزم على الرحيل - حضرت إليه ، ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر : قد جاءكم القبطية بهديّة الرّيف : الكامخ ، والصّخناة ، والصّبر .

فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب ، فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته ، فقالت : لا ، والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله ، فقال : هذا والله أعجب ، ربّما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك ! فقالت : يا أمير المؤمنين ، لا تكسر قلوبنا ولا تحقر بنا ؛ فقال : إن في بعض ما صنعت لكفاية ، ولا تحبّ التثقل عليك ، فردي مالك بآرك الله فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين ، هذا - وأشارت إلى الذهب - من هذا - وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض - ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندني من هذا شيء كثير . فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدّة ضياع ، وأعطاهما من قريتها «طاء النمل» مائتي فدّان بغير خراج ، وأنصرف متعجبًا من كبر مروءتها وسعة حالها ^١ .

ذكر قبالات أراضي مصر بعد ما فتش الإسلام في القبط،

ونزلت ^(a) العرب في القرى ، وما كان من ذلك إلى الروك الأخير الناصري

/ وكان من خبر أراضي مصر - بعد نزول العرب بأزيافها واستيطانهم وأهاليهم فيها ، واتخاذهم الزرع معاشًا وكسبًا ، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار

(a) بولاق : نزول .

خراجية ، ولا علاقة له بملكية الأرض مطلقًا راجع ، Cahen, Cl., *El² art. Iktâ* III, p. 1116; id., *El² art. Kabâla* IV, pp. 337-38؛ أمين فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥١٨ - ٥٢١ ، ٧٢٣ - ٧٢٤ .

^١ إلى هنا ينتهي الجزء الأول من نشرة Gaston Wiet .
^٢ عن القبالة وهو عمل مالي بحت ، الغرض منه تسهيل جباية الخراج ، بما أن أرض مصر كانت كلها منذ الفتح أرضًا

الإسلام^١، واختِلاطُ أنسابِهِمُ بِأنسابِ المُسلمين لِإنكاحِهِمُ المُسْلِماتِ - أنَّ مُتَوَلِّي خِراجِ مِصْرَ كانَ يَجْلِسُ في جَامِعِ عَمْرُو بنِ العاصِ مِنَ القُسْطَاطِ في الوَقْتِ الَّذي تَتهَيَأُ فيه قِبالةُ الأَرْضِ، وَقَد اجْتَمَعَ النَّاسُ مِنَ القُرىِ والمُدُنِ، فيقومُ رَجُلٌ يُنادي عَلى البِلادِ صَفَقاتِ صَفَقاتِ، وَكُتَّابُ الخِراجِ يَبيدُ مَتَوَلِّي الخِراجِ يَكْتُبُونَ ما يَنتَهِى إليه مَبالِغُ الكُورِ والصَّفَقاتِ عَلى مَن يَتَقَبَّلُها مِنَ النَّاسِ، وَكانتِ البِلادُ يَتَقَبَّلُها مُتَقَبِّلُوها لِأَربَعِ^(a) سَنيَنَ لِأَجْلِ الظُّمأِ وَالاسْتِيتِحارِ وَغيرِ ذلكِ .

فَإِذا انقَضَى هَذا الأَمْرُ، خَرَجَ كُلُّ مَن^(b) تَقَبَّلَ أَرْضًا وَضَمِنَها إلى نَاحِيَتِهِ، فَتَوَلَّى^(c) زِراعَتَها وَإِصلاحَ جُسُورِها وَسائِرِ وُجُوهِ أَعْمالِها بِنَفسِهِ وَأهلِهِ وَمَن يَتَنَدَّبُهُ لَذلكِ، وَيَحْمِلُ ما عَليه مِنَ الخِراجِ في إِبانِهِ عَلى أَقساطِ، وَيُحَسَبُ لَه مِنَ مَبلِغِ قِبالَتِهِ وَضَمانِهِ لِتلكِ الأَرْضِ ما يُنْفِقُهُ عَلى عِمارةِ جُسُورِها وَسَدِّ تِراعيِها وَحَفْرِ خُلُجِها، بِضَرائِبِ مُقَدَّرَةٍ في دِيوانِ الخِراجِ^٢.

وَيَتَأخَّرُ مِنَ مَبلِغِ الخِراجِ في كُلِّ سَنةٍ شَيءٌ^(d) في جِهاَتِ الضُّمانِ وَالْمُتَقَبِّلِينَ، وَيُقَالُ لَما تَأخَّرَ مِنَ مالِ الخِراجِ «البَواقِي». وَكانتِ الوِلاةُ تُشَدُّدُ في طَلَبِ ذلكِ مَرَّةً وَتُسامِحُ بِهِ مَرَّةً. فَإِذا مَضَى مِنَ الزُّمانِ ثَلاثونَ سَنةً حَوَّلُوا السَّنةَ، وَراكَوا البِلادَ كُلَّها وَعَدَّلُوها تَعدِيلًا جَديدًا، فزَيدَ فيما يَحْتَمِلُ الزُّيادةَ مِنَ غيرِ ضَمانِ البِلادِ، وَنَقِصَ فيما يَحْتَاجُ إلى التَّنقيصِ مَناها .

وَكانَ^(e) ذلكِ يُعْمَلُ في جَامِعِ عَمْرُو بنِ العاصِ إلى أنَ عَمَرَ أَحْمَدُ بنُ طُولونِ جَامِعَهُ، وَصارَ العَسْكَرُ مَنزِلًا لِأَمراءِ مِصْرَ، فَنُقِلَ الدِّيوانُ إلى جَامِعِ أَحْمَدِ بنِ طُولونِ. ثُمَّ نُقِلَ

(a) بولاق : بالأربع . (b) بولاق : من كان . (c) بولاق : فيتولى . (d) ساقطة من بولاق . (e) بولاق : ولم يزل .

^٢ عن خراج الأرض الزراعية راجع ، ضياء الدين الزُّميس : الخراج في الدولة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٧ ، Cahen, Cl., *El² art. Kharâdj* IV pp. 1062-66; وعن الخراج في مصر بصفة خاصة راجع ، Cooper, R.S., «The Assessment and collection of Kharâj Tax in Medieval Egypt», *JAOS* 96 (1976), pp. 365-82; Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 504-741/ A.D. 1169-1341*, pp. 73-79; Franz-Murphy, G., *The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans*, SAI Cahier n°9 Le Caire 1986.

^١ حول تعريب وأسلمة مصر راجع ، Anawati, G.C., «Factors and Effects of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria», in Vryonis, In. (ed.), *Islam and Cultural Change in the Middle Ages*, Wiesbaden 1975, pp. 17-41; Décobert, Chr., «Sur l'arabisation et l'islamisation de l'Égypte médiévale», dans Décobert, Chr. (ed.), *Itinéraires d'Égypte*, Le Caire 1992, pp. 273-300 العربية في مصر ، القاهرة ١٩٧٠ ، Gladys ١٩٧-١٩٧٠ Frantz-Murphy, *CE art., Copts under the Umayyads*, 7, pp. 2286-89

في (a) أيام العزيز بالله نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلس ، فلما مات الوزير نُقِلَ الدِّيوَانُ إلى القصر بالقاهرة ، فاستمر (b) به مُدَّة الدولة الفاطمية ، ثم نُقِلَ منه بَعْدَهَا . (c) وسأتلو عليك من نَبَأ ذلك ما يَتَضَحُّ به ما ذَكَرْت (c).

قال ابن زولاق في كتاب «أخبار المادرائيين»^١ كُتِّبَ مصر : وحَضَرَ أبو الحسن وهُبُّ بن إسماعيل مَجْلِسَ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ (a) بن علي المادرائي في المسجد الجامع ، وهو يَعْتَقِد الضِّيَاع ، فقال له أبو بكر : السَّاعَةَ أَمْرٌ بِالنَّدَاءِ عَلَى صَفْقَةٍ ، فَخَذَهَا شَرِكَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ . فَنُودِيَ عَلَى صَفْقَةٍ ، فقال أبو بكر : اعْقِدُوهَا عَلَى أَبِي الْحَسَنِ ، فَعَقِدَتْ عَلَيْهِ وَعَمَلَهَا (d) ، فَأَفْضَلَتْ لَهُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَاسْتَنْصَحَ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَلَمْ يَذْرُ مَا يَعْمَلُ فِيهَا إِلَى أَنْ اجْتَمَعَ مَعَ أَبِي يَعْقُوبَ - كَاتِبَ أَبِي بَكْرٍ - لِيَتَحَدَّثَا ، فَقَالَ أَبُو يَعْقُوبَ : رَأَيْتُ الشَّيْخَ - يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ الْمَادْرَائِيَّ - فِي الْيَوْمِ مَشْغُولَ الْقَلْبِ ، أَرَادَ جَمْعَ مَالٍ وَقَدْ عَجَزَ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الْحَسَنِ : عِنْدِي نَحْوُ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ : جِئْنِي بِهَا ، فَأَنْفِذْهَا إِلَيْهِ وَجَاءَهُ خَطُّهُ بِالْمَبْلَغِ .

فَاتَّفَقَ أَنْ مَضَى أَبُو الْحَسَنِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الْمَادْرَائِيَّ ، فَقَالَ لَهُ : تِلْكَ الصَّفْقَةُ قَدْ غَلَقْتَ مَا عَلَيْهَا وَفَضَّلَ أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَقَدْ حَصَلَ عِنْدِي عَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ حَمَلْتُهَا إِلَى أَبِي يَعْقُوبَ ، وَأَرْسَلْتُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْبَاقِي وَأَحْمِلْهُ (e) . فَقَالَ الْمَادْرَائِيُّ : مَا هَذَا الْعَجْزُ ؟ إِنَّمَا قَلْتَ لَكَ تَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ خَوْفًا مِنْ تَفْرِيطِكَ ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ حِفْظَ الْمَالِ عَلَيْكَ . ثُمَّ أَمَرَ أَبَا يَعْقُوبَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ مَا دَفَعَهُ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لِأَبِي الْحَسَنِ : رُدَّ عَلَيْهِ خَطُّهُ . فَقَبِضَ مَا دَفَعَهُ إِلَى أَبِي يَعْقُوبَ .

وَبَلَغَ خَرَاجُ مِصْرَ ، فِي السَّنَةِ الَّتِي دَخَلَ فِيهَا جَوْهَرُ الْقَائِدِ : ثَلَاثَةَ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَنِيفًا .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : واستمر . (c-c) ساقطة من الأصل . (d) بولاق : تحملها . (e) بولاق : فاحمله .

^١ المادرائيون . نسبة إلى مادرايا - قرية فوق واسط بالعراق من أعمال فم الصلح مقابل نهر سائس (معجم البلدان ٣٤:٥) - اسم لأسرة من أصول عراقية تولى أفرادها مناصب إدارية ومالية هامة في مصر والشام بين سنتي ٢٦٦-٣٣٥هـ / ٨٧٩-٩٤٦م ، أشهرهم أبو بكر أحمد بن إبراهيم المادرائي وابنه علي بن أحمد وأبو علي الحسين بن أحمد أبو زنبور ثم أبو بكر محمد بن علي بن أحمد والذي انتهت بوفاته سنة ٣٤٥هـ تواجد هذه الأسرة في الإدارة المصرية (راجع ، ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) ٣٥٠-٣٥٣ ، المقرئ : المقفى الكبير ١:٣٣ ، ٣٤٣-٣٤٤ ، ٣:٤٦٦-٤٨١ ، ٦:٢٣٤-٢٤٧ ، ٢٤٧ ، Gottschalk, A.L., Die Madarâ'ijjûn, Berlin-Leipzig 1931, id., El² art., Madharâ'î V, p. 957 سيدة إسماعيل كاشف : مصر في عصر الإخشيديين ٣٩-٥٥ ، وانظر فيما يلي ١٥٥:٢-١٥٧ .

وقال^١ في كتاب «سيرة المعز لدين الله معدّ»: ولست عشرة بقيت من المحرم سنة ثلاث وستين وثلاث مائة، قلّد المعز لدين الله الخراج ووجوه الأموال وغير ذلك، يعقوب بن كلّس وعشلوج ابن الحسن، وجلسا عند^a هذا اليوم في دار الإمارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال، وحضّر الناس للقبالات، وطلّبوا البقايا من الأموال ممّا على المالكين والمتقبّلين والعمّال^٢.

وقال جامع «سيرة الوزير الثّاصر للدين الحسن بن عليّ اليازوري»^٣: وأراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة^٤، وما عليها من النفقات، ليقيس بينهما، فتقدّم إلى أصحاب الدواوين بأن يعمل كلّ منهم ارتفاع ما يجري في ديوانه، وما عليه من النفقات، فعمل ذلك وسلّمه إلى متولّي ديوان المجلس - وهو زمام الدواوين - فنظّم عليه عملاً جامعاً وأحضّره إياه. فرأى ارتفاع الدولة ألفي ألف دينار: منها الشام ألف ألف دينار، و^bنفقاته بإزاء ارتفاعه، ومنها الرّيف وباقي الدولة ألف ألف دينار^b، يقف منها عن مغلول ومُنكسر عن موتى وهَرَاب ومفقود مائتا ألف دينار، ويتقى ثمان مائة ألف دينار يُصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلاث مائة ألف دينار، وعن ثمن

(a) بولاق: في . (b-b) ساقطة من الأصل انتقال نظر.

and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Era (edited by Vermulen & De Smet), Peeters-Leuven 1995, II, pp. 15-27، وورد اسم هذا الوزير في كل المواضع في طبعة بولاق: اليازوري بالباء وصواب ضبط اسمه اليازوري نسبة إلى قرية يازور من أعمال الرّهلة بفلسطين.

^٤ الارتفاع. هو الضريبة الأساسية (الخراج) فيما يتعلّق بالأراضي الزراعية، وينقسم الارتفاع - في طريقة الدفع - إلى نوعين: «المستخرج عيّنًا» و«المتحصّل غللاً». ويسمى المتحصّل غللاً عادة «خراج المناجزة» وأحياناً «خراج المشاطرة»؛ أمّا ما يُدفع عيّنًا فينقسم إلى ثلاثة أنواع: المال الهلالي والمراعي والمال الخراجي (النابلسي): تاريخ الفيوم وبلاده ١١٦-١١٧؛ Cahen, Cl., «Le régime des impôts dans le Fayyum Ayyubide», *Arabica* III (1956), pp. 13-17، وانظر فيما يلي (٢٧٨).

^٥ فيما يلي ٢٦٨.

^١ أي ابن زولاق.

^٢ ابن ميسر: أخبار مصر ١٦٣؛ المقرئزي: اتعاظ الخنفا ١٤٤:١-١٤٥؛ وفيما يلي ٥:٢-٦، ٢٦٩.

^٣ انظر دراسة المصادر في المقدمة، وعن الوزير الفاطمي أبي محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري الذي تولى رتبة الوزارة وكذلك رتبتي قاضي القضاة وداعي الدعاة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٤٢-٤٥٠هـ/١٠٥٠-١٠٥٨م) راجع، ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة ٧٣-٨١؛ ابن ميسر: أخبار مصر ١٦-١٨؛ التويري: نهاية الأرب ٢٨:٢٢١-٢٢٤؛ المقرئزي: المقفى الكبير ٣:٢٦٦-٤٠٨ (ترجمة مفصلة)، اتعاظ الخنفا ٢:١٩٧؛ ابن حجر: رفع الإصر ١٢٩-١٣٤؛ *RCEA* Wiet, G., n° 2610-12؛ وعن ملاحظات مقتل الوزير اليازوري راجع، Brett, M. «The Execution of al-Yâzûrî» in *Egypt*

غلة للقصور مائة ألف دينار، وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار، وعن عمائر وما يُقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار، ويتقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصلة يَحْمِلُهَا كُلُّ سنة إلى بيت المال المصون، فحِطِّيَ بذلك عند سُلْطَانِهِ وَخَفَّ عَلَى قَلْبِهِ.

قال: وانتهى ارتفاع الأرض السفلى إلى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأول - يعني بعد موت اليازوري ومُحْدُوثِ الْفِئْتَن - وهو قَبْلُ سِنِي الْفِئْتَن. يعني في أَيَّامِ الْيَازُورِيِّ - ست مائة ألف دينار / كانت تُحْمَلُ فِي دَفْعَتَيْنِ فِي السَّنَةِ: فِي مَسْتَهْلِ رَجَبِ ثَلَاثِ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَفِي مَسْتَهْلِ الْمُحْرَمِ ثَلَاثِ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، فَاتَّضَعَ الِارْتِفَاعُ وَعَظُمَتِ الْوَاجِبَاتُ.^١

وقال ابن ميسر: وأمر الأفضل بن أمير الجيوش بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر، فجاء خمسة آلاف ألف دينار، وكان متحصلاً الأهرام ألف ألف أردب.^٢

وقال الأمير جمال الملك موسى بن المأمون البطائحي، في «تاريخه» من حوادث سنة إحدى وخمسة مائة: ثم رأى القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحي من ^(a) اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين، وتضررهم من كون إقطاعاتهم قد خسر ارتفاعها، وساءت أحوالهم لقلّة المتحصّل منها، وأن إقطاع الأمراء، قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عن غيرها ^(b)، وأن في كل ناحية من الفواضل للديوان جملة تجيء بالعسف وتتردد الرسل من الديوان بسببها ^(a).^٣

فخاطب الأفضل بن أمير الجيوش في أن يحل الإقطاعات جميعها ويروكها ^(c)، وعرفه أن المصلحة تعود في ذلك على المقطعين والديوان، لأن الديوان يتحصّل له من هذه الفواضل جملة

(a-a) النص في كراسة Liège ١٥٧، وكان قد اختل حال الرجال العسكرية والمقطعين من خسة ارتفاع الإقطاعات وقلة متحصّلها وتضاعف ارتفاعات إقطاع الأمراء وزيادتها عن غيرها وتوفر في كل ناحية جملة للديوان صارت تجيء بالعسف من تردد الرسل من الديوان بسببها. (b) بولاقي: غيرها. (c) كراسة Liège: فأمر الأفضل بن أمير الجيوش بحل جميع الإقطاعات وراكها.

^١ فيما يلي ٢٦٨. ارتفاع السنة التي هي أقل ريقاً والسنة التي هي أكثر ريقاً

ويجمعان ويؤخذ نصفهما فتلك العبرة بعد أن تعتبر الأسعار وسائر العوارض الواقعة (الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٠: ابن

ممتي: قوانين الدواوين ٣٦: Cahen, Cl., op. cit. pp. 12-13. وفيما يلي ٢٣٣-٢٣٤).

^٢ انظر فيما يلي ٢٢٨.

^٣ العبرة: كلمة اصطلاحية تعني مقدار المربوط من

الضريبة المالية على كل إقطاع من الأرض وما يتحصّل من كل قرية من عين وغلة وصنف ويكون حسابها بحيث يعتبر

ابن ميسر: أخبار مصر ٨٤: المقرئ: اتعاط الحنفا ٧٢:٣ وفيما يلي ٢٦٩-٢٧٠.

يَحْصُلُ بِهَا بِلَادٌ مُقَوَّرَةٌ^١. فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ، وَحَلَّ جَمِيعَ الْإِقْطَاعَاتِ وَرَاكَهَا^٢. وَأَخَذَ كُلٌّ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ وَالْمُمَيَّرِينَ يَتَضَرَّرُونَ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ لَهُمْ بَسَاتِينَ وَأَمْلاكَ وَمَعَاصِرَ فِي نَوَاحِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ: مِنْ كَانَ لَهُ مِلْكٌ فَهُوَ بَاقٍ عَلَيْهِ لَا يَدْخُلُ فِي الْإِقْطَاعِ، وَهُوَ مُحَكَّمٌ: إِنْ شَاءَ بَاعَهُ وَإِنْ شَاءَ آجَرَهُ. فَلَمَّا حُلَّتِ الْإِقْطَاعَاتُ أَمَرَ الضُّعْفَاءَ مِنَ الْأَجْنَادِ أَنْ يَتَزَايِدُوا فِيهَا، فَوَقَعَتِ الزِّيَادَةُ فِي إِقْطَاعَاتِ الْأَقْوِيَاءِ إِلَى أَنْ انْتَهَتْ إِلَى مَبْلَغٍ مَعْلُومٍ، وَكُتِبَتِ السَّجَلَاتُ بِأَنَّهَا بَاقِيَةٌ فِي أَيْدِيهِمْ إِلَى مُدَّةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يُقْبَلُ عَلَيْهِمْ فِيهَا زَائِدٌ. وَأَخْضَرَ الْأَقْوِيَاءُ وَقَالَ لَهُمْ: مَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْإِقْطَاعَاتِ الَّتِي كَانَتْ يَدُ الْأَجْنَادِ؟ قَالُوا: كَثْرَةُ عِبْرَتِهَا وَقِلَّةُ مُتَحَصِّلِهَا، وَخَرَابُهَا وَقِلَّةُ السَّائِكِينَ بِهَا؛ فَقَالَ لَهُمْ: ابْدُلُوا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مَا تَحْتَمِلُهُ وَتُقَوِّي رَغْبَتَكُمْ فِيهِ، وَلَا تَنْظُرُوا فِي الْعِبْرَةِ الْأُولَى. فَعِنْدَ ذَلِكَ طَابَتِ نُفُوسُهُمْ، وَتَزَايَدُوا فِيهَا إِلَى أَنْ بَلَغَتْ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي رَغِبَ كُلُّ مَنْهُمْ فِيهِ، فَأَقْطَعُوا بِهِ، وَكَتَبَ لَهُمُ السَّجَلَاتُ عَلَى الْحُكْمِ الْمَتَقَدِّمِ.

فَسَمِلَتِ الْمَصْلَحَةُ الْفَرِيقَيْنِ وَطَابَتِ نُفُوسُهُمْ. وَحَصَلَ لِلدِّيْوَانِ بِلَادٌ مُقَوَّرَةٌ، بِمَا كَانَ مُفَرَّقًا فِي الْإِقْطَاعَاتِ، بِمَا مَبْلَغُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ^٣.

وَقَالَ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ أَمْرُ الْأَجَلِ الْمَأْمُونِ بِعَمَلِ حِسَابِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْهِلَالِيِّ وَالخَرَاجِيِّ، وَجَعَلَ نَظْمَهُ عَلَى جُمَّلَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا إِلَى سَنَةِ عَشْرٍ وَخَمْسَ مِائَةِ الْهِلَالِيَةِ الْخَرَاجِيَّةِ، وَالْجُمَّلَةَ الثَّانِيَةَ إِلَى آخِرِ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ مِائَةِ هِلَالِيٍّ وَمَا يُوَافِقُهَا مِنَ الْخَرَاجِيَّةِ؛ فَانْتَقَدَتِ عَلَى جُمَّلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْعَيْنِ وَالْأَصْنَافِ، وَشُرِحَتْ بِأَسْمَاءِ أَرْبَابِهَا وَتَقْيِينَ بِلَادِهَا، فَلَمَّا أُخْضِرَتْ أَمَرَ بِكُتُبِ سِجَلٍ يَتَضَمَّنُ الْمُسَامَحَةَ بِالْبِتَوَاقِي إِلَى آخِرِ سَنَةِ عَشْرٍ وَخَمْسَ مِائَةٍ، وَنُسَخَتْهُ بَعْدَ التُّصْدِيرِ:

«وَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْنَا حَالُ الْمُعَامِلِينَ وَالضُّمَنَاءِ وَالْمُتَضَرِّفِينَ وَمَا فِي جِهَاتِهِمْ مِنْ بَقَايَا مُعَامَلَاتِهِمْ، أَنْعَمْنَا بِمَا تَضَمَّنَهُ هَذَا السَّجَلُ مِنَ الْمُسَامَحَةِ، قَصْدًا فِي اسْتِخْلَاصِ ضَامِنِ طَالَتِ غَفْلَتُهُ وَخَرِبَتْ ذِمَّتُهُ، وَإِنْقَازِ عَامِلٍ أَجْحَفَ بِهِ مِنَ الدِّيْوَانِ طَلِبَتِهِ، وَتَوْفِيرِ الرَّغْبَةِ عَلَى عِمَارَتِهَا، وَجَزْيِهَا فِيهَا عَلَى قَدِيمِ عَادَتِهَا.

^٢ عن الروك انظر فيما يلي ٢٣٥-٢٣٦.

^٣ ابن المأمون: أخبار مصر ٩-١٠؛ المقرئ: اتعاض

الحنفا ٣: ٤٠.

^١ البلاد المقوَّرة. يقصد بها الأماكن والأراضي المتسعة

التي لا نبات بها (إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨،

٥٠٥)، وفيما يلي ١: ٤٠١.

ولما كان ذلك من جميل الأحدثوة التي لم تُسبق إليها ولا شاركنا ملك فيها ، اقتضت الحال إيرادها في هذا الكتاب وإيداعها هذا الباب ، لما أطلعنا عليه مما انتهت إليه أحوال الضمّناء والمعاملين بالمملكة ، من الاختلال وتجمّد البقايا في جهاتهم والأموال ، عطفنا عليهم برأفة ورَحمة ، وطالغنا المقام الأشرف النبوي بالتفصيل من أمورهم والجملة ، واستخرجنا الأمر العالي بوضع ذلك في الحال . وإنشاء السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هذا الإحسان وتنفيذها إلى جميع البلدان ليقرأ على رؤوس الأشهاد بسائر البلاد .

ومبْلَغ ما انتهت إليه هذه المسامحة ، إلى حين ختم هذا السجل : من العين ألفا ألف وسبع مائة ألف وعشرون ألفا وسبع مائة وسبعة وستون دينارًا ونصف وثلث وثلثان ورُبْع قيراط ، ومن الفضة الثُّقْرَة^١ أربعة دراهم ، ومن الورق سبعة وستون ألفًا وخمسة دراهم ونصف وسُدُس دِرْهَم . ومن الغلّة ثلاثة آلاف ألف وثمان مائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة و ثلاثون أزدبًا وثمان ونصف وسُدُس وثلثي قيراط . ومن العنّاب رُبْع أزدب ، ومن وِرْق الصَّبَاغ ألفان وأربع مائة وثلاثة أراذِب ونصف ، ومن زريعة الوَسْمَة عشرة أراذِب ورُبْع ، ومن الصَّبَاغ ألف وأربع مائة وثمانون قِنْطَارًا ورِطْل ونصف ، ومن الفُوّه أربع مائة وسبعون رِطْلًا ، ومن السُّبُّ تسع مائة وثلاثة عشر قِنْطَارًا ونصف ، ومن الحديد خمس مائة رطلٍ وأحد و ثلاثون رِطْلًا ، ومن الزُّفْتِ ألف و ثلاث مائة وثلاثة أُرْطال ورُبْع وسُدُس ، ومن القَطْران تسعة عشر رِطْلًا وثلث .

ومن الثياب الحلبي ثلاثة أثواب ، ومن المآزر مائة ميّزَر صُوف ، ومن الغرايب مائة وسبعون غُزْبَالًا . ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة و ثلاثون ألفًا و ثلاث مائة وخمسة أُرُوس . ومن البشر ثلاث مائة وثلاثة عشر قِنْطَارًا وثمانية و ثلاثون رِطْلًا ، ومن السَّحِيل ثلاث مائة ألف / وخمسة وسبعون ألفًا وخمس مائة وخمسون باعًا ، ومن الجريد أربع مائة ألف وثمانية و ثلاثون ألفًا وسبع مائة وثلاثة وخمسون جريدة ، ومن السُّلْب ألف وأربع مائة وثلاثة وعشرون سلبة . ومن الأطراف ستة آلاف وسبع مائة وثلاثة

^١ الفضة الثُّقْرَة هي التي عيارها الثلثان من فضة والثلث من نحاس . (القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٣٩ ،

أطراف ، ومن الملح ألفان وسبع مائة وثلاثة وتسعون إزدبًا وثلاث ، ومن الأشنان أحد عشر إزدبًا ، ومن الرُّمَّان ألفا حجة . ومن العسل الثُّخَل خمس مائة وأحد وأربعون قنطارًا وسُدس ، ومن الشَّهْد اثنان وثلاثون زيرًا وقادوسًا واحدًا ، ومن الشُّمَع أربع مائة وأربعون رطلًا ، ومن الخَلَايا ثلاثة آلاف وأربع مائة وخَلِيَّتَانِ ، ومن عَسَلِ الْقَصَبِ مائة وثمانية وثمانون قِشَطًا^(a) .

ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفًا ومائة وأربعة وستون رأسًا ، ومن الدُّوَاب أربعة وسبعون رأسًا . ومن السُّمْنِ ألفان وتسع مائة وستة وتسعون مَطْرًا وسُدسٌ وثمانين ، ومن الجُبْنِ ثلاث مائة وعشرون رطلًا . ومن الصُّوفِ أربعة آلاف ومائة وثلاثة وعشرون جَزْرَةً ، ومن الشُّعْرِ ستة آلاف وخمسون رطلًا ورُبْعٌ ، ومن نُيُوتِ الشُّعْرِ يَمَانٌ .

وفَصَّلَ ذلكَ بِجِهَاتِهِ وَمُعَامَلِيهِ .

قال^١ : ولَمَّا انْتَهَى إِلَى الْمَأْمُونِ مَا يُعْتَمَدُ فِي الدُّوَابِّ ، مِنْ قَبُولِ الزِّيَادَاتِ وَفَسْخِ عُقُودِ الضَّمَانَاتِ وَانْتِزَاعِهَا مِمَّنْ كَابَدَ فِيهَا الْمَشَقَّةَ وَالتَّعَبَ ، وَتَسْلِيمِهَا إِلَى بَاذِلِ الزِّيَادَةِ مِنْ غَيْرِ كُفْلَةٍ وَلَا نَصَبٍ ، أَنْكَرَ ذَلِكَ وَمَنَعَ مِنْ اذْتِكَابِهِ ، وَنَهَى عَنِ الرُّلُوجِ فِي بَابِهِ ، وَخَرَجَ أَمْرُهُ بِإِعْفَاءِ الْكَافَّةِ أَجْمَعِينَ وَالضَّمَانَاءِ وَالْمُعَامِلِينَ مِنْ قَبُولِ الزِّيَادَةِ فِيمَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ وَيَسْتَتُولُونَ عَلَيْهِ ، مَا دَامُوا مَغْلَقِينَ وَبِأَقْسَاطِهِمْ قَائِمِينَ . وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مَنَشُورٌ قُرِئَ فِي الْجَامِعِينَ الْأَزْهَرِ بِالْقَاهِرَةِ وَالْعَتِيقِ بِمِصْرَ وَدِيَوَانِي الْمَجْلِسِ وَالْخَاصِّ الْأَمْرَيْنِ الشَّعِيدَيْنِ ؛ وَنُسَخَتْهُ بَعْدَ التُّصْدِيرِ :

«وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى خَضْرَتِنَا مَا يُعْتَمَدُ فِي الدُّوَابِّ ، وَيَقْصِدُهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَرِّفِينَ وَالْمُسْتَخْدَمِينَ ، مِنْ تَضَمِينِ الْأَبْوَابِ وَالرُّبَاعِ وَالْبَسَاتِينِ وَالْحَمَامَاتِ وَالْقِيَاسِ وَالْمَسَاكِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الضَّمَانَاتِ ، لِلرَّاغِبِينَ فِيهَا مِمَّنْ تَسْتَمِرُّ مُعَامَلَتُهُ وَلَا تُنْكَرُ طَرِيقَتُهُ . فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَخْضُرَ مِنْ يُزِيدُ عَلَيْهِ فِي ضَمَانِهِ ، حَتَّى قَدْ نَقَضَ عَلَيْهِ مُحْكَمُ الضَّمَانِ ، وَقَبْلَ مَا يَبْدُلُ مِنَ الزِّيَادَةِ كَائِنًا مِنْ

(a) بولاق : ثمانية وثلاثون قنطارًا .

^١ أي ابن المأمون .

كان ، وقُبِضَتْ يَدُ الضَّامِنِ الْأَوَّلِ عَنِ التَّصَرُّفِ ، وَتَمَكَّنَ الضَّامِنُ الثَّانِي مِنْ التَّصَرُّفِ مِنْ غَيْرِ رِعَايَةِ لِلْعَقْدِ عَلَى الضَّامِنِ الْأَوَّلِ ، وَلَا تَحَرُّزٍ فِي فَسْخِهِ الَّذِي لَا يُبِيحُهُ الشَّرْعُ وَلَا يُتَأَوَّلُ ؛ أَنْكَرْنَا ذَلِكَ عَلَى مُعْتَمِدِيهِ ، وَذَمَّمْنَا مِنْ غَيْرِ^(a) قَصْدٍ فَاعِلِيهِ وَمُرْتَكِبِيهِ ، إِذْ كَانَ لِلْحَقِّ مُجَانِبًا ، وَعَنْ مَذْهَبِ الصُّوَابِ ذَاهِبًا ، وَعَرَضْنَا ذَلِكَ بِالْمَوَاقِفِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُطَهَّرَةِ - ضَاعَفَ اللَّهُ أَنْوَارَهَا وَأَعْلَى أَبْدَانِهَا مَنَارَهَا - وَاسْتَخْرَجْنَا الْأَوَامِرَ الْمُطَاعَةَ فِي كِتَابِ هَذَا الْمُنَشُورِ إِلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ ، بِأَنَّهُ أَيُّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ضَمِنَ ضَمَانًا مِنْ بَابٍ أَوْ رُبْعٍ أَوْ بُسْتَانٍ أَوْ نَاجِيَةٍ أَوْ كَفْرِ - وَكَانَ لِأَقْسَاطِ ضَمَانِهِ مُؤَدِّيًا ، وَلَمَّا يَلْزَمُهُ مِنْ ذَلِكَ مُبْدِيًا ، وَلِلْحَقِّ مُتَّبِعًا - فَإِنَّ ضَمَانَهُ بَاقٍ فِي يَدِهِ لَا تُقْبَلُ زِيَادَةٌ عَلَيْهِ مُدَّةَ ضَمَانِهِ عَلَى الْعَقْدِ الْمُعْقُودِ ، عَمَلًا بِالْوَاجِبِ وَالنُّظَامِ الْمُحْمُودِ ، وَاتِّبَاعًا لِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْحَمِيدِ ، إِذْ يَقُولُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [الآية ١ سورة المائدة] ، إِلَى أَنْ تَنْقُضِي مُدَّةَ الضَّمَانِ وَيَزُولَ حُكْمُهَا وَيَذْهَبَ الشَّرِيعَةُ الَّتِي مَا ضَلَّ مِنْ اهْتَدَى بِفَرَائِضِهَا وَسُنَنِهَا .

فَأَمَّا مَنْ ضَمِنَ ضَمَانًا وَلَمْ يَقُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ ، وَأَصْرَهُ عَلَى الْمُدَافَعَةِ وَالْمُغَالَطَةِ الَّتِي لَا يَعْتَمِدُهَا إِلَّا كُلُّ ذَمِيمِ الطَّبَاعِ سَفِيهِهِ ، فَذَلِكَ الَّذِي فَسَخَ حُكْمَ ضَمَانِهِ بِنَقْضِهِ الشُّرُوطَ الْمَشْرُوطَةَ عَلَيْهِ ، وَحُكْمُهُ حُكْمٌ مِنْ إِذَا زِيدَ عَلَيْهِ فِي ضَمَانِهِ نُقِلَ عَنْهُ وَأُخْرِجَ مِنْ يَدَيْهِ ، لِأَنَّهُ الَّذِي بَدَأَ بِالْفَسْخِ وَأَوْجَدَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ .

فَلْيَعْتَمِدْ كَافَّةً أَرْبَابَ الدُّوَاوِينِ ، وَجَمِيعَ الْمُتَصَرِّفِينَ وَالْمُسْتَعْتَمِدِينَ الْعَمَلِ بِمَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْمُنَشُورَ ، وَامْتِثَالِ الْمَأْمُورِ ، وَحَمَلِ هَؤُلَاءِ الضَّمَانَ وَالْمُعَامِلِينَ عَلَى مَا نُصِّصَ فِيهِ ، وَالْحَدَرَ مِنْ تَجَاوُزِهِ وَتَعَدُّيهِ يَعْدُ ثُبُوتَهُ فِي دِيْوَانِي الْمَجْلِسِ وَالْخَاصِّ الْأَمْرَيْنِ السَّعِيدَيْنِ ، وَبِحَيْثُ يَثْبُتُ مِثْلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَالَ : وَوَصَلَّتْ الْمَكَاتِبَةُ مِنَ الْوَالِيِ وَالْمُشَارِفِ ، وَمَنْ كَانَ نُدِبَ صُحْبَتِهِ لِكَشْفِ الْأَرْضِ

(a) ساقطة من الأصل .

والسَّوَاقي وَمِسَاحَتِهَا ، مَتَضَمَّنَةً مَا أَظْهَرَهُ الْكَشْفُ وَأَوْضَحَتْهُ الْمِسَاحَةُ عَلَى مَن بِيَدِهِ السَّوَاقي - وَهَمَّ
 عِدَّةٌ كَثِيرَةٌ - مَن جَمَلَتِهَا سَاقِيَةٌ مِسَاحَتِهَا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُونَ فِدَانًا تَشْتَمِلُ عَلَى النَّخْلِ وَالكَزْمِ
 وَقَصَبِ الشُّكْرِ بِمَدِينَةِ إِسْنَا خَرَايِجُهَا فِي السَّنَةِ عَشْرَةَ دِنَانِيرَ ، وَمَا يَجْرِي فِي الْأَعْمَالِ هَذَا الْمَجْرَى .
 وَأَنْتَهُمْ وَضَعُوا يَدَ الدِّيَّانِ عَلَى جَمِيعِهَا ، وَطَلَبُوا مَن أَزْبَابِ السَّوَاقي مَا يَدُلُّ عَلَى مَا بَأْيَدِيهِمْ ؛
 فَذَكَرُوا أَنَّهَا انْتَقَلَتْ إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يُظْهِرُوا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِمْ وَقَدْ سَيَّرُوا مُلَّاكَهَا إِلَى الْبَابِ تَحْتَ الْحَوَاطَةِ
 لِيُخْرِجَ الْأَمْرَ بِمَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِمْ . وَعِنْدَ وُصُولِهِمْ أُوقِعَ التَّرْزِيمُ بِهِمْ إِلَى أَن يَقُومُوا بِمَا يَجِبُ
 مِّنَ الْخَرَاكِ عَنِ هَذِهِ السَّوَاقي ، فَإِنَّ الْأَمْلَاقَ بِجَمَلَتِهَا لَا تَقُومُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهَا . فَوَقَّفَ الْمَذْكُورُونَ
 لِلتَّمَامُونَ فِي يَوْمِ جُلُوسِهِ لِلْمِظَالِمِ ، فَأَمَرَ بِحُضُورِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْقَاضِي جَلَالِ الْمَلِكِ أَبُو
 الْحَجَّاجِ يَوْسُفَ بْنَ أَيُّوبَ الْمَغْرِبِيَّ^١ - وَهُوَ يَوْمئِذٍ قَاضِي الْقَضَاةِ - لِمُحَاكَمَتِهِمْ ، فَجَرَى لَهُ مَعَهُمْ /
 مُفَاوَضَةً أَوْجَبَتْ الْحَقَّ عَلَيْهِمْ ، وَأَلْزَمَهُمْ بِالْقِيَامِ بِمَا يَسْتَعْرِقُ أَحْوَالَهُمْ وَأَمْلَاكَهُمْ .
 فَحَصَلَ مَن تَضَرَّرَهُمْ^٢ (a) مَا أَوْجَبَ الْعَاطِفَةُ عَلَيْهِمْ ، وَأَخَذَهُمْ بِالْخَرَاكِ مَن بَعْدَ ، وَأَن يَضْرِبَ عَمَّا
 تَقَدَّمَ صَفْحًا ، وَكُتِبَ مَنشُورٌ نُسخَتُهُ .

« قَدْ عَلِمَ كَافَّةً^(b) مَا تَرَاهُ مَن إِفَاضَةَ سُحْبِ الْعَدْلِ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانَ وَالنُّظَرَ
 فِي مَصَالِحِ كُلِّ قَاصٍ مِنْهُمْ وَدَانَ ، وَأَنَّهَا لَا نَدَعَ ضَرَرًا يَتَوَجَّهُ إِلَى أَحَدٍ مِّنَ
 الرَّعِيَّةِ إِلَّا حَسَمْنَاهُ ، وَلَا نَعْلَمُ صِلَاحًا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ إِلَّا قَوَّيْنَا سَبَبَهُ
 وَوَصَلَّنَاهُ ، حَسَبَ مَا يَتَعَيَّنُ عَلَى رِعَاةِ الْأُمَّمِ ، وَعَمَلًا بِالْوَاجِبِ فِي الْبَعِيدِ
 وَالْأُمَّمِ ، وَشُلُوكًا لِمَحَبَّةِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهَا - الْقَوِيَّةِ ،
 وَاسْتِمْرَارًا عَلَى قَضَايَاهَا وَسَجَايَاهَا الْكَرِيمَةِ .

وَلَمَّا كُنَّا نَرَى النَّظَرَ فِي مَصَالِحِ الرَّعِيَّةِ^(a) أَمْرًا وَاجِبًا ، وَنَضْرَفَ إِلَى

(a) بولاق : تضررهم . (b) بولاق : الكافة .

سنة ٥٢١ هـ (ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ؛
 المقرئ : اتعاظ الخنفا ٣ : ٩٣ ، ١١٩ ؛ ابن حجر : رفع الإصر
 ٤٧٣ - ٤٧٤ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ١٥٢) .
 فعلى ذلك يكون هذا المنشور قد صدر بعد شهر ذي
 القعدة سنة ٥١٦ هـ .

^١ قرره الوزير المأمون البطاحي في رتبة القضاء في ذي
 القعدة سنة ست عشرة وخمسة مائة ، عوضاً عن القاضي ثقة
 الملك مُسلم بن علي بن الرُّشعني ، ولقب «جلال الملك تاج
 الأحكام» واشتمل سجله على توليته القضاء والخطابة والصلاة
 وديوان الأحياس ودار الضرب ، واستمر إلى أن توفي في شوال

ولما كنا نرى النظر في مصالح الرعية^٥ أمراً واجباً، ونصرف إلى سياستهم عزمًا ماضيًا ورأيًا ثابتًا، كذلك ترى النظر في أمور الدواوين واشتيفاء حقوقها المصروفة إلى حماية البيضة، والمحاماة عن الدين، وجهاد الكفرة والملجدين، ليكون ما تُراعيه وتنتظر فيه جاريًا على سنن الواجب، محروسًا من الخلل - بإذن الله تعالى - من جميع الجوانب.

ومن الله نستمد مواد التوفيق في الحل والعقد، ونسأله الإرشاد إلى سواء السبيل والقصد، وما توفيقنا إلا بالله، عليه نتوكل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكان القاضي الرشيد بن الزبير^١ - أيام مشاركته الصعيد الأعلى - قد طالع المجلس الأفضلي بحال أزباب الأملاك هناك، وأنهم قد اشتضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضي اغتصبوها، ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها وخلطوها بها وحازوها. ورسم له كشفها ونظم المشاريع بها وازتجاعها للديوان، وأن يعتمد في ذلك ما يوجب حُكم العدل المثبت^٦ في كل قطر ومكان؛ وبآخر ذلك:

«سَيَّرْنَا مِنَ الْبَابِ مَنْ يَكْشِفُ ذَلِكَ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَإِنْهَايِهِ عَلَى طَيْبَتِهِ، فَاعْتَمَدُوا مَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الْكَشْفِ فِي هَذِهِ الْأَمْلاكِ؛ وَوَرَدَتِ الْمَطَالَعَةُ مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ التَّمَسُّوا مِمَّنْ بِيَدِهِ مِلْكٌ أَوْ سَاقِيَةٌ، مَا يَشْهَدُ بِصِحَّةِ مِلْكِهِ وَمَبْلَغِ قَدْرِهِ وَذَكَرَ حُدُودَهُ، فَلَمْ يُحْضِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ كِتَابًا، وَلَا أَوْضَحَ جَوَابًا. وَأَضْدَرُوا إِلَى الدِّيَّانِ الْمَشَارِيحَ بِمَا كَشَفُوهُ وَأَوْضَحُوهُ، فَوُجِدَ^٥ التَّعْدِي فِيهِ ظَاهِرًا، وَبَابِ الْحَيْفِ وَالظُّلْمِ غَيْرِ مُتْقَاصِرٍ، وَالشَّرْعَ يُوجِبُ وَضْعَ الْيَدِ عَلَى مَا هَذِهِ

(a) بولاق: الرعايا. (b) بولاق: المثبت. (c) بولاق: وجدوا.

^١ القاضي الرشيد أبو الحسن أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الأشواني المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، لم تُشر المصادر إلى مشاركته للصعيد الأعلى، وإنما تشير إلى ولايته نظر الإسكندرية سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م بغير اختياره، فتكون إشارة ابن المأمون هنا ذات أهمية كبيرة (راجع، العماد الأصفهاني: خريدة القصر (قسم مصر) ١: ٢٠٠-٢٠٢، ٤٢٠٢؛ ياقوت: معجم الأدباء ٤: ٥١-٦٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ١٦٠-١٦٤؛ ابن ميسر: أخبار مصر ١٣٥، ١٥٣؛ الصفدي: الوافي ٧: ٢٢٠-٢٢٥؛ الأدفوي: الطالع السعيد ٩٨-١٠٢؛ المقرئ: المقفى الكبير ١: ٥٣٣-٥٣٦).

بِصِحَّةِ الْمَلِكِ رَأْسًا ، وَلَا يَسْتَنْدُ فِي ذَلِكَ إِلَى حُجَّةٍ ادَّخَرَهَا اخْتِرَازًا مِمَّا هَذِهِ^(a) سَبِيلُهُ وَاخْتِرَاسًا ؛ لَكِنْ بِحُكْمِ مَا نَرَاهُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ لِلرَّعِيَةِ وَالْعَدْلِ الَّذِي أَقَمْنَا مَنَارَهُ ، وَأَخْيَيْنَا مَعَالِمَهُ وَأَثَارَهُ ، مَعَ الرَّغْبَةِ فِي عِمَارَةِ الْبِلَادِ وَمَصَالِحِ أَحْوَالِهَا ، وَاسْتِنْبَاطِ الْأَرْضِينَ الدَّائِرَةِ ، وَإِنشَاءِ الْغُرُوسِ وَإِقَامَةِ الشُّوَاقِي بِهَا ؛ أَمَرْنَا بِكُتُبِ هَذَا الْمَنْشُورِ وَتِلَاوَتِهِ بِأَعْمَالِ الصَّعِيدِ الْأَعْلَى ، بِإِقْرَارِ جَمِيعِ الْأَمْلاكِ وَالْأَرْضِينَ وَالشُّوَاقِي بِأَيْدِي أَرْبَابِهَا الْآنَ ، مِنْ غَيْرِ انْتِزَاعِ شَيْءٍ مِنْهَا وَلَا ازْتِجَاعِهِ ، وَأَنْ يُقَرَّرَ عَلَيْهَا مِنَ الْخَرَاجِ مَا يَجِبُ تَقْرِيرُهُ ، وَيَشْهَدُ الدِّيَوَانُ عَلَى أَمْثَالِهِمْ بِمِثْلِهِ ، إِحْسَانًا إِلَيْهِمْ لَمْ نَزَلْ نَتَابِعْ مِثْلَهُ وَتُوَالِيَهُ ، وَإِنْعَامًا مَا بَرَّحْنَا نُعِيدُهُ عَلَيْهِمْ وَتُبْدِيَهُ .

وَقَدْ أَنْعَمْنَا وَتَجَاوَزْنَا عَمَّا سَلَفَ ، وَنَهَيْتُنَا عَمَّنْ يَسْتَأْنِفُ ، وَسَامَعْنَا مِنْ خَرَجٍ إِلَى التَّعَدِّيِ عَنِ الْمَأْلُوفِ^(b) ، وَجَرَّيْنَا عَلَى سُنَنِهَا فِي الْعَفْوِ الْمَعْرُوفِ ، وَجَعَلْنَاهَا تَوْبَةً مَقْبُولَةً مِنَ الْجَمَاعَةِ الْجَانِينَ ، وَمِنْ عَادَةٍ مِنَ الْكِفَاةِ أَجْمَعِينَ فَلَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ ، وَطُولِبَ بِمُسْتَأْنِفِهِ وَأَمْسَهُ ، وَبَرَّتِ الذُّمَّةُ مِنْ مَالِهِ وَنَفْسِهِ ، وَتَضَاعَفَتْ عَلَيْهِ الْغَرَامَةُ وَالْعُقُوبَةُ ، وَشُدَّتْ فِي وَجْهِهِ أَبْوَابُ الشُّفَاعَةِ وَالسَّلَامَةِ .

وَقَدْ فَسَخْنَا - مَعَ ذَلِكَ - لِكُلِّ مَنْ يَزْعَبُ فِي عِمَارَةِ أَرْضِ حَلْفَاءِ دَائِرَةِ وَإِدَارَةِ بَثْرِ مَهْجُورَةٍ مُعْطَلَةٍ ، فِي أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِ ذَلِكَ وَيُقَاسَ عَلَيْهِ ، وَلَا يُؤْخَذَ مِنْهُ خَرَاجٌ إِلَّا فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ تَسْلِيمِهِ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَكُونَ الْمَقْرُرُ عَلَى كُلِّ قَدَانٍ مَا تُوجِبُهُ زِرَاعَتُهُ لِمِثْلِهِ خَرَاجًا مُؤَبَّدًا وَأَمْرًا مُؤَكَّدًا .

فَلِيَعْتَمِدَ ذَلِكَ التُّوَابُ وَحُكَاةُ الْبِلَادِ ، وَمَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِحُضُورِهِ عَقْدَ مَجْلِسٍ ، وَإِحْضَارِ جَمِيعِ أَرْبَابِ الْأَمْلاكِ وَالشُّوَاقِي ، وَإِشْعَارِهِمْ مَا شَمِلَهُمْ مِنْ هَذَا الْإِحْسَانِ الَّذِي تَجَاوَزَ أَمَالَهُمْ فِي إِجَابَتِهِمْ إِلَى مَا كَانُوا يَسْأَلُونَ فِيهِ ، وَتَقْرِيرِ مَا يَجِبُ عَلَى الْأَمْلاكِ الْمَذْكُورَةِ مِنَ الْخَرَاجِ عَلَى الْوَضْعِ الَّذِي مَثَّلْنَاهُ ، وَيُجِيزِ الدِّيَوَانُ تَقْرِيرَهُ وَيَرِضَاهُ ، مَعَ تَضْمِينِ الْأَرْضِي الدَّائِرَةِ وَالْآبَارِ الْمُعْطَلَةِ لِمَنْ يَزْعَبُ فِي ضَمَانِهَا ، وَنُظْمِ الْمَشَارِيحِ بِذَلِكَ وَإِضْدَارِهَا إِلَى الدِّيُونِ ،

(a) بولاق : عن مجاهدة . (b) بولاق : من التعدي إلى المألوف .

ليخلد فيه على حُكْم أمثالها بعد ثبوت هذا المنشور بحيث يثبت مثله». قال: ولما سرت هذه المصالح إلى جميع أهل هذه الأعمال، حصل الاجتهاد في تحصيل مال الديوان وعمارَة البلاد^١.

واعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية^٢، وإنما كانت البلاد تُضمَّن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم^٣، لا تُعرف هذه الأبدَة التي يقال لها اليوم الفلاحة، ويُسمى المزارع المقيم بالبلد «فلاحًا قرارًا»، فيصير عبدًا قنًا لمن أقطع تلك الناحية، إلا أنه لا يزجو قط أن يُباع ولا يُعْتق، بل هو قن ما بقي ومن وُلد له كذلك، بل كان من اختار زراعة أرض يُقبلها كما تقدم، وحمل ما عليه لبيت المال؛ فإذا صار مالًا/ الخراج بالديوان، أنفق في طوائف العسكر من الخزائن.

وكان مع ذلك إذا انحط ماء النيل عن الأراضي، وتعلقت نواحي مصر بأصناف الزراعات، نُدب من الحضرة من فيه نباهة، وخرج معه عدول يوثق بهم وكانت لهم معرفة بعلم الخراج، وكثيرًا ما كان هذا الكاتب من نصارى الأقباط. ويخرج إلى كل ناحية من ذكرنا، فيحزرون مساحة ما شمله الرّي من الأراضي مما لعله بار أو شرق، ويكتب بذلك مكلفات^٤ واضحة بالقدن والقطائع على جميع الأصناف المزروعة، ويُحضر إلى دواوين الباب.

فإذا مضى من السنة القبطية أربعة أشهر، نُدب من الأجناد من يُعرف بالحماسة وقوة البطش، وعين معه من الكتاب العدول من قد اشتهر بالأمانة، وكاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة، وساروا إلى كل ناحية كذلك، فاستخرج مباشرة كل بلد ثلث ما وجب من مال الخراج على ما شهدت به المكلفات، فإذا حضر هذا الثلث صُرف في واجبات العساكر معه، وهكذا العمل في استخراج كل قنط طول الزمان من كل سنة^١. وكانت تبقى في جهات

^١ ابن المأمون: أخبار مصر ٢٨-٣٤.

^٢ انظر أيضًا فيما يلي ٢٦١.

^٣ عن الإقطاع في العصر الفاطمي وإجراءات الوزير

^٤ المكلفة جد. المكلفات. الأوراق التي تُوضَع لكل

الأفضل شاهنشاه راجع، أمين فؤاد سيد: طبيعة الإقطاع

مزارع ما يجب عليه من خراج. (الخزومي: المنهاج ٥٩،

الفاطمي)، حوليات إسلامية ٣٣ (١٩٩٩)، ١-١٦، (٦٠).

الدولة الفاطمية في مصر ٧٠٥-٧١٧؛ وفيما يلي ٤٠٥:١.

الضُّمَّانَ وَالْمُتَّقِبِلِينَ مُجْمَلَةً بَوَاقِي .

وكانت بلاد مصر ، إذ ذاك ، تُقْبَلُ بِعَيْنِي وَعِغْلَةٍ وَأَصْنَافٍ ، وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنْ نُسخَةِ الْمَشْمُوحِ الَّذِي تَضَمَّنَ تَرْكُ الْبَوَاقِي فِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ الْآمِرِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ وَوَزَارَةِ الْمَأْمُونِ الْبَطَّائِحِي .

وَرَأَيْتُ بِحِطِّ الْأَسْعَدِ بْنِ مُهَذَّبِ بْنِ زَكَرِيَّا بْنِ مُمَاتِي الْكَاتِبِ الْمِصْرِيِّ : سَأَلْتُ الْقَاضِي الْفَاضِلَ عَبْدَ الرَّحِيمِ : كَمْ كَانَتْ عِدَّةُ الْعَسْكَرِ^٥ فِي عَرْضِ دِيْوَانِ الْجَيْشِ ، لَمَّا كَانَ سَيِّدُنَا يَتَوَلَّى ذَلِكَ فِي أَيَّامِ زُرَّيْكَ بْنِ الصَّالِحِ ؟ فَقَالَ : أَرْبَعُونَ أَلْفَ فَارِسٍ وَنِيفًا ، وَثَلَاثِينَ أَلْفَ رَاجِلٍ مِنَ الشُّودَانِ^٥ .

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ النَّابِلْسِيُّ فِي كِتَابِ «حُسْنِ السَّرِيرَةِ فِي اتِّخَاذِ الْحِصْنِ بِالْجَزِيرَةِ»^٥ : إِنَّ ضِرْغَامًا لَمَّا نَارَ عَلَى شَاوَرٍ ، وَفَرَّ شَاوَرٌ إِلَى السُّلْطَانِ نُورِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ زَنْكِي بِدِمَشْقٍ يَسْتَنْجِدُ بِهِ عَلَى ضِرْغَامٍ وَيَعِدُهُ بِأَنَّهُ يَكُونُ نَائِبًا عَنْهُ بِمِصْرٍ وَيَحْمِلُ إِلَيْهِ الْخَرَاجَ ، أَنْشَأَ لِنُورِ الدِّينِ عَزْمًا لَمْ يَكُنْ .

فَجَهَّزَ أَلْفَ فَارِسٍ ، وَقَدَّمَ عَلَيْهِمُ أَسَدَ الدِّينِ شِيرْكَوَهَ ، وَأَمَرَهُ بِالتَّوَجُّهِ ، فَأَبَى وَقَالَ : لَا أَمْضِي أَبَدًا ، فَإِنَّ هَلَاكِي وَمَنْ مَعِي وَسُوءُ سُمْعَةٍ^٥ السُّلْطَانِ مَعْلُومٌ مِنْ هُنَا ، وَكَيْفَ أَمْضِي بِأَلْفِ فَارِسٍ إِلَى إِقْلِيمٍ فِيهِ عَشْرَةُ أَلْفِ فَارِسٍ ، وَمِائَةُ شِينِي^٥ فِيهَا عَشْرَةُ أَلْفِ مُقَاتِلٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ عَبْدٍ وَقَوْمٍ مُسْتَوْطِنُونَ فِي أَوْطَانِهِمْ ، قَرِيبَ خَزَائِنِهِمْ^٥ - وَنَحْنُ نَأْتِيهِمْ مِنْ تَعَبِ السَّفَرِ - بِهَذِهِ الْعُدَّةِ الْقَلِيلَةِ ؟

(a) بولاق : العساكر . (b) بولاق : ما سمعه . (c) بولاق : شهيد .

من مؤلفاته كتاب «حُسن السلوك في فضل ملك مصر على سائر الملوك» وكتاب «حُسن السريرة في اتِّخاذ الحصن بالجزيرة» - الذي يشير إليه المقرئزي - والمقصود به القلعة التي بناها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في جزيرة مصر المعروفة بالروضة . (لم يترجم أحدًا للنابلسي سوى شرف الدين الدمياطي في معجم شيوخه ولخص هذه الترجمة اليوناني في ذيل مرآة الزمان ١ : ٥٠٤ ، وانظر كذلك Cahen, Cl., *BEO*, «Kitâb luma' al-qawânin al-mudiyya...», (1958-60), pp. 119-23 ورغم أن كتاب «حسن السريرة» أشار إليه ابن دقماق والمقرئزي فلم يصل إلينا منه أي نسخة ، على العكس تمامًا من كتاب «لمع القوانين المضية» الذي وصل إلينا في عدة نسخ رغم أنه لم يثر اهتمام المؤرخين القدماء !) .

^١ فيما يلي ١ : ٤٠٥ .

^٢ فيما يلي ٢٥٤ .

^٣ علاء الدين أبو عمرو عثمان بن إبراهيم بن خالد بن محمد القرشي المعروف بالنابلسي المتوفى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م ، شغل وظيفة قاضٍ لبعض الوقت ، ثم تولى في عهد السلطان الملك الكامل محمد وظائف إدارية عُليا مكنته من تأليف مجموعة من الكتب الهامة حول التاريخ الاقتصادي والتنظيم الإداري والزراعي لمصر وأحوال أهل الذمة بها ، هي : «إظهار صنعة الحي القيوم في ترتيب بلاد الفيوم» المعروف بـ «تاريخ الفيوم وبلاده» ، و«لمع القوانين المضية» و«تجريد سيف الهمة لاستخراج ما في ذمة أهل الذمة» ، وقد نشرت جميعها بعناية موريتز ويكر وكاهن ، ولم يصل إلينا

قال : ثم أجابه بعد ذلك .

هذا - أعزك الله - بعد ما كانت عساكر أحمد بن طولون ، ما ستراه في ذكر القطائع إن شاء الله تعالى ، ثم ما كان من عساكر الأمير أبي بكر محمد بن طُغج الإخشيد ، وهي - على ما حكاه غير واحد ، منهم ابن خلكان - أنها كانت أربع مائة ألف^١ .

ولما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز من بلاد الشام ، واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر ، تغيّر الحال في ذلك كله^(b) .

قال القاضي الفاضل في «متجددات» سنة سبع وستين وخمس مائة : في ثامن المحرم خرجت الأوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها وجديدها ، بعد أن أُتذّر حاضرها وغائبها ، وتوفى وصولها وتكامل سلاحها وحيولها ، فحضر في هذا اليوم جموع ، شهد كل من علا سنه وقزطس ظنه أن ملكًا من ملوك الإسلام لم يحز مثلها ، وشاهدت رسل الروم والفرنج ما أرغم أنوف الكفرة .

ولم يتكامل اجتياز العساكر مؤكبا بعد مؤكب ، وطلبنا بعد طلب (والطلب - بلغة الغز - هو الأمير المقدم الذي له علم مفقود وبوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسًا) إلى أن انقضى النهار ، ودخل الليل وعاد ولم يكمل عرضهم . وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلبًا ، والغائب منها عشرون طلبًا ، وتقدير العدة يناهز أربعة عشر ألف فارس^٢ ، أكثرها طواشية^٣ - والطواشي من رزقه من سبع مائة إلى الف إلى مائة وعشرين وما بين ذلك ، وله برك^١ من عشرة رؤوس إلى ما دونها ما بين فرس وبردون وبغل وجمال ، وله غلام

(a) بولاق : فرأيت حرايتهم . (b) بولاق : بعض التغير لا كله .

^١ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ : ٥٩٠ نقلًا عن التاريخ الصغير المعروف بـ «عيون السيرة» لمحمد بن عبد الملك الهمداني .

^٢ المقرئ : اتعاظ الحنفا ٣ : ٣٢٧ ؛ وانظر Dozy, R., *Suppl. Dict. Ar. II*, 51 .

^٣ يرى جب Gibb, H. أن مصطلح «طواشي» في هذه الفترة كان يدل على الجندي الذي ينتمي إلى الطبقة الأعلى من طبقة العسكر النظامي ، أما الطبقة الأدنى فكانت تعرف

بالقراغلامية (انظر الهامش التالي) . يؤيد ذلك الوصف الذي قدمه غليوم أسقف صور لجيش صلاح الدين في حملة سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م ويقول فيه : «وكان من بين هؤلاء ثمانية آلاف من الجند العظام الذين يسمونهم في لغتهم بـ «الطواشية» أما الثمانية عشرة آلاف الآخرون فكانوا من الفرسان العادين المعروفين باسم «قراغلامية» (الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، ٤ : ٢١٩) ، وقد كان صلاح الدين يخاطب به سنقر الخلاطي أخص مماليكه وأخلصهم الذي =

يَخِيمُ سِلاخَهُ - وَقَرَأَ غُلَامِيَّةً^٢ تَتَمَّةُ الْجُمْلَةِ .

قَالَ: وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ عَرَضَ الْعُرَبَانَ الْخَدَّامِينَ، فَكَانَتْ عِدَّتُهُمْ سَبْعَةَ آلَافٍ فَارِسَ، وَاسْتَقَرَّتْ عِدَّتُهُمْ عَلَى أَلْفٍ وَثَلَاثَ مِائَةِ فَارِسٍ لَا غَيْرَ، وَأَخَذَ بِهَا الْحُكْمَ عَشْرَ الْوَاجِبِ، وَكَانَ أَضْلُهُ أَلْفُ أَلْفٍ دِينَارٍ، عَلَى حُكْمِ الْإِعْتِدَادِ الَّذِي يَتَأَصَّلُ وَلَا يَتَّحَصَّلُ، وَكَلَفَ التَّغَالِيَةَ ذَلِكَ فَاثْتَعَضُوا وَلَوَّحُوا بِالتَّحْيِيزِ إِلَى الْفِرْنَجِ .

وَقَالَ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: اسْتَمَرَ انْتِصَابُ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ لِلنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْإِقْطَاعَاتِ وَمَعْرِفَةِ عِبْرَتِهَا، وَالنَّقْصِ مِنْهَا وَالزِّيَادَةِ فِيهَا، وَإثْبَاتِ الْمَحْرُومِ وَزِيَادَةِ الْمَشْكُورِ، إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّتْ الْعِدَّةُ عَلَى ثَمَانِيَةِ آلَافٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ فَارِسًا: أُمَرَاءَ مِائَةٍ وَأَحَدٍ عَشَرَ أُمِيرًا، طَوَاشِيَّةٍ سِتَّةَ آلَافٍ وَتِسْعَ مِائَةٍ وَسِتَّةٍ وَسَبْعُونَ، قَرَأَ غُلَامِيَّةً أَلْفَ وَخَمْسَ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ وَخَمْسُونَ. وَالْمُسْتَقِيرُّ لَهُمْ مِنَ الْمَالِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ وَسَبْعُونَ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ دِينَارٍ، وَذَلِكَ خَارِجٌ عَنِ الْمَحْلُولِينَ مِنَ الْأَجْنَادِ الْمُؤَسَّسِينَ بِالْحَيَاةِ عَلَى الْعُشْرِ، وَعَنِ عِدَّةِ الْعُرَبَانَ الْمُقْطَعِينَ بِالشَّرْقِيَّةِ وَالْبَحْيِرَةِ، وَعَنِ الْكِنَانِيِّينَ وَالْمُضَرِّيِّينَ^٣ وَالْفُقَهَاءَ/ وَالْقُضَاةَ وَالصُّوفِيَّةَ، وَعَمَّا يَجْرِي بِالْدِيَوَانِ وَلَا يَقْضُرُ عَنِ أَلْفِ أَلْفٍ دِينَارٍ^٣.

وَقَالَ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ: أَوْرَاقٌ بِمَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ عِبْرَةُ الْبِلَادِ مِنْ إِسْكَندَرِيَّةَ إِلَى عَيْنِ شَابِ، إِلَى آخِرِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ، خَارِجًا عَنِ الثُّغُورِ وَأَبْوَابِ الْأَمْوَالِ الدِّيَوَانِيَّةِ وَالْأَحْكَارِ وَالْحَبْسِ وَمَنْقَلُوطِ وَمَنْقَبَاطِ وَعِدَّةِ نَوَاحِ

(a) بولاق: الكاتبين والمصريين.

= قدمه على مماليكه (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٦: ١٢)،
بكلمتي «يا طواشي» (جب، هـ: «جيوش صلاح الدين» في
كتاب دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس
ومحمد يوسف نجم ومحمود زايد، بيروت - دار العلم
للملايين ١٩٧٩، ١١٥) وأطلق على بهاء الدين قراقوش
كذلك لقب طواشي (فيما يلي ١: ٤٩٦، ٢: ٢٠١). وانظر
كذلك Richard, D.S., «A Report on an Order of
«Qarâqûsh», *Arabica* XXXVI (1989), pp. 237-41
وهو نشر لأمر لقراقوش وجد بين أوراق الجنيزة المحفوظة في
كامبردج وردت فيه ألقابه: «المولا الطواشي الإسفهلار
الكبير بهاء الدين قراقوش المنصوري الأفضلي» .
١ انظر حول هذا اللفظ فيما يلي ٣٧٥ .
٢ القراغلامية . مصطلح كان يطلق - فيما يبدو - إما
على ممالك من درجة دنيا أو - كما تستدل من الأعداد
المذكورة هنا - على تحيالة من غير الممالك . ويجب أن لا
يخلط بين كلمة قراغلام والاصطلاح المغولي قراغول (جب ،
هـ: المرجع السابق ١١٥-١١٦) ، وانظر معنى الطواشي في
العصر المملوكي فيما يلي ٢: ٣٨٠ .
٣ المقريري: السلوك ١: ٧٥ .

أوردت أسماؤها ولم يُعَيَّن لها في الدِّيوان عِبْرَةٌ ، من جملة أربعة آلاف ألف وست مائة ألف وثلاثة وخمسين ألفًا وتسعة عشر دينارًا ، بعد ما يجري في الدِّيوان العادلي السَّعيد وغيره عن الشَّرْقِيَّة والمِرْتاجِيَّة والدَّقَهليَّة وبُوش وغير ذلك ، وهو ألف ألف ومائة ألف وتسعون ألفًا وتسع مائة وثلاثة وعشرون دينارًا ، تَفْصِيلُ ذلك :

الدِّيوانُ العادليُّ : سبع مائة ألف وثمانية وعشرون ألفًا ومائتان وثمانية وأربعون دينارًا . الأُمراء والأجناد المَرْسُوم بإبقاء إقطاعاتهم بالأعمال المذكورة : مائة ألف وثمانية وخمسون ألفًا ومائتان وثلاثة دنانير . ديوانُ الشُّور المَبَّارِك والأشْراف : ثلاثة عشر ألفًا وثمان مائة وأربعة دنانير . العُرَبان : مائتا ألف وأربعة وثلاثون ألفًا ومائتان وستة وتسعون دينارًا . الكِنانِيَّة : خمسة وعشرون ألفًا وأربع مائة واثنا عشر دينارًا . القُضاةُ والشُّيوخُ : سبعة آلاف وأربع مائة وثلاثة دنانير . القِيمازِيَّة والصَّالِحِيَّة والأجناد المِصْرِيون : اثنا عشر ألفًا وخمس مائة وأربعة دنانير . العُزَّاة والعَساقِلَة المُرْكُزَة بدمياط وتِنيس وغيرهم : عشرة آلاف وسبع مائة وخمسة وعشرون دينارًا . البارِز : ثلاثة آلاف ألف وأربع مائة ألف واثنتان وستون ألفًا وخمسة وتسعون دينارًا .

الوَجْهُ البَحْرِيُّ : ألف ألف ومائة ألف وأحد وخمسون ألفًا وست مائة وثلاثة وخمسون دينارًا ، تفصيله : ضواحي ثَغْر الإسْكَندَرِيَّة : ثمان مائة ألف ومائة وثمانية وثلاثون دينارًا . ثَغْر رَشيد : ألفا دينار . البُحَيْرَة : مائة ألف وخمسة عشر ألفًا وخمس مائة وستة وسبعون دينارًا . حَوْف رَمْسِيس : اثنتان وتسعون ألفًا وأربع مائة وثلاثة دنانير . فُوَّة والمُزاجِمَتان : عشرة آلاف ومائة وخمسة وعشرون دينارًا . النُّسْتراوية : خمسة عشر ألفًا وثلاث مائة وخمسة دنانير . جَزيرة بني نَصْر : مائة ألف واثنا عشر ألفًا وست مائة وستة وأربعون دينارًا . جَزيرة قُوسِنيا : مائة ألف وثلاثون ألفًا وخمس مائة واثنتان وتسعون دينارًا . العَرَبِيَّة : ست مائة ألف وأربعة وسبعون ألفًا وست مائة وخمسة دنانير . السَّمَنْدُودِيَّة : مائتا ألف وخمسة وأربعون ألفًا وأربع مائة وتسعة وسبعون دينارًا . الدُّنْجَاوِيَّة : ستة وأربعون ألفًا ومائتان وأربعة وسبعون دينارًا . المَثُوفِيَّة : مائة ألف وثمانية وأربعون ألفًا وثلاث مائة وسبعة وأربعون دينارًا .

الوَجْهُ القِبْليُّ : ألف ألف وست مائة ألف وعشرة آلاف وأربع مائة وأحد وأربعون دينارًا ، تفصيل ذلك : الحِيْزَة : مائة ألف وثلاثة وخمسون ألفًا ومائتان وأربعة دنانير . الإطْفِيحِيَّة : تسعة وخمسون ألفًا وسبع مائة وثمانية وعشرون دينارًا . البُوصيرِيَّة : ستون ألفًا وأربع مائة وستة وستون دينارًا . القِيُوميَّة : مائة ألف واثنتان وخمسون ألفًا وست مائة وأربعة وثلاثون دينارًا . البَهْئَساويَّة :

ثلاث مائة ألف واثنان وخمسون ألفاً وست مائة وأربعة وثلاثون ديناراً. الواحات الدَّاخلية والخارجيتين وواح البهتسا : خمسة وعشرون ألف دينار. الأشمونين : مائة ألف وسبعة وأربعون ألفاً وسبع مائة واثنان وثلاثون ديناراً. الشيوطية خارجاً عن منقلوط ومنقبط : اثنان وسبعون ألفاً وخمس مائة وأربعة دنانير. الإخميمية : مائة ألف وثمانية آلاف وثمان مائة واثنا عشر ديناراً. الأعمال القوصية : ثلاث مائة ألف واثنان وستون ألفاً وخمس مائة دينار. تُغْرُ أسوان : خمسة وعشرون ألف دينار. تُغْرُ عَيْذاب يَجْرِي فِي غَيْرِ هَذَا الدِّيوانِ .

وقال في «مُتَجَدِّدَات» سنة ثمان وثمانين وخمس مائة : والذي انْعَقَدَ عَلَيْهِ ارْتِفَاعُ الدِّيوانِ السُّلْطَانِيِّ ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةَ وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَأَرْبَعَةَ وَأَرْبَعِينَ دِينَارًا^١. والذي يُمَيِّزُ زَائِدَ الارتفاعِ، لسنة سبع وثمانين وخمس مائة على ارتفاع سنة ست وثمانين، اثنان وعشرون ألفاً وأربع مائة وخمسة وأربعون ديناراً. والذي انْساقَ مِنَ البواقي للسنة المذكورة أحد وثلاثون ألفاً وست مائة واثنان وعشرون ديناراً. والذي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مُتَحَصِّلُ ديوانِ الخِصِّ الْمَلِكِيِّ النَّاصِرِيِّ بِالديارِ الْمِصْرِيَّةِ لسنة سبع وثمانين وخمس مائة : ثلاث مائة ألف وأربعة وخمسون ألفاً وأربع مائة وأربعة وخمسون ديناراً ونصف وثُلث وثُمْن^٢.

ذِكْرُ الرُّؤُكِ^٣ الْأَخِيرِ النَّاصِرِيِّ

وكان الجُنْدِيُّ إِقْطَاعَهُ بِمُفْرَدِهِ وَلَهُ تَبَعٌ وَاحِدٌ، مِنْ عَشْرِينَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ إِلَى ثَلَاثِينَ، وَفِيهِمْ مَنْ إِقْطَاعُهُ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا، وَأَقْلَهُمْ عَشْرَةَ أَلْفٍ، وَذَلِكَ سِوَى الضِّيَافَةِ، وَبَلَغَ خَمْسَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ فِي الإِقْطَاعِ الثَّقِيلِ. وَكَانَ الْجُنْدِيُّ يَخْرُجُ إِلَى الْبِيكَارِ بِطِوَالَةِ خَيْلٍ، وَيَخْرُجُ مُقَدِّمَ الْحَلَقَةِ كَأَمِيرِ عَشْرَةٍ، وَتَكُونُ مُضَافَتُهُ إِذَا نَزَلَ حَوْلَهُ، وَأَكْثَرُهُمْ يَأْكُلُ عَلَى سِمَاطِهِ /. وَلَا يُمَكِّنُ الْأَمِيرُ أَنْ يَأْكُلَ إِلَّا وَجَمِيعِ أَجْنَادِهِ مَعَهُ، وَيَأْخُذُ غِلْمَانَ أَجْنَادِهِ كُلَّ يَوْمٍ الطَّعَامَ مِنْ مَطْبَخِهِ، وَإِذَا رَأَى نَارًا تُوقَدُ

الخراجية نتيجة لما يطرأ على حال الأرض من تغيير بنقص أو

زيادة في مساحتها بين وقت وآخر. ويؤكد المقرئ أنه في

بداية الفترة الإسلامية كان الرؤك يتم كل ثلاثين سنة من أجل

التوفيق بين السنة الهلالية والسنة الخراجية (فيما تقدم

٢٢٣)؛ وواضح أن ما ذكره المقرئ لا يعكس إلا واقعاً

نظرياً، ففي واقع الأمر أنه طوال تسعة قرون تفصل الفتح =

^١ المقرئ: السلوك ١: ١١١.

^٢ انظر كذلك فيما يلي ٣٢٨.

^٣ الرؤك. كلمة قبطية اشتُمد منها الفعل العربي راک -

بروك، تعني في مصر إجراء زراعياً يتم خلاله القيام بعملية

قياس الأرض وحصرها في سجلات وتشمينها، والغرض من

هذا الإجراء هو تعديل ما هو مفروض على البلاد من الأموال

إلا وجميع أجناده معه ، ويأخذ غلمان أجناده كل يوم الطعام من مطبخه ، وإذا رأى نارا تُوقد سأل عنها فيقال : إن فلانا اشتهى كذا ، فيغضب ممن لا يأكل عنده ؛ ومع ذلك كانت أشكالهم شنيعة ، وملايشهم غير طائفة .

فلما أفضت السلطنة إلى المنصور لاجين ، رآك البلاد ؛ وذلك أن أرض مصر كانت أربعة وعشرين قيراطا : فيختص السلطان منها بأربعة قيراط ، ويختص الأجناد بعشرة قيراط ، ويختص الأمراء بعشرة قيراط . وكان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شيء . ويصير ذلك الإقطاع في دواوين الأمراء ، ويحتمي بها قطاع الطريق ، وتثور بها الفتن ويقوم بها الهوشات ، ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصير مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميهم ومضرة على أهل البلاد التي تجاورها .

فأبطل السلطان ذلك ، ورد تلك الإقطاعات على أزبائها ، وأخرجها بأسرها من دواوين الأمراء ؛ وأول ما بدأ به ديوان الأمير سيف الدين منكوثر نائب السلطنة^١ ، فأخرج منه ما كان فيه من هذه الإقطاعات ، وكان يتحصل له منها مائة ألف أردب غلة في كل سنة ، واقتدى به جميع الأمراء ، وأخرجوا ما في إقطاعاتهم من ذلك ، فبطلت الحمايات^٢ .

وجعل السلطان في هذا الروك للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطا ، وأفرد تسعة قيراط ليخدم بها عسكرا ويقطعهم إيّاها ، ثم رتب أوراقا بتكفية الأمراء والأجناد بعشرة قيراط ، ووفر قيراطا

ونجد في بداية الكراسة التي بخط المقرئ والمحفوظة في مكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٥٢١٢٥ ، وهي تشبه الكراسة المحفوظة في مكتبة Liège بيلجيكا ، ما كتبه المقرئ حول الروك الناصري . وبدأها بقوله : « ... فقد برز الأمر العالي - أعلاه الله تعالى - بكتابة ما كان من خبر الروك الحسامي والروك الناصري ، فنقول : نحتاج قبل ذكر ذلك إلى [بيان] ما كانت عليه الحال قبل الروك ليعرف به كيف كان سبب عمل الروك ، والله أسأل التوفيق والإعانة بمنه وكرمه . فصل مما كان يعمل في أراضي مصر قبل الإسلام ... وختم الحديث بقوله : وقد ذكرتها في كتابي المسمى كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

^١ انظر فيما يلي ٢: ٣٨٧ .

^٢ عن الروك الحسامي الذي عمله السلطان حسام الدين =

= العربي عن الفتح العثماني لمصر لا تذكر المصادر سوى ست مرات تمت فيها عملية «الروك» (Halm, H., *El² art.*) Rawk VII, pp. 483-84; Rabie, H., *The Financial System of Egypt*, pp. 50-56; Halm, H., *Ägypten nach den mamlukischen Lehensregistern*, I-II, Wiesbaden 1979-82؛ المقرئ: السلوك ١: ٨٤١هـ^٣؛ أبو المحاسن: النجوم ٨: ٨٧).

واستغل سلاطين المماليك عملية الروك - التي تمت مرتين في عصرهما (٦٩٧، ٧١٥هـ) - من أجل إجراء تغيير شامل في توزيع الإقطاعات ، ومن أجل التقليل من نفوذ كبار الأمراء المماليك ، أو توزيع إقطاعات بعض الأمراء في أماكن متباعدة إضعافا لهم ، وليستأثر سلاطين المماليك لأنفسهم ولموثديهم بأجود الأراضي وأفضل المواقع (فيما يلي ٢٤١-٢٤٢) .

وأفرد للنائب منكوتمر^(a) إقطاعاً جليلاً ، فأنتهى عمل ذلك في ثامن شهر رجب سنة سبع وتسعين وست مائة وجلس النائب منكوتمر^(a) لتفريقة الميالات^١ في تاسعه^(b) . فتتكرت قلوب الأمراء ، حتى كان من قتل^(c) المنصور لاجين ونائبه منكوتمر ما كان .

- فلما كانت الأيام الناصرية محمد^(c) ، رآك^(d) البلاد ؛ قال جامع «السيرة الناصرية»^٢ : وفي سنة خمس عشرة وسبع مائة ، اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يروك الديار المصرية ، وأن يتصل منها مكوساً كثيرة ، ويفضل لخاص مملكته شيئاً كثيراً من أراضي مصر . وكان سبب ذلك أنه اعتبر كثيراً من أخباز^٣ المماليك والحاشية الذين كانوا للملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير والأمير سلار وسائر المماليك البروجية ، فإذا هي ما بين ألف دينار إلى ثمان مائة دينار ، وخشي من قطع أخباز المذكورين ، فولد له الرأي مع القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش ، أن يروك ديار مصر ، ويقرر إقطاعات بما يختار ، ويكتب بها ميالات سلطانية . فتقدم الفخر ناظر الجيش فعمل أوراقاً بما عليه عبر النواحي ومساحتها . وعين السلطان لكل إقليم من أقاليم ديار مصر أناساً ، وكتب مرسوماً للأمير بدر الدين جنكلي بن البابا أن يخرج لناحية الغربية ومعه آقول الحاجب ، ومن الكتاب المكين بن قزوينة . وأن يخرج الأمير عز الدين أيذمر الخطيري إلى ناحية الشرقية ومعه الأمير أيتمش الحمدي ومن الكتاب أمين الدين قزموط . وأن يخرج الأمير بلبان الصرخدي و[طرنتاي]^(c) القلنجقي و[محمد]^(c) بن طرنتاي وبيبرس الجمدار إلى ناحية المنوفية والبحيرة . وأن يخرج [أيذغدي]^(a) التليلي و[مغلطاي]^(a) المرتيني إلى

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : تابعيه . (c) ساقطة من بولاق . (d) بعد ذلك في بولاق : الناصر محمد .

H., *The Financial System* pp. 52-53; Holt, P.M., «The Sultanate of al-Mansur Lâchin (696-8/1296-9)», *BSOAS* 36 (1973), pp. 521-32; Halm, H., *Ägypten nach den mamlukischen Lehensregistern*, I, pp. 17-24; Tsugitaka, S., *State and Rural Society in Medieval Islam-Sultans, Muqtâ's and Fallâhûn*, pp. 124-34

^١ الميالات ج. ميالات ، انظر فيما يلي ٢: ٢١٧ .

^٢ انظر فيما تقدم ١٢٨ .

^٣ خبز ج. أخباز ، انظر فيما يلي ٢: ٢١٧ .

= لاجين في جمادى الأولى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م انظر ، بيبرس المنصوري : زبدة الفكرة ٣٢٠-٣٢١ (وفيه أن المنصور لاجين قام بعمل الروك الحسامي لأن النواحي آلت إلى الخراب وعجز الفلاحون عن الخراج وصارت الأراضي تبور وتفرق لضعف المزارعين مع زيادة الشكوى من المقطعين) ؛ النويري : نهاية الأرب ٣١: ٣٤٥-٣٤٨ المقريري : السلوك ١: ٨٤٦-٨٤١ ؛ العيني : عقد الجمان ٣: ٣٩٤-٣٩٧ ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٨: ٩٠-٩٥ ؛ Poliak, A.N., «Some Notes on the Feudal System of the Mamluks», *JRAS* (1937), pp. 97-107; Rabie,

الوجه القبلي .

ونَدَبَ معهم كُتَّابًا ومُسْتَوْفِينَ وَقِيَاسِينَ ، فَسَارُوا إِلَى حَيْثُ ذَكَرَ . فَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ إِذَا نَزَلَ بِأَوَّلِ عَمَلِهِ ، طَلَبَ مَشَايخَ كُلِّ بَلَدٍ وَدُلَّالَاءَهَا وَعُدُولَهَا وَقَضَائِيهَا وَسِجِلَّاتِهَا الَّتِي بِأَيْدِي مُقْطَعِيهَا ، وَفَحَصَ عَنْ مُتَحَصِّلِهَا مِنْ عَيْنٍ وَعِغْلَةٍ وَأَصْنَافٍ ، وَمِقْدَارَ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْفُؤْدَنِ ، وَمَزْرُوعِهَا وَبُورِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ بَرَايِبٍ وَبَاقِي وَخَزَسٍ^(b) وَمُسْتَبْحَرٍ ، وَعِبْرَةَ النَّاحِيَةِ وَمَا عَلَيْهَا لِمُقْطَعِيهَا مِنْ عِغْلَةٍ وَدَجَاجٍ وَخِرَافٍ وَبَرْسِيمٍ وَكَيْشِكٍ وَكَعَكٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الضِّيَافَةِ . فَإِذَا حَرَّرَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، ابْتَدَأَ بِقِيَاسِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَضَبَطَ بِالْعُدُولِ وَالْقِيَاسِينَ وَقَاضِيَ الْعَمَلَ مَا يَظْهَرُ بِالْقِيَاسِ الصَّحِيحِ ، وَطَلَبَ مُكَلَّفَاتِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ وَقُنْدَاقِهَا^(c) وَفَضَلَ مَا فِيهَا^(d) مِنَ الْخَاصِّ السُّلْطَانِيِّ وَبِلَادِ الْأَمْرَاءِ وَإِقْطَاعَاتِ^(e) الْأَجْنَادِ وَالرُّزْقِ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ عَمَلِهِ^١ . ثُمَّ حَضَرُوا بَعْدَ خَمْسَةِ وَسَبْعِينَ يَوْمًا ، وَقَدْ تَحَرَّرَ فِي الْأَوْرَاقِ الْمُحَضَّرَةِ حَالُ جَمِيعِ ضِيَاعِ أَرْضِ مِصْرَ وَمِسَاحَتِهَا وَعِبْرَةَ أَرْضِهَا ، وَمَا يَتَحَصَّلُ عَنْ كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ عَيْنٍ وَعِغْلَةٍ وَصِنْفٍ .

فَطَلَبَ السُّلْطَانُ الْفَخْرَ نَازِلَ الْجَيْشِ وَالتَّقِيَّ الْأَسْعَدَ بْنَ أَمِينِ الْمَلِكِ الْمَعْرُوفِ بِكَاتِبِ بُرْهَنِي^(e) وَسَائِرِ مُسْتَوْفِي الدَّوْلَةِ ، وَأَلْزَمَهُمْ بِعَمَلِ أَوْرَاقِ تَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ الْخَاصِّ السُّلْطَانِيِّ الَّتِي عَيْنَتْهَا لَهُمْ وَعَلَى إِقْطَاعَاتِ الْأَمْرَاءِ ، وَأَضَافَ عَلَى عِبْرَةِ كُلِّ بَلَدٍ مَا كَانَ عَلَى فَلَاحِيهَا مِنْ ضِيَافَةٍ لِمُقْطَعِيهَا ، وَأَضَافَ إِلَى الْعِبْرَةِ مَا فِي الْإِقْطَاعِ مِنَ الْجَوَالِي ، وَكَتَبَ مِثَالَاتٍ لِلْأَجْنَادِ بِإِقْطَاعَاتِ عَلَى هَذَا

(a) ما بين المعقوفين من السلوك والنجوم الزاهرة . (b) بولاق : ترابيب وبواق وغرس . (c) بولاق : غنداقتها .

(d-d) ساقطة من بولاق . (e) بولاق : سرلني .

Rabie, H., *op.cit.*, pp. 52-56; Halm, H., *op.cit.*, I, pp. 24-34; Levanoni, A., *A Turning Point in Mamluk History. The Third Reign of al-Násir Muhammad Ibn Qalâwûn (1310-1341)*, Leiden-Brill 1995, pp. 142-48; Tsugitake, S., *op.cit.*, pp. 135-61; id., «The Proposers and Supervisors of *al-Rawk al-Násirî* in Mamluk Egypt», *Mamluk Studies Review* II (1998), pp. 73-92
طرخان : النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ٩١ - ١١٤ .

^١ عن الرُّوْكَ النَّاصِرِيِّ الَّذِي عَمَلَهُ السُّلْطَانُ النَّاصِرُ مُحَمَّدُ ابْنُ قَلَاوُونَ سَنَةَ ٧١٥هـ/١٣١٥م انظر ، النويري : نهاية الأرب ٣٢: ٢٠٥-٢٠٦ ، ٢٢٥-٢٢٧ ؛ ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر ٩: ٢٨٦-٢٨٧ ؛ المقرئ : السلوك ٢: ١٤٦-١٤٧ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٤٣٢ ، ١٣: ١٨١-١٨٢ ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩: ٤٢-٤٥ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١: ٤٤٦ ؛ Poliak, A.N., *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon 1250-1900*, London 1939, pp. 36-39;

الحكم، فاعتد منها بما كان يُضرف في كلف حمل الغلال من النواحي إلى ساحل القاهرة وما كان عليها من المكس^١.

وأبطل السلطان عدة مكوس^٢ منها «مكس ساحل الغلة»، وكان مجلٌ مُتَحَصِّلُ الدِّيوان، وعليه إقطاعات الأمراء والأجناد، ويُتَحَصِّلُ منه في السنة أربعة آلاف ألف وست مائة ألف دِرْهَم، وعليه أربع مائة مُقَطَّعٍ لكل منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف، ولكل من الأمراء من أربعين ألفاً إلى عشرة آلاف. وكانت جهة عظيمة لها مُتَحَصِّلٌ كثيرٌ جداً، وينال القبط/ منها منافع كثيرة لا تُحصى، ويحلُّ بالناس من ذلك بلاءٌ شديدٌ وتعبٌ عظيمٌ من المغارم والظلم، فإن مظالمها كانت تتعدّد ما بين نوايئة تشرق وكيالين تبخس وشادين وكتّاب يُريد كلٌّ منهم شيئاً، وكان مُقَرَّرُ الأزدب دِرْهَمين للسلطان ويلحقه نصف دِرْهَم، غير ما يُنهب ويُسرق. وكان لهذه الجهة مكانٌ يُعرف بـ «خُصَّ الكيالة» في ساحل بولاق، يجلس فيه شادٌ وستون متعمّماً ما بين كُتّاب ومُسْتَوْفِين وناظرٍ ومُعْنَى^٣ وثلثون جندياً مباشرون، ولا يُمكن أحداً من الناس أن يبيع قدحاً من غلة في سائر النواحي، بل تُحمَلُ الغلات حتى تُباع في خُصَّ الكيالة ببولاق.

ومما أبطل أيضاً «نصف الشمسرة»: وهو عبارة عن أن من باع شيئاً من الأشياء فإنه يُعطي أُجْرَةَ الدُّلال - على ما تقرر من قديم - عن كل مائة دِرْهَمٍ دِرْهَمين، فلما ولي ناصر الدين الشيعي الوزارة قرّر على كل دلال من دلالته دِرْهَمًا من كل دِرْهَمين، فصار الدلال يعمل مُعَدَّله ويجهده حتى ينال عادته وتصير الغرامة على البائع، فتضرر الناس من ذلك وأوذوا فلم يُغاثوا حتى أبطل ذلك السلطان. ومما أبطل «رُشوم الولاية» وكانت جهة تتعلّق بالولاية والمقدمين فيجبها المذكورون من عُرفاء الأسواق وبيوت القواجش، ولهذه الجهة ضامنٌ وتحت يده عدة صبيان وعليها جُنْدٌ مُسْتَقْطَعُونَ وأمراء وغيرهم، وكانت تشتمل على ظلمٍ شنيع وفسادٍ قبيح وهتك قومٍ مستورين وهجم بيوت أكثر الناس.

ومما أبطل «مقرر الحوائص والنعال»^٤ من المدينة وسائر أعمال مصر كلها من الوجه القبلي

(a) ساقط من بولاق.

١ ٢٢٢٩؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه ٢: ٦٩؛ المقرئزي: السلوك

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٩: ٤٣-٤٤.

٢ ١٥٠٠-١٥٤؛ أبا المحاسن، النجوم الزاهرة ٩: ٤٥-٤٨.

٢ عن المكوس التي أبطلها الملك الناصر محمد بن

قلاوون انظر كذلك النويري: نهاية الأرب ٣٢: ٢٢٧-

والبَحْرِي ، فكان على كل من الولاية والمُقدِّمين مُقرَّر يُحتمل في كل قسطنطين من أقساط السنة إلى بيت المال ، عن ثمن حياصة ثلاث مائة دِرْهَم ، وعن ثمن نقل^(b) خمس مائة دِرْهَم ، وعلى هذه الجهة عِدَّة مُقطَّعين ويفضَّل منها ما يُحتمل . وكان يُصيب الناس من هذه الجهة ما لا يُوصف ، ويحلَّ بهم من عسف الرِّقاصين ما يَهونُ معه الموت .

ومن ذلك «مُقرَّر الشُّجون»^(c) وهو عبارة عمَّا يُؤخذ من كلِّ مَنْ يُسجن ، فللسَّجان على حُكم المُقرَّر ستة دَرَاهِم سوى كُلفٍ أخرى ، وعلى هذه الجهة عِدَّة مُقطَّعين ، ويرغب فيها الضُّمان ويتزايدون في مَبْلَغ ضَمَانِهَا لكَثْرَةِ ما يَتَحَصَّلُ منها ، فإنَّه لو كان تخاصم رجلٍ مع امرأته أو ابنه رَفَعَهُ الوالي إلى السُّجن ، فبمجرد ما يَدْخُلُ السُّجن - ولو لم يُقِم به إلا لحظةً واحدةً - أُخِذَ منه المُقرَّر ، وكذلك كان على سجن القضاة أيضًا .

ومن ذلك «مُقرَّر طَرْح الفَراريج» ولها ضُمَّانٌ عِدَّة ، في سائر نواحي أرض مصر ، يَطْرَحون على الناس الفَراريج ، فيمرُّ بضُعفاء الناس من ذلك بلائٍ عظيم ، وتُقاسي الأراميل من العسف والظُّلم شيئًا نُكْرًا^(d) . وكان على هذه الجهة عِدَّة مُقطَّعين ، ولا يُمكن أحدٌ من الناس في جميع الأقاليم أن يشتري فَرُوجًا فما فَوْقَه إلا من الضَّامين ، ومن عُثِرَ عليه أنَّه اشترى أو باع فَرُوجًا من سوى الضَّامين جاءه الموت من كلِّ مكان وما هو بمَيِّت .

ومن ذلك «مُقرَّر الفُرسان» وهو عبارة عمَّا يَجْبِيهِ وُلاةُ النواحي من سائر البلاد ، فلا يُؤخذ دِرْهَم مُقرَّر حتى يَغْرَمَ عليه صاحِبُه درهمين ، ويُقاسي الناس فيه أهوالًا صَعْبَةً .
ومن ذلك «مُقرَّر الأَقصاب والمعاصِر» وهو ما يُجْبِي من مزارعي قَصَب السُّكَّر ومن المعاصِر ورجال المعاصِر .

ومن ذلك «مُقرَّر رُسوم الأَفراح» ويُجْبِي من سائر النواحي ، ولهذه الجهة عِدَّة ضُمَّان ، ولا يُعرَف لهذه الجهة أصلُ البتَّة ، وإنَّما يُجْبِي بضرائب ينالُ الناس فيها مع المُقرَّر غراماتٍ ورُوعاتٍ .
ومن ذلك «حِمَايَةُ المَرَاكِب» ، وهي عبارة عمَّا يُؤخذ من كلِّ مركب بتقرير مُعيَّن يُعرَف بـ «مُقرَّر الحِمَايَةِ» ، وكانت هذه الجهة أشدَّ ما ظَلِمَ به الناس ، فيؤخذ من كلِّ من رَكِبَ البحر للسَّفَر ، حتى من السُّؤال والمُكذِّفين .

ومن ذلك «حُقُوق القَيْنات» ، وهو عبارة عمَّا يُجَمِّع من الفواحش والمُنكرات ، فينجبِه مهتار

(a) بولاق : البغال . (b) بولاق : بغل . (c) الأصل : مقرر الموت ا (d) بولاق : كثيرا .

الطُّسْتَخَانَاهُ السُّلْطَانِيَّةُ مِنْ أَوْبَاشِ النَّاسِ .

وَمِنْ ذَلِكَ «شَدُّ الزُّعْمَاءِ» وَهِيَ جِهَةٌ مُفْرَدَةٌ ، وَحُقُوقُ السُّودَانِ وَكَشْفُ الْمَرَائِبِ ، وَمُقَرَّرٌ مَا عَلَى كُلِّ جَارِيَةٍ أَوْ عَبْدٍ حِينَ نُزُولِهِمْ بِالْخَانَاتِ لِعَمَلِ الْفَاجِحَةِ ، فَيُؤْخَذُ مِنْ كُلِّ ذَكَرٍ وَأُنْثَى مُقَرَّرٌ مُعَيَّنٌ .
و«مُتَوَفَّرُ الْجَرَّارِيْفِ» ، وَهُوَ مَا يُجْبَى مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي ، فَيَحْمَلُ ذَلِكَ مُهَنْدِسُو الْبِلَادِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ بِإِعَانَةِ الْوَلَاةِ لَهُمْ فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ . وَعَلَى هَذِهِ الْجِهَةِ عِدَّةُ مُقْطَعِينَ مِنَ الْجُنْدِ .

و«مُقَرَّرُ الْمَشَاعِلِيَّةِ» وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا يُؤْخَذُ عَنْ كَسْحِ الْأَقْنِيَةِ وَحَمْلِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنَ الْوَسَخِ إِلَى الْكَيْمَانِ ، فَكَانَ إِذَا امْتَلَأَ سَرَبٌ (أَحْمَامٌ أَوْ مَسْمَطٌ أَوْ^a) جَامِعٌ أَوْ مَدْرَسَةٌ أَوْ تَرْبَةٌ أَوْ مَنْزِلٌ مِنْ مَنَازِلِ سَائِرِ النَّاسِ ، لَا يُمَكِّنُهُ - وَلَوْ بَلَغَ مِنَ الْعِظَمَةِ مَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ - التَّعَرُّضُ لِذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُ ضَامِنٌ الْجِهَةِ وَيُقَاوِلُهُ عَلَى كَسْحِ ذَلِكَ بِمَا يُرِيدُ . وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الضَّامِنِ الْإِشْطَاطَ فِي السُّوْمِ ، وَطَلَبَ أَضْعَافَ الْقِيَمَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَرْضَ رَبُّ الْمَنْزِلِ بِمَا طَلَبَ الضَّامِنُ وَالْأَتْرَكَهُ وَانْصَرَفَ ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى مُقَاسَاةِ تَرْكِ الْوَسَخِ وَيُضْطَرُّ إِلَى سُؤَالِهِ ثَانِيًا ، فَيُعْظَمُ تَحْكُمُهُ وَيَشْتَدُّ بِأَشْهُ إِلَى أَنْ يُرْضِيَهُ بِمَا يَخْتَارُ حَتَّى يَتِمَّكَنَ مِنْ كَسْحِ قَنَاتِهِ^b وَرَفَعَ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْأَقْدَارِ^١ .

وَمِنْ ذَلِكَ «إِبْطَالُ الْمُبَاشِرِينَ مِنَ النَّوَاحِي» وَكَانَتْ بِلَادُ مِصْرَ كُلِّهَا ، مِنَ الْوَجْهَيْنِ الْقِبْلِيِّ / وَالْبَحْرِيِّ ، مَا مِنْ بَلَدٍ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ إِلَّا وَفِيهِ عِدَّةٌ مِنْ كُتَّابٍ وَشَادٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَأَبْطَلَ السُّلْطَانُ الْمُبَاشِرِينَ ، وَتَقَدَّمَ بِمَنْعِهِمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ النَّوَاحِي إِلَّا مِنْ بَلَدٍ فِيهَا مَالٌ لِلْسُّلْطَانِ فَقَطْ ، فَأَرَاخَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْخَلْقَ بِإِبْطَالِ هَذِهِ الْجِهَاتِ مِنْ بَلَاءٍ لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ وَلَا يُمَكِّنُ وَضْفُهُ^٢ .

وَمَا أَبْطَلَ السُّلْطَانُ هَذِهِ الْجِهَاتِ ، وَفَرَّغَ مِنْ تَعْيِينِ إِقْطَاعَاتِ الْأَمْرَاءِ وَأَخْبَازِ الْأَجْنَادِ^c ، أُفْرِزَ لِخَاصِّ السُّلْطَانِ مِنْ بِلَادِ أَرْضِ مِصْرَ عِدَّةُ نَوَاحٍ مِمَّا كَانَ فِي إِقْطَاعَاتِ الْبُرْجِيَّةِ ، وَهِيَ الْجِيْزَةُ وَأَعْمَالُهَا وَهُوَ الْكُومُ الْأَحْمَرُ وَمَنْقَلُوطُ وَالْمَرْجُ وَالْخُصُوصُ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا بَلَغَ عَشْرَةَ قَرَارِيْطٍ مِنَ الْإِقْلِيمِ ، وَصَارَ لِإِقْطَاعَاتِ الْأَمْرَاءِ وَالْأَجْنَادِ وَغَيْرِهِمْ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ قِيرَاطًا .

وَمَكَرَ الْأَقْبَاطُ فِيمَا أَمَكْنَهُمُ الْمَكْرُ فِيهِ ، فَبَدَأُوا بِأَنْ أَضْعَفُوا عَسْكَرَ مِصْرَ ، فَفَرَّقُوا الْإِقْطَاعَ الْوَاحِدَ

(a-a) ساقط من بولاق . (b) بولاق : فنائه . (c) بولاق : الإقطاعات للأمرء والأجناد .

^١ المقرئزي : مسودة المواعظ ٣٢٩ - ٣٣٠ . حبيب : تذكرة النبيه ٢ : ٤٦٩ : المقرئزي : السلوك ٢ : ١٥٠ -

^٢ النويري : نهاية الأرب ٣٢ : ٢٢٧ - ٢٢٩ : ابن ٤١٥٤ : أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٤٥ - ٤٨ .

في عدة جهات ، فصارَ بعضُ الجبِّي في الصَّعيد ، وبعضه في الشَّرقيَّة ، وبعضه في الغزبيَّة ، إتحاباً للجُندي وتكثيراً للكُلْفَة . وأفرَدوا جوالي الذُّمَّة من الخاصِّ ، وفرَّقوها في البلاد التي أُقِطعت للأمرء والأجناد ، فإنَّ النَّصاري كانوا مجتمعين في ديوانٍ واحدٍ - كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى - فصارَ نصاري كلِّ بَلدٍ يدفعون بجاليتهُم إلى مُقَطع تلك الضَّيعة . فأتسَع مَجَالُ النَّصاري ، وصاروا يَتَنقَّلون في القُرَى ولا يدفعون من جزيتهم إلا ما يُريدون ، فقلُّ مُتَحَصِّل هذه بعد كثرته ، وأفرَدوا ما بقي من جهات المُكوس برسم الحوائجِ خاناه التي تُصَرَف للسَّماط ، ليتناولوا ذلك ويُوردوا منه ما شاءوا ، ثم يتولَّوا صَرَف ما يُحصِّل منه في جهات تُسْتَهْلَك بالأكل . وصارت جهاتُ المُكوس ممَّا يَتَحَدَّث فيه الوَزيُّ وشادُّ الدَّواوين .

ثم نَظَرَ السُّلطانُ فيما كان بيد الأميرين بييرس الجاشنكير وسَلار نائِب السُّلطنة من البلاد ، فأخَذ ما كان باسم كلِّ منهما وباسم حواشيه ، ولم يدع من ذلك شيئاً ممَّا كانوا قد وقَّفوه حتى حلَّه ، وجعلَ الجميع إقِطاعات ، واعتدَّ في سائر الإقِطاعات بما كان يَسْتَهْدِيهِ المُقَطع من فَلَاحِه ، فحَسَب ذلك وأقامه من جملة عِبَر الإقِطاع ، وأَبْطَل الهدية ، فلم يتهيأ له الفراعُ من ذلك إلى آخر السَّنة . فلَمَّا أَهَلَ المحَرَّم من سنة ستِّ عشرة وسبع مائة ، وقد نُظِمَت الحُشبانات على ثلث مُغِلِّ سنة خمس عشرة ، جَلَسَ السُّلطانُ في الإيوان الذي استجدَّه بقلعة الجبل^١ ، وقد تقدَّم لسائر نُقباء الأجناد على لسان نقيب الجيش بالحُضور بأجنادهم ، وجعلَ للعرض في كلِّ يوم أميرين من الأمرء المُقدِّمين بمُضافتيهما . فكان الأميرُ مُقدِّم الألف يقف ومعه مُضافوه ، وناظرُ الجيش يستدعيهم من تَقْدِمة ذلك الأمير بأسمائهم على قَدَر منازلهم ، فيقدِّم نقيب الجيش الواحد من يد نقيبهِ إلى ما بين يدي السُّلطان ، فإذا مَثَل بحضرته سأله السُّلطانُ بنفسه من غير واسِطة عن اسمه وأصله وجِنسِه ووَقْت حُضوره إلى ديار مصر ، ومع مَنْ قَدِمَ ، وإلى مَنْ صارَ من الأمرء وغيرهم ، وعن مشاهدته التي حَضَرها في الغزو ، وعمَّا يعرفه من صِناعة الحرب وغير ذلك من الاستِقْصاء . فإذا انتهى استيفاهمه إياه ناوَلَه بيده مثالاً من غير تأمُّل بحَسَب ما قَسَمَ الله له ، فلم يَمَرَّ به في مُدَّة العَرَض أَحَدٌ إلا وقد عَرَفَه ، وأشارَ إلى الأمرء بذكر شيءٍ من خبره .

هذا ، وقد تقدَّم إلى سائر الأمرء بأسرهم بأن يحضروا إلى الإيوان عند العَرَض ، ولا يُعارض أَحَدٌ منهم السُّلطان في شيءٍ يفعله ، فكانوا يحضرون وهم سُكوت لا يتكلَّم أَحَدٌ منهم خوفاً من مُخالفة السُّلطان لما يقوله . وأخَذَ السُّلطانُ في موازبة الأمرء ، فما أثنوا على أَحَدٍ في مجلس

^١ فيما يلي : ٢٠٦:٢ - ٢٠٧ .

- العرض إلا وأعطاه السلطان مثالا بإقطاع رديء . فلما علموا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة . وانفردوا بالاستبداد بأموره دونهم ، فما عرف منه أنه قدّم إليه أحد إلا وسأله : إن كان مملوكا عمّن أقدمه من التجار وسائر ما تقدّم ، وإن كان شيخا فمن أصله وسنّه وكم مصاف حصرها ، حتى أتى على الجميع . وأفرد المشايخ العاجزين فلم يُعطهم إقطاعات ، وجعل لكلّ منهم مَرْتَبًا يقوم به ، فأنتهى العرض في طول المحرم ، وتوفّر كثير من مثالات الأجناد فبلغ عدّة مائتي مثال .
- ٥ ثم أخذ في عرض أطباق الممالك السلطانية ، ووفّر من جواميكهم كثيرا ، وقطع عدّة رواتب من رواتبهم ، وعوّضهم عن ذلك إقطاعات ، وجعل جهة مكس قَطِيَا^١ لضُعفاء الأجناد ممن قطع خبزه ، فجعل لكلّ منهم في السنة ثلاث آلاف درهم . وكان لبَيْتِرس وسَلار الجوكندار تعلقات كثيرة في بيت المال ، وفي الأعمال كالجزيرة والإسكندرية ، من متجر وحيمايات ، فازتجّع ذلك وأبطله وما شابهه ، وأضاف ما لم يُقطعه إلى ديوان الخاص .
- ١٠ ومما أمر به في مُدّة العرض ألا يردّ أحدٌ مثالا أخذَه من السلطان ولو استقله ، ولا يُشفع أميرٌ في جُندي ، وأن من خالف ذلك ضُربَ وحبسَ ونُفيَ وقُطِعَ خبزه ، فعظمت مهابة السلطان وقويت حرمة ، ولم يجسر أحدٌ أن يرد عليه مثالا أخذ من السلطان ، ولا استطاع أميرٌ أن يتكلّم لأحد . وصار كثير ممن كان إقطاعه مثلا ألف دينار إلى إقطاع مائتي دينار ونحوها ، وكثير ممن كان إقطاعه قليلا إلى إقطاع مُعْتَبَر ، فإنه كان يُعطي المثال/ من غير تأمل كيفما وقعت يده عليه .
- ١٥ وقدّر الله سبحانه وتعالى أن السلطان كان من جملة صبيان مطبخه رجلٌ مُضحك يهزل بحضرته ، فيضحك منه ويُعجب به ولا يعترض فيما يقول من الشخف . فجلس السلطان في بعض أيام العرض في البستان بقلعة الجبل وعنده الخاصة من الأمراء ، فدخّل هذا المُضحك وأخذ في الشخيرة على عادته ليضحك السلطان ، إلى أن قال : وجدت بعض أجناد الروك الناصري وهو راكب الإكديش وخزجه خلفه ورُمحه فوق كتفه ، يقصد بهذا الشخيرة والطنّز^(a)؛ فعضب السلطان غضبا شديدا ، وصاح : خذوه وعزّوه ثيابه ؛ فتبادره الأعوان ، وجزّوه برجله ونزّعوا

(a) يولاق : الطعن .

^١ انظر حول مدينة قَطِيَا والمكس المحصل بها مقال العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ٣٧ (١٩٩٠) ، عادل عبد الحافظ حمزة : قطية جمرک مصر الشرقي في ٤٥ - ٧٠ .

ثيابه ، وربطوه في الشاقية مع القواديس ، وأكثروا من ضرب الأبقار حتى أسرعت بدوران الشاقية ؛ فصار المسكين ينقلب مع القواديس ، ويغطس في الماء تارة ويترقى أخرى ، ثم يتكس الماء يمر عليه مقدار ساعة ، إلى أن انقطع جسده وأشرف على الهلاك ؛ واشتد رغب الأمرء لما رأوه من قوة غضب السلطان .

ثم تقدم الأمير طغاي الدوادار في طائفة من الأمرء الخاصكية ، واعتذروا عن هذا المشكين بأنه لم يرد إلا يضحك السلطان من كلامه ، ولم يقصد عيب الأجناد ولا انتقاصهم ، ونحو هذا من القول إلى أن أمر بحله ، فإذا ليس فيه حركة فسحب ، ورسم السلطان بأنه إن كان حيًا لا يبيت بديار مصر ؛ فأخرج من وقته منفيًا . وحمد الله كل من الأمرء على ما وفقه من الشكوت عن الكلام في حال العرض .

وما زال الأمر بمصر على ما رسمه الملك الناصر في هذا الرؤك ، إلى أن زالت دولة بني قلاوون بالملك الظاهر بزقوق في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبع مائة ، فأبقى الأمر على ذلك إلا أن أشياء منه أخذت تتلاشى قليلًا قليلًا إلى أن كانت الحوادث والمحن في سنة ست وثمان مائة حيث حدثت من أنواع التغييرات وتنوع الظلم ما لم يخاطر ببال أحد . وسيمر بك جمل من ذلك عند ذكر أسباب خراب إقليم مصر إن شاء الله تعالى .

وكانت لأراضي مصر تقاوي مخلدة في نواحيها وهي على قسمين : تقاوي سلطانية ، وتقاوي بلدية ، فالتقاوي السلطانية وضعها الملوك في النواحي ؛ وكان الأمير أو الجندي عندما يستقر على الإقطاع يقبض ما له من التقاوي السلطانية ، فإذا خرج عنه طولب بها . فلما كان الرؤك الناصري خلدت تقاوي كل ناحية بها ، وضبطت في الديوان السلطاني ، فبلغت جملتها مائة ألف وستين ألف أزدب سوى التقاوي البلدية .

ذكر الديوان

قال أفضى القضاة أبو الحسن الماوردي : الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعامل . وفي تسميته ديوانًا وجهان : أحدهما أن كسرى أطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرأهم

¹ عن الدواوين في مصر الإسلامية انظر كذلك فيما يلي II, pp. 336-41؛ واعتمد المقريري في هذا الفصل بالإضافة إلى

Gottschalk, H. L., *Et art. Dîwân*؛ ٢١٥ : ٢ : ٣٩٧ : ١

الماوردي على الجزء الثامن من «نهاية الأرب» للتويري .

يُحْسِبُونَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ: «دِيَّوَانَهُ»، أَي مَجَانِينَ^١، فَسُمِّيَ مَوْضِعُهُمْ بِهَذَا الْاسْمِ، ثُمَّ حُذِفَتِ الْهَاءُ عِنْدَ كَثْرَةِ الْاسْتِعْمَالِ تَخْفِيفًا لِلْاسْمِ فَقِيلَ دِيَّوَانٌ. وَالثَّانِي: أَنَّ الدِّيَّوَانَ اسْمٌ بِالْفَارْسِيَّةِ لِلشَّيَاطِينِ، فَسُمِّيَ الْكُتَّابُ بِأَسْمِهِمْ لِحِذْقِهِمْ بِالْأُمُورِ، وَوُقُوفِهِمْ عَلَى الْجَلْبِيِّ وَالْحَفِيِّ، وَجَمَعَهُمْ لِأَنَّ شِدَّةَ وَتَفَرُّقَهُ، وَأَطْلَاعَهُمْ عَلَى مَا قَرَّبَ وَبَعَدَ. ثُمَّ سُمِّيَ مَكَانُ جُلُوسِهِمْ بِأَسْمِهِمْ فَقِيلَ دِيَّوَانٌ^٢. انْتَهَى.

وَاعْلَمْ أَنَّ كِتَابَةَ الدِّيَّوَانِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: كِتَابَةُ الْجِيُوشِ، وَكِتَابَةُ الْخَرَاجِ، وَكِتَابَةُ الْإِنشَاءِ وَالْمَكَاتِبَاتِ. وَلَا بُدَّ لِكُلِّ دَوْلَةٍ مِنْ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ. وَقَدْ أَفْرَدَ الْعُلَمَاءُ فِي كِتَابَةِ الْخَرَاجِ وَفِي كِتَابَةِ الْإِنشَاءِ عِدَّةَ مُصَنِّفَاتٍ^٣، وَلَمْ أَرِ أَحَدًا جَمَعَ شَيْئًا فِي كِتَابَةِ الْجِيُوشِ وَالْعَسَاكِرِ.

وَكَانَتْ كِتَابَةُ الدُّوَاوِينِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ أَنْ يُجْعَلَ مَا يُكْتَبُ فِيهِ صُحُفًا مُدْرَجَةً؛ فَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُ بَنِي أُمَيَّةَ، وَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبُو الْعَبَّاسِ الشَّفَّاحُ، اسْتَوَزَرَ خَالِدَ بْنَ بَزْمَكٍ بَعْدَ أَبِي سَلَمَةَ حَفْصِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْخَلَّالِ، فَجَعَلَ الدُّفَاتِرَ فِي الدُّوَاوِينِ مِنَ الْجُلُودِ، وَكَتَبَ فِيهَا وَتَرَكَ الدُّرُوجَ إِلَى أَنْ تَصَرَّفَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بْنِ بَزْمَكٍ فِي الْأُمُورِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ، فَاتَّخَذَ الْكَاعْدَ، وَتَدَاوَلَهُ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى الْيَوْمِ^٤.

وَذَكَرَ أَبُو الثَّمَرِ الْوَرَّاقُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ الْقَاضِي قَالَ: قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْمُدَّبِّرِ: لَوْ عَمَّرَتْ مِصْرَ كُلُّهَا لَوْفَتْ بِأَعْمَالِ الدُّنْيَا. وَقَالَ: إِنَّ أَرْضَ مِصْرَ مَسَاحَتُهَا لِلزَّرَاعَةِ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ فَدَّانٍ، وَإِنَّمَا يُعَمَّرُ^(a) مِنْهَا أَلْفُ أَلْفِ فَدَّانٍ. قَالَ: وَقَالَ لِي ابْنُ الْمُدَّبِّرِ: إِنَّهُ كَانَ مَتَعْمَلًا بِالْعِرَاقِ^(b) دِيَّوَانَ الْمَشْرِقِ وَدِيَّوَانَ الْمَغْرِبِ، قَالَ: وَلَمْ أَبْتَ قَطُّ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي وَعَلَيَّ عَمَلٌ أَوْ بَقِيَّةٌ مِنْهُ^(c)، وَتَقَلَّدْتُ مِصْرَ فَكُنْتُ زُبَّانًا نَمْتُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِنَ الْعَمَلِ فَأَسْتَيْتَمَّهُ إِذَا أَصْبَحْتُ.

(a) بولاق: المعمر. (b) بولاق: يتقلد. (c) موضع ذلك في بولاق: حتى أنهيه ولا بقية.

^١ فِي «الْمَغْرِبِ» لِلْجَوَالِقِيِّ: «دِيَّانٌ» وَ«دِيَّوَانٌ» أَي الشَّيَاطِينِ، وَ«الدِّيَّوَانُ» هُوَ الشَّيْطَانُ (الْمَغْرِبُ ١٥٤).

^٢ الْمَاورِدِي: الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ ١٧٥؛ النُّوَيْرِي: نَهَايَةُ الْأَرْبِ ٨: ١٩٥.

^٣ أَهْمُهَا مَوْضُوعَاتُ ابْنِ الْفَقِيهِ وَقُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ وَعَلِيِّ بْنِ

تَخَلَّفَ وَتَاجَ الرِّئَاسَةَ ابْنُ الصُّبَيْرِيِّ وَابْنُ شَيْثِ الْقَرَشِيِّ وَابْنُ فَضْلِ اللَّهِ الْعَمْرِيِّ وَالْقَلْقَشْنَدِيُّ.

^٤ حَوْلَ اسْتِعْمَالِ حَوَامِلِ الْكِتَابَةِ الْمُخْتَلِفَةِ حَتَّى ظَهَرَ الْكَاعْدُ الَّذِي دَخَلَ إِلَى سَمَرْقَنْدٍ عَنْ طَرِيقِ بَعْضِ الْأَسْرَى الصِّينِيِّينَ سَبَاهِمَ زِيَادِ بْنِ صَالِحٍ، ثُمَّ نَشِئُ أَوَّلَ مَعْمَلٍ =

ذكر ديوان العساكر والبجوشين

يُقال : إنَّ أوَّلَ من وَضَعَ ديوانَ الجُنْدِ بِخَيْلِهِمْ كَيْلُهُمْ أَسْفَ أَحَدُ ملوكِ الطبقةِ الثانيةِ مِنَ الفُرسِ ، وإنَّ كَيْقَبادَ قبله/ كان قد أَخَذَ العُشْرَ مِنَ الغَلَّاتِ وَصَرَفَهُ فِي أَرْزاقِ جُنْدِهِ . وأمَّا فِي الإسلامِ فما خَرَّجَهُ البُخاريُّ ومُسلمٌ ، من حَدِيثِ حُدَيْفَةَ - رضي اللهُ عنه - قال : قال النَّبِيُّ ﷺ : «اكتُبوا إليَّ مَنْ تَلَفَّظَ بِالإِسْلامِ مِنَ النَّاسِ» ، فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفَ وَخَمْسَ مائَةِ رَجُلٍ ... الحَدِيثُ ، ذَكَرَهُ البُخاريُّ فِي بابِ كِتابَةِ الإمامِ النَّاسِ .

وللبُخاريِّ من حَدِيثِ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما ، قال : جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال : يا رَسولَ اللهِ ، إنِّي اُكْتَبْتُ فِي عَزْوَةِ كِذا وَامْرَأَتِي حاجَّةٌ ، قال : «ارْجِعْ فَاحْجُجْ مَعَ امْرَأَتِكَ»^١ .

وقال عمر بن شَبَّة^(a) عن مَعْمَرِ عن قَتادَةَ قال : آخِرَ مالِ أُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ثمان مائة ألفِ دِرْهَمٍ مِنَ البَحْرَيْنِ ، فما قامَ مِنْ مَجْلِسِهِ حَتَّى أَمْضاهُ . ولم يَكُنْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَيْتٌ مالٍ ولا لأبي بَكْرٍ ، وأوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ بَيْتَ مالٍ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي اللهُ عنه . فقال ابنُ شِهابٍ : عُمَرُ أوَّلُ مَنْ دَوَّنَ الدُّواوِينَ^٢ .

ورَوَى ابنُ سَعْدٍ ، عن عائِشَةَ - رضي اللهُ عنها - قالت : قَسَمَ أُمِّي الفَيءَ عامَ أوَّلِ ، فَأَعْطاني الحُرَّ عَشْرَةَ ، والمَمْلوكَ عَشْرَةَ ، والمَرْأَةَ عَشْرَةَ ، وَأُمَّتُها عَشْرَةَ ؛ ثم قَسَمَ العامَ الثاني ، فَأَعْطاهم عَشْرِينَ عَشْرِينَ .

فَقيل : إنَّ سَبَبَهُ أَنَّ أبا هُرَيْرَةَ - رضي اللهُ عنه - قَدِمَ على عُمَرَ - رضي اللهُ عنه - بِمالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ ، فقال له عمر : ماذا جِئْتَ بِهِ ؟ فقال : خَمْسَ مائةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ؛ فاشْتَكَّرَهُ عمرُ وقال : أَتَدْرِي ما تَقُولُ ؟ قال : نَعَمْ ! مائةُ أَلْفِ خَمْسَ مَرَّاتٍ ؛ فقال عمر : أَطَيِّبٌ هُوَ ؟ قال : لا أَدْرِي .

(a) بولاق : عمرو بن منبه .

^١ النويري : نهاية الأرب ٨ : ١٩٦ .

^٢ انظر عن ديوان عمر بن الخطاب ، Moosa, M.I., «The Dīwān of Umar Ibn al-Khattab», *Studies in Islam* II (1965), pp. 67-71

= لصنع الورق في بغداد بفضل الفضل بن يحيى البرمكي ثم إخلال أخيه جعفر بن يحيى - الذي أعقبه في دست الوزارة - الورق محل الرق في دواوين الدولة (راجع ، أمين فؤاد : الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات ٢٣-٣١) .

فَصَعِدَ عَمْرُ الْمُنْبَرِ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَنَا مَالٌ كَثِيرٌ ، فَإِنْ شِئْتُمْ كَلْنَا لَكُمْ كَيْلًا ، وَإِنْ شِئْتُمْ عَدَدْنَا لَكُمْ عَدًّا . فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ رَأَيْتَ الْأَعَاجِمَ يُدَوِّنُونَ دِيْوَانًا لَهُمْ ، فَدَوِّنْ أَنْتَ دِيْوَانًا ، فَدَوِّنْ عَمْرًا^١ .

وقيل : بل سَبَّهَهُ أَنْ عَمْرٌ بَعَثَ بَعْثًا وَعِنْدَهُ الْهُزْمُزَانُ ، فَقَالَ لِعَمْرٍ : هَذَا بَعْثٌ قَدْ أُعْطِيَتْ أَهْلَهُ الْأَمْوَالُ ، فَإِنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَيْنَ يَعْلَمُ صَاحِبُكَ بِهِ ؟ فَأَثْبِتْ لَهُمْ دِيْوَانًا ؛ فَسَأَلَهُ عَنِ الدِّيْوَانِ حَتَّى فَسَّرَهُ لَهُ . فَاسْتَشَارَ الْمُسْلِمِينَ فِي تَدْوِينِ الدَّوَاوِينِ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : تَقْسِمُ كُلَّ سَنَةٍ مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنَ الْمَالِ ، وَلَا تُنْسِكُ مِنْهُ شَيْئًا . وَقَالَ عُثْمَانُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَرَى مَا لَا كَثِيرًا يَسَعُ النَّاسَ ، فَإِنْ لَمْ يُحْصَوْا حَتَّى يُعْرَفَ مِنْ أَخَذَ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ خَشِيتُ أَنْ يَنْتَشِيرَ الْأَمْرُ . وَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَدْ كُنْتُ بِالشَّامِ فَرَأَيْتُ مُلُوكَهَا دَوَّنُوا دِيْوَانًا وَجَنَّدُوا جُنُودًا ، فَدَوَّنَ دِيْوَانًا وَجَنَّدَ جُنُودًا ؛ فَأَخَذَ بِقَوْلِهِ وَدَعَا عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةَ بْنَ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرَ ابْنَ مُطْعِمٍ - وَكَانُوا كُتَّابَ قُرَيْشٍ - فَقَالَ : اكْتُبُوا النَّاسَ عَلَى مَنَازِلِهِمْ ، فَبَدَعُوا بَيْنِي هَاشِمَ وَكُتُبَهُمْ ، ثُمَّ أَتَبَعُوهُمْ أَوْلَادَ أَبِي بَكْرٍ وَقَوْمَهُ ، ثُمَّ عَمَرَ وَقَوْمَهُ ، وَكُتِبُوا الْقَبَائِلَ وَوَضَعُوهَا عَلَى الْخِلَافَةِ ، ثُمَّ رَفَعُوا ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَلَمَّا نَظَرَ فِيهِ قَالَ : لَا ! وَلَكِنْ ابْدَأُوا بِقِرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، الْأَقْرَبَ فَلِأَقْرَبٍ ، حَتَّى تَضَعُوا عُمَرَ حَيْثُ وَضَعَهُ اللَّهُ . فَشَكَرَهُ الْعَبَّاسُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ : وَصِلْتِكَ رَجِيمًا^(a) .^٢

وقد اِخْتَلَفَ فِي السَّنَةِ الَّتِي فَرَضَ فِيهَا عَمْرٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْأَعْطِيَةَ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ ، فَقَالَ الْكَلْبِيُّ : فِي سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةَ . وَحَكَى ابْنُ سَعْدٍ عَنْ عَمْرِ بْنِ الْوَاقِدِيِّ أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ عِشْرِينَ . قَالَ الزُّهْرِيُّ : وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةِ عِشْرِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ .

وقيل : لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقَادِسِيَّةَ ، وَقَدِمَتْ عَلَى عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الْفُتُوحُ مِنَ الشَّامِ ، جَمَعَ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ : مَا يَجِلُّ لِلْوَالِيِّ مِنْ هَذَا الْمَالِ ؟ فَقَالُوا جَمِيعًا : أَمَّا لِخَاصَّتِهِ^(b) فَقُوَّتُهُ وَقُوَّتُ عِيَالِهِ لَا وَكَسَ وَلَا شَطَطَ ، وَكُسُوتُهُ وَكُسُوتُهُمْ لِلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، وَدَابَّتَانِ إِلَى جِهَادِهِ وَخَوَائِجِهِ وَحَمْلَانِهِ إِلَى حَجَّهِ^(c) وَعُمَرَتِهِ ، وَالْقَسَمُ بِالسُّوِيَّةِ ، وَأَنْ يُعْطَى أَهْلَ الْبَلَاءِ عَلَى قَدْرِ

(a) بولاق : وصلت رحمك . (b) بولاق : الخاصة . (c) بولاق : حجته .

^١ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ : ٣٠٠ : النويري : نهاية الأعرشي ١٣ : ١٠٦ .
^٢ النويري : نهاية الأعرشي ٨ : ١٩٧ - ١٩٨ : الفلقشندي : صبح الأعرشي ١٣ : ١٠٦ - ١٠٧ .

بلائهم ، وَيَزُومُ أمور الناس بعد ، ويتعاهدهم في الشدائد والنوازل حتى تَنكشِف ، ويبدأ بأهل الفية
ثم يجوزهم إلى كل مغلوب ما بَلَغَ الفية ^١ .

وقال الضحَّاكُ عن ابن عَبَّاس - رضي الله عنهما - : لما افْتُتِحَت القَادِسِيَّةُ وصَالِحُ مَنْ صَالِحُ مِنْ
أهل السَّوَادِ ، وافتُتِحَت دِمَشْقُ وصَالِحُ أهل الشَّامِ ، قال عُمرُ - رضي الله عنه - للناس : اجتمعوا
فأحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القَادِسِيَّةِ وأهل الشَّامِ . فاجتمع رأيُ عليٍّ وعُمَرُ - رضي
الله عنهما أن يأخذوه من قِبَلِ القرآن ، فقالوا : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ - يعني
من الخُمُسِ - ﴿ قَلِيلٌ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يعني من الله الأمر وعلى الرسول القَسَمُ ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ﴾ ؛ ثم فسروا ذلك بالآية الأخرى التي تليها ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ... ﴾
الآية ، فأخذوا الأربعة أحماس على ما قَسِمَ عليه الخُمُسُ فيمن بُدئَ به وثني وثُلث ، وأربعة
أحماس لمن أفاء الله عليه المغنم . ثم استشهدوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ
شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الآية ٤١ سورة الأنفال] من تلك الطبقات الثلاث ، وأربعة أحماس لمن أفاء الله
عليه ، فقَسَمَ الأحماسَ على ذلك . فاجتمع على ذلك عُمرُ وعليٌّ ، وعملَ به المسلمون بعد
ذلك ، فبدأ بالمهاجرين ثم بالأنصار ثم التابعين الذين شهدوا معهم وأعانوهم ، ثم فرض الأغطية
من الجزاء على من صالح أو دعا إلى الصلح من جزائه ^(a) ، فَرَدَّهُ عليهم بالمعروف . وليس في الجزاء
أحماس ، والجزاء لمن منع الذمَّة - ووفى لهم ممن ولي ذلك منهم ، ولمن لحق بهم / فأعانهم بأسوة ،
إلا أن يؤاسوا بفضله عن طيب أنفس منهم من لم يتل مثل الذي نالوا ^٢ .

وعن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ ، قال عُمرُ - رضي الله عنه - : إني مُجَنِّدُ المسلمين
على الأغطية ، ومُدَوِّنُهُمْ ومُتَخَرِّجِي الحَقِّ . فقال عبد الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ وعُثْمَانُ وعليٌّ رضي الله
عنهم : ابدأ بنفسك . قال : لا أبدأ إلا بعَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثم الأقرب فالأقرب منهم من رسول
الله ؛ ففرض للعَبَّاسِ وبدأ به ، ثم فرض لأهل بَدْرٍ خمسة آلاف خمسة آلاف ، ثم فرض لمن بقَد
بَدْرٍ إلى الحُدَيْبِيَّةِ أربعة آلاف أربعة آلاف ، ثم فرض لمن بعد الحُدَيْبِيَّةِ إلى أن أقلع أبو بكر - رضي

(a) بولاق : حرا به .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦١٦:٣ وإسناده فيه : والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد ؛ قالوا .

وكتب إلي السري ، عن شعيب ، عن سيف عن محمد ^٢ نفسه ٦١٧:٣ - ٦١٨ .

الله عنه - عن أهل الردّة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ؛ ودخل في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الأيام قبل القادسيّة ، كل هؤلاء على ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف . ثم فرض لأهل القادسيّة وأهل الشام أصحاب البيزموك ألفين ألفين ، وفرض لأهل البلاء البارع^٥ منهم ألفين وخمسة مائة ألفين وخمسة مائة ؛ فقليل له : لو أحقت أهل القادسيّة بأهل الأيام ! فقال : لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا ، لاها الله إذا . وقبل له : قد سويتهم - على بعد دارهم - بمن قد قرّبت دأره وقاتلهم^٦ عن فئاته ؛ فقال : هم كانوا أحق بالزيادة لأنهم كانوا ردة للقوق وشجبي للعدو ، وأيم الله ما سويتهم حتى استطبتهم ، فهلا قال المهاجرون مثل قولهم حين سويتنا بين السابقين من المهاجرين وبين الأنصار ، وقد كانت نصرّة الأنصار بفئاتهم ، وهاجر إليهم المهاجرون من بعد .

١٠ وفرض للروادف - الذين ردّوا بعد افتتاح القادسيّة والبيزموك بعد الفتح - [المثنى خمس مائة خمس مائة ، ثم للروادف الثلث بعدهم]^٧ - ثلاث مائة ثلاث مائة ، سوى كل طبقة في العطاء ليس بينهم تقاضل ، قويهم وضعيفهم ، غريبهم وأعجميهم في طبقاتهم سواء . حتى إذا حوى أهل الأمصار من حووا من سباياهم ، وردّفت المربع من الروادف ، فرض لهم على خمسين ومائتين ، وفرض لمن ردّ من الروادف الخمس على مائتين . فكان آخر من فرض له عُمر - رضي الله عنه - أهل هجر على مائتين . ومات عُمر على ذلك ، وأدخل في أهل بدر أربعة من غير أهل بدر ، الحسن والحسين وأبا ذرّ وسلمان .

وقال أبو سلّمة : فرض عُمر للعبّاس على خمس وعشرين ألفاً ، وقال الزهري : على اثني عشر ألفاً .

٢٠ وجعل نساء أهل بدر [في خمس مائة خمس مائة ، ونساء من بعدهم]^٨ إلى الحدّية على أربع مائة أربع مائة ، ونساء من بعد ذلك إلى الأيام قبل القادسيّة على ثلاث مائة ثلاث مائة ، ثم نساء أهل القادسيّة على مائتين مائتين ، ثم سوى بين النساء بعد ذلك . وجعل للصبيان من أهل

(a) بولاق : النازح . (b) بولاق : وقاتل . (c) زيادة من الطبري .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣: ٦١٤-٦١٥ (وهو ساقط من مخطوطات تاريخ الطبري وتم استدراكه من ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢: ٥٠٢-٥٠٣) .

بدر وغيرهم مائة مائة، ثم دعا ستين مسكيناً فأطعمهم خبزاً بملح، فأخصوا ما أكلوه فوجدوه يخرج من جريبتين^a، ففرض لكل إنسان يقوم بالأمر له ولعِيَالِه جريبتين جريبتين^a في كل شهر، مسلمهم وكافرهم^١.

وفرض لأزواج النبي ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف، إلا من جرى عليه البيع، فقالت أمهات المؤمنين: ما كان رسول الله ﷺ يفضّلنا عليهن في القسمة ولكن كان يُسوي بيننا فسوّ بيننا؛ فجعلهن على عشرة آلاف عشرة آلاف، وفضل عائشة - رضي الله عنها - بألفين، فأبت، فقال: لفضل منزلك عند رسول الله ﷺ، فإذا أخذتها فشأنك^٢.

وكان الناس أعشاراً، فكانت العرفاء ثلاثة آلاف عريف، كل عريف على عشرة، ورزق الخيل على أعرافها^٣. فما زالوا كذلك حتى اختطت الكوفة والبصرة، فغيّرت العرفاء والأعشار، وجعلت أسباعاً، وجعل مائة عريف، على كل مائة ألف درهم عريف. وكانت كل عرافة من القادسية خاصة، ثلاثة وأربعين رجلاً وثلاثاً وأربعين امرأة وخمسين من العيال، لهم مائة ألف درهم. وكل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلاً على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة، ولكل عيل مائة على مائة ألف درهم. وكل عرافة من الرادقة الأولى ستين رجلاً وستين امرأة وأربعين من العيال، ممن كان رجالهم أخطوا على ألف وخمسة مائة، على مائة ألف درهم. وكان العطاء يُدفع إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات - والرايات على أيادي العرب - فيدفعونه إلى العرفاء والتقباء والأمناء، فيدفعونه إلى أهله في دورهم^٣. فمات عمر - رضي الله عنه - والأمر على ذلك.

وقد عزم قبل موته أن يجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، وقال: لقد هممتُ أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف: ألف يُخلفها الرجل في أهله، وألف يتزوّد بها معه في سفره، وألف

(a) بولاق: جريبتين.

^١ الطبري: تاريخ ٣: ٦١٥؛ ابن الأثير: الكامل ٢: ٥٠٤. الإسلامية الأولى، بغداد ١٩٨٦، ٥١-٥٢ هشام
^٢ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢: ٥٠٣-٥٠٤. جمعيت: الكوفة - نشأة المدينة العربية الإسلامية، الكويت
^٣ الطبري: تاريخ ٤: ٤٩؛ وانظر عن تقسيم الأعشار
المعارف الإسلامية^٢ Salib A. el. Ali & Cl. Cahen, *El* ١٧١-١٨١ وكذلك مادة عريف في دائرة
art. 'Arif I, pp. 649-51 ومنطقتها - دراسة في أحوالها العمرانية والمالية في العهود

يَتَجَهَّزُ بِهَا ، وَأَلْفٌ يَتَرَفَّقُ بِهَا ، فَمَاتَ وَهُوَ فِي اِرْتِيَادِ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَ ^١ .

وَكَانَ يُقْرِي الْبُعُوثَ عَلَى قَدْرِ الْمَسَافَةِ : إِنْ كَانَ بَعِيدًا فَسِنَّةً ، وَإِنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَسِنَّةً أَشْهُرًا ؛ فَإِذَا أَخْلَى الرَّجُلُ بَثْرَهُ ، نُزِعَتْ عِمَامَتُهُ وَأُقِيمَ فِي مَسْجِدِ حَيْثُ ، فَقِيلَ : هَذَا فُلَانٌ قَدْ أَخْلَى .
وَقَالَ سَيْفُ بْنُ عُمَرَ ^٢ : أَوَّلُ عَطَاءٍ أُخِذَ سَنَةَ خَمْسِ عَشْرَةَ .

٥ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَتَعَثُّ مِنْ مِصْرَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِالْجِزْيَةِ بَعْدَ حَبْسِ مَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ .

فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لثَلَاثِ مَضِينَ مِنَ الْمَحْرَمِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ ، زَادَ النَّاسَ مِائَةً ؛ وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ زَادَ وَرَفَدَ أَهْلَ الْأَمْصَارِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَفَدَهُمْ وَصَنَّعَ فِيهِمُ الصَّنَائِعَ ، فَاسْتَنَّ بِهِ الْخُلَفَاءُ فِي الزِّيَادَةِ .

١٠ وَكَانَ عُمَرُ قَدْ فَرَضَ لِكُلِّ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ مِنْ أَهْلِ الْفَيْءِ فِي رَمَضَانَ / دِرْهَمًا فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَفَرَضَ لِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ دِرْهَمَيْنِ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ صَنَعْتَ لَهُمْ بِهِ طَعَامًا فَجَمَعْتَهُمْ عَلَيْهِ ؟
فَقَالَ : أَشْبِعُوا النَّاسَ فِي بُيُوتِهِمْ .

فَأَقْرَبَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ذَلِكَ ، وَزَادَ فَوَضَعَ لَهُمْ طَعَامَ رَمَضَانَ ، وَقَالَ : هُوَ لِلْمُتَعَبِّدِ الَّذِي يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسْجِدِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَلِلْمُعْتَرِينَ بِالنَّاسِ فِي رَمَضَانَ ، فَاقْتَدَى بِهِ الْخَلْفُ ^(a) مِنْ بَعْدِهِ .

١٥

(a) بولاق : الخلفاء .

وَفَتْوحِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ وَفَارِسَ وَوَقْعَةَ الْجَمَلِ وَأَخْبَارِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ؛ وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ ، وَلَكِنْ دُونَ أَنْ يَذْكَرَ أَيَّ عُنْوَانٍ لَكِتَابِ سَيْفِ ، فَاعْتَمَدَ مِنْ جَاءِ بَعْدِهِ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ عَلَى رَوَايَاتِهِ عَنْ سَيْفِ بْنِ عُمَرَ مِثْلَمَا فَعَلَ الْمُقْرِزِيُّ هُنَا (رَاجِعْ ، الذَّهَبِيُّ : مِيزَانُ الْاِعْتِدَالِ ٢ : ٢٥٥ ؛ الصَّفَدِيُّ : الْوَافِي بِالْوَفَايَاتِ ١٦ : ١٦٦ ؛ جَوَادُ عَلِيٍّ : «مَوَارِدُ تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ» ، مَجَلَّةُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعِرَاقِيِّ ٢ (١٩٥١) ، ١٦٣-١٦٦ ؛ Sezgin, F., GAS I, pp. 311-12) . وَنَشَرَ قَاسِمُ السَّامِرَائِيُّ قِطْعَةً مِنْ كِتَابِ الرَّؤْدَةِ وَالْفَتْوحِ وَكِتَابِ الْجَمَلِ وَمَسِيرِ عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ ، لِابْنِ ١٩٩٥ ، وَانظُرْ مَقْدَمَتَهُ .

^١ الطَّبْرِيُّ : تَارِيخٌ ٣ : ٦١٥ ؛ ابْنُ الْأَثِيرِ : الْكَامِلُ ٢ : ٤٥٠ . وَانظُرْ عَنِ الْعَطَاءِ فِيمَا يَلِي ١ : ٩٥ .

^٢ سَيْفُ بْنُ عُمَرَ الْأَسَدِيُّ التَّمِيمِيُّ الْمَتَوَفَى فِي خِلَافَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ ، هَكَذَا أُورِدَ اسْمُهُ ابْنُ النَّدِيمِ فِي التَّرْجِمَةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي نَحْصَصُهَا لَهُ ، وَذَكَرَ لَهُ مِنَ الْكُتُبِ : «كِتَابُ الْفَتْوحِ الْكَبِيرِ وَالرُّؤْدَةِ» وَ«كِتَابُ الْجَمَلِ وَمَسِيرِ عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ» (الْفَهْرَسْتُ ١٠٦) . وَاعْتَمَدَ عَلَى مَوْلاَفَاتِ سَيْفِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْلاَفِينَ ، سِوَاكَ كَانُوا مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ أَوْ أَصْحَابِ الرِّجَالِ وَحَتَّى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ . وَاعْتَمَدَ الطَّبْرِيُّ اعْتِمَادًا كَبِيرًا عَلَى مَوْلاَفَاتِ سَيْفِ بْنِ عُمَرَ ، فَأُورِدَ رَوَايَاتِهِ فِي حَدِيثِهِ عَنِ الرَّؤْدَةِ

وكان ديوان^a مصر، في خلافة معاوية بن أبي سفيان، أربعون ألفاً؛ وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين. وكان إنما يُحْمَل إلى معاوية ستّ مائة ألف دينار عن فضل أعطيات الجند وما يُضْرَف إلى الناس^١.

وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم، فيتدور على المجالس فيقول: هل وُلِدَ الليلة فيكم مؤلود؟ وهل نَزَلَ بكم نازل؟ فيقال: وُلِدَ لفلان غلامٌ ولفلان جارية، فيكتب أسماءهم، ويُقال: نَزَلَ بهم رجلٌ من أهل كذا بعياله، فيسمّيه وبياله. فإذا فرغ من القبيل^b، أتى الديوان حتى يُثبِت ذلك.

وأعطى مسلعة بن مخلد الأنصاري، أمير مصر، أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور، وأرزاق الكتّبة وحمّلات القمح إلى الحجاز، وبعث إلى معاوية ستّ مائة ألف دينار فضلاً.

وأوّل تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العاص - رضي الله عنه، ثم دَوَّن عبد العزيز بن مزوان تدويناً ثانياً، ودَوَّن قُرّة بن شريك التّدوين الثالث، ثم دَوَّن بشر بن صفوان تدويناً رابعاً، ثم لم يكن بعد تدوين بشر شيء له ذِكرٌ، إلا ما كان من إلحاق قيس بالديوان في خلافة هشام بن عبد الملك بن مزوان^٢.

فلما انقرضت دولة بني أمية، وغلبت المسوودة بنو العباس، أخذوا أشياء حتى إذا مات عبد الله المأمون بن هارون الرشيد لسبع خلون من رجب سنة ثمانٍ عشرة ومائتين، وبُويغ أخوه المعتصم أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد^c، كتب إلى كئيدر^d بن نصر الصغددي^e أمير مصر، يأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم، ففعل ذلك.

وكان مزوان بن محمد الجعدي، آخر خلايف بني أمية، قطع عن أهل مصر العطاء سنة، ثم كتب إليهم كتاباً يعتذر [إليهم]^f فيه: «إني إنما حبستُ عنكم العطاء في السنة الماضية لعدو»

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: القيل. (c) ساقطة من بولاق. (d) بولاق: كئيدر. (e) بولاق: الصغددي.

(f) إضافة من الكندي.

حَضَرَنِي فَاحْتَجَجْتُ [فيه] ^(a) إِلَى المَالِ ، وَقَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكُمْ بَعْطَاءَ السَّنَةِ المَاضِيَةِ وَعَطَاءَ هَذِهِ السَّنَةِ فَكُلُّوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ أَنَا الَّذِي يُجْرِي اللهُ قَطْعَ العَطَاءِ عَلَيَّ يَدِيهِ .

وَمَا قَطَعَ كَيْدَرٌ ^(b) عَطَاءَ أَهْلِ مِصْرَ ، خَرَجَ يَحْيَى بْنُ الوَازِرِ الجَزَوِيِّ فِي جَمْعٍ مِنَ لَحْمٍ وَجُذَامٍ ، وَقَالَ لَهُ : هَذَا أَمْرٌ لَا يَقُومُ فِينَا أَفْضَلُ مِنْهُ لِأَنَّا مُنِعْنَا حَقَّنَا وَقَيْئَنَا ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَحْوُ خَمْسِ مِائَةِ رَجُلٍ .

وَمَاتَ كَيْدَرٌ ^(b) فِي ربيعِ الآخِرِ سَنَةِ تِسْعِ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ ؛ وَوَلِيَ ابْنَهُ المُظَفَّرَ مِصْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، فَسَارَ إِلَى يَحْيَى وَقَاتَلَهُ فِي بُحَيْرَةِ تَيْسٍ وَأَخَذَهُ أُسِيرًا ^١ .

فَانْقَرَضَتِ دَوْلَةُ العَرَبِ مِنْ مِصْرَ ، وَصَارَ جُنْدُهَا العَجَمُ وَالمَوَالِي مِنْ عَهْدِ المُعْتَصِمِ إِلَى أَنْ وَلِيَ الأَمِيرُ أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ مِصْرَ ، فَاسْتَكْتَرَ مِنَ العَبِيدِ ، وَبَلَغَتْ عِدَّتُهُمْ زِيَادَةَ عَلَيَّ أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ غُلَامٍ تَرْكِيٍّ وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ أَسْوَدٍ وَسَبْعَةَ أَلْفِ حُرٍّ مُزْتَرَقٍ . ثُمَّ اسْتَجَدَّ ابْنَهُ الأَمِيرُ أَبُو الجَيْشِ خُمَارَوَيْهَ بَعْدَهُ عِدَّةً مِنْ سَنَاتِزَةِ حُوفِ مِصْرَ .

فَلَمَّا كَانَتْ إِمَارَةُ الأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ طُغْجِ الإِخْشِيدِ عَلَيَّ مِصْرَ ، بَلَغَتْ عِدَّةُ عَسَاكِرِ مِصْرَ وَالشَّامِ أَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفٍ ، تَشْتَمِلُ عَلَيَّ عِدَّةِ طَوَائِفٍ . ثُمَّ إِنَّ الأُسْتَاذَ أبا المِسْكَ كَافُورًا الإِخْشِيدِيَّ اسْتَجَدَّ عِدَّةً مِنَ السُّودَانِ فِي أَيَّامِ تَحْكُمِهِ بِمِصْرَ .

فَلَمَّا تَغَلَّبَ الإِمَامُ المِعْزُ لَدِينِ اللهِ أَبُو تَمِيمٍ مَعَدَّ الفَاطِمِيَّ عَلَيَّ مِصْرَ ، صَارَتْ عَسَاكِرُهَا مَا بَيْنَ كِتْمَانَةَ وَزَوِيلَةَ وَنَحْوَهَا مِنْ طَوَائِفِ البُرَيْرِ ، وَفِيهِمُ الرُّومُ الصَّقَالِيَّةُ وَهُمْ فِي العَدَدِ كَمَا قِيلَ : « وَمِنْهُمْ مَعَدُّ ، وَلَمْ تَكُنْ جُيُوشُهُ تُعَدُّ ، وَلَا لَمَّا أُوتِيَهِ كَانَ حَدٌّ ، مِنْ كُلِّ مَا يَشْعَدُ فِيهِ جَدٌّ » . وَحَتَّى قِيلَ : إِنَّهُ لَمْ يَطَأْ الأَرْضَ - جَيْشِ الإِسْكَانْدَرِ بْنِ فَيْلُبِشِ المَقْدُونِيِّ - أَكْثَرَ عَدَدًا مِنْ جُيُوشِ المِعْزِ .

فَلَمَّا قَامَ فِي الخِلَافَةِ بِمِصْرَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ العَزِيزُ بِاللَّهِ أَبُو مَنْصُورِ نِزَارٍ ، اسْتَحْدَمَ الدُّيْلَمَ وَالأَثْرَاكَ ، وَاخْتَصَّ بِهِمْ ^٢ . وَذَكَرَ الأَمِيرُ المُنْتَخَرُ عِزُّ المَلِكِ ^(c) المُسَبِّحِيُّ فِي «تَارِيخِهِ» : أَنَّ خِزَانَةَ الخَاصِّ حَمَلَهَا - لَمَّا خَرَجَ العَزِيزُ إِلَى الشَّامِ - عِشْرُونَ أَلْفَ جَمَلٍ ، خَارِجًا عَنْ خِزَائِنِ القُوَادِ وَأَكَابِرِ الدُّوَلَةِ .

(a) إضافة من الكندي . (b) بولاق : كندر . (c) بولاق : عبد الملك وفي الأصل بياض .

^١ الكندي : ولاية مصر ٢١٧-٢١٨ .

٦٦٨ وما ذكر من مراجع .

^٢ راجع أمين فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٦٦٢-

وذكر ابن ميسر في «تاريخه»: أن عبيد السيِّدة أم المُستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور بن العزيز بالله خاصة، كانت عدُّتهم خمسين ألف عبد سوى طوائف العسكرة^١.

ورأيت بخط الأشعد بن ممتي: أن عدَّة الجيوش بمصر، في أيام رُزَيْك بن الصَّالِح طلائع بن رُزَيْك، كانت أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف راجل^٢. وزاد غيره «وعشرة شواني بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل»، وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية.

فلما زالت دولتهم علي يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، أزال جُند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والغزبان والأزمن وغيرهم، واستجدَّ عسكرة من الأكراد والأتراك خاصة، وبلغت عدَّة عساكره بمصر إلى^٣ اثني عشر ألف فارس لا غير. فلما مات افتقرت من بعده، ولم يتق بمصر مع ابنه الملك/ العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس وخمس مائة فارس، إلا أن فيهم من له عشرة أتباع، وفيهم من له عشرون، وفيهم من له أكثر من ذلك إلى مائة تبع لرجل واحد من الجند، فكأنوا إذا ركبوا ظاهر القاهرة يزيدون على مائتي ألف.

ثم لم يزلوا في افتراق واختلاف حتى زالت دولتهم بقيام عبيد المماليك الأتراك، فخذوا حذو مواليتهم بني أيوب، واقتصروا على الأتراك وشيء من الأكراد، واستجدوا من المماليك التي تجلب من بلاد الترك شيئاً كثيراً، حتى يقال: إن عدَّة مماليك الملك المنصور قلاوون كانت سبعة آلاف مملوك، ويقال: اثني عشر ألفاً. وكانت عدَّة مماليك ولده الأشرف خليل بن قلاوون اثني عشر ألف مملوك. ثم لم تبلغ بعد ذلك قريباً من هذا، إلى أن زالت دولة بني قلاوون، في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبع مائة، بالملك الظاهر برقوق، فأخذ في محو المماليك الأشرافية، وأنشأ لنفسه دولة من المماليك الجزكسية بلغت عدُّتهم - ما بين مشتري ومستخدم - أربعة آلاف

(a) ساقطة من بولاق.

٣٤٢ وفيما يلي ٤٠١:١ وأيضاً Cahen, Cl.,

«L'Administration financière de l'armée fatimide d'après al-Makhzûmi», *JESHO XV* (1979), pp. 163-82

مصر ٧٢٠-٧٢٤.

^١ انظر فيما يلي ٣٣٥:١.

^٢ انظر فيما تقدم ٢٣١؛ وانظر كذلك عن ديوان

الجيش الفاطمي المخزومي: المنهاج ٦٤-٧٢؛ ابن الطوير:

نزهة المقلتين ٨٢-٨٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى

٤٨٨:٣-٤٨٩، ٥٢١؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا ٣:٣٣٩-

أَوْ تَزِيدَ قَلِيلًا . فَلَمَّا قَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ^(a) النَّاصِرُ فَرَجَ اقْتَرَقُوا وَاحْتَلَفُوا ، فَلَمْ يُقْتَلْ حَتَّى هَلَكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ^١ .

وَعَسَاكِرُ مِصْرَ فِي الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ عَلَى قِسْمَيْنِ : أَجْنَادُ الْحَلَقَةِ ، وَالْمَمَالِكُ السُّلْطَانِيَّةِ^٢ . وَأَكْثَرُ مَا كَانَتْ أَجْنَادُ الْحَلَقَةِ فِي أَيَّامِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ ، فَإِنَّهَا بَلَغَتْ - عَلَى مَا رَأَيْتَهُ فِي جَرَائِدِ دِيْوَانِ الْجَيْشِ بِأَوْرَاقِ الرَّوْكَ النَّاصِرِيِّ - أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ فَارِسٍ ؛ ثُمَّ مَا زَالَتْ تَنْقُصُ حَتَّى صَارَتْ الْيَوْمَ - مَعَ قِلَّةِ عِدَّتِهَا - سَوَاءً مِنْهَا الْأَلْفُ وَالْوَاحِدُ ، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَدْفَعُ .

وَأَمَّا الْمَمَالِكُ فَإِنَّهَا الْيَوْمَ قَلِيلٌ عَدَدُهَا ، بِحَيْثُ لَوْ جَمَعْتَ أَجْنَادَ الْحَلَقَةِ مَعَ الْمَمَالِكِ السُّلْطَانِيَّةِ ، لَا تَكَادُ أَنْ تَبْلُغَ خَمْسَةَ أَلْفِ فَارِسٍ ، يَصْلُحُ مِنْهَا لِأَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ أَلْفٌ أَوْ دُونَهَا .

وَهِيَ الْيَوْمَ قِسْمَانِ : أَجْنَادُ الْحَلَقَةِ ، وَالْمَمَالِكُ السُّلْطَانِيَّةِ . وَالْمَمَالِكُ السُّلْطَانِيَّةُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ :

١٠ ظَاهِرِيَّةٌ ، وَنَاصِرِيَّةٌ ، وَمُؤَيَّدِيَّةٌ . وَالْمُؤَيَّدِيَّةُ مَا بَيْنَ حَكَمِيَّةِ وَتُورُوزِيَّةِ وَمَنْ اسْتَجَدَّهُ الْمُؤَيَّدُ .

^(b) وَإِنْ خَوْفِي لِيَكْثُرَ أَنْ يَكُونَ الْحَالُ بَعْدَ الْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ أَبِي النَّصْرِ شَيْخٍ - خَلَدَ اللَّهُ مُلْكَهُ^٣ -

يَتَلَاشَى ، إِلَى أَنْ يُؤَيَّدَ اللَّهُ الْمَلِكُ بَابْنِهِ الْأَمِيرِ صَارِمِ الدِّينِ إِبْرَاهِيمَ - شَدَّ اللَّهُ بِهِ أَرْزَهُ - فَإِنَّهُ فَتَحَ مِنَ الْبِلَادِ الرُّومِيَّةِ مَا لَا مَلِكَهُ أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ مِصْرَ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَبْلَهُ .

«وَالشُّبْلُ فِي الْمَخْبَرِ مِثْلُ الْأَسَدِ» .

«وَابْنُ السَّرِيِّ إِذَا سَرَى أُسْرَا هُمَا» .

«وَلَا غَزْوٌ أَنْ يَخْذُوا الْفَتَى حَذْوً وَالِدِهِ» .

بِأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الْكَرَمِ

«إِنَّ الْأَصُولَ عَلَيْهَا يَنْبُتُ الشَّجَرُ»^(b)

١٥

(a) زيادة من بولاق . (b-b) ساقط من الأصل ولا توجد إلا في نسختي Paris 1731 ، Paris 1737 وهما يتفقان مع الأصل الذي اعتمدت عليه نشرة بولاق .

^١ عن دولة المماليك الجركسية (الجراكسة) انظر فيما يلي
٢٤١:٢ .

^٢ انظر تفصيل ذلك فيما يلي ٢١٥:٢ - ٢١٩ .

^٣ واضح أن المقرئ كتب هذا القسم من «الخطط» في عهد السلطان الملك المؤيد شيخ الحمودي ، ثم أضاف في فترة لاحقة ما ذكره عن طوائف المماليك في عهد السلطان الملك الأشرف برسباني ، وعدم وجود هذه الفقرة في بعض نسخ الخطط راجع إلى أن المقرئ كان يكتب في طيارات ، فكان النساخ ينسون نقل بعضها أو يضعونه في غير موضعه .

ثم لما ملك الأشرف بربسباي، صارت الممالك سبع طوائف: ظاهرية، وناصرية، ومؤيدية، ونوزوزية، وحكيميّة، وططرية، وأشرفية، كل طائفة منها مباينة لجمعيتها، فلذلك اضمحلت شوكتهم وانكسرت جدّتهم، وأمنت على السلطان غائلتهم، ولم يخف ثورتهم لتفرقهم وإن كانوا مجتمعين، وتباينهم وإن كانوا في الظاهر متفقين.

واعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين، من لدن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - أن تجبى أموال الخراج، ثم تُفَرَّق من الديوان في الأُمراء أو العُمَّال والأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم. وكان يُقال لذلك في صدر الإسلام «العطاء»^١.

وما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم، فغيّر هذا الرسم، وفُرقت الأراضي إقطاعات على الجند. وأوّل من عُرف أنه فرّق الإقطاعات على الجند، نظام الملك أبو علي الحسن ابن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، وزير ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق، ثم وزير ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان^٢. وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يُسَلِّم إلى كل مُقَطَّع قربة أو أكثر أو أقل على قدر إقطاعه، لأنه رأى أن في تسليم الأراضي إلى المقطعين عمارتها لاغتناء مقطعيها بأمرها بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال المملكة ديواناً واحداً، فإن الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد^٣ ففعل نظام الملك ذلك، وعمرت به البلاد وكثرت الغلات. واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك، من أغوام بضع وثمانين وأربع مائة إلى يومنا هذا.

١ العطاء. المصطلح الأكثر شيوعاً في الصدر الأول للإسلام للتدليل على إعطيات المسلمين اللازمة للإعاشة، وفي فترة لاحقة للتدليل على رواتب الفرق. فلم يكن للمسلمين الأوائل سوى الحصول على نصيبهم في الغنائم الناتجة عن الغزوات، ونظم الفقهاء بعد ذلك طريقة توزيع الفيء. (راجع، الطبري: تاريخ ٣: ٦١٣-٦١٨؛ الماوردي: الأحكام السلطانية ١٨٠-١٨١، Tritton, A.S., «Notes on the Muslim System of Pension», BSOAS XVI (1954), pp. 170-72; Cahen, Cl., *El*² (art. ^cAtâ' I, pp. 751-52).

٢ نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (٤٠٨-٤٨٥ هـ / ١٠١٨-١٠٩٢ م) الوزير الشهير الموسوعات ١٩٠٠، ٥٥.

٣ البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، القاهرة - مطبعة

وكانت الخلفاء تُرزق من بيت المال ، فذكر عطاء بن الشائب في حديث ، أن أبا بكر - رضي الله عنه - لما استخلف ، فرض له كل يوم شطر شاة وما تكسوه في الرأس والبطن . وذكر عن حميد بن هلال ، أنه فرض له بُردان إذا أخلقهما ووضعهما وأخذ مثلهما ، وظهره إذا سافر ، ونفقته على أهله كما كان يُنفق قبل أن يُستخلف .

وذكر ابن الأثير في «تاريخه» أن الذي فرضوا له ستة آلاف درهم في السنة . وفرض لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما استخلف ، ما يصلاحه ويصلح عياله بالمعروف ، وقاله له علي - رضي الله عنه - : ليس لك غيره ، فقال القوم : القول ما قال علي ، يأخذ قوته . وفرض عمر لمعاوية ابن أبي سفيان ، على عمله في الشام ، عشرة آلاف دينار في السنة ، وقيل : بل رزقه ألف دينار ، وهو أشبهه .

ذِكْرُ الْقَطَائِعِ وَالْإِقْطَاعَاتِ

يقال : اقتطع طائفة من الشيء : أخذها . والقطيعه : ما اقتطعه منه ، وأقطعني إياها : أذن لي في اقتطاعها ، واستمطعه إياها / : سأله أن يُقطعه إياها ، وأقطعه نهرا وأرضا : أباح له ذلك . وقد أقطع رسول الله ﷺ ، وتآلف على الإسلام قوما ؛ وأقطع الخلفاء من بعده من رأوا في إقطاعه صلاحا .

روى ابن أبي نجیح ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ أقطع أناسا من مُزينة (أو جُهينة) أرضا فلم يُعمروها ، فجاء قوم فعمروها . فخاصمهم الجهينيون (أو المزينيون) إلى عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - فقال عمر : لو كانت مِنِّي أو من أبي بكر لرددتها ، ولكنها قطيعة من رسول الله ﷺ . ثم قال : مَنْ كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يُعمرها ، فعمرها قوم آخرون فهم أحقُّ بها .

وقال هشام بن عروة عن أبيه : أقطع رسول الله ﷺ الزبير أرضا فيها نخل من أموال بني النضير ، وذكر أنها أرض يُقال لها : الجوف . وذكر أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أقطع العقيق أجمع الناس حتى جازت قطيعة عروة ، فقال ابن الزبير : المستقطعون منذ اليوم ، فإن يك فيه خير فتح قدامي ، قال نخوات بن جبير : أقطعنيه . فأقطعته إياه .

وقال سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة أقطع أبا بكر وأقطع عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما .

وقال أشعث بن سوار ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن صلت المكي ، عن أبي رافع قال : أعطى

النبي ﷺ قَوْمًا أَرْضًا فَعَجَزُوا عَنْ عِمَارَتِهَا فَبَاعُوهَا فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِثَمَانِيَةِ آلَافِ دِينَارٍ ، أَوْ بِثَمَانِيَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَوَضَعُوا أَمْوَالَهُمْ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَلَمَّا أَخَذُوهَا وَجَدُوهَا نَاقِصَةً ، فَقَالُوا : هَذَا نَاقِصٌ ، قَالَ : أَحْسِبُوا زَكَاتَهُ ؛ قَالَ : فَحَسَبُوا زَكَاتَهُ ، فَوَجَدُوهُ وَافِيًا ، فَقَالَ : أَحْسِبْتُمْ أَنْ أُمْسِكَ مَالًا وَلَا أُزَكِّيهِ .

وقد سأل تميم الداري رسول الله ﷺ ، أن يُقِطِعَهُ عَيْثُونَ^(a) البَلَدَ الَّذِي كَانَ مِنْهُ بِالشَّامِ قَبْلَ فَتْحِهِ ، فَفَعَلَ^١ . وسأله أبو ثعلبة الخشني ، أن يُقِطِعَهُ أَرْضًا كَانَتْ بِيَدِ الرُّومِ ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ وَقَالَ : أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ ؟ فَقَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِيُفْتَحَنَّ عَلَيْكَ ، فَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ كِتَابًا^٢ .

وقال ثابت بن سعد ، عن أبيه عن جده : إِنَّ الْأَبْيَضَ بْنَ حَمَّالٍ اسْتَقْطَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، مِلْحَ مَأْرَبٍ ، فَأَقْطَعَهُ ؛ فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي وَرَدْتُ هَذَا الْمِلْحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَهُوَ بِأَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا مِلْحٌ مِنْ وَرَدِهِ أَخَذَهُ ، وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ الْعَدِّ^(b) بِالْأَرْضِ ، فَاسْتَقَالَ الْأَبْيَضَ ، فَقَالَ : قَدْ أَقْلُتُكَ عَلَى أَنْ تَجْعَلَهُ مِنِّي صَدَقَةً . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « هُوَ مِنْكَ صَدَقَةٌ ، وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ الْعَدِّ^(b) مَنْ وَرَدَهُ أَخَذَهُ » .

وقال كثير بن عبد الله بن عوف المزني ، عن أبيه عن جده : أَقْطَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَالَ بْنَ الْحَارِثِ الْمَعَادِنَ الْقَبِيلَةَ خَلِيسَهَا وَغُورِيهَا^٤ .

وقال مالك ، عن ربيعة ، عن قوم من علمائهم : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْطَعَ بِلَالَ بْنَ الْحَارِثِ الْمَزْنِيَّ مَعَادِنَ بِنَاحِيَةِ الْفُرْعِ .

(a) بولاق : عيون . (b) بولاق : العذب .

^١ انظر نص نسخة كتاب النبي ﷺ للدارين الذي وَهَبَهُمْ فِيهِ بَيْتَ عَيْثُونَ وَخَبْرُونَ وَبَيْتَ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَذَلِكَ تَجْدِيدُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ بِذَلِكَ لَهُمْ عِنْدَ ، الْقَلْقَشَنْدِيِّ : صَبْحِ الْأَعَشَى ١١٩:١٢٠-١٢٠ وَأَضَافَ الْقَلْقَشَنْدِيُّ : وَهَذِهِ الرَّهْقَةُ الَّتِي كَتَبَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ [وَهِيَ جِلْدٌ مِنْ أَدَمٍ] مَوْجُودَةٌ بِأَيْدِي التَّمِيمِيِّينَ حُدَّامِ حَرَمِ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى الْآنِ ، وَكُلَّمَا نَازَعَهُمْ أَحَدٌ أَتَوْا بِهَا إِلَى السُّلْطَانِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ لِيَقِفَ عَلَيْهَا وَيَكْفُ عَنْهُمْ مَنْ يَظْلِمُهُمْ . وَقَدْ أَخْبَرَنِي بِرُؤْيَيْهَا غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَالْأَدِيمُ الَّتِي هِيَ فِيهِ قَدْ خُلِقَ لَطُولُ الْأَمَدِ .

^٢ الْقَلْقَشَنْدِيُّ : صَبْحِ الْأَعَشَى ١٠٥:١٣ وَفِيمَا بَلَى ٩٧:١ .

^٣ جَاءَ عَلَى هَامِشِ الْأَصْلِ : الْمَاءُ الْعَدُّ هُوَ الَّذِي لَهُ مَوَادٌ تَمُدُّ كَالْعَيُونِ وَالْآبَارِ ، وَقِيلَ الْمَاءُ الْمَجْتَمِعُ .

^٤ هُنَا عَلَى هَامِشِ الْأَصْلِ : الْخَلِيسِيُّ وَالغُورِيُّ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلُهَا ، وَقِيلَ الْخَلِيسِيُّ بِلَادِ نَجْدٍ وَالغُورِيُّ بِلَادِ تِهَامَةٍ .

وعن ربيعة، عن الحارث بن بلال، عن أبيه بلال بن الحارث، أن النبي ﷺ أقطعته العقيقَ أجمع.

وعن حماد بن سلمة، عن أبي مكين، عن أبي عكرمة مولى بلال بن الحارث، قال: أقطع رسول الله ﷺ بلالاً أرضاً فيها جبل معدن، فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منها، فظهر فيها معدن (أو قال: معدنان)، فقالوا: إنما بعناك أرض حرت ولم نبعك المعادن، وجاءوا بكتاب النبي ﷺ لهم في جريدة. فقبلها عمر وفتح ومسح بها عينيه، وقال لقيمه: انظر ما خرَجَ منها وما أنفقت، فقاصمهم بالنفقة، ورَدَّ عليهم الفضل.

واصطفى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من أرض السواد أموال كسرى وأهل بيته، وما هرب عنه أربابه أو هلكوا، فكان مبلغ غلته تسعة آلاف درهم، كان يصرِفها في مصالح المسلمين ولم يُقطع شيئاً منها.

ثم إن عثمان - رضي الله عنه - أقطعها - لأنه رأى إقطاعها أوفر لغلتها من تعطيلها، وشرط على من أقطعها أن يأخذ منه حق الفيء، فكان مبلغ غلته خمسين ألف ألف درهم، كان منها صلاته وعطاياه؛ ثم تناقلها الخلفاء بعده.

فلما كان عام الحجاجم سنة اثنتين وثمانين، في فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، أُحرق الديوان، وأخذ كل قوم ما يليهم.

وأقطع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ابن سندر مئيتة الأصبغ، فحاز منها لنفسه ألف فدان.

وقال وكيع، عن سفيان، عن جابر الجعفي، عن عامر: لم يُقطع أبو بكر ولا عمر ولا علي - رضي الله عنهم - وأول من أقطع القطائع عثمان - رضي الله عنه - وبيعت الأرضون في خلافة عثمان. قال الليث بن سعد: ولم يتلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحداً من الناس شيئاً من أرض مصر إلا ابن سندر، فإنه أقطعته أرض مئيتة الأصبغ، فلم تزل له حتى مات، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مزوان من ورثته فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل^١.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٣٧ وفيما يلي ٢: ١٣٦.

وقال الأعمش ، عن إبراهيم بن المهاجر ، عن موسى بن طلحة ، قال : أقطع عثمان - رضي الله عنه - عبد الله بن مسعود في ^(a) النهريين ، وعمار بن ياسر إستنيا ^(b) ، وأقطع خبأبا صعبا ^(c) ، وأقطع سعد بن أبي وقاص قرية هزمز ^(١) ، وكان عبد الله بن مسعود وسعد يعطيان أرضهما بالثلث والرابع .

وقال سيف بن عمر ، عن عمرو بن محمد ، عن عامر / قال : أقطع الزبير وخباب وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وابن هبار أزمان عثمان ؛ فإن يكن عثمان أخطأ ، فالذين قبلوا منه الخطأ أخطأ ^(d) ، وهم الذين أخذنا عنهم ديننا . وأقطع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - طلحة وجبرير ابن عبد الله والزبيل بن عمرو ، وأقطع أبا مفرز دار النيل في عدة ممن أخذنا عنه ، وإنما القطائع على وجه النفل من خمس ما أفاء الله .

وكتب عمر - رضي الله عنه - إلى عثمان بن حنيف ، مع جرير بن عبد الله البجلي : «أما بعد ، فأقطع جرير بن عبد الله قدر ما يقوته ، لا وكس ولا شطط» ، فكتب عثمان إلى عمر : «إن جريرا قديم علي بكتاب منك نقطعه ما يقوته ، فكرهت أن أمضي ذلك حتى أراجعك فيه» . فكتب إليه : «[أن قد] ^(e) صدق جرير ، فأنفذ ذلك ، وقد أحسنت في مؤامرتي» .

وأقطع أبا موسى الأشعري ، وأقطع علي بن أبي طالب رجة كردوس بن هاني ^(f) ، وأقطع سويد بن غفلة الجعفي .

قال سيف ، عن ثابت بن هريم ^(g) ، عن سويد بن غفلة ، قال : اشتقعت عليا ، فقال : اكتب «هذا ما أقطع علي سويدا : أرضا لداودويه ^(h) ما بين كذا إلى كذا وما شاء الله» ^(٢) . وذكر أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ما أقطعه معاوية بن أبي سفيان ومن بعده من الخلفاء ، من دور مصر ، فأورد شيئا كثيرا .

(a) ساقطة من بولاق وعند البلاذري : أرضا بالنهرين . (b) الأصل وبولاق : استبتا والتصويب من البلاذري . (c) الأصل وبولاق : خبأبا وصهبيا والتصويب من البلاذري . (d) بولاق : أخطاؤا . (e) إضافة من الطبري . (f) بعد ذلك عند الطبري : الكردوسية . (g) المخطوطات : هرثمة والتصويب من الطبري . (h) المخطوطات : لدوابه والمثبت من الطبري .

^١ البلاذري : فتوح البلدان ٣٣٥ حيث أورد الخبر بنفس الإسناد .
^٢ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣ : ٥٨٩ ، فالطبري هو الذي يروي عن سيف بن عمر .

وقد كانت خلائف^(a) بني أمية، وخلفاء بني العباس، يُقْطِعُونَ الأَرْضِي من أرض مصر، النَّقَرَ من خَوَاصِّهِمْ، لا كما هو الحال اليوم، بل يكون مالُ خَراجِ أرضِ مصر، يُضْرَفُ مِنْهُ أُعْطِيَةُ الْجُنْدِ وَسَائِرُ الْكُلْفِ، وَيُحْمَلُ مَا يَفْضُلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ. وَمَا أُقْطِعَ مِنَ الْأَرْضِي فَإِنَّهُ بِيَدِ مَنْ أُقْطِعَهُ^١.
وَأَمَّا مِنْذُ كَانَتْ أَيَّامُ السُّلْطَانِ صَلاَحِ الدِّينِ يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، فَإِنَّ أَرْضِي مِصْرَ كَلَّهَا صَارَتْ تُقْطَعُ لِلْسُّلْطَانِ وَأَمْرَائِهِ وَأَجْنَادِهِ^٢.

وَأَرْضُ مِصْرَ الْيَوْمِ عَلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ يَجْرِي فِي دِيْوَانِ السُّلْطَانِ، وَهَذَا الْقِسْمُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: مِنْهُ مَا يَجْرِي فِي دِيْوَانِ^(b) الْوِزَارَةِ وَمِنْهُ مَا يَجْرِي فِي دِيْوَانِ^(b) الْخِصِّصِ، وَمِنْهُ مَا يَجْرِي فِي الدِّيْوَانِ الْمَفْرَدِ.
وَقِسْمٌ مِنَ الْأَرْضِي مِصْرَ قَدْ أُقْطِعَ لِلْأَمْرَاءِ وَالْأَجْنَادِ، وَقَدْ ذُكِرَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ الرَّوْكَ النَّاصِرِيِّ^٣.

وَقِسْمٌ ثَالِثٌ جُعِلَ وَقْفًا مُخَبَّسًا عَلَى الْجَوَامِعِ وَالْمَدَارِسِ وَالْخَوَانِكِ، وَعَلَى جِهَاتِ الْبِرِّ، وَعَلَى ذَرَارِي وَإِقْفِي تِلْكَ الْأَرْضِي وَغُتْقَائِهِمْ.

وَقِسْمٌ رَابِعٌ يُقَالُ لَهُ الْأَخْبَاسُ، وَيَجْرِي فِيهِ أَرْضٌ بِأَيْدِي قَوْمٍ يَأْكُلُونَهَا، إِمَّا عَنْ قِيَامِهِمْ بِمِصَالِحِ مَسْجِدٍ أَوْ جَامِعٍ، وَإِمَّا يَكُونُ لَهُمْ لَا فِي مُقَابَلَةِ عَمَلٍ.

وَقِسْمٌ خَامِسٌ قَدْ صَارَ مِلْكًا يُبَاعُ وَيُشْتَرَى وَيُورَثُ وَيُوهَبُ، لِكَوْنِهِ اشْتَرِيٍّ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ.
وَقِسْمٌ سَادِسٌ لَا يُزْرَعُ لِلْعَجْزِ عَنْ زِرَاعَتِهِ، فَتَرَعَاهُ الْمَوَاشِي أَوْ يُثَبِتُ الْحَطَبُ وَنَحْوَهُ.
وَقِسْمٌ سَابِعٌ لَا يَشْمَلُهُ مَاءُ النَّيْلِ فَهُوَ قَفْرٌ: وَهَذَا الْقِسْمُ مِنْهُ مَا لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ مِنْذُ عُرِفَتْ أَحْوَالُ الْخَلِيقَةِ، وَمِنْذُ^(c) مَا كَانَ عَامِرًا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ثُمَّ خَرِبَ.

(a) بولاق: كان خلفاء. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: منه.

^١ حول الإقطاع المبكر انظر، عبد العزيز الدوري: «نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية»، مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٠ (١٩٧٠)، ٣-٤٢، وعن تطور نظام الإقطاع بعد دخول البويهيين إلى السلطة انظر مقال كاهن، Cahen, Cl., «L'évolution de l'iqta' de IX^e au XIII^e siècle. Contribution à une histoire comparée des

^٢ انظر كذلك فيما تقدم ٢٣٠ Rabie, H., *The Financial System of Egypt*, pp. 26-68.

^٣ انظر فيما تقدم ٢٣٦-٢٣٩.

وسائر هذه الأقسام مذكورة أخبارها في هذا الكتاب ، تجدها إن أنت تأملت إن شاء الله تعالى .
 وقال أبو عبيد القاسم بن سلام^١ في كتاب «الأموال» ، في الكلام على حديث معمر عن
 عبد الله بن طاووس عن أبيه طاووس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «عادي الأرض لله ولرسوله ،
 ثم هي لكم» . فإن^٢ قلت : ما يعني ذلك ؟ قال : «يكون إقطاعاً» ، هذا الخبر أصل في الإقطاع .
 والعادي : كل أرض كان لها سكان فأنقرضوا ، أي فصارت خراباً ، فإن حُكمتها إلى الإمام .
 قال : وأما الأرض التي جعلها النبي ﷺ لبعض الناس - وهي عامرة لها أهل - فأعطاه الإمام
 يكون على وجه النفل .

ومن ذلك ما أعطاه رسول الله ﷺ تميم الداري ، فإنه أعطاه أرضاً بالشام من قبل أن تفتح
 الشام وقبل أن يملكها المسلمون ، فجعلها له نفلاً من أموال أهل الحزب إذا ظهر عليهم ، كما فعل
 يابنة بقبيلة^٣ لما وهبها الشيباني قبل افتتاح الخيرة ، فأرضها له خالد بن الوليد رضي الله عنه .
 وكذلك أمضى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لتميم الداري ، لما افتتحت فلسطين ، ما
 كان النبي ﷺ نقله^٤ ، انتهى .

وقد خرج أبو عبيد^٥ هذه العطيّة المعلقة مخرج النفل الذي ينقله الإمام بعض المقاتلة .
 وقال أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب^٦ الماوردي في «الأحكام السلطانية» : والإقطاع
 ضربان : إقطاع اشتغال ، وإقطاع تمليك . والثاني ينقسم إلى موات وعامر ، والثاني ضربان :

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : نائبة نفيلة . (c) بولاق : أبو عبد الله . (d) محمد بن حبيب
 ساقطة من الأصل .

^١ أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله ، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقہ . ولد بهراة وتعلم بها ، ورحل إلى بغداد وإلى مصر وحج فتوفي بمكة سنة ٢٢٤هـ / ٨٣٨م . ألف العديد من الكتب في غريب الحديث واللغة والنحو والقراءات . وكتاب «الأموال» الذي ينقل عنه المقرئ أحد الأصول في موضوعه . (ابن النديم : الفهرست ٧٨ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٢ : ٤٠٣ - ٤١٦ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٦ : ٢٥٤ - ٢٦١ ؛ القفطي : إنباه الرواة ٣ : ١٢ - ٢٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤ : ٦٠ - ٦٣ ؛ الذهبي :

سير أعلام النبلاء ٣ : ٤٩٠ - ٥٠٩ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٤ : ١٢٣ - ١٢٥ ؛ El^٢ ، Gottschalk, H.L., art. *Abû Ubayd al-Qâsim b. Sallâm I*, pp. 161-62 ؛ ومقدمة رمضان عيد التواب لكتاب «الغريب المصنف» لأبي عبيد ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٩ ، ٩ - ٦٤) .
^٢ ابن سلام : كتاب الأموال ، صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي ، القاهرة ١٣٣٥هـ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ وقارن مع القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ١٠٤ .

أَحَدُهُمَا مَا يَتَّعِينَ مَالِكُهُ وَلَا نَظَرَ لِلسُّلْطَانِ فِيهِ ، إِلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِتِلْكَ الْأَرْضِ فِي حَقِّ لَبَيْتِ الْمَالِ إِذَا كَانَتْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ . فَإِنْ كَانَتْ فِي دَارِ الْحَرْبِ ، حَيْثُ لَمْ يَثْبُتْ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا يَدٌ ، فَأَرَادَ الْإِمَامُ أَنْ يُقْطِعَهَا لِيَمْلِكَهَا الْمُقْطَعُ عِنْدَ الظُّفْرِ بِهَا ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ . فَقَدْ سَأَلَ تَمِيمَ الدَّارِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقْطِعَهُ عَيْثُونَ^(a) الْبَلَدَ الَّذِي كَانَ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُفْتَحَ الشَّامُ ، فَفَعَلَ . وَسَأَلَهُ أَبُو ثَعْلَبَةَ الْحُسَيْنِيُّ أَنْ يُقْطِعَهُ أَرْضًا كَانَتْ بِيَدِ الرُّومِ ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ ، وَقَالَ : «أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ هَذَا؟»^١ . فَقَالَ :

وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِيُفْتَحَنَّ عَلَيْكَ وَكَتَبَ لَكَ بِذَلِكَ كِتَابًا .

قَالَ الْمَاورِدِيُّ : وَهَكَذَا لَوْ اسْتَوْهَبَ أَحَدٌ مِنَ الْإِمَامِ مَالًا فِي دَارِ الْحَرْبِ وَهُوَ عَلَى مَلِكِ أَهْلِهَا ، أَوْ اسْتَوْهَبَهُ شَيْئًا مِنْ سَبَبِهَا أَوْ ذَرَارِيهَا لِيَكُونَ أَحَقُّ بِهِ إِذَا فُتِحَتْ ، جَازَ وَصَحَّتِ الْعَطِيَّةُ مِنْهُ - مَعَ الْجَهَالَةِ بِهَا - لِتَعَلُّقِهَا بِالْأُمُورِ الْعَامَّةِ .

١٠ وَقَدْ رَوَى الشُّعْبِيُّ أَنَّ خُرَيْمَ^(b) بْنَ أَوْسِ الطَّائِيِّ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْحَيْرَةَ فَأَعْطِنِي بِنْتِ نُفَيْلَةَ . فَلَمَّا أَرَادَ خَالِدُ صَلْحُ أَهْلَ الْحَيْرَةَ ، قَالَ لَهُ خُرَيْمٌ^(b) : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَانِي بِنْتِ نُفَيْلَةَ ، فَلَا تُدْخِلْهَا فِي صَلْحِكَ ، فَشَهِدَ لَهُ يَشْرُ بْنُ سَعْدٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ، فَاسْتَشْنَاهَا مِنَ الصُّلْحِ وَدَفَعَهَا إِلَى خُرَيْمٍ^(b) ؛ فَاشْتَرَيْتَ بِأَلْفِ دَرَاهِمٍ - وَكَانَتْ عَجَزَتْ وَحَالَتَ عَمَّا عُهِدَ مِنْهَا - فَقِيلَ لَهُ : قَدْ أَرْتَحِصْتَهَا ، وَكَانَ أَهْلُهَا يَدْفَعُونَ لَكَ أَضْعَافَ مَا سَأَلْتَ بِهَا . فَقَالَ : مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ عَدَدًا يَكُونُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ^٢ .

١٥ قَالَ الْمَاورِدِيُّ : وَإِذَا صَحَّ الْإِقْطَاعُ وَالتَّمْلِيكُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، نُظِرَ حَالُ الْفَتْحِ : فَإِنْ كَانَ صَلْحًا ، خُلِصَتْ الْأَرْضُ لِمُقْطِعِهَا ، وَكَانَتْ خَارِجَةً عَنْ مُحْكَمِ الصُّلْحِ بِالْإِقْطَاعِ السَّابِقِ . وَإِنْ كَانَ الْفَتْحُ عَنَوَةً ، كَانَ الْمُقْطَعُ وَالْمُسْتَوْهَبُ أَحَقَّ بِمَا اسْتَقْطَعَهُ وَاسْتَوْهَبَهُ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَنُظِرَ فِي الْغَنَائِمِ : فَإِنْ كَانُوا عَلِمُوا بِالْإِقْطَاعِ أَوْ الْهَيْبَةَ قَبْلَ الْفَتْحِ ، فَلَيْسَ لَهُمُ الْمُطَالَبَةُ بِعَوَضٍ [مَا اسْتَقْطَعُوا وَوَهَبُوا]^(c) . وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا حَتَّى فَتَحُوا ، عَاوَضَهُمُ الْإِمَامُ بِمَا يَسْتَطِيبُ بِهِ نَفْسَهُمْ كَمَا يَسْتَطِيبُ نَفْسَهُمْ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْغَنَائِمِ .

(a) بولاق : يعطيه عيون . (b) بولاق : خزيمه . (c) إضافة من الماوردي .

^١ فيما تقدم ١٢٥٨ والمقريري : ضوء الساري في خبر أخرجها الإمام أحمد والترمذي .
تميم الداري ٦٣ - ٦٤ ؛ وجاء بهامش الأصل : قصة أبي ثعلبة
^٢ الماوردي : الأحكام السلطانية ١٦٩ - ١٧٠ .

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : لا يلزم الإمام اشتطابة نفوسهم منه ولا من غيره من الغنائم ،
إذا رأى المصلحة في ذلك ^١ .

ذكر ديوان الخراج والأموال

يُقَالُ لِكِتَابَةِ الْخَرَاجِ : قَلَمُ التُّصْرِيفِ ، وَأَوَّلُ مَا دُوِّنَ هَذَا الدِّيَّانُ فِي الْإِسْلَامِ بِدِمَشْقَ وَالْعِرَاقِ
عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ .

وَكَانَ دِيَّانُ الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ ، وَدِيَّانُ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ ، وَدِيَّانُ مِصْرَ بِالْقِبْطِيَّةِ ، فَنُقِلَتْ دَوَاوِينُ
هَذِهِ الْأَمْصَارِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ .

وَالَّذِي نَقَلَ دِيَّانَ مِصْرَ مِنَ الْقِبْطِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَمِيرَ مِصْرَ ، فِي
خِلَافَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ ، وَنَسَخَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَصَرَفَ أَثْنَيْنِ عَشَرَ
وَجَعَلَ عَلَيْهِ ^(أ) مَوْلَى لِبْنِي سَعْدِ ثَم لِبْنِي الذِّيَالِ - بَطْنُ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ حَزْمُوزِ ^(ب) - بَنُ يُزْبُوعَ الْفَزَارِيِّ
مِنْ أَهْلِ حِمصَ ^٢ .

وَأَوَّلُ مَنْ نَقَلَ الدَّوَاوِينَ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ الْوَلِيدُ بْنُ هِشَامِ بْنِ قُحُومِ ^(ب) بَنُ سُلَيْمَانَ بْنِ
ذُكْوَانَ ، وَتُوفِيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ .

وَالأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الَّذِي نَقَلَ دِيَّانَ الْعِرَاقِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَاتِبَ
الْحَجَّاجِ ، وَكَانَ مَوْلَى لِبْنِي سَعْدِ ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ صَاحِبُ دَوَاوِينِ الْعِرَاقِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ سَنَةِ ثَمَانِينَ .

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ هَذَا كَانَ أَبُوهُ مِنْ سَبْيِ سِجِسْتَانَ ، وَمَهْرَ صَالِحِ فِي
الْكِتَابَةِ ، وَكَتَبَ لِزَادَانَ فَرُوحَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ الثَّقَفِيِّ ، وَخَطَّ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْفَارِسِيَّةِ

وَالْعَرَبِيَّةِ ؛ فَخَفَّ عَلَى قَلْبِ الْحَجَّاجِ ، فَخَافَ مِنْ زَادَانَ وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي رَقَيْتَنِي حَتَّى
وَصَلْتَنِي إِلَى الْأَمِيرِ ، وَأَرَاهُ قَدْ اسْتَحَفَّنِي وَلَا أَمِنُ أَنْ يُقَدِّمَنِي عَلَيْكَ فَتَسْقُطَ مَنْرِلُتُكَ ؛ فَقَالَ

زَادَانَ : لَا تَنْظَنَّ ذَلِكَ ، هُوَ أَحْوَجُ إِلَيَّ مِنِّْي إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَجِدُ مِنْ يَكْفِيهِ حِسَابَهُ غَيْرِي . فَقَالَ
صَالِحُ : وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُحْوَلَ الْحِسَابَ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ لِحَوْلَتِهِ ، قَالَ : فَحَوَّلَ مِنْهُ أَسْطُرًا حَتَّى

^١ (a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : مخزوم .

^١ الماوردي : الأحكام السلطانية ١٧٠ . الكندي : ولاة مصر ٨٠ (مصدر هذا الخبر) ؛ وانظر كذلك

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٢٢ س ٧-٨ ؛ النويري : نهاية الأرب ٨ : ١٩٨-٢٠٠ .

أَرَى ، فَفَعَلَ . فَقَالَ لَهُ : تَمَارِضُ فِتْمَارِضَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجَ بِطَبِيبِهِ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى زَادَانَ ، وَأَمَرَهُ أَلَّا يُظْهَرَ لِلْحَجَّاجِ ١ .

فَاتَّفَقَ عَقِيبٌ ذَلِكَ أَنَّ زَادَانَ قُتِلَ فِي فِتْنَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ ، وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ مَوْضِعٍ كَانَ فِيهِ إِلَى مَنْزَلِهِ ، فَاسْتَكْتَبَ الْحَجَّاجُ بَعْدَهُ صَالِحًا ، فَأَعْلَمَ الْحَجَّاجُ بِمَا جَرَى لَهُ مَعَ زَادَانَ فِي نَقْلِ الدِّيَّانِ ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ وَعَزَمَ عَلَيْهِ فِي إِمضَائِهِ ، فَنَقَلَهُ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ . وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْفُرْسِ ، وَبَدَّلُوا لَهُ مِائَةَ أَلْفِ دَرَاهِمٍ عَلَى أَلَّا يُظْهَرَ النُّقْلُ ، فَأَتَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ شَاهُ بْنُ زَادَانَ فَرُوخٌ : قَطَعَ اللَّهُ أَصْلَكَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا قَطَعْتَ أَصْلَ الْفَارِسِيَّةِ .

وَكَانَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ : اللَّهُ دَرُّ صَالِحٍ ، مَا أَعْظَمَ مِثْتَهُ عَلَى الْكُتَّابِ .

وَأَمَّا دِيْوَانُ الشَّامِ فَإِنَّ الَّذِي نَقَلَهُ مِنَ الرُّومِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ أَبُو ثَابِتِ سُلَيْمَانَ بْنِ سَعْدِ كَاتِبِ الرِّسَائِلِ ؛ وَاخْتَلَفَ فِي وَقْتِ نَقْلِهِ ، فَقِيلَ : نُقِلَ فِي خِلَافَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَقِيلَ : فِي خِلَافَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ٢ .

وَكَانَ الَّذِي يَكْتُبُ عَلَى دِيْوَانِ الشَّامِ سِرْجُونَ بْنُ مَنْصُورِ النَّصْرَانِيِّ فِي أَيَّامِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، ثُمَّ كَتَبَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَنْصُورُ بْنُ سِرْجُونَ .

ذِكْرُ خَرَجِ مِصْرَ فِي الْإِسْلَامِ

١٥ أَوَّلُ مَنْ جَبَى خَرَجَ مِصْرَ ٣ فِي الْإِسْلَامِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَكَانَتْ جِبَايَتُهُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ ، بِفَرِيضَةِ دِينَارَيْنِ دِينَارَيْنِ مِنْ كُلِّ رَجُلٍ . ثُمَّ جَبَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ مِصْرَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ ؛ فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، دَرَّتِ اللَّفْحَةُ بِأَكْثَرِ مِنْ دَرِّهَا الْأَوَّلِ ؛ فَقَالَ : أَضْرَرْتُمْ بِوَلَدِهَا .

عدد كبير من سكان البلاد الأصليين إلى الإسلام إلى تقليل موارد بيت المال ، رثي أن لا تتأثر ضريبة الأرض بتغيير اعتقاد مالكيها ، أي أن دخول الإسلام كان يعني من الجزية ولكنه لا يعني من الخراج . وبذلك أصبح الخراج من وجهة نظر الفقه الإسلامي إيجازًا دائمًا للأرض لمصلحة الأمة المالك الأعلى لها بوصفها فينًا ، بينما كان من وجهة نظر السكان المحليين مجرد استمرار لضريبة الأرض الزراعية التي كان معمولًا =

١ الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ٣٨ .

٢ البلاذري : فتوح البلدان ٢٣٠ ؛ الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ٤٠ ؛ وانظر عن تعريف الدواوين مقال عبد العزيز الدوري . Dûrî, A.A., *El* art. *Dîwân* II, p. 333 .

٣ الخراج هو ضريبة الأرض الزراعية ، وكانت تُفرض أصلًا على كل أراضي سكان البلاد الأصليين غير المسلمين المفتوحة صلحًا . وعندما خشي مع الوقت أن يؤدي تحول

وهذا الذي جباه عمرو ثم عبد الله ، إنما هو من الجماجم خاصةً دون الخراج .
وانحطَّ خراج مصر بعدهما ، لثُمُو الفساد مع الزَّمان وسرَّيان الخراب في أكثر الأرض ووقوع
الحروب ، فلم يَجِبها بنو أميَّة وخُلَفَاء بني العبَّاس إلَّا دون الثلاثة آلاف ألف ، ما خلا أيام هشام بن
عبد الملك ، فإنَّه وصَّى عبد الله بن الحُبَّاب عامل مصر بالعمارة . / فيقال : إنَّه لم يَظْهَر من خراج
مصر ، بعد تناقصه ، كثرة إلَّا في وقتين :

أحدُهُما في خلافة هشام بن عبد الملك ، عندما ولى الخراج عبَّيد الله بن الحُبَّاب ، فخرَّج
بنفسه ومسَّح العاير من أراضي مصر والغاير ممَّا يركبه ماء النَّيل ، فوجدَ قانون ذلك ثلاثين ألف
ألف فدَّان سوى ارتفاع الجُزف ووسَّخ الأرض ، فراكها^١ كلَّها وعدَّلها غاية التعديل ، فعقدت معه
أربعة آلاف ألف دينار ، هذا والسُّعر راخ والبتلُّ بغير مكس ولا ضريبة .

وفي سنة سبع ومائة لأوَّل أيام هشام بن عبد الملك ، وصَّف ابن الحُبَّاب بمصر طبَّقات معلومة
مَنسوبة في الدَّواوين ، ولم تزل إلى ما بعد ذهاب بني أميَّة ، ومبلغها ألف ألف دينار وسبع مائة
ألف دينار وثمان مائة وسبعة وثلاثون دينارًا ، منها على كُور الصَّعيد ألف ألف وأربع مائة دينار
وعشرون دينارًا ونصف ، والباقي على كُور أسفل الأرض . ويُقال : إنَّ أسامة بن زَيْد جباها في
خِلافة سُلَيْمان بن عبد الملك مَبْلَغ اثني عشر ألف ألف دينار .

والوقتُ الثاني في إمارة أحمد بن طولون ، لما تسلَّم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مُدْبِر ،
وقد خَرَّب^a أرض مصر حتى بقي خراجها ثمان مائة ألف ألف دينار ، فاشتقَّص أحمد بن

(a) بولاق : خربت .

Fiscal Administration of Egypt in the Early Islamic Period, Kyoto 1981 (Asian Historical Monograph I); Frantz-Murphy, *The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans*, Suppl, An. Isl. Cahier n°10, le Caire-IFAO 1986. وعن المقارنة بين نظام الضرائب في مصر قبل الإسلام وبعده انظر مقال جاسكو Gascou, J., «De Byzance à l'Islam, les impôts en Égypte après la conquête arabe», *JESHO* 26 (1983), pp. 97-109

^١ انظر عن عملية الروك فيما تقدم ٢٣٥ - ٢٣٩ .

= بها قبل الإسلام . وعلى خلاف السائد في بقية العالم الإسلامي لم توجد في مصر أراضي عُشرية بل كانت كلها أرضًا خراجية (راجع ، الماوردي : الأحكام السلطانية ١٢٧ ، ١٣١-١٣٢ ، ١٣٧ ؛ الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ٣٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ٨ : ٢٤٦-٢٤٧ ؛ محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية ، القاهرة Lambtom, A.K.S., *El* art. *Kharâdj* IV, ١٩٥٩ pp. 1062-85; Cooper, R.S., «The Assessment and Collection of Kharâj Tax in Medieval Egypt», *JAOS* 96 (1974), pp. 365-82; Morimoto, K., *The*

طُولُونَ فِي الْعِمَارَةِ وَبَالَغَ فِيهَا ، فَعَقَدَتْ مَعَهُ أَرْبَعَةَ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ وَثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ . وَجَبَّاهَا ابْنُ الْأَمِيرِ أَبُو الْجَيْشِ خُمَارَوَيْهَ بْنِ أَحْمَدَ أَرْبَعَةَ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ مَعَ رِخَاءِ الْأَسْعَارِ أَيَّامَئِذٍ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا أُبِيعَ فِي الْأَيَّامِ الطُّولُونِيَةِ الْقَمَمُخُ : كُلُّ عَشْرَةِ أَرَادِبٍ بِدِينَارٍ .

وَذَكَرَ ابْنُ خُرْدَاذْبَةَ أَنَّ خَرَجَ مِصْرَ فِي أَيَّامِ فِرْعَوْنَ ، كَانَ سِتَّةً وَتِسْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَأَنَّ ابْنَ الْحَبَّابِ جَبَّاهَا [فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ] ^(a) أَلْفِي أَلْفٍ وَسَبْعَ مِائَةِ أَلْفٍ وَثَلَاثَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفًا وَثَمَانِ مِائَةَ وَتِسْعَةَ وَثَلَاثِينَ دِينَارًا ^١ .

وَهَذَا وَهَمٌّ مِنْهُ ، فَإِنَّ هَذَا الْقَدْرَ هُوَ مَا حَمَلَهُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ بِدِمَشْقَ بَعْدَ أُعْطِيَةِ أَهْلِ مِصْرَ وَكُلَّفَهَا .

قَالَ : وَحَمَلَ مِنْهَا مُوسَى بْنُ عَيْسَى الْهَاشِمِيُّ [فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ] ^(a) أَلْفِي أَلْفٍ وَمِائَةَ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارًا ^٢ ، يَعْنِي بَعْدَ الْعَطَاءِ وَالْمُؤْنِ وَسَائِرِ الْكُلْفِ .

قَالَ : وَكَانَ خَرَجُ مِصْرَ ، إِذَا بَلَغَ الثَّيْلُ سَبْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَعِشْرَ أَصَابِعَ ، أَرْبَعَةَ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ وَسَبْعَةَ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَالْمَقْبُوضُ عَنِ الْفَدَّانِ دِينَارِينَ فِي خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ وَغَيْرِهِ .

وَبَلَغَ خَرَجُ مِصْرَ ، فِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ طُغْجِ الْإِخْشِيدِ ، أَلْفِي أَلْفِ دِينَارٍ سِوَى ضِيَاعِهِ الَّتِي كَانَتْ مِلْكًا لَهُ . وَالْإِخْشِيدُ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الرُّوَاتِبَ بِمِصْرَ .

وَكَانَ كَاتِبُهُ ابْنُ كَلَا قَدْ عَمِلَ تَقْدِيرًا عَجَزَ فِيهِ الْمُرْتَبُ عَنِ الِازْتِفَاعِ مِائَتِي أَلْفِ دِينَارٍ ، فَقَالَ لَهُ الْإِخْشِيدُ : كَيْفَ نَعْمَلُ ؟ قَالَ : حُطَّ مِنَ الْجِرَايَاتِ وَالْأَرْزَاقِ ، فَلَيْسَ هُوَلاءِ أَوْلَى مِنَ الْوَاجِبِ ؛ فَقَالَ : غَدًا تَجِيئُنِي وَتَدْبُرُ هَذَا . فَلَمَّا أَتَاهُ مِنَ الْغَدِ ، قَالَ لَهُ الْإِخْشِيدُ : قَدْ فَكَّرْتُ فِيمَا قُلْتَ ، فَإِذَا أَصْحَابُ الرُّوَاتِبِ ضَعَفَاءُ وَفِيهِمُ الْمَسْتُورُونَ وَأَبْنَاءُ النَّعَمِ ، وَلَسْتُ آخُذُ هَذَا النَّقْصَ إِلَّا مِنْكَ ؛ فَقَالَ ابْنُ كَلَا : سُبْحَانَ اللَّهِ ! فَقَالَ : تَسْبِيحًا ! وَمَا زَالَ بِهِ الْإِخْشِيدُ حَتَّى أَخَذَ نَخْطَةَ بِالْقِيَامِ بِذَلِكَ .

فَعُوَّتِبَ عَلَى مَا صَنَعَهُ ، فَقَالَ : يَا قَوْمَ اسْمَعُوا إِيشَ كَانَ يَعْمَلُ جَاهُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ الْمَادْرَائِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : مَا بَيْنِي وَبَيْنَ السُّلْطَانِ مُعَامَلَةٌ ، وَلَا لِلْإِخْشِيدِ عَلَيَّ طَرِيقٌ ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ عَشْرَةَ

(a) زيادة من ابن خرداذبة .

آلاف دينار للإخشيد، وألف دينار لك. فجاءني وقال: لك قتل ابن الماذرائي مطالبة؟ فقلت: لا، فقال: هذه ألف دينار قد جاءتك على وجه الماء، فأعطاني ألفاً وأخذ عشرة آلاف دينار.

وأهدى إلي محمد بن علي الماذرائي في وقت عشرين ألف دينار على يده، فاشتقلتها. فلما اجتمعنا عاتبته، فقال لي: أرسلت إليك مائة ألف دينار، ولابن كلاك كاتبك عشرين ألف دينار، فأخذ المائة وأعطاني العشرين ألفاً. فدكرت قول محمد بن علي له، فقال: ما أبرد هذا! حفظت لك المائة ألف لوقت حاجتك، تريد ما؟ خذها وأنا أعلم أنك تئلفها! وبلغت الرواتب في أيام كافور الإخشيدي خمس مائة ألف دينار في السنة لأرباب النعم والمستورين وأجناس الناس، ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين في الأعمال، فحسن له علي بن صالح الرودباري الكاتب أن يوفر من مال الرواتب شيئاً ينتقصه من أرزاق الناس. فساعة جلس يعمل ذلك، حكه جبينه فحكه بقلمه، والحكاك يزيد به، إلى أن قطع العمل وقام لما به، فعولج حيثل بالحديد حتى مات في رمضان سنة تسع^٥ وأربعين وثلاث مائة.

وهذه موعظة من الله لمن توسط للناس بالشوء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [الآية ٤٣ سورة فاطر].

ولما مات كافور، نزلت محن شديدة كثيرة بمصر من الغلاء والفناء والفتن، فأتضع خراجها إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر مؤلاه المعز لدين الله أبي تميم معاً، فجبى الخراج لسنة ثمان وخمسين وثلاث مائة: ثلاثة آلاف ألف دينار^٦ ومائتي ألف دينار جباها في سنة تسع وخمسين وثلاث مائة ثلاثة آلاف ألف^٦ وأربع مائة ألف دينار ونيفاً.

وأمر الوزير الناصر للدين أبو [محمد]^٥ الحسن [بن علي بن]^٥ عبد الرحمن اليازوري، وزير مصر في خلافة المستنصر بالله بن الظاهر، أن يعمل قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات، فعمل أرباب كل ديوان ارتفاعه وما عليه، وسلم الجميع لمتولي ديوان المجلس وهو زمام الدواوين، فنظم عليه عملاً جامعاً وأتاه به، فوجد ارتفاع الدولة ألفي ألف دينار: منها الشام ألف ألف دينار، ونفقاته بإزاء ارتفاعه والريف وباقي الدولة ألف ألف دينار^١.

(a) بولاق: سبع. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) زيادة اقتضاها السياق.

وقال القاضي أبو الحسن^١ في كتاب «المنهاج في علم الخراج»: وَقَفْتُ عَلَى مُقَابِلَةِ عُمَلْتِ لَأَمِيرِ الْجُيُوشِ بَدْرِ الْجَمَالِيِّ، حِينَ قَدِمَ مِصْرَ فِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ الْمُشْتَنَصِرِ وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهَا وَقَهَرَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْمُفْسِدِينَ، شَرَحَ فِيهَا أَنَّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الِازْتِفَاعُ فِي الْهِلَالِيِّ لِسَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ، وَفِي الْخَرَاجِيِّ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الدِّيَّوَانُ فِيهِ - مِمَّا كَانَ جَارِيًا فِي الْأَعْمَالِ الْمِصْرِيَّةِ مِنَ الْخَرَاجِ وَمَا يَجْرِي مَعَهُ، وَالْمُضْمُونِ وَالْمُقْتَطَعِ وَالْمُؤَزَّدِ بغيره، وَالْمَحْلُولِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَضَوَاحِيهِمَا وَنَاجِيَّتِي الشَّرْقِيَّةِ وَالغَرْبِيَّةِ، مِنْ أَسْفَلِ الْأَرْضِ وَأَعْمَالِهَا وَتَيْسِ وَدِمِيَاطِ وَأَعْمَالِهَا وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَالْبَحِيرَةِ وَالْأَعْمَالِ الصُّعَيْدِيَّةِ الْعَالِيَةِ وَالذَّانِيَّةِ وَوَاخَاتِ وَعَيْثِدَابِ، لِسَنَةِ ثَمَانِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ الْخَرَاجِيَّةِ عَلَى الرُّسُومِ الْمِصْرِيَّةِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّامِيَّةِ الَّتِي أَوْلَاهَا مِنْ حَدِّ الشُّجَرَتَيْنِ وَهُوَ أَوَّلُ الْأَعْمَالِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الطَّرَائِئُسِيَّةِ، وَلِسَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ الْخَرَاجِيَّةِ - عَلَى مَا اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ الْجَمَلَةُ: عَيْنًا ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَأَلْفٍ وَمِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ؛ وَأَنَّ الَّذِي اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ جَمَلَةُ مَا كَانَ يُسْتَأَدَى فِي سَنَةِ سِتِّ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ الْهِلَالِيَّةِ، قَبْلَ نَظَرِ أَمِيرِ الْجُيُوشِ، الْمُوَافَقَةَ لِسَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ الْخَرَاجِيَّةِ، فَكَانَ مَبْلَغُهَا أَلْفِي أَلْفٍ وَثَمَانٍ مِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ، وَكَانَ الزَّائِدُ لِلِسَنَةِ الْجُيُوشِيَّةِ عَمَّا قَبْلَهَا ثَلَاثَ مِائَةٍ أَلْفٍ دِينَارٍ، مِمَّا أَعْرَبَ عَنْهُ مُحَسِّنُ الْعِمَارَةِ وَشُمُولُ الْعَدْلِ وَكَانَ نَظْمُ هَذِهِ الْمُقَابِلَةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ^(a) سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعٍ مِائَةٍ^٢.

وَذَكَرَ ابْنُ مَيْسَرٍ أَنَّ الْأَفْضَلَ بْنَ أَمِيرِ الْجُيُوشِ أَمَرَ بِعَمَلِ تَقْدِيرِ اِزْتِفَاعِ دِيَارِ مِصْرَ، فَجَاءَ خَمْسَةَ آلَافٍ أَلْفٍ دِينَارٍ^٣، ثُمَّ تَقَاصَرَتْ إِلَى أَنْ جَبَاهَا الْقَاضِي الْمَوْفَّقُ أَبُو الْكَرِّمِ [مُحَمَّد] ^(b) بِنِ مَعْصُومِ الْعَاصِمِيِّ التَّنِيسِيِّ^٤: عَيْنًا خَالِصًا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ، بَعْدَ الْمُؤْنِ وَالْكَلْفِ، أَلْفَ أَلْفٍ دِينَارٍ وَمِائَتِي أَلْفٍ

(a) ساقطة من بولاق . (b) زيادة اقتضاها السياق .

^١ القاضي السعيد ثقة الثقات ذو الرياستين أبو الحسن علي بن القاضي المؤتمن ثقة الدولة أبو عمرو عثمان بن يوسف القرشي الشافعي المصري (٥١٢-٥٨٥هـ / ١١١٨-١١٨٩م) صاحب النظر في ديوان مصر وصاحب كتاب «المنهاج في علم الخراج» أو «المنهاج في أحكام خراج مصر»، وصفه المقرئ بن بأنه كتاب جليل الفائدة، وموضوعه وصف النظام المالي في مصر في آخر أيام الفاطميين وبداية الدولة الأيوبية وعلى الأخص المكوس التي كانت تحصل في الموانئ والخراج . (انظر دراسة المصادر في المقدمة).

^٢ الخزومي: المنهاج في أحكام الخراج - خ ٥٦ و .

^٣ ابن ميسر: أخبار مصر ٨٤؛ المقرئ بن: اتعاظ الخنفا ٧٢:٣ وفيما تقدم ٢٢٢ .

^٤ القاضي الموفق أبو الكرم محمد بن معصوم التنيسي ناظر الدواوين في نهاية الدولة الفاطمية، تولاه في سنة ٥٤٠هـ، وتوفي مقتولاً في شوال سنة ٥٤٤هـ (ابن ميسر: =

دينار إلى آخر سنة أربعين وخمسة مائة . ثم بعده لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية^١ .

وذكر القاضي الفاضل في «مياوماته» : أن عبّر البلاد من إسكندرية إلى عيذاب لسنة خمس وثمانين وخمسة مائة ، خارجا عن الثغور وأرباب الأموال الديوانية وعدة نواح ، أربعة آلاف ألف وست مائة ألف وثلاثة وخمسون ألفا وتسعة عشر^(a) دينارا .

وسبب انضاع خراج مصر - بعد ما بلغ مع الزوم في آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر عشرين ألف ألف دينار - أن الملك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنفق في كلف عمارة الأرض ، فإنها تحتاج أن يُنفق عليها ما بين ربع متحصّلها إلى ثلثه .

وآخر ما اعتُبر حال أرض مصر ، فوجد مدة حرثها ستين يوما ، ومساحة أرضها مائة ألف ألف وثمانين ألف فدان ، يزرع منها في مباشرة ابن مدبر أربعة وعشرون ألف فدان ، وأنه لا يتم خراجها حتى يكون فيها أربع مائة ألف وثمانون ألف حرث يلزمون العمل فيها دائما . فإذا أُقيم بها هذا القدر من العمال في الأرض ، تمت عمارتها ، وكمل خراجها .

وآخر ما كان بها مائة ألف وعشرون ألف مزارع : في الصعيد سبعون ألفا ، وفي أسفل الأرض خمسون ألفا . وقد تغيّر الآن جميع ما كان بها من الأوضاع القديمة ، واختلت اختلافا فاضحا .

ذكر أصناف أراضي مصر وأقسام زراعتها

اعلم أن أراضي مصر عدّة أصناف : أغلاها قيمة وأوفها سغرا وأغلاها قطيعة ، «الباق» : وهو أثر القرظ [والقطاني]^(b) والمقائي ، فإنه يصلح لزراعة القمح .

(a) بولاق : وعشرين . (b) إضافة من ابن ممتي .

= أخبار مصر ١٤٣ ؛ المقرئ : المفى الكبير ٢٧٦:٧ - ٢٧٧ ، اتعاط الحنفا ٣:١٩٩-٢٠٠) .

^١ هذه الفقرة وردت في بولاق بعد الفقرة التالية .
^٢ المصدر الذي اعتمد عليه المقرئ في هذا الفصل هو «قوانين الدواوين» لابن ممتي الذي خصص الباب الرابع من كتابه لأحكام الأرضين وتفاوت قيمتها ... وتعيين جيدها من رديها ٢٠١-٢٠٤ ، واعتمد عليه أيضا الفلقشندي في صبح الأعشى ٣:٤٤٦-٤٤٨ ؛ وانظر كذلك المخزومي : المنهاج في علم خراج مصر ١-٦ ؛ النوري : نهاية الأرب ٨:٢٤٦-٢٥٣ .

وبعد الباقي «رَيِّ الشَّرَاقِي» : وهو الأَرْضُ التي ظَمِئَتْ في الخالية ، فَلَمَّا رُوِيَتْ في الآتية وصارت مُشْتَرِيحَةً من الزَّرْعِ وَزُرِعَتْ ، أَنْجَبَ زَرْعُهَا .

و«الْبَرَايِبُ»^١ : وهو أَثَرُ القَمْحِ والشَّعِيرِ ، وسعرها دون الباقي لضعف الأرض بزراعة هذين الصنفتين ، فمتى زُرِعَتْ على أَثَرِ أَحَدِهِمَا لم يَنْجُبْ كَنْجَابَةَ الباقي . والْبَرَايِبُ صالح لِرِزَاعَةِ القُرْطِ والقَطَانِي والمِقَاتِي ، فَإِنَّ الأَرْضَ تستريح بِزِرَاعَةِ هذه الأَصْنَافِ ، وتَصِيرُ في القَابِلِ أَرْضَ باقٍ .
و«الْبُقْمَاهَةُ»^٢ أَثَرُ الكَثَّانِ ، فَإِنَّ زُرِعَتْ قَمْحًا حَسَنًا .

و«الشُّتُونِيَّةُ»^٣ أَثَرُ ما رُوِيَ وَبَارَ في السنة الماضية ، وهو دون الشَّرَاقِي .

و«السَّلَايِحُ»^٤ : ما رُوِيَ وَبَارَ فَحَرِثَ وَتَعَطَّلَ ، وهو مثل رَيِّ الشَّرَاقِي ، فَإِنَّ زَرْعَهُ يكون ناجيًا .

و«النَّقَا»^٥ : كلُّ أَرْضٍ خَلَّتْ من أَثَرِ ما زُرِعَ فِيهَا ، ولم يَبْقَ بها شاغِلٌ عن قَبُولِ ما يُزْرَعُ فِيهَا من

أَصْنَافِ الزَّرَاعَاتِ .

و«الْوَسْخُ»^٦ كلُّ أَرْضٍ اسْتَحْكَمَ وَسَخُّهَا ، ولم يَقْدِرِ الزَّارِعُونَ على إِزَاحَتِهِ كَلِّهَ مِنْهَا ، بل حَرَثُوا وَزَرَعُوا فِيهَا فَجَاءَ زَرْعُهَا مُخْتَلِطًا بِالْخَلْفَاءِ وَنَحْوِهَا .

و«الْغَالِبُ»^٧ : كلُّ أَرْضٍ حَصَلَ فِيهَا نَبَاتٌ شَغَلَهَا عن قَبُولِ الزَّرَاعَةِ ، وَمَنَعَ كَثْرَتَهُ من زِرَاعَتِهَا

وصارت مَرَاعِي .

و«الْخَزَسُ» : كلُّ أَرْضٍ فَسَدَتْ بما اسْتَحْكَمَ فِيهَا من مَوَانِعِ قَبُولِ الزَّرْعِ وكانت بها مَرَاعٍ ، وهو أَشَدُّ من الوَسْخِ الْغَالِبِ ، وَإِذَا أُذْمِنَ على إِزَالَةِ ما فِيهَا من المَوَانِعِ تَهَيُّاً صَلاَحِهَا .

و«الشَّرَاقِي» : كلُّ أَرْضٍ لم يَصِلْ إِلَيْهَا المَاءُ ، إِما لِقُصُورِ ماءِ النِّيلِ أو عُلوِّ الأَرْضِ ، أو سَدِّ طَرِيقِ

الماءِ عَنْهَا أو غير ذلك .

^١ عند الخزومي وابن ممتي والقلقشندي : البروية
وأضاف القلقشندي : «وأهل زماننا يقولون البرايب» وهو
المصطلح الذي استخدمه المقرئزي .

^٢ كذا ضبطها القلقشندي : بضم الباء الموحدة وسكون
القاف .

^٣ عند ابن ممتي والقلقشندي : البرش النقا .

^٤ عند ابن ممتي والقلقشندي : الوسخ المزروع .

^٥ عند ابن ممتي والقلقشندي : الوسخ الغالب .

^٦ عند ابن ممتي والقلقشندي : الوسخ الغالب .

وكذا ذكره الخزومي .

و«المستبجر»: كل أرض وطيفة حصل بها الماء ولم يجد مضرًا ، حتى فات أوان الزرع وهو باقي في الأرض .

و«السباخ»: كل أرض غلب عليها الملح حتى صلحت ولم يتفتح بها في زراعة الحبوب ، وربما زُرعت - ما لم يشتحك السباخ فيها - غير الحبوب كالهليون والباذنجان ، ويؤزرع فيها القصب الفارسي .

ومما لا غنى لأراضي مصر عنه «الجسور» ، وهي على قسمين : سلطانية ، وبلدية ، ف«الجسور السلطانية» هي لعامة النفع في حفظ النيل على البلاد كافة إلى حين يستغنى عنه ، ولها رؤوم موظفة على الأعمال الشرقية والأعمال الغربية ، وكانت في القديم تعمل من أموال النواحي ، ويتولى عملها مستقبلي الأراضي ، ويُعتد لهم بما صرف عليها مما عليهم من قبالات الأراضي ، ثم صار بعد ذلك يُستخرج ، يرسم عملها من هذين العاملين ، مال بأيدي المستخدمين من الديوان ويُصرف عليها ، ويفضل من المال بقية تحمل إلى بيت المال .^١ ثم صار يتولى ذلك أعيان أمراء الدولة إلى أن حدثت الحوادث في أيام الناصر فرج ، فصار يُجبي من البلاد مال عظيم ولا يُصرف منه شيء ألبتة ، بل يُرفع إلى السلطان ، ويتفرق كثير منه بأيدي الأعوان ، ويُسخر أهل البلاد في عمل الجسور ، فيجاء الخلل كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى عند ذكر أسباب الخراب .

وأما «الجسور البلدية» فإنها عبارة عما يخص نفعها ناحية دون ناحية ، ويتولى إقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية .

ومحل الجسور السلطانية من القرى محل سور المدينة الذي يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته وكفاية الرعية أمره . ومحل الجسور البلدية محل الدور التي من داخل السور ، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويُرَبِّها .

ومن العادة أن المقطع إذا انفصل - وكان قد أنفق شيئًا من مال إقطاعه في إقامة جسر لأجل عمارة السنة التي انتقل الإقطاع عنه فيها - فإن له أن يستعيد من المقطع الثاني نظير ما أنفق من مال سنته في عمارة سنة غيره .^٢

وأصلح ما زرع «القمح» في أثر الباق والشرقي ، وكان يُزرع بالصعيد القمخ على أثر القمخ لكثرة الطرح ، وربما زرع هناك على أثر الكتان والشعير . ويؤزرع القمخ من نصف شهر بآبة إلى

^٢ نقلًا عن ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٢٢-٢٢٣ .

^١ نقلًا عن ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٣٢ .

آخر هاتور، وهذا في العوالي من الأرض التي تَخْرُجُ بَدْرِيًا، وأما البحائر المتأخرة فيمتد وقتُ
الزُّرْعِ فيها إلى آخر شهر^(a) كَيْهَكَ .

وَمِقْدَارُ مَا يَخْتِاجُ إِلَيْهِ الْفَدَّانُ الْوَاحِدُ مِنْ بَدْرِ الْقَمْحِ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْأَرْضِ وَضَعْفِهَا
وَرِقَّتِهَا وَتَوَسُّطِهَا، وَمَا يُزْرَعُ فِي التَّلْوِيقِ^(b) وَمَا يُزْرَعُ فِي الْحَرْثِ، وَأَكْثَرُ الْبَدْرِ مِنْ أَرْدَبٍ إِلَى خَمْسِ
وَيَاتِ وَأَرْبَعِ وَيَاتِ أَيْضًا، وَيُوجَدُ فِي الصُّعِيدِ أَرْضٍ تَحْتَمِلُ دُونَ هَذَا، وَفِي خَوْفِ رَمْسِيَسِ
أَرْضٍ يَكْفِي الْفَدَّانُ مِنْهَا نَحْوَ الْوَيْتَيْنِ .

وَيُذْرِكُ الزُّرْعُ بِمِصْرَ فِي بَشْنَسِ (وَهُوَ نَيْسَانُ) . وَيَخْتَلِفُ مَا يَخْرُجُ عَنِ الْفَدَّانِ الْقَمْحِ بِحَسَبِ
الْأَرْضِي، فِيرْمِي مِنْ إِرْدَبَيْنِ إِلَى عَشْرِينَ إِرْدَبًا^١ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بَنُ وَحْشِيَّةٍ فِي كِتَابِ «الْفِلَاحَةِ النَّبْطِيَّةِ»: وَذَكَرَ أَنَّ فِي مِصْرَ إِذَا زَرَعُوا يَخْرُجُ مِنْ
الْمُدِّ ثَلَاثَ مِائَةِ مُدٍّ . وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ حَرَارَةُ هَوَاءِ بِلَادِهِمْ، مَعَ سَمْنِ أَرْضِهِمْ وَكَثْرَةِ لُدُودَةٍ^(c) مَاءِ
النَّيْلِ^٢ .

وَلَمَّا كَانَ فِي سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِ مِائَةٍ، انْحَسَرَ الْمَاءُ عَنِ قِطْعَةِ أَرْضٍ مِنْ بَزْكَةِ الْفَيْيُومِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا
الْيَوْمُ: بَحْرُ يُوسُفَ، فَزُرِعَتْ وَجَاءَ زَرْعُهَا عَجِيْبًا رَمَى الْفَدَّانُ مِنْهَا أَحَدًا وَسَبْعِينَ أِرْدَبًا مِنْ شَعِيرِ
بِكَيْلِ الْفَيْيُومِ، وَأَرْدَبُهَا تِسْعَ وَيَاتِ .

وَكَانَتْ قِطْعَةُ الْفَدَّانِ الْقَمْحِ بِبِلَادِ الصُّعِيدِ، فِي الْأَيَّامِ الْفَاطِمِيَّةِ، ثَلَاثَةَ أَرَادِبٍ، فَلَمَّا مُسِيحَتْ
الْبِلَادُ، فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ، تَقَرَّرَ عَلَى كُلِّ فَدَّانٍ إِرْدَبَانِ وَنِصْفِ، ثُمَّ صَارَ يُؤْخَذُ
إِرْدَبَانٌ عَنِ الْفَدَّانِ . وَأَمَّا أَرْضِي أَسْفَلَ الْأَرْضِ فَيُؤْخَذُ عَنْهَا عَيْنٌ لَا عِلَّةَ .

وَيُزْرَعُ «الشُّعَيْرُ» فِي أَثْرِ الْقَمْحِ وَغَيْرِهِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي غَرِقَتْ وَهِيَ رَطْبَةٌ، وَتَتَقَدَّمُ زِرَاعَتُهُ
عَلَى زِرَاعَةِ الْقَمْحِ بِأَيَّامٍ، وَكَذَلِكَ حِصَادُهُ فَإِنَّهُ يُحْصَدُ قَبْلَ الْقَمْحِ . وَيَحْتَاجُ الْفَدَّانُ مِنْهُ أَنْ يُنْذَرَ
فِيهِ بِحَسَبِ الْأَرْضِ، وَيَخْرُجُ أَكْثَرَ مِنَ الْقَمْحِ، وَيَكُونُ إِذْرَاكُهُ فِي بَرْمُودَةٍ (وَهُوَ آذَارُ
وَيْسَانِ)^٣ .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : اللوق . (c) بولاق : كدورة .

^١ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٥٨ - ٢٥٩؛ وقارن
^٢ ابن وحشية : الفلاحة النبطية ١ : ٢١٨ .
^٣ نقلًا عن ابن ممتي : قوانين ٢٥٩؛ وقارن الخزومي : المنهاج ٢ .

ويُزْرَعُ «القول» في الحزوث إثر البرايب من أول شهر بآبة، ويؤكل وهو أخضر في شهر كيهك .
ويحتاج الفدان من البذر منه إلى ثلاث وئيات ونحوها، ويُدْرِكُ في بَرْمُودَةَ، وَيَتَحَصَّلُ من فدانَه
ما بين عشرين إزدبًا إلى ما دون ذلك^١.

ويُزْرَعُ «العَدَسُ» و«الحِمَصُ» من شهر هاتور إلى كيهك . و«الجلبان» لا يُزْرَعُ إلا في أرق
الأراضي حوثًا من الأرض العالية، ويُزْرَعُ تلويقًا في الأراضي الحزس . ويُنْدَرُ في كل فدان من
الحمص من أزدب إلى ثمان وئيات، ومن الجلبان من أزدب إلى أربع وئيات، ومن العَدَسِ من
ويستين إلى ما دونهما . وتُدْرِكُ هذه الأصناف في بَرْمُودَةَ . وَيَتَحَصَّلُ من فدان الحمص من أربعة
أرادب إلى عشرة، ومن الجلبان من عشرة أرادب إلى ما دونها، والعَدَسُ من عشرين إزدبًا إلى ما
دونها^٢.

وَأَنْجَبَ ما يكون «الكثان» إذا زرع في البرش^٣، ويحتاج أن يُسَبَّخَ بثراب سبخ، وهو إذا طال
رقد، ويُقْلَعُ قُضبانًا وَيُسَمَّى حينئذ أسلافًا، ويُنْشَرُ في موضعه حتى يجف، فإذا جف حُمِلَ وهُدِرَ
وعُزِلَ جَوْزُه، فيخرج منه بزر الكتان، ويُسْتَخْرَجُ منه الزيت/ الحار . ويُزْرَعُ الكتان في شهر
هاتور، ويحتاج الفدان أن يُنْدَرُ فيه من البزر ما بين أزدب وثلاث إلى ما دون ذلك، ويُدْرِكُ في
شهر بَرْمُودَةَ، ويخرج من الفدان ما بين ثلاثين شدة إلى ما دون ذلك، ومن البزر من ستة أرادب
إلى ما دونها . وكانت قِطِيعَةُ الفدان منه في القديم : بأرض الصعيد من خمسة دنانير إلى ثلاثة،
وفي دِلاص ثلاثة عشر دينارًا، وفيما عدا ذلك ثلاثة دنانير^٤.

ويُزْرَعُ «القرط» عند أخذ ماء النيل في التقصان، ولا ينبغي تأخير زرعه إلى أوان هبوب الريح
الجنوبية التي يقال لها : المرسية، وأول ما يُنْدَرُ في شهر بآبة، ورُبَّمَا زرع بعد النوروز . والحراثي منه
يُزْرَعُ في كيهك وطوبة، ويُزْرَعُ أحيانًا في هاتور، ويُنْدَرُ في كل فدان من ويستين ونصف إلى ما
حولها، ويُدْرِكُ الأخضر منه في آخر شهر كيهك، ويُدْرِكُ الحراثي في طوبة وأمشير، ويتحصّل
من الفدان الحراثي ما بين أزدبين إلى أربع وئيات^٥.

^١ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٦٠؛ وقارن الخزومي :

البرش هو أثر المقات والسَّمْسِمِ والقطن . (المنهاج ١) .
^٢ ابن ممتي : قوانين ٢٦١-٢٦٢؛ وقارن الخزومي :

المنهاج ٢ .
^٣ ابن ممتي : قوانين ٢٦٠-٢٦١؛ وقارن الخزومي :

المنهاج ٢-٣ .
^٤ نفسه ٢٦٢-٢٦٣؛ وقارن الخزومي : المنهاج ٢-٣ .
^٥ نفسه ٢٦٢-٢٦٣؛ وقارن الخزومي : المنهاج ٢-٣ .

ويزرع «البصل والثوم» من شهر هاتور إلى نصف كيهك . ويُتذر في فدان البصل من نصف ورُبُع وَئِيَّة إلى وَئِيَّة ، والثوم من مائة حِزْمَة إلى مائة وخمسين حِزْمَة ، ويُتذر ذلك في بَرْمُودَة . والبصل الذي يُخْرَج لِيزْرَع زَرِيْعَة ، فإنه يُزْرَع من أوَّل كِيَهْكَ إلى العاشر من طُوبَة ، ويخْرُج من زَرِيْعته عشرة أَرَادِب من الفدان ، ويُتذر في بَشْنَس ^١ .

٥ ويزرع «التُّرْمَس» في طُوبَة ، وزَرِيْعته لكل فدان أَرْدَب ، ويُتذر في بَرْمُودَة ، ويُتَحْصَل من الفدان ما بين عشرين أَرْدَبًا إلى ما دونها ^٢ .

وأما الأصناف الصَّيْفِيَّة : فإنَّ البَطِيخَ واللُّوبِيَا يُزْرَعَان من نصف بَرْمَهَات إلى نصف بَرْمُودَة ، ويُزْرَع في الفدان قَدْحَان ، ويُتذر في بَشْنَس ^٣ .

١٠ ويزرع السُّمْسِم في بَرْمُودَة ، وزَرِيْعته رُبْع وَئِيَّة للفدان ، ويُتذر في أَيْب ومِشْرَى ، ويُتَحْصَل من الفدان ما بين أَرْدَب إلى ستة أَرَادِب ^٤ .

ويزرع القُطْن في بَرْمُودَة ، وزَرِيْعته أَرْبَع وَئِيَّات حَب للفدان ، ويُتذر في ثُوت ، فيخْرُج من الفدان من ثمانية قناطير بالجَزْوِي إلى ما دُونهَا ^٥ .

١٥ ويزرع قَصْبُ الشُّكْر من نصف بَرْمَهَات في أَرِّ الباق والبُرْش ، وتُبْرَش أرضه سَبْع سَبْكَ [حَرْثًا وتَشِيَّة وتَلْيِيًا وتُورِيًا وتعْدِيًا وتَخْطِيًا وتَقْطِيًا] ^٦ ، وأنْجَبه ما تكامل له ثلاث عَزَقَات قبل انْقِضَاء شهر بَشْنَس ، ومِقْدَار زَرِيْعته ثَمْن فدان وما حَوْلَه لكل فدان ^٦ . وَيَحْتَاجُ القَصْبُ إلى أرض جَيِّدَة دَمِيَّة ، قد شَمِلَهَا الرِّيُّ وعَلاهَا ماءُ النَّيْلِ ، وَقُلِّعَ ما بها من الحَلْفَاء ونُظِّفَتْ ، ثم بُرِشَتْ بالمَقْلَقَات (وهي مَحَارِث كِبَار) ستة وجوه وتُجْرَف حتى تَتَمَهَّد ، ثم تُبْرَش ستة وجوه أُخْرَى وتُجْرَف . ومعنى البُرْش : الحَرْث .

٢٠ فإذا صَلَّحَت الأَرْض وطَابَّت ونَعِمَّت وصَارَتْ ثَرَابًا نَاعِمًا وتَسَاوَتْ بالتَّجْرِيْف ، سُقَّت حينئذٍ بالمَقْلَقَات ، وَيُزْمَى فِيهَا القَصْبُ قَطْعَتَيْن : قِطْعَة مُشْتَاءَة وقِطْعَة مُفْرَدَة ، بعد أن تُجْعَل الأَرْضُ

(a) إضافة من الخزومي وابن ممتي .

^١ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٦٣ .

^٢ نفسه ٢٦٤ .

^٣ نفسه ٢٦٥ . ^٤ نفسه ٢٦٥ .

^٥ نفسه ٢٦٥-٢٦٦ .

^٦ نفسه ٢٦٦ ؛ وقارن الخزومي : المنهاج ٤ ؛ وانظر فيما

يلي الشهور القبطية ٧٣٠-٧٣٩ .

أخواضا وتُفَرِّز لها جداول يصل الماء منها إلى الأخواض ، ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاثة أنابيب كوايل وبعض أنبويه من أعلى القطعة وبعض أخرى من أسفلها ، ويُخْتَار ما قَصُرَتْ أنابيبه وكثرت كعوبه من القصب ، ويُقال لهذا الفعل : النَّصْب .

فإذا كَمَلَ نَصْبُ القصب أُعيد الثراب عليه ، ولا بُدَّ في النَّصْب أن تكون القطعة مُلقاة لا قائمة ، ثم يُسقى - من حين نَصْبِه في أوَّل فصل الربيع - لكل سبعة أيَّام مرة .

فإذا نَبَت القصبُ وصارَ أوراقًا ظاهرة ، نَبَت معه الحلفاء والبقلة الحَمَقَاء التي يُسَمِّيها أهل مصر الرَّجَلَة ، فعند ذلك تُعزَّق أرضه (ومعنى العزاق أن تُنكش أرض القصب) ويُنظَّف ما نَبَت مع القصب .

ولا يزال يُتعاهد ذلك حتى يَغرُو القصبُ وَيَقْوَى وَيَكَاثِفَ ، فيُقالُ عند ذلك : طَرَدَ القصبُ عِزاقه ، فإنه لا يمكن عِزاقُ الأرض ولا يكون هذا ، حتى يَيزُر الأنبوبُ منه .

ومَجْموع ما يُسقى بالقادوس ثمانية وعشرون ماء . والعادةُ أن الذي يُنصب من الأقسام على كلِّ مجال بخراني ، أي مُجاوِر للبحر - إذا كانت مزاحة الغلة بالأبقار الحِيَاد مع قُرب رِشَاء الآبار - ثمانية أفدنة ، ويحتاج إلى ثمانية أرؤس بقر ، فإن كانت الآبار بعيدة عن مَجْرَى النبل لا يُمكن حينئذ أن يَقُومَ المجالُ بأكثر من ستة أفدنة إلى أربعة .

فإذا طَلَعَ النبلُ وارتَفَعَ ، سَقَى القصبَ عند ذلك ماء الرَّاحَة ؛ وصِفَة ذلك أن يُقَطع عليه من جانب جِسرٍ يكون قد أُدير عليه ليقيه من الفَرَق عند ارتفاع النبل بالزِيَادَة ، فيندخل الماء من ثُلْمَة في ذلك الجِسر حتى يَغْلُو على أرض القصب نحو شبر ، ثم يُسَدُّ عنه الماء حتى لا يَصِل إليه ، ويُنزَع الماءُ فَوْق الأرض قَدْر ساعتين أو ثلاث إلى أن يسجن ، ثم يُصْرَف من جانب آخر حتى يَنْصَب كُله ، ويُجَدَّد عليه ماءً آخر كذلك ، فيتعاهد ما ذَكَرنا مرارًا في أيَّام مُتَفَرِّقة بقَدْر معلوم ، ثم يُقَطَّم بعد ذلك .

فإذا عَمِلَ ما قُلناه وَفَى القصبُ حَقَّه ، فإن نَقَصَ عن ذلك حَصَلَ فيه الخلل . ولا بُدَّ للقصب من القَطْران قبل أن يَحْلُو حتى لا يُسْوَس . ويُنكسر القصبُ في كِبَيْهك . ولا بد من حَزَق آثار القصب بالنار ، ثم سَقِيه وعزِّقه كما تقدَّم ، فيُنْبِت قَصَبًا يُقالُ له : الخِلْفَة ، ويُسمى الأول الرأس ، وقنود الخِلْفَة أجود غالبًا من قنود الرأس . ووقَّتْ إِذْرَاك الرأس في طوبة ، والخِلْفَة في نصف هاتور . وغاية إدارة معاصر القصب إلى الثوروز . ويَحْصُل من الفدان ما بين / أربعين أبلوجة قند إلى ثمانين أبلوجة ، والأبلوجة تَسْعُ قِنطارًا فما حَوْلَه .

- وَيُزْرَعُ الْقُلْقَاسُ مَعَ الْقَصَبِ ، وَلِكُلِّ فِدَانٍ عَشْرَةُ قَنَاطِيرِ قُلْقَاسٍ جَرَوِيَّةٍ . وَيُذْرَكُ فِي هَاتُورٍ ^١ .
 وَيُزْرَعُ الْبَاذِجَانُ فِي بَرْمَهَاتٍ وَبَرْمُودَةٍ وَبَشْنَسٍ وَبَثُونَةٍ ، وَيُذْرَكُ مِنْ بَثُونَةٍ إِلَى مِسْرَى ^٢ . وَيُزْرَعُ النَّيْلَةُ
 مِنْ بَشْنَسٍ ، وَالزَّرِيْعَةُ لِلْفِدَانِ وَبَيْتَةٍ ، وَيُذْرَكُ مِنْ أَبِيبٍ ^٣ . وَيُزْرَعُ الْفِجْلُ طُولَ السَّنَةِ ، وَزَّرِيْعَةُ الْفِدَانِ
 مِنْ قَدَحٍ وَاحِدٍ إِلَى قَدَحَيْنِ ^٤ . وَيُزْرَعُ اللَّفْتُ فِي أَبِيبٍ ، وَزَّرِيْعَةُ الْفِدَانِ قَدَحٍ وَاحِدٍ ، وَيُذْرَكُ بَعْدَ
 أَرْبَعِينَ يَوْمًا ^٥ . وَيُزْرَعُ الْخَسُّ فِي طُوبَةِ شَتْلًا ، وَيُؤْكَلُ بَعْدَ شَهْرَيْنِ ^٦ . وَيُزْرَعُ الْكُرْنُبُ فِي ثُوتٍ
 شَتْلًا ، وَيُذْرَكُ فِي هَاتُورٍ ^٧ . وَيُغْرَسُ الْكَزْمُ فِي أَمَشِيرٍ ، نَقْلًا وَتَحْوِيلًا . وَيُغْرَسُ الثَّيْنُ وَالثَّقَاحُ فِي
 أَمَشِيرٍ . وَيُقَلَّمُ الثُّوتُ فِي بَرْمَهَاتٍ وَيُغْرَسُ . وَيَيْلُ اللَّوْزُ وَالخَوْخُ وَالْمِشْمِشُ فِي مَاءِ طُوبَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ -
 وَهِيَ قُضْبَانٌ - ثُمَّ يُغْرَسُ ، وَيُحْوَلُ شَجَرُهَا فِي طُوبَةٍ . وَيُزْرَعُ نَوَى الثَّمْرِ ، ثُمَّ يَتَحْوَلُ وَذِيًا ، فَيُنْقَلُ .
 وَيُذْفَنُ بَصَلُ النَّزْجِسِ فِي مِسْرَى . وَيُزْرَعُ الْيَاسْمِينُ فِي أَيَّامِ النَّسِيءِ وَفِي أَمَشِيرٍ . وَيُزْرَعُ الْمَرْسِينُ فِي
 طُوبَةٍ وَأَمَشِيرٍ ، غَرْسًا . وَيُزْرَعُ الرَّيْحَانُ فِي بَرْمُودَةٍ . وَيُزْرَعُ حَبُّ الْمَثُورِ فِي أَيَّامِ النَّيْلِ . وَيُزْرَعُ الْمَوْزُ
 الشُّتْوِي فِي طُوبَةٍ ، وَالصَّيْفِيُّ فِي أَمَشِيرٍ . وَيُحْوَلُ الْخِيَارُ شَبْرًا فِي بَرْمَهَاتٍ . وَتُقَلَّمُ الْكُرُومُ [فِي
 أَمَشِيرٍ] ^(a) عَلَى رِيحِ الشَّمَالِ ، إِلَى لَيَالٍ مِنْ بَرْمَهَاتٍ ، حَتَّى تَخْرُجَ الْعَيْنُ مِنْهَا . وَتُقَلَّمُ الْأَشْجَارُ فِي
 طُوبَةٍ وَأَمَشِيرٍ ، إِلَّا السُّدْرَ - وَهُوَ شَجَرُ النَّبْقِ - فَإِنَّهُ يُقَلَّمُ فِي بَرْمُودَةٍ ^٨ .

- وَتُسْقَى الْأَشْجَارُ فِي طُوبَةِ مَاءٍ وَاحِدًا ، وَيُسَمُّونَهُ مَاءَ الْحَيَاةِ . وَتُسْقَى فِي أَمَشِيرٍ ثَانِيًا عِنْدَ خُرُوجِ
 الزَّهْرِ . وَتُسْقَى فِي بَرْمَهَاتٍ مَاءَيْنِ آخَرَيْنِ إِلَى أَنْ يَنْعَقِدَ الثَّمْرُ . وَتُسْقَى فِي بَشْنَسٍ ثَلَاثَ مِيَاهٍ .
 وَتُسْقَى فِي بَثُونَةٍ وَأَبِيبٍ وَمِسْرَى مَاءً فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ . وَتُسْقَى فِي ثُوتٍ وَبَابَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً تَغْرِيقًا
 مِنْ مَاءِ النَّيْلِ . وَتُسْقَى فِي هَاتُورٍ مِنْ مَاءِ النَّيْلِ بِتَغْرِيقِ الْمَسَاطِبِ . وَيُسْقَى الْبَعْلُ مِنَ الْكُرُومِ فِي
 هَاتُورٍ مِنْ مَاءِ النَّيْلِ مَرَّةً وَاحِدَةً تَغْرِيقًا ^٩ .

- وَجَمِيعُ أَرْضِي بَيْضَرٍ تُقَاسُ بِالْفِدَانِ ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ أَرْبَعِ مَائَةِ قَصَبَةٍ حَاكِمِيَّةٍ طَوْلًا فِي عَرْضِ
 قَصَبَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَالْقَصَبَةُ سِتَّةُ أَذْرَعٍ وَثُلَاثَا ذِرَاعٍ بِذِرَاعِ الْقَمَاشِ ، وَخَمْسَةُ أَذْرَعٍ بِذِرَاعِ النَّجَارِ تَقْرِيبًا ^{١٠} .

(a) زيادة من ابن ممتي .

^١ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٢٦٧ . ^٢ نفسه ٢٦٧-٢٦٨ . ^٣ نفسه ٢٦٨ . ^٤ نفسه ٢٦٩ . ^٥ نفسه٢٦٩ . ^٦ نفسه ٢٦٩-٢٧٠ . ^٧ نفسه ٢٧١ . ^٨ نفسه ٢٧١-٢٧٣ . ^٩ نفسه ٢٧٣ . ^{١٠} النويري : نهاية

وقال القاضي أبو الحسن في كتاب «المنهاج»: خراج مصر قد ضرب على قصبية في المساحة اصطليح عليها، زرع المزارع على محكمها. وتكسير الفدان أربع مائة قصبية، لأنه عشرون قصبية طولاً في عشرين قصبية عرضاً. وقصبية المساحة تُعرف بالحاكمية، وهي تُقارب خمسة أذرع بالتجاري^١.

ذكر أقسام مال مصر

اعلم أن مال مصر في زمننا ينقسم قسمين: أحدهما يُقال له: «خراجي»، والآخر يُقال له: «هلالِي». ف «المال الخراجي» ما يُؤخذ مسانهةً من الأراضي التي تُزرع حبوبًا ونخلًا وعنبًا وفاكهةً، وما يُؤخذ من الفلاحين هديةً مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف. و«المال الهلالي» عدّة أبواب، كلها أخذتها ولاةُ السوء شيئًا بعد شيء.

وأصل ذلك في الإسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بلغه أن تجارًا من المسلمين يأتون بأرض الهند^١ فيأخذون منهم العشر، فكتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة: أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتي درهم خمسة دراهم، وخذ من كل تاجر من تجار العهد - يعني أهل الذمة - من كل عشرين درهماً درهمًا، ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم درهمًا.

وقيل لابن عمر: كان عمر يأخذ من المسلمين العشر؟ قال: لا. ونهى عمر بن عبد العزيز عن ذلك، وكتب: ضعوا عن الناس هذه المكوس، فليس بالمكس ولكنه النجش. ورُوي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أتاه ناس من أهل الشام، فقالوا: أصبنا دوابًا وأموالاً فخذ منها صدقة تطهرنا بها؛ فقال: كيف أفعل ما لم يفعل من كان قبلي؟ وشاور؛ فقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: لا بأس به إن لم يأخذه من بعدك. فأخذ عن العهد عشرة دراهم وكذلك عن القرس، وعن الهجين ثمانية، وعن البرذون والبغل خمسة.

وأول من وضع على الحوانيت الخراج في الإسلام أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور في سنة سبع وستين ومائة، وولي ذلك سعيد الجرشبي.

(a) بولاق: أرض الجند.

^١ قارن مع ابن ثماني: قوانين ٢٧٩، وهذه الفقرة موجودة في بولاق وغير موجودة في النسخ التي أطلعت عليها.

وَأَوَّلُ مَنْ أَخَذَتْ مَالًا سِوَى مَالِ الْخَرَاجِ بِمِصْرَ، أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُدَبَّرٍ - لَمَّا وَلى خَرَاجَ مِصْرَ بَعْدَ سَنَةِ خَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ - فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ ذُهَابِ النَّاسِ وَشَيْطَانِ الْكُتَّابِ؛ فَابْتَدَعَ فِي مِصْرَ بِدَعَا صَارَتْ مُسْتَمْرَةً مِنْ بَعْدِهِ لَا تُنْقَضُ، فَحَاطَ بِالنُّظْرُونَ وَحَجَرَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا كَانَ مُبَاحًا لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَقَرَّرَ عَلَى الْكَلِّ الَّذِي تَزْعَاهُ الْبَهَائِمُ مَالًا سَمَّاهُ «الْمَرَايِمِ»، وَقَرَّرَ عَلَى مَا يُطْعِمُ اللَّهُ مِنَ الْبَحْرِ مَالًا وَسَمَّاهُ «الْمَصَايِدِ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. فَانْقَسَمَ مِنْ حَيْثُذِي مَالٍ مِصْرَ إِلَى «خَرَاجِي» و«هِلَالِي»، وَعُرِفَ الْمَالُ الْهِلَالِيُّ لِعَهْدِذِي بِ «الْمَرَايِقِ وَالْمَعَاوِنِ»^(a).

فَلَمَّا وَلى الْأَمِيرُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ إِمَارَةَ مِصْرَ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَمِدَ عَلَى اللَّهِ/ الْخَرَاجِ وَالشُّغُورِ الشَّامِيَّةِ، رَغِبَ وَتَنَزَّهَ عَلَى أَذْنَانِ الْمَعَاوِنِ وَالْمَرَايِقِ، وَكَتَبَ بِاسْتِقْطِهَا فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ، وَكَانَتْ تَبْلُغُ بِمِصْرَ خَاصَّةً مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ؛ وَلَهُ فِي ذَلِكَ خَبِيرٌ فِيهِ أَكْبَرُ مُعْتَبَرٌ، قَدْ ذَكَرْتَهُ عِنْدَ ذِكْرِ أَخْبَارِ الْجَامِعِ الطُّولُونِيِّ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ^٢.

ثُمَّ أُعِيدَتِ الْأَمْوَالُ الْهِلَالِيَّةُ فِي أَثْنَاءِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ عِنْدَمَا ضَعُفَتْ، وَصَارَتْ تُعْرَفُ بِ «الْمَكُوسِ» وَاحِدَهَا مَكْسٌ.

فَلَمَّا اسْتَبَدَّ السُّلْطَانُ النَّاصِرُ صَلَاحُ الدِّينِ أَبُو الْمَظْفَرِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ بِمُلْكِ مِصْرَ، أَمَرَ بِاسْتِقْطِ مَكُوسِ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ، فَكَتَبَ عَنْهُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ مَرْسُومًا بِذَلِكَ؛ وَكَانَ جُمْلَةُ ذَلِكَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، تَفْصِيلُهَا: مَكْسُ الْبَهَارِ وَعِمَالَتُهُ: ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفًا وَسِتِّ مِائَةٍ^(b) وَأَرْبَعَةٌ وَسِتُونَ دِينَارًا. مَكْسُ الْبِضَائِعِ وَالْقَوَافِلِ وَعِمَالَتُهَا: تِسْعَةٌ أَلْفٌ وَثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسُونَ دِينَارًا. مُنْقَلَتِ الصُّنَاعَةِ، عَنِ مَكْسِ الْبُرِّ الْوَارِدِ إِلَيْهَا وَالنُّحَاسِ وَالْقَصْدِيرِ وَالْمَرْجَانِ وَالْمَقَاضِلَاتِ: خَمْسَةٌ أَلْفٌ وَمِائَةٌ وَثَلَاثَةٌ وَتِسْعُونَ دِينَارًا. الصُّادِرِ عَنِ الصُّنَاعَةِ بِمِصْرَ: سِتَّةٌ أَلْفٌ وَسِتِّ مِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُونَ دِينَارًا. سَمْسَرَةُ الثَّمَرِ: ثَلَاثُ مِائَةٍ دِينَارٍ. الْفُنْدُوقُ بِالْمُنْيَةِ عَنِ مَكْسِ الْبِضَائِعِ: ثَمَانُ مِائَةٍ دِينَارٍ وَسِتَّةٌ وَخَمْسُونَ دِينَارًا. رُسُومُ دَارِ الْقَنْدِ^٣: ثَلَاثَةٌ أَلْفٌ وَمِائَةٌ وَثَمَانِيَةٌ دِنَانِيرٍ. رُسُومُ الْخَشْبِ الطُّوبِيلِ وَالْمِلْحِ: سِتُّ مِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَسَبْعُونَ دِينَارًا. رُسُومُ الْفَلْتِ [كَذَا] الْمُنْسُوبَةِ إِلَى بَلْبَيْسِ

(a) بولاق: وكان الهلالي يعرف في زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون. (b) بولاق: ثلاث مائة.

^٢ فيما يلي ٢٦٦:٢-٢٦٧.

^١ انظر، البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٧٤-٧٦؛ ابن

^٣ انظر عن دار القند، ابن دقماق: الانتصار ٤: ٦.

سعيد: المغرب في حلى المغرب ٨٥-٨٦؛ وفيما يلي ٢٨٩.

والبُوري : مائة دينار . رُسُومُ التَّقْتِيشِ بالصُّنَاعَةِ عن البَهار وغيره : مائتان وسبعة عشر دينارًا . خَيْمَةٌ أَرْمَتَتْ عن الوارد إليها : سبعة وستون دينارًا . فُنْدُقُ القُطْنِ : ألفا دينار . سُوقُ الغَنَمِ بالقَاهِرَةِ ومصر والسُّمَسْرَةِ وعُبُورُ الأَغْنَامِ بالْحِيْزَةِ : ثلاثة آلاف وثلاث مائة وأحد عشر دينارًا .

عُبُورُ الأَغْنَامِ وَالكَثَّانِ وَالْأَبْقَارِ بِبَابِ القَنْطَرَةِ : ألف ومائتا دينار . وَاجِبُ مَا يَرُدُّ^a مِنَ الكَثَّانِ

الحَطَبِ إِلَى الصُّنَاعَةِ : مائتا دينار . رُسُومُ وَاجِبِ الغَلَّاتِ ، كالحُجُوبِ الوَارِدَةِ إِلَى الصُّنَاعَةِ وَالْمَقْسِ

والمُنْيَةِ وَالجِشْرِ وَالتَّبَانِينَ وَمَفَالِيتِ جَزِيرَةِ الذَّهَبِ وَطَمُوه وَسِرِ الدَّرَجِ : ستة آلاف دينار . مَكْسُ مَا

يَرُدُّ إِلَى الصُّنَاعَةِ مِنَ الأَغْنَامِ : ستة وثلاثون دينارًا . الأَغْنَامِ البَيْتَوْتِيَّةِ : اثنا عشر دينارًا . العَرَضَةُ

وَالسُّرْسَنَاوِي بِالْحِيْزَةِ ، وَمَكْسُ الأَغْنَامِ : مائة وتسعون دينارًا . مُنْفَلَتِ الفَيْوْمِ عَمَّا يَرُدُّ مِنَ الكَثَّانِ

مِنَ القِبْلَةِ وَمِنَ البَضَائِعِ الوَارِدَةِ مِنَ الفَيْوْمِ وغيره : أربعة آلاف ومائة وستون دينارًا . مَكْسُ

الوَرَفِ^b المَجْلُوبِ إِلَى الصُّنَاعَةِ وَرَسْمِ التَّقْتِيشِ : مائتا دينار . الحِفْنَةُ^c بِسَاحِلِ الغَلَّةِ وَالْأَقْوَاتِ

وَالرِّسَائِلِ : سبع مائة وثمانية وستون دينارًا .^d نَفَلَتِ العَرِيفِ بِالصُّنَاعَةِ الصَّادِرَةِ مَائَتًا دِينَارًا^d دَارُ

التُّفَّاحِ وَالرُّطْبِ بِمِصْرَ وَالعَرَضَةَ بالقَاهِرَةِ : ألف وسبع مائة دينار . رَسْمُ ابْنِ المَلِيْجِيِّ : مائتا دينار .

دَارُ الجُبْنَ : ألف دينار . مُشَارَفَةُ الجَزَارِينِ^e : مائتان وأربعون دينارًا . وَاجِبُ الحُلِيِّ الوَارِدِ مِنَ الوَجْهِ

الْبَحْرِيِّ وَالقُطْنِ : ألف وعشرون دينارًا .

رَسْمُ سَمْسَرَةِ الصَّفَا : ألف ومائتا دينار . مُنْفَلَتِ الصُّعَيْدِ : مائة وأحد وستون دينارًا . خَاتَمُ

الشُّرْبِ وَالدِّيْقِيِّ : ألف وخمسة مائة دينار . مَكْسُ الصُّوفِ : مائتا دينار . نِصْفُ المُوَزَّدَةِ بِسَاحِلِ

المَقْسِ : أربعة عشر دينارًا دِكَّةُ السُّمَسَارِ : ثلاث مائة وخمسون دينارًا . فَلَ تِ العَرِيفِ^f بِالصُّنَاعَةِ

وَحَمَلَةُ البَهارِ وَالبَضَائِعِ : مائتان وستة عشر دينارًا . الحَلْفَاءُ الوَارِدَةُ مِنَ القِبْلَةِ : مائة وخمسة

وثلثون دينارًا . الوَتْدُ^g وَالشَّرْقِيَّةُ وَالطُّعْمُ بِدَارِ التُّفَّاحِ وَمُنْفَلَتِ القِبْلَةِ بِالتَّبَانِينَ وَالجِشْرِ : خمسة

وثلثون دينارًا . رُسُومُ الصَّفَا وَالْحَمْرَاءِ وَرُسُومُ دَارِ الكَثَّانِ : ستون دينارًا . جِمَايَةُ الغَلَّاتِ بِالمَقْسِ

وَدَارِ الجُبْنَ : مائة وأربعون دينارًا . الحَلْفَاءُ الوَارِدَةُ عَلَى الجِشْرِ وَمَعَدِّيَةُ المِقْيَاسِ^h : مائة دينار .

خُمْسُ البُرُونِيَّةِ بِالْحِيْزَةِ : عشرون دينارًا . تَلُّ التُّعْرِيفِ بِالصُّنَاعَةِ : ثمانية وعشرون دينارًا . مُنْفَلَتِ

الغَلَّاتِ بِمَعَدِّيَةِ جَزِيرَةِ الذَّهَبِ : عشرة دنائير .

(a) بولاق : ما ورد . (b) بولاق : الورق . (c) بولاق : الحصنة . (d-d) ساقطة من بولاق . (e) بولاق :

الخزائن . (f) بولاق : نفلت العريف . (g) بولاق : الوقد والشرفين . (h) الأصل : أنفاس .

- رُسُومُ الْحَمَامِ بِسَاحِلِ الْغَلَّةِ : خَمْسُ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . وَاجِبُ الْحِثَاءِ الْوَارِدِ فِي الْبَرِّ ، ثَمَانُ مِائَةٍ دِينَارٍ . وَاجِبُ الْحَلْفَاءِ وَالْقَضَابِ . ثَلَاثَةٌ وَسِتُونَ دِينَارًا . مَكْسُ مَا يَرِدُ مِنَ الْبَضَائِعِ إِلَى الْمُنْيَةِ : مِائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ دِينَارًا . مَسْلَخَةُ شَطْنُوفِ الْبِرَائِيَّةِ : مِائَتَا دِينَارٍ . سَوْقُ الشُّكَّرِيِّينَ : خَمْسُونَ دِينَارًا . رُسُومُ سِيمَةٍ^(a) الْجَمَلِيِّ بِالسَّارِعِ وَسَوْقِ وَزْدَانِ : تِسْعَةٌ عَشْرَ دِينَارًا . وَاجِبُ الْفَخْمِ الْوَارِدِ إِلَى الْقَاهِرَةِ : عَشْرَةُ دِنَانِيرٍ . مَعْدِيَّةُ الْجِسْرِ بِالْحِيْزَةِ : مِائَةٌ وَعِشْرُونَ دِينَارًا . سِيمَةٌ^(a) الْبَقْرِيِّ : أَرْبَعُونَ دِينَارًا السَّنِيْمَةُ^(a) بَدَارِ الدُّبَاغَةِ : تِسْعَةٌ عَشْرَ دِينَارًا . سَمْسَرَةُ الْحَبْسِ الْجِيُوشِيِّ : ثَلَاثُ مِائَةٍ وَاثْنَا عَشْرَ دِينَارًا . دُكَّانُ الدَّهْنِ وَمَعْصَرَةُ السِّيْرَجِ وَالخَلِّ بِالْقَاهِرَةِ : خَمْسُ مِائَةٍ دِينَارٍ . الخَلُّ الْحَامِضُ وَمَا مَعَهُ أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَمْسَةٌ دِنَانِيرٍ . يُبُوثُ الْغَزْلِ وَالْمَضْطَبَةِ : ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسُونَ دِينَارًا . ذَبَائِحُ الْأَبْقَارِ : أَلْفُ دِينَارٍ . سُوقُ السَّمَكِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ : أَلْفٌ وَمِائَتَا دِينَارٍ . رُسُومُ الدَّلَالَةِ : ثَلَاثُ مِائَةٍ دِينَارٍ . سَمْسَرَةُ الْكَتَّانِ ثَلَاثُ مِائَةٍ دِينَارٍ . رُسُومُ حِمَايَةِ الصَّنَاعَتَيْنِ : أَرْبَعُ مِائَةٍ دِينَارٍ . مُرْتَبَعَةُ الْعَسَلِ : مِائَتَانِ وَاثْنَانِ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . مَعَادِي جَزِيرَةِ الذَّهَبِ وَغَيْرِهَا : ثَلَاثُ مِائَةٍ دِينَارٍ . خَاتَمُ الشَّمْعِ بِالْقَاهِرَةِ : ثَلَاثَةٌ وَسِتُونَ دِينَارًا . زُرِّيَّةُ الذَّبِيحَةِ : سَبْعُ مِائَةٍ دِينَارٍ . مَعْدِيَّتَا الْمِقْيَاسِ وَإِمْبَابَةُ : مِائَتَا دِينَارٍ . حُمُولَةُ السَّلْجَمِ : ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . مَكْسُ دِكَّةِ الدُّبَاغِ : ثَمَانُ مِائَةٍ دِينَارٍ . سُوقُ الرَّقِيقِ : خَمْسُ مِائَةٍ دِينَارٍ . مَعْمَلُ الطَّبْرِيِّ / : مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ دِينَارًا . سُوقُ مَنبُوبَةِ : مِائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَسِتُونَ دِينَارًا . ذَبَائِحُ الضَّأْنِ بِالْحِيْزَةِ وَرُسُومُ سَاحِلِ السَّنْطَةِ : عَشْرَةُ دِنَانِيرٍ . نَخُّ السَّمَكِ . خَمْسَةٌ دِنَانِيرٍ . تَنْوَرُ الشُّوَيْ : مِائَةٌ دِينَارٍ . نِصْفُ الرُّطَلِ مِنْ مَطَابِخِ الشُّكَّرِ : مِائَةٌ وَخَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا .^(b) خَاتَمُ الْحِلْيِ : مِائَةٌ وَعِشْرُونَ دِينَارًا^(b) سُوقُ الدُّوَابِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ : أَرْبَعُ مِائَةٍ دِينَارٍ . سُوقُ الْجِمَالِ : مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ دِينَارًا . قَبَانُ الْحِثَاءِ : ثَلَاثُونَ دِينَارًا . وَاجِبُ طَاقَاتِ الْأَدَمِ : سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . مُنْقَلَتُ الخَامِ بِالْقَشَّاشِيِّينَ : ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . أَنْوَلَةُ الْقَصَّارِ : أَرْبَعُونَ دِينَارًا .^(b) أَعْوَانُ الْمَرَائِكِبِ الْمُنشَأَةِ وَالخَضِرِ وَالْحَلْفَاءِ : سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا^(b) . يُبُوثُ الْفَرُوجِ : ثَلَاثُونَ دِينَارًا . الشُّعْرُ وَالطَّارَاتُ : أَرْبَعَةٌ دِنَانِيرٍ . رُسُومُ الصَّبْغِ وَالْحَرِيرِ : ثَلَاثُ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا . وَزْنُ الطُّفْلِ : مِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ دِينَارًا . مَعْمَلُ الْمِزْزِ : أَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ دِينَارًا . الْفَاخُورِيَّاتُ^(c) بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ : مِائَتَانِ وَسِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ دِينَارًا .

(a) بولاق : خيمة . (b-b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : الفاخور .

وذكر ابن أبي طي^١ أن الذي أسقطه السلطان صلاح الدين والذي سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع وستين وخمسة مائة، مبلغه عن تيف ألف دينار وألفي ألف أزدب، سامح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين؛ فلما ولي السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، أعاد المكوس وزاد في شناعتها.

قال القاضي الفاضل في «متجددات» سنة [أربع و] ^(a) تسعين وخمسة مائة: وكان قد تتابع في شعبان أهل مصر والقاهرة في إظهار المنكرات وترك الإنكار لها، وإباحة أهل الأمر والنهي لها^(b)، وتفاحش الأمر فيها، إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعضره، وأقيمت طاحون بحارة الحمودية لطحن حشيش الميزر وأفردت برسيمه.

وحُميت بيوت الميزر، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة، فمنها ما انتهى أمره في كل يوم إلى ستة عشر دينارًا، ومُنِع الميزر البيوتي ليتوفر الشراء من البيوت المحمية، وحملت أواني الخمر على رؤوس الأشهاد وفي الأسواق من غير مُنكر، وظهر من عاجل عقوبة الله - عز وجل - وقوف زيادة الثيل عن معتادها، وزيادة سعر الغلة في وقت ميسورها^٢.

(a) إضافة مما يلي ٥:٢. (b) بولاق: فعلها.

للعالم الإسلامي، ومن ناحية أخرى حوليات محلية لمدينة حلب مسقط رأسه (الصفدي: الوافي بالوفيات (مخ. السليمانية رقم ٨٤٢) ورقة ٣٠ و؛ ابن شاعر: فوات الوفيات ٤: ٢٦٩-٢٧١؛ وراجع كذلك Cahen, Cl., «Une chronique chi'ite au temps des Croisades» dans *Comptes-Rendus des Scéances de l'Académie des Inscriptions*, 1935, pp. 258-69; id., *La Syrie du Nord au temps des Croisades*, Damas 1940, p. 715; id., *El² art. Ibn Abi Tayyi III*, p. 55; السيد الباز العربي: مؤرخو الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٦٠، ٢٣٤-٢٣٦؛ محمد حلمي محمد أحمد: مقدمة الروضتين لأبي شامة ١: ٣٠٠-٣١).

^٢ انظر فيما يلي ٥:٢.

^١ يحيى بن حميد بن ظافر بن النجار بن علي بن عبد الله الحلبي المعروف بابن أبي طي، مؤرخ شيعي، كان يتعيش من نسخ الكتب، وعلى ذلك فإن كثيرًا من الكتب التي تنسب إليه من الصعب تحقيق نسبتها، كما أن عناوينها لا تتفق دائمًا مع ما ينقله عنه المتأخرون، توفي نحو سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م. كانت مؤلفاته مصدرًا هامًا لأبي شامة وابن خلكان وابن الفرات والمقريزي، ولا تعيننا النقول الكثيرة الموجودة عندهم على تحديد عناوين كتبه التي نقلوا عنها، ورغم أن الصفدي نسب إليه كتابًا في «تاريخ مصر»، إلا أن النقول التي عند ابن خلكان والمقريزي الخاصة بمصر لا تحدد على الإطلاق عنوان كتابه؛ بينما كان ابن الفرات هو الوحيد الذي سجل عنوان كتابه وهو «معادن الذهب في ذكر الملوك والخلفاء وذوي الرتب»، وهو يوحى بأنه من ناحية تاريخ عام

وقال في «متجددات» سنة اثنتين وتسعين وخمسة مائة: وآل الأُمُرُ إلى وُقُوفٍ وَظِيْفَةٍ الدارِ العزِيزية من حُبْرٍ ولَحْمٍ إلى أن يَتَحَمَّلَ في بعض الأوقات لا كُلِّها لبعض ما يُتَبَلَّغُ به من حُبْرٍ، وَكَثْرُ صَجيحِهِمْ وشُكُوَاهِم فلم يسمع ووقَّفَ الحالُ فيما يُنْفَقُ في دار السلطان، وفيما يُصْرَفُ إلى عياله، وفيما يُقْتَاتُ به أولاده، وما يُغْصَبُ من أربابه، وأُفْضِيَ هذا إلى غلاءِ الأسعار، فإنَّ المُتَعَيِّشِينَ من أرباب الدُّكَّانِ يَزِيدُونَ في أسعارِ المَأْكُولَاتِ العَامَّةِ بِمِقْدَارٍ^(a) ما يُؤْخَذُ مِنْهُمْ للدارِ السُلْطَانِيَّةِ، فَأُفْضِيَ ذلك إلى التَّنْظَرِ في المِكْاسِبِ الحَبِيثَةِ.

وَضُمِّنَ باب^(b) المِزْرِ والخَمْرِ باثني عشر ألف دينار، وَفُسِّحَ في إظهارِ مُنْكَرِهِ والإعلانِ به والبيعِ له في القاعاتِ والحوانيتِ مع قُرْبِ اسْتِهْلَالِ رَجَبٍ، وما اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مِنَ العَامَّةِ الإِنْكَارَ لا باليدِ ولا باللسانِ، وصارَ هذا السُّخْتِ مِمَّا يَنْفَرِدُ السُلْطَانُ به لِنَفَقَتِهِ وطَعَامِهِ، وانتقلَ مالُ الثُّغُورِ ومالُ الجَوَالِي الحَلِّ الطَّيِّبِ، إلى أن يَصِيرَ حُوالَاتِ مَنْ لا يُيَالِي من أين أُخِذَ المالُ، ولا يُفَرِّقُ بين الحرامِ والحلالِ^١.

وفي شَهْرِ رَمَضانِ غَلَا سِعْرُ الأَعْنَابِ لكثرةِ العَصِيرِ منها، وتظاهرَ به أربابُه لتَحْكِيرِ تَضْمِينِهِ السُلْطَانِي، واستيفاءِ رَسْمِهِ بأَيْدِي مُسْتَعْدِمِيهِ. وَبَلَغَ ضَمَانُهُ سبعةَ عَشَرَ ألفَ دينارٍ، وَحَصَلَ مِنْهُ شَيْءٌ حُمِلَ إِلَيْهِ. فَبَلَغَنِي أَنَّهُ صَنَعَ به آلاتِ الشُّرابِ ذَهَبِيَّاتٍ وَفِضِّيَّاتٍ.

وَكَثُرَ اجْتِمَاعُ النِّسَاءِ والرِّجَالِ في شَهْرِ رَمَضانِ - لا سِيما على الخَلِيجِ لما فُتِحَ، وعلى مِصرَ لما زادَ الماءُ، وتلقى فيه النِّيلَ بِمَعاصِرِ نَسْأَلِ اللَّهِ أَلَّا يُؤَاخِذَنَا بِهَا، وَأَلَّا يُعاقِبَنَا عَلَيْهَا بِجِراءَةِ أَهْلِهَا^٢.
وقال جامعُ «السِّيَرَةِ التُّرْكِيَّةِ»: ولما اسْتَقَلَّ المَلِكُ المِعْزُ عِزُّ الدِّينِ أَيْتِكُ التُّرْكُماني الصَّالِحِي بِمَلِكَةِ مِصرَ في سنةِ خَمْسِينَ وَسِتِّ مائةٍ - بعدَ انْقِراضِ دَوْلَةِ بَنِي أَيُّوبِ - اسْتَوَزَرَ شَخْصًا مِنْ نِظارِ الدُّواوِينِ يُعْرَفُ بِشَرْفِ الدِّينِ هِبَةِ اللَّهِ بنِ صاعِدِ الفائِزِي، أَحَدِ كُتَّابِ الأَقْباطِ - وكانَ قد أَظْهَرَ الإسلامَ مِنْ أَيَّامِ المَلِكِ الكامِلِ وَتَرَفَّى في خِدْمَةِ الكِتابَةِ - ففَرَّرَ في وَزارَتِهِ أَمْوالًا على التُّجَّارِ وَذَوِي البِتَّارِ وَأربابِ العَقارِ، وَرَتَّبَ مُكوسًا وَضماناتِ سَمَّوْها «حُقوقًا وَمُعامَلاتِ»^٣.

(a) بولاقي : بمقدار . (b) ساقطة من بولاقي .

^٣ جامعُ «السِّيَرَةِ التُّرْكِيَّةِ» هو الأميرُ ركنُ الدِّينِ بِيبرسُ

^١ المقرئِي : السلوك ١ : ١٣٤ .

المنصوري الدُّوادارُ، والنصُّ موجودٌ في كتابهِ «زُبْدَةُ الفِكرَةِ =

^٢ نفسه ١ : ١٣٦ .

ولما ولي الملك المظفر سيف الدين قطز مملكة مصر، بعد خلع الملك المنصور علي بن المظفر أيتك، أحدث عند سفره الذي قتل فيه مظالم كثيرة لأجل جمع المال وصرفه في الحركة لقتال مجموع الثتر، منها «تصقيع الأملاك وتقويمها وزكاتها، وأحدث على كل إنسان ديناراً يؤخذ منه، وأخذ ثلث التركات الأهلية»، فبلغ ذلك ست مائة ألف دينار في كل سنة^١.

فلما قتل قطز، وجلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بعده على سرير الملك بقلعة الجبل، أبطل ذلك جميعه وكتب به مساميح قرئت على المنابر، ثم أبطل ضمان المزر وجهاته في سنة اثنتين وستين وست مائة، وكتب وهو بالشام إلى الأمير عز الدين الحلبي - نائب السلطنة بمصر - أن يُبطل يوت المزر، ويُعفي آثاره، ويُخرب بيوته، ويُكسر مواعينه، ويُسقط ارتفاعه من الديوان، فإن بعض الصالحين تحدث معي في ذلك وقال: القمخ الذي جعله الله تعالى قوتاً للعالم يُداس بالأزجل، وقد تقررت إلى الله تعالى بإبطاله، ومن ترك شيئاً لله عوضه/ خيراً منه، ومن كان له على هذه الجهة شيء يُعوضه الله من المال الحلال. فأبطل الحلبي ذلك، وعوض المقطعين عليه بدله. وفي سنة ثلاث وستين أبطل جراسة النهار بالقاهرة ومصر - وكانت جملة مُستكثرة - وكتب بذلك توقيعا، وأبطل من أعمال الدقهلية والمهتاجية عن رسوم الولاية أربعة وعشرين ألف دينار^٢.

وفي خامس عشري شهر رمضان سنة اثنتين وستين وست مائة، قرئ بجامع مصر مكتوب بإبطال ما قرر على رسوم ولاية مصر من الرسوم، وهي مائة ألف درهم وأربعة آلاف درهم معبرة، فبطل ذلك^٣.

وأبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها في سنة خمس وستين وست مائة، وأمر بإراقة الخمور، وإبطال المنكرات، وتعفية بيوت المشكرات، ومنع الحانات والخواطئ بجميع أقطار مملكة مصر والشام، فطهرت من ذلك البقاع.

تقوم الدار فيؤخذ عن كل دينار درهم ورقا (Rabie, H., pp. 107-8 *The Financial System of Egypt*) وانظر

فيما يلي ٢: ٩٠.

^٢ نفسه ١: ٥٣٧-٥٣٨.

^٣ نفسه ١: ٥١٤.

= في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، بيروت - المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ١٩٩٨، ٦: المقريري: السلوك ١: ٣٨٤؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٧٢-٧٣؛ وانظر فيما يلي ٢: ١٢٣، ٢٣٧ «الحقوق والمعاملات».

^١ المقريري: السلوك ١: ٤٣٧-٤٣٨. والتصقيع هو أخذ أجرة شهرين من الأملاك في كل سنة، والتقويم هو أن

وَلَمَّا وَرَدَتْ الْمَرَاسِيمُ بِذَلِكَ عَلَى الْقَاضِي نَاصِرِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ الْمُتَيْرِ قَالَ :

[منسرح]

لَيْسَ لِإِبْلِيسَ عِنْدَنَا أَرْبٌ غَيْرَ بِلَادِ الْأَمِيرِ مَأْوَاهُ
حَرَمَتُهُ الْخَمْرُ وَالْحَشِيشُ مَعًا حَرَمَتُهُ مَأْوَاهُ وَمَرْعَاهُ

وقال الأديبُ الفاضلُ أبو الحسينِ الجزَّارُ^٢ :

[منسرح]

قَدْ عَطَّلَ الْكُوبُ مِنْ حُبَّابِهِ وَأُخْلِيَ الثَّغْرُ مِنْ رُضَابِهِ
وَأَصْبَحَ الشَّيْخُ وَهُوَ يَنْكِي عَلَى الذِّي قَاتَ مِنْ شَبَابِهِ^٣

وفي تاسعِ جُمادَى الآخرة سنة ستِّ وستين وستِّ مائة، أَمَرَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بِيَبْرُسَ بِإِرَاقَةِ الْخُمُورِ، وَإِبْطَالِ الْفَسَادِ، وَمَنْعِ النِّسَاءِ الْخَوَاطِئِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْبِغَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْمِصْرِيَّةِ. فَتَطَهَّرَتْ أَرْضُ مِصْرَ مِنْ هَذَا الْمُنْكَرِ، وَنُهِبَتِ الْخَانَاتُ الَّتِي كَانَتْ مُعَدَّةً لِدَكَ، وَشَلِبَ أَهْلُهَا جَمِيعٌ مَا كَانَ لَهُمْ، وَنُفِيَ بَعْضُهُمْ، وَحُبِسَتِ النِّسَاءُ حَتَّى يَنْزَوِجْنَ. وَكُتِبَ إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَحُطَّ الْمَالُ الْمَقْرُورُ عَلَى الْبَغَايَا مِنَ الدِّيَّانِ، وَعُوِّضَ الْحَاشِيَّةُ مِنْ جِهَاتِ حَلِّ بِنظيره.

وفي سابعِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ تِسْعِ وَسِتِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ، أُرِيقتِ الْخُمُورُ، وَأُبْطِلَ ضَمَانُهَا - وَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينَارٍ - وَكُتِبَ تَوْقِيعٌ بِذَلِكَ قُرئَ عَلَى الْمَنَابِرِ^٤. وَافْتَتِحَ سَنَةَ سَبْعِينَ بِإِرَاقَةِ الْخُمُورِ، وَالتَّشْدِيدُ فِي إِزَالَةِ الْمُنْكَرَاتِ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا بِالْقَاهِرَةِ^٥. وَبَلَغَهُ فِي سَنَةِ أَرْبَعِ وَسَبْعِينَ

صفحة من نشرة الكتاب . وهو أحد الشعراء المصريين المهمين في القرن السابع الهجري اشتهر بتقننه في استخدام ألوان البديع وخاصة التورية ، ويغلب على شعره الفكاهة والميل إلى المزاح والدعابة (ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب (قسم مصر) ١ : ٢٩٦ - ٣٤٨ ابن شاکر : فوات الوفيات ٤ : ٢٧٧ - ٢٩٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٧ : ٣٤٥) .

^٣ المقرئزي : السلوك ١ : ٥٥٣ - ٥٥٤ (في حوادث سنة ٦٦٤هـ) .

^٤ نفسه ١ : ٥٩٥ .

^٥ نفسه ١ : ٥٩٧ .

^١ القاضي ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي بكر بن قاسم بن مختار بن المتير قاضي الإسكندرية المتوفى سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م (المقرئزي : السلوك ١ : ٥٥٣ ، المقفى الكبير ١ : ٦٥٣ - ٦٥٤ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٨ : ١٢٨ - ١٣٠) .

^٢ الجمال أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزَّار الشاعر المتوفى سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م ، كان أبوه وأقاربه جزَّارين بالفسطاط ، قال ابن سعيد : «دكاكينهم بها إلى الآن قد عابنتها وأبصرته معهم بها» واجتمع به غير مرة أثناء زيارته للفسطاط ، وأورد مختارات من شعره بلغت نحو خمسين

عن الطواشي شجاع الدين عن المعروف بصدر الباز - وكان قد تمكن منه تمكنا كثيرا - أنه يشرب الخمر، فشنته تحت قلعة الجبل^١.

ولما ولي الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي مملكة مصر أبطل «زكاة الدولة»^(a)، وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبدا ولو عديم منه، وإذا مات يؤخذ من ورثته، وأبطل ما كان يجبي من أهل إقليم مصر كله، إذا حضر مبشر بفتح حصن أو نحوه، فيؤخذ من الناس بالقاهرة ومصر وعلى قدر طبقاتهم، ويجمع من ذلك مال كثير. وأبطل ما كان يجبي من أهل الدمة، وهو دينار سوى الجالية، يرسم نفقة الأجناد في كل سنة. وأبطل مقرر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر والغزاة، وكان يؤخذ من جميع تجار القاهرة ومصر: من كل تاجر دينار. وأبطل ما كان يجبي عند وفاء النيل مما يعمل به شوي وحلوى وفاكهة في المقياس، وجعل مصرف ذلك من بيت المال، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط.

وأبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون عدة جهات قد ذكرت في الرؤك الناصري^٣. وآخر ما أدر كنا إبطاله ضمان المغاني^(b) وضمان القراريط، في سنة ثمان وسبعين وسبع مائة، على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون.

فأما «ضمان المغاني»^(b) فكان بلاء عظيمًا، وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء نزلت اسمها عند الضامنة، وقامت بما يلزمها، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة. وكان على النساء إذا انتفسن، أو عرشن امرأة، أو خضبت امرأة يديها بحناء، أو أراد أحد أن يعمل فرحا، لا بد من مال^(c) بتقرير تأخذه الضامنة، ومن فعل فرحا بأغان، أو نفس امرأته من غير إذن الضامنة، حل به بلاء لا يوصف^٤.

(a) بولاق: زكاة الدولة. (b) بولاق: الأغاني. (c) هذه الكلمات الثلاث ساقطة من الأصل.

^١ المقرئ: السلوك ١: ٦٢٣.
^٢ نفسه ١: ٦٦٤؛ النويري: نهاية الأرب ٣١: ٤٩.
 بيبس المنصوري: زبدة الفكرة ١٧٨؛ العيني: عقد الجمان ٢: ٢٣٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ٣٦٣.
^٣ فيما تقدم ٢٣٥-٢٤١.
^٤ المقرئ: السلوك ١: ٦٦٤ هـ؛ وانظر فيما يلي ٢: ٤٠٥.

تفرض على كل مستخدم للدواليب - أي الآلات أو العجلات - في الري أو الغزل أو صناعة السكر، وعلى هذا الغرض تكون هذه الزكاة ضريبة على الآلات المستعملة في الصناعة (المقرئ: السلوك ١: ٦٦٤ هـ؛ وانظر فيما يلي ٢: ٤٠٥).

^٣ فيما تقدم ٢٣٥-٢٤١.

^٤ المقرئ: السلوك ٣: ٢٦٦؛ ابن إياس: بدائع-

وأما «ضمان القرايط»، فإنه كان يؤخذ من كل من باع ملكًا عن كل ألف درهم عشرون درهماً^١. وكان مُتَحَصِّل هاتين الجهتين مالا كثيرا جدا.

وأبطل الملك الظاهر بزقوق ما كان يؤخذ من أهل البرلس وشورى وبلطيم، شبه الجالية، في كل سنة ستين ألف درهم. وأبطل ما كان على القمح من مكس يؤخذ من الفقراء بشعر دمياط ممن يتباع من إزدئين فما دونهما. وأبطل ما كان يؤخذ مكسًا من معمل الفروج بالتحريرية والأعمال الغريبة. وأبطل ما كان يؤخذ تقديماً لمن يشرح إلى العباسية من الخيل والجمال والغنم وغير ذلك. وأبطل ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بباب النصر خارج القاهرة. وأبطل ضمان المغاني^(a) بمنية بني خصيب^(b) بأعمال الأشمونين، وبزقوق بالأعمال الغريبة. / وأبطل الأبقار التي كانت ترمى بالوجه البحري عند قراغ الجسور.

وأبطل الأمير يلبغا السالمي - لما ولي أستاذار السلطان الملك الناصر فرج بن بزقوق في سنة إحدى وثمان مائة - تعريف الغلال بمنية بني خصيب^(b)، وضمان العرصة بها، وأخصاص الغسالين وكانت من المظالم القبيحة. وأبطل من القاهرة ضمان بحيرة البقر، ثم أعاده القبط من بعده. وقد بقيت إلى الآن من المكوس بقايا.

أخبرني الأمير الوزير المشير الأستاذار يلبغا السالمي^٢ - رحمه الله^(c) - في أيام وزارته، أن جهات المكوس بديار مصر تبلغ في كل يوم بضعا وسبعين ألف درهم، وأنه اعتبرها فلم يجدها تُصرف في شيء من مصالح الدولة، بل إنما هي منافع للقبط وخواشيهم. وكان قد عزم على إبطال المكوس فلم يمهّل.

و«المال الهلالي» عبارة عما يُستأدى مُشَاهرةً، كأجر الأملاك المُسَقَّفة من الأدر، والخوانيت، والحمامات، والأفران، والطواحين، وعداد الغنم، والجهة الهوائية المضمونة والمحلولة. وعد بعض الكتاب أحكار البيوت، وربع البساتين التي يُستخرج أجرها مُشَاهرةً، ومصايد السمك، ومعاصر الشيرج والزيت، في المال الهلالي^٣.

(a) بولاق : الأغاني . (b) بولاق : ابن خصيب . (c) ساقطة من بولاق .

= الزهور ١/٢ : ١٦٦-١٦٧ . السالمي الذي كان يكن له تقديرا خاصا، وانظر فيما يلي

^١ المقرئزي : السلوك ٣ : ٢٦٧ ؛ نفسه ١/٢ : ١٦٧ . ٢٩٠-٢٩٢ .

^٢ اعتمد المقرئزي في مواضع كثيرة عما أخبره به يلبغا ^٣ النويري : نهاية الأرب ٨ : ٢٢٨ .

ومن اصطلاح كُتَاب مصر القُدماء أن تُورَد جِزِيَةُ أَهْلِ الذُّمَّةِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَلَمًا وَاحِدًا مُسْتَقِلًّا بِذَاتِهِ ، بَعْدَ الْهِلَالِيِّ وَقَبْلَ الْخَرَاجِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تُسْتَأْدَى مُسَانَهَةً ، وَكَانُوا يَزُونُ وَجُوبَهَا مُشَاهِرَةً . وَفَائِدَتُهُ فِيمَنْ أَسْلَمَ أَوْ مَاتَ فِي أَثْنَاءِ الْحَوْلِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُلْزَمُونَهُ بِقَدْرِ مَا مَضَى مِنَ السَّنَةِ قَبْلَ إِسْلَامِهِ أَوْ وَفَاتِهِ ، فَلِذَلِكَ أُورِدَتْ فِيمَا بَيْنَ الْهِلَالِيِّ وَالْخَرَاجِيِّ ^١ .

وَكَانُوا فِي الْإِقْطَاعَاتِ الْجَيْشِيَّةِ ، يُجْرُونَهَا مَجْرَى مَالِ الْهِلَالِيِّ عِنْدَ خُرُوجِ إِقْطَاعٍ مِنْ يُقْطَعُ ، وَدُخُولِ آخَرَ عَلَى ذَلِكَ الْإِقْطَاعِ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تُسْتَخْرَجُ عَلَى حُكْمِ الشُّهُورِ الْهِلَالِيَّةِ لَا الشَّمْسِيَّةِ بِحَيْثُ لَوْ تَعَجَّلَهَا مُقْطَعٌ فِي غُرَّةِ السَّنَةِ عَلَى الْعَادَةِ فِي ذَلِكَ ، وَخَرَجَ الْإِقْطَاعُ عَنْهُ فِي أَثْنَاءِ السَّنَةِ بِوَفَاةٍ أَوْ نَقْلِهِ إِلَى غَيْرِهِ ، اسْتَحَقَّ مِنْهَا نَظِيرَ مَا مَضَى مِنَ شُهُورِ السَّنَةِ إِلَى حَيْثُ انْتِقَالَ الْإِقْطَاعِ عَنْهُ ، لَا عَلَى حُكْمِ مَا اسْتَحَقَّ مِنَ الْمَغْلِّ . وَيَسْتَحَقُّ الْمُتَّصِلُ مِنْ اسْتِقْبَالِ تَارِيخِ مَنْشُورِهِ ، كَعَادَةِ التَّقْوَدِ وَالْمُتَخَلَّلِ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُدَّةِ مُسْتَحَقَّ ذَلِكَ الْدِيَّوَانِ ، فَيُرَدُّ مِنْ جَمَلَةِ الْمَحْلُولَاتِ مِنَ الْإِقْطَاعَاتِ .

وَكَانَ مِنْ أَبْوَابِ الْهِلَالِيِّ جِهَاتٌ تُسَمَّى «الْمُعَامَلَاتِ» ، وَهِيَ : الزُّكَاةُ ، وَالْمَوَارِيثُ ، وَالشُّغُورُ ، وَالْمَشَجَرُ ، وَالشُّبُّ ، وَالنُّطْرُونُ ، وَالْحَبْسُ الْجَيْوشِيِّ ، وَدَارُ الضَّرْبِ ، وَدَارُ الْعِيَارِ ، وَالْجَامُوسُ ، وَأَبْقَارُ الْحَيْسِ ، وَالْأَغْنَامِ ، وَالغُرُوسُ وَالْبَسَاتِينَ ، وَالْأَحْكَارُ وَالرُّبَاعُ ، وَالْمَرَائِبُ ، وَمَا يُسْتَأْدَى مِنَ الذُّمَّةِ غَيْرِ الْجَوَالِيِّ ، وَسَاحِلُ السَّنْطِ ، وَالْحَرَاجُ ^(a) ، وَالْقَرْظُ ، وَمَقَرَّرُ الْجُسُورِ ، وَمَوْظَفُ الْأَثْبَانِ ، وَمَقَرَّرُ الْقَصَبِ ، وَمَقَرَّرُ الْبَرِيدِ ، وَمَقَرَّرُ الْبَسْطِ ^(b) ، وَعُشْرُ الْعَرَقِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ جِهَاتِ الْمَكُوسِ .

فَأَمَّا الْجِزِيَّةُ - وَتُعْرَفُ فِي زَمَانِنَا بِالْجَوَالِيِّ - فَإِنَّهَا تُسْتَخْرَجُ سَلْفًا وَتَعَجِيلًا فِي غُرَّةِ السَّنَةِ ، وَكَانَ يُتَحَصَّلُ مِنْهَا مَالٌ كَثِيرٌ فِيمَا مَضَى .

قَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ الْحَوَادِثِ» : الَّذِي انْعَقَدَ عَلَيْهِ ارْتِفَاعُ الْجَوَالِيِّ لِسَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ : مِائَةٌ أَلْفٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفٌ دِينَارًا . وَأَمَّا فِي وَقْتِنَا هَذَا ، فَإِنَّ الْجَوَالِيَّ قَلَّتْ جَدًّا لِكَثْرَةِ إِظْهَارِ النَّصَارَى لِلْإِسْلَامِ فِي الْحَوَادِثِ الَّتِي مَرَّتْ بِهِمْ .

وَلَمَّا اسْتَبَدَّ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ شَيْخُ بُلْكَ مِصْرَ ، بَعْدَ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَعِينِ بِاللَّهِ ، وَلَّى رَجُلًا جَبَايَةَ الْجَوَالِيِّ ، فَكَثُرَ الْاسْتِقْصَاءُ عَنِ الذُّمَّةِ وَالْكَدِّ فِي الْإِسْتِخْرَاجِ مِنْهُمْ ،

(a) الأصل وبولاق : الحراج . (b) الأصل : النبط .

^١ النوري : نهاية الأرب ٨: ٢٤١ وانظر أيضًا Cahen, Cl., *El*² art. *Djawāli* II, p. 502 وفيما تقدم ٢٠٧ .

فَبَلَغَتْ الْجَوَالِي فِي سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةَ وَثَمَانِ مِائَةٍ : أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ وَأَرْبَعِ مِائَةِ دِينَارٍ ، سِوَى مَا غَرِمَ لِلْأَعْوَانِ ، وَهُوَ قَدْرٌ كَثِيرٌ .

وَأَمَّا «الْمَرَاعِي» - وَهُوَ الْكَلَاءُ الْمُطْلَقُ الْمُبَاحُ الَّذِي أَنْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَعِي دَوَابِّ بَنِي آدَمَ - فَأَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَهَا الدِّيوانَ بِمِصْرَ أَحْمَدُ بْنُ مُدَبِّرٍ ، لَمَّا وَلى الخِرَاجَ ، وَصَيَّرَ لِدَلِكِ دِيوانًا وَعَامِلًا جَلْدًا يَحْظَرُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَتْبَاعُوا الْمَرَاعِي أَوْ يَشْتَرُوهَا إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ .

وَأَذْرَكْنَا الْمَرَاعِي بِيَلادِ الصُّعِيدِ مِمَّا يُضَافُ إِلَى الْإِقْطاعاتِ ، فَيَأْخُذُ الْأَمِيرُ مِمَّنْ يَزْعَى دَوَابَّهُ فِي أَرْضِ بَلَدِهِ الْكُتَيْبِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَالًا عَنْ كُلِّ رَأْسٍ ، فَيَجِبِي مِنْ صَاحِبِ الْماشِيَةِ بَعْدَ أَنْعَامِهِ ؛ فَلَمَّا اخْتَلَّ أَمْرُ الصُّعِيدِ فِي الْحِوَادِثِ الْكائِنَةِ مِنْذُ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِ مِائَةٍ ، تَلَأَشَى الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ . وَكَانَتْ الْعَادَةُ الْقَدِيمَةُ أَنْ يُنْدَبَ لِلْمَرَاعِي مُشَدِّ وَشُهُودٌ وَكَاتِبٌ ، فَيَعَدُّونَ الْمَواشِي ، وَيَسْتَخْرِجونَ مِنْ أَرْبابِها عَنْ كُلِّ رَأْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ هُبُوطِ النَّيْلِ وَنَبَاتِ الْكَلَاءِ وَاسْتِهْلَاكِهَ لِلْمَرَاعِي .

وَأَمَّا «الْمَصَايِدُ» فَهِيَ مَا أَطْعَمَ اللَّهُ سَبْحانَهُ وَتَعَالَى مِنْ صَيْدِ الْبَحْرِ ؛ وَأَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَهَا الدِّيوانَ أَيْضًا ابْنُ مُدَبِّرٍ ، وَصَيَّرَ لَهَا دِيوانًا ، وَاحْتَشَمَ مِنْ ذِكْرِ الْمَصَايِدِ وَشِناعَةَ الْقَوْلِ فِيها ، فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ فِي الدِّيوانِ خِرَاجُ مَضارِبِ الْأوتادِ وَمَغَارِسِ الشُّبَاكِ ، فَاسْتَمَرَ ذَلِكَ .

وَكَانَ يُنْدَبُ لِمَبَاشَرَتِها مُشَدِّ وَشُهُودٌ وَكَاتِبٌ إِلَى عِدَّةِ جِهاتٍ ، مِثْلَ خَلِيجِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَبُحَيْرَةِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَبُحَيْرَةِ نَشْتَرُو ، وَتَغْرَ دِمِياطَ ، وَجَنادِلَ تَغْرَ أَشوانَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْبِرْكِ وَالْبُحَيْرَاتِ ، فَيَخْرُجونَ عِنْدَ هُبُوطِ النَّيْلِ وَرُجُوعِ الْماءِ مِنَ الْمَزارِعِ إِلَى بَحْرِ النَّيْلِ بَعْدَ ما تَكُونُ أَقْواءُ الشَّرْعِ قَدْ سَكَّرَتْ ، وَأَبْوابُ الْقَنَاطِرِ قَدْ سُدَّتْ عِنْدَ انْتِهاؤِ زِيادَةِ النَّيْلِ ، كَيْما يَتَراجَعُ/ الْماءُ وَيَتَكَاثَفُ مِمَّا يَلِي الْمَزارِعَ .

ثُمَّ تُنْصَبُ شُبَاكٌ وَتُضْرَفُ الْمِياهُ ، فَيَأْتِي الشَّمَكُ وَقَدْ انْدَفَعَ مَعَ الْماءِ الْجاري ، فَتَصُدُّهُ الشُّبَاكُ عَنِ الْإِنْجِدارِ مَعَ الْماءِ وَيَجْتَمِعُ فِيها لِيَخْرُجَ إِلَى الْبَرِّ وَيُوضَعَ عَلَى أَنْخاخٍ ، وَيُمْلَحُ وَيُوضَعُ فِي الْأَمطارِ ، فَإِذا اسْتَوَى أُبَيْعَ وَقِيلَ لَهُ «الْمَلُوحَةُ وَالصُّيْرُ» ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا كانَ مِنَ الشَّمَكِ فِي قَدْرِ الْأَضْبَعِ فَمَا دُونَهُ ، وَيُسَمُّونَ هَذَا الصَّنْفَ إِذا كانَ طَرِيًّا «إِبْسارِيَّةً» فَتُؤَكَلُ مَشْوِيَّةً وَمَقْلُوءَةً .

وَيُصَادُ مِنْ بُحَيْرَةِ نَشْتَرُو وَبُحَيْرَةِ تَيْسِ وَبُحَيْرَةِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ أَشْماكٌ تُعْرَفُ بِالْبُورِي : وَقِيلَ لَهَا ذَلِكَ لِأَنَّها كانَتْ تُصادُ عِنْدَ قَرْيَةٍ مِنْ قَرْيِ تَيْسِ يُقالُ لَهَا بُورَةَ ، وَقَدْ خَرِبَتْ ، وَالنَّسْبَةُ إِلَيْها

^١ نبات تستغني به الخليل والدواب والماشية عن البرسيم (النويري : نهاية الأرب ٨: ٢٤٧) .

البوري ، ونُسب إليها جماعة من الناس منهم بَنُو البوري . وقيل لهذا السمك البوري إضافة إلى القرية المذكورة ^١ .

وقد بَطَلَ في زَمَننا اليوم أمر هذه المصايد ، إلا من بُحَيْرَة نَسْترو بالبزلُس ، وبُحَيْرَة تَنيس بدمياط فقط . وهاتان البحيرتان تجريان في ديوان الخاص ، وهما مُضْمَتَتان ، وما يَخْرُج منهما من البوري وغيره من أنواع السمك فللسلطان ، لا يَقْدِر أَحَدٌ أن يتعرَّض لصيْد شيء منه إلا أن يكون من صيَّاديهما القائمين بالضمان . وما عدا هاتين البحيرتين من البرك والأملاق والخُلجان فليست للسلطان . وأما بُحَيْرَة إسكَنْدريَة فقد جَفَّت ، وثَغْر أسوان فقد خرج عن يد السلطنة ، وتغلب عليه أولاد الكثر ^(a) .

وتم برك بأيدي أقوام ، كبركة الفيل بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس ، وبركة الرطلي بيد أولاد الأمير بكتمر الحاجب ، وغير ذلك ، فإن أسماكها مُضْمَنَة لهم يبيعونها ، ومع ذلك لا يُمنع أَحَدُ الصيِّد منهما .

وأما بحر النيل فما صيِّد منه يُحْمَل إلى دار السمك بالقاهرة ، فيباع ويُؤخذ منه مكس السلطان ، إلا أن الأمير جمال الدين يوسف الأستادار زاد فيما كان يُؤخذ من الصيادين مكسا ، ومن حينئذ قل السمك بالقاهرة وغلا سعره .

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس في «تاريخ مصر» : إن صنما كان بالإسكندرية يُقال له سُراحيل ، على حشفة من حشاف البحر ، مستقبلاً بأضبع من كفه قسطنطينية ، لا يُدرى أكان مما عمَّله سليمان النبي ، أم عمَّله الإسكندر ؟ فكانت الحيتان يدورون ^(b) بالإسكندرية وتُصاد عندها فيما زعموا .

قال زَيْدُ بن عبد الرحمن بن زَيْد بن أسلم : أخبرني أبي عن أبيه أنه انبطح على بطنه ومد يديه ورجليه ، فكان طولُه طول قَدَم الصنم . فكتب رجل يُقال له أسامة بن زَيْد ، كان عاملاً على مصر للوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين : أن عندنا بالإسكندرية صنما ، يُقال له سُراحيل ، من نحاس ، وقد غلت علينا الفلوس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنزله ونضربه فلوساً فعَل ، وإن رأى غير ذلك

(a) بولاق : الكفرة . (b) بولاق : تدور .

^١ التويري : نهاية الأرب ٨ : ٢٦٢ - ٢٦٤ ؛ وانظر فيما يلي ٤٩٢ .

فَلْيَكْتُبْ إِلَى مَنْ أَمَرَهُ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ : لَا تُنْزِلْهُ حَتَّى أَتَيْتَ إِلَيْكَ ضَمَنَاءَ يُحْضِرُونَهُ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجَالًا أَمَنَاءَ حَتَّى أَنْزَلَ مِنَ الْحَشْفَةِ ، فَوَجَدُوا عَيْنِيهِ يَأْقُوتَتَيْنِ حَمْرَاوِينَ لَيْسَ لَهُمَا قِيَمَةٌ ، فَضَرَبَهُ فُلُوسًا ، فَانْطَلَقَتِ الْحَيْتَانِ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلَى مَا هُنَاكَ .

وَأَمَّا «الزَّكَاةُ»^١ فَإِنَّ السُّلْطَانَ صَلاَحَ الدِّينِ يُوسُفَ بْنَ أَيُّوبَ أَوَّلَ مَنْ جَبَاهَا بِمِصْرَ ، قَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسٍ مِائَةَ : ثَالِثَ عَشَرَ رَبِيعَ الْآخِرِ فُرِّقَتِ الزُّكُوتُ ، بَعْدَ مَا جُمِعَتْ ، عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ وَالغَارِمِينَ ، بَعْدَ أَنْ رُفِعَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ السُّهُامُ الْأَرْبَعَةُ ، وَهِيَ : سِهُامُ الْعَامِلِينَ ، وَالْمُؤَلَّفَةِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي الرِّقَابِ ، وَقُرِّرَتْ لَهُمْ فَرِيضَةٌ ، وَاسْتَوْدِيَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْبَضَائِعِ ، وَعَلَى مَا يَتَقَرَّرُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوَاشِيِّ وَالنَّخْلِ وَالخَضِرَاوَاتِ .

قَالَ : وَالَّذِي انْتَقَدَ عَلَيْهِ ارْتِفَاعُ الْجَوَالِي لِسَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِائَةَ : [مِائَةُ أَلْفٍ وَ] (a) ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَالزَّائِدُ فِي مُعَامَلَةِ الزُّكَاةِ وَدَارِ الضَّرْبِ لِسَنَتِي سِتِّ وَسَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِائَةَ : أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ وَثَمَانِ مِائَةَ وَأَحَدٌ وَسِتُونَ دِينَارًا .

وَقَالَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ : وَاسْتُخْدِمَ ابْنُ حَمْدَانَ فِي دِيْوَانِ الزُّكَاةِ ، وَكَتَبَ خَطَّهُ بِمَا مَبْلَغُهُ اثْنَانِ وَخَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ لِسَنَةِ وَاحِدَةٍ مِنْ مَالِ الزُّكَاةِ ، وَجَعَلَ الطَّوَّاشِيَّ^٢ قَرَاغِشَ الشَّادِ فِي هَذَا الْمَالِ وَأَلَّا يَتَصَرَّفَ فِيهِ ، بَلْ يَكُونَ فِي صَنْدُوقٍ مُودَعًا لِلْمَهْمَاتِ الَّتِي يُؤَمَّرُ بِهَا .

(a) زيادة من السلوك .

^١ الزَّكَاةُ هِيَ الصَّدَقَةُ الَّتِي لَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي مَالِهِ حَقٌّ سِوَاهَا ، وَهِيَ تَجِبُ فِي الْأَمْوَالِ الْمُرَصَّدَةِ لِلنَّمَاءِ وَالَّتِي حَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ . وَيَنْقَسِمُ هَذَا الْمَالُ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى : مَالٍ ظَاهِرٍ يَشْمَلُ الزَّرْعَ وَالشَّارَ وَالْمَوَاشِيَّ ، وَمَالٍ بَاطِنٍ يَشْمَلُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَعَرُوضَ التِّجَارَةِ ؛ وَيَخْتَصُّ نَظَرُ وَالِي الصَّدَقَاتِ فَقَطْ بِزَكَاةِ الْأَمْوَالِ الظَّاهِرَةِ ، أَمَّا زَكَاةُ الْمَالِ الْبَاطِنِ فَارْبَابُهُ أَحَقُّ بِزَكَاتِهِ (الْمَاورِدِيُّ : الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ ٩٨-١٠١) . وَحَدَّدَ الْمُخْرُومِيُّ وَابْنُ مُمَاتِي فِي جَدْوَلٍ جَامِعٍ مَا تَجِبُ فِيهِ الزُّكَاةُ وَمَصَارِفُهَا وَمَا لَا تَجِبُ فِيهِ (الْمَنْهَاجُ ٤٢-٤٣ ؛ قَوَانِينُ الدَّوَاوِينِ ٣٠٨-٣١٦) ، مَعَ مِلَاحَظَةِ أَنَّ مِصْرَفَ الزُّكَاةِ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ [الآيَةُ ٦٠ سُورَةُ

التوبة] وَلَيْسَ لِلْأُمَّةِ اجْتِهَادٌ فِيهِ .
وَأَصْدَرَ السُّلْطَانَ صَلاَحَ الدِّينِ سَجَلًا فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ٥٧٣هـ/١١٧٧مَ بِإِبْطَالِ جَمِيعِ الْمَكُوسِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، أَمْرٌ فِيهِ بَانَ تَسْتَأْدِي الزُّكَاةُ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (سَاوِيرِسُ بْنُ الْمَقْفَعِ : تَارِيخُ بَطَارِكَةِ الْكَنِيسَةِ ٢/٣ : ٦٩) ؛ وَانظُرْ نَصَّ السَّجَلِ بِإِسْقَاطِ الْمَكُوسِ وَتَارِيخَهُ صَفْرَ سَنَةِ ٥٦٧هـ/١١٧١مَ عِنْدَ أَبِي شَامَةَ : الرَّوَضَتَيْنِ ١/٢ : ٤٤٣ ، ٥٢٢-٥٢٣) .

^٢ عَنْ مَعْنَى الطَّوَّاشِيِّ انظُرْ فِيْمَا تَقْدَمُ ٢٣٢ .

ولمَّا قَدِمَ ابْنُ عُنَيْنٍ الشَّاعِرُ^١ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ سَيْفِ الْإِسْلَامِ طُعْتُكَيْنِ بْنِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبِ ابْنِ شَاذِي مَلِكِ الْيَمَنِ إِلَى مِصْرٍ - وَقَدْ أَجْزَلَ صَلَاتَهُ عِنْدَمَا وَفَدَ عَلَيْهِ وَفَارَقَهُ ، وَقَدْ أَثْرَى ثَرَاءً كَثِيرًا - قَبَضَ أَرْبَابُ دِيْوَانِ الزَّكَاةِ بِمِصْرٍ عَلَى مَا قَدِمَ بِهِ مِنَ الْمَثَجَرِ ، وَطَالَبُوهُ بِزَكَاةِ مَا مَعَهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ عُثْمَانَ بْنِ صَالِحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبِ بْنِ شَاذِي ، فَقَالَ^٢ :

[البيط]

مَا كُلُّ مَنْ يَتَسَمَّى بِالْعَزِيزِ لَهَا أَهْلٌ ، وَلَا كُلُّ بَرَقٍ سُحِبَهُ غَدَقَةٌ
بَيْنَ الْعَزِيزَيْنِ بَوْنٌ^٣ فِي فِعَالِهِمَا : هَذَاكَ يُغْطِي ، وَهَذَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ

ثُمَّ إِنَّ الْعَزِيزَ كَشَفَ عَمَّا يُسْتَأْدَى مِنَ الزَّكَاةِ ، فَإِنَّهُ انْتَهَى إِلَيْهِ فِيهَا أَقْوَالٌ شَنِيعَةٌ ، مِنْهَا أَنَّهُ أُخِذَ مِنْ رَجُلٍ فَقِيرٍ يَبِيعُ الْجِلْحَ فِي قُمَّةٍ عَلَى رَأْسِهِ زَكَاةً عَمًّا فِي الْقُمَّةِ ، وَأَنَّهُ يَبِيعُ بَجَمَلٍ بِخَمْسَةِ دَنَانِيرٍ ذَهَبٍ فَأَخَذَ زَكَاتَهَا خَمْسَةَ دَرَاهِمٍ . فَأَمَرَ بِتَقْوِيضِ / أَمْرِهَا إِلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ ، وَمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ حَقٌّ فِيهَا وَحَمَلَهُ إِلَى دِيْوَانِ الزَّكَاةِ قَبْلَ مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْمَلْ لَا يُتَعَرَّضُ إِلَيْهِ . فَبَخَلَ الْأَغْنِيَاءُ بِزَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى تَضَرَّرَ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ ، وَأَخَذَ الشُّعَاةُ يَتَدُلُّونَ فِي ضَمَانِهَا الْأَمْوَالِ لِتَعُودَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ . فَوَلِيَ النَّظَرَ فِي دِيْوَانِ الزَّكَاةِ الْقَاضِي الْأَسْعَدُ شَرْفُ الدِّينِ أَبُو الْمَكَارِمِ أَسْعَدُ بْنُ مُهَذَّبِ بْنِ تَمَّاتِي ، فَاسْتَخْرَجَ الزَّكَاةَ مِنْ أَرْبَابِهَا ، ثُمَّ ضَمِنَتْ بِمَالٍ كَثِيرٍ ، وَعَادَ الْأَمْرُ فِيهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَسْفِ وَالْجَوْرِ .

وَكَانَتْ أَعْوَانُ مُتَوَلِّيِ الزَّكَاةِ تَخْرُجُ إِلَى مُنْيَةَ بَنِي^٤ خَصِيبٍ وَإِخْمِيمٍ وَقُوصٍ ، لِكَشْفِ أَسْوَاقِ الْمُسَافِرِينَ مِنَ الثُّجَّارِ وَالْحُجَّاجِ وَغَيْرِهِمْ ، فَيَبْحَثُونَ عَنْ جَمِيعِ مَا مَعَهُمْ ، وَيُدْخِلُونَ أَيْدِيَهُمْ أَوْسَاطَ الرِّجَالِ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ مَالٌ ، وَيُحْلِفُونَ الْجَمِيعَ بِالْأَيْمَانِ الْحَرِجَةِ عَلَى مَا بَأَيْدِيَهُمْ وَمَا عِنْدَهُمْ غَيْرَ مَا وَجَدُوهُ .

(a) بولاق : فرق . (b) بولاق : ابن .

^١ ٢٢ : ٣٦٣ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٥ : ١٢٢ - ١٢٧ ؛
(El² art. Ibn 'Unayn III, pp. 986-87).

^٢ الأبيات في ديوان ابن عنين ، تحقيق خليل مردم .
دمشق ١٩٤٦ م ، ٢٢٣ .

^١ شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن مكارم
ابن الحسن الزرعي الحوراني المشهور بابن عنين الأنصاري
الدمشقي الشاعر ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م (ياقوت :
معجم الأدباء ١٩ : ٨١ - ٩٢ المنذري : التكملة لوفيات
النقطة ٣ : ٣٣٦ - ٣٣٧ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء

وتقوم طائفة من مرّدة هذه الأعوان ، وبأيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة ، فيضعّدون إلى المراكب ، وينخسون بمسألهم جميع ما فيها من الأحمال والغرائب ، مخافة أن يكون فيها شيء من بضاعة أو مال ، فيبالغون في البحث والاستقصاء ، بحيث يقبح ويستشنع فعلهم . ويقف الحجاج بين يدي هؤلاء الأعوان مواقف خزي ومهانة ، لما يصدّر منهم عند تفتيش أوساطهم وغرائب أزوادهم ، ويحل بهم من العسف وشوء المعاملة ما لا يوصف ، وكذلك يفعل في جميع أرض مصر منذ عهد السلطان صلاح الدين يوسف^a بن أيوب^١ .

ثم لما كانت سلطنة الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي^a ، أخرج من زكاة الأموال التي كانت تجبى من الناس سهمي الفقراء والمساكين وأمر بصرفهما في مصارفهما الشرعية ، ورتب من جملة هذين السهمين معاليم للفقهاء والصلحاء وأهل الخير تجرى عليهم ، فاستحسن ذلك من فعله^٢ .

وأما الثغور : فهي دمياط ، وتيس ، ورشيد ، وعيناب ، وأسوان ، والإسكندرية - وهي أعظمها قدرًا - فإنه كان فيها عدّة جهات منها «الخمس» و«المتجر»^٣ .

ف «الخمس» ما يستأدى من تجار الروم الواردين في البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما صولجوا عليه ، ورُبما بلغ ما يُستخرج منهم عما قيمته مائة دينار ما يُناهز^b خمسة وثلاثون دينارًا ، ورُبما انحطّ عن عشرين دينارًا . ويُسمّى كلاهما «خمسًا» . ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر ، ولذلك ضرائب مقرّرة^٤ .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق مائتان .

^٤ كانت العادة أن يجبي من التجار غير المسلمين الوافدين إلى دار الإسلام «العشر» من قيمة بضائعهم ، وأباح الإمام الشافعي للحاكم أن يزيد هذه النسبة إلى الخمس أو ينقصها إلى نصف العشر أو يزيلها نهائيًا (القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٥٩) ؛ وعن ما يستأدى من تجار الروم أو الخمس الرومي راجع ، المخزومي : المنهاج ٢٢ - ٢٩ ، ٤٥ - ٤٦ ، ٤٩ ؛ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣٢٦ ، التويري : نهاية =

^١ هذا وصف ابن جبير لما كان يتم في ميناء الإسكندرية مع الحجاج والتجار على السواء (الرحلة ١٣ - ١٤ ، ٣٩) .
^٢ واضح أن هذا الخبر كان في طيارة بين نسخة المقريري ونقلها بعض الشياخ دون أن يعرف مكانها فجاءت في النسخ التي اعتمدت عليها نشرة بولاق في وسط الخبر المنسوب إلى الملك العزيز عثمان في الصفحة السابقة سطر ١٠ .

^٣ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣٢٥ .

وقال القاضي الفاضل: والحاصل من «خمس الإسكندرية» في سنة سبع وثمانين وخمسة مائة ثمانية وعشرون ألف دينار وست مائة وثلاثة عشر دينارًا.

و«المتجر» عبارة عما يُتباع للديوان من بضائع [التجار الواردين مما^a] تدعو إليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة. قال جامع «سيرة الوزير اليازوري»: وقصر النيل بمصر في سنة أربع وأربعين وأربع مائة، ولم يكن في مخازن الغلات شيء، فاشتدت المسغبة بمصر، وكان لخلو المخازن سبب أوجب ذلك، وهو أن الوزير الناصر للدين لما أضيف إليه القضاء في أيام أبي البركات الوزير كان يتباع للسلطان في كل سنة غلة بمائة ألف درهم، وتُجمل متجرًا^١.

فمثل القاضي بحضرة الخليفة المستنصر^b بالله، وعرفه أن المتجر الذي يُقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين، وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها، فتتغن في المخازن وتتلف، وأنه يُقيم متجرًا لا كلفة فيه على الناس، ويُفيد أضعاف فائدة الغلة، ولا يُخشى عليه من تغييره في المخازن ولا انحطاط سعره، وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك؛ فأمر السلطان له ما رآه.

واستمر ذلك، ودام الرخاء على الناس، فوسعوا فيه مدة سنين ثم عمل الملوك بعد ذلك ديوانًا للمتجر، وأجر من عمله الظاهر بزقوق.

وأما «الشب» فإن معادنه بالصعيد، وكانت عادة الديوان الإنفاق في تحصيل القنطار منه بالليثي مبلغ^c ثلاثين درهماً، وكانت العربان تُحضره من معادنه إلى ساحل إخميم وسيوط والبهنسا ليحمل إلى الإسكندرية أيام النيل في الخليج، ويُشترى بالقنطار الليثي، ويباع بالقنطار الجزوي: فيباع منه على تجار الروم قدر اثني عشر ألف قنطار بالجزوي، بسعر أربعة دنانير كل قنطار إلى ستة دنانير، ويباع منه بمصر على اللبديين والصبغاين نحو الثمانين قنطارًا بالجزوي،

(a) زيادة من ابن ممتي مصدر النقل. (b) بولاق: المستعين. (c) بولاق: يبلغ.

^١ عن المتجر انظر الخزومي: المنهاج ٩، ٤٨، ٥٧؛ ابن ممتي: قوانين ٣٢٧ - ٣٢٩؛ المقرئ: إغاثة الأمة ٢٠، اتعاظ الحنفا ٢: ٢٢٥؛ أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٤٩٤ - ٤٩٥؛ وفيما يلي ١: ٤٦٥.

= الأرب ٢٨: ٣٣٦ - ٣٣٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564-641/A.D. 1169-1341*, pp. 90-91; Cahen, Cl., *Makhzûmiyyât* pp. 84, 88-89

فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ٥٣١ - ٥٣٧.

سعر ستة دنانير ونصف القنطار . ولا يَقْدَرُ أَحَدٌ عَلَى ابْتِيعَاةِ مِنَ الْعُرْبَانِ وَلَا غَيْرِهِمْ ، فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَحَدٍ أَنَّهُ اشْتَرَى مِنْهُ شَيْئًا أَوْ بَاعَهُ سِوَى الدِّيَّانِ ، نُكِّلَ بِهِ ، وَاسْتَهْلَكَ مَا وُجِدَ مَعَهُ مِنْهُ . وَقَدْ بَطَلَ الْيَوْمُ^(a) هَذَا^١ .

وَأَمَّا «النُّطْرُونَ» فَيُوجَدُ فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِنَاحِيَةِ الطَّرَائِنَةِ^٢ ، وَهُوَ أَحْمَرٌ وَأَخْضَرٌ ، وَيُوجَدُ مِنْهُ بِالْفَاقُوسِيَّةِ شَيْءٌ دُونَ مَا يُوجَدُ فِي الطَّرَائِنَةِ . وَهُوَ أَيْضًا مِمَّا حَظَرَ عَلَيْهِ ابْنُ مُدَبِّرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَتْ مُبَاحَةً ، وَجَعَلَهُ فِي دِيْوَانِ السُّلْطَانِ ، وَكَانَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ . وَقَدْ كَانَ الرَّسْمُ فِيهِ بِالذِّيَّانِ أَنْ يُحْمَلَ مِنْهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ عَشْرَةَ آلَافٍ قِنْطَارًا ، وَيُعْطَى الضَّمَانُ مِنْهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ قَدْرَ ثَلَاثِينَ قِنْطَارًا يَتَسَلَّمُونَهَا مِنَ الطَّرَائِنَةِ فَيُبَاعُ فِي مِصْرَ بِالْقِنْطَارِ الْمِصْرِيِّ ، وَفِي بَحْرِ الشَّرْقِ وَالصَّعِيدِ بِالْجَزْوِيِّ ، وَفِي دِمِيَاطَ بِاللِّيْتِيِّ^٣ .

١١٠ قال القاضي الفاضل : وَبَابُ النُّطْرُونَ كَانَ مَضْمُونًا إِلَى آخِرِ سَنَةٍ / خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ بِمَبْلَغِ خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ دِينَارٍ ، وَحَصَلَ مِنْهُ فِي سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ مَبْلَغُ سَبْعَةِ آلَافٍ وَثَمَانِ مِائَةِ دِينَارٍ . وَأَدْرَكْنَا النُّطْرُونَ إِقْطَاعًا لِعِدَّةِ أَجْنَادٍ . فَلَمَّا تَوَلَّى الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ الْأُسْتَاذِيَّةِ وَصَارَ مُدَبِّرَ الدَّوْلَةِ فِي الْأَيَّامِ الظَّاهِرِيَّةِ بَرْقُوقَ ، حَازَ النُّطْرُونَ ، وَجَعَلَ لَهُ مَكَانًا لَا يُبَاعُ فِي غَيْرِهِ ، وَهُوَ إِلَى الْآنَ عَلَى ذَلِكَ .

١٥ وَأَمَّا «الْحَبْسُ الْجِيُوشِي» فَكَانَ فِي الْبَرِّ الشَّرْقِيِّ وَالغَرْبِيِّ : فِي الشَّرْقِيِّ بَهْتِيَّتِ وَالْأَمِيرِيَّةِ وَالْمُنِّيَّةِ ، وَكَانَتْ تُسَجَّلُ هَذِهِ النَّوَاحِي بَعَيْنِ^(b) ، وَفِي الْغَرْبِيِّ سَفْطَ وَنَهْيَا وَوُسَيْمٍ . وَهَذِهِ النَّوَاحِي حَبَسَتْهَا أَمِيرُ الْجِيُوشِ بَدْرُ الْجَمَالِيِّ عَلَى عَقْبِهِ ، هِيَ وَالْبَسَاتِينَ ظَاهِرُ بَابِ الْفَتْوحِ ، فَلَمَّا

(a) ساقطة من بولاق . (b) ابن ممتي : مفادنة بالعين .

^١ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣٢٨-٣٢٩ ؛ الفلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٤٥٥ ؛ ومما تقدم ١ : ٨٣ .

^٢ الطرائنة . من القرى القديمة ، وردت في كتب الجغرافية العربية التي كتبت قبل منتصف القرن السادس الهجري باسم «ترنوط» وهي تقع على الشاطئ الغربي لفرع النيل الغربي (فرع رشيد) ، ذكر الإدريسي أنها مدينة صغيرة متحضرة يجلب منها النطرون الجيد إلى جميع البلاد (نزهة المشتاق

^٣ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣٣٤-٣٣٦ .

٣٤١) ، وأضاف ياقوت أن بها معاصر للسكر وبساتين ، وأن أكثر فواكه الإسكندرية منها (معجم البلدان ٢ : ٢٧) ، ثم ورد اسمها في الرؤك الصلاحي باسم الطرائنة ، وهي اليوم إحدى قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٢ : ٣٣١-٣٣٢) .

مات وطال العهد، اشتأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلبًا للفائدة، ثم أُدخِلت في الديوان^١.

قال ابن المأمون في «تاريخه»: وجميع البساتين المختصة بالورثة الجبوشية^٢، مع البلاد التي

لهم، لم تنزل في مدة أيام الوزير المأمون البطائحي بأيديهم، لم تخرج عنهم بضمان ولا غيره.

فلما توفي الخليفة الأمير بأحكام الله، وجلس أبو علي بن الأفضل بن أمير الجيوش في الوزارة، أعاد

الجميع إلى الملك لكون نصيبه في ذلك الأوفر. فلما قتل واستبد الخليفة الحافظ لدين الله، أمر

بالقبض على جميع الأملاك، وحل الأعباس المختصة بأمير الجيوش. فلم ينزل يانس به - لأنه غلام

الأفضل والوزير في ذلك الوقت - وعز الملك غلام الأوحى بن أمير الجيوش، يتلطفان ويراجعان

الخليفة، مع الكتب التي أظهرها الورثة وعليها خطوط الخلفاء، إلى أن أبقاها عليهم ولم يخرجها

عنهم. ثم ارتفعت الخوطة عنها في سنة سبع وعشرين وخمسة مائة للديوان الحافظي.

ولما خدَم الخطير والمترضى في سنة إحدى وثلاثين وخمسة مائة، في وزارة رضوان بن

ولخشي، أعاد البساتين خاصة، دون البلاد، على الورثة بحكم مال أمرها إليه من الاختلال

ونقص الارتفاع. ولما انقضى عقيب أمير الجيوش، ولم يبق منه سوى امرأة كبيرة، أفتى فقهاء

ذلك العصر ببطلان الحبس. فقُبِضت الثواحي، وصارت من جملة الأموال السلطانية: فمنها ما

هو اليوم في الديوان السلطاني، ومنها ما صار وقفًا ورزقًا أعباسية، وغير ذلك^٣.

وأما «دار الضرب»، فكان بالقاهرة دار الضرب، وبالإسكندرية دار الضرب، وبقوص دار

الضرب. ولا يتولى عيار دار الضرب إلا قاضي القضاة أو من يشترخلفه^٤، ثم رذلت في زمان حتى صار

يلها مسالمة فسقة اليهود المصيرين على الفسق مع ادعائهم الإسلام. وكان يُجْتَهَدُ في خلاص

الذهب وتحرير عياره، إلى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية فجاءت غير خالصة^٥.

^١ قارن ابن ممتي: قوانين الدواوين ٣٣٦-٣٣٩؛ الدواوين ٣٣١-٣٣٣.

المقريري: مسودة المواعظ ٣٨٩-٣٩٠، وفيما يلي
١: ٤٨٧ وأورد المقريري في الكراسة المحفوظة في مكتبة
Liège ذكر أبواب المال الهلالي ولكن ليس بنفس الصيغة
ورقة ٩٦-٩٨.

^٢ انظر فيما يلي ١٢٩:٢-١٣٠.

^٣ ابن المأمون: أخبار مصر ١٠٥.

^٤ انظر فيما يلي ١: ٤٤٥، وقارن ابن ممتي: قوانين

الدنانير الناصرية ٦١-٦٦، ١٩٩٦.

^٥ الدينار الناصري ضربه السلطان الناصر فرج سنة
١٤٠٨/هـ ١١١١م كمحاولة منه للتصدي لمنافسة الدوكات
(Ducat) البندقية، وكان التعامل بها يتم بالقد لا بالوزن
(Bacharach, J.L., «The Dinar versus the Ducat»)
IJMES IV (1973), pp. 86-87؛ رأفت النبراوي: النقود
الإسلامية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة
١٩٩٦، (٦١-٦٦).

وكانت بمصر المعاملة بالورق ، فأبطلها الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب في سنة بضع وعشرين ، وضرب الدرهم المدور الذي يُقال له الكاملي ، وجعل فيه من النحاس قدر الثلث ، ومن الفضة الثلثين ^١ . ولم يزل يُضرب بالقااهرة إلى أن أكثر الأمير محمود الأشتادار من ضرب الفلوس بالقااهرة والإسكندرية ، فبطلت الدراهم من مصر ، وصارت معاملة أهلها إلى اليوم بالفلوس ، وبها يُقوّم الذهب وسائر المبيعات . وسياتي ذِكْرُ ذلك إن شاء الله تعالى عند ذكر أسباب خراب مصر .

- وكانت دار الضرب يُحصل منها للسلطان مالٌ كثيرٌ ، فقلَّ في زماننا لِقَلَّةِ الأموال ؛ ودارُ الضرب اليوم جارية في ديوان الخاص .
- وأما «دار العيار» ، فكانت مكانًا يُختاط فيه للرعيّة ، وتُضلح موازيتهم ومكاييلهم به ، ويُحصل منها للسلطان مالٌ ^٢ . وجعلها السلطان صلاح الدين من جملة أوقاف شور القااهرة ، وقد ذُكرت في خِطَط القااهرة من هذا الكتاب ^٣ .
- وأما «الأحكار» ، فإنها أُجر مُقرّرة على ساحاتِ مِصْرَ والقااهرة ، فمنها ما صار دُورًا للسكنى ، ومنها ما أنشئ بساتين . وكانت تلك الأجر من جملة الأموال السلطانية . وقد بطل ذلك من ديوان السلطان ، وصارت أحكار مصر والقااهرة وما بينهما أوقافًا على جهات مُتعدّدة ^٤ .
- وأما «الغروس» ، فكانت في الغزبية فقط ، عدّة أراضٍ يُؤخذ منها شبه الحِكر عن كلِّ فدانٍ مُقرّر معلوم ، وقد بطل ذلك من الديوان ^٥ .
- وأما «مقرّر الجسور» ، فكان على كلِّ ناحية تقرير بعدّة قطع معلومة يُجبى منها عن كلِّ قطعة عشرة دنانير ، لتُصرف في عمل الجسور ، فيفضل منها مالٌ كثير يُحمل إلى بيت المال ^٦ . وقد بطل هذا أيضًا . وجدّد الناصر فرج على الجسور حوادث قد ذُكرت في أسباب الخراب .

^١ ابن بقرّة: كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ،

٣٢٣ .

تحقيق عبد الرحمن فهمي ، القاهرة ١٩٦٦ ، ٤٩ - ٥٠ .

^٤ ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣٤٢ .

^٥ نفسه ٣٤٢ وفيه الغروس أماكن في نواحي الإقطاعات

لما لم يطلعها الماء رغب قوم في تقبلها بشيء معلوم عن كل

فدان بشرط المساحة ، ومهما زاد عن المتقبل استؤدي منه ما

يجب بالنسبة .

^٢ انظر الخزومي : المنهاج ٣١ ؛ ابن ممتي : قوانين

الدواوين ٣٣٣ - ٣٣٤ ، ابن بقرّة : كشف الأسرار العلمية

٦١ ؛ النابلسي : لمع القوانين المضية ٥٢ ؛ وانظر كذلك أمين

فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٥٤٨ - ٥٤٩ .

^٦ انظر فيما يلي ٤٦٤:١ ومسودة المواعظ ٣٢١ -

نفسه ٣٤٢ - ٣٤٤ .

وأما «موظف الأتبان»، فكان جميع تبن أرض مصر على ثلاثة أقسام : قسم للديوان ، وقسم للمقطوع ، وقسم للفلاحين^(a). فيجبي التبن على هذا الحكم من سائر الأقاليم ، ويؤخذ في التبن عن كل مائة حمل أربعة دنانير وشدس دينار ، فيحصل من ذلك مال كثير^١. وقد بطل هذا أيضا من الديوان .

وأما «الحراج»^(b)، فإنه كان في البهنساوية في سبط رشين [وميثال وسطال]^(c) والأشمونين والأسيوطية والإخميمية والقوصية أشجار لا تخصى من سنط ، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها

مراكب الأسطوال ، فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه ، وكان بالبهنسا من العيدان ما يساوي العود منها مائة دينار . وكان يشتخرج من هذه النواحي مال يقال له «رشم / الحراج»^(b) ، ويختج في جبايته بأنه نظير ما تقطعه أهل النواحي ، وتتفع به من أخشاب السنط في عمائرها ، ومقرر آخر كان يجبي منهم

يعرف بـ «مقرر السنط» ، فيصرف من هذا المقرر أجرة قطع الخشب وحزه بضرية عن كل مائة حمل دينار ، وعلى المستخدمين في ذلك ألا يقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الأسطوال ، لكنهم إنما يقطعون الأطراف التي ينتفع بها في الوقود فقط . ويقال لهذا الذي يقطع «حطب النار» ، فيباع على

التجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير ، ويكتب على أيديهم زنة ما يبيع عليهم ، فإذا وردت المراكب بالحطب إلى ساحل مصر اعتبرت عليهم ، وقوبل ما فيها بما عيّن في الرسالة الواردة ، واشتخرج الثمن على ما في الرسالة . وكانت العادة أنه لا يباع مما في البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية . وقد بطل هذا جميعه ، واشتولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يتق منها شيء البتة ، ونسي هذا من الديوان^٢.

وأما «القرظ» ، فإنه ثمر شجر السنط ، وكان لا يتصرف فيه إلا الديوان ، ومتى وجد منه مع أحد شيء اشتراه من غير الديوان نكل به ، واشتهلك ما وجد معه منه . فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب ثباع ، ويؤخذ من ثمنها الربع عند ما تصل إلى ساحل مصر بعدم ما تقوم أو

ينادي عليها ، وكان فيها حيف كبير ؛ وقد بطل ذلك^٣.
وأما «ما يشتأدى من أهل الذمة» ، فإنه كان يؤخذ منهم عمّا يرد ويصدر معهم من البضائع ، في مصر والإسكندرية وإخميم خاصة دون بقية البلاد ، ضرائب تتقرر في الديوان . وقد بطل ذلك أيضا^٤.

(a) بولاق : للفلاح وابن مماتي : للمزارع . (b) الأصل وبولاق : الحراج . (c) زيادة من ابن مماتي .

^١ ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٤٤ .

^٢ قارن ابن مماتي : قوانين الدواوين ٣٤٤ - ٣٤٦ .

^٣ نفسه ٣٤٧ .

^٤ نفسه ٣٤٩ .

وأما «مُقَرَّرُ الْجَامُوسِ» و«مُقَرَّرُ بَقَرِ الْحَيْسِ» و«مُقَرَّرُ الْأَغْنَامِ»، فإنه كان للسلطان من هذه الأضنافِ شيءٌ كثيرٌ جدًا، فيؤخذ من الجاموس للديوان على كلِّ رأسٍ من الرّاتبِ في نظير ما يتحصّل منه في كلِّ سنة من خمسة دنانير إلى ثلاثة دنانير، ومن الألاحق بحق النّصف من الرّاتب، وأقلُّ ما تنتج كلُّ مائة رأسٍ خمسون رأسًا^(a) إلى غير ذلك من ضرائب مُقَرَّرَة على الجاموس وعلى أبقار الحيس وعلى الغنم البياض والغنم الشعاري وعلى النّحل^١. وقد بطل ذلك جميعه لقلّة مال السلطان، وإغراضه عن العِمارة وأسبابها، وتعاطي أسباب الخراب.

وأما «الموارِيثُ»، فإنها في الدّولة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم، من أجل أن مذهبهم توريث ذوي الأرحام، وأنّ البنت إذا انفردت استحققت المال بأجمعه^٢. فلمّا انقضت أيامهم واستولت الدولة^(a) الأيوبية ثم الدّولة التّركية، صار من جملة أموال السلطان مال الموارِيث الحشريّة، وهي التي يستحقها بيت المال عند عدم الوارث، فتعدل فيها الوزراء مرّة، وتظلم أخرى^٣.

وأما «المكوسُ»، فقد تقدّم حدوثها، وما كان من الملوك فيها، والذي بقي منها إلى الآن بديار مصر يلي أمره الوزير. وفي الحقيقة إنّما هو نفع للأقباط يتحوّلون فيه بغير حقّ. وقد تضاعفت المكوس في زمننا عمّا كنا نعده منذ عهد تحدّث الأمير جمال الدين يوسف الأستادار في الأموال السلطانية، كما ذكر في أسباب الخراب.

وأما «البراطيلُ»، وهي الأموال التي تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضايتها وعمّالها، فأوّل من عمّل ذلك بمصر الصّالح بن رزيك^٤ في ولاة النّواحي فقط، ثم بطل. وعمّل في أيام العزيز بن صلاح الدين أحيانًا، وعمّله الأمير شيخون في الولاية فقط، ثم أفحش فيه الظّاهر بزقوق، كما ذكر^(b) في أسباب الخراب.

وأما «الحماياتُ والمستأجراتُ»، فشيءٌ حدّث في أيام النّاصر قرَج، وصار لذلك ديوانٌ ومباشرون، وعمّل مثل ذلك الأمراء. وهو من أعظم أسباب الخراب كما يُذكر في موضعه.

(a) ساقطة من الأصل. (b) بولاغ: يأتي.

^٣ قارن ابن ممّاتي: قوانين الدواوين ٣١٩-٣٢٥.

^١ ابن ممّاتي: قوانين الدواوين ٣٥٠-٣٥٢.

^٤ راجع، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ١١١؛ ابن

^٢ انظر حول هذا الموضوع، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية

خلكان: وفيان ٣: ١١١؛ النويري: نهاية ٢٨: ٣٢٥؛

في مصر ٥٣٩-٥٤٣.

ذِكْرُ الْأَهْرَامِ

اعْلَمَ أَنَّ الْأَهْرَامَاتِ (a) بِمِصْرَ كَانَتْ كَثِيرَةً (b) جِدًّا، مِنْهَا بِنَاجِيَةِ بُوصِيرِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، بَعْضُهَا كِبَارٌ، وَبَعْضُهَا صِغَارٌ، وَبَعْضُهَا طِينٌ وَلَبِنٌ، وَأَكْثَرُهَا حَجَرٌ، وَبَعْضُهَا مُدْرَجٌ، وَأَكْثَرُهَا مَخْرُوطٌ أَمْلَسٌ. وَقَدْ كَانَ مِنْهَا بِالْجِيْزَةِ تَجَاهَ مَدِينَةِ مِصْرٍ عِدَّةٌ كَثِيرَةٌ كُلُّهَا صِغَارٌ، هُدِمَتْ فِي أَيَّامِ السُّلْطَانِ صَلاَحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ عَلِيٍّ قَرَأُوشَ، وَبَنَى بِهَا قَلْعَةَ الْجَبَلِ، وَالشُّورَ الْمُحِيطَ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَالْقَنَاظِرَ الَّتِي بِالْجِيْزَةِ ٢.

(a) بولاق: الأهرام. (b) بولاق: كانت بأرض مصر كثيرة.

١٩٦٥؛ مصطفى جواد: «مؤرخ الأهرام وأبي الهول: جمال الدين أبو جعفر الإدريسي»، مجلة الكتاب (أبريل ١٩٤٧)، «Haram and ٨٥٨-٨٦٨»، Fodor, A., «Haram and Hermes: Origin of the Arabic Word *Haram* meaning pyramid», *Studia Aegyptiaca* 2 (1976), pp. 157-67; id., «The Origins of the Arabic Legends of the Pyramids», *Acta Orientalia Hungarica* 23 (1970), pp. 335-63; Plessner, M., *El² art. Haram III*, p. 117; Haarmann, U., *El² art. al-Idrisi Supplement I*, pp. 407-408; id., «In Quest of the Spectacular: Noble and Learned Visitors to the Pyramids around 1200 A.D.», in *Islamic Studies Presented to Charles Adams*, Leiden - Brill 1992, pp. 57-67; id., «Regional Sentiment in Medieval Islamic Egypt», *BSOAS* 43 (1980), pp. 57-66.

ونشر إريك جراف الفصل الذي عقده المقرئ عن الأهرام في سنة ١٩١١. Graef, E., *Das Pyramidenkapitel in al-Maqrizi's «Hitat»*, *Leipziger Semitistische Studien* Y/5, Leipzig 1911 وأعيد نشره أيضًا في لبيتسج سنة ١٩٦٨.

٢ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٤٤٤ =

= المقرئ: اتعاض ٣: ٢٢٢، ٢٤٤؛ أبا المحاسن: النجوم ٣٣٩: ٥.

١ لَقَّتْ أَهْرَامُ مِصْرَ انْتِبَاهَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْجُغْرَافِيِّينَ وَالرُّحَالَةَ الَّذِينَ زَارُوا مِصْرَ فِي الْعَصُورِ الْقَدِيمَةِ أَوْ فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَاحْتَلَّ وَصْفُهَا وَالْحَدِيثُ عَنْهَا مَكَانَةً بَارِزَةً فِي مَوْلَفَاتِهِمْ. وَجَمَعَ الْمُقْرِئِيُّ فِي الْفَصْلِ الَّذِي خَصَّصَهُ هُنَا لِذِكْرِ الْأَهْرَامِ أَهَمَّ مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ وَالَّذِي اعْتَمَدَ فِيهِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ عَشْرِينَ مَصْدَرًا، أَهَمُّهَا مَوْلَفَاتُ الْمَسْعُودِيِّ وَابْنِ وَصِيفِ شَاهِ وَابْنِ النَّدِيمِ وَأَبِي حَامِدِ الْفَرْنَاطِيِّ وَالْقِضَاعِيِّ وَعَبْدِ اللَّطِيفِ الْبَغْدَادِيِّ وَأُمِيَّةَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَابْنَ عَبْدِ الْحَكَمِ وَالْهَمْدَانِيَّ وَعَلِيَّ بْنَ رِضْوَانَ الطَّيِّبِ. وَمَنْ الْغَرِيبُ أَنَّ الْمُقْرِئِيَّ لَمْ يَشِرْ إِلَى أَهَمِّ كِتَابٍ خَصَّصَ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْأَهْرَامِ وَهُوَ كِتَابُ «أَنْوَارِ عَلَوِيِّ الْأَجْرَامِ فِي الْكَشْفِ عَنِ أَسْرَارِ الْأَهْرَامِ»، لِلشَّرِيفِ أَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْإِدْرِيْسِيِّ الْمَتَوَفَى سَنَةَ ٦٤٩هـ/١٢٥١م - رَغْمَ أَنَّهُ تَرَجَّمَهُ لَهْ فِي الْكِرَاسَةِ الْمَوْجُودَةِ بِخَطِّهِ فِي مَكْتَبَةِ لِيْجِهَ - LIÈGE - وَإِنْ أَتَفَقْتُ الْعَدِيدُ مِنْ نِصُوصِهِ مَعَ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ الْإِدْرِيْسِيِّ

(راجع حول هذا الموضوع، أحمد أحمد بدوي: الآثار المصرية في الأدب العربي (المكتبة الثقافية ١٢٤)، القاهرة

وَأَعْظَمُ الْأَهْرَامِ (أ) الْثَلَاثَةُ الَّتِي هِيَ الْيَوْمَ قَائِمَةٌ تَجَاهَ مِصْرَ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي وَقْتِ بِنَائِهَا وَاسْمِ بَانِيهَا وَالسَّبَبِ فِي بِنَائِهَا ، وَقَالُوا فِي ذَلِكَ أَقْوَالًا مُتَبَايِنَةً أَكْثَرُهَا غَيْرَ صَحِيحٍ . وَسَأُقَصُّ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ^١ .

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب في «أخبار مضر وعجائبها» في أخبار شوريد بن شهلوق بن سرياق بن توميدون بن تدرسان بن هوصال ، أخذ ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون في مدينة أمسوس الآتي ذكرها عند ذكرها مدائن مصر من هذا الكتاب ^٢ : وهو الذي بنى الهرميين العظيمين بمصر المنسويين إلى شداد بن عاد ، والقبط تُكْرَمُ أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم ^٣ .

وسبب بناء الهرميين ^٤ أنه كان قبل الطوفان ثلاث مائة سنة قد رأى شوريد في منامه / كأن الأرض انقلبت بأهلها ، وكان الناس قد هربوا على وجوههم ، وكان الكواكب تتساقط ويضدّم بعضها بعضاً بأضواء هائلة ، فغمه ذلك ، ولم يذكره لأحد ، وعلم أنه سيحدث في العالم أمر عظيم . ثم رأى بعد ذلك بأيام كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صور طيور بيض ، وكأنها تختطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين ، وكان الجبلين قد انطبقتا عليهم ، وكان الكواكب المنيرة مظلمة مكسوفة ؛ فانتبه مزعوباً ^(b) مذعوراً ، ودخل إلى هيكل الشمس ، وتضرع ومرغ خدّيه على التراب وبكى . فلما أصبح ، جمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر - وكانوا مائة وثلاثين كاهناً - فحلا بهم ، وحكى لهم ^(c) ما رآه أولاً وآخرًا ، فأولوه بأمر عظيم

(a) ساقطة من بولاق . (b) ساقطة من الأصل . (c) بولاق : وحدثهم .

التي ترى أن اثنين من الأهرام أحدهما قبر لهرمس والآخر قبر لأغانديمون ، ومصدر هذه الرواية أبو معشر البلخي ، ثم أسطورة حلم الملك شوريد ومصدرها ابن وصيف شاه والقضاعي ، وأخيراً رواية المسعودي عن أن شداد بن عاد أخذ ملوك العمالقة هو الذي بنى الأهرام ، وقد أورد المقرئ هنا الروايات الثلاثة . (Fodor, A., «The Origins of the Arabic Legends of the Pyramids», *Acta Orientalia* XXIII (1970), pp. 334-63 .

= الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ٣٩ ، وانظر فيما يلي ٣٢٥ (نقلًا عن كتاب عجائب البلدان) ، ١٥١:٢ ، ٢٠٣ .

^١ انظر فيما يلي ٣٢٥-٣٢٧ .

^٢ فيما يلي ٣٥٠-٣٦٣ .

^٣ المسعودي : أخبار الزمان ١٣٢ .

^٤ ناقش الأستاذ فودور A.Fodor أصول الروايات العربية الثلاثة الخاصة ببناء أهرام مصر وهي : أسطورة هرمس

يَحْدُثُ فِي الْعَالَمِ . فَقَالَ عَظِيمُ الْكُهَّانِ ، وَيُقَالُ لَهُ فُلَيْمُونُ : إِنَّ أَحْلَامَ الْمَلُوكِ لَا تَجْرِي عَلَى مُحَالٍ لِعَظَمِ [أَخْطَارِهِمْ وَكِبَرِ] ^(a) أَقْدَارِهِمْ ، وَأَنَا أَخْبِرُ الْمَلِكَ بِرُؤْيَا رَأَيْتَهَا مِنْذُ سَنَةٍ ، وَلَمْ أَذْكَرْهَا لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ . رَأَيْتُ كَأَنِّي قَاعِدٌ مَعَ الْمَلِكِ عَلَى وَسَطِ الْمَنَارِ الَّذِي بِأَمْسُوسَ ، وَكَأَنَّ الْفَلَكَ قَدْ انْحَطَّ مِنْ مَوْضِعِهِ حَتَّى قَارَبَ [سَمْتِ] رُؤُوسِنَا ، وَكَانَ عَلَيْنَا كَالْقُبَّةِ الْمَحِيضَةِ بِنَا ، وَكَأَنَّ الْمَلِكَ قَدْ رَفَعَ يَدَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا قَدْ خَالَطَتْهَا فِي صُورِ شَيْءٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ ، وَكَأَنَّ النَّاسَ قَدْ جَفَلُوا إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ وَهُمْ يَسْتَعِيثُونَ بِهِ ، وَكَأَنَّ الْمَلِكَ قَدْ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى بَلَغَتْ رَأْسَهُ وَأَمَرَنِي أَنْ أَفْعَلَ كَمَا فَعَلَ وَنَحْنُ عَلَى وَجَلٍ شَدِيدٍ ، إِذْ رَأَيْنَا مِنْهَا مَوْضِعًا قَدْ انْفَتَحَ وَخَرَجَ مِنْهُ نُورٌ مُضِيءٌ ، وَطَلَعَتْ عَلَيْنَا مِنْهُ الشَّمْسُ ، وَكَأَنَّآ اسْتَعْنَيْنَا بِالشَّمْسِ فَخَاطَبْتُنَا أَنَّ الْفَلَكَ سَيَعُودُ ^(b) إِلَى مَوْضِعِهِ إِذَا مَضَتْ ثَلَاثَ مِائَةِ دَوْرَةٍ ، وَكَأَنَّ الْفَلَكَ لَصِقَ بِالْأَرْضِ ثُمَّ عَادَ ^(b) إِلَى مَوْضِعِهِ ، فَانْتَبَهْتُ مَرْعُوبًا .

^(c) ثُمَّ نِمْتُ فَرَأَيْتُ كَأَنَّ مَدِينَةَ أَمْسُوسَ قَدْ انْقَلَبَتْ بِأَهْلِهَا ، وَالْأَصْنَامَ تَهْوِي عَلَى رُؤُوسِهَا ، وَكَأَنَّ أَنَا نَزَلُوا مِنَ السَّمَاءِ بِأَيْدِيهِمْ مِقَامِعَ مِنْ حَدِيدٍ يَضْرِبُونَ النَّاسَ بِهَا ، فَقُلْتُ لَهُمْ : وَلِمَ تَفْعَلُونَ بِالنَّاسِ كَذَا ؟ قَالُوا : لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْهِيمِ ؛ فَقُلْتُ : فَمَا بَقِيَ لَهُمْ مِنْ خَلَاصٍ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، مَنْ أَرَادَ الْخَلَاصَ فَلْيَلْحَقْ بِصَاحِبِ السَّفِينَةِ . فَانْتَبَهْتُ مَرْعُوبًا ^(c) .

فَقَالَ الْمَلِكُ : خُذُوا الِازْتِفَاعَ لِلْكَوَاكِبِ ^(d) ، وَانظُرُوا هَلْ مِنْ حَادِثٍ ؟ فَبَلَغُوا غَايَتَهُمْ فِي اسْتِثْقَاءِ ذَلِكَ ، وَأَخْبَرُوا بِأَمْرِ الطُّوفَانِ وَبَعْدِهِ بِالنَّارِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ بُرْجِ الْأَسَدِ تَحْرُقُ الْعَالَمَ ^١ . فَقَالَ الْمَلِكُ : انظُرُوا ، هَلْ تَلْحَقُ هَذِهِ الْآفَةُ بِبِلَادِنَا ؟ فَقَالُوا : نَعَمْ ، تَأْتِي فِي الطُّوفَانِ عَلَى أَكْثَرِهِ ، وَيَلْحَقُهُ خَرَابٌ يُقِيمُ عِدَّةَ سِنِينَ . قَالَ : فَانظُرُوا هَلْ يَعُودُ عَامِرًا كَمَا كَانَ ، أَوْ يَبْقَى مَغْمُورًا بِالْمَاءِ دَائِمًا . قَالُوا : بَلْ تَعُودُ الْبِلَادُ كَمَا كَانَتْ وَتُعْمَرُ ، قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالُوا : يَقْصِدُهَا مَلِكٌ يَقْتُلُ أَهْلَهَا وَيَغْنَمُ

(a) زيادة من الإدريسي . (b-b) إضافة من الإدريسي والنويري . (c-c) هذه الفقرة ساقطة من الإدريسي

والنويري . (d) الإدريسي والنويري : ارتفاع الكواكب .

^١ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام لابن دحية ٦٠ هـ^١ أن بحوزته نسخة من كتاب المقصد المرام في عجائب الأهرام للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي النحوي صححه ونقحه من أصله الأسعد بن ممتي) ؛ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٨٨ ، ١٥ : ٢٢-٢٣ ومصدره إبراهيم بن وصيف شاه وهو أيضًا مصدر المقريري ؛ المسعودي : أخبار الزمان ١٠٨-١١٠ .

مالها . قال : ثم ماذا ؟ قالوا : يَقْصِدُهَا قَوْمٌ مُشَوِّهُونَ مِنْ نَاحِيَةِ جَبَلِ النَّيْلِ ، وَيَمْلِكُونَ أَكْثَرَهَا ،
قال : ثم ماذا ؟ قالوا : يَنْقَطِعُ نَيْلُهَا ، وَتَخْلُو مِنْ أَهْلِهَا .

فَأَمَرَ عِنْدَ ذَلِكَ بِعَمَلِ الْأَهْرَامِ ، وَأَنْ يُعْمَلَ لَهَا مَسَارِبٌ يَدْخُلُ مِنْهَا النَّيْلُ إِلَى مَكَانٍ بَعِينِهِ ، ثُمَّ
يَفِيضُ إِلَى مَوَاضِعٍ مِنْ أَرْضِ الْمَغْرِبِ وَأَرْضِ الصَّعِيدِ ، وَمَلَأَهَا طِلْسِمَانَ وَعَجَائِبَ وَأَمْوَالًا وَأَصْنَافًا
وَأَجْسَادَ مُلُوكِهِمْ ، وَأَمَرَ الْكُهَّانَ فَرَزَبُوا عَلَيْهَا جَمِيعَ مَا قَالَتْهُ الْحُكَمَاءُ ، وَزَبَرَ فِيهَا وَفِي سُقُوفِهَا
وَحِيطَانِهَا وَأُسْطُوَانَاتِهَا جَمِيعَ الْعُلُومِ الْغَامِضَةِ الَّتِي يَدَّعِيهَا أَهْلُ مِصْرَ ، وَصُورَ فِيهَا صُورَ الْكَوَاكِبِ
كُلِّهَا ، وَزَبَرَ عَلَيْهَا أَشْمَاءَ الْعَقَائِرِ وَمَنَافِعِهَا وَمَضَارَّهَا ، وَعِلْمَ الطَّلْسِمَاتِ وَعِلْمَ الْحِسَابِ وَالْهَنْدَسَةِ
وَجَمِيعَ عُلُومِهِمْ مُفَسَّرًا لِمَنْ يَعْرِفُ كِتَابَتَهُمْ وَلُغَتَهُمْ .

وَلَمَّا شَرَعَ فِي بِنَائِهَا أَمَرَ بِقَطْعِ الْأُسْطُوَانَاتِ الْعَظِيمَةِ ، وَنَشْرِ الْبَلَاطَاتِ الْهَائِلَةِ^(a) ، وَاسْتِخْرَاجِ
الرَّصَاصِ مِنْ أَرْضِ الْمَغْرِبِ ، وَإِحْضَارِ الصُّخُورِ مِنْ نَاحِيَةِ أُسْوَانَ . فَبَنَى بِهَا أُسَاسَ الْأَهْرَامِ الثَّلَاثَةِ
الشَّرْقِيَّ وَالْغَرْبِيَّ وَالْمَلُونِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ صَحَائِفُ وَعَلَيْهَا كِتَابَةٌ ، إِذَا قُطِعَ الْحَجَرُ وَتَمَّ إِحْكَامُهُ ،
وَضَعُوا عَلَيْهِ تِلْكَ الصَّحَائِفَ وَضَرَبُوهُ ، فَيَتَعَدُّ بِتِلْكَ الصُّرْبَةِ قَدْرَ مِائَةِ سَهْمٍ ، ثُمَّ يُعَاوِدُونَ ذَلِكَ حَتَّى
يَصِلَ الْحَجَرُ إِلَى الْأَهْرَامِ . وَكَانُوا يُمِدُّونَ الْبَلَاطَةَ وَيَجْعَلُونَ فِي ثُقُبِ بَوَسَطِهَا قُطْبًا مِنْ حَدِيدٍ قَائِمًا ،
ثُمَّ يُرْكَبُونَ عَلَيْهَا بَلَاطَةٌ أُخْرَى مَثْقُوبَةٌ الْوَسَطِ وَيُدْخِلُونَ الْقُطْبَ فِيهَا ، ثُمَّ يُذَابُ الرَّصَاصُ وَيُصَبُّ
فِي الْقُطْبِ حَوْلَ الْبَلَاطَةِ بِهَيْئَتِهِمْ وَإِثْقَانِ إِلَى أَنْ كَمُلَتْ^١ .

وَجَعَلَ لَهَا أَبْوَابًا تَحْتَ الْأَرْضِ بِأَرْبَعِينَ ذِرَاعًا^٢ : فَأَمَّا بَابُ الْهَرَمِ الشَّرْقِيِّ ، فَإِنَّهُ مِنَ النَّاحِيَةِ
الشَّرْقِيَّةِ عَلَى مِقْدَارِ مِائَةِ ذِرَاعٍ مِنْ وَسَطِ حَائِطِ الْهَرَمِ . وَأَمَّا بَابُ الْهَرَمِ الْغَرْبِيِّ ، فَإِنَّهُ مِنَ النَّاحِيَةِ
الْغَرْبِيَّةِ عَلَى مِقْدَارِ مِائَةِ ذِرَاعٍ مِنْ وَسَطِ الْحَائِطِ . وَأَمَّا بَابُ الْهَرَمِ الْمَلُونِ ، فَإِنَّهُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ
عَلَى مِقْدَارِ مِائَةِ ذِرَاعٍ مِنْ وَسَطِ الْحَائِطِ . فَإِذَا حُفِرَ بَعْدَ هَذَا الْقِيَاسِ ، وَصِلَ إِلَى بَابِ الْأَرْجِ الْمَبْنِيِّ ،
وَيُدْخَلُ إِلَى بَابِ الْهَرَمِ .

(a) بولاق : البلاط الهائل .

^١ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١٢١ ؛ النويري :
^٢ هنا فقرة عن أبواب الأهرام عند الإدريسي والنويري ،
نهاية الأرب ٢٤ : ١٥ وقارن أبا المحاسن : النجوم الزاهرة نقلها المقرئ في ما يلي ٣١٧ .

وجعل ارتفاع كل واحد من الأهرام في الهواء مائة ذراع بالذراع الملكي، وهو بذراعهم خمس مائة ذراع بذراعنا الآن، وجعل طول كل واحد من جميع جهاته مائة ذراع بذراعهم، ثم هذمتها^(a) من كل جانب حتى تحددت أعاليها من آخر طولها على ثمانية أذرع بذراعنا^(b).

وكان ابتداء بنائها في طالع سعيد اجتمعوا عليه وتخيروه. فلما فرغت، كساها ديباجا ملونًا من فوقها إلى أسفلها، وعمل لها عيدًا حضره أهل مملكته بأجمعهم^(c). ثم عمل في الهرم الغربي ثلاثين مجزئًا^(d) من حجارة صوان ملون، ومثلت بالأموال الجمّة والآلات والتماثيل المعمولة من/ الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر من السلاح الذي لا يصدأ، والزجاج الذي ينطوي ولا يتكسر، والطلّسّمات الغربية، وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة، والسّموم القاتلة.

وعمل في الهرم الشرقي أصناف القباب الفلكية والكواكب، وما عمله أجداده من التماثيل والدخن التي يتقرب بها إلى الكواكب ومصاحفها، وكون الكواكب الثابتة وما يحدث في أذوارها وقتًا ووقتًا، وما عمل لها من التواريخ والحوادث التي مضت، والأوقات التي ينتظر فيها ما يحدث، وكل من يلي مصر إلى آخر الزمان، وجعل فيها المطاهر التي فيها المياه المدبّرة، وما أشبه ذلك.

وجعل في الهرم الملون أجساد^(e) الكهنة في توابيت من صوان أسود، ومع كل كاهن مضعف فيه عجائب صناعاته وأعماله وسيرته، وما عمل في وقته، وما كان وما يكون من أول الزمان إلى آخره، وجعل في الحيطان من كل جانب أضرًا ما تعمل بأيديها جميع الصناعات^(f) على مراتبها وأقدارها، وصفة كل صنعة وعلاجها وما يصلح لها. ولم يترك علمًا من العلوم حتى زبزه ورسمه. وجعل فيها أموال الكواكب التي أهديت إلى الكواكب، وأموال الكهنة، وهو شيء عظيم لا يحصى^١.

(a) بولاق: هندسها. (b) النص عن النويري: نهاية ١٥: ٢٤-٢٥. وجعل طول كل واحد منها أربع مائة ذراع بالملكي يكون خمس مائة بذراعنا. وجعل تريع كل واحد أربع مائة ذراع؛ وبنائها في الاستواء إلى أربعين ذراعًا، ثم هزمتها. (c) بولاق بأجمعها. (d) الأصل وبولاق: مخزنا والتصويب من الإدريسي والنويري. (e) الأصل: أخبار. (f) بولاق: الصنائع.

وَجَعَلَ لِكُلِّ هَرَمٍ مِنْهَا خَازِنًا^(a): فَخَازِنٌ^(b) الْهَرَمِ الْعَرَبِيِّ صَنَمٌ مِنْ حِجَارَةِ صَوَّانٍ مُجَزَّعٍ ، وَهُوَ وَاقِفٌ وَمَعَهُ شِبْهُ خَرْبَةِ ، وَعَلَى رَأْسِهِ حَيَّةٌ قَدْ تَطَوَّقَتْ بِهَا : مَنْ قَرَّبَ مِنْهُ وَتَبَّثَ إِلَيْهِ وَطَوَّقَتْ عَلَى عُنُقِهِ وَقَتَلَتْهُ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى مَكَانِهَا . وَجَعَلَ خَازِنٌ^(b) الْهَرَمِ الشَّرْقِيِّ صَنَمًا مِنْ جِزَعِ أَسْوَدٍ مُجَزَّعٍ بِأَسْوَدٍ وَأَبْيَضٍ ، لَهُ عَيْنَانِ مَفْتُوحَتَانِ بِرِاقَتَانِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ وَمَعَهُ خَرْبَةٌ : إِذَا نَظَرَ أَحَدٌ إِلَيْهِ سَمِعَ مِنْ جِهَتِهِ صَوْتًا يَفْزَعُ مِنْهُ فَيَخِرُّ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَا يَبْرَحُ حَتَّى يَمُوتَ . وَجَعَلَ خَازِنٌ^(b) الْهَرَمِ الْمَلُونِ صَنَمًا مِنْ حَجَرِ الْبَهْتِ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْهُ : مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ ، جَذَبَهُ حَتَّى يَلْتَصِقَ بِهِ فَلَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يَمُوتَ^١ .

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ ذَلِكَ ، حَصَّنَ الْأَهْرَامَ بِالْأَزْوَاحِ الرُّوحَانِيَّةِ ، وَذَبَحَ لَهَا الذَّبَائِحَ لِتَمْتَنِعَ عَنْ أَنْفُسِهَا مِنْ أَرَادِهَا ، إِلَّا مِنْ عَمَلٍ لَهَا أَعْمَالُ الْوُضُوءِ إِلَيْهَا^٢ .

١٠ وَذَكَرَ الْقَيْطُ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ عَلَيْهَا كِتَابًا^(c) مَنقُوشًا تَفْسِيرُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ : «أَنَا سُورِيدُ الْمَلِكِ ، بَنَيْتُ هَذِهِ الْأَهْرَامَ فِي وَقْتِ كَذَا وَكَذَا ، وَأَتَمَمْتُ بِنَاءَهَا فِي سِتِّ سِنِينَ . فَمَنْ أَتَى بَعْدِي ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مَلِكٌ مِثْلِي ، فَلْيَهْدِمِهَا فِي سِتِّ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ الْبُنْيَانِ . وَإِنِّي كَسَوْتُهَا عِنْدَ فَرَاغِهَا بِالذَّبْيَاجِ ، فَلْيَكْسُهَا بِالْحُضْرِ^٣ . فَتَنْظَرُوا فَوَجَدُوا أَنَّهُ لَا يَقُومُ بِهِدْمِهَا شَيْءٌ فِي^(d) الْأَزْمَانِ الطُّوَالِ .

١٥ وَحَكَى الْقَيْطُ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ الْهَرَمِ الشَّمَالِيِّ غُلَامٌ أَمْرَدٌ ، أَصْفَرُ اللَّوْنِ^(e) ، عُزْبَانٌ ، فِي قِمِّهِ أَنْيَابٌ كِبَارٌ . وَرُوحَانِيَّةَ الْهَرَمِ الْجَنُوبِيِّ امْرَأَةٌ عُزْبَانَةٌ ، بَادِيَةُ الْفَرْجِ حَسَنَاءٌ ، فِي قِمِّهَا أَنْيَابٌ كِبَارٌ ، تَسْتَهْوِي الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَتْهُ ، وَتَضْحَكُ لَهُ حَتَّى يَدْنُو مِنْهَا فَتَسْلُبُهُ عَقْلَهُ . وَرُوحَانِيَّةَ الْهَرَمِ الْمَلُونِ شَيْخٌ فِي يَدِهِ مِجْمَرَةٌ مِنْ مَجَابِرِ الْكِنَائِسِ يُبْحَرُ بِهَا . وَقَدْ رَأَى غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ هَذِهِ الرُّوحَانِيَّاتِ مِرَازًا وَهِيَ تَطُوفُ حَوْلَ الْأَهْرَامِ وَقَدْ قَائِلَةٌ وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ^٤ .

(a) بولاق : خادما . (b) بولاق : فخادم . (c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : من . (e) زيادة من بولاق .

^١ الإدريسي : أنوار علوي ١٢٧ ؛ المقرئزي : نهاية
^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٢٧ ؛ أمية بن عبد العزيز :
الأرب ١٥ : ٢٦ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٧٠ - ٧٢ . الرسالة المصرية ٢٨ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٧٢ .
^٣ نفسه ١٢٨ ؛ نفسه ١٥ : ٢٦ - ٢٧ .
^٤ الإدريسي : أنوار ١٣٣ ؛ النويري : نهاية ١٥ : ٣٢ .

قال: ولما مات سُوريد، دُفِنَ في الهَرَمِ ومعه أمواله وكنوزُه؛ وقالت القِبْطُ: إنَّ سُوريدَ هو الذي بنى البرابي، وأودع فيها كنوزًا، وزبرَ عليها غلومًا، ووكلَ بها رُوحانيات تحفظها ممن يقصدها.

قال: وأما الأهرامُ الدّهْشورية، فيقال إنَّ شدّات بن عديم هو الذي بناها من الحجارة التي كانت قد قُطعت في زمن أبيه. وشدّات هذا يزعم بعضُ الناس أنَّه شدّاد بن عاد. وقال من أنكرَ أن يكون العاديّة دخلت مصر: إنَّما غلِطوا باسم شدّات بن عديم، فقالوا شدّاد بن عاد، لكثرة ما يجري على ألسنتهم شدّاد بن عاد، وقلة ما يجري على ألسنتهم شدّات بن عديم، وإلا فما قدر أحدٌ من الملوك يَدْخُل مصر ولا قوِي على أهلها، غير بُخت نصر^١. والله أعلم.

وذكر أبو الحسن المَسْعُودي في كتابه «أخبار الزمان ومن أبادَه الحداث» أنَّ الخليفة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، لما قَدِمَ مصر وأتى على الأهرام، أحبَّ أن يَهْدِمَ أحدها ليَعْلَمَ ما فيها، فقيل له: إنَّك لا تقدر على ذلك، فقال: لا بُدَّ من فتح شيءٍ منه^٢. ففتحت له الثلثة المفتوحة الآن بنارٍ تُوقد، وحلَّ يُرَشَّ، ومعاول وحِدادين يعملون فيها، حتى أنفقَ عليها أموالًا عظيمة، فوجدوا عَرْضَ الحائط قريبًا من عشرين ذراعًا. فلما انتهوا إلى آخر الحائط، وجدوا خلف الثقب مطهرة خضراء فيها ذهب مَضروب، ووزن كل دينار أوقية، وكان عددها ألف دينار. فجعل المأمون يتعجب من ذلك الذهب ومن جودته، ثم أمرَ بجُملة ما أنفق على الثلثة فوجدوا الذهب الذي أصابوه لا يزيد على ما أنفقوه ولا ينقص، فعجب من معرفتهم بمقدار ما يُنْفِق عليه، ومن تركهم ما يُوازيه في الموضع، عجبًا عظيمًا^٣. وقيل إنَّ المطهرة التي وُجدَ فيها الذهب كانت من زبرجد، فأمر المأمون بحملها إلى خزانته. وكان آخر ما حُمِلَ^٤ من عجائب مصر^٥.

(a) بولاق: آخر ما عمل، الإدريسي: آخر ما حملة.

النويري: نهاية الأرب ١٥: ٢٧-٢٨؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٥-٢٣٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٧٢؛ وفيما يلي ٣٠٨، ٣٢١-٣٢٢؛ وانظر كذلك Van Reeth, J., «Caliph al-Ma'mûn and the Treasure of the Pyramids», OLP25 (1994), pp. 221-36.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦١.

^٢ وذلك في سنة ست عشرة ومائتين (أنوار علوي الأجرام ٣١؛ صبح الأعشى ٣: ٣٢٥).

^٣ قارن أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٧؛ الإدريسي: أنوار علوي ٣٥؛ مجهول: الاستبصار ٥٦-٥٧؛

وأقام الناس سنين يقصدونه، وينزلون في الزلافة التي فيه: فمنهم من يشلم، ومنهم من يهلك.

فاتفق عشرون من الأحداث على دخوله، وأعدوا لذلك ما يحتاج إليه^٥ من طعام وشراب وجبال وشمع ونحوه، ونزلوا في الزلافة، فرأوا فيها من الخفاش ما يكون كالغقبان تضرب وجوههم، ثم إنهم أدلوا أحدهم بالحبال فانطبق عليه المكان، وحاولوا جذبته حتى أغياهم، فسمعوا صوتًا/ أزعجهم فغشي عليهم، ثم قاموا وخرجوا من الهرم. فبينما هم جلوس يتعجبون مما وقع لهم؛ إذ أخرجت الأرض صاحبهم حيًا من بين أيديهم يتكلم بكلام لم يعرفوه، ثم سقط ميتًا، فحملوه ومضوا به. فأخذهم الخفراء وأتوا بهم إلى الوالي فحدثوه خبرهم، ثم سألوا عن الكلام الذي قال صاحبهم قبل موته، فقيل لهم: معناه، «هذا جزاء من طلب ما ليس له». وكان الذي فسّر لهم معناه بعض أهل الصعيد^١.

وقال علي بن رضوان الطبيب: فكّرت في بناء الأهرام، فأوجب علم الهندسة العملية، ورفع الثقل إلى فوق، أن يكون القوم هندسوا سطحًا مربعًا، ونحتوا الحجارة ذكرا وأنثى، ورصوها بالجيس البحري إلى أن ارتفع البناء بمقدار ما يمكن رفع الثقل، وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازي للمربع الأسفل مربعًا أصغر من المربع السفلاي، ثم عملوا في السطح المربع الفوقاني مربعًا أصغر بمقدار ما بقي في الحاشية ما يمكن رفع الثقل إليه. وكلما رفعوا حجرًا مهندمًا رصوه إليه ذكرا وأنثى، إلى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الأول. ولم يزالوا يفعلون ذلك إلى أن بلغوا غاية لا يمكنهم بعدها أن يفعلوا ذلك، فقطعوا الارتفاع ونحتوا الجوانب البارزة التي فرضوها لرفع الثقل، ونزلوا في النحت من فوق إلى أسفل، وصار الجميع هرما واحدًا.

وقياس الهرم الأول بالذراع التي تقاس بها اليوم الأبنية بمصر، كل حاشية منه أربع مائة ذراع، يكون بالذراع السوداء^٢ - التي طول كل ذراع منها أربعة وعشرين أصبغا - خمس مائة ذراع.

(a) بولاق: يحتاجون من.

^١ المسعودي: أخبار الزمان ١٣٨-١٤٠؛ وانظر كذلك ٢٨:١٥-٢٩.

الإدريسي: أنوار علوي ١٢٨-١٣٠؛ النويري: نهاية^٢ عن الذراع السوداء انظر فيما تقدم ١٥٦-١٥٧.

وذلك أن قاعدته مُرَبَّعٌ مُتساوي الأضلاع والزوايا : ضلعان منهما على حُطِّ نصف النهار، وضلعان على حُطِّ المشرق والمغرب، وكلُّ ضلعٍ بالذراع السوداء خمس مائة ذراع. والخطُّ المتخدير على استقامة من رأس الهرم إلى نصف ضلع المُرَبَّع أربع مائة وسبعون ذراعًا، يكون إذا تُمِّمَ أيضًا خمس مائة ذراع.

وأحيط بالهرم أربعة مثلثات ومُرَبَّعٌ، كلُّ مُثلَّثٍ منها مُتساوي الساقين، كلُّ ساقٍ منه إذا تُمِّمَ خمس مائة وستون ذراعًا. والمثلثات الأربعة تجتمع رؤوسها عند نقطة واحدة وهي رأس الهرم إذا تُمِّمَ، فيلزم أن يكون عموده أربع مائة وثلاثين ذراعًا. وعلى هذا العمود مراكز أثقاله، ويكون تكسير كلِّ مُثلَّثٍ من مُثلثاته (أربع مائة ألف^١) مائة وخمسة وعشرين ألف ذراع، إذا اجتمع تكاسيرها كان مَبْلَغُ تكسير سطح هذا الهرم خمس مائة ألف ذراع بالسوداء. وما أحسب على وجه الأرض بناءً أعظم منه، ولا أحسن هندسةً، ولا أطول، والله أعلم.

وقد فتح المأمون نَقْبًا من هذا الهرم فوجد فيه زلَاقَةً تَصْعَدُ إلى بَيْتِ مُرَبَّعٍ مُكعَّبٍ، ووَجَدَ فِي وَسَطِهِ (ب) قَبْرَ رُحَامٍ، وهو باقٍ فيه إلى اليوم، ولم يَقْدِرَ أَحَدٌ يَخْطُهُ.

وبذلك أَخْبَرَ جالينوس أنها قُبُورٌ، فقال في آخر الخامسة من «تَدْيِيرِ الصَّحَّةِ»^١ بهذا اللَّفْظِ: «وهم يُسَمُّونَ مَنْ كَانَ فِي هَذَا السَّنِّ الْهَرَمِ، وَهُوَ اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَهْرَامِ الَّتِي هِيَ صَائِرُونَ عَنْ قَرِيبٍ».

وقال الحوقلي في «صِفَةِ مِصْرَ»: وبها الهَرَمَانِ اللَّذَانِ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لِهَمَا نَظِيرٌ فِي مُلْكٍ مُسْلِمٍ وَلَا كَافِرٍ، وَلَا عَجِلٍ وَلَا يُعْمَلُ كِهَمَا^٢.

وقرأ بعضُ بني العباس على أَحَدِهِمَا: إِنِّي قَدْ بَنَيْتُهُمَا، فَمَنْ كَانَ يَدْعِي قُوَّةً فِي مُلْكِهِ فَلْيَهْدِمْهُمَا، فَالْهَدْمُ أَيَسْرُ مِنَ الْبُنْيَانِ^٣. فَهَمَّ بِذَلِكَ، وَأَظْنُهُ الْمَأْمُونُ أَوْ الْمُعْتَصِمُ، فَإِذَا خَرَجَ مِصْرَ لَا يَقُومُ بِهِ يَوْمَئِذٍ. وَكَانَ خَرَايِجُهَا عَلَى عَهْدِهِ، بِالْإِنْصَافِ فِي الْجِبَايَةِ وَتَوَخُّي الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ

(a-a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: سطحه.

^٢ ابن حوقل: صورة الأرض ٨٨.

^٣ أمية ابن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٨.

^١ «تدبير الصحة» ويعرف أيضًا بتدبير الأصحاء

لجالينوس، نقله إلى العربية حنين بن إسحاق (Sezgin, F.), (GAS III, p. 253).

والمعدلة ، إذا بلغ النبل سبع عشرة ذراعًا وعشر أصابع : أربعة آلاف ألف ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار ، والمقبوض على القدان ديناران . فأعرض عن ذلك ولم يعد فيه شيئاً^١ .

وفي حدّ الفسطاط في غربي النيل أبنية عظام يكثر عدّها ، مفترشة في سائر الصعيد ، تُدعى الأهرام ، وليست كالهرمين اللذين تجاه الفسطاط ، وعلى فرسخين منها ، ارتفاع كل واحد منهما أربع مائة ذراع ، وعرضه كارتفاعه مبني بحجارة الكدان التي شُمتك الحجر وطوله وعرضه من العشر أذرع إلى الثمان ، بحسب ما دعت الحاجة إلى وضعه في زيادته ونقصه ، وأوجبته الهندسة عندهم ، لأنهما كلما ارتفعا في البناء ضاقا حتى يصير أعلاهما من كل واحد منهما مثل مبرك جمل ، وقد ملئت حيطانهما بالكتابة اليونانية .

وقد ذكر قوم أنّهما قبران ، وليس كذلك ، وإنما حدّا^(a) صاحبهما في^(b) عملهما أنه قضى بالطوفان أنه يهلك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن في مثلهما ، فحزن ذخائره وأمواله فيهما ؛ وأتى الطوفان ثم نضب ، فصار ما كان فيهما إلى يتصر^(c) بن مضر بن بن نوح . وقد حزن فيهما بعض الملوك المتأخرين ، وجعلها أهراء ، والله أعلم^٢ .

وقال أبو يعقوب محمد بن إسحاق النديم الورّاق في كتاب «الفهرست» ، وقد ذكر هزميس البابلي : قد اختلف في أمره ، فقيل إنه كان أحد السبعة السدنة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة ، وإنه كان لترتيب^(d) عطارده ، وباسمه سمي ، فإن عطارده باللغة الطردانية^(e) هزميس . وقيل إنه انتقل إلى أرض مصر بأسباب ، وإنه ملكها ، وكان له أولاد منهم طا وصا وأشمن وأثريب وقفط ، وإنه كان حكيم زمانه ، وإنه لما توفي دُفن في البناء الذي يُعرف بمدينة مصر بأبي هرميس ، ويعرفه العامة بالهرمين ، فإن أحدهما قبره ، والآخر قبر زوجته ، وقيل قبر ابنه الذي خلفه بعد موته^٣ .

(a) بولاق : حمل . (b) بولاق : على . (c-c) ساقطة من ابن حوقل . (d) الفهرست : إليه بيت . (e) بولاق : الكلدانية .

كتابه «الفهرست» أو «الفهرست في أخبار الأدباء» . وترجع مكانة ابن النديم إلى أنه أول من ألف تاريخًا للتراث العربي - قد يكون وحيدًا في باب - سيظل على الدوام المصدر الرئيسي لمعرفة مصادر الأدب والعلم في القرون الأربعة الأولى للإسلام . ولا نعرف على التحقيق السنة التي توفي فيها [ابن] النديم ، ولكن ما ذكره في كتابه يدل على أنه كان موجودًا =

^١ ابن حوقل : صورة الأرض ١٣٥-١٣٦ .

^٢ نفسه ١٥١-١٥٢ .

^٣ أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق النديم الورّاق البغدادي المعروف بـ[ابن] النديم وبابن أبي يعقوب الورّاق ، لا نكاد نعلم عن حياته شيئًا كثيرًا سوى أنه كان ورّاقًا يبيع الكتب ببغداد وألف نحو سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م

/وهذه البيئة - يعني الأهرام - طولها بالذراع الهاشيمي أربع مائة ذراع وثمانون ذراعاً، على مساحة أربع مائة وثمانين ذراعاً؛ ثم ينحدر البناء، فإذا حصل الإنسان في رأسه، كان مقدار سطحه أربعين ذراعاً في أربعين ذراعاً، هذا بالهندسة.

وفي وسط هذا السطح قبة لطيفة في وسطها شبيهة بالمقبرة، وعند رأس ذلك القبر صخرتان في نهاية النظافة والحسن وكثرة الثلثون، وعلى كل واحدة منهما شخص^(a) من حجارة صورة ذكر وأُنثى، وقد تقابلا^(b) بوجهيهما، ويبد الذكر لوح من حجارة فيه كتابة، ويبد الأنثى مِرآة، والرّف ذهب نقشه المنقاش^(c).

وبين الصخرتين بزنية من حجارة على رأسها غطاء ذهب، فلما قُلع فإذا فيها شبيه بالقار بغير رائحته^(d) قد ييس. وفيها حقة ذهب، فنزع رأسها، فإذا فيها دم عبيط، ساعة قرعه الهواء جمد كما يجمد الدم وجف. وعلى القبور أعطية حجارة، فلما قُلت إذا رجل نائم على قفاه على نهاية الصخرة والجفاف، بين الخلفة، ظاهر الشغور، وإلى جنبه امرأة على هيئة^(e).

قال: وذلك السطح مقعر نحو قامة، وكما يدور مثل المسمار جانت^(e) أزاج من حجارة، فيها صور وتمائيل مطروحة وقائمة، وغير ذلك من الآلة^(f) التي لا تُعرف أشكالها^(g).

وقال العلامة موفق الدين عبد اللطيف بن أبي العزّ يوسف بن أبي البركات محمد بن علي بن أبي سعيد البغدادي المعروف بابن المطجّن^(g) في سيرته: وجاء رجل جاهل عجمي، فحُيّل إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أن الهرم الصغير تحته مطلب، فأخرج إليه الحجّارين

(a) بولاق: شخصان. (b) بولاق: تلاقيا. (c) بولاق: النقاش. (d) الأصل وبولاق: رائحة، والتصويب من ابن النديم. (e) بولاق: المسمار ذات وساقطة من ابن النديم. (f) في الفهرست: الآلة. (g) بولاق: المطحن.

= حتى سنة ٤١٢هـ/١٠٥١م (ياقوت: معجم الأدباء ١٨: ١٧؛ الصقدي: الوافي بالوفيات ٢: ١٩٧؛ Sezgin, F., GAS I, pp. 386-87; Fuck, J.W., El² art. Ibn (al-Nadim III, pp. 919-20).

جوارها العبارة التالية «استفاد منه داعياً لمعيره أحمد بن علي المقرئ ٨١٣». ^١ ابن النديم: الفهرست ٤١٧-٤١٨ وقارن الإدريسي: أنوار علوي الأجرام ٢٢-٢٣. ^٢ ابن النديم: الفهرست ٤١٨؛ الإدريسي: أنوار علوي ١٣٧-١٣٨. ووصلت إلينا نسخة «الفهرست» التي اعتمد عليها المقرئ وهو ينقل عن ابن النديم وهي موزعة الآن بين مكتبي شيلترتبي بدبلن وفيض الله باستانبول، سجل المقرئ علي ظهرتها ترجمة بخطه لابن النديم وإلى

وأكثر العسكر، وأخذوا في هدمه، وأقاموا على ذلك شهورًا، ثم تركوه عن عجز وخشيان مُبين في المال والعقل. ومن يرى حجارة الهرم يقول: إنه قد استوصل الهرم، ومن يرى الهرم لا يجد به إلا تشعيبًا يسيرًا. وقد أشرفت على الحجارين فقلت لمقدمهم: هل تقديرون على إعادته؟ فقال: لو بذل لنا السلطان عن كل حجر ألف دينار لم يمكننا ذلك^١.

- وقال أبو الحسن المسعودي في كتاب «مروج الذهب»: وأما الأهرام، فطولها عظيم وبُنْيَانُهَا عَجِيبٌ، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة والممالك الدائرة، لا يُدرى ما تلك الكتابة ولا المراد بها. وقد قال من عني بتقدير ذرعها: إن مقدار ارتفاع الهرم الكبير، ذهابًا في الجو، نحو أربع مائة ذراع أو أكثر، وكلما غلا به الصعداء^(a) دق ذلك، والعرض نحو ما وصفنا. وعليها من الرسوم علوم وخواص وسخر وأسرار الطبيعة، وإن من تلك الكتابة مكتوب^(b): «إنا بَنَيْنَاهَا، فَمَنْ يَدْعِي مَوَازَاتِنَا فِي الْمَلِكِ وَبَلُوغِنَا فِي الْقُدْرَةِ وَانْتِهَاءَ أَمْرِ السُّلْطَانِ^(c)، فَلْيَهْدِمْنَا وَلْيَنْزِلْ رِسْمَهَا، فَإِنَّ الْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ الْبِنَاءِ، وَالتَّفْرِيقَ أَسْهَلُ^(d) مِنَ التَّالِيفِ». وقد ذُكِرَ أَنَّ بَعْضَ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ شَرَعَ فِي هَدْمِ بَعْضِهَا، فَإِذَا خَرَّاجُ مِصْرَ [وغيرها من الأرض]^(e) لا يفي بقلعها، وهي من الحجر والرَّخَامِ^٢.

- وأنها قبور الملوك، وكان الملك منهم إذا مات وُضِعَ فِي حَوْضٍ مِنْ حِجَارَةٍ - وَيُسَمَّى بِمِصْرٍ وَالشَّامِ الْجُرُونِ^(f) - وَأُطْبِقَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُنْتَى مِنَ الْهَرَمِ عَلَى مِقْدَارِ مَا يُرِيدُونَ مِنْ ارْتِفَاعِ الْأَسَاسِ، ثُمَّ يُحْمَلُ الْحَوْضُ وَيُوضَعُ وَسَطَ الْهَرَمِ، ثُمَّ يُقَنَّطَرُ عَلَيْهِ الْبُنْيَانُ وَالْأَقْبَاءُ^(g)، ثُمَّ يَرْفَعُونَ الْبِنَاءَ عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ الَّذِي يَرَوْنَهُ، وَيُجْعَلُ بَابُ الْهَرَمِ تَحْتَ الْهَرَمِ، ثُمَّ يُخْفَرُ لَهُ طَرِيقٌ فِي الْأَرْضِ، وَيُعْقَدُ أَرْجَ طَوْلِهِ تَحْتَ الْأَرْضِ مِائَةَ ذِرَاعٍ أَوْ أَكْثَرَ. وَلِكُلِّ هَرَمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَهْرَامِ بَابٌ مَدْخُلُهُ عَلَى مَا وَصَفْتُ. قَالَ: وَكَانَ الْقَوْمُ يَبْنُونَ الْهَرَمَ مِنْ هَذِهِ الْأَهْرَامِ مُدْرَجًا ذَا مَرَاقٍ كَالدَّرَجِ، فَإِذَا فَرَّغُوا نَحْتَهُ مِنْ فَوْقَ إِلَى أَسْفَلٍ، فَهَذِهِ كَانَتْ حِيلَتَهُمْ. وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ لَهُمْ قُوَّةٌ وَصَبْرٌ وَطَاعَةٌ^٣.

(a) بولاق: صعد. (b) بولاق: مكتوبًا. (c) في مروج الذهب: وبلوغنا في... وانتهاءنا من السلطان. (d) مروج: أيسر. (e) زيادة من مروج الذهب. (f) مروج: الجرن. (g) ساقطة من بولاق.

^١ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٤٨-٤٩؛
^٢ المسعودي: مروج الذهب ٩٠:٢-٩١.
^٣ نفسه ٧٧:٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٤١:١.

البغدادي؛ وفيما يلي ٣٢٧-٣٢٨.

وقال في كتاب «التنبيه والإشراف»: والهَرَمَان اللذان في الجانب الغربي من فسطاط مصر هما من عجائب بُنيان^(a) العالم، كلٌ واحدٍ منهما أربع مائة ذراع في سُمك مثل ذلك، مَبْنِيَان بالحجر العظيم على الرياح الأربع، كلُّ ركن من أركانِهما يُقابل ريحًا منها، فأعظمتُها فيهما تأثيرًا ريح الجنوب، وهي المريسي.

وأخذ هذين الهَرَمَيْن قَبْر أَغاثديمون^(b)، والآخر قَبْر هِرْمِس، وبينهما نحو ألف سنة وأغاثديمون^(b) المتقدم^١.

وكان سُكَّانُ مصر - وهم الأقباط - يعتقدون نُبوَّتَهما قبل ظهور النُصْرانية فيهم، على ما يُوجِبُه رَأْيُ الصَّابِئِينَ في النُّبوَّات، لا على طَرِيقِ الوَحْيِ، بل هم عندهم نفوسٌ طاهرة صَفَتْ وتَهَدَّبَتْ من أذناس هذا العالم، فاتَّخَذَتْ بهم موادَّ عُلوِيَّة، فأخْبَرُوا عن الكائِنات قَبْل كَوْنِها، وعن سَرَائِرِ العالَمِ، وغير ذلك.

وفي العَرَبِ من اليَمَانِيَّة من يَرى أَنَّهُما قَبْرُ شَدَّادِ بنِ عاد وغيره من مُلوِكِهِم السَّالِفَةِ الَّذِينَ غَلَبُوا على بلاد مصر في قَدِيمِ الدَّهْرِ، وهم العَرَبِ العَارِبَةُ من العَمَالِيق وغيرهم. وهي عند من ذَكَرْنَا من الصَّابِئِينَ قُبُورُ أَجْسَادِ طَاهِرَةٍ^٢.

وَذَكَرَ أَبُو زَيْدِ البَلْخِي^٣ أَنَّهُ وَجَدَ مَكْتُوبًا على الأهرام بكتابتِهِم نَحَطٌ، فَعَرَّبَ فإذا هو «بُني هذان الهَرَمَان والنُّشْر الواقِع في السَّرَطَان». فَحَسَبُوا من ذلك الوَقْتِ إلى الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّة، فإذا هو سِتُّ وثلاثون ألف سنة شمسية مرَّتِينَ، يكون اثنتين وسبعين ألف سنة شمسية^٤.

وقال الهَمْدَانِي في كتاب «الإكليل»: لم يُوجَدِ مِمَّا كان تحت الماء وَقْتِ الغَرَقِ من القَرَى قَرِيَّةً فيها بَقِيَّةٌ سوى نَهَاوُنْدَ ترجمتها^(c) وَجَدَتْ كما هي اليوم لم تَتَغَيَّرْ، وَأَهْرَامُ الصُّعَيْدِ من أرض مصر^٥.

(a) الأصل: برهان. (b) بولاق: أعاديون. (c) ساقطة من بولاق.

^١ قارن مع المسعودي: التنبيه والإشراف ١٩-٤٢٠ عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٤٨، وفيما يلي ٣٢٧.

^٢ المسعودي: التنبيه والإشراف ١٩-٢٠.

^٣ أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (انظر فيما تقدم ٢٤) نقل عنه الشريف أبو جعفر الإدريسي صاحب كتاب «أنوار

علوي الأجرام» في مواضع كثيرة من كتابه، سواء عن كتاب

«صفة الأرض والأقاليم» أو «تاريخه المختص بأخبار مصر وعجائبها ودفائنها وفراعنتها» (أنوار علوي: الأجرام ٦٠،

^٤ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٧٣.

^٥ لم أقف على هذا النص فيما وصل إلينا من كتاب =

وَذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْقَيْسِيُّ^١ / فِي كِتَابِ «تَحْفَةُ الْأَلْبَابِ» أَنَّ الْأَهْرَامَ مُرَبَّعَةٌ الْجَمَلَةُ ، مُثَلَّثَةٌ الْوُجُوهُ ، وَعَدَدُهَا ثَمَانِيَةٌ عَشْرَ هَرَمًا ، فِي مُقَابَلَةِ مِصْرَ الْفُسْطَاطِ ثَلَاثَةَ أَهْرَامٍ ، أَكْبَرُهَا دَوْرُهُ أَلْفَا ذِرَاعٍ ، فِي كُلِّ وَجْهِ خَمْسَ مِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَعُلُوُّهُ خَمْسَ مِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَكُلُّ حَجَرٍ مِنْ حِجَارَتِهَا ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي غِلْظِ عَشْرَةِ أَذْرُعٍ ، قَدْ أَحْكَمَ لِصَاقِهِ وَنَحْتُهُ^٢ .

وَمِنْهَا عِنْدَ مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ يُوسُفَ أَهْرَامٌ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ ، دَوْرُهُ ثَلَاثَةَ آلَافِ ذِرَاعٍ ، وَعُلُوُّهُ سَبْعَ مِائَةِ ، مِنْ حِجَارَةِ كُلِّ حَجَرٍ خَمْسُونَ ذِرَاعًا .

وَعِنْدَ مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ مُوسَى أَهْرَامٌ [أُخْرَى]^(a) أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ ، وَهَرَمٌ آخَرَ يُعْرَفُ بِهَرَمِ مَيْدُومِ^(b) كَأَنَّهُ جَبَلٌ ، وَهُوَ خَمْسَ طَبَقَاتٍ^٣ .

وَفَتَحَ الْمَأْمُونُ الْهَرَمَ الْكَبِيرَ الَّذِي تَجَاهَ الْفُسْطَاطِ . قَالَ : وَقَدْ دَخَلْتُ فِي دَاخِلِهِ ، فَرَأَيْتُ قُبَّةً مُرَبَّعَةً الْأَسْفَلَ ، مُدَوَّرَةً الْأَعْلَى ، كَبِيرَةٌ فِي وَسَطِهَا بِثَرِّ غَمَقِهَا عَشْرَةَ أَذْرُعٍ ، وَهِيَ مُرَبَّعَةٌ يَنْزِلُ الْإِنْسَانُ فِيهَا فَيَجِدُ فِي كُلِّ وَجْهِ مِنْ تَرْبِيعِ الْبِثْرِ بَابًا يُفْضِي إِلَى دَارٍ كَبِيرَةٍ ، فِيهَا مَوْتَى كَثِيرَةٌ^(c) مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَيْهِمُ أَكْفَانٌ كَثِيرَةٌ ، أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ ثَوْبٍ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ ، قَدْ بَلَّيْتَ بِطُولِ الزَّمَانِ وَاشْوَدَّتْ ؛ وَأَجْسَامُهُمْ مِثْلُنَا لَيْسُوا طَوَالًا ، وَلَمْ يَشْقُطْ مِنْ أَجْسَامِهِمْ وَلَا مِنْ شُعُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ شَيْخٌ وَلَا مِنْ شَعْرِهِ أَيْضٌ ، وَأَجْسَادُهُمْ قَوِيَّةٌ لَا يَقْدِرُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُزِيلَ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِمْ أَلْبَتَّةَ ، وَلَكِنَّهُمْ خَفُوا

(a) زيادة من الإدريسي . (b) بولاق : مدون . (c) ساقطة من بولاق .

الثانية والتسعين من عمره . ولم يصل إلينا من مؤلفاته إلا كتابان «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» - الذي ينقل عنه المقرئزي - و«المعرب عن بعض عجائب المغرب» . (راجع ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٣ : ٢٤٥-٢٤٦ ؛ المقرئ : نفع الطيب ٢ : ٢٣٥-٢٣٦ ؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٣٢٦-٣٣٠ ؛ حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٣٠٣-٣٥٧) .

^٢ أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ٧٤-٧٥ ؛ وفيما يلي ٣٢٤ .

^٣ نفسه ٧٥ .

= الإكليل ، وانظر فيما يلي ٣١٩ .

^١ أبو حامد الغرناطي ، ويكنى كذلك أبو عبد الله ، محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي . ولد في غرناطة سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨١م وغادر الأندلس إلى غير رجعة حوالي سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٧م . وطاف بشمال إفريقيا ودخل الإسكندرية سنة ٥٠٨هـ / ١١١٥م وسمع بها وبمصر سنة ٥١١هـ / ١١١٨م ، وحدث بدمشق وسمع بها أيضًا وببغداد التي قدمها سنة ٥١٦هـ / ١١٢٣م ، ودخل خراسان وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى الشام وأقام بحلب سنين ، وانتهى به المطاف في دمشق حيث توفي سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠م في

حتى صاروا كالغشاء لطول الزمان ، وفي تلك البئر أربعة من الدُّور مملوءة بأجساد الموتى ، وفيها نحفٌ كثير ، وكانوا يَدْفنون أيضا جميع الحيوان في الرمال .

ولقد وَجَدْتُ يوماً^(a) ثياباً مَلْفوفة كثيراً ، حِزْمَةٌ^(b) مقدار أكثر من ذِرَاع ، وقد اخْتَرَقَتْ تلك الثياب من القِدَم ، فَأَزَلْتُ الثياب إلى أن ظَهَرَتْ خِرْق صِحاح قويَّة بيض من كَثان أمثال العَصَائِب ، فيها أعلامٌ من الحرير الأحمر ، وفي داخلها هُدُود مَيِّت لم يَتَنَاقَر من ريشه ولا من جَسَدِهِ شيءٌ ، كأنه قد مات الآن .

وفي القُبَّة التي في الهَرَم بابٌ يُفْضِي إلى عَلْوِ الهَرَم ، وليس فيه دَرَج ، عَرَضَهُ نحو خمسة أشبار ، يُقال إنه ضَعِدَ فيها في زمان المأمون فأَفْضَوْا إلى قُبَّة صغيرة فيها صُورَة آدمي من حَجَر أَخْضَر كالدَّهْنَج ، فَأُخْرِجَتْ إلى المأمون ، فإذا هي مُطْبَقَةٌ [كالدَّوَاة]^(b) ، فَلَمَّا فُتِحَتْ وَجِدَ فيها جَسَدُ آدمي عليه دِرْعٌ من ذَهَب مُزَيَّن بأنواع الجواهر ، وعلى صدره نَصْلُ سَيْفٍ لا قيمة له ، وعند رأسه حَجَرٌ ياقوت أحمر كَبِيضَة الدُّجَاجَة ، يُضِيء كَلَهَبِ النار^(c) ، فَأَخَذَهُ المأمون .

وقد رَأَيْتُ الصُّنَمَ الذي أُخْرِجَ منه ذلك المَيِّت مُلْقَى عند باب دار الملك بمصر في سنة إحدى عشرة وخمسة مائة^١ .

وقال القاضي الجليل أبو عبد الله محمد بن سلامة القُضَاعِي^٢ : رَوَى عَلِيُّ بن الحَسَن بن خَلْفِ ابن قَدِيد ، عن يحيى بن عُثْمَان بن صالح ، عن محمد بن عَلِيِّ بن صَخْر التَّمِيمِي ، قال : حَدَّثَنِي رَجُلٌ من عَجَمِ مصر ، من قرية من قراها تُدْعَى قِفْط^٣ - وكان عالماً بأمر مصر وأحوالها ، وطالبا لِكُتُبِهَا القَدِيمَة ومعادِنِهَا - قال : وَجَدْنَا في كُتُبِنَا القَدِيمَة ، قال : وَأَمَّا الأهرامُ فَإِنَّ قَوْمًا اخْتَفَرُوا قَبْرًا

(a) ساقطة من بولاق . (b) زيادة من تحفة الألباب . (c) التحفة : كالمصباح أو لهب النار .

^١ أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ٧٥-٧٧ وانظر فيما يلي ٣٢٤ .

^٢ أورد الإدريسي كذلك رواية القضاعي مسندة وسندها : «أخبرنا القاضي العدل أمين الدين أبو محمد الحسن ابن محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن مروان القرشي الأموي مُناوِلَة ، قال : أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد المنعم بن موهوب القاري قراءة عليه وأنا أسمع ، قال : أخبرنا

^٣ عن مدينة فقط انظر فيما يلي ٦٢٩-٦٣٣ .

في دَيْرِ أَبِي هِزْمِيسَ ، فَوَجَدُوا فِيهِ مِثًا فِي أَكْفَانِهِ ، وَعَلَى صَدْرِهِ قِرْطَاسٌ مَلْفُوفٌ فِي خِرْقٍ ^١ ، فَاسْتَخْرَجُوهُ مِنَ الْخِرْقِ فَرَأَوْا كِتَابًا لَا يَعْرِفُونَهُ ، وَكَانَ الْكِتَابُ بِالْقِبْطِيَّةِ الْأُولَى ، فَطَلَبُوا مَنْ يَقْرَأهُ لَهُمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، فَقِيلَ لَهُمْ : إِنَّ بَدَيْرَ الْقَلَمُونَ مِنْ أَرْضِ الْقَيْثُومِ رَاهِبًا يَقْرَأهُ ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ ، وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّهُ فِي الصَّنَعَةِ ، فَقَرَأَهُ لَهُمْ وَكَانَ فِيهِ .

- ٥ « كُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ فِي أَوَّلِ سَنَةِ مِنْ مُلْكِ دِيْقَلْطِيَانِسِ الْمَلِكِ ، وَإِنَّا اسْتَنْسَخْنَاهُ مِنْ كِتَابِ نُسِيخٍ فِي أَوَّلِ سَنَةِ مِنْ مُلْكِ فِيلِبْسِ الْمَلِكِ ، وَأَنَّ فِيلِبْسَ اسْتَنْسَخَهُ مِنْ صَحِيفَةٍ مِنْ ذَهَبٍ خَرَقَ كِتَابَتَهَا حَرْفًا حَرْفًا ، وَكَانَ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ تَرْجَمَهُ لَهُ أَخْوَانٌ مِنَ الْقِبْطِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا أَيْلُو وَالْآخَرُ بَرْتَا . وَإِنَّ الْمَلِكَ فِيلِبْسَ سَأَلَهُمَا عَنْ سَبَبِ مَعْرِفَتِهِمَا بِمَا جَهِلَهُ النَّاسُ مِنْ قِرَاءَتِهِ ، فَذَكَرَا أَنَّهُمَا مِنْ وَدِّ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ مِصْرِ الْأَوَائِلِ ، لَمْ يَنْجِ مِنَ الطُّوفَانِ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ أَحَدٌ غَيْرَهُ ، وَكَانَ سَبَبُ نَجَاتِهِ أَنَّهُ أَتَى نُوحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَمَّنَ بِهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ غَيْرِهِ ، فَحَمَلَهُ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ ، فَلَمَّا نَضَبَ مَاءُ الطُّوفَانِ أَتَى مِصْرَ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ وَدِّ حَامِ بْنِ نُوحٍ ، وَكَانَ بِهَا حَتَّى هَلَكَ ، فَوَزَّتْ وَوَلَدَهُ عِلْمَ كِتَابِ أَهْلِ مِصْرِ الْأَوَّلِ ، فَوَرِثْنَاهُ عَنْهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ » .
- ١٠ وَكَانَ تَارِيخُهُ الَّذِي مَضَى إِلَى أَنْ اسْتَنْسَخَهُ فِيلِبْسَ أَلْفًا وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَاثْنَتَيْ وَسَبْعِينَ سَنَةً ، وَأَنَّ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ فِي صَحِيفَةٍ مِنْ ذَهَبٍ خَرَقَ كِتَابَتَهَا حَرْفًا حَرْفًا عَلَى مَا وَجَدَهُ فِيلِبْسَ ، وَإِنَّ تَارِيخَهُ إِلَى أَنْ اسْتَنْسَخَهُ أَلْفٌ وَسَبْعٌ مِائَةٌ وَسَنَةٌ وَخَمْسٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً .
- ١٥ وَكَانَ الْكِتَابُ الْمُنْسُوخُ :

- ٢٠ « إِنَّا نَظَرْنَا فِيهَا تَدُلُّ عَلَيْهِ النُّجُومُ فَرَأَيْنَا أَنَّ آفَةً نَازِلَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَخَارِجَةٌ مِنَ الْأَرْضِ . فَلَمَّا بَانَ لَنَا الْكَوْنُ نَظَرْنَا مَا هُوَ ، فَوَجَدْنَاهُ مَاءً مُفْسِدًا لِلْأَرْضِ وَحَيَوَانِهَا وَنَبَاتِهَا . فَلَمَّا تَمَّ الْيَقِينُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَنَا قُلْنَا يَلِكِنَا سُورِيدُ بْنُ سَهْلُوقَ : مَرُّ بِنَاءِ أَفْرُوشَنَاتٍ وَقَبْرِ لَكَ وَقَبْرِ لِأَهْلِ بَيْتِكَ ! فَبَنَى لَهُمُ الْهَرَمَ الشَّرْقِيَّ ^٢ ، وَبَنَى لِأَخِيهِ هَرَجِيبِ الْهَرَمَ الْغَرْبِيَّ ، وَبَنَى لِابْنِ هَرَجِيبِ الْهَرَمَ

^١ هذا النص أحد الروايات القليلة التي تعتمد على ما جاء عند (Fodor, A., op. cit, pp. 347-62) .

في القراطيس (البيروني Papyrus) القديمة (راجع مناقشة ذلك الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١٠٠-١٠٢ .

المؤزر^(a)، وبُنيت أفروشنات في أسفل مصر وأغلاها . فكَتَبْنَا في حيطانها عِلْمَ غَامِضِ أُمُورِ النُّجُومِ وَعِلْمِهَا ، وَالصَّنْعَةَ وَالهِندَسَةَ وَالطُّبَّ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَنْفَعُ وَيَضُرُّ ، مُلَخَّصًا مُفَسَّرًا لِمَنْ عَرَفَ كَلَامَنَا وَكَتَابَتَنَا .

فَإِنَّ^(b) هَذِهِ الْآفَةُ نَازِلَةٌ بِأَقْطَارِ الْعَالَمِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِ قَلْبِ الْأَسَدِ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنْ رَأْسِ الشَّرْطَانِ ، وَتَكُونُ الْكَوَاكِبُ عِنْدَ نُزُولِهِ إِثَاها فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ مِنَ الْفَلَكَ : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنْ رَأْسِ الْحَمَلِ وَقُرُونِسَ فِي دَرَجَةِ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ دَقِيقَةً ، وَرَاوِيسَ فِي الْحُوتِ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَثَمَانٍ وَعِشْرِينَ دَقِيقَةً ، وَآرِينَ فِي الْحُوتِ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَثَلَاثَ دَقَائِقَ ، وَأَفْرُودِيطِي^(c) فِي الْحُوتِ فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَدَقَائِقَ ، وَهَرْمِسَ فِي الْحُوتِ فِي سَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً وَدَقَائِقَ ، وَالجَوْزَهْرَ فِي الْمِيزَانِ ، وَأَوْجَ الْقَمَرِ فِي الْأَسَدِ فِي خَمْسِ دَرَجَاتٍ وَدَقَائِقَ .

ثُمَّ نَظَرْنَا هَلْ يَكُونُ بَعْدَ هَذِهِ الْآفَةِ كَوْنٌ مُضِرٌّ بِالْعَالَمِ ، فَأَصَبْنَا الْكَوَاكِبَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ آفَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَأَنَّهَا ضِدُّ الْآفَةِ الْأُولَى ، وَهِيَ نَارٌ مَحْرِقَةٌ أَقْطَارَ الْعَالَمِ . ثُمَّ نَظَرْنَا مَتَى يَكُونُ هَذَا الْكَوْنُ الْمُضِرُّ ، فَرَأَيْنَاهُ يَكُونُ عِنْدَ مُحَلُولِ قَلْبِ الْأَسَدِ فِي آخِرِ دَقِيقَةٍ مِنَ الدَّرَجَةِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْأَسَدِ ، وَيَكُونُ إِبْلِيسَ مَعَهُ فِي دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَّصِلَةً بِقُرُونِسَ مِنْ تَثْلِيثِ الرَّامِي ، وَيَكُونُ رَاوِيسَ مُشْتَرِي فِي أَوَّلِ الْأَسَدِ فِي آخِرِ اخْتِرَاقِهِ وَمَعَهُ . آرِينَ فِي دَقِيقَةٍ ، وَيَكُونُ سَلِيسَ فِي الدُّلُوِّ مُقَابِلًا لِإِبْلِيسَ وَمَعَهُ الذَّنْبُ فِي اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ ، وَيَكُونُ كُسُوفٌ شَدِيدٌ لَهُ مُكْتٌ يُوَازِي الْقَمَرَ ، وَيَكُونُ هَرْمِسَ فِي بُعْدِهِ الْأَبْعَدَ أَمَامَهَا مُقْبِلِينَ ، أَمَّا أَفْرُودِيطِي^(c) فَلِلْإِسْتِقَامَةِ ، وَأَمَّا هَرْمِسَ فَلِلرَّجْعَةِ .

قَالَ الْمَلِكُ : فَهَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ خَبِيرٍ تُوقِفُونَا عَلَيْهِ غَيْرَ هَاتَيْنِ الْآفَتَيْنِ ؟ قَالُوا : إِذَا قَطَعَ قَلْبُ الْأَسَدِ ثُلُثِي سُدُسِ أَذْوَارِهِ ، لَمْ يَبْقَ مِنْ حَيَوَانَ الْأَرْضِ مُتَحَرِّكٍ إِلَّا تَلْفٌ ، فَإِذَا اسْتَتَمَ أَذْوَارَهُ تَحَلَّلتْ عُقْدُ الْفَلَكَ ، وَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ . قَالَ

(a) بولاق : الملون . (b) بولاق : وإن . (c) بولاق : أفردوبطن .

لهم: وأيُّ يومٍ فيه انْجِلال الفَلَكِ؟ قالوا: اليوم الثاني من بُدْوِ حركة الفَلَكِ.

فهذا ما كان في^(a) القِرْطاسِ.

فلَمَّا ماتَ الملكُ سُوريد بن سُهلوق، دُفِنَ في الهَرَمِ الشَّرْقي، ودُفِنَ هزجيب في الهَرَمِ الغَرْبي، ودُفِنَ كرورس في الهَرَمِ الذي أسْفَلَه من حجارة أشوان وأغلاه كِدَّان.

ولهذه الأهرام أبواب في أزاج تحت الأرض، طول كلٍّ أزج مائة وخمسون ذراعًا، فأما باب الهَرَمِ الشَّرْقي فمن الناحية البحريّة، وأما باب أزج الهَرَمِ^(b) الغربي فمن الناحية الغربية، وأما باب أزج الهَرَمِ^(b) المُؤزَّر فمن الناحية القبليّة. وفي الأهرام من الذهب وحجارة الزُّمرد ما لا يحتمله الوصف.

١٠ وإنَّ مُتَرْجِمَ هذا الكتاب من القِبْطِي إلى العربي^(c) أجْمَلُ النَّارِنجَاتِ^(d) إلى أوّل يوم من ثوت - وهو يوم الأحد طُلوع شَمْسِهِ سنة خمس وعشرين ومائتين من سني العرب - فبَلَّغَتْ أربعة آلاف وثلاث مائة وإحدى وعشرين سنة لسنتي الشَّمْسِ.

١٥ ثم نَظَرَ كَمْ مَضَى لِلطُّوفانِ إلى يَوْمِهِ هذا فَوَجَدَهُ ألفًا وسبع مائة وإحدى وأربعين سنة وتسعة وخمسين يومًا وثلاث عشرة ساعة وأربعة أحماس ساعة وتسعة وخمسين جزءًا من أربع مائة جزء من ساعة،^(e) فألقاها من الجُمَّلَةِ فبقي معه ثلاث مائة وتسع وتسعون سنة ومائتان وخمسة أيام وعشر ساعات وأحد وعشرون جزءًا من أربع مائة جزء من ساعة^(e). فَعَلِمَ أَنَّ هذا الكتاب المُوَرَّخ كُتِبَ قَبْلَ الطُّوفانِ بهذه السنين والأيام والساعات والكُشْر من السَّاعَةِ^١.

٢٠ وأما الهَرَمُ الذي بدَّير أبي هَرَميس، فإنه قَبْرُ قَرِيَّاس، وكان فارس أهل مصر، وكان يُعَدُّ بألف فارس، فإذا لَقِيَهُمْ لم يَقُومُوا به وانْهَزَمُوا؛ وإنه ماتَ فجزعَ الملكُ عليه جَزَعًا بَلَغَ منه، واكْتَأَبَتْ لموته الرَّعِيَّةُ، فدَفَنُوهُ بدَّير [أبي] هَرَميس، وبنوا عليه الهَرَمَ مُدْرَجًا^٢. وكان طينُهُ الذي بُني به مع

(a) ساقطة من بولاق. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) الأصل من القبلي إلى الغربي. (d) بولاق: التاريخين. (e-e) ساقطة من الإدريسي. نتيجة انتقال نظر.

^١ آخر ما أورده باقوت الحموي من نص القضاعي (معجم البلدان ٥: ٣٩٩-٤٠٠).
^٢ المقصود به الهرم المدرج، ودير هرميس أو أبو هرميس هو الموضع المعروف الآن بـ«سَقَارَه» في الجيزة =

الحجارة من الفيوم ، وهذا معروف إذا نُظِرَ إلى طِينِهِ لم يُعْرَفْ له مَعْدِنٌ إِلَّا بِالْفَيْومِ ، وليس بِمَنْفٍ
وُؤَسِيمٍ له شِبْهٌ مِنَ الطِّينِ ^١ .

وَأَمَّا قَبْرُ الْمَلِكِ - صَاحِبِ قَرْيَاسِ هَذَا - فَإِنَّهُ الْهَرَمُ الْكَبِيرُ مِنَ الْأَهْرَامِ الَّتِي فِي بَحْرِيٍّ دَيْرِ أَبِي
هَزْمِيمِ ، وَعَلَى بَابِهِ لَوْحٌ كِدَانٌ مَكْتُوبٌ فِيهِ بِاللَّازِوَزْدِ ، طُولُ اللَّوْحِ ذِرَاعَانِ فِي ذِرَاعٍ ، وَكُلُّهُ مَمْلُوءٌ
كِتَابًا مِثْلَ كِتَابَةِ الْبِرَّابِيِّ ، يُصْعَدُ إِلَى بَابِ الْهَرَمِ بِدَرَجٍ بَعْضُهَا صَحِيحٌ لَمْ يَنْخَرَمْ . وَفِي هَذَا الْهَرَمِ
ذَخَائِرٌ صَاحِبِهِ مِنَ الذَّهَبِ وَحِجَارَةِ الزُّمُرُودِ ، وَإِنَّمَا سَدُّ بَابِهِ حِجَارَةٌ سَقَطَتْ مِنْ أَعَالِيهِ ، وَمَنْ وَقَفَ
عَلَيْهِ رَأَى بَيِّنَاتًا ^٢ .

وَقَالَ ابْنُ عُفَيْرٍ عَنْ أَشْيَاحِهِ : إِنَّ جِيَادَ بْنَ مِيَادَ بْنَ شَمْرَ بْنَ شَدَّادَ بْنَ عَادَ بْنَ عُوصَ بْنَ إِزْمَ بْنَ
سَامَ بْنَ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَلِكِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَكَانَتْ تَسْمَى إِزْمَ ذَاتَ الْعِمَادِ ، فَطَالَ مُلْكُهُ
وَبَلَغَ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَهُوَ الَّذِي سَارَ وَبَنَى الْأَهْرَامَ وَزَيَّرَ فِيهَا :

«أَنَا جِيَادُ بْنُ مِيَادَ بْنِ شَمْرَ بْنِ شَدَّادَ ، الشَّادُ بِزِرَاعَةِ الْوَادِ ، الْمُؤَيَّدُ الْأَوْتَادِ ،
الْجَامِعُ الصُّخْرَ فِي الْبِلَادِ ، الْمُجْتَمِدُ الْأَجْنَادِ ، النَّاصِبُ الْعِمَادِ ، الْكَتْدُ الْكِنَادِ ،
تُخْرِجُهُ أُمَّةٌ اسْمُ نَبِيِّهَا حَمَّادُ ، آيَةٌ ذَلِكَ إِذَا غَشَى بِلْدَ الْبِلَادِ ، سَبْعَةَ مُلُوكٍ
أَجْناسِ السُّوَادِ . تَارِيخُ هَذَا الزُّيْرِ أَلْفُ سَنَةٍ وَأَرْبَعُ مِائَةِ سَنَةٍ عِدَادًا» .

وَقَالَ ابْنُ عُفَيْرٍ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : وَفِي زَمَانِ شَدَّادَ بْنَ عَادَ بُنِيَتْ الْأَهْرَامُ ، فِيمَا ذَكَرَ بَعْضُ
الْمُحَدِّثِينَ . وَلَمْ نَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ مَعْرِفَةً فِي الْأَهْرَامِ وَلَا خَبَرَ يَثْبُتُ ^٣ .
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ : مَا أَحْسَبُ الْأَهْرَامَ بُنِيَتْ إِلَّا قَبْلَ الطُّوفَانِ ، لِأَنَّهَا لَوْ
بُنِيَتْ بَعْدَهُ لَكَانَ عِلْمُهَا عِنْدَ النَّاسِ ^٤ .

(a) بولاق : ثبت .

= (راجع Haarmann, U., *El² art. Sakkâra VIII*, pp. 925-26) .
^١ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠١ .
^٢ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١١٥-١١٩ وهو
آخر ما نقله مما قصه القضاعي عن خبر الأهرام على ما وجد
^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤٣ ؛ ياقوت : معجم
البلدان ٥ : ٤٠١ ؛ وانظر المسعودي : التنبيه والإشراف ٢٠
ومقال فودور Fodor, A., *op.cit.*, pp. 362-63 .
^٤ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠١ .

وقال عبيد بن شريفة^(a) الجرهمي : لما نزلت العماليق أرض مصر حين أخرجها جرهم من مكة ، بنت الأهرام ، واتخذت لها المصانع ، وبتت فيها العجائب ، ولم تزل بمصر حتى أخرجها مالك بن دعر الخزاعي^١ .

وقال محمد بن عبد الحكيم : كان من وراء الأهرام إلى المغرب أربع مائة مدينة سوى القرى من مصر إلى / المغرب في غربي الأهرام^٢ .

وقال ابن عفير : ولم يزل مشايخنا من أهل مصر يقولون الأهرام بناتها شداد بن عاد ، وهو الذي بنتى المغار ، وحنند الأجناد ؛ فالمغار والأجناد هي الدفائن . وكانوا يقولون بالرجعة ، وإذا مات أخذهم دفن معه ماله كائنا ما كان ، وإن كان صانعاً دفن معه آلة صنعته ، وكانت الصابغة تخرج إلى الأهرام^٣ .

وقال أبو الرئحان البيروني في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» : والفرس وعامة^(b) الجوس تترك الطوفان ، وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا : كان بالشام والمغرب منه شيء في زمان طهورث ، ولكنه لم يعم العمران كله ، ولم يتجاوز عقبة حلوان ، ولم يتلغ ممالك المشرق ، وإن أهل المغرب لما أئذر به حكماؤهم بنوا أئبنة - كالهرمين بمصر - ليدخلوها عند الآفة ، وإن آثار ماء الطوفان وتأثيرات الأمواج كانت بيئة على أنصاف الهرمين لم تتجاوزهما^٤ . انتهى .

ويقال : إنه لما نضب ماء الطوفان^(c) لم يوجد تحت الماء قرية سوى نهاوند - وجدت كما هي - وأهرام مصر وبرايها ، وهي التي بناتها هرميس الأول الذي تسميه العرب إدريس^٥ . وكان قد

(a) في جميع النسخ : عبد الله بن شبرمة والصواب ما أثبتته . (b) إضافة من البيروني . (c) بولاق : إن الطوفان لما نضب ماؤه .

وهرميس أو هرمس المثلث الحكمة انتقل إلى الحضارة الإسلامية بحالتين : الحالة الإلهية وهو الاسم اليوناني للإله المصري تحوت Thot ، ويظهر في المؤلفات الفلسفية والعلمية والسحرية كبطل من العصور القديمة . وينسب إلى أبي معشر البلخي في كتاب «الألوف» أن الهرامسة ثلاثة : الأول هرمس الذي كان قبل الطوفان وهو أول من تكلم في الأشياء العسوية ، والذي يُعرف عند الرومان باسم =

^١ لم أقف على هذا الخبر فيما وصل إلينا من أخبار عبيد ابن شريفة الجرهمي .

^٢ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٧٧ .

^٣ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠١ .

^٤ البيروني : الآثار الباقية ٢٣ - ٢٤ .

^٥ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ٢٢ ؛ وفيما تقدم

٣١٢ نقلًا عن الهمداني .

أَلْهَمَهُ اللهُ عِلْمَ النُّجُومِ ، فَذَلَّتْهُ عَلَى أَنَّهُ سَيَنْزِلُ بِالْأَرْضِ آفَةً ، وَأَنَّهُ سَيَبْقَى بَقِيَّةً مِنَ الْعَالَمِ يَخْتاجُونَ فِيهَا إِلَى عِلْمٍ ، فَبَنَى هُوَ وَأَهْلُ عَصْرِهِ الْأَهْرَامَ وَالْبَرَابِي ، وَكَتَبَ عِلْمَهُ فِيهَا .

وقال أبو الصلت الأندلسي في «رسالته» ، وقد ذَكَرَ أَخْلَاقَ أَهْلِ مِصْرَ : إِلَّا أَنَّهُ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهِم أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ طَائِفَةٌ مِنْ ذَوِي الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ، وَخُصُوصًا عِلْمَ الْهَنْدَسَةِ وَالنُّجُومِ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا خَلَّفُوهُ مِنَ الصَّنَائِعِ الْبَدِيعَةِ الْمُعْجِزَةِ ، كَالْأَهْرَامِ وَالْبَرَابِي ، فَإِنَّهَا مِنَ الْآثَارِ الَّتِي خَيَّرَتِ الْأَذْهَانَ الثَّاقِبَةَ ، وَاسْتَعْجَزَتِ الْأَفْكَارَ الرَّاجِحَةَ ، وَتَرَكَّتْ لَهَا شُغْلًا بِالتَّعْجُبِ مِنْهَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا ^١ .
وفي مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري من قصيدته التي يزني بها أباه ^٢ :

[الطويل]

تَضِلُّ الْعُقُولُ الْهَيْزَبِيَّاتُ رُشْدَهَا وَلَا يَسْلَمُ الرَّأْيُ الْقَوِيمُ مِنَ الْأَفْنِ
وَقَدْ كَانَ أَرْبَابُ الْفَصَاحَةِ كُلَّمَا رَأَوْا حَسَنًا عَدُوهُ مِنْ صَنَعَةِ الْجِنِّ

وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبَ وَأَعْرَبَ ، بَعْدَ مَقْدُورَاتِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَمَصْنُوعَاتِهِ ، مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى بِنَاءِ جِسْمٍ جَسِيمٍ ، مِنْ أَعْظَمِ الْحِجَارَةِ ، مُرَبَّعِ الْقَاعِدَةِ ، مَخْرُوطِ الشَّكْلِ ، ارْتِفَاعِ عَمُودِهِ ثَلَاثَ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، يُحِيطُ بِهِ أَرْبَعَةُ سُطُوحٍ مِثْلَثَاتٍ مُتَسَاوِيَاتِ الْأَضْلَاعِ ، طَوَّلُ كُلِّ ضِلْعٍ مِنْهَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَسِتُونَ ، وَهُوَ مَعَ الْعِظَمِ مِنْ إِحْكَامِ الصَّنِيعَةِ وَإِتْقَانِ الْهِنْدَامِ وَحُسْنِ التَّقْدِيرِ ، بِحَيْثُ لَمْ يَتَأَثَّرْ إِلَى هَلَمَّ جَزًّا بَعْضُفِ الرِّيَّاحِ وَهَطْلِ السُّحَابِ وَزَعْزَعَةِ الزَّلَازِلِ . وَهَذِهِ صِفَةٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْهَرَمَيْنِ الْمُحَازِيَيْنِ لِلْقُسْطَاطِ مِنَ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ عَلَى مَا شَاهَدْنَاهُ مِنْهُمَا ^٣ .

VII, pp. 50-58; Plessner, M., *El² art. Hirmis III*, pp. 479-81, Vajda, G., *El² art. Idris III*, pp. 1056-57؛ وحلل بلسنر رواية أبي معشر في مقاله Plessner, M., «Hermes Trismegistus and Arab Fodor, *Science*», *SVII* (1954), pp. 53 A., *The Origin of the Arabic Legendems of the Pyramides*, pp. 335-46

Mercurius = وهو «عطارد» عند العرب ، والذي يزعم المصريون القدماء أنه نفس الإله تموت Thot ، ويطلق عليه أيضًا «إدريس» و«أخنوخ أو خنوخ» . والثاني هرمس البابلي الذي عاش في بابل مع الكلدانيين بعد الطوفان وأحيا دراسة العلوم . والثالث سكن في مصر بعد الطوفان أيضًا وكان فيلسوفًا طبيعيًا وبرع في علم الكيمياء وكان من أنبغ تلاميذه اسقلايوس (راجع ، ابن النديم : الفهرست ٣٢٧ ، ٤١٧ - ٤١٨ ؛ ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ٥ - ١٠ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ١ : ١٦ - ٢١ ؛ المبشر بن فاتك : مختار الحكم ٧ - ٢٧ ؛ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ٩٦ - ٩٧ ، Sezgin, F., *GAS IV*, pp. 31-44, ٤٠١ : ٥ - ٤٠٢ .

^١ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١٧ .

^٢ انظر أبيات أبي العلاء المعري في سقط الزند ١ : ١١٩٦

الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١٧ .

^٣ الإدريسي : أنوار علوي ١٧ - ١٨ ؛ ياقوت : معجم

البلدان ٥ : ٤٠١ - ٤٠٢ .

وَإِذَا ذَكَرْتُ عَجَائِبَ مِصْرَ، وَأَنَّ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بِنِيَّةِ إِلَّا وَأَنَا أَزْثِي لَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
إِلَّا الْهَرَمَانَ، فَأَنَا أَزْثِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مِنْهُمَا ٢، وَهَذَانِ الْهَرَمَانِ لَهَا إِشْرَافٌ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ،
وَإِطْلَالٌ عَلَى بَطَائِحِهَا، وَإِضَاعَادٌ فِي جَوْهَا ٣. وَهَمَا اللَّذَانِ أَرَادَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيُّ بِقَوْلِهِ ٤:

[الكامل]

- ٥ أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ؟ مَا قَوْمُهُ؟ مَا يَوْمُهُ؟ مَا الْمَضْرَعُ؟
تَتَخَلَّفُ الْأَثَارُ عَنْ سُكَّانِهَا حَيْثَا، وَيُذْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَشْبَعُ
وَإِتَّفَقَ يَوْمًا أَنَا خَرَجْنَا إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا طَفْنَا بِهِمَا وَاسْتَدْرْنَا حَوْلَهُمَا، كَثُرَ التَّعْجُوبُ مِنْهُمَا، فَقَالَ بَعْضُنَا ٤:

[الطويل]

- ١٠ بَعِيثِيكَ ٥ هَلْ أَبْصَرْتَ أَعْجَبَ مَنْظَرًا عَلَى طَوِيلٍ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ هَرَمِي مِصْرٍ؟
أَنَا بِأَعْنَانِ السَّمَاءِ وَأَشْرَفًا عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السَّمَاءِ أَوْ النَّشْرِ
وَقَدْ وَافَيْتَا نَشْرًا مِنَ الْأَرْضِ عَالِيًا كَانَهُمَا نَهْدَانِ قَامَا عَلَى صَدْرٍ
وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ الْأَمْزَامَ قُبُورَ مُلُوكِ عِظَامِ آثَرُوا أَنْ يَتَمَيَّزُوا بِهَا عَلَى سَائِرِ الْمُلُوكِ بَعْدَ تَمَاتِهِمْ، كَمَا
تَمَيَّزُوا عَنْهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ، وَتَوَخَّوْا أَنْ يَبْقَى ذِكْرُهُمْ بِسَبَبِهَا عَلَى تَطَاوُلِ الدُّهُورِ وَتَرَاخِي الْعُصُورِ ٥.
وَلَمَّا وَصَلَ الْخَلِيفَةُ الْمَأْمُونُ إِلَى مِصْرَ أَمَرَ بِتَنْقِيبِهَا، فَتَقَبَّ أَحَدُ الْهَرَمَيْنِ الْمُحَازِينَ لِلْقُسْطِاطِ بَعْدَ
١٥ جُهْدٍ شَدِيدٍ وَعَنَاءٍ طَوِيلٍ، فَوَجَدُوا دَاخِلَهُ مَهَاوِي وَمَرَاقِي يَهْوِلُ أَمْرُهَا وَيَعْتَشِرُ الشُّلُوكَ فِيهَا،
وَوَجَدُوا فِي أَعْلَاهَا بَيْتًا مُكْعَبًا طَوِيلٌ كُلُّ ضِلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ نَحْوَ مِنْ ثَمَانِيَةِ أذْرَعٍ، وَفِي وَسْطِهِ
خَوْضٌ رُخَامٌ مُطْبِقٌ، فَلَمَّا كُثِفَ غِطَاؤُهُ لَمْ يَجِدُوا فِيهِ غَيْرَ رِيَّةٍ بَالِيَةٍ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهَا الْعُصُورُ

(a) في الرسالة المصرية: على ذراها، وبولاق: جوفها. (b) بولاق: بعيشك.

- ١ من هنا ينقل المقرئ عن «الرسالة المصرية» لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز ٢٦.
٢ أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٦؛ وانظر فيما تقدم ٨٢ وفيما يلي ٣٢٩.
٣ الأبيات في ديوان المتنبي بشرح العكبري ١: ٤٠٥؛ أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٦؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٧؛ وقارن الإدريسي: أنوار علوي ١١.
٤ الأبيات عند ابن ظافر: بدائع البدائ ١: ٢٤٣؛ ياقوت: معجم البلدان ٥: ٤٠٢ وفيه يعني نفسه؛ الإدريسي: أنوار علوي ١٤٥؛ التويري: نهاية الأرب ١: ٣٩١؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٧؛ المقرئ: نفع الطيب ١: ٤٩٨، ٣: ٣٣٢ وهي فيه منسوبة إلى أمية بن عبد العزيز.
٥ الإدريسي: أنوار علوي ١٤٧؛ ياقوت: معجم البلدان ٥: ٤٠٢.

الخالية . فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نهب ما سواه . ويُقال إن النفقة على نهبه كانت عظيمة
والمؤنة شديدة^١ .

ومن الناس من زعم أن هزيمس الأول المدعو بالمثلث بالثبوة والملك والحكمة ، وهو الذي
تسميه العبرانيون خنوخ بن يرد بن مهلائيل بن فتيان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام ، وهو
إدريس - عليه السلام - استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الأرض ، فأمر بئتيان^(a)
الأهرام وإيداعها الأموال ، وصحائف العلوم ، وما يُشفق عليه من / الذهب والدروس ، حفظاً لها
واحتياطاً عليها^٢ .

ويُقال إن الذي بناها ملك اسمه سُوريد بن شهلوق بن سرياق^٣ ، وقال آخرون : إن الذي بنى
الهرميين المحاذيين للفسطاط شداد بن عاد لرؤيا رآها .

والقبط تُنكر دخول العماليقة بلد مصر ، وتحقق أن بانيها سُوريد لرؤيا رآها وهي أن آفة تنزل من
السماء ، وهي الطوفان . وقالوا إنه بتأهما في مدة ستة أشهر ، وغشاهما بالدياج الملون ، وكتب
عليهما : «قد بتيناها في ستة أشهر ، قل لمن يأتي من بعدنا يهدمها في ست مائة سنة ، فالهدم
أيسر من البئتيان ، وكسوناها بالدياج الملون ، فليكسهما حضراً ، فالحضر أهون من الدياج» .
ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرميين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بشطوور متضايقة
متوازية من كتابة بانيها ، لا تُعرف اليوم أحرفها ، ولا تُفهم معانيها .

وبالجملة ، الأمر فيها عجيب ، حتى إن غاية الوصف لها ، والإغراق في العبارة عنها ، وعن
حقيقة الموصوف منها ، بخلاف ما قاله علي بن العباس الرومي ، وإن تباعد الموصوفان ، وتباين
المقصودان ، إذ يقول^٤ :

[المتقارب]

إذا ما وصفت أمراً لا مرئياً فلا تغل في وصفه واقصدي

(a) بولاق : فأكثر من بيان .

^١ الإدريسي : أنوار علوي ٤٣٤ ياقوت : معجم البلدان أمية بن عبد العزيز .
٥ : ٤٠٢ ؛ وانظر فيما تقدم ٣٠٦ .
^٢ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٩ .
أنوار علوي ١٤٦ .
^٣ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠٢ ومصدره أبو الصلت
^٤ الأبيات في ديوان ابن الرومي ٢ : ٦٨٨ ؛ الإدريسي :

فإنك إن تَعْلُ تُبَدُ الظَّنو ن فيه إلى الغَرَضِ الأَبْعَدِ
فِيضْفُرُ من حيث عَظْمَتُهُ لَفَضْلِ المَغِيبِ على المَشْهَدِ^١

ويقال : إنَّ المأمون أمرَ من صَعِدَ الهَرَمَ الكبيرَ أن يُذلي حَبَلًا ، فكان طُولُهُ ألف ذراع بالذُّراع الملكي - وهو ذراع وخُمْسان - وتزْيِغُهُ أربع مائة ذراع في مِثْلِهَا ، وكان صُعودُهُ في ثلاث ساعات من النَّهار ، وأَنَّهُ وَجَدَ مِقْدَارَ رَأْسِ الهَرَمِ قَدْرَ مَبْرَكِ ثمانية جِمال^٢ .

ويقالُ : إِنَّهُ وَجَدَ على الشَّخْصِ^(a) المَقْبورِ في الهَرَمِ حُلَّةً قد بَلَّيت ولم يَبْقَ منها سوى سُلوكُهَا من الذَّهَبِ ، وَأَنَّ ثَخَانَةَ الطَّلَاءِ الذي عليه قَدْرَ شِبرٍ من مِرٍّ وصَبْرٍ .

ويقالُ : إِنَّهُ وَجَدَ في مَوْضِعٍ من هذا الهَرَمِ إيوانًا ، في صَدْرِهِ ثلاثة أبواب على ثلاثة بُيوت ، طول كلِّ باب منها عشرة أذْرُعٍ في عَرْضِ خمسة أذْرُعٍ من رُخامٍ مَنحوتٍ مُحْكَمِ الهِنْدَامِ ، وعلى صَفْحَاتِهِ حَظُّ أرزقٍ لم يُحْسِنُوا قَرَاءَتَهُ ؛ وَأَنَّهُمْ أَقَامُوا ثلاثة أيامٍ يَعمَلون الحِيلَةَ في فَتْحِ هذه الأبوابِ ، إلى أن رَأَوْا أَمَامَهَا على عشرة أذْرُعٍ منها ثلاثة أَعْمَدَةٍ من مَرْمَرٍ ، وفي كلِّ عَمُودٍ خِرْقٍ في طُولِهِ ، وفي وَسَطِ الخِرْقِ صُورَةُ طَائِرٍ ؛ ففي الأَوَّلِ من هذه العُمُدِ صُورَةُ حَمَامٍ من حَجَرٍ أخضرٍ ، وفي الأَوْسَطِ صُورَةُ بَازِيٍّ من حَجَرٍ أصفرٍ ، وفي العَمُودِ الثالثِ صُورَةُ دِيكٍ من حَجَرٍ أحمرٍ . فَخَرَّكُوا البَازِيَّ فَتَحَرَّكَ البَابُ الأَوَّلُ الذي في مُقَابَلَتِهِ ، فَرَفَعُوا البَازِيَّ قَلِيلًا فَارْتَفَعَ البَابُ ، وكان بحيث لا يَزِفَعُهُ مائة رجلٍ من عِظْمِهِ ، فَرَفَعُوا التَّمثالَيْنِ الأَخرينِ ، فَارْتَفَعَ البَابانِ الأَخرانِ ؛ فَدَخَلُوا إلى البَيْتِ الأَوْسَطِ ، فَوَجَدُوا فيه ثلاثة سُرُرٍ من حِجَارَةٍ شَفَّافَةٍ مُضِيئَةٍ ، وعليها ثلاثة من الأَمْواتِ ، على كلِّ مَيِّتٍ ثلاث حُلَلٍ ، وعند رَأْسِهِ مُصْحَفٌ بِحَظِّ مَجْهولٍ .

وَوَجَدُوا في البَيْتِ الأَخرِ عِدَّةَ رُفُوفٍ من حِجَارَةٍ ، عليها أسْفَاطٌ من حِجَارَةٍ فيها أَوَانٍ من الذَّهَبِ عَجِيبَةِ الصَّنِيعَةِ ، مُرَصَّعَةٌ بأَصْنَافِ^(b) الجَواهِرِ . وَوَجَدُوا في البَيْتِ الثالثِ عِدَّةَ رُفُوفٍ من حِجَارَةٍ ، عليها أسْفَاطٌ من حِجَارَةٍ فيها آلاتُ الحَرْبِ وَعُدَدُ السُّلَاحِ ؛ فَمِيسَ مِنْهَا سَيْفٌ فَكان طُولُهُ سبعة أشبارٍ ، وكلُّ دِرْعٍ من تلكِ الدُّروعِ اثنا عشر شِبرًا ،^(c) ويدخلُ في البِيضَةِ رَأْسانٍ من رُؤوسِ النَّاسِ^(c) ؛ فَأَمَرَ المَأْمُونُ بِحَمْلِ ما وَجَدَ في البُيوتِ ، وَأَمَرَ فَحَطَّتِ العُمُدُ فَانطَبَقَتِ الأبوابُ كما كانت .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : بأنواع . (c-c) ساقطة من بولاق .

^١ نهاية النص المنقول عن أمية بن عبد العزيز : الرسالة المصرية ٢٤ - ٢٨ .
^٢ ابن النديم : الفهرست ٤١٨ وهو تنمة النص الذي نقله فيما سبق ٣٠٩ - ٣١٠ .

ويقال كانت عدّة الأهرام ثمانية عشر هرمًا منها تجاه مدينة الفسطاط ثلاثة، أكبرها دوزة ألفا ذراع، وهو مُرَبَّع، في كلِّ وجه من وجوهه الأربعة خمس مائة ذراع^١.

ويقال إنَّ المأمون لما فتَّحه وجدَّ فيه حوضًا من حجر مُعْطَى بلُوح من زُخام وهو مملوءٌ بالذهب، وعلى اللُوح مَكْتُوبٌ بقلم عُربٍ فكان: «إنا عمَّرنَا هذا الهرم في ألف يوم، وأبَّحنَا لمن يَهْدِمُه في ألف يوم^(a)، والهدمُ أسهلُّ من العِمارة. وكَسَوْنَاهُ جَمِيعَهُ بالدِّياج، وأبَّحنَا لمن يَكْسُوهُ الحُضْر، والحُضْر أَيْسَرُ من الدِّياج. وجَعَلْنَا في كلِّ جِهَةٍ من جِهَاتِهِ مَالًا بِقَدْرِ مَا يُضْرَفُ على الوُصول إليه»^٢.

فأمَرَ المأمون أن يُحَسَّبَ ما ضُرِفَ على النَّقْبِ، فبَلَغَ قَدْرَ مَا وُجِدَ في الحُوضِ من غير زيادة ولا نَقْص^٣.

ويقال: إنَّه وُجِدَ فيه صُورَةٌ آدَمِيٍّ من حَجَرٍ أَخْضَرَ كالدَّهْنِج، مُطْبَقَةٌ^(b) كالذَّوَاة، ففُتِحَ فإذا فيه جَسَدُ إنسانٍ^(c) عليه دِرْعٌ من ذَهَبٍ^(d) مُزَيَّنٌ بأنواع الجواهر، وعلى صدره نَصْلٌ سَيْفٍ لا قيمة له، وعند رأسه حَجَرٌ^(d) من ياقوتٍ أحمر في قَدْرِ يَبْضَةِ الدَّجَاجَةِ. فأخَذَهُ المأمون وقال: هذا خَيْرٌ من خِراج الدنيا^(e).

وذكر بعضُ مؤرِّخي مصر أنَّ هذا الصَّنَمَ الأَخْضَرَ الذي وُجِدَت الرُّمَّةُ فيه لم يَزَلْ مُسْلَقًا^(f) عند دار المَلِكِ بِمَدِينَةِ مِصْرَ إلى سنة إحدى عشرة وخمس مائة^(g) من سني الهِجْرَةِ^٤.

وكان عند مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ يوسف هرمان، وعند مَينُومِ هَرَمٍ، وهذا آخرها. وفي سنة تسع وسبعين وخمس مائة من سني الهِجْرَةِ ظَهَرَ بِبُزْبَةِ بُوصِيرٍ من ناحِيَةِ الجِيزَةِ يَبْتُ هَرَمِيْسٍ، فَفَتَّحَهُ القَاضِي ابن الشُّهْرَزُورِي/ وَأَخَذَ مِنْهُ أَشْيَاءَ من جَمَلَتِهَا كِبَاشٍ وَقُرُودٍ وَصَفَادِيعٍ من حَجَرٍ بَازَهْرٍ، وَقَوَارِيرٍ من دَهْجٍ، وَأَصْنَامٍ من نُحَاسٍ.

(a) بولاق: سنة. (b) بولاق: فيها طبق. (c) بولاق: آدمي. (d-d) ساقطة من الأصل. (e) بولاق: الذهب. (f) بولاق: معلقًا. (g) بولاق: وست مائة، وانظر فيما تقدم ٣١٤.

^١ أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ٧٧ وفيما تقدم المحفوظة في مكتبة Liège.

^٣ انظر فيما تقدم ٣٠٦.

^٢ هذا النص موجود في الكراسة التي بخط المقرئ في ٣١٤.

وقال ابنُ خُرْدَادْبَهٗ^١ : من عَجِيبِ البُنْيَانِ أَنَّ الهَرَمَيْنِ بِمِصْرَ شَمَكِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَكُلُّمَا ارْتَفَعَ ذَقٌّ ، وَهُمَا مِنْ رُخَامٍ وَمَزْمَرٍ ، وَالطُّوْلُ أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ فِي عَرْضِ أَرْبَعِ مِائَةِ ذِرَاعٍ ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا بِالْمُسْتَنْدِ^٢ كُلُّ سِخْرِ وَكُلُّ عَجِيبٍ مِنَ الطَّبِّ ، وَمَكْتُوبٌ عَلَيْهِمَا : إِنِّي بَنَيْتُهُمَا ، فَمَنْ يَدْعِي قُوَّةً فِي مُلْكِهِ فَلْيَهْدِمَهُمَا ، فَإِنَّ الهَدْمَ أَيْسَرَ مِنَ البِنَاءِ . فَاعتَبِرْ ذَلِكَ ، فَإِذَا خَرَجَ الدُّنْيَا لَا يَفِي بِهِدْمِهَا .

وقال في كتاب «عجائب البنيان»^٢ عن الأهرام : قد انفردت مصر بهذه الأشكال ، فليس لها نظير من مثال^٣ ، يظنُّها الناظر للديار المصرية نهدين ، ويحسبُهما المتأمل^٤ أن مكارم أهلها قد أعدتها للتكريم أبلوجين ، تراهما العين على بُعد المسافة ، وإذا حدثت عن عجائبيهما يُظنُّ أنه حديثُ خرافة .

١٠ وقد أكثرَ الناسُ في ذِكْرِ الأهرامِ وَوَصْفِهَا وَمِساخَتِهَا ، وَهِيَ كَثِيرَةُ العَدَدِ جِدًّا ، وَكُلُّهَا بِرَّ الجِيزَةِ على سَمْتِ مِصْرَ القَدِيمَةِ ، تَمْتَدُّ نَحْوًا مِنْ مَسَافَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ . وَفِي بُوصِيرِ مِنْهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ . وَبَعْضُهَا كِبَارٌ وَبَعْضُهَا صِغَارٌ ، وَبَعْضُهَا طِينٌ وَبَعْضُهَا لَبْنٌ ، وَأَكْثَرُهَا حَجَرٌ ، وَبَعْضُهَا مُدْرَجٌ ، وَأَكْثَرُهَا مَخْرُوطٌ أَمْلَسٌ .

١٥ وقد كان منها بالجيزة عددٌ كثيرٌ كُلُّها صِغَارٌ ، هُدِمَتْ فِي زَمَنِ السُّلْطَانِ صَلاَحِ الدِّينِ يُوسُفَ ابنِ أَيُّوبَ على يدِ الطُّواشِي بِهَاءِ الدِّينِ قَرَأُوشَ ، أَخَذَ حِجَارَتِهَا وَبَنَى بِهَا القَنَاطِرَ فِي الجِيزَةِ ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ هَذِهِ الأهرامِ المَهْدُومَةِ ثَلَاثًا^٣ .

وأما الأهرامُ المُتَّحَدِّثُ عنها ، فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَهرامٍ ، مَوْضُوعَةٌ على خَطِّ مُسْتَقِيمٍ بِالجِيزَةِ قُبَالَةَ الفُسْطَاطِ ، وَبَيْنَهَا مَسَافَاتٌ كَثِيرَةٌ وَزَوَايَا مُتَقَابِلَةٌ نَحْوَ الشَّرْقِ . وَاثْنَانِ عَظِيمَانِ جِدًّا فِي قَدْرِ وَاحِدٍ ،

(a) بولاق : باليد . (b) بولاق : بغيرها تمثال . (c) بولاق : القابل .

^١ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٥٩ . يوسف البغدادي ، فما يُنسب إليه يوجد نصًا في كتاب

^٢ هذا الكتاب نسبة المقرئ (فيما يلي ٦٢١ ، الإفادة والاعتبار) .

^٣ انظر فيما تقدم ٣٠٠ وفيما يلي ١٥١ : ٢ .

^٤ من هنا يتفق نص «عجائب البنيان» مع نص «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادي .

٢٠٤ : ٢) إلى المؤرخ ناصر الدين شافع بن علي بن عباس سبط القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، المتوفى سنة ٥٧٣٠ / ١١٣٣٠ م ، الذي يبدو أنه اعتمد في وصف المنشآت والآثار القديمة على كتاب «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف بن

وهما متقاربان ومتبنيان بالحجارة البيض، وأما الثالث فينقص^(a) عنها نحو الربع، لكنه مبني بحجارة الصوان الأحمر المنقطة الشديد القوة والصلابة، ولا يكاد يؤثر فيه الحديد إلا في الزمان الطويل، وتجده صغيرا بالقياس إلى ذنك، فإذا أتيت إليه وأفرذته بالنظر هالك مرآه، وحير النظر^(b) في تأمله.

وقد سلك في بناء الأهرام طريق عجيبة من الشكل والإثقان، ولذلك صبرت على ممر الأيام لا، بل على ممرها صبر الزمان. فإنك إذا تأملتها وجدت الأذهان الشريفة قد اشتعلت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثالا في غاية إمكانها، حتى إنها تكاد تحدث عن قومها^(c)، وتخير عن سيرتهم، وتنطق عن علومهم وأذهانهم، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم.

وذلك أن وضعها على شكل مخروط، ويتدنى من قاعدة مربعة وينتهي إلى نقطة. ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله في وسطه، يتساند على نفسه، ويتوقع على ذاته، ويتحامل بعضه على بعض، وليس له جهة أخرى يتساقط عليها.

ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع، فإن الرياح تنكسر سورتها عند مسامتتها الزاوية، وليست كذلك عندما تلقى السطح.

وذكر المساح أن قاعدة كل من الهرمين العظيمين أربع مائة ذراع بالذراع السوداء^١، وينقطع المخروط في أعلاه عند سطح مساحته عشرة أذرع في مثلها. وذكر أن بعض الرماة رمى سهمًا في قطر أحدهما وفي سميكة، فسقط السهم دون نصف المسافة. وذكر أن ذراع سطحها أحد عشر ذراعًا بذرعا اليد.

وفي أحد هذين الهرمين مدخل يلججه الناس، يُفضي بهم إلى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك، وغير ذلك على ما يحكيه من يلججه. وأن أناسا كثيرين لهم غرام به وتحيل فيه، فيتوغلون في أعماقه، ولا بد أن ينتهوا إلى ما يعجزون عن سلوكه.

(a) بولاق: فصغير. (b) الأصل: وحسن الناظر. (c) بولاق: عن قوة قومها.

^١ عن الذراع السوداء انظر فيما تقدم ١٥٦-١٥٧.

وأما المسلك المطروق كثيرًا، فزلاقة تُقضي إلى أعلاه، فيوجد فيه بيتٌ مُرَبَّع فيه ناووس من حجر، وهذا المدخل ليس هو الباب في أصل البناء، وإنما هو منقوبٌ نقبًا صادف اتفاقًا، وذكر أن المأمون [هو الذي] ^(a) فتحه ^١.

وحكى من دخله وصعد إلى البيت الذي في أعلاه، فلما نزلوا حدثوا بعظيم ما شاهدوه، وأنه مملوء بالخفافيش وأبوالها، وتغظم فيه حتى تكون قدر الحمام، وفيه طاقات وزوازن نحو أعلاه، كأنها جعلت مسالك للريح ومنافذ للضوء [وهذه الأهرام مبنية] ^(a) بحجارة جافية، طول الحجر منها من عشرة أذرع إلى عشرين ذراعًا وشمكه من ذراعين إلى ثلاثة أذرع، وعرضه نحو ذلك. والعجب كل العجب من وضع الحجر على الحجر بهندام ليس في الإمكان أصح منه، بحيث لا نجد بينهما مدخل إبرة ولا خلل شعرة، وبينهما طين لونه الزرقة لا يذرى ما هو ولا صفتة، وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذي لم يوجد بديار مصر من يزعم أنه سمع من يعرفه، وهذه الكتابات كثيرة جدًا حتى لو نُقل ما عليها إلى صُحفٍ لكانت قدر عشرة آلاف صحيفة.

وقرأت في بعض كتب الصابئة القديمة ^٢ أن أحد هذين الهرمين قبر أغانديون، والآخر قبر هزميس، ويؤمنون أنهما يتنان عظيمان، وأن أغانديون أقدم وأعظم، وأنه كان يحج إليهما، ويهدي إليهما من أقطار البلاد ^٣.

وكان/ الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه، سؤل له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام، فبدأ بالصغير الأحمر، فأخرج إليه النقبين والحجارين وجماعة من أمراء دولته وعظماء مملكته، وأمرهم بهدمه، فحشروا عنده، وحشروا الرجال والصناع، ووقروا عليهم النفقات، وأقاموا نحو ثمانية أشهر، بحيلهم ورخلهم، يهدمون كل يوم - بعد بذل الجهد، واستفراغ الوشع - الحجر والحجرين، فقوم من فوق يذفَعونه بالأسافين والأنحال ^(b)، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والأسطان، فإذا سقط سمع له وجبة عظيمة من

(a) زيادة مما تقدم. (b) بولاق: الحجر والحجرين يذفَعونه بالأسافين.

^١ انظر فيما تقدم ٣٠٨ وأبا المحاسن: النجوم الزاهرة

^٢ هذا قول عبد اللطيف البغدادي.

^٣ انظر فيما تقدم ٣١٢.

مَسَافَةٌ بَعِيدَةٌ ، حَتَّى تَرْجُفُ الْجِبَالُ وَتُزَلْزَلُ الْأَرْضُ ، وَيَغْوَسُ فِي الرَّمْلِ فَيَتَعَبُونَ تَعَبًا آخَرَ حَتَّى يُخْرِجُوهُ ، وَيَضْرِبُونَ فِيهِ بِالْأَسَافِينَ بَعْدَ مَا يَنْقُبُونَ لَهَا مَوْضِعًا وَيُثْبِتُونَهَا فِيهِ فَيَتَقَطَعُ قِطْعًا ، وَتُسْحَبُ كُلُّ قِطْعَةٍ عَلَى الْعَجَلِ حَتَّى يُلْقَى فِي ذَيْلِ الْجَبَلِ ، وَهِيَ مَسَافَةٌ قَرِيبَةٌ . فَلَمَّا طَالَ ثَوَاؤُهُمْ ، وَتَفِدَّتْ نَفَقَاتُهُمْ ، وَتَضَاعَفَ نَصَبُهُمْ ، وَوَهَّتْ عَزَائِمُهُمْ ، [وَخَارَتْ قُوَاهُمْ] ^(a) كَفُّوا مَحْسُورِينَ لَمْ يَنَالُوا بُغْيَةً ، بَلْ شَوُّهُوا الْهَرَمَ ، وَأَبَانُوا عَنْ عَجْزٍ وَقَسَلٍ . وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الرَّائِي لِحِجَارَةِ الْهَرَمِ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ اسْتَوْصَلَ ، فَإِذَا عَايَنَ الْهَرَمَ ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يُهْدَمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَإِنَّمَا سَقَطَ بَعْضُ جَانِبٍ مِنْهُ .

وَحِينَمَا سُوهِدَتِ الْمَشَقَّةُ الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي هَدْمِ كُلِّ حَجَرٍ ، سُئِلَ ^١ مُقَدِّمُ الْحَجَّارِينَ فَقِيلَ لَهُ : لَوْ بَدَّلَ لَكُمْ السُّلْطَانُ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تَرُدُّوا حَجْرًا وَاحِدًا إِلَى مَكَانِهِ وَهَيْدَامِهِ ، هَلْ كَانَ يُمَكِّنُكُمْ ؟ فَاقْتَسَمَ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَيَعْجِزُونَ عَنْهُ وَلَوْ بُدِّلَ لَهُمْ أضعافُ ذَلِكَ .

وَيَأْزَأُ الْأَهْرَامُ مِنَ الضُّفَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مَغَايِرَ كَثِيرَةٍ الْعَدَدِ ، كَبِيرَةٍ الْمِقْدَارِ ، غَمِيقَةِ الْأَغْوَارِ ، لَعَلَّ الْفَارِسَ يَدْخُلُهَا بِرُمْحَةٍ وَيَتَخَلَّلُهَا يَوْمًا أَجْمَعَ وَلَا يُتْهِمُهَا لِكِبَرِهَا وَسِعَتِهَا وَبُعْدِهَا ، وَيَظْهَرُ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ الْأَهْرَامِ . وَأَمَّا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ الْأَهْرَامِ الصُّوَانِ ^(b) الْأَحْمَرِ ، فَيُقَالُ إِنَّهَا بِالْقُلْزَمِ وَبِأَسْوَانَ .

وَعِنْدَ هَذِهِ الْأَهْرَامِ آثَارُ أُبَيْيَةِ جَبَّارَةَ ، وَمَغَايِرَ كَثِيرَةٍ مُتَقَنَّةٍ ^(c) ، وَقَلَّمَا تَرَى مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا وَتَرَى عَلَيْهِ كِتَابَاتٌ بِهَذَا الْقَلَمِ الْمَجْهُولِ ^٢ .

وَاللَّهُ دَرُّ الْفَقِيهِ عُمَارَةَ الْيَمَنِيِّ حَيْثُ يَقُولُ ^٣ :

[الطويل]

خَلِيلِي مَا تَحْتَ السَّمَاكِينِ ^(d) بِنِيَّةٍ تُمَائِلُ فِي إِتْقَانِهَا هَرَمِي مِضْرِي
بِنَاءٌ يَخَافُ الدَّهْرُ مِنْهُ ، وَكُلُّ مَا عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا يَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ

(a) زيادة من الإفادة والاعتبار . (b) بولاق : حجارة الهرم . (c) بولاق : منقبة . (d) بولاق : السماء .

^١ العبارة عند البغدادي : وحينما شاهدت ... سألت ...
^٢ عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٤٨ - ٤٩ ؛ الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ٤٠ - ٤١ ؛ وفيما تقدم ٣١٠ - ٣١١ .
^٣ الأبيات عند عمارة اليمني : التكت العصرية ٢٧٩ ؛ الإدريسي : أنوار علوي ١٤٧ ؛ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٩٠ ؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٢ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٨٠ .

تَنْزَهُ طَرْفِي فِي بَدِيع^(a) بِنَائِهَا وَلَمْ يَنْتَزَهُ فِي الْمُرَادِ بِهَا فِكْرِي
أَخَذَ هَذَا مِنْ قَوْلِ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ: كُلُّ شَيْءٍ يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا الْأَهْرَامَ، فَإِنَّهُ يُخْشَى
عَلَى الدَّهْرِ مِنْهَا^١.

وَقَالَ عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ حَسَنَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْحَاجِبِ، وَمَاتَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ:
[الكامل]

أَنْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ إِذْ بَرَزَا
وَكَأَنَّما الْأَرْضُ الْقَرِيضَةُ إِذْ^(b)
خَسِرَتْ عَنِ الثُّدِيِّينَ بَارِزَةً
فَأَجَابَهَا بِالنَّيْلِ يُشْبِعُهَا
لِكِرَامَةِ الْمُؤَلَّى الْمُقِيمِ بِهَا

وَقَالَ سَيْفُ الدِّينِ بْنِ جُبَارَةَ:

لِلْعَيْنِ فِي عُلوِّ وَفِي صُعْدِ
ظَمِيئَتْ لَطُولِ حَرَارَةِ الْكَبِدِ
تَدْعُو الْإِلَهَ لِفُرْقَةِ الْوَلَدِ
رِيًّا وَيُنْقِذُهَا مِنَ الْكَمَدِ
خَيْرَ الْأَنَامِ مُقَوِّمِ الْأَوْدِ

[الكامل]

وَقَالَ آخَرُ:

لِللَّهِ أَيُّ غَرِيبَةٍ وَعَجِيبَةٍ
أَخْفَتْ عَنِ الْأَشْمَاعِ قِصَّةَ أَهْلِهَا
فَكَأَنَّما هِيَ كَالْحَيَامِ مُقَامَةً
مِثْلَ الْعَرَائِسِ حُدُودِ أَنْوَابِهَا

[الكامل]

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ التِّيفَاشِيِّ^٢:

(a) الإدريسي: عجيب. (b) بولاق: قد. (c) هذا البيت ساقط من بولاق.

^١ فيما تقدم ٨٢، ٣٢١. أي بكر بن حمدون القيسي التيفاشي نسبة إلى تيفاش من
^٢ شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن قري قفصة بإفريقية (تونس الحالية)، عالم جيولوجي =

[الطويل]

أَلَسْتَ تَرَى الْأَهْرَامَ دَامَ بِنَاؤُهَا
كَأَنَّ رَحَى الْأَفْلَاكِ أَكْوَارَهَا عَلَى

وقال^١:

[الرجز]

قد كان للماضين من
فالفصل عنهم فضلة
ثم انقضت أعلامهم
وانظر تراها ظاهراً
سكان مصر همم
والعلم فيهم علم
وعلمهم واختطمو
باد عليها الهرم

وقال:

[الطويل]

خليلي لا باق على الحدنان
إلى هزمي مصر تناهت قوى الورى
فلا تعجبا أن قد هيرمت فإمما
وعوجا بقرطاجنة فأنظرا بها
وايوان كسرى فأنظراه فإنه
فلا تحسبا أن الفناء يحصني
من الأول الباقي فيحدث ثاني
وقد هيرمت في دهرها الهرمان
زمانى بفقدان الشباب زمانى
جنابتي العادين تنتحبان
يخبركما بالصدق كل أوان
ألا كل ما فوق البسيطة فان

ووجدت بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني^٢: أنشدني
القاضي فخر الدين عبد الوهاب المصري لنفسه في الأهرام، سنة خمس وخمسين وسبع مائة،
وأجاد:

[الكامل]

أمباني الأهرام كم من واعظ
أذكرني قولاً تقادم عهدُه
صدع القلوب ولم يفه بلسانه
«أين الذي الهرمان من بُنيانه»

^٢ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني
المتوفى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م (ابن حجر: الدرر الكامنة
١: ٣٥٠، إنباء القمر ١: ٨١؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي
٢: ٢٥٩-٢٦١، النجوم الزاهرة ١١: ١٣١).

= اشتهر بكتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحبار» كما له
دراية واسعة بالشعر والأدب، أقام بمصر وتوفي بالقاهرة سنة
٦٥١هـ/١٢٥٣م (الصفدي: الوافي بالوفيات ٨: ٢٨٨-
٢٩١؛ المقرئ: المقفى الكبير ١: ٧٣٨-٧٤٢).

^١ الأبيات عند الصفدي: الوافي بالوفيات ٨: ٢٩٠.

هُنَّ الْجِبَالُ الشَّامِيخَاتُ تَكَادُ أَنْ
 لَوْ أَنَّ كِشْرَى جَالِسٌ فِي سَفْعِهَا
 ثَبَّتَتْ عَلَى حَرِّ الزَّمَانِ وَبَزْدِهِ
 وَالشَّمْسُ فِي إِخْرَاقِهَا وَالرِّيحُ عِنْدَ
 هَلْ عَابِدٌ قَدْ خَصَّهَا بِعِبَادَةٍ
 أَوْ قَائِلٌ يَقْضِي بِرُجْحَى نَفْسِهِ
 فَاخْتَارَهَا لِكُتُوزِهِ وَلِجِسْمِهِ
 أَوْ أَنَّهَا لِلسَّائِرَاتِ مَرَايِدُ
 أَوْ أَنَّهَا وَصَفَتْ سُؤُونَ كَوَاكِبِ
 أَوْ أَنَّهُمْ نَقَشُوا عَلَى حَيْطَانِهَا
 فِي قَلْبِ رَأْيِهَا لِيَتَعَلَّمَ نَقْشَهَا

تَمْتَدُّ فَوْقَ الْأَرْضِ عَنِ كَيَوَانِهِ
 لِأَجْلِ مَجْلِسِهِ عَلَى إِيوَانِهِ
 مَدَدًا وَلَمْ تَأْسَفْ عَلَى حَدَثَانِهِ
 سَدَّ هُبُوبِهَا وَالسَّيْلُ فِي جَرِيَانِهِ
 فَمَبَانِي الْأَهْرَامِ مِنْ أَوْثَانِهِ
 مِنْ بَعْدِ فُرْقَتِهِ إِلَى جُثْمَانِهِ
 قَبْرًا لِيَأْمَنَ مِنْ أَدَى طُوفَانِهِ
 يَخْتَارُ رَاصِدَهَا أَعَزَّ مَكَانِهِ
 أَحْكَامُ فُزْسِ الدُّهْرِ أَوْ يُونَانِهِ
 عِلْمًا يَحَازُ الْفِكْرَ فِي تَبْيَانِهِ
 فِكْرٌ يَعْضُّ عَلَيْهِ طَرْفَ بَنَانِهِ

زَكَرَ الصَّنَمَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ أَبُو الْهَوْلِ

هذا الصنم^١ بين الهرميين عُرفَ أولاً ببلهيب، وتقول أهل مصر اليوم أبو الهول^٢.

قال القضاعي: صنم الهرميين، وهو «بلهوبه»، صنم كبير من حجارة فيما بين الهرميين، لا يظهر منه سوى رأسه فقط، تُسميه العامة بـ«أبي الهول»، ويُقال بلهيب، ويُقال إنه طُلِسَ للرمل لئلا يغلب على إبليز الجيزة.

وقال في كتاب «عجائب البنيان»^٣: وعند الأهرام رأسٌ وعُنُقٌ بارزة من الأرض في غاية العظم تُسميه الناس «أبا الهول»، ويَزْعُمُونَ أَنَّ جُثَّتَهُ مَدْفُونة تحت الأرض. ويقتضي القياس [أن تكون

^١ Islamischen Agypten», Saeculum XXIX (1978), pp. 367-84.

^٢ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٤٢:١ وبلهيب هو الاسم القبطي لأبي الهول.

^٣ هذا النص المنسوب إلى كتاب «عجائب البنيان» منقول من كتاب «الإفادة والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادي. (انظر فيما تقدم ٣٠٠، ٣٢٥).

^١ كان أبو الهول (Sphinx) طوال العصر الإسلامي لا يظهر منه إلا رأسه وعنقه ولم يكشف عن كامل هيئته إلا في القرن العشرين، هكذا عاينه عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٤٩ وغيره من الرحالة (راجع، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ٢٣٨:١ ومقالي بيكر وهارمان Becker, C.H., *El² art. Abu al-Hawl I*, p. 129; Haarmann, U., «Die Sphinx Synkretistische Volkareligiosität in Spätmittelalterlichen

جثته^(a) بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعًا فصاعدًا ، وفي وجهه حمرة ودهان يلمع عليه روث الطراوة ، وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحة بهاء وجمال ، كأنه يضحك تبسمًا .

وسئل بعض الفضلاء عن عجيب ما رأى فقال : تناسب وجه أبي الهول ، فإن أعضاء وجهه - كالأنف والعين والأذن - متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة ، فإن أنف الطفل مثلًا مناسب له ، وهو حسن به ، حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوهًا . وكذلك أنف الرجل لو كان لصبي لتشوهت صورته . وعلى هذا سائر الأعضاء ، فكل عضو ينبغي أن يكون على مقدار ماهيته بالقياس إلى تلك الصورة ، وعلى نسبتها . والعجب من مصوره ، كيف قدر أن يحفظ التناسب للأعضاء مع عظيمها . وأنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه^١ .

ويقاله في بر مصر ، قريبًا من دار الملك ، صنم عظيم الخلق والهيئة ، متناسب الأعضاء كما وُصف ، وفي حجره مؤلود وعلى رأسه ماجور ، الجميع صوان مانع . يزعم الناس أنه امرأة ، وأنها سرية أبي الهول المذكور ، وهي بدرب منسوب إليها . ويقال لو وُضع على رأس أبي الهول خيط ومد إلى سريته لكان على رأسها مستقيمًا . ويقال إن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل ، وإن السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر^٢ .

وقال ابن المتوج : زقاق الصنم هو الزقاق الشارع ، أوله بأول الشوق الكبير ، بجوار دزب عمار ، ويُعرف الصنم بسرية فزعون . وذكر أنه طلسم النيل لئلا يغلب على البلد . وقيل إن بلهيب الذي عند الأهرام يقابله ، وإن ظهر بلهيب إلى الرمل ، وظهر هذا إلى النيل ، وكل منهما مستقبل المشرق .

وقد نزل في سنة إحدى عشرة وسبع مائة أمير يعرف ببلاط ، في نفر من الحجاجين والقطاعين ، وكسروا الصنم المعروف بالسرية ، وقطعوه أعتابًا وقواعد ، ظنًا أن يكون تحته مال ، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة ، فحفر تحتها إلى الماء فلم يوجد شيء وجعل من حجره قواعد تحتانية للعمد الصوان التي بالجامع المستجد بظاهر مصر ، المعروف بالجامع الجديد الناصري^٣ ،

(a) زيادة من الإفادة والاعتبار .

^١ عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٤٩ - ٥٠ ؛
^٢ انظر فيما يلي ١٧٧ : ٢ .
^٣ انظر فيما يلي ٣٠٤ : ٢ .
 الإدريسي : أنوار علوي الأجرام ١٥٠ .

وأزيل عين هذا الصنم من مكانه ، والله أعلم .

وفي زمننا كان شخص يُعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفيّة الخانقاه الصّلاحية سعيد الشعداء ، قام في نحو من سنة ثمانين وسبع مائة ، لتغيير أشياء من المنكرات ، وسار إلى الأهرام ، وشوّه وجه أبي الهول وشعّته ، فهو على ذلك إلى اليوم^١ . ومن حينئذ غلب الرّمْل على أراضٍ كثيرة من الجزيرة . وأهل تلك التّواحي يروّون أنّ سبب غلبة الرّمْل على الأراضى فساد وجه أبي الهول ، والله عاقبة الأمور .

وما أحسن قول ظافر الحداد^٢ :

[الوافر]

تأمل حكمة الأهرام^٣ واعجب
كعّاريتين^٤ على رحيل
وماء النيل تحتها^٥ دُموع
وظاهر سجن يوسف مثل صب

وبينهما أبو الهول العجيب
محبوبين بينهما رقيب
وصوت الريح عندهما نحيب
تخلف فهو مخزون كئيب

ويقال إنّ أثريب بن قبط بن مضر بن يتصر بن حام بن نوح أوصى أخاه صا عند موته أن يحمله في سفينة ويدفنه بجزيرة وسط البحر ، فلما مات فعل ذلك من غير أن

(a) بولاق : هيئة الهرمين . (b) عند ابن فضل الله العمري : وفيض البحر عندهما .

^١ انظر فيما يلي ٢ : ١٤٧ ، ١٧٧ .
^٢ أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الخزامي الإسكندراني المعروف بالحداد ، شاعر مُفلق من العصر الفاطمي توفي سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م (انظر ترجمته ونماذج من شعره عند ، السلفي : معجم السفر ١٢٣ - ١٢٤ ابن ظافر : أخبار الدول المتقطعة ٩٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢ : ٥٤٠ - ٥٤٣ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ١٢٣ ؛ العماد الأصفهاني : خريدة القصر (قسم مصر) ١ : ١٧ - ١٧ ؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ١٢ : ٢٧ - ٣٣ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٦ : ٥٢١ - ٥٢٢ ؛ المقرئ : المقفى الكبير ٤ : ٣٩ - ٤١ ؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ٥ : ٣٧٦ -

٣٧٨ ؛ وانظر كذلك محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ٢٢٤ - ٢٢٨ ؛ وللدكتور حسين نصار : ظافر الحداد ، شاعر مصري من العهد الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٥ ، ونشر ديوان شعره بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ومعظمه في مدح وزراء الدولتين الأمرية والحافظية وأعيان مصر .
وانظر الأبيات في الديوان ٤ وعند الإدريسي : أنوار علوي ١٤٩ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٤٠٢ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبيصار ١ : ٢٣٨ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٨١ .
^٣ العّارية هنا الهودج .

يُعَلِّمُ بِهِ أَهْلَ مِصْرَ، فَاتَّهَمَهُ النَّاسُ بِقَتْلِ أَثْرِيْبٍ وَحَارِبُوهُ تِسْعَ سِنِينَ . فَلَمَّا مَضَى مِنْ حَرْبِهِمْ خَمْسُ سِنِينَ مَضَى بِهِمْ حَتَّى أَوْقَفَهُمْ عَلَى قَبْرِ أَثْرِيْبٍ ، فَحَفَرُوهُ فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ شَيْئًا ، وَقَدْ نَقَلْتَهُ الشَّيَاطِينُ إِلَى مَوْضِعِ أَبِي الْهَوْلِ ، وَدَفَنْتَهُ هُنَاكَ بِجَانِبِ قَبْرِ أَبِيهِ وَجَدَّهُ يَنْصُرُ .
فَارْتَدَدُوا لَهُ تُهْمَةً ، وَعَادُوا إِلَى مَدِينَةِ مَنْفٍ وَتَحَارَبُوا ، فَأَتَاهُمْ إِبْلِيسُ فَدَلَّهُمْ عَلَى قَبْرِ أَثْرِيْبٍ حَيْثُ نَقَلَهُ ، فَأَخْرَجُوهُ مِنْ قَبْرِهِ وَوَضَعُوهُ عَلَى سَرِيرٍ ، فَتَكَلَّمَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ حَتَّى افْتَنُوا بِهِ وَسَجَدُوا لَهُ ، وَعَبَدُوهُ فِيمَا عَبَدُوا مِنَ الْأَصْنَامِ .

وَقَتَلُوا صَا وَدَفَنُوهُ عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ ، فَكَانَ النَّيْلُ إِذَا زَادَ لَا يَغْلُو قَبْرَهُ فَافْتَنَّ بِهِ طَائِفَةٌ وَقَالُوا : قَدْ قُتِلَ صَا ظُلْمًا ، وَصَارُوا يَسْجُدُونَ لِقَبْرِهِ كَمَا يَسْجُدُ أَوْلَادُكَ لِأَثْرِيْبٍ . فَعَمَدَ آخَرُونَ إِلَى حَجَرٍ فَتَحَّتُوهُ عَلَى صُورَةِ أَشْمُومٍ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ أَبُو الْهَوْلِ ، وَنَصَبُوهُ بَيْنَ الْهَرَمَيْنِ وَجَعَلُوا يَسْجُدُونَ لَهُ ، فَصَارَ أَهْلُ مِصْرَ ثَلَاثَ فِرْقٍ .

وَلَمْ تَزَلِ الصَّابِقَةُ تُعَظَّمُ أبا الْهَوْلِ ، وَتُقَرَّبُ لَهُ الدِّيَكَةُ الْبَيْضُ ، وَتُبَخَّرُهُ بِالصُّنْدُرُوسِ .

زَكَرْنَا بِجِبَالِ

اعْلَمُ أَنَّ أَرْضَ مِصْرَ بِأَسْرِيهَا مَحْضُورَةٌ بَيْنَ جَبَلَيْنِ آخِذَيْنِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ ، قَلِيلِي الْإِرْتِفَاعِ ، وَأَخِذُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخِرِ ، وَالْأَعْظَمُ مِنْهُمَا هُوَ الْجَبَلُ الشَّرْقِيُّ الْمَعْرُوفُ بِجَبَلِ لُوقَا ، وَالغَرْبِيُّ جَبَلٌ صَغِيرٌ وَبَعْضُهُ غَيْرُ مُتَّصِلٍ بِبَعْضِ ، وَالْمَسَافَةُ بَيْنَهُمَا تَضَيِّقُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ وَتَتَّسِعُ فِي بَعْضِهَا ، وَأَوْسَعُ مَا يَكُونُ بِأَسْفَلِ أَرْضِ مِصْرَ .

وَهَذَانِ الْجَبَلَانِ أَقْرَعَانِ لَا يَتَّبِعُ فِيهِمَا نَبَاتٌ ، كَمَا يَكُونُ فِي جِبَالِ الْبُلْدَانِ الْآخِرِ ؛ وَعِلَّةُ ذَلِكَ أَنَّهُمَا بَورْقِيَانِ مَالِحَانِ ، لِأَنَّ قُوَّةَ طِينِ مِصْرَ تَجْذِبُ مِنْهُمَا الرُّطُوبَاتِ الْمُوَافِقَةَ فِي التَّكْوِينِ ، وَلِأَنَّ قُوَّةَ الْحَرَارَةِ تُحَلِّلُ مِنْهُمَا الْجَوْهَرَ اللَّطِيفَ الْعَذْبَ ، وَكَذَلِكَ مِيَاهُ الْآبَارِ مِنْهُمَا مَالِحَةٌ .

وَهَذَانِ الْجَبَلَانِ يُجَفِّفَانِ مَا يُدْفَنُ فِيهِمَا ، فَإِنَّ أَرْضَ مِصْرَ بِالطَّبْعِ قَلِيلَةُ الْأَمْطَارِ .
وَجَبَلُ لُوقَا فِي مَشْرِقِ أَرْضِ مِصْرَ يَعُوقُ عَنْهَا رِيحَ الصَّبَا ، فَعَدِمَتْ مِصْرَ هَذَا الرِّيحَ ، وَيَعُوقُ أَيْضًا إِشْرَاقَ الشَّمْسِ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْأَفُقِ .

^١ انظر كذلك القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٠٥-٣٠٧.

وَتَعَدُّدُ أَشْمَاءِ هَذَيْنِ الْجَبَلَيْنِ بِحَسَبِ مَوَاضِعِهِمَا مِنَ الْإِقْلِيمِ ، فَيَطَّلُ عَلَى الْفُسْطَاطِ وَعَلَى الْقَاهِرَةِ الْجَبَلِ الْمُقَطَّمِ .

ذِكْرُ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ

- اعْلَمْ أَنَّ الْجَبَلَ الْمُقَطَّمِ أَوَّلُهُ مِنَ الشَّرْقِ مِنَ الصُّينِ حَيْثُ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ ، وَيَمُرُّ عَلَى بِلَادِ الطُّطْرِ حَتَّى يَأْتِيَ فَرْغَانَةَ إِلَى جِبَالِ الْيَتَمِ الْمَمْتَدَّةِ بِهَا نَهْرُ السَّغْدِ إِلَى أَنْ يَصِلَ الْجَبَلَ إِلَى جَيْحُونَ ، فَيَقْطَعُهُ وَيَمْضِي فِي وَسْطِهِ بَيْنَ شُعْبَتَيْنِ مِنْهُ وَكَأَنَّهُ قُطِعَ ثُمَّ فِي وَسْطِهِ ، وَيَسْتَمِرُّ الْجَبَلَ إِلَى الْجَوْزَجَانَ ، وَيَأْخُذُ عَلَى الطَّالِقَانَ إِلَى أَعْمَالِ مَرْوِ الرَّوْدِ إِلَى طُوسَ ، فَيَكُونُ جَمِيعُ مَدُنِ طُوسَ فِيهِ ، وَيَتَّصِلُ بِهِ جِبَالُ أَصْبَهَانَ وَشِيرَازَ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ ، وَيَنْعَطِفُ هَذَا الْجَبَلَ وَيَمْتَدُّ إِلَى شَهْرَزُورَ فَيَمُرُّ عَلَى الدُّجَلَةِ ، وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْجُودِيِّ ، مَوْقِفِ سَفِينَةِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الطُّوفَانِ .
- ١٠ وَلَا يَزَالُ هَذَا الْجَبَلَ مُسْتَمِرًّا مِنْ أَعْمَالِ أَمِدَ وَمِيَا فَارِقِينَ حَتَّى يَمُرَّ بِثُغُورِ حَلَبَ فَيُسَمَّى هُنَاكَ جَبَلَ اللَّكَّامِ ، إِلَى أَنْ يُعَدِّي الثُّغُورَ فَيُسَمَّى نَهْرًا ، حَتَّى يُجَاوِزَ حِمَصَ فَيُسَمَّى لُبْنَانَ ، ثُمَّ يَمْتَدُّ عَلَى الشَّامِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ الْقَلْزُومِ مِنْ جِهَةٍ ، وَيَتَّصِلُ مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى وَيُسَمَّى الْمُقَطَّمِ ، ثُمَّ يَتَشَعَّبُ وَيَتَّصِلُ أَوَاخِرَ شُعْبِهِ بِنَهَايَةِ الْغَرْبِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ عُرِفَ بِمَقَطَّمِ بْنِ مِضَرَ بْنِ يَنْصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ .
- ١٥ وَجَبَلُ الْمُقَطَّمِ يَمُرُّ عَلَى جَانِبِي النَّيْلِ إِلَى الثُّوبَةِ ، وَيَعْبُرُ مِنْ فَوْقِ الْفَيْثُومِ فَيَتَّصِلُ بِالْغَرْبِ إِلَى أَرْضِ مَقْرَاوَةَ ، وَيَمْضِي مُغْرَبًا إِلَى سِجْلِمَاسَةَ ، وَمِنْهَا إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ مَسِيرَةَ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ .
- وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ وَصِيفِ شَاهٍ ، وَذَكَرَ مَجِيءَ مِضْرَائِمِ بْنِ يَنْصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ : وَكَشَفَ أَصْحَابُ قَلِيمُونَ الْكَاهِنِينَ عَنْ كُنُوزِ مِصْرَ وَعُلُومِهِمْ ، الَّتِي هِيَ بِخَطِّ الْبَرَابِيِّ ، وَأَثَارَ لَهُمُ الْمَعَادِنُ^(a) مِنَ الذَّهَبِ وَالزَّبَرْجَدِ وَالْفَيْرُوزِجِ وَالْأَسْبَادِثِمِ^(b) وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَوَصَفُوا لَهُمْ عَمَلَ

(a) بولاق : وآثارهم والمعادن . (b) ساقطة من بولاق .

^١ لأنه قُطِعَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ - أَي قُطِعَ - عَنِ الْجِبَالِ فَلَيْسَ بِحَدِّهِ إِلَّا الْفَضَاءُ . (ياقوت : معجم البلدان ١٧٦:٥ - ١٧٧ ، وانظر - Abouseif, D., *El* ² art. *al-* Mukattam VII, pp. 509-11; Ragib, Y., «Le site de (Muqattam)», *An. Isl.* 33 (1999), pp. 159-84

المقطم بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفتحها وميم ، هو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة ، وهو جبل ممتد من الجنوب إلى الشمال وله في كل موضع اسم يختص به ، وعرف في هذا الموضع بالمقطم

الصَّنْعَة - يعني الكيمياء - فجعل مِضْرَامٍ أمرها إلى رَجُلٍ من أهل بيته يُقال له مُقَيِّطَامُ الحكيم ، كان يعمل فيه الكيمياء ، واختصر من اسمه وبقي ما يُدُلُّ عليه فقيل له «جَبَلُ الْمُقَطَّمِ» ، يعني جَبَلُ مُقَيِّطَامِ الحكيم^١ .

وقال البكري : الْمُقَطَّمُ - بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفتحها - جَبَلٌ مُتَّصِلٌ بمصر يُوازون فيه موتاهم^٢ .

وقال القضاعي : الْمُقَطَّمُ ، ذكر أبو عبد الله اليماني أن هذا الجبل نُسِبَ إلى المُقَطَّمِ بن مصر بن يتصر بن حام بن نوح ، وكان عبداً صالحاً ، فأنفرد بعبادة الله - عز وجل - فيه ، فسُمِّيَ الجبلُ باسمه^٣ .

وليس هذا بصحيح ، لأنه لا يُعرف لمصر ولدٌ اسمه المُقَطَّمُ ؛ والذي ذكره العلماء أن المُقَطَّمُ مأخوذٌ من القَطْمِ ، وهو القَطْعُ ، فكأنه لما كان مُنْقَطِعَ الشَّجَرِ والنبات سُمِّيَ مُقَطَّمًا ، ذكر ذلك علي بن الحسن الهنائي الدؤسي ، المنبوذ بكراع ، وغيره^٤ .

وروى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، عن الليث بن سعد - رضي الله عنه - قال : سأل المقوقس عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أن يبيعه سفح الجبل المُقَطَّمِ بسبعين ألف دينار (وفي نسخة بعشرين ألف دينار) ، فعجب عمرو من ذلك وقال : أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين ؛ فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فكتب إليه عمر : سلّه ولم أعطاك به ما أعطاك ، وهي لا تُزرع ولا يُستنبط بها ماء [ولا يتفَع بها]^(a) ؟

فسأله فقال : إنا لنجد صفتها في الكُتُب أن فيها غراس الجنة . فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه : «إنا لا نعلم غراس الجنة إلا المؤمنين ، فاقبر فيها من مات قبلك من المؤمنين ، ولا تبعه بشيء» . فكان أول من قبر فيها رجلٌ من المعافر يُقال له عامر ، فقيل عُمِرْت ؛ فقال المقوقس لعمر : وما ذلك ، وما على هذا عاهدتنا . فقطع لهم الحد الذي بين المقبرة وبينهم^٥ .

(a) زيادة من فتوح مصر .

^٣ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٣٠٦ .

^٤ ياقوت : معجم البلدان ٥ : ١٧٦ .

^٥ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٥٦ ، ١٥٧ ؛ أبو =

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٤ ؛ المقرئ : المسودة

٣١ .

^٢ أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ١٢٥١ ، ١٣١١ .

وَذَكَرَ عُمَرُ بْنُ أَبِي عُمَرَ الْكِنْدِيِّ فِي «فَضَائِلِ مِصْرَ» أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَارَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ الْمُقَطَّمِ وَمَعَهُ الْمُقَوِّسُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا لَجَبَلِكُمْ هَذَا أَقْرَعُ لَيْسَ بِهِ نَبَاتٌ كَجِبَالِ الشَّامِ ؟ فَلَوْ شَقَقْنَا فِي أَسْفَلِهِ نَهْرًا مِنَ النَّيْلِ وَغَرَسْنَاهُ نَخْلًا ؟ فَقَالَ الْمُقَوِّسُ : وَجَدْنَا فِي الْكُتُبِ أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ الْجِبَالِ أَشْجَارًا وَنَبَاتًا وَفَاكِهَةً ، وَكَانَ مَنزَلُ الْمُقَطَّمِ بْنِ مِصْرَ بْنِ بَيْصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي كَلَّمَ اللَّهُ فِيهَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْجِبَالِ : إِنِّي مُكَلِّمٌ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَائِي عَلَى جَبَلٍ مِنْكُمْ ، فَسَمَّتِ الْجِبَالُ كُلُّهَا وَتَشَامَخَتْ إِلَّا جَبَلُ يَتِيمِ الْمُقَدِّسِ فَإِنَّهُ هَبَطَ وَتَصَاغَرَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ - وَهُوَ بِهِ أَخْبِرَ - فَقَالَ : إِعْظَامًا وَإِجْلَالًا لَكَ يَا رَبِّ . قَالَ : فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْجِبَالُ أَنْ يَحْبُوهُ كُلُّ جَبَلٍ بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الثُّبُتِ ، فَجَادَ لَهُ الْمُقَطَّمُ بِكُلِّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الثُّبُتِ حَتَّى بَقِيَ كَمَا تَرَى ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنِّي مُعَوِّضُكَ عَلَى فِعْلِكَ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ ، أَوْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ .

فَكَتَبَ بِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : إِنِّي لَا أَعْلَمُ شَجَرَ الْجَنَّةِ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ^(a) ، فَاجْعَلْ لَهُمْ مَقْبَرَةً ، فَفَعَلَ . فَغَضِبَ الْمُقَوِّسُ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ لِعَمْرُو : مَا عَلَى هَذَا صَالِحَتِي ؛ فَقَطَعَ لَهُ عَمْرُو قَطِيعًا نَحْوَ بَرَكَةِ^(b) الْحَبَشِ تَدْفَنُ فِيهِ النَّصَارَى^١ .

قَالَ : وَرَوَى أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سَجَدَ فَسَجَدَ مَعَهُ كُلُّ شَجَرَةٍ مِنَ الْمُقَطَّمِ إِلَى طَرَفِ^(c) .

وَرَوَى أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي التُّورَةِ^(d) : وَإِذَا فُتِحَ مَقْدِسِي - يُرِيدُ وَادِي مَسْجِدِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِالْمُقَطَّمِ عِنْدَ مَقْطَعِ الْحِجَارَةِ . فَإِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يُنَاجِي رَبَّهُ بِذَلِكَ الْوَادِي . وَرَوَى أَسَدُ بْنُ مُوسَى قَالَ : شَهِدْتُ جَنَازَةَ مَعَ ابْنِ لَهْيَعَةَ : فَجَلَسْنَا حَوْلَهُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَتَنَظَّرَ إِلَى الْجَبَلِ فَقَالَ : إِنَّ عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَرَّ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ صُوفٌ وَقَدْ شَدَّ

(a) عند البكري : المسلمين . (b) ساقطة من بولاق . (c) عند الكندي : طوى . (d) ساقطة من بولاق .

= المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٦ ؛ السيوطي : حسن اليكري : جغرافية مصر ٧٨ - ٨٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ١١ - المحاضرة ١ : ١٣٧ وانظر فيما يلي ٢ : ٤٤٣ .

^١ ابن الكندي : فضائل مصر ٤٥ - ٤٦ ؛ أبو عبيد حسن المحاضرة ١ : ١٣٨ .

وَسَطَهُ بِشَرِيْطٍ وَأُمَّهُ إِلَى جَانِبِهِ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَ : يَا أُمَاهُ ، هَذِهِ مَقْبَرَةُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^١ .
 وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيْعَةَ ، عَنْ عَيَّاشِ بْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ كَعْبَ الْأَخْبَارِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَأَلَ
 رَجُلًا يُرِيدُ إِلَى ^(a) مِصْرَ فَقَالَ لَهُ : أَهْدِنِي ثُرْبَةً مِنْ سَفْحِ مُقَطَّمِهَا ، فَأَتَاهُ مِنْهُ بِجِرَابٍ ، فَلَمَّا حَضَرَتْ
 كَعْبًا الْوَفَاةُ أَمَرَ بِهِ فَجُعِلَ فِي لَحْدِهِ تَحْتَ جَنْبِهِ ^(b) ^٢ .

وَرُوِيَ عَنْ كَعْبٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جَبَلٍ مِصْرَ فَقَالَ : إِنَّهُ لِمُقَدَّسٌ مَا بَيْنَ الْقَصِيرِ إِلَى / الْيَحْمُومِ . قَالَ
 ابْنُ لَهِيْعَةَ : وَالْمُقَطَّمُ مَا بَيْنَ الْقَصِيرِ إِلَى مَقْطَعِ الْحِجَارَةِ ، وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَمِنَ الْيَحْمُومِ .
 وَفِي هَذَا الْجَبَلِ حَجَرٌ مِنَ الْجَمَاهِرِ ^(c) ، وَشَيْءٌ مِنَ الْبَلَارِ ^(d) ، وَهُوَ يَمْتَدُّ إِلَى أَقْصَى بَلَدِ ^(e)
 الشُّوْدَانِ .

الْجَبَلُ الْأَخْمَرُ

هَذَا الْجَبَلُ مُطَّلٌ عَلَى الْقَاهِرَةِ مِنْ شَرْقِيَّهَا الشَّمَالِي ، وَيُعْرَفُ بِالْيَحْمُومِ .
 قَالَ الْقَضَاعِيُّ : الْيَحَامِيمُ هِيَ الْجِبَالُ الْمَتَفَرِّقَةُ الْمُطَّلَّةُ عَلَى الْقَاهِرَةِ مِنْ جَانِبِهَا الشَّرْقِيِّ وَجِبَانِيَّتِهَا .
 وَتَنْتَهِي هَذِهِ الْجِبَالُ إِلَى بَعْضِ طَرِيقِ الْجُبِّ . وَقِيلَ لَهَا الْيَحَامِيمُ لِاخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا . وَالْيَحْمُومُ فِي
 كَلَامِ الْعَرَبِ الْأَسْوَدُ الْمُظْلِمُ ^٣ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ ، عَنْ شَفِيِّ بْنِ عُبَيْدٍ : إِنَّهُ لَمَّا قَدِمَ مِصْرَ وَأَهْلُ مِصْرَ قَدْ اتَّخَذُوا مُصَلًى
 بِحِذَاءِ سَاقِيَةِ أَبِي عَوْنِ الَّتِي فِي الْعَسْكَرِ ، فَقَالَ : مَا لَهُمْ وَضَعُوا مُصَلًّا لَهُمْ فِي الْجَبَلِ الْمَلْعُونِ ،
 وَتَرَكُوا الْجَبَلَ الْمُقَدَّسَ ^٤ ، يَعْنِي الْمُقَطَّمُ ؟

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : جنبه . (c) بولاق : حجر الجواهر . (d) بولاق : الفولاذ . (e) بولاق : بلاد .

^١ ابن الكندي : فضائل ٤٤ - ٤٥ ؛ البكري : جغرافية ١١ .
^٢ أبو عبيد البكري : جغرافية مصر ٨٠ .
^٣ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٤١ ومصدره
 القضاعي ولكنه غير بعض الكلمات ، ثم نقل المقرئ نص
 القضاعي في هامش المسودة (٢) ١٤٧ وأضاف إليه : وهذا
 ابن الكندي : جغرافية مصر ١٥٨ ؛ الكندي : ولاية
 مصر ٣٧ ، وفيما يلي ٤٥٤ - ٤٥٥ .

وقال ابن عبد الظاهر: الجبل الأحمر، ذكر القضاعي أن اليتحموم هو الجبل المطل على القاهرة، ولا أرى جَبَلًا يُطلُّ على القاهرة غيره^١.

وقال البكري: اليتحموم - بفتح أوله وإسكان ثانيه -، قال الحزبي: اليتحموم جبل بمصر. وروى من طريق أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو: أنه سأل كعبًا عن المقطم: أملعون هو^(٨)؟ قال: ليس بملعون، ولكنه مقدس من القصير إلى اليتحموم^٢.

وذكر البكري أيضًا أن عابدًا، بالباء الموحدة والذال المهملة على وزن فاعل؛ جبل بمصر قبل المقطم^٣.

جبل يشكر

هذا الجبل فيما بين القاهرة ومصر عليه الجامع الطولوني.

قال القضاعي: جبل يشكر، هو يشكر بن جديلة من لحم، وهو الذي عليه جامع ابن طولون. ويشكر بن جديلة قبيلة من قبائل العرب اختطت عند الفتح بهذا الجبل، فعرف بجبل يشكر لذلك.

قال ابن عبد الظاهر: وجامع ابن طولون على جبل يشكر، وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء ومكان مبارك. وقيل إن موسى - عليه السلام - ناجى ربه عليه^(ب) ^٤.

وكان هذا الجبل يُشرف على النيل، وليس بينه وبين النيل شيء، وكان يُشرف على البركتين - أعني^(٥) البركة التي تُعرف اليوم^(٥) ببركة الفيل والبركة التي تُعرف ببركة قارون. وعلى هذا الجبل كانت تُنصب المجانيق التي تُجرب قبل إرسالها إلى الثغور^٥.

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: عليه بكلمات. (c-c) ساقطة من بولاق.

^١ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ١٤١. عثمان: مرشد الزوار ٢٠٢، ٢٠٤؛ القلقشندي: صبح

^٢ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ١٣٩٠، الأعشى ٣: ٣٤٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٣: ١٢.

^٣ ١٣٩١. راجع أيضًا عن جبل يشكر Salmon, G., *Etudes*

^٤ نفسه ٩٠٩، ١٣١١. *sur la topographie du Caire - La Kal'at al-Kabch*

^٥ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٨١؛ الموفق بن *.et la birkatul fil, Le Caire - IFAO 1902, pp. 12-27*

الكَبْشُ

هو جَبَلٌ بجوار جبل^(a) يَشْكُرُ ، كان قَدِيمًا مُشْرِقًا^(b) على النَّيل من غَرْبِهِ ؛ ثم لما اخْتَطَّ المسلمون مَدِينَةَ الفُسْطَاط بعد فَتْحِ أَرْضِ مِصْرَ ، صَارَ الكَبْشُ من جُمْلَةِ خِطَّةِ الحَمْرَاءِ القُصُوى ، وَسُمِّيَ الكَبْشُ^١ .

الشَّرْفُ

٥ اسْمٌ لثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : فَائْتَانِ مِنْهَا فِيمَا بَيْنَ القَاهِرَةِ وَمِصْرَ ، وَوَاحِدٌ فِيمَا بَيْنَ بِرْكَةِ الحَبْشِ وَفُسْطَاطِ مِصْرَ .

فَأَمَّا الَّذِي بظَاهِرِ القَاهِرَةِ ، فَأَخَذَهُمَا عَلَيْهِ الآنَ قَلْعَةُ الجَبَلِ ، وَهُوَ من جُمْلَةِ الجَبَلِ المَقْطُمِ ؛ وَالآخَرُ فِيمَا بَيْنَ الجَامِعِ الطُّولُونِيِّ وَمِصْرَ ، فَيُشْرَفُ غَرْبِيَهُ عَلَى جِهَةِ الخَلِيجِ الكَبِيرِ ، وَيَصِيرُ فِيمَا بَيْنَ كُومِ الجَارِحِ وَخِطِّ الجَامِعِ الطُّولُونِيِّ ، وَكَانَ من خِطَّةِ تُجَيْبِ ، ثُمَّ صَارَ من جُمْلَةِ العَشْكَرِ ؛ وَأَمَّا الشَّرْفُ الثَّلَاثُ فَيُعْرَفُ اليَوْمَ بِالرَّضْدِ ، وَهُوَ يُشْرَفُ عَلَى رَاشِدَةَ .

١٠ وَكَانَ يُقَالُ لِلشَّرْفِ سَنَدٌ ، وَالسَّنَدُ مَا قَابَلَكَ مِنَ الجَبَلِ وَعَلَا عَنِ السَّفْحِ ، وَيُقَالُ فُلَانٌ سَنَدٌ أَي مُعْتَمَدٌ .

زِكْرُ الرِّضْدِ

١٥ هَذَا المَكَانُ شَرَفٌ يُطَلُّ مِنْ غَرْبِيهِ عَلَى رَاشِدَةَ ، وَمِنْ قِبَلِيهِ عَلَى بِرْكَةِ الحَبْشِ ، فَيُخَسِبُهُ مِنْ رَأْيِهِ مِنْ جِهَةِ رَاشِدَةَ جَبَلًا ، وَهُوَ مِنْ شَرْقِيهِ سَهْلٌ يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ مِنَ القَرَاةِ بِغَيْرِ اِزْتِقَاءٍ وَلَا صُعُودٍ . وَهُوَ مُحَاذٍ لِلشَّرْفِ الَّذِي كَانَ مِنْ جُمْلَةِ العَشْكَرِ ، وَالشَّرْفُ الَّذِي يُعْرَفُ اليَوْمَ^(c) بِالكَبْشِ .

وَكَانَ يُقَالُ لَهُ قَدِيمًا الجُرُوفُ ، ثُمَّ عُرِفَ بِالرِّضْدِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الأَفْضَلَ أَبَا القَاسِمِ شَاهِنشَاهِ بْنِ أَمِيرِ الجُيُوشِ بَدْرَ الجَمَالِيِّ أَقَامَ فَوْقَهُ كُرَّةً لِرِضْدِ الكَوَاكِبِ ، فَعُرِفَ مِنْ حِينئِذٍ بِالرِّضْدِ .

٢٠ قَالَ فِي كِتَابِ «عَمَلِ الرِّضْدِ» : وَحُمِلَ إِلَى الأَفْضَلَ شَاهِنشَاهِ بْنِ أَمِيرِ الجُيُوشِ بَدْرَ الجَمَالِيِّ^(a) مِنْ الشَّامِ تَقَاوِيمَ لَمَّا يُسْتَأْنَفُ مِنَ السَّنِينَ لِاسْتِقْبَالِ سَنَةِ خَمْسِ مِائَةٍ مِنْ سَنِي الهِجْرَةِ ؛ قِيلَ مِائَةٌ تَقْوِيمَ

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : يشرف . (c) ساقطة من الأصل .

^١ راجع Salmon, G., op.cit., pp. 77-95 .

أو نحوها . وكان مُنْجَمُو الحَضْرَةِ يومئذٍ - ابنُ الحَلْبِيِّ وابنُ الهَيْثَمِيِّ وسَهْلُونَ وغيرهم - يُطَلَّقُ لَهُمُ الجَارِي فِي كُلِّ شَهْرٍ والرُّشُومُ وَالْكُشُورَةُ عَلَى عَمَلِ التَّقْوِيمِ فِي كُلِّ سَنَةٍ . وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ يَجْتَهِدُ فِي حِسَابِهِ وَمَا تَصِلُ قُدْرَتُهُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَ فِي غُرَّةِ السَّنَةِ حَمَلَ كُلُّ مِنْهُمْ تَقْوِيمَهُ ، فَيُقَابِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّقْوِيمَاتِ الْمُحَضَّرَةِ مِنَ الشَّامِ فَيُوجَدُ بَيْنَهَا اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ ، فَأُنْكِرَ ذَلِكَ .

٥ فلَمَّا كَانَ غُرَّةَ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَخَمْسِ مِائَةٍ - عِنْدَ إِحْضَارِ التَّقَاوِيمِ عَلَى الْعَادَةِ - جَمَعَ الْمُنْجَمِينَ وَالْحُسَابَ وَأَهْلَ الْعِلْمِ ، وَسَأَلَهُمْ عَنِ السَّبَبِ فِي الْخَلْفِ بَيْنَ التَّقَاوِيمِ ، فَقَالُوا : الشَّامِيُّ يُحْسِبُ وَيُعْمَلُ عَلَى رَأْيِ الزُّبَيْرِ الْمُتَّخَنِ^(a) المَأْمُونِي ، وَنَحْنُ نَعْمَلُ عَلَى رَأْيِ الزُّبَيْرِ الْحَاكِمِيِّ لِقُرْبِ عَهْدِهِ ، وَبَيْنَ الْمُتَّقَدِّمِ وَالْمُتَأَخِّرِ تَفَاوُتٌ وَخُلْفٌ ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْقَدَمَاءُ أَنَّ الْقَرِيبَ الْعَهْدَ أَصَحُّ مِنَ الْمُتَّقَدِّمِ لِتَنْقُلِ الْكَوَاكِبُ وَتَغَيِّرَ الْحِسَابَ .

١٠ وَتَحَدَّثُوا فِي مَعْنَى ذَلِكَ بِمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ ، وَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِعَمَلِ رَضِيدٍ / مُسْتَجِدِّ يُصَحِّحُ بِهِ الْحِسَابَ ، وَيُخْرِجُ الْمَعُورَ وَالتَّفَاوُتَ ، وَتَحْصُلُ بِهِ الْمَنْفَعَةُ الْعَظِيمَةُ ، وَالْفَائِدَةُ الْجَلِيلَةُ ، وَالشُّمُوعَةُ الشَّرِيفَةُ ، وَالذِّكْرُ الْبَاقِي ؛ فَقَالَ : مَنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ ؟ فَقَالَ صَاحِبُ دَسْتِهِ وَمُشِيرُهُ ، الشَّيْخُ الْأَجَلِيُّ أَبُو الْحَسَنِ بْنِ أَبِي أُسَامَةَ : هَذَا الْقَاضِيُ ابْنُ أَبِي الْعَيْشِ الطَّرَابُلُسِيِّ الْمُهَنْدِسِ الْعَالِمِ الْفَاضِلِ . وَكَانَ ابْنُ أَبِي الْعَيْشِ صِهْرَهُ زَوْجَ ابْنَتِهِ ، وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرُ السَّنِّ وَالْقَدْرِ ، كَثِيرُ الْمَالِ . وَسَاعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ الْقَائِدُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الَّذِي تَقَلَّدَ الْوِزَارَةَ بَعْدَ الْأَفْضَلِ ، وَدُعِيَ بِ«الْمَأْمُونِ بْنِ الْبَطَّائِحِيِّ» . فَاسْتَضَوَّبَ الْأَفْضَلُ ذَلِكَ وَقَالَ : مُرُوهُ يَهْتَمُّ بِذَلِكَ ، وَيَسْتَدْعِي مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ .

١٥ فَكَانَ أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ لَمَّا حَصَلَ ذَلِكَ أَنْ مَدَّحَ نَفْسَهُ - وَكَانَ الْأَفْضَلُ غَيُورًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، أَشَدَّ مَا عَلَيْهِ مِنْ يَفْتَخِرُ أَوْ يَلْبَسُ ثِيَابًا مَذْكُورَةً - ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ الْآلَاتُ عَظِيمَةٌ ، وَخَطَرُهَا جَسِيمٌ ، وَلَا كُلُّ أَحَدٍ يُقَدِّمُ عَلَيْهَا وَلَا يُحْسِنُهَا . وَأَكْثَرَ الْكَلَامِ وَالتَّوَسُّعِ ، وَقَالَ : يَحْتَاجُ الَّذِي يَتَوَلَّى ذَلِكَ يَعْتَمِدُ مَعَهُ الْإِنْعَامَ وَالْإِكْرَامَ ، لِتَطْيِبَ نَفْسَهُ لِلْمُبَاشَرَةِ ، وَيُنَشِّرَ صَدْرَهُ ، وَيَقْدَحَ خَاطِرَهُ لَمَّا يُعْمَلُ فِي حَقِّهِ .

٢٠ فَضَجِرَ الْأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : لَقَدْ أَكْثَرَ فِي مَدْحِ نَفْسِهِ وَلَدَدِهِ ، وَمَا يُعَامِلُنَا بَعْدَ لَا حَاجَةَ إِلَى مُعَامَلَتِهِ .

فَأَشَارَ الْقَائِدُ ابْنَ الْبَطَّائِحِيِّ وَقَالَ : هُنَا مِنْ يُبْلِغُ الْعَرَضَ بِأَسْهَلِ مَا أَخَذَ ، وَأَقْرَبِ وَقْتٍ وَأَسْرَعِهِ ، وَالطَّفِ مَعْنَى ، أَبُو سَعِيدِ بْنِ قِرْقَةَ الطَّبِيبِ ، مُتَوَلَّى خَزَائِنِ السَّلَاحِ وَالشُّرُوجِ وَالصَّنَاعَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

فأخضره للوقت ، فاتفق له من الحديث الحسن السهل ، وما سبب عمل الآلات ، ومن ابتدأها من الأول ، وذكر القدماء في ابتداء العالم^(a) ، ومن رصد منهم واحدًا واحدًا إلى آخرهم شرحًا مستوفى ، كأنه يحفظه ظاهرًا ، أو يقرأه من كتاب^١ .

فأعجب الأفضل والحاضرين ، وقال : أي شيء تحتاج ؟ فقال : ما أحتاج كبير أمر ، والأمر سهلة ، وكل ما أحتاجه في خزائن السلطان - خلد الله ملكه - النحاس والرصاص والآلات ، وكل ما أحتاج أستدعيه أولًا أو لا ، والنققات وأجرة الصناع فيتولأها غيري . فأعجب به وقال : يُطلق له جاري لنفسه ؛ فقال : أنا مُستخدَم في عِدَّة خِدم ، فجوارِي تكفيني ، فأنا مملوك الدولة ما أحتاج إلى جاري ، وإذا بلغت الغرض وأنهيت الأشغال فهو المقصود .

وكان قيل للأفضل : هذا الرصد يحتاج إلى أموال عظيمة ، فقال : كم تقول يحتاج إليه ؟ فقال : ما يُنفق عليه إلا مثل ما يُنفق على مسجد أو مُستنظر .
فرجع يُكرّر عليه القول ، فقال : هاتوا ورقة . فكتب فيها :

«المملوك يُقبل الأرض ويُتهي : دعت الحاجة إلى خروج الأمر العالي إلى دار الوكالة بإطلاق مائتي قنطار من النحاس الفخر ، وثمانين قنطارًا من النحاس القضيب الأندلسي ، وأربعين قنطارًا من النحاس الأحمر ، ومن الرصاص ألف قنطار ، ومن الحطب ومن الحديد والفولاذ من الصناعة ما لعله يُحتاج إليه ، ومن الأخشاب ومن النفقة مائة دينار على يد شاهد يُنفق عليه ، فإذا فرغت أستدعي غيرها ، وأحتاج موضعًا يصلح الرصد فيه ، ويكون العمل والصناعة فيه ، ومباشرة السلطان فيما يتوقف عليه ، وما يستأمر فيه» .

فاستصوب الأفضل جميع ذلك ، وأراد أن يخلع عليه فقال القائد : هذا فيما بعد إذا شوهدت أعماله . فخدم من أول الحال إلى آخرها ولم يحصل له الدرهم الفزد ؛ لأنه كان يستحي أن يطلب وهو مُستخدَم عندهم ، وكانوا بأجمعهم يؤملون طول المدة والبقاء ، فقيل الأفضل ثاني سنة ، وتغيّرت الأحوال .

(a) بولاق : القدماء في العلم .

^١ انظر عن ابن قزقة الطبيب فيما يلي ٢ : ٦٣ .

ثم إنهم اختاروا للرَّضْدِ مَسْجِدَ الثُّورِ فوق المَقْطَمِ ، فَوَجَدُوهُ بعيدًا عن الحَوَائِجِ ، فَأَجْمَعُوا على سَطْحِ الجُرْفِ بالمَسْجِدِ المعروف بالفَيْلَةَ الكبير - وكان قد صُرِفَ على المَسْجِدِ خاصَّةً ستة آلاف دينار - فحَفَرُوا في مَسْجِدِ الفَيْلَةَ نَقْرًا في الجَبَلِ مكان الصُّهْرِيحِ الآن ، فعمل فيه قالب الحَلَقَةِ الكبيرة - وقَطَرها عشرة أَذْرُعٍ ودورها ثلاثون ذِرَاعًا - وهنْدَموه وحرَّزوه أَيامًا وعمل حَوْلَه عشر هِرْج ، على كُلِّ هِرْجَةٍ مِئْفاخان ، وفي كُلِّ هِرْجَةٍ أحد عشر قِنطارًا نُحاسًا وأقلَّ وأكثر ، والجميع مائة قِنطار وكِشْر ، قَسَمُوها على الهِرْجِ ، وطَرَحَ فيها النار من العَصْرِ ، ونَفَخُوا إلى الثانية من النَّهار .

وَحَضَرَ الأَفْضَلُ بُكْرَةَ ، وجَلَسَ على كُرْسِيٍّ ، فلَمَّا تَهَيَّأتِ الهِرْجِ ودارت أَمَرَ الأَفْضَلُ بِفَتْحِهَا - وقد وَقَفَ على كُلِّ هِرْجَةٍ رَجُلٌ ، وأمَرُوا بِفَتْحِهَا في لِحْظَةٍ - ففُتِحَتْ ، وسالَ النُّحاسُ كالماءِ إلى القالبِ ، وكان قد بقي فيه بعضُ النُّداوَةِ ، فلَمَّا اسْتَقَرَّ به النُّحاسُ بحرارته ، تَقَعَّقَ المكانُ النَّديَّ فلم تَبْمِ الحَلَقَةُ . ولَمَّا بَرَدَتْ وكُشِفَ عنها ، إِذْ هي تامة ما خلا المكانَ النَّديَّ . فَضَجَرَ الأَفْضَلُ وضاقَ صَدْرُه ، ورَمَى الصُّنَّاعَ بكيسٍ فيه ألفِ دِرْهَمٍ ، وغَضِبَ ورَكِبَ . فَلَطَفَه ابنُ قِرْقَةَ وقال :

مثل هذه الآلة العظيمة التي ما سُمِعَ قَطَّ بمثلها ، لو أُعيدَ سَبْكُها عشرَ مرَّاتٍ حتى تَصِحَّ ما كان كثيرًا ؛ فقال له الأَفْضَلُ : اهْتَمَّ في إعادتها .

فَسَبَكَتِ وَصَحَّتْ ، ولم يَخْضُرِ الأَفْضَلُ في المرَّةِ الثانيةَ ففَرِحَ بِصِحَّتِهَا ، وعَمِلَتْ ورُفِعَتْ إلى سَطْحِ مَسْجِدِ الفَيْلَةَ ، وأَخْضِرَ لها جَمِيعُ صُنَّاعِ النُّحاسِ ، وعَمِلَ لها بُرْكارٌ نَحْشَبُ من السُّنْدِيانِ - وهو بُرْكارٌ عَجِيبٌ - وبُني في وَسَطِ الحَلَقَةِ مَسْطَبَةٌ حِجَارَةٌ مُتَقَنَّةٌ لرجلِ البُرْكارِ ، وهو قائمٌ مثل عَرُوسِ الطَّاحونِ ، وفيه/ ساعِدٌ مثل نَافِ الطَّاحونِ ، وقد لُبِسَ بالحديدِ ، والجميعُ سُنْدِيانٌ جَيِّدٌ ، وطَرَفُ السَّاعِدِ مُهَيَّأٌ لِعِدَّةِ فُنُونٍ : تارَةٌ لِتُصْحِحَ وَجْهَ الحَلَقَةِ ، وتارَةٌ لِتُعَدِّلَ الأَجْنابَ ، وتارَةٌ لِلحُطُوطِ والحُزُوزِ .

وأقامَ في التُّصْحِيحِ فيها وأخذَ زوايِدَها بالمبارِدِ مُدَّةً طويلةً ، وجَماعَةُ الصُّنَّاعِ والمُهَنْدِسِينَ وأزبابِ هذا العِلْمِ حاضِرُونَ ، واشتَدَّ على لَهِمِ نَحِيْمَةِ عَظِيمَةٍ ضُرِبَتْ على الجَمِيعِ ، وعُقِدَتْ تحتِ الحَلَقَةِ أَقْبابٌ وَثِيقَةٌ ، وأرادوا قِيامَها على سَطْحِ مَسْجِدِ الفَيْلَةَ فلم يَتَهَيَّأْ لَهِمِ ، فإنَّهُم وَجَدُوا المَشْرِقَ لأوَّلِ بُرُوزِ الشَّمْسِ مَسدودًا ، فانْفَقُوا على نَقْلِها إلى المَسْجِدِ الجِيُوشِيِّ مُجاوِرِ الأنطاكي ، المعروف أيضًا بالرَّضْدِ ، وكان الأَفْضَلُ بناه أَلْطَفٌ من جامعِ الفَيْلَةَ ولم يَكْمُلْ ، فلَمَّا صارَ بِرِسْمِ الرَّضْدِ كَمُلَ^١ .

^١ قارن مع ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤ - ٨٥ ؛ المقرئزي : اتعاظ الخنفا ٣ : ٧٢ .

فَحَضَرَ الْأَفْضَلَ فِي نَقْلِ الْحَلَقَةِ مِنْ جَامِعِ الْفَيْلَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجُبُوشِيِّ ، وَقَدْ أُخْضِرَتِ الصُّوَارِي الطُّوَالِ الْعِظَامَ وَالسَّرِيَّاتِ وَالْمُنْحَاتَاتِ مِنَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَجُمِعَتِ الْأَسْطُولِيَّةُ وَرِجَالُ الشُّودَانَ وَبَعْضُ أَصْحَابِ الرِّكَابِ وَالْجُنْدِ حَتَّى أَدْلُوهُ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى الْعَجَلِ إِلَى مَسْجِدِ الرَّصْدِ الْجُبُوشِيِّ .

وِثَانِي يَوْمَ حَضَرُوا بِأَجْمَعِهِمْ حَتَّى رَفَعُوهُ إِلَى السَّطْحِ ، وَكَمَلُوهُ ، وَأَقَامُوا الْحَلَقَةَ ، وَجَعَلُوا تَحْتَ أَكْثَافِهَا عَمُودَيْنِ مِنْ رُخَامٍ سَبَّكُوهُمَا بِالرُّصَاصِ مِنْ أَسْفَلِهَا وَأَعْلَاهَا حَتَّى لَا يَزْتَخِي ثِقَلِ النُّحَاسِ ، وَجُعِلَ فِي الْوَسْطِ عَمُودٌ رُخَامٌ ، وَبِأَعْلَاهُ قُطْبُ الْعِضَادَةِ مَسْبُوكٌ بِالنُّحَاسِ الْكَثِيرِ لَتَدُورَ عَلَيْهِ الْعِضَادَةُ ^١ . وَغَمِلَتْ مِنْ نُحَاسٍ فَمَا تَمَارَسَتْ وَلَا دَارَتْ ، فَعَمِلُوهَا مِنْ خَشَبٍ سَاجٍ وَقُطِبِهَا وَأَطْرَافِهَا مِنْ نُحَاسٍ صَفَائِحَ لِيَخْفَ الدُّورَانُ ، ثُمَّ رَصَدُوا بِهَا الشَّمْسَ بَعْدَ كُلْفَةِ .

وَكَانَتِ الْحَلَقَةُ تُزَخِي الدَّرَجَةَ وَالذَّقَاتِقَ كُلَّ وَقْتٍ لِلثَّقَلِ ، فَعَمِلَ عَمُودٌ مِنْ نُحَاسٍ فَوْقَ عَمُودِ الرُّخَامِ لِيُمْسِكَ رِخْوَهَا . وَغَلِبُوا بَعْدَ ذَلِكَ ، فَكَانَتْ تَخْتَلِفُ لِشِدَّةِ مَا كَانُوا يُخَرِّرونها بِالشُّوَاقِيلِ وَعِضَادَةِ الْخَشَبِ . وَتَرَدَّدَ إِلَيْهَا الْأَفْضَلُ مَعَ كِبَرِ سِنِّهِ وَهُوَ يَزْتَعِشُ ^٢ ، وَالْقَائِدُ يَحْمِلُهُ إِلَى فَوْقِ ، وَيَقْعُدُ زَمَانًا مِنَ التَّعَبِ لَا يَتَكَلَّمُ وَيَدُهُ تَزْتَعِشُ ، فَرَصَدُوا قُدَّامَهُ . وَفِي خِلَالِ ذَلِكَ قُبِلَ الْأَفْضَلُ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ مِائَةَ .

وَقِيلَ لِلْأَفْضَلِ عَنْ ابْنِ قِرَاقَةَ إِنَّهُ أَشْرَفَ فِي كِبَرِ الْحَلَقَةِ وَعِظَمِ مِقْدَارِهَا ، فَقَالَ لَهُ الْأَفْضَلُ : لَوْ اخْتَصَرْتِ مِنْهَا كَانَ أَهْوَنَ ؛ فَقَالَ : وَحَقُّ نِعْمَتِكَ ، لَوْ أَمَكَّنِي أَنْ أَعْمَلَ حَلَقَةَ تَكُونُ رِجْلُهَا الْوَاحِدَةَ عَلَى الْأَهْرَامِ وَالْأُخْرَى عَلَى التُّورِ فَعَلْتُ ، فَكَلَّمَا كَبُرَتِ الْآلَةُ صَحَّ التَّخْرِيرُ . وَأَيْنَ هَذَا فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ ؟ ثُمَّ أَكْثَرُوا عَلَيْهِ فَعَمِلَ حَلَقَةَ دُونِهَا فِي الْمَوْضِعِ الْمُهْتَدِمِ بِالطُّوبِ الْأَحْمَرِ ، تَحْتَ الْمَسْجِدِ الْجُبُوشِيِّ ، كَانَ قَطْرُهَا أَقْلٌ مِنْ سَبْعَةِ أَذْرَعٍ وَدُورُهَا نَحْوَ أَحَدٍ وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا .

فَلَمَّا كَمَلَتْ قُبِلَ الْأَفْضَلُ ، وَلَمْ يُنْفِقْ مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ فِي الْأَجْرَةِ وَالْمُؤْنِ وَمَا لَا بَدَّ مِنْهُ سِوَى نَحْوِ مِائَةِ وَسْتِينَ دِينَارًا .

^١ الْأَفْضَلُ زَعَمَتْ فِي آخِرِ هَذِهِ السَّنَةِ وَصَعِبَ عَلَيْهِ إِسْكَاتُ الْقَلَمِ وَالْعَلَامَةُ عَلَى الْكُتُبِ ، فَأَقْرَأَ أَخَاهُ أَبَا مُحَمَّدٍ جَعْفَرَ الْمَظْفَرَ فِي الْعَلَامَةِ ، وَجَعَلَ لَهُ خَمْسَ مِائَةِ دِينَارٍ فِي الشَّهْرِ مِضَافًا إِلَى رِسْمِهِ فَقَلَّمُ عَنْهُ (اتِّعَاطُ الْحَنْفَا ٣ : ٥٤) ، كَانَ سَنَ الْأَفْضَلِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَاحِدًا وَخَمْسِينَ عَامًا حَيْثُ وُلِدَ بِعَكَا سَنَةَ

عِضَادَاتٍ . الْكَتْفُ الرَّأْسِيَّةُ لِفَتْحَةِ الْبَابِ أَوْ الشُّبَاكِ (الْحَلَقَةُ) (عَبْدُ الرَّحِيمِ غَالِبٌ : مَوْسُوعَةُ الْعِمَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، بِيْرُوتُ ١٩٨٨ ، ٢٧٥) مُحَمَّدٌ أَمِينٌ وَوَلِيٌّ إِبْرَاهِيمٌ : الْمِصْطَلِحَاتُ الْأَثَرِيَّةُ فِي الْوَنَائِقِ الْمَمْلُوكِيَّةِ ، الْقَاهِرَةُ ١٩٩٠ ، (٨١) .

^٢ ذَكَرَ الْمُقْرِيزِيُّ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م أَنَّ يَدَ .

فلما تمت الوزارة للمأمون البطائحي، أحب أن يُكْمِلها - ويُقال له «الرضد المأموني المصحح»، كما قيل للأول «الرضد المأموني الممتحن» - فأخرج الأمرُ بنقل الرصد إلى باب النصر بالقااهرة، فنقل على الطريقة الأولى بالعتالين والأسطولية وطوائف الرجال، وكان يدفع لهم كل يوم برسم الغداء جُملة دراهم.

- ٥ فلما صار فوق العجل مضوا به على الخندق من وراء الفتح على المشاهد إلى مسجد الذخيرة من ظاهر القايرة^١، وتعبوا في دخوله من باب النصر تعبًا عظيمًا لخوفهم أن يصدَم فيتغير، فنصبوا الصواري على عقد باب النصر من داخل الباب، وتكاثرت الرجال في جذب المياحين من أسفل ومن فوق حتى وصل إلى السطح الكبير، ثم نقلوه من السطح الكبير إلى السطح فوقاني، وأوقفوا له العمود كما تقدم ذكره، ورصدوا بالحلقة الكبرى كما رصدوا بها على سطح الجوف، فصح لهم ما أرادوا من حال الشمس فقط.

- ١٠ ثم اهتموا بعمل ذات جلي يكون قطرها خمسة أذرع، وسبكت في فئدق بالعطوفية من القايرة، وكان الأمر فيها سهلًا عندما لحقهم من العناء العظيم في الحلقة الكبيرة والحلقة الوسطى. وتجرد المأمون لعمليها والحث فيها، وكان ابن قزوة يحضر كل يوم دفعتين، ويحضر أبو جعفر بن حسداي، وأبو البركات بن أبي الليث صاحب الديوان ويديه الحل والعقد؛ فقال له المأمون: اطلع إليهم كل يوم وأي شيء طلبوه وقّع لهم به من غير مؤامرة^٢.

- ١٥ وكان قصده ما أطمعوه فيه من أن يقال «الرضد المأموني المصحح»، فلو أراد الله أن يتقى المأمون قليلًا كان كمل رصد جميع الكواكب، لكنه قبض عليه ليلة السبت ثالث شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمس مائة، وكان من جملة ما عُد من ذنوبه عمل الرصد المذكور والاجتهاد فيه، وقيل: أطمعته نفسه في الخلافة بكونه سماء «الرضد المأموني» ونسبه إلى نفسه ولم ينسبه إلى الخليفة الأمر بأحكام الله.
- ٢٠ وأما العامة والعوغاء فكانوا يقولون: أرادوا أن يخاطبوا زحل، وأرادوا أن يعلموا الغيب. وقال آخرون منهم: عجل هذا للسحر ونحو ذلك كم من الشناعات.

فلما قبض على المأمون بطل، وأنكر الخليفة على عمله، فلم يجسر أحد أن يذكره. وأمر فكسر وحمل إلى المناجات، وهرب المستخدمون ومن كان فيه من الخاص.

^١ عن الفتح والمشاهد ومسجد الذخيرة انظر فيما يلي الطمع، ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك، وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان تجتمع جميع ما يحتاج إليه من استثمار

^٢ المؤامرة. عمل تجتمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام واستدعاء وتوقيع. (الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٣٨).

وكان فيه من المهندسين / برسم خدمته وملازمته في كل يوم بحيث لا يتأخر منهم أحد :
 الشيخ أبو جعفر بن حسدای ، والقاضي بن أبي العيش ، والخطيب أبو الحسن علي بن سليمان بن
 البواب^١ ، والشيخ أبو المنجأ بن سند الساعاتي الإسكندراني المهندس ، وأبو محمد عبد الكريم
 الصقلي المهندس ، وغيرهم من الحشّاب والمنجمين كابن الحلبي وابن الهيثمي وأبي نصر تلميذ
 سهلون ، وابن دياب ، والقلمي ، وجماعة يحضرون كل يوم إلى ضحوة النهار ، فيحضر صاحب
 الديوان ابن أبي الليث ، وكان ابن حسدای زُجماً تأخر في بعض الأيام ، فإنه كان امرأ عظيمًا صاحب
 كبرياء وهيبة . وفي كل يوم يتبع المأمون من يتفقد الجماعة ويطلعه بمن كان^٢ منهم ، لأنه كان كثير
 التفقد للأمور كلها ، وله عمّازون وأصحاب أخبار لا تنام ، ولا يكاد يفوته شيء من أحوال الخاصة
 والعامّة بمصر والقاهرة ومن يتحدّث ، وجعل في كل بلد من الأعمال من يأتيه بسائر أخبارها .

وأنا أدركت هذا الموضع الذي يُعرف اليوم بالرصد - حيث جامع الفيئة - عامراً ، فيه عدّة
 مساكن ومساجد ، وبه أناس مقيمون دائماً ، وقد خرب ما هناك وصار لا أنيس به .

وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أنشأ فيه سواقٍ لنقل الماء من أماكن قد حفر لها
 خليج من البحر بجوار رباط الآثار النبوية ، فإذا صار الماء في سفح هذا الجرف المسمى بالرصد نُقل
 بسواقٍ هناك قد أنشئت ، إلى أن يصير إلى القلعة . فمات ولم يكمل ما أرادته من ذلك ، كما ذكر
 في أخبار قلعة الجبل من هذا الكتاب . وما زال موضع هذا الرصد مُتَنَزَّهاً لأهل مصر ، ويُقال إن
 المعز لدين الله معداً لما قديم من بلاد المغرب إلى القاهرة ، لم يُعجبه مكانها ، وقال للقائد جوهر :
 فاتك بناء القاهرة على النيل ، فهلاً كنت بنيتها على الجرف ، يعني هذا المكان^٢ .

ويقال إن اللحم عُلق بالقاهرة فتغيّر بعد يومٍ وليلة ، وعُلق بقلعة الجبل فتغيّر بعد يومين وليتين ،
 وعُلق في موضع الرصد فلم يتغيّر ثلاثة أيام ولياليها ، لطيب هوائه . والله درّ القائل :

[السريع]

باليلة عاش شروري بها ومات من يخسِدُنَا بالكمدِ
 وبث بالمعشوق في المشتهى وبات من يرقُبُنَا بالرصدِ

(a) بولاقي : غاب .

^١ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٢٠ ؛ ابن دقماق : المقرئ : اتعاظ الحنفا ١ : ١١٣ ؛ وفيما يلي ١ : ٣٧٧ .

^٢ الانتصار ٥ : ٣٦ ؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٣٥١ ، ٣٦٧ ؛ إلى هنا ينتهي الجزء الثاني من طبعة فييت Wiet .

ذِكْرُ مَدَائِنِ أَرْضِ مِصْرَ

- قال ابنُ سَيِّدَةَ^١ : مَدَنَ بِالْمَكَانِ أَقَامَ ، وَالْمَدِينَةُ : الْحِصْنُ يُقْنَى فِي أَصْطُطْمَةِ^(a) الْأَرْضِ ، مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ ، وَالْجَمْعُ مَدَائِنٌ وَمُدُنٌ . وَمِنْ هُنَا حَكَّمَ أَبُو الْحَسَنِ - فِيمَا حَكَى الْفَارِسِيُّ عَنْهُ - أَنَّ مَدِينَةَ : «فَعِيلَةٌ»^٢ .
- وقال الْعَلَّامَةُ أَثِيرُ الدِّينِ أَبُو حَيَّانَ^٣ : الْمَدِينَةُ مَعْرُوفَةٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ مَدَنَ ، فَهِيَ «فَعِيلَةٌ» ، وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا «مَفْعَلَةٌ» ، مِنْ دَانَ - فَقَوْلُهُ ضَعِيفٌ لِإِجْمَاعِ الْعَرَبِ عَلَى الْهَمْزِ فِي جَمْعِهَا ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا مَدَائِنٌ بِالْهَمْزِ ، وَلَا يُحْفَظُ مَدَائِنٌ بِالْيَاءِ . وَلَا ضَرُورَةٌ تَدْعُو إِلَى أَنَّهَا «مَفْعَلَةٌ» مِنْ دَانَ ، وَيَقْطَعُ بِأَنَّهَا «فَعِيلَةٌ» جَمْعُهُمْ لَهَا عَلَى «فُعْلٍ» ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا مُدُنٌ ، كَمَا قَالُوا صُحُفٌ فِي صَحِيفَةٍ .
- وَاعْلَمَ أَنَّ مَدَائِنَ مِصْرَ كَثِيرَةٌ ، مِنْهَا مَا ذَكَرَ وَجُهَلَ اسْمُهُ وَرَسْمُهُ ، وَمِنْهَا مَا عُرِفَ اسْمُهُ وَبَقِيَ رَسْمُهُ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَامِرٌ .
- وَأَوَّلُ مَدِينَةٍ عُرِفَ اسْمُهَا فِي أَرْضِ مِصْرَ مَدِينَةُ «أَمْشُوسَ» . وَقَدْ مَحَا الطُّوفَانُ رَسْمَهَا ، وَلِهَا أَخْبَارٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَبِهَا كَانَ مُلْكُ مِصْرَ قَبْلَ الطُّوفَانِ ، ثُمَّ صَارَتْ مَدِينَةُ مِصْرَ بَعْدَ الطُّوفَانِ مَدِينَةً مَنُفً ، وَكَانَ بِهَا مُلْكُ الْقِبْطِ وَالْقَرَاعِنَةِ إِلَى أَنْ خَرَّبَهَا بُخْتِ نَصْرٌ^٤ .

(a) بولاق : أسطحة .

الهيمان ٢٠٤-٢٠٥ ، Talbî, M., *El*² art. *Ibn Sîda* ، (III, pp. 964-65) .

^٢ ابن سيدة : المحكم والمحيط الأعظم ١٠ : ٧١ .

^٣ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي الثغزي ، من كبار علماء اللغة والتفسير والحديث والتراجم . ولد بقرنطة بالأندلس وتقل بين العديد من البلاد إلى أن استقر بالقاهرة وتوفي بها سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م (الصفدي : الوافي بالوفيات ٥ : ٢٦٧-٢٨٣) . والكتاب الذي ينقل عنه المقرئ ربما كان «ارتشاف الضرب من لسان العرب» .

^٤ انظر فيما يلي ٣٩٢ .

^١ أبو الحسن علي بن إسماعيل (بن أحمد) بن سيده المرسي ، عالم لغوي أندلسي ضرير ، الأمر الذي لم يعقه عن الاندماج في الحياة العلمية في الأندلس . وتوفي سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م . عده صاعد الأندلسي «أعلم أهل الأندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار» . وندب له بمعجمين لغويين هامين ، الأول : «المختص» في سبعة عشر مجلداً ، وهو من أتمن معاجم العربية ، والثاني «المحكم والمحيط الأعظم» في اثني عشر مجلداً . واعتمد المقرئ في نقله عن ابن سيدة على هذا الكتاب الأخير . (صاعد الأندلسي : التعريف بطبقات الأمم ٢٥٩-٢٦٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ : ٣٣٠-٣٣١ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٢ : ٢٣١-٢٣٥ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨ : ١٤٤-١٤٦ ؛ الصفدي : نكت

فلما قَدِمَ الإسكندَرُ بن فيلبش المقدوني من مملكة الروم ، عَمَّرَ مَدِينَةَ «الإسكندرية» عِمَارَةً جَدِيدَةً ، وَصَارَت دَارَ الْمَمْلَكَةِ بِمِصْرَ ، إِلَى أَنْ قَدِمَ عَمْرُو بن القاص بجيوش المسلمين وَفَتَحَ أَرْضَ مِصْرَ ، فَاخْتَطَّ «فُسْطَاطَ مِصْرَ» ، وَصَارَت مَدِينَةَ مِصْرَ إِلَى أَنْ قَدِمَ جَوْهَرُ الْقَائِدِ مِنَ الْمَغْرِبِ^(a) بِعَسَاكِرِ الْمُعَزِّ لَدِينِ اللَّهِ أَبِي تَمِيمٍ مَعَدَّ ، وَمَلَكَ مِصْرَ وَاخْتَطَّ «الْقَاهِرَةَ» ، فَصَارَت دَارَ الْمَمْلَكَةِ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ زَالَتِ الدَّوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ عَلَى يَدِ السُّلْطَانِ صَلاَحِ الدِّينِ يُوسُفَ بن أَيُّوبَ ، فَتَبَتِ «قَلْعَةُ الْجَبَلِ» وَصَارَتِ الْقَاهِرَةُ مَدِينَةَ مِصْرَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا^١ .

وَفِي أَرْضِ مِصْرَ عِدَّةٌ مَدَائِنَ لَيْسَتْ دَارَ مُلْكٍ ، وَهِيَ : مَدِينَةُ الْفَيُومِ وَمَدِينَةُ دِلَاصَ وَمَدِينَةُ أَهْنَسَ وَمَدِينَةُ الْبَهْتَسَا وَمَدِينَةُ الْقَيْسِ وَمَدِينَةُ طَلْحَا وَمَدِينَةُ الْأَشْمُونِيْنَ وَمَدِينَةُ أَنْصِنَا وَمَدِينَةُ قُوصَ وَمَدِينَةُ سُيُوطَ وَمَدِينَةُ فَاوَ وَمَدِينَةُ إِخْمِيمَ وَمَدِينَةُ الْبَلْيَنَا وَمَدِينَةُ هُوَ وَمَدِينَةُ قَنَا وَمَدِينَةُ ذَنْدَرَةَ وَمَدِينَةُ قِفْطَ وَمَدِينَةُ الْأَقْصَرِ وَمَدِينَةُ إِسْنَا وَمَدِينَةُ أَرْمَنْتَ وَمَدِينَةُ أَدْفُو وَتَعْرُ أُسْوَانَ ، وَأَذَرَ كِنَاهُ مَدِينَةَ ؛ هَذِهِ مَدَائِنُ الْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ . وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ يُسَمُّونَ مِنْ سَكَنَ مِنَ الْقِبْطِ بِالصَّعِيدِ «الْمَرِيْسَ» ، وَمَنْ سَكَنَ مِنْهُمْ أَسْفَلَ الْأَرْضِ يُسَمُّونَهُ «الْبِيْمَا» .

وَفِي الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ مَدِينَةُ نُوبَ مِنَ الْخَوَافِ الشَّرْقِيِّ بِأَسْفَلَ الْأَرْضِ ، وَمَدِينَةُ عَيْنِ شَمْسَ وَمَدِينَةُ أَثْرِبَ وَمَدِينَةُ نَتَوَ^(b) ، وَمَنْ قَرَاهَا نَاحِيَةَ زَنْكَلُونَ ، وَمَدِينَةُ تَمِيَّ^(c) ، وَمَدِينَةُ بَسْطَةَ وَيُعْرَفُ الْيَوْمَ مَوْضِعُهَا بِتَلِّ بَسْطَةَ ، وَمَدِينَةُ فَرِيْطَ^(d) وَمَدِينَةُ الْبَسْتُونَ وَمَدِينَةُ مُثُوفَ وَمَدِينَةُ طُورَةَ وَمَدِينَةُ مُثُوفَ / أَيْضًا وَمَدِينَةُ سَخَا وَمَدِينَةُ الْأَوْسِيَّةُ وَهِيَ دَمِيرَةَ ، وَمَدِينَةُ تِنْدَةَ وَمَدِينَةُ الْأَفْرَاجُونَ ، وَمَنْ جَمَلَةَ قَرَاهَا نَشَا ، وَمَدِينَةُ تَفِيرَةَ^(e) وَمَدِينَةُ بِنَا وَمَدِينَةُ شَبْرَاسُنْبَاطَ^(f) وَمَدِينَةُ سَمَنُودَ وَمَدِينَةُ نُوسَا وَمَدِينَةُ سَبْتِي (كَذَا) وَمَدِينَةُ الْبُجُومِ^(g) - وَقَدْ عَلَتْ عَلَى كُورَةَ^(h) الْبُجُومِ الرُّمَالُ وَالسُّبَاخُ ، وَيُعْرَفُ الْيَوْمَ مِنْهَا قَرْيَةُ إِذْ كُوَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بَيْنَ إِسْكَانْدَرِيَّةَ وَرَشِيدَ - وَمَدِينَةُ تَيْسَ وَمَدِينَةُ دِمِيَاطَ وَمَدِينَةُ الْفَرْمَا وَمَدِينَةُ الْعَرِيْشَ وَمَدِينَةُ صَا وَمَدِينَةُ تَرْنُوطَ⁽ⁱ⁾ وَمَدِينَةُ قَرطَسَا وَمَدِينَةُ أَخْنُو وَمَدِينَةُ رَشِيدَ وَمَدِينَةُ مَرْيُوطَ وَمَدِينَةُ لُؤْبِيَّةَ وَمَرَاقِيَّةَ ، وَلَيْسَ بَعْدَ لُؤْبِيَّةَ وَمَرَاقِيَّةَ إِلَّا أَرْضُ أَنْطَابُلُسَ وَهِيَ بَرْقَةَ^(j) .

(a) بولاق : الغرب . (b) بولاق : تنوا . (c) بولاق : تمي . (d) بولاق : قريبط . (e) بولاق : بقيرة . (f) بولاق : شبراساط . (g) بولاق : النجوم . (h) بولاق : غلب على مدينة . (i) بولاق : برنوط . (j) بولاق : برية .

وفي كُور القِبْلَة مَدِينَة فاران ومَدِينَة القُلْزُم ومَدِينَة رَايَة ومَدِينَة أَيْلَة ومَدِينَة مَدَّيْن ؛ وأكثرُ هذه المَدَائِنِ قد خَرِبَ ، ومنها ما له أخبارٌ معروفة .

وقد استُخْدِثَ في الإسلامِ بعضُ مَدَائِنِ ، وسيأتي من أخبار ذلك إن شاء الله ما يكفي .
وإِذَا مِصْرَ اليَوْمِ وَجْهَانِ : قِبْلِيٌّ وَبَحْرِيٌّ ، جَمَلْتَهُمَا خَمْسَ عَشْرَةَ وِلايَة ؛ فَالْوَجْهُ القِبْلِيُّ أكبرُهُمَا ، وهو تسعة أعمال :

عَمَلُ قُوصٍ ، وهو أَجْلُهَا ، ومنه أُسْوَانٌ وعزب^(a) قَمُولَة ، وأُسْوَانٌ [نَهَايَة]^(b) حُدَّ المَمْلَكَة من الجَنُوبِ . وَعَمَلُ إِخْمِيمِ . وَعَمَلُ سِيُوطِ . وَعَمَلُ مَنفَلُوطِ . وَعَمَلُ الأَشْمُونِيْنَ ، وبها الطَّحَاوِيَّةُ . وَعَمَلُ البَهْنَسَا . وَعَمَلُ الفَيُومِ . وَعَمَلُ إِطْفِيحِ . وَعَمَلُ الجِيْزَة .
وَالْوَجْهُ البَحْرِي سِتَّةُ أَعْمَالِ :

عَمَلُ البَحْيِرَة ، وهو مُتَّصِلُ البَرِّ بالإسكَنْدَرِيَّةِ وَبَرْقَة . وَعَمَلُ العَرِيَّةِ ، وهي جَزِيرَة وَاحِدَة يُشْتَمَلُ عَلَيْهَا مَا بَيْنَ البَحْرَيْنِ : بَحْرُ دِمْيَاطِ وَبَحْرُ رَشِيدِ . وَالمُنُوفِيَّةُ ، ومنها إِبْيَارُ التي تُسَمَّى جَزِيرَة بَنِي نَصْرِ . وَعَمَلُ قَلْبُوبِ . وَعَمَلُ الشَّرْقِيَّةِ . وَعَمَلُ أُشْمُومِ طَنَاحِ ، ومنها الدَّقَهْلِيَّةُ وَالمُرْتَاجِيَّةُ ، وهنا مَوْقِعُ^(c) ثَغْرِ البُرُوسِ وَثَغْرِ رَشِيدِ وَالمَنْصُورَة^(d) [المَبْنِيَّةُ زَمَانِ حِصَارِ دِمْيَاطِ]^(b) .^١

وفي هذا الوَجْهُ الإسكَنْدَرِيَّةُ وَدِمْيَاطُ وهما مَدِينَتَانِ لَا عَمَلُ لِهَما .

وَذَكَرَ أَبُو الحَسَنِ المَسْعُودِي فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الزَّمَانِ» أَنَّ الكُوكَبَةَ - وهي أُمَّةٌ مِنْ أَهْلِ أَيْلَة - مَلَكَوا الأَرْضَ وَقَسَمُوا الصُّعَيْدَ عَلَى ثَمَانِينَ كُورَة ، وَجَعَلُوهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ^٢ . وَكَانَ عَدَدُ مُدُنِ مِصْرَ الدَّاخِلَة فِي كُورِهَا ثَلَاثِينَ مَدِينَة ، فِيهَا جَمِيعُ العَجَائِبِ وَالكُورِ مِثْلُ إِخْمِيمِ وَقِفْطِ وَقُوصِ وَالفَيُومِ . وَيُقَالُ إِنَّ مِصْرَ بْنَ بِيضَرَ قَسَمَ الأَرْضَ بَيْنَ أَوْلَادِهِ ، فَأَعْطَى وَلَدَهُ أُشْمُونَ مِنْ حَدِّ بَلَدِهِ إِلَى رَأْسِ البَحْرِ إِلَى دِمْيَاطِ ، وَأَعْطَى وَلَدَهُ أَنْصِنَا مِنْ حَدِّ أَنْصِنَا إِلَى الجَنَادِلِ ، وَأَعْطَى لَوْلَدِهِ صَا مِنْ صَا أَشْفَلِ الأَرْضِ إِلَى الإسكَنْدَرِيَّةِ ، وَأَعْطَى لَوْلَدِهِ مُنُوفِ وَسَطِ الأَرْضِ الشُّفْلَى مَنْفَ وَمَا حَوْلَهَا ، وَأَعْطَى لَوْلَدِهِ قِفْطِ غَرْبِي الصُّعَيْدِ إِلَى الجَنَادِلِ ، وَأَعْطَى لَوْلَدِهِ أَثْرِبَ شَرْقِيَّ الأَرْضِ إِلَى البَرِّيَّةِ - بَرِّيَّةِ فَارَانَ -

(a) بولاق : غرب . (b) زيادة من مسالك الأبصار . (c) بولاق : موضع . (d) بولاق : بالمنصورة .

^١ نقلًا عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٩٧-١٠٠ ، وفيما تقدم ١ : ٧٤ .
^٢ المسعودي : أخبار الزمان ٦٧-٦٨ ؛ وانظر فيما يلي (٣٩٣ ، ٥٠٤) .

وأعطى لبناته الثلاث، وهن الفرّما وسريام وبُدورَة، بقاعًا من أرض مصر مُحدّدة فيما بين إخوتهن .

ذِكْرُ مَدِينَةِ أَمْسُوسَ وَعَجَائِبِهَا وَمُلُوكِهَا

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه^(a) الكاتب في كتاب «أخبار مصر وعجائبها»: وكانت مصرُ القديمة اسمها أمْسُوسُ؛ وأوّلُ من ملك أرض مصر نَقْرَاوُش - ومعنى نَقْرَاوُش: مَلِكُ قَوْمِهِ - الجَبَّار بن مِصْرَايم الأوّل بن مراكئيل بن دوائيل بن عرياب^(b) بن آدم - عليه السّلام - ركب في ثياف وسبعين راكبًا من بني عرياب^(b) جبايرة، كلهم يطلّبون موضعا يقطنون فيه، فرازا من بني أبيهم عندما بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا، وبغى عليهم بنو قاييل بن آدم. فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فلمّا رأوا سعة البلد فيه وحسنه، أعجبهم فأقاموا فيه، وبنوا الأبنية المحكّمة. وبنى نَقْرَاوُش مصر وسماها باسم أبيه مِصْرَايم، ثم تركها وأمر ببناء مدينة سماها أمْسُوس^٢.

وقال ابنُ وصيف شاه: وكان قد وقّع إليه علمٌ ذلك من العلوم التي تعلّمها ذوايل من آدم عليه السّلام، فبنى الأعلام، وأقام الأساطين، وعمل المصانع، واستخرج المعادن، ووضع الطلّسمات، وشق الأنهار، وبنى المدائن؛ فكلُّ علمٍ جليل كان في أيدي المصريين إنّما هو من فضل علم نَقْرَاوُش وأصحابه، كان ذلك مزموزا على الحجارة، ففسره فليمون الكاهن الذي ركب مع نوح - عليه السّلام - في السفينة^٣.

(a) الأصل: إبراهيم بن وصيف الكاتب. (b) الأصل: عرياب.

ومصدر المعلومات عن ملوك مصر قبل الطوفان وبعده عند المقرزي ومعاصريه: كتاب «أخبار الزمان» المنسوب للمسعودي، وكتاب «أخبار مصر وعجائبها» لإبراهيم بن وصيف شاه، واعتمد المقرزي - بناء على نقوله - على المسعودي وابن وصيف شاه مباشرة، بينما نقل النويري أخبار هؤلاء الملوك من كتاب «مختصر كتاب العجائب» الذي اختصره إبراهيم بن القاسم الكاتب من كتاب إبراهيم ابن وصيف شاه. (النويري: نهاية الأرب ١: ١٥)، وانظر =

^١ كانت هذه المدينة تقع غربي النيل في المنطقة التي أنشئت فيها فيما بعد مدينة منف بعد الطوفان. (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ١٣١، Maspero & Wiet, *Matériaux*, p. 25).

^٢ النويري: نهاية الأرب ١: ١٥؛ المسعودي: أخبار الزمان ١١٠-١١١؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣١٣، ٣١٥، ٤٠٧-٤٠٨؛ وفيما تقدم ٤٧-٤٨.

^٣ نفسه ١: ٢٠٥.

وَنَقْرَاوُشُ هُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَةَ أَمْشُوسَ وَعَمِلَ بِهَا عَجَائِبَ كَثِيرَةً : مِنْهَا طَائِرٌ يُصَفِّرُ كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مَرَّتَيْنِ وَعِنْدَ غُرُوبِهَا مَرَّتَيْنِ ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِصَفِيرِهِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنَ الْحَوَادِثِ حَتَّى يَتَهَيَّأُوا لَهَا . وَمِنْهَا صَنْمٌ مِنْ حَجَرٍ أَسْوَدٍ فِي وَسْطِ الْمَدِينَةِ ، تَجَاهَهُ صَنْمٌ مِثْلُهُ ، إِذَا دَخَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ سَارِقٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَزُولَ حَتَّى يَسْتَلِكَ بَيْنَهُمَا ، فَإِذَا دَخَلَ بَيْنَهُمَا أَطْبَقَا عَلَيْهِ فَيُؤْخَذُ .

وَعَمِلَ صُورَةً مِنْ نُحَاسٍ عَلَى مَنَارٍ عَالٍ ، لَا يَزَالُ عَلَيْهَا سِحَابٌ يَطَّلَعُ ، فَكُلُّ مَنْ اسْتَمَطَّرَهَا أَمْطَرَتْ عَلَيْهِ مَا شَاءَ . وَعَمِلَ عَلَى حَدِّ الْبِلَادِ أَصْنَامًا مِنْ نُحَاسٍ مُجَوَّفَةٌ ، وَمَلَأَهَا كَبْرِيَّتًا ، وَوَكَّلَ بِهَا رُوحَانِيَةَ النَّارِ ، فَكَانَتْ إِذَا قَصَدَهُمْ قَاصِدٌ أَرْسَلَتْ تِلْكَ الْأَصْنَامَ مِنْ أَقْوَاهَا نَارًا أَخْرَقَتْهُ . وَعَمِلَ فَوْقَ جَبَلٍ يُطْرُسُ مَنَارًا يَفُورُ بِالْمَاءِ ، وَيَسْقِي مَا حَوْلَهُ مِنَ الْمَزَارِعِ ^١ ، وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْأَثَارُ حَتَّى أزالها الطُّوفَانُ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَصْلَحَ مَجْرَى النَّيْلِ ، وَكَانَ قَبْلَهُ يَتَفَرَّقُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ ، وَإِنَّهُ وَجَّهَ إِلَى بِلَادِ الثُّوبَةِ جَمَاعَةً هِنْدِسُوهُ/، وَشَقُّوا نَهْرًا عَظِيمًا مِنْهُ بَنُوا عَلَيْهِ الْمُدُنَ وَعَرَّسُوا الْغُرُوسَ . وَأَحَبُّ أَنْ يَعْرِفَ مَخْرَجَ النَّيْلِ فَسَارَ حَتَّى بَلَغَ خَلْفَ حَظِّ الْأَسْتِوَاءِ ، وَوَقَّفَ عَلَى الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ الزُّفْتِي ، وَرَأَى النَّيْلَ يَجْرِي عَلَى الْبَحْرِ مِثْلَ الْخَيْوُطِ حَتَّى يَدْخُلَ تَحْتَ جَبَلِ الْقَمَرِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ إِلَى بَطَائِحِ ^٢ ؛ وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي عَمِلَ التَّمَائِيلَ الَّتِي هُنَاكَ .

وَعَادَ إِلَى أَمْشُوسَ وَقَسَمَ الْبِلَادَ بَيْنَ أَوْلَادِهِ : فَجَعَلَ لِابْنِهِ الْأَكْبَرِ - وَاسْمُهُ نِقَارِشُ ^(a) - الْجَانِبَ الْغَرْبِيَّ ، وَلِابْنِهِ شُورِبِ الْجَانِبَ الشَّرْقِيَّ ، وَبَنَى لِابْنِهِ الْأَصْغَرَ - وَاسْمُهُ مِصْرَايِمُ - مَدِينَةَ بَرَسَانَ وَأَسْكَنَهُ فِيهَا ^٣ .

(a) بولاق : نقاوش والأصل والنويري : نقارش .

ما طلبته من تسهيل الأمر على المتراد وإزالة مؤونة الطلب عنه ، ولا ينسختها وما في سائر الجداول إلا من له معرفة بحروف الجمل وعناية صادقة بتصحيحها فإنها تفسد بنقل الوراقين إذا تداولوها ولا يمكن إصلاحها إلا في سنين كثيرة» (الآثار الباقية ٨٤) .

^١ المسعودي : أخبار الزمان ١١٢-١١٣ .

^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥:٢-٣ ؛ وفيما تقدم ١٣٧ .

^٣ نفسه ١٥:٣ ؛ القلقشندي : صبح ٣١٥:٣ وأضاف :

«ولم أقف على مكانها» .

= دراسة مصادر المقرئ في المقدمة .

ولم تثق الكتب على هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الآخر في طريقة رسمها وكتابتها ، خاصة مع فقد المصدر الأصلي لها وتصحيحات النسخ التي تسربت إلى النسخ التي وصلت إلينا ، وقد بذلتُ جهدًا كبيرًا في توحيدها مقارنة بكافة المصادر والمواضع التي ورد ذكرها فيها . (وانظر فيما يلي ١:١٣٥) .

وقد تنبّه إلى ذلك أبو الريحان البيروني حيث يقول : «ولم يُساعد الزمان على تصحيح أسماء الملوك بالشماخ ، فليبالغ في تصحيحها وإصلاحها من عسى وقف عليها طالبًا

وأقام ملكاً على مصر مائة وثمانين سنة ؛ ولما مات لَطَخَ جَسَدُهُ بأذوية ماسِكة ، وجُعِلَ في تابوت من ذهب ، وعُمِلَ له ناووس^(a) مُصَفَّح بالذهب ، ووُضِعَ فيه ومعه كُنُوزٌ وإكسير وأوانٍ من ذهب لا يُحصى ذلك لكثرتِه^(b) ، وزَبَرُوا على الناووس تاريخ مَوْتِه ، وأقاموا عليه طَلْسَمًا يمنعُه من الحَشْرَاتِ المفسدة^(١) .

٥ ومَلَكٌ بعده^(c) ابنُه نِقَارَش^(d) بن نِقْرَاوَش ، وكان كأبيه في عِلْمِ الكهانة والطلسمات ، وهو أول من عمِلَ بمصر هَيْكَلًا ، وجعل فيه صُورَ الكواكب السَّبْعَةِ ، وكتَبَ على هَيْكَلِ كُلِّ كَوْكَبٍ مَنَافِعَهُ وَمَضَارَهُ ، وألْبَسَهَا كَلِمَاتِ الثِّيَابِ الفَاخِرَةِ ، وأقامَ لها خَدَمَةً وَسَدَنَةً . وخَرَجَ من أمْسُوس مُغْرَبًا حتى بَلَغَ البحرَ المَحيطَ ، وأقامَ عليه أساطين على زُروسها أصنام تُسْرَجُ عُيُونُهَا [كالمصايح]^(e) في اللَّيْلِ ؛ وَمَضَى على بلادِ الشُّودانِ إلى النَّيْلِ ، وأمرَ بِنِيبَاءِ حَائِطٍ على جَنْبِ النَّيْلِ ، وعَمِلَ له أبوابًا يخرج منها الماءُ . وبَنَى في صَحْرَاءِ العَرَبِ خَلْفَ الوَاحَاتِ ثلاثَ مُدُنٍ على أساطين مُشْرِفاتٍ من حجارة ملوَّنة شَفَافَةً ، وفي كُلِّ مَدِينَةٍ عِدَّةٌ خَزَائِنٍ من الحِكْمَةِ . وفي إِحْدَاهَا صَنَمٌ لِلشَّمْسِ على صورة إنسانٍ وجَسَدٍ طَائِرٍ من ذهبٍ ، وعَيْنَاهُ من جَوْهَرٍ أَصْفَرٍ ، وهو جَالِسٌ على سَرِيرٍ من مَغْناطيسٍ ، وفي يَدِهِ مُصْحَفُ العُلُومِ . وفي إِحْدَاهَا صَنَمٌ رَأْسُهُ رَأْسُ إنسانٍ بجَسَدٍ طَائِرٍ ، ومعه صورة امْرَأَةٍ جَالِسَةٍ قد عُمِلَتْ من زَيْتِقٍ معقودٍ ، لها ذُؤَابَتَانِ ، في يَدَيهَا مِرْآةٌ ، وعلى رَأْسِهَا صورة كَوْكَبٍ ، وقد رَفَعَتْ المِرْآةَ بيديها إلى وَجْهِهَا . وفي إِحْدَاهَا مَطْهَرَةٌ فيها سَبْعَةُ أَلْوَانٍ من سَائِلٍ يَرُدُّ إِلَيْهَا ولا يُغَيِّرُ بَعْضُهَا لَوْنًا بَعْضًا .

١٠ وفي بَعْضِهَا صُورَةُ شَيْخٍ جَالِسٍ قد عُمِلَ من الفَيَزُورِجِ ، وبين يَدَيْهِ صَبِيَّةٌ جُلُوسٌ كُلُّهُمْ من عَقِيقٍ . وفي بَعْضِهَا صُورَةُ هِرْمِسٍ - يعنى عَطَّارِدٍ - وهو يَنْظُرُ إلى مَائِدَةٍ بين يَدَيْهِ من نُوشَادِرٍ ، على قَوَائِمٍ من كِبْرِيَتٍ أَحْمَرَ ، وفي وَسَطِهَا صَحْفَةٌ من جَوْهَرٍ ، وجَعَلَ فِيهَا صُورَةَ عُقَابٍ من زَبَرَجَدٍ أَحْضَرَ ، وعَيْنَاهُ من ياقُوتٍ أَصْفَرٍ ، وبين يَدَيْهِ حَيَّةٌ زَرْقَاءُ من فِضَّةٍ ، قد لَوَتْ ذَنْبُهَا على رِجْلَيْهِ ، ورَفَعَتْ رَأْسَهَا كَأَنَّهَا تَنْفُخُ عَلَيْهِ ، وجَعَلَ فِيهَا صِبْغَةَ المَرِيخِ وهو رَاكِبٌ على فَرَسٍ ، وفي يَدِهِ سَيْفٌ مَسْلُولٌ من حَدِيدٍ أَحْضَرَ ، وجَعَلَ فِيهَا عَمُودًا من جَوْهَرٍ أَحْضَرَ^(f) ، وعليه قُبَّةٌ من ذهبٍ فيها صُورَةُ

(a) بولاق : تابوت . (b) بولاق : كثرة . (c) ساقطة من الأصل . (d) بولاق : نقاوش ، والأصل والنويري : نقارش . (e) زيادة من أخبار الزمان . (f) بولاق : أحمر .

المُشْتَرِي ، وَجَعَلَ فِيهَا قُبَّةً مِنْ آتِكِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَعْمِدَةٍ مِنْ جِزْعِ أَرْزَقِ ، وَفِي سَقْفِهَا صُورَةَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مُتَحَادِيَيْنِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ يَتَحَادَثَانِ ، وَجَعَلَ فِيهَا قُبَّةً مِنْ كِبْرِيَتِ أَحْمَرَ فِيهَا صُورَةُ الزُّهْرَةِ عَلَى هَيْئَةِ امْرَأَةٍ تُمَسِّكَةُ بَصْفَائِرِهَا ، وَتَحْتَهَا رَجُلٌ مِنْ زَبْرَجَدٍ أَحْضَرَ فِي يَدِهِ كِتَابٌ فِيهِ عِلْمٌ مِنْ عُلُومِهِمْ كَأَنَّهُ يَقْرَأُ فِيهِ عَلَيْهَا .

٥ وَجَعَلَ فِي بَقِيَّةِ الْخَزَائِنِ مِنْ كُنُوزِ الْأَمْوَالِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْحُلِيِّ وَالْأَكْسِيرِ الصَّنْعَةِ وَصُنُوفِ الْأَدْوِيَةِ وَالسُّمُومِ الْقَاتِلَةِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً . وَجَعَلَ عَلَى بَابِ كُلِّ مَدِينَةٍ طَلْسُمًا يَمْنَعُ مِنْ دُخُولِهَا ، وَأَنْفَذَ لَهَا مَسَارِبَ تَحْتَ الْأَرْضِ يُنْفَذُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، طُولُ كُلِّ سَرَبٍ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ^١ .

١٠ وَبَنَى أَيْضًا مَدِينَةً بِأَرْضِ مِصْرَ اسْمُهَا حَلْجَةَ^٢ ، وَعَمِلَ فِيهَا جَنَّةً صَفَّحَ حَيْطَانَهَا بِالْجَوَاهِرِ الْمَلُوءَةِ بِالذَّهَبِ ، وَغَرَسَ فِيهَا أَصْنَافَ الْأَشْجَارِ ، وَأَجْرَى تَحْتَهَا الْأَنْهَارَ ، وَغَرَسَ فِيهَا شَجَرَةَ مُوَلَّدَةٍ تُطْعَمُ سَائِرَ الْفَوَاكِهِ ، وَعَمِلَ فِيهَا قُبَّةً مِنْ رُخَامِ أَحْمَرَ عَلَى رَأْسِهَا صَنْمٌ يَدُورُ مَعَ الشَّمْسِ ، وَوَكَّلَ بِهَا شَيْطَانِينَ إِذَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِهِ فِي اللَّيْلِ هَلَكَ ، وَأَقَامَ بِهَا أُسَاطِينَ زَبْرَجِدٍ عَلَيْهَا جَمِيعَ الْعُلُومِ وَصُورِ الْعَقَاقِيرِ وَمَنَافِعِهَا وَمَضَارِّهَا .

١٥ وَجَعَلَ لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ مَسَارِبَ تَتَّصِلُ بِمَسَارِبِ تِلْكَ الْمُدُنِ الثَّلَاثِ ، بَيْنَ كُلِّ سَرَبٍ مِنْهَا وَبَيْنَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ عِشْرُونَ مِيلاً . فَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْمَدَائِنُ حَتَّى أَفْسَدَهَا الطُّوفَانُ . وَلَمَّا مَاتَ بَعْدَ مِائَةِ وَتِسْعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ عَلَى مِصْرَ ، جُعِلَ^٣ فِي نَاوُوسِ مُطَلْسَمٌ وَدُفِنَ فِيهِ^٤ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ مِصْرَامُ^٥ بِنِ تَقْرَاوِشِ الْجَبَّارِ ابْنِ مِصْرَايِمَ - وَيُقَالُ بِهِ سُمِّيَتْ مِصْرَ - وَكَانَ حَكِيمًا ، فَعَمِلَ هَيْكَلًا لِلشَّمْسِ مِنْ مَرْمَرٍ مُمَوَّهٍ بِذَهَبِ أَحْمَرَ ، وَفِي وَسَطِهِ فَرْسٌ مِنْ جَوْهَرِ أَرْزَقِ عَلَيْهِ صُورَةُ الشَّمْسِ مِنْ ذَهَبِ أَحْمَرَ ، وَعَلَى رَأْسِهِ قِنْدِيلٌ مِنَ الزُّجَاجِ فِيهِ حَجَرٌ مُدَبَّرٌ يُضِيءُ أَكْثَرَ مِنَ السَّرَاجِ .

٢٠ ثُمَّ إِنَّهُ ذَلَّلَ الْأَسَدَ وَرَكِبَهَا ، وَسَارَ إِلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ، وَجَعَلَ فِي وَسَطِهِ قَلْعَةً يَبْيَضُاءُ عَلَيْهَا صَنْمٌ لِلشَّمْسِ ، وَزَبْرَجِدٌ عَلَيْهِ اسْمُهُ وَصِفَتُهُ ، وَعَمِلَ صَنْمًا مِنْ نُحَاسِ زَبْرَجِدٍ عَلَيْهِ : «أَنَا مِصْرَامُ الْجَبَّارُ ، كَاشِفُ

(a) بولاق : حلجمة و Wiet جلجله ، والنويري : خلجة . (b) الأصل : عمل . (c) ساقطة من الأصل .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥: ٥-٦ (عن ابن وصيف) نفسه ١٥: ٧ وأيضًا المسعودي : أخبار ١١٣-١١٤ .
^٢ شاه ٤ المسعودي : أخبار الزمان ١١٣-١١٥ .

الأشرار، الغالب القهار، وَضَعْتُ^a الطَّلْسَمَات الصَادِقَةَ، وَأَقَمْتُ الصُّورَ النَاطِقَةَ، وَنَصَبْتُ
الأعلام الهائلة على البحار السائلة، لِيَعْلَمَ مَنْ بَعْدِي أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَشَدَّ مِنْ أَيْدِي^b»^١.

وعادَ إلى أمسوس، واحتجب عن الناس ثلاثين سنة، واستخلف رجلاً يقال له عيقام من ولد
عرياب^c بن آدم، وكان كاهناً ساحراً؛ فلما مضت المدة أحب أهل مصر أن يروه، فجمعهم
عنقاص^d بعدما أعلم مِصرام، فظهر لهم في أعلى مجلس مُزَيَّن بأصناف الزينة، في صورة هائلة
ملأت قلوبهم رُعباً، فخرّوا له ساجدين، ودعّوا له. ثم أحضر إليهم الطعام فأكلوا وشربوا،
وأمرهم بالرجوع إلى مواضعهم، ولم يروه بعدها^٢.

فملك بعده خليفته عنقاص^d، وقد حكى عنه أهل مصر حكايات لا تُصدّقها العقول.
ويقال إن إدريس - عليه السلام - رُفِعَ في أيامه، وإنه رأى في علمه كَوْن الطوفان، فبنى خلف
نَخَطَ الاستواء في سفح جبل القمر قصراً من نحاس، وجعل فيه خمسة وثمانين تمثالاً من نحاس
يخرج ماء التيل من مخلوقها ويصب في بطنحاء تنتهي إلى مصر.

وسار إليه من أمسوس، فشهد حكمة بنيانه، وزخرقة جيطانه وما فيها من النقوش من صور
الأفلاك وغيرها. وكان قصراً تُسرج فيه المصابيح، وتُنصب فيه الموائد وعليها من كل الأطعمة
الفاخرة في الأواني النفيسة ما لو أكل منها عسكر لما نقصت ذرة، ولا يُعرف من عملها ولا من
وضعتها، وفي وسط القصر بركة من ماء جامد الظاهر، وترى حركته من وراء ما جمده منه؛
فأعجب بما رأى، وعاد إلى أمسوس، واستخلف ابنه عرياق^e، وقلده الملك وأوصاه، وعاد إلى
ذلك القصر وأقام به حتى هلك.

وإلى عنقاص^d هذا يُعزى مُصْحَف القبط الذي فيه تواريخهم، وجميع ما يجري في آخر الدهر^f^٣.
فقام من بعده ابنه عرياق^e - (ويقال أرياق بن عنقاص^d)، ويُقال له الأثيم^g - فعمل
أعمالاً عجيبة: منها شجرة صفراء لها أغصان من حديد بخطاطيف، إذا قرب الظالم منها

(a) النويري: صنعت. (b) النويري: ملكي. (c) Wiet: عرياق. (d) بولاق: عيقام. (e) في بعض النسخ
عرياق، عرياق!! (f) بولاق: الزمان. (g-g) ساقطة من الأصل.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧-٨ وقارن المسعودي: نفسه ١٥: ٨؛ وقارن المسعودي: أخبار ١١٧.
^٢ نفسه ١٥: ٨-٩.
^٣ أخبار ١١٦، ١١٧.

أَخَذَتْهُ تِلْكَ الْخَطَاطِيفُ وَلَا تُفَارِقُهُ حَتَّى يُقَرَّرَ بِظُلْمِهِ ، وَيَخْرُجَ مِنْهُ لِحَصْمِهِ .

وَمِنْهَا صَنْمٌ مِنْ كِدْأَانَ أَسْوَدَ سَمَاءَهُ عَبْدُ زُحَلٍ ، كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ : فَمَنْ زَاغَ عَنِ الْحَقِّ ثَبِتَ فِي مَكَانِهِ ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ حَتَّى يُنْصِفَ نَحْصَمَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَوْ أَقَامَ سَنَةً . وَمَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ قَامَ لَيْلاً وَنَظَرَ إِلَى الْكَوْكَبِ^(a) وَتَضَرَّعَ وَذَكَرَ اسْمَ عَرِيَاقَ ، فَإِذَا أَصْبَحَ وَجَدَ حَاجَتَهُ عَلَى بَابِهِ .

وَعَمِلَ شَجَرَةٌ مِنْ حَدِيدٍ ذَاتَ أَغْصَانٍ ، وَلَطَخَهَا بِدَوَاءٍ مُدْبِّرٍ ، فَكَانَتْ تَجْلِبُ كُلَّ صِنْفٍ مِنَ الدُّوَابِّ وَالسَّبَاعِ وَالْوُحُوشِ إِلَيْهَا حَتَّى يَتِمَّكَنَ مِنْ صَيْدِهَا .
وَكَانَ إِذَا غَضِبَ عَلَى أَهْلِ إِقْلِيمِ سَلَطَ عَلَيْهِمُ الْوُحُوشَ وَالسَّبَاعَ ، وَتَارَةً يَجْعَلُ مَاءَهُمْ مِنَ الْإِيدَاقِ .

١٠ وَيُقَالُ إِنَّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ كَانَا فِي زَمَانِهِ ، وَإِنَّهُ بَنَى جَنَّةً عَظِيمَةً ، وَاعْتَصَبَ النِّسَاءَ الْحِسَانَ وَأَسْكَنَهُنَّ فِيهَا ، فَعَمِلَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ وَسَمَّتهُ فَهَلَكَ^١ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ لُوجِيمُ بْنُ نِقَارِشَ ، وَيُقَالُ بِلَ هُوَ مِنْ بَنِي نِقْرَاوُشَ الْجَبَّارِ وَيُعْرَفُ بِلُوجِيمِ الْفَتَى ، وَهُوَ الَّذِي أَخَذَ الْمَلِكُ مِنْ عَرِيَاقَ بْنِ عَنَقَامِ الْكَاهِنِ وَرَدَّهُ لِبَنِي نِقْرَاوُشَ بَعْدَمَا خَرَجَ عَنْهُمْ بِلا حَرْبٍ وَلَا قِتْلٍ ؛ وَكَانَ عَالِماً بِالْكَهَانَةِ وَالطَّلْشَمَاتِ فَعَمِلَ أَعْمَالاً عَجِيبَةً مِنْهَا أَنَّ الْغَدَافَ وَالغُرَابَ^(b) كَثُرَ فِي أَيَّامِهِ وَأَتْلَفَ الزُّرْعَ ، فَعَمِلَ أَرْبَعَ مَنَارَاتٍ فِي جَوَائِبِ مَدِينَةِ أَمْشُوسَ الْأَرْبَعَةَ ، وَعَلَى كُلِّ مَنَارَةٍ صُورَةٌ غُرَابٍ فِي فَمِّهِ حَيَّةٌ قَدْ أَلْتَوَتْ عَلَيْهِ ، فَتَفَرَّتْ عَنْهُمْ الطُّيُورُ الْمُضِرَّةُ مِنْ حَيْثُذِ ، وَلَمْ تَقْرَبِهِمْ حَتَّى زَالَتِ الْمَنَارَاتُ بِالطُّوفَانِ^٢ .

وَكَانَ حَسَنَ السَّيْرِ ، مُنْصِيفاً لِلرَّعِيَّةِ ، عَادِلاً ، مُقَرَّباً لِلْكَهَنَةِ ، وَلَمَّا مَاتَ دُفِنَ فِي نَاوُوسَ وَمَعَهُ كُنُوزُهُ ، وَعَمِلَ عَلَيْهِ طَلْشَمٌ يَمْنَعُهُ .

٢٠ وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ حَضْلِيمُ^(c) ، وَكَانَ فَاضِلاً عَالِماً كَاهِناً ، فَعَمِلَ أَعْمَالاً عَجِيبَةً ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ مِقْيَاسًا لَزِيَادَةِ مَاءِ النَّيْلِ بِأَنْ جَمَعَ أَرْبَابَ الْعُلُومِ وَالْهَنْدَسَةِ فَقَدَّرُوا بَيْتًا مِنْ رُخَامٍ عَلَى حَافَةِ

(a) بولاق : الكواكب . (b) عند النويري : الغرائيق وهي الذكور من الطير ، وعند المسعودي : الغربان والغرائيق . (c) بولاق : خصليم .

^١ النويري : نهاية الأرب ٩: ١٥ - ١٠ ؛ وقارن نفسه ١٥ : ١٠ ؛ المسعودي : أخبار الزمان ١١٨ .
المسعودي : أخبار ١١٨ .

النَّيْل ، وفي وَسَطِهِ بِرَّكَه صَغِيرَةٌ مِنْ نُحَاسٍ فِيهَا مَاءٌ مَوْزُونٌ ، وَعَلَيْهَا مِنْ جَانِبَيْهَا عُقَابَانِ مِنْ نُحَاسٍ أَحَدُهُمَا ذَكَرٌ وَالْآخَرُ أَنْثَى . فَإِذَا كَانَ أَوَّلَ الشَّهْرِ الَّذِي يَزِيدُ فِيهِ النَّيْلُ فَتُفْتَحُ هَذَا الْبَيْتُ ، وَجُمُوعُ الْكُهَّانِ فِيهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَزَمَزَمَ الْكُهَّانُ بِكَلَامِهِمْ حَتَّى يُصَفَّرَ أَحَدُ الْعُقَابَيْنِ : فَإِنْ صَفَّرَ الذَّكَرُ كَانَ الْمَاءُ تَامًا ، وَإِنْ صَفَّرَتِ الْأُنْثَى كَانَ الْمَاءُ نَاقِصًا ، فَيَسْتَعِدُّونَ عِنْدَ ذَلِكَ لِعَلَاءِ الْأَشْعَارِ بِمَا يُصَلِّحُونَ بِهِ شَأْنَهُمْ . وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْقَنْظَرَةَ بِبِلَادِ الثُّوبَةِ عَلَى النَّيْلِ .^١

وَلَمَّا مَاتَ عَمِلٌ^(a) فِي نَاوُوسٍ وَمَعَهُ كُنُوزُهُ ، وَعَمِلَ عَلَيْهِ طِلْسُمٌ .

وَمَلِكٌ بَعْدَهُ ابْنُهُ هُوَصَالٌ ، وَيُقَالُ هِرْصَالٌ وَمَعْنَاهُ خَادِمُ الزُّهْرَةِ ، وَيُقَالُ سَوْصَالٌ بِنِ لُوجِيمِ الْمَلِكِ الثَّقْرَاوِشِيِّ مِنْ بَنِي ثَقْرَاوِشِ الْجَبَّارِ . وَيُقَالُ إِنَّ نُوْحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وُلِدَ فِي أَيَّامِهِ .

وَكَانَ فَاضِلًا كَاهِنًا عَالِمًا بِالسَّحْرِ وَالطَّلْسُمَاتِ فَعَمِلَ عَجَائِبَ ، مِنْهَا أَنَّهُ بَنَى مَدِينَةَ عَمِلٍ فِي وَسَطِهَا صَنَمًا لِلشَّمْسِ يَدُورُ بِدَوْرَانِهَا ، وَيَبِيتُ مُغْرِبًا ، وَيُصْبِحُ مُشْرِقًا . وَعَمِلٌ سَرَبًا تَحْتَ النَّيْلِ ، يَشُقُّ^(b) الْأَرْضَ وَخَرَجَ مِنْهُ مُتَنَكِّرًا حَتَّى بَلَغَ مَدِينَةَ بَابِلَ ، وَكَشَفَ أَعْمَالَ الْمُلُوكِ .

وَكَانَ نُوْحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي زَمَانِهِ ؛ وَوُلِدَ لَهُ عَشْرُونَ وَوَلَدًا ، فَجَعَلَ مَعَ كُلِّ وَوَلَدٍ^(c) مِنْهُمْ قَاطِرًا^(d) ، وَهُوَ رَأْسُ الْكَهَنَةِ . وَأَقَامَ فِي الْمَلِكِ مِائَةً وَسَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، ثُمَّ لَزِمَ الْهَيَاكِلَ وَأَقَامَ أَوْلَادَهُ عَلَى حَالِهِمْ ، كُلٌّ مِنْهُمْ فِي قِسْمِهِ الَّذِي أُعْطَاهُ إِثَّاهُ أَبُوهُ مُدَّةَ سَبْعِ سِنِينَ .^٢

ثُمَّ اجْتَمَعُوا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَمَلَكُوهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اسْمُهُ بَرْدِشَالٌ ، وَقِيلَ تَدْرِسَانُ^(e) ، فَلَمَّا مَلَكَ نَفَى جَمِيعَ إِخْوَتِهِ إِلَى الْمَدَائِنِ الدَّاخِلَةِ فِي الْعَرَبِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ عَمِّهِ ، وَكَانَتْ سَاحِرَةً . وَعَمِلَ لَهُ قَصْرًا مِنْ خَشَبٍ مَنقُوشًا فِيهِ صُورَةُ الْكَوَاكِبِ ، وَبَسَطَهُ بِأَحْسَنِ الْفَرَشِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَصَارَ/ يَجْلِسُ فِيهِ ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ فِيهِ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ اضْطَرَبَ مِنْهَا الْمَاءُ ، فَانْقَلَبَ الْقَصْرُ وَتَكَسَّرَ ، فَغَرِقَ هُوَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْقَصْرِ .^٣

(a) بولاق : جعل . (b) بولاق : فشق . (c) الأصل : واحد . (d) بولاق : قطرا ، Wiet : ناظرا . (e) بولاق :

تدرشان ، النويري : ندرسان .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١١ ؛ المسعودي : أخبار الزمان ١١٩ - ١٢٠ .

^٢ نفسه ١٥ : ١١ - ١٢ ؛ نفسه ١٢٠ - ١٢١ ، والقاطر

هو الكاهن الذي يتعبد للكواكب السبعة المدبرة ، لكل

كوكب سبع سنين ، فإذا بلغ هذه الرتبة سمي قاطرا ، وكان

يجلس مع الملك في المرتبة ويصدر الملك عن رأيه ، وإذا راه قام

له (النويري : نهاية ١٥ : ٤٠) .

^٣ نفسه ١٥ : ١٢ - ١٣ ؛ وقارن المسعودي : أخبار ١٢١ .

- وَمَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ نَمْرُودَ الْجَبَّارَ، وَيُقَالُ شَمْرُودُ بْنُ هَوْصَالٍ، فَأَحْسَنَ السَّيْرَةَ وَأَنْصَفَ الرِّعِيَّةَ وَبَسَطَ الْعَدْلَ، وَجَمَعَ إِخْوَتَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِمْ كَنُوزَ أَخِيهِمْ، فَسَرَّ النَّاسُ بِهِ؛ وَطَلَبَ امْرَأَةً أُخِيهِ السَّاحِرَةَ فَفَرَّتْ^(a) بَابِنَهَا إِلَى مَدِينَةِ بِلَادِ الصُّعَيْدِ، وَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِ بِسِحْرِهَا، وَأَقَامَتْ مُدَّةً، فَاجْتَمَعَ^(b) السَّحَرَةُ إِلَى ابْنِهَا - وَكَانَ اسْمُهُ تَوْمِيدُونَ^١ - وَحَمَلُوهُ عَلَى طَلَبِ الْمَلِكِ، فَسَارَ وَخَرَجَ إِلَيْهِ شَمْرُودُ وَإِخْوَتُهُ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا عَظِيمًا كَانَ فِيهِ الظُّفْرُ لِتَوْمِيدُونَ فَقَتَلَهُ، وَمَلَكَ مِنْ بَعْدِهِ^٢.
٥. فَمَاتَ تَوْمِيدُونَ بْنُ تَدْرِيسَانَ بِالْمَلِكِ فِي مَدِينَةِ أَمْشُوسَ، وَكَانَ عَالِمًا فَاضِلًا، فَتَقَوَّى بِسِحْرِ أُمِّهِ، وَعَمِلَتْ لَهُ أَعْمَالًا عَجَبِيَّةً، مِنْهَا قُبَّةٌ مِنْ زُجَاجٍ عَلَى هَيْئَةِ الْكُرَّةِ، تَدُورُ بِدَوْرَانِ الْفَلَكَ، وَصُوِّرَتْ فِيهَا صُورُ الْكَوَاكِبِ، فَكَانُوا يَعْرِفُونَ بِهَا أَسْرَارَ الطَّبَائِعِ وَعُلُومِ الْعَالَمِ.
١٠. فَلَمَّا مَاتَتْ أُمُّهُ السَّاحِرَةَ بَعْدَ سِتِينَ سَنَةً مِنْ مُلْكِهِ، طَلَى جَسَدَهَا بِمَا يَدْفَعُ عَنْهُ النَّتْنَ وَالْحَشْرَاتَ، وَدُفِنَتْ تَحْتَ صَنْمِ الْقَمَرِ. وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ مَوْتِهَا يُسْمَعُ مِنْ عِنْدِهَا صَوْتُ بَعْضِ الْأَزْوَاجِ، وَتُخْبِرُهُمْ بِعَجَائِبِهَا، وَتُجِيبُ عَمَّا تُسْأَلُ عَنْهُ.
١٥. وَلَمَّا مَاتَ تَوْمِيدُونَ بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ مُلْكِهِ، عُجِلَ لَهُ صُورَةٌ مِنْ زُجَاجٍ مَقْسُومَةٌ نِصْفَيْنِ، وَأُدْخِلَ فِيهَا بَعْدَ مَا طَلَى بِالْأَدْوِيَةِ الْمَانِعَةِ مِنَ النَّتَنِ، وَأُطْبِقَتْ الصُّورَةُ عَلَيْهِ حَتَّى التَّحَمَّتْ، وَأُقِيمَ فِي هَيْكَلِ الْأَصْنَامِ، وَدُفِنَتْ كُنُوزُهُ عِنْدَهُ، وَصَارَ يُعْمَلُ لَهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ عِيدٌ^٣.
٢٥. وَمَلَكَ بَعْدَ ابْنِهِ شَرِيَاقَ، وَيُقَالُ لَهُ شَرْنَاقَ، وَكَانَ كَأَيِّهِ فِي عِلْمِ الْكَهَانَةِ وَالسَّحْرِ وَالطَّلْسُمَاتِ، فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجَبِيَّةً، مِنْهَا عَلَى بَابِ مَدِينَةِ أَمْشُوسَ هَيْئَةٌ بَطَّةٌ مِنْ نُحَاسٍ قَائِمَةٌ عَلَى أُسْطُوَانَةٍ إِذَا دَخَلَ غَرِيبٌ مِنْ نَاحِيَةِ مِنَ النَّوَاحِي صَفَّقَتْ بِجَنَاحَيْهَا وَصَرَخَتْ، فَيُؤْخَذُ ذَلِكَ الْغَرِيبُ وَيُكْشَفُ أَمْرُهُ حَتَّى يُعْرَفَ فِيمَا قَدِمَ. وَشَقَّ مِنَ النَّيْلِ نَهْرًا يَمُرُّ إِلَى مَدَائِنِ الْغَرْبِ، وَبَنَى عَلَيْهِ أَعْلَامًا وَمُدُنًا وَمُنْتَزَهَاتٍ^٤.
٢٠. وَسَارَ مَلِكٌ مِنْ بَنِي مَرَّاشِي^(c) بَنِ آدَمَ، وَيُقَالُ مِنْ بَنِي صَوَائِنِي بَنِ آدَمَ، خَرَجَ مِنْ نَاحِيَةِ الْعِرَاقِ فِي أَيَّامِهِ، وَغَلَبَ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ، وَقَصَدَ مِصْرَ لِيَأْخُذَ مُلْكَهَا فَقِيلَ لَهُ إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَيْهَا لِسِحْرِ

(a) بولاق : ففرت منه . (b) بولاق : واجتمع . (c) بولاق : فراشي .

^١ اقترح قُيِّتَ أَنْ صَحَّحَ اسْمَهُ : بوسيدون . ^٣ نفسه ١٥ : ١٣ - ١٤ ؛ وقارن المسعودي : أخبار

^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٣ ؛ المسعودي : أخبار ١٢٢ - ١٢٣ .

الزمان ١٢٢ ؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٤٠٧ . ^٤ نفسه ١٥ : ١٥ ، ١٦ ؛ المسعودي : أخبار ١٢٣ ، ١٢٥ .

أهلها . فتتكر ودخل في جماعة من خواصه ليكشف حال أهل مصر ، فلما وصل إلى أول حد مصر حبسه الموكلون بذلك الحد هو ومن معه حتى يأمر الملك فيهم بأمره ، وبعثوا إليه بصفتهم ؛ وكان قد رأى في منامه كأنه على منار عالٍ ، وكان طائرًا عظيمًا انقض عليه ليخطفه فحاذ عنه حتى كاد يسقط من المنار ، فجاوزه الطائر وسليم منه ؛ فانتبه مذعورًا وقص رؤياه على كبير الكهنة ، فقال : يطلبك ملك ولا يقدر عليك . ونظر في نجومه فرأى الملك الذي يطلب ملكه قد دخل إلى مصر ، وكان ذلك هو الوقت الذي قدم عليه فيه الرسل بصفات الدين وصلوا إلى حد مصر ، فأمر بإحضارهم إليه بعدما يطاف بهم على عجائب مصر كلها ليرؤوها ؛ فأوقفهم وساروا بهم ، وأوقفهم على عجائب أرض مصر وما فيها من الطلسمات ، حتى بلغوا إلى الإسكندرية ، ثم إلى أمسوس ، ثم إلى الجنة التي عملها مضرام - وكان الملك شريكًا مقيمًا بها - فعندما وصلوا إليها أظهرت السحرة الثمائل العجيبة ، فدخلوا عليه وحوله الكهنة وبين يديه نارٌ ، لا يصل إليه أحد حتى يخوضها ، فمن كان بريئًا لم تضربه ، ومن كان يريد بالملك سوءًا أو أضمر له مكروها أخذته النار .

فشق القوم في وسط النار واحدًا بعد واحد من غير أن تضربهم ، حتى انتهى الأمر إلى ملك العراق ، فعندما دنا من النار أخذته بحرّها فولّى هاربًا ، فأتبعوه حتى أخذوه وأوقفوه بين يدي شريك ، فلم يزل به حتى اعترف ، فأمر بصليبه ، فضلب على الحصن الذي أخذ منه ، ونودي عليه : « هذا جزاء من طلب ما لا يصل إليه » ، وعفا عن الباقي فساروا من مضر وتحدثوا بما رأوه من العجائب ، فانقطع طمع ملوك الأرض عن طلب ملك مصر^١ .

ومات شريك بعدما ملك مصر مائة سنة وثلاث سنين^(a) ، فجعل في ناؤوس ومعه أمواله وطلسم يحفظه ممن يقصده .

وملك بعده ابنه شهلوق ، فكان عالمًا بالكهانة والطلسمات ، فقسم ماء النيل مؤزونا ينصرف إلى كل ناحية قسطنطها ، ورثب الدولة ، وعمل بيت نارٍ ، وهو أول من عبد النار ، وعمل

(a) بولاق : مائة وثلاثين سنة .

^١ التويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٥ - ١٦ .

بِأَمْشُوسَ عَجَائِبَ ، مِنْهَا شَجَرَةٌ عَلَى أَعْلَى الْجِبَالِ تُقَسِّمُ بِهَا الرِّيحَ الَّتِي تَمْنَعُ مِنْ أَرَادِ مِصْرَ بِأَذَى أَوْ فَسَادٍ مِنْ جِنِّي أَوْ إِنْسِي أَوْ سَبْعٍ أَوْ طَائِرٍ .

وَعَمِلَ بِالْمَدِينَةِ قُبَّةٌ مُرَكَّبَةٌ عَلَى سَبْعَةِ أَرْكَانٍ ، وَلَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ رُكْنٍ بَابٌ ، وَفِي وَسْطِ الْقُبَّةِ قُبَّةٌ مِنْ صُفْرِ ، وَفِي أَغْلَاهَا صُورُ الْكِرَاكِبِ الشَّبَعَةِ ، وَتَحْتَ الْقُبَّةِ قُبَّةٌ أُخْرَى مُعَلَّقَةٌ عَلَى سَبْعِ أَسَاطِينٍ ؛ وَعَلَى الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقُبَّةِ [صُورَةٌ]^a أَسَدٌ وَلَبْوَةٌ مِنْ صُفْرِ وَهُمَا رَابِضَانِ ، كَانَ يَذْبَحُ لِهَمَا جَزْوَءًا أَسْوَدَ وَيُخْرَهُمَا بِشَعْرِهِ . وَعَلَى الْبَابِ الثَّانِي ثَوْرٌ وَبَقْرَةٌ يَذْبَحُ لِهَمَا عِجْلًا وَيُخْرَهُمَا بِشَعْرِهِ . وَعَلَى الْبَابِ الثَّلَاثِ خِنْزِيرٌ وَخِنْزِيرَةٌ يَذْبَحُ لِهَمَا خِنْصًا وَيُخْرَهُمَا بِشَعْرِهِ . وَعَلَى الْبَابِ الرَّابِعِ كَبْشٌ وَشَاةٌ يَذْبَحُ لِهَمَا سَخْلَةً وَيُخْرَهُمَا بِشَعْرِهِمَا . وَعَلَى الْبَابِ الْخَامِسِ ثَغْلَبٌ وَثَغْلَبَةٌ يَذْبَحُ لِهَمَا فَرْخٌ / ثَغْلَبٌ وَيُخْرَهُمَا بِشَعْرِهِ . وَعَلَى الْبَابِ السَّادِسِ عُقَابٌ وَأُنثَاهُ يَذْبَحُ لِهَمَا فَرْخٌ عُقَابٌ وَيُخْرَهُمَا بِرِيشِهِ . وَعَلَى الْبَابِ السَّابِعِ نَسْرٌ وَأُنثَاهُ يَذْبَحُ لِهَمَا فَرْخٌ نَسْرٌ وَيُخْرَهُمَا بِرِيشِهِ وَيُلَطِّخُ كُلًّا مِنْهُمَا بِدَمٍ مَا ذُبِحَ لَهُ ، وَتُحْرَقُ سَائِرُ الْقَرَايِينِ ، وَيُوضَعُ رَمَادُهَا تَحْتَ عَتَبَاتِ أَبْوَابِ الْقُبَّةِ ، وَجَعَلَ لِهَذِهِ الْقُبَّةِ سِدَنَةً يُشْعِلُونَ الْمَصَابِيحَ لَيْلًا وَنَهَارًا^١ .

وَقَسَّمَ النَّاسَ بِمِصْرَ سَبْعَ مَرَاتِبٍ ، لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْهُمْ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ تِلْكَ الْقُبَّةِ ، فَكَانَ الْخِصْمُ إِذَا تَقَدَّمَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الصُّورِ ، وَكَانَ ظَالِمًا ، فَإِنَّهُ يَلْتَصِقُ بِهَا وَلَا يَتَخَلَّصُ مِنْهَا حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ : الذُّكْرُ لِلذُّكْرِ ، وَالْأُنْثَى لِلْأُنْثَى ، فَيَعْرِفُونَ بِذَلِكَ الظَّالِمَ مِنَ الْمَظْلُومِ . وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْقُبَّةُ بِأَمْشُوسَ حَتَّى أَزَالَهَا الطُّوفَانُ^٢ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ رَأَى أَبَاهُ فِي النَّوْمِ وَهُوَ يَأْمُرُهُ أَنْ يَنْطَلِقَ إِلَى جَبَلٍ وَصَفَّهُ لَهُ مِنْ جِبَالِ مِصْرَ ، فَإِنَّ فِيهِ كُوَّةً صِفَتْهَا كَذَا ، عَلَى بَابِهَا أَفْعَى لَهَا رَأْسَانِ ، إِذَا أَقْبَلَ إِلَيْهَا كَثُرَتْ فِي وَجْهِهِ . فَخَذَ مَعَكَ طَائِرَيْنِ صَغِيرَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى فَاذْبَحَهُمَا لَهَا ، وَأَلْقَمَهَا إِيَّاهُمَا ، فَإِنَّهَا تَأْخُذُ بِرَأْسَيْهِمَا وَتَنْتَحِي بِهِمَا إِلَى سَرَبٍ . فَإِذَا غَابَتْ ادْخُلِ الْكُوَّةَ تَجِدُ فِيهَا امْرَأَةً عَظِيمَةً مِنْ نُورِ حَارِّ يَابِسٍ ، فَإِنَّهَا تَسْطَعُ لَكَ وَتَحْسُ بِحَرَارَتِهَا فَلَا تَدْنُ مِنْهَا تَحْتَرِقُ ، وَلَكِنْ اقْعُدْ جِدَائِعَهَا ، وَسَلِّمْ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهَا تُخَاطِبُكَ فَافْهَمْ مَا تَقُولُ لَكَ وَاعْمَلْ بِهِ ، فَإِنَّكَ تَشْرَفُ بِذَلِكَ ، وَتَدُلُّكَ عَلَى كُنُوزٍ جَدِيدٍ مِضْرَامٍ ، فَإِنَّهَا حَافِظَةٌ لَهَا .

(a) زيادة من النويري .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٩ ؛ وقارن المسعودي : ^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٩ - ٢٠ .

أخبار الزمان ١٢٦ - ١٣٠ .

فلما انتبه عميل ما أمره أبوه ، فلما قعد بجانب المرأة وسلم ، قالت له : أتعرّفني ؟ قال : لا ؛ قالت : أنا صورة النار المعبودة في الأمم الخالية ، وقد أرذت أن تُحبي ذكري ، وتُجدد لي بيتا تقدي لي فيه نارا دائمة بقدر واحد ، وتتخذ لها عيدا في كل سنة تحضره أنت وقومك ، فإنك تتخذ بذلك عندي يدا أنيلك بها شرفا إلى شرفك^a ، ومُلُكا إلى مُلكك ، وأمنع عنك من يطلُبك بسوء ، وأدلك على كنوز جدك مضرام .

فضمين لها أن يفعل كل ما أمرته به ، فدلته على الكنوز التي تحت المدائن المعلقة ، وعلمته كيف يصير إليها وكيف يختبر من الأزواج الموكلة بها وما يُنجيه منها . ثم قال لها : كيف لي بأن أراك في وقت آخر ؟ قالت : لا تعد ، فإن الأفعى لا تُمكنك ، ولكن بخر في بيتك بكذا فإنني أتيك ؛ فسر بذلك ، وغابت عنه ، وخرج ، ففعل ما أمرته به من عملي بيت النار ، وأخذ كنوز مضرام^١ .

ولما مات جعل في ناؤوس ومعه سائر أمواله^a وكنوزه ، وجعل عليه طلسم يحفظه ممن يقصده .

وملك بعده ابنه سُوريد ، وكان حكيما فاضلا ، وهو أول من جتبى الخراج بمصر ، وأول من أمر بالإنفاق على المرضى والزمنى من خزائنه ، وأول من سن رُقعة الصباح ؛ وعميل أعمالا عجيبة ، منها مِرآة من أخلاط كان ينظر فيها إلى الأقاليم فيعرف فيها ما حدث من الحوادث ، وما يخضب منها وما يجذب . وأقام هذه المِرآة في وسط مدينة أمسوس ، وكانت من نحاس^٢ .

وعميل في أمسوس صورة امرأة جالسة في حجرها صبي ترضعة ، وكانت المرأة من نساء مصر إذا أصابتها علة في موضع من جسمها أتت هذه الصورة ومسحت ذلك الموضع من جسدها بمثل ذلك الموضع من الصورة فتزول عنها العلة ، وإن قل لبثها مسحت ثديها بثدي الصورة فيغزر لبثها ، وإن قل حيضها مسحت فرجها بفرج الصورة فيكثر حيضها ، وإن كثرت دمها مسحت أسفل ركبها بمثل ذلك من الصورة ، وإن عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبي الذي في حجر الصورة فتضع حملها ، وإن أرادت التحبب إلى زوجها مسحت وجهها وتقول أفعلي كذا وكذا ،

(a) ساقطة من الأصل .

فَإِذَا وَضَعَتْ الزَّائِيَّةُ يَدَهَا عَلَيْهَا ارْتَعَدَتْ حَتَّى تَتُوبَ . وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الصُّورَةَ إِلَى أَنْ أزالَهَا الطُّوفَانُ ،
وَفِي كُتُبِ الْقِبْطِ أَنَّهَا وُجِدَتْ بَعْدَ الطُّوفَانِ ، وَأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَبَدُوهَا ^١ .

وَعَمِلَ سُورِيدُ صَنَمًا مِنْ أَخْلَاطٍ كَثِيرَةٍ ، فَكَانَ مِنْ أَصَابِئِهِ عِلَّةٌ فِي مَوْضِعٍ مِنْ جَسَدِهِ غَسَلَ
ذَلِكَ الْمَوْضِعَ مِنَ الصَّنَمِ بِمَاءٍ وَشَرِبَ الْمَاءَ فَإِنَّهُ يَبْرَأُ .

٥ وَسُورِيدُ هَذَا هُوَ الَّذِي بَنَى الْهَرَمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ بِمِصْرَ الْمَنَسُويَيْنِ إِلَى شَدَّادِ بْنِ عَادٍ ، وَالْقِبْطُ تُنْكِرُ
أَنْ تَكُونَ الْعَادِيَّةَ دَخَلَتْ بِلَادَهُمْ لِقُوَّةِ سِحْرِهِمْ ^٢ . وَلَمَّا مَاتَ سُورِيدُ دُفِنَ فِي الْهَرَمِ وَمَعَهُ كُنُوزُهُ ؛
وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ قَبْلَ الطُّوفَانِ بِثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَإِنَّهُ مَلَكَ مِائَةَ سَنَةٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً .

فَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ هَرَجِيبٌ ، وَكَانَ كَأَبِيهِ حَكِيمًا فَاضِلًا فِي عِلْمِ السِّحْرِ وَالطَّلُّسُمَاتِ ،
فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً ، وَاسْتَخْرَجَ مَعَادِنَ كَثِيرَةً ، وَأَظْهَرَ عِلْمَ الْكِيمِيَاءِ ، وَبَنَى أَهْرَامَ دَهْشُورِ ^(a)
١٠ وَحَمَلَ إِلَيْهَا أَمْوَالًا عَظِيمَةً وَجَوَاهِرَ نَفِيسَةً وَعَقَاقِيرَ وَسُمُومَاتٍ ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا رُوحَانِيَاتٍ
تَحْفَظُهَا .

وَشَجَّ رَجُلٌ رَجُلًا فَأَمَرَ بِقَطْعِ أَصَابِعِهِ ، وَسَرَقَ رَجُلٌ مَالًا فَمَلَكَ الْمَسْرُوقَ لَهُ رِقَّ الشَّارِقِ . وَلَمَّا
مَاتَ دُفِنَ فِي الْهَرَمِ وَمَعَهُ جَمِيعُ أَمْوَالِهِ وَذَخَائِرِهِ ^٣ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَنَاوَسٌ ، وَيُقَالُ مَنَّقَاوَسٌ ، وَكَانَ كَأَبِيهِ فِي الْحِكْمَةِ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ جَبَّارًا
فَاسِقًا سَفَاكًا لِلدَّمَاءِ ، يَنْتَزِعُ النِّسَاءَ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ وَيُبِيحُ ذَلِكَ لِحَوَاصِهِ .
١٥

وَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً ، وَاسْتَخْرَجَ كُنُوزًا ، وَبَنَى قُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، وَأَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارَ ،
وَجَعَلَ حَصْبَاءَهَا مِنْ أَصْنَافِ الْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، وَسَلَّطَ رَجُلًا جَبَّارًا اسْمُهُ قِرْنَسٌ عَلَى النَّاسِ ،
وَوَجَّهَهُ لِمُحَارَبَةِ الْأُمَمِ الْغَرِيبَةِ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلَائِقَ ^٤ .

وَلَمَّا مَاتَ دُفِنَ فِي بَعْضِ قُصُورِهِ وَمَعَهُ أَمْوَالُهُ ، وَعَمِلَ عَلَيْهِ طَلُّسُمٌ يَحْفَظُهُ وَيَمْنَعُهُ مِنْ كُلِّ طَالِبٍ .
٢٠ / وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ أَفْرُوسٌ ، وَكَانَ كَأَبِيهِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَمَّا مَلَكَ أَظْهَرَ الْعَدْلَ وَأَحْسَنَ
السِّيَرَةَ ، وَرَدَّ النِّسَاءَ اللَّاتِي غُصِبْنَ فِي أَيَّامِ أَبِيهِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ .

(a) الأصل : دهشون .

^٣ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٣٤ .^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٢٠ - ٢١ .^٤ نفسه ١٥ : ٣٤ - ٣٥ .^٢ فيما تقدم ١ : ١١١ .

وَعَمِلَ قُبَّةً^(a) طُولُهَا خَمْسُونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ مِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَرَكَّبَ فِي جَوَانِبِهَا طُيُورًا مِنْ صُفْرِ
تُصَفِّرُ بِأَصْوَاتٍ مُطَرَّبَةٍ مُخْتَلِفَةٍ لَا تَفْتُرُ سَاعَةً . وَعَمِلَ فِي وَسْطِ مَدِينَةِ أَمْسُوسٍ مَنَارًا عَلَيْهِ رَأْسُ
إِنْسَانٍ مِنْ صُفْرِ ، كُلَّمَا مَضَى مِنَ النَّهَارِ أَوْ اللَّيْلِ سَاعَةً صَاحَ صَيْحَةً يَعْلَمُ مِنْ سَمِعِهَا بِمُضِيِّ سَاعَةٍ .
وَعَمِلَ مَنَارًا عَلَيْهِ قُبَّةٌ مِنْ صُفْرِ مُذْهَبٍ وَلَطَّخَهَا بِلَطُوحَاتٍ ، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ^(b) فِي كُلِّ لَيْلَةٍ^(b)
اشْتَعَلَتِ الْقُبَّةُ نُورًا تُضِيءُ لَهُ مَدِينَةُ أَمْسُوسٍ طَوَّلَ اللَّيْلِ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ النَّهَارِ ، لَا تُطْفِئُهَا الرِّيَّاحُ وَلَا
الْأَمْطَارُ ، فَإِذَا طَلَعَ النَّهَارُ خُيِمَ ضَوْءُهَا .

وَأَهْدَى لِبَعْضِ مُلُوكِ بَابِلَ مَذْهَبًا مِنْ زَبْرُجَدٍ قَطْرُهُ خَمْسَةَ أَشْبَارٍ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ وَجِدَ بَعْدَ الطُّوفَانِ .
وَعَمِلَ فِي الْجَبَلِ الشَّرْقِيِّ صَنْمًا عَظِيمًا قَائِمًا عَلَى قَاعِدَةٍ ، وَهُوَ مَصْبُوعٌ مُصَفَّرٌ بِالذَّهَبِ ،
وَوَجَّهَهُ إِلَى الشَّمْسِ يَدُورُ مَعَهَا حَتَّى تَغْرُبَ ، ثُمَّ يَدُورُ لَيْلًا حَتَّى يُحَازِي الْمَشْرِقَ مَعَ الْفَجْرِ ، فَإِذَا
أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ اسْتَقْبَلَهَا بِوَجْهِهِ .

وَبَنَى بِصَحْرَاءِ الْغَرْبِ مَدْنًا كَثِيرَةً ، وَأَوْدَعَهَا كَنُوزًا عَظِيمَةً ، وَنَكَّحَ ثَلَاثَ مِائَةِ امْرَأَةٍ ، وَلَمْ يُوَلِّدْ
لَهُ وَوَلَدٌ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ قَدْ أَعْقَمَ الْأَرْحَامَ لِمَا يُرِيدُ مِنْ إِهْلَاكِ الْعَالَمِ بِالطُّوفَانِ ، وَوَقَعَ الْمَوْتُ فِي
النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ^١ .

وَلَمَّا مَاتَ وَضِعَ فِي نَاوُوسٍ بِالْجَبَلِ الشَّرْقِيِّ وَمَعَهُ أَمْوَالُهُ ، وَطَلَّسَتْ عَلَيْهِ .
وَمَلَكَ بَعْدَهُ أَرْمَالِينُوسُ ، فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً ، وَبَنَى مَدْنًا وَمَصَانِعَ ، وَجَدَّدَ الطَّلْسِمَاتِ .
وَكَانَ لَهُ ابْنٌ عَمٌّ يُسَمَّى فِرْعَانَ ، وَكَانَ جَبَّارًا ، فَأَبْعَدَهُ وَجَعَلَهُ عَلَى جَيْشٍ سَارَ بِهِ عَنْهُ ، فَفَقَهَرَ مُلُوكًا
وَقَتَلَ أُمَّمًا عَظِيمَةً ، وَغَنِمَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً وَعَادَ ، فَشَغِفَتْ بِهِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْمَلِكِ ، وَمَا زَالَتْ بِهِ حَتَّى
اجْتَمَعَ بِهَا وَتَأَلَّفَا وَأَقَامَا عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً ، فَخَافَا الْمَلِكَ أَنْ يَفْطِنَ بِهِمَا ، فَعَمِلَتِ الْمَرْأَةُ لِأَرْمَالِينُوسِ
سُمًّا فِي شَرَابِهِ هَلَكَ مِنْهُ^٢ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُ عَمِّهِ فِرْعَانَ بْنِ مَسُورٍ ، فَلَمْ يُنَازِعْهُ أَحَدٌ لِشَجَاعَتِهِ وَسِيَاسَتِهِ ، وَلَمْ تَطَّلِ
أَعْوَامُهُ حَتَّى رَأَى فُلَيْمُونُ الْكَاهِنُ كَأَنَّ طُيُورًا بِيضًا قَدْ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ وَهِيَ تَقُولُ : «مَنْ أَرَادَ
النَّجَاةَ فَلْيَلْحَقْ بِصَاحِبِ السَّفِينَةِ» .

(a) النويري : فوارة . (b-b) ساقط من الأصل .

^٢ نفسه ١٥:٣٨-٣٩ .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥:٣٥-٣٦ .

وكان عندهم عِلْمٌ بِحُدُوثِ الطُّوفَانِ مِنْ أَيَّامِ سُورِيدِ وَبِنَائِهِ الأَهْرَامَ لِأَجْلِ ذَلِكَ ، وَاتَّخَذَ النَّاسُ سَرَادِيْبَ تَحْتَ الأَرْضِ مُصَفَّحَةً بِالزُّجَاجِ قَدْ حُبِسَتْ الرِّياحُ فِيهَا بِتَدْيِيرِ ، وَعَمِلَ مِنْهَا فِرْعَانٌ لِنَفْسِهِ وَلِأَهْلِهِ عِدَّةً^١ . فَمَا كَذَّبَ أَنْ جَمَعَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَتِلَامِيذَهُ ، وَلَحِقَ بَنُوحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَآمَنَ بِهِ ، وَأَقَامَ مَعَهُ حَتَّى رَكِبَ فِي السَّفِينَةِ .

٥. وَجَاءَ الطُّوفَانُ فِي أَيَّامِ فِرْعَانَ فَأَغْرَقَ أَرْضَ مِصْرَ كُلَّهَا ، وَخَرَّبَ عَمَائِرَها ، وَأَزَالَ تِلْكَ المَعَالِمَ كُلَّهَا ، وَأَقَامَ المَاءُ عَلَيْهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَوَصَلَ إِلَى أَنْصَافِ الهَرَمَيْنِ العَظِيمَيْنِ . وَسَيَأْتِي خَبْرُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ ذِكْرِ مِصْرٍ مِنْ هَذَا الكِتَابِ .

وَيُقَالُ إِنَّ فِرْعَانَ كَانَ عَاتِيًا مُتَجَرِّعًا^(a) يَغْصِبُ الأَمْوَالَ والنِّسَاءَ ، وَإِنَّهُ كَتَبَ إِلَى الدَّرْمَسْتِيلِ بْنِ مَحْوِيلِ بِيَابِلَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِقَتْلِ نُوحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَنَّهُ اسْتَخَفَّ بِالكَهَنَةِ وَالهَيَاكِلِ . فَفَسَدَتْ فِي أَيَّامِهِ أَرْضُ مِصْرَ ، وَنَقَصَ الزُّرْعُ ، وَأَجْدَبَتِ النَّوَاحِي ، لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي ضَلَالَةٍ وَظُلْمَةٍ ، وَإِقْبَالِهِ عَلَى لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ . وَأَنَّ النَّاسَ اقْتَدَوْا بِهِ فَفُشِيَ ظُلْمُهُمْ لِبَعْضِ . وَأَنَّهُ لَمَّا أَقْبَلَ الطُّوفَانُ وَسَحَّتِ الأَمْطَارُ ، قَامَ سَكْرَانٌ يُرِيدُ الهَرَبَ إِلَى الهَرَمِ ، فَتَخَلَّخَتْ الأَرْضُ بِهِ ، وَطَلَبَ الأَبْوَابَ فَخَانَتْهُ رِجْلَاهُ ، وَسَقَطَ يَخُورٌ حَتَّى هَلَكَ ، وَهَلَكَ مَنْ دَخَلَ الأَسْرَابَ بِالغَمِّ^٢ ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

(a) بولاق : متجبرًا .

و«قَيْصَر» لِمَلُوكِ بِيْزَنْطَةَ ، وَعَرَفَ العَرَبُ هَذَا اللِّقْبَ مِنْ الأَسْتِخْدَامِ القُرْآنِيِّ لَهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى (رَاجِعْ ، Vajda, G., El² art. Fir'awn II, pp. 938-39) . أَمَّا أَصْلُ كَلِمَةِ فِرْعَوْنَ كَمَا دَلَّ عَلَيْهَا كَشْفُ اللُّغَةِ المِصْرِيَّةِ القَدِيمَةِ (الهِيرُوغَلِيفِيَّةِ) فَهُوَ «فِرْعَا» per-â بمعنى «البَيْتِ الكَبِيرِ» وَالَّذِي كَانَ يَعْنِي فِي الأَصْلِ القِصْرَ كَمُؤَسَّسَةٍ ، ثُمَّ أَصْبَحَ يُطْلَقُ عَلَى شَخْصِ المَلِكِ اعْتِبَارًا مِنَ الدَّوْلَةِ الحَدِيثَةِ (Vernus, P., & Yoyotte, J., Dictionnaire de Pharaons, Editions Noesis 1996, pp. 116-20) .

^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٣٩ .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٣٩ - ٤٠ ، وَفِيهِ أَنَّهُ أَوَّلُ فِرْعَوْنَ تَسْمَى بِهَذَا الأَسْمِ وَمِنْ سُمِّيَ بَعْدَهُ سُمِّيَ تَشْبِيْهًُا بِهِ (نَفْسُهُ ١٥ : ٣٨) ؛ وَقَارَنَ المِصْرِيُّ : مَرُوجُ الذَّهَبِ ٢ : ٩٥ وَفِيهِ : «سَأَلْتُ جَمَاعَةً مِنَ أَقْبَاطِ مِصْرَ بِالصَّعِيدِ وَغَيْرِهِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ مِنْ أَهْلِ الخَيْرَةِ عَنِ تَفْسِيرِ فِرْعَوْنَ ، فَلَمْ يَخْبِرُونِي عَنِ مَعْنَى ذَلِكَ وَلَا تَحْصُلَ فِي لُغَتِهِمْ ؛ فِيمَكُنْ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنْ هَذَا الأَسْمَ كَانَ سَمَةً لِمَلُوكِ تِلْكَ الأَمْصَارِ وَأَنَّ تِلْكَ اللُّغَةَ تَغَيَّرَتْ كَتَغْيِيرِ الفَهْلُويَّةِ - وَهِيَ الفَارِسيَّةُ الأُولَى - إِلَى الفَارِسيَّةِ الثَّانِيَةِ ...» ؛ وَانظُرْ أَيْضًا فِيمَا يَلِي ٣٨٢ .

وَاسْتِخْدَمَ لِقَبِ «فِرْعَوْنَ» فِي المِصَادِرِ العَرَبِيَّةِ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى مَلُوكِ مِصْرَ القَدَمَاءِ فِي مِقَابِلِ لِقَبِ «كِشْرِي» لِمَلُوكِ فَارِسَ

ذِكْرُ مَدِينَةِ مَنْفٍ وَمُلُوكِهَا

هذه المدينة كانت في غربي النيل على مسافة اثني عشر ميلاً من مدينة فسطاط مصر، وهي أول مدينة عمّرت بأرض مصر بعد الطوفان، وصارت دار المملكة بعد مدينة أمشوس التي تقدم ذكرها، إلى أن أخربها بُخْت نَصْر^١.

وقد ذكّرها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [آية ١٥ سورة القصص]، قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب «جامع البيان في تفسير القرآن»: عن الشديّ أنّه قال: كان موسى - عليه السلام - حين كبر يركب كمراكب فزعون ويلبس مثل ما يلبس، وكان إنما يُدعى [موسى]^٥ بن فزعون. ثم إن فزعون ركب مراكباً وليس عنده موسى، فلما جاء موسى - عليه السلام - قيل له إن فزعون قد ركب فركب في أثره، فأدركه المقيّل في أرض يقال لها منف، فدخلها نصف النهار وقد تغلقت أسواقها وليس في طرقها أحد، وهي التي يقول الله جل ذكره: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾^٢.

وقال ابن عبد الحكم، عن عبد الله بن لهيعة: أول من سكن بمصر بعد أن أغرق^٥ الله قوم نوح - عليه السلام - ينصر بن حام بن نوح فسكن منف - وهي أول مدينة عمّرت بعد العرق^٥ - هو وولده، وهم ثلاثون نفساً، منهم أربعة أولاد قد بلغوا وتزوجوا، وهم: مصر وفارق وماج وياج بنو ينصر، وكان مصر أكبرهم، فبذلك سُميت مافه (ومافه بلسان القبط: ثلاثون). وكانت إقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم، ونقروا هناك منازل كثيرة^٣.

(a) زيادة من الطبري. (b) فتوح مصر: عرق. (c) بولاق: الطوفان.

Zivie, C., M., *Lexikon des Agyptologie* ٤٢٢: ١ art. Memphis IV, pp. 23-44; Haarmann, U., *El*² (art. Manf VI, pp. 395-99).

^٢ الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن (المطبعة الميمنية ١٩٠٣)، ٢٠: ٢٨.

^٣ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٩: المسعودي: مروج الذهب ٢: ٨٥ وأخبار الزمان ١٥٣.

^١ كانت مدينة منف تقع في أول الصعيد غربي النيل، وهي تعادل الآن قرية ميت زهينة التابعة للبدرشين في سفح هضبة سقارة، (راجع، البكري: جغرافية مصر ٦٩-٧٠؛ مجهول المؤلف: الاستبصار ٨٣؛ ياقوت: معجم البلدان ٢١٣: ٥-٢١٤؛ ابن دقماق: الانتصار ٤: ٩٢؛ القلقشندي: صبح ٣: ٣١٦؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٦: ٢-٤٧؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي

وقال ابنُ خُرَدَاذْبَه في كتاب «المَسَالِكِ والمَمَالِكِ»: ومَدِينَةُ مَنْفٍ هِيَ مَدِينَةُ فِرْعَوْنَ الَّتِي كَانَ يَنْزِلُهَا، وَاتَّخَذَ لَهَا سَبْعِينَ بَابًا مِنْ حَدِيدٍ، وَجَعَلَ حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْحَدِيدِ وَالصُّفْرِ. وَفِيهَا كَانَتِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ سَرِيرِهِ، وَهِيَ أَرْبَعَةٌ^١.

وَيُرْوَى أَنَّ مَدِينَةَ مَنْفٍ كَانَتِ قَنَايِطْرَ وَمَجْسُورًا بِتَدْيِيرٍ وَتَقْدِيرٍ، حَتَّى إِنْ الْمَاءَ لِيَجْرِي تَحْتِ مَنَازِلِهَا وَأَفْنِيَّتِهَا فَيَتَحْبَسُونَهُ كَيْفَ شَاءُوا وَيُرْسِلُونَهُ كَيْفَ شَاءُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ فِرْعَوْنَ ﴿الْأَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الآيَةُ ٥١ سُوْرَةُ الزَّخْرَفِ].

وَكَانَ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَصْنَامِ لَمْ تَزَلْ قَائِمَةً إِلَى أَنْ سَقَطَتْ فِيمَا سَقَطَ مِنَ الْأَصْنَامِ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَشَارَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْأَصْنَامِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، بِقَضِيْبٍ فِي يَدِهِ، وَهُوَ يَطُوفُ حَوْلَهَا وَيَقُولُ: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا»، فَمَا أَشَارَ إِلَى صَنْمٍ مِنْهَا فِي وَجْهِهِ إِلَّا وَقَعَ لِقْفَاهُ، وَلَا أَشَارَ لِقْفَاهُ إِلَّا وَقَعَ لَوَجْهِهِ، حَتَّى مَا بَقِيَ مِنْهَا صَنْمٌ إِلَّا وَقَعَ.

وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ سَقَطَتْ أَصْنَامُ الْأَرْضِ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ، وَبَقِيَ أَصْحَابُهَا مُتَعَجِّبِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَهَا سَبَبًا أَوْجَبَ سُقُوطَهَا، وَبَقِيَتْ أَصْنَامُ مَدِينَةِ مَنْفٍ سَاقِطَةً مِنْ سَاعَتِهِ، وَفِيهَا الصَّنَمَانِ الْكَبِيرَانِ الْمَجَاوِرَانِ لِلْبَيْتِ الْأَخْضَرِ الَّذِي كَانَ بِهِ صَنْمُ الْعَزِيزِ، وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ وَعَيْنَاهُ يَأْقُوتَانِ لَا يُقَدَّرُ عَلَى مِثْلِهِمَا. ثُمَّ قُطِعَتْ الْأَصْنَامُ وَالْبَيْتُ الْأَخْضَرُ مِنْ بَعْدِ سَنَةِ سِتِّ مِائَةٍ.

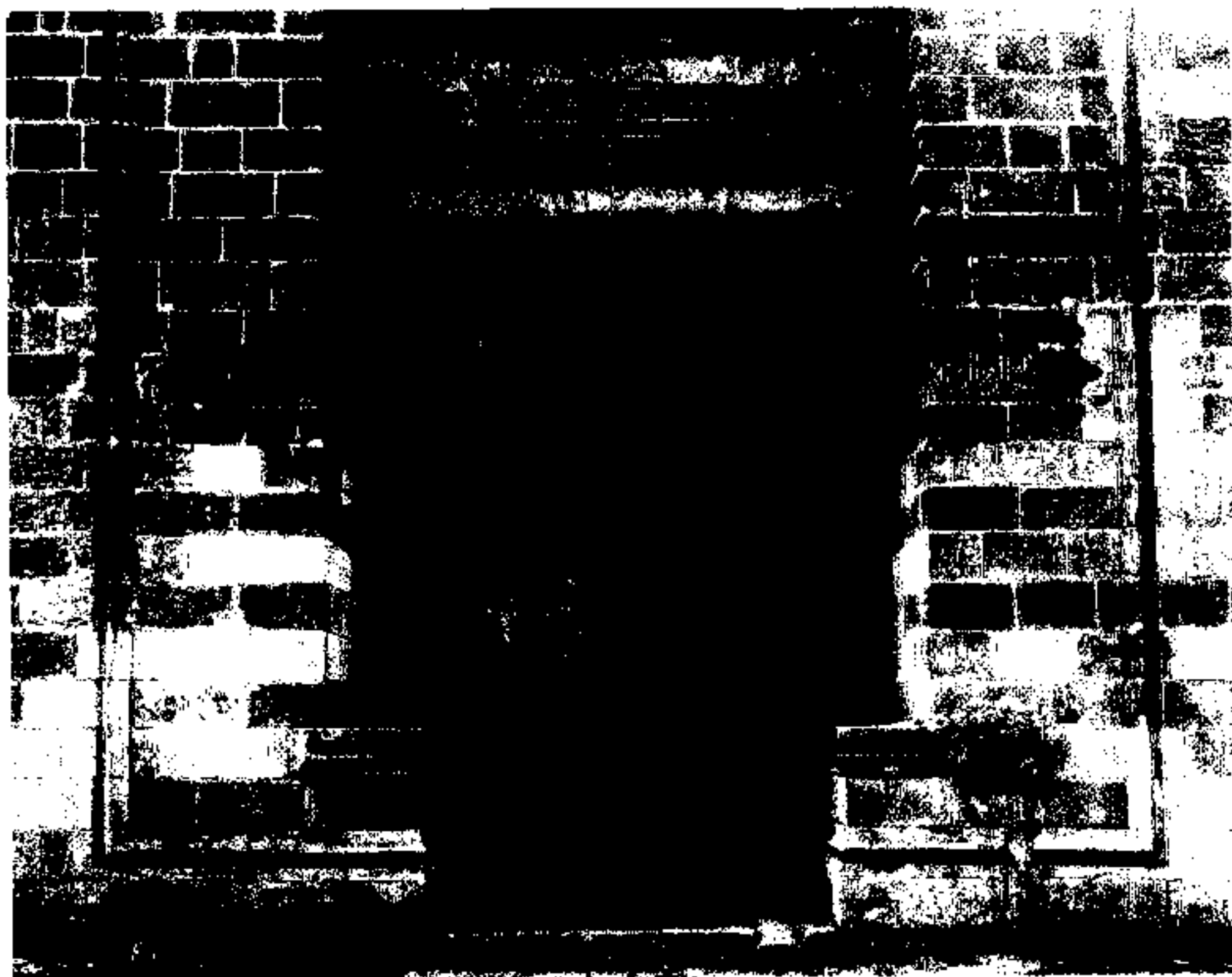
وَيُقَالُ كَانَتِ مَدِينَةُ مَنْفٍ^(a) ثَلَاثِينَ مِيْلًا طَوْلًا فِي عِشْرِينَ مِيْلًا عَرْضًا، وَإِنْ بَعْضُ بَنِي يَافِثِ بْنِ نُوحٍ عَمِلَ فِي أَيَّامِ مِصْرَإِيمَ آلَةَ تَحْمِيلِ الْمَاءِ حَتَّى تُلْقِيَهُ عَلَى أَعْلَى سُورِ مَدِينَةِ مَنْفٍ. وَذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَهَا دَرَجًا مُجَوَّفَةً كُلَّمَا وَصَلَ الْمَاءُ إِلَى دَرَجَةِ امْتَلَأَتِ الْأُخْرَى، حَتَّى يَصْعَدَ الْمَاءُ إِلَى أَعْلَى السُّورِ، ثُمَّ يَنْحَطُّ فَيَدْخُلُ جَمِيعَ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ.

وَكَانَ بِمَنْفٍ بَيْتٌ مِنَ الصُّوَانِ الْأَخْضَرِ الْمَاتِعِ الَّذِي لَا يَعْمَلُ فِيهِ الْحَدِيدُ قِطْعَةً وَاحِدَةً، وَفِيهِ صُورٌ مَنقُوشَةٌ وَكِتَابَةٌ، وَعَلَى وَجْهِ بَابِهِ صُورٌ حَيَّاتٍ نَاشِرَةٌ صُدُورَهَا لَوْ اجْتَمَعَ أُلُوفٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى تَحْرِيكِهِ مَا قَدَرُوا لِعَظَمِهِ وَثِقَلِهِ. وَالصَّابِئَةُ تَقُولُ إِنَّهُ بَيْتُ الْقَمَرِ؛ وَكَانَ هَذَا الْبَيْتُ مِنْ جُمَّلَةِ سَبْعَةِ بُيُوتٍ كَانَتِ بِمَنْفٍ لِلْكُوَاكِبِ السَّبْعَةِ.

(a) ساقطة من بولاق.

^١ ابن خرداذبه: المسالك والممالك ١٦٦؛ وقارن ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٦، وأورد المقرئ في هذا النص فيما تقدم

وهذا البيتُ الأَخْضَرُ هَدَمَهُ الأميرُ سَيْفُ الدِّينِ شَيْخُو^(a) العُمَرِيُّ بعدَ سنةِ خمسينَ وسبعَ مائةَ ،
ومنه شيءٌ في خانقاهه وجامعِهِ الذي بَحَطَّ الصَّلِيْبِيَّةَ خارجَ القَاهِرَةِ^١ .

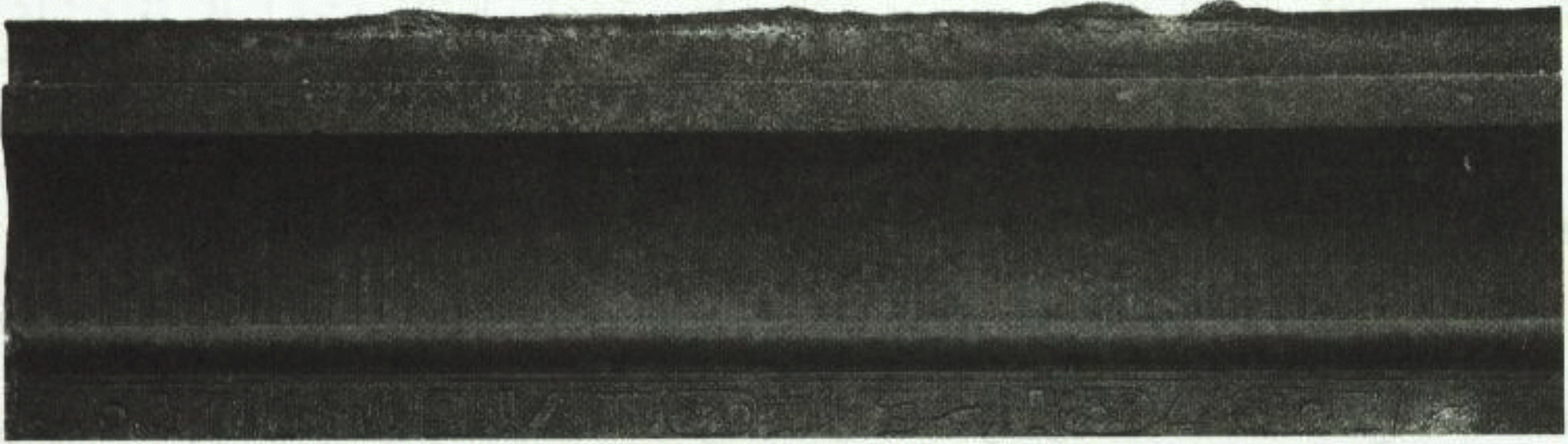


لوحة ١ - المدخل الرئيس لجامع شيخو وبأشكفته الحجر الفرعوني المستخدم

(a) بولاق : شيخون .

^١ انظر فيما يلي ٢: ٣١٣، ٤٢١ واللوحة رقم ١

وهذا البيت الأَخْضَرُ هَدَمَهُ الأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ شَيْخُو^(a) العَمْرِي بعد سنة خمسين وسبع مائة ،
ومنه شيءٌ في خانِقَاهِهِ وَجَامِعِهِ الَّذِي بَخُطِّ الصَّلِيْبَةِ خَارِجَ القَاهِرَةِ^١ .



لوحة ١ - المدخل الرئيس لجامع شيخو وبأشكفته الحجر الفرعوني المستخدم

(a) بولاق : شيخون .

^١ انظر فيما يلي ٢: ٣١٣، ٤٢١ واللوحه رقم ١

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الرَّحْمَنِ الْقَيْسِيُّ فِي كِتَابِهِ «تَحْفَةُ الْأَلْبَابِ»: وَرَأَيْتُ فِي قَصْرِ فِرْعَوْنَ مُوسَى بَيْتًا كَبِيرًا مِنْ صَخْرَةٍ وَاحِدَةٍ، أَحْضَرَ كَالْأَسِّ، فِيهِ صُورَةُ الْأَفْلَاقِ وَالنُّجُومِ، لَمْ نَرَ عَجَبًا أَحْسَنَ مِنْهُ ^١.

وقال أبو الصَّلْتِ أُمِّيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَنْدَلُسِيِّ: وَكَانَتْ دَارُ الْمَلِكِ بِمِصْرَ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ مَدِينَةً مَنَفٍ، وَهِيَ فِي غَرْبِيِّ النَّيْلِ عَلَى مَسَافَةِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا مِنَ الْقُسْطَاطِ. فَلَمَّا بَنَى الْإِسْكََنْدَرُ مَدِينَةَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ رَغِبَ النَّاسُ فِي عِمَارَتِهَا، فَكَانَتْ دَارَ الْعِلْمِ وَمَقَرَّ الْحِكْمَةِ إِلَى أَنْ فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَاخْتَطَّ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مَدِينَتَهُ الْمَعْرُوفَةَ بِالْقُسْطَاطِ، فَانْتَشَرَ أَهْلُ مِصْرَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ إِلَى سُكْنَاهَا، فَصَارَتْ قَاعِدَةً دِيَارِ مِصْرَ وَمَرْكَزَهَا إِلَى وَقْتِنَا هَذَا ^٢.

وقال الأُسْتَاذُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ وَصِيفِ شَاهِ الْكَاتِبِ، وَقَدْ ذَكَرَ أَخْبَارَ مَدِينَةِ أَمُسُوسَ وَخَرَابِ عَمَائِرِ أَرْضِ مِصْرَ بِطُوفَانِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: وَلَمَّا نَزَلَ الْمَاءُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ مَلَكَ مِصْرًا ^٣ بَعْدَ الطُّوفَانِ يَبْيَضُ بْنُ حَامِ بْنِ نُوحٍ، وَكَانَ مَعَهُ ثَلَاثُونَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدَيْهِ، فَاجْتَمَعُوا وَبَنَوْا مَدِينَةَ مَنَفٍ وَنَزَلُوا بِهَا. وَكَانَ فُلَيْمُونَ الْكَاهِنَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي خَبَرِ مَدِينَةِ أَمُسُوسَ مِنْ جُمْلَتِهِمْ، وَكَانَ قَدْ زَوَّجَ ابْنَتَهُ بَيْبِضَرَ الْمَذْكُورَ، وَجَاءَتْ مَعَهُ إِلَى مِصْرَ،

التأخرين - هو كتاب «أخبار مصر وعجائبها» لإبراهيم بن وصيف شاه (انظر فيما تقدم ٣٥٠). وقد حاول العالم المصري أحمد كمال باشا تصويب هذه الأسماء في مقال قديم Ahmad Kamal, «Notes sur la rectification des noms arabes des anciens rois d'Égypte», *BIE* 4° série-n°4 (1903), pp. 89-424 وعن المصادر المختلفة لهذه المعلومات انظر مقدمة جاستون فييت لكتاب Wiet, G., *L'Égypte de Murtadi fils de Gaphiph-Introduction, traduction et notes*, Paris 1953, pp. 1-47 ودراسة مايكل كوك Cook, M., «Pharaonic History in Medieval Egypt», *SI* 57 (1983), pp. 67-103.

^١ أبو حامد الفرناطي: تحفة الألباب ٧٨.

^٢ أمية بن عبد العزيز: الرسالة المصرية ٢٩.

^٣ لا نعرف على وجه الدقة المصادر الحقيقية التي استمد منها المؤلفون العرب المواد التي اعتمدوا عليها في ذكر أسماء الملوك المصريين القدماء - فيما عدا أسماء ملوك الأسرات التسعة الأخيرة (انظر فيما يلي ٣٨٩-٣٩١) - وجميع هذه الأسماء محرّفة ولا تتفق بالطبع مع ما ورد على الآثار وكشفت عنه الدراسات الحديثة. ووصلت هذه الأسماء إلى المؤلفين العرب عن طريق مؤلفات وسيطة، سواء مؤلفات يونانية روت التاريخ الأسطوري لمصر، أو ترجمات سريانية وقبطية لكتب يونانية مليئة بأخبار العجائب والمعجزات. والمصدر الرئيسي لهذه المعلومات - كما وردت عند المؤرخين

وَوَلَدَتْ مِنْهُ وَوَلَدًا سَمَّاهُ مِصْرَايِمَ^١.

فَلَمَّا مَاتَ بَيْتَصَرَ دُفِنَ فِي مَوْضِعٍ دَيْرِ أَبِي هِرْمِيسَ، وَيُقَالُ دَيْرُ أَبِي هِرْمِيسَ غَرْبِي الْأَهْرَامِ^٢، وَيُقَالُ إِنَّهَا أَوَّلُ مَقْبَرَةٍ دُفِنَ بِهَا بِأَرْضِ مِصْرَ. وَكَانَ مَوْتُهُ بَعْدَ أَلْفِ وَثَمَانِ مِائَةِ وَسِتِّ سِنِينَ مَضَتْ مِنْ وَقْتِ الطُّوفَانِ^٣.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ثُمَّ بَنَى مِصْرَايِمَ مَدِينَةً سَمَّاهَا بِاسْمِهِ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي يَافِثَ فَعَمِلَ لَهُ سُورًا قَائِمًا، وَصَنَعَ لَهُ دَرَجًا، وَأَجْرَى الْمَاءَ إِلَى أَنْ بَقِيَ يَصْعَدُ إِلَى أَعْلَى السُّورِ بِحِكْمَةٍ أَتَقْنَهَا، ثُمَّ يَنْزِلُ ذَلِكَ الْمَاءَ مِنْ أَعْلَى السُّورِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَيَنْتَفِعُ بِهِ فِيهَا بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا كُفَّةٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى؛ وَكَتَبَ عَلَى السُّورِ: هَذِهِ صَنْعَةٌ مِنْ يَمُوتُ لَا صَنْعَةٌ مِنْ يَدُومِ.

وَمَلَكَ بَعْدَ بَيْتَصَرَ ابْنُهُ مِصْرَايِمُ بْنُ بَيْتَصَرَ، فَأَظْهَرَهُ فُلَيْمُونُ الْكَاهِنِ عَلَى كُنُوزِ مِصْرَ وَعَلَّمَهُ قِرَاءَةَ حَطُّهُمْ، وَأَطْلَعَهُ عَلَى حِكْمِهِمْ. وَبَنَى مِصْرَايِمُ الْمُدْنَ، وَشَقَّ الْأَنْهَارَ، وَغَرَسَ الْأَشْجَارَ، وَبَنَى مَدِينَةً عَظِيمَةً سَمَّاهَا دَرْسَانَ، وَهِيَ الْعَرِيشُ، وَنَكَحَ امْرَأَةً مِنْ أَوْلَادِ الْكَهَنَةِ فَوَلَدَتْ لَهُ وَوَلَدًا^٤ سَمَّاهُ قُفْطِيمَ، وَبَنَى مَدِينَةً رَقُودَةَ مَكَانَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ^٥.

وَلَمَّا مَاتَ مِصْرَايِمُ جُعِلَ لَهُ سَرَبٌ طَوْلُهُ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ ذِرَاعًا وَبُسِطَ بِالْمَرْمَرِ الْأَبْيَضِ، وَعُمِلَ فِي وَسَطِهِ مَجْلِسٌ مُصَفَّحٌ بِصَفَائِحِ الذَّهَبِ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ مِنْ ذَهَبٍ قَوَائِمُهُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَنَقَشَ فِي صَدْرِ كُلِّ تِمثالِ آيَاتِ مَائِعَةٍ. وَحَبَسُوا جَسَدَهُ فِي جَسَدٍ مِنْ زَبَرْجَدٍ أَخْضَرَ، شِبْهَ تَابُوتٍ، طَوْلُهُ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، دُفِنَ فِيهِ وَمَعَهُ جَمِيعُ مَا كَانَ فِي خَزَائِنِهِ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَجَوْهَرٍ، مِنْهَا أَلْفُ قِطْعَةٍ مِنْ زَبَرْجَدٍ مَخْرُوطٍ، وَأَلْفُ تِمثالٍ مِنْ جَوْهَرِ نَفِيسٍ، وَأَلْفُ بَرْزِيَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٌ دُرًّا نَفِيسًا، وَأَلْفُ

(a) بولاق: ابنا.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٣، ٤٤.

^٣ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٨؛ وفيما تقدم ٥٤.

^٢ دير أبي هرميس هو الموضع المعروف الآن بسقارة (انظر

^٤ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٤٥-٤٦، وفيما يلي

آيَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَعِدَّةٌ سَبَائِكُ مِنْ فِضَّةٍ^١ . وَعَمِلَ عَلَيْهِ طَلْسَمٌ مَانِعٌ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَزَبَرُوا عَلَيْهِ :

«مَاتَ مِصْرَائِمُ بْنُ يَتِصْرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ بَعْدَ أَلْفَيْنِ وَسِتِّ مِائَةِ عَامٍ - وَقِيلَ بَعْدَ سَبْعِ مِائَةِ سَنَةٍ - مَضَتْ مِنَ الطُّوفَانِ ، وَلَمْ يَغْبُدِ الْأَصْنَامَ ، فَصَارَ إِلَى جَنَّةٍ لَا هِرْمَ فِيهَا وَلَا سِقَمَ ، وَلَا هَمَّ وَلَا حَزْنَ . وَكُتِبَ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَصِلَ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا مَلَكَ يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، يَدِينُ بَدِينِ الْمَلِكِ الدُّيَّانِ ، وَيُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَالْفُرْقَانِ ، وَالنَّبِيِّ الدَّاعِي إِلَى الْإِيمَانِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ» .

وَسَقَفُوا فَوْقَ الشَّرْبِ بِالصُّخُورِ الْعِظَامِ ، وَهَالُوا عَلَيْهِ الرَّمَالَ حَتَّى سَدُّوا بَيْنَ جَبَلَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ . وَيُقَالُ كَانَ مِصْرُ بْنُ يَتِصْرَ مَعَ جَدِّ أَبِيهِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي السَّفِينَةِ ، فَدَعَا لَهُ أَنْ يُسَكِّنَهُ اللَّهُ الْأَرْضَ الطَّيِّبَةَ الْمُبَارَكَةَ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْبِلَادِ وَغَوْثُ الْعِبَادِ وَنَهْرُهَا أَفْضَلُ الْأَنْهَارِ ، وَيَجْعَلُ لَهَا فِيهَا أَفْضَلَ الْبَرَكَاتِ ، وَيُسَخِّرْ لَهَا الْأَرْضَ وَلَوْلَدِهِ وَيَذَلِّلْهَا وَيُقَوِّمِهِمْ عَلَيْهَا ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَوَصَفَهَا لَهُ وَأَخْبَرَهُ بِهَا^٢ .

وَكَانَ يَتِصْرُ بْنُ حَامٍ قَدْ كَبُرَ وَضَعُفَ ، فَسَاقَهُ وَوَلَدَهُ مِصْرَائِمُ وَجَمِيعَ إِخْوَتِهِ إِلَى مِصْرَ فَنَزَلُوهَا ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ مِصْرُ^٣ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ قُبْطِيمُ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الْعَجَائِبَ بَعْدَ الطُّوفَانِ ، فَاسْتَخْرَجَ الْمَعَادِنَ ، وَشَقَّ الْأَنْهَارَ ، وَنَصَبَ الْأَعْلَامَ وَالْمَنَارَاتِ ، وَعَمِلَ الطَّلْسِمَاتِ^٤ .

وَيُقَالُ إِنَّ مِصْرَائِمَ لَمَّا مَاتَ اخْتَلَفَ أَوْلَادُهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَكَانَ قَبْطُ^(a) أَصْغَرَهُمْ ، فَاجْتَمَعُوا عِنْدَ الْأَهْرَامِ وَرَضُوا بِأَنَّ مِنْ غَلَبَ مِنْهُمْ أَخَاهُ أَخَذَ الْمُلْكَ . فَتَحَارَبَ أَشْمُومٌ وَأَثْرِبٌ فَغَلَبَ أَثْرِبٌ ، ثُمَّ تَحَارَبَ صَا هُوَ وَأَشْمُومٌ فَغَلَبَ أَشْمُومٌ ، ثُمَّ تَحَارَبَ قَبْطُ^(a) وَصَا فَغَلَبَ قَبْطُ^(a) . فَأَخَذَ قَبْطُ^(a) الْمُلْكَ بَعْدَ أَبِيهِ ، وَأَطَاعَهُ إِخْوَتُهُ ، وَسَكَنَ مَدِينَةَ مَنَفٍ دَارَ مَمْلَكَةِ أَبِيهِ ، وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ

(a) بولاق : قفط .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٤ - ٤٥ .

^٢ نفسه ٩ .

^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨ .

^٤ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٦ .

أربعة أولاد هم : قُفْطَرِيم وَأَشْمُون وَأَثْرِيْب وَصَا ، فتنازلوا وكثروا وعمَّروا البلاد .
ثم إنَّه قَسَمَ الأَرْضَ بين أولاده الأربعة عند وفاته : فجعلَ لولده قُفْطَرِيم من أسوان إلى قِفْط ،
وجعلَ لولده أَشْمُون من مَدِينَة قِفْط إلى مَدِينَة مَنَف ، وجعلَ لولده أَثْرِيْب الخَوْف^(a) كله ، وجعلَ
لولده صَا من ناحية البَحْيِرَة إلى العَرَب . وجعلَ أمرَهُم إلى قُفْطَرِيم وأمرَ كلَّ واحدٍ منهم أن يَبْنِي
لنفسه مَدِينَة في حَيِّزِهِ^١ .

وجعلَ لنفسه سَرَبًا تحت الجَبَل الكَبِير وَصَفَّحَهُ بِالْمَرْمَر ، وعَمِلَ فيه مَنَافِذَ للريح ، فصارت
تَتَخَرِّق فيه بَدَوِيٌّ عَظِيم ، وأقامَ في الشَّرْب رُؤُوسًا من نُحَاسٍ مُطْلِيَّة تُضِيء كَالسَّرْج لَيْلًا ونَهَارًا .
ولما ماتَ وَضِعَ جَسَدُهُ بهذا الشَّرْب في جُزْنٍ من ذَهَب ، بعدما أُلْبِس ثِيَابًا مَنسُوجَة بالدَّرِّ
والمَرْجَان ، وأقيمَ عند رأسه عَمُود من مَرْمَرٍ عليه جَوْهَرَة تُضِيء ، وعَمِلَ حولَ الجُزْنِ تَوَابِيثَ من
حِجَارَة مُلَوَّنَة حَوْلَهَا مَصَاحِفُ الحِكْمَة ، وعملت^(b) عنده أموالُه وَكُنُوزُه وَذَخَائِرُه ، وزَبَرُوا عليه
كما زَبَرُوا على أبيه . وانتقلَ كلُّ من أولاده إلى حَيِّزِهِ ، فانتقلَ صَا بأهله وأولاده وسَكَنَ مَدِينَة صَا
الآتِي ذِكْرُهَا^٢ .

ويقالُ كانت البَلْبَلَة في أيام قِبْط^(c) ، وأنه أَلْهَمَهُ اللهُ تَعَالَى اللُّغَة القِبْطِيَّة ، وأنه أقامَ مَلِكًا أربع مائة
وثمانين سنة وماتَ ، فذُفِنَ بِأَرْضِ الوَاحَات .

ومَلِكٌ بعده أَخُوهُ أَشْمُون بن مِصْر^٣ . وقيل بل أَشْكَن في حياته ابنه قُفْطَرِيم في حَيِّزِهِ ،
فَشَرَعَ في العِمَارَة ، وكان جَبَّارًا عَظِيمَ الخِلْقَة ، فَأَنَارَ مِنَ المَعَادِنِ ما لم يُبْرَزْ أَحَدٌ قَبْلَهُ ، وَبَنَى
مَدِينَة دَنْدَرَة ، وعَمِلَ في جَبَل قِفْط مَنَارًا عَالِيًا يُرَى مِنْهُ البَحْرُ الشَّرْقِي ، وَوَجَدَ هُنَاكَ مَعَادِنَ
مِنَ الزُّبَيْبِ ، وعَمِلَ البِرْكَة التي سَمَّاهَا صَيَادَة الطُّيْرِ^٤ .

وأقامَ مَلِكًا أربع مائة وثمانين سنة ومات^٥ . وهَلَكَ عادٌ بِالرَّيْحِ في آخِرِ أَيَّامِهِ ؛ وَفِي أَيَّامِهِ أَثَارَتِ
الشَّيَاطِينُ الأَصْنَامَ التي أَغْرَقَهَا الطُّوفَانُ فَعَبِدَت .

(a) بولاق : الحرف . (b) بولاق : وضعت . (c) بولاق : قفط .

^١ انظر فيما تقدم ٤٩ وفيما يلي ٥١٤ .

^٤ فيما يلي ٦٣٣ .

^٢ النويري : نهاية الأرب ٤٦:١٥ وفيما يلي ٥١٤ .

^٥ النويري : نهاية الأرب ٤٦:٥-٤٨ بتصرف .

^٣ نفسه ٤٦:١٥ .

وَذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : بَعْدَ مِصْرَ بْنِ يَتِصِرَ قُفُطُ بْنُ مِصْرَ ، وَأَنَّ الَّذِي مَلَكَ بَعْدَ قُفُطِ أَخُوهُ
أَشْمُنَ ، ثُمَّ أَثْرِيْبُ بْنُ مِصْرَ ، ثُمَّ صَا بْنُ مِصْرَ ، ثُمَّ ابْنَةُ تِدَارِسَ بْنِ صَا ، ثُمَّ ابْنَةُ مَالِيْقِ بْنِ تِدَارِسَ ،
ثُمَّ ابْنَةُ خَزْرِيْبَتَا^(a) بْنِ مَالِيْقِ ، ثُمَّ ابْنَةُ كَلِكِن^(b) بْنِ خَزْرِيْبَتَا^(a) .^١

وَيُقَالُ إِنَّ أَشْمُنَ لَمَّا مَلَكَ بَعْدَ أَخِيهِ ، سَارَ إِلَيْهِ شَدَّادُ بْنُ هَدَّادِ بْنِ شَدَّادِ بْنِ عَادٍ وَمَلَكَ أَرْضَ مِصْرَ
وَهَدَمَ مَبَانِيَهَا ، وَبَنَى أَهْرَامًا^٢ ، وَمَضَى إِلَى مَوْضِعِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فَبَنَاهَا ، وَأَقَامَ دَهْرًا ثُمَّ خَرَجَتْ
الْعَادِيَّةُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ، فَعَادَ أَشْمُنُ إِلَى مُلْكِهِ ، وَأَنَّهُ مَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ صَا ، ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَ صَا ابْنُهُ
تِدَارِسُ^(c) ، وَفِي أَيَّامِهِ بَعَثَ اللَّهُ صَالِحًا إِلَى ثَمُودَ^٣ .

وَمَاتَ ، فَمَلَكَ ابْنُهُ مَالِيْقُ الْبُودَسِيرِ ، وَكَانَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ الْعِظَامِ ، عَمِلَ أَعْمَالًا عَظِيمَةً ، مِنْهَا
مَنَارٌ فَوْقَهُ قُبَّةٌ لَهَا أَرْبَعَةُ أَرْكَانٍ ، فِي كُلِّ رُكْنٍ كُوَّةٌ يَخْرُجُ مِنْهَا فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ عِنْدَهُمْ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ
دُخَانٌ مَلْتَفٌ فِي أَلْوَانِ شَيْءٍ ، يَسْتَدْلُونَ بِكُلِّ لَوْنٍ عَلَى شَيْءٍ : فَإِنْ خَرَجَ الدُّخَانُ أَحْضَرَ دَلٌّ عَلَى
الْعِمَارَةِ وَالْحِصْبِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ ، وَإِنْ خَرَجَ أَيْضُ دَلٌّ عَلَى الْجَدْبِ وَقِلَّةِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ خَرَجَ أَحْمَرَ
دَلٌّ عَلَى الْحُرُوبِ وَقُضْدِ الْأَعْدَاءِ ، وَإِنْ خَرَجَ أَصْفَرُ دَلٌّ عَلَى النِّيْرَانِ وَأَفَاتِ تَحْدُثُ مِنَ الْمَلِكِ ، وَإِنْ
خَرَجَ أَسْوَدُ دَلٌّ عَلَى الْأَمْطَارِ وَالشَّيُولِ وَفَسَادِ بَعْضِ الْأَرْضِ ، وَإِنْ خَرَجَ مُخْتَلِطًا دَلٌّ عَلَى كَثْرَةِ
الظُّلْمِ وَبَغْيِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

وَعَمِلَ شَجْرَةً مِنْ نُحَاسٍ تَجْدِبُ سَائِرَ الْوُحُوشِ حَتَّى تَصِلَ إِلَيْهَا ، فَلَا تَسْتَطِيعُ الْحَرَكَةَ إِلَى أَنْ
تُؤْخَذَ ، فَشَبِعَ أَهْلُ مِصْرَ مِنْ لُحُومِ الْوُحُوشِ .
وَاتَّفَقَ أَنْ غُرَابًا نَقَرَ عَيْنَ صَبِيٍّ / مِنْ أَوْلَادِ الْكَهَنَةِ فَقَلَعَهَا ، فَعَمِلَ شَجْرَةً مِنْ نُحَاسٍ عَلَيْهَا غُرَابٌ
مَنْشُورٍ الْجَنَاحَيْنِ ، وَفِي مِتْقَارِهِ حَيَّةٌ ، وَعَلَى ظَهْرِهِ أَشْطُرٌ ، فَكَانَتِ الْغُرَابَانُ تَقَعُ عَلَى هَذِهِ الشَّجْرَةِ
وَلَا تَبْرَحُ حَتَّى تَمُوتَ .

وَكَانَتِ الرَّمَالُ قَدْ كَثُرَتْ فِي أَيَّامِهِ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ ، فَعَمِلَ صَنْمًا مِنْ صَوَّانٍ
أَسْوَدَ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْهُ ، وَفَوْقَ كَيْفِهِ قُفَّةٌ فِيهَا مَسْحَاةٌ ، وَنَقَشَ عَلَى وَجْهِهِ وَصَدْرِهِ وَذِرَاعَيْهِ كِتَابَةً ،

(a) بولاق : خرابا . (b) كلكي . (c) بولاق : تدراس .

^٣ انظر فيما يلي ٣٧٩ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٩ - ١٠ .

^٢ قارن مع ابن عبد الحكم : فتوح ٤٣ .

وَجَعَلَ وَجْهَهُ إِلَى الْغَرْبِ ، فَانْكَشَفَتْ الرَّمَالُ ، وَرَجَعَتْ بِهَا الرِّيَّاحُ إِلَى وَرَائِهَا وَصَارَتْ تَلَالًا
عَالِيَةً ١ .

وَبَعَثَ بِهِزِيمِ الْحَكِيمِ إِلَى جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ النَّيْلُ ، فَعَمِلَ تَمَائِيلُ النَّحَّاسُ ، وَعَدَلَ
جَانِبِي النَّيْلِ - وَكَانَ قَبْلَهُ يَفِيضُ فِي مَوَاضِعَ وَيَتَقَطَّعُ فِي مَوَاضِعَ - وَسَارَ مُغْرَبًا لِيَنْظُرَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ،
فَوَقَعَ عَلَى أَرْضٍ وَاسِعَةٍ يَنْخَرِقُ فِيهَا الْمَاءُ وَالْأَشْجَارُ ، فَبَنَى فِيهَا مَتْنَزُهَاتٍ وَأَقَامَ بِهَا وَحَوْلَ إِلَيْهَا عِدَّةً
مِنْ أَهْلِهِ ، فَعَمَّرُوا تِلْكَ النَّوَاحِيَ حَتَّى صَارَتْ أَرْضُ الْغَرْبِ كُلُّهَا مَعْمُورَةً . ثُمَّ خَالَطَتْهُمْ الْبَرَبَرُ ،
وَجَرَّتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ أَفْتَتْهُمْ ، فَخَرِبَتْ تِلْكَ الْبِلَادُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْوَاهَاتُ ٢ .

ثُمَّ إِنَّ الْبُودَسِيرَ اخْتَجَبَ عَنِ النَّاسِ ، وَصَارَ يُبْرِزُ وَجْهَهُ مِنْ مَقْعَدِهِ فِي النَّادِرِ ، وَرَبَّمَا خَاطَبَتْهُمْ مِنْ
حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ ٣ .

وَذَكَرَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَشْعُودِيُّ فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الزَّمَانِ» أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَحَقَّقَ بِالْكَهَانَةِ وَغَيْرِ الدِّينِ
وَعَبَدَ الْكُؤَاكِبَ : الْبُودَسِيرُ . وَتَزَعُمُ الْقَبِيظُ أَنَّ الْكُؤَاكِبَ كَانَتْ تُخَاطِبُهُ ، وَأَنَّ لَهُ عَجَائِبَ كَثِيرَةً ،
مِنْهَا أَنَّهُ اسْتَشَرَّ عَنِ النَّاسِ عِدَّةَ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِ ، وَكَانَ يَظْهَرُ لَهُمْ وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ مَرَّةً فِي كُلِّ سَنَةٍ ،
وَهُوَ وَقْتُ (a) حُلُولِ الشَّمْسِ بُرْجِ الْحَمَلِ ، وَيَدْخُلُ النَّاسُ إِلَيْهِ فَيُخَاطِبُهُمْ وَهُمْ يَرَوْنَهُ ، فَيَأْمُرُهُمْ
وَيَنْهَاهُمْ وَيُحَذِّرُهُمْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، (b) وَكَانَ يَجْلِسُ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِ السَّنَةِ فَيُخَاطِبُهُمْ مِنْ
حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ (b) ثُمَّ يُنَيِّتُ لَهُ قُبَّةً مِنْ فِضَّةٍ مَطْلِيَّةٍ بِذَهَبٍ ، فَصَارَ يَجْلِسُ فِي أَغْلَاهَا وَلَهُ وَجْهَةٌ
عَظِيمَةٌ ، فَيُخَاطِبُهُمْ . (b) وَكَانَ يَجْلِسُ فِي السَّحَابِ بِوَجْهِهِ آخِرَ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ فَأَقَامَ كَذَلِكَ
مُدَّةً ثُمَّ غَابَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَرَوْهُ ، وَأَقَامُوا بِرَهَةٍ بَغِيرِ مَلِكٍ ، ثُمَّ رَأَوْا صُورَتَهُ فِي هَيْكَلِ الشَّمْسِ
عِنْدَ حُلُولِهَا بِرَجِ الْحَمَلِ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقْلِدُوا الْمَلِكَ عَدِيمَ بْنِ قُفْطِيمَ وَأَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَعُودُ إِلَيْهِمْ
فَفَعَلُوا ذَلِكَ (b) .

فَلَمَّا مَاتَ مَلِكٌ بَعْدَهُ ابْنُهُ أَرْفَلِيمُونَ ، وَكَانَ كَاهِنًا سَاحِرًا ، فَعَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً (c) ، مِنْهَا أَنَّهُ
كَانَ يَجْلِسُ فِي السَّحَابِ فَيَرُونَهُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ عَظِيمٍ ، وَأَقَامَ مُدَّةً عَلَى ذَلِكَ .

(a) ساقطة من بولاق . (b-b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : عظيمة

٣ نفسه ١٥ : ٥١ .

١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٩ - ٥١ .

٢ نفسه ١٥ : ٤٩ .

ثم إنه غاب عن أهل مصر وصاروا بغير ملك ، ثم رأوا صورةً بحذاء جِزَمِ الشَّمْسِ عند حُلُولِهَا
أَوَّلَ بُرْجِ الحَمَلِ ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُقْلِدُوا المَلِكَ عَدِيمَ بنِ قُفْطِيمِ ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ ما بَقِيَ يَعودُ إليهِمْ^١ .
فَوَلَّوْا عَلَيْهِمُ (a) مَلِكَ مِصرَ (a) عَدِيمَ بنِ قُفْطِيمِ ، وَكانَ جَبَّارًا عَظِيمًا ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَلَبَ
بِمِصرَ ، وَذلكَ أَنَّ امْرَأَةً وَرَجُلًا زَنَيْتا فَصَلَبَهُمَا ، وَجَعَلَ ظَهَرَ كُلِّ مِنْهُما لَظَهَرَ الأَخرِ^٢ .

٥ وَبَنَى أَرْبَعَ مَدَائِنَ أَوْدَعَهَا كُنُوزًا عَظِيمَةً ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا طَلُوسَاتٍ وَعِدَّةَ عَجَائِبَ ، وَعَمِلَ مَنَارًا
عَلَى البَحْرِ الشَّرْقِيِّ وَعَلِيهِ صَنَّمَ إِلَى المَشْرِقِ حَتَّى لا يَغْلِبُ البَحْرُ عَلَى أَرْضِ مِصرَ ، وَعَمِلَ قَنْطَرَةً
عَلَى النِّيلِ فِي أَرْضِ النُّوبَةِ^٣ . وَأقامَ مَلِكًا مائة وأربعين سنة ، ومات وعمره سبع مائة وثلاثون سنة .
وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ شَدَّاتُ بنِ عَدِيمِ - وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ العَامَّةُ شَدَّادَ بنِ عادِ - وَكانَ عالِمًا كاهِنًا
ساجِرًا ، وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي بَنَى الأَهْرَامَ الدَّهْشُورِيَّةَ ، وَعَمِلَ أَعْمَالًا عَظِيمَةً وَطَلُوسَاتٍ عَجِيبَةً ، وَبَنَى
١٠ فِي الجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مَدَائِنَ ، وَفِي أَيَّامِهِ بُنِيَتْ قُوصُ ، وَعَزَا الحَبَشَةُ وَسَبَاهُمُ ، وَأقامَ مَلِكًا تَسعِينَ سَنَةً^٤ .
وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الجَوَارِحَ وَصَادَ بِهَا ، وَوُلِدَ الكِلابُ السُّلُوقِيَّةَ ، وَعَمِلَ فِي بَرَكةِ سُيُوطِ
تَماسِيحَ مَنصُوبَةً تَنصَبُ إِلَيْهَا التَّماسِيخُ مِنَ النِّيلِ انصِبابًا فَيَقْتُلُهَا وَيُعَلِّقُ جُلُودَها فِي الشُّفَنِ^٥ . وَاتَّفَقَ
أَنَّهُ طَرَدَ صَيْدًا فَكَبَا بِهِ فَرَسُهُ فِي وَهْدَةٍ فَهَلَكَ . وَكانَ قَدْ غَضِبَ عَلَى بَعْضِ خَدَمِهِ فَرَمَاهُ مِنْ جَبَلٍ
عَالٍ فَتَقَطَّعَ ، فَرَأَى أَنَّهُ يُصِيبه مِثْلُ ذلكَ .

١٥ وَلَمَّا هَلَكَ وَضِعَ فِي نَاوُوسٍ وَدُفِنَتْ مَعَهُ أَمْوالُهُ ، وَعَمِلَ عَلَيْهِ طَلُوسٌ يَمْنَعُهُ مِمَّنْ يَقْصِدُهُ ، وَكُتِبَ
عَلَيْهِ : « لا يَنْبَغِي لَدِي القُدْرَةَ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الوَاجِبِ ، وَلا يَفْعَلُ ما لا يَجُوزُ لَهُ فِعْلُهُ ، فَيُجَازَى
بِعَمَلِهِ ، هَذَا نَاوُوسُ ابْنِ شَدَّاتِ بنِ عَدِيمِ ، فَعَلَ ما لا يَجِلُّ لَهُ فِعْلُهُ ، فَكُوفِيَ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ »^٦ .
وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَنقَاوُشُ ، وَكانَ حَكِيمًا فَاضِلًا كاهِنًا ، عَمِلَ أَعْمَالًا عَجِيبَةً ، وَبَنَى أَشْيَاءَ
مُعْجِبَةً ، مِنْها أَنَّهُ عَمِلَ هَيْكَلًا لَصُورِ الكَواكِبِ عَلَى ثَمانيَةِ فَراسِيخٍ مِنَ مَنَفٍ ، وَكَتَبَ مِنَ الأَمْوالِ ما
٢٠ لا يُحْصى ، وَفُتِحَ عَلَيْهِ مِنَ المَعادِنِ ما لَمْ يُفْتَحَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ .

(a-a) ساقطة من بولاق .

^١ المسعودي : أخبار الزمان ١٣١-١٣٢ .^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥: ٥٧ وفيما تقدم ٨٦ .^٣ نفسه ١٥: ٥٨ .^٤ فيما يلي ٦٤٠ .^٥ النويري : نهاية الأرب ١٥: ٦١ ، ٦٢-٦٣ .^٦ نفسه ١٥: ٦٣ .

وسارَ في الجنوب يوماً، ثم سارَ مُغْرَبًا يوماً وبعض آخر، فأنهى في اليوم الثالث إلى جبلٍ أسود، فعَمِلَ تحته أسراباً ومغائر، ودَفَنَ فيها أمواله، وزَبَرَ عليها حتى إنه من كثرتها يُقالُ إنه دَفَنَ حَمَلِ اثني عشر ألف عَجَلَةَ ذَهَبًا وجواهر. وأقامَ أربع سنين يُرْسِلُ في كلِّ سنة عَجَلًا كثيرةً يَدْفِنُها. وبقيت آثارُ العَجَلِ تُرى في ما بين مَنف والمغرب زمانًا طويلًا^١.

٥ وبنى هَيْكَلًا للقَمَر، ويُقالُ إنه هو الذي بنى مَدِينَةَ مَنف لِبَنَاتِهِ، وَكُنَّ ثلاثين بنتًا، وإنه أَلَزَمَ الناسَ بِعَمَلِ الكِيمِيَاءِ فكانوا لا يَفْتَرُونَ عن عَمَلِها ليلًا ولا نهارًا، حتى اجْتَمَعَ عنده مالٌ عظيمٌ وجَوْهَرٌ كثيرٌ^٢.

وهو الذي بنى مَدِينَةَ عَيْنِ شَمْسٍ، وَقَسَمَ خَرَجَ مِصْرَ أَرْبَاعًا: جَعَلَ الرَّبْعَ لِلْمَلِكِ، والرَّبْعَ لِلجُنْدِ، والرَّبْعَ يُنْفَقُ في مَصَالِحِ الأَرْضِ، والرَّبْعَ الرَّابِعَ يُدْفَنُ لِحَادِثَةِ تَحْدُثُ.

١٠ وهو الذي قَسَمَ أَرْضَ مِصْرَ على مائة وثلاثين كُورَةً. وأقامَ مَلِكًا إِحْدَى وَتَسْعِينَ^(أ) سنة ومات^٣. فَمَلَكَ بعده ابنُه عَدِيمُ بنِ مَنقَاوِشٍ، وكان جَبَّارًا لا يُطَاقُ، وفي أَيَّامِهِ كان نُزُولُ المَلِكِينَ اللُّذِينَ يُعَلِّمَانِ الناسَ السُّحْرَ، والقِبْطُ تَزْعُمُ أَنَّهُمَا نَزَلَا بِأَرْضِ مِصْرَ ثم نُقِلَا إلى بَابِلَ^٤.

١٥ ثم مَلَكَ بعده أَخُوهُ مَنَاوِشُ بنِ مَنقَاوِشٍ، وكان عَلِيمًا كَاهِنًا/ فاضِلًا كَأَبِيهِ^(ب)، بنى مَوَاضِعَ كثيرةً في الجبالِ والصُّحارى، وَكَنَزَ فيها كُنُوزًا عَظِيمَةً، وأقامَ عليها أَعْلَامًا، وبنى في صُحْرَاءِ الغربِ مَدِينَةً [يُقالُ لها دِيمَاس] ^(ج)، وأقامَ لها مَنارَةً، وَكَنَزَ حولها كُنُوزًا عَظِيمَةً، وَجَعَلَ فيها شَجَرَةً تُطَلَعُ كُلُّ لَوْنٍ مِنَ الفَاكِهَةِ، وهو أَوَّلُ من عَبَدَ البَقَرَ بِمِصْرَ.

وكان يُطَلِّبُ الحِكْمَةَ وَيَسْتَخْرِجُ كُتُبَهَا، وكذا كان كُلُّ من مَلَكَ مِنْهُم يَجْتَهِدُ في أنْ يَعمَلَ له غَريبَةً مِنَ الأَعْمَالِ لَمْ تُعْمَلْ لِمَنْ كان قَبْلَهُ، وَتُثَبِتُ في كُتُبِهِمْ، وَتُزَبَرُ على الحِجَارَةِ^٥.

٢٠ ولَمَّا ماتَ مَلَكَ بعده ابنُه هِرْمِيسُ، وكان قَلِيلَ الحِكْمَةِ فلم يَعمَلْ شَيْئًا مِمَّا عَمَلَهُ آبَاؤُهُ، وماتَ وقد أَقامَ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً^٦.

(a) عند النويري: سبعين. (b) ساقطة من بولاق. (c) إضافة من النويري.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦٤.

^٢ نفسه ١٥: ٦٤.

^٣ نفسه ١٥: ٦٦ وفيما يلي ٦١٩.

^٤ لم يذكره النويري.

^٥ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦٧ وفيما يلي ٦٤٥.

^٦ نفسه ١٥: ٦٩.

فَمَلَكَ بَعْدَهُ أَشْمُونُ بْنُ قُبْطِيمِ بْنِ مِضْرَ بْنِ يَيْصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ ، وَكَانَ حَيِّزُهُ مِنْ أَشْمُونِ إِلَى مَنْفٍ فِي الْغَرْبِ ، وَحَيِّزُهُ فِي الشَّرْقِ إِلَى حَدِّ الْبَحْرِ الْمِلْحِ مِمَّا يُحَادِثُ بَرْقَةَ ، وَهُوَ آخِرُ حَدِّ مِصْرَ ، وَمِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ إِلَى مُحْدُودِ إِخْمِيمَ ، وَكَانَتْ مَنْزِلُهُ مَدِينَةَ الْأَشْمُونِيِّينَ ، وَكَانَ طَوْلُهَا اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا فِي مِثْلِهَا ^١ .
وَبَنَى فِي شَرْقِيِّ النَّيْلِ مَدِينَةَ أَنْصِينَا ، وَبَنَى بِهَا قَصْرًا عَظِيمًا ، وَاتَّخَذَ بِهَا أُيُنَيْتَةً وَمَلَاعِبَ وَعَجَائِبَ كَثِيرَةً ، وَبَنَى مَدِينَةَ طَهْوَاطَيْسَ . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ لَعِبَ بِالْكُرَةِ وَالصُّوْلَجَانِ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ بَنَى مُدُنًا كَثِيرَةً عَمِلَ فِيهَا عَجَائِبَ ، مِنْهَا مَدِينَةٌ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ لَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بَابٌ : فَعَلَى الْبَابِ الشَّرْقِيِّ صُورَةٌ عُقَابٍ ، وَعَلَى الْبَابِ الْغَرْبِيِّ صُورَةٌ ثُورٍ ، وَعَلَى الْبَابِ الشَّمَالِيِّ صُورَةٌ أَسَدٍ ، وَعَلَى الْبَابِ الْجَنُوبِيِّ صُورَةٌ كَلْبٍ ؛ وَفِي هَذِهِ الصُّورَةِ رُوحَانِيَاتٌ تَنْطِقُ ، فَإِذَا قَدِمَ غَرِيبٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ إِلَيْهَا إِلَّا بِإِذْنِ الْمُؤَكَّلِينَ بِهَا ، وَدَقَّنَ تَحْتَ كُلِّ شَكْلِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْكَالِ الْأَرْبَعَةِ صِنْفًا مِنَ الْكُنُوزِ .

وَعَرَسَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ شَجَرَةً مُوَلَّدَةً تُثْمِرُ كُلَّ لَوْنٍ مِنَ الْفَاكِهَةِ ، وَنَصَبَ مَنَارًا طَوْلُهُ ثَمَانُونَ ذِرَاعًا ، فَوْقَهُ قُبَّةٌ تَتَلَوَّنُ كُلَّ يَوْمٍ لَوْنًا ، حَتَّى تَمْضِيَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى اللَّوْنِ الْأَوَّلِ ، فَكَانَتْ تَلْكُ الْمَدِينَةَ تُكْسَى مِنْ تَلْكَ الْأَلْوَانِ شِعَاعًا مِثْلَ لَوْنِهَا .

وَأَجْرَى حَوْلَ الْمَنَارِ مَاءً شَقَّهُ مِنَ النَّيْلِ ، وَجَعَلَ فِيهِ سَمَكًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ ، وَأَقَامَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ طِلْسَمَاتٍ فِي هَيْئَةِ أَنْاسٍ رُؤُوسَهَا كَالْقِرَدَةِ ، وَأَسْكَنَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ السَّحْرَةَ ^(a) فَعُرِفَتْ بِمَدِينَةِ السَّحْرَةِ ^(a) ، وَكَانُوا يَعْمَلُونَ فِيهَا أَصْنَافَ السَّحْرِ .

وَبَنَى بِالْقُرْبِ مِنْهَا مَدِينَةً عُرِفَتْ بِـ [قَمَنْطَر] ^(b) ذَاتَ الْعَجَائِبِ ^٢ ، وَبَنَى مَجَالِسَ مُصَفَّحَةً بِزُجَاجٍ مُلَوَّنٍ فِي وَسَطِ النَّيْلِ ، وَبَنَى سَرَبًا تَحْتَ الْأَرْضِ مِنَ الْأَشْمُونِيِّينَ إِلَى أَنْصِينَا .

وَقِيلَ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَةَ عَيْنِ شَمْسٍ ، وَإِنَّهُ مَلَكَ ثَمَانِ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَإِنَّ قَوْمَ عَادٍ انْتَزَعُوا مِنْهُ الْمُلْكَ بَعْدَ سِتِّ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَأَقَامُوا بِمِصْرَ تِسْعِينَ سَنَةً ، فَأَصَابَهُمْ وَبَاءٌ خَرَجُوا مِنْهُ إِلَى الدِّيْنَةِ ^(c) بِطَرِيقِ الْحِجَازِ إِلَى وَادِي الْقُرَى ، فَعَادَ أَشْمُونُ بَعْدَ خُرُوجِ الْعَادِيَةِ إِلَى مُلْكِ مِصْرَ ^٣ .

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) زيادة من النويري . (c) بولاق : المدينة .

^٣ نفسه ٧١:١٥ وفيما يلي ٦٤٨ .

^١ النويري : نهاية الأرب ٦٩:١٥ - ٧٠ .

^٢ نفسه ٧٠:١٥ .

وهو أول من عمِلَ التُّوروز بمصر، وفي زمانه بُنيت مدينة البهنسا^١.
ولما مات جُعِلَ له ناووس في آخر حدِّ الأشمونيين، ودُفِنَ فيه ومعه كنوزه العظيمة وعجائبه
الكثيرة، منها ألف بزينة من العقاقير المدبِّرة لفنون الأعمال، وزبروا على ناووسيه اسمه ونسبه،
وجُعِلَ عليه طَلَسْمٌ يمنعه ممن يقصده^٢.

وملَّك بعده ابنه صا، ثم بعد صا ابنه تدارس.

وقيل ملَّك مناقبوش، وكان شجاعاً فاضلاً، فاستأنفَ العِمارة، وبني القري ونصب
الأعلام، وعمِلَ العجائب الهائلة، وبني مدائن منها مدينة إخميم، وحول الكهنة إليها.
وأقام ملكاً نيفاً وأربعين سنة، ومات فدُفِنَ في الهرم الشرقي ومعه كنوزه^٣.

وملَّك بعده ابنه، وقد اختُلف في اسمه^٤، وكان فاضلاً حازماً معظماً عند أهل مصر. وهو
أول من عمِلَ المارستان، وأول من عمِلَ الميدان للرياضة، وفي أيامه بُنيت مدينة سنترية في صحراء
الواحات^٥. ثم إن نساءه تغايرن عليه، فقتلته إحداهن بسكين، فدُفِنَ في ناووس ومعه أمواله،
وعُمِلَ عليه طَلَسْمٌ يحفظه^٦.

وملَّك بعده ابنه مرقورة، وكان حكيماً كاهنًا، وهو أول من ذلَّ السباع وزكبتها، وبني
المدن، وعمَّرَ الهياكل، وأقام الأضنام.

ولما مات جُعِلَ له ناووس في صحراء الغرب، ودُفِنَ معه ماله^٧.

وملَّك بعده ابنه بلاطس، وكان صبيًا، فدبَّرت أمه أمر الملك، وكانت حازمة فأجرت
الأمور على أحسن ما يكون، وأظهرت العدل، ووضعت عن الناس الخراج فأحبوها. ولما كبر
ابنها أحب الصيد، فعملت له أمه أعمالاً عجيبة، وأقام ملكاً ثلاث عشرة سنة وجدَّ فمات،
وانتقل الملك إلى أعمامه^٨.

^١ النويري: نهاية الأرب ٧١:١٥ وفيما يلي ٦٤٥. مصدر هذه المعلومات.

^٢ قارن خبير أشمون عند النويري، نهاية الأرب ٦٣٧. فيما يلي ٦٣٧.

^٣ النويري: نهاية الأرب ٧٢-٦٩:١٥ ومصدره مختصر تاريخ ابن وصيف شاه.

^٤ النويري: نهاية الأرب ٧٢:١٥. نفسه ٧٤:١٥.

^٥ عند النويري (نهاية ٧٢:١٥): ولم يسته إبراهيم. أي

إبراهيم بن القاسم الكاتب مختصر كتاب ابن وصيف شاه -

فَمَلَكَ بَعْدَهُ أَثْرِبَ بْنَ قُبْطِيمِ بْنِ مِصْرَايِمَ ، وَهُوَ الثَّلَاثَ عَشَرَ مِنْ مُلُوكِ مِصْرَ بَعْدَ الطُّوفَانِ ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَةَ أَثْرِبَ ^١ ، وَعَاشَ خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ ، مِنْهَا مُدَّةُ مُلْكِهِ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُونَ سَنَةً . وَيُقَالُ إِنَّ النَّيْلَ وَقَفَ فِي أَيَّامِ أَثْرِبَ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، حَتَّى أَكَلَتِ الْبَهَائِمُ بِأَرْضِ مِصْرَ وَلَمْ يَبْقَ بِهَا بَهِيمَةٌ ، وَرُئِيَ أَثْرِبَ مَاشِيًا وَهُوَ يَتَسَطُّ يَدَيْهِ وَيَقْبِضُهُمَا مِنَ الْجُوعِ ، وَمَاتَ عَامَةً أَهْلَ مِصْرَ جُوعًا ، ثُمَّ أُغِيثُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَكَثُرَ الرَّخَاءُ ، وَدَامَ مُدَّةَ مِائَتَيْ سَنَةٍ ، وَيَبِيعُ كُلُّ أَرْدَبٍ بِدَانِقٍ وَأَقْلٍ . وَلَمَّا مَاتَ انْتَهَمَ أَخُوهُ صَا بِقَتْلِهِ ، وَحَارَبَهُ أَهْلُ مِصْرَ تِسْعَ سِنِينَ وَقَتَلُوهُ ^٢ .

فَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنَتُهُ تُدُورَةُ ، وَكَانَتْ كَاهِنَةً سَاحِرَةً ، فَسَاسَتْ الْمَلِكَ أَحْسَنَ سِيَاسَةٍ وَذَبَّرَتْ الْمَمْلَكَةَ ^٣ أَجُودَ تَذِيرٍ ، وَعَمِلَتْ طِلْسُمَاتٍ عَجِيبَةٍ ، مِنْهَا طِلْسُمٌ مَنَعَ الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ أَنْ يَشْرَبَ مِنَ النَّيْلِ حَتَّى مَاتَ أَكْثَرُهَا عَطَشًا/، وَوَقَعَتْ فِي زَمَانِهَا صَيْحَةٌ ارْتَجَّتْ لَهَا الْأَرْضُ فَهَلَكَتْ ^٤ .

وَمَلَكَ بَعْدَهَا أَخُوهَا فَلِيمُونَ بْنُ أَثْرِبَ ، وَكَانَ حَكِيمًا فَاضِلًا ، فَبَنَى الْبُنْيَانَ وَعَمِلَ الطِّلْسُمَاتَ . وَفِي أَيَّامِهِ بُنِيَتْ مَدِينَةُ تَيْسِ الْأُولَى ، وَبُنِيَتْ مَدِينَةُ دِمْيَاطَ . وَأَقَامَ مَلِكًا تِسْعِينَ سَنَةً وَمَاتَ فَدُفِنَ فِي نَاوُوسَ ^٥ .

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ فَرْسُونُ ، وَكَانَ فَاضِلًا كَاهِنًا ، بَنَى الْمَدَائِنَ ، وَجَدَّدَ الْهَيْكَلَ ؛ وَكَانَ حَدَثًا ، فَقَصَدَهُ بَعْضُ مُلُوكِ حِمْيَرَ فِي جُمُوعٍ عَظِيمَةٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ^٦ ، وَلَقِيَهِ بِمَدِينَةِ إِثْلَةَ ^٧ وَقَاتَلَهُ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى تَفَانَى مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مُعْظَمُهُمَا ، وَأَظْهَرَ الْمِضْرَبِيُّونَ أَشْيَاءَ مِنْ سِحْرِهِمْ فَانْهَزَمَ الْحِمْيَرِيُّ فِي طَائِفَةٍ يَسِيرَةٍ ، وَقَتَلَ فَرْسُونُ عَامَةً أَصْحَابِهِ وَأَخَذَ مَا كَانَ مَعَهُمْ ، وَعَادَ مُظْفَرًا إِلَى مَدِينَةِ مَنَفٍ . وَعَمِلَ مَنَارًا عَلَى بَحْرِ الْقُلْزُومِ فِي رَأْسِهِ مِرْآةٌ تَجْدِبُ الْمَرَاقِبَ إِلَى السَّاحِلِ حَتَّى يُؤْخَذَ مِنْهَا مَا هُوَ مُقَرَّرٌ عَلَيْهَا مِنَ الْمَالِ .

وَأَقَامَ مَلِكًا مِائَتَيْ سَنَةٍ وَسِتِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ فَدُفِنَ فِي نَاوُوسَ خَلْفَ الْجَبَلِ الْأَسْوَدِ الشَّرْقِيِّ ، وَعَمِلَ فِيهِ قُبَّةٌ تَحْتَوِي عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ بَيْتًا ، فِي كُلِّ بَيْتٍ أُعْجُوبَةٌ ، وَدُفِنَ مَعَهُ مَالُهُ ، وَعَمِلَ عَلَيْهِ طِلْسُمٌ يَحْفَظُهُ ^٨ .

(a) بولاق : الملك . (b) بولاق : إليهم . (c) بولاق : إيليا .

^٤ نفسه ١٥ : ٧٧ - ٧٨ ؛ وفيما يلي ٤٧٦ .

^٥ نفسه ١٥ : ٧٨ - ٨٠ .

^١ فيما يلي ٤٧٤ .

^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٥ - ٧٧ .

^٣ نفسه ١٥ : ٧٧ .

ومَلِكٌ بعده نحو أربعة، وصارَ المَلِكُ إلى صَا بن قُبَاطِيم، وكان أصغرَ وَلَدِ أبيه وأَحَبَّهُمْ إليه^١.

ولما ماتَ مَلِكٌ بعده نُونية الكاهِنَة، وكانت ساجِرَة، فكانت تجلس على سَرِيرٍ من نار، فإذا تَحَاكَمَ إليها أَحَدٌ وكان صادقًا شَقَّ تلك النار من غير أن تُضَرَّهُ، وإن كان كاذبًا أَخَذَتْهُ تلك النار، وكانت تَتَصَوَّرُ كُلَّ يَوْمٍ في صُورٍ كثيرة الأشكال.

ثم بَنَتَ قَصْرًا واحتَجَبَتْ فيه، وجَعَلَتْ في سُورِهِ أنابيبَ من نُحاسٍ مُجَوَّفَة، وكتَبَتْ على كُلِّ أُبُوبٍ قِطْعًا من القُنُونِ التي يَتَحَاكَمُ النَّاسُ بها إليها، فكانَ مَنْ أَتَاهَا في مُحَاكَمَةٍ وَقَفَ عند الأُبُوبِ الذي فيه مُحَاكَمَتُهُ، وتَكَلَّمَ بما يُريدُه، وسألَ عنه بصوتٍ خَفِيٍّ، فإذا فَرَعَ جَعَلَ أُذُنُهُ في الأُبُوبِ فيأْتِيهِ منه جَوَابٌ ما سألَ. ولم يَزَلْ هذا القصرَ والأنابيبَ حتى أَتَلَفَهُ بُخْتِ نَصْر.

ومَلِكٌ بعدها مَرْقُونَس، وكان فاضِلًا حَكِيمًا، وكانت أُمُّهُ بنتُ ملكِ الثُّوبَةِ، فَعَمِلَتْ عَجَائِبَ، وَصُنِعَ في أَيَّامِهِ كُلِّ غَرِيبة. ومَلِكٌ ثلاثًا وسبعين سنة، وماتَ وعمره مائتان وأربعون سنة.

فَمَلِكٌ بعده ابنُه أنساد^٢، وهو ابنُ خمس وأربعين سنة، وكان جَبَّارًا طَمَّاحَ العَيْنِ، فانتَزَى امرأةَ أبيه، وانكَشَفَ أمرُه معها، وكان أَكْبَرُ هَمِّهِ اللُّهُو واللُّعِبُ، فجمعَ كُلَّ مِلَّةٍ في مملكته، ورَفَضَ العُلُومَ، وأَهْمَلَ أمرَ الهياكِلِ والكهِنَةِ، وتَرَكَ النَّظَرَ في أحوالِ النَّاسِ، وبَنَى قُصُورًا على النَّيْلِ لِيَتَنَزَّهُ فيها، وأَتَلَفَ أَكْثَرَ الأَمْوَالِ في اللُّعِبِ؛ فَكَرِهَهُ النَّاسُ وَكَرِهَهُمْ، إلى أن سَمُوهُ فَمَاتَ عن مائةٍ وعشرين سنة^٣.

ومَلِكٌ بعده ابنُه صَا، ويُقالُ إنَّ صَا هو بنُ مَرْقُونَس، وهو أخو أنساد. ولما مَلِكٌ سَكَنَ مَنفَ، ووَعَدَ النَّاسَ بِخَيْرٍ، ومَلِكٌ الأَحْيَازَ كُلِّهَا، وَعَمِلَ بها عَجَائِبَ وطَلَسَمَاتَ، ورَدَّ الكهِنَةَ إلى مَرَاتِبِهِمْ، ونَفَى المَلْهينَ وأهلَ الشُّرِّ، ونَصَبَ العُقَابَ الذي عملُه أبوه وشَرَفَ هَيْكَلَهُ ودَعَا إليه، وبَنَى بَدَاخِلَ الواحاتِ مَدِينَةً، ونَصَبَ قُرْبَ البَحْرِ أَغْلَامًا كثيرةً، وجَعَلَ على الأَطْرَافِ أَصْحَابَ أَخْبَارٍ يَرْفَعُونَ إليه ما يَجْرِي في حُدُودِهِمْ، وَعَمِلَ على حَافَتِي النَّيْلِ مَنَابِرَ يُوقَدُ عليهم إذا حَزَبَهُمْ

(a) الأصل وبولاق: إيسار والمثبت من النويري وفيه.

^٢ نفسه ١٥: ٨٦-٨٨.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٨١.

أَمْرٌ أَوْ قَصَدَهُمْ أَحَدٌ ، وَجَعَلَ بِحَافَتِي بَحْرَ الْمِلْحِ مَنَارًا يُعَلِّمُ بِهِ أَمْرُ الْبَحْرِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ بَنَى أَكْثَرَ مَدِينَةِ مَنَفٍ وَكُلَّ بُنْيَانٍ عَظِيمٍ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ .

وَكَانَ لَمَّا مَلَكَ الْبَلَدَ بِأَسْرِهِ جَمَعَ الْحُكَمَاءَ وَنَظَرَ فِي الشُّجُومِ ، وَكَانَ بِهَا حَادِقًا ، فَرَأَى أَنَّ مِصْرَ لَا بَدَّ أَنْ تَفْرَقَ مِنْ نَيْلِهَا ، وَأَنَّهَا تَخْرُبُ عَلَى يَدِ رَجُلٍ يَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ ، فَجَمَعَ كُلَّ فَاعِلٍ بِمِصْرَ ، وَبَنَى مَدِينَةَ فِي الْوَادِحِ الْأَقْصَى .

وَقَصَدَهُ مَلِكُ الْإِفْرِيجِيَّةِ وَمَلَكَ مِنْهُ مَدِينَةَ مَنَفٍ ، وَقَدِمَ مَعَهُ أَلْفُ مَرْكَبٍ ، وَهَدَمَ أَكْثَرَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَدَخَلَ إِلَى النَّيْلِ مِنْ رَشِيدٍ حَتَّى أَخَذَ مَنَفَ ، وَفَرَّ مِنْهُ صَا إِلَى الْمَدَائِنِ الدَّاخِلَةِ ، وَتَحَصَّنَ بِهَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَامْتَنَعَتْ بِالطُّلُوسَمَاتِ أَيَّامًا كَثِيرَةً ، ثُمَّ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُ ، وَعَادَ عَدُوُّهُ مُنْهَزِمًا ، وَرَجَعَ إِلَى مَنَفٍ فَتَتَبَعَ الْكَهَنَةَ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ كَثِيرًا . وَأَقَامَ مَلِكًا سَبْعًا وَسِتِينَ سَنَةً ، وَعَاشَ مِائَةً وَسَبْعِينَ سَنَةً .^١

وَمَلَكَ ابْنَهُ تُدَارُسَ^(a) ، وَاسْتَوَلَى عَلَى الْأَخْيَازِ كُلِّهَا ، وَصَفَا لَهُ مُلْكُ مِصْرَ ، وَكَانَ مُحْتَكِمًا^(b) مُجَرَّبًا ذَا أَيْدٍ وَقُوَّةٍ وَمَعْرِفَةٍ بِالْأُمُورِ ، فَأَظْهَرَ الْعَدْلَ ، وَأَقَامَ الْهَيَاكِلَ وَأَهْلَهَا قِيَامًا حَسَنًا ، وَبَنَى بَيْتًا لِلزُّهْرَةِ ، وَحَفَرَ خَلِيجَ سَخَا . وَحَارَبَ بَعْضَ عِمَالِقَةِ الشَّامِ ، وَدَخَلَ إِلَى فِلَسْطِينَ ، وَقَتَلَ بِهَا خَلْقًا وَسَبَى بَعْضَ أَهْلِهَا إِلَى مِصْرَ ، وَغَزَا السُّودَانَ مِنَ الزُّبْحِ وَالْحَبَشَةِ ، وَوَجَّهَ فِي النَّيْلِ بِثَلَاثِ مِائَةِ سَفِينَةٍ فَلَقِيَ السُّودَانَ - وَكَانُوا زُهَاءَ أَلْفِ أَلْفٍ - فَهَزَمَهُمْ وَقَتَلَ أَكْثَرَهُمْ ، وَأَسَرَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا ، وَسَاقَ الْفَيْلَةَ وَالنُّمُورَ إِلَى مِصْرَ . وَعَمِلَ عَلَى حُدُودِ بَلَدِهِ مَنَارَاتٍ زَبَرَ عَلَيْهَا اسْمَهُ وَمَسِيرَهُ وَظَفَرَهُ . وَفِي أَيَّامِهِ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَالِحًا إِلَى ثَمُودَ .^٢

وَيُقَالُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الثُّوبَةَ حَيْثُ هِيَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَوْغَلَ فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ وَقَتَلَ أُمَّةَ السُّودَانَ ، وَجَدَ فِيهِمْ أُمَّةً تَقْرَأُ صُحُفَ آدَمَ وَشِيثَ وَإِدْرِيْسَ ، فَمَنْ عَلَيْهَا وَأَنْزَلَهَا عَلَى نَحْوِ مِنْ شَهْرٍ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ، فَسُمُّوا الثُّوبَةَ ، وَمَاتَ بِمَنَفٍ .^٣

فَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَالِيْقُ ، وَكَانَ عَاقِلًا كَرِيمًا حَسَنَ الْوَجْهِ^(c) مُجَرَّبًا ، مُخَالَفًا لِأَبِيهِ وَأَهْلِ مِصْرَ فِي عِبَادَةِ الْكُوكَبِ وَالْبَقَرِ .

(a) بولاق : تدراس . (b) بولاق : محتكما . (c) بولاق : الصورة .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٨٨ - ٩٣ .

^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٩٣ - ٩٤ . وانظر عن

الثوبة فيما يلي ٥١٧ - ٥٢٦ .

^٣ فيما تقدم ٣٧١ .

- ١) ويُقال إنه كان مؤمداً على دين أجداده/ قبطيم ومضرايم، وكانت القبط تدمه لذلك. وأمر الناس باتخاذ كل فاره من الخيل، واقتنى السلاح، وآلة^a الأسفار، وأنشأ في بحر المغرب مائتي سفينة، وخرج في جيش عظيم في البر والبحر، فلقى^b البربر فهزمتهم واشتأصل أكثرهم. وبلغ إفريقيا، وسار إلى الأندلس يريد الإفريقية، فلم يمز بأمة إلا أبادها، فحشد له ملك الإفريقية وحاربه شهراً، ثم طلب صلحه وأهدى إليه، فسار عنه ودوخ الأمم المتصلة بالبحر الأخضر.
- ٥ والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة، وعمل أعمالاً على البحر وزبر عليها اسمه ومسيره، وخرب مدن البربر، ورجع فلقاه أهل مصر بأصناف الرياحين وأنواع اللهب، وفرشت له الطرقات. فهابة الملوك وحملوا إليه الهدايا. وما زال مؤمداً حتى مات^١.
- ١٠ فملك بعده ابنه خربثا^c، وكان ليتا سهل الخلق، قد عرفه أبوه التوحيد ونهاه عن عبادة الأصنام، فرجع عن ذلك بعه إلى دين قومه.
- ١٥ وغزا الهند والسودان بعد ما عمل مائة سفينة على عمل^d سفن الهند، وتجهز وحمل معه امرأته ووجوه أصحابه، واشتخلف ابنه كلكن^e على مصر - وكان صبيًا - وجعل معه وزيراً كاهناً. فمر على ساحل اليمن وعاث في مدائنه، وبلغ سرنديب وأوقع بأهلها، وبلغ جزيرة بين الهند والصين فأذعن له أهلها، وتنقل في تلك الجزائر سنين.
- ٢٠ فيقال إنه أقام في سفره سبع عشرة سنة ورجع غانماً، فهابة الملوك. وبنى عدة هياكل وأقام بها الأصنام للكواكب. ثم غزا نواحي الشام فأطاعه أهله، ورجع فغزا التوبة والسودان، وضرب عليهم خراجاً يحملونه إليه، ورفع أقدار الكهنة ومصاحفهم. وكان يرى أن هذا الظفر بمعونة الكواكب له؛ ومات وقد ملك خمسا وسبعين سنة^٢.
- ٢٠ فقام ابنه كلكن^e، وعقد له بالإسكندرية فأقام بها شهراً، ثم قديم إلى منف. وكان أصنامياً، فسُر به أهل مصر، وكان يُحب الحكمة وإظهار العجائب، ويُقرب أهلها ويُجيزهم، وعمل الكيمياء، وخزن أموالاً عظيمة بصحارى العرب.

(a) بولاق: وأكثر. (b) بولاق: وأتى. (c) بولاق: خرابا. (d) بولاق: شكل. (e) بولاق: كلكلي.

وهو أوَّل من أظهر عِلْم الكِيمِيَاء بمصر، وكان عِلْمُهَا مَكْتُومًا، وكان من تَقَدَّمه من المُلُوك أمَرُوا بِتَرْك صَنَعَتِهَا، فَعَمِلَهَا كَلْكَنَ وَمَلَأ دُور الحِكْمَةِ مِنْهَا حَتَّى لَمْ يَكُن الذَّهَبُ فِي زَمَنٍ بِمِصْرَ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي وَقْتِهِ، وَلَا الخِرَاجَ، لِأَنَّهُ كَانَ مِائَةَ أَلْفِ أَلْفٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ أَلْفِ أَلْفٍ مِثْقَالًا، فَاسْتَعْتَنُوا عَنْ إِثَارَةِ المَعَادِنِ.

٥ وَعَمِلَ أَيْضًا مِنَ الحِجَارَةِ المُلَوَّنَةِ الَّتِي تَشِبُّ شَيْئًا كَثِيرًا، وَعَمِلَ مِنَ الفَيْزُورِجِ وَغَيْرِهِ أَشْيَاءَ وَاخْتَرَعَ أُمُورًا تَخْرُجُ عَنْ حُدِّ العَقْلِ حَتَّى سُمِّيَ حَكِيمَ المُلُوكِ، وَغَلَبَ جَمِيعَ الكَهَنَةِ فِي عُلُومِهِمْ، وَكَانَ يُخَبِّرُهُمْ بِمَا يَغِيبُ عَنْهُمْ.

١٠ وَكَانَ تَمْرُودُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي وَقْتِهِ، فَاتَّصَلَ بِنَمْرُودَ خَبَرَ حِكْمَتِهِ وَسِخْرِيهِ فَاسْتَزَارَهُ. وَكَانَ التَّمْرُودُ جَبَّارًا مُشَوِّهَ الخَلْقِ، يَسْكُنُ السَّوَادَ مِنَ العِرَاقِ، وَأَنَاهُ اللهُ قُوَّةً وَقُدْرَةً وَبَطْشًا فَغَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الأُمَّمِ. فَتَقُولُ القِبْطُ إِنَّ التَّمْرُودَ لَمَّا اسْتَزَارَ كَلْكَنَ^(a)، وَجَّهَ إِلَيْهِ أَنْ يَلْقَاهُ بِمَوْضِعِ كَذَا، فَسَارَ إِلَى المَوْضِعِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَفْرَاسٍ تَحْمِلُهُ ذَوَاتُ أُجْنِحَةٍ، وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ نَوْرٌ كَالنَّارِ، وَحَوَّلَهُ صُورَةَ هَائِلَةٍ وَقَدْ نُحِيلَ بِهَا، وَهُوَ مُتَوَشِّحٌ بِبُعْبَانَ مُتَحَرِّمٍ بِيَعْضِهِ، وَقَدْ فَغَرَ فَاهُ، وَهُوَ يَضْرِبُهُ بِقَضِيبِ آسٍ أَخْضَرَ^(b)، فَلَمَّا رَأَى التَّمْرُودُ هَالَهُ، وَأَقْرَبَهُ لِيَجْلِسَ الحِكْمَةَ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا لَهُ.

١٥ وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَرْتَفِعُ وَيَجْلِسُ عَلَى الهَرَمِ العَرَبِيِّ فِي قُبَّةٍ تَلُوحُ عَلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا دَهَمَ أَهْلَ البَلَدِ أَمْرًا اجْتَمَعُوا حَوْلَ الهَرَمِ، فَيُقِيمُ أَيَّامًا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ.

٢٠ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مُدَّةً حَتَّى تَوَهَّمُوا أَنَّهُ هَلَكَ، فَطَمِعَ فِيهِ المُلُوكُ وَقَصَدَهُ مَلِكٌ مِنَ العَرَبِ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ حَتَّى قَدِمَ وَادِي هَبِيبَ، فَأَقْبَلَ حَتَّى جَلَّلَهُمْ مِنْ سِخْرِيهِ بِشَيْءٍ كَالغَمَامِ شَدِيدِ الحَرِّ، فَأَقَامُوا تَحْتَهُ أَيَّامًا مُتَخَيِّرِينَ، ثُمَّ طَارَ إِلَى مِصْرَ وَأَمَرَهُمْ بِالخُرُوجِ إِلَى الجَيْشِ، فَوَجَدُوهُمْ قَدْ مَاتُوا هَمَّ وَدَوَابَّهُمْ، فَهَابَهُ الكَهَنَةُ مَهَابَةً لَمْ يَهَابُوهَا أَحَدًا قَبْلَهُ.

٢٠ وَعُمُرُ طَوِيلًا، وَغَابَ فَلَمْ يُعْلَمَ خَبْرُهُ^١.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الحَكَمِ: إِنَّ كَلْكَنَ^(a) بَنَ خَزْبَتًا^(c) مَلِكُهُمْ نَحْوَ مِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ مَاتَ وَلَا وَلَدَ لَهُ، فَتَمَلَّكَ أَخُوهُ مَالِيَا بَنَ خَزْبَتًا^(c)^٢.

(a) بولاق: كلكلي. (b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: خرابا.

^٢ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٠.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٠١-١٠٣.

قال ابن وصيف شاه : وقام أخوه ماليا ، وكان شريها كثير الأكل والشرب ، مُنْقَرِدًا بالرفاهية ، غير ناظر في شيء من الحكمة ، وجعل أمر البلد إلى وزيره ، واشتغل بالنساء ، وكان له من النساء ثمانون امرأة ، فهجتم عليه ابنه طوطيس ، وهو سكران ، فقتله ، وقتل امرأة كانت عنده ^١ .

وملك بعده ابنه طوطيس - ويُقال إنه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان - ويُقال الوليد بن الريان - وإنه أخذ فرائعة مصر من ولد دان بن فهلوج بن إمرار بن أشود بن سام بن نوح ، وقيل فرائعة مصر من ولد عملاق الأول ابن لاود بن سام بن نوح - وكان جبارًا جريفاً شديد البأس مهيبًا . والقبط تزعم أنه أول الفرائعة بمصر ، وهو فزعون إبراهيم - عليه السلام - ويُقال إن الفرائعة سبعة هو أولهم ^٢ .

وحفر نهرًا في شرقي مصر بسفح الجبل ، حتى ينتهي إلى مرفأ السفن في البحر الملح ، وكان يحمل إلى هاجر - أم إسماعيل التي أعطاها إبراهيم عليه السلام - الحنطة وأصناف الغلات ، فتصل إلى جدة ، فأحبي بلد الحجاز مدة . ويُقال إن كل ما خلقت به الكعبة في ذلك العصر مما أهداه ملك مصر ، ولكثرة ما حمل إلى الحجاز سمته العرب من مجزهم / الصادوق ^٣ .

وفي كتاب هروشيوش أن سلطان المصريين في زمن إبراهيم الخليل - عليه السلام - كان بأيدي قوم يدعون بيني فاليق بن دارش ^٤ ، ودام ملكهم بمصر مائة وعشرين سنة ^٤ .

وقال ابن إسحاق عن بعضهم : إن فرائعة مصر من ولد دان بن فهلوج بن إمرار بن أشود بن سام بن نوح . قال : والمشهور إنهم من العماليق ، منهم الريان بن الوليد - ويُقال الوليد بن الريان - فزعون يوسف ، والوليد بن مضعب فزعون موسى ، ومنهم سنان بن علوان ^٥ .

قال ابن وصيف شاه : وإنما قيل له فزعون لأنه أكثر القتل ، ولم يُرزق غير ابنة ، وكانت عاقلة ، فخافت لكثرة قتله الناس ، فقتلته بسهم ، وله في الملك مائة وسبعون سنة ^٦ .

(a) في ترجمة هروشيوش : مالي بن دارش .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٠٣ ؛ وينص المقرئري ابتداء من هذا الخبر على النقل عن ابن وصيف شاه ، رغم أن كل المعلومات المتقدمة - فيما عدا الخبر القصير المنقول عن ابن عبد الحكم - مصدره ابن وصيف شاه .

^٣ انظر فيما يلي ٢ : ١٤٠ .

^٤ أوريوس : تاريخ العالم ٩٢ .

^٥ انظر فيما يلي ٦٥٥ .

^٦ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٠٦ ، وانظر فيما تقدم

وَمَلَكَتْ بَعْدَهُ حُورِيَا^(a)، فَوَعَدَتْ النَّاسَ بِالْإِحْسَانِ، وَجَمَعَتِ الْأَمْوَالَ، وَقَدَّمَتِ الْكَهَنَةَ وَأَهْلَ الْحِكْمَةِ وَرُؤَسَاءَ السَّحَرَةِ، وَرَفَعَتْ أَقْدَارَهُمْ، وَجَدَّدَتِ الْهَيْكَلَ؛ وَصَارَ مِنْ لَمَ يَرْضُهَا إِلَى مَدِينَةِ أَثْرِبَ، وَمَلَكَوا رِجَالًا مِنْ وَلَدِ أَثْرِبَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ خَبْرُهُ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ^١.

وَحُورِيَا^(a) أَوَّلُ امْرَأَةٍ مَلَكَتْ مِصْرَ مِنْ وَلَدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَاتَتْ^٢. فَمَلَكَتْ بَعْدَهَا ابْنَةُ عَمِّهَا ذَلَيْفَةَ^(b) بِنْتُ مَأْمُومٍ، وَكَانَتْ عَذْرَاءً عَاقِلَةً، فَوَعَدَتْ النَّاسَ بِالْجَمِيلِ. وَقَامَ عَلَيْهَا أَيَّمَنُ^(c) الْأَثْرِبِيِّ، وَاسْتَنْصَرَ بِمَلِكِ الْعِمَالِقَةِ، فَسِيرَ مَعَهُ قَائِدًا، فَأَخْرَجَتْ إِلَيْهِ جَيْشًا فَالْتَقَوْا بِالْعَرِيشِ وَاقْتَتَلُوا حَتَّى فَنِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ انْهَزَمَ أَصْحَابُ ذَلَيْفَةَ^(b) إِلَى مَنَفٍ، وَهُمْ فِي أَقْفِيَّتِهِمْ. فَخَرَجَتْ ذَلَيْفَةَ^(b) إِلَى الصُّعَيْدِ، وَنَزَلَتْ الْأَشْمُونِينَ، فَكَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَسَاكِرِ الْعِمَالِقَةِ حُرُوبٌ انْهَزَمُوا فِيهَا، وَخَرَجُوا عَنْ مَنَفٍ بَعْدَ مَا عَاثُوا فِيهَا، وَعَدَّوْا إِلَى الْحَوْفِ فَامْتَنَعُوا بِهِ، وَصَارَتْ مِصْرَ بَيْنَهُمْ نِصْفَيْنِ.

ثُمَّ إِنَّ ذَلَيْفَةَ^(b) عَاوَدَتْ الْحَرْبَ، فَاسْتَمَرَّتْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى انْهَزَمَتْ إِلَى قُوصٍ وَأَيَّمِنَ خَلْفَهَا، فَلَمَّا أَيَقَنَتْ أَنَّهَا تُؤَخِّدُ سَمِتَ نَفْسَهَا فَهَلَكَتْ^٣.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: ثُمَّ تَوَفَّى طُوَطَيْسُ بْنُ مَالِيَا، فَاسْتُخْلِفَتْ ابْنَتُهُ حُورِيَا^(a) ابْنَةُ طُوَطَيْسٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ غَيْرُهَا، ثُمَّ تَوَفَّتْ حُورِيَا^(a)، فَاسْتُخْلِفَتْ ابْنَةُ عَمِّهَا ذَلَيْفَةَ^(b) ابْنَةُ مَأْمُومِ بْنِ مَالِيَا، فَعُمِّرَتْ ذَهْرًا طَوِيلًا. وَكَثُرُوا وَنَمَوْا، وَمَلَأُوا أَرْضَ مِصْرَ كُلِّهَا، فَطَبِعَتْ فِيهِمُ الْعِمَالِقَةُ، فَغَزَاهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ دَوْمَعٍ فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا عَظِيمًا، ثُمَّ رَضُوا أَنْ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ، فَمَلَكَهُمْ نَحْوًا مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ، فَطَغَى وَتَكَبَّرَ وَأَظْهَرَ الْفَاحِشَةَ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَبْعًا فَاقْتَرَسَهُ وَأَكَلَ لَحْمَهُ^٤.

وَالَّذِي مَلَكَ مِصْرَ مِنَ الْفَرَاغَةِ خَمْسَةَ.

وَمَلَكَ أَيَّمِنُ^(d) وَتَجَبَّرَ، وَقَتَلَ خَلْقًا مِّنْ حَارِبِهِ. وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ دَوْمَعِ الْعَمَلِيْقِيُّ قَدْ خَرَجَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَبَعَثَ عَلَامًا يُقَالُ لَهُ فِرْعَوْنُ إِلَى مِصْرَ فَفَتَحَهَا، ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَهُ وَاسْتَبَاحَ أَهْلَ مِصْرَ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ لِيَقِفَ عَلَى مَصْبِ النَّيْلِ فَرَأَى جَبَلَ الْقَمَرِ، وَأَقَامَ فِي غَيْبَتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً

(a) بولاق: جورياق. (b) بولاق: زلفي. (c) بولاق: مأمون. (d) بولاق: أيمن.

^١ سيأتي هذا الخبر فيما يلي ٣٩٦-٣٩٧.

^٢ بعد ذلك عند النويري: يطلب بثأر خاله انداحس.

^٣ النويري: نهاية ١٥: ١٠٧؛ ويرى أحمد كمال باشا

^٤ النويري: نهاية ١٥: ١١٣.

أن حوريا هذه يقصد بها الملكة المصرية حتشبسوت ١

وَرَجَعَ إِلَى مِصْرَ ، وَقَدْ خَالَفَهُ فِرْعَوْنُ وَفَرَّ مِنْهُ ، فَاسْتَعْبَدَ أَهْلَ مِصْرَ وَمَلَكَهُمْ مِائَةَ وَعِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى هَلَكَ ^١ .

وَمَلَكَ ابْنَهُ الرَّهْيَانُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ دَوْمَغَ ؛ أَحَدُ الْعَمَالِقَةِ ، وَكَانَ أَقْوَى أَهْلِ الْأَرْضِ فِي زَمَانِهِ وَأَعْظَمَهُمْ مُلْكًا . وَالْعَمَالِقَةُ وَكَذَلِكَ عَمَلِيقُ بْنُ لَأوُدَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحَ ، وَهُوَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَالْقِبْطُ تُسَمِّيهِ نَهْرَاوِشَ ^٢ .

وَقِيلَ فِرْعَوْنُ يُوسُفُ اسْمُهُ الرَّهْيَانُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ لَيْثِ بْنِ فَارَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَمَلِيقِ بْنِ بَلْقَعِ بْنِ عَابِرِ بْنِ أَشْلِيخَا بْنِ لُوذِ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحَ ^٣ . وَقِيلَ فِرْعَوْنُ يُوسُفُ هُوَ جَدُّ فِرْعَوْنِ مُوسَى أَبُو أَبِيهِ ، وَاسْمُهُ بَرْخُو^٤ ، وَكَانَ عَظِيمَ الْخَلْقِ جَمِيلَ الْوَجْهِ عَاقِلًا ، فَوَعَدَ النَّاسَ الْجَمِيلَ ، وَأَشَقَطَ عَنْهُمْ الْخَرَاجَ لثَلَاثِ سِنِينَ ، وَفَرَّقَ الْمَالَ فِيهِمْ .

وَمَلَكَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ يُقَالُ لَهُ أَطْفِينُ ^٥ ، وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْعَزِيزُ ، وَكَانَ عَاقِلًا أَدِينًا مُسْتَعْمِلًا لِلْعَدْلِ وَالْعِمَارَةِ ، فَأَمَرَ أَنْ يُنْصَبَ لَهُ سَرِيرٌ مِنْ فِضَّةٍ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ يَجْلِسُ عَلَيْهِ ، وَيَخْرُجُ وَجَمِيعِ الْكُتَّابِ وَالْوُزَرَاءِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَكَفَى نَهْرَاوِشَ مَا خَلْفَ سِتْرِهِ ، وَقَامَ بِجَمِيعِ أُمُورِهِ ، وَخَلَّاهُ لِلذَّاتِ . فَأَقَامَ عَلَى قَضْفِهِ مُدَّةً - وَالْبَلَدُ عَامِرٌ - فَقَصَدَهُ رَجُلٌ مِنَ الْعَمَالِقَةِ ، وَسَارَ إِلَى مِصْرَ فِي جُيُوشِهِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَقَاتَلَهُ وَهَزَمَهُ وَسَارَ خَلْفَهُ ، وَدَخَلَ الشَّامَ وَعَاثَ هُنَالِكَ ، فَهَابَتْهُ الْمُلُوكُ وَلَا طَفَقَتْه ^{١٥} .

وَقِيلَ إِنَّهُ بَلَغَ الْمُؤَصِّلَ ، وَضَرَبَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ خَرَاجًا . وَخَرَجَ لَغَزْوِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ فِي تِسْعِ مِائَةِ أَلْفٍ ، وَمَرَّ بِأَرْضِ الْبَرْبَرِ وَجَلَّأَ كَثِيرًا مِنْهُمْ ، وَمَرَّ إِلَى الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ ، وَسَارَ إِلَى الْجَنُوبِ فَقَدِمَ الثُّوبَةَ ، وَعَادَ إِلَى مَدِينَةِ مَنْفٍ ^٦ . وَكَانَ مِنْ خَبَرِ يُوسُفَ مَعَهُ مَا ذُكِرَ عِنْدَ ذِكْرِ الْفَيْئُومِ ^٧ .

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٢. ^٥ أضاف النويري: وقيل في اسمه تظهير وقيل:

^٢ قارن النويري: نهاية ١٥: ١١٣-١١٥. قوطيفر، وانظر فيما يلي ٦٥٥.

^٣ فيما يلي ٦٥٥. ^٦ النويري: نهاية ١٥: ١٢٠، ١٢١.

^٤ عند النويري: والقبط تسميه نهراروش، وفيما يلي ^٧ فيما يلي ٦٥٥-٦٦٠.

وَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ دَرِيمُوسُ ، وَيُقَالُ لَهُ دَارِمُ بْنُ الرَّيَّانِ ، وَهُوَ الْفِرْعَوْنُ الرَّابِعُ ، فَخَالَفَ سُنَّةَ أَبِيهِ ، وَكَانَ يُوسُفُ خَلِيفَتَهُ فَيَقْبَلُ مِنْهُ تَارَةً وَيُخَالِفُهُ تَارَةً ، وَظَهَرَ فِي أَيَّامِهِ مَعْدِنُ فِضَّةٍ فَأَثَارًا^(a) مِنْهُ شَيْئًا عَظِيمًا^١ .

وَفِي أَيَّامِهِ مَاتَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَاسْتَوَزَرَ بَعْدَهُ رَجُلًا حَمَلَهُ عَلَى أَدَى النَّاسِ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ^٢ ، فَتَلَعَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَبْلَغًا عَظِيمًا . ثُمَّ زَادَ فِي التَّجْرَى حَتَّى اقْتَلَعَ كُلَّ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ بِمَدِينَةِ مَنَفٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَكَانَ لَا يَسْمَعُ بِامْرَأَةٍ حَسَنَاءَ فِي مَوْضِعٍ إِلَّا وَجَّهَ إِلَيْهَا فَحَمَلَتْ إِلَيْهِ ؛ فَاضْطَرَبَ النَّاسُ ، وَشَغَبُوا عَلَيْهِ ، وَعَطَّلُوا الصَّنَائِعَ وَالْأَعْمَالَ وَالْأَسْوَاقَ ، فَعَدَا عَلَيْهِمْ وَقَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً ، وَزَادَ الْأَمْرُ حَتَّى اجْتَمَعُوا عَلَى خَلْعِهِ ، فَبَرَزَ لَهُمْ وَأَسْقَطَ عَنْهُمْ خَرَجَ ثَلَاثَ سِنِينَ وَأَنْفَقَ فِيهِمْ مَالًا ، فَسَكَّتُوا^٣ .

وَفِي أَيَّامِهِ نَارَ الْقَيْبُطِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَطَلَّبُوا/ مِنَ الْوَزِيرِ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ مِصْرَ ، فَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى أَمْسَكُوا .

وَبَلَغَ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ إِلَى الصَّعِيدِ ، فَتَوَعَّدَ أَهْلَ مِصْرَ ، فَشَغَبُوا عَلَيْهِ وَخَشِدُوا لَهُ ، فَحَارَبُوهُ فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا ، وَظَفِرَ بِنِ بَقِي فَقَتَلَهُمْ وَصَلَبَهُمْ عَلَى حَافَتِي النَّيْلِ ، وَعَادَ إِلَى أَعْظَمِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ أَخْذِ الْأَمْوَالِ وَالنِّسَاءِ وَاسْتِخْدَامِ أَشْرَافِ الْقَيْبُطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَجْمَعَ الْكُلَّ عَلَى ذَمِّهِ ، فَزَكَبَ النَّيْلَ لِلتَّرْهَةِ وَنَارَ بِهِ رِيحٌ عَاصِفٌ فَغَرِقَ ، فَلَمْ يُوجَدَ إِلَّا نَاحِيَةَ شَطْطُوفَ ، وَقِيلَ فِيمَا بَيْنَ طُرَا وَحُلُوانَ^٤ .

فَقَدَّمَ الْوَزِيرُ ابْنَهُ مَعَادِيُوسَ^(b) - وَكَانَ صَبِيًّا ، وَيُقَالُ لَهُ مَعْدَانُ - فَأَسْقَطَ عَنِ النَّاسِ مَا أُسْقَطَهُ أَبُوهُ مِنَ الْخَرَجِ ، وَوَعَدَ بِالْإِحْسَانِ فَاسْتَقَامَ لَهُ الْأَمْرُ ، وَرَدَّ نِسَاءَ النَّاسِ ؛ وَهُوَ خَامِسُ الْفِرَاعِنَةِ . وَحَدَّثَ فِي زَمَانِهِ طُوفَانُ مِصْرَ ، وَكَثُرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَعَابُوا الْأَصْنَامَ ، فَأَفْرَدُوا نَاحِيَةَ عَنِ الْبَلَدِ بِحَيْثُ لَا يَخْتَلِطُ بِهِمْ غَيْرُهُمْ ، وَأَقْطَعُوا مَوْضِعًا فِي قَبْلِي مَنَفٍ فَاجْتَمَعُوا فِيهِ وَبَنُوا فِيهِ مَعْبَدًا . وَغَلَبَ بَعْضُ الْكَنْعَانِيِّينَ عَلَى الشَّامِ ، وَمَنَعَ مِنَ الضَّرِيئَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ لِمَلِكِ مِصْرَ ،

(a) النويري: فابان . (b) بولاق: معاويوس .

^١ النويري: نهاية ١٧٢:١٥ وفيما يلي ٦٦٢ .
^٢ هو بلاطس بن منسا الكاهن (النويري: نهاية

^٣ النويري: نهاية ١٢٨:١٥ - ١٢٩ .
^٤ النويري: نهاية الأرب ١٢٩:١٥ - ١٣٠ .

فاجتمع الناس إلى معدان ، وحثوه على المسير لحزبه ، فامتنع عن المسير ولزم الهيكل . فزعموا أنه قام في هيكل زحل للعبادة ، فتجلى له زحل وخاطبه وقال له : قد جعلتك رباً على أهل بلدك ، وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم ، وسأزفئك إلى فلا تُخَلَّ من ذكري .
فَعَظُمَ عند نفسه وتَجَبَّرَ ، وأمر الناس أن يُسْمُوهُ رَبًّا ، وترَفَّعَ عن أن يُنظَرَ في شيء من أمر الملك ، وجعلَ عليه ابنه أكَسَامُسُ ١ .

فقام ابنه أكَسَامُسُ في الملك - ويقال كاسيم بن معدان - فرتب الناس مراتب ، وقسم الكور والأعمال ، وأمر باستنباط العمارات وإظهار الصناعات ، ووسع على الناس في أزواقهم ، وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها ، وزاد في القرابين ؛ وهو الذي يُقال له كاشم بن معدان ابن دارم بن الرتيان بن الوليد بن دؤمَع العمليقي ، وهو سادس الفراعنة ، وسُموا فراعنة بفرعان الأول ، فصار اسماً لكل من تجبر وعلا أمره ٢ .

فطال ملكه ، وأقام أعلاماً كثيرة حول منف ، وعمل مدناً كثيرة ومناير للوقودات وطلسمات ، وأقام سبع سنين بأجمل أمر .

فلما مات وزير أبيه استخلف رجلاً من أهل بيت المملكة يُقال له طلما بن قومس . وكان شجاعاً ساجراً كاهناً كاتباً حكيماً متصرفاً في كل فن ، وكانت نفسه تُنازعه الملك ، فأصلح أمر الملك ، وبنى مدناً من الجانبين ، ورأى في نومه أنه سيكون حدث ، فبنى بناحية رقودة والصعيد ملاعب ومصانع .

وشكا إليه القبط من الإسرائيليين ، فقال : هم عبيدكم ، فأذلوهم من حينئذ ؛ وخرج إلى ناحية البربر فعات وقتل وسبى . وفي أيامه بُنيت منارة الإسكندرية ، وهاج البحر الملح فغرق كثيراً من القرى والجنان والمصانع .

ومات أكَسَامُسُ ، وكان ملكه إحدى وثلاثين سنة ، منها إحدى عشرة سنة يُدبر أمره ظلماً^(a) ٣ . فلما مات اضطرب الناس واتهموا ظلماً^(a) أنه سمه ؛ فقام وولي لاطيس بن أكَسَامُسُ ، وكان جريئاً مُعجباً صلفاً ، فأمر ونهى ، وألزم الناس أعمالهم ، وقال : أنا مُستقيم ما استقمتم ،

(a) بولاقي : ظلماً .

١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٣٠ - ١٣٢ .

٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٣٢ - ١٣٣ .

٣ انظر فيما تقدم ٣٦٣ .

وإن ملثم عن الواجب ملث عنكم . وخط جماعة عن مراتبهم ، وصرف ظلما^a عن خلافته ، واشتخلف غيره ، وأنقذ ظلما^a إلى الصعيد في جماعة من الإسرائيليين ، وجدد بناء الهيكل ، وبنى القرى ، وأثار معادن كثيرة ، وكثر في صحراء الشرق عدة كنوز ، وكان يحب الحكمة .

ثم تجبر وعلا أمره وأمر ألا يجلس أحد في مجلسه ولا في قصر الملك لا كاهن ولا غيره ، بل يقومون على أرجلهم حتى يمضوا . وزاد في أذى الناس والعنف بهم ، ومنع فصول ما بأيديهم وقصرهم على القوت ، وجمع أموالهم ، وطلب النساء وانتزع كثيرا منهن ، وفعل أكثر مما فعله من تقدم قبله ، واستعبد بني إسرائيل ، وقتل جماعة من الكهنة ، فأبغضه الخاص والعام .

وثار ظلما^a بالصعيد وكاتب وجوه الناس ، فكتب لاطيس بصرفه عن العمل ، فامتنع وحارب عساكره ، وزحف حتى دخل منف^١ .

- ١٠ ظلما^a بن قومس فزعون موسى ، يقال إن اسمه الوليد بن مصعب بن أراهون بن الهلوت بن قاران بن عمرو بن عمليق بن بلقع بن عابر بن أشليخا بن لود بن سام بن نوح ، وإنه من العماليقة . وكان قصيرا ، طويل اللحية ، أشهل العين اليمنى ، صغير العين اليسرى ، أعرج . وزعم قوم أنه من القبط ، وأن نسبه ونسب أهل بيته مشهور عندهم ، وقيل غير ذلك^٢ .
- وكان من خبره ما ذكرنا في كنيسة دموه^٣ .

- ١٥ وقال ابن عبد الحكم : ولما أغرق الله فزعون بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشرف أهلها أحد ، ولم يبق إلا العبيد والأجراء والنساء ، فأعظم أشرف من بمصر من النساء أن يؤلين منهم أحدا ، وأجمع رأيهن أن يؤلين امرأة يقال لها دلوكه . فملك دلوكه ابنة زباء ، ويقال دلوكه بنت زفان^b . وكان لها عقل وتجارب ومعرفة ، وكانت في شرف منهن ، وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة . فبنت جدارا حصنت به مصر من الأعداء ، وكان من حد زنج إلى إفريقية إلى الواحات إلى بلد الثوبة ، على كل موضع منه حرس قيام ليلاهم ونهارهم ، يقدون النار وقودا لا يطفأ أبدا ، أحاطت به على جميع أرض مصر كلها/ في ستة أشهر ، وهو حائط العجوز^٤ .

(a) بولاق : ظلما . (b) بولاق : فاران .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٣٣-١٣٥ .

^٢ نفسه ١٥ : ١٣٥-١٣٦ .

^٣ فيما يلي ٢ : ٤٦٤ .

^٤ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٦-٢٧ ، وقارن

المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٨٧-٨٨ ؛ النويري : نهاية

الأرب ١٥ : ١٣٨-١٣٩ ؛ وانظر فيما يلي ٥٤١-٥٤٢ .

وفي أيامها بنت تدورة الساجرة البرابي في وسط منف^١.

فملكهم ذلوكه عشرين سنة ، حتى بلغ صبي من أبناء أكابره يقال له ذركون بن بلاطس . ثم مات واستخلف ابنه تودست ، ثم توفي تودست بن ذركون ، فاستخلف أدقاش ، فلم يملك إلا ثلاث سنين حتى مات ، فاستخلف أخوه مريتا بن مريئوس . ثم توفي فاستخلف استادس بن مريتا ، فطغى وتكبر وسفك الدم وأظهر الفاحشة ، فخلعوه وقتلوه ، وبايعوا رجلاً من أشرفهم يقال له بلوطس بن ميناكيل ، فملكهم أربعين سنة . ثم توفي فقام ابنه مالوس . ثم توفي مالوس فاستخلف أخوه ميناكيل بن بلوطس بن ميناكيل ، فملكهم زماناً . ثم توفي واستخلف ابنه نولة بن ميناكيل ، فملكهم مائة وعشرين سنة ؛ وهو الأعرج الذي سبى ملك بيت المقدس وقدم به إلى مصر ، وكان قد تمكن وطغى وبلغ مبلغاً لم يبلغه أحد ممن قبله بعد فرعون ، فصرغته دابته فمات^٢ . وقيل له الأعرج لأنه لما غزا أهل بيت المقدس ونهبهم وسبى ملكهم يوشيا بن أمون بن منشا ابن جزقيا ، هم أن يصعد على كرسي نبي الله سليمان بن داود - وكان بلوب لا يمكن أحداً أن يصعد عليه إلا برجليه جميعاً - فصعد برجلي واحدة ، وهي اليمنى ، فدار اللولب على ساقه الأخرى فاندقت ، فلم يزل يجمع بها إلى أن مات ، فلذلك سمي الأعرج .

فاستخلف مريئوس بن بوله ، فملكهم زماناً ثم توفي ، واستخلف ابنه قرقورة فملكهم ستين سنة ثم توفي ، واستخلف أخوه لقاس بن مريئوس ، وانهدم البرتا في زمنه فلم يقدر أحد على إصلاحه ثم توفي لقاس واستخلف ابنه فوميس بن نقاس فملكهم ذهراً وحاربه بُخت نصر وقتله ، وخرّب مدينة منف وغيرها من المدائن ، وسبى أهل مصر ولم يترك بها أحداً حتى بقيت أرض مصر أربعين سنة خراباً ليس فيها ساكن .

وذكر في تزجمة كتاب هروشيوش الأندلسي ، في وصف الدول والحروب ، أن فيما بين غرق فرعون موسى إلى مائة وسبع سنين^٣ كان بمصر ملك يسمى بوشردش [Busiridis] ، كان يقتل الغرباء والأضياف ، ويذبحهم لأوثانه ، ويجعل دماءهم قرباناً لها^٤.

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٧ .

^٢ نفسه ٢٨ - ٢٩ .

^٣ في الأصل اللاتيني في الموضع الأول : قبل بناء مدينة

روما (مقدمة تاريخ العالم لأوروسوس ٣٢) .

^٤ أوروسوس : تاريخ العالم ١١٥ .

رومة بسبع مائة سنة وخمس وسبعين سنة ، وفي الموضع

الثاني : قبل ببناء مدينة رومة بأربع مائة وثمانين سنة ، ولاحظ

وَأَنَّ بَعْدَ غَرَقِ فِرْعَوْنَ إِلَى ثَلَاثِ مِائَةِ وَثَمَانِ وَعِشْرِينَ سَنَةً كَانَ بِمِصْرَ مَلِكٌ يُسَمَّى بِزُرُوبَةَ [Vesozes] ، وَكَانَ عَظِيمَ الْمَمْلَكَةِ قَوِيَّ السُّلْطَانِ أَخَذَ بِالْحَرْبِ أَكْثَرَ نَوَاحِي الْجَنُوبِ [وَالْجُوفِ] ^(a) بَرًّا وَبَحْرًا ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ حَارَبَ الشَّسِيِّينَ ^(b) [Scythis] الَّذِينَ قَبِلَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْقُوطَ ^(c) ، وَكَانَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَيُخَوِّفُهُمْ حَرْبَهُ ، فَأَجَابُوهُ : لَيْسَ مِنَ الرَّأْيِ الْحَمُودِ لِلْمَلِكِ الْغَنِيِّ مُحَارَبَةَ قَوْمٍ فَقَرَاءَ لِكثْرَةِ نَوَازِلِ الْحُرُوبِ وَاخْتِلَافِ حَوَادِثِهَا بِالظُّفْرِ وَالْهَلَاكِ ، وَإِنَّا لَا نَنْتَظِرُ مَجِيئَكَ ، بَلْ نُسْرِعُ لِنُغَارِتَكَ ؛ وَأَتَّبَعُوا قَوْلَهُمْ عَمَلًا ، وَخَرَجَ فِرْعَوْنُ إِلَيْهِمْ فَخَرَجُوا مُسْرِعِينَ إِلَيْهِ ، وَهَزَمُوا جُيُوشَهُ وَنَهَبُوا عَسَاكِرَهُ وَأَمْوَالَهُ وَعُدَدَهُ وَجَمِيعَ ذَخَائِرِهِ ، وَمَضُوا فَنَهَبُوا أَرْضَ مِصْرَ حَتَّى كَادُوا يَغْلِبُونَ عَلَيْهَا لَوْلَا وَجُوحُ ^(d) عَرَضَتْ لَهُمْ مَنَعَتْهُمْ مِمَّا خَلَفَهَا ^(e) ، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ^(f) بِحُرُوبٍ مُتَّصِلَةٍ حَتَّى أَذَلُّوا أَهْلَهَا وَجَعَلُوهُمْ يُوَدُّونَ إِلَيْهِمُ الْمَغَارِمَ ، وَأَقَامُوا مُحَارِبِينَ لِمَنْ خَلَفَهُمْ ^(g) فِي غَزَوَاتِهِمْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَلَمْ يَنْصَرَفُوا إِلَى بِلَادِهِمْ حَتَّى أَتَتْهُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَنْ يَقْلُنَ لَهُمْ : إِذَا أَنْ تَنْصَرَفُوا ، وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ الْأَزْوَاجَ وَتَطْلُبَ النُّسْلَ مِنْ عِنْدِ الْمُجَاوِرِينَ لَنَا . فَعِنْدَ ذَلِكَ انْصَرَفُوا إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَدْ اِمْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ أَمْوَالًا وَأَوْقَارًا جَمَّةً ، وَقَدْ خَلَقُوا وَرَاءَهُمْ ذِكْرًا مُفْرَعًا ^١ .

وَيُقَالُ إِنَّ مُلُوكَ مَدْيَنَ مَلَكُوا مِصْرَ خَمْسَ مِائَةِ عَامٍ بَعْدَ غَرَقِ فِرْعَوْنَ وَهَلَاكِ دُلُوكَةٍ حَتَّى أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ ، فَعَادَ الْمَلِكُ بَعْدَهُمْ إِلَى الْقَيْبِطِ ، وَإِنَّ جَالُوتَ بْنَ مَالُودٍ ^(h) لَمَّا قَتَلَهُ دَاوُدُ سَارَ ابْنَهُ جَالُوتَ بْنَ جَالُوتَ إِلَى مِصْرَ وَبِهَا مُلُوكَ مَدْيَنَ ، فَأَنْزَلَهُ مَلِكُ مِصْرَ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ، فَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً ثُمَّ سَارَ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ ^٢ .

وَيُقَالُ إِنَّ الْقَيْبِطَ مَلَكُوا مِصْرَ بَعْدَ دُلُوكَةِ وَابْنِهَا مُدَّةً سِتِّ مِائَةِ سَنَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَعِدَّتُهُمْ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ مَلِكًا ، هُمْ ^٣ :

(a) زيادة من أورو سيوس . (b) الأصل وبولاق : الروم والمثبت من ترجمة أورو سيوس . (c) بولاق : القوط . (d) أورو سيوس : مروج دجلة . (e) بولاق : خلفهم . (f) أورو سيوس : بلد أسيه . (g) بولاق : خالفهم . (h) بولاق : يالوت .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١١٧-١١٨ .
^٢ انظر فيما يلي ٥١٢ .
^٣ اعتمد المقرئ ابتداءً من هذا الموضع على قائمة مانيتون Manetho كما نقلها يوسيبوس القيصري Eusebius of Caesarea (٢٦٠-٣٤٠م) ، وتشتمل على ملوك الأسرات التسعة المصرية الأخيرة وهم أربعة وثلاثون ملكاً أولهم ملوك الأسرة التاسعة عشرة وهم أسرة ديوسبوليس Diospolis ، ويبدو أن ما وقع للمقرئ من كتاب يوسيبوس يشتمل على الكتاب الثالث من كتاب مانيتون الذي يبدأ بالأسرة العشرين . ويتفق نص المقرئ =

[الأسرة ٢٠] ديوسفوليطا [Diospolis] ، ومُدَّتُهُ ثمان وسبعون سنة ، وقيل ثمان وثمانون سنة .
 [الأسرة ٢١] ثم مَلَّكَ بعده سَمَانَادُوس [Smendis] سِتًّا وعشرين سنة . وقامَ بَعْدَهُ
 سوساناس [Psusenês] مُدَّةَ مائة وسنة . ثم مَلَّكَ نفخراس [Nephercherês] أَرْبَع سنين . ثم مَلَّكَ
 أمانافوتاس [Amenôphthis] تِسْع سنين . ثم أَسْخُورِيس [Osochôr] سِتَّ سنين . ثم
 فسيناخس [Psinnachês] تِسْع سنين . ثم فسوسانس [Psusennês] خَمْسًا وثلاثين
 سنة .

[الأسرة ٢٢] ثم مَلَّكَ سسوناخوسيس [Sesônchôsis] إِحْدَى وعشرين سنة . ثم مَلَّكَ
 أساراثون [Osorthôn] خَمْس عشرة سنة . ثم طاقالوتيس [Tacelôthis] ثلاث عشرة
 سنة .

[الأسرة ٢٣] ثم فطافاباسطاس [Petubastis] خَمْسًا وعشرين سنة . ثم أساراثون [Osorthôn]
 تِسْع سنين . ثم مَلَّكَ فساموس [Psammus] عَشْر سنين .

[الأسرة ٢٤] ثم أوفانقورس [Bocchoris of Sais] أَرْبَعًا وأربعين سنة .

[الأسرة ٢٥] ثم ساباقون [Sabacon] اثنتي عشرة سنة . ثم سبخس الحَبَشِي
 [Sebichos] اثنتي عشرة سنة . ثم طراخوس الحَبَشِي [Saracus (Taracus)] عَشْرين
 سنة .

[الأسرة ٢٦] ثم أمزاس الحَبَشِي [Ameres the Ethiopian] اثنتي عشرة سنة . ثم اسطافينيتاس

ملوك القبط الذين كانوا بمصر وعددهم أربعة وثلاثون سوى
 الفُرس وعُدَّتْهم مع الفرس ثمان مائة وأربع وتسعون سنة .
 وربما كان هو المصدر الذي أخذ عنه المقرئ ؛ فقد اعتمد
 عليه اعتمادًا كبيرًا في مواضع كثيرة من كتابه . وانظر نص
 الترجمة الأرمنية كما نقله يوسيبوس القيصري عن مانيتون
 في كتاب Waddell, W. G., *Manetho with an
 english Translation*, Harvard University Press
 1971, pp. 149-87؛ وراجع عن يوسيبوس القيصري
 1070-71؛ وانظر فيما يلي ١: ٢٦٧.

= تمامًا مع نص يوسيبوس - الذي وصل إلينا الآن في ترجمة
 أرمنية - ابتداءً من ذكر ملوك الأسرة الحادية والعشرين التي
 تبدأ بالملك سمادادوس Smendes، فيما عدا ملوك الأسرة
 ٢٧. ولاشك أن كتاب يوسيبوس نُقِلَ إلى اللغة السريانية ،
 وبما أن أغلب الترجمات العربية للنصوص اليونانية تمت عن
 طريق السريانية ، فمن الممكن أن يكون المؤلفون العرب -
 الذين اعتمد عليهم المقرئ في نقل هذه الأسماء - قد
 أخذوها عن نص سُرْيَانِي ، وعرفوا قائمة مانيتون وعلى
 الأخص البيروني الذي أورد نفس القائمة في كتابه «الآثار
 الباقية عن القرون الخالية» ٩٠-٩١ وبدأها بعبارة : «تسمية

[Stephinathes] سَبْعَ سِنِينَ . ثم ناخفاسوس [Nechepsos] سِتِّ سِنِينَ . ثم ناخو [Nechao] ثَمَانِ سِنِينَ . ثم فساماماطيقوس [Psametichus] أَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً . ثم نخوثان [Nechao II] سِتِّ سِنِينَ . ثم فساموتاس [Psamuthes II] سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً . ثم وافر [Uaphres] خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً . ثم أماسيس [Amosis] اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً^١ .

وَمَلَّكَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ / مِصْرَ خَمْسَةَ مُلُوكٍ مِنْ مُلُوكِ بَابِلَ ، وَهَم :

[الأسرة ٢٨] أمرطيوس [Amyrtaeus of Saïs] سِتِّ سِنِينَ .

[الأسرة ٢٩] ثم نافرطاس [Nepheritês] سَبْعَ سِنِينَ ، ثم أُوخرس [Achôris] اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ،

ثم فساموت [Psammuthis] مُدَّةَ سِنَتَيْنِ ، ثم مَلَّكَ مَوْتَاطُوس [Muthes] سَبْعَ سِنِينَ^٢ .

ثم مَلَّكَ ثَلَاثَةَ مُلُوكٍ مِنْ أَثُورَ ، وَهَم الْجَرَامِقَةُ الَّذِينَ مَلَكُوا الْمُؤَصِّلَ وَنِينُوا وَالْجَزِيرَةَ ، وَهَم :

[الأسرة ٣٠] ناقاطانبوس [Nectanebês] ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، ثم طوس [Teos] سَبْعَ سِنِينَ ، ثم

ناقاطانيباس [Nectanebus] ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً^٣ .

ثم انْتَقَلَ مُلْكُ مِصْرٍ مِنْهُمْ إِلَى الإسْكَنْدَرِ بْنِ فِيلِبُّشِ الْيُونَانِيِّ . وَهَذِهِ أَسْمَاءُ رُومِيَّةٍ ، وَلَعَلَّهَا أَوْ

بَعْضُهَا مُتَدَاخِلٌ فِيمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ مَلَّكَ بَعْدَ ذَلِكِ .

وَبَيْنَ بُخْتِ نَصْرٍ وَبَيْنِ الطُّوفَانِ أَلْفَا سَنَةً وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتِّ وَخَمْسُونَ سَنَةً وَأَشْهُرًا ،

وَيَجْتَمِعُ مِنْ حِسَابِ مَا وَقَعَ فِي التُّورَةِ أَنَّ بَيْنَ الطُّوفَانِ وَبَيْنِ خَرَابِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ عَلَى يَدِ

بُخْتِ نَصْرٍ مِنَ السِّنِينَ أَلْفَا وَسِتِّ مِائَةٍ وَأَرْبَعًا وَثَمَانِينَ سَنَةً . وَهَذَا خِلَافُ مَا نَقَلَهُ

المشعودي .

^١ لم يذكر المقرئبي الأسرة ٢٧ وهي أسرة فارسية مكونة

^٢ الأسرة ٣١ مثل الأسرة ٢٧ مكونة من ملوك فارسيين

ويتهي بها كتاب مانيتون .

معروفة لكل من البيروني والقلقشندي .

^٣ أضاف نص يوسيبوس عن مانيتون بعد ذلك

ذِكْرُ مَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ

هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعًا^١. وقد بُنيت غير مرّة: فأوّل ما بُنيت بعد كَوْن الطُوفان في زَمَانِ مِصْرَايِمَ بنِ يَتِصَرَ بنِ نُوحٍ، وكان يُقالُ لها إذ ذاك مَدِينَةُ رَقُودَةَ؛ ثم بُنيت بعد ذلك مرّتين. فلمّا كان في أَيّام اليونانيين جَدَّدَهَا الإسْكَندَرُ بنُ فيليپس المقدوني، الذي قَهَرَ دَارًا وَمَلَكَ مَمَالِكَ الفُرسِ بعد تَخْرِيْبِ بُخْتِ نَصْرَ مَدِينَةِ مَنَفٍ بِمِائَةِ وَعِشْرِينَ سَنَةً شَمْسِيَّةً، فَعُرِفَتْ بِهِ.

١١٨، ٤ (١٩٤٨)، ١٢١-١٤٠ جمال الدين الشيال: «الإسكندرية - طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر»، المجلة التاريخية المصرية ٢ (أكتوبر ١٩٤٩)، ١٩١-٢٧١، وله أيضًا «تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، الإسكندرية ١٩٦٧؛ حسن عبد الوهاب: «الإسكندرية في العصر الإسلامي»، مجلة الكتاب (يناير ١٩٤٧)؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية ١٩٦٩، ١٩٨٢، Jondet, G., *Atlas historique de la ville et des ports d'Alexandrie*, Le Caire, MSSG 1921; Combe, E., «Alexandrie musulmane: Notes de topographie et d'histoire de la ville depuis la conquête arabe jusqu'à nos jours», *BSRGEXV* (1927), pp. 201-238, XVI (1928), pp. 111-171, 269-292; Haas, Chr., *Alexandria in Late Antiquity. Topography and Social Conflict*, London 1997; *Alexandrie entre deux monde*, ROMM, n°46, Aix-en-Provence 1984; Ilbert, R., *Alexandrie 1830-1930*, 2 vols, Le Caire - IFAO 1996; Bernand, A., *Alexandrie de Ptolémées*, Paris CNRS 1995; Labib, S.Y., *El* .art. *al-Iskandariyya* IV, pp. 137-43

^١ أعطى المقرئ للإسكندرية المركز الثالث في الأهمية في كتابه، بعد القاهرة ومصر الفسطاط وخصص لها القسم الأكبر في الفصل الذي عقده لذكر مدائن أرض مصر، فقد كانت ولأكثر من ألف عام عاصمة مصر قبل الفتح العربي الإسلامي (راجع كتب المسالك والممالك؛ المسعودي: مروج الذهب ١: ١١٤-١١٥؛ ٢: ٧٣، ٩٩-١٠٩، وذكر في المروج ٢: ٧٣ أنه لم يعرض في هذا الكتاب لكثير من أخبار الإسكندرية لأنه أتى على ذلك في الكتاب الأوسط؛ ياقوت: معجم البلدان ١: ١٨٢-١٨٩؛ ابن جبير: الرحلة ١٤-١٩؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبحار (ممالك مصر والشام) ٨٨-٩٣؛ ابن بطوطة: تحفة النظار ١: ١٢-٢٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٤٠٣-٤٠٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٨٤-٨٨؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية المجلد السابع.

وانظر كذلك، «تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور»، مجموعة بحوث نشرتها محافظة الإسكندرية سنة ١٩٦٣؛ زكي علي: «الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر البطالمة»، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ٢ (١٩٤٤)، ١١٧-

ومنذ جَدَّدَهَا الإسْكَندَرُ المذْكَورُ، انْتَقَلَ تَحْتَ المَمْلَكَةِ مِنْ مَدِينَةِ مَنُفٍ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ، فَصَارَتْ دَارَ المَمْلَكَةِ بِدِيَارِ مِصْرَ. وَلَمْ تَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى ظَهَرَ دِينُ الإسْلَامِ، وَقَدِيمَ عَمْرُو ابْنِ العَاصِ بِجُيُوشِ المُسْلِمِينَ وَفَتَحَ الحِصْنَ وَالإسْكَندَرِيَّةَ، وَصَارَتْ دِيَارُ مِصْرَ أَرْضَ إِسْلَامٍ، فَانْتَقَلَ تَحْتَ المَلِكِ حِينْتَيْهِ مِنَ الإسْكَندَرِيَّةِ إِلَى فُسْطَاطِ مِصْرَ، وَصَارَ الفُسْطَاطُ مِنْ بَعْدِ الإسْكَندَرِيَّةِ دَارَ مَمْلَكَةِ دِيَارِ مِصْرَ. وَسَاقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَحْبَارِ الإسْكَندَرِيَّةِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمِي

٥. إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

ذَكَرَ أَبُو الحَسَنِ المَسْعُودِي فِي كِتَابِ «أَحْبَارِ الزَّمَانِ» أَنَّ الكَوْكَبَ - وَهِيَ أُمَّةٌ فِي غَابِرِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ - مَلَكَوا الأَرْضَ وَقَسَّمُوهَا عَلَى ثَلَاثِينَ كُورَةَ وَأَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، كُلٌّ قِسْمِ عَمَلٍ، وَبَنَوْا فِي كُلِّ عَمَلٍ مَدِينَةً بِهَا مَلِكٌ يَجْلِسُ عَلَى مِثْبَرٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَهُ بَرَبَاتٌ وَهِيَ بَيْتُ الحِكْمَةِ، وَلَهُ هَيْكَلٌ عَلَى اسْمِ كَوْكَبٍ فِيهِ أَصْنَامٌ مِنْ ذَهَبٍ. وَجَعَلُوا الإسْكَندَرِيَّةَ، وَاسْمُهَا رَقُودَةٌ، خَمْسَ عَشْرَةَ كُورَةَ، وَجَعَلُوا فِيهَا كِبَارَ الكَهَنَةِ، وَنَصَبُوا فِي هَيَاكِلِهَا مِنْ أَصْنَامِ الذَّهَبِ أَكْثَرَ مِمَّا نَصَبُوا فِي غَيْرِهَا، فَكَانَ مَا بِهَا مَائَتًا صَنَمٌ مِنْ ذَهَبٍ. وَقَسَّمُوا الصُّعِيدَ ثَمَانِينَ كُورَةَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ وَثَلَاثِينَ مَدِينَةً فِيهَا جَمِيعَ العَجَائِبِ^١.

١٠.

وَذَكَرَ بَطْلَمَيْوسُ فِي كِتَابِ «الأَقَالِيمِ وَوَصْفِ الجَزَائِرِ وَالبِحَارِ وَالمُدُنِ» أَنَّ مَدِينَةَ الإسْكَندَرِيَّةِ لِيُزْجِ الأَسَدُ، وَدَلِيلُهَا المَرِيخُ، وَسَاعَاتُهَا أَرْبَعُ عَشْرَةَ سَاعَةً، وَطُولُهَا سِتُونَ دَرَجَةً وَنِصْفَ دَرَجَةٍ، يَكُونُ ذَلِكَ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ مُسْتَوِيَّةٍ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ سَاعَةً.

١٥.

وَقَالَ ابْنُ وَصِيفِ شَاهٍ فِي ذِكْرِ أَحْبَارِ مِصْرَائِمِ بْنِ يَيْصَرَ بْنِ نُوحٍ: وَعَلَّمَهُمْ أَيْضًا عَمَلَ الطَّلُشْمَاتِ، وَكَانَتْ تَخْرُجُ مِنَ البَحْرِ دَوَابُّ تُفْسِدُ زَرْعَهُمْ وَجِنَانَهُمْ وَبُنْيَانَهُمْ، فَعَمِلُوا لَهَا الطَّلُشْمَاتِ، فَغَابَتْ وَلَمْ تَعُدْ. وَبَنَوْا عَلَى عِبْرَةِ^(a) البَحْرِ مُدُنًا، مِنْهَا مَدِينَةُ رَقُودَةٌ مَكَانَ الإسْكَندَرِيَّةِ، وَجَعَلُوا فِي وَسَطِهَا قُبَّةً عَلَى أُسَاطِينَ مِنْ نُحَاسٍ مُذَهَّبٍ، وَالقُبَّةُ مُذَهَّبَةٌ، وَنَصَبُوا فَوْقَهَا مِرَاةً مِنْ أَخْلَاطِ سُنِّي قَطَرِهَا خَمْسَةَ أَشْبَارٍ وَارْتِفَاعُ القُبَّةِ مِائَةَ ذِرَاعٍ؛ فَكَانُوا إِذَا قَصَدَهُمْ

٢٠.

(a) بولاق: غير.

^١ المسعودي: أخبار الزمان ٦٧-٦٨؛ وانظر فيما تقدم ٣٤٩ وفيما يلي ٥٠٤.

قاصدٌ من الأمم التي حوّلهم ، فإن كان ممّا بهمهم وكان من البحر عمِلوا لتلك المِرْآة عملاً فألقت شعاعها على ذلك الشيء فأحرقته ، فلم تزل إلى أن غلب البحر عليها ؛ ويُقال إن الإسكندر إنما عمل المنارة تشبُّهًا بها^١ .

وكان عليها أيضًا مِرْآة يُرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم ، فاختال عليهم بعض ملوكهم ووجه إليها ما أزالها ، وكانت من زجاج مُدبّر .

قال : وذكر بعض القبط أن رجلاً من بني الكهنة الذين قتلهم أنساد^a ملك مصر صار إلى ملك كان في بلاد الإفرنجية فذكر له كثرة كنوز مصر وعجائبها ، وضمن له أن يوصله إلى ملكها وأموالها ، ويرفع عنه أذى طلسماتها حتى يبلغ جميع ما يُريد . فلما اتّصل بصا بن مرقونس أخي أنساد^a - وهو ملك مصر يومئذ - أن صاحب بلاد الإفرنجية يتجهز إليه ، عمد إلى جبل بين البحر الملح وشرقي النيل فأصعد إليه أكثر كنوزه ، وبنى عليها قبائلاً مُصَفَّحة بالبرصاص . وظهر صاحب بلاد الإفرنجية في ألف مركب ، فكان لا يمر بشيء من أعلام مصر ومنازلها إلا هدمه ، وكسّر الأصنام بمعونة ذلك الكاهن ، حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها وفيما حولها ، وهدم أكثر معالمها ، إلى أن دخل النيل من ناحية رشيد وصعد إلى منف ، وأهل النواحي يُحاربونه ، وهو ينهب ما مرّ به ويقتل ما قدر عليه ، إلى أن طلب المدائن الداخلة/ لأخذ كنوزها ، فوجدّها مُمتنعة بالطلسمات الشداد والمياه العميقة والخنادق والشداخات ، فأقام عليها أياماً كثيرة فلم يُمكنه الوصول إليها ، وغضب على الكاهن فقتله من أجل جماعة من أصحابه هلكوا .

فاجتمع أهل النواحي وقتلوا من أصحابه الذين بالمراكب خلقاً ، وأحرقوا بعض المراكب ، وقام أهل مصر بسحرهم ونهاويلهم ، فأنت رياح أغرقت أكثر مراكبه حتى نجا بنفسه ، وقد خرج فعاد الناس إلى منازلهم وقراهم . ورجع الملك صا إلى مدينة منف وأقام بها ، وتجهز لغزو بلدان الروم وبعث إليها ، وخرب الجزائر فهابته الملوك ، وتتبع الكهنة فقتل منهم خلقاً كثيراً .

(a) بولاق : إيساد .

^١ النوري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٤ - ٤٥ .

وأقام ملكاً سبعمائة وستين سنة ، ومات وعمره مائة وسبعون سنة ، ودُفِنَ بِمَنْفٍ فِي وَسْطِهَا تَحْتَ
الأرضِ وَمَعَهُ الأَمْوَالُ وَالْجَوَاهِرُ وَالتَّمَائِيلُ وَالتُّلُوسَمَاتُ كَمَا فَعَلَ آبَاؤُهُ : مِنْهَا أَرْبَعَةُ آلَافٍ مِثْقَالٍ^(a)
ذَهَبًا عَلَى صُورِ حَيَوَانَاتٍ بَرِّيَّةٍ وَبَحْرِيَّةٍ ، وَتَمَثَالُ عُقَابٍ مِنْ حَجَرٍ أَخْضَرٍ ، وَتَمَثَالُ تَيْنٍ مِنْ ذَهَبٍ ،
وَزَبَرُوا عَلَيْهَا اسْمَهُ وَغَلَبَتْهُ المُلُوكُ وَسِيرَتَهُ ، وَعَهْدَ إِلَى ابْنِهِ تَدَارِسَ^(b) .

٥ قَالَ : وَلَمَّا جَلَسَتْ حُوزِيَا^(c) ابنة طوطيس ، أَوَّلَ فَرَاعِنَةَ مِصْرَ - وَهُوَ فِرْعَوْنُ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ - عَلَى سَرِيرِ المَلِكِ بَعْدَ قَتْلِهَا لِأَبِيهَا ، وَعَدَّتِ النَّاسَ بِالإِحْسَانِ وَأَخَذَتْ فِي جَمْعِ الأَمْوَالِ ،
فاجْتَمَعَ لَهَا مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِمَلِكٍ ، وَقَدِمَتِ الكَهَنَةُ وَأَهْلُ الحِكْمَةِ وَرُؤَسَاءُ السَّحْرَةِ وَرَفَعَتْ أَقْدَارَهُمْ ،
وَأَمَرَتْ بِتَجْدِيدِ الهَيَاكِلِ . وَسَارَ^(d) مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا إِلَى مَدِينَةِ أَثْرِيْبِ ، وَمَلَكَوا عَلَيْهِمْ رِجَالًا مِنْ وَالدِ
أَثْرِيْبِ يُقَالُ لَهُ أُنْدَاخِسُ ؛ فَعَقَدَ عَلَى رَأْسِهِ تاجًا وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ ، فَأَنْفَذَتْ إِلَيْهِ جَيْشًا فَهَزَمُوهُ
وَقَتَلُوا أَكْثَرَ أَصْحَابِهِ ، فَهَرَبَ إِلَى الشَّامِ وَبِهَا الكَنْعَانِيُّونَ فَاسْتَعَاثَ بِمَلِكِهِمْ ، فَجَهَّزَهُ بِجَيْشٍ عَظِيمٍ .
١٠ فَفَتَحَتْ حُوزِيَا^(e) الخَزَائِنَ ، وَفَرَقَتْ الأَمْوَالَ ، وَقَوَّتِ السَّحْرَةَ فَعَمِلُوا أَعْمَالَهُمْ .

وَتَقَدَّمَ أُنْدَاخِسُ^(e) بِجُيُوشِ الكَنْعَانِيِّينَ وَعَلَيْهَا قَائِدٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ جِيْرُونَ ، فَلَمَّا نَزَلُوا أَرْضَ مِصْرَ
بَعَثَتْ ظَفِرًا لَهَا مِنْ عُقْلَاءِ النِّسَاءِ إِلَى القَائِدِ سِرًّا مِنْ^(f) أُنْدَاخِسِ تُعْرِفُهُ رَغْبَتُهَا فِي تَزْوُجِهِ ، وَأَنَّهَا لَا
تَخْتَارُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهَا ، وَأَنَّهُ إِنْ قَتَلَ أُنْدَاخِسَ تَزَوَّجَتْ بِهِ وَسَلَّمَتْهُ مُلْكُ مِصْرَ .

١٥ فَفَرِحَ بِذَلِكَ وَسَمَّ أُنْدَاخِسَ^(e) بِسُمِّ أَنْفَذَتْهُ إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ .

وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ قَتْلِ أُنْدَاخِسِ^(e) أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ أَتَزَوَّجَكَ حَتَّى يَظْهَرَ قَوْمُكَ فِي بَلَدِي وَتَبْنِي لِي
مَدِينَةً عَجِيْبَةً - وَكَانَ افْتِخَارُهُمْ حِينَئِذٍ بِالبُنْيَانِ وَإِقَامَةِ الأَعْلَامِ وَعَمَلِ العَجَائِبِ - وَقَالَتْ : انْتَقِلْ مِنْ
مَوْضِعِكَ إِلَى غَرْبِي بَلَدِي ، فَسَمَّ آثَارًا لَنَا كَثِيرَةً ، فَاقْتَفَى تِلْكَ الأَعْمَالَ وَابْنَ عَلَيْهَا ؛ فَفَعَلَ ، وَبَنَى
مَدِينَةً فِي صَحْرَاءِ الغَرْبِ يُقَالُ لَهَا قَنْدُومَةُ^(g) ، وَأَجْرَى إِلَيْهَا مِنَ النَّيْلِ نَهْرًا ، وَغَرَسَ حَوْلَهَا غُرُوسًا
كَثِيرَةً ، وَأَقَامَ بِهَا مَنَارًا عَالِيًا فَوْقَهُ مَنَظَرٌ مُصَفَّحٌ بِالدُّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالتُّرْجَاجِ وَالرُّخَامِ ، وَهِيَ تُسَمَّى
٢٠ بِالأَمْوَالِ ، وَتُكَاتِبُ صَاحِبَهُ عَنْهُ وَتُهَادِيهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ .

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا قَالَتْ لَهُ : إِنَّ لَنَا مَدِينَةً أُخْرَى حَصِيْنَةً كَانَتْ لِأَوَائِلِنَا ، وَقَدْ خَرِبَتْ مِنْهَا أُمَّكِنَةٌ
وَتَشَعَّتْ حِصْنُهَا ، فَاْمضْ إِلَيْهَا وَاعْمَلْ فِي إِصْلَاحِهَا حَتَّى أَنْتَقِلَ أَنَا إِلَى هَذِهِ المَدِينَةِ الَّتِي بَنَيْتَهَا ، فَإِذَا

(a) عند النويري : تمثال . (b) بولاق : تدارس . (c) بولاق : جورياق . (d) الأصل وبولاق : صار . (e) بولاق :

إيداخس . (f) بولاق : عن . (g) بولاق : قندومة ، نهاية : تندومة .

فَرَعَتْ من إصلاح تلك المدينة فَأَنْفَذَ إليَّ جَيْشَكَ حتى أَصِيرَ إليك وَأَبْعُدَ عن مَدِينَتِي وَأَهْلِ بَيْتِي ،
فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَدْخُلَ عَلَيَّ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ . فَمَضَى وَجَدَّ في عَمَلِ الإسْكَندَرِيَّةِ الثَّانِيَةِ .

وأهل التاريخ يذكرون^(a) أن الذي قَصَدَهَا الوليدُ بن دَوْمَعِ العَمَلِيْقِي ثَانِي الفَرَاعِنَةَ . وَكَانَ سَبَبُ
قَصْدِهَا أَنَّهُ كَانَ بِهِ عِلَّةٌ فَوَجَّهَ إِلَى الأَقْطَارِ لِئَحْمَلَ إِلَيْهِ مِنْ مَائِهَا حَتَّى يَرَى مَا يُلَائِمُهُ . فَوَجَّهَ إِلَى
مَمْلَكَةِ مِصْرَ غُلَامًا فَوَقَّفَ عَلَى كَثْرَةِ خَيْرَاتِهَا ، وَحَمَلَ إِلَيْهِ مِنْ مَائِهَا وَالطَّافِهَا ، وَعَادَ إِلَيْهِ فَعَرَفَهُ حَالَ
مِصْرَ . فَسَارَ إِلَيْهَا فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ ، وَكَاتَبَتِ الْمَلِكَةَ يَخْطِبُهَا لِنَفْسِهِ ، فَأَجَابَتْهُ وَسَرَّطَتْ عَلَيْهِ أَنْ
يَبْنِي لَهَا مَدِينَةً يَظْهَرُ فِيهَا أَيْدِيهِ^(b) وَقُوَّتُهُ ، وَيَجْعَلُهَا لَهَا مَهْرًا . فَأَجَابَهَا وَسَقَّ مِصْرَ إِلَى نَاحِيَةِ
العَرَبِ ، فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ أَصْنَافَ الرِّيحِ وَالْفَوَاكِهَ ، وَخَلَقَتْ وُجُوهُ الدُّوَابِ .

فَمَضَى إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ وَقَدْ خَرِبَتْ بَعْدَ خُرُوجِ العَادِيَةِ مِنْهَا ، فَنَقَلَ مَا كَانَ مِنْ حِجَارَاتِهَا
وَمَعَالِمِهَا وَعُمُدِهَا ، وَوَضَعَ أَسَاسَ مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَبَعَثَ إِلَيْهَا مِائَةَ أَلْفِ فَاعِلٍ ، وَأَقَامَ فِي بِنَائِهَا
مُدَّةً ، وَأَنْفَقَ جَمِيعَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنَ المَالِ ، وَكُلَّمَا بَنَى شَيْئًا خَرَجَ مِنَ البَحْرِ دَوَابٌّ فَتَقَلَّعَهُ ، فَإِذَا
أَصْبَحَ لَمْ يَجِدْ مِنَ البِنَاءِ شَيْئًا ، فَاعْتَمَّ^(c) لِذَلِكَ .

وَكَانَتْ مُحُورِيًا^(d) قَدْ أَنْفَذَتْ إِلَيْهِ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ المَعْرِ اللَّبُونِ يَسْتَعْمَلُ أَلْبَانِهَا فِي مَطْبَخِهِ ، وَكَانَتْ
مَعَ رَاعٍ تَتَّقُ بِهِ يَوْعَاهَا هُنَالِكَ ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْصَرِفَ عِنْدَ المَسَاءِ خَرَجَتْ إِلَيْهِ مِنَ البَحْرِ جَارِيَةٌ
حَسَنَاءٌ فَتَسُوقُ نَفْسَهُ إِلَيْهَا ، فَإِذَا كَلَّمَهَا سَرَّطَتْ عَلَيْهِ أَنْ تُصَارِعَهُ ، فَإِنْ صَرَغَهَا كَانَتْ لَهُ ، وَإِنْ
صَرَغَتْهُ أَخَذَتْ مِنَ المَعْرِ رَأْسَيْنِ .

فَكَانَتْ طُولَ الأَيَّامِ تَصْرَعُهُ وَتَأْخُذُ العَنَمَ ، حَتَّى أَخَذَتْ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِهَا ، وَتَغَيَّرَ بِاقِيهَا لِشُغْلِهِ
بِحُبِّ الجَارِيَةِ عَنْ رَعِيهَا ، وَنَحَلَ جِسْمَهُ . فَمَرَّ بِهِ صَاحِبُهُ وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ فَأَخْبَرَهُ الحَبِيرَ خَوْفًا مِنْ
سَطْوَتِهِ ، فَلَبَسَ ثِيَابَ الرَّاعِي ، وَتَوَلَّى رَعِيَ العَنَمَ يَوْمَهُ إِلَى المَسَاءِ .

فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ الجَارِيَةُ وَسَرَّطَتْ عَلَيْهِ الشَّرْطَ فَأَجَابَهَا ، وَصَارِعَهَا فَصَرَغَهَا وَشَدَّهَا ، فَقَالَتْ : إِنْ
كَانَ وَلاِبَدٍّ مِنْ أَخِيذِي فَسَلِّمْنِي لِصَاحِبِي الأَوَّلِ ، فَإِنَّهُ الأَلْطَفُ بِي وَقَدْ عَذَّبْتَهُ مُدَّةً .

فَرَدَّهَا إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : سَلِّهَا عَنْ هَذَا البُنْيَانِ الَّذِي / نَبْنِيهِ وَيُرَاوُ مِنْ لَيْلَتِهِ ، مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ وَهَلْ
فِي ثَبَاتِهِ مِنْ حِيلَةٍ ؟

(a) بعد ذلك عند النويري : شيئًا من أخبار أندانوس ويذكرونه أنه الذي قصد الوليد . (b) الأصل وبولاق : أيده .

(c) الأصل وبولاق : فاعتم . (d) بولاق : جورياق .

فسألها الراعي عن ذلك ، فقالت : إن دوابَّ البحر التي تنزِعُ بُيَّانِكُمْ ؛ فقال : فهل من حيلة ؟ قالت : نعم ، تَعْمَلُونَ تَوَابِيثَ من زُجاجٍ كَثِيفٍ بِأَعْطِيَّةٍ ، وَتَجْعَلُونَ فِيهَا أَقْوَامًا يُحْسِنُونَ التَّصْوِيرَ ، وَيَكُونُ مَعَهُمْ صُحُفٌ وَأَنْقَاشٌ وَزَادٌ يَكْفِيهِمْ أَيَّامًا ، وَتُحْمَلُ التَّوَابِيثُ فِي المَرَائِبِ بَعْدَ مَا تُشَدُّ بِالْحِيَالِ ، فَإِذَا تَوَسَّطُوا المَاءَ أَمَرُوا المَصَوِّرِينَ أَنْ يُصَوِّرُوا جَمِيعَ مَا يَمُرُّ بِهِمْ ، ثُمَّ تُرْفَعُ تِلْكَ التَّوَابِيثُ ، فَإِذَا وَقَفْتُمْ عَلَى تِلْكَ الصُّورِ فَاعْمَلُوا لَهَا أَشْبَاهًا مِنْ صُفْرِ أَوْ حِجَارَةٍ أَوْ رِصَاصٍ ، وَأَنْصُبُوهَا قُدَّامَ البُيَّانِ الَّذِي تَبْنُونَهُ مِنْ جَانِبِ البَحْرِ ، فَإِنَّ تِلْكَ الدَّوَابَّ إِذَا خَرَجَتْ وَرَأَتْ صُورَهَا هَرَبَتْ وَلَمْ تَعُدْ ؛ فَعَرَفَ الرَاعِي صَاحِبَهُ ذَلِكَ فَعَمَلَهُ ، وَتَمَّ البُيَّانُ وَبَنَى المَدِينَةَ .

وقال قومٌ : إنَّ صَاحِبَ البِنَاءِ وَالغَنَمِ هُوَ جَيرون المُرْتَفَكِي^(a) ، كَانَ قَصَدَهُمْ قَبْلَ الوَلِيدِ ، وَإِنَّمَا أَنَاهُم الوَلِيدُ بَعْدَ حُورِيَا^(b) وَقَهَرَهُمْ وَمَلَكَ مِصْرَ .

- ١٠ وَذَكَرُوا أَنَّ الأَمْوَالَ الَّتِي كَانَتْ مَعَ جَيرون نَفِدَتْ كُلُّهَا فِي تِلْكَ المَدِينَةَ وَلَمْ تَتَمَّ ، فَأَمَرَ الرَاعِي أَنْ يُخْبِرَ الجَارِيَةَ فَقَالَتْ : إِنَّ فِي المَدِينَةَ الَّتِي خَرِبَتْ مَلْعَبًا مُسْتَدِيرًا حَوْلَهُ سَبْعَةٌ عَشْرَةَ عُمْدَةً عَلَى رُؤُوسِهَا تَمَائِيلٌ مِنْ صُفْرِ قِيَامٍ ، فَقَرَّبَ لِكُلِّ تَمَائِيلٍ مِنْهَا ثُورًا سَمِينًا ، وَلَطَّخَ العَمُودَ الَّذِي تَحْتَهُ مِنْ دَمِ الثُّورِ وَبَخَّرَهُ بِشَعْرِ مِنْ ذَنْبِهِ وَشَيْءٍ مِنْ نُحَاتَةِ قُرُونِهِ وَأَظْلَافِهِ ، وَقُلَّ لَهُ : هَذَا قُرْبَانُكَ فَأَطْلِقْ لِي مَا عِنْدَكَ ، ثُمَّ قَسَّ مِنْ كُلِّ عَمُودٍ إِلَى الجِهَةِ الَّتِي يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا وَجَهَةُ التَّمَائِيلِ مِائَةَ ذِرَاعٍ ، وَاحْفَرُ عِنْدَ امْتِلَاءِ القَمَرِ وَاسْتِقَامَةَ رُجُلٍ ، فَإِنَّكَ تَنْتَهِي بَعْدَ خَمْسِينَ ذِرَاعًا إِلَى بَلَاطَةِ عَظِيمَةٍ ، فَلَطَّخْهَا بِمَرَارَةِ الثُّورِ وَأَقْلِبْهَا ، فَإِنَّكَ تَنْزِلُ إِلَى سَرَبٍ طَوْلُهُ خَمْسُونَ ذِرَاعًا ، فِي آخِرِهِ خِزَانَةٌ مُقْفَلَةٌ ، وَمِفْتَاحُ القُفْلِ تَحْتَ عَتَبَةِ البَابِ فَخُذْهُ ، وَلَطَّخِ البَابَ بِبَقِيَّةِ المَرَارَةِ وَدَمِ الثُّورِ ، وَبَخَّرَهُ بِشَحَاتَةِ قُرُونِهِ وَأَظْلَافِهِ وَشَعْرِ ذَنْبِهِ ، وَادْخُلْ فَإِنَّهُ يَسْتَقْبِلُكَ صَنْمٌ فِي عُنُقِهِ لَوْحٌ مِنْ صُفْرِ مَكْتُوبٍ فِيهِ جَمِيعُ مَا فِي الخِزَانَةِ ، فَخُذْ مَا سِئِلْتَ وَلَا تَعْتَرِضْ مَيْتًا تَجِدُهُ وَلَا مَا عَلَيْهِ ؛ وَكَذَلِكَ كُلِّ عَمُودٍ وَتَمَائِيلِهِ ، فَإِنَّكَ تَجِدُ مِثْلَ تِلْكَ الخِزَانَةِ ، وَهَذِهِ نَوَافِسُ سَبْعَةٍ مِنَ المُلُوكِ وَكُنُوزِهِمْ .

- ٢٠ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ سَرَّ بِهِ ، وَامْتَثَلَهُ فَوَجَدَ مَا لَا يُدْرِكُ وَصْفُهُ ، وَوَجَدَ مِنَ العَجَائِبِ شَيْئًا كَثِيرًا ، فَتَمَّ بِنَاءَ المَدِينَةَ . وَبَلَغَ ذَلِكَ حُورِيَا^(b) فَسَاءَهَا ، وَكَانَتْ قَدْ أَرَادَتْ إِثْعَابَهُ وَهَلَاكَهُ بِالْحِيلَةِ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ وَجَدَ فِيهَا وَجَدَ دَرَجًا مِنْ ذَهَبٍ مَخْتُومًا ، فِيهِ مَكْحَلُهُ زَبْرَجْدٌ فِيهَا ذَرُورٌ أَخْضَرٌ وَمَعَهَا عَرَقٌ أَحْمَرٌ ، مِنْ اِكْتَحَلَ مِنْ ذَلِكَ الذَّرُورِ بِالْعَرَقِ وَكَانَ أَشْيَبَ ، عَادَ شَابًا وَاسْوَدَّ شَعْرُهُ وَأَضَاءَ

(a) ساقطة من بولاق ، وعند ياقوت : جبير المؤتفكي . (b) بولاق : جورياق .

بَصْرُهُ حَتَّى يُدْرِكَ الرُّوحَانِيَيْنِ . وَوَجَدَ تَمَثُّلاً مِنْ ذَهَبٍ إِذَا ظَهَرَ غَيِّمَتِ السَّمَاءُ وَأَمْطَرَتْ ، وَمِثَالُ
 غُرَابٍ مِنْ حَجَرٍ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ صَوَّتَ وَأَجَابَ عَنْهُ ، وَوَجَدَ فِي كُلِّ خِزَانَةِ عَشْرِ أُعْجُوبَاتٍ .
 فَلَمَّا فَرَعَ مِنْ بِنَاءِ الْمَدِينَةِ وَجَّهَ إِلَى حُوزِيَا^(a) يَحْتَهَا عَلَى الْقُدُومِ إِلَيْهِ ، فَحَمَلَتْ إِلَيْهِ فَرَشًا فَاخِرًا
 لِيَتَّسِطَهُ فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي يَجْلِسُ فِيهِ ، وَقَالَتْ لَهُ : اقسِمْ بجيشك أثلاثًا ، فَأَنْفَذَ إِلَيَّ ثَلَاثَهُ ، حَتَّى إِذَا
 بَلَغَتْ ثُلُثَ الطَّرِيقِ فَأَنْفَذَ الثُّلُثَ الْآخَرَ ، فَإِذَا جُزَّتْ نِصْفَ الطَّرِيقِ فَأَنْفَذَ الثُّلُثَ الْبَاقِيَّ لِيَكُونُوا مِنْ
 وَرَائِي ، لَعَلَّ يَرَانِي أَحَدٌ إِذَا دَخَلْتُ عَلَيْكَ ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَكَ إِلَّا صِبْيَةٌ تَثِقُ بِهِمْ يَخْدِمُونَكَ ، فَإِنِّي
 أُؤْفِكُ فِي جَوَارِ تَكْفِيكِ الْحِدْمَةَ وَلَا أُحْتَشِمُهُنَّ ، فَفَعَلَ ؛ وَأَقَامَتْ تَحْمِلُ الْجِهَازَ إِلَيْهِ وَالْأَمْوَالَ حَتَّى
 عَلِمَ بِمَسِيرِهَا فَوَجَّهَ إِلَيْهَا ثُلُثَ جَيْشِهِ ، فَعَمِلَتْ لَهُمُ الْأَطْعِمَةَ وَالْأَشْرِبَةَ الْمَسْمُومَةَ ، وَأَنْزَلَهُمْ جَوَارِيهَا
 وَحَشَمَهَا وَقَدَّمُوا إِلَيْهِمُ الْأَطْعِمَةَ وَالْأَشْرِبَةَ وَالطَّيِّبَ وَأَنْوَاعَ اللَّهْوِ ، فَلَمْ يُضْبَحْ مِنْهُمْ أَحَدٌ حَيًّا .
 وَسَارَتْ ، فَلَقِيَهَا الثُّلُثُ الْآخَرَ ففَعَلَتْ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَهِيَ تُوجِّهُ إِلَيْهِ أَنَّهَا أَنْفَذَتْ جَيْشَهُ إِلَى قَصْرِهَا
 وَمَمْلَكَتَهَا يَحْفَظُونَهُمَا .

وَسَارَتْ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيْهِ هِيَ وَظِئْرُهَا وَجَوَارِيهَا ، فَتَفَخَّتْ ظِئْرُهَا فِي وَجْهِهِ نَفْخَةً بُهِتَ إِلَيْهَا ،
 وَرَشَّتْ عَلَيْهِ مَا كَانَ مَعَهَا فَارْتَعَدَتْ أَعْضَاؤُهُ ، وَقَالَ : مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَغْلِبُ النِّسَاءَ فَقَدْ كَذَّبَتْهُ نَفْسُهُ
 وَغَلَبَتْهُ النِّسَاءُ . ثُمَّ إِنَّهَا فَصَدَّتْ عُرُوقَهُ وَقَالَتْ : دِمَاءُ الْمَلُوكِ شِفَاءٌ ، وَأَخَذَتْ رَأْسَهُ وَوَجَّهَتْ بِهِ إِلَى
 قَصْرِهَا وَنَصَبَتْهُ عَلَيْهِ ، وَحَوَّلَتْ تِلْكَ الْأَمْوَالَ إِلَى مَدِينَةِ مَنَفٍ ، وَبَنَتْ مَنَارًا بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَزَبَرَتْ
 عَلَيْهِ اسْمَهَا وَاسْمَهُ ، وَمَا فَعَلَتْ بِهِ ، وَتَارِيخُ الْوَقْتِ .

فَلَمَّا بَلَغَ خَبْرُهَا الْمَلُوكَ هَابُوهَا وَأَطَاعُوهَا وَهَادُوهَا . وَعَمِلَتْ بِمِصْرَ عَجَائِبَ كَثِيرَةً ، وَبَنَتْ عَلَى
 حُدِّ مِصْرَ مِنْ نَاحِيَةِ الثُّوبَةِ حِصْنًا وَقَنْظَرَةً يَجْرِي مَاءُ النَّيْلِ مِنْ تَحْتِهَا ، وَاعْتَلَّتْ فَقَلَّدَتْ ابْنَةَ عَمِّهَا
 زُلَيْفَةَ بِنْتِ مَأْمُومٍ^(b) ، وَمَاتَتْ^١ .

وَقَالَ ابْنُ خُرْدَاذَبَةَ : رُوِيَ أَنَّ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ بُنِيَتْ فِي ثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَأَنَّ أَهْلَهَا مَكَثُوا سَبْعِينَ سَنَةً لَا
 يَمْسُونَ فِيهَا بِالنَّهَارِ إِلَّا بِخَرْقٍ سُودٍ مَخَافَةَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ مِنْ شِدَّةِ بَيَاضِ حَيْطَانِهَا ، وَمَنَارَتُهَا الْعَجِيبَةُ
 عَلَى سَرَطَانَ زُجَاجٍ فِي الْبَحْرِ ، وَأَنَّ كَانَ فِيهَا سِوَى أَهْلِهَا سِتُّ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْيَهُودِ خَوَّلَ لِأَهْلِهَا^٢ .

(a) بولاق : جورياق . (b) بولاق : زلفى بنت مأمون .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ١٠٧-١١٢ نقلًا عن ابن
^٢ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ١٦٠ ؛ ياقوت :
 وصيف شاه . معجم البلدان ١ : ١٨٦ .

وقال ابنُ وَصِيفِ شَاهٍ : وكانت العِمَارَةُ ممتدَّةً في رِمَالِ رَشِيدِ والإسْكَندَرِيَّةِ إلى بَرْقَةِ ، فكان الرجلُ يَسِيرُ في أرضِ مصرِ فلا يَخْتِاجُ إلى زادٍ لكثْرَةِ الفَوَايِكِ والخَيْرَاتِ ، ولا يَسِيرُ إِلَّا في ظِلَالِ تَشْتُرِهِ من حَرِّ الشَّمْسِ .

وَعَمِلَ المَلِكُ صَا بنُ قُبْطِيمِ في تلكِ الصُّحَارَى قُصُورًا ، وَعَرَسَ فيها غُرُوسًا ، وساقَ إليها من النِّيلِ أَنهَارًا ، فكان يُشَلِّكُ من الجَانِبِ الغَرْبِيِّ إلى حَدِّ/ الغَرْبِ في عِمَارَةٍ مُتَّصِلَةٍ .
فلَمَّا انْقَرَضَ أولئك القَوْمُ بَقِيَتْ آثارُهُمْ في تلكِ الصُّحَارَى ، وَخَرِبَتْ تلكِ المَنَازِلُ وبَادَ أَهْلُهَا ، ولا يَزَالُ من دَخَلَ تلكِ الصُّحَارَى يَحْكِي ما رآه فيها من الآثَارِ والعَجَائِبِ .

وقال ابنُ عَبْدِ الحَكَمِ : وكان الذي بَنَى الإسْكَندَرِيَّةَ وَأَسَّسَ بِنَاءَهَا ذُو القَرْنَيْنِ الرُّومِي ، واسمُهُ الإسْكَندَرُ ، وبه سُمِّيَتْ الإسْكَندَرِيَّةُ ، وهو أَوَّلُ من عَمِلَ الوَشْيَ ، وكان أبوه أَوَّلَ القِيَاصِرَةِ .

وقيلُ إِنَّه رَجُلٌ من أهلِ مصرِ اسمه مَرْزَبَا بنُ مَرْزَبَةِ اليُونَانِي ، من وَلدِ يونانِ بنِ يافِثِ بنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وقيلُ كان من أهلِ لُؤَيَّةَ ، كُورَةَ من كُورِ مصرِ الغَرِيبةِ . قال ابنُ لَهِيعةَ : وأهلُها رُومٌ . ويُقالُ هو رَجُلٌ من جَمَيْرٍ ، قال بُعْبَعٌ^١ :

[الكامل]

قَدْ كان ذُو القَرْنَيْنِ جَدِّي مُسَلِّمًا ملكًا تَدِينُ لَهُ المُلُوكُ وَتَحْشِدُ
بَلَغَ المَغَارِبَ والمَشَارِقَ يَبْتَغِي أسبابَ عِلْمٍ من حَكِيمِ مُرْشِدِ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عند غُرُوبِهَا في عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَثَأطِ حَزْمِدِ

ويُروى : «قد كان ذُو القَرْنَيْنِ قَبْلِي مُسَلِّمًا» . وَحَدَّثَنِي عُثْمَانُ بنُ صَالِحٍ ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بنُ وَهَبٍ ، عن عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ زِيَادِ بنِ أَنْعَمٍ ، عن سَعْدِ بنِ مَسْعُودِ التَّجِيبِيِّ ، عن شَيْخَيْنِ من قَوْمِهِ قالا : كُنَّا بالإسْكَندَرِيَّةِ ، فاسْتَطَلْنَا يَوْمَنا فَقُلْنَا : لو انْطَلَقْنَا إلى عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ نَتَحَدَّثُ عندهُ ، فانْطَلَقْنَا إليه فَوَجَدناه جالِسًا في دارِهِ ، فَأَخْبَرناه أَنَّا اسْتَطَلْنَا يَوْمَنا ؛ فقال : وأنا مثلُ ذلكِ ، إِنَّمَا خَرَجْتُ حينَ اسْتَطَلْتُهُ ؛ ثم أَقْبَلَ علينا فقال : كُنْتُ عندَ رَسولِ اللهِ ﷺ أَخْدُمُهُ ، فإذا أنا بِرِجالٍ من أَهلِ الكِتابِ معهم مَصاحِفٌ أو كُتُبٌ ، فقالوا : اسْتَأذِنَ لَنَا على رَسولِ اللهِ ﷺ ، فانصَرَفْتُ إليه فَأَخْبَرْتَهُ بِمَكَانِهِمْ فقال رَسولُ اللهِ ﷺ : «مالي ولهم ، يسألونني عَمَّا لا أَدْرِي ، إِنَّمَا أَنَا عَجْدٌ لا

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣٧-٣٨ ؛ وقارن ، ٤ : ١٢٥ ؛ الزبيدي : تاج العروس ٢ : ٣٣٥ .

البيروني : الآثار الباقية ٤٠-٤١ ؛ ابن منظور : لسان العرب

عِلْمَ لِي^(a) إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي» ؛ ثم قال : «أَبْلِغْنِي وَضُوءًا» ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ إِلَى مَسْجِدِ بَيْتِهِ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ ، فَلَمْ يَنْصَرِفْ حَتَّى عَرَفَتْ الشَّرُورَ فِي وَجْهِهِ وَالْبِشْرَ ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَقَالَ : «أَدْخِلْهُمْ ، وَمَنْ وَجَدَتْ بِالْبَابِ مِنْ أَصْحَابِي فَأَدْخِلْهُ» ؛ قَالَ : فَأَدْخَلْتَهُمْ ، فَلَمَّا وَقَفُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ : «إِنْ شِئْتُمْ أَخْبِرْتُكُمْ عَمَّا أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ تَكَلَّمْتُمْ وَأَخْبِرْتُكُمْ» ؛ قَالُوا : بَلَى ، أَخْبِرْنَا قَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ ؛ قَالَ : «أَحْبِبْتُمْ أَنْ تَسْأَلُونِي عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، وَسَأَخْبِرُكُمْ عَمَّا تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ ، إِنَّ أَوَّلَ أَمْرِهِ أَنَّهُ غُلَامٌ مِنَ الرُّومِ أُعْطِيَ مُلْكًا ، فَسَارَ حَتَّى أَتَى سَاحِلَ الْبَحْرِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ فَأَبْتَنِي عِنْدَهُ مَدِينَةً يُقَالُ لَهَا الْإِسْكَندَرِيَّةُ .

فَلَمَّا فَرَعَ مِنْ بِنَائِهَا أَنَاهُ مَلِكٌ فَعَرَجَ بِهِ حَتَّى اسْتَقَلَّهُ فَرَفَعَهُ ، فَقَالَ : انْظُرْ مَا تَحْتَكُ ؟ فَقَالَ : أَرَى مَدِينَتِي وَأَرَى مَدَائِنَ مَعَهَا . ثُمَّ عَرَجَ بِهِ فَقَالَ : انْظُرْ . فَقَالَ : قَدْ اخْتَلَطَتْ مَدِينَتِي مَعَ الْمَدَائِنِ فَلَا أَعْرِفُهَا . ثُمَّ زَادَ فَقَالَ : انْظُرْ . فَقَالَ : أَرَى مَدِينَتِي وَحَدَّهَا وَلَا أَرَى غَيْرَهَا . قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : إِنَّمَا تِلْكَ الْأَرْضُ كُلُّهَا ، وَالَّذِي تَرَى يُحِيطُ بِهَا هُوَ الْبَحْرُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يُرِيكَ الْأَرْضَ ، وَقَدْ جَعَلَ لَكَ سُلْطَانًا فِيهَا سَوْفَ تُعَلِّمُ الْجَاهِلَ وَتُثَبِّتُ^(b) الْعَالِمَ . فَسَارَ حَتَّى بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ، ثُمَّ أَتَى السُّدَّيْنِ ، وَهُمَا جَبَلَانِ لِيْنَانِ يَزِلُّ عَنْهُمَا كُلُّ شَيْءٍ ، فَبَنَى السُّدَّ . ثُمَّ جَاَزَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، فَوَجَدَ قَوْمًا وَجُوهَهُمْ وَجُوهُ الْكِلَابِ يُقَاتِلُونَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، ثُمَّ قَطَعَهُمْ فَوَجَدَ أُمَّةً قِصَارًا يُقَاتِلُونَ الْقَوْمَ الَّذِينَ وَجُوهَهُمْ وَجُوهُ الْكِلَابِ ، وَوَجَدَ أُمَّةً مِنَ الْغَرَانِيقِ يُقَاتِلُونَ الْقَوْمَ الْقِصَارَ ، ثُمَّ مَضَى فَوَجَدَ أُمَّةً مِنَ الْحَيَّاتِ تَلْتَقِمُ الْحَيَّةَ مِنْهَا الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الْبَحْرِ الْمُدِيرِ بِالْأَرْضِ» ؛ فَقَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّ أَمْرَهُ هَكَذَا كَمَا ذَكَرْتَ ، وَأَنَّا نَجِدُهُ هَكَذَا فِي كِتَابِنَا .

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ الْكِلَاعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَقَالَ : «مَلِكٌ مَسَّحَ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا بِالْأَشْبَابِ» ؛ قَالَ خَالِدٌ : وَسَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رَجُلًا يَقُولُ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ غُفْرًا ، أَمَا رَضِيْتُمْ أَنْ تُسَمَّوْا بِالْأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَسْمَيْتُمْ بِالْمَلَائِكَةِ^١ .

وَقَالَ قَتَادَةُ عَنِ الْحَسَنِ : كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مَلِكًا ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا ؛ قَالَ : وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّ عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سُئِلَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَقَالَ : لَمْ يَكُنْ مَلِكًا وَلَا نَبِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ

(a) بولاق : لا أعلم . (b) بولاق : يعلم ... يثبت .

^١ انظر فيما يلي ٤١٧ نقلًا عن الحيوان للجاحظ .

عَبْدًا صَالِحًا أَحَبَّ اللَّهُ فَأَحْبَبَهُ اللَّهُ ، وَنَصَحَ اللَّهُ فَتَصَحَّحَهُ اللَّهُ ، بَعَثَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَى قَوْمِهِ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ^(a) فَمَاتَ ، (b) فَأَخْيَاهُ اللَّهُ ثُمَّ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ فَمَاتَ (b) فَسُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ . وَيُقَالُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ جَاوَزَ قَرْنَيِ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ . وَيُقَالُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ كَانَ لَهُ غَدِيرَتَانِ مِنْ شَعْرِ رَأْسِهِ يَطَّأُ فِيهِمَا ، وَقِيلَ بَلْ كَانَ لَهُ قَرْنَانِ صَغِيرَانِ تَوَارِيهُمَا الْعِمَامَةَ .

وَعَنْ ابْنِ شِهَابٍ : إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَقَرْنَ الشَّمْسِ مِنْ مَطْلِعِهَا^(c) .^١

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ أَوَّلُ شَأْنِ الإسْكَندَرِيَّةِ أَنْ فِرْعَوْنَ اتَّخَذَ بِهَا مَصَانِعَ وَمَجَالِسَ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ عَمَّرَهَا وَبَنَى فِيهَا ، فَلَمْ تَزَلْ عَلَى بِنَائِهِ وَمَصَانِعِهِ . ثُمَّ تَدَاوَلَهَا مُلُوكُ مِصْرَ بَعْدَهُ ، فَبَنَتْ دُلُوكَةُ بِنْتُ زَبَاءَ مَنَارَةَ الإسْكَندَرِيَّةِ وَمَنَارَةَ بُوقِيرَ بَعْدَ فِرْعَوْنَ . فَلَمَّا ظَهَرَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - عَلَى الْأَرْضِ اتَّخَذَ بِهَا مَجْلِسًا / وَبَنَى فِيهَا مَسْجِدًا . ثُمَّ إِنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ مَلَكَهَا فَهَدَمَ مَا كَانَ مِنْ بِنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْفَرَايِئَةِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَّا بِنَاءَ سُلَيْمَانَ لَمْ يَهْدِمِهِ وَلَمْ يُغَيِّرِهِ ، وَأَصْلَحَ مَا كَانَ رَتْ مِنْهُ ، وَأَقْرَأَ الْمَنَارَةَ عَلَى حَالِهَا ، ثُمَّ بَنَى الإسْكَندَرِيَّةَ مِنْ أَوَّلِهَا بِنَاءً يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا . ثُمَّ تَدَاوَلَهَا الْمُلُوكُ بَعْدَهُ مِنَ الرُّومِ وَغَيْرِهِمْ ، لَيْسَ مِنْ مَلِكٍ إِلَّا يَكُونُ لَهُ بِهَا بِنَاءٌ يَضَعُهُ بِالِاسْكَندَرِيَّةِ يُعْرَفُ بِهِ وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ^٢ .

قَالَ ابْنُ لَهْيَعَةَ : وَبَلَغَنِي أَنَّهُ وُجِدَ بِالِاسْكَندَرِيَّةِ حَجَرٌ مَكْتُوبٌ فِيهِ : «أَنَا شَدَّادُ بْنُ عَادَ ، وَأَنَا الَّذِي نَصَبَ الْعِمَادَ ، وَحِيدَ الْأَخْيَادِ ، وَشَدَّ بِدِرَاعِهِ الْوَادَ ، بَنَيْتَهُنَّ إِذْ لَا شَيْبَ وَلَا مَوْتَ ، وَإِذِ الْحِجَارَةَ فِي اللَّيْلِ مِثْلَ الطُّيْنِ»^٣ .

وَفِي رِوَايَةٍ : «وَكَنَزْتُ فِي الْبَحْرِ كَنْزًا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا ، لَنْ يُخْرِجَهُ أَحَدٌ حَتَّى تُخْرِجَهُ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ» ؛ قَالَ ابْنُ لَهْيَعَةَ : وَالْأَخْيَادُ كَالْمَغَارِ^٤ .

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي فِي كِتَابِ «الْأَمَالِي» : وَأَنْشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ وَغَيْرُهُ^٥ :

(a) بولاق : قرنيه . (b-b) ساقط من بولاق . (c) بولاق : شرقها .

^١ قارن مع المسعودي : مروج الذهب ٢: ٨-٩ .^٤ نفسه ٤١ .

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٣٨-٤١ .^٥ القالي : الأمالي ، القاهرة ١٩٢٦ ، ١: ٢٣٤ وقارن

^٣ نفسه ٤١ . أيضًا ، ابن منظور : لسان العرب ١٤: ٤٢-٤٣ ؛ الزبيدي =

[الرجز]

تَسْأَلُنِي عَنِ السَّنِينَ كَمْ لِي فقلت لو عُمِرْتُ عُمَرَ الحِشْلِ
أَوْ عُمَرَ نوحِ زَمَنِ الفِطْحَلِ

وفي رواية :

[الرجز]

لو أَنَّنِي أُوتِيتَ عِلْمَ الحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامِ النُّمْلِ
وَعِشْتُ دَهْرًا زَمَنَ الفِطْحَلِ أَيامَ كانَ الصُّخْرُ مِثْلَ الوَحْلِ
لِيتَ رَهْنُ هِرَمٍ أَوْ قَتْل^a

وقال آخرُ : زَمَنُ الفِطْحَلِ : إِذِ السَّلَامُ يُطَاب^b ؛ وَعِنْدَهُمْ أَنَّ زَمَنَ الفِطْحَلِ زَمَانٌ كانَ بَعْدَ
الطُّوفَانِ عَظِيمٍ فِيهِ الخِضْبُ وَحَسُنَتْ أَحْوالُ أَهْلِهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : زَمَنُ الفِطْحَلِ زَمَنٌ لَمْ يُخْلَقْ^c
بَعْدَ . وَقَوْلُهُ : «عِلْمَ الحُكْلِ» ، الحُكْلُ ما لا يُسْمَعُ صَوْتُهُ مِنَ الحَيَوانِ .

هذا الرِّجْزُ لِرُؤْبَةَ بنِ العِجَّاجِ بنِ رُؤْبَةَ بنِ لَبِيدِ بنِ صَخْرِ بنِ كَثِيفِ بنِ حَيِّ بنِ بَكْرِ بنِ رَبِيعَةَ بنِ
سَعْدِ بنِ مالِكِ بنِ زَيْدِ مَنَاةَ بنِ تَمِيمٍ . وَذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ مَاءٌ لِعُكْلٍ فَرَأَى فَتاةً فَأَعْجَبَتْهُ فَخَطَبَهَا ،
فَقَالَتْ : أَرَى سِنًّا ، فَهَلْ مِنْ مَالٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِطْعَةً مِنْ إِبِلٍ ؛ قَالَتْ : فَهَلْ مِنْ وَرِقٍ ؟ قَالَ : لا ؛
قَالَتْ : يَا آلَ عُكْلٍ أَكْبَرًا وَإِمَعَارًا ! فَقَالَ رُؤْبَةُ^١ :

[الرجز]

لَمَّا اذْدَرَّتْ قَدْرِي وَقِلَّةَ إِبِلِي تَأَلَّقَتْ وَأَتَّصَلَتْ بِعُكْلِي
خِطْبِي وَهَزَّتْ رَأْسَهَا تَسْتَبْلِي تَسْأَلُنِي عَنِ السَّنِينَ كَمْ لِي
فَقُلْتُ لَوْ عُمِرْتُ عُمَرَ الحِشْلِ أَوْ عُمَرَ نوحِ زَمَنِ الفِطْحَلِ
وَالصُّخْرُ مُبْتَلٍ كَطِينِ الوَحْلِ صِرْتُ رَهِينَ هِرَمٍ أَوْ قَتْلِ

وفي رواية :

[الرجز]

لو أَنَّنِي أُوتِيتَ عِلْمَ الحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامِ النُّمْلِ

(a) ورد هذا الرجز في بولاق بطريقة مشوهة . (b) بولاق : رطاب . (c) بولاق : يخلف .

= تاج العروس ٨ : ٦٤ . العجاج ، اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد ، برلين
١ مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن

١٩٠٣ ، ١٢٨ ، وهي من أبيات يمدح فيها ابن العمرين .

وسألتُ أبا بكر بن دُرَيْدٍ عن زَمَنِ الفِطْحِ فَقَالَ : تَزَعُمُ العَرَبُ أَنَّهُ زَمَانٌ كَانَتْ فِيهِ الحِجَارَةُ رَطْبَةً .

قال ابنُ عبدِ الحكمِ : ويُقالُ إنَّ الذي بَنَى الإسْكَندَرِيَّةَ شَدَّادُ بنُ عَادٍ ، واللهُ أعلمُ ^١ .

وكانت الإسْكَندَرِيَّةُ ثلاثَ مُدُنٍ ، بعضها إلى جنب بعضٍ : مَنَّةٌ ^(a) ، وهي مَوْضِعُ المنارة وما والاها ، والإسْكَندَرِيَّةُ - وهي مَوْضِعُ قَصَبَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ اليوم - ونَقِيطَةٌ . وكان على كُلِّ واحِدَةٍ منهن سورٌ ، وسورٌ من خَلْفِ ذلك على الثلاثِ مُدُنٍ يُحِيطُ بهنَّ جميعًا . وقيل كان على الإسْكَندَرِيَّةِ سبعة حُصُونٍ منيعة ، وسبعة خنادقٍ ^١ .

قال : وإنَّ ذا القَرْنَيْنِ لما بَنَى الإسْكَندَرِيَّةَ رَحَّمَهَا بالرُّخامِ الأبيضِ جُدْرَهَا وأرْضَهَا ، فكان لِيباشهم فيها السَّوادُ والحُمْرةُ ، فمن قَبْلِ ذلك لَبِسَ الرُّهْبَانُ السَّوادَ من نَصُوعِ بياضِ الرُّخامِ . ولم يكونوا يُسْرِجونَ فيها بالليلِ من بياضِ الرُّخامِ ، وإذا كان القَمَرُ أُدخِلَ الرجلُ الذي يَخِيطُ بالليلِ في ضَوْءِ القَمَرِ مع بياضِ الرُّخامِ الخَيْطَ في ثُقْبِ الإِبْرَةِ . ويُقالُ بُنِيَتِ الإسْكَندَرِيَّةُ في ثلاثِ مائةِ سنةٍ ، وشكَّنتِ ثلاثِ مائةِ سنةٍ ، وخَرِبَتِ ثلاثِ مائةٍ . ولقد مَكَّنتِ سبعينَ سنةٍ ما يدخلُها أَحَدٌ إلا وعلى بَصَرِهِ خِرْقَةٌ سَوْدَاءَ من بياضِ جِصِّها وبِلاطِها ، ولقد مَكَّنتِ سبعينَ سنةٍ ما يُسْتَشْرَجُ فيها ^٢ .

قال : وكانت الإسْكَندَرِيَّةُ يَبِضُّاءُ تُضِيءُ بالليلِ والنَّهارِ ، وكانوا إذا غَرَبَتِ الشَّمْسُ لم يَخْرُجَ أَحَدٌ من بيته ، ومن خَرَجَ اخْتِطَفَ . وكان منهم راعٍ يرعى على شاطئِ البحرِ ، فكان يَخْرُجُ من البحرِ شيءًا فيأخذُ من غَنَمِهِ ، فكَمَنَ له الرَّاعِي في مَوْضِعٍ حتى خَرَجَ ، فإذا جاريةٌ قد نَفَسَتْ شَعْرَهَا ، ومانَعَتْهُ عن نَفْسِها ، فقَوِيَ عليها ، فَذَهَبَ بها إلى منزلِهِ فَأَنَسَتْ بِهِ ، فرَأَتْهُم لا يَخْرُجونَ بعدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فسألتهم ، فقالوا : مَنْ خَرَجَ مِنَّا اخْتِطَفَ . فهَيَّأتَ لهم الطَّلُسماتِ ، فكانت أَوَّلَ من وَضَعَ الطَّلُسماتِ بمصرَ في الإسْكَندَرِيَّةِ . وقيل كان الرُّخامُ قد سُخِّرَ لهم حتى يكون من بُكَرَةِ إلى نصفِ ^(b) النَّهارِ كالعَجِينِ ، فإذا انتصفَ النَّهارُ اشْتَدَّ ^٣ .

(a) بولاق : منيعة . (b) ساقطة من بولاق .

^٣ نفسه ٤٢-٤٣ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤١ .

^٢ نفسه ٤٢ .

وقال المشعودي: ذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْإِسْكَنْدَرَ الْمَقْدُونِي لَمَّا اسْتَقَامَ مُلْكُهُ فِي بِلَادِهِ،
 وَسَارَ حَتَّى يَخْتَارَ أَرْضًا صَحِيحَةَ الْهَوَاءِ وَالثَّرْبَةِ وَالْمَاءِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَوْضِعِ الْإِسْكَنْدَرِيَةِ فَأَصَابَ
 فِيهَا أَثَرَ بُنْيَانٍ وَعُمُدًا كَثِيرَةً مِنَ الرُّخَامِ، وَفِي وَسْطِهَا عَمُودٌ عَظِيمٌ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ بِالْقَلَمِ الْمُسْنَدِ -
 وَهُوَ الْقَلَمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَقْلَامِ جَمِيرٍ وَمُلُوكِ عَادٍ - : «أَنَا شَدَادُ بْنُ عَادٍ، شَدَّدْتُ بِسَاعِدِي الْوَادِ^a،
 وَقَطَعْتُ عَظِيمَ / الْعِمَادِ وَشَوَائِمِ الْجِبَالِ وَالْأَطْوَادِ، وَبَنَيْتُ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا
 فِي الْبِلَادِ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَبْنِيَ هُنَا مَدِينَةَ كِبَارِمَ، وَأَنْقِلَ إِلَيْهَا كُلَّ ذِي قَدَمٍ وَكَرَمٍ، مِنْ جَمِيعِ الْعَشَائِرِ
 وَالْأُمَمِ، وَذَلِكَ إِذْ لَا خَوْفَ وَلَا هِرَمَ، وَلَا اهْتِمَامَ وَلَا سِقَمَ، فَأَصَابَنِي مَا أَعْجَلَنِي، وَعَمَّا أَرَدْتُ
 قَطَعَنِي، وَمَعَ وَقُوعِهِ طَالَ هَمِّي وَشَجَنِي، وَقَلُّ نَوْمِي وَسَكَنِي، فَارْتَحَلْتُ بِالْأَمْسِ عَنْ دَارِي لَا
 لِقَهْرِ مَلِكٍ جَبَّارٍ، وَلَا لَخَوْفِ جَيْشِ جَرَّارٍ، وَلَا عَنْ رَغْبَةٍ وَلَا عَنْ صَغَارٍ، وَلَكِنْ لِتَمَامِ الْمِقْدَارِ،
 وَانْقِطَاعِ الْآثَارِ، وَسُلْطَانِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ. فَمَنْ رَأَى أَثْرِي، وَعَرَفَ خَبْرِي وَطُولَ عُمْرِي وَنَفَازَ
 بَصْرِي وَشِدَّةَ حَذْرِي، فَلَا يَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا بَعْدِي، فَإِنَّهَا غَرَارَةٌ غَدَّارَةٌ، تَأْخُذُ مِنْهُ مَا تُعْطِي، وَتَسْتَرْجِعُ
 مِنْهُ مَا تُؤْتِي...»، وَكَلَامٌ كَثِيرٌ يُرِي فَنَاءَ الدُّنْيَا وَيَمْنَعُ مِنَ الْاِغْتِرَارِ بِهَا وَالشُّكُونِ إِلَيْهَا.

فَنَزَلَ الْإِسْكَنْدَرُ مُتَّفَكِّرًا يَتَدَبَّرُ هَذَا الْكَلَامَ وَيَغْتَبِرُهُ، ثُمَّ بَعَثَ يَحْشُرُ الصُّنَّاعَ مِنَ الْبِلَادِ، وَخَطَّ
 الْأَسَاسَ، وَجَعَلَ طَوْلَهَا وَعَرَضَهَا أَمْيَالًا، وَجَمَعَ إِلَيْهَا الْعُمُدَ وَالرُّخَامَ، وَأَتَتْهُ الْمَرَائِبُ فِيهَا أَنْوَاعَ
 الرُّخَامِ وَأَنْوَاعَ الْمَرْمَرِ وَالْأَخْجَارِ مِنْ جَزِيرَةِ صِبْقَلِيَّةٍ وَبِلَادِ إِفْرِيْقِيَّةٍ وَإِقْرِيْطِشَ وَأَقَاصِي بَحْرِ الرُّومِ مِمَّا يَلِي
 مَصَبَّهُ نَحْوَ أَقْيَانَسَ، وَحَمَلَ إِلَيْهِ أَيْضًا مِنْ جَزِيرَةِ رُودُسَ.

وَأَمَرَ الْفَعْلَةَ وَالصُّنَّاعَ أَنْ يَدُورُوا بِمَا رُسِمَ لَهُمْ مِنْ أَسَاسِ سُورِ الْمَدِينَةِ؛ وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ
 الْأَرْضِ نَخْشَبَةً قَائِمَةً، وَجَعَلَ مِنَ الْخَشَبَةِ إِلَى الْخَشَبَةِ جِبَالًا مَنُوطَةً بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَأَوْصَلَ جَمِيعَ
 ذَلِكَ بِعَمُودٍ مِنَ الرُّخَامِ، وَكَانَ أَمَامَ مَضْرَبِهِ، وَعَلَّقَ عَلَى الْعَمُودِ جَرَسًا عَظِيمًا مُصَوِّتًا، وَأَمَرَ النَّاسَ
 وَالْقَوْمَ عَلَى الْبُنَائِينَ وَالْفَعْلَةَ وَالصُّنَّاعَ أَنْهُمْ إِذَا سَمِعُوا صَوْتَ ذَلِكَ الْجَرَسِ وَتَحَرَّكَتِ الْحِيَالُ، وَقَدْ
 عَلَّقَ عَلَى كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْهَا جَرَسًا صَغِيرًا، حَرَّصُوا عَلَى أَنْ يَضَعُوا أَسَاسَ الْمَدِينَةِ دَفْعَةً وَاحِدَةً مِنْ
 سَائِرِ أَقْطَارِهَا، وَأَحَبَّ الْإِسْكَنْدَرُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ يَخْتَارُهُ، وَطَالَعَ سَعْدٌ. فَحَرَّكَ
 الْإِسْكَنْدَرُ رَأْسَهُ وَأَخَذَتْهُ نَعْسَةٌ فِي حَالِ اِزْتِقَابِهِ الْوَقْتِ الْمَحْمُودِ، فَجَاءَ غُرَابٌ فَجَلَسَ عَلَى حَبْلِ
 الْجَرَسِ الْكَبِيرِ الَّذِي فَوْقَ الْعَمُودِ فَحَرَّكَهُ، وَخَرَجَ صَوْتُ الْجَرَسِ، وَتَحَرَّكَتِ الْحِيَالُ وَخَفَقَ مَا عَلَيْهَا

(a) مروج الذهب: البلاد.

من الأجراس الصغار، وكان ذلك معمولاً بحركات هندسية وجيل حكيمية . فلما رأى الصنّاع تلك الخيال قد تحركت، وسَمِعوا الأصوات، وَضَعُوا الأساسَ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وارتفع الضجيج بالتحميد والتّقدّيس . فاستيقظ الإسكندر من رقدته، وسأل عن الخبر فأخبر بذلك، فأعجب وقال : «أرذتُ أمراً وأرادَ الله غيره، ويأبى الله إلا ما يريد؛ أرذتُ طولَ بقائها، وأرادَ الله سرعةَ فنائها وخرابها وتداول الملوك إيّاها»^١.

- وإن الإسكندر لما أحكم بناءها^٢، وثبت أساسها، وجن الليل عليهم، خرجت دواب البحر فأتت على جميع البنيان، فقال الإسكندر حين أصبح : «هذا بدء الخراب في عمارتها، وتحقق مراد الباري سبحانه من زوالها» . فتطير من فعل الدواب، فلم تزل البناء في كل يوم تبنى وتحكم ويؤكل من يمتنع الدواب إذا خرجت من البحر، فيضبحون وقد خرجت وخربت البنيان . فقلق الإسكندر لذلك وراعه ما رأى من البحر، فأقبل يفكر ما الذي يصنع، وأي حيلة تنفع في ذلك، حتى تدفع الأذى عن المدينة، فسئحت له الحيلة عند خلوه بنفسه وإيراده الأمور وإصدارها . فلما أصبح دعا الصنّاع فأتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع، وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باشتدادتها، وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء إلى التابوت، وقد جعل فيها مواضع للحبال .
- ودخل الإسكندر في التابوت ورجلان من كتّابه ممن له علم بإثقان التصوير، وأمر أن تُسد عليه الأبواب، وأن تُطلى بما ذكرنا من الأطلية، وأمر بمركبين عظيمين فأخرجا إلى لجة البحر وعلق في التابوت من أسفله مقلات الرصاص والحديد والحجارة لتتهوي بالتابوت سفلا، وجعل التابوت بين المركبين، وألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا، وشد جبال التابوت إلى المركبين وطول جباله، فغاص التابوت حتى انتهى إلى قار البحر؛ فنظروا إلى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر، فإذا بصور الشياطين على مثال الناس، وفيهم من له مثل رؤوس السباع وفي أيديهم الفئوس مع بعضهم، وفي أيدي بعضهم المناشير والمقايح يحكون بذلك صنّاع المدينة والفعلة وما في أيديهم من آلات البناء؛ فأثبت الإسكندر ومن معه تلك الصور، وحكوها بالتصوير في القراطيس على اختلاف أنواعها وتشوّه خالقها وقُدودها . ثم حرك

(b) في مروج الذهب : وإن الإسكندرية لما أحكم بناؤها .

^١ قارن ذلك برواية بناء القاهرة في زمن جوهر القائد (فيما يلي ٣٧٧) .

الحيال، فلما أحس بذلك من في المركبين جذبوا الحيال وأخرجوا التابوت . فخرج الإسكندر، وأمر صنّاع الحديد والنحاس والحجارة فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما صور، فلما فرغوا منها وضعت على العمود بشاطئ البحر، ثم أمرهم فبنوا؛ فلما جن الليل ظهرت الدواب والآفات من البحر، فنظرت إلى صورها على العمود مقابلة إلى البحر، فرجعت ولم تعد بعد ذلك ... فبنيت الإسكندرية وشيدت .

وأمر الإسكندر أن يكتب على أبوابها : « هذه الإسكندرية، أزدت أن / أبنيتها على الفلاح والتجّاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور، ولم يرد الباري - عز وجل - مالك السموات والأرض ومفني الأمم أن ينيها^(a) كذلك، فبنيتها وأحكمت بنيانها وشيدت سورها . وآتاني الله - عز وجل - من كل شيء علماً وحكمة، وسهل لي وجوه الأسباب فلم يتعذر علي في العالم شيء مما أزدته، ولا امتنع عني شيء مما طلبته، لطفاً من الله - عز وجل - وصنعاً لي وصلاً لعباده من أهل عصري، والحمد لله رب العالمين، لا إله إلا هو رب كل شيء . ورسم بعد هذه الكتابة كل ما يحدث بيده من الأحداث بعده في مستقبل الزمان من الآفات والعمران والخراب، وما يؤول أمرها إليه إلى وقت دثور العالم .

وكان بناء الإسكندرية طبقات، وتحتها قناطر مقلّطة عليها دُور المدينة، يسير تحتها الفارس ويده رُمح لا تضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التي تحت المدينة . وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق، ومثقفات للضياء، ومنافذ للهواء . وقد كانت الإسكندرية تضيء بالليل بغير مضباح لشدّة بياض الرخام والمزمر، وكانت أسواقها وشوارعها وأزقتها مقلّطة كلها لا يصيب أهلها شيء من المطر . وكان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفي اللون^(b)، بينها خنادق، وبين كل خندق وسور فضول، ورُبما تعلق في المدينة شقاق الحرير الأخضر لاخطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدّة بياضه .

فلما أحكم بناءها وسكنها أهلها، كانت آفات البحر وسكانه - على ما زعم الإخباريون من المصريين والإسكندريين - تختطف بالليل أهل المدينة، فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير؛ فلما علم بذلك الإسكندر اتخذ الطلسمات على أعمدة هنالك تدعى المسال، وهي باقية إلى هذه الغاية، كل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السروة، وطول كل واحد منها

(a) بولاق : يبتها، مروج : أبنيتها . (b) بولاق : المختلفة الألوان .

ثمانون ذراعًا، على عُمدٍ من نحاس، وجعل تحتها صورًا وأشكالًا وكتابة^١.

قال كاتبه^(a): فيما تقدّم من حكاية ابن وصيف شاه ما يتّبين به وهم ما نقله المشعودي من أنّ الإسكندر هو الذي عمّل الثابت حتى صور أشكال حيوانات البحر، فإنّ ابن وصيف شاه أعرف بأخبار أهل مصر. وكذلك ما ذكره المشعودي من أنّ المسال من عمّل الإسكندر وهم أيضًا، بل هذه المسال هي المتأير التي كان يُنور عليها، والأعلام التي كانت ملوك مصر القدماء تنصبها. وهي من أعمال ملوك القبط الأول، ومن أعمال الفراعنة الذين ملكوا مصر من قديم الزمان.

ذِكْرُ الإسْكَندَرِ^٢

هو الإسكندر بن فليش بن آمنته بن هركلش الجبار الذي هو ابن الإسكندر الأعظم. ولي أبوه فليش الملك في بلد مجدونية خمسًا وعشرين سنة، استنبت فيها ضروبًا من المنكر، وابتدع أنواعًا من الشرّ تقدّم فيها كل من ولي الملك بها قبله. وكان في أول أمره قد جعله أخوه الإسكندر رهينة عند أمير من الروم^٣، فأقام عنده ثلاث سنين، وكان فيلسوفًا، فتعلّم عنده ضروب الفلسفة. فلما قتل أخوه الإسكندر، اجتمع الناس على تولية فليش، فولّوه أميرًا، فقام في السلطان مقامًا عظيمًا، فحارب الروم وغلب عليهم، ومضى إلى البرية فقتل بها من الناس آلافًا، وغلب على مدائن، فاجتمع له جمع لا يُقاد وجيش لا يُرام، فأذّل جميع الروم، وذهبت عينه في بعض الحروب. وعم^(b) البلدان والمدائن غارة^(c) وهدمًا وسبًا وانتهابًا.

(a) بولاق: مؤلفه، وعلى هامش الأصل: في الأصل: كاتبه. (b) بولاق: غمر. (c) بولاق: عمارة.

West», *Bulletin of the John Rylands University Library of Manchester* LX/1 (1977), pp. 13-27; Caratini, R., *Alexandre le grand*, Paris, 1999; La carrière, J., *La Légende d'Alexandre*, traduit du Grec et commenté par, Paris 2000; Fevre, F., *Alexandre le grand, un héros de légende*, Paris 1999; *Alexandre le grand dans les littératures occidentales et Proche-Orientales*, Paris - Université de Paris X-Nanterre 1999; Montgomery Watt, W., *El art. Iskandar IV*, p. 133.

^٣ عند أوريوسوس: أمير الطبانيين واسمه إبا مئنده .Epaminondo

^١ المشعودي: مروج الذهب ٢: ٩٩-١٠٤.

^٢ هذا الفصل جميعه نقله المقرئ من الترجمة العربية لكتاب «تاريخ العالم» لبولوس أوريوسوس Paulus Orosius الذي يسميه المؤلفون العرب هروشيوش، وقارن مع المشعودي: مروج الذهب ٢: ٨-١٠. وشغل الإسكندر اهتمام الباحثين منذ وفاته وتعددت الكتب والدراسات حوله ولكن أحدث ما كتب عنه هو Pseudo-Callisthine, *Le roman d'Alexandre, la vie et les hauts faits d'Alexandre de Macédoine*, Paris 1992; Boyle, J.A., «The Alexander Romance in the East and

ثم حشد جميع أهل بلد الروم ، وعبأ عسكراً فيه مائتا ألف راجل وخمسون ألف فارس ، سوى من كان فيه من أصحابه المقدونيين ومن غيرهم من أجناس اليونانيين ، يُريد غزو الفرس . فبينما هو يجمع هذا الجمع نظر في تزويج ابنة له يُقال لها قلوبطرة من ختنه ، أختي امرأته وخال ولده ؛ الإسكندر ، وجلس قبل العرس بيومين يحدث قواده إذ سُئل عن أي الموات أحق أن يتمتها الإنسان ؟ فقال : الواجب على الرجل القوي الظافر المحرّب - يُريد نفسه - ألا يتمتى الموت إلا بالسيف فجأة ، لئلا يُعذبه المرض وتحل قوته الأوجاع . فعجل له ما تمنى في ذلك العرس ، وذلك أنه حضر لعباً كان على الخيل بين ولده الإسكندر وختنه الإسكندر ، فبينما هو في ذلك غافله أخذ أحداث الروم بطعنة فقتله بها ثائراً بأبيه عندما تمكن منه مُنفرداً^١ .

فولي الإسكندر الملك بعد أبيه فليش ، وكان أول شيء أظهر فيه قوته وعزمه في بلد الروم ، وكانوا قد خرجوا عن طاعة المقدونيين إلى طاعة الفرس ، فدرّسهم واستأصلهم وخرّب مدّتهم وجعلهم سبياً مبيعاً ، وجعل سائر بلادهم وكورهم تُؤدّي إليه الخراج . ثم قتل جميع أختانه وأكثر أقاربه في وقت تعبته لمحاربة الفرس^٢ .

وكان جميع عسكره اثنين وثلاثين^(a) ألف فارس وستين ألف راجل ، وكانت مراكبه خمس مائة مَرَكَب وثمانين مَرَكَبًا . فحرك بهذه العدة كبار ملوك الدنيا ، وسار إلى الإسكندرية ، ودخل بيت المقدس وقرب فيه لله تعالى قرباناً^٣ .

وخرج يُريد مُحارَبة دارا^(b) ، وكان في عسكر دارا ملك الفرس في أول مُلاقاته إياه ست مائة ألف مُقاتل ، فغلبه الإسكندر ، وكانت إذ ذاك على الفرس وقعة شعاء ونكبة ذهياء ، قُتل فيها منهم عدد لا يُحصى ، ولم يُقتل من عسكر الإسكندر إلا مائة وعشرون فارساً وتسعون راجلاً .

ومضى الإسكندر ففتح مدائن وانتهب ما فيها ، فبلغه أن دارا قد عبأ وأقبل نحوه بجمع عظيم ، فخاف أن يلحقه في ضيق الجبال التي كان فيها ، فقطع نحواً من مائة ميل في سرعة

(a) بولاق : وعشرين . (b) في الأصل وعند أورويسوس في جميع المواضع «داري» ، وقد فضلت رسمها بالألف .

^١ أورويسوس : تاريخ العالم ٢٢٠-٢٢٦ ملخصاً .

^٢ نفسه ٢٢٩-٢٣٠ .

^٣ نفسه ٢٢٩ .

عَجِيْبَةٌ حَتَّى بَلَغَ مَدِيْنَةَ طَرْسُوسَ ، وَكَادَ يَهْلِكُ لِفَرْطِ الْبُرْدِ حَتَّى انْقَبَضَ عَصْبُهُ ، فَلَقَاهُ دَارَا فِي ثَلَاثِ مِائَةِ أَلْفِ رَاغِلٍ وَمِائَةِ أَلْفِ فَارِسٍ .

- فَلَمَّا التَّمَّى الْجَمْعَانِ كَادَ الإسْكَنْدَرُ يَفْرَعُ^(a) لِكثْرَةِ مَا كَانَ فِيهِ دَارَا وَقِلَّةِ مَا كَانَ فِيهِ ، وَاسْتَحْرَبَ^(b) الْقِتَالَ بَيْنَهُمَا وَبَاشَرَ الْقَوَاذِ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَتَنَازَلَ الْأَبْطَالَ ، وَاخْتَلَفَ الطُّغْنُ وَالضُّرْبُ ، وَضَاقَ الْفَضَاءُ بِأَهْلِهِ ، فَبَاشَرَ كِلَا الْمَلِكَيْنِ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِهِمَا : دَارَا وَالْإِسْكَنْدَرُ ، وَكَانَ الإسْكَنْدَرُ أَكْمَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ فُرُوسِيَّةً وَأَشَجَعَهُمْ وَأَقْوَاهِمَ جِسْمًا ، فَبَاشَرَ حَتَّى جُرِحَا جَمِيْعًا ، وَتَمَادَى الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا حَتَّى انْهَزَمَ دَارَا ، وَنَزَلَتِ الْوَقِيْعَةُ بِالْفُرْسِ ، فَقُتِلَ مِنْ رَاغِلِهِمْ نَحْوُ مِنْ ثَمَانِينَ أَلْفًا ، وَمِنْ فُرْسَانِهِمْ نَحْوُ مِنْ عَشْرَةِ أَلْفٍ ، وَأُسِرَ مِنْهُمْ نَحْوُ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا ، وَلَمْ يَسْقُطْ مِنْ عَسْكَرِ الإسْكَنْدَرِ^(c) إِلَّا مِائَتَانِ وَثَلَاثُونَ رَاغِلًا وَمِائَةٌ وَخَمْسُونَ فَارِسًا . فَانْتَهَبَ الإسْكَنْدَرُ جَمِيْعَ عَسْكَرِ الْفُرْسِ ، وَأَصَابَ فِيهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَمْتِيْعَةِ الشَّرِيْفَةِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً ، وَأُصِيبَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسَارِيِّ أُمَّ دَارَا وَزَوْجَتَهُ وَأَخْتَهُ وَابْنَتَاهُ ، فَطَلَبَ دَارَا مِنَ الإسْكَنْدَرِ فِدْيَتَهُنَّ بِنِصْفِ مُلْكِهِ فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ^١ .
- فَعَبَأَ دَارَا مَرَّةً ثَالِثَةً وَحَشَدَ الْفُرْسَ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَاسْتَجَاشَ بِكُلِّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمَّمِ ، فَبَعَثَ الإسْكَنْدَرُ قَائِدًا فِي أُسْطُولٍ^٢ لِلْغَارَةِ عَلَى بَلَدِ الْفُرْسِ ، وَمَضَى الإسْكَنْدَرُ إِلَى الشَّامِ فَتَلَقَّاهُ هُنَالِكَ مُلُوكُ الدُّنْيَا خَاضِعِينَ لَهُ ، فَعَفَا عَنْ بَعْضٍ وَنَقَى بَعْضًا وَقَتَلَ بَعْضًا ، وَمَضَى إِلَى أَحْوَازِ طَرْسُوسِ - وَكَانَتْ مَدِيْنَةُ زَاهِرَةً قَدِيْمَةً عَظِيْمَةً الشَّأْنِ ، وَأَهْلُهَا قَدْ وَثَقُوا بِعَوْنِ أَهْلِ إِفْرِيْقِيَّةٍ لَهُمْ لَصِيْهِرٍ كَانَ بَيْنَهُمْ - فَحَاصَرَهُمْ فِيهَا حَتَّى افْتَتَحَهَا ، وَمَضَى مِنْهَا إِلَى رُودَسِ وَإِلَى مِصْرَ فَانْتَهَبَ الْجَمِيْعَ ، وَبَنَى مَدِيْنَةَ الإسْكَنْدَرِيَّةَ بِأَرْضِ مِصْرَ ، وَقَالَ هِرُوشِيُوسُ : وَهُوَ فِي بُيَانِهَا أَخْبَارٌ طَوِيْلَةٌ وَسِيَاسَاتٌ كَرِهْنَا تَطْوِيلَ كِتَابِنَا بِهَا^٣ .

- ثُمَّ إِنَّ دَارَا لَمَّا بَيَّسَ مِنْ مُصَالِحَتِهِ أَقْبَلَ فِي أَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفِ رَاغِلٍ وَمِائَةِ أَلْفِ فَارِسٍ فَتَلَقَّى الإسْكَنْدَرُ مُقْبِلًا مِنْ نَاحِيَةِ مِصْرَ ، فِي أَعْمَالِ مَدِيْنَةِ طَرْسُوسَ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا مَعْرَكَةٌ عَجِيْبَةٌ شَنِيعَةٌ ، اجْتِهَادًا مِنْ الرُّومِ عَلَى مَا كَانُوا خَبَرُوهُ وَاعْتَادُوهُ^(d) مِنَ الْعَلْبَةِ وَالظُّفْرِ ، وَاجْتِهَادًا مِنَ الْفُرْسِ بِالتَّوْطِينِ عَلَى

(a) بولاق : يفر . (b) بولاق : ووقع . (c) عند أورو سيوس : المجدولين . (d) بولاق : واعتادوا .

^١ أورو سيوس : تاريخ العالم ٢٣٠ - ٢٣١ . ابن وب .

^٢ عند أورو سيوس : يدعي برمينون Parmenion ^٣ أورو سيوس : تاريخ العالم ٢٣١ .

الهلاك وتفضيل الموت على الرق والعبودية ، فقلما يحكى عن معركة كان القتل فيها أكثر منه في تلك المعركة .

فلما نظر دارا إلى أصحابه يتغلب عليهم ويهزمون ، عزم على استئجال الموت في تلك الحرب بالمباشرة لها بنفسه والصبر حتى يقتل معترضا للقتل ، فلطف به بعض قواده حتى سلّوه^(a) فانهزم ، وذهبت قوة الفرس وعزهم ، وذل بعدها سلطانهم ، وصار بلد المشرق كله في طاعة الروم ، وانقطع ملك الفرس مدة أربع مائة عام وخمسين عامًا .

واشتغل الإسكندر بتحصيل ما أصاب في عسكر الفرس والنظر فيه ، وقسمته على عسكره ثلاثين يومًا .

ثم مضى إلى مدينة الفرس^١ التي كانت رأس مملكتهم^(b) ، والتي اجتمعت فيها أموال الدنيا ونعمها فهدمها ونهب ما فيها ، فبلغه عن دارا أنه صار عند قوم [من اللجدمونيين]^(c) مكبلاً في كُبول من فضة ، فتهياً وخرج في ستة آلاف فوجده بالطريق مجروحاً جراحات كثيرة ، فلم يلبث أن هلك منها . فأظهر الإسكندر الحزن عليه والمؤثبة له ، وأمر بدفنه في مقابر الملوك من أهل مملكته .

وكان في أمر هذه الثلاث معارك عيرة لمن اعتبر ، ووعظ لمن اتعظ ، إذ قتل فيها من أهل مملكة واحدة نحو من خمسة عشر ألف ألف^(d) بين راكب وراجل من أهل بلد آسيا - وهي العراق - وقد كان قتل من أهل تلك المملكة قبل ذلك بنحو من ستين سنة نحو تسعة عشر ألف ألف إلى ألف ألف ما بين راكب وراجل ، من أهل بلد العراق والشام وطرشوس ومصر وجزيرة رودس وجميع البلدان الذين درسهم الإسكندر أجمعين^٢ .

وكان سلطان الدنيا مقسوماً بين قواده بعد ما زلزل بدوايه العظيمة العالم كله ، وعم أهله بعضاً بالمنايا الفظيعة ، وبعضاً بالتوطين عليها والمباشرة لأهوالها . وأوصى عند وفاته أن يلقب كل قائم في اليونانيين بعده بـ«بطلميوس» تهويلاً للأغداء ، لأن معناه «الحزبي»^٣ .

(a) بولاق : سلوه . (b) عند أورويسوس : التي كانت بيضة الفرس . (c) زيادة من أورويسوس . (d) صوبه الدكتور بدوي في هامش أورويسوس إلى : خمسة عشر مائة ألف - أى مليون ونصف - كما في الأصل اللاتيني Quinquiens .

^٣ قارن مع المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣١ .

^١ هي مدينة Persepolis برسبولس .

^٢ أورويسوس : تاريخ العالم ٢٢٩ - ٢٣٣ .

فهذا هو الصَّحِيحُ من خَبَرِ الإسْكَنْدَرِ ، فلا يُلتَفَتُ إلى ما خالفه .
ويقالُ إنَّه كانَ أَشْقَرَ أَرْزَقَ ، وهو أَوَّلُ من سَمَرَ بِاللَّيْلِ ، وكانَ له قَوْمٌ يُضْحِكُونَهُ وَيُحْكُوا له
الْحُرَافَاتِ ، يُرِيدُ بِذَلِكَ حِفْظَ مُلْكِهِ وَجِرَاسَةَ نَفْسِهِ ، لا اللَّذَّةَ . وبه اقْتَدَى المُلُوكُ فِي السَّمْرِ واتَّخَذَ
المُضْحِكِينَ والمُخْرِفِينَ ^١ .

ذِكْرُ تَارِيخِ الإسْكَنْدَرِ

/قال أبو الرِّيحان محمد بن أحمد البيروني^٢: تَارِيخُ الإسْكَنْدَرِ اليُونَانِي - الذي يُلقَّبُه بعضُهُم
بِذِي القَرْنَيْنِ - على سِنِي الرُّومِ ، وعليه عَمَلُ أَكْثَرِ الأُمَمِ ، لما خَرَجَ من بِلادِ يُونانِ ، وهو ابنُ سِتِّ
وعشرين سنة لِقِتالِ دارِ مَلِكِ الفُرسِ .

ولما وَرَدَ بَيْتَ المَقْدِسِ أَمَرَ اليَهُودَ بِتَرْكِ تَارِيخِ دَاوُدَ وَمُوسَى - عليهما السَّلَامُ - والتَّحَوُّلِ إلى
تَارِيخِهِ ؛ فأجابوه وانتقلوا إلى تَارِيخِهِ ، واشتَعَمَلوه فيما يَحْتَاجُونَ إليه ، بعد أن عَمِلُوهُ من السَّنَةِ
السادسة والعشرين لميلاده - وهو أَوَّلُ وَقْتِ تَحْرُكِهِ - لِيَتِمُّوا أَلْفَ سَنَةٍ من لدنِ مُوسَى عليه السَّلَامُ ؛
وَبَقُوا مُعْتَصِمِينَ بهذا التَّارِيخِ ومُسْتَعْمِلِينَ له ، وعليه عَمَلُ اليُونانِيِّينَ ، وكانوا قَبْلَهُ يُورُثُونَ بِخُرُوجِ
يُونانِ بنِ نُورَسِ عن بَابِلَ إلى المَغْرِبِ ^٣ .

وأوَّلُ تَارِيخِ الإسْكَنْدَرِ يومَ الاثْنَيْنِ أَوَّلُ تَشْرِينِ الأَوَّلِ ، ومُوافِقُهُ اليومَ الرَّابِعَ من بَابِهِ . ومَبَادِي
الأَيَّامِ عندهم من وَقْتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ إلى وَقْتِ غُرُوبِهَا ، وإلى أن يُصْبِحَ الصُّبْحُ وتَطْلُعَ الشَّمْسُ
فقد كَمُلَ يومٌ بِلَيْلَتِهِ . ومَبَادِي الشُّهُورِ تَرْجِعُ إلى عَدَدٍ واحِدٍ له نَظْمٌ يَجْرِي عليه دائِمًا ، وَعَدَدُ
شُهُورِ سَنَتِهِمُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا يُخَالِفُ بعضُها بعضًا في العَدَدِ .
وهذه أَسْمَاؤُهَا ^(a) وَعَدَدُ أَيَّامِ كُلِّ شَهْرٍ مِنْهَا ^(a) :

تِشْرِينِ الأَوَّلِ : أَحَدٌ وَثَلَاثُونَ يَوْمًا . تِشْرِينِ
الثَّانِي : ثَلَاثُونَ يَوْمًا . كَانُونِ الأَوَّلِ : أَحَدٌ
وِثَلَاثُونَ يَوْمًا . كَانُونِ الثَّانِي : أَحَدٌ وَثَلَاثُونَ
يَوْمًا . شَبَّاطُ : ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا وَرُبْعٌ .

(a-a) ساقطة من الأصل .

^١ هذا النص موجود عند ابن النديم : الفهرست ٣٦٣ . ٧٦٤ - ٧٦٥ .

^٢ اعتمد المقرئ في كل ما يخص تواريخ الأمم المختلفة

على ما ذكره البيروني . انظر فيما يلي ٣٣٢ ، ٣٥٤ - ٣٦٧ ،

^٣ البيروني : الآثار الباقية ٢٨ .

آذار: أحدٌ وثلاثون يوماً. نيسان: ثلاثون ثلاثون يوماً. تمّوز: أحدٌ وثلاثون يوماً. آب: يوماً. أيار: أحدٌ وثلاثون يوماً. حزيران: أحدٌ وثلاثون يوماً.

فَسَبْعَةُ أَشْهُرٍ، كُلُّ شَهْرٍ مِنْهَا أَحَدٌ وَثَلَاثُونَ يَوْمًا، وَأَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ كُلُّ شَهْرٍ مِنْهَا ثَلَاثُونَ يَوْمًا، وَشَهْرٌ وَاحِدٌ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا وَرُبْعُ يَوْمٍ - وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا سَبْطًا كُلَّ ثَلَاثِ سَنِينَ مُتَوَالِيَاتٍ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَجَعَلُوهُ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا - فَيَكُونُ عِدَّةُ أَيَّامِ سَنَتِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ وَسِتِينَ يَوْمًا وَرُبْعُ يَوْمٍ، وَيَجْعَلُونَ السَّنَةَ الرَّابِعَةَ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتَّةَ وَسِتِينَ يَوْمًا وَيُسَمُّونَهَا السَّنَةَ الْكَبِيْسَةَ .

وَأَمَّا زَادُوا الرَّبْعَ فِي كُلِّ سَنَةٍ لِيَتْرَبَ عَدَدُ أَيَّامِ سَنَتِهِمْ مِنْ عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ، حَتَّى تَبْقَى أُمُورُهُمْ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ، فَتَكُونُ شُهُورُ الْبَرِّدِ وَشُهُورُ الْحَرِّ وَأَوَانُ الزَّرْعِ وَلِقَاحُ الشَّجَرِ وَجَنِي الثَّمَرِ فِي وَقْتٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ، لَا يَتَغَيَّرُ وَقْتُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَبَدًا .

وكان ابتداء الكبيس في السنة الثالثة من ملك الإسكندر .
وبين يوم الاثنين أول يوم من تاريخ الإسكندر هذا وبين يوم الخميس أول شهر المحرم من السنة التي هاجر نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة تسع مائة سنة وثلاث وثلاثون سنة ومائة وخمسة وخمسون يوماً .

وبينه وبين يوم الجمعة أول يوم من الطوفان ألفا سنة وسبع مائة سنة وأنتان وتسعون سنة ومائة وثلاثة وتسعون يوماً .

وبين ابتداء ملك بُخْت نَصْر وبين أول تاريخ الإسكندر أربع مائة وخمس وثلاثون سنة شمسية ومائتا يوم وثمانية وثلاثون يوماً .

وقال أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن وحشية في كتاب «الفلاحة النبوية»: الشهر المسمى تمّوز - فيما ذكر النبوة^(a) بحسب ما وجدت في كتبهم - اسم رجل كانت له قصة عجيبة طويلة، وهو أنه دعا ملكاً إلى عبادة الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر، وأن الملك قتله وعاش بعد

(a) بولاق: القبط .

¹ قارن مع المسعودي: التنبيه والإشراف ٢١٤، مروج الذهب ٢: ٣٣٧-٣٤٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٩١-

الْقَتْلَةَ ، ثُمَّ قَتَلَهُ قَتْلَاتٌ بَعْدَ ذَلِكَ قَبِيحَةٌ وَفِي كُلِّهَا يَعِيشُ ، ثُمَّ مَاتَ فِي آخِرِهَا . وَإِنَّ شَهْرَهُمْ هَذِهِ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهَا اسْمُ رَجُلٍ فَاضِلٍ عَالِمٍ كَانَ فِي الْقَدِيمِ مِنَ النَّبْطِ الَّذِينَ كَانُوا مَكَانَ إِقْلِيمِ بَابِلَ قَبْلَ الْكَشْدَانِيِّينَ . وَذَلِكَ أَنَّ تَمُّوزَ هَذَا لَيْسَ مِنَ الْكَشْدَانِيِّينَ وَلَا الْكَنْعَانِيِّينَ وَلَا الْعَبْرَانِيِّينَ وَلَا الْجَرَامِيقَةَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْحَنْبَاسِيِّينَ^(a) الْأَوَّلِينَ .

٥ وكذلك^(b) يَقُولُونَ فِي كُلِّ شَهْرِهِمْ : إِنَّهَا أَسْمَاءُ رِجَالٍ مَضَوْا ، وَإِنَّ تَيْشْرِينَ الْأَوَّلَ وَتَيْشْرِينَ الثَّانِيَّ اسْمَا أَخَوَيْنِ كَانَا فَاضِلَيْنِ فِي الْعُلُومِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ كَاتُونُ الْأَوَّلُ وَكَاتُونُ الثَّانِي ، وَإِنَّ شَبَاطَ اسْمُ رَجُلٍ نَكَحَ أَلْفَ امْرَأَةٍ - أَبْكَارًا كُلَّهُنَّ - وَلَمْ يَنْسَلْ نَسْلًا وَلَا وَلَدًا وَوَلَدًا ، فَجَعَلُوهُ فِي آخِرِ الشُّهُورِ لِنُقْصَانِهِ عَنِ النَّسْلِ ، فَصَارَ النُّقْصَانُ مِنَ الْعَدَدِ فِيهِ .

١٠ وَالصَّابِثُونَ مِنَ الْبَابِلِيِّينَ وَالْحَرْزَانِيِّينَ^(c) جَمِيعًا إِلَى وَقْتِنَا هَذَا يَتُوحُونَ وَيَتَّكُونَ عَلَى تَمُّوزَ فِي الشَّهْرِ الْمُسَمَّى تَمُّوزَ فِي عِيدِهِ لَهُمْ فِيهِ مَنْسُوبٌ إِلَى تَمُّوزَ ، وَيُعَدُّونَ تَعْدِيدًا عَظِيمًا ، وَخَاصَّةً النِّسَاءَ ، فَإِنَّهُنَّ يَقْنَنُ هَهُنَا جَمِيعًا وَيَتَّخُنُّ وَيَتَّكِنُ عَلَى تَمُّوزَ ، وَيَهْتَدِينَ فِي أَمْرِهِ هَذَيَانًا طَوِيلًا ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ مِنْ أَمْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَقُولُوا هَكَذَا وَجَدْنَا أَشْلَاقَنَا يَتُوحُونَ وَيَتَّكُونَ عَلَى تَمُّوزَ فِي هَذَا الْعِيدِ الْمَنْسُوبِ إِلَى تَمُّوزَ .

١٥ ^(d) وَلِلنَّصَارِيِّ ذِكْرَانِ^(e) يَعْمَلُونَهُ لِرَجُلٍ يُسَمَّى جُورْجِيَسَ ، أَحَدُ حَوَارِيِّ عَيْسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - دَعَا مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ فَعَذَّبَهُ الْمَلِكُ بِتِلْكَ الْقَتْلَاتِ^١ .

فَلَا أُذْرِي وَقَعَ إِلَى النَّصَارِيِّ قِصَّةُ تَمُّوزَ فَأَبْدَلُوا مَكَانَهَا اسْمَ جُورْجِيَسَ وَخَالَفُوا الصَّابِثِينَ فِي الْوَقْتِ ، لِأَنَّ الصَّابِثِينَ يَعْمَلُونَ ذِكْرَانَ تَمُّوزَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ تَمُّوزَ ، وَالنَّصَارِيُّ يَعْمَلُونَ لِحُورْجِيَسَ فِي آخِرِ نَيْسَانَ^٢ .

(a) بولاق : الحرناسيين وفبيت : الجنبانيين والمثبت من ابن وحشية . (b) بولاق والمخطوطات : ولذلك والمثبت من ابن وحشية . (c) بولاق : الحرنانيين . (d-d) وردت هذه الفقرة في الأصل في نهاية الفصل . (e) بولاق : والنصارى تذكر أنهم .

^١ دمج المقرئ نص ابن وحشية بطريقة مخلة ونص ابن وحشية هو : «...جورجيس ، يزعمون أنه قُتل قتلات عدة قبيحة ، ثم يعيش - زعموا - بعقب كل قتلة منها ... ثم إنه مات في آخرها في قصة بطول شرحها ، وهي مدونة في كتاب في أيدي النصارى ... لكن النصارى سرقوها من الصابثين وجعلوا جورجيس أحد حواري المسيح وأنه دعا ملكا من الملوك إلى دين النصرانية ، فعذب ذلك الملك بتلك القتلات التي قتله» .

^٢ ابن وحشية : الفلاحة النبطية ١ : ٢٩٧-٢٩٨ ، وختم حديثه بقوله : «والذي عندي أنا ، بمقدار علمي ، أن =

وَيُقَالُ إِنَّ بَعْضَ مُلُوكِ رُومِيَّةِ زَادَ فِي شَهْرِ الرُّومِ كَانُونَ الثَّانِي وَشَبَّاطَ ، فَإِنَّ شُهُورَهُمْ كَانَتْ إِلَى زَمَانِهِ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ كُلِّ شَهْرٍ / سِتَّةَ وَثَلَاثُونَ يَوْمًا^d .

وَيُقَالُ إِنَّ فَيُوفِيُوسَ أَوَّلَ مَنْ مَلَكَ مَدِينَةَ رُومِيَّةَ ، وَإِنَّهُ أَقَامَ مَلِكًا ثَلَاثًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَزَادَ كَانُونَ الثَّانِي وَشَبَّاطَ فِي شَهْرِ الرُّومِ بِحُكْمِ أَنَّهَا كَانَتْ إِلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ كُلِّ شَهْرٍ سِتَّةَ وَثَلَاثُونَ يَوْمًا .

وَكَانَ سَبَبُ نَقْصِ شَبَّاطَ يَوْمِينَ ، وَوُقُوعُ غَارَةِ فِي أَيَّامِ فَيُطْنِ رَئِيسِ جَيْشِ الرُّومِ مَعَ خُلْفِ وَحُرُوبِ بَيْنِهِ وَبَيْنِ فُزْيُورِيُوسَ آلتَ إِلَى نُضْرَةَ فَيُطْنِ وَأَخَذَهُ مَمْلَكَةَ الرُّومِ ، وَأَمَرَ بِفُزْيُورِيُوسَ فَنُودِيَ عَلَيْهِ : «أَغْبَا فُزْدِيَا»^a ، وَتَفْسِيرُهُ : أَخْرَجَ يَا شَبَّاطَ ، ثُمَّ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ . وَسَمَّوْا شَهْرَ شَبَّاطَ فُزْيُورِيُوسَ لِيَكُونَ تَذْكَارٌ سَوِيءٌ لَهُ ، فَإِنَّ هَذَا الْفِعْلَ كَانَ فِي يَوْمِي التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ شَبَّاطَ ، فَتَقْصُوهُمَا مِنْ شَبَّاطَ وَزَادُوهُمَا فِي تَمُوزَ وَكَانُونَ الثَّانِي ، فَجَعَلُوا كُلَّ شَهْرٍ مِنْهُمَا أَحَدًا وَثَلَاثِينَ يَوْمًا .

ثُمَّ بَعْدَ زَمَانٍ جَاءَ مَلِكٌ آخَرَ فَقَالَ : لَا يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ شَبَّاطَ فِي وَسْطِ السَّنَةِ ، فَنَقَلَهُ إِلَى آخِرِهَا ، وَلَمْ تَزَلِ الرُّومُ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ يَتَطَيَّرُونَ مِنْ شَبَّاطَ .

ذِكْرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِسْكَندَرِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ وَأَنْهُمَا رَجُلَانِ

اعْلَمْ أَنَّ التَّحْقِيقَ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَخْبَارِ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فَقَالَ : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا...﴾ [الأنعام ٨٣ ، ٨٤ سورة الكهف] الآيات ، عَرَبِيٌّ قَدْ كَثُرَ ذِكْرُهُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ ، وَأَنَّ اسْمَهُ الصُّعْبُ بْنُ ذِي مَرَاثِدِ بْنِ الْحَارِثِ الرَّائِشِ بْنِ الْهَمَّالِ ذِي شَدَّادِ بْنِ عَادِ بْنِ ذِي مَنَحِ بْنِ عَامِرِ الْمَلَطَّاطِ بْنِ سَكْسَكِ بْنِ وَايِلِ بْنِ حِمَيْرِ بْنِ سَبَأَ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ بْنِ هُودِ بْنِ عَابِرِ ابْنِ شَالِيحِ بْنِ أَرْفَحُشْدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ^١ ، وَإِنَّهُ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ حِمَيْرِ وَهُمْ الْعَرَبُ

(a) في بولاق والمخطوطات : أعياء مرديا ، والضبط المثبت عن Wiet تبعاً للضبط السرياني للفظ .

= القصتين جميعاً كذب ومحال ولا يجوز أن يكون حقا . عبد الملك بن هشام ، وهو مصدر المقرئ : الصعب بن

^١ الاسم كما ورد في كتاب «التيجان» رواية محمد بن الحارث الرائش ذي مرثد بن عمرو الهمال ذي مناح بن =

العاربة ، ويُقال لهم أيضًا العرب العرباء ؛ وكان ذو القرنين تبعًا مُتَوَجِّحًا ، ولما وُلِيَ الْمَلِكُ تَجَبَّرَ ، ثم تَوَاضَعَ لِلَّهِ واجْتَمَعَ بِالْحِضْرِ^١ .

وقد غَلِطَ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْإِسْكَانْدَرَ بْنَ فِلَيْبِشْ هُوَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الَّذِي بَنَى السُّدَّ ، فَإِنَّ لَفْظَةَ «ذُو» عَرَبِيَّةٌ ، وَذُو الْقَرْنَيْنِ مِنَ الْقَابِ الْعَرَبِ مُلُوكِ الْيَمَنِ ، وَذَلِكَ رُومِيٌّ يُونَانِيٌّ^٢ .

قال أبو جَعْفَرِ الطَّبْرِيِّ : كَانَ الْحِضْرُ فِي أَيَّامِ أَفْرِيدُونَ الْمَلِكِ بْنِ أَثْفِيَانَ^(a) فِي قَوْلِ عَامَّةِ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، وَقَبْلَ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقَبْلَ إِنَّهُ كَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ الْأَكْبَرِ الَّذِي كَانَ عَلَى أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَنَّ الْحِضْرَ بَلَغَ مَعَ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَيَّامَ مَسِيرِهِ فِي الْبِلَادِ نَهْرَ الْحَيَاةِ فَشَرِبَ مِنْ مَائِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِهِ ذُو الْقَرْنَيْنِ وَلَا مَنْ مَعَهُ ، فَحُلِدَّ ، وَهُوَ حَيٌّ عِنْدَهُمْ إِلَى الْآنِ^٣ .

وقال آخرون : إِنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ الَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هُوَ أَفْرِيدُونَ ابْنِ أَثْفِيَانَ^(a) ، وَعَلَى مُقَدِّمَتِهِ كَانَ الْحِضْرُ^٤ .

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب «التَّيْجَانِ فِي مَعْرِفَةِ مُلُوكِ الْأَزْمَانِ»^(b) بَعْدَ مَا ذَكَرَ نَسَبَ ذِي الْقَرْنَيْنِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ : وَكَانَ تَبَعًا مُتَوَجِّحًا ، لَمَّا وُلِيَ الْمَلِكُ تَجَبَّرَ ، ثُمَّ تَوَاضَعَ وَاجْتَمَعَ بِالْحِضْرِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، وَسَارَ مَعَهُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَأُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا كَمَا أُخْبِرَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَبَنَى السُّدَّ عَلَى يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَمَاتَ بِالْعِرَاقِ^٥ .

فَأَمَّا الْإِسْكَانْدَرُ فَإِنَّهُ يُونَانِيٌّ ، وَيُعْرَفُ بِالْإِسْكَانْدَرِ الْمَجْدُونِيِّ .

(a) بولاق : الضحاك وهو الاسم العربي له . (b) بولاق : الزمان .

^٣ ذكر الطبري أن بيوراسب المعروف بالازدهاق هو الذي تسميه العرب الضحاك (تاريخ ١: ١٩٤) ، وأضاف أن أفريدون تزعم الفرس أن له عشرة آباء كلهم يسمى أثفيان وأنه من ولد جم شاذ الملك الذي قتله الازدهاق (أي الضحاك) (تاريخ ١: ٢١٢) .

^٤ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١: ٣٦٥ .

^٥ ابن هشام : التيجان ٨٢-٩٥ رواية طويلة أجزها

المقرئزي في هذه العبارة .

= عاد ذي شدد بن عامر بن الملقاط بن سكتك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عامر ابن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح (التيجان ٨١-٨٢) .

^١ عن ابن هشام : التيجان ٨٢ ملخصًا .

^٢ قارن عن ذي القرنين ، المسعودي : مروج الذهب ٢: ٨-٩ ؛ البيروني : الآثار الباقية ٣٦-٤٢ ؛ الهمداني :

الإكليل Montgomery Watt, W., *El² art. Iskandar*

.IV, p. 133

سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ : مَنْ كَانَ ؟ فَقَالَ : مِنْ جَمِيرٍ ، هُوَ^(٥) الصَّعْبُ بْنُ ذِي مَرَاثِدٍ الَّذِي مَكَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ ، وَأَتَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَبَلَغَ قَرْنِي الشَّمْسِ وَرَأْسَ الْأَرْضِ ، وَبَنَى السُّدَّ عَلَى يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .

قِيلَ لَهُ : فَالْإِسْكَانْدَرُ ؟ قَالَ : كَانَ رَجُلًا صَالِحًا رُومِيًّا حَكِيمًا ، بَنَى عَلَى الْبَحْرِ فِي إِفْرِيقِيَّةٍ مَنَارًا ، وَأَخَذَ أَرْضَ رُومَةَ ، وَأَتَى بَحْرَ الْغَرْبِ ، وَأَثَمَرَ عَمَلَ الْآثَارِ فِي الْغَرْبِ مِنَ الْمَصَانِعِ وَالْمُدُنِ .

وَسُئِلَ كَفُّبُ الْأَخْبَارِ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَقَالَ : الصَّحِيحُ عِنْدَنَا مِنْ أَخْبَارِنَا وَأَسْلَافِنَا أَنَّهُ مِنْ جَمِيرٍ ، وَأَنَّ الصَّعْبُ بْنُ ذِي مَرَاثِدٍ ، وَالْإِسْكَانْدَرُ كَانَ رَجُلًا مِنْ يُونَانَ مِنْ وَوَلَدَ عَيْصُو بْنُ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا^(٦) . وَرِجَالُ الْإِسْكَانْدَرِ أَذْرَكُوا الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ، مِنْهُمْ جَالِيئُوسُ وَأَرِسْطَاطَالِيْسُ .

وَقَالَ الْهَمْدَانِيُّ فِي كِتَابِ «الْأَنْسَابِ» : وَوَلَدَ كَهْلَانَ بْنَ سَبَأَ زَيْدًا ، فَوَلَدَ زَيْدٌ عَرِيْبًا وَمَالِكًا وَغَالِيًّا وَعَمِيكَرِبَ وَقَالَ الْهَيْثَمُ : عَمِيكَرِبُ بْنُ سَبَأَ أَخُو جَمِيرٍ وَكَهْلَانَ - فَوَلَدَ عَمِيكَرِبُ أَبَا مَالِكٍ فَدَرِحَا وَمَهْلِيلَ ابْنِي عَمِيكَرِبَ ، وَوَلَدَ غَالِبُ بْنُ جُنَادَةَ بْنِ غَالِبٍ - وَقَدْ مَلَكَ بَعْدَ مَهْلِيلَ بْنِ عَمِيكَرِبَ ابْنُ سَبَأَ - وَوَلَدَ عَرِيْبُ عَمْرًا ، فَوَلَدَ عَمْرُو زَيْدًا وَالْهَمَيْسِيُّعُ ، وَيَكْنَى أَبُو الصَّعْبِ ، وَهُوَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الْأَوَّلُ ، وَهُوَ الْمَسَاحُ وَالْبَثَاءُ^(١) . وَفِيهِ يَقُولُ الثُّغَمَانُ بْنُ بَشِيرٍ^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣) :

[الطويل] ١٥ فَمَنْ ذَا يُعَايِدُنَا مِنَ النَّاسِ مَعَشَرًا كِرَامًا ، فَذُو الْقَرْنَيْنِ مِنَّا وَحَاتِمُ
وَفِيهِ يَقُولُ الْحَارِثِيُّ :

[البيط] ٢٠ سَمُّوا لَنَا وَاحِدًا مِنْكُمْ فَتَعْرِفَهُ كَالشُّبْعَيْنِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ يَقْبَلُهُ
وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ أَبِي ذَيْبٍ الْخَزَاعِمِيُّ :

[الطويل] / وَمِنَّا الَّذِي بِالْخَافِقِينَ تَعْرِبَا وَأَضَعَدَ فِي كُلِّ الْبِلَادِ وَصَوْبَا
فَقَدْ نَالَ قَرْنَ الشَّمْسِ شَرْقًا وَمَغْرِبَا وَفِي رَذْمٍ يَأْجُوجَ بَنَى ثُمَّ نَصَبَا

(a) بولاق : وهو . (b) الأصل : عليه السلام . (c) ساقطة من بولاق .

^١ الهمداني : الإكليل ١٠ : ١ ، ٦ .

الإكليل ٢ : ٢١٢ .

^٢ الأصفهاني : الأغاني ١٦ : ٤٥ ، وقارن الهمداني :

وذلك ذُو الْقَرْنَيْنِ تَفْخَرُ حَمِيرٌ بِعَشْكَرٍ قِيلَ لَيْسَ يُخْصَى فَيُحْسَبَا
قال الهمداني: وعلماء همدان تقول: ذُو الْقَرْنَيْنِ الصَّغْبُ بن مالك بن الحارث الأعلَى بن
ربيعة بن الجبار بن مالك، وفي ذي الْقَرْنَيْنِ أقاويل كثيرة^١.

وقال الإمام فخر الدين^(a) محمد بن عمر^(a) الرازي^٢ في كتاب «تفسير القرآن الكريم»: ومما
يُعْتَرَضُ به على من قال إن الإسكندر هو ذُو الْقَرْنَيْنِ، أن مُعَلِّمَ الإسكندر كان أرسطاطاليس بأمره
يأخبر وينتهي ينتهي، واعتقاد أرسطاطاليس مشهور، وذُو الْقَرْنَيْنِ نبي، فكيف يقتدي نبي بأمر
كافر؟ في هذا إشكال^٣.

وقال الجاحظ في كتاب «الحيوان»: إن ذَا الْقَرْنَيْنِ كانت أمه فيرى^(b) آدمية، وأبوه عبري^(b) من
الملائكة؛ ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رجلاً ينادي: يا ذَا الْقَرْنَيْنِ، قال:
أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتكم إلى أسماء الملائكة؟!^٤

وروى المختار بن أبي عبيد أن عليًا - رضي الله عنه - كان إذا ذَكَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ قال: ذلك المليك
الأمرط^٤، والله أعلم.

(a-a) ساقطة من بولاق. (b) ساقطة من بولاق.

الكبرى ٥: ٣٣-٤٠، *El² art. Fakhr*، Anawati, G.C. *(al-Din al-Razi II, pp. 770-73)*.

^٣ الفخر الرازي: مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير
الكبير، استانبول ١٣٠٧هـ، ٥: ٧٥٢، والنص فيه...
والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الإسكندر،
فوجب أن يكون المراد بذِي الْقَرْنَيْنِ هو هو، إلا أن فيه إشكالاً
قوياً، وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على
مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب
أرسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل إليه، والله
أعلم.

^٤ الجاحظ: الحيوان ١: ١٨٨، وفيما تقدم ٤٠٠.

^١ قارن الهمداني: الإكليل ٢: ١٦٢، ٣١٨-٣١٩، ٦: ١٠.

^٢ فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين
القرشي البكري الطبرستاني، الأصولي المفسر المتوفي بهجرة
يوم عيد الفطر سنة ٦٠٦هـ/١٢١٠م، والتي أمضى بها أكبر
فترة من حياته. وضع عددًا كبيرًا من المؤلفات، القسم الأكبر
منها في علم الكلام والأصول والتفسير (راجع، ابن أبي
أصيبعة: عيون الأنباء ٢: ٢٣-٣٠؛ القفطي: تاريخ الحكماء
٢٩١-٢٩٣؛ ابن خلكان: وفيات ٤: ٢٤٨-٢٥٨؛
الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١: ٥٠٠-٥٠١؛ الصفدي:
الوافي بالوفيات ٤: ٢٤٨-٢٥٩؛ السبكي: طبقات الشافعية

ذِكْر مَنْ وَلِيَ الْمَلِكُ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بَعْدَ الْإِسْكَانْدَرِ^١

قال في كتاب هُروشيوش: إِنَّ الْإِسْكَانْدَرَ مَلَكَ الدُّنْيَا اثْنَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، فَكَانَتِ الدُّنْيَا مَأْسُورَةً بَيْنَ يَدَيْهِ طُولَ وَلايَتِهِ، فَلَمَّا مَاتَ تَرَكَهَا بَيْنَ يَدَيْ قُوَادِمِ الْمُسْتَخْلَفِينَ تَحْتَهُ. فَكَانَ مَثَلُهُ مَعَهُمْ كَمَثَلِ الْأَسَدِ الَّذِي أَلْقَى صَيْدَهُ بَيْنَ يَدَيْ أَشْبَالِهِ، فَتَقَاتَلَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْأَشْبَالُ بَعْدَهُ. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ اقْتَسَمُوا الْبِلَادَ، فَصَارَتْ مِصْرُ وَأَفْرِيْقِيَّةُ كُلُّهَا وَبِلَادُ الْعَرَبِ^(a) إِلَى قَائِدِهِ وَصَاحِبِ خَيْلِهِ الَّذِي وَلِيَ مَكَانَهُ وَهُوَ بَطْلَمَيْوسُ بْنُ لَآوِي، وَيُقَالُ بَطْلَمَيْوسُ بْنُ أَرْنَبَا^٢ الْمَنْطَقِي [Ptolemaeus Lagos].

وَذَكَرَ مَمَالِكُ بَقِيَّةِ الْقُوَادِمِ مِنْ أَقْصَى بِلَادِ الْهِنْدِ إِلَى آخِرِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ قَالَ: فَتَارَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ، وَسَبَّبَتْهَا رِسَالَةٌ كَانَتْ خَرَجَتْ مِنْ عِنْدِ الْإِسْكَانْدَرِ بِأَنْ يَرْجِعَ جَمِيعُ الْعَرَبِيَّةِ الْمُنْفِيَّةِ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَيُسْقَطَ عَنْهُمْ الرِّقُّ وَالْعُبُودِيَّةُ. فَاسْتَشَقَلَ ذَلِكَ مَلِكُ بِلَادِ الرُّومِ، إِذْ خَافَ أَنْ يَكُونَ الْعَرَبِيَّةُ وَالْمُنْفِيَّةُ إِذَا رَجَعُوا إِلَى بُلْدَانِهِمْ وَمَوَاطِنِهِمْ يَطْلُبُونَ الثَّقَمَةَ لَأَنْفُسِهِمْ، فَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ سَبَبَ خُرُوجِهِمْ عَنْ طَاعَةِ سُلْطَانِ الْمَجْدُونِيِّينَ^٣.

وقال غيره: وَبَطْلَمَيْوسُ هَذَا سَبَى بَنِي مَعَدٍّ بَعْدَ مَا غَزَا فِلَسْطِينَ، ثُمَّ أَطْلَقَهُمْ وَحَبَّاهُمْ بِأَيَّةِ جَوْهَرٍ وَضِعَتْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَمَلَكَ عَشْرِينَ سَنَةً.

وقال غيره: وَلِيَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَقِيلَ ثَمَانِيًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً؛ وَقِيلَ إِنَّ اسْمَهُ فِيلْدِلْفُوسُ [Philadelphos] - وَهُوَ مُجِبُّ الْأَبِ - وَكَانَ مَجْدُونِيًّا، وَهُوَ الَّذِي غَنِمَ الْيَهُودَ وَانْتَقَلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ

(a) بولاق والمخطوطات: بلد الغرب والمثبت من تاريخ أورويسوس فالكلمة في أصله Arabia.

البطالمة، ١-٤، القاهرة ١٩٦٠؛ Fraser, P.M., *Ptolemaic Alexandria*, 2 vols, Oxford 1972; Monica, M., *Les derniers Pharaons les turbulents Ptolémées d'Alexandre le grand à Cléopatre la grande*, Paris, 1993; Nanoyeke, V., *Les Ptolémées, derniers Pharaons d'Égypte*, d'Alexandre à Cléopatre, Paris 1998; وعن الفترة التالية انظر فيما يلي ١: ١٥٥.

^٢ ترجمة حرفية لكلمة لاجوس Lagos.

^٣ أورويسوس: تاريخ العالم ٢٤٤-٢٤٦.

^١ راجع عن تاريخ مصر بعد الإسكندر الأكبر Bell, H.I., *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest. A Study in the Diffusion and Decay of Hellenism*, Oxford 1948 (نقله إلى العربية وأضاف إليه عبد اللطيف أحمد علي، بعنوان: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي - دراسة في انتشار الحضارة الهلينية وضمحلالاتها، القاهرة ١٩٧٢)؛ وانظر أيضًا مصطفى العبادي: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، القاهرة ١٩٧٥؛ وعن فترة حكم البطالمة انظر دراسة إبراهيم نصحي التي لا غنى عنها: تاريخ مصر في عصر

إلى مصر . وفي زمانه كان زينون [Zenon] الفيلسوف ^١ ، وكان هذا الملك فيلسوفًا . وأقبل بزديقا [Perdicca] أخذ قواد الإسكندر إلى مصر بعسكر عظيم وجيش عزمزم ، فتفرق سلطان ^٢ مجدونه إلى بلد ^٣ مجدونية على قسمين .

ثم إن بطلميوس جمع عساكر مصر وإفريقية فلاقى بزديقا فهزمه وأصاب عسكره ، ثم قتله وأصاب ما كان معه ، وحارب عدّة من قواد الإسكندر ^٤ .

وقال غيره : وكان بطلميوس هذا حكيماً عالماً سائساً ^٥ مدبّراً ، وهو أول من اقتنى البزاة ولعب بها وضراها ، وكان من قبله من الملوك لا يلعب بها ^٦ .

ولما مات ، ملك الإسكندرية بعده بطلميوس الثاني ، واسمه فلديلفس [Philadelphus] - ويقال له : محب الأخ - وكانت مدّة ملكه ثمانياً وثلاثين سنة ؛ وهو الذي أطلق اليهود الذين كانوا مأسورين بأرض مصر ، وردّ الأواني المقدّسة على عزير النبي ؛ وهو الذي تحيّر السبعين مترجمًا من علماء اليهود الذين ترجموا كُتب التوراة والأنبياء من اللسان العبراني إلى اللسان الرومي اليوناني واللاتيني ، وكان فيلسوفًا منجّمًا .

ومات ، فولي بعده ابنه بطلميوس أوراجيطس [Euregutus] - المعروف بمحب الأب - ستاً وعشرين سنة ، ثم ولي بعده أخوه بطلميوس فيلوبطور [Philopoter] سبع عشرة سنة ، وهو الذي قتل من اليهود نحوًا من ستين ألفًا وتغلب عليهم ^٧ .

ويقال إنه صاحب علم الفلك والنجوم وكتاب «المجسطي» ^٨ .

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) الأصل وبولاق : شابه والتصويب من مروج الذهب .

^١ أروسيوس : تاريخ العالم ٢٤٠ .
^٢ نفسه ٢٤٧ .
^٣ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٤ .
^٤ أروسيوس : تاريخ العالم ٢٥٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦ .
^٥ مؤلف «المجسطي» هو قلاوديوس بطلميوس Claudius Ptolemaeus الذي عرف عند العرب باسم بطلميوس القلودي ، وهو فلكي وجغرافي مصري عاش في الإسكندرية في العصر الروماني ؛ اشتهر بكتابين الأول

«المدخل إلى الجغرافيا» المعروف باسم «الجغرافيا» ، وكتاب «الجامع» في الفلك والذي أطلق عليه العرب اسم «المجسطي» *al-Madjisti* والذي نُقل إلى العربية في أواخر القرن الثاني الهجري (كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٨٩-٩١ وكتب بول كونيتش دراسة بالألمانية عن الترجمات العربية واللاتينية للمجسطي ، انظر Kunitzsch, P. *Der Almagest - Die Syntaxis Mathematica des Claudius Ptolemaeus in arabische - Lateinischer (Überlieferung, Wiesbaden 1974)* .

ثم مَلَك بعده ابنه بَطْلَمَيْوس أَيْفَانِيَش [Epiphanes] أَرْبَعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً ^١.

ثم وَلِي بعده ابنه بَطْلَمَيْوس فِلُومَاتِر [Philometor] - مُجِبُّ الْأُمِّ ^(a) - خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وهو الذي غَلَبَ مُلْكُ الشَّامِ ، وَحَمَلَ الْيَهُودَ أَنْوَاعَ الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ ^٢.

ثم مَلَكَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ بعده ابنه بَطْلَمَيْوس إِيْرِيَاطِيَش [Euergetes] - وهو الْإِسْكَانْدَرَانِي - تِسْعًا وَعَشْرِينَ سَنَةً ^٣. وفي زَمَانِهِ غَلَبَ الرُّومَانِيُونَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَاخْتَرَقَتْ مَدِينَةُ قَرْطَابَجَّةَ بِالنَّارِ ، وَأَقَامَتِ النَّارُ فِيهَا سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، فَهَدِمَتْ وَحُوِّلَتْ أَسَاسَاتُهَا حَتَّى صَارَ رُخَامٌ أَسْوَارِهَا غُبَارًا ، وَذَلِكَ إِلَى تِسْعِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَقْتِ بُنْيَانِهَا ، وَبِيعَ جَمِيعُ أَهْلِهَا رَقِيقًا ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْ خِيَارِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ ، وَكَانَ الْمُتَوَلَّى لِتَخْرِيبِهَا قُوَاذُ رُومَةٍ ^٤.

ثم وَلِي بعده ابنه بَطْلَمَيْوس سُوَطَار [Soter] - الذي يُقَالُ لَهُ الْجَدِيدُ - سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ^٥ ، وَكَانَ قَبِيحَ السَّيْرَةِ ، تَزَوَّجَ بِأُخْتِهِ ثُمَّ فَارَقَهَا عَلَى أَقْبَحِ حَالٍ مِمَّا تَزَوَّجَهَا عَلَيْهِ ، فِي خَبْرٍ لَهُ ، ثُمَّ تَزَوَّجَ رَيْبِيَّتَهُ الَّتِي كَانَتْ بِنْتُ / أُخْتِهِ ، ثُمَّ زَوَّجَهَا مِنْ ابْنِ الْمَوْلُودِ لَهُ مِنْ أُخْتِهِ ، وَكَثُرَتْ قَوَاحِشُهُ حَتَّى نَفَاهُ أَهْلُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، فَمَاتَ مَنَفِيًّا ^٦.

وَوَلِي أَخُوهُ بَطْلَمَيْوس الْإِسْكَانْدَرِ - وهو الْحَوَالِ - عَشْرَ سِنِينَ ^٧.

ثم وَلِي بعده ابنه بَطْلَمَيْوس دَيْوْنَشِيَش [Dionysas] ثَمَانِيًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، وَفِي زَمَانِهِ غَلَبَ قَائِدُ الرُّومَانِيِّينَ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، وَجَعَلَ الْيَهُودَ يُؤَدُّونَ إِلَيْهِ الْجَزِيَّةَ ^٨.

وظَهَرَتْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ عِلَامَاتٌ فِي السَّمَاءِ مَهُولَةٌ : مِنْهَا أَنَّهُ ظَهَرَ فِي السَّمَاءِ بِنَاحِيَةِ مَطْلَعِ الشَّمْسِ مِنْ مَدِينَةِ رُومَةٍ مِمَّا يَلِي نَاحِيَةَ الْجَنُوبِ نَارٌ مُلْتَهَبَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَكَسَرَ قَوْمٌ خُبْرًا فِي صُنْعِ لَهُمْ فَاَنْفَجَرَ مِنَ الْخُبْرِ دَمٌّ سَائِلٌ ، وَنَزَلَ بِمَدِينَةِ رُومَةٍ مُدَّةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ بَرْدٌ كَانَ يُوجَدُ فِي دَاخِلِهِ حِجَارَةٌ وَشُقَافٌ ، وَانْفَتَحَتِ الْأَرْضُ فَصَارَ فِيهَا غَوْرٌ عَظِيمٌ وَخَرَجَ مِنْهُ لَهَبٌ اشْتَعَلَ حَتَّى ظَنُّوه بَلَّغَ السَّمَاءَ ، وَنَظَرَ أَهْلُ رُومَةٍ يَوْمَئِذٍ إِلَى عَمُودٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ لَوْنُهُ لَوْنُ الذَّهَبِ ، وَكَانَ مِنْ

(a) بولاق : وهو الصانع وخلص المقريري بين أيفانيس وفلوماطر .

^١ أوروبسيوس : تاريخ العالم ٢٩١ ، ٢٩٢ .

^٢ نفسه ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

^٣ نفسه ٣٠٩ ، ٣١٠ .

^٤ نفسه ٣١٢ ، ٣١٤ - ٣١٥ .

^٥ نفسه ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

^٦ نفسه ٣٣٥ .

^٧ نفسه ٣٤١ ، ٣٤٢ .

^٨ نفسه ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

عِظْمِهِ تَكَادُ الشَّمْسُ أَنْ تَغِيْبَ مِنْهُ ^١.

ثم وَلِيَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ بَعْدَهُ كِلُوبَاطْرَةَ [Cleopatra] سِتِّينَ ^٢، فَدَامَتْ مَمْلَكَةُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ - وَهِيَ الدَّوْلَةُ الْمَجْدُونِيَّةُ - إِلَى أَوَّلِ مُلُوكِ قَيْصَرَ - الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مُلُوكِ الرُّومَانِيِّينَ - مَائَتَيْنِ وَإِحْدَى وَثَمَانِينَ سَنَةً ^٣.

٥ فَبَعَثَ قَيْصَرُ قَائِدَيْنِ بِعَسَاكِرٍ كَثِيرَةٍ لِفَتْحِ مِصْرَ، فَتَزَوَّجَ أَحَدُهُمَا كِلُوبَاطْرَةَ ابْنَةَ دِيُوشِيْشِ الْمَلِكِّ بَطْلَمِيُوسَ، وَقُتِلَ الْقَائِدُ الْآخَرُ، وَخَالَفَ قَيْصَرَ. فَسَارَ إِلَيْهِ قَيْصَرُ بِنَفْسِهِ، وَجَرَتْ أُمُورٌ آلتَ إِلَى فَتْحِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بَعْدَ حُرُوبٍ، وَاسْتَوْلَى قَيْصَرُ عَلَى مَمْلَكَةِ مِصْرَ، وَقَتَلَ كِلُوبَاطْرَةَ وَوَلَدَيْهَا، وَقَتَلَ الْقَائِدَ الَّذِي تَزَوَّجَهَا؛ وَيُقَالُ بَلْ سَمَّتْ نَفْسَهَا عِنْدَمَا تَيَقَّنَتْ غَلْبَةَ قَيْصَرَ لَهَا.

وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ حَزْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَتَذْيِيرٍ، وَإِنَّهَا حَفَرَتْ خَلِيْجَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَأَجْرَتْ فِيهِ الْمَاءَ مِنْ مِصْرَ، وَبَنَتْ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أُبْيَيْتَةً عَجِيْبَةً، مِنْهَا هَيْكَلُ زُحَلٍ، وَعَمِلَتْ فِيهِ صَنَمًا مِنْ نُحَاسٍ أَسْوَدٍ. وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ يَعْْمَلُونَ لَهُ عِيْدًا فِي الْيَوْمِ الثَّانِيِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ هَاتُورٍ، وَيَحْجُجُ إِلَيْهِ الْيُونَانِيُّونَ مِنْ سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَيَذْبَحُونَ لَهُ ذَبَائِحَ لَا تُحْصَى كَثْرَةً. فَلَمَّا ظَهَرَتْ مِلَّةُ النَّصَارَى فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ جَعَلُوا هَيْكَلَ زُحَلٍ كَنِيسَةً، وَلَمْ تَزَلْ إِلَى أَنْ هَدَمَهَا جُيُوشُ الْمُعِزِّ لَدَيْنَ اللَّهِ عِنْدَ قُدُومِهِمْ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ مِنْ سِنِي الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ. وَيُقَالُ إِنَّ كِلُوبَاطْرَةَ هِيَ الَّتِي بَنَتْ حَائِطَ الْعَجُوزِ بِمِصْرَ، وَيُشْبَهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا غَيْرَ صَحِيْحٍ. ١٥ وَيُقَالُ إِنَّهَا بَنَتْ مِقْيَاسًا بِمَدِيْنَةِ إِخْمِيْمٍ، وَمِقْيَاسًا آخَرَ بِأَنْصِينَا. وَيُقَالُ كَانَتْ مُدَّةُ مُلْكِهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَليْسَ بِصَحِيْحٍ.

وَبِمَوْتِ كِلُوبَاطْرَةَ انْقَطَعَتْ مَمْلَكَةُ مِصْرَ، وَصَارَتْ تَحْتَ يَدِ مُلُوكِ الرُّومِ مِنْ أَهْلِ مَدِيْنَةِ رُومَةَ، ثُمَّ تَحْتَ يَدِ مُلُوكِ الرُّومِ مِنْ أَهْلِ قُسْطَنْطِيْنِيَّةِ. فَلَمْ تَزَلْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ يُؤَلَّونَ فِيهَا مِنْ قِبَلِهِمْ مِنْ شَاءُوا، فَيَصِيرُ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَيُقِيمُ بِهَا، إِلَى أَنْ قَدِمَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِالْمُسْلِمِينَ، وَقَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدِهِ الْحِصْنَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةَ وَجَمِيْعَ أَرْضِ مِصْرَ ^٤. وَيُقَالُ مَعْنَى كِلُوبَاطْرَةَ: الْبَاكِئَةُ. ٢٠

^١ أورو سيوس: تاريخ العالم ٣٥٤-٣٥٥.

^٢ نفسه ٣٩٠، ٣٩١.

^٣ نفسه ٤١١.

^٤ لم يذكر المقرئ اسم أحد من ولاية مصر في العصرين

الروماني والبيزنطي، باعتبار أن مصادره مثل تاريخ أورو سيوس تذكر فقط أسماء الأباطرة ولا تفرض كثيرًا لأسماء ولاية الأقاليم مثل مصر. وكان كرسي الأباطرة أولًا في روما ثم في القسطنطينية. وعن تاريخ مصر في هذه =

فكان جميع المدة التي ما بين ذهاب دولة البطالسة من الإسكندرية وقُدوم عمرو بن العاص إلى مصر وفتحها ست مائة سنة وبضعاً وسبعين سنة .

وفي خلال هذه المدة قَوِيَ جانبُ ملوك الفُرس على القياصرة ، وملكوا منهم بلاد الشام ، واستولوا على أرض مصر والإسكندرية في أيام كِسْرَى أبرويز بن هُرْمُز ، فبعث قائداً إلى مصر وملك الإسكندرية وقتل الروم ، وأقاموا بالإسكندرية مدة عشر سنين .

فلما استتب هِرَقْلُ بمملكة الروم وخرج من القسطنطينية لجمع الأموال من سائر مملكته أخذ حماة ودمشق ، وصار إلى بيت المقدس وقد خربها الفُرس فأمر بينائها ، وسار منها إلى أرض مصر ، ودخل الإسكندرية وقتل من بها من الفُرس ، وأقام بها بطريقاً ، ثم عاد إلى قسطنطينية ؛ فاستمرت مصر بعده تحت إبانة الروم حتى ملكها المسلمون .

ويقال إن كل بناء بمصر من آجر فهو للفُرس ، وما فيها من بناء حَجَر فهو للروم ، والله أعلم .

ذِكْرُ مَنَارِ^a الإسكندرية^١

قال المسعودي : فأما منار^a الإسكندرية ، فذهب الأثرون من المصريين والإسكندرانيين من عني بأخبار بلدهم أن الإسكندر بن فيليبس المقدوني هو الذي بناها ؛ ومنهم من رأى أن دلوكة

(a) بولاق : منارة .

ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٨٣ ؛ الهروي : الإشارات إلى معرفة الزيارات ٤٨ ، ٤٩ ؛ مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ٩٦ ؛ عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ٥٥ - ٥٦ ؛ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٩٥ - ٣٩٨ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١ : ٢٤٠ - ٢٤١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ١ : ١٣ ؛ Tousson, O., «Description du Phare d'Alexandrie d'après un auteur arabe au XII^e siècle», *BSRAA* 9 (1936), pp. 49-53; Lévi-Provençal E., «Une description arabe inédite du Phare d'Alexandrie», *Mélanges Maspero* III, pp. 161-71 (وهو نص وترجمة لما أورده عبد المنعم الحميري عن المنار ؛ السيد عبد العزيز سالم : -

= الفترة التي امتدت نحو ستة قرون (٣٠٠ ق م - ٦٤٠ م) انظر ، Milne, J.G., *A History of Egypt under Roman Rule*, London 1924; Bagnall, R. & Fries, B. W., *The Demography of Roman Egypt*, Cambridge 1994; id., *The Chronological System of Byzantine Egypt*, Zutphen 1978 عبد اللطيف أحمد علي : مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦٧ ؛ السيد الباز العريني : مصر البيزنطية ، القاهرة د.ت .

^١ عن وصف منار الإسكندرية في المصادر العربية انظر ، المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٠٤ - ١٠٨ ؛ أبا حامد الغرناطي : تحفة الألياب ٧٠ ؛ ابن جبير : الرحلة ١٤ - ١٥ ؛

مكتبة مركز تحقيق التراث
بمكتبة جامعة القاهرة
رقم التسجيل: ١٣٣٣
رقم الترخيص: ١٣٣٣

الملكة بنتها وجعلتها مرقباً لمن يرد من العدو إلى بلدهم؛ ومن الناس من رأى أن العاشر من قراينة مصر هو الذي بناها؛ ومنهم من رأى أن الذي بنى مدينة رومة هو الذي بنى مدينة الإسكندرية ومنارتها والأهرام بمصر، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لشهرته باشتيلائه على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به.

- وذكروا في ذلك أخباراً كثيرة يستدلون بها على ما قالوا، و[أن] الإسكندر لم يطرفه في هذا البحر عدو، ولا هاب ملكاً يرد إليه في بلده ويغزوه في داره، فيكون هو الذي جعلها مرقباً؛ وأن الذي بناها جعلها على كُرسي من الرجاج على هيئة السرطان في جوف البحر، وعلى طرف اللسان الذي هو داخل في البحر من البر، وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره؛ منها تمثال قد أشار بسبابته من يده/ اليمنى نحو الشمس أيما كانت من الفلك، وإذا علت في الفلك فأصبغته يشير بها نحوها، فعذا انخفصت صارت يده سفلاً تدور معها حيث دارت؛ ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر، إذا صار العدو منه على نحو من ليلة، فإذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة، سُمع لذلك التمثال صوت هائل يُسمع من مسيرة ميلين أو ثلاثة، فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم فيزومقونه بأبصارهم؛ ومنها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعة، سَمِعُوا له صوتاً بخلاف ما صوت في الساعة التي قبلها، وصوته مُطرب.
- وقد كان ملك الروم في ملك الوليد بن عبد الملك بن مروان أنفذ خادماً من خواص خدومه ذا رأي ودهاء، فجاء مستأماً إلى بعض الثغور، فورد بألة حسنة ومعه جماعة، فجاء إلى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك، وأنه أراد قتله لمؤجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أضل، وأنه استوحش ورغب في الإسلام؛ فأسلم على يد الوليد، وتقرب من قلبه، وتصح إليه في دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن. فلما صارت إلى الوليد تلك الأموال والجواهر شرفت نفسه، واستحكمت طمعه، فقال له الخادم: «يا أمير المؤمنين، إن ههنا أموالاً وجواهر ودفائن للملوك»؛ فسأله الوليد عن الخبر فقال: «تحت منار»^(b)

(a) زيادة من المسعودي. (b) بولاق: منارة.

الإسكندرية أموال ملوك الأرض ، وذلك أن الإسكندر احتوى على الأموال والجواهر التي كانت
 لشداد بن عاد وملوك مصر ، فبنى لها الآراج^a تحت الأرض ، وقنطر لها الأقباء والقناطر
 والشراديب ، وأودعها تلك الذخائر من العيّن والورق والجوهر ، وبنى فوق ذلك هذه المنارة .
 وكان طولها في الهواء ألف ذراع ، والميزاة في علوّه ، والدّبابة جُلوس حوله ، فإذا نظروا إلى
 العُدو في البحر في ضوء تلك المرأة ضوئوا لمن قرّب منهم ، ونشروا أعلاماً فيراها من بُعد
 منهم ، فتخذر الناس وتُنذر البلد ، فلا يكون للعدوّ عليهم سبيل . فبعث الوليد مع الخادم
 بجيش وأناس من ثقافته وخواصه ، فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرأة ، فضجّ الناس
 من هذا وعلموا أنها مكيدة وحيلة في أمرها ؛ فلما علم الخادم اشتفاضة ذلك ، وأنه سينم إلى
 الوليد ، وأنه قد بلغ ما يحتاج إليه ، هرب في الليل في مركب كان قد أعدّه ، وواطأ [قومًا]^b
 على ذلك ، فتعت حيلته وبقيت المنارة على ما ذكرناه إلى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين
 وثلاثين وثلاث مائة .

وكانت حوالي منارة الإسكندرية في البحر مغاص يخرج منه قطع من الجوهر يتخذ منه
 فصوص للحواتم أنواعاً من الجواهر ، يُقال إن ذلك من آلات اتّخذها الإسكندر للشرب ، فلما
 مات كسرتها أمه ورمت بها في تلك المواضع من البحر ؛ ومنهم من رأى أن الإسكندر اتّخذ ذلك
 النوع من الجواهر وغرقه حول المنارة ، لكيلا تخلو من الناس حولها ، لأن من شأن الجوهر أن
 يكون مظلوماً أبداً في كل عصر^١ .

ويقال إن هذه المنارة إنما جعلت المرأة في أعلاها لأن ملوك الروم بعد الإسكندر كانت تُحارب
 ملوك مصر والإسكندرية ، فجعل من كان بالإسكندرية من الملوك تلك المرأة ترى من يرد في
 البحر من عدوّهم . وكان من يَدْخلها يتيه فيها ، إلا أن يكون عارفاً بالدُّخول والخروج فيها ،
 لكثرة بُيوتها وطبقاتها وممراتها . وقد ذُكر أن المغاربة ، حين واقوا في خلافة المقتدر في جيش
 صاحب المغرب ، دخل جماعة منهم على خيولهم إلى المنارة ، فتأهوا فيها في طرق تؤول إلى مهاو
 تهوي إلى سرطان الرُّجاج ، وفيه مخاريق إلى البحر فتَهوَّرت دوابهم وفقد منهم عددٌ كثيرٌ ، وعلم

(a) بولاق : أزجا . (b) زيادة من مروج الذهب .

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٠٤ - ١٠٧ .

بهم بعد ذلك وقيل إن تَهَوَّرَهم كان على كُرْسِي لها قُدَّامها ، وفي المَنَارَة مَسْجِدٌ في هذا الوقت يُرَابِط فيه مُطَوَّعَة المَصْرِيِّين وغيرهم ^١.

وفي سنة سبع وسبعين وسبع مائة ، سَقَطَ رَأْسُ المَنَارِ ^(a) من زَلْزَلَة . ويُقَالُ إن مَنَارَ ^(a) الإسْكَندَرِيَّةِ كانت مَبْنِيَّةً بِحِجَارَة مُهَنْدَمَة مُضَبَّجَة بِرِصَاصٍ على قَنَاطِرٍ من الرُّجَاجِ ، وتلك القَنَاطِرُ على ظَهْرِ سَرَطَانٍ ، وكان في المَنَارِ ^(a) ثلاث مائة بيت بعضها فوق بعض ، وكانت الدَّابَّةُ تَصْعَدُ بِحَمْلِهَا إلى سَائِرِ البُيُوتِ من دَاخِلِ المَنَارِ ^(a) . ولهذه البُيُوتِ طَاقَاتٌ تُشْرِفُ على البَحْرِ . وكان على الجَانِبِ الشَّرْقِيِّ من المَنَارِ ^(a) كِتَابَةٌ عُرِّبَتْ فإذا هي : «بَنَتْ هَذِهِ المَنْظَرَةَ قَرِيْبًا ^(b)» بنت مَرِينُوسِ اليُونَانِيَّةِ لِرِصْدِ الكَوَاكِبِ .

وقال ابنُ وَصِيْفِ شاه ، وقد ذَكَرَ أَخْبَارَ مِصْرَايِمِ بنِ بَيْصَرَ بنِ حَامِ بنِ نُوحٍ : وَبَنُوا على عَمْرٍ ^(c) البَحْرَ مُدُنًا مِنْهَا رَقُودَة مَكَانَ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَجَعَلُوا فِي وَسَطِهَا قُبَّةً على أُسَاطِينِ مِنْ نُحَاسٍ مُذَهَّبٍ ، وَالقُبَّةُ مُذَهَّبَةٌ ، وَنَصَبُوا فَوْقَهَا مَنَارَةً عَلَيْهَا مِرْآةٌ مِنْ أَخْلَاطِ شَتَّى ، قَطَرُهَا خَمْسَةُ أَشْبَارٍ ، وَكَانَ ارْتِفَاعُ القُبَّةِ مِائَةَ ذِرَاعٍ ، فَكَانُوا إِذَا قَصَدَهُمْ قَاصِدٌ مِنَ الأُمَمِ التي حَوْلَهُمْ ، فَإِنْ كَانَ مِمَّا يَهْمُهُمْ أَوْ مِنَ البَحْرِ ، عَمِلُوا لِتِلْكَ المِرْآةِ عَمَلًا فَأَلْقَتْ شُعَاعَهَا على ذَلِكَ الشَّيْءِ فَأَخْرَقَتْهُ . فَلَمْ تَزَلْ على حَالِهَا إلى أَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا البَحْرُ فَتَسَفَّهَا .

وَيُقَالُ إنَّ الإسْكَندَرَ إِثْمًا عَمِلَ المَنَارَ الَّذِي كَانَ تُشْبِهُهَا بِهَا ، وَقَدْ كَانَ أَيْضًا عَلَيْهِ مِرْآةٌ يُرَى فِيهَا مَنْ يَقْصِدُهُمْ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ ، فَاحْتَالَ [عَلَيْهَا] ^(d) بَعْضُ مُلُوكِ الرُّومِ فَوَجَّهَ [إِلَيْهَا] ^(d) مِنْ أَرْزَالِهَا ، وَكَانَتْ مِنْ رُجَاجِ مُدَبَّرٍ ^٢.

وقال المَسْعُودِيُّ في كِتَابِ «التَّجْبِيهِ وَالإِشْرَافِ» : وَقَدْ كَانَ وَزِيرُ المَتَوَكَّلِ عبيد الله بن / يحيى بن خَاقَانَ ، لما أَمَرَ المُسْتَعِينُ بِنْفِيهِ إلى بَرْقَة فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، صَارَ إلى الإسْكَندَرِيَّةِ مِنْ بِلَادِ مِصْرٍ ، فَرَأَى حُمْرَةَ الشَّمْسِ على عُلُوِّ المَنَارَةِ التي بِهَا وَقْتُ المَغِيبِ ، فَقَدَّرَ أَنَّهُ يَلْزَمُهُ أَلَّا يُفْطِرَ إِذْ كَانَ صَائِمًا أَوْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الأَرْضِ ، فَأَمَرَ إِنْسَانًا أَنْ يَصْعَدَ إلى أَعْلَى مَنَارَةِ

(a) بولاق : منارة . (b) بولاق : قريبا . (c) ساقطة من بولاق . (d) زيادة من النويري .

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٠٨ . ونسبه النويري : نهاية الأرب ٤٤ : ١٥ لابن وصيف شاه .

^٢ النص عند المسعودي : أخبار الزمان ١٥٣ - ١٥٤ .

الإسكندرية ومعه حجر، وأن يتأمل موضع سُقُوط [قُضْص] ^a الشَّمْس ، فإذا سَقَطَتْ رَمَى بالحجر، ففَعَلَ الرَّجُلُ ذَلِكَ، فَوَصَلَ الْحَجْرُ إِلَى قَرَارِ الْأَرْضِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، فَجَعَلَ إِنْطَارَهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ فِيمَا بَعْدَ إِذَا صَامَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَكَانَ عِنْدَ رُجُوعِهِ إِلَى سُرْمَنْ رَأَى لَا يَفْطِرُ إِلَّا بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، وَعِنْدَهُ أَنَّ هَذَا فَرَضُهُ، وَأَنَّ الْوَقْتَيْنِ مُتَسَاوِيَانِ: وَهَذَا غَايَةٌ مَا يَكُونُ مِنْ قِلَّةِ الْعِلْمِ بِالْفَرَضِ وَمَجَارِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ.

وقد ذَكَرَ أَرِسْطَاطَالِيْسٌ فِي كِتَابِ «الآثَارِ الْعُلُويَّةِ» ^١ أَنَّ بِنَاحِيَةَ الْمَشْرِقِ الصَّيْفِيِّ جَبَلًا شَامِعًا جَدًّا، وَأَنَّ مِنْ عَلَامَةِ ارْتِفَاعِهِ أَنَّ الشَّمْسَ لَا تَغِيْبُ عَنْهُ إِلَى ثَلَاثِ سَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَتُشْرِقُ عَلَيْهِ قَبْلَ الصُّبْحِ بِثَلَاثِ سَاعَاتٍ.

وَمِنَارَةُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أَحَدُ بُنْيَانِ الْعَالَمِ الْعَجِيبِ، بَنَاهَا بَعْضُ الْبَطَالِسَةِ مُلُوكِ الْيُونَانِيِّينَ بَعْدَ وَفَاةِ الْإِسْكَانْدَرِ بْنِ فِيلِيْشِ الْمَلِكِ لَمَّا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُلُوكِ رُومَةَ مِنَ الْحُرُوبِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَجَعَلُوا هَذِهِ الْمِنَارَةَ مَرْقَبًا، فِي أَعَالِيهَا مِرْآةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نَوْعِ الْأَحْجَارِ الْمُسَيَّفَةِ لِيُشَاهِدَ مِنْهَا مَرَاكِبَ الْبَحْرِ إِذَا أَقْبَلَتْ مِنْ رُومَةَ عَلَى مَسَافَةِ تَعَجُّزِ الْأَبْصَارِ عَنْ إِدْرَاكِهَا، فَكَانُوا يُرَاعُونَ ذَلِكَ فِي تِلْكَ الْمِرْآةِ، فَيَسْتَعِدُّونَ لَهُمْ قَبْلَ وُرُودِهِمْ.

وَطُولُ الْمِنَارَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ عَلَى التَّقْرِيْبِ مَائَتَانِ وَثَلَاثُونَ ذِرَاعًا؛ وَكَانَ طَوْلِهَا قَدِيمًا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِ مَائَةِ ذِرَاعٍ، فَهَدِمَتْ عَلَى طُولِ الْأَزْمَانِ وَتَرَادَفِ الزَّلَازِلِ وَالْأَمْطَارِ، لِأَنَّ بَلَدَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ تُمَطِّرُ، وَلَيْسَ سَبِيلُهَا سَبِيلَ فُسْطَاطِ مِصْرَ، إِذْ كَانَ الْأَغْلَبُ عَلَيْهَا إِلَّا تَمَطَّرَ إِلَّا الْيَسِيرَ. وَبِنَاؤُهَا ثَلَاثَةَ أَشْكَالٍ: فَقَرِيبٌ مِنَ النُّصْفِ وَأَكْثَرُ مِنَ الثُّلُثِ مُرَبَّعِ الشُّكْلِ، بِنَاؤُهُ بِأَحْجَارٍ بِيضَ، يَكُونُ نَحْوًا مِنْ مَائَةِ ذِرَاعٍ وَعِشْرَةَ أَذْرُعٍ عَلَى التَّقْرِيْبِ. ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مُثَمَّنُ الشُّكْلِ مَبْنِي بِالْحَجَرِ وَالْجَصِّ نَحْوَ مِنْ نِيفِ وَسْتَيْنِ ذِرَاعًا، وَحَوَالِيهِ فَضَاءٌ يَدُورُ فِيهِ الْإِنْسَانُ وَأَعْلَاهَا مُدَوَّرٌ. وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ رَمَّ شَيْئًا مِنْهَا، وَجَعَلَ فِي أَعْلَاهُ قُبَّةً مِنَ الْخَشَبِ لِيَضَعَدَ إِلَيْهَا مِنْ دَاخِلِهَا، وَهِيَ مَبْسُوطَةٌ مَوْزَبَةٌ بِغَيْرِ دَرَجٍ. وَفِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْمِنَارَةِ كِتَابَةٌ بِرِصَاصٍ مَدْفُونٍ بِقَلَمِ يُونَانِيٍّ، طُولُ كُلِّ حَرْفٍ ذِرَاعٌ

(a) زيادة من التنبيه.

^١ كتاب «الآثار العلوية» لأرسطاطاليس مصدر ينقل في مواضع كثيرة النص بما فيه من مصادر المؤلف المسعودي في التنبيه لا من مصادر المقرئ، فالمقرئ الأصلي، الأمر الذي يوهم أحيانًا أنه أطلع على هذه المصادر.

في عرض شبر ، ومقدارها على جهة الأرض نحو من مائة ذراع ، وماء البحر قد بَلَغَ أَضْلَاهَا . وقد كان تَهْدَمُ أَحَدُ أَزْكَانِهَا الغَرِيبةِ مِمَّا يَلِي البَحْرَ ، فَبَنَاهَا أَبُو الجَيْشِ حُمَارَوَيْهَ بنَ أَحْمَدَ بنَ طُولُونَ . وبينها وبين مَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ في هَذَا الوَقْتِ نَحْوُ مِنْ مِيلٍ ، وَهِيَ عَلَى طَرَفِ لِسَانٍ مِنَ الأَرْضِ قَدْ رَكِبَ البَحْرَ جَنْبَيْهِ . وَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى فَمِّ مِينَاءِ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَلَيْسَ بِالمِينَاءِ القَدِيمِ لِأَنَّ القَدِيمَ فِي المَدِينَةِ العَتِيقَةَ لَا تَرُوسِي فِيهِ المَرَائِبَ لِبُعْدِهِ عَنِ العُمُرَانِ . وَالمِينَاءُ هُوَ المَوْضِعُ الَّذِي تَرُوسِي فِيهِ مَرَائِبُ البَحْرِ .

وَأَهْلُ الإسْكَندَرِيَّةِ يُخْبِرُونَ عَنِ أَسْلَافِهِمْ أَنَّهُمْ شَاهَدُوا بَيْنَ المَنَارَةِ وَبَيْنَ البَحْرِ نَحْوًا مِمَّا بَيْنَ المَدِينَةِ وَالمَنَارَةِ فِي هَذَا الوَقْتِ ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ مَاءُ البَحْرِ فِي المَدَّةِ الِيسِيرَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ فِي زِيَادَةِ ١ .

قَالَ : وَتَهْدَمُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ نَحْوَ مِنْ ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا مِنْ أَعَالِيهَا بِالزَّلْزَلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِيَلَادِ مِصْرَ وَكَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ وَالمَغْرِبِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ عَلَيْنَا الأَخْبَارُ المُتَوَاتِرَةَ وَنَحْنُ بِقُسْطَاطِ مِصْرَ ، وَكَانَتْ عَظِيمَةً جَدًّا مَهُولَةً فَظِيقَةً أَقَامَتْ نَحْوَ نِصْفِ سَاعَةٍ زَمَانِيَّةً ، وَذَلِكَ لِنِصْفِ يَوْمِ السَّبْتِ لثَمَانِ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ ، وَهُوَ الخَامِسُ مِنْ كَانُونِ الآخِرِ وَالتَّاسِعُ مِنْ طُوبَةِ ٢ .

وَكَانَ لِهَذِهِ المَنَارَةِ مَجْمَعٌ فِي يَوْمِ خَمِيسِ العَدَسِ ٣ ، يَخْرُجُ سَائِرُ أَهْلِ الإسْكَندَرِيَّةِ إِلَى المَنَارَةِ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ بِمَا كَلِمَهُمْ - وَلا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا عَدَسٌ - فَيُفْتَحُ بَابُ المَنَارِ وَيَدْخُلُهُ النَّاسُ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُ اللَّهَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَلِّي ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْهُو ، وَلا يَزَالُونَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ . وَمِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ يُخْتَرَسُ عَلَى البَحْرِ مِنْ هُجُومِ العَدُوِّ .

وَكَانَ فِي المَنَارَةِ قَوْمٌ مُرْتَبُونَ لَوْقُودِ النَّارِ طُولَ اللَّيْلِ ، فَيَقْصِدُ رُكَّابُ الشُّفَنِ تِلْكَ النَّارَ عَلَى بُعْدٍ ، فَإِذَا رَأَى أَهْلُ المَنَارِ مَا يُرِيهِمْ أَشْعَلُوا النَّارَ مِنْ جِهَةِ المَدِينَةِ ، فَإِذَا رَأَى الحَرَسُ ضَرْبُوا الأَبْوَابِ والأَجْرَاسِ ، فَيَتَحَرَّكُ عِنْدَ ذَلِكَ النَّاسُ مُحَارَبَةَ العَدُوِّ .

وَيُقَالُ إِنَّ المَنَارَ كَانَ بَعِيدًا عَنِ البَحْرِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَيَّامِ قُسْطَنْطِينِ بنِ قُسْطَنْطِينِ هَاجَ البَحْرُ وَعَرَّقَ مَوَاضِعَ كَثِيرَةً وَكُنَائِسَ عَدِيدَةً بِمَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَغْلِبُ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَيَأْخُذُ مِنْهَا شَيْقًا بَعْدَ شَيْءٍ . وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ قَاسَهُ فَكَانَ مِائَتِي ذِرَاعٍ وَثَلَاثَةَ وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا ، وَهِيَ ثَلَاثُ

١ وصف الزلزلة ١٧٤ .

المسعودي : التنبيه والإشراف ٤٦ - ٤٨ .

٢ نفسه ٤٨ - ٤٩ ؛ السيوطي : كشف الصلصلة عن ٣ عن خميس العدس انظر فيما يلي ١ : ٤٥٠ ، ٤٩٥ .

٣

طَبَقَات : الطَّبَقَةُ الأولى مُرَبَّعَةٌ ، وهي مائة وإحدى وعشرون ذِرَاعًا ونصف ذِرَاع . والطَّبَقَةُ الثانية مُثَمَّنَةٌ ، وهي إحدى وثمانون ذِرَاعًا ونصف ذِرَاع . والطَّبَقَةُ الثالثة مُدَوَّرَةٌ ، وهي إحدى وثلاثون ذِرَاعًا ونصف ذِرَاع ^١ .

وَذَكَرَ ابْنُ جُبَيْرٍ فِي «رِحْلَتِهِ» أَنَّ مَنَارَ الإسْكَنْدَرِيَّةِ يَظْهَرُ عَلَى أَزِيدٍ مِنْ سَبْعِينَ مِيلاً ، وَأَنَّهُ ذَرَعَ أَحَدَ جَوَانِبِهِ الأَرْبَعَةِ / فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسٍ مِائَةً فَأَنَافَ عَلَى خَمْسِينَ ذِرَاعًا ، وَأَنَّ طُولَ المَنَارِ أَزِيدٌ مِنْ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قَامَةً ؛ وَفِي أَغْلَاهُ مَسْجِدٌ يَتَبَرَّكُ النَّاسُ بِالصَّلَاةِ فِيهِ ^٢ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الحَكَمِ : وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي بَنَى مَنَارَ الإسْكَنْدَرِيَّةِ كِلُوباطِرَةُ المَلِكَةِ ، وَهِيَ الَّتِي سَاقَتْ خَلِيجَهَا حَتَّى أُدْخِلْتَهُ الإسْكَنْدَرِيَّةَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَبْلُغُهَا إِذْ كَانَ يَغْدُلُ مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا كِشَا قُبَالَةَ الكِرْزِيِّونَ ، فَحَفَرْتَهُ حَتَّى أُدْخِلْتَهُ الإسْكَنْدَرِيَّةَ ، وَهِيَ الَّتِي بَلَّطَتْ قَاعَهُ ^٣ .

وَلَمَّا اسْتَوَلَى أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ عَلَى الإسْكَنْدَرِيَّةِ بَنَى فِي أَعْلَى المَنَارِ قُبَّةً مِنْ خَشَبٍ فَأَخَذَتْهَا الرِّيحُ .

وَفِي أَيَّامِ الظَّاهِرِ يَبْتَرَسُ تَدَاعَى بَعْضُ أَزْكَانِ المَنَارِ وَسَقَطَ ، فَأَمَرَ بِنِيبَاءِ مَا انْتَهَدَمَ مِنْهُ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، وَبَنَى مَكَانَ هَذِهِ القُبَّةِ مَسْجِدًا ، وَهُدِمَ فِي ذِي الحِجَّةِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعٍ مِائَةٍ عِنْدَ حُدُوثِ الزَّلْزَلَةِ ، ثُمَّ بُنِيَ فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسَبْعٍ مِائَةٍ عَلَى يَدِ الأَمِيرِ رُكْنِ الدِّينِ يَبْتَرَسِ الجَاشَنْكِيرِ ، وَهُوَ بَاقٍ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

وَلِلَّهِ ذُرُّ الوَجِيهِ الدَّرَوِيِّ حَيْثُ يَقُولُ فِي مَنَارِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ ^٤ :

[الطويل]

| | |
|---|---|
| وسامية الأرجاء تُهْدِي أَخَا السُّرَى | ضِيَاءٌ إِذَا مَا جِنْدِسُ اللَّيْلِ أَظْلَمَا |
| لَبِسْتُ بِهَا بُرْدًا مِنَ الأَنْسِ ضَافِيَا | فَكَانَ بَتَذْكَارِ الأَحِبَّةِ مُغْلَمَا |
| وَقَدْ ظَلَّلْتَنِي مِنْ ذُرَاهَا بِقُبَّةِ | أَلَا حِظُّ فِيهَا مِنْ صَحَابِي أَنْجَمَا |
| فَخِيلَ أَنَّ البَحْرَ تَحْتِي غَمَامَةٌ | وَأَنِّي قَدْ خَيَّمْتُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ ! |

وَقَالَ ابْنُ قَلَاقِسٍ مِنْ أَيْيَاتِ ^٥ :

^١ مصدر هذه الفقرة عبد اللطيف البغدادي : الإفادة

^٤ الأبيات عند النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٩٧ .

والاعتبار ٥٣ . ^٥ لم ترد الأبيات في ديوان ابن قلاقس الذي نشرته سهام

^٢ ابن جبير : الرحلة ١٥ . الفريح ، ووردت عند النويري : نهاية ١ : ٣٩٨ ، وابن فضل

^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٤١ . الله العمري : مسالك الأبهصار ١ : ٢٤١ .

[البيسط]

وَمَنْزِلٌ جَاوَزَ الْجَوَازَاءَ مُرْتَقِيًا كَأَمَّا فِيهِ لِلنُّشْرِينَ أَوْكَارُ
رَاسِي الْقَرَارَةِ سَامِي الْفَرْعِ فِي يَدِهِ لِلنُّونِ وَالنُّورِ أَخْبَارُ وَأَخْبَارُ
أَطْلَقْتُ فِيهِ عِنَانَ النَّظْمِ فَاطْرَدَتْ خَبِلَ لَهَا فِي بَدِيْعِ الشُّعْرِ مِضْمَارُ

وقال الوزير أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبدويه^(a) ١:

[البيسط]

لله دُرٌّ مَنَارِ اسْكَانْدَرِيَّةٍ كَمِ يَشْمُو إِلَيْهِ عَلَى بُعْدِ مِنَ الْحَدَقِ
مَنْ شَامِيخِ الْأَنْفِ فِي عَرْنِيهِ شَمَمٌ كَأَنَّهُ بَاهِتٌ فِي دَاوَةِ الْأَفْقِ
لِلْمُنْشَأَتِ الْجَوَارِي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ كَمَوْقِعِ النَّوْمِ فِي أَجْفَانِ ذِي أَرْقِ

- ١٠ وقال عمر بن أبي عمير الكندي في «فضائل مصر»: ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الْمَنَارَةَ كَانَتْ فِي وَسْطِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ حَتَّى غَلَبَ عَلَيْهَا الْبَحْرُ فَصَارَتْ فِي جَوْفِهِ، أَلَا تَرَى الْأَبْنِيَّةَ وَالْأَسَاسَاتِ فِي الْبَحْرِ إِلَى الْآنَ عَيَانًا؟^٢
وقال عبد الله بن عمرو: عَجَائِبُ الدُّنْيَا أَرْبَعَةٌ: مِرْآةٌ كَانَتْ مُعَلَّقَةً بِمَنَارَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، فَكَانَ يَجْلِسُ الْجَالِسُ تَحْتَهَا فَيَرَى مِنْ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَبَيْنَهُمَا عَرْضُ الْبَحْرِ، وَذَكَرَ الثَّلَاثَةَ.

ذِكْرُ الْمَلْعَبِ الَّذِي كَانَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ

- ١٥ قال القضاعي: وَمِنْ عَجَائِبِ مِصْرِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَمَا بِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ، فَمِنْ عَجَائِبِهَا الْمَنَارَةُ وَالسُّوَارِي وَالْمَلْعَبِ الَّذِي كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي يَوْمٍ مِنَ السَّنَةِ، ثُمَّ يَزْمُونَ بِأُكْرَةَ فَلَا تَقَعُ فِي حِجْرِ أَحَدٍ إِلَّا مَلَكٌ مِصْرَ.
وَحَضَرَ عِيدًا مِنْ أَعْيَادِهِمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَوَقَعَتْ الْأُكْرَةُ فِي حِجْرِهِ فَمَلَكَ الْبَلَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ.
٢٠ ثم يحضر^(b) هذا الملعب ألف ألف من الناس، فلا يكون فيهم أحد إلا وهو ينظر في وجه صاحبه ثم إن قرئ كتاب سمعوه جميعًا، أو لعب لون من اللعب رأوه عن

(a) في جميع النسخ: عبد ربه وهو غير صواب. (b) بولاق: حضر.

^١ أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبدويه المهباني،

فقيه أصولي من اليمن توفي سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م (ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة

١٩٥٧، ١٤٤-١٤٩).

^٢ ابن الكندي: فضائل مصر ٣٣.

آخرهم ، لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العليّة والسفليّة^١ .

وقال ابن عبد الحكم : فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة ، وقدم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الجابية ، نحلاً به عمرو بن العاص واستأذنه في المسير إلى مصر ؛ وكان عمرو قد دخل في الجاهليّة مصر وعرف طرقها ، ورأى كثرة ما فيها . وكان سبب دخوله إياها أنه قدّم إلى بيت المقدس لتجارة في نفر من قرّيش ، فإذا هم بشمّاس من شمّاسة الروم من أهل الإسكندرية قدّم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسبح ، وكان عمرو يزعم إبله وإبل أصحابه ، وكانت رعيّة الإبل نوباً بينهم . فبينما عمرو يزعم إبله ، إذ مرّ به ذلك الشمّاس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحرّ ، فوقف على عمرو فاستشقاها فسقاها عمرو من قربة له ، فشرب حتى روي ونام الشمّاس مكانه وكانت إلى جنب الشمّاس حيث نام حفرة ، فخرّجت منها حيّة عظيمة ، فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها .

فلما استيقظ الشمّاس نظر إلى حيّة عظيمة قد أجهه الله منها ، فقال لعمرو : ما هذه ؟ فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها ، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحياني الله بك مرّتين : مرّة من شدة العطش ، ومرّة من هذه الحيّة ، فما أقدمك هذه البلاد ؟ قال : قدّمْتُ مع أصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا ؛ فقال له / الشمّاس : وكم نراك تزجو أن تُصيب في تجارتك ؟ قال : رجائي أن أصيب ما اشتري به بغيراً ، فإنّي لا أملك إلا بغيرين ، فأمل أن أصيب بغيراً آخر فتكون ثلاثة أبعرة ؛ فقال له الشمّاس : رأيت دية أحدكم بينكم كم هي ؟ قال : مائة من الإبل ؛ فقال له الشمّاس : لسنا أصحاب إبل ، إنما نحن أصحاب دنانير ؟ قال : تكون ألف دينار ؛ فقال له الشمّاس : إنّي رجل غريب في هذه البلاد ، وإنما قدّمْتُ أصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيخ في هذه الجبال شهراً ، جعلت ذلك نذراً على نفسي ، وقد قضيت ذلك ، وأنا أريد الرجوع إلى بلادي ، فهل لك أن تتبّعني إلى بلادي ولك عليّ عهدُ الله وميثاقه أن أعطيك ديتين ، لأنّ الله عزّ وجلّ أحياني بك مرّتين ؟ فقال له عمرو : أين بلادك ؟ قال : مصر ، في مدينة يُقال لها الإسكندرية ؛ فقال له عمرو : لا أعرفها ، ولم أدخلها قط ؛ فقال له الشمّاس : لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها ؛ فقال له عمرو : وتفي لي بما تقول ، ولي عليك بذلك العهد والميثاق ؟ فقال له الشمّاس : نعم ، لك والله عليّ العهد والميثاق أن أفي لك ، وأن أركّك إلى أصحابك ؛ فقال

^١ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٩٨ ؛ وانظر ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١ : ٢٤١ - ٢٤٢ .

له عمرو - كم يكون مُكْنِي في ذلك؟ قال: شهرًا، تنطلق معي ذاهبًا عشرًا، وتُقيم عندنا عشرًا، وتُرجع في عشر، ولك عليّ أن أحفظك ذاهبًا، وأن أبعث معك من يحفظك راجعًا؛ فقال له عمرو: أنظرني حتى أشارك أصحابي في ذلك.

فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشَّمَّاسُ، وقال لهم: تُقيمون عليّ حتى أُرْجِع إليكم ولكم عليّ العهد أن أعطيكم شَطْرَ ذلك، عليّ أن يصحّبتني رجلٌ منكم آنس به؛ فقالوا: نعم، وبعثوا معه رجلًا منهم.

فانطلق عمرو وصاحبه مع الشَّمَّاسِ، حتى انتهوا إلى مصر، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه، فقال عمرو للشَّمَّاسِ: ما رأيتُ مثل ذلك، (a) فقال الشَّمَّاسُ: ما رأيتُ مثل عمرو (a).

١٠. ومضى إلى الإسكندرية، فنظر عمرو إلى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة، وجودة بنائها وكثرة أهلها، فآزاد عجبًا. ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدًا فيها عظيمًا يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم، ولهم كُرَّةٌ من ذهب مكلّلة يتراعى بها ملوكهم وهو يتلقونها بأكرامهم، وفيما اختبروا من تلك الكرة - على ما وصفها من مضى منهم - أنها من وقعت الكرة في كُمِّه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم.

١٥. فلما قديم عمرو الإسكندرية أكرمه الشَّمَّاسُ الإكرام كله، وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه، وجلس عمرو والشَّمَّاسُ مع الناس في ذلك المجلس، حيث يتراون بالكرة وهم يتلقونها بأكرامهم، فرمى بها رجلٌ منهم، فأقبلت تهوي حتى وقعت في كُمِّ عمرو، فعجبوا من ذلك وقالوا: ما كذبنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة. أتري هذا الأعرابي يملكنا؟ هذا ما لا يكون أبدًا. وأن ذلك الشَّمَّاسُ مشى في أهل الإسكندرية، وأعلمهم أن عمرا أحياء مرتين، وأنه قد ضمين له ألفي دينار، وسألهم أن يجتمعوا ذلك له فيما بينهم، ففعلوا ودفعوها إلى عمرو.

فانطلق عمرو وصاحبه، وبعث معهما الشَّمَّاسُ دليلًا ورَسُولًا، وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو وصاحبه إلى أصحابهما، فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها أموالًا. فلما رجع عمرو إلى أصحابه، دفع إليهم فيما بينهم

ألف دينار، وأمسك لنفسه ألفاً. قال عمرو: وكان أول ما اعتقدته وتأمله^١.

ذِكْرُ عَمُودِ السَّوَارِي

هذا العمود حَجَرٌ أَحْمَرٌ مُنْقَطٌ، وهو من الصَّوَّانِ المَاتِعِ، كان حَوْلَهُ نحو أربع مائة عَمُود كَسَرَهَا قَرَايَا - والي الإسكندرية في أيام السُلْطَانِ صَلاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بنِ أَيُّوبَ - ورَمَاهَا بِسَاطِئِ البَحْرِ لِيُوعِرَّ عَلَى العَدُوِّ سُلُوكَهُ إِذَا قَدِمُوا.

ويُذَكَّرُ أَنَّ هَذَا العَمُودَ مِنْ جُمْلَةِ أَعْمِدَةِ كَانَتْ تَحْمِلُ رِوَاقَ أَرِسْطَاطَالِيسِ الَّذِي كَانَ يُدْرَسُ بِهِ الحِكْمَةَ، وَأَنَّهُ كَانَ دَارَ عِلْمٍ، وَفِيهِ خِزَانَةٌ كُتِبَ أَحْرَقَهَا عَمْرُو بنِ العَاصِ بِإِشَارَةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ويُقَالُ إِنَّ ارتفاعَ هذا العَمُودِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَقَطْرُهُ خَمْسَةَ أَذْرُعَ.

وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ طُولَهُ بِقَاعِدَتَيْهِ اثْنَانِ وَسِتُونَ ذِرَاعًا وَشُدُّسُ ذِرَاعٍ، وَهُوَ عَلَى نَشْرِ طُولِهِ ثَلَاثَةَ وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا وَنِصْفَ ذِرَاعٍ، فَجُمْلَةُ ذَلِكَ خَمْسَةَ وَثَمَانُونَ ذِرَاعًا وَثُلُثًا ذِرَاعٍ، وَطُولُ قَاعِدَتِهِ السُّفْلَى اثْنَانِ عَشَرَ ذِرَاعًا، وَطُولُ القَاعِدَةِ العُلْيَا سَبْعَةَ أَذْرُعَ وَنِصْفَ^٢.

قال المسعودي: وفي الجانب الشرقي^(a) من صعيد مصر جبلٌ رُخَامٌ عَظِيمٌ، كَانَتْ الأَوَائِلُ تَقْطَعُ مِنْهُ العُمُدَ وَغَيرَهَا، وَكَانُوا يَحْمِلُونَ مَا عَمِلُوا بَعْدَ النَّقْرِ^(b)؛ فَأَمَّا العُمُدُ والقَوَاعِدُ والرُّؤُوسُ الَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُ مِصرَ الأَسْوانِيَّةِ - وَمِنْهَا حِجَارَةُ الطُّوَّاحِينَ - فَتَلِكُ نَقَرَهَا الأَوَّلُونَ قَبْلَ حُدُوثِ النَّصْرَانِيَّةِ بِمِثْنِينَ مِنَ السَّنِينَ، وَمِنْهَا العُمُدُ الَّتِي بِالإِسْكَانْدَرِيَّةِ^٣، وَالعَمُودُ بِهَا الضَّخْمُ الكَبِيرُ لَا يُعْلَمُ

(a) بولاق: الغربي. (b) المسعودي: وكانوا يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر، وهو الصواب.

وقد ناقش هذه الرواية مطولاً ودَحَضَهَا أَلْفَرِدُ بَتْلَرُ فِي كِتَابِهِ: فَتْحُ العَرَبِ لِمِصرَ ٣٤٨ - ٣٧٠. وَعَنْ تَارِيخِ هَذِهِ المَكْتَبَةِ انظُرْ Parsons, E.A., *The Alexandrian Library-Glory of the Hellenic World, its Rise, Antiquities, and Destructions*, London 1952; Macleod, R., *The Library of Alexandria - Centre of Learning in the Ancient World*, London - Tauris 2000

^٣ فيما يلي ٥٣٨.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٥٣ - ٥٥.

^٢ مصدر هذا الخبر عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٥١ - ٥٣؛ وما ذكره عن إحراق عمرو بن العاص لخزانة كتب دار العلم بإشارة الخليفة عمر بن الخطاب فصله فيما بعد أبو الفرج بن العبري الذي اشتمل كتابه «تاريخ مختصر الدول» على أول ذكر مفصل لإحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم على يد العرب، وكان الغرض منه هو تبرير ما قام به صلاح الدين من بيع وتشيت مكتبة الفاطميين!

بِالعَالَمِ عَمُودٌ مِثْلُهُ ؛ وَقَدْ رَأَيْتُ فِي جَبَلِ أُسْوَانَ أَنَّ هَذَا الْعَمُودَ وَقَدْ هُنِّدِسَ وَنُقِرَ ، وَلَمْ يُفْصَلْ مِنَ الْجَبَلِ ، وَلَمْ يَحْمَلْ مَا ظَهَرَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَ بِهِ أَنْ يُفْصَلَ مِنَ الْجَبَلِ ، ثُمَّ يُحْمَلُ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ الْقَوْمُ ^١ . انْتَهَى .

وَكَانَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مِنَ الْعُمُدِ الْعِظَامِ ، وَأَنْوَاعِ الْحِجَارَةِ وَالرُّخَامِ الَّذِي لَا تُنْقَلُ الْقِطْعَةُ مِنْهُ إِلَّا بِالْوَيْفِ مِنَ النَّاسِ ، وَقَدْ عَلَّقَتْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَى فَوْقِ / الْمِائَةِ ذِرَاعِ ، وَفَوْقَ رُؤُوسِ أَسَاطِينِ دَائِرِ الْأَسْطُوَانَةِ مَا بَيْنَ الْخَمْسَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا إِلَى الْعِشْرِينَ ذِرَاعًا ، وَالْحَجَرُ فَوْقَهُ عَشْرَةَ أَذْرُعَ فِي عَشْرَةِ أَذْرُعَ فِي سِتِّ عَشْرَةَ أَذْرُعَ ، بِغَرَائِبِ الْأَلْوَانِ .

وَكَانَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ قَصْرٌ عَظِيمٌ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي مَعْمُورِ الْأَرْضِ ، عَلَى رِبْوَةٍ عَظِيمَةٍ بِإِزَاءِ بَابِ الْبَلَدِ ، طُولُهُ خَمْسَ مِائَةِ ذِرَاعِ ، وَعَرْضُهُ عَلَى النُّصْفِ مِنْ ذَلِكَ ، وَبَابُهُ مِنْ أَعْظَمِ بِنَاءٍ وَأَتْقَنِهِ ، كُلُّ عِضَادَةٍ مِنْهُ حَجَرٌ وَاحِدٌ ، وَعَتَبَتُهُ حَجَرٌ وَاحِدٌ .

وَكَانَ فِيهِ نَحْوُ مِائَةِ أُسْطُوَانَةٍ ، وَإِيزَائِهِ أُسْطُوَانَةٌ عَظِيمَةٌ لَمْ يُشَمَّعْ بِمِثْلِهَا ، غَلْظُهَا سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ شَبْرًا ، وَعُلُوُّهَا بِحَيْثُ لَا يُدْرِكُ أَعْلَاهَا قَازِفُ حَجَرٍ ، وَعَلَيْهَا رَأْسٌ مُحْكَمٌ الصَّنَاعَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فَوْقَ ذَلِكَ بِنَاءً ، وَتَحْتَهَا قَاعِدَةٌ حَجَرٍ أَحْمَرَ مُحْكَمِ الصَّنَاعَةِ ، عَرْضُ كُلِّ ضِلْعٍ مِنْهُ عَشْرُونَ شَبْرًا فِي ارْتِفَاعِ ثَمَانِيَةِ أَشْبَارٍ .

وَالْأَسْطُوَانَةُ مُنَزَّلَةٌ فِي عَمُودٍ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خُرِقَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، فَإِذَا اشْتَدَّتْ الرِّيَّاحُ رَأَيْتَهَا تَحْرُكُ ، وَرُبَّمَا وُضِعَ تَحْتَهَا الْحِجَارَةُ فَطَحَّتْهَا لِشِدَّةِ حَرَكَتِهَا .

وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَسْطُوَانَةُ إِحْدَى عَجَائِبِ الدُّنْيَا ، وَقَدْ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهَا مِمَّا عَمَلَهُ الْجِرُّ لِسَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، كَمَا هِيَ عَادَتُهُمْ فِي نِسْبَةِ كُلِّ مَا يَسْتَعْظَمُونَ عَمَلَهُ إِلَى أَنَّهُ مِنْ صَنِيعِ الْجِرِّ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ كَانَتْ مِمَّا عَمَلَهُ قَدَمَاءُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ .

كَانَ فِي وَسْطِهِ قُبَّةٌ ، وَمِنْ حَوْلِهَا أَسَاطِينٌ ، وَعَلَى الْجَمِيعِ قُبَّةٌ مِنْ حِجَرٍ وَاحِدٍ رُخَامٍ أبيضَ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَائٍ مِنَ الصَّنَائِعِ .

وَيُقَالُ إِنَّ بَعْضَ مُلُوكِ مِصْرَ دَخَلَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ ، فَأَعْجَبَهُ هَذَا الْقَصْرُ وَأَرَادَ أَنْ يَتْنِي مِثْلَهُ ، فَجَمَعَ الصَّنَاعَ وَالْمُهَنْدِسِينَ لِيَقِيمُوا لَهُ قَصْرًا عَظِيمًا عَلَى هَيْئَتِهِ ، فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ اعْتَرَفَ بِعَجْزِهِ عَنْ مِثْلِهِ ، إِلَّا شَيْخًا مِنْهُمْ فَإِنَّهُ التَّرَمَّ أَنْ يَصْنَعَ مِثْلَهُ ؛ فَسَرَّ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، وَأَذِنَ لَهُ فِي طَلْبِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٧٨ .

المؤن والآلات والرجال . فقال : اثْنُونِي بِثَوْرَيْنِ مَطِيقَيْنِ ، وَعَجَلَه كَبِيرَه ، فَلِلْحَالِ أَتَى بِذَلِكَ .
فَمَضَى إِلَى الْمَقَابِرِ الْقَدِيمَةِ ، وَحَفَرَ مِنْهَا قَبْرًا أَخْرَجَ مِنْهُ جُمُجْمَةً عَظِيمَةً ، رَفَعَهَا عِدَّةٌ مِنَ الرِّجَالِ
عَلَى الْعَجَلَةِ ، فَمَا جَرَّهَا الثَّوْرَانِ ، مَعَ قُوَّتِهِمَا ، إِلَّا بَعْدَ مُجْهِدٍ وَعَنَاءٍ . فَلَمَّا وَقَفَ بِهَا بَيْنَ يَدَيْ
الْمَلِكِ ، قَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ سَيِّدَنَا ، إِنَّ أَتَيْتَنِي بِقَوْمِ رُؤُوسِهِمْ مِثْلَ هَذَا الرَّأْسِ ، عَمِلْتَ لَكَ مِثْلَ هَذَا
الْقَصْرِ . فَتَيَقَّنَ الْمَلِكُ عِنْدَ ذَلِكَ عَجْزَ أَهْلِ زَمَانِهِ عَنِ إِقَامَةِ مِثْلِ ذَلِكَ الْقَصْرِ .

وقد ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ضَرْسٌ إِنْسَانٌ عِنْدَ قِصَابِ يَزِينِ بِهِ اللَّحْمَ ، زِنْتُهُ ثَمَانِيَةُ أَرْطَالٍ .
وَيُقَالُ إِنَّ عَمُودَ السُّوَارِيِّ ، الْمَوْجُودَ الْآنَ خَارِجَ مَدِينَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، أَحَدُ سَبْعَةِ أَعْمِدَةِ أَتَى
بِأَحَدِهَا الْبَتُونَ بْنَ مَرْةِ الْعَادِيِّ ، وَهُوَ يَحْمِلُهُ تَحْتَ إِبْطِهِ ، مِنْ جَبَلِ بَرِيمِ الْأَحْمَرِ قِبَلِي أُسْوَانَ إِلَى
الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، فَانْكَسَرَ ضِلْعُهُ لِأَنَّهُ كَانَ ضَعِيفَ الْقُوَى فِي قَوْمِهِ .

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى يَعْغَمَرِ بْنِ شَدَّادِ بْنِ عَادٍ ، وَقَالَ : لَيْتَنِي فَدَيْتُهُ بِنِصْفِ مُلْكِي .
وَجَاءَ بِعَمُودٍ آخَرَ جَحْدَرِ بْنِ سِنَانَ الثَّمُودِيِّ - وَكَانَ قَوِيًّا - فَحَمَلَهُ مِنْ أُسْوَانَ تَحْتَ إِبْطِهِ وَجَاءَ
بِقِيَّةِ رِجَالِهِمْ ، كُلُّ رَجُلٍ بِعَمُودٍ ، فَأَقَامَ الْعُمُدَ السَّبْعَةَ الْجَاوِرِدِ بْنِ قَطَنِ الْمُؤْتَفِكِيِّ - وَكَانَ يَبْنِئُهَا -
بَعْدَ أَنْ اخْتَارُوا لَهَا طَالِعًا سَعِيدًا كَمَا هِيَ عَادَتُهُمْ فِي عَامَّةِ أَعْمَالِهِمْ .

وقد ذُكِرَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ الصُّخُورَ ، فِي الْقَدِيمِ مِنَ الدَّهْرِ ، كَانَتْ تَلِينُ ، فَعَمِلَ مِنْهَا أَعْمِدَةَ نَاعِطَ
وَمَأْرِبَ وَيَنُونَ وَمَأْيِرَ الْيَمَنِ ، وَأَعْمِدَةَ دِمَشْقَ وَمِصْرَ وَمَدْيَنَ وَتَدْمُرَ ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ يَتَكَلَّمُ .
قال أمية بن أبي الصلت^١ :

[الوافر]

وَإِذَا هُمْ لَا لِبُوسٍ لَهُمْ عُرَاةٌ وَإِذَا صَخْرُ السَّلَامِ لَهُمْ رُطَابٌ

وقال قومٌ : عَمُودُ السُّوَارِيِّ مِنْ جُمْلَةِ أَعْمِدَةِ كَانَتْ تَحْمَلُ رِوَاقًا يُقَالُ لَهُ يَبْتُ الْحِكْمَةِ ، وَذَلِكَ
حَيْثُ انْتَهَتْ عُلُومُ أَهْلِ الْعَرَبِ إِلَى خَمْسِ فِرْقٍ ، وَهُمْ : أَصْحَابُ الرِّوَاقِ هَذَا ، وَأَصْحَابُ
الْأُسْطُوَانَةِ وَكَانُوا يَبْغَلِبُكَ ، وَأَصْحَابُ الْمِظَالِ وَهُمْ بَأَنْطَاكِيَّةَ ، وَأَصْحَابُ الْبَرَابِيِّ وَكَانُوا بِصَعِيدِ
مِصْرَ ، وَالْمَشَاءُونَ وَكَانُوا بِمَقْدُونِيَّةِ .

وَكَأَنِّي بَمَنْ قَلَّ عِلْمُهُ يُنْكِرُ عَلَيَّ إِيرَادَ هَذَا الْفَضْلِ ، وَبِرَأْيِهِ مِنْ قَبِيلِ الْمُحَالِ وَمِمَّا وَضَعَهُ الْقِصَاصُ وَيَجْزِمُ
بِكُذِبِهِ ، فَلَا يُوجِحُ شَنْكَ حِكَايَتِي لَهُ ، وَاسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَادٍ قَوْمِ هُودَ : ﴿وَإِذْ كُفَرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الآية ٦٩ سورة الأعراف] ، أَي طُولًا وَعِظَمَ جِسْمًا .

^١ انظر عنه فيما تقدم ٥٧٧ والبيت في ديوانه .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعاً . وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم ، وقيل على خلق قوم نوح . وقال وهب بن منبه : كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة ، وكانت عين الرجل منهم تُفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخيرهم .

وروى شهر بن حوشب ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليحمل المضراعين ، لو اجتمع عليه خمس مائة من هذه الأمة لم يطيقوه ؛ وإن كان أحدهم ليغمز بقدمه الأرض فيدخل فيها .

وروى عبد الله بن لهيعة ، عن يزيد بن عمرو المعافري ، عن ابن بجرّة قال : استظل سبعون رجلاً من قوم موسى - عليه السلام - في قحف رجل من العماليق . وعن زيد بن أسلم : بلغني أن الضبعة وأولادها زيين في ججاج عين رجل من العماليق .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الآيات ٥-٧ سورة الفجر] .

قال المبرد : وقولها - يعني الخنساء - : رفيع العِمَاد ، إنما تُريدُ الطول . يُقالُ رجلٌ مُعمَدٌ : يُريدُ طويلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، أي الطوال .

وقال البغوي : سُموا ذات العِمَاد ، لأنهم كانوا أهل عُمد سَيَّارَة ، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي ، ورواية عطاء عن ابن عباس . وقال بعضهم : سُموا ذات العِمَاد ، لطول قاماتهم ، قال ابن عباس : يعني طولهم مثل العِمَاد . قال مقاتل : كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً .

وفي «كشاف» الزمخشري : ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا ﴾ : (مثل عاد) في البلاد عظم أجرام وقوة ، كان طول الرجل منهم أربع مائة ذراع ، وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحمله فيلقبها على الحي فيهلكهم ^١ .

وقد ذكر غير واحد أنه وجد في خلافة المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد ، كثر بمصر فيه ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبراً في عرض ثلاثة أشبار .

واعلم أن أعين بني آدم ضيقة ، وقد نشأت نفوسهم في محل صغير ، فإذا حدث القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو مبالغ أجسامهم - مما ليس له عندهم أصل يقيسونه عليه إلا ما يشاهدونه أو يلقونه - عجلوا إلى الازتياب فيه ، وسارحوا إلى الشك في الخبر عنه ، إلا من كان معه علم وفهم ، فإنه يفحص عما يبلغه من ذلك حتى يجد دليلاً على قبوله أو رده .

^١ الزمخشري : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، القاهرة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥ ، ٢ : ٥٤٢ .

وكيف يردُّ مثل هذه الأخبار، وفي الصحيح أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ آدمَ طوله ستون ذراعًا في السماء، ثم لم يزل الخلقُ ينقص حتى الآن».

وذكر محمد بن عبد الرّحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي في كتاب «تحفة الألباب» قال: نقل الشّعبى في كتاب «سير الملوك»، أنَّ الضّحّاك بن عُلوّان لما هرب منه لام بن عامر إلى ناحية الشمال، أرسل في طلبه أميرين، مع كلِّ أمير طائفة من الجبّارين، خرج أحدهما قاصدًا إلى بلغار، والآخر إلى باشغرد^a، فأقام أولئك الجبّارون في أرض بلغار وفي باشغرد^a.

قال الأقبليسي: وقد رأيتُ صورهم في باشغرد، ورأيتُ قبورهم بها، فكان مما رأيتُه ثنية أحدهم طولها أربعة أشبار وعرضها شبران، وقد كان عندي في باشغرد نصف أصل الثنية، أخرجت لي من فكه الأسفل، فكان عرضها شبرًا ووزنها ألف مثقال ومائتا مثقال، أنا ووزنها يدي، وهي الآن في داري في باشغرد^a، وكان دوز فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعًا.

وفي بيت بعض أصحابي في باشغرد عُضد أحدهم، طوله ثمانية وعشرون ذراعًا، وأضلاعه كلُّ ضلع عرضه ثلاثة أشبار وأكثر كاللوح الرخام، وأخرج إلي نصف رُسع يد أحدهم، فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدي جميعًا.

قال: ولقد رأيتُ في بلد بلغار، سنة ثلاثين وخمسة مائة، من نسل العاديين رجلاً طويلاً، كان طوله أكثر من سبعة أذرع، وكان يُسمّى دثقي، وكان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الطفل الصغير، وكان إذا وقع القتال بتلك الناحية يُقاتل بشجرة من شجر البلوط: يُمسكها كالعصا في يده، لو ضرب بها الفيل قتله. وكان خبيرًا متواضعًا، كلما التقاني سلّم عليّ ورّحّب بي وأكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى حقه.

وكان له أخت على طوله، رأيتها في بلغار مرارًا عدّة، قال لي القاضي يعقوب بن النعمان - يعني قاضي بلغار - : إن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها، وكان اسمه آدم، وكان من أقوى أهل بلغار، ضمته إلى صدرها فكسرت أضلاعه، فمات من ساعته.

(a) بولاق: باشغرد.

¹ أبو عمرو عامر بن سراحيل الشعبي المتوفى سنة ١٠٣هـ/٧٢١م، محدث وعالم في الفقه والمغازي، عارف بالشعر راوية له، لم يذكر له فؤاد سزجين بين مؤلفاته كتاب «سير الملوك» فتكون إشارة أبي حامد الغرناطي ذات قيمة خاصة (Sezgin, F., GASI, p. 277).

قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ فِي بَلْغَارِ حَمَامٍ تَسْعُهُمْ إِلَّا حَمَامٌ وَاحِدَةٌ وَاسِعَةُ الْأَبْوَابِ^١. انْتَهَى.

وقد حَدَّثَنِي الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ الْفُرْيَانِيِّ^(a)،^٢ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ شَاهَدَ قَبْرًا اخْتَفِرَ بِمَدِينَةِ قَرْطَابَجَنَّةٍ مِنْ إِفْرِيْقِيَّةٍ، فَإِذَا جُنَّةٌ رَجُلٍ قَدْرَ عِظَمِ رَأْسِهِ كَثُورَتَيْنِ عَظِيمَيْنِ، وَوُجِدَ مَعَهُ لَوْحٌ مَكْتُوبٌ بِالْقَلَمِ الْمُسْتَنْدِ، وَهُوَ قَلَمٌ عَادٍ وَحُرُوفُهُ مُقَطَّعَةٌ، مَا نَصَّهُ:

«أَنَا كُوشُ بْنُ كَنْعَانَ بْنِ الْمَلُوكِ مِنْ آلِ عَادٍ، مَلَكَتْ بِهَذِهِ الْأَرْضِ أَلْفَ مَدِينَةٍ، وَبَنَيْتُ بِهَا عَلَى أَلْفِ بَكْرٍ، وَرَكِبْتُ مِنَ الْخَيْلِ الْعِتَاقِ سَبْعَةَ آلَافِ حُمْرٍ وَصُفْرٍ وَشُهْبٍ وَبَيْضٍ وَدُهْمٍ، ثُمَّ لَمْ يُغْنِ عَنِّي ذَلِكَ شَيْئًا، وَجَاءَنِي صَائِحٌ فَصَاحَ بِي صَبِيحَةً أَخْرَجْتَنِي مِنَ الدُّنْيَا، فَمَنْ كَانَ عَاقِلًا مَنَّ جَاءَ بَعْدِي فَلْيَغْتَبِرْ بِي، وَأَنْشُدْ:

[الرجز]

١٠ يا واقفًا برسم رُبْعٍ قَد وَهَى
قِفْ وَاغْتَبِرْ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ التُّهَى^(b)
بِالْأَمْسِ كُنَّا فَوْقَهَا وَالْيَوْمِ صِرْنَا تَحْتَهَا
فَلِكُلِّ حَدٍّ غَايَةٌ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مُنْتَهَى

قَالَ: فَأَمَرَ السُّلْطَانُ أَبُو بَكْرُ بْنُ يَحْيَى الْحَفْصِيُّ صَاحِبَ ثُونَسٍ بِطَمِّهِ، فَطَمَّ الْقَبْرَ.

١٥ قَالَ مُؤَلِّفُهُ: وَأَنَا أَدْرَكْتُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّهُ تَرَفَّعَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ طَائِفَةٌ مِنَ الْحَجَّارِيِّينَ إِلَى السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ بَزْؤُوقِ أَعْوَامٍ بَضْعٍ وَتَسْعِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا عَلَى مَالٍ وَجَدُوهُ بِجَبَلِ

(a) بولاق: الفرياني. (b) في بولاق: إضافة شطر غير موجودة في النسخ المخطوطة فخل بوزن الرجز.

الاعتماد عليه فيما كان يخبره به مما يتعلق بالتاريخ ونحوه من غير إفصاح بالنقل عنه على عادته، وذكر أنه ترجمه في عقوده باختصار. وكانت وفاته في صفر سنة ٨٦٠هـ (السخاوي: الضوء اللامع ٧: ٦٧-٧٠).

وواضح تحامل السخاوي - كعادته - على المقرئ حيث نسب المقرئ ما أفاده به الحافظ الفرياني إليه، كما هو واضح بالنص الذي أمامنا، وانظر كذلك فيما يلي ٥١١، ٦٤٦؛ ٢: ٢٠٩، ٣٠٢.

^١ أبو حامد الفرياني: تحفة الألباب ١٢٤، ١٢٩، ١٣١-١٣٣.

^٢ الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد اللخمي الفرياني - بضم الفاء وراء مشددة مكسورة ثم تحتانية وآخره نون - نسبة لفريانة إحدى مدائن إفريقية قرب سفاقس، مولده بتونس سنة ٧٨٠هـ وارتحل إلى مصر سنة ٨١٢هـ فحج ثم قطن القاهرة، وتردد بينها وبين بلاد الشام. قال السخاوي: «وقد كان المقرئ بعظمه جدًا ووصفه بالشيخ الحافظ الرجال ذي الكنيتين، وأكثر من

المُقَطَّم ؛ وهو أنهم كانوا يقطعون الحجارة من مغار فيما يلي قلعة الجبل من بحرئها ، فأنكشَف لهم حجرٌ أسود عليه كتابة ، فاجتمعوا على قطع ما بين يدي هذا الحجر طمعا في وجود مال ، فانتَهى بهم القطع إلى عمودٍ عظيم قائم في قلب الجبل ، فلعجبتهم أقبلوا بمعاولهم عليه حتى تكسَّر قطعاً ، فإذا/ هو مُجَوَّف وإنسان قائم على قدميه بطوله . وتناثر لهم من جهة رأسه دنانير كثيرة ، فاقْتَسَموها وتنافسوا في قسَمَتِها ، واختلفوا حتى اشتَهَر أمرهم وترافعوا إلى السلطان . فبعث من كَشَف المغار ، فوجد الحجر والعمود وقد تكسَّر ، فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير ، ولم يجد من يعرف ما قد كُتِبَ على الحجر . وتسامع الناس بالخبير ، فأقبلوا إلى المغار وعَبَثُوا برمة الميت .

فأخبرني من شاهد سناً من أسنان هذا الميت أنها سوداء بقدر الباذنجانة ، وأن عظم ساقه فيما بين قدمه إلى ركبته خمسة أذرع ، فيجيء من هذا حساب طوله عشرين ذراعاً وأزيد ، ودماع سن واحدة من أسنانه في قدر الباذنجانة ما هو إلا كالقبة الكبيرة .

وأخبرني السيد الشريف قاضي القضاة بدمشق شهاب الدين أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني ، المعروف بابن عدنان وبن أبي الجرح^١ ، أنه وقف في سنة أربع عشرة وثمان مائة ، بمقبرة باب الصغير من دمشق ، على قبر ليُدفن فيه ميت لهم ، فلما تهياً القبر ولم يتق إلا أن يدلى فيه الميت ، انخسف وخرج من الخسف ذباب كثير كبار زرق الألوان حتى كادت تظلمهم . فنزل الحفار في الخسف ، فإذا قبر طوله اثنان وعشرون ذراعاً ، وفيه بطوله ميت قد صار كالرماد . وأخبرني أيضاً أنه شاهد بهذه المقبرة ضرس إنسان وله ثلاث شعب وقد سقطت منه قطعة ، وهو في قدر البطيخة ، وأنه وزن بحضرتة فبلغ رطلين وتسع أواق بالرطل الشامي ، وأن القطعة التي انكسرت منه نحو أوقيتين بالشامي ، فيكون على هذا زنة هذا الضرس نحو اثني عشر رطلاً بالمصري .

^١ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن إبراهيم بن عدنان بن جعفر بن محمد بن عدنان الحسيني المنقري الدمشقي الشافعي كاتب السر الشريف بديار مصر ، توفي بالطاعون سنة ٨٣٣هـ ، ودفن في تربة الأشرف عند السيد حسن بن عجلان ، بعد الصلاة عليه بباب الوزير في محفل شهده السلطان (ابن حجر : إنباء الفجر ٣ : ٤٤١ - ٤٤٢ ، أبو المحاسن : المنهل الصافي : ١ : ٤٠٦ - ٤٠٧ ، النجوم الزاهرة ١٥ : ١٦٤ ؛ السخاوي : الضوء اللامع ٢ : ٥ - ٦) .

ذِكْرُ طَرْفٍ بِمَا قِيلَ فِي الإسْكَندَرِيَّةِ

قال عمر بن أبي عمر^(a) الكِنْدِيُّ : أَجْمَعَ النَّاسُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مَدِينَةٌ عَلَى مَدِينَةِ^(b) ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ غَيْرِ الإسْكَندَرِيَّةِ ؛ وَلَمَّا دَخَلَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ الإسْكَندَرِيَّةَ سَأَلَ رَجُلًا مِنْ عُلَمَاءِ الرُّومِ عَنْهَا وَعَنْ عَدَدِ أَهْلِهَا ؛ فَقَالَ : وَاللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَا أَدْرَكَ عِلْمَ هَذَا أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَالَّذِي أُخْبِرَكَ كَمْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْيَهُودِ ، فَإِنَّ مَلِكََ الرُّومِ أَمَرَ بِإِخْصَائِهِمْ فَكَانُوا سِتِّ مِائَةِ أَلْفٍ ؛ قَالَ : فَمَا هَذَا الْخَرَابُ الَّذِي فِي أَطْرَافِهَا ؟ قَالَ : بَلَّغَنِي عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ فَارِسَ ، حِينَ مَلَكَوا مِصْرَ ، أَنَّهُ أَمَرَ بِفَرَضِ دِينَارٍ عَلَى كُلِّ مُخْتَلَمٍ لِعُمْرَانَ الإسْكَندَرِيَّةِ ، فَأَتَاهُ كُتُبَاءُ أَهْلِهَا وَعُلَمَاؤُهُمْ وَقَالُوا : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَتَّعِبْ ، فَإِنَّ الإسْكَندَرِيَّةَ أَقَامَ عَلَى^(c) بِنَائِهَا ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَعُمِّرَتْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَإِنَّهَا لَخَرَابٌ مِنْذُ ثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ . وَلَقَدْ أَقَامَ أَهْلُهَا سَبْعِينَ سَنَةً لَا يَمُتُّونَ فِيهَا نَهَارًا إِلَّا بِخِرْقِ سُودٍ فِي أَيْدِيهِمْ^(d) ، خَوْفًا عَلَى أَبْصَارِهِمْ مِنْ شِدَّةِ بَيَاضِهَا .

وَمِنْ فَضَائِلِهَا مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهَا الْمَدِينَةُ الَّتِي وَصَفَهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ^(e) فَقَالَ : ﴿إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الآيَاتُ ٦-٧ سُورَةُ الْفَجْرِ] . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ : قَالَ لِي سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : يَا مِصْرِي أَيْنَ تَسْكُنُ ؟ قُلْتُ : أَتَسْكُنُ الْفُسْطَاطَ ؛ فَقَالَ : أَتَأْتِي الإسْكَندَرِيَّةَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ؛ قَالَ : تِلْكَ كِنَانَةُ اللَّهِ ، يَجْعَلُ فِيهَا خِيَارَ سِيَاهِهِ .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْزُوقِ الصَّدْفِيِّ : لَمَّا نُعِيَ لِي ابْنُ عَمِّي خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ - وَكَانَ قَدْ تَوَفَّى بِالإسْكَندَرِيَّةِ - لَقِينِي مُوسَى بْنُ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهْيَعَةَ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ مَتَفَرِّقِينَ ، كُلُّهُمْ يَقُولُ : أَلَيْسَ مَاتَ بِالإسْكَندَرِيَّةِ ! فَأَقُولُ : نَعَمْ ؛ فَيَقُولُونَ هُوَ حَيٌّ عِنْدَ اللَّهِ يُرْزَقُ ، وَيُجْرَى عَلَيْهِ أَجْرُ رَبَابِطِهِ مَا قَامَتْ^(f) الدُّنْيَا ، وَلَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ حَتَّى يُعْحَشَرَ عَلَى ذَلِكَ^١ .

(a) بولاق : أبو عمر . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : خان الإسكندرية أقام الإسكندر على . (d) بولاق : أيديهم . (e) بولاق : العزيز . (f) بولاق : أقامت .

^١ ابن الكندي : فضائل مصر ٣١-٣٢ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ١١٦-١١٨ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة

وقال الذين يَنْظُرُونَ في الأهوية والبلدان وتُرَبُّ (a) الأقاليم والأمصَار: إنه لم تَطُلْ أعمارُ النَّاسِ في بَلَدٍ من البلدان طولها بمزبوط من كورة الإسكندرية ووادي فرغانة (١).

وقال الحسن بن رضوان (b): وأما الإسكندرية وتيس وأمثال هذه (c): فقربها من البحر، وسكون الحرارة والبرد عندهم، وظهور ریح الصبأ فيهم، مما يَصْلِحُ أمرهم، ويُرِقُّ طباعهم، وَيَزْفَعُ هَمَمَهُمْ (d)، وليس يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور (e) من غلظ الطبع والحمازية.

وقد وُصِفَ أهل الإسكندرية بالبخل؛ قال جلال الدين مكرم بن أبي الحسن بن أحمد بن حنيفة (f) الخزرجي ملك الحفاظ:

[الوافر]

| | |
|--|--|
| نزِيلُ سَكَنْدَرِيَّةٍ لَيْسَ يُقْرَى | بَغِيرِ الْمَاءِ أَوْ نَعْتِ السَّوَارِي |
| وَيُتَجَفُّ حِينَ يُكْرَمُ بِالْهَوَاءِ | مَلَائِنَ وَالْإِشَارَةَ لِلْمَنَارِ |
| وَيُذَكِّرُ الْبَحْرَ وَالْأَمْوَاجَ فِيهِ | وَوَصْفِ مَرَائِبِ الرُّومِ الْكِبَارِ |
| فَلَا يَطْمَعُ نَزِيلُهُمْ بِخُبْزِ | فَمَا فِيهَا لَذَاكَ الْحَرْفِ قَارِي |

وقال أحمد بن خرداذبه: من القسطنطاط إلى ذات (g) الساجل أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى ترنوط (i) ثلاثون ميلاً، ثم إلى كوم شريك (h) اثنان وعشرون ميلاً، ثم إلى الرافقة أربعة وعشرون ميلاً مع النيل، ثم إلى قرطسا (i) ثلاثون ميلاً، ثم إلى كزيون أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى الإسكندرية أربعة وعشرون ميلاً (٢).

وقال آخر: طريق الإسكندرية إذا نُضِبَ ماءُ النيل يأخذ بين المدائن والضياح. وذلك إذا أخذت من شطونف إلى / شبك العبيد، فهو منزل فيه مئنة لطيفة (l)، وبينهما اثنا عشر سقسا؛ ومن شبك إلى مدينة منوف - وهي كبيرة فيها حمامات وأسواق، وبها قوم ثناء (f) فيهم يسار ووجوة من الناس - وبينهما ستة عشر سقسا؛ ومن منوف إلى محلة صرد - وفيها منبر وحمام وقنادق وسوق صالح - ستة عشر سقسا؛ ومن محلة صرد إلى سخا - وهي مدينة كبيرة ذات حمامات وأسواق وعملي واسع، وإقليم جليل له عامل بعسكر وجند، وبه الكتان الكثير وزيت الفجل وقموح عظيمة - ستة عشر سقسا؛ ومن سخا إلى شبرامية - وهي مدينة كبيرة بها جامع

(a) بولاق: ترتب. (b) بولاق: صفوان. (c) بولاق: أمثالهما. (d) بولاق: همتهم. (e) بولاق: اليشمون. (f) ساقطة من بولاق. (g) بولاق: ذوات. (h) بولاق: مربوط. (i-i) ساقطة من بولاق. (j) في صورة الأرض: منير لطيف.

وأَسْوَاقٍ - ستة عشر سَقْسًا ؛ ومن شَبْرَامِيَّة^(a) إلى مَسِيرٍ - وهي مَدِينَةٌ بها جَامِعٌ وَأَسْوَاقٌ - ستة عشر سَقْسًا ؛ ومن مَسِيرٍ إلى سَنهورٍ - وهي مَدِينَةٌ ذاتُ إقْلِيمٍ كَبِيرٍ ، وبها حَمَّامَاتٌ وَأَسْوَاقٌ وَعَامِلٌ كَبِيرٌ - ستة عشر سَقْسًا ؛ ومن سَنهورٍ إلى البُجُومِ - وهي إقْلِيمٌ وبها حَمَّامَاتٌ وَقَنَادِقٌ وَأَسْوَاقٌ - ستة عشر سَقْسًا ؛ ومن البُجُومِ إلى نَسْتَرُو - وكانت مَدِينَةٌ حَسَنَةً على بُحَيْرَةِ اليشمون - عشرون سَقْسًا ؛ ومن نَسْتَرُو إلى البُرُلُسِ - وهي مَدِينَةٌ كَثِيرَةُ الصَّيْدِ مِنَ البُحَيْرَةِ ، وبها حَمَّامَاتٌ - عشر سَقْسَاتٍ ؛ ومن البُرُلُسِ إلى إِنْخَا - وهي حِصْنٌ على شَطِّ بَحْرِ المِلْحِ - عشر سَقْسَاتٍ ؛ ومن إِنْخَا إلى رَشِيدٍ - وهي مَدِينَةٌ على النَّيْلِ ، ومنها يَصُبُّ النَّيْلُ في البَحْرِ من فُوْهَةٍ تُعْرَفُ بالأُسْتُومِ وهي المَدْخَلُ - ثلاثون سَقْسًا ، وكان بها أَسْوَاقٌ صَالِحَةٌ وَحَمَّامٌ ، وبها نَخِيلٌ وَضَرْبِيَّةٌ على ما يُحْمَلُ مِنَ الإسْكَندَرِيَّةِ . وهذا الطَّرِيقُ ، الآخِذُ من شَطْنُوفٍ إلى رَشِيدٍ ، رُبَّمَا امْتَنَعَ سُلُوكُهُ عندَ زِيَادَةِ النَّيْلِ^١ .

والتِّيَابُ المَنْسُوجَةُ بالإسْكَندَرِيَّةِ لا تَنْظِيرَ لَهَا وَتُحْمَلُ إلى أَقْطَارِ الأَرْضِ ، وفي ثِيَابِ الإسْكَندَرِيَّةِ ما يُبَاعُ الكَثَّانُ منه ، إِذَا عُمِلَتْ^(b) ثِيَابًا كُلُّ زِنَةِ دِرْهَمٍ بِدِرْهَمِ فِضَّةٍ ، وما يَدْخُلُ في الطَّرَازِ قِيَابَعُ بَنْظِيرِ وَزْنِهِ مَرَّاتٍ عَدَّةً^(c) وَيُقَالُ لَهَا الشَّرْبُ^٢ .

ذِكْرُ فَتْحِ الإسْكَندَرِيَّةِ

قال أبو عُمر الكِنْدِيُّ : لَمَّا حَازَ المسلمونَ الحِصْنَ بما فيه ، أَجْمَعَ عَمَرُو على المَسِيرِ إلى الإسْكَندَرِيَّةِ ، فَسَارَ إليها في ربيعِ الأَوَّلِ سنةَ عَشْرِينَ^٣ .
وقال غيره : بل سَارَ في جمادى الآخرة منها .

(a) النسخ : شيركية والتصويب من ابن حوقل . (b) بولاق : عمل . (c) بولاق : عديدة .

1955; id., «The Tiraz Institutions in Medieval Egypt», in *Studies in Islamic Arts and Architecture in Honour of K.A.C. Creswell*, London 1965, pp. 157-62; Serjeant, R.B., *Islamic Textiles*, Beirut 1972, pp. 147-53

^٣ الكندي : ولاية مصر ٣٢ .

^١ ابن حوقل : صورة الأرض ١٣٨-١٣٩ .
^٢ عن طراز الإسكندرية راجع ، ابن ممتي : قوانين الدواوين ٣٣٠-٣٣١ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ١٩ ، الفلقشندي : صبح الأعشى ١١ : ٤٢٥-٤٢٦ ; Marzouk, M. A., *History of Textile Industry in Alexandria*, Alexandria

وَذَكَرَ سَيْفُ بْنُ عُمَرَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ بَعَثَ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَهُوَ عَلَى عَيْنِ شَمْسٍ ، عَوْفُ ابْنِ مَالِكٍ ، فَتَزَلَّ عَلَيْهَا وَبَعَثَ يَقُولُ لِأَهْلِهَا : إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَنْزِلُوا فَلَكُمْ الْأَمَانُ ، فَقَالُوا : نَعَمْ . فَرَأَسَلَهُمْ وَتَرَبَّصُوا أَهْلَ عَيْنِ شَمْسٍ ، وَسَبَى ^(a) الْمُسْلِمُونَ مَنْ بَيْنَ ذَلِكَ ^١ .

وقال ابن عبد الحكم : ويُقال إنَّ الْمُقَوْقِسَ إِنَّمَا صَالَحَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ ^(b) عَلَى الرُّومِ وَهُوَ مُحَاصِرُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ : إِنْ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ ^(b) لَمَّا فَتَحَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ حَاصِرًا أَهْلَهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِمْ فَخَافُوهُ ، وَسَأَلَهُ الْمُقَوْقِسُ الصُّلْحَ عَنْهُمْ كَمَا صَالَحَهُ عَلَى الْقَيْبُطِ ، عَلَى أَنْ يَسْتَنْظِرَ رَأْيَ الْمَلِكِ . فَحَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ الْمُقَوْقِسَ الرُّومِيَّ ، الَّذِي كَانَ مَلِكًا عَلَى مِصْرَ ، صَالَحَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ عَلَى أَنْ يَسِيرَ مِنَ الرُّومِ مَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ ، وَيَقْرَهُ مَنْ أَرَادَ مِنَ الرُّومِ عَلَى أَمْرٍ قَدْ سَمَّاهُ . فَبَلَغَ ذَلِكَ هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ ، فَتَسَخَّطَ أَشَدَّ التَّسَخُّطِ ^(c) ، وَأَنْكَرَهُ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ ، وَبَعَثَ الْجُيُوشَ فَأَغْلَقُوا أَبْوَابَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَأَذْنُوا عَمْرًا بِالْحَرْبِ ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِ الْمُقَوْقِسُ فَقَالَ : أَسْأَلُكَ ثَلَاثًا ؛ قَالَ : مَا هُنَّ ؟ قَالَ : لَا تَبْدُلَ لِلرُّومِ مَا بَدَلْتِ لِي ، فَإِنِّي قَدْ نَصَحْتُ لَهُمْ فَاسْتَغْشَوْنِي ، وَلَا تَنْقُضْ بِالْقَيْبُطِ فَإِنَّ النُّقُضَ لَمْ يَأْتِ مِنْ قَيْلِهِمْ ، وَأَنْ تَأْمُرَ بِي إِذَا مِتُّ فَاذْفِنِي فِي أَبِي يُحْنَسِ ؛ فَقَالَ عَمْرُو : هَذِهِ أَهْوَنُهُنَّ عَلَيْنَا ^٢ .

قَالَ : فَخَرَجَ عَمْرُو بِالْمُسْلِمِينَ حِينَ أَمَكَنَهُمُ الْخُرُوجَ ، وَخَرَجَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ رُؤَسَاءِ الْقَيْبُطِ ، وَقَدْ أَضْلَحُوا لَهُمُ الطَّرِيقَ ، وَأَقَامُوا لَهُمُ الْجُسُورَ وَالْأَسْوَاقَ ، وَصَارَتْ لَهُمُ الْقَيْبُطُ أَعْوَانًا عَلَى مَا أَرَادُوا مِنْ قِتَالِ الرُّومِ . وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ الرُّومُ فَاسْتَعَدَّتْ وَاسْتَجَاسَتْ وَقَدِمَتْ عَلَيْهِمْ مَرَائِبُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ فِيهَا جَمْعٌ عَظِيمٌ مِنَ الرُّومِ بِالْعُدَّةِ وَالسَّلَاحِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَمْرُو مِنَ الْفُسْطَاطِ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، فَلَمْ يَرِ مِنْهُمْ أَحَدًا ، حَتَّى بَلَغَ تَرْزُوطَ فَلَقِيَ بِهَا طَائِفَةً مِنَ الرُّومِ ، فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا خَفِيفًا فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ .

وَمَضَى عَمْرُو بِمَنْ مَعَهُ حَتَّى لَقِيَ جَمْعَ الرُّومِ بِكُومِ شَرِيكٍ ^٣ . فَاقْتَتَلُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَوَلَّى الرُّومَ أَكْتَانَفَهُمْ . وَيُقَالُ بَلْ أَرْسَلَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ شَرِيكَ بْنَ سَمِيٍّ فِي

(a) بولاق : وسار . (b-b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : فسخط أشد السخط .

^٣ كوم شريك ، انظر فيما يلي ٤٩٦ .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤ : ١٠٨ .

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٧٢ - ٧٣ .

آثارهم ، فأذركهم عند الكوم الذي يُقال له كوم شريك ، فقاتلهم^a فهزّمهم وكان على مُقدّمة عمرو - وعمرو بتزئوط^b - فألجأوه إلى الكوم فاعتصم به ، وأحاطت به الروم .

فلما رأى ذلك شريك بن سميّ أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصّدفي - وهو صاحب الفرس الأشقر الذي يُقال له أشقر صدف ، وكان لا يُجاري سرعة - فأنحط عليهم من الكوم ، وطلبته الروم فلم تُدرِكه ، حتى أتى عمراً فأخبره .

فأقبل عمرو متوجّهاً ، وسمعت به الروم فأنصرفت ، ثم التقوا بسلطيس فافتتلوا قتالاً شديداً ، ثم هزّمهم الله تعالى ، ثم التقوا بالكريون فافتتلوا بها بضعة عشر يوماً ؛ وكان عبد الله بن عمرو على المُقدّمة ، وحامل اللواء يومئذ وزدان مولى عمرو ، فأصاب عبد الله بن عمرو جراحات كثيرة فقال : يا وزدان لو تفهقرت قليلاً نصيب الروح ؛ فقال وزدان : الروح تُريد ؟ الروح أملك وليس هو^a خلفك ؛ فتقدم عبد الله ، فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه ، فقال / :

[الوافر]

أقول لها إذا جشأت وجاشت رويدك ثمّدي أو تستريح^١

وهذا البيت لعمر بن الإطنابة^٢ ، وهو أن رجلاً من بني النجار كان مُجاوراً لمعاذ بن النعمان فقتل ، فقال معاذ : لا أقتل به إلا عمراً بن الإطنابة ، وهو يومئذ أشرف الخزرج ، فقال عمرو^٣ :

[الوافر]

ألا من مبلغ الأكفاء عني وقد تُهدي النصيحة للنصيح
فإنكم وما تُزجون شطري من القول المرغي والصريح
سيتدم بغضكم عجلًا عليه وما أثر اللسان إلى الجروح

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : بمربوط . (c) بولاق : بسلطيس .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٧٣ - ٧٤ ، والبيت فيه :
أقول إذا ما جاشت النفس اصبري
فمن ما قليل ثمّدي أو ثلامي
^٢ عمرو بن عامر بن زئد مناة بن عامر الأنصاري ،
والإطنابة أمه وهي بنت شهاب بن زئان من بني القين بن
جسر ، شاعرٌ قديم من فرسان قومه وسادتهم ، ملك الحجاز
وكان على قومه في بعض حروبهم مع الأوس (أبو الفرج :
الأغاني ١١: ١٢١ - ١٢٤ ؛ المرزباني : معجم الشعراء ،
تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ١٩٦٠ ، ٨ - ٩ ، ابن
حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء ، تحقيق عبد السلام
هارون - نادر المخطوطات ، القاهرة ١٩٥٤ ، ٢ : ٩٥) .
^٣ انظر الأبيات وتخرجها عند البصري : الحماسة
البصرية ، تحقيق وشرح ودراسة عادل سليمان جمال ، القاهرة
١٩٩٩ ، ١ : ٧ - ٨ .

أَبَتْ لِي عَيْتِي وَأَبَى بِلَائِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالشَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَإِعْطَائِي عَلَى الْمَكْرُوهِ مَالِي وَأَقْدَامِي عَلَى الْبَطَلِ الْمُشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ مَكَائِكَ تُحْمَدِي أَوْ تَشْتَرِيحِي
لَأَذْفَعُ عَنْ مَائِرِ صَالِحَاتِ وَأُحْمِي بَعْدُ عَنْ عِزِّ صَحِيحِ
بِذِي شُطْبٍ كَلَوْنِ الْمِلْحِ صَافِي وَنَفْسٍ لَمْ تَقِرَّ عَلَى الْقَبِيحِ

الشُّطْبُ . سَعْفُ النَّخْلِ الْأَخْضَرِ ، الْوَاحِدَةُ شُطْبِيَّةٌ ؛ وَجَشَأَتْ . اِرْتَفَعَتْ مِنْ حُزْنٍ أَوْ فَرَعٍ ؛ وَجَاشَتْ : دَارَتْ لِلغَثَيَانِ ، وَقِيلَ هُمَا بِمَعْنَى اِرْتَفَعَ ؛ وَالْمُشِيحُ : الْمَبَادُ وَالْمُتَكَمِّشُ .
فَرَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى عَمْرٍو فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ ، فَقَالَ عَمْرٍو : هُوَ ابْنِي حَقًّا ؛ وَصَلَّى عَمْرٍو يَوْمَئِذٍ صَلَاةَ الْخَوْفِ ^١ .

١٠ ثم فَتَحَ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً ، وَاتَّبَعُوهُمْ حَتَّى بَلَغُوا الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ . فَتَحَصَّنَ بِهَا الرُّومُ - وَكَانَ عَلَيْهَا حُصُونٌ مَتِينَةٌ لَا تُرَامُ ، حِصْنٌ دُونَ حِصْنٍ - فَنَزَلَ الْمُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ رُؤَسَاءُ الْقَيْبِطِ يُمِيدُونَهُمْ بِمَا اخْتَاجُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَالْعُلُوقَةِ ^٢ .

فَأَقَامُوا شَهْرَيْنِ ثُمَّ تَحَوَّلَ [إِلَى الْمَقْسِ] ^(a) ، فَخَرَجَتْ عَلَيْهِ خَيْلٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْبُحَيْرَةِ مُسْتَبِيرَةٌ بِالْحِصْنِ ، فَوَاقَعُوهُ ، فَقَتِلَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، وَرُشِلَ مَلِكُ الرُّومِ تَخْتَلَفَ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فِي الْمَرَائِبِ بِمَادَّةِ الرُّومِ .

١٥ وَكَانَ مَلِكُ الرُّومِ يَقُولُ : لَئِن ظَهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، إِنَّ ذَلِكَ انْقِطَاعُ الرُّومِ وَهَلَاكُهُمْ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلرُّومِ كَنَائِسٌ أُعْظَمُ مِنْ كَنَائِسِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ . وَإِنَّمَا كَانَ عِيدُ الرُّومِ - حِينَ غَلَبَتِ الْعَرَبُ عَلَى الشَّامِ - بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ . فَقَالَ الْمَلِكُ : لَئِن غَلَبْنَا عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ هَلَكَتِ الرُّومُ وَانْقَطَعَ مُلْكُهَا . فَأَمَرَ بِجِهَازِهِ وَمَصْلَحَتِهِ لِحُرُوجِهِ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ حَتَّى يُبَاشِرَ قِتَالَهَا بِنَفْسِهِ ^(c) إِعْظَامًا لَهَا وَأَمْرًا أَنْ لَا يَتَخَلَّفَ أَحَدٌ مِنَ الرُّومِ وَقَالَ : مَا بَقِيَ الرُّومُ بَعْدَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ^(c) . فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ جِهَازِهِ ، صَرَغَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَأَمَاتَهُ ، وَكَفَى الْمُسْلِمِينَ مَوْثِقَةً . وَكَانَ مَوْثِقَةً فِي سَنَةِ تِسْعِ عَشْرَةَ ، فَكَسَرَ اللهُ بِمَوْتِهِ شَوْكَةَ الرُّومِ ، فَجَجَعَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِمَّنْ كَانَ قَدْ تَوَجَّهَ ^(c) إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ^(c) ^٢ .

(a) زيادة من فتوح مصر . (b) بولاق : ففي . (c-c) ساقطة من بولاق .

^٣ نفسه ٧٥-٧٦ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح ٧٤ .

^٢ نفسه ٧٤ .

وقال اللبث : مات هِرَقْل في سنة عشرين ، وفيها فُتِحَت قَيْسَارِيَّةُ الشَّامِ .
 قال : واستأَسَدَت العَرَبُ عند ذلك ، وألحَّت بالِقِتالِ على أهل الإسْكَندَرِيَّةِ ، فقاتلوهم قِتالاً
 شديداً ، وخرَجَ طرفٌ من الروم من باب حِصْنِ الإسْكَندَرِيَّةِ ، فحملوا على الناس فقتلوا رجلاً من
 مَهْرَةَ ، واختزوا رأسه ومضوا به ، فجعل المَهْرِيُّونَ يتغضبون ويقولون : لا نذفيه إلا برأسه . فقال
 عمرو : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يُيالي بغضبكم ، احمِلوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا
 منهم رجلاً ، ثم ازموا برأسه يزموه برأس صاحبكم . فخرجت الروم إليهم فاقتتلوا ، فقتل من
 الروم رجلٌ من بطارقتهم ، فاخذوا رأسه وزموا به الروم ، فرمت الروم برأس المهري إليهم ، فقال :
 دونكم الآن فادفئوا صاحبكم ^١ .

وكان عمرو يقول : ثلاث قبائل من مضر ^(a) : أمّا مَهْرَةَ فقومٌ يقتلون ولا يُقتلون ، وأمّا غافق
 فقومٌ يُقتلون ولا يُقتلون ، وأمّا بلي فأكثرها رجلاً صحب النبي ﷺ ، وأفضلها فارساً ^٢ .
 وقال رجلٌ لعمرو : لو جعلت المنجنيق وزميتهم به لهدم منه ^(b) حائطهم ؛ فقال عمرو :
 أتستطيع أن تُنبي ^(c) مقامك من الصف . وقيل له : إن العدو قد غشوك ، ونحن نخاف على رائطة
 - يُريدون امرأته - فقال : إذن يتخذوا أزياطاً كثيرة ^٣ .

ولما استخِرَ القتال [بينهم] ^(d) بارزَ رجلٌ من الروم مسلماً بن مخلد ، فصرعه الرومي وألقاه عن
 فرسه ، وهوى إليه ليقتله حتى حماه رجلٌ من أصحابه - وكان مسلماً لا يقاوم لسبيله ^(b) ولكنها
 مقادير - ففريحت بذلك الروم ، وشق ذلك ^(b) على المسلمين . وغضب عمرو بن العاص لذلك ،
 وكان مسلماً كثير اللحم ثقيل البدن ، فقال عمرو عند ذلك : ما بال الرجل المُستة الذي يُشبه
 النساء ، يتعرض مداخل الرجال ويتشبه بهم . فغضب من ذلك مسلماً ولم يُراجعه .

ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الإسْكَندَرِيَّةِ ، فقاتلهم العرب في الحصن ، ثم جاشت
 عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعاً من الحصن ، إلا أربعة نفر تفرقوا في الحصن وأغلقوا عليهم
 باب الحصن ، أخذهم عمرو بن العاص والآخِرُ مسلماً ، ولم تحفظ الآخرين ، وحالوا بينهم وبين

(a) بولاق : مصر . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : يفتي . (d) زيادة من فتح مصر .

^٣ نفسه ٧٧ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٧٦ .

^٢ نفسه ٧٦-٧٧ .

أصحابيهم ، ولا تَدْرِي الرُّومُ من هم . فلَمَّا رَأَى ذلك عَمْرُو بن العاص وأصحابه ، التجأوا إلى دِيماس من حَمَامَاتِهِمْ ، فَدْخَلُوا فِيهِ فَاخْتَرَزُوا بِهِ . فَأَمَرُوا روميًا أَنْ يُكَلِّمَهُم بِالْعَرَبِيَّةِ ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّكُمْ قَدْ صِرْتُمْ بِأَيْدِينَا / أُسَارَى ، فَاشْتَأْسِرُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، فَاثْمَنُوا عَلَيْهِمْ . ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : إِنَّ فِي أَيْدِي أَصْحَابِكُمْ مِنَّا رِجَالًا أَسْرَوْهُمْ ، وَنَحْنُ نُعْطِيكُمْ الْعُهُودَ نُفَادِي بِكُمْ أَصْحَابَنَا وَلَا نُثْقَلِكُمْ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ . فَلَمَّا رَأَى ذلك الرُّومِي مِنْهُمْ قَالَ لَهُمْ : هَلْ لَكُمْ إِلَى خِصْلَةٍ وَهِيَ نَصْفٌ ، فَإِنْ غَلَبَ صَاحِبُنَا صَاحِبَكُمْ اسْتَأْسَرْتُمْ لَنَا وَأَمَكَّثْمُونَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ غَلَبَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبَنَا خَلَيْنَا سَبِيلَكُمْ إِلَى أَصْحَابِكُمْ . فَرَضُوا بِذلك ، وَتَعَاهَدُوا عَلَيْهِ ، وَعَمَرُوا وَمَسَلَمَةَ وَصَاحِبَاهُمَا فِي الْحِصْنِ فِي الدِّيْمَاسِ .

فَتَدَاعَوْا إِلَى الْبِرَازِ ، فَبَرَزَ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ - وَقَدْ وَثِقَتِ الرُّومُ بِبَجْدَتِهِ وَشِدَّتِهِ - وَقَالُوا : يَبْرُزُ رَجُلٌ مِنْكُمْ لَصَاحِبِنَا . فَأَرَادَ عَمْرُو أَنْ يَبْرُزَ ، فَمَنَعَهُ مَسَلَمَةُ وَقَالَ : مَا هَذَا؟ تُخْطِئُ مَرَّتَيْنِ : تَشُدُّ مِنْ أَصْحَابِكَ وَأَنْتَ أَمِيرٌ ، وَإِنَّمَا قَوَائِمُهُمْ بِكَ وَقُلُوبُهُمْ مَعْلُوقَةٌ نَحْوِكَ ، لَا يَدْرُونَ مَا أَمْرُكَ وَلَا تَرْضَى حَتَّى تُبَارِزَ وَتَتَعَرَّضَ لِلْقَتْلِ ، فَإِنْ قُتِلْتَ كَانَ ذلك بَلَاءً عَلَى أَصْحَابِكَ ، مَكَانَكَ وَأَنَا أَكْفِيكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى . فَقَالَ عَمْرُو : دُونَكَ فَرَبَّمَا فَرَجَهَا اللهُ بِكَ .

فَبَرَزَ مَسَلَمَةُ وَالرُّومِي ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً ، ثُمَّ أَعَانَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ ؛ فَكَرَّ مَسَلَمَةُ وَأَصْحَابُهُ ، وَوَفَّى لَهُمُ الرُّومُ بِمَا عَاهَدُوهُمْ عَلَيْهِ ، فَفَتَحُوا لَهُمْ بَابَ الْحِصْنِ فَخَرَجُوا ، وَلَا يَدْرِي الرُّومُ أَنَّ أَمِيرَ الْقَوْمِ فِيهِمْ حَتَّى بَلَغَهُمْ بَعْدَ ذلك فَأَيْسَفُوا عَلَى ذلك ، وَأَكَلُوا أَيْدِيَهُمْ تَغِيظًا عَلَى مَا فَاتَهُمْ . فَلَمَّا خَرَجُوا اسْتَحْيَا عَمْرُو مِمَّا كَانَ قَالَ لِمَسَلَمَةَ حِينَ غَضِبَ ، فَقَالَ عَمْرُو عِنْدَ ذلك : اسْتَغْفِرْ لِي مَا كُنْتُ قُلْتُ لَكَ ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ .

وَقَالَ عَمْرُو : مَا أَفْحَشْتُ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ مِرَارٍ : مَرَّتَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ . وَمَا مِنْهُمْ مَرَّةٌ إِلَّا وَقَدْ نَدِمْتُ ، وَمَا اسْتَحْيَيْتُ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَشَدُّ مِمَّا اسْتَحْيَيْتُ مِمَّا قُلْتُ لَكَ . وَوَاللهُ إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا أَعُودَ إِلَى الرَّابِعَةِ مَا بَقِيَتْ^١ .

قَالَ : وَأَقَامَ عَمْرُو مُحَاصِرَ الإسْكَنْدرِيَّةِ أَشْهُرًا . فَلَمَّا بَلَغَ ذلك عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : مَا أَبْطَأُوا بِالْفَتْحِ إِلَّا لَمَّا أَحْدَثُوا . وَكَتَبَ إِلَى عَمْرُو بنِ العَاصِ :
«أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ عَجِبْتُ لِإِبْطَائِكُمْ عَنِ فَتْحِ مِصْرَ ، إِنَّكُمْ تُقَاتِلُونَهُمْ مِنْذُ

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٧٧ - ٧٨ .

سنين ، وما ذاك إلا لما أخطئتم وأخبتهم من الدنيا ما أحبَّ عدوكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نيّاتهم . وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمت أنك أن الرجل منهم مقاوم ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم . فإذا أتاك كتابي هذا ، فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم في الصبر والنيّة ، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ، ومري الناس جميعاً أن يكونوا لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة . وليعج الناس إلى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم .

١٠ فلما أتى عمرو بن العاص - رضي الله عنه - الكتاب ، جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر - رضي الله عنه . ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس ، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يزغبوا إلى الله - جلّ وعزّ^(a) - ويسألوه النصر ، ففعلوا ، ففتح الله عليهم .

ويقال إن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد^(b) فقال : أشر علي في قتال هؤلاء ؛ فقال له مسلمة : أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب ، من أصحاب رسول الله ﷺ ، فتعقد له على الناس ، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك ؛ فقال عمرو : من ذلك ؟ قال : عبادة بن الصّاميت .

١٥ فدعا عمرو عبادة^(c) ، فأتاه وهو راكب على فرسه ، فلما دنا منه أراد النزول ، فقال له عمرو : عزمت عليك إن نزلت ، ناولني سنان رُمحك ، فناوله إياه ؛ فنزع عمرو عمامته عن رأسه ، وعقد له وولاه قتال الروم . فتقدم عبادة مكانه ، فصادف الروم وقاتلهم ، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك^١ .

٢٠ وكان حصار الإسكندرية بعد موت هرقل تسعة أشهر ، وخمسة أشهر قبل ذلك . وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة إحدى وعشرين^٢ .

(a) بولاق : تعالى . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : فدعاه عمرو .

^٢ نفسه ٨٠ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٧٨-٧٩ .

وقال أبو عمر الكندي: وحاصر عمرو الإسكندرية ثلاثة أشهر، ثم فتحها عنوة، وهو الفتح الأول. ويقال: بل فتحها عمرو لمستهل المحرم سنة إحدى وعشرين^١.

قال القضاة عن الليث: أقام عمرو بالإسكندرية، في حصارها وفتحها، ستة أشهر، ثم قفل^٢ إلى القسطنطين فأتخذها دارًا في ذي القعدة.

وقال ابن عبد الحكم: فلما هزم الله تبارك^ب وتعالى الروم وفتح الإسكندرية، هرب الروم في البر والبحر، فخلف عمرو بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه، ومضى ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر، فرجع من كان هرب من الروم في البحر إلى الإسكندرية، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم. وتبلغ ذلك عمرا، فكرر راجعا ففتحها وأقام بها، وكتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «إن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة^ج بغير عقد ولا عهد»؛ فكتب إليه عمر - رضي الله عنه - يقبح رأيه، ويأمره ألا يجاوزها.

قال ابن لهيعة: وهو فتح الإسكندرية الثاني، وكان سبب فتحها هذا أن رجلا يقال له ابن بشامة كان بوابا، فسأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب. فأجابته عمرو إلى ذلك، ففتح له ابن بشامة الباب، فدخل عمرو. وقتل من المسلمين، من حين كان من أمر الإسكندرية ما كان إلى أن فتحت اثنان/ وعشرون رجلا^٢.

وبعث عمرو بن العاص معاوية بن حديج، وافدا إلى عمر بن الخطاب بشيرا له بالفتح، فقال له معاوية: ألا تكتب معي؟ فقال له عمرو: وما أصنع بالكتاب، ألسنت رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت؟ فلما قديم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية، فخر عمر ساجدا، وقال: الحمد لله.

وقال معاوية بن حديج: بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب^ج - رضي الله عنه - بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة في الظهر، فأنحيت رجلي بياب المسجد، ثم دخلت المسجد، فبينما أنا قاعد فيه، إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فرأيتني شاجبا علي ثياب السفر، فأتتني وقالت: من أنت؟ فقلت: أنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن

(a) بولاق: انتقل. (b) تبارك و: ساقطة من بولاق. (c) ساقطة من بولاق.

^٢ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٨٠-٨١.

^١ الكندي: ولاية مصر ٣٣.

العاص ؛ فأنصرفت عني ، ثم أقبلت تشتد أسمع خفيف إزارها على ساقها ، حتى دنت مني ، ثم قالت : قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك ، فتبعتها . فلما دخلت ، فإذا بعمر يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ، فقال : ما عندك ؟ فقلت : خيبر يا أمير المؤمنين ، فتح الله الإسكندرية ؛ فخرج معي إلى المسجد ، فقال للمؤذن : أذن في الناس «الصلوة جامعة» . فاجتمع الناس ؛ ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك ، فقممت فأخبرتهم ؛ ثم صلى ودخل منزله ، واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس فقال : يا جارية ، هل من طعام ؟ فأنت بخبز وزيت ، فقال : كل ، فأكلت على^(a) حياء . ثم قال : كل ، فإن المسافر يحب الطعام ، فلو كنت أكلا لأكلت معك . فأصبت على حياء . ثم قال : يا جارية ، هل من تمر ؟ فأنت بتمر في طبعي ، فقال : كل ، فأكلت على حياء ؛ ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ قال : قلت : أمير المؤمنين قائل ؛ قال : بئس ما قلت (أو بئس ما ظننت) ، لمن نمت النهار لأضيغن الرعيعة ، ولن نمت الليل لأضيغن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟

ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك إلى عمر بن الخطاب : «أما بعد ، فإنني فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنني أصبت فيها أربعة آلاف مئة بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية ، وأربع مائة ملهى للملوك»^١ .

١٥ وعن أبي قبيل أن عمرا لما فتح الإسكندرية وجد فيها اثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر . وترحل من الإسكندرية ، في الليلة التي دخلها عمرو ، أو في الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو ، سبعون ألف يهودي .

وكان بالإسكندرية ، فيما أحصي من الحمامات ، اثنا عشر ألف ديماس ، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس ، كل مجلس يسع جماعة نفر . وكان عدة من بالإسكندرية من الروم مائتي ألف من الرجال^(b) ، فليحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن ؛ وكان بها مائة مراكب من المراكب الكبار ، فحبل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل . وبقي من بقي من الأسارى من بلغ الخراج ، فأحصي يومئذ ست مائة ألف سوى النساء والصبيان . فاختلف

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : رجل .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨١-٨٢ .

الناس على عمرو في قسمهم^(a)، فكان أكثر الناس يُريدون قسّمها؛ فقال عمرو: لا أقدر على قسّمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه يُعلمه بفتحها وشأنها ويُعلمه أن المسلمين طلبوا قسّمها. فكتب إليه عمر: «لا تقسّمها، وذرها يكون خراجها فينا للمسلمين، وقوة لهم على جهاد عدوّهم».

فأقرّها عمرو، وأخصى أهلها، وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين دينارين^(b) على كل رجل، لا يُزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين، إلا أنه يُلزم بقدر ما يتوسّع فيه من الأرض والزرع، إلا الإسكندرية، فإنهم كانوا يؤدّون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليّتهم، لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة^١.

وقد كانت قرى من قرى مصر قاتلت، فسبوا منها قرية يُقال لها بلهيب، وقرية يُقال لها الخيس، وقرية يُقال لها سلطيس، فوقع سباياهم بالمدينة وغيرها، فردّهم عمر بن الخطاب إلى قراهم، وصيّرهم وجماعة القبط أهل ذمة.

وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرا سبى أهل بلهيب وسلطيس وقرطاسا^(c) وسخا، فتفرّقوا وبلغ أولهم المدينة حين نقضوا. ثم كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى عمرو بردهم، فردّ من وجد منهم. وفي رواية أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتب في أهل سلطيس خاصة: «من كان منهم في أيديكم فخيروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن اختار دينه، فخلوا بينه وبين قرّيته، فكان البلهبي خير يومئذ فاختر الإسلام».

وفي رواية أن أهل سلطيس ومصيل^(d) وبلهيب ظاهروا الروم على المسلمين في جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون، استحلّوهم وقالوا: هؤلاء لنا فيء مع الإسكندرية. فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك.

(a) بولاق: قسمها. (b) ساقة من بولاق. (c) بولاق: قرطيا. (d) بولاق: صا.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٨٢-٨٣، ٨٤، وأعاد ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٨٨-٩٠. المقرئ ذكر هذا النص فيما يلي ٢٩٤:١ وقارن كذلك مع

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ «أَنْ تُجْعَلَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ وَهَوَّلَاءُ الثَّلَاثِ قَرْيَاتٍ ذِمَّةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتَضْرَبَ عَلَيْهِمُ الْخَرَاجُ ، وَيَكُونَ خَرَاجُهُمْ وَمَا صَالَحَ عَلَيْهِ الْقَيْبُ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَلَا يُجْعَلُونَ فَيْئًا وَلَا عَيْدًا» ، فَفَعَلَ ذَلِكَ . وَيُقَالُ إِنَّمَا رَدُّهُمْ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِعَهْدٍ كَانَ تَقَدَّمَ لَهُمْ^١ .

وقال ابنُ لهيعةَ : جَبَى عَمْرُو جِزْيَةَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ سِتِّ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، لِأَنَّهُ وَجَدَ ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، فَقَدَّرَ عَلَيْهِمْ دِينَارَيْنِ دِينَارَيْنِ ، فَبَلَغَتْ ذَلِكَ^٢ . وَقِيلَ كَانَتْ جِزْيَةُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ/ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفِ دِينَارٍ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بَلَغَتْ سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ أَلْفِ دِينَارٍ . وَيُقَالُ إِنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ اسْتَبَقَى أَهْلَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، فَلَمْ يَقْتُلْ وَلَمْ يَسْبِ ، بَلْ جَعَلَهُمْ ذِمَّةً كَأَهْلِ التَّوْبَةِ .

ذِكْرُ مَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَانْتِقَاضِ الرُّومِ

قال ابنُ عبدِ الحكمِ : فَأَمَّا الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا خِطَطٌ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ أَخَائِدَ ، مَنْ أَخَذَ مَنْزِلًا نَزَلَ فِيهِ هُوَ وَبَنُو أَبِيهِ . وَأَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ لَمَّا فَتَحَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ ، أَقْبَلَ هُوَ وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ حَتَّى عَلَوْا الْكُومَ الَّذِي فِيهِ مَسْجِدُ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ : نَنْزِلُ ؛ فَتَزَلَ عَمْرُو الْقَصْرَ ، وَتَزَلَ أَبُو ذَرٍّ مَنْزِلًا كَانَ غَرْبِي الْمُصَلَّى الَّذِي عِنْدَ مَسْجِدِ عَمْرُو مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ وَقَدْ انْتَهَدَمَ ، وَتَزَلَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ فَوْقَ الثَّلِّ ، وَضْرَبَ^(a) عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ بِنَاءً^(b) فَلَمْ يَزَلْ فِيهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ كَانَ مَعَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^٣ .

قال : فَلَمَّا اسْتَقَامَتْ لَهُمُ الْبِلَادُ قَطَعَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ أَصْحَابِهِ لِرِبَاطِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ رُبْعَ النَّاسِ ، وَرُبْعَ فِي السَّوَاجِلِ ، وَالنِّصْفَ مُقِيمُونَ مَعَهُ . وَكَانَ يَصِيرُ بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ خَاصَّةً الرَّبْعَ فِي الصَّيْفِ بِقَدْرِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، وَيُعْقَبُ بَعْدَهُمْ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَكَانَ لِكُلِّ غَرِيفٍ قَصْرٌ يَنْزِلُ فِيهِ مِنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَاتَّخَذُوا فِيهِ أَخَائِدَ .

(a) الأصل : صَرْفٌ ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ ابْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ . (b) بُولَاقٌ : خَبَاءٌ .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٣٠ .

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٨٣ .

^٣ فيما تقدم ٢١٢ .

وعن يزيد بن أبي حبيب أن المسلمين لما سكنوا الإسكندرية في رباطهم ، ثم قفلوا ثم غزوا
ابْتَدَرُوا ، فكان الرجل يأتي المنزل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك ، فيبتدیره فيسكنه . فلما غزوا ،
قال عمرو : إني أخاف أن تخربوا المنازل إذا كنتم تتعاورونها . فلما كان عند الكزيون قال لهم :
سيروا على بركة الله ، فمن ركز منكم رُمحَه في دارٍ فهي له ولبني أبيه^(a) .

فكان الرجل يدخل الدار فيركز رُمحَه في منزل منها ، ثم يأتي الآخر فيركز رُمحَه في بعض
بيوت الدار ، فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث وكانوا يسكنونها ، حتى إذا قفلوا سكنها الروم
وعليهم مَرَمَتُها . وكان يزيد بن أبي حبيب يقول : لا يحل من كرائها شيء ولا يتبعها ، ولا يُورث
منها شيء ، إنما كانت لهم يسكنونها في رباطهم^١ .

وعن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ، ورأى بيوتها وبنائها مفروغا
منها ، هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيئناها . فكتب إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -
يشتأذنه في ذلك ؛ فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال : نعم يا أمير
المؤمنين إذا جرى النيل .

فكتب عمر إلى عمرو : «إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء
ولا صيف^(b)» ؛ فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية^(c) إلى الفسطاط .

قال : وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمداين كشرى ، وإلى عامبه
بالبصرة ، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية : «ألا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى ما
أردت أن أركب إليكم راجلتي حتى أقدم عليكم ، قدمت» . فتحول سعد بن أبي وقاص من
مداين كشرى إلى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة ، وتحول
عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط^٢ .

وكان عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة تُرابط بالإسكندرية ؛ وكان
على الولاة : لا يُغفلها ، وتكثف رابطتها^(d) ، ولا تأمن الروم عليها .

(a) بولاق : بنيه . (b) بولاق : شتاء ولا صيفاً . (c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : مرابطها .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٣٠-١٣١ . يلي ١ : ٢٩٦ .

^٢ نفسه ٤٩١ ابن سعيد : المغرب ٣٩-٤٠ ؛ وفيما

وَكَتَبَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ : « قَدْ عَلِمْتُ كَيْفَ كَانَ هُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَقَدْ نَقَضَتِ الرُّومُ مَرَّتَيْنِ فَأَلْزَمَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ رَابِطَتَهَا^(a) ، ثُمَّ أُجْرَ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَأَعْقِبَ بَيْنَهُمْ فِي كُلِّ سِتَّةِ أَشْهُرٍ .

قَالَ : وَقَدْ^(b) كَانَتِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةُ انْتَقَضَتْ ، وَجَاءَتِ الرُّومُ ، عَلَيْهِمْ مَثْوِيلُ الْخَصِيصِيِّ فِي الْمَرَاكِبِ حَتَّى أَرْسَوْا بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، فَأَجَابَهُمْ مِنْ بَهَا مِنَ الرُّومِ وَلَمْ يَكُنْ الْمُقَوْقِسُ تَحْرُكًا وَلَا نَكْثًا . وَقَدْ كَانَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَزَلَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ ، وَوَلَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ . فَلَمَّا نَزَلَتْ الرُّومُ سَأَلَ أَهْلُ مِصْرَ عُثْمَانَ أَنْ يُقِرَّ عَمْرًا حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ قِتَالِ الرُّومِ ، فَإِنَّ لَهُ مَعْرِفَةً بِالْحَرْبِ وَهَيْبَةً^(c) ، فَفَعَلَ^١ .

وَكَانَ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ سُورُهَا ، فَخَلَفَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ ، لَعِنَ أَظْفَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، لِيَهْدِمَنَّ سُورَهَا حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ بَيْتِ الزَّانِيَةِ يُؤْتِي مِنْ كُلِّ مَكَانٍ . فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَمْرُو فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَضَمُّوا إِلَى الْمُقَوْقِسِ مِنْ أَطَاعِهِ مِنَ الْقِبْطِ ، وَأَمَّا الرُّومُ فَلَمْ يُطْعَمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

فَقَالَ خَارِجَةُ بْنُ خُذَافَةَ لِعَمْرُو^(d) : نَاهِيضُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَكْثُرَ مَدَدُهُمْ ، فَلَا آمَنَ أَنْ تَنْتَقِضَ مِصْرُ كُلِّهَا ؛ فَقَالَ عَمْرُو : لَا ، وَلَكِنْ أَدْعُهُمْ حَتَّى يَسِيرُوا إِلَيَّ ، فَإِنَّهُمْ يُصِيبُونَ مِنْ مَرَوْا بِهِ فَيُخْزِي اللَّهُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ . فَخَرَجُوا مِنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَمَعَهُمْ مَنْ نَقَضَ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، فَجَعَلُوا يَنْزِلُونَ الْقَرْيَةَ فَيَشْرَبُونَ خُمُورَهَا ، وَيَأْكُلُونَ أَطْعَمَتَهَا ، وَيَنْتَهَبُونَ مَا مَرَّوْا بِهِ .

فَلَمْ يَتَعَرَّضْ^(e) لَهُمْ عَمْرُو حَتَّى بَلَغُوا نَقْيُوسَ^(f) ^٢ ، فَلَقَوْهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَبَدَأَتِ الرُّومُ الْقِبْطَ ، فَرَمَوْا بِالنُّشَابِ فِي الْمَاءِ رَمِيًا شَدِيدًا ، حَتَّى أَصَابَتِ النُّشَابُ يَوْمئِذٍ^(g) فَرَسَ عَمْرُو فِي لُبَّتِهِ وَهُوَ فِي الْبَحْرِ^(h) فَفَقِرَ ، فَتَزَلَّ عَنْهُ عَمْرُو . ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ الْبَحْرِ ، فَاجْتَمَعُوا هُمْ وَالَّذِينَ فِي الْبَرِّ ، فَتَفَحَّحُوا^(h) الْمُسْلِمِينَ بِالنُّشَابِ ، فَاسْتَأْخَرِ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ / شَيْئًا ، وَحَمَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَمَلَةً وَلَّى

(a) بولاق : مرابطتها . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : وهية في العدو . (d) ساقطة من الأصل . (e) الأصل : يعرض . (f) بولاق : نقيوس . (g) بولاق : البر . (h) بولاق : فنفضوا .

^١ الكندي : ولاية مصر ٣٥ .
^٢ نقيوس مدينة قديمة ظن بعض الدارسين أنها البلدة التي تعرف اليوم باسم إيشادي إحدى قرى مركز تلا بمحافظة المنوفية ، ولكن محمد رمزي رجح أنها مدينة أخرى غير إيشادي وأنها قد زالت ومحلها الآن الكوم الأثري الكائن بالجهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركز منوف ، والتي يطلق عليها الأهالي اسم كوم مانوس أو دقيانوس المحرفين عن نقيوس (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٤٦٣-٤٦٤) .

المسلمون منها، وانهزم شريك بن شمي في خيله. وكانت الروم قد جعلت صفوفًا خلف صفوف.

وبرز يومئذ بطريق - ممن جاء من أرض الروم - على فرس له، عليه سلاح مذهب، فدعا إلى البراز. فبرز إليه رجل من زبيد - يقال له حومل، يكنى أبا مذحج - فاقتلا طويلًا برُمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرُمح وأخذ السيف، فألقى حومل رُمحه وأخذ سيفه، وكان يُعرف بالنجدة، فجعل عمرو يصيح: أبا مذحج، فيجيبه: لبيك، والناس على شاطئ النيل في البر على تبعثهم وصفوفهم، فتجاولا ساعة بالسيف، ثم حمل عليه البطريق، فاختمله وكان نحيفًا، فاخترط حومل خنجرًا كان في منطقتة أو في ذراعه، فضرب به نحر العليج أوتر قوته فأبته، ووقع عليه فأخذ سلبه. ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رجمة الله، فرثي عمرو يحمل سريره بين عمودي نعشه حتى دفنه بالمقطم.

ثم شد المسلمون عليهم، فكانت هزيمتهم. فطلبهم المسلمون حتى أحقوهم بالإسكندرية، ففتح الله عليهم، وقتل منويل الخصي^١.

وقتلهم عمرو حتى أمعن في مدينتهم، فكلّم في ذلك، فأمر برفع السيف عنهم، وبني في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجدًا، وهو المسجد الذي بالإسكندرية الذي يقال له مسجد الرحمة، سمي بذلك لرفع عمرو السيف هناك، وهدم سورها كله.

وجمع ما أصاب منهم فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض، فقالوا: قد كنا على صلحنا، وقد مر علينا هؤلاء اللصوص، فأخذوا متاعنا ودوابنا، وهو قائم في يدك، فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البيعة. وقال بعضهم لعمرو: ما حل لك ما صنعت بنا، كان لنا أن نقاتل عنّا لأننا في ذمتك ولم ننقض، فأما من نقض فأبعده الله؛ فنديم عمرو وقال: يا ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية^٢.

وكان سبب نقض الإسكندرية هذا، أن طلما صاحب إشنا قدم على عمرو فقال: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنضير لها؛ فقال عمرو، وهو يشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتني من الركن إلى السقف ما أخبرتك، إنما أنتم خزانة لنا: إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم^٣.

^٢ نفسه ١٥٤، ١٧٦؛ وفيما تقدم ٢٠٦.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٧٥-١٧٦.

^٢ نفسه ١٧٦.

فَغَضِبَ صَاحِبُ إِخْنَا ، وَخَرَجَ إِلَى الرُّومِ فَقَدِمَ بِهِمْ ، فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى . وَأُسِرَ فَأُتِيَ بِهِ إِلَى عَمْرُو ، فَقَالَ لَهُ النَّاسُ : اقْتُلْهُ ؛ فَقَالَ : لَا ، بَلْ أَنْطَلِقْ فِجْنَنَا بِجَيْشٍ آخَرَ ، وَسُورَهُ وَتَوَجَّهَ ، وَكَسَاهُ بُرُوسَ أَرْجُوَانَ ، فَرَضِي بِأَدَاءِ الْحَزِيَّةِ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ أَتَيْتَ مَلِكَ الرُّومِ ؟ فَقَالَ : لَوْ أَتَيْتُهُ لَقَتَلَنِي ، وَقَالَ قَتَلْتُ أَصْحَابِي ١ .

٥ وعن أبي قبيل أن عُثْبَةَ بنَ أَبِي سُفْيَانَ عَقَدَ لَعَلْمَةَ بنَ يَزِيدَ^(a) العَطِيفِي^(b) على الإسكندرية ، وَبَعَثَ مَعَهُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا ، فَكَتَبَ عَلْمَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ يَشْكُو عُثْبَةَ حِينَ غَرَّرَ بِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ : «إِنِّي قَدْ أَمَدَدْتُكَ بِعَشْرَةِ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَبِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» ، فَكَانَ فِي الإسكندرية سبعةً وَعَشْرُونَ أَلْفًا .

١٠ وفي رواية : أن علقمة بن يزيد كان على الإسكندرية ومعه اثنا عشر ألفًا ، فكتب إلى معاوية : «إِنَّكَ خَلَفْتَنِي بِالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ وَليْسَ مَعِيَ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا ، مَا يَكَادُ بَعْضُنَا يَرَى بَعْضًا مِنَ الْقِلَّةِ» . فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ : «إِنِّي قَدْ أَمَدَدْتُكَ بِعَبْدِ اللَّهِ بنِ مُطِيعٍ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرْتُ مَعْنَ بنَ يَزِيدِ السُّلَمِيَّ أَنْ يَكُونَ بِالرَّمْلَةِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مُسْكِينَ بِأَعِنَّةِ خَيْولِهِمْ ، مَتَى بَلَغَهُمْ عَنْكَ فَرْعٌ يَغْبُرُوا إِلَيْكَ» ٢ . قَالَ ابْنُ لَهْيَعَةَ : وَقَدْ كَانَ عَمْرُو بنُ الْعَاصِ يَقُولُ : «وِلَايَةُ مِصْرَ جَامِعَةٌ تَعْدِلُ الْخِلَافَةَ» ٣ .

١٥ وكان عمرو ، حين توجه إلى الإسكندرية ، خرب القريّة التي تُعرف اليوم بحربة وزدان . وَاخْتَلَفَ عَلَيْنَا السَّبَبُ الَّذِي خُرِبَتْ لَهُ ، فَحَدَّثَنَا سَعِيدُ بنُ عَفِيرٍ أَنَّ عَمْرًا لَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى نَقِيُوسَ لِقِتَالِ الرُّومِ ، عَدَلَ وَزَدَانَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ عِنْدَ الصُّبْحِ ، فَاخْتَطَفَهُ أَهْلُ الْخَرِبَةِ فَغَيَّبُوهُ فَقَدَهُ عَمْرُو وَسَأَلَ عَنْهُ وَقَفَا أَثَرَهُ ، فَوَجَدُوهُ فِي بَعْضِ دُورِهِمْ ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهَا وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا . وَقِيلَ كَانَ أَهْلُ الْخَرِبَةِ زُهَبَانًا كُلَّهُمْ ، فَغَدَرُوا بِقَوْمٍ مِنْ سَاقَةِ عَمْرُو ، فَقَتَلُوهُمْ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ عَمْرُو الْكِرْزِيُونَ ، فَأَقَامَ عَمْرُو ، وَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ وَزَدَانَ فَقَتَلَهُمْ وَخَرَّبَهَا ، فَهِيَ خَرَابٌ إِلَى الْيَوْمِ .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : القطيفي .

٣ نفسه ٤١٩٢ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٤٨ ، أبو

١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٦-٧٧ .

المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٢-٣٣ وفيما تقدم ٧١ .

٢ نفسه ١٩٢ .

وقيل كان أهل الخربة أهل تَوُوب^(a) وُحُبْث ، فَأَرْسَلَ عَمْرُو إِلَى أَرْضِهِمْ فَأَخَذَ لَهُ مِنْهَا جِرَابٌ فِيهِ تُرَابٌ مِنْ تَرَابِهَا ، ثُمَّ دَعَاهُمْ^(b) فَكَلَّمَهُمْ فَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى شَيْءٍ ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِمْ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالتُّرَابِ فَفُرِشَ تَحْتَ مُصَلَّاهُ ، ثُمَّ قَعَدَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ فَكَلَّمَهُمْ ، فَأَجَابُوهُ إِلَى مَا أَحَبَّ . ثُمَّ أَمَرَ بِالتُّرَابِ فَفُرِغَ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ فَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَى شَيْءٍ ، فَعَلَّ ذَلِكَ مِرَارًا . فَلَمَّا رَأَى عَمْرُو ذَلِكَ قَالَ : هَذِهِ بَلَدَةٌ لَا يَصْلُحُ^(b) أَنْ تُوْطَأَ ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهَا⁽¹⁾ . فَلَمَّا هَزَمَ اللَّهُ الرُّومَ أَرَادَ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ يَكُونَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى الْحَزْبِ ، وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ عَلِيٍّ الْخَزَّاجِ ، فَقَالَ عَمْرُو : أَنَا إِذَنْ كَمَا يَكُونُ الْبَقْرَةُ بِقَرْنَيْهَا وَآخِرُ يَخْلِبُهَا ، فَأَتَى عَمْرُو⁽²⁾ .

وكان فتح عمرو هذا عنوة قسراً في خلافة عثمان سنة خمس وعشرين ، وبينه وبين الفتح الأول أربع سنين . وقال الليث : كان فتح الإسكندرية الأول سنة اثنتين وعشرين ، وكان فتحها الآخر سنة خمس وعشرين⁽³⁾ . وأقامت الخيـس من البيـما^(c) يُقاتلون سبع سنين ، بعد أن فُتحت مصر ، مِمَّا يَفْتَحُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ تِلْكَ الْمِيَاهِ وَالغِيَاضِ⁽⁴⁾ .

قال : ثم غزا / عبد الله بن سعد بن أبي سرح ذا الصواري⁽⁵⁾ في سنة أربع وثلاثين . وكان من حديث هذه الغزوة أن عبد الله بن سعد ، لما نزل ذا الصواري ، أنزل نصف الناس مع بشر بن أبي^(b) أزطاة في البر ، فلما مضوا أتى آت إلى عبد الله بن سعد فقال : ما كنت فاعلاً حين ينزل بك ابن هرقل في ألف مراكب ، فافعله الساعة ؛ وكانت مراكب المسلمين مائتي مراكب ونيفا .

(a) بولاق : تويت . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : الجيش من السماء .

¹ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٧ .
² نفسه ١٧٨ .
³ نفسه ١٧٨ .
⁴ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٨ .
⁵ لا تعرف على التدقيق المكان الذي تمت فيه هذه الواقعة التي تعد حداثاً فاصلاً في ميزان القوة بين المسلمين والبيزنطيين في البحر المتوسط ، وانظر لمعلومات أكثر حول هذه المعركة البحرية الهامة ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٨٨:٤ - ٢٨٨:٤٤ - ٤٥٢ أحمد مختار العبادي ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ ، Bosworth, C.E., *El*² art. *Dhāt al-* ٢٨:١ - ٣١:١ ، *Sawāri*, Suppl. pp. 221-22 وانظر فيما يلي ١٩٠:٢ .

¹ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٧ .
² نفسه ١٧٨ .
³ نفسه ١٧٨ .
⁴ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٨ .
⁵ لا تعرف على التدقيق المكان الذي تمت فيه هذه الواقعة التي تعد حداثاً فاصلاً في ميزان القوة بين المسلمين والبيزنطيين في البحر المتوسط ، وانظر لمعلومات أكثر حول هذه المعركة البحرية الهامة ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٨٨:٤ - ٢٨٨:٤٤ - ٤٥٢ أحمد مختار العبادي ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ ، Bosworth, C.E., *El*² art. *Dhāt al-* ٢٨:١ - ٣١:١ ، *Sawāri*, Suppl. pp. 221-22 وانظر فيما يلي ١٩٠:٢ .

فَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بَيْنَ ظَهْرَانِي النَّاسِ فَقَالَ : ^(a) بَلَّغْنِي أَنَّ ابْنَ هِرَقْلٍ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكُمْ فِي أَلْفِ مَرْكَبٍ ، فَأَشِيرُوا عَلَيَّ ، فَمَا كَلَّمَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^١ ؛ فَجَلَسَ قَلِيلًا لَتَرْجِعَ إِلَيْهِمْ أَفِيدَتُهُمْ ، ثُمَّ قَامَ الثَّانِيَةَ فَكَلَّمَهُمْ ، فَمَا كَلَّمَهُ أَحَدٌ ؛ فَجَلَسَ ، ثُمَّ قَامَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ فَأَشِيرُوا عَلَيَّ .

٥ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ - كَانَ مُتَطَوِّعًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ - فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يَقُولُ : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الآية ٢٤٩ سورة البقرة] .

١٠ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : ازْكَبُوا [بِسْمِ اللَّهِ] ^(b) ، فَزَكَبُوا ، وَأَمَّا فِي كُلِّ مَرْكَبٍ نِصْفُ شِخْتَتِهِ ، لِأَنَّهُ قَدْ خَرَجَ النِّصْفُ الْآخَرَ إِلَى الْبَرِّ مَعَ بُشْرٍ ، فَلَقَوْهُمْ فَأَقْتَتَلُوا بِالنَّبْلِ وَالشُّبَابِ . وَتَأَخَّرَ ابْنُ هِرَقْلٍ لِنِصْفِ تَصْيِيهِ الْهَزِيمَةِ ، وَجَعَلَتْ الْقَوَارِبُ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ بِالْأَخْبَارِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلُوا ؟ قَالُوا : قَدْ أَقْتَتَلُوا بِالنَّبْلِ وَالشُّبَابِ ؛ فَقَالَ : غَلَبَتْ الرُّومُ . ثُمَّ أَتَوْهُ ، فَقَالَ : مَا فَعَلُوا ؛ قَالُوا : قَدْ نَفَدَ النَّبْلُ وَالشُّبَابُ ، فَهُمْ يَزْتَمُونَ بِالْحِجَارَةِ ؛ فَقَالَ : غَلَبَتْ الرُّومُ ؛ ثُمَّ أَتَوْهُ ، فَقَالَ : مَا فَعَلُوا ؟ قَالُوا : قَدْ نَفَدَتِ الْحِجَارَةُ ، وَرَبَطُوا الْمَرَائِبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ يَقْتَتِلُونَ بِالسُّيُوفِ ؛ قَالَ : غَلَبَتْ الرُّومُ .

١٥ وَكَانَتْ الشُّفْنُ إِذْ ذَاكَ تُقَرَّنُ بِالسَّلَاسِلِ عِنْدَ الْقِتَالِ . قَالَ : فَقَرِنَ مَرْكَبُ عَبْدِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ - وَهُوَ الْأَمِيرُ - بِمَرْكَبٍ مِنْ مَرَائِبِ الْعَدُوِّ ، فَكَانَ مَرْكَبُ الْعَدُوِّ يَجْتَرُّ مَرْكَبَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، فَقَامَ عَلَقَمَةُ بْنُ يَزِيدٍ الْعَطِيفِيُّ ^(c) ، وَكَانَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ فِي الْمَرْكَبِ ، فَضَرَبَ السُّلَيْسَةَ بِسَيْفِهِ فَقَطَعَهَا . فَسَأَلَ عَبْدُ اللَّهِ أُمَّرَأَتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بُسَيْسَةَ ابْنَةَ حَمْرَةَ بْنِ لَيْشْرَحٍ ^٢ - وَكَانَتْ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ ، وَكَانَ النَّاسُ يَعْزُونَ بِنِسَائِهِمْ فِي الْمَرَائِبِ - مِنْ رَأْيَتِ أَشَدُّ قِتَالًا ؟ قَالَتْ : عَلَقَمَةُ صَاحِبُ السُّلَيْسَةِ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ قَدْ خَطَبَ بُسَيْسَةَ إِلَى أَبِيهَا فَقَالَ لَهُ : إِنَّ عَلَقَمَةَ قَدْ خَطَبَهَا ، وَلَهُ عَلَيَّ فِيهَا رَأْيٌ ،

(a) ساقطة من بولاق . (b) زيادة من ابن عبد الحكم . (c) بولاق : القطيفي .

^١ خلط المقرئ بين روايتين لابن عبد الحكم الرواية الرئيسة لليث بن سعد ، وفيها أن ملك الروم هو هرقل ، ورواية أخرى لم يحدد صاحبها تذكر أن ملك الروم وإنما هو ابن هرقل ، لأن هرقل مات في سنة تسع عشرة والمسلمون محاصرون الإسكندرية . وقد رجح المقرئ الرواية الثانية واعتمد أن ملك الروم هو ابن هرقل .

^٢ ليشرح . اسم مختصر من الاسم الحميري «الليشرح» وهو اسم معروف في النقوش السبئية والمعينية القديمة . (Torrey, *Fūtūh* 57) .

فإن تَرَكَهَا أَفْعَل . فَكَلَّمَ عَبْدَ اللَّهِ عُلْقَمَةَ فَتَرَكَهَا ، فَتَرَوَّجَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ ، ثُمَّ هَلَكَ عَنْهَا عَبْدُ اللَّهِ فَتَرَوَّجَهَا بَعْدَهُ عُلْقَمَةُ بْنُ يَزِيدٍ ، ثُمَّ هَلَكَ عَنْهَا عُلْقَمَةُ فَتَرَوَّجَهَا بَعْدَهُ كُرَيْبُ بْنُ أَبِرْهَةَ وَمَاتَتْ تَحْتَهُ ١ .

وقيل مَشَتْ الرُّومُ إِلَى قُسْطَنْطِينِ بْنِ هِرَقْلٍ ، فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ ، فَقَالُوا : أَنْتَرِكَ الإِسْكَندَرِيَّةَ فِي أَيْدِي الْعَرَبِ وَهِيَ مَدِينَتُنَا الْكُبْرَى ؟ فَقَالَ : مَا أَصْنَعُ بِكُمْ ؟ مَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَمَالِكُوا سَاعَةً إِذَا لَقَيْتُمُ الْعَرَبَ ؟ قَالُوا : أَخْرَجَ عَلَيَّ أَنَا نَمُوتُ ، فَتَبَايَعُوا عَلَيَّ ذَلِكَ . فَخَرَجَ فِي أَلْفِ مَرْكَبٍ يُرِيدُ الإِسْكَندَرِيَّةَ ، فَسَارَ فِي أَيَّامٍ غَالِيَةٍ مِنَ الرِّيحِ ^(a) ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا فَغَرَّقَتْهُمْ ، إِلَّا قُسْطَنْطِينِ فَإِنَّهُ نَجَّى بِمَرْكَبِهِ ، فَأَلْقَتْهُ الرِّيحُ بِصِقْلِيَّةٍ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْرِهِ ، فَأَخْبَرَهُمْ ؛ فَقَالُوا : سَعَيْتَ ^(b) النَّصْرَانِيَّةَ ، وَأَفْنَيْتَ رِجَالَهَا ، لَوْ دَخَلْتَ الْعَرَبُ عَلَيْنَا لَمْ نَجِدْ مِنْ يَزِيدِهِمْ ؛ فَقَالَ : نَحْرَجْنَا مُقْتَدِرِينَ فَأَصَابَتْنَا هَذَا . فَصَنَعُوا لَهُ الْحَمَامَ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ : وَيْلَكُمْ ، يَذْهَبُ رِجَالُكُمْ ، وَتَقْتُلُونَ مَلَائِكَتَكُمْ ؟ قَالُوا : كَأَنَّهُ غَرِقَ مَعَهُمْ . ثُمَّ قَتَلُوهُ وَخَلَّوْا مِنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَرْكَبِ ٢ .

قال أبو عُمر الكِنْدِيُّ : وَأَمَّا سُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذِي الصُّوَارِيِّ لِكَثْرَةِ صَوَارِيِّ الْمَرَائِبِ وَاجْتِمَاعِهَا ٣ .

ذِكْرُ بُحَيْرَةِ الإِسْكَندَرِيَّةِ

قال ابنُ عبدِ الحكيمِ : كَانَتْ بُحَيْرَةُ الإِسْكَندَرِيَّةِ كُرُومًا كُلُّهَا لِامْرَأَةِ الْمُقَوْسِ ، فَكَانَتْ تَأْخُذُ خَرَايِجَهَا مِنْهُمْ الْخَمْرَ بِقَرِيضَةٍ عَلَيْهِمْ ، فَكَثُرَ الْخَمْرُ عَلَيْهَا حَتَّى ضَاقَتْ بِهِ دَرْعًا ، فَقَالَتْ : لَا حَاجَةَ لِي فِي الْخَمْرِ ، أُعْطُونِي دَنَانِيرَ ؛ فَقَالُوا : لَيْسَ عِنْدَنَا ؛ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمُ الْمَاءَ فَغَرَّقَتْهَا ، فَصَارَتْ بُحَيْرَةً يُصَادُ فِيهَا الْحَيْتَانُ ، حَتَّى اسْتَخْرَجَهَا الْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ، فَسَدُّوا جُسُورَهَا وَزَرَعُوهَا ٤ .

(a) بولاق : غالبة الرياح . (b) بولاق : شنت .

^١ ابن عبد الحكيم : فتوح مصر ١٨٩ - ١٩١ .
^٢ نفسه ١٩١ .
^٣ الكندي : ولاية مصر ٣٦-٣٧ وأيضًا المسعودي :
التبیه والإشراف ١٥٨ ؛ ويبدو أن الصواب غير ذلك من
خلال ما ذكره الطبري يقول : «فركب في مركب وحده وما
معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري ، فلقوا جموع الروم
في خمس مائة مركب أو ست مائة» (تاريخ ٤ : ٢٩١) ، وفي
موضع آخر : «وأقام عبد الله بذات الصواري أيامًا بعد هزيمة
القوم» (تاريخ ٤ : ٢٩٢) ، مما يدل على أنها اسم موضع كان
مصدرًا لأخشاب تصنع منها الصواري ؛
^٤ ابن عبد الحكيم : فتوح مصر ٧ .

١٥

ثم صارت بُحَيْرَة طولها إِقْلَاعٌ يَوْمٌ في عَرَضِ يَوْمٍ ، وَيَصِيرُ إليها المَاءُ من أَشْتَوْمٍ في البَحْرِ الرُّومِي ، وَيَخْرُجُ منها إلى بُحَيْرَة دونها في خَلِيجٍ عليه مَدِينَتَانِ : إِحْدَاهُمَا الحَدَبَة ، وَالْأُخْرَى إِتْكَو ، وَهِيَ كَثِيرَة المِقَاتِي وَالتُّخْل ، وَكُلُّهَا في الرَّمْل .

وَيَضُبُّ في هَذِهِ البُحَيْرَة خَلِيجٌ من النِّيل - يُسَمَّى الحَافِر - طوله نصف يوم إِقْلَاعًا ، وَهُوَ كَثِيرُ الطَّيْرِ وَالتَّمَكِ وَالعُشْبِ .

وَكَانَ السَّمَكُ ، بِوُجُودِ هَذِهِ البُحَيْرَة في الإسْكَندَرِيَّةِ ، غَايَة في الكَثْرَة ، يُبَاعُ بِأَقْلُ القِيمِ وَأَبْخَسِ الأَثْمَانِ . ثم انْقَطَعَ المَاءُ عن هَذِهِ البُحَيْرَة منذ ...^(a) .^١

ذِكْرُ خَلِيجِ الإسْكَندَرِيَّةِ^٢

يُقَالُ إِنَّ كِلُوباطِرَة المَلِكَة هِيَ الَّتِي سَاقَتْ خَلِيجَ الإسْكَندَرِيَّةِ حَتَّى أَذْخَلْتَهُ إِلَيْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ يَبْلُغُهَا المَاءُ ، فَحَفَرْتَهُ حَتَّى أَذْخَلْتَهُ الإسْكَندَرِيَّةَ ، وَبَلَّطَتْ قَاعَهُ بِالرُّخَامِ من أَوَّلِهِ إلى آخِرِهِ ، وَلَمْ يَزَلْ يُوْجَدُ ذَلِكَ فِيهِ .^٣

وَقَالَ أَبُو الحَسَنِ المَخْزُومِي فِي كِتَابِ «المِنْهَاجِ» : أَمَّا خَلِيجُ الإسْكَندَرِيَّةِ فَإِنَّهُ من فُؤْهَة الخَلِيجِ إلى تَرْعَة بُودْرَة لَيْسَ عَلى شَيْءٍ مِنْهَا سَدٌّ . بِوَمَنْجُوجِ^(b) ، مَحَلَّةٌ / بَثُوكِ ، أَسْمِيَّةٌ أَوْرِينِ ، مَحَلَّةٌ فُزْنُو ، مَحَلَّةٌ حَسَنِ ، مُمِيَّةٌ طُرَادِ - وَتَعْرِفُ بِالقَاعَة - مَحَلَّتَا نَصْرٍ وَمَشْرُوقِ .

فَأَمَّا تَرْعَة نَقَانَة^(c) فَإِنَّهَا تُفْتَحُ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَامٍ من ثُوتِ ، وَالتَّرْعَة الجَدِيدَة تَفْتَحُ فِي السَّادِسِ عَشَرَ من ثُوتِ ؛ وَتَرْعَة بُودْرَة ، تُفْتَحُ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَامٍ من ثُوتِ ؛ وَتَرْعَة بُوَيْحِي ، وَتَرْعَة بُوَالسُّحْمَاءِ ، وَتَرْعَة القَهْوَقِيَّةِ ، لَيْسَ عَلى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ سَدٌّ ؛ وَتَرْعَة الشَّرَاكِ تُفْتَحُ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَامٍ من ثُوتِ ؛ وَتَرْعَة بُوخْرَاشَة ، وَتَرْعَة البَرْبِيطِ ، يَشْرَبُ مِنْهَا دَسِيو^(d) وَسَمَخْرَاطِ وَسِرْنَبُويَة^(e) وَمُمِيَّةٌ حَمَادِ

(a) بياض في النسخ . (b) بولاق : بومنحرج . (c) بولاق : لقانة . (d) بولاق : ديسو . (e) بولاق : شيرنوبية .

^١ سبق وذكر المقرئ في ما تقدم ٢٩٠ أن بحيرة الإسكندرية قد جفت في وقته .

^٢ انظر ابن تيماتي : قوانين الدواوين ٢٢١-٢٢٢ ، ٢٩٢-٢٩٥ .

^٣ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٦-٧ ، وفيما تقدم القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٣٠٠ ودراسة عمر طوسون : تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة الحمودية ، الإسكندرية ١٨٩ .

وسنمادة وبعض مَحَلِّه مَارِيَّة . وترعة فيشة بَلَحَا تُفْتَح في ثاني عشر ثوت ، وجرت العادَّة أن تُفْتَح في الثُّوروز ؛ وَتُرْعَة يَبُوط^(a) ، ومقطع سَمْدِيَسَة يُفْتَح في الثاني والعشرين من ثوت ؛ وَمَقْطَع يَاطِس يُفْتَح في تاسع عشر ثوت .

ولمَّا سُدَّ المَقْطَع المذكور ، عُيِّلَت بعد ذلك تُرْعَة تَزْوِي الصَّفْقَة القِبْلِيَّة منها ، فَتُفْتَح في يَوْم الثُّوروز .

ولمَّا اسْتَجَدَّت^(b) تُرْعَة إِفْلَاقَة ، وَخَرَجَت في أرض يَاطِس ، جَرَّت العادَّة إِذَا رُوِيَت الصَّفْقَة القِبْلِيَّة من إِفْلَاقَة ، تُطَلَق التُّرْعَة المذكورة على القِسم البَحْرِي من يَاطِس إِلى أَن يُزْوَى .

وَتُرْعَة القَارْوَرَة مُخَدَّثَة . وترعة نَقْرَهَا^(c) تُفْتَح في ثاني عشر ثوت . وَتُرْعَة إِفْلَاقَة تُفْتَح في عَاشِر ثوت . وَتُرْعَة إِسْكَنِيْدَة تُفْتَح في سَاسِث ثوت .

تَرَاع بَحْر دَمَنْهُور تُفْتَح في العشرين من مِشْرَى إِلى سَاسِث ثوت ، وَيُزْوَى منها بعض طَامُوس ، وبعض كَنِيْسَة الغِيْط ، وبعض قَرَطْسَا وَدَمَنْهُور .

تُرْعَة القَوَادِيْس ، منها تَشْرَب شَبْرَا النُّخْلَة وَكُوم التَّلْتُون^(d) . تُرَاع شَبْرَا النُّخْلَة تَفْتَح على أَعَالِيهَا من أَوَّل ثوت . وترعة بَشْطَرَى تُفْتَح في خَامِيس عَشْر مِشْرَى . وترعة مَسِيْد^(e) تُفْتَح في ثَامِن ثوت . وَتُرْعَة بَسَنْتَوِيَة تُفْتَح في ثَامِن عَشْر ثوت .

وبَحْر دَمَشَوِيَة يُفْتَح في العشرين من مِشْرَى ، وَمِنْهُ تَشْرَب مُنِيَّة زَرْقُون^(f) ، وَسَقَط كِرْدَاسَة ، وَدَمَشَوِيَة ، وَمَحَلَّة الشَّيْخ وَمَصِيْل . وَتُرْعَة دَمَشَوِيَة تُفْتَح في تَاسِع ثوت ، وَيُقِيم المَاء عليها سَبْعَة عَشْر يَوْمًا ، وَتُفْتَح إِلى مَحَلَّة الشَّيْخ ، وَمَصِيْل يُقِيم المَاء عليها ثَلَاثِيْنَ يَوْمًا ، وَيُسَدُّ بعد ذلك على دَمَشَوِيَة سَبْعَة أَيَام .

وعلى سَقَط وَمُنِيَّة زَرْقُون^(f) تُرْعَة بَرْسِيْق ، كَانَتْ تُفْتَح في أَوَّل ثوت .

مَحَلَّة بَرْسِيْق لَيْس عليها سَدٌّ .

مَحَلَّة الكُرُوم تُفْتَح في ثَامِن ثوت ، وَمِنْهَا تَشْرَب عِدَّة أَمَاكِن ، وَفِي مَحَلَّة الكُرُوم وَكُفُورَهَا ، وَهِيَ دَبِيْسِيَّة وَكُوم الوَلَايِد وَكُوم الصُّخْرَة وَدِيرَامِس وَالصَّفَاصِيف ، وَمَا يَخْرُج عَنْ كُفُورَهَا وَهِيَ تَلْمَسَا وَالجَلْمُون من حُقُوق مَحَلَّة كَيْل ، وَمِنْهَا تَشْرَب الجِهَة الغَرِيْبَة .

(a) بولاق : بويط . (b) بولاق : استحدثت . (c) بولاق : بغوها . (d) بولاق : التلول . (e) بولاق : قبيل . (f) بولاق :

شَبْرَابار ليس عليها سَدٌّ ، ^(a) والشَّرَاعِي ليس عليها سَدٌّ ^(a) . وَتُرْعَةٌ قَافِلَةٌ كَانَتْ تُفْتَحُ فِي ثَامِنِ ثُوتٍ ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا الْآنَ سَدٌّ . وَتُرْعَةٌ بَلْقَطَرٌ وَكُفُورٌ هَا ، كَانَتْ تُفْتَحُ فِي تَاسِعِ ثُوتٍ ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا الْآنَ سَدٌّ . وَتُرْعَةُ الرَّاهِبِ لَيْسَ عَلَيْهَا سَدٌّ . وَتُرْعَةُ دِسُونِسِ الْمُقَارِيضِيِّ تَشْقِي الْحَلْفَايَةَ ، وَتُفْتَحُ فِي ثَامِنِ ثُوتٍ . وَكَذَلِكَ تُرْعَةُ مَرْجَنًا وَالْمَلْعَقِيَّةُ ، وَتُرْعَةُ بَيْثَلَامَةَ وَبَيْشَاي ^(b) ، وَآخِرُ تَرَاعِ الْحَجِيجِيَّةِ ، وَتُرْعَةُ الْكِرْزِيُونِ تُفْتَحُ فِي ثَامِنِ ثُوتٍ . وَتُرْعَةُ الْبَسْلَقُونِ كَانَتْ تُفْتَحُ فِي تَاسِعِ ^(c) ثُوتٍ ، وَلَيْسَ عَلَيْهَا الْآنَ سَدٌّ . وَتُرْعَةُ أَرْمِيَاخَ تُفْتَحُ فِي ثَانِيِ عَشْرِ ثُوتٍ . وَتُرْعَةُ أَبْلُوقِ تُفْتَحُ فِي سَادِسِ ثُوتٍ .

وَأَمَّا حَوْفُ رَمْسِيْسِ فَإِنَّ بَحْرَ رَمْسِيْسِ كَانَ يَضْرِبُ السَّدَّ فِيهِ عَلَى ثَرَاعِ رَمْسِيْسِ مِنْ أَوَّلِ النَّيْلِ إِلَى سَابِعِ عَشْرِ ثُوتٍ . وَالَّذِي يَشْرَبُ عَلَى ^(d) السَّدِّ الْمَذْكُورِ مِنَ التَّوَاخِي وَالْكَفُورِ ، رَمْسِيْسِ وَمَحَلَّةِ جَعْفَرٍ وَقَلِيْشَانَ وَبَعْضِ أَسْبِيَةِ التَّقِيْدِيِّ وَبَعْضِ خِرْبَتَا وَبَعْضِ الْبَلَكُوسِ وَبَعْضِ بُولَيْنِ وَبَعْضِ مَحَلَّةِ وَاقِدِ وَالْبَيْضَاءِ وَبَعْضِ طُمْلَاسِ ^(e) .

١٠ ثم يفتح على ^(f) سد دَكْدُوكة ، وهو مُحَدَّثٌ يُقِيمُ الْمَاءَ عَلَيْهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَتَشْرَبُ مِنْهُ دَكْدُوكة وَمَحَلَّةٌ مَعْنٌ وَمُنْيَةُ أَيَّانِي وَبَعْضُ صَيْفِيَّةِ .

ثم يقطع على ^(f) سد القطامي ، وهو مُحَدَّثٌ ، وَمِنْهُ يَشْرَبُ بَعْضُ جَنْبُويَّةِ وَتِلْبَانَةَ ^(d) الْبَحْرِيَّةِ النَّبِيرِيَّةِ وَأَبُو حِمَارِ وَالْبُهْهُوطِ .

١٥ ثم يُقَطِّعُ سَدَّ دِسُونِسِ وَأَبُو دِينَارٍ وَتُرْعَةُ طَبْرَنْبَةَ ، فَيَشْرَبُ مِنْهُ دِنَشَالٌ ، وَطَامُوسٌ يُقِيمُ الْمَاءَ عَلَيْهَا سِتَّةَ أَيَّامٍ ، وَمِنْهُ تَشْرَبُ مُنْيَةُ عَطِيَّةِ وَسُلْطَيْسِ .

وَأَمَّا بَحْرُ دَمَنْهَورٍ فَإِنَّهُ يُسَلِّطُ ^(h) عَلَى سُلْطَيْسِ إِلَى سَابِعِ عَشْرِ ثُوتٍ ، وَمِنْهُ تَشْرَبُ سُلْطَيْسِ وَزُهْرًا وَبَعْضُ طَامُوسِ وَبَعْضُ قُرْطُوسَا وَبَعْضُ كَنْيَسَةِ الْغَيْطِ وَدَمَنْهَورٍ . ثُمَّ يَقَطِّعُ سَدَّ نَدِيَّةِ ، وَهُوَ مُحَدَّثٌ ، فَيُقِيمُ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ، وَمِنْهُ تَشْرَبُ نَدِيَّةُ وَدَقْرَنْسِ وَالْعَمِيرِيَّةِ وَالْبَسْرِيرِ ⁽ⁱ⁾ . ثُمَّ يُفْتَحُ وَيَسَدُّ عَلَى مَحَلَّةِ حُفْصِ وَمَحَلَّةِ كَيْلِ وَمَحَلَّةِ نَمِيرٍ . ثُمَّ يَقَطِّعُ عَلَى ^(f) سَدِّ سُلْطَيْسِ ، وَهُوَ مُحَدَّثٌ ، فَيُقِيمُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ بَعْدَ اخْتِلَاطِ الْمَاءَيْنِ بِبَحْرِ دَمَنْهَورِ وَرَمْسِيْسِ . ثُمَّ يَقَطِّعُ عَلَى ^(f) جِسْرِ مَلُولَةَ ، وَمِنْهُ تَشْرَبُ تَرْهَوْجَةَ وَأَزْسِيْسِ وَالْمَرَّاسِيَّ وَغَابَةَ الْأَعْغَسَاسِ وَبَعْضَ سَمْرُو وَمَحَلَّةِ نَمِيرٍ ، وَيَبْقَى هُنَاكَ إِلَى انْقِضَاءِ النَّيْلِ .

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : فيلانة وبيشاي . (c) بولاق : سادس . (d) بولاق : من . (e) بولاق :

طيلاس . (f) ساقطة من بولاق . (g) بولاق : بليانه . (h) بولاق : يسد . (i) بولاق : النسرين .

وأما ترعة طَبْرُزْبَةَ فهي مُخَدَّثة ، وإذا رويت طَبْرُزْبَةَ تُطْلَقُ عَلَى دِسُونَسِ أَمِ دِينَارٍ ، ثُمَّ تَقْطَعُ عَلَى طَامُوسٍ بِمِقْدَارِ رَيْبِهَا ، ثُمَّ تُطْلَقُ فِي النَّيْلِ الْعَالِيِ عَلَى أَرْضِ قَرَاقِسَ ، وَيُطْلَقُ الْمَاءُ عَلَى قَرْطُوسَا وَكَنِيسَةِ الْغَيْطِ .

وَخَلِيجُ الطَّبْرُزْبَةِ إِذَا خَرَجَ الْمَاءُ مِنْهُ يَسْقِي مِنْهُ فِي أَوَّلِ لَيْلٍ ، وَإِلَى أَنْ يُضْرَبَ جِسْرُ شَبْرَا وَسِيمٍ ، فَيَسْقِي مِنْهُ شَبْرَا وَسِيمٍ وَبَعْضُ الْبَلَّكُوسِ وَحَفِيرَةُ الرَّغْفَرَانِ وَبَعْضُ بُولِينِ وَمَشْجَدِ غَانِمِ وَالصُّوَّافِ وَكُومِ شَرِيكَ وَمُنْيَةَ مَعْنِينَ وَتَلَّ الْقَطَامِيِّ وَمَحَلَّةَ وَاقِدِ .

ثُمَّ يُقْطَعُ جِسْرُ دِلْنَجَةَ ، وَمِنْهُ يَشْرَبُ بَعْضُ خَزْبِتَا وَبَعْضُ قَلِيشَانَ وَبَعْضُ بُولِينِ وَالْبَيْضَا وَدَنِسْتِ وَتَلْبَانَةَ الْأَبْرَاجِ وَتَلَّ بَقَا وَالْحَدَّيْنِ وَالْيَهُودِيَّةَ وَأَبْسُومًا^(a) وَأَبُو صَمَادَةَ وَالْحِصْنَ / وَقَلَاوَةَ بَنِي عُبَيْدٍ وَطُوحَ دَخَانَةَ وَدَرْشَا وَشَقْرَا وَدِلْنَجَةَ وَمَحَّةَ وَطَيْبَةَ ، ثُمَّ يَقْطَعُ عَلَى مُنْيَةَ وَرِزَافَةَ الْحَجَرِ وَالْمَحْرُوقِ وَبَعْضُ جَبَارِسِ وَأَفْرِيمِ وَأَبُو سِمَادِ وَأَمِ الضُّرُوعِ .

خَلِيجُ ابْنِ زَلُومٍ - وَيُعْرَفُ بِخَلِيجِ ابْنِ ظَلُومٍ وَسَدَّ مَخْرَجِ النَّقِيدِيِّ - لَا يُفْتَحُ إِلَى عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ ثَوْتٍ ، وَمِنْهُ يَشْرَبُ شَابُورُ وَكَنِيسَةُ مَبَارِكٍ وَبَعْضُ سَرْسِيقَةَ وَبَعْضُ دَمَشُوبِهِ وَمُنْيَةَ يَزِيدِ وَخَوْضِ الْمَاصِلِيِّ وَحِصَّةِ سَلْمُونِ وَبَعْضُ سَنِيَّتِ وَبَعْضُ النَّقِيدِيِّ وَبَعْضُ قَلِيشَانَ ؛ ثُمَّ يُفْتَحُ ، فَيَشْرَبُ مِنْهُ أَمْلِيَطُ وَبَعْضُ إِيْتَايِ وَبَعْضُ كَنِيسَةَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَعْضُ أَرْمِينِيَّةَ وَرَمِيْسِنَا وَبَعْضُ مَحَلَّةِ عُبَيْدِ وَسَفْطِ خَالِدِ وَبِرْنَامَةَ وَشَبْرَا ثُونَةَ وَكَيْمَانَ شَرَّاسِ وَبَعْضُ دَمَشُوبِهِ ، وَتُقَامُ الْحُرَّاسُ عَلَى جِسْرِ سَفْطِ^(b) خَالِدِ إِلَى أَنْ يَتَكَامَلَ شَرِبُ سَفْطِ خَالِدِ فَيَنْقَطِعُ حِينَئِذٍ جِسْرُ سَفْطِ^(b) .

وَيَشْرَبُ مِنْ خَلِيجِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَمَا يَفِيضُ مِنْهُ ، أَهْلُ الْبَاطِنِ وَأَهْلُ الْبُحَيْرَةِ فِي فِجَاجِ وَأُودِيَّةِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الْمَاءُ صِلَةً ، وَهُمْ قَبِيلٌ مِنْ زَنَاتَةَ وَالرَّمْحَانَةَ وَبَنِي يَزَانَ وَقَبَائِلِ الْبَرْزِيرِ ، وَيَزْرَعُونَ عَلَيْهِ فَيَسْتَوِي مِنْهُمْ الْخَرَّاجُ .

وَبَيْنَ مَشَارِقِ الْفَرَمَا مِنْ نَاحِيَةِ جَرْجِيرِ وَفَاقُوسِ ، وَبَيْنَ آخِرِ مَا يُشْرَبُ مِنْ خَلِيجِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، كَانَ عَامِرًا كُلَّهُ - فِي مَخْلُولٍ وَمَعْقُودٍ - إِلَى بَعْدِ الْخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةَ مِنْ سِنِي الْهِجْرَةِ ، وَقَدْ خَرِبَ مَعْظَمُ ذَلِكَ .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الطَّرُطُوشِيُّ ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ مِنْ مَشَايخِ الشُّعْرِ^(c) ، أَنَّهُ قَالَ : شَاهَدْتُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ وَالصَّيْدَ فِي الْخَلِيجِ مُطْلَقًا لِلرَّعِيَّةِ ، وَالسَّمَكُ فِيهِ يَغْلِي^(d) الْمَاءُ بِهِ كَثْرَةً حَتَّى تَصِيدَهُ الْأَطْفَالُ بِالْخَرِيقِ ،

(a) بولاق : النسوم . (b-b) ساقط من بولاق . (c) بولاق : البحر . (d) بولاق : يطغور .

ثم حَجَرَهُ الوالي وَمَنَعَ الناسَ من صَيْدِهِ ، فَذَهَبَ حَتَّى كَادَ لَا يُرَى فِيهِ إِلَّا الواحِدَةُ بعد الواحِدَةِ إلى يَوْمِنَا هذا ^١ .

وقال أبو عُمر الكِنْدِي في كتاب «الموالي» عن الحارث بن مِسْكين : أَنَّهُ تَقَلَّدَ قَضَاءَ مصر من قِبَل أمير المؤمنين الوائِقِ بالله في سنة تسع وثلاثين ومائتين ، فَذَكَرَ سِيرَتَهُ وقال : وَحَفَرَ خَلِيجَ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَوَرَدَ الْكِتَابُ بِصَرْفِهِ في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين .

وقال جامع «السيرة الطولونية» : وفي ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومائتين ، أَمَرَ أحمدُ بن طولون بِحَفْرِ خَلِيجِ الإسْكَندَرِيَّةِ .

وقال المسعودي : وقد كان النيلُ انْقَطَعَ عن بلاد الإسْكَندَرِيَّةِ قبل سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة .

وقد كان الإسْكَندَرُ بَنَى الإسْكَندَرِيَّةَ على هذا الخَلِيجِ من النيل ، وكان عليها عَظْمٌ ^(a) ماء النيل ، فكان يَشْقِي الإسْكَندَرِيَّةَ وبلاد مَرْيوط ، وكانت بلاد مَرْيوط في نهاية العمارة والجِنَانِ المُتَّصِلَةِ بأرض بَرْقَةَ ، وكانت الشُّفُنُ تَجْرِي في النيل وتَتَّصِلُ بأشواق الإسْكَندَرِيَّةِ . وقد بَلَّطَ أَرْضَ خَلِيجِهَا في المَدِينَةَ بالأحجار والمَزَمَر ، وانْقَطَعَ الماءُ عنها لعوارِضَ سَدَّتْ خَلِيجِهَا وَمَنَعَتْ الناسَ دُخُولَهُ ، فَصَارَ شُرْبُهُمْ من الآبار ، وصَارَ النيلُ على يَوْمٍ منهم ^٢ .

وَذَكَرَ الْمَسْبُوحِيُّ أَنَّ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، أبا مَنْصُورِ بن العَزِيزِ ، أَطْلَقَ لِحَفْرِ خَلِيجِ الإسْكَندَرِيَّةِ ، في سنة أربع وأربع مائة ، خمسة عشرة ألف دينار ، فَحَفَرَ كُلَّهُ ^٣ .

وفي سنة اثنتين وستين وست مائة بَعَثَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْبُزَسَ الأمير عَلِيًّا ، أمير جَانْدَارِ ، لِحَفْرِ خَلِيجِ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وقد امْتَلَأَتْ قُوَّتُهُ بِالطُّينِ ، وَقَلَّ الْمَاءُ فِي الإسْكَندَرِيَّةِ ، فَابْتَدَأَ الْحَفْرَ مِنَ النَّقِيدِي ، وَأَنْشَأَ هُنَاكَ مَسْجِدًا . وتولَّى مُبَاشَرَةَ هَذَا الْحَفْرِ الْمُعَلِّمُ تَعَايِيفُ نَاظِرُ الدَّوَاوِينِ ^٤ .

ثم بَعَثَ السُّلْطَانُ ، في سنة أربع وستين وست مائة ، لِحَفْرِ هَذَا الخَلِيجِ الأميرَ عَلَمَ الدِّينِ سِنْجَرِ الْمَشْرُورِيِّ ، ثم سارَ بِعَامَّةِ الأُمَرَاءِ والأَجْنَادِ وَبَاشَرَ الْحَفْرَ بِنَفْسِهِ ، وَعَمِلَ فِيهِ الأُمَرَاءُ وَجَمِيعُ النَّاسِ

(a) بولاق : معظم .

^١ الطرطوشي : سراج الملوك ١ : ١٩٠-١٩١ .

^٢ المسعودي : مروج الذهب ١ : ١١٤-١١٥ .

^٣ المسبوحى : نصوص ضائعة ٣٢ .

^٤ المقرئى : السلوك ١ : ٥١٠ .

إلى أن زالت الرمال التي كانت على الساحل بين التقيدي وقم الخليج ، ثم عدى إلى بارنبار^(a) ، وغرق مراكب هناك وبنى عليها بالحجارة ، فلما تم الغرض عاد إلى قلعة الجبل^١ .

ثم تعطل استمرار جزيان الماء فيه بطول السنة ، وصار يجز سريعا بعد شهرين أو نحوهما من دخول الماء إليه ، واحتاج أهل الإسكندرية في طول السنة إلى الشرب من الصهاريج التي يُخْبُون^(b) فيها الماء ؛ إلى أن كانت سنة عشر وسبع مائة ، فقديم الأمير بذر الدين بكتوت الخزنداري^٢ ، المعروف بأمر شكار ، متولي الإسكندرية إلى قلعة الجبل ، وحسن للسلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون حفزه ، وذكر له ما في ذلك من المنافع .

أولها : حمل الغلال وأصناف المتجر إلى الإسكندرية في المراكب ، وفي ذلك توفير للكلف ، وزيادة في مال الديوان . وثانيها : عمارة ما على حافتي الخليج من الأراضي بإنشاء الضياع والسواقي ، فينمو الخراج بهذا نموا كثيرا . وثالثها : انتفاع الناس به في عمارة بساتينهم ، وشرب مائه دائما .

فأعجب السلطان ذلك ، وندب الأمير بذر الدين محمد بن كيدغدي بن الوزيري مع بكتوت لعمله ، وتقدم إلى جميع أمراء الدولة بإخراج مباحريهم لإخضار رجال النواحي الجارية في إقطاعاتهم للعمل في الحفير^(c) ، وكتب لولاة الأعمال بالوقوف في العمل .

فاجتمع من النواحي نحو الأربعين ألف رجل ، جمعت في نحو العشرين يوما ، ووقع العمل في شهر رجب من السنة المذكورة ، وأُفرد لكل أهل ناحية قطعة يخفرونها حتى كمل ، فجاء قياس الحفر من قم بحر النيل إلى ناحية سنبار^(d) ، ثمانية آلاف قصبه حاكمية ، ومن سنبار^(d) إلى الإسكندرية مثلها .

وكان الخليج الأصلي يدخل الماء إليه من حد سنبار^(d) ، فجعل قم هذا البحر يزمي إليه^(e) ، وعمل عمقه ست قصبات / في عرض ثمان قصبات . فلما انتهوا إلى حد الخليج الأول ، حفر أيضا على نظير الخليج المستجد ، فصارا بحرا واحدا ، ورُكبت عليه السدود والقناطر .

(a) في الروض الزاهر : بر أيار . (b) بولاق : يخزن . (c) بولاق : للحفير . (d) بولاق : سنبار . (e) بولاق : عليه .

^١ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ٢٤٧ . ٨١ ، السلوك ٢ : ١١١ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ٢ : ٢٢٢ .

^٢ انظر ترجمته عند المقرئزي : المقفى الكبير ٢ : ٤٧٩ - أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٢١٧ .

وُجِدَ فِي الْخَلِيجِ الْأَوَّلِ عِنْدَ حَفْرِهِ ، مِنَ الرُّصَاصِ الْمَبْنِيِّ تَحْتَ الصُّهَارِيَجِ ، شَيْءٌ كَثِيرٌ جَدًّا ، فَلَمْ يَتَعَرَّضَ السُّلْطَانُ لَشَيْءٍ مِنْهُ ، وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْأَمِيرِ بَكْتُوتِ .

وَعَظُمَتِ الْمَشَقَّةُ فِي حَفْرِ هَذَا الْخَلِيجِ ، فَإِنَّ الَّذِي تَجَاوَزَ الْبَحْرَ مِنْهُ غَلَبَ عَلَيْهِ الْمَاءُ ، فَصَارَتِ الرُّجَالُ تَغَطُّسَ فِيهِ وَتَرْفَعُ الطُّيْنَ مِنْ أَسْفَلِهِ ، ثُمَّ كَثُرَ الْمَاءُ فَرُكِبَتِ السُّوَاقِي حَتَّى نَزَحَتْهُ ؛ إِلَّا أَنَّ عَظِيمَ النُّفْعِ بِهِ سَهَّلَ جَمِيعَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ السُّفُنَ جَرَّتْ فِيهِ طُولَ السَّنَةِ ، وَاسْتَعْنَى أَهْلُ الإسْكَندَرِيَّةِ عَنِ شُرْبِ مَاءِ الصُّهَارِيَجِ ، وَبَادَرِ النَّاسُ لِلْعِمَارَةِ عَلَى جَانِبِي الْخَلِيجِ ، فَلَمْ يَمُضْ غَيْرُ قَلِيلٍ حَتَّى اسْتَجِدَّ عَلَيْهِ مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ فِدَّانٍ ، زُرِعَتْ بَعْدَمَا كَانَتْ سِبَاخًا ، وَمَا يُتَيْفَ عَلَى سِتِّ مِائَةِ سَاقِيَةٍ يَرْسُمُ الْقُلُقَاسَ وَالنَّيْلَةَ وَالسُّمْسِمَ ، وَفَوْقَ الْأَرْبَعِينَ ضَيْعَةً ، وَأَزِيدَ مِنْ أَلْفِ غَيْطٍ بِالإسْكَندَرِيَّةِ ، وَعُمِّرَتْ مِنْهُ عِدَّةُ بِلَادٍ كَثِيرَةٍ ، وَتَحَوَّلَ عَالَمٌ عَظِيمٌ إِلَى سُكْنَى مَا اسْتَجِدَّ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ (a) .

وَلَمَّا فَرَعَ الْعَمَلُ فِي الْخَلِيجِ شَرَعَ الْأَمِيرُ بَكْتُوتُ فِي عَمَلِ جِسْرِ مِنْ مَالِهِ ، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا ، فِي وَقْتِ هَيْبَجَانَ الْبَحْرِ ، يَجِدُونَ مَشَقَّةَ عَظِيمَةً لِعَلْبَةِ الْمَاءِ عَلَى أَرْضِي السُّبَاخِ ، فَأَقَامَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى بَنَى رَصِيفًا ، ذَلِكَ أَسَاسَهُ بِالْحَجَرِ وَالرُّصَاصِ وَأَعْلَاهُ بِالْحَجَرِ وَالْكَلْسِ ، وَعَمَلَ فِيهِ ثَلَاثِينَ قَنْطَرَةً . وَأَنْشَأَ خَانًا يَنْزِلُهُ النَّاسُ ، وَرَتَّبَ فِيهِ الْخُفْرَاءَ ، وَوَقَّفَ عَلَى مَصَالِحِهِ رِزْقَةً ، فَبَلَغَ مَضْرُوفُهُ نَحْوَ السِّتِينَ أَلْفِ دِينَارٍ مِصْرِيَّةٍ ، وَسِوَى مَا أُخِذَ مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي نَقَضَهَا (b) مِنْ قَضْرٍ قَدِيمٍ كَانَ خَارِجَ الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَسِوَى مَا وَجَدَهُ مِنَ الرُّصَاصِ فِي سَرَبٍ بِأَسْفَلِ هَذَا الْقَضْرِ يَنْتَهِي بِمَنْ يَمِشِي فِيهِ إِلَى قَرِيبِ الْبَحْرِ ، وَسِوَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الرُّصَاصِ الْمَوْجُودِ بِالْخَلِيجِ .

وَلَمْ يَزَلِ الْخَلِيجُ فِيهِ الْمَاءُ طُولَ السَّنَةِ إِلَى مَا بَعْدَ سَنَةِ سَبْعِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ ، فَانْقَطَعَ الْمَاءُ مِنْهُ وَصَارَ الْمَاءُ لَا يَدْخُلُ إِلَيْهِ إِلَّا فِي أَيَّامِ زِيَادَةِ مَاءِ النَّيْلِ فَقَطْ ، ثُمَّ يَجِفُّ عِنْدَ نَقْصِهِ ، فَتَلِفَ مِنْ أَجْلِ هَذَا أَكْثَرَ بَسَاتِينَ الإسْكَندَرِيَّةِ وَخَرِبَتْ ، وَتَلَاشَى كَثِيرٌ مِنَ الْقُرَى الَّتِي كَانَتْ عَلَى هَذَا الْخَلِيجِ . وَسَبَبُ انْقِطَاعِ الْمَاءِ عَنْهُ غَلْبَةُ الرَّمْلِ (c) عَلَى الْأَشْثُومِ الَّذِي كَانَ يَغْبِرُ مِنْهُ مَاءُ بَحْرِ الْمَلْحِ إِلَى بُحَيْرَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ حَتَّى جَفَّتْ ، وَصَارَ الرَّمْلُ تُلْقِيهِ الرِّيَّاحُ فِي الْخَلِيجِ ، فَانْطَمَ فَمُهُ وَعَلَا قَاعُهُ .^١

(a) بولاق : فيه . (b) بولاق : بعضها . (c) بولاق : الروم .

^١ المقرئزي : السلوك ٢ : ١١١ - ١١٢ ، ١٢٩ ، ٥٣٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ٢١٨ .

وقصد من أذركناه من ملوك مصر حفر هذا الخليج غير مرة ، فلم يتهيأ ذلك ، إلى أن كانت سلطنة الملك الأشرف برسباي ، فندب لحفره الأمير جرباش الكريمي ، المعروف بقاشق^(a)؛ فتوجه إليه ، وجمع له من قدر عليه من رجال النواحي ، فبلغت عدتهم ثمان مائة وخمسة وسبعين رجلاً ، ابتدأوا في حفره من حادي عشر جمادى الأولى سنة ست وعشرين وثمان مائة إلى حادي عشر شعبان لتمام تسعين يوماً ، فانتهى عملهم^١ .

ومشى الماء في الخليج حتى انتهى إلى حده من مدينة الإسكندرية ، وجرت فيه السفن ، فسر الناس به سروراً كبيراً^٢ .

وحسب^(b) ما أنفق على العمال في الحفر من أرباب النواحي التي على الخليج ، ومن أرباب البساتين بالإسكندرية ، ولم يكن في حفره كبير شناعة ، مما جرت به عادة الولاية في مثل ذلك ، والله الحمد . وعندما انتهى قديم الأمير جرباش إلى قلعة الجبل ، فخلع السلطان عليه وشكره ، ثم عمله حاجب الحجاب^٣ ، فلم يستمر ذلك إلا قليلاً حتى انطمم بالزمل ، وتعدر سلوك الخليج بالمراكب إلا في أيام النيل فقط .

ذكر جمل حوادث الإسكندرية

وفي سنة تسع وتسعين ومائة ، عظمت الحروب بديار مصر بين المطلب بن عبد الله الخزاعي أمير مصر ، وبين عبد العزيز بن الوزير الجزوي الثائر بتئيس ، فعقد المطلب على الإسكندرية لمحمد ابن هبيرة بن هاشم بن حديج ، فاستخلف محمد خاله عمر بن عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج - الذي يقال له عمر بن ملال^(c) - ثم عزله المطلب بعد ثلاثة أشهر بأخيه الفضل بن عبد الله بن مالك .

(a) عند العيني : سرماش قاشوق . (b) وجي . (c) في النسخ : ملاك .

^١ ابن إياس : بدائع الزهور ٢ : ٨٧ . المقريزي : السلوك ٤ : ٦٣٩ ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة
^٢ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية ١٤ : ٢٤٥ ؛ الصيرفي : نزهة النفوس ٣ : ١٩ ؛ السخاوي :
الضوء اللامع ٣ : ٢٧٠ . ٣٩٢ - ٣٩٣ .

^٣ قارن ، العيني : عقد الجمان (تحقيق القرموط) ١٩٤ ؛

وكانت بالإسكندرية مراكب الأندلسيين قد قفلوا من غزوهم . وكان سببُ قدوم هذه المراكب ما جرى لأهل قوطبة بوقعة الرّيتض مع الحكم بن هشام في سنة اثنتين وثمانين ومائة ، فأخرج جماعة منهم ، فوصلوا إلى ثغر الإسكندرية زيادةً على عشرة آلاف .

وكان سببُ ثورتهم أن قصابًا من الإسكندرية رمى وجة رجل منهم بكرش ، فأنفوا من ذلك ، وصاروا إلى ما صاروا إليه ، وذلك لما نزلوا رمل الإسكندرية ليتتاعوا ما يصلحهم . وكذلك كانوا على الزمان ، وكانت الأمراء لا تبيحهم دخول الإسكندرية ، إنما كان الناس يخرجون إليهم فيبايعونهم .

فلما عزّل عمر بن ملال^a، كتب إليه عبد العزيز الجزوي يأمره بالوثوب على الإسكندرية والدعاء له بها ، فبعث عمر بن ملال إلى الأندلسيين ، فدعاهم إلى القيام معه في إخراج الفضل عنها ، فساروا معه ، وأخرج الفضل ، ودعا للجزوي . فوثب أهل الإسكندرية على الأندلسيين ، وأخرجوهم وردوا الفضل ، وقُتل من الأندلسيين نفر ، وانتهزم الباقون إلى مراكبهم . فعزل المطلب أخاه ، وولى عليها/ إسحاق بن أبرهة بن الصباح في شهر رمضان سنة تسع وتسعين ، ثم عزّله بأبي ذكّر^b بن جنادة المعافري . فلما اقتتل الشري بن الحكم هو والمطلب بن عبد الله ، وغلب الشري على مصر ، وثب عمر بن ملال^a على أبي ذكّر ، وأخرج من الإسكندرية ، ودعا للجزوي ، وأقبل الأندلسيون إليه فأفسدوا ، فأمرهم بالخروج إلى مراكبهم ، فشق ذلك عليهم .

وظهرت بالإسكندرية طائفةٌ يُسمّون بالصوفيّة ، يأثرون بالمعروف ويعارضون السلطان في أموره ، فترأس عليهم رجلٌ منهم ، يُقال له أبو عبد الرحمن الصوفي ، فساروا مع الأندلسيين يدًا واجدة ، واعتصدوا بلخم ، وكانت لحم أعز من في ناحية الإسكندرية ؛ فحوصم أبو عبد الرحمن الصوفي إلى عمر بن ملال^a في امرأة ، فقضى على أبي عبد الرحمن ، فوجد في نفسه من ذلك ، وخرج إلى الأندلسيين فألف بينهم وبين لحم ، ورجا أهل الأندلس أن يدركوا ثأرًا من عمر بن ملال^a . فساروا إلى عمر بن ملال^a ، وهم زهاء عشرة آلاف ، فحصروه في قصره ، وخشي أن القصر لا يمتعه منهم ، وخاف أن يدخلوا عليه عنوة فيفضح في حريمه ، فاغتسل وتحنط وتكفن ، وأمر أهله أن يدلّوه إليهم ، فدلّوا فأخذته السيوف فقتل ؛ ثم دلّوا^c أخوه محمد بن عبد الملك^d الذي يُلقب جيوش ، فقتل ؛ ثم دلّوا^c عليهم عبد الله البطال ابن عبد الواحد بن محمد بن

(a) في النسخ : ملاك . (b) عند الكندي : بأبي بكر . (c) بولاق : ولي . (d) بولاق : عبد الله .

عبد الرَّحْمَن بن مُعاوية بن حُدَيْج ، فُقْتِل ؛ ثم دُلِّي^(a) عليهم أخوه أبو هُبَيْرَةَ الحارِث ، فُقْتِل ؛ ثم دُلِّي^(a) عليهم حُدَيْج بن عبد الوَاحِد ، فُقْتِل وانصَرَف القَوْم ، وذلك في ذي القعدة^١ .

ثم فَتَدَ ما بين لحم والأندلسيين عند مَقْتَل ابن مَلال^(b) ، واقتتلوا ، فانهزمت لحم ، فظفِر الأندلسيون بالإسكندرية في ذي الحجة ، فولَّوها أبا عبد الرَّحْمَن الصُّوفي ، فبلَغ من الفساد والنَّهب والقَتْل ما لم يُسْمَع بمثله ، فعزَّله الأندلسيون ، وولَّوا رجلاً منهم يُعرف بالكِناني .

ثم حاربَ بنو مدليج الأندلسيين ، فظفِرَ بهم الأندلسيون ونفَّوهم^(c) عن البلاد ، فلم يَقْدِر بنو مدليج على الرجوع إلى أرض الإسكندرية حتى طَلَب السَّرِي من الأندلسيين أن يرُدُّوهم ، فأذِنوا لهم حينئذٍ ورجعوا .

وكان أبو قبيل يقول : أنا على الإسكندرية من أربعين مَرَكَبًا مسلمين ، وليسوا بمسلمين ، تأتي في آخِر الصَّيْف ، أَخَوْف مِنِّي عليها من الروم ؛ فيقالُ له : ما هذه الأربعون مَرَكَبًا في هذا الخلق لو كانت نيرانًا تَضَطَّرم ؟ فيقول : اشكَّت وئيلك ، منها وممن فيها يكون خرابُ الإسكندرية وما حولها .

وبلَغ عبد العزيز الجَزَوِي قَتْل ابن مَلال^(b) ، فسارَ في خمسين ألفًا حتى نَزَلَ على حِصْن الإسكندرية ، وحصَّرها حتى أُجْهِد من فيها فبلَّغه أن السَّرِي بن الحَكَم بَعَثَ إلى تَنِيْس بَعَثًا فكَرَّ راجعًا في المحرم سنة إحدى ومائتين ، فدعا الأندلسيون للسَّرِي^٢ ثم لما خَلَعَ أهلُ مصر المأمون ، ودَعَوْا لإبراهيم بن المهدي ، وقامَ الجَزَوِي بذلك ، سارَ إلى الإسكندرية ، وحصَّره الأندلسيين حتى دَخَلَهَا صُلْحًا ، ودُعِيَ له بها ، ثم سارَ عنها إلى القُسطاط ، فحاربَ السَّرِي وقَتَلَ ابنه ، ثم انصَرَف^٣ .

فتارَ الأندلسيون بعامل الجَزَوِي ، وأخرجوه من الإسكندرية ، وخالَعُوا الجَزَوِي ، ودَعَوْا للسَّرِي ؛ فسارَ إليهم الجَزَوِي في شهر رَمَضان سنة ثلاث ومائتين ، فعارَضَتْهُ القِبْطُ بسَحًا ، وأمَدَّتْهم بنو مدليج - وهم في نحو من مائتي ألف - فهزَمَهم ، وبَعَثَ بجيوشه إلى الإسكندرية فحاصَرُوها^٤ .

(a) بولاق : ولي . (b) النسخ : ملاك . (c) بولاق : نفروهم .

^٣ نفسه ١٩٣ .

^٤ نفسه ١٩٥ .

^١ الكندي : ولاية مصر ١٨٦ - ١٨٧ .

^٢ نفسه ١٨٨ - ١٨٩ .

وكانت بين الشريي وبين أهل الصَّعيد حروب .

ثم إنَّ الجزوي سارَ إلى الإسكندرية سَيِّره الرابع وحاصرها ، ونَصَبَ عليها المجانيق سبعة أشهر ، من أوَّل شعبان سنة أربع ومائتين إلى سَلَخِ صَفَرِ سنة خمس ، فأصابَ الجزوي فَلَقةً من حَجَرٍ مَنجنيقه ، فماتَ سَلَخِ صَفَرِ سنة خمس ومائتين ^١ .

وقامَ من بعده ابنه عليّ ، فلم تَزَلِ الْفِتْنُ بِالْأَنْدَلُسِيِّينَ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مُتَّصِلَةً ، إلى أن قَدِمَ عبد الله بن طاهر إلى مصر من قِبَلِ أمير المؤمنين المأمون ، وأَخْرَجَ عبيد الله بن الشريي من مصر ، وسارَ إلى الإسكندرية في قُوَادِ الْعَجَمِ من أهل خُرَاسَانَ ، مستهلَّ صَفَرِ سنة اثني عشرة ومائتين ، فحاصرها بِضْعِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ حَتَّى خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا بِأَمَانٍ . وصالحه الأندلسيون على أن يُسَيِّرَهُمَ مِنَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ حَيْثُ أَحْبَبُوا ، على ألا يُخْرِجُوا فِي مَرَاكِبِهِمْ أَحَدًا من أهل مصر ، ولا عَبْدًا ولا أَبَقًا ، فَإِنْ فَعَلُوا فَقَدْ حَلَّتْ لَهُ دِمَاؤُهُمْ ، وَنَكَتْ عَهْدُهُ وَتَوَجَّهُوا . فَبَعَثَ ابْنُ طَاهِرٍ مِنْ يُفْتَشُ عَلَيْهِمْ مَرَاكِبَهُمْ ، فَوَجَدُوا فِيهَا جَمْعًا مِنَ الَّذِي اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يُخْرِجُوهُمْ ، فَأَمَرَ بِأَخْرَاقِ مَرَاكِبِهِمْ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَى شَرْطِهِمْ ، فَفَعَلَ ^٢ .

وساروا إلى جَزِيرَةِ إِقْرِيطِشٍ وَمَلَكُوها ، وكان الأميرُ معهم أبو حَفْصِ عُمَرَ بْنِ عَيْسَى ، ثم مَلَكَها وَلَدُهُ من بعده ، وَعَمَّرَها الْأَنْدَلُسِيُّونَ إِلَى أَنْ غَزَاهَا الرُّومُ سنة خمس وأربعين وثلاث مائة ، وَمَلَكَتْهَا^(a) بَعْدَ حِصَارٍ طَوِيلٍ ^٣ .

وَوَلِيَ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ إِيَّاسُ بْنُ أَسَدِ بْنِ سَامَانَ ، وَرَجَعَ إِلَى الْفُسْطَاطِ فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ ، ثم سارَ إلى العراق .

ولمَّا انْتَقَضَ أَسْفَلُ الْأَرْضِ فِي جَمَادَى الْأُولَى سنة ستَّ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ ، وَحَارَبَهُمُ الْأَفْشِيَّينَ وَمَعَهُ عَيْسَى بْنُ مَنْصُورِ الرَّافِقِيِّ أمير مصر ، وَبَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَزِيدِ الشَّيْبَانِيِّ إِلَى الْغَرْبِيَّةِ ، فَانْهَزَمَ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَاسْتَجَاشَتْ عَلَيْهِ بَنُو مَذْلِجٍ ، وَحَصَرُوهُ فِي سُؤَالٍ . فَسَارَ الْأَفْشِيَّينَ وَأَوْقَعَ

(a) بولاق : ملكها .

^١ الكندي : ولاية مصر ١٩٦ .

^٢ نفسه ٢٠٧ .

^٣ حول هذا الموضوع انظر ، إبراهيم أحمد العدوي : ٥٣ - ٦٨ .

إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع
الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ٣ (أكتوبر ١٩٥٠) ،

بمن / في طريقه حتى قدم الإسكندرية في جنوده ، فلقيته طائفة من بني مذليج ، فهزّمهم مرتين ، وأسّر منهم وقتل .

ودخل الإسكندرية لعشر بقين من ذي الحجة ، ففرّ منه رؤساؤها ، وكان عليها معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، فأصلح أمرها .

ثم خرج إلى أهل البشروود فامتنعوا عليه ، حتى قدم المأمون إلى مصر ، فصار إلى البشروود ، والأفشين قد أوقع بالقبط بها كما تقدّم ذكره .

ولما ولي إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب إفريقية في سنة إحدى ومائتين ، حسنت سيرته ، فكانت القوافل والتجار تسير في الطرق وهي آمنة ، وبني الحصون والمحارس على ساحل البحر ، حتى كانت توقد النار من مدينة سبته إلى الإسكندرية ، فيصل الخبر منها إلى الإسكندرية في ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر .

وفي سنة اثنتين وثلاث مائة دخل حباسة ، في جيوش إفريقية إلى الإسكندرية في المحرم ، ومعه مائة ألف أو زيادة عليها ، وقدمت الجيوش من المشرق مددا لتكين أمير مصر ، وسار حباسة من الإسكندرية . وتودي بالنفير في الفسطاط ، لعشر بقين من جمادي الآخرة ، فلم يتخلف عن الخروج إلى الجيزة أحد من الخاصة والعامة ، إلا من عجز عن الحركة لمرض أو عُذر . وأتاهم حباسة ، فلقوه وهزّموه ، ثم دار عليهم ، فقتل من أهل مصر نحوًا من عشرة آلاف ، ونهض حباسة إلى إفريقية ، وأقاموا بمصر مضطربين .

فأقبل مؤنس الخادم من العراق في رمضان بجيوش كثيرة ، فصرف تكين في ذي القعدة . وولى ذكا الأعور في صفر سنة ثلاث وثلاث مائة ، فخرج في جيوشه إلى الإسكندرية ، وتتبع كل من يومئ إليه بمكاتبة صاحب إفريقية ، فسجن منهم وقتل كثيرًا . وجلأ أهل لؤبية ومراقية إلى الإسكندرية ، في شوال سنة أربع وثلاث مائة ، خوفاً من صاحب بركة^١ .

وفي سنة سبع وثلاث مائة سارت مقدمة المهدي عبيد الله من إفريقية ، مع ابنه أبي القاسم ، إلى لؤبية . فهرب أهل الإسكندرية وجلأوا عنها ، وخرج منها مظفر بن ذكا الأعور في جيشه ، ودخلت إليه العساكر يوم الجمعة لثمان خلون من صفر ، وفرّ أهل القوة من الفسطاط إلى الشام^٢ ؛

^١ الكندي : ولاة مصر ٢٩١ - ٢٩٢ .

^٢ نفسه ٢٩٢ - ٢٩٣ .

فَخَرَجَ ذَكَا أَمِيرُ مِصْرَ إِلَى الْجِيْزَةِ وَعَشَكَرَ بِهَا ، ثُمَّ مَرِضَ وَمَاتَ عَلَى مِصَافَةِ بِالْجِيْزَةِ فِي رَيْعِ
الْأَوَّلِ (a) ١ .

فَوَلِي تَكْبِيْنَ بَعْدَهُ وَلايْتَهُ الثَّانِيَةَ مِنْ قِبَلِ الْمُقْتَدِرِ ، وَنَزَلَ الْجِيْزَةَ ٢ . وَأَقْبَلَتْ مَرَاكِبُ صَاحِبِ إِفْرِيْقِيَّةِ
إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ عَلَيْهَا سُلَيْمَانُ الخَادِمِ ، فَقَدِمَ ثَمَلُ الخَادِمِ ، صَاحِبُ مَرَاكِبِ طَرْسُوسِ ، فَالْتَقَيَا
بِرَشِيدِ فِي شَوَّالٍ ، فَاقْتَتَلَا ؛ فَبَعَثَ اللهُ رِيحًا عَلَى مَرَاكِبِ سُلَيْمَانَ أَلْقَتْهَا إِلَى الْبَرِّ ، فَتَكَسَّرَ أَكْثَرُهَا ،
وَأُخِذَ مِنْ فِيهَا أَخْذًا بِالْيَدِ ، وَقُتِلَ أَكْثَرُهُمْ ، وَأُسِرَ مِنْ بَقِيٍّ وَسِيقُوا إِلَى الفُشْطَاطِ ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ نَحْوُ
سَبْعِ مِائَةِ رَجُلٍ ٣ .

وَسَارَ أَبُو القَاسِمِ بِنُ المَهْدِيِّ مِنَ الإسْكَندَرِيَّةِ إِلَى الفَيْيُومِ ، وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الأَشْمُونِيِّينَ وَالفَيْيُومِ
وَأزَالَ عَنْهَا مُجَنَّدَ مِصْرَ . فَمَضَى ثَمَلُ الخَادِمِ فِي مَرَاكِبِهِ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ ، فَقَاتَلَ مِنْ بِهَا مِنْ أَهْلِ
إِفْرِيْقِيَّةِ فَظَفِرَ بِهِمْ ، وَنَقَلَ أَهْلَ الإسْكَندَرِيَّةِ إِلَى رَشِيدِ . وَعَادَ إِلَى الفُشْطَاطِ ، وَمَضَى فِي مَرَاكِبِهِ إِلَى
الْأَلاهُونِ ، وَلَحِقَتْهُ العَسَاكِرُ فَدَخَلُوا إِلَى الفَيْيُومِ فِي صَفْرِ سَنَةِ سَبْعِ وَثَلَاثِ مِائَةٍ . فَخَرَجَ أَبُو القَاسِمِ
ابنُ المَهْدِيِّ إِلَى بَرْقَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا قِتَالٌ ، وَرَجَعَتِ العَسَاكِرُ إِلَى الفُشْطَاطِ ٤ .

وَمَازَلَتِ الإسْكَندَرِيَّةُ وَأَعْمَالُهَا فِي اضْطِرَابٍ إِلَى أَنْ قَدِمَتِ جُيُوشُ المِعْزِ لَدِينِ اللهُ مَعَ القَائِدِ
جَوْهَرَ ، فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ ، فَمَلَكَهَا . وَمَا بَرِحَتْ إِلَى أَنْ قَامَ بِهَا نِزَارُ بِنُ
المُسْتَنْصِرِ ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا قَدْ ذُكِرَ عِنْدَ ذِكْرِ خَزَائِنِ القَصْرِ ٥ .

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةٍ وَسِتِّ مِائَةٍ ، اجْتَمَعَ بِالإِسْكَندَرِيَّةِ ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنْ تُجَّارِ الفِرْنَجِ ، وَقَدِمَتِ
بَطْسَةٌ ٦ إِلَى المِينَاءِ فِيهَا مِنْ مُلُوكِ الفِرْنَجِ مَلِكَانِ ، فَهَمُّوا أَنْ يَثُورُوا وَيَقْتُلُوا أَهْلَ البَلَدِ وَيَمْلِكُوهَا .
فَتَوَجَّهَ المَلِكُ العَادِلُ أَبُو بَكْرٍ بِنُ أَيُّوبَ إِلَيْهَا ، وَقَبِضَ عَلَى التُّجَّارِ المَذْكُورِينَ وَعَلَى مَنْ بِالبَطْسَةِ ،

(a) عند الكندي : ربيع الآخر .

١ الكندي : ولاة مصر ٢٩٣ . ٢ نفسه ٢٩٣ .
٣ نفسه ٢٩٤ . ٤ نفسه ٢٩٥ .
٥ فيما يلي ١ : ٣٦١ ، ٤٢٣ .
٦ البطسة ويقال أحيانا البطشة والجمع البطسات
والبطس والبطشات والبطش . سفينة عظيمة الحجم كثيرة
القلوع ، قد يصل عدد القلوع في البطسة الواحدة إلى أربعين

قلقا . كانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة ، كما كانت
تستخدم في نقل جموع كبيرة من المحاررين قد يصل عددهم
إلى سبع مائه . واشتهر هذا النوع من السفن في زمن الحروب
الصليبية وكانت وظيفتها مشتركة لدى المسلمين والفرنج
(درويش النخيلي : السفن الإسلامية ١٤-١٧) .

واستصَفَى أموالهم وسَجَنَهُمْ ، وسَجَنَ الملكين ، وجَزَت خُطوبٌ حتى أَطْلَقَ السُّلْطَانُ نِسَاءَهُمْ ،
وعَادَ إلى القَاهِرَةِ ١ .

وفي سنة أربع وخمسين وخمسة مائة بَنَى الملك الصَّالِحُ طَلَّاحُ بن رُزَيْكٍ على بَلْبَيْسِ حِصْنًا
من لَبِنٍ ٢ .

وفي سنة اثنتين وستين وخمسة مائة كانت وَقْعَةُ البَايِنِ ، بين الوَازِرِ شَاوِرٍ وَأَسَدِ الدين
شِيرِكُوهِ ، فَانْهَزَمَ عَسَاكِرُ شِيرِكُوهِ ، وَمَضَى مِنْهُمْ طَائِفَةٌ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ ، ثُمَّ كَانَتْ لِشِيرِكُوهِ عَلَى
شَاوِرٍ ، فَانْهَزَمَ مِنْهُ إِلَى القَاهِرَةِ ٣ . وَمَضَى شِيرِكُوهِ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُ الثُّغْرِ ، وَفِيهِمْ
نَجْمُ الدين مُحَمَّدُ بن مَصَالٍ وَالِي الثُّغْرِ ، وَقَاضِيهِ الأَشْرَفُ بن الحَبَّابِ ، وَنَازِرُهُ القَاضِي الرُّشِيدُ بن
الزُّبَيْرِ ، وَسُرُّوا بِقُدُومِهِ ، وَسَلَّمُوهُ المَدِينَةَ . ثُمَّ سَارَ مِنْهَا يُرِيدُ بِلَادَ الصُّعَيْدِ ، وَاسْتَحْلَفَ ابْنَ أُخِيهِ
صَلَاحَ الدين يُوسُفَ بن أَيُّوبَ عَلَى الثُّغْرِ فِي أَلْفِ فَارِسٍ . فَتَنَزَلَ عَلَيْهِ شَاوِرٌ ، وَمَعَهُ مُرِّي
[Amaury] مَلِكُ الفَرِجِ ، فَقَامَ مَعَهُ أَهْلُ الثُّغْرِ ، وَاسْتَعَدُّوا لِقِتَالِ شَاوِرٍ ، فَكَانَ مِمَّا (a) أَخْرَجُوهُ أَرْبَعَةَ
وَعِشْرُونَ أَلْفَ قَوْسٍ (b) ٤ .

فَوَعَدَهُمْ شَاوِرٌ أَنْ يَضَعَ عَنْهُمْ المَكُوسَ وَالوَاجِبَاتِ ، وَيُعْطِيهِمُ الخُمْسَ إِذَا سَلَّمُوهُ صَلَاحَ الدين ،
فَأَبَوْا ذَلِكَ ، وَأَلْحَوْا فِي قِتَالِهِ ، فَحَصَرَهُمْ حَتَّى قَلَّ الطَّعَامُ عِنْدَهُمْ . فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ شِيرِكُوهِ ، وَقَدْ
حَشَدَ مِنَ العُرْبَانِ جُمُوعًا كَثِيرَةً ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ / شَاوِرٌ ، وَبَدَّلَ (c) لَهُ خَمْسَةَ آلَافِ دِينَارٍ عَلَى أَنْ يَزِجَعَ
إِلَى الشَّامِ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ .

وَفُتِحَتِ المَدِينَةُ ، وَخَرَجَ صَلَاحُ الدين إِلَى مُرِّي [Amaury] مَلِكِ الفَرِجِ ، وَجَلَسَ مَعَهُ ،
فَأَرَادَهُ (d) شَاوِرٌ أَنْ يُسَلِّمَهُ صَلَاحَ الدين فَلَمْ يُوَافِقْهُ فِي (e) سَيَرِهِ إِلَى عَمِّهِ شِيرِكُوهِ مِنَ البَحْرِ عَلَى عَكَا

(a) بولاق : ما . (b) بولاق : فرس . (c) الأصل : نزل . (d) بولاق : فمزال به . (e) بولاق : بل .

الباهر ١٣٣ ، الكامل ١١ : ٣٢٤ - ٣٢٦ ؛ أبو شامة :

الروضتين ١ : ٣٦٥ - ٣٦٦ ، ٤٢٤ ؛ ابن خلكان : وفيات

الأعيان ٧ : ١٤٧ - ١٤٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

١ : ١٥١ ؛ التوحي : نهاية الأرب ٢٨ : ٣٣٧ ؛ المقرئ :

اتعاظ ٣ : ٢٨٦ .

١ انظر فيما يلي ١ : ٤٢٣ .

٢ المقرئ : اتعاظ الخنفا ٣ : ٢٣٦ .

٣ انظر عن هذه الواقعة التي تمت قرب الأشمونيين في

صعيد مصر ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٢ ؛ أبو شامة :

الروضتين ١ : ١٥١ ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٨٤ .

٤ ابن ظافر : أخبار الدول ١١٥ ؛ ابن الأثير : التاريخ

بمن معه إلى دِمَشْقَ . ودَخَلَ شَاوِرَ إلى الإسْكَندَرِيَّةِ في سابعِ عَشْرِ شَوَّالٍ ، فَاسْتَتَرَ ابنَ مَصَالٍ وَفَرَّ إلى الشَّامِ ، وَقَبِضَ على ابنِ الحَبَّابِ ، وَعُوقِبَ حتى فَدَاهُ أَهْلُهُ بِمَالٍ جَزِيلٍ ، وَلَمْ يَقْدِرَ على ابنِ الزُّبَيْرِ وَخَرَجَ إلى رَشِيدٍ .

هذا ، وَقَدْ امْتَنَعَ الفَقِيهُ أَبُو الطَّاهِرِ بنِ عَوْفٍ وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ بِالْمَنَارِ ، فَوَقَّفَ عَلَيْهِمُ شَاوِرَ ، فَقَالَ لَهُ ابنُ عَوْفٍ : اعْذُرْنَا يَا أَمِيرَ الجُيُوشِ ، وَسَامِعْنَا بِمَا فَعَلْنَا ؛ فَعَفَا عَنْهُمْ ، وَوَلَّى القَاضِي الأَشْرَفَ أَبَا القَاسِمِ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ مَنصُورِ بنِ نَجْمٍ نَاطِرًا على الأَمْوَالِ . وَخَرَجَ وَمَعَهُ مُرِّي [Amaury] مَلِكُ الفِرَنْجِ إلى القَاهِرَةِ ، ثُمَّ تَوَجَّهَ مُرِّي [Amaury] إلى بِلَادِهِ ^(a) وَنَزَلَ على صَيْدَا ^(a) .

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ وَرَدَّ الحَبْرُ بِحَرَكَةِ الفِرَنْجِ إلى تُغُورِ مِصْرَ ، فَاهْتَمَّ المَلِكُ الطَّاهِرُ بِيَبْرَسَ بِأَمْرِ الشُّوَانِي ، وَنَصَبَ على أسْوَارِ الإسْكَندَرِيَّةِ نَحْوًا مِنْ ^(b) مِائَةِ مَنجَنِيقٍ .

وَفِي يَوْمِ الخَمِيسِ ، خَامِسِ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ، خَرَجَ بَعْضُ تُجَّارِ الفِرَنْجِ إلى ظَاهِرِ بابِ البَحْرِ ، حَيْثُ تَجْتَمِعُ العَامَّةُ ^(c) لِلْفُرْجَةِ ، وَتَعَرَّضَ إلى صَبِيٍّ أَمْرَدٍ يُرَاوِدُهُ عَنِ نَفْسِهِ ؛ فَأَتَكَرَّ ذَلِكَ بَعْضٌ مِنْ هُنَاكَ مِنَ المُسْلِمِينَ ، وَقَالَ : هَذَا مَا يَحِلُّ . فَأَخَذَ الفِرَنْجِيُّ حُفًّا كَانَ يَبْدُو وَضْرَبَهُ على وَجْهِهِ ، فَصَاحَ بِالنَّاسِ فَأَتَوْهُ ، فَقَامَ الفِرَنْجِيُّ مَعَ صَاحِبِهِمْ .

وَأَتَسَعَ الحَرَقُ ، إلى أَنْ رَكِبَ مُتَوَلِّي الثُّغُرِ ، وَأَغْلَقَ أَبْوابَ المَدِينَةِ ، وَطَلَبَ مَنْ أَثَارَ الفِئْتَةِ ، فَفَرَّوْا ، وَعَادَ إلى دارِهِ وَتَرَكَ الأَبْوابَ مُعْلَقَةً .

وَكَانَ بِظَاهِرِ المَدِينَةِ خَلْقٌ كَثِيرٌ قَدْ تَوَجَّهُوا على عَادَتِهِمْ في حَوَائِجِهِمْ ، فَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بُيُوتِهِمْ ، وَجَاءَ اللَّيْلُ وَهُمْ قِيَامٌ على الأَبْوابِ يَضْجُونَ وَيَصِيحُونَ ، فَمَضَى أَعْيَانُ البَلَدِ إلى المُتَوَلِّي ، وَمَا زالوا بِهِ حَتَّى فَتَحَ لَهُمْ . فَدَخَلُوا مُبَادِرِينَ وَهُمْ يَزْدَجِمُونَ ، فَمَاتَ مِنْهُمْ زِيَادَةٌ على عَشْرَةِ أَنْفُسٍ ، وَتَلَفَّتْ أَعْضَاءُ جَمَاعَةٍ ، وَذَهَبَ مِنْ عَمَائِمِ النَّاسِ وَمَنَادِيهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَعَظُمَ البُكَاءُ وَالصُّرَاخُ طَوْلَ اللَّيْلِ .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ العَدِّ رَكِبَ الوَالِي لِكَشْفِ أَحْوالِ النَّاسِ ، فَتَكَاثَرُوا عَلَيْهِ وَرَجَمُوهُ ، فَانْهَزَمَ مِنْهُمْ إلى دارِهِ ، فَتَبِعُوهُ وَقَاتَلُوهُ ، فَقَاتَلَهُمْ مِنْ أَعْلَى الدَّارِ حَتَّى سَفِكَتَ بَيْنَهُمَا دِمَاءٌ كَثِيرَةٌ ، وَأَحْرَقُوا دارَهُ ^(d) ، وَنَهَبُوا دُورًا بِجَانِبِهِ . فَكَتَبَ يَسْتَنْجِدُ والِي دِمَنْهُورِ وَمَنْ حَوَّلَهُ مِنَ العُرَبِ ، فَأَتَوْهُ وَاسْتَخاطُوا بِالمَدِينَةِ .

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) ساقطة من بولاق . (c) ساقطة من الأصل . (d) بولاق : باه .

وسرَّح الطائر إلى السلطان بخروج أهل الإسكندرية عن الطاعة ، فاشتدَّ غضبه ، وخشى من إطلاقهم الأمرء المسجونين ، وبعث إلى القضاة فجمعهم واستفتاهم في قتالهم ، فكتبوا بما يجب . وخرج إليهم الوزير مغلطاي الجمالي ، وطوغان شادِّ الدواوين ، وأيدمر أمير جنود ، وعدة من الممالك السلطانية ، وناظر الخاص ، ومع الوزير تذكرة بإراقة دماء أهل الفساد ، ومصادرة جماعة ، وأخذ أموال أهل البلد ، والقبض على الأسلحة المعدة بها للغزاة ، وإمساك القاضي والشهود ، وحمل الأمرء المسجونين إلى القاهرة .

فساروا في عاشره ، وقدموا الثغر بعد ثلاثة أيام ، ونزل الوزير بالحيس ، وفرض على الناس خمس مائة ألف دينار مصرية ، وأحضر قاضي القضاة عماد الدين ونائبه في الحديد ، وأنكر عليهما كونهما شهرا النداء في البلد بالغزاة في سبيل الله . فأنكرا وقوع هذا منهما ^(a) وإنما كان من غيرهما ^(a) ، وأنهما لم يكن في قدرتهما ردِّ السواد الأعظم . فضرب نائبه ابن التنسي ^(b) ضرباً مبرحاً ، وألزمه بحمل ست مائة ألف درهم ، وألزم القاضي بخمس مائة ألف درهم ، وكان قد رسم بشنقه ، فتلطف في مكاتبة السلطان ، واعتذر عنه وبرأه حتى عفا عنه .

وتتبع العائمة ، فوسط منهم ثلاثين رجلاً في يوم الجمعة ثالث عشره ، فتسارع الناس إلى ذورهم من الخوف ، فذهبت عدة عمائم ، واشتدَّ الخوف مدة عشرين يوماً ، وكُتب السلطان تتوالى بالإيقاع بأهل الثغر وأخذ أموالهم ، والوزير يُحسين في الجواب إلى أن جهز الأمرء المسجونين وسار من الثغر ، وقد استعرض ما به من السلاح فوجد ستة آلاف عدة كاملة ، جعلها جميعها في قاعة وختم عليها ، وبلغت الجباية من الناس ما يُنيف على مائتين وستين ألف دينار . فكانت هذه من المحن العظيمة ، والحوادث الشنيعة .

ذِكْرُ مَدِينَةِ أَثْرِبِ

هذه المدينة بناها أثرب بن قُبطيم بن مضر بن يتصر بن حام بن نُوح ^١ . قال ابن وصيف شاه : وكان أثرب قد انتقل إلى حيزه بعد موت أبيه قُبطيم ، وهي المدينة التي كان أبوه بناها له ، وكان

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : الشيبى .

^١ مدينة مندرسة يدل على موقعها الآن التلول التي بأحواض أثرب الواقعة في الجهة الشمالية من مكن بندر بنها =

طُولُهَا اثْنِي عَشَرَ مِيلاً ، وَلَهَا اثْنَا عَشَرَ بَابًا ؛ وَجَعَلَ فِي شَارِعِهَا الْأَعْظَمِ ثَلَاثَ قِيَابٍ عَالِيَةٍ عَلَى
 أَعْمِدَةٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، مِنْهَا قُبَّةٌ فِي وَسْطِ الْمَدِينَةِ ، وَقُبَّتَانِ فِي طَرَفَيْهَا ، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ بَابٍ (a)
 مَرْقَبًا كَبِيرًا ، وَفِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهَا مَلْعَبًا وَمَجَالِسَ وَمُنْتَزَهَاتٍ تُشْرِفُ (b) ؛ وَشَقَّ فِي غَرْبِهَا نَهْرًا ،
 وَعَقَدَ عَلَيْهِ قَنَاطِرَ ، وَجَعَلَ مِنْ فَوْقِهَا مَجَالِسَ مُتَّصِلَةً ، وَحَوَّلَهَا الْمَنَازِلُ تَدْوِيرًا بِالْخَلِيجِ مُتَّصِلَةً بِالْقَنَاطِرِ
 عَلَى رِيَاضٍ / مَزْرُوعَةٍ مِنْ خَلْفِهَا الْأَجْنَةِ (c) وَالْبَسَاتِينِ ؛ وَعَلَى كُلِّ بَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ أُعْجُوبَةٌ مِنْ
 تَمَائِيلٍ وَأَصْنَامٍ مُتَّحَرِّكَةٍ ، وَأَصْنَامٍ تَمْنَعُ مِنْ يُؤْذِي ؛ وَجَعَلَ فِي دَاخِلِ كُلِّ بَابٍ صُورَةَ شَيْطَانِينَ مِنْ
 صُفْرِ ، فَإِذَا قَصَدَهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ فَهَقَّةَ الشَّيْطَانِ الَّذِي عَنْ يَمِينَةِ الْبَابِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ
 بَكَى الشَّيْطَانُ الَّذِي عَنْ يَسْرَةِ الْبَابِ ؛ وَجَعَلَ فِي كُلِّ مُنْتَزَهٍ مِنْهَا مِنَ الْوَحْشِ الْآلِيفَةَ وَالطُّيُورَ الْمُغْرَدَةَ
 كُلَّ مُسْتَحْسِنٍ ، وَفَوْقَ قِيَابِ الْمَدِينَةِ صُورًا تُصَفِّرُ إِذَا هَبَّتِ الرِّيَّاحُ ، وَنَصَبَ مَرَايَا (d) تَرَى الْبِلَادَ
 الْبَعِيدَةَ ؛ وَبَنَى حِذَاءَهَا فِي الشَّرْقِ مَدِينَةً ، وَجَعَلَ فِيهَا مَلَاعِبَ وَأَصْنَامًا بَارِزَةً فِي صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ ،
 وَفِي وَسْطِهَا بَرْكَةً إِذَا مَرَّ بِهَا الطُّيْرُ سَقَطَ عَلَيْهَا فَلَا يَبْرَحُ حَتَّى يُؤْخَذَ ؛ وَجَعَلَ لَهَا حِصْنًا بَاثِنِي عَشَرَ
 بَابًا ، عَلَى كُلِّ بَابٍ تَمَثَالٌ يَعْمَلُ أُعْجُوبَةً ؛ وَعَمِلَ حَوْلَئِهَا أَجْنَةً (e) ، وَجَعَلَ بِالْقُرْبِ مِنْهَا - فِي نَاحِيَةِ
 الشَّرْقِ (f) - مَجْلِسًا مَنَقُوشًا عَلَى ثَمَانِي أُسَاطِينَ ، وَفَوْقَهُ قُبَّةٌ عَلَيْهَا طَائِرٌ مَنَشُورُ الْجَنَاحَيْنِ ، يُصَفِّرُ فِي
 كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثَ تَصْفِيرَاتٍ : بُكْرَةً ، وَنِصْفَ النَّهَارِ ، وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ؛ وَأَقَامَ فِيهَا أَصْنَامًا
 وَعَجَائِبَ كَثِيرَةً .

وَبَنَى مُدُنًا كَثِيرَةً ، وَأَقَامَ فِيهَا رَجُلًا يُقَالُ لَهُ بُرْسَانٌ ، يَعْمَلُ الْكِيمِيَاءَ ، وَضَرَبَ مِنْهَا دَنَانِيرَ ، فِي
 كُلِّ دِينَارٍ سَبْعَةَ مَثَاقِيلَ ، عَلَيْهَا صُورَتُهُ .
 وَعَاشَ أَثْرِبَ مَلِكًا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتِينَ سَنَةً ، وَبَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ خَمْسَ مِائَةٍ سَنَةٍ . وَعَمِلَ لَهُ نَاوُوشٌ
 فِي جَبَلٍ بِالْمَشْرِقِ (g) ، حُفِرَ لَهُ تَحْتَهُ سَرَبٌ بَطْنٌ بِالزُّجَاجِ وَالْمُؤَمَّرِ ، وَجُعِلَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ
 مُرْصَعٍ ، وَحُمِلَتْ إِلَيْهِ ذَخَائِرُهُ ، وَجَعَلُوا عَلَى بَابِهِ صُورَةَ تَيْنٍ لَا يَدْتُونُ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا أَهْلَكَهُ ، وَسَفَّوْا
 عَلَيْهِ الرَّمَالَ ، وَزَيَّرُوا عَلَيْهِ اسْمَهُ وَتَارِيخَ وَقْتِهِ .^١

(a) بولاق : قبة . (b) بولاق : تشرق ، وفي المقيس : تشرف على ما تحتها . (c) بولاق : الجنان . (d) بولاق :

مرآة . (e) بولاق : جنان . (f) في المقيس : في شرقها . (g) بولاق : بالشرق .

= (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٨٧ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ١١١ ؛ Maspero & Wiet, Matériaux I, p. 341) .
 المقريزي لأثريب في المقيس الكبير ١ : ٣٤١-٣٤٢ .
^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٦-٧٧ ؛ وترجم

وقال ابن الكندي: أزْبَعُ كُورٍ بِمِصْرَ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَفْضَلُ مِنْهَا، وَلَا تَحْتَ السَّمَاءِ لَهَا
 نُظِيرُ: كُورَةُ الْفَيْيُومِ، وَكُورَةُ أَثْرِبَ، وَكُورَةُ سَمْنُودَ، وَكُورَةُ أَنْصِنَا^١. وَكُورَةُ أَثْرِبَ مِنْ جُمَّلَةِ
 كُورِ أَشْقَلِ الْأَرْضِ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثَمَانِي قُرَى.
 وَكَانَ يُقَالُ مَدَائِنُ الشَّحْرَةِ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ سَبْعٌ، وَهِيَ: أَرْمَنْتُ، وَبَنَّا، وَبُوصِيرُ، وَأَنْصِنَا،
 وَصَانُ، وَأَثْرِبُ، وَصَا^٢.

زَكَرْمُونَةُ تَنِيْسَ

تَنِيْسَ - بِكُشْرِ التَّاءِ الْمَنْقُوطَةِ بِاِثْنَتَيْنِ مِنْ فَوْقِهَا وَكُشْرِ النُّونِ الْمَشْدُودَةِ وَبَاءِ آخِرِ الْحُرُوفِ وَسِينِ
 مُهْمَلَةٍ - بَلَدَةٌ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ فِي وَسَطِ الْمَاءِ، وَهِيَ مِنْ كُورَةِ الْخَلِيجِ، سُمِّيَتْ تَنِيْسَ بْنَ حَامِ بْنِ
 نُوحٍ، وَيُقَالُ بَنَاهَا فُلَيْمُونُ مِنْ وَلَدِ أَثْرِبَ بْنِ قُبُطٍ^(a) أَحَدُ مُلُوكِ الْقِبْطِ فِي الْقَدِيمِ^٣.
 قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٍ: وَمَلَكَتْ بَعْدَ أَثْرِبَ ابْنَتَهُ [تَدْوِرَةٌ]^(b)، فَذَبَّرَتْ الْمَلِكَ وَسَاسَتْهُ بِأَيْدٍ وَقُوَّةٍ،
 خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَمَاتَتْ. فَقَامَ بِالْمَلِكِ مِنْ بَعْدِهَا ابْنُ أُخْتِهَا^(c) فُلَيْمُونُ الْمَلِكُ، فَزَدَ الْوُزَرَاءَ إِلَى
 مَرَاتِبِهِمْ، وَأَقَامَ الْكُفَّانَ عَلَى مَوَاضِعِهِمْ، وَلَمْ يَخْرُجِ الْأَمْرُ عَنْ رَأْيِهِمْ، وَجَدَّ فِي الْعِمَارَاتِ وَطَلَبَ

(a) بولاق: قبليم. (b) إضافة لما تقدم ١: ١٣٨. (c) فيما تقدم ١: ١٣٨ أخوها.

١ ابن الكندي: فضائل مصر ٣٦.
 ٢ انظر فيما تقدم ٣٤.
 ٣ تَنِيْسَ. مدينةٌ من مدرسة، وهي جزيرة كانت قرية من
 البر ما بين الفَرَمَا ودِمِيَاطٍ يحيط بها البحر من كل جهة،
 وكان النيل في وقت الفيضان تغلب حلاوته على ماء البحر
 فتصير البحيرة حلوة، فحيث يدخر أهل تَنِيْسَ المياه في
 صهاريجهم لستهم. واشتهرت في العصر الفاطمي
 بصناعة الثياب الملونة والبوقلمون (ناصر خسرو: سفرنامه
 ٧٧).
 ولاتزال الجزيرة التي كانت بها مدينة تَنِيْسَ موجودة إلى
 اليوم ببحيرة المنزلة وتعرف بجزيرة تَنِيْسَ وبها بعض بقايا من
 الطوب الأحمر الخلف من مبانيها القديمة، وهي تقع على
 بعد تسعة كيلومترات جنوب غربي مدينة بورسعيد الحالية.
 (راجع، البكري: جغرافية مصر ٩٠-٩٢ مجهول:
 الاستبصار ٨٧-٨٨؛ ياقوت: معجم البلدان ١: ٥١-
 ٥٤؛ النويري: نهاية الأرب ١: ٢٥٢؛ ابن دقماق:
 الانتصار ٥: ٧٨-٧٩؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي
 ١: ١٩٧-١٩٨؛ محمد بن أحمد بن بسام المحتسب:
 «أنيس الجليس في أخبار تَنِيْسَ»، نشر وتحقيق جمال الدين
 الشيال، مجلة المجمع العلمي العراقي ١٤ (١٩٦٧)،
 ١٥١-١٨٩؛ جابر سلامة المصري: «مدينة تَنِيْسَ في
 التاريخ الإسلامي»، مجلة كلية الآداب - جامعة
 الإسكندرية ٣٥ (١٩٨٧)، ٨٩-١٤٢؛ Maspero &
 Wiet, *Matériaux*, pp. 60-61; Mouton, J.M., *El*²
 . (art. Tinnis X, pp. 570-71

الحِكْم . وفي أيامه بُنِيَتْ تَيْسِ الأُولَى التي غَرَقَهَا البحرُ ، وكان بينه وبينها شيءٌ كثيرٌ ، وحوَّلَهَا الزَّرْعَ والشُّجْرَ والكُرُومَ ، وقَرَى ومَعَاصِرَ للْحَمْرِ ، وِعِمَارَةَ لم يَكُنْ أَحْسَنَ مِنْهَا ^١ .
فَأَمَرَ المَلِكُ أَنْ يُبْنَى لَهُ وَسَطُهَا ^(a) مَجَالِسَ ، وَيُنْصَبَ لَهُ عَلَيْهَا قِيَابٌ ، وتُزَيَّنَ بِأَحْسَنِ الزُّيْنَةِ والقُشُوفِ ، وَأَمَرَ بِفَرْشِهَا وَإِضْلَاحِهَا ؛ وكان إِذَا بدأ النِّيلُ يَجْرِي انتَقَلَ المَلِكُ إِلَيْهَا ، فَأَقَامَ بِهَا إِلَى الثَّوْرُوزِ وَرَجَعَ .

وكان للمَلِكِ بِهَا أَمْنَاءٌ يَتَّقِمُونَ المِيَاهَ ، وَيُعْطُونَ كُلَّ قَرْيَةٍ قِسْطَهَا ، وكان عَلَى تِلْكَ القَرْيَةِ حِصْنٌ يَدُورُ بِقِنَاطِرٍ ، وكان كُلُّ مَلِكٍ يَأْتِي بِإِمَارَةٍ بِهَا ^(b) وَالزِّيَادَةَ فِيهَا ، وَيَجْعَلُهَا لَهُ مُتَنَزَّهًا . وَيُقَالُ إِنَّ الْجَنَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرَهُمَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ ، إِذْ يَقُولُ : ﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ...﴾ [الآية ٣٢ سورة الكهف] ، كانتا لأَخَوَيْنِ مِنْ بَيْتِ المَلِكِ أَقْطَعَهُمَا ذَلِكَ المَوْضِعَ ^٢ ، فَأَحْسَنَّا عِمَارَتَهُ وَهَنْدَسَتَهُ وَبُنيَانَهُ . وكان المَلِكُ يَتَنَزَّهُ عَلَيْهِمَا ^(c) ، وَيُؤْتَى بِغَرَائِبِ الفَوَاكِهِ والبُقُولِ ، وَيُعْمَلُ لَهُ مِنَ الأَطْعِمَةِ والأَشْرِبَةِ مَا يَسْتَطِيبُهُ . فَعَجِبَ بِذَلِكَ المَكَانِ أَحَدُ الأَخَوَيْنِ ، وكان كَثِيرَ الضِّيَافَةِ والصَّدَقَةِ ، فَفَرَّقَ مَالَهُ فِي وجوه البِرِّ ، وكان الأَخْرَ مُمَسِكَاً يَشْخَرُ مِنْ أَخِيهِ إِذَا فَرَّقَ مَالَهُ ، وَكَلَّمَا باعَ مِنْ قِسْمِهِ شَيْئًا اشْتَرَاهُ مِنْهُ ، حَتَّى بَقِيَ لا يَمْلِكُ شَيْئًا .

١٥ وصارَتْ تِلْكَ الأَجِنَّةُ ^(d) لأَخِيهِ ، واحْتِاجَ إِلَى سؤَالِهِ ، فانتَهَرَه وطَرَدَهُ ، وَعَيَّرَهُ بالتَّبْذِيرِ وَقَالَ : قد كُنْتُ أَنصَحُكَ وَأَمْرُكَ ^(e) بِصِيَانَةِ مَالِكَ فلم تَفْعَلْ ، وَتَفَعَّنِي إِمْساكِي فَصِرْتَ أَكْثَرَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ، وَوَلَّى عَنْهُ مَسْرُورًا بِمَالِهِ وَجَنَّتِهِ . فَأَمَرَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ ^(f) - البَحْرَ ، فَرَكِبَ تِلْكَ القَرْيَةَ وَغَرَقَهَا جَمِيعًا ، فَأَقْبَلَ صَاحِبُهَا يُؤَلِّوِلُ وَيَدْعُو بالبُورِ ^٣ ، ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ؛ قال اللهُ جَلَّ جَلالُهُ : ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الآيات ٤٢ ، ٤٣ سورة الكهف] .

٢٠ وفي زَمَانِ قَلِيمُونَ المَلِكِ بُنِيَتْ دِمْيَاطُ ^٤ .

(a) بولاق : فِي وَسَطِهَا . (b) بولاق : بِعِمَارَتِهَا . (c) بولاق : فِيهِمَا . (d) بولاق : الجِنَّةُ . (e) ساقطة من بولاق . (f) بولاق : تَعَالَى .

^١ انظر فيما تقدم ٣٧٧ . والعجائب الكبيرة لإبراهيم بن وصيف شاه .

^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٧ - ٧٨ .

^٤ النويري : نهاية ١٥ : ٧٨ ؛ وفيما يلي ٥٨١ .

^٣ قارن النويري : نهاية الأرب ١ : ٢٥٢ نقلًا عن كتاب

وملك فليمون تسعين سنة ، وعمِلَ لنفسه ناووسًا في الجبل الشرقي ، وحوّل إليه الأموال والجواهر وسائر الذخائر ، وجعل من داخله تماثيل تدور بلوالب^(a) في أيديها سيوف ، من دخل قطعته . وجعل عن يمينه ويساره أسدين من نحاس مذهب بلوالب^(a) ، من أتاه حطّماه ، وزبر عليه : هذا قبر فليمون بن أثريب بن قبطيم بن مصرم^(b) ، عمّر / دهرًا ، وأتاه الموت فما استطاع له دفعًا ، فمن وصل إليه فلا يشلبه ما عليه ، وليأخذ مما^(c) بين يديه^١ .

ويقال إن تيس أخ لديمياط^٢ .

وقال المسعودي في كتاب «مروج الذهب» : وبخيرة^(d) تيس كانت أرضًا لم يكن بمصر مثلها اشتواء وطيب تربة [وثرًا]^(e) ، وكانت جنايًا ونخلًا وكرومًا وشجرًا ومزارع ، وكانت فيها مجاري^(f) على ارتفاع من الأرض . ولم ير الناس بلدًا أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن اتصالًا من جنايتها وكرومها ، ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم . وكان الماء منحدرا إليها ، لا ينقطع عنها صيفًا ولا شتاءً ، يشقون جنايتهم^(g) إذا شاءوا ، وكذلك زروعهم ، وسائرهم يصب إلى البحر من جميع خلجانهم ، ومن الموضع المعروف بالأشثوم .

وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض مسيرة يوم ، وكان فيما بين العريش وجزيرة قُبُوس طريق مسلك إلى قُبُوس تسلكه الدواب يسًا ، ولم يكن بين العريش وجزيرة قُبُوس في البحر سبيل طويل ، حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وبين^(h) قُبُوس^٣ .

فلما مضت لدقطنانوس من ملكه مائتان وإحدى وخمسون سنة ، هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم بخيرة تيس فأغرقته ، ويزيد في كل عام حتى أغرقتها بأجمعها ، فما كان من القرى التي في قراريها غرق ، وأما الذي كان منها على ارتفاع من الأرض فبقيت منها ثونة وبورا ، وغير ذلك مما هو باق إلى هذا الوقت ، والماء محيط بها .

وكان أهل القرى التي في هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تيس ، فيقبرونهم واحدًا فوق واحد⁽ⁱ⁾ . وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها قبل أن تفتح مصر بمائة سنة^٤ .

(a) الأصل : بكواكب . (b) بولاق : مصر . (c) بولاق : من . (d) بولاق : وغيره . (e) إضافة من المسعودي . (f) الأصل : بحار . (g) الأصل : جنتهم . (h) ساقطة من بولاق . (i) بولاق : فنبشوم واحدًا =

^٣ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٧٤ - ٧٥ .

^١ التويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٨ .

^٤ نفسه ٢ : ٧٦ ، وقارن ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٩٧ .

^٢ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٧٨ .

قَالَ: وَقَدْ كَانَ لِمَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ الَّتِي كَانَتْ دَارَهُ^(a) الْفَرَمَا، مَعَ أَرْكَونٍ مِنْ أَرَاكِنَةِ الْبَلِيَّتَا وَمَا اتَّصَلَ بِهَا مِنَ الْأَرْضِ، حُرُوبٌ عَمِلَتْ فِيهَا خَنَادِقٌ وَخُلْجَانَاتٌ^(b)، فَتَحَتْ مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْبَحْرِ، يَمْتَنِعُ بِهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْآخَرِ. وَكَانَ ذَلِكَ دَاعِيًا لِتَشَعُّبِ الْمَاءِ مِنَ النَّيْلِ، وَاسْتِيلَاتِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ^١.

وَقَالَ فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الزَّمَانِ»: وَكَانَتْ تَيْسٌ عَظِيمَةً لَهَا مِائَةٌ بَابٍ^٢.

وَقَالَ ابْنُ بُوْتْلَانَ^٣: تَيْسٌ بَلَدٌ صَغِيرٌ، عَلَى جَزِيرَةٍ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ، مِثْلَهُ إِلَى الْجَنُوبِ عَنْ وَسْطِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ خَمْسَ دَرَجٍ، وَأَرْضُهُ سَبْخَةٌ، وَهَوَاؤُهُ مُخْتَلَفٌ، وَشَرَبَ أَهْلُهُ مِنْ مِيَاهِ مَخْزُونَةٍ فِي صَهَارِيحٍ تُمَلَأُ فِي كُلِّ سَنَةٍ عِنْدَ عُذُوبَةِ مِيَاهِ الْبَحْرِ بِدُخُولِ مَاءِ النَّيْلِ إِلَيْهَا، وَجَمِيعُ حَاجَاتِهَا مَجْلُوبَةٌ إِلَيْهَا فِي الْمَرَاكِبِ.

وَأَكْثَرُ أَغْذِيَةِ أَهْلِهَا الشَّمَكُ وَالْجُبْنُ وَالْبَانُ الْبَقَرِ، فَإِنَّ ضَمَانَ الْجُبْنِ السُّلْطَانِي سَبْعَ مِائَةِ دِينَارٍ حِسَابًا عَنْ كُلِّ أَلْفٍ قَالَبٍ دِينَارٍ وَنِصْفٍ، وَضَمَانَ الشَّمَكِ عَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارٍ. وَأَخْلَاقُ أَهْلِهَا سَهْلَةٌ مُتَقَادَةٌ، وَطَبَائِعُهُمْ مَائِلَةٌ إِلَى الرُّطُوبَةِ وَالْأُنُوثَةِ.

قَالَ أَبُو الشَّرِيِّ الطَّبِيبُ: إِنَّهُ كَانَ يُوَلَدُ بِهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَتَا مُخَنَّثٍ، وَهُمْ يُحِبُّونَ النَّظَافَةَ وَالِدَّمَائَةَ وَالْغِنَاءَ وَاللَّذَّةَ، وَأَكْثَرَهُمْ يَبْتَغُونَ سُكَارَى، وَهُمْ قَلِيلُو الرِّيَاضَةِ لِضَيْقِ الْبَلَدِ، وَأَبْدَانُهُمْ مُتَمَلِّكَةٌ أَخْلَاطًا^(c)، وَحَصَلَ بِهَا مَرَضٌ، يُقَالُ لَهُ الْفَوَاقُ التَّيْسِي، أَقَامَ بِأَهْلِهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً.

= بعد واحد، الأصل: فيعجبونهم واحدا فوق واحد، والمثبت من مروج الذهب مصدر النقل. (a) بولاق: دارها. (b) بولاق: خُلْجَان. (c) بولاق: الأخلاط.

^١ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧٦. مصر. ثم غادرها بعد أربع سنوات إلى القسطنطينية ومنها إلى حلب وأنطاكية حيث ترهب بها وتوفي سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م. واشتهر بكتابه «دعوة الأطباء» وكتابه «تقويم الصحة» ورسائله التي نشرها شاخت ومايرهوف (القفطي: تاريخ الحكماء ٢٩٤-٣١٥؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١: ٢٤١-٢٤٣؛ Schacht, J., El² art. Ibn Butlân III, pp. 763-64).

^٢ المسعودي: أخبار الزمان ٢٦.

^٣ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون ابن بُوْتْلَانَ، طبيب من أهل بغداد، التي غادرها سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م، في رحلة زار فيها الرحبة والرصافة وحلب وأنطاكية ويافا، وانتهت به في القاهرة حيث دخل في مناظرة مع علي بن رضوان الطبيب رئيس أطباء

وقال جامع «تاريخ دمياط»^١: وكان على تيس رجل، يقال له أبو ثور، من العرب المنتصرة، فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون، فبرز إليهم في^(a) نحو عشرين ألفاً من العرب المنتصرة والقبط والروم، وكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانتهزام أصحابه، فدخل المسلمون البلد، وبنوا كنيستها جامعاً، وقسموا الغنائم، وساروا إلى قرماً^٢.

وكانت تيس مدينة كبيرة، وفيها آثار كثيرة للأوائل، وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء، وأكثرهم حاكة، وبها يحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا.

وكان يصنع فيها للخليفة بمصر^(b) ثوب يقال له «البدنة»، لا يدخل فيه الغزل - سداء ولحمة - غير أوقيتين، ويُنسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تخرج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينار. وليس في الدنيا طراز ثوب كئان يبلغ الثوب منه - وهو ساذج بغير ذهب - مائة دينار عتيماً غير طراز تيس ودمياط.

وكان الثبل إذا أُطلق يشرب منه من بمشارق القرماً من ناحية جزجير وفاقوس، من خليج تيس ومغايضها^(b).

وكانت تيس^(b) من أجل مدن مصر، وإن كانت شطاً ودبقو ودميرة وثونة، وما قاربهم من تلك الجزائر، يُعمل فيها الرفيع، فليس ذلك بمقارب^(c) للتيسي والدمياطي والشطوي^(b). وكان الحمل منها إلى بعد سنة ستين وثلاث مائة، يبلغ من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق، فلما تولى الوزير يعقوب بن كلس تدير المال، استأصل ذلك بالتوائب.

وكان يسكن بجزيرة^(d) تيس ودمياط نصارى تحت الذمة، وكان أهل تيس يصيدون السماني وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم - والسّماني طير^(e) يخرج من البحر فيتقع في تلك الشباك -، وكانت السفن تُركب من تيس إلى القرماً وهي على ساحل البحر.

(a) بولاق : فيهم . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : يقارب . (d) بولاق : بمدينة . (e) بولاق : طائر .

^١ لم يُحدّد المقرئ اسم جامع تاريخ دمياط ولم يشر إليه .
^٢ الدكتور جمال الدين الشيال في رسالته «مجمّل تاريخ دمياط»، كما أنني لم أتمكن من الاهتداء إليه، وانظر فيما يلي قبل الفقرة التي أولها: «ولما مات هارون الرشيد . . .» .

أفلم تَزَلْ تَيْسٌ بيد المُسلمين إلى أن كانت إمْرَةٌ بِشْرَ بنِ صَفْوَانَ الكَلْبِيِّ على مصر، من قِبَلِ يزيد بن عبد الملك، في شهر رمضان سنة إحدى ومائة، فنَزَلَ الرُّومُ تَيْسَ، فقتِلَ مُزَاجِمُ بنِ سَلَمَةَ^(a) المُرادِي أميرها في جَمْعٍ من الموالِي؛ ولهم^(b) يقول الشَّاعِرُ:

[الوافر]

أَلَمْ تَزْبِعْ فيخْبِرُكَ الرِّجَالُ بِمَا لاقَى بَيْتَيْسَ الموالِي
ولما مات هارون الرشيد، وقام من بعده ابنه محمد الأمين، وأراد العَدْرَ والنَّكثَ بالمأمون، كان على مصر حاتم بن هَزْئَمَةَ بنِ أَعْيَنَ من قِبَلِ الأمين، فلما نازَ عليه أهل نَثْوِ وتَمِي^(c)، بَعَثَ إليهم الشَّرِيَّ بنَ الحَكَمِ وعبد العزيز بن الوزير الجَزَوِي، فعَلَبَا اليمانية في^(d) شَوَّالِ سنة أربع وتسعين ومائة^٢.

ثم وَلِيَ الأَمِيرُ جَابِرُ بنُ الأَشْعَثِ الطَّائِي مصر، وَصُرِفَ حاتم بن هَزْئَمَةَ، وكان جَابِرُ لَيْتًا، فلَمَّا تباعد ما بين محمد الأمين وبين أخيه عبد الله المأمون، وَخَلَعَ محمد أخاه من ولاية العهد، وترك الدُّعَاءَ له على المنابر، وعَهْدَ إلى ابنه موسى ولَقَبَهُ بالشَّدِيدِ، ودَعَا له، تَكَلَّمَ الجُنْدُ بمصر بينهم في خَلَعَ محمد غَضَبًا للمأمون، فبَعَثَ إليهم جَابِرُ يَنْهَاهُم عن ذلك، وَيُخَوِّفُهُم عَوَاقِبَ الفِتَنِ. وأَقْبَلَ الشَّرِيَّ بنَ الحَكَمِ يَدْعُو النَّاسَ إلى خَلَعَ محمد، وكان مَن دَخَلَ إلى مصر في أيام الرشيد من جُنْدِ اللَّيْثِ بنِ الفَضْلِ، وكان خَامِلًا، فارتفع ذكره بقيامه في خَلَعَ محمد الأمين. وَكَتَبَ المأمون إلى أَشْرَافِ مصر يَدْعُوهُمْ إلى القيام بدَعْوَتِهِ، فأجابوه وبايعوا المأمون في رجب سنة ست وتسعين مائة، وَوَثَبُوا بجابر فأخْرَجُوهُ، وَوَلَّوْا عَبَّادَ بنَ مُحَمَّدٍ^٣.

فبَلَغَ ذلك محمدًا الأمين، فَكَتَبَ إلى رُؤَسَاءِ الحَوْفِ بولاية ربيعة بن قَيْسِ الجَرَشِيِّ، وكان رَيْسَ قَيْسِ الحَوْفِ، فانتقاد أهل الحَوْفِ كلُّهم معه، يَمْنُهَا وَقَيْسُهَا، وأظهروا دَعْوَةَ الأمين وَخَلَعَ المأمون، وساروا إلى الفُسْطَاطِ لمُحَارَبَةِ أَهْلِهَا، واقتتلوا فكانت بينهما قَتْلَى، ثم انصَرَفُوا وعادُوا مِرَازًا إلى الحَرْبِ.

(a) بولاق: مسلمة. (b) بولاق: فيهم. (c) بولاق: تنو ونمي. (d) بولاق: بعد الثمانية من.

^٢ الكندي: ولاية مصر ١٧٣-١٧٤.

^٣ نفسه ١٧٤-١٧٥.

^١ هذه الفقرة وردت في بولاق قبل الفقرة التي تبدأ بـ: وكانت تيس مدينة كبيرة، وهذا الخطأ نتيجة النقل عن طيارات المقرئ دون معرفة موضعها الصحيح.

فَعَقَدَ عَبَّادُ بْنُ مُحَمَّدٍ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَزَوِيِّ ، وَسَيَّرَهُ فِي جَيْشٍ لِيُحَارِبَ الْقَوْمَ فِي دَارِهِمْ ، فَخَرَجَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ ، وَحَارَبَهُمْ بِعَمْرِيَطَ ، فَانْهَزَمَ الْجَزَوِيُّ ، وَمَضَى فِي قَوْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وَجُذَامٍ إِلَى فَاقُوسَ ، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ : أَلَا تَدْعُو لِنَفْسِكَ ، فَمَا أَنْتَ بَدُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأَرْضِ ؟ فَمَضَى فِيهِمْ إِلَى تَيْسٍ فَتَزَلَّهَا ، ثُمَّ بَعَثَ بِعُمَّالِهِ يَجْبُونَ الْخَرَاجَ مِنْ أَسْفَلِ الْأَرْضِ .

فَبَعَثَ رَبِيعَةُ بْنُ قَيْسٍ يَمْنَعَهُ مِنَ الْجَبَايَةِ ، وَسَارَ أَهْلُ الْحَوْفِ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ إِلَى الْفُسْطَاطِ فَاقْتَتَلُوا ، وَقُتِلَ جَمْعٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ . وَبَلَغَ أَهْلَ الْحَوْفِ قَتْلُ الْأَمِينِ ، فَتَفَرَّقُوا ^١ .
وَوَلَّى إِمْرَةَ مِصْرَ مُطَلِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَزَاعِيُّ مِنْ قِبَلِ الْمَأْمُونِ ، فَدَخَلَهَا فِي رِيْعِ الْأَوَّلِ ، وَوَلَّى عَبْدَ الْعَزِيزِ الْجَزَوِيَّ شُرْطَتَهُ ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَعَقَدَ لَهُ عَلَى حَزْبِ أَسْفَلِ الْأَرْضِ ^٢ .

ثُمَّ صُرِفَ الْمُطَلِبُ ، وَوَلَّى الْعَبَّاسُ بْنُ مُوسَى بْنِ عَيْسَى فِي شَوَّالٍ ، فَوَلَّى عَبْدَ الْعَزِيزِ الشُّرْطَةَ . فَلَمَّا نَارَ الْجُنْدُ ، وَأَعَادُوا الْمُطَلِبَ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ ، هَرَبَ الْجَزَوِيُّ إِلَى تَيْسٍ . وَأَقْبَلَ الْعَبَّاسُ بْنُ مُوسَى بْنِ عَيْسَى مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْحَوْفِ ، فَتَزَلَّ بِبَيْتَيْسٍ وَدَعَا قَيْنَسًا إِلَى نُصْرَتِهِ ، ثُمَّ مَضَى إِلَى الْجَزَوِيِّ بِتَيْسٍ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْزِلَ دَارَ قَيْسٍ ، فَرَجَعَ إِلَى بَيْتَيْسٍ فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ ، وَبِهَا مَاتَ مَشْمُومًا فِي طَعَامِ دَسَّهِ إِلَيْهِ الْمُطَلِبُ عَلَى يَدِ قَيْسٍ ^٣ . فَدَانَ أَهْلُ الْأَخْوَافِ لِلْمُطَلِبِ وَبَايَعُوهُ ، وَسَارَعُوا إِلَى جُبِّ عُمَيْرَةَ وَسَلَّمُوهُ عِنْدَمَا لَقَّوه ، وَبَعَثَ إِلَى الْجَزَوِيِّ بِأَمْرِهِ بِالشُّخُوصِ إِلَى الْفُسْطَاطِ ، فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ ، وَسَارَ فِي مَرَاكِبِهِ إِلَى ^(a) شَطْنُوفٍ ^٤ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُطَلِبُ الشَّرِيَّ بْنَ الْحَكَمِ فِي جَمْعٍ مِنَ الْجُنْدِ يَسْأَلُونَهُ الصُّلْحَ ، فَأَجَابَهُمْ إِلَيْهِ ، ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي الْعَدْرِ بِهِمْ ، فَتَيَقَّنُوا لَهُ ، فَمَضَى رَاجِعًا إِلَى بَنَّا ، فَاتَّبَعُوهُ وَحَارَبُوهُ . ثُمَّ عَادَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الصُّلْحِ وَلاَطَفَ الشَّرِيَّ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فِي زَلَّاجٍ ، وَخَرَجَ الْجَزَوِيُّ فِي مِثْلِهِ ، فَالْتَقَيَا فِي وَسْطِ النَّيْلِ مُقَابِلَ سَنَدَفَا ، وَقَدْ أَعَدَّ الْجَزَوِيُّ فِي بَاطِنِ زَلَّاجِهِ الْحِيَالَ ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِسَنَدَفَا إِذَا لَصِقَ بِزَلَّاجِ الشَّرِيَّ أَنْ يَجْرُوا الْحِيَالَ إِلَيْهِمْ ^(b) ، فَلَصِقَ الْجَزَوِيُّ بِزَلَّاجِ الشَّرِيَّ ، فَرَبَطَهُ فِي زَلَّاجِهِ وَجَرَّ الْحِيَالَ ، وَأَسَرَ الشَّرِيَّ وَمَضَى بِهِ إِلَى تَيْسٍ

(a) بولاق : حتى نزل . (b) بولاق : إليها .

^١ الكندي : ولاية مصر ١٨٠ - ١٨١ .

^٢ الكندي : ولاية مصر ١٧٧ .

^٣ انظر فيما يلي ١ : ٤٨٩ .

^٤ نفسه ١٧٨ ؛ وانظر عن ولاية حرب أسفل الأرض

فيما يلي ٢ : المسودة .

فَسَجَنَهُ بِهَا ، وَذَلِكَ فِي جَمَادَى الْأُولَى ^١ . ثُمَّ كَرَّ الْجَزَوِيُّ وَقَاتَلَ ، فَلَقِيَتْهُ ^(a) جَمْعُ الْمُطَّلِبِ سَفْطَ سَلَيْطَ فِي رَجَبٍ ، فَظَفِرَ ^٢ .

وَلَمَّا عَزَلَ عُمَرَ بْنَ مَلَالٍ ^(b) عَنِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، ثَارَ بِالْأَنْدَلُسِيِّينَ وَدَعَا لِلجَزَوِيِّ ، فَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى بْنِ عَيْسَى إِلَى مِصْرَ ، طَالِبًا بَدَمَ أَخِيهِ الْعَبَّاسِ ، فِي الْحَرَمِ سَنَةَ مَائَتَيْنِ ، فَتَزَلَ عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَزَوِيِّ ، فَسَارَ مَعَهُ فِي جُيُوشِ كَثِيرَةِ الْعَدَدِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى نَزَلَ الْحَيْزَةَ .

فَخَرَجَ إِلَيْهِ الْمُطَّلِبُ فِي أَهْلِ مِصْرَ ، فَحَارَبُوهُ فِي صَفَرٍ ، فَرَجَعَ الْجَزَوِيُّ إِلَى شَرْقِيَّيْنِ ، وَمَضَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى إِلَى الْحِجَازِ ، وَظَهَرَ الْمُطَّلِبُ عَلَى أَنْ أَبَا حَزْمَةَ فَرَجًا الْأَشُودَ هُوَ الَّذِي كَاتَبَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنَ مُوسَى وَحَرَّضَهُ عَلَى الْمَسِيرِ ، فَطَلَبَهُ فَفَرَّ إِلَى الْجَزَوِيِّ .

وَجَدَّ الْمُطَّلِبُ فِي أَمْرِ الْجَزَوِيِّ ، فَأَخْرَجَ الْجَزَوِيَّ الشَّرِيَّ بْنَ الْحَكَمِ مِنَ السَّجَنِ ، وَعَاهَدَهُ وَعَاقَدَهُ عَلَى أَنْ يَثُورَ بِالْمُطَّلِبِ وَيَخْلَعَهُ ، فَعَاهَدَهُ الشَّرِيَّ عَلَى ذَلِكَ فَأَطْلَقَهُ ، وَأَلْقَى إِلَى أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ كِتَابًا وَرَدَّ بُولَايَتَهُ ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْجُنْدُ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ ، وَعَقَدُوا لَهُ عَلَيْهِمْ ؛ وَامْتَنَعَ الْمِصْرِيُّونَ مِنْ وِلَايَتِهِ ، فَتَزَلَ دَارَهُ بِالْحَمْرَاءِ ، وَأَمَدَهُ قَيْسُ بَجَمْعٍ مِنْهُمْ ، وَحَارَبَ الْمِصْرِيِّينَ فَهَزَمَهُمْ وَقَتَلَ مِنْهُمْ ، فَطَلَبَ الْمُطَّلِبُ مِنْهُ الْأَمَانَ فَأَمَّنَهُ ، وَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ ، وَاسْتَبَدَّ الشَّرِيُّ بْنُ الْحَكَمِ بِأَمْرِ مِصْرَ فِي مَسْتَهْلٍ شَهْرِ رَمَضَانَ ^٣ . فَلَمَّا قَتَلَ الْأَنْدَلُسِيُّونَ عُمَرَ بْنَ مَلَالٍ ^(b) بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، سَارَ إِلَيْهَا الْجَزَوِيُّ فِي خَمْسِينَ أَلْفًا ، فَبَعَثَ الشَّرِيَّ إِلَى تَيْسٍ بَغْتًا ، فَكَرَّ الْجَزَوِيُّ رَاجِعًا إِلَى تَيْسٍ فِي مَحْرَمِ سَنَةِ إِحْدَى / وَمَائَتَيْنِ ^{١٥} . فَلَمَّا ثَارَ الْجُنْدُ بِالشَّرِيَّ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ ، وَبَايَعُوا سُلَيْمَانَ بْنَ غَالِبٍ ، قَامَ عَبَّادُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَخَلَعَهُ ^٤ .

وَقَامَ بِالْأَمْرِ عَلِيُّ بْنُ حَنْزَلَةَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي مَسْتَهْلٍ شَعْبَانَ ، فَامْتَنَعَ عَبَّادُ أَنْ يُبَايِعَهُ وَلَحِقَ بِالْجَزَوِيِّ ، ثُمَّ لَحِقَ بِهِ أَيْضًا سُلَيْمَانُ بْنُ غَالِبٍ ، فَكَانَ مَعَهُ . وَعَادَ الشَّرِيُّ إِلَى وِلَايَةِ مِصْرَ فِي شَعْبَانَ ، وَقَوِيَ سُلْطَانُهُ ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَمَائَتَيْنِ ، وَرَدَّ كِتَابَ الْمُأْمُونِ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ بِالْبَيْعَةِ لَوْلِيِّ عَهْدِهِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرُّضِيِّ ، فَبُيِعَ لَهُ بِمِصْرَ . وَقَامَ فِي

(a) بولاق : نقيه . (b) النسخ : ملاك .

^١ سنة تسع وتسعين ومائة ؛ والزلاج نوع من القوارب .

^٢ نفسه ١٨٣ - ١٨٤ .

^٤ نفسه ١٨٢ .

^٢ الكندي : ولاة مصر ١٨٢ .

فساد ذلك إبراهيم بن المهدي ببغداد ، وكتب إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولي عهده ، وبالوثوب على الشري . فقام بذلك الحارث بن زوزة بن قحزم^(a) بالفسطاط ، وعبد العزيز ابن الوزير الجزوي بأسفل الأرض ، وسلمة^(b) بن عبد الملك الطحاوي الأزدي بالصعيد ، وخالفوا الشري ، ودعوا إلى إبراهيم بن المهدي ، وعقدوا على ذلك الأمر لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي ، فحاربه الشري وظفر به في صفر .

ولحق كل من كره بيعة علي الرضى بالجزوي ، لمنعته بتيس وشدة سلطانه ، فسار إلى الإسكندرية وملكها ، ودعي له بها وبلاد الصعيد . ثم سار في جمع كثير لمحاربة الشري ، واستعد كل منهما لصاحبه بأعظم ما قدر عليه . فبعث إليه الشري ابنه ميمونا ، فالتقى بشطوف ، فقتل ميمون في جمادى الأولى سنة ثلاث ومائتين^١ . وأقبل الجزوي في مراكبه إلى الفسطاط ليحرقها ، فخرج إليه أهل المسجد وسألوه الكف ، فأنصرف عنها^٢ . وحارب الإسكندرية غير مرة ، وقتل بها من حجر أصابه من منجنيقه في آخر صفر سنة خمس ومائتين ، ومات الشري بعده بثلاثة أشهر في آخر جمادى الأولى^٣ .

وقام بعد الجزوي ابنه علي بن عبد العزيز الجزوي ، فحارب أبا نصر محمد بن الشري - أمير مصر بعد أبيه - بشطوف ، ثم التقي بدمنهور ، فيقال إن القتل بينهما يومئذ كانوا سبعة آلاف ، وانهم ابن الشري إلى الفسطاط ، فتبعته مراكب ابن الجزوي ثم عادت ، فدخل أبو خزملة بينهما حتى اضطلحا^٤ . ومات ابن الشري في شعبان سنة ست ومائتين ، فولي بعده أخوه عبيد الله بن الشري ، فكف عن ابن الجزوي .

وبعث المأمون بخالد^(c) بن يزيد بن مزيد الشيباني إلى مصر في جيش من ربيعة ، فامتنع عبيد الله بن الشري من التسليم له ومانعه ، فاقتتلوا بفاقوس^(d) . وانضم علي بن الجزوي إلى خالد بن يزيد ، وأقام له الأتزال وأغاثه ، وسار حتى نزل على خندق عبيد الله بن الشري ، فاقتتلا في شهر ربيع الأول سنة سبع ومائتين ، وجرت بينهما محروب بعد ذلك آلت إلى ترفع خالد إلى أرض الحوف ؛ فكره ذلك ابن الجزوي ، ومكر به حتى أخرجه من عمله إلى غربي النيل ، فنزل نهيا ،

(a) بولاق : محرم . (b) بولاق : مسلمة . (c) بولاق : مخلد . (d) ساقطة من بولاق .

^١ الكندي : ولاية مصر ١٩٢-١٩٣ . ^٢ نفسه ١٩٤ . ^٣ نفسه ١٩٦ . ^٤ نفسه ١٩٧ .

وأنصرف ابن الجزوي إلى تيس، فصار خالد في ضراً وجهيد، وعسكر له ابن السري في شهر رمضان وأسرته، وأخرجته من مصر إلى مكة في البحر^١.

وَبَعَثَ المأمون بولاية عبيد الله بن السري على ما في يده، وهو فسطاط مصر وصعيدها وغريبها، وبولاية علي بن عبد العزيز الجزوي تيس مع الخوف الشرقي وضمنه خراجها. وأقبل ابن الجزوي على استخراج خراجها من أهل الخوف، فمانعوه وكتبوا إلى ابن السري يستمدونه عليه، فأمدهم بأخيه، فالتقى بكورة بنا في بلقينة، فاقتتلوا في صفر سنة تسع ومائتين، وامتدت الحرب^(a) بينهما إلى أثناء ربيع الأول وهم منتصفون.

فأنصرف ابن الجزوي فيمن معه إلى دمياط، فسار ابن السري إلى محلة شريقون ونهبها، وبعث إلى تيس ودمياط فملكهما. ولحق ابن الجزوي بالفرما، وسار منها إلى العريش، فنزل فيما بينها وبين غزة، ثم عاد وأغار على الفرما في جمادى الآخرة، ففر أصحاب ابن السري من تيس.

وسار ابن الجزوي إلى شطوف، فخرج إليه ابن السري. واقتتلا، فكانت لابن الجزوي في أول النهار، ثم أتاه كمين ابن السري فانهزم، وذلك في رجب، فمضى إلى العريش، وسار ابن السري إلى تيس ودمياط؛ ثم أقبل ابن الجزوي، في المحرم سنة عشر ومائتين، وملك تيس ودمياط بغير قتال، فبعث إليه ابن السري البعوث، فحاربهم^٢.

فبينما هم في ذلك إذ قدم عبد الله بن طاهر، فتلقاه ابن الجزوي بالأموال والأنزال، وانضم إليه ونزل معه ببلييس، فامتنع ابن السري ودافع ابن طاهر، فترأخى له، وبعث فجبى المال، ونزل زفتى، وبعث إلى شطوف بعيسى الجلودي على جسر عقده من زفتى، وجعل ابن الجزوي على سفنه التي جاءته من الشام لمعرفة بالحرب، فهزم مراكب ابن السري في المحرم سنة إحدى عشرة. وصالح ابن طاهر عبيد الله بن السري في صفر، وخلع عليه وأجازه بعشرة آلاف دينار، وأمره^(b) بالخروج إلى المأمون، فسكنت فتن مصر بعبد الله بن طاهر^٣.

(a) بولاق: الحروب. (b) بولاق: واقعه.

^٣ نفسه ٢٠٤-٢٠٥.

^١ الكندي: ولاية مصر ١٩٨-٢٠١.

^٢ نفسه ٢٠١-٢٠٣.

وفي سنة سبع وسبعين وثلاث مائة، ولدت يتيس معزى جذياً له قرون عدة، ورأسه مع صدره، وبدنه ومقدمه بصفوف أبيض، ومؤخره بشعر أسود، وذنبه ذنب شاة. وولدت امرأة سخلة^(a) لها رأس مدور، ولها يَدان ورجلان وذنب.

ولثلاث بقين من ذي الحجة من هذه السنة، حدثت يتيس رعداً وبرقاً وريخاً/ شديدة وسواداً عظيم في الجو. ثم ظهر وقت السحر في السماء عمود نار احمرت منه السماء والأرض أشد حمرة، وخرج غبار كاد أن^(b) يأخذ بالأنفاس، فلم يزل إلى الرابعة من النهار حتى ظهرت الشمس، ولم يزل كذلك حتى^(c) خمسة أيام.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة، حضر عند قاضي يتيس أبي محمد عبد الله بن أبي الدُّبُس^(d) رجل وامرأة، فطالبت المرأة الرجل بفرض واجب عليه، فقال الرجل: تزوجت بها منذ خمسة أيام، فوجدت لها ما للرجال وما للنساء. فبعث إليها القاضي امرأة لتشرف عليها، فأخبرت أن لها فوق القبل ذكراً بخصيتين والفرج تحتها والذكر أقف^(e)، وأنها رائحة الحسن، فطلقها الزوج.

قال أبو عمر الكندي: حدثني أبو نصر أحمد بن علي قال: حدثني يس بن عبد الأحد قال: سمعت أبي يقول: لما دخل عبد الله بن طاهر مصر، كنت فيمن دخل عليه، فقال: حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن أبي قبيل عن ثبيع^(e)، قال: يا أهل مصر، كيف بكم إذا كان في بلدكم فتن، فوليتكم فيها الأعرج ثم الأصفر ثم الأمرد، ثم يأتي رجل من ولد الحسين، لا يدفع ولا يمتنع، تبلغ رايته البحر الأخضر، يملأها عدلاً. فقد^(f) كان ذلك، كانت الفتنة فوليتها السري وهو الأعرج، والأصفر ابنه أبو النصر، والأمرد عبيد الله بن السري، وأنت عبد الله بن طاهر بن الحسين⁽²⁾.

ثم إن عبد الله بن طاهر سار إلى الإسكندرية، وأصلح أمرها، وأخرج ابن الجزوي إلى العراق. ثم قديم به الأفشين إلى مصر في ذي الحجة سنة خمس عشرة، وقد أمر الأفشين أن يطالبه

(a) كلمة غير واضحة بالنسخ. (b) بولاق: ودخان. (c) ساقطة من بولاق. (d) بولاق: الرئيس. (e) بولاق: سبع. (f) بولاق: فقال.

¹ هو المعروف بالجنس الأفروديسي أو الخنثى المشكل. ² الكندي: ولاية مصر ٢٠٦.

بالأموال التي عنده ، فإن دَفَعَهَا إِلَيْهِ وَإِلَّا قَتَلَهُ ، فَطَالَبَهُ فَلَمْ يَدْفَعْ إِلَيْهِ شَيْئًا ، فَقَدِمَهُ بَعْدَ الْأَضْحَى بِثَلَاثٍ فَقَتَلَهُ .

وفي جُمَادَى الْآخِرَةِ^(a) سنة تسع عشرة ومائتين ، ثَارَ يَحْيَى بْنُ الْوَزِيرِ فِي تَيْسٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ الْمُظَفَّرُ بْنُ كَيْدَرٍ^(b) أمير مصر ، فَقَاتَلَهُ فِي بُحَيْرَةِ تَيْسٍ وَأَسْرَهُ ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ^١ .

وفي سنة تسع وثلاثين ومائتين ، أَمَرَ الْمُتَوَكَّلُ بِنَاءَ حِصْنٍ عَلَى الْبَحْرِ بَيْتَيْسٍ ، فَتَوَلَّى عِمَارَتَهُ عَنَبَسَةُ بْنُ إِسْحَاقَ أَمِيرَ مِصْرَ ، وَأَنْفَقَ فِيهِ وَفِي حِصْنِ دِمْيَاطَ وَالْقَرَمَا مَالًا عَظِيمًا^٢ .

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين ، عَذَّبَتْ بُحَيْرَةُ تَيْسٍ صَيْفًا وَشِتَاءً ، ثُمَّ عَادَتْ مِلْحًا صَيْفًا وَشِتَاءً . وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ تُقِيمُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ عَذْبَةً وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ مَالِحَةً .

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وخمسة مائة^(c) ، وَصَلَتْ مَرَائِكِبُ مِنْ صِقْلِيَّةٍ^(d) ، فَتَهَبُوا مَدِينَةَ تَيْسٍ^٣ .

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وثلاث مائة ، صِيدَ بِأَشْتُومِ تَيْسٍ حُوتٌ طَوَلَهُ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا وَنِصْفًا ، مِنْ ذَلِكَ طَوَلُ رَأْسِهِ تِسْعَةٌ أَذْرُعٌ ، وَدَائِرُ بَطْنِهِ مَعَ ظَهْرِهِ خَمْسَةٌ عَشْرَ ذِرَاعًا ، وَفَتْحَةُ فِيهِ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ شِبْرًا ، وَعَرْضُ ذَنْبِهِ خَمْسَةٌ أَذْرُعٌ وَنِصْفٌ ، وَلَهُ يَدَانِ يَجْدَفُ بِهِمَا ، طَوَلُ كُلِّ يَدٍ ثَلَاثَةٌ أَذْرُعٌ ؛ وَهُوَ أَمْلَسُ أَغْبَرُ غَلِيظِ الْجِلْدِ ، مُخَطَّطُ الْبَطْنِ بِيَاضٍ وَسَوَادٍ ، وَلِسَانُهُ أَحْمَرٌ ، وَفِيهِ خَمَلُ الرَّيشِ طَوَلَهُ نَحْوُ الذَّرَاعِ يَعْمَلُ مِنْهُ أَمْشَاطٌ تُشْبِهُ الدَّلِيلَ ، وَلَهُ عَيْنَانِ كَعَيْنِي الْبَقَرِ ؛ فَأَمَرَ أَمِيرُ تَيْسٍ أَبُو إِسْحَاقَ ابْنَ تَوْبَةَ بِهِ ، فَشَقَّ بَطْنَهُ وَمُلِحَ بِمِائَةِ إِزْدَبٍ مِلْحٍ ، وَرَفَعَ فَكَّهُ الْأَعْلَى بِغُودٍ خَشَبٍ طَوِيلٍ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ إِلَى جَوْفِهِ بِقِفَافِ الْمِلْحِ وَهُوَ قَائِمٌ غَيْرُ مُنْحِنٍ ، وَحُمِلَ إِلَى الْقَصْرِ حَتَّى يَرَاهُ^(e) الْعَزِيزُ بِاللَّهِ^٤ .

(a) الكندي : جمادى الأولى . (b) بولاق : كندر . (c) جميع النسخ : وثلاث مائة . (d) بعد ذلك عند ابن الأثير : فيها جمع من الفرج . (e) بولاق : رآه .

^١ الكندي : ولاية مصر ٢١٨ .

^٢ نفسه ٢٢٧ .

^٣ هذا الخبر أورده ابن الأثير بنفس الصيغة في حوادث سنة ٥٤٨ هـ (وهو في الأصل هنا ٣٤٨ هـ) وهو خطأ من المقرئ في ترتيب سياق الأحداث (الكامل في التاريخ ١١: ١٩٠) ، وصحته أن يرد قبل الخبر الذي يذكر وصول شواني صقلية إلى تيس سنة ٥٧١ هـ .

^٤ هذا الخبر أورده ابن عباس ، ولكن جعله في سنة إحدى

وثمانين وثلاث مائة ، نقلًا عن كتاب عجائب العجائب

وغرائب الغرائب لشهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى

ابن أبي بكر التلمساني المعروف بابن أبي حجلة ، المتوفي سنة

٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م ، رواية عن الشيخ أبي القاسم عبد الحميد

القرشي (بدائع الزهور ١/١ : ١٩٥) .

وفي ليلة الجمعة ، ثامن عشر ربيع الأول سنة تسع وسبعين^(a) وثلاث مائة ، شاهد أهل تَيْس تسعة أعمدة من نار تلتهب في آفاق السماء من ناحية الشمال ، فخرج الناس إلى ظاهر البلد يَدْعُونَ الله تعالى حتى أَصْبَحُوا ، وخفيت^(b) تلك النيران^١ .

وفيها صيدٌ بِخَيْرَةِ تَيْس حوتٌ طوله ذراع ، ونصفه الأعلى فيه رأس وعَيْنَانِ وَعُنُقٌ وَصَدْرٌ عَلَى صورة أسد ، ويداه في صدره بِمَخَالِبِ^(c) ، ونصفه الأدنى صورة حوت بغير قشر ، فحُمِلَ إِلَى القَاهِرَةِ .

وفي سنة سبع وسبعين^(a) وثلاث مائة ، وَلَدَتْ جاريةٌ بِنْتًا بِرَأْسَيْنِ : أحدهما بوجه أبيض منزل^(d) ، والآخَرُ بوجه أسمر فيه سهولة ، في كُلِّ وَجْهِ عَيْنَانِ ، فكانت تُرَضُّهُمَا . وكِلَاهُمَا مُرْتَكِبٌ عَلَى عُنُقٍ وَاحِدٍ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ بِيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ وَفَرْجٍ وَذُبُرٍ ؛ فحُمِلَتْ إِلَى العَزِيزِ حَتَّى رَأَاهَا ، وَوَهَبَ لَأُمِّهَا جَمَلَةً ، ثم عَادَتْ إِلَى تَيْسٍ وَمَاتَتْ بَعْدَ شُهورٍ^٢ .

وفي سنة إحدى وسبعين وخمسة مائة ، وَصَلَ إِلَى تَيْسٍ ، من شَوَانِي صِقْلِيَّةٍ ، نحو أربعين مَرَكِبًا ، فَحَصَرُوهَا يَوْمِينَ وَأَقْلَعُوا . ثم وَصَلَ إِلَيْهَا من صِقْلِيَّةٍ ، في سنة ثلاث وسبعين أيضًا ، نحو أربعين مَرَكِبًا ، فَقَاتَلُوا أَهْلَ تَيْسٍ حَتَّى مَلَكُوهَا . وكان مُحَمَّدُ بنُ إِسْحَاقَ صَاحِبِ الأَسْطُولِ قد جِئِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَرَاكِبِهِ ، فَتَحَيَّرَ فِي طَائِفَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَى مُصَلَّى تَيْسٍ ، فَلَمَّا أَجَنَّهُم اللَّيْلُ هَجَمَ بِمَنْ مَعَهُ البَلَدَ عَلَى الفَرِجِ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، فَأَخَذَ مِنْهُمْ مِائَةً وَعِشْرِينَ فَقَطَعَ رُؤُوسَهُمْ ، فَأَصْبَحَ الفَرِجُ إِلَى المُصَلَّى ، وَقَاتَلُوا مَنْ بَعَثَ مِنَ المُسْلِمِينَ ، فَقُتِلَ مِنَ المُسْلِمِينَ نَحْوَ السَّبْعِينَ ، وَسَارَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلَى دِمْيَاطَ . فَمَالَ الفَرِجُ عَلَى تَيْسٍ ، وَأَلْقَوْا فِيهَا النَارَ فَأَحْرَقُوهَا ، وَسَارُوا - وَقَدْ امْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمُ بِالغَنَائِمِ والأَسْرَى - إِلَى جِهَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ بَعْدَمَا أَقَامُوا بِتَيْسٍ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ^٣ .

ثم لما كان في^(e) سنة خمس^(f) وسبعين وخمسة مائة ، نَزَلَ فَرِجٌ عَشْقَلَانِ ، في عَشْرِ حَرَارِيقٍ^٤ ،

(a) بولاق : وتسعين . (b) بولاق : فخبث . (c) بولاق : بمخالب . (d) بولاق : مستدير . (e) بولاق : لما كانت . (f) بولاق : ست .

^١ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ١٩٥ وفيه أن ذلك كان في سنة ثمان وسبعين .

^٢ نفسه ١/١ : ١٩٤-١٩٥ .

^٣ لم يذكر المقرئ هذه الحوادث في السلوك !

^٤ حرقاة ج . حراريق وحرقاقات : نوع من السفن الحربية التي تستخدم للرمي بالنيران والثقل بغرض إحراق سفن العدو ، وهي تلي الشواني في الأهمية ، وكانت من لواحق المراكب الحربية الكبيرة التي لا تسير بدونها حماية لها .

على أَعْمَالِ تَيْسِ ، وعليها رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ الْفِرَّاءُ^(a) ، فَأَسْرَ جَمَاعَةٌ . وَكَانَ عَلَى مِصْرَ الْمَلِكِ الْعَادِلُ مِنْ قِبَلِ أَخِيهِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ عِنْدَمَا سَارَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ . ثُمَّ مَضَى الْفِرَّاءُ^(a) ، وَعَادَ فَأَسْرَ وَنَهَبَ ، فَتَارَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَقَاتَلُوهُ ، فَظَفَّرَهُمْ / اللَّهُ بِهِ وَقَبَضُوا عَلَيْهِ ، وَقَطَعُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، وَصَلَبُوهُ .

١٨١:١

٥ وفي سنة سبع وسبعين وخمسة مائة ، انْتَدَبَ السُّلْطَانُ لِعِمَارَةِ قَلْعَةِ تَيْسِ وَتَجْدِيدِ الْآلَاتِ بِهَا ، عِنْدَمَا اشْتَدَّ خَوْفُ أَهْلِ تَيْسِ مِنَ الْإِقَامَةِ بِهَا ، فَقَدَّرَ لِعِمَارَةِ سُورِهَا الْقَدِيمِ - عَلَى أَسَاسَاتِهِ الْبَاقِيَةِ - مَبْلَغَ ثَلَاثَةِ آلَافِ دِينَارٍ عَنْ ثَمَنِ أَصْنَافٍ وَأَجْرٍ^١ .

وفي سنة ثمانٍ وثمانين وخمسة مائة ، كُتِبَ بِإِخْلَاءِ تَيْسِ وَنَقْلِ أَهْلِهَا إِلَى دِمْيَاطَ ، فَأُخْلِيَتْ فِي صَفَرٍ مِنَ الذُّرَّارِيِّ وَالْأَثْقَالِ ، وَلَمْ يَبْقَ بِهَا سِوَى الْمُقَاتِلَةِ فِي قَلْعَتِهَا^٢ .

١٠ وفي شَوَّالٍ مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، أَمَرَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بِنِ أَيْوُبَ بِهَدْمِ مَدِينَةِ تَيْسِ ، وَكَانَتْ مِنَ الْمُدُنِ الْجَلِيلَةِ ، تُعْمَلُ بِهَا الثِّيَابُ الشَّرِبُ^(b) ، وَتُصْنَعُ بِهَا كُشُورَةُ الْكَعْبَةِ^٣ .

قال الفايكهي في كتاب «أخبار مكة» : ورأيت كُشُورَةً مِمَّا يَلِي الرُّكْنَ الْغَرْبِيَّ - يَعْنِي مِنَ الْكَعْبَةِ - مَكْتُوبًا عَلَيْهَا :

١٥ «مِمَّا أَمَرَ بِهِ الشَّرِيفُ بْنُ الْحَكَمِ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْوَزِيرِ الْجَزَوِيُّ ، بِأَمْرِ الْفَضْلِ ابْنِ سَهْلٍ ذِي الرِّيَاسَتَيْنِ وَطَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ»^٤ .
ورأيت شِقَّةً مِنْ قِبَاطِيٍّ^٥ مِصْرِيٍّ فِي وَسْطِهَا ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَتَبُوا فِي أَرْكَانِ الْبَيْتِ بِحَطِّ دَقِيقِي أَسْوَدَ :
«مِمَّا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤْمِنُونَ سَنَةَ سِتِّ وَمِائَتَيْنِ» .

(a) كذا في الأصل ، وفي بولاق المعز وهو اسم غير واضح . (b) بولاق : الشريفة .

= واستخدم هذا النوع من السفن الحربية بكثرة في مياه البحر المتوسط في زمن الحروب الصليبية (درويش النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ٣٢-٣٧) .

^١ المقرئزي : السلوك ١ : ٧٢ .

^٢ نفسه ١ : ١١١ .

^٣ نفسه ١ : ٢٢٤ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٧٩ وذلك

الفاطمية في مصر ٤٧٣) .

حتى لا تقع في أيدي الفرنج ، وفيما يلي ٤٩١ .

^٤ انظر فيما يلي ٦١٢ .

^٥ القباطي نسبة إلى أقباط مصر . نسيح يمتاز بأن زخارفه

تتكون من لحيمات غير ممتدة في عرض المنسوج وغير منقطعة

ويعرف أيضًا بالتبستري Tapestry (أيمن فؤاد : الدولة

ورأيت كُشوةً من كُسا المهدي مكتوبًا عليها :

«بِسْمِ اللَّهِ ، بَرَكَهَ مِنْ اللَّهِ لِعَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ مُحَمَّدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءَهُ ، مِمَّا أَمَرَ بِهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُصْنَعَ^(a) فِي طِرَازِ تَيْسٍ ، عَلَى يَدِي الْحَكَمِ بْنِ عُبَيْدَةَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِينَ وَمِائَةَ» .

ورأيت كُشوةً من قباطي مصر مكتوبًا عليها :

«بِسْمِ اللَّهِ ، بَرَكَهَ مِنْ اللَّهِ ، مِمَّا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ مُحَمَّدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَصْلَحَهُ اللَّهُ ، مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ أَنْ يُصْنَعَ^(a) فِي طِرَازِ تَيْسٍ كُشوةً الْكَعْبَةَ ، عَلَى يَدِي الْخَطَّابِ بْنِ مَسْلَمَةَ عَامِلَهُ سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةَ»^١ .

قال المسبّحي في حوادث سنة أربع وثمانين وثلاث مائة : وفي ذي القعدة ورَدَ يحيى بن اليمان من تيس ودمياط والفرما بهديته ، وهي أشفاط وتُخوت وصناديق مال ، وخيل وبنغال وحمير ، وثلاث مظال ، وكشوتان للكعبة^٢ .

وفي ذي الحجة سنة اثنتين وأربع مائة ، ورَدَت هديّة تيس الواردة في كل سنة : منها خمس نوق مُزينة ، ومائة رأس من الخيل بسرّوجها ولجمها ، وتجايف وصياغات^(b) عدّة ، وثلاث قباب ديقية بمراتبها ، ومنجوقات وبُود ، وما جرى الرّسْمُ بحمله من المتاع والمال والبُرّ .

ولما قُعد^(c) الحاكِم ، استدعت أخته السيّدة سيّدة الملك ، إلى عامل تيس عن الحاكِم ، بأن يحمل مالاً كان اجتمع قبلة ، ويُعجل توجيّهه ، وقيل إنّه كان ألف ألف دينار وألفي ألف درهم ، اجتمعت من ارتفاع البلد لثلاث سنين ، وأمره الحاكِم بتزكها عنده فحمل ذلك إليها ، وبه استعانت على ما دُبرت^٣ .

وفي سنة خمس عشرة وأربع مائة ، ورَدَ الخبّر على الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي بن الحاكِم بأمر الله ، أنّ السّودان وغيرهم نازوا بتيس وطلبوا أرزاقهم ، وضيّقوا على العايل

(a) الأصل : بن يصيع . (b) بولاق : صناعات . (c) بولاق : قدم .

^١ لم أجد هذا النص ولا النص الآتي بعد قليل فيما نشره الخنفا ١ : ٢٨٣ ؛ وفيما يلي ١ : ٢٩٢ .

وستنفلد من تاريخ الفاكهي . ^٣ نفسه ٣٠ ؛ نفسه ٢ : ٩١ .

^٢ المسيحي : نصوص ضائعة ١٤ ؛ المقرزي : اتعاظ

حتى هَرَبَ ، وأنهم عاثُوا في البَلَدِ وأفسدُوا ، ومدُّوا أيديهم إلى النَّاسِ ، وقَطَعُوا الطُّرُقَاتِ ، وأخذُوا من المَوْدِعِ ألفًا وخمسة مائة دينار . فقامَ الجَزَجْرَائِيُّ وَقَعْدٌ ، وقال : كيف يُفْعَلُ هذا بِخِزَانَةِ السُّلْطَانِ ؟ وساءَنا فِعْلُ هذا بِتَنِيْسِ أو بِيْتِ المالِ ، وسَيَّرَ خمسين فَارِسًا لِلقَبْضِ على الجُنَاةِ ١ .

وما زالت تَنِيْسُ مَدِينَةً عَامِرَةً ، ليس بأرضِ مصرِ مَدِينَةٌ أَحْسَنُ منها ، ولا أَحْصَنُ من عِمَارَتِهَا ، إلى أن خَرَبَهَا المَلِكُ الكَامِلُ مُحَمَّدُ بنُ العَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بنِ أَيُّوبَ ، في سنة أربعٍ وعشرين وسِتِّ مائة ، فاستمرَّتْ خَرَابًا ، ولم يَبْقَ منها إِلَّا رُسُومُهَا في وَسْطِ البَحْيِرَةِ ٢ .

وكان من جُمْلَةِ كورَةِ تَنِيْسِ : بُورًا ، وَمَنَاها ^(a) ، وَأَبْوَانٌ ، وَسَطًا . وبُخَيْرَتُهَا الآنَ يُصَادُ منها السَّمَكُ ، وهي قَلِيلَةٌ العُمُقُ يُسَارُ فيها بالمَعَادِي ، وتَلْتَقِي السَّفِينَتَانِ هذه صَاعِدَةً وهذه نازِلَةً بِرِيحٍ وَاِحِدَةٍ ، وَقَلْعُ كُلِّ وَاِحِدَةٍ منهما مملوءٌ بِالرِّيْحِ ، سَيَّرَهُمَا في السَّرْعَةِ مُسْتَوِيًا .

١٠ وبِوَسْطِ ^(b) البَحْيِرَةِ عِدَّةُ جَزَائِرٍ تُعْرَفُ اليومَ بِالْعَزْبِ (جمع عَزْبَةٍ بضم العين المهملة وزاي ثم باء مُوَحَّدَةً) ، يَسْكُنُهَا طَائِفَةٌ من الصِّيَّادِينَ وفي بعضها مَلَّاحَاتٌ يُؤْخَذُ منها مِلْحٌ عَدْبٌ لذيذٌ مُلوحته ، وماؤها مِلْحٌ وقد يَخْلُو أيامَ النَّيْلِ .

تُونَةٌ : وكان من جُمْلَةِ مُعَامَلَةِ ^(c) مَدِينَةِ تَنِيْسِ قَرْيَةٌ يُقالُ لها تُونَةٌ ، يُعْمَلُ بها طِرَازُ تَنِيْسِ ، وَيُصْنَعُ بها من جُمْلَةِ الطِّرَازِ كُشُورَةُ الكَعْبَةِ أَحْيَانًا ٣ .

١٥ قال الفَاكِهِيُّ : ورَأَيْتُ أيضًا كُشُورَةَ لهازُونَ الرَّشِيدِ ، من قِبَاطِي مصرِ ، مَكْتُوبًا عليها : «بِسْمِ اللَّهِ ، بَرَكَةٌ من اللَّهِ لِلخَلِيفَةِ الرَّشِيدِ عبدِ اللَّهِ هَارُونَ أميرِ المؤمنينِ ، أَكْرَمَهُ اللَّهُ ، بِمَا أَمَرَ بِهِ الفَضْلُ بنُ الرَّبِيعِ أنْ يُعْمَلَ في طِرَازِ تُونَةٍ سنة تسعين ومائة» ٤ .

(a) بولاق : منها . (b) بولاق : توسط . (c) بولاق : عمل .

١ بلدة المطرية وعلى بعد أربعة كيلومترات منها ، ولا تزال آثار أطلال هذه القرية ظاهرة بالجزيرة باسم كوم ابن سلام (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٦٦٢ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٧٩ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ١٩٨ - ١٩٩ ؛ Maspero & Wiet, Matériaux p. 61 .

٢ لم أعر على هذا النص فيما نشره واستفد من تاريخ الفاكهي .

المسبحي : أخبار مصر ٥٧ ؛ المقرئزي : اتعاط الحنفا ١٥٧ : ٢ .

٢ النويري : نهاية الأرب ١٣٩ : ٢٩ - ١٤٠ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٧٩ ؛ المقرئزي : السلوك ١ : ٢٢٤ .

٣ تونة : يدل على موقعها اليوم الجزيرة التي تعرف بجزيرة سيدي عبد الله بن سلام الواقعة في بحيرة المنزلة شرقي

سَمْناي: قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى تَنْبُيسَ، غَلَبَتْ عَلَيْهَا بُحَيْرَةُ تَنْبُيسَ فَصَارَتْ جَزِيرَةً^١. فَلَمَّا كَانَ فِي شَهْرِ رَيْبِعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سَبْعِ وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِ مِائَةٍ، كُشِفَ عَنْ حِجَارَةِ وَأَجْرِبِهَا، فَإِذَا غَضَارَاتُ^٢ زُجَاجٍ كَثِيرَةٌ مَكْتُوبَةٌ عَلَى بَعْضِهَا اسْمُ الْإِمَامِ الْمُعَزِّزِ لَدِينِ اللَّهِ، وَعَلَى بَعْضِهَا اسْمُ الْإِمَامِ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ يَزَارُ، وَمِنْهَا مَا عَلَيْهِ اسْمُ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَمِنْهَا مَا عَلَيْهِ اسْمُ الْإِمَامِ الظَّاهِرِ لِإِعْزَازِ دِينِ اللَّهِ، وَمِنْهَا مَا عَلَيْهِ اسْمُ الْمُسْتَنْصِرِ، وَهُوَ أَكْثَرُهَا، أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ مِنْ شَاهِدِهِ وَرَأَاهُ.

بُورًا: كَانَتْ فِيمَا بَيْنَ تَنْبُيسَ وَدِمْيَاطَ، وَإِلَيْهَا يُنْسَبُ السَّمَكُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «الْبُورِي»، وَإِلَيْهَا يُنْسَبُ/ أَيْضًا بَنُو الْبُورِيِّ الَّذِينَ كَانُوا بِالْقَاهِرَةِ وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةِ^٣.

وَفِي سَنَةِ عَشْرِ وَسِتِّ مِائَةٍ، وَصَلَ الْعَدُوُّ إِلَيْهَا بِشَوَانِيهِ وَسَبَاهَا، فَقَدِمَتْ إِلَيْهَا الْقَطَائِعُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى رَشِيدٍ، فَسَارَ عَنْهَا الْعَدُوُّ^٤.

الْقَلْسُ^٥ - بَفَتْحِ الْقَافِ وَبَعْدَهَا سَيْنٌ مَهْمَلَةٌ - : بَلَدٌ يُنْسَبُ إِلَيْهَا الثِّيَابُ الْقَسِيَّةُ، أَثَارُهَا إِلَى الْيَوْمِ بَاقِيَةٌ عَلَى الْبَحْرِ الْمِلْحِ فِيمَا بَيْنَ السُّوَادَةِ وَالْوَرَّادَةِ، وَبُعْدَهَا مِنْ مَدِينَةِ الْفَرَمَا قَرِيبٌ مِنْ سِتَّةِ بُرُودٍ فِي الْبَرِّ^٥.

(a) بولاق: عضادات. (b) بولاق: القيس.

Albert Museum, London - V & A Publications
1998, pp. 104-108; أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر
٦٣٩-٦٤٠) ولم يذكر المقرئ هذا الخبر في السلوك.

^٣ بورا ويقال أيضًا بوره. مدينة قديمة كانت تقع على الشاطئ الغربي لفرع دمياط، ومكانها اليوم القرية المعروفة بكفر البطيخ إحدى قرى مركز شربين بمحافظة الغربية على بعد سبعة كيلومترات جنوب غربي دمياط وتبعد عن ساحل البحر المتوسط مسافة ثمانية كيلومترات. (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ١٧٦-١٧٩).

^٤ المقرئ: السلوك ١: ١٩٥.

^٥ القلس. أحد المدن الساحلية الشرقية القديمة ضمن أرض الجفار بين الفرما والعريش، يعرف موضعها اليوم باسم القلس على ساحل البحر المتوسط شمال شرقي محطة بئر القبتد (باقوت: معجم البلدان ٤: ٣٤٦-٣٤٧، محمد =

^١ وترد في المصادر بالصيغ الآتية: سمناه وسمناوه، كانت تقع في جزيرة ببحيرة المنزلة واندثرت الآن، ويدل على موقعها جزيرة كوم الذهب الواقعة في البحيرة شرقي بلدة فارسكور وعلى بعد ١١ كيلومترًا منها (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ٢٨١).

^٢ الغضارات، هي الصنح الزجاجية التي تستخدم كعمارات وزن وكيل ويطبع بها على الأواني لبيان أحجامها المختلفة، أو لتحديد وزن الدنانير والدراهم (راجع، Jungfleisch, H., «Jetons (ou Poids) en verre de l'Imam al-Montazar», *BIE XXXIII* (1950-51), pp. 539-74; Balog, P. «Fatimid Glass Jetons: Token Currency or Coin - Weights?», *JESHO XXIV* (1981), pp. 93-104; id., «The Fatimid Glass Jeton», *Annali Dell'Istituto Italiano* 18-19 (1971-72), pp. 175-264, 20 (1973), pp. 121-212, Contadini, A., *Fatimid Art at the Victoria and*

وهناك تلٌ عظيمٌ من رملٍ خارج في البحر الشامي ، يقطع الفرج عنده الطريق على المارة ، وبالقرب من التل سباح ، يثبت فيه ملخ يحمله الغربان إلى غزاة والرملة ، وبقرب هذا السباح آبارٌ يُزرع عندها مقائي لغربان تلك البوادي .

ذِكْرُ مَدِينَةِ صَا

- ٥ قال ابنٌ وصيف شاه : ولما قسم قبطيم بن مصرام الأرض بين أشمون^(a) وأثريب وقفط وصا ، انتقل كل واحد إلى قسمه وخيظه ، فخرج صا بأهله وولده وحشمه إلى خيظه - وهو بلد البحيرة والإسكندرية - حتى انتهى^(b) إلى بركة^(c) ، ونزل مدينة صا قبل أن تبنى الإسكندرية . وكان صا أصغر ولد أبيه وأحبهم إليه ، فلما ملك خيظه أمر بالنظر في العمارات وبناء المدائن والبلدان والهياكل ، وإظهار العجائب ، كما صنع إخوته ، وطلب الزيادة في ذلك .
- ١٠ وكان^(d) مزهون الهندي^(e) صاحب بناءه^(f) ، فبنى له^(g) من حد صا إلى حد لويبة ومراقية على البحر أعلاما ، وجعل على رؤوس تلك الأعلام مرابي من أخلاط شتى : فكان منها ما يمنع من دواب البحر وأذاها ، ومنها ما إذا قصدهم عدو من الجزائر وأصابها الشمس ، ألقى شعاعا على مراكبهم فأحرقتها . ومنها ما يرى المدائن التي تحاذيهم من عدوة البحر وما يعملها أهلها . ومنها ما يُنظر منها^(h) إلى إقليم مصر ، فيعلم منه ما يخصب وما يجذب في كل سنة .
- ١٥ وجعل فيها حمامات تقيد من نفسها ، وجعل مستشركات ومتنزهات . وكان ينزل كل يوم منها في موضع بمن يخصه من خدومه وحشمه ، وجعل حواليها بساتين ، وسرح فيها الطيور المغردة والوخش المستأمن والأنهار المطردة والرياض المونقة . وجعل شرفات قصوره من حجارة ملونة ، تلمع إذا أصابتها الشمس ، فينشر شعاعها على ما حولها ، ولم يدع شيئا من آلة التعمه والرفاهية إلا استعمله . فكانت العمارة ممتدة في رمال رشيد ورمال الإسكندرية إلى بركة . وكان الرجل

(a) الأصل : أشمن . (b) الأصل : تنتهي . (c) عند النويري نقلا عن ابن وصيف شاه . وهو بلد البحيرة وما يليها إلى بركة . (d) بولاق : قال والتصويب من النويري . (e) كذا في الأصل وعند النويري وفي تعليقات Wiet : المهندس . (f) بولاق : باه . (g) ساقطة من بولاق . (h) بولاق : فيها .

يُسافر في أرض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات ، ولا يسير إلا في ظلال تشتره من الشمس . وعميل في تلك الصحاري قصورا ، وغرس فيها غروسا ، وساق إليها من النيل أنهارا ، فكان يُسلك من الجانب الغربي إلى حدّ الغرب في عمارة مُتصلة . فلما انقضى أولئك القوم بقيت آثارهم في تلك الصحاري ، وخربت تلك المنازل ، وبأد أهلها . ولا يزال من دخل تلك الصحاري يحكي ما رآه فيها من الآثار والعجائب ^١ .

قال مؤلفه : حدثني الثقة عن دخل مدينة صا ومشي في خرابها ^٢ ، فإذا هو ببلينة طولها أربعة أشبار ، فتناولها وأخذ يتأملها ، ثم كسرها ، فإذا فيها سنبلة قدر شبر وافر كأنها كما حصدت ، وفركها بيده ، فخرج منها قمح أبيض كباقر حبه جدا ، في قدر حب اللؤيا ، فأكله كله فلم يجد فيه تغيرا .

ودخل آخر إليها قبيل سنة تسعين وسبع مائة ، وأخذ منها لينة طولها ذراع ونصف في عرض ذراع ، فكسرها ، فإذا فيها سنبلة قمح ثخن كل قمحة منها في مقدار ما يكون أكبر من الحمص ، فلم يطق كسره إلا بعدما رضعه بالحجارة رضا .

ووجد بصا صنم لطيف طوله أصبع ، فاتفق أنه ألقى في خاية ماء فصار خمرًا ؛ وكان ذلك عند رجل من تيس ، فصلحت حاله من يعه ذلك الخمر . فطلبه الأمير الأوحى مشتولي تيس ، ومازال به حتى أخذ الصنم منه .

رمل الغرابي

اعلم أن هذا الرمل ممتد في الأرض ، ويسميه بعضهم الرمل الهبير ، وطوله من وراء جبل طي إلى أن يتصل مشرقا بالبحر ، ويمضي من وراء جبل طي إلى أرض مصر ، ثم إلى بلد النوبة ، ويمتد إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر .

^٣ كانت الغرابي أحد محطات البريد بين مصر وغزة

^١ التويري : نهاية الأرب ١٥ : ٨١ - ٨٢ .

غربي بلدة قَطيا (قطية) ، ومكانها اليوم حوض أبو غرب في رمال دبة الغرايات الواقعة جنوبي آثار مدينة الفرما وعلى بعد ١١ كيلومترا منها داخل محافظة شمال سيناء . (ياقوت : معجم البلدان ٤ : ١٩٠ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٨٩) .

^٢ صا . مدينة قديمة كانت تقع في الحوف الغربي لمصر تعد من أعمال الغربية . أطلق عليها في العهد العثماني صا الحجر نسبة إلى ما تخلف من أطلالها من بقايا أحجار معبدها القديم ، وتقع اليوم بمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية (ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٨٧ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢ / ٣٨٧) .

(Maspero & Wiet, Matériaux p. 116 ؛ ١٢٦ : ٢) .

ومنه عِرْقٌ يَضْرِبُ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، فَيَعْبُرُ الْبَحْرَيْنِ، فَيَمُرُّ عَلَى مَشَارِقِ خُوَزِسْتَانَ وَفَارِسَ إِلَى أَنْ يَرِدَ سِجِسْتَانَ، وَيَمُرُّ مُشْرِقًا إِلَى مَزُو آخِذًا عَلَى جَيْحُونَ فِي بَرِّيَّةِ خُوَارَزْمَ، وَيَأْخُذُ فِي بِلَادِ الْخَزَلِجِيَّةِ^(a) إِلَى الصُّينِ وَالْبَحْرِ الْمَحِيطِ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ؛ وَهُوَ، عَلَى مَا وَصَفْتَهُ وَسَقَفْتَهُ، مِنْ الْمَحِيطِ بِالْمَشْرِقِ إِلَى الْمَحِيطِ بِالْمَغْرِبِ، وَفِيهِ جِبَالٌ عِظَامٌ لَا تُرْتَقَى، وَبَعْضُهُ فِي أَرْضٍ سَهْلَةٍ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَمِنْهُ أَصْفَرُ لَيْلِ اللَّمَسِ، وَأَحْمَرُ قَانِي^(b) وَأَزْرَقُ سَمَاوِي، وَأَسْوَدَ حَالِكِ، وَأَكْحَلَ مُشْبَعِ كَالثَّلِجِ، وَأَبْيَضَ كَالثَّلْجِ، وَمِنْهُ مَا يَخْكِي الْغُبَارَ نُعُومَةً، وَمِنْهُ خَشِنُ جَرِيشِ اللَّمَسِ.

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ رَمَلَ الْغَرَابِيِّ / وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ حَدِّ الْغَرِيشِ إِلَى أَرْضِ الْعَبَّاسَةِ، حَادِثٌ. وَذِكْرٌ فِي سَبَبِ كَوْنِهِ خَبْرٌ فِيهِ مُعْتَبَرٌ، وَهُوَ أَنَّ شَدَّادَ بْنَ هَدَّادَ بْنَ شَدَّادَ بْنَ عَادَ، أَحَدَ الْمُلُوكِ الْعَادِيَةِ، قَدِمَ إِلَى مِصْرَ وَغَلَبَ بِكَثْرَةِ جُيُوشِهِ أَشْمُونَ^(c) بِنَ مِصْرَ بْنَ يَتَّصِرَ بْنَ حَامَ بْنَ نُوحَ مَلِكِ مِصْرَ، وَهَدَمَ مَا بَنَاهُ هُوَ وَأَبَاؤُهُ، وَبَنَى لِنَفْسِهِ أَهْرَامًا، وَنَصَبَ أَعْلَامًا زَبَرَ عَلَيْهَا الطَّلُوسِمَاتِ، وَاخْتَطَّ مَوْضِعَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ؛ وَأَقَامَ هُنَاكَ دَهْرًا إِلَى أَنْ نَزَلَ بِهِ وَبِقَوْمِهِ وَبَاءَ، فَخَرَجُوا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى جِهَةِ وادي القُرَى، فِيمَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ وَأَرْضِ الشَّامِ، وَعَمَّرُوا الْمَلَاعِبَ وَالْمَصَانِعَ لِحَبْسِ الْمِيَاهِ الَّتِي تَجْتَمِعُ مِنَ الْأَمْطَارِ وَالسِّيُولِ، فَكَانَ سَعَةً كُلُّ مَصْنَعٍ مِيَلًا فِي مِيلٍ، وَغَرَسُوا النَّخْلَ وَغَيْرَهُ، وَزَرَعُوا أَصْنَافَ الزَّرَاعَاتِ فِيمَا بَيْنَ رَايَةَ وَأَيْلَةَ إِلَى الْبَحْرِ الْغَرَبِيِّ.

وَامْتَدَّتْ مَنَازِلُهُمْ مِنَ الدُّثْنِيَّةِ إِلَى الْغَرِيشِ وَالْجِفَارِ، فِي أَرْضٍ سَهْلَةٍ ذَاتِ عُيُونٍ تَجْرِي وَأَشْجَارٍ مُشِيمَةٍ وَزُرُوعٍ كَثِيرَةٍ، فَأَقَامُوا بِهَذِهِ الْأَرْضِ دَهْرًا طَوِيلًا، حَتَّى عَتَوْا وَبَغَوْا وَتَجَبَّرُوا وَطَعَّوْا، وَقَالُوا: نَحْنُ الْأَكْثَرُونَ قُوَّةَ الْأَشْدُّونَ الْأَغْلَبُونَ؛ فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ فَأَهْلَكَتْهُمْ، وَنَسَفَتْ مَصَانِعَهُمْ وَدِيَارَهُمْ حَتَّى سَخَلَتْهَا رَمَلًا^١.

فَمَا تَرَاهُ مِنْ هَذِهِ الرَّمَالِ الَّتِي بِأَرْضِ الْجِفَارِ - مَا بَيْنَ الْعَبَّاسَةِ حَيْثُ الْمُنْزَلَةُ الَّتِي تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِالصَّالِحِيَّةِ إِلَى الْغَرِيشِ - مِنْ رَمَلٍ مَصَانِعَ الْعَادِيَةِ وَسَخَالَةَ صُخُورِهِمْ، لَمَّا أَهْلَكَتْهُمْ اللَّهُ بِالرِّيحِ، وَدَمَّرَهُمْ تَدْمِيرًا. وَإِيَّامَ وَإِنْكَارَ ذَلِكَ لِعَرَابَتِهِ، فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يَشْهَدُ لَصِحَّتِهِ، قَالَ تَعَالَى:

(a) الأصل: الخولنجية. (b) ساقطة من بولاق. (c) الأصل: أشمن.

^١ قارن مع التويري: نهاية الأرب ١٥: ٧١.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الأنعام ٤١، ٤٢ سورة الذاريات]. أي كالشيء الهالك البالي؛ وقيل الرميم نبات الأرض إذا يبس ودبس، وقيل الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم؛ والرميم الخلق البالي من كل شيء.

مراقية: مدينة مراقية كورة من كور مصر الغربية، وهي آخر حد أرض مصر، وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس وهي بزقة^١، وبغدها من مدينة سنترية^٢ نحو من بريدتين. وكان قَطْرًا كبيرًا به نخل كثير ومزارع، وبه عيون جارية، وبها إلى اليوم بقية، وثمرها جيد إلى الغاية، وزرعها إذا بُدِر يُنْبِت من الحبة الواحدة من القمح مائة سُنبلة، وأقل ما تُنْبِت تعسون سُنبلة، وكذلك الأرز بها فإنه جيد زاك، وبها إلى اليوم بساتين متعدّدة.

وكانت مراقية، في القديم من الزمان، يسكنها البربر الذين نفاهم داود - عليه السلام - من أرض فلسطين، فنزلها منهم خلائق، ومنها تفرقت البربر: فنزلت زناتة ومغيلة وضريسة الجبال، ونزلت لواتة أرض بزقة، ونزلت هوازة طرابلس المغرب، ثم انتشرت البربر إلى السوس^(a).

فلما كان في شوال سنة أربع وثلاث مائة من سني الهجرة المحمدية جلا أهل لونية ومراقية إلى الإسكندرية خوفًا من صاحب بزقة^٣؛ ولم تزل في اختلال إلى أن تلاشت في زمننا، وبها بعد ذلك بقية جيدة.

كوم شريك - هذا المكان بالقرب من الإسكندرية، له ذكر في الأخبار، عُرف بشريط ابن سمي بن عبد يعوث بن جزء المرادي العُطيفي، من الصحابة رضي الله عنهم^٤؛ وكان على مقدمة عمرو بن العاص في فتح الإسكندرية الثاني، فعندما كثرت جمائع الروم، انحاز شريك إلى هذا الكوم بأصحابه، ودافع الروم حتى أذركه عمرو.

(a) بولاق: السوس.

^١ ياقوت: معجم البلدان ٥: ٤٩٤ محمد رمزي:

^٣ الكندي: ولاية مصر ٢٩٢.

القاموس الجغرافي ١: ٤٠٩.

^٤ انظر السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٢٠٩.

^٢ مدينة سنترية هي واحة سيوة (انظر فيما يلي ٦٣٧).

وَكُومِ شَرِيكَ هَذَا مِنْ جُمْلَةِ حَوْفِ رَمْسِيَسٍ^١.

غِيْفًا - قَرْيَةُ تُقَارِبُ مَدِينَةَ بَلْبِيَسِ، مِنَ الْفُسْطَاطِ إِلَيْهَا مَرَحِلَتَانِ، كَانَتْ مَنزِلَةَ قَافِلَةِ الْحَاجِ^٢. وَيُقَالُ إِنَّ صُورَعَ الْمَلِكِ الَّذِي فُقِدَ مِنْ مَدِينَةِ مِصْرَ، وَجِدَ فِي رِحَالِ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ بَغِيْفًا هَذِهِ.

سَمْتُود^٣ - كَانَ بِهَا يَرْبَا عَلَيْهِ هَيْئَةُ دَرْقَةِ فِيهَا كِتَابَةُ حَكِي ابْنِ زُولَاقِ، عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ مَأْمُونِ الْعَدْلِ، أَنَّهُ نَسَخَ هَذِهِ^(a) الْكِتَابَةَ فِي قِرَطَاسٍ وَصَوَّرَهُ عَلَى دَرْقَةٍ، قَالَ: فَمَا كُنْتُ أَشْتَقِبِلُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا وَلِيَّ هَارِبًا.

وَكَانَ بِهَا أَيْضًا تَمَائِيلُ وَصَوْرٌ مِنْ يَمَلِكِ مِصْرَ، فِيهِمْ قَوْمٌ عَلَيْهِمْ شَاشِيَّاتٌ، وَبِأَيْدِيهِمُ الْحِرَابُ، وَعَلَيْهِمْ مَكْتُوبٌ «هَؤُلَاءِ يَمَلِكُونَ مِصْرَ».

(a) ساقطة من بولاق.

^١ سَمْتُود. مِنْ مَدَنِ الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ تَقَعُ عَلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ لِفَرْعِ دِمِيَاطٍ عَلَى مَسَافَةِ ثَمَانِيَةِ كِيلُومَتْرَاتٍ شَرْقَ مَدِينَةِ الْمَحَلَّةِ الْكُبْرَى. ذَكَرَهَا الْجُغْرَافِيُونَ الْعَرَبُ بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ الثَّلَاثِ وَالسَّادِسِ لِلْهَجْرَةِ كَمَدِينَةٍ ذَاتِ نَشَاطٍ اِقْتِصَادِيٍّ هَامٍ، وَأَصْبَحَتْ فِي أَعْقَابِ الْإِصْلَاحَاتِ الْإِدَارِيَّةِ لِأَمِيرِ الْجَيْشِ بَدْرِ الْجَمَالِيِّ إِقْلِيمًا مُسْتَقْلَمًا بِاسْمِ «السَّمْتُودِيَّةِ»، وَهِيَ الْآنَ إِحْدَى مَدَنِ مَحَافِظَةِ الْغَرْبِيَّةِ (ابْنُ مِمَاتِي: قَوَانِينُ الدَّوَادِينِ ١٤٨، ١٦٢؛ الْقَلْقَشَنْدِي: صَبْحُ ٣: ٣٨٣؛ عَلِيٌّ مَبَارَكٌ: الْخَطَطُ التَّوْفِيقِيَّةُ ١٢: ٤٦-٥٠، ١٦: ٦٥-٦٦، مُحَمَّدٌ رَمْزِيٌّ: الْقَامُوسُ الْجُغْرَافِيُّ ٢/٢: ٧١-٧٢؛ AYMAN F. SAYYID, *El*² art. *Samannūd VIII*, (pp. 1066-67).

^١ كُومِ شَرِيكَ أَحَدِ قَرَى مَرْكَزِ كُومِ حَمَادَةَ بِمَحَافِظَةِ الْبَحِيرَةِ (مُحَمَّدٌ رَمْزِيٌّ: الْقَامُوسُ الْجُغْرَافِيُّ ٢/٢: ٣٣٩-٣٤٠) وَأَطْلَقَ الْعَرَبُ لَفْظَ الْحَوْفِ بِمَعْنَى الْجَانِبِ عَلَى بَعْضِ الْأَقَالِيمِ الْمِصْرِيَّةِ، حَيْثُ أُطْلِقُوا اسْمَ حَوْفِ رَمْسِيَسِ عَلَى الْقَرَى الْوَاقِعَةِ جَنُوبَ إِقْلِيمِ الْبَحِيرَةِ نَسْبَةً إِلَى مَدِينَةِ رَمْسِيَسِ الَّتِي كَانَتْ قَاعِدَةَ لِبْلَادِ هَذَا الْحَوْفِ وَهِيَ الْآنَ إِحْدَى قَرَى مَرْكَزِ إِيْتَايِ الْبَارُودِ بِمَحَافِظَةِ الْبَحِيرَةِ (نَفْسُهُ ١: ٢٣٥).

^٢ غِيْفًا (غَيْفَةٌ). أَحَدُ مَدَنِ الْحَوْفِ الشَّرْقِيِّ - وَهِيَ الْمَدَنُ الْوَاقِعَةُ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ - وَحَرْفُ اسْمِهَا فِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ إِلَى غَيْتَةٍ، وَهِيَ الْآنَ إِحْدَى قَرَى مَرْكَزِ بَلْبِيَسِ بِمَحَافِظَةِ الشَّرْقِيَّةِ. (مُحَمَّدٌ رَمْزِيٌّ: الْقَامُوسُ الْجُغْرَافِيُّ ١/١: ١٠٣).

ذِكْرُ مَدِينَةِ بَلْبَيْسٍ

وسُمِّيَتْ فِي التَّوْرَةِ : «أَرْضُ جَاشَانَ» ، وَفِيهَا نَزَلَ يَعْقُوبُ لَمَّا قَدِمَ عَلَى وَالدِّهِ يُوسُفَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَأَنْزَلَهُ بِأَرْضِ جَاشَانَ^(a) ، وَهِيَ بَلْبَيْسٌ إِلَى الْعَلَايِمَةِ ، مِنْ أَجْلِ مَوَاشِيهِمْ .

قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : بَلْبَيْسٌ ، وَالِيهَا يَصِلُ حُكْمُهُ إِلَى الْوَرَّادَةِ ، وَهِيَ آخِرُ حُدِّ مِصْرَ ؛ وَالِيهَا تَنْتَهِي الْمُعَامَلَةُ بِفِضَّةِ السَّوَادِ ، وَيَصِيرُ النَّاسُ يَتَعَامَلُونَ بِالْفُلُوسِ بَعْدَهَا إِلَى الْعَرِيشِ ، وَهِيَ أَوَّلُ الشَّامِ ، وَقِيلَ هِيَ آخِرُ مِصْرَ .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْبَكْرِيُّ : بَلْبَيْسٌ - بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَإِسْكَانِ ثَانِيهِ بَعْدَهُ بَاءٌ مِثْلُ الْأُولَى مَفْتُوحَةٌ أَيْضًا وَبَاءٌ سَاكِنَةٌ وَسِينٌ مُهْمَلَةٌ - وَهُوَ مَوْضِعٌ قُرْبُ^(b) مِصْرَ مَعْرُوفٌ^(c) .

وَذَكَرَ ابْنُ خُرْدَاذِبِهِ فِي كِتَابِ «الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ» : أَنَّ بَيْنَ بَلْبَيْسٍ وَمَدِينَةِ قُسْطَنْطَاطِ مِصْرَ أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ مِيلاً^(d) .

وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ أَنَّ الْمُقَوْقِسَ زَوْجَ ابْنَتِهِ أَرْمَاتُوسَةَ مِنْ قُسْطَنْطِينِ بْنِ هِرَقْلٍ ، وَجَهَّزَهَا بِأَمْوَالِهَا وَجَوَارِيهَا وَغُلْمَانِهَا وَحَشَمِهَا ، لِتَسِيرَ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْتِنِيَ عَلَيْهَا فِي مَدِينَةِ قَيْسَارِيَّةِ^(e) بِسَاحِلِ الْبَحْرِ مِنَ الشَّامِ ، فَتَلَفَّهَا بَعْدَمَا سَارَتْ إِلَيْهِ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ نَزَلُوا عَلَى قَيْسَارِيَّةِ^(e) وَهُمْ مُحَاصِرُونَ لَهَا . فَرَجَعَتْ^(d) إِلَى بَلْبَيْسٍ وَأَقَامَتْ بِهَا ، وَبَعَثَتْ حَاجِبَهَا الْكَبِيرَ فِي الْفَيْيِ فَارِسٍ / إِلَى الْفَرَمَا ، لِيَحْفَظَ الطَّرِيقَ ، وَلَا يَدْعَ أَحَدًا مِنَ الرُّومِ وَلَا غَيْرِهِمْ يَغْبِرُ إِلَى مِصْرَ .

(a) بولاق : حاشان . (b) بولاق : قريب . (c-c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : فخرجت .

مركز بلبيس بمحافظة الشرقية (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٤٧٩ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٥١ ؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٩ : ٧٠-٧٨ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١/٢ : ١٠٠-١٠١ ؛ Wiet, G., *El*² art. (Bilbays I, p. 1254).

^(c) أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ٢٧٢-٢٧٣ .

^(d) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٨٠ .

^(a) بلبيس . مدينة استراتيجية هامة في الوجه البحري تقع على الطريق الموصل من الرملة إلى القسطنطية ، لذلك كانت تقع تحت حصار من يريد قصد العاصمة المصرية ، كما كانت محطة هامة من محطات البريد . كانت قاعدة الخوف الشرقي أيام العرب ، ثم قاعدة الأعمال الشرقية من أيام الدولة الفاطمية وحتى نهاية الدولة المملوكية ، ثم قاعدة ولاية الشرقية إلى سنة ١٨٢٢ حيث حلت محلها مدينة الزقازيق كعاصمة للإقليم لتوسطها بين مدن الولاية . وهي الآن قاعدة

وَبَعَثَ الْمُقَوْسُ رُسُلَهُ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِهِ ، مِمَّا يَلِي الشَّامَ ، أَلَّا يَتْرُكُوا أَحَدًا يَدْخُلُ أَرْضَ مِصْرَ ، مَخَافَةَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا بِغَلْبَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الشَّامِ ، فَيَدْخُلُ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِ عَسَاكِرِهِ .

فَلَمَّا قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْجَائِيَةَ ، وَصَارَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ إِلَى مِصْرَ ، نَزَلَ عَلَى بَلْبَيْسٍ - وَبِهَا أَرْمَاتُوسَةُ ابْنَةُ الْمُقَوْسِ - فَقَاتَلَ مِنْ بَهَا ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ زُهَاءَ أَلْفِ فَارِسٍ وَأَسْرَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ ، وَأَنْهَزَمَ مِنْ بَقِيٍّ إِلَى الْمُقَوْسِ ، وَأُخِذَتْ أَرْمَاتُوسَةُ وَجَمِيعُ مَالِهَا ، وَسَائِرُ مَا كَانَ لِلْقَبِيْطِ فِي بَلْبَيْسٍ . فَأَحْبَبَ عُمَرُ مِلَاطِفَةَ الْمُقَوْسِ ، فَسَيَّرَ إِلَيْهِ ابْنَتَهُ أَرْمَاتُوسَةَ مُكْرَمَةً فِي جَمِيعِ مَالِهَا مَعَ قَيْسِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ السُّهْمِيِّ ، فَسَرَّ بِقُدُومِهَا ، ثُمَّ سَارَ عُمَرُ إِلَى الْقَصْرِ^١ .

وَلَمْ تَزَلْ مِنْ مَدَائِنِ مِصْرِ الْكِبَارِ ، حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهَا مُرِيٌّ [Amaury] مَلِكُ الْفِرِجِجِ ، وَأَخَذَهَا عَنُودًا بَعْدَ حِصَارٍ طَوِيلٍ ، وَقَتَلَ مِنْهَا آلَافًا .

١٠ وَلِهَا أُخْبَارٌ كَثِيرَةٌ .

وَقَدْ خَرِبَتْ مِنْذُ عَهْدِ الْحَوَادِثِ بَدْيَارَ مِصْرَ ، بَعْدَ سِنَةِ سِتِّ وَثَمَانِ مِائَةٍ ، بَعْدَمَا أَذْرَكْنَاهَا وَبِهَا عِمَارَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَفِيهَا عِدَّةٌ بَسَاتِينَ ، وَأَهْلُهَا أَصْحَابُ يَسَارٍ وَنِعَمٍ سَنِيَّةٍ .

ذِكْرُ بَلَدِ الْوَرَّادَةِ

الْوَرَّادَةُ مِنْ جُمْلَةِ الْجِفَارِ .

١٥ قَالَ عُيَيْدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُرَّادَازْبَهَ فِي كِتَابِ «الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ» : وَصِفَةُ الطَّرِيقِ وَالْأَرْضِ مِنَ الرَّهْمَلَةِ إِلَى أَرْدُودِ اثْنَا عَشَرَ مِيْلًا ، ثُمَّ إِلَى غَزَّةَ عَشْرُونَ مِيْلًا ، (هَمْزٌ إِلَى رَفْحٍ سِتَّةَ عَشَرَ مِيْلًا^(a)) ثُمَّ إِلَى الْعَرِيشِ أَرْبَعَةَ وَعَشْرُونَ مِيْلًا فِي رَمْلٍ ، ثُمَّ إِلَى الْوَرَّادَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيْلًا ، ثُمَّ إِلَى الْعُدَيْبِ^(b) عَشْرُونَ مِيْلًا ، ثُمَّ إِلَى الْفَرَمَا أَرْبَعَةَ وَعَشْرُونَ مِيْلًا .

قَالَ الْخَلِيفَةُ الْمَأْمُونُ :

٢٠ [الوافر]

لَلَيْلُكَ كَانَ بِالْمِيدَا نِ أَقْصَرُ مِنْهُ بِالْفَرَمَا
غَرِيبٌ فِي قُرَى مِصْرَ يُقَاسِي الْهَمَّ وَالسَّدَمَا

(a-a) زيادة من المسالك . (b) بولاق : العريب .

^١ ملخصاً من الواقدي : فتوح مصر والإسكندرية ١٩-٣٢ .

ثم إلى جُزجير^(a) ثلاثون ميلاً ، ثم إلى الغاضرة^(b) أربعة وعشرون ميلاً ، ثم إلى مسجد قضاة ثمانية عشر ميلاً ثم إلى بليّيس أحد وعشرون ميلاً ، ثم إلى فسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً .^١

وقال جامع «تاريخ دمياط»^٢ : ولما افتتح المسلمون الفرما ، بعدما افتتحوا دمياط وتيس ، ساروا إلى البقارة فأسلم من بها ، وساروا منها إلى الورادة ، فدخل أهلها في الإسلام وما حولها إلى عشقلان^٣ .

وقال القاضي الفاضل في «متجددات» شهر المحرم سنة سبع وستين وخمس مائة : وصاحبنا الورادة فبتنا على مينا الورادة ، ودخلنا الورادة فرأيت تاريخ منارة جامعها سنة ثمان وأربع مائة ، واسم الحاكم بأمر الله عليها .

والورادة من جملة الجفار ، ويقال أخذ اسمها من الورود ؛ ولم يزل جامعها عامراً تقام به الجمعة إلى ما بعد السبع مائة .

وبلد الورادة القديم^(c) في شرقي المنزلة التي يقال لها اليوم الورادة^(d) ، وبها آثار عمائر ونخل قليل .

الصالحية

١٥ هذه البلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شاذي ، بأرض السايح^(e) والعلايمة ، في أول الرمل الذي بين مصر والشام ، وأنشأ بها قصوراً وجامعاً وسوقاً ، لتكون منزلة العساكر إذا خرجوا من الرمل ، وذلك في سنة أربع وأربعين وست مائة^٤ .

(a) بولاق : جرير . (b) بولاق : القاهرة . (c) بولاق : القديمة . (d) بولاق : الصالحية . (e) بولاق : المسانح وما أثبتته ورد أيضاً عند ابن واصل .

^١ ابن خردادبه : المسالك والممالك ٨٠ ، ٢١٩-٢٢٠ .
^٢ وفيما يلي ٦١٤-٦١٥ .
^٣ انظر فيما تقدم ٤٨٠ .
^٤ قارن الواقدي : فتوح مصر والإسكندرية ١٤٨-١٤٩ .
^٥ ابن واصل : مفرج الكروب ٣٧٩:٥ ؛ المقرئ : السلوك ١ : ٣٣٠ . والسانح اسم يطلق على الأرض الواقعة على جانبي التربة السعيدية في المسافة الواقعة بين ناحيتي سواده والصالحية بمركز فاقوس بمحافظة الشرقية (أبو المحاسن : النجوم ١ : ١٥٠ ، ٣هـ) . والصالحية اليوم إحدى قرى مركز

ذِكْرُ مَدِينَةِ أَيْلَةَ^١

(a) ذَكَرَ ابْنُ حَبِيبٍ أَنَّ أَثَالَ - بَضَمَ أَوَّلَهُ ثُمَّ ثَاءً مِثْلَةً - وَادِي أَيْلَةَ^(a)، وَأَيْلَةَ - بَفْتَحَ أَوَّلَهُ، عَلِيٌّ وَزَيْنٌ «فَعَلَّةٌ» - مَدِينَةٌ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فِيمَا بَيْنَ مِصْرَ وَمَكَّةَ، سُمِّيَتْ بِأَيْلَةَ بِنْتِ مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٥ وَأَيْلَةُ أَوَّلُ حَدِّ الْحِجَازِ، وَقَدْ كَانَتْ مَدِينَةً جَلِيلَةً الْقَدْرَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمِلْحِ، بِهَا التُّجَارَةُ الْكَثِيرَةُ، وَأَهْلُهَا أَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ. وَكَانَتْ حَدًّا مَمْلُوكَةَ الرُّومِ فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ، وَعَلَى مِيلٍ مِنْهَا بَابُ مَغْفُودٍ لِقَيْصَرَ، قَدْ كَانَ مَسْلُحَةً^(b) يَأْخُذُونَ الْمَكْسَ. وَبَيْنَ أَيْلَةَ وَبَيْنَ^(c) الْقُدْسِ سِتُّ مَرَاجِلَ، وَالطُّورُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى يَوْمِ وَلَيْلَةٍ مِنْ أَيْلَةَ. وَكَانَتْ فِي الْإِسْلَامِ مَنْزِلًا لِبَنِي أُمَيَّةَ، وَأَكْثَرَهُمْ مَوَالِي عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَكَانُوا سُقَاةَ الْحَاجِّ. وَكَانَ بِهَا عِلْمٌ كَثِيرٌ وَأَدَابٌ، وَمَتَاجِرٌ وَأَسْوَاقٌ عَامِرَةٌ، وَكَانَتْ كَثِيرَةَ النَّخْلِ وَالزَّرْعِ^(d).

١٠ وَعَقَبَةُ أَيْلَةَ لَا يَضَعُدُ إِلَيْهَا مِنْ هُوَ رَاكِبٌ، وَأَصْلَحَهَا فَائِقُ، مَوْلَى خُمَارِوَيْهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طَوْلُونَ، وَسَوَّى طَرِيقَهَا وَرَمَّ مَا اسْتَرَمَّ مِنْهَا.

١٥ وَكَانَ بِأَيْلَةَ مَسَاجِدُ كَثِيرَةٌ^(e)، وَبِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّ عِنْدَهُمْ بُرْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ أَمَانًا، وَكَانُوا يُخْرِجُونَهُ رِدَاءً عَدْنِيًّا مَلْفُوفًا فِي الثِّيَابِ قَدْ أُبْرِزَ مِنْهُ قَدْرٌ شِبْرٌ فَقَطْ.

(a-a) ساقط من الأصل . (b) بولاق : فيه مسلحة . (c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : الزروع . (e) بولاق :

عدينة .

والشامية والحجازية، فإن الجغرافيين العرب كانوا يلحقونها بالشام. وكانت أيلة في فترة الحروب الصليبية مسرحاً لصراع طويل أدى إلى خرابها في نهاية هذه الفترة. وهي تعادل مدينة العقبة الواقعة بشمال خليج العقبة (ياقوت : معجم البلدان ٢٩٢:١-٢٩٣؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٠٦:٨-١٠٧؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١٣٦:١؛ Glidden, H.W., *El² art. Ayla I*, p. 807).

= فاقوس بمحافظة الشرقية، ويطلق عليها الصالحية الكبرى لتميزها عن القرى الأخرى التي تحمل اسم الصالحية (علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٣:٦-٧؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١١٢:١/٢-١١٣ وفيما يلي ٢٢٧).

^١ أيلة . ميناء يقع شمال خليج العقبة حلت محله الآن مدينة العقبة، كان في العصر الإسلامي مركزاً هاماً لتجمع الحجاج القادمين من مصر والشام وكذلك مركزاً تجارياً هاماً، ورغم أن المدينة كانت تقع عند التقاء الأراضي المصرية

ويقال إن أيلة هي القرية التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز^(a) حيث قال : ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الآية ١٦٣ سورة الأعراف]. وقد اختلف في تعيين هذه القرية ، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وعكرمة والسدي : هي أيلة ؛ وعن ابن عباس أيضا أنها مدينة بين أيلة والطور ؛ وعن الزهري أنها طبرية .

وقال قتادة وزيد بن أسلم : هي ساحل من سواحل الشام ، بين مدين وعيثونة/، يقال لها مقناة .

وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتًا ، والحرام يأتيك جزافًا^(a) جزافًا ؟ قال : نعم في قصة أيلة : ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الآية ١٦٣ سورة الأعراف] .

وكان من خبر أهل القرية أنهم كانوا من بني إسرائيل ، وقد حرم الله عليهم العمل في يوم السبت ، فزين لهم إبليس الحيلة وقال : إنما نهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد .

وقيل كان الرجل يأخذ خيطًا ، ويضع فيه وهقة ويلقيها^(b) في ذنب الحوت - وهو بتحريك الهاء وإسكانها - حبل كالطول ، ويجعل في الطرف الآخر من الخيط وتدًا ، ويتركه كذلك إلى يوم الأحد .

ثم تطرق الناس ، حين رأوا من صنع هذا لا يبتلى ، حتى كثر الصيد للحيتان ، ومشي به في الأسواق ، وأعلن الفسقة بصيده . فقامت طائفة من بني إسرائيل وجاهرت بالنهي ، واعتزلت وقالت : لا نساكنكم . فقسموا القرية بدار ، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ، ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس لسانًا ؛ فعلوا على الجدار ، فإذا هم قردة ، فدخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، فجعلت تأتيهم فتشم ثيابهم وتبكي ، فيقول الناهون للقردة : ألم ننهكم ؟ فتقول برأسها : نعم . قال قتادة : فصارت الشباب قردة ، والشيوخ خنازير ، فما نجا إلا الذين نهوا ، وهلك سائرهم . وقيل إن ذلك كان في زمن نبي الله داود عليه السلام .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : يلقيه .

وقد^(a) قيل إنَّ أَيْلَةَ أَصْلُهَا إِيْلِيَاءُ^(b)، وقد وَقَعَ ذِكْرُهَا فِي التَّوْرَةِ كَذَلِكَ .

وقال الشَّريْفُ مُحَمَّدُ بْنُ أَشْعَدِ الْجَوَانِي: دُكَّالَةٌ مِنَ الْبَرْبَرِ بَطْنٌ مِنَ الْمَصَامِدَةِ؛ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّ دُكَّالَةَ وَوَلَدَ أَيْلَةَ - وَيُقَالُ أَيْلٌ - الَّذِينَ سُمِّيَتْ بِهِ عَقَبَةُ أَيْلَةَ، وَإِخْوَتُهُمْ^(c) دَغْفَلُ بْنُ أَيْلَةَ، وَإِنَّهُمْ يُغَزَوْنَ إِلَى النَّزَارِيِّينَ^(d)، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ مِنْ رَيْبَعَةِ الْفُرْسِ، وَفِي ذَلِكَ خِلَافٌ عَظِيمٌ .

وَذَكَرَ الْمَشْعُوِيُّ أَنَّ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَارَبَ السَّمَيْدَةَ بْنَ هَوْبَرَ^(e) بْنَ مَالِكِ الْعَمَلِيْقِيِّ مَلِكِ الشَّامِ، بِبَلَدِ أَيْلَةَ نَحْوَ مَدْيَنَ، وَقَتَلَهُ وَاحْتَوَى عَلَى مُلْكِهِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَوْفُ بْنُ سَعِيدِ الْجَرْهُمِيِّ:

[الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَمَلِيْقِيَّ بْنَ هَوْبَرَ^(f) بِأَيْلَةَ أَمْسَى لِحْمُهُ قَدْ تَمَزَّعَا

١٠ تَدَاعَتْ عَلَيْهِ مِنْ يَهُودِ جَحَافِلُ ثَمَانُونَ أَلْفًا حَاشِدُونَ^(g) وَدُرَّعَا

وهي أبياتٌ كثيرةٌ^١ .

وقال ابنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا انْتَهَى رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ إِلَى تَبُوكَ، أَتَاهُ يُحْنَةَ بْنُ رُوْبَةَ صَاحِبَ أَيْلَةَ، فَصَالَحَهُ وَأَعْطَاهُ الْجِزْيَةَ، وَأَتَاهُ أَهْلُ جَرْبَاءَ وَأَذْرَحَ فَأَعْطَوْهُ الْجِزْيَةَ، وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُمْ، وَكَتَبَ لِيُحْنَةَ بْنَ رُوْبَةَ:

١٥ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا^(h) أَمْنَةٌ مِنَ اللَّهِ وَمُحَمَّدِ النَّبِيِّ رَسُوْلِهِ، لِيُحْنَةَ
ابنِ رُوْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ، أَسَاقِفِهِمْ وَسَائِرِهِمْ⁽ⁱ⁾ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، لَهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ
[مُحَمَّدٍ] النَّبِيِّ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْيَمَنِ وَأَهْلِ الْبَحْرِ، فَمَنْ
أَخَذَتْ مِنْهُمْ حَدَثًا فَإِنَّهُ لَا يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ
النَّاسِ. وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءَ يَرِدُونَهُ^(k)، وَلَا طَرِيقًا يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ .
٢٠ هَذَا كِتَابُ جُهَيْمِ بْنِ الصَّلْتِ وَشُرْحَبِيلِ بْنِ حَسَنَةَ، بِإِذْنِ رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ»^٢ .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : إيليايه . (c) بولاق : وآخر أنهم من . (d) بولاق : البرير . (e) بولاق : هرمز والتصويب من النسخ ومروج الذهب . (f) الأصل : هرير، بولاق : هرمز . (g) بولاق : حاسرين . (h) في السيرة : هذه . (i) في السيرة : سفنهم وسيارتهم . (j) إضافة من السيرة . (k) الأصل وبولاق ، يمنعوا ما يريدونه ، والتصويب من السيرة .

وكان ذلك في سنة تسع من الهجرة ، ولم تزل مدينة أيلة عامرة أهلة .

وفي سنة خمس عشرة وأربع مائة ، طرَقَ عبدُ الله بن إدريس الجعفري أيلة - ومعه بعض بني الجراح - ونهبها ، وأخذَ منها ثلاثة آلاف دينار وعدة غلال ، وسبى النساء والأطفال ، ثم إنه صرِفَ عن ولاية وادي القرى ، فسارت إليه سرية من القاهرة لمحارَبته ^١ .

قال القاضي الفاضل : وفي سنة ست وستين وخمس مائة ، أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مراكب مفضلة ، وحملها على الجمال ، وسار بها من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة ، وكانت قد ملكها الفرينج وامتنعوا بها ، فنازلها في ربيع الأول ، وأقام المراكب وأصلحها وطرَحها في البحر ، وشحنها بالمقاتلة والأسلحة ؛ وقاتل قلعة أيلة في البر والبحر حتى فتحها في العشرين من شهر ربيع الآخر ، وقتل من بها من الفرينج وأسرتهم ، وأسكن بها جماعة من ثقاته ، وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره ، وعاد إلى القاهرة في آخر جمادى الأولى ^٢ .

وفي سنة سبع وسبعين ، وصل كتاب النائب بقلعة أيلة ، أن المراكب على تحفظ وخوف شديد من الفرينج ، ثم وصل الإبرنس ^٣ - لعنه الله - إلى أيلة وربط العقبة ، وسير عسكره إلى ناحية تبوك ، وربط جانب الشام لخوفه من عسكر يطلبه من الشام أو مصر . فلما كان في شعبان من السنة المذكورة ، كثرت المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة ، حتى صارت به مياة استغنى بها أهل القلعة عن ورود العين مدة شهرين ، وتأثرت ثبوت القلعة لتتابع المطر ، وهت لضغف أساسها ، فتداركها أصحابها وأصلحوها .

وذكر أبو الحسن المشعودي في كتاب «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان» الكوكة ، وهم أمة لهم أربعة ملوك ملكوا أرض أيلة والحجاز ؛ وبني كل واحد منهم مدينة سماها باسمه ، وجعلوا سائر الأرض خيمات وقسموها على ثلاثين كورة /، وجعلوها أربعة أعمال لكل عمل ملك يجلس على منبر ذهب في مدينته . [وفي كل] ^a عمل يزبا - وهي بيت الحكمة - وعمل هيكلا لأخذ الكواكب ، وجعل فيه أضناما من ذهب ، كل صنم له مرتبة .

(a) زيادة من المشعودي .

^٢ المقرئزي : اتعاظ الحنفا ٣ : ٣٢٠ .

^١ المسيحي : أخبار مصر ٣٤ - ٣٥ ؛ المقرئزي : اتعاظ

^٣ هو البرنس أرناط Renauld de Chatillon صاحب

١٤٣ : ٢ ، وذلك يوم الأحد لأربع خلون من شهر ربيع

الكرك (انظر عن حملته في البحر الأحمر فيما يلي ٨٦ : ٢) .

الآخر .

وكانت الإسكندرية، واسمها رُقُودَة، فجعلوا لها خمس عشرة كُورَة، وجعلوا فيها كبار الكهنة، ونصبوا في هياكلها من أضرام الذهب أكثر مما في غيرها، وكان فيها مائتا صنم من ذهب. وقسموا الصعيد على ثمانين كُورَة، وجعلوه أربعة أقسام، وكان عدد مدن مصر، الداخلة في كُورِها، ثلاثين مدينة فيها جميع العجائب^١.

- ٥ وقيل إن حمير الأكبر، واسمه العرنجج بن سبأ الأكبر - واسمه عامر، ويعرف بعد شمس ابن يشجب بن يعرب بن قحطان - لما ملك بعد أبيه جمع جيوشه، وسار يظأ الأمم، ويدوس الممالك كما فعل أبوه، فأمن في المشرق حتى أبعد يأجوج ومأجوج إلى مطلع الشمس، ثم قفل نحو المغرب؛ فجاءه قبائل من أهل اليمن، من بني هود بن عامر بن شاليخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، يشكون من ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وما نزل بهم من ظلمهم. فأمر برفعهم من أرض اليمن، وأنزلهم أيلة، فعمروها من أيلة إلى ذات الآصال إلى أطراف جبل نجد؛ فقطعت ثمود هناك الصخور، ونحتوا من الجبال البيوت، وتكبروا وطغوا؛ فبعث الله فيهم صالحاً نبياً ورسولاً، فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ناقة من صخرة، فأخرجها لهم، فعقروها، فأهلكهم الله بالصيحة، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأهقان ٦٧، ٩٤ سورة هود].

- ١٥ وقد ذكر أن موسى - عليه السلام - سار ببني إسرائيل، بعد موت أخيه هارون، إلى أرض أولاد العيبص - وهي التي تعرف بجبال السراة - جنب بلد الشوبك. ثم مر فيها إلى أيلة، وتوجه بعد أيام إلى تربة باب، حيث بلاد الكرك حتى حارب تلك الأمم. وكان إلى جانب أيلة مدينة، يقال لها عصبون، جليلة عظيمة.

مَرْبُوط

- ٢٠ كُورَة من كُور الإسكندرية، كانت لشدة يابضها لا يكاد يبين فيها دخول الليل إلا بعد وقت، وكان الناس يمشون فيها وفي أيديهم خرق سود خوفاً على أبصارهم، ومن شدة يابضها ليس الرهبان السود^٢.

^١ المسعودي: أخبار الزمان ٦٧-٦٨؛ وفيما تقدم ^٢ فيما تقدم ٣٩٨، ٤٠٣.

وكانت بلاد مَرْثُوط في نهاية العِمَارَةِ والجِنَانِ المُتَّصِلَةِ بِأَرْضِ بَرْقَةِ . وهي اليوم من بعض^(a) قُرَى الإسكندرية ، يُزْرَعُ بِهَا القَوَاكِرُ وَغَيْرُهَا ، وَقَدْ وَقَّعَهَا المَلِكُ المُظَفَّرُ رُكْنَ الدِّينِ بَيْبَرُوسَ الجَاشَنكِرِ عَلَى جِهَاتِ بَرٍّ بِالجَامِعِ الحَاكِمِيِّ مِنَ القَاهِرَةِ ، وَبِهَا جَامِعٌ عُمِّرَ فِي سَنَةِ سِتِّ وَسِتِّينَ وَمِائَةِ .
ثُمَّ اسْتَأْجَرَهَا المَلِكُ المُوَيْدُ شَيْخَ المَحْمُودِيِّ ، فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَمَانِ مِائَةٍ ، وَجَدَّدَ عِمَارَةَ بُسْتَانِهَا ، وَقَدْ تَخَرَّبَ لِتَرْدَادِ عَرَبِ لِبْدَةِ وَبَرْقَةِ إِلَيْهِ^(b) ، فَاسْتَمَرَّتْ فِي دِيْوَانِ السُّلْطَانِ .

وَادِي هُبَيْبٍ

هَذَا الوَادِي بِالجَانِبِ الغَرِبِيِّ مِنَ أَرْضِ مِصْرَ ، فِيمَا بَيْنَ مَرْثُوطَ وَالقَيْوَمِ ، يُجَلَّبُ مِنْهُ المِلْحُ وَالنُّطْرُونَ^١ . عُرِفَ بِهُبَيْبِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَعْقَلِ بْنِ الوَائِقَةِ بْنِ حِرَامِ بْنِ غِفَارِ الغِفَارِيِّ ، أَحَدِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، شَهِدَ فَتْحَ مِصْرَ ، وَرَوَى عَنْهُ أَبُو تَمِيمِ الجَيْشَانِيُّ ، وَأَسْلَمَ مَوْلَى تُجَيْبِ ، وَسَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الغِفَارِيِّ . وَكَانَ قَدْ اعْتَزَلَ ، عِنْدَ فِتْنَةِ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِهَذَا الوَادِي فَعُرِفَ بِهِ ، وَكَانَ يَقُولُ : لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ قَضَاءِ دَيْنِ رَمَضَانَ ، وَلَا بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ^(c) فِي الشَّفْرِ . وَيُقَالُ لِهَذَا الوَادِي أَيْضًا : وَادِي المَلُوكِ ، وَوَادِي النُّطْرُونَ ، وَبَرْيَّةُ شِيهَاتِ^(d) ، وَبَرْيَّةُ الأَسْقِيطِ ، وَمِيزَانِ القُلُوبِ . وَكَانَ بِهِ مِائَةٌ دَيْرٍ لِلنُّصَارَى ، وَبَقِيَ بِهِ سَبْعَةُ أَدْيِرَةٍ^(e) ؛ وَقَدْ ذُكِرَتْ ، عِنْدَ ذِكْرِ الدِّيَارَاتِ^(f) مِنْ هَذَا الكِتَابِ .

وَهُوَ وَادٍ كَثِيرُ القَوَائِدِ ، فِيهِ النُّطْرُونَ وَيُتَخَصَّلُ مِنْهُ مَالٌ كَثِيرٌ ، وَفِيهِ المِلْحُ الأَنْدِرَانِيُّ ، وَالمِلْحُ السُّلْطَانِيُّ - وَهُوَ عَلَى هَيْئَةِ أَلْوَاحِ الرُّخَامِ - وَفِيهِ الوَكْتُ^٢ ، وَالكُحْلُ الأَسْوَدُ ، وَمَعْمَلُ الرُّجَاجِ . وَفِيهِ المَاسِكَةُ ، وَهُوَ طِينٌ أَصْفَرٌ فِي دَاخِلِ حَجَرٍ أَسْوَدَ ، يُحَلَّ فِي المَاءِ وَيُشْرَبُ لَوَجَعِ المَعْدَةِ . وَفِيهِ البَرْدِيُّ لَعْمَلِ الحُضْرِ ، وَفِيهِ عَيْنُ الغُرَابِ ، وَهُوَ مَاءٌ ، فِي هَيْئَةِ البَرْكَةِ ، وَطَوَّلُهَا نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ

(a) ساقطة من بولاق . (b) الاصل وفيت : لبيد عرب برقة إليه . (c) بولاق : ويجمع بين الصلاتين . (d) الأصل : شيهاب . (e) بولاق : ديرة . (f) بولاق : الأديار .

^١ وادي هُبَيْبٍ هُوَ المَعْرُوفُ اليَوْمَ بِوَادِي النُّطْرُونَ حَيْثُ يَسْتَخْرَجُ مِنْ بَعْضِ بَرَكَهَ النُّطْرُونَ المَسْتخْدَمُ فِي الصَّبَاغَةِ وَالدَّبَاغَةِ ، وَيَقَعُ غَرْبِي الدَّلْتَا جَنُوبِي مَحَافِظَةِ البَحِيرَةِ وَيَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ عَنِ طَرِيقِ الإسكندرية البري (ياقوت : معجم البلدان ١٧ : ٤٩) .
٢ الوكت . هُوَ التوتيا (علي مبارك : المخطوطات التوفيقية ٥ : ٣٤٦ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ١١٣ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٤٧٤) .

ذِرَاعًا فِي عَرْضِ خَمْسَةِ أَذْرُعَ ، فِي مَغَارِ الْجَبَلِ ، لَا يُعْلَمُ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي وَلَا إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ ، وَهُوَ مُخْلُوعٌ رَائِقٌ .

وَيُذَكَّرُ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهُ سَبْعُونَ أَلْفَ رَاهِبٍ ، بِيَدِ كُلِّ وَاحِدٍ عُكَّازٌ ، فَتَلَقَّوْا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ بِالطَّرَافَةِ ، مَرْجِعَهُ مِنَ الْإِسْكَنَدَرِيَّةِ ، يَطْلُبُونَ أَمَانَةَ لَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَذْيَارِهِمْ . فَكَتَبَ لَهُمْ بِذَلِكَ أَمَانًا بَقِيَ عِنْدَهُمْ ، وَكَتَبَ لَهُمْ أَيْضًا بِجِرَايَةِ الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ فَاسْتَمَرَّتْ بِأَيْدِيهِمْ . وَإِنَّ جِرَايَتَهُمْ جَاءَتْ فِي سَنَةِ زِيَادَةَ عَلَى خَمْسَةِ آلَافٍ أَرْدَبَ ، وَهِيَ الْآنَ لَا تَبْلُغُ مِائَةَ أَرْدَبَ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ مَدْيَنَ

اعْلَمَ أَنَّ مَدْيَنَ - أُمَّةٌ شُعَيْبٌ - هُمُ بَنُو مَدْيَانَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأُمَّهُمُ قَنْطُورَا ابْنَةُ يَطْفَانَ الْكَنْعَانِيَّةِ ، وَوَلَدَتْ لَهُ ثَمَانِيَةَ مِنَ الْوَلَدِ تَنَاسَلَتْ مِنْهُمْ أُمَّمٌ .

١٠ وَمَدْيَنُ عَلَى بَحْرِ الْقُلُزْمِ ، تُحَاذِي تَبُوكَ عَلَى نَحْوِ سِتِّ مَرَاجِلَ ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْ تَبُوكَ ، وَبِهَا الْبِئْرُ الَّتِي اسْتَقَى مِنْهَا مُوسَى لِسَائِمَةِ شُعَيْبٍ ، وَغَمِلَ عَلَيْهَا بَيْتٌ .

(أ) قَالَ الْفَرَاءُ : مَدْيَنُ اسْمُ بَلَدٍ وَقَطْرٍ (أ) ، وَقِيلَ اسْمُ قَبِيلَةٍ سُمِّيَتْ بِاسْمِ أَبِيهَا مَدْيَنَ ، وَيُقَالُ لَهُ مَدْيَانَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ؛ قَالَهُ مُقَاتِلٌ وَغَيْرُهُ . وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ مَدْيَنَ أَعْجَمِيٌّ ، وَقِيلَ / عَرَبِيٌّ ، فَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «فَعِيلًا» ، مِنْ مَدَّنَ بِالْمَكَانِ : أَقَامَ بِهِ ، وَهُوَ بِنَاءٌ نَادِرٌ وَقِيلَ مُهْمَلٌ ، أَوْ «مَفْعَلًا» ، مِنْ دَانَ ، فَتَضْحِيحُهُ شَاذٌ ، وَهُوَ تَمْنُوعُ الصَّرْفِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، سَوَاءً كَانَ اسْمُ الْأَرْضِ أَوْ اسْمُ الْقَبِيلَةِ ، عَجَمِيًّا أَوْ عَرَبِيًّا ٢ .

١٥ وَقَالَ الْمَشْعُودِيُّ : قَدْ تَنَازَعَ أَهْلُ الشَّرَائِعِ فِي قَوْمِ شُعَيْبَ بْنِ نُوَيْلٍ (ب) بْنِ رَعُوَيْلَ بْنِ مُرِّ بْنِ عَيْفَاءَ (ج) ابْنِ مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَ لِسَانُهُ الْعَرَبِيَّةَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنََّّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الدَّائِرَةِ وَالْأُمَّمَ الْبَائِدَةَ ، وَبَعْضُ مَنْ ذَكَرْنَا مِنَ الْأَجْيَالِ الْخَالِيَةِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنََّّهُمْ مِنْ وَلَدِ الْمُحْصَنِ (د) بْنِ جَنْدَلِ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، وَأَنَّ شُعَيْبًا أَخُوهُمْ (ه) فِي النَّسَبِ ؛ وَقَدْ كَانُوا عِدَّةً

(a-a) ساقط من الأصل . (b) بولاق : نوفل . (c) بولاق : عيفا . (d) مروج الذهب : المحض . (e) بولاق :

آخرهم .

ملوك ، تفرّقوا في ممالك متّصلة ، فمنهم المسمّى بأبجد ، وهوز ، وحطّي ، وكلّمن ، وسغفص ، وقزشت .

وهم - على ما ذكرنا - بنو المحصن^(a) بن جندل ، وأخرف الجمل هي أسماء هؤلاء الملوك ، وهي الاثنان والعشرون حرفاً التي عليها حساب الجمل . وقد قيل في هذه الحروف غير ما ذكرنا من الوجوه .

فكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز ؛ وكان هوز وحطّي ملكين ببلاد وچ - وهي الطائف - وما اتّصل بذلك من أرض نجد ؛ وكلّمن وسغفص وقزشت ملوك بمدين وقيل ببلاد مصر ، وكان كلّمن على ملك مدين .

ومن الناس من رأى أنّه كان ملك جميع من سمّينا مشاعاً متّصلاً على ما ذكرنا ، وأنّ عذاب ﴿يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ كان في ملك كلّمن منهم ، وأنّ شعبيّاً دعاهم فكذبوه ، فوعدهم بعذاب يوم الظلّة⁽¹⁾ ، ففتح الله^(b) عليهم باباً من السماء من نار ، ونجا شعبيّاً بمن آمن معه إلى الموضع المعروف بأبيكة^(c) ، وهي غيضة نحو مدين .

فلما أحسّ القوم بالبلاء ، واشتدّ عليهم الحرّ ، وأيقنوا بالهلاك ، طلبوا شعبيّاً ومن آمن معه - وقد أظلمت سحابة بيضاء ، طيبة النسيم والهواء ، لا يجدون فيها ألمّ العذاب - فأخرجوا شعبيّاً ومن آمن معه من مواضعهم ، وأزالوهم عن أماكنهم ، وتوّهموا أنّ ذلك يُنجيهم ممّا نزل بهم ، فجعلها الله عليهم ناراً فأنت عليهم .

(٢) فرّقت جارية بنت كلّمن أباهما ، وكانت بالحجاز ، فقالت :

[الرمل]

| | |
|----------------------|----------------------------------|
| كلمون هدّ زكني | هلكه وشطّ المحلّه |
| سيّد القوم أتاه الحـ | شفّ ناراً وشطّ ظلّه |
| كوّنت ناراً فأضحت | دار قومي مُضجِلّه ^(٢) |

(a) مروج الذهب : المحض . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : بأيلة .

^١ يقصد قوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يُؤْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يُؤْمِ عَظِيمٌ﴾ [الآية ١٨٩ سورة الشعراء] .
^{٢-٢} هذه الفقرة والآيات ساقطة من مروج الذهب وأوردها ابن النديم في الفهرست ٧ ، وفيه البيت الأخير : جعلت ناراً عليهم دارهم كالمضجلة

وقال المتصير بن المنذر المدني :

[الطويل]

أَلَا يَا شُعَيْبُ قَدْ نَطَقْتَ مَقَالَةً أَتَيْتَ^(a) بِهَا عَمْرًا وَحِي^(b) بَنِي عَمْرٍو
 هُمْ مَلَكَوْا أَرْضَ الْحِجَازِ بِأَوْجِهِ كَمَثَلِ شُعَاعِ الشَّمْسِ فِي صُورَةِ الْبَدْرِ
 وَهُمْ قَطَنُوا الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَزَيَّنُوا قُطُورًا وَفَازُوا بِالْمَكَارِمِ وَالْفَخْرِ
 مُلُوكُ نَبِيِّ حُطَيِّ وَسَعْفَصِ ذِي النَّدَى وَهَوَّزَ أَرْبَابَ الشَّيْئَةِ وَالْحِجْرَا

قال المسعودي : وللهؤلاء الملوك أخبارٌ عجيبةٌ من حروبٍ وسييرٍ ، وكيفية تغلبهم على هذه الممالك وتملكهم عليها ، وإبادتهم من كان فيها وعليها^(c) قبلهم من الأمم^٢ .

وقيل إن الأيكة المذكورة في قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسِلِينَ﴾ [الآية ١٧٦ سورة الشعراء] ، وفي قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ فانتقمنا منهم﴾ [الآيات ٧٨ ، ٧٩ سورة الحجر] هي مدينتان ، وقيل من ساحل البحر إلى مدينتان ، وقيل هي غيضة نحو مدينتان .

وقيل بل أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب كانوا يتبوك بين الحجر وأول الشام ، ولم يكن شعيب منهم ، وإنما كان من مدينتان .

وقال أبو عبيد البكري : الأيكة المذكورة في كتاب الله تعالى ، التي كانت منازل قوم شعيب ، روي عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - فيها روايتان : إحداهما أن الأيكة من مدينتان إلى شعيب وبدا^(d) ؛ والثانية أنها من ساحل البحر إلى مدينتان . وكان شجرهم المقل ، والأيكة عند أهل اللغة : الشجر الملتف ، وكانوا أصحاب شجر ملتف . وقال قوم : الأيكة الغيضة ، وليكة اسم البلد حولها ، كما قيل مكة وبكة . وقال أبو جعفر النحاس : ولا يُعلم «ليكة» اسم بلد^(e) .^٣

وقال ابن قتيبة : وكان بعضهم يزعم أن بكة هو موضع المسجد ، وما حوله مكة ، كما فرّق بين الأيكة وليكة ، فقيل الأيكة الغيضة ، وليكة البلد حولها^٤ .

(a) بولاق : أبدت . (b) بولاق : تحي . (c) ساقطة من بولاق . (d) بولاق : شعيب . (e) بولاق : البلد .

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٨١ - ٢٨٣ .

^٢ نفسه ٢ : ٢٨٣ .

^٣ أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ٢١٥ - ٢١٦ .

^٤ ابن قتيبة : غريب الحديث ١ : ٤٧٥ - ٤٧٦ .

وقال البكري: مَدِينُ بَلَدٍ بِالشَّامِ مَعْلُومٌ تَلْقَاءُ غَزَّةَ، وهو المذكور في كتاب الله تعالى^١ - وهذا وَهْمٌ، بل مَدِينٌ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ.

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى مَدِينَةِ مَدِينٍ، أميرهم زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَأَصَابَ سَبِيًّا مِنْ أَهْلِ مِينَاءَ (قال ابن إسحاق: وميناء هي السواحل) فَبِيعُوا، وَفُرِّقَ بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَالْأَوْلَادِ؛ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ يَتَكُونُونَ، فَقَالَ: «مَا لَهُمْ؟» فَأُخْبِرَ خَبَرَهُمْ، فَقَالَ: «لَا تَبِيعُوهُمْ إِلَّا جَمِيعًا».

وَمَدِينٌ مِنْ مَنَازِلِ جُدَامِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ أُدَدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَرِيبِ بْنِ زَيْدِ ابْنِ كَهْلَانَ. وَشُعَيْبُ النَّبِيِّ، الْمَبْعُوثُ إِلَى أَهْلِ مَدِينٍ، أَحَدُ بَنِي وَائِلٍ/ مِنْ جُدَامِ. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَوْفَدَ جُدَامِ: «مَرْحَبًا بِقَوْمِ شُعَيْبٍ وَأَصْهَارِ مُوسَى، وَلَا تَقُومِ السَّاعَةَ حَتَّى يَنْزَوِّجَ فِيكُمْ الْمَسِيحَ وَيُولَدَ لَهُ».

وقال محمد بن سهل الأحمول: مَدِينٌ مِنْ أَعْرَاضِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا^٢، مِثْلُ فَذَكِ وَالْفُرْعِ وَرُهَاطِ^٢.

قال مؤلفه: وكان بأرض مَدِينٍ عِدَّةُ مَدَائِنَ كَثِيرَةٍ قَدْ بَادَ أَهْلُهَا وَخَرِبَتْ، وَبَقِيَ مِنْهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا - وَهُوَ سَنَةٌ خَمْسٌ وَعِشْرِينَ وَثَمَانِ مِائَةً^٣ - نَحْوَ الْأَرْبَعِينَ مَدِينَةً قَائِمَةً، مِنْهَا مَا يُعْرَفُ اسْمُهُ، وَمِنْهَا مَا قَدْ جُهِلَ اسْمُهُ؛ فَمِمَّا يُعْرَفُ اسْمُهُ - فِيمَا بَيْنَ أَرْضِ الْحِجَازِ وَبِلَادِ فِلَسْطِينَ وَدِيَارِ مِصْرَ - سِتُّ عَشْرَةَ مَدِينَةً، مِنْهَا فِي نَاحِيَةِ فِلَسْطِينَ عَشْرَ مَدَائِنَ، وَهِيَ: الْخَلْصَةُ، وَالسَّنَيْطَةُ^٤، وَالْمَدْرَةَ، وَالْمُنْيَةَ، وَالْأَعْوَجَ، وَالْحَوْتِرِقَ، وَالْبَيْرَتَيْنِ، وَالْمَاءَيْنِ، وَالسَّنْعَ، وَالْمُعَلَّقَ؛ وَأَعْظَمُ هَذِهِ الْمَدَائِنَ الْعَشْرَ مَدِينَتَا^٥ الْخَلْصَةَ وَالسَّنَيْطَةَ^٤، وَكَثِيرًا مَا تُنْقَلُ حِجَارَتُهَا إِلَى غَزَّةَ وَيُنْتَى بِهَا هُنَاكَ.

وَمِنْ مَدُنٍ^٦ مَدِينٌ بِنَاحِيَةِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ وَالطُّورِ مَدِينَةُ فَارَانَ، وَمَدِينَةُ الرَّقَّةِ^٧، وَمَدِينَةُ الْقُلْزُمِ، وَمَدِينَةُ أُيْلَةَ، وَمَدِينَةُ مَدِينٍ. وَبِمَدِينَةِ مَدِينٍ إِلَى الْآنَ آثَارٌ عَجِيبَةٌ، وَعُمْدَةٌ عَظِيمَةٌ.

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: السبيطة. (c) بولاق: مدائن.

^١ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ٤: ١٢٠١. التاريخ هو تاريخ تأليف الخطط ١

^٢ نفسه ٤: ١٢٠١. ^٤ انظر عنها فيما يلي ٦١٧.

^٣ اعتبر كاترمير Quatremère وجست Guest هذا

وَوُجِدَ فِي مَدِينَةِ الْأَعْوَجِ ، أَعْوَامَ بضع وستين وسبع مائة ، حُجِبَ بِقَلْعَتِهَا بَعِيدَ الْمَهْوَى ، يَبْلُغُ عُمُقَهُ نَحْوَ مِائَةِ بَاعٍ^(a) ، وَبِقَاعِهِ عِدَّةُ أَشْفَارٍ عَلَى رُفُوفٍ ، حُمِلَ مِنْهَا سِفْرٌ طَوْلُهُ ذِرَاعَانِ وَأَزِيدٌ ، قَدْ غُلِّفَ بِلَوْحِينَ مِنْ خَشَبٍ ، وَكِتَابَةٌ بِالْقَلَمِ الْمُسْتَدِّ ، طَوْلُ الْأَلْفِ وَاللَّامِ نَحْوَ شِبْرٍ . فَوُجِدَ بِبِلَادِ الْكَرْكِ مِنْ قَرَاهُ ، فَإِذَا هُوَ سِفْرٌ مِنْ عَشْرَةِ أَشْفَارٍ ، قَدْ ابْتَدَأَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : خُرُوجُ مُوسَى مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ مَدْيَنَ ، وَمُلُوكُ بَنِي مَدْيَنَ فِيمَا بَعْدَ شُعَيْبٍ . فَذَكَرَ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عِدَّةَ

أَسْمَاءٍ مِنْهَا : اسْمُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ، وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ مُوشَى ، وَبِالْفَارِسِيَّةِ دَارَانَ ، وَبِالْقِبْطِيَّةِ هُرُوَهْسِيْسٍ ؛ وَذَكَرَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةَ شُعَيْبٍ ، وَأَنَّهُ أَقَامَ بِمَدْيَنَ ثَمَانِي حِجَجٍ ، ثُمَّ قَالَ لِابْنَتِهِ شُعَيْبٍ : قَدْ أَتَمَمْتَ لَكَ شَرْطَكَ ، وَسَأَزِيدُكَ مِنْ عِنْدِي^(b) سِتِينَ فَضْلًا مِنِّي^(c) .

قَالَ^١ : وَخَرَجَ مُوسَى مُتَوَجِّهًا إِلَى مِصْرَ ، وَالْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ عَلَى مَدْيَنَ أَبْجَدٌ . قَالَ : وَقَوِي أَمْرُ أَبْجَدٍ ، فَطَغَى حَتَّى مَلَكَ الْحِجَازَ وَالْيَمْنَ ، وَكَانَ لَهُ خَمْسَةُ أَوْلَادٍ ، هُمْ : هَوُوزٌ ، وَحُطِّيٌّ ، وَكَلْمُنٌ ، وَسَعْفَقْصٌ ، وَقَرَشَتْ . فَأَقَامَ أَبْجَدٌ مَلِكًا بِالْيَمَنِ مِائَةَ سَنَةٍ وَمَاتَ .

وَقَدْ اسْتَحْلَفَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنَهُ كَلْمُنَ بِالْيَمَنِ ، وَجَعَلَ ابْنَهُ هَوُوزَ عَلَى الْحِجَازِ ، وَابْنَهُ حُطِّيًّا عَلَى أَرْضِ مِصْرَ ، وَابْنَهُ سَعْفَقْصَ عَلَى الْجَزِيرَةِ وَبِلَادِهَا حَيْثُ الْمَوْصِلُ وَحَرَانُ إِلَى أَرْضِ الْعِرَاقِ ، وَابْنَهُ قَرَشْتَ عَلَى الْعِرَاقِ وَمَشَارِفِهَا مِنْ خُرَاسَانَ . وَكَانَ قَرَشَتْ هُوَ الْجَبَّارُ فِيهِمْ ، وَكَانَ سَعْفَقْصٌ وَهَوُوزٌ وَكَلْمُنٌ أَهْلَ عَدْلٍ وَحِلْمٍ ، وَكَانَ حُطِّيٌّ صَاحِبَ بَطْشٍ وَحَرْبٍ^(d) . وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذْ ذَاكَ بِالشَّامِ ، فَلَمْ يَمْلِكْ أَوْلَادُ أَبْجَدِ أَرْضَ الشَّامِ ، وَلَا اخْتَوَوْا عَلَيْهَا . وَكَانَتْ مُدَّةُ مُلْكِهِمْ نَحْوًا مِنْ مِائَةِ وَخَمْسِينَ سَنَةً ؛ فَتَمَّ لَهُمْ بِدَوْلَةِ أَبِيهِمْ أَبْجَدِ ثَلَاثُ مِائَةِ سَنَةٍ وَأَزِيدٌ . ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُمْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ رُوزَيْبُ بْنُ هَوُوزَ ، وَعَزْرَيْبُ بْنُ حُطِّيِّ بْنِ أَبْجَدِ ، نَحْوَ سَبْعِ سِنِينَ . ثُمَّ خَرَجَتْ الدَّوْلَةُ عَنْ أَوْلَادِ أَبْجَدِ . وَأَقَامَ هَذَا الْكِتَابُ عِنْدَهُمْ زَمَانًا ، ثُمَّ أَعَادُوهُ إِلَى الْجَبِّ مِنْ قَلْعَةِ الْأَعْوَجِ .

حَدَّثَنِي بِهَذَا الْخَبَرَ الْحَافِظُ الْمُتَّقِنُ الضَّابِطُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقُرَيْبَانِي التُّونِسِيُّ الْمَالِكِيُّ^٢ ، قَالَ : حَدَّثَنِي بِهِ شُتَيْبُ بْنُ عُثَيْمٍ الْعَامِرِيُّ - شَيْخُ لَقِيهِ بِأَرْضِ فِلَسْطِينَ - أَنَّهُ شَاهَدَ هَذَا الْكِتَابَ^(e) وَهُوَ شَابٌ ، وَحَفِظَ مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ .

(a) بولاق : ذراع . (b) ساقطة من بولاق . (c) بعد ذلك في بولاق والنسخ التي من عائلتها عنوان هو : بقية خير مدينة مدين . (d) بولاق : وجراة . (e) بولاق : شاهد الكتاب المذكور .

^١ لم يحدد المقرئ مصدر هذا القول . ^٢ انظر عنه فيما تقدم ٤٣٧ .

وقيل إن مالك بن ذعر بن محجر بن جديلة بن لحم، كان له أربعة وعشرون ولداً ذكراً، فكثرت أولادهم حتى بنوا المدائن والقري والحصون، وعمروا بلاد مدين كلها، وغلبوا على بلاد الشام ومصر والحجاز وغيرها خمس مائة سنة.

وقيل إنما كان استيلاء ملوك مدين على مصر خمس مائة سنة، بعد غرق فرعون موسى وهلاك دلوكة بنت زبان^a، حتى أخرجهم منها نبي الله سليمان بن داود، فعاد الملك إلى القبط بعدهم^١.

ذكر مدينة فاران

هذه المدينة بساحل بحر القلزم^٢، وهي من مدن العماليق، على تل بين جبلين، وفي الجبلين ثقوب كثيرة لا تحصى مملوءة أمواتاً.

ومن هناك إلى بحر القلزم مَرَحَلَةٌ واحدة، ويُقال له هناك ساحل بحر فاران، وهو البحر الذي أغرق الله فيه فرعون. وبين مدينة فاران والتيه مَرَحَلَتَانِ.

ويذكر أن فاران اسم لجبال مكة، وقيل اسم لجبال الحجاز، وهي التي ذكرت في التوراة^٣. والتحقق أن فاران والطور كورتان من كور مصر القبليّة، وهي غير فاران المذكورة في التوراة.

وقيل إن فاران بن عمرو بن عمليق هو الذي نُسب إليه جبال الحرم، فقبل جبال فاران، وبعضهم يقول جبال قران^b. والمشهور أن قران هو قران بن بلي بن عمرو بن الحاف إليه يُنسب معذن قران^b.

وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين وبها إلى اليوم نخل^c كثيرٌ مُثمرٌ أكلت من ثمره، وبها نهرٌ عظيم، وهي خرابٌ يُمزُّ بها الغزيان.

(a) بولاق: زباء. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: وبها نخل كثير.

^١ انظر فيما تقدم ٣٨٩. محافظة جنوب سيناء (محمد رمزي: القاموس الجغرافي
^٢ اندثرت اليوم هذه المدينة وكانت واقعة في وادي فاران (٣٤٢:١).
^٣ ياقوت: معجم البلدان ٤: ٢٢٥ نقلًا عن القاضي.

/ ذِكْرُ أَرْضِ الْجِفَارِ

اعْلَمْ أَنَّ الْجِفَارَ اسْمٌ لِحَمْسِ مَدَائِنٍ وَهِيَ : الْفَرَمَا ، وَالتَّبْقَارَةُ ، وَالْوَرَادَةُ ، وَالْعَرِيشُ ، وَرَفَحٌ .
وَالْجِفَارُ كُلُّ رَمْلٍ ، وَسُمِّيَ بِالْجِفَارِ لِشِدَّةِ الْمَشْيِ فِيهِ عَلَى النَّاسِ وَالذُّوَابِ ، مِنْ كَثْرَةِ رَمْلِهِ وَبُعْدِ
مَرَاكِجِهِ . وَالْجِفَارُ تَجْفَرُ فِيهِ الْإِبِلُ ^٢ ، فَاتَّخِذَ لَهُ هَذَا الْاسْمَ ، كَمَا قِيلَ لِلْحَبْلِ الَّذِي يُهَجَّرُ بِهِ الْبَعِيرُ
هَجَّارٌ ، وَلِلَّذِي يُهَجَّرُ بِهِ حَجَّارٌ ، وَلِلَّذِي يُعْقَلُ بِهِ عَقَّالٌ ، وَلِلَّذِي يُتَطَّنُ بِهِ بَطَّانٌ ، وَلِلَّذِي يُخْطَمُ بِهِ
خَطَّامٌ ، وَلِلَّذِي يُزَمُّ بِهِ زَمَامٌ .

وَاسْتُنْقَتِ التَّبْقَارَةُ مِنَ التَّبَرِّ ، وَالْوَرَادَةُ مِنَ الْوَرِيدِ ^٥ ، وَالْعَرِيشُ أُخِذَ مِنَ الْعَرْشِ ، وَقِيلَ إِنَّ رَفَحَ
اسْمٌ جَبَلٌ ^٣ . وَكَانَ يَسْكُنُ الْجِفَارَ فِي الْقَدِيمِ جُذَامُ بْنُ الْعَرْبَانِ .

وَيُقَالُ إِنَّ أَرْضَ الْجِفَارِ كَانَتْ فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ وَالزَّمَنِ الْغَايِرِ مُتَّصِلَةً بِالْعِمَارَةِ ، كَثِيرَةَ الْبَرَكَاتِ ،
مَشْهُورَةً بِالْخَيْرَاتِ ، لِكَثْرَةِ زِرَاعَةِ أَهْلِهَا الزُّعْفَرَانِ وَالْعُصْفُرِ وَقَصَبِ الشُّكْرِ . وَكَانَ مَاؤُهَا غَزِيرًا
عَذْبًا ، ثُمَّ صَارَ بِهَا نَحْلٌ يُحْدِقُ بِهَا مِنْ كُلِّ النَّوَاحِي ، إِلَى أَنْ دَمَّرَهَا اللَّهُ تَدْمِيرًا ، فَصَارَتْ إِلَى الْيَوْمِ
ذَاتَ رَمْلٍ عَظِيمٍ يُسَلِّكُ فِيهِ إِلَى الْعَرِيشِ وَإِلَى رَفَحٍ ، كُلُّهُ قَفْرٌ ، يُعْرَفُ بَعْضُهُ ^٦ بِرَمْلِ الْغَرَابِيِّ ، قَلِيلُ
الْمَاءِ ، عَدِيمُ الْمَرْعَى ، لَا أَنْيَسَ بِهِ ، فَسُبْحَانَ مُحِيلِ الْأَحْوَالِ .

ذِكْرُ صَعِيدِ مِصْرَ

الصَّعِيدُ ^٤ : الْمُرْتَفَعُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ الْأَرْضُ الْمُرْتَفِعَةُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُتَخَفِضَةِ ، وَقِيلَ مَا لَمْ
يُخَالِطْهُ رَمْلٌ وَلَا سَبْخَةٌ ، وَقِيلَ هُوَ وَجْهُ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ الْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ ، وَقِيلَ هُوَ كُلُّ تُرَابٍ طَيِّبٍ .

(a) فِي مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ مَصْدَرُ الْخَيْرِ : الْوَرُودُ . (b) بُولَاقٌ : تَعْرِفُ بَقِيَّتَهُ .

^١ مِنْ كُورِ مِصْرِ الشَّرْقِيَّةِ ، ذَكَرَ يَاقُوتٌ أَنَّهَا جَمَعَ جَعْفَرٌ نَحْوَ فَرْخِ

وَفِرَاخٍ ، وَهِيَ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ مَسْتَدِيرَةٌ ، وَالْجَفَرُ كَذَلِكَ الْبِئْرِ الْقَرِيْبَةُ

الْقَعْرُ الْوَاسِعَةُ . مَكَانُهَا الْيَوْمَ الْمَنْطِقَةُ الَّتِي كَانَتْ تَمْرُ بِهَا السِّكَّةُ الْحَدِيدِيَّةُ

الْمُوصَلَةُ مِنَ الْقَنْطَرَةِ إِلَى الْعَرِيشِ ثُمَّ إِلَى رَفَحٍ فِي مَحَافِظَةِ شِمَالِ سِينَاءِ ،

وَكَانَتْ تَمْتَدُّ غَرْبًا إِلَى عَزْبَةِ تَلِّ الْمَسْخُوطَةِ بِأَرْضِي نَاحِيَةِ أَبُو صَوِيرِ

بِمَرْكَزِ أَبُو حَمَّادٍ بِمَحَافِظَةِ الشَّرْقِيَّةِ عَلَى بَعْدِ ١٦ كِمْ غَرْبِي مَدِينَةِ

الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ (يَاقُوتٌ : مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ٢ : ١٤٤ - ١٤٦ ؛ مُحَمَّدٌ

رَمَزِي : الْقَامُوسُ الْجُغْرَافِي ١ : ٤١ - ٤٢) .

^٢ تَجْفَرُ أَي تَهْلِكُ .

^٣ ابْنُ فَضْلِ اللَّهِ الْعَمْرِيُّ : مَسَالِكُ الْأَبْصَارِ (مَمَالِكُ مِصْرِ

وَالشَّامِ) ٩٤ - ٩٥ .

^٤ انظُرْ مَقَالَ جَارِسَانَ Garcin, J.-Cl., *El² art. Sa'îd*

Maspero & Wiet, *Misr VIII*, pp. 892-97، و

Matériaux I, pp. 173-79 .

وتسمية هذه الجهة من أرض مصر بهذا الاسم إنما حدث في الإسلام، سماها العرب بذلك لأنها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر، ولذلك يقال فيها أعلى الأرض، ولأنها أرض ليس فيها رمل ولا سبخ، بل كلها أرض طيبة مباركة. ويقال للصعيد أيضا «الوجه القبلي».

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: ولما حضرت مصرية الوفاة عهد إلى ابنه قبطيم، وكان قد قسم أرض مصر بين بنيه: فجعل لقبطيم من بلد قفط إلى أسوان [إلى الثوبة] ^(a)، ولأشمون من بلد أشمون إلى منف، ولأثريب الحوف كله [إلى الشجرتين إلى أئلة من الحجاز] ^(a)، ولصا من ناحية صا البحيرة إلى قرب بركة؛ وقال لأخيه فارق: لك من بركة إلى الغرب، فهو صاحب إفريقية، وولده الأفارق؛ وأمر كل واحد من بنيه أن يبني لنفسه مدينة في موضعه ^١.

وقال ابن عبد الحكم: فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم، قطع مصر لكل واحد منهم قطعة يحوزها لنفسه ولولده، وقسم لهم هذا النيل. فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها، وبه سُميت قفط قفطًا، وما فوقها إلى أسوان، وما دونها إلى أشمون في الشرق والغرب. وقطع لأشمون من أشمون، فما دونها في الشرق والغرب، إلى منف، فسكن أشمون أشمون، فسُميت به. وقطع لأثريب ما بين منف إلى صا، فسكن أثريب، فسُميت به. وقطع لصا ما بين صا إلى البحر، فسكن صا فسُميت به. فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء؛ جزءين بالصعيد، وجزءين بأسفل الأرض ^٢.

وقال أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي ^٣ في كتاب «الطالع السعيد في تاريخ الصعيد»: مسافة إقليم الصعيد الأعلى مسيرة اثني عشر يومًا بسير الجمال [السير المعتاد] ^(b)، وعرضه ثلاث ساعات وأكثر [وأقل] ^(b) بحسب الأماكن العائرة. ويتصل عرضه في الكورة

(a) زيادة من النوري. (b) زيادة من الأدفوي.

الحج سنة ١٧٤٨هـ/١٣٤٨م. اشهر بكتابه «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد» الذي أتمه سنة ١٧٣٨هـ/١٣٣٧م، وإن ظل ينظر فيه وينقحه إلى ما قبل وفاته، وهو الكتاب الذي ينقل عنه المقرئ هنا (الصفدي: الوافي بالوفيات ١١: ٩٩-١٠٠؛ المقرئ: السلوك ٢: ٧٩٣؛ أبو المحاسن: النجوم ١٠: ٢٣٧، ابن حجر: الدرر الكامنة ٢: ٧٢-٧٣).

^١ النوري: نهاية الأرب ١٥: ٤٥؛ المسعودي: أخبار الزمان ١٥٤؛ وفيما تقدم ٤٩، ٣٧٠.
^٢ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٩.
^٣ كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي الشافعي، ولد في أدفو بصعيد مصر سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ودرس في قوص، ثم قصد القاهرة حيث التقى بشيخه أثير الدين أبي حيان، وتوفي في القاهرة بعد عودته من

الشرقية بالبحر الملح وأراضي البجّة، وفي الغربية بالوَّاح، وهي كُورَتان : شَرْقِيَّةٌ وَغَرْبِيَّةٌ، والنَّيْلُ بينهما فاصِلٌ.

وأوَّلُ الشَّرْقِيَّةِ من مَرْجِ بني هَمِيمٍ، المتَّصلةُ أَرْضُهَا بأراضي جِرْجَا من عملِ إخمِيمٍ، وآخِرُهَا من قِبَلِي أَبْهَر^a، ويليهَا أوَّلُ أراضي الثُّوبَةِ، وفي هذه الكُورَةُ تيجٌ وَقِفْطٌ وَقُوصٌ^١.

وأوَّلُ الكُورَةِ الغَربِيَّةِ بَزْدِيسٍ تتصلُّ أَرْضُهَا بأرضِ جِرْجَا، وفي هذه الكُورَةُ الغَربِيَّةِ سُمُهُودٌ، وآخِرُ الكُورَةِ الغَربِيَّةِ أُسْوَانٌ، وبِحَافَتِهِ أَكْثَرُ النَّخْلِ من الجَانِبَيْنِ، تكونُ مِسَاحَةُ الأَرْضِي التي فيها النَّخْلُ والبَسَاتِينُ ثُقَابَ عَشْرِينَ أَلْفَ فَدَّانٍ، والمَسْتَوِي على إِقْلِيمِ الصَّعِيدِ المُشْتَرَى^٢.

ويُقَالُ كانَ بَصْعِيدِ مِصْرَ نَخْلَةٌ تَحْمَلُ عَشْرَةَ أَرَادِبٍ تَمْرًا، فَغَضَبَهَا بَعْضُ الوُلاةِ، فلم تَحْمَلْ في ذلكَ العامِ ولا تَمْرَةً وَاحِدَةً، وكانت هذه النَّخْلَةُ في الجَانِبِ الغَربِيِّ، ويبيِعُ منها في الغَلاءِ كُلَّ وَبَيْتَةٍ بِدينارٍ.

ويُقَالُ لما صُوِّرَتِ الدُّنيا لِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ هارونَ بنِ مُحَمَّدِ الرُّشيدِ، لم يَسْتَحْسِنِ إِلَّا كُورَةَ سُيُوطِ مِصْرَ صَعِيدِ مِصْرَ، فَإِنَّهَا ثَلَاثُونَ أَلْفَ فَدَّانٍ في اسْتِواءٍ مِنَ الأَرْضِ، لو وَقَعَتْ فيها قَطْرَةٌ ماءٍ لانتَشَرَتْ في جَمِيعِهَا.

وبالصَّعِيدِ بَقَايَا سِخْرِ قَدِيمٍ؛ حَكَى الأَمِيرُ طُقُصُبا^٣ - والي قُوصِ في أَيَّامِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بنِ قَلاوونَ - قالَ : أَمْسَكْتُ امْرَأَةً سَاحِرَةً فَقُلْتُ لَهَا : أريدُ أنْ أُبْصِرَ شَيْئًا من سِخْرِكَ؛ فقالتَ : أَجودُ عَمَلِي أنْ أشْحَرَ العَقْرَبَ على اسمِ شَخْصٍ بَعِيْنِهِ، فلا بُدَّ أنْ تَقَعَ عليه، ويُصِيبُهُ سُمُّها فتقتله؛ فقُلْتُ : أريني هذا، واقْصِدْني بِسِخْرِكَ.

فأخَذَتِ عَقْرَبًا وَعَمِلَتْ ما أَحْبَبَتْ، ثم أَرْسَلَتِ العَقْرَبَ فَتَبِعَنِي، وأنا أَتَنَحَّى عنه، وهو يَقْصِدُنِي؛ فجلَسْتُ على تَحْتٍ وَضَعْتُهُ على بِرْكَةِ ماءٍ، فأقْبَلَ العَقْرَبُ إلى ذلكَ الماءِ، وأخَذَ في

(a) بولاق : الهو.

هناك بالعسكر تسعة أشهر، وعُمِّرَ حتى توفي سنة ٧٤٥هـ/

^١ الأدفوي : الطالع السعيد ٧-٨.

١٣٤٥م (المقريري : المقفى الكبير ٤: ٣٠-٣٣، ابن حجر :

^٢ نفسه ١٨.

الدرر الكامنة ٢: ٣٢٦-٣٢٧؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة

^٣ الأمير سيف الدين طُقُصبا الحسامي الظاهري، أحد

Garcin, J.-Cl., *Un center musulman de* ١١١ : ١٠

المماليك الظاهرية ببيرس، ترقى في الخدم إلى أن ولي قوص

. (la Haute - Égypte médiévale, pp. 195-96, 229

وغزا التوبة في سنة ٧٠٥هـ، وعبر إلى دنقلة وعاد بعد أن مكث

التَّوَصَّلَ إِلَيَّ فَلَمْ يَطِقْ ذَلِكَ ، فَمَرَّ إِلَى الْحَائِطِ ، وَصَعِدَ فِيهِ وَأَنَا أَشَاهِدُهُ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى السَّقْفِ ، /
وَمَرَّ فِيهِ إِلَى أَنْ صَارَ فَوْقِي ، وَأَلْقَى نَفْسَهُ صَوْبِي ، وَسَعَى نَحْوِي حَتَّى قَرَّبَ مِنِّي ، فَضَرَبْتُهُ فَقَتَلْتُهُ ،
ثُمَّ قَتَلْتُ الشَّاحِرَةَ أَيْضًا ^١ .

وَأَرْضُ الصُّعِيدِ كَثِيرَةُ الْمَوَاشِي ، مِنَ الضَّأْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ نِتَاجِهِ ، حَتَّى إِنَّ الرَّأْسَ الْوَاحِدَ مِنْ
نِعَاجِ الضَّأْنِ يَتَوَلَّدُ عَنْهُ فِي عَشْرِ سِنِينَ أَلْفٌ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ رَأْسًا وَذَلِكَ بِتَقْدِيرِ السَّلَامَةِ ، وَأَنْ تَلِدَ
كُلُّهَا إِنَاثًا ، وَتَلِدَ مَرَّةً وَاحِدَةً كُلَّ سَنَةٍ ، وَلَا تَلِدُ فِي كُلِّ بَطْنٍ غَيْرَ رَأْسٍ وَاحِدٍ ، وَالْأَفْئِدَةُ وَالدُّبَابُ فِي
السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ ، وَكَانَ فِي كُلِّ بَطْنٍ رَأْسَانِ ، تَضَاعَفَ الْعَدْدُ . وَتَأْمَلْ حِسَابَ مَا قُلْنَا تَجِدُهُ صَحِيحًا .
وَقَدْ شُوهِدَ كَثِيرًا أَنَّ مِنْ أَعْنَامِ الصُّعِيدِ مَا يَلِدُ فِي السَّنَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَيَلِدُ فِي الْبَطْنِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ
رُؤُوسٍ .

وَكَانَتِ الْكَثْرَةُ وَالغَلَبَةُ بِلَادِ الصُّعِيدِ لِسِتِّ قَبَائِلٍ وَهِيَ : بَنُو هِلَالٍ ، وَبَنِي ، وَجُهَيْنَةَ ، وَقُرَيْشٍ ،
وَلَوَاتَةَ ، وَبَنُو كِلَابٍ . وَكَانَ يَنْزِلُ مَعَ هَؤُلَاءِ عِدَّةٌ قَبَائِلٍ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ وَمِنْ مُزَيْنَةَ وَبَنِي رَزَاحٍ ^a
وَبَنِي كِلَابٍ وَتَغَلَبَةَ وَجُدَامٍ .

وَبَلَغَ مِنْ عِمَارَةِ الصُّعِيدِ أَنَّ الرَّجُلَ ، فِي الْأَيَّامِ النَّاصِرِيَّةِ ^b مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ وَمَا بَعْدَهَا ، كَانَ
يَمُرُّ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى أَسْوَانَ فَلَا يَخْتِاجُ إِلَى نَفَقَةٍ ، بَلْ يَجِدُ بِكُلِّ بَلَدٍ وَنَاحِيَةٍ عِدَّةً دُورٍ لِلزُّيَاةِ إِذَا
دَخَلَ دَارًا مِنْهَا أَحْضَرَ لِدَابَّتِهِ عَلْفَهَا وَجِيءَ لَهُ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ مِنَ الْأَكْلِ وَنَحْوِهِ ، وَآلَ أَمْرِهِ الْآنَ إِلَى الْأُ
يَجِدُ الرَّجُلَ أَحَدًا فِيمَا بَيْنَ الْقَاهِرَةِ وَأَسْوَانَ يُضَيِّفُهُ لِضَيْقِ الْحَالِ .

ثُمَّ تَلَاشَى أَمْرُ بِلَادِ الصُّعِيدِ مِنْذُ سَنَةِ الشَّرَاقِيِّ فِي الْأَيَّامِ الْأَشْرَفِيَّةِ ^c شَعْبَانَ بْنِ حُسَيْنِ بْنِ
مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ سَنَةَ سِتِّ وَسَبْعِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ ، وَتَزَايَدَ تَلَاشِيهِ فِي الْأَيَّامِ الظَّاهِرِيَّةِ ^d بَرْقُوقِ
لِجُورِ الْوَلَاةِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ فِي إِذْبَارٍ إِلَى أَنْ كَانَتْ سَنَةُ سِتِّ وَثَمَانِ مِائَةٍ وَشَرَقَتْ مِصْرَ بِقُصُورِ مَدِّ
النَّيْلِ ، فَذَهَبَ أَهْلُ الصُّعِيدِ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَا يُوصَفُ ، حَتَّى إِنَّهُ مَاتَ مِنْ مَدِينَةِ قُوصٍ سَبْعَةَ عَشَرَ
أَلْفَ إِنْسَانَ ، وَمَاتَ مِنْ مَدِينَةِ سُيُوطٍ أَحَدُ عَشَرَ أَلْفَ إِنْسَانَ مِمَّنْ غُسِّلَ وَكُفِّنَ ، وَمِنْ مَدِينَةِ هُو
خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ إِنْسَانَ وَذَلِكَ كُلُّهُ سِوَى الطُّرُوحِيِّ عَلَى الطُّرُوقَاتِ ، وَمَنْ لَا يُعْرَفُ مِنَ الْغُرَبَاءِ

(a) بولاق : دراج . (b) بولاق : أيام الناصر . (c) بولاق : أيام الأشرف . (d) بولاق : أيام الظاهر .

^١ نقلًا عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٨٧ .

وَنَحْوَهُمْ . ثُمَّ دُمِّرَ فِي الْأَيَّامِ الْمُؤَيَّدَةِ^١ شَيْخٌ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا رُسُومٌ تَبَدَّلَ الْوَلَاةُ الْجُهْدَ فِي مَحْوِهَا ، نَسَّأَلُ اللَّهَ مُحَسِّنَ الْحَائِمَةِ .

ذِكْرُ الْجَنَادِلِ وَتَمَعٌ مِنْ أُخْبَارِ أَرْضِ الثُّوبَةِ

الْجَنْدَلُ مَا يَقِلُّ الرَّجُلُ مِنَ الْحِجَارَةِ ، وَقِيلَ هُوَ الْحَجَرُ كُلُّهُ ، الْوَاحِدَةُ جَنْدَلَةٌ .
وَالْجَنْدَلُ الْجَنَادِلُ ، قَالَ سَيِّبِيُّهُ : وَقَالُوا جَنْدَلٌ يَعْنُونَ الْجَنَادِلَ ، وَصَرَفُوهُ لِنُقْصَانِ الْبِنَاءِ عَمَّا لَا
يُنْصَرَفُ ، وَأَرْضٌ جَنْدَلَةٌ : ذَاتُ جَنْدَلٍ ؛ وَقِيلَ الْجَنْدَلُ الْمَكَانُ الْغَلِيظُ فِيهِ حِجَارَةٌ ، وَمَكَانٌ جَنْدَلٌ :
كَثِيرُ الْجَنْدَلِ^١ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سُلَيْمِ الْأَسْوَانِيِّ^٢ فِي كِتَابِ «أَخْبَارِ الثُّوبَةِ وَالْمَقْرَةَ وَعَلْوَةَ وَالثَّبَجَةَ
وَالنَّيْلَ» : وَأَوَّلُ بَلَدِ الثُّوبَةِ قَرْيَةٌ تُعْرَفُ بِالْقَصْرِ^٣ مِنْ أُسْوَانَ إِلَيْهَا خَمْسَةُ أَمْيَالٍ ، وَآخِرُ حِصْنٍ
لِلْمُسْلِمِينَ جَزِيرَةٌ تُعْرَفُ بِبِلَاقٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرْيَةِ الثُّوبَةِ مِيلٌ ، وَهُوَ سَاحِلُ بَلَدِ الثُّوبَةِ^٤ .

(a) بولاق : أيام المؤيد .

٤ : ٥٧٤ - ٥٧٦ ؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي
العربي ٢١٠ - ٢١١ ؛ Troupeau, G., «La description
de la Nubie d'al-Uswâni», *Arabica* I (1954), pp.
276-88; Brockelmann, C., *GALS* I, 410; Yusuf
Fadl Hasan, *El*² art. *Ibn Sulaym al-Uswâni* III,
p. 973؛ وجمع حَمَدٌ مُحَمَّدٌ خَيْرُ النُّصُوصِ الَّتِي وَرَدَتْ عَنْ
ابن سليم وعلى الأخص لدى المقرئ في مقاله Kheir,
H.M., «A Contribution to a Textual Problem:
Ibn Sulaym al-Aswâni's *Kitâb Akhbâr al-Nûba
wal-Maqurra wal-Bega wal-Nil*», *An. Isl.* XXI
(1985), pp. 9-72؛ الذي أعاد نشره في مجلة أرابيكا
(*Arabica* XXXVI (1989), pp. 36-80 .

^٣ عن قرية القصر انظر فيما يلي ٥٤٠ ؛ وانظر كذلك
المسعودي : أخبار الزمان ٦٦-٦٧ ومقال كريستيد
وبوزورث^٢ Christides, V. & Bosworth, C.E., *El*²
art. *Nûba* VIII, pp. 90-93 .

^٤ انظر فيما يلي ٥٤٠ .

^١ سيبويه : الكتاب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ،
القاهرة ١٩٧٧ ، ٣ : ٣٤٢ .

^٢ عاش عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني في منتصف
القرن الرابع الهجري ، ولم يعطنا المقرئ في ترجمته التي
أفردنا له في كتاب «المقفي الكبير» أي تحديد لتاريخ ميلاده
أو وفاته ، وإنما ذكر أن القائد جوهر الصقلي بعثه بكتاب إلى
قيرقي ، ملك الثوب ، يعرض عليه فيه الإسلام وتسديد البقظ
(انظر فيما يلي ٢٠٠ : ١) ، وعلى هذا يكون مسيره في هذه
البعثة في الفترة بين سنتي ٣٥٨ هـ (وصول جوهر إلى مصر)
و٣٦٣ هـ (وصول المعز إلى مصر) ، وألف كتابًا وصف فيه
المناطق التي زارها في جنوب مصر وقدمه إلى الخليفة الفاطمي
الثاني في مصر العزيز بالله ، وهو الكتاب الذي ينقل عنه
المقرئ هنا ؛ ولا نعرف هذا الكتاب إلا عن طريق النقول
التي وصلت إلينا عنه لدى ثلاثة مؤلفين متأخرين هم :
المقرئ وابن إياس والمنوفي . (المقرئ : المقفي الكبير

ومن أسوان إلى هذا الموضع جنادل كثيرة الحجر، لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة ودلالة من يُخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك، لأن هذه الجنادل متقطعة وشعاب مُعترضة في النيل، ولا نصيبه فيها خريز عظيم ودوي يُسمع من بُعد.

وبهذه القرية مسلحة وباب إلى بلد الثوبة، ومنها إلى الجنادل الأولى من بلد الثوبة عشر مراحل. وهي الناحية التي يتصرف فيها المسلمون، ولهم فيما قرب أملاك، ويتجرون في أعلاها. وفيها جماعة من المسلمين قاطنون، لا يفصح أحدهم بالعربية، وشجرها كثير.

وهي ناحية ضيقة شظفة كثيرة الجبال، وما تخرج عن النيل، وقراها متسطرة على شاطئه، وشجرها النخل والمقل، وأعلاها أوسع من أذناها، وفي أعلاها الكزوم. والنيل لا يزوي مزارعها لارتفاع أرضها، وزرعها القدان والفدانان والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب.

والقمح عندهم قليل والشعير أكثر والسلت، ويعتقون الأرض لضيقها فيزرعونها في الصيف، بعد تطريتها بالزبل والتراب، الدخن والذرة والجاوزس والشمس واللونيا.

وفي هذه الناحية بخراش مدينة المريسى^(a)، وقلعة إبريم، وقلعة أخرى دونها، ولها^(b) مينا تُعرف بأدراء يُنسب إليها لثمان الحكيم وذو الثون، وبها بزبا عجيب.

ولهذه الناحية وال من قتل عظيم الثوبة يُعرف بصاحب الجبل من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام. ومن يخرج إلى بلد الثوبة من المسلمين فمعاملته معه، في تجارة أو هدية إليه أو إلى موله، يقبل الجميع ويكافئ عليه بالزقيق، ولا يُطلق لأحد الصعود إلى موله لا لمسلم ولا لغيره.

وأول الجنادل من بلد الثوبة قرية تُعرف بتقوى هي ساحل، وإليها تنتهي مراكب الثوبة المضعدة من القصر أول بلدهم، ولا تتجاوزها المراكب، ولا يُطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلا بإذن من صاحب جبلهم، ومنها إلى^(c) المقس الأعلى ست مراحل. وهي جنادل كلها، وشر ناحية رأيتها لهم لصعوبتها وضيقها ومشقة مسالكها.

أما بحرها فجنادل وجبال مُعترضة فيه، حتى أن النيل ينصب من شعاب ويضيق في مواضع حتى يكون سعة ما بين/ الجانبين خمسين ذراعًا.

وبهها مجاوب ضيقة وجبال شاهقة وطرقات ضيقة، حتى لا يمكن الراكب أن يصعد منها، والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها، ورمال في غربها وشرقها. وهذه الجبال حصنهم، وإليها

(a) بولاق: المريس. (b) بولاق: بها. (c) ساقطة من بولاق.

يَفْرَعُ أَهْلُ النَّاحِيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا الْمُتَّصِلَةُ بِأَرْضِ الْإِسْلَامِ . وَفِي جَزَائِرِهَا نَخْلٌ يَسِيرٌ ، وَزُرْعٌ حَقِيرٌ ،
وَأَكْثَرُ أَكْلِهِمُ السَّمَكُ ، وَيَذْهَبُونَ بِشَخْمِهِ .

وَهِيَ مِنْ أَرْضِ مَرِيَسَ ، وَصَاحِبُ الْجَبَلِ وَالْيَهُمِ ، وَالْمَسْلَحَةُ بِالْمَقْسِ الْأَعْلَى صَاحِبُهَا مِنْ قِبَلِ
كَبِيرِهِمْ شَدِيدُ الضُّبُطِ لَهَا ، حَتَّى إِنَّ عَظِيمَهُمْ إِذَا صَارَ بِهَا وَقَفَ بِهِ الْمَسْلُحِيُّ وَأَوْهَمَ أَنَّهُ يُفْتَشُّ
عَلَيْهِ ، حَتَّى يَجِدَ الطَّرِيقَ إِلَى وُلْدِهِ وَوَزِيرِهِ فَمِنْ دُونَهُمَا .

وَلَا يَجُوزُهَا دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، إِذْ كَانُوا لَا يَتَبَايَعُونَ بِذَلِكَ إِلَّا دُونَ الْجُنَادِلِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا
فَوْقَ ذَلِكَ لَا يَبِيعُ بَيْنَهُمْ وَلَا يَشْرَاءُ ، وَإِنَّمَا هِيَ مُعَاوَضَةٌ بِالرَّقِيقِ وَالْمَوَاشِيِّ وَالْجِمَالِ^(a) وَالْحَدِيدِ
وَالْحُبُوبِ .

وَلَا يُطَلَّقُ لِأَحَدٍ أَنْ يَجُوزَهَا إِلَّا بِإِذْنِ الْمَلِكِ ، وَمَنْ خَالَفَ كَانَ جَزَاؤُهُ الْقَتْلُ كَائِنًا مَنْ كَانَ .

١٠ وَبِهَذَا الْاِخْتِيَاظِ تَنَكَّرَ أَخْبَارُهُمْ ، حَتَّى إِنَّ الْعَسْكَرَ مِنْهُمْ يَهْجِمُ عَلَى الْبَلَدِ إِلَى الْبَادِيَةِ وَغَيْرِهِمْ فَلَا
يَعْلَمُونَ بِهِ .

وَالسُّنْبَادُ^١ ، الَّذِي يُخَرِّطُ بِهِ الْجَوْهَرُ ، يَخْرُجُ مِنَ النَّيْلِ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ ، يُغَطِّسُ عَلَيْهِ فَيُوجَدُ
جَسْمُهُ بَارِدًا مُخَالِفًا لِلْحِجَارَةِ ، فَإِذَا أُشْكِلَ عَلَيْهِ تُفِيحُ فِيهِ بِالْقَمِّ فَيَغْرَقُ .

وَمِنْ هَذِهِ الْمَسْلَحَةِ إِلَى قَرْيَةٍ تُعْرَفُ بِسَايِ جُنَادِلٍ أَيْضًا ، وَهِيَ آخِرُ كُرْسِيِّهِمْ ، وَلَهُمْ فِيهَا
أَسْقُفٌ ، وَفِيهَا بَرَبَا .

١٥ ثُمَّ نَاحِيَةُ سَقْلُوذَا ، وَتَفْسِيرُهَا السَّبْعُ وَوَلَاةٌ ، وَهِيَ أَشْبَهُ الْأَرْضَ بِالْأَرْضِ الْمَتَاخِمَةَ لِأَرْضِ الْإِسْلَامِ
فِي السَّعَةِ وَالضُّيْقِ فِي مَوَاضِعِ وَالنَّخْلِ وَالكَزْمِ وَالزُّرْعِ وَشَجَرِ الْمُقْلِ . وَفِيهَا شَيْءٌ مِنْ شَجَرِ الْقُطْنِ ،
وَيُعْمَلُ مِنْهُ ثِيَابٌ وَخَشَّةٌ ، وَبِهَا شَجَرُ الزُّيْتُونِ .

وَوَالِيهَا مِنْ قِبَلِ كَبِيرِهِمْ ، وَتَحْتُ يَدِهِ وَوَلَاةٌ يَتَصَرَّفُونَ . وَفِيهَا قَلْعَةٌ تُعْرَفُ بِأَصْطَنُونَ ، وَهِيَ أَوَّلُ

٢٠ الْجُنَادِلِ الثَّلَاثَةِ ، وَهِيَ أَشَدُّ الْجُنَادِلِ صُعُوبَةً لِأَنَّ فِيهَا جَبَلًا مُعْتَرِضًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ فِي النَّيْلِ ،
وَالْمَاءُ يَنْصَبُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَبْوَابٍ - وَرَبَّمَا رَجَعَ إِلَى بَايْتَيْنِ عِنْدَ انْحِسَارِهِ - شَدِيدِ الْخَرِيرِ عَجِيبِ الْمُنْظَرِ ،
يَتَحَدَّرُ الْمَاءُ عَلَيْهِ مِنْ عُلوِّ الْجَبَلِ .

(a) بولاق : الجبال .

^١ السُّنْبَادُ أَوْ السُّنْبَادِجُ ، حَجَرٌ مِسْتَقٌّ ، فَارْسِيٌّ مَعْرَبٌ (الفيروزآبادي : القاموس المحيط ٤٢٦) .

وقبليه فَرَشَ حِجَارَةَ فِي النَّيْلِ نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَبْرَدٍ إِلَى قَرْيَةٍ تُعْرَفُ بِبِشْتُو، وَهِيَ آخِرُ قَرْيِ مَرِيَسٍ وَأَوَّلُ بَلَدٍ مُقَرَّةٍ. وَمِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى حَدِّ الْمُسْلِمِينَ لِسَانَتِهِمْ مَرِيَسِي، وَهِيَ آخِرُ عَمَلٍ مُتَمَلِّكِهِمْ. ثُمَّ نَاحِيَةُ بُقُون، وَتَفْسِيرُهَا الْعَجَبُ، وَهِيَ عِنْدَ اسْمِهَا الْحُسَيْنِيَّةُ. وَمَا رَأَيْتُ عَلَى النَّيْلِ أَوْسَعَ مِنْهَا. وَقَدَّرْتُ أَنْ سَعَةَ النَّيْلِ فِيهَا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ مَسِيرَةَ خَمْسِ مَرَاجِلِ الْجَزَائِرِ تَقْطَعُهُ، وَالْأَنْهَارُ مِنْهَا تَجْرِي بَيْنَهَا عَلَى أَرْضٍ مُنْخَفِضَةٍ، وَقَرْيٌ مُتَّصِلَةٌ، وَعِمَارَةٌ حَسَنَةٌ، بِأَبْرِجَةٍ حَمَامٍ وَمَوَاشٍ وَأَنْعَامٍ.

وَأَكْثَرُ مَبْرِزَةِ مَدِينَتِهِمْ مِنْهَا، وَطُيُورُهَا التُّغْتَبُطُ^(a) وَالتُّوبِي وَالبَّبَغُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الطُّيُورِ الْحِسانِ. وَأَكْثَرُ نَزْهَةٍ كَبِيرِهِمْ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ.

قَالَ: وَكُنْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ فَكَانَ سَيَّرْنَا فِي ظِلِّ شَجَرٍ مِنَ الْحَافَتَيْنِ فِي الْخُلْجَانِ الضَّيْقَةِ. وَقِيلَ إِنَّ التَّمْسَاحَ لَا يَضُرُّ هُنَاكَ، وَرَأَيْتُهُمْ يَغْبِرُونَ أَكْثَرَ هَذِهِ الْأَنْهَارِ سِبَاحَةً. ثُمَّ سَفَدَبَغْلٌ وَهِيَ نَاحِيَةُ ضَيْقَةِ شَبِيهَةٍ بِأَوَّلِ بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنَّ فِيهَا جَزَائِرَ جِسانًا، وَفِيهَا دُونَ الْمَرْحَلَتَيْنِ نَحْوَ ثَلَاثِينَ قَرْيَةً بِالْأَيْبِيَّةِ الْحِسانِ وَالْكَنَائِسِ وَالْأَذْيَارِ وَالنُّخْلِ الْكَبِيرِ^(b) وَالْكَرومِ وَالبَّسَاتِينَ وَالزُّرْعَ، وَمُرُوجَ كِبَارٍ فِيهَا إِبِلٌ وَجِمَالٌ صُهْبٌ مُؤَبَّلَةٌ لِلتَّنَاجِ.

وَكَبِيرُهُمْ يُكْثِرُ الدُّخُولَ إِلَيْهَا لِأَنَّ طَرَفَهَا الْقِبْلِيَّ يُحَاذِي دُنُقُلَةَ مَدِينَتِهِمْ، وَمِنْ مَدِينَةِ دُنُقُلَةَ دَارَ الْمَمْلَكَةِ إِلَى أَشْوَانَ خَمْسُونَ مَرَّحَلَةً. وَذَكَرَ صِفَتَهَا ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُمْ يُسَقُّفُونَ مَجَالِسَهُمْ بِخَشَبِ السُّنْطِ، وَبِخَشَبِ السَّجَاجِ الَّذِي يَأْتِي بِهِ النَّيْلُ فِي وَقْتِ الزُّيَادَةِ، إِسْقَالَاتٍ مَنْحَوْتَةٌ لَا يُدْرَى مِنْ أَيْنَ تَأْتِي، وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى بَعْضِهَا عَلَامَةَ غَرِيْبَةٍ.

وَمَسَافَةٌ مَا بَيْنَ دُنُقُلَةَ^١ إِلَى أَوَّلِ بَلَدٍ عَلَوَةٌ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَشْوَانَ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْقَرْيِ وَالضُّبْيَاعِ وَالْجَزَائِرِ وَالْمَوَاشِي وَالنُّخْلِ وَالشُّجَرِ وَالْمَقْلِ وَالزُّرْعِ وَالْكَرْمِ أَضْعَافٌ مَا فِي الْجَانِبِ الَّذِي يَلِي أَرْضَ الْإِسْلَامِ.

(a) بولاق: التقيط. (b) بولاق: الكثير.

^١ ذكر الفلقشندي - نقلاً عن أبي الفدا - أن دُنُقُلَةَ بضم الدال المهملة وسكون النون وقاف مضمومة ولام مفتوحة وهاء في الآخر، وهو الجاري على ألسنة أهل الديار المصرية، بينما ذكرها الحميري في «الروض المعطار» دُنُقُلَةَ بإبدال النون ميماً، مضبوطة بفتح الدال وباقي الضبط على ما تقدم (صبح الأعشى ٢٧٥:٥).

وفي هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام ، فيها الجبال والوَحْش والسُّباع ، ومفاوز يُخَافُ فيها العَطَش . والنَّيْلُ يَنْعَطِفُ مِنْ هَذِهِ النَّوَاحِي إِلَى مَطْلَعِ الشَّمْسِ وَإِلَى مَغْرِبِهَا مَسِيرَةَ أَيَّامٍ حَتَّى يَصِيرَ الْمُضْعَدُ كَالْمُنْحَدِرِ . وَهِيَ النَّاحِيَةُ الَّتِي تَبْلُغُ الْعُطُوفَ مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْمَعْدِنِ الْمَعْرُوفِ بِالشَّنَكَّةِ^(a) ، وَهُوَ بَلَدٌ يُعْرَفُ بِشَنْقِيرٍ ، وَمِنْهُ نَخْرَجُ الْعُمَرِيُّ^(b) هُوَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ^(c) ، كَانَتْ لَهُ فِي الثُّبَةِ وَالْبُجَّةِ حُرُوبٌ وَهَدَمَ حَبَسَ أَحْمَدَ بْنَ طَوْلُونَ^(d) ، وَتَغَلَّبَ عَلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ إِلَى أَنْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مِنْ كَانَ .

وَقَرَسُ الْبَحْرِ يَكْثُرُ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ^٢ .

وَمِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ طُرُقٌ إِلَى سَوَاكِنَ وَبَاضِعَ وَدَهْلَكَ وَجَزَائِرِ الْبَحْرِ ، وَمِنْهَا عَبَّرَ مَنْ نَجَا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ عِنْدَ هَرَبِهِمْ إِلَى الثُّبَةِ^٣ .

١٠ وَفِيهَا خَلِقٌ مِنَ الْبُجَّةِ يُعْرَفُونَ بِالزُّنَافِجِ انْتَقَلُوا إِلَى الثُّبَةِ قَدِيمًا وَقَطَنُوا هُنَاكَ ، وَهُمْ عَلَى جَمَلَتِهِمْ^(e) فِي الرَّغْمِيِّ وَاللُّغَةِ لَا يُخَالِطُونَ الثُّبَةَ وَلَا يَسْكُنُونَ قُرَاهِمَ ، وَعَلَيْهِمْ وَالِ مِنْ قَبْلِ الثُّبَةِ .

ذِكْرُ تَشْعُبِ النَّيْلِ مِنْ بِلَادِ عِلْوَةَ وَمَنْ يَسْكُنُ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمَمِ

اعْلَمْ أَنَّ الثُّبَةَ وَالْمَقْرَةَ جِنْسَانِ بِلَسَانَيْنِ كِلَاهُمَا عَلَى النَّيْلِ : فَالثُّبَةُ وَهُمْ الْمَرِيْسُ الْمُجَاوِرُونَ لِأَرْضِ الْإِسْلَامِ ، وَبَيْنَ أَوَّلِ بَلَدِهِمْ وَبَيْنَ أُسْوَانَ خَمْسَةَ أَمْيَالٍ . وَيُقَالُ إِنَّ سَلَهَا جَدُّ الثُّبَةِ ، وَمَقْرِيُّ جَدُّ الْمَقْرَةِ ، مِنَ الْيَمَنِ . وَقِيلَ الثُّبَةُ وَمَقْرِيُّ مِنْ / جَمِيرٍ . وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْأَنْسَابِ عَلَى أَنَّهُمْ جَمِيعًا مِنْ وَالدِ حَامِ بْنِ نُوحٍ .

١٥

وَكَانَ بَيْنَ الثُّبَةِ وَالْمَقْرَةِ حُرُوبٌ قَبْلَ النَّصْرَانِيَّةِ .

وَأَوَّلُ أَرْضِ الْمَقْرَةِ قَرْيَةٌ تُعْرَفُ بِتَافَةَ عَلَى مَرَّحَلَةٍ مِنْ أُسْوَانَ ، وَمَدِينَةُ مُلْكِهِمْ يُقَالُ لَهَا بِخِرَاشٍ ، عَلَى أَقْلٍ مِنْ عَشْرِ مَرَاجِلٍ مِنْ أُسْوَانَ . وَيُقَالُ إِنَّ مُوسَى - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - غَزَاهُمْ قَبْلَ مَبْعَثِهِ فِي أَيَّامِ فِرْعَوْنَ ، فَأَخْرَبَ تَافَةَ ، وَكَانُوا صَابِقَةً يَغْبُدُونَ الْكُوَاكِبَ وَيَنْصُبُونَ التَّمَائِيلَ لَهَا ، ثُمَّ تَنَصَّرُوا جَمِيعًا .

٢٠

(a) بولاق : الشلة . (b-b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : حدثهم .

^٢ انظر فيما تقدم ١٧٦ .

^١ توفي بعد سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م ، وترجم له المقرئ

^٣ انظر المسعودي : التنبيه والإشراف ٣٢٩ - ٣٣٠ .

ترجمة حافلة في المقفى الكبير ٤ : ٤٠٣ - ٤١٥ ، وفيما يلي

النوبة والمقرّة ومدينة دُنُقَلَة هي دار مملكتهم ، وأوّل بلاد علوة قُرى في الشّرق على شاطئ النّيل تُعرف بالأبواب . ولهذه النّاحية والى من قبل صاحب بَلَد^(a) علوة يُعرف بالوَحواح^(b) .

والنّيل يتشعب من هذه النّاحية على سبعة أنهار ، فمنها نهر يأتي من ناحية المشرق ، كثير الماء يجفّ في الصّيف حتى يسكن بطنه ، فإذا كان وقت زيادة النّيل تبع فيه الماء ، وزادت البرك التي فيه ، وأقبل المطر والسيول في سائر البلد فوقعّت الزيادة في النّيل . وقيل إنّ آخر هذا النهر عين عظيمة تأتي من جبل .

قال مؤرّخ النوبة^١ : وحديثي سيمون صاحب عهد بلد علوة أنه يوجد في بطن هذا النهر حوت لا قشر له ، ليس هو من جنس ما في النّيل ، يُحفر عليه قامّة وأكثر حتى يخرج ، وهو كبير .

١٠ وعليه جنس مؤلّد بين العلوة والبجة يُقال لهم الديحيون ، وجنس يُقال لهم بازه ، يأتي من عندهم طير يُعرف بحمام بازين .

وبعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة ، ثم النّيل الأبيض ، وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن .

١٥ قال : وقد سألت من طرّق بلاد السودان من المغاربة عن النّيل الذي عندهم وعن لونه ، فدكر أنّه يخرج من جبال الرّمل ، أو جبل الرّمل ، وأنّه يجتمع في بلد السودان في برك عظام ، ثم ينصب إلى ما لا يُعرف ، وأنّه ليس بأبيض ، فإمّا أن يكون اكتسب ذلك اللون ممّا يمرّ عليه ، أو من نهر آخر ينصب إليه ، وعليه أجناس من جانبيه ؛ ثم النّيل الأخضر ، وهو نهر يأتي من القبلة ممّا يلي الشّرق شديد الخضرة ، صافي اللون جدًّا ، يرى ما في قعره من السمك ، وطعمه مخالّف لطعم النّيل ، يعطش الشارب منه بسرعة ، وحيثان الجميع واجدة ، غير أنّ الطعم مختلف ، ويأتي فيه وقت الزيادة خشب السّاج والبقم والقناء^(c) ، وخبث له رائحة كرائحة اللبان ، وخبث غليظ يُنحت ويُعمل منه مقدام . وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضًا . وقيل إنّهُ وجد فيه عود البخور .

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : مرجح . (c) بولاق : الغناء .

^١ أي ابن سليم الأسواني ، فهو مصدر المقريري الرئيس عن النوبة .

قَالَ : وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى بَعْضِ السَّقَّالَاتِ الْمُنْحَوْتَةِ السَّجَاجَ الَّتِي تَأْتِي فِيهِ وَقْتُ الزِّيَادَةِ عَلَامَةٌ غَرِيبَةٌ ، وَيَجْتَمِعُ هَذَانِ النَّهْرَانِ الْأَيْضُ وَالْأَخْضَرُ عِنْدَ مَدِينَةِ مُتَمَلِّكَ بَلَدِ عِلْوَةَ ، وَيَقِيَانِ عَلَى أَلْوَانِهِمَا قَرِيبًا مِنْ مَرْحَلَةٍ ، ثُمَّ يَخْتَلِطَانِ بَعْدَ ذَلِكَ وَبَيْنَهُمَا أَمْوَاجٌ كِبَارٌ عَظِيمَةٌ بِتَلَاطُمِهِمَا .

قَالَ : وَأَخْبَرَنِي مِنْ نَقْلِ النَّيْلِ الْأَيْضِ وَصَبَّهِ فِي النَّيْلِ الْأَخْضَرِ ، فَبَقِيَ فِيهِ مِثْلُ اللَّبَنِ سَاعَةً قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِطَا . وَبَيْنَ هَذَيْنِ النَّهْرَيْنِ جَزِيرَةٌ لَا يُعْرَفُ لَهَا غَايَةٌ ، وَكَذَلِكَ لَا يُعْرَفُ لَهُذَيْنِ النَّهْرَيْنِ نِهَآيَةٌ . فَأَوْلُهُمَا يُعْرَفُ عَرَضُهُ ، ثُمَّ يَتَّسِعُ فَيَصِيرُ مَسَافَةً شَهْرٍ ، ثُمَّ لَا تُدْرِكُ سِعْتُهُمَا الْخَوْفُ مِنْ يَسْكُنُهُمَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ لِأَنَّ فِيهِمَا أَجْنَاسًا كَثِيرَةً وَخَلْقًا عَظِيمًا .

قَالَ : وَبَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَ مُتَمَلِّكِي بَلَدِ عِلْوَةَ سَارَ فِيهَا يُرِيدُ أَقْصَاهَا فَلَمْ يَأْتِ عَلَيْهِ بَعْدَ سَنِينَ . وَأَنَّ فِي طَرَفِهَا الْقِبْلِيِّ جِنْسًا يَسْكُنُونَ وَدَوَابَّهُمْ فِي بِيوتِ تَحْتَ الْأَرْضِ مِثْلَ السَّرَادِيبِ بِالنَّهَارِ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الشَّمْسِ ، وَيَسْرَحُونَ فِي اللَّيْلِ ، وَفِيهِمْ قَوْمٌ عُرَاةٌ .

وَالْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ الْبَاقِيَةُ تَأْتِي أَيْضًا مِنَ الْقِبْلَةِ ، مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ أَيْضًا ، فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَلَا يُعْرَفُ لَهَا نِهَآيَةٌ أَيْضًا وَهِيَ دُونَ النَّهْرَيْنِ الْأَيْضِ وَالْأَخْضَرِ فِي الْعَرَضِ وَكَثْرَةِ الْخَلْجَانِ وَالْجَزَائِرِ . وَجَمِيعُ الْأَنْهَارِ الْأَرْبَعَةِ تَنْصَبُ فِي الْأَخْضَرِ ، وَكَذَلِكَ الْأَوَّلُ الَّذِي قَدَّمْتُ ذِكْرَهُ ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ مَعَ الْأَيْضِ ، وَكُلُّهَا مَسْكُونَةٌ عَامِرَةٌ مَسْلُوكٌ فِيهَا بِالسُّفُنِ وَغَيْرِهَا ؛ وَأَحَدُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ يَأْتِي مَدُّهُ مِنْ بِلَادِ الْحَبَشَةِ .

قَالَ : وَلَقَدْ أَكْثَرْتُ السُّؤَالَ عَنْهَا ، وَاسْتَكْشَفْتُهَا مِنْ قَوْمٍ عَنْ قَوْمٍ ، فَمَا وَجَدْتُ مُخْبِرًا يَقُولُ إِنَّهُ وَقَفَ عَلَى نِهَآيَةِ جَمِيعِ هَذِهِ الْأَنْهَارِ . وَالَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ عِلْمٌ مِنْ عَرَفَنِي عَنْ آخَرِينَ إِلَى خَرَابٍ ، وَأَنَّهُ يَأْتِي فِي وَقْتِ الزِّيَادَةِ فِي هَذِهِ الْأَنْهَارِ آلَةُ مَرَآكِبِ وَأَبْوَابٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَيُدَلُّ عَلَى عِمَارَةٍ بَعْدَ الْخَرَابِ .

فَأَمَّا الزِّيَادَةُ ، فَيُجْمَعُونَ أَنَّهَا مِنَ الْأَمْطَارِ مَعَ مَادَةٍ تَأْتِي مِنْ ذَاتِهَا ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ النَّهْرِ الَّذِي يَجِفُّ وَيَسْكُنُ بَطْنُهُ ، ثُمَّ يَتَّبِعُ وَقْتُ الزِّيَادَةِ . وَمِنْ عَجَائِبِهِ أَنَّ زِيَادَتَهُ فِي أَنْهَارِ مَجْتَمِعَةٍ ، وَسَائِرِ النَّوَاحِي وَالْبُلْدَانِ فِي مِصْرٍ وَمَا يَلِيهَا وَالصَّعِيدِ وَأَسْوَانَ وَبَلَدِ الثُّوبَةِ وَعِلْوَةَ وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ .

وَأَكْثَرُ مَا وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الزِّيَادَةِ أَنَّهُ رُبَّمَا وَجِدَتْ مِثْلًا بِأَسْوَانَ وَلَا تُوجَدُ بِقُوصٍ ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ ؛ فَإِذَا كَثُرَتِ الْأَمْطَارُ عِنْدَهُمْ ، وَاتَّصَلَتِ الشُّيُوبُ ، عَلِمَ أَنَّهَا سَنَةٌ رَيِّ ، وَإِذَا قَصُرَتِ الْأَمْطَارُ عَلِمَ أَنَّهَا سَنَةٌ ظَمًا .

قال: وأما من طرق بلاد الزنج، فإنهم أخبروني عن مسيرهم في بحر الصين إلى بلاد الزنج بالرياح الشمالي مساحلين للجانب الشرقي من جزيرة مصر، حتى ينتهوا إلى موضع يُعرف برأس حفري، وهو عندهم آخر جزيرة مصر، فينظرون كوكبا يهتدون به، فيفصدون الغرب، ثم يعودون إلى البحري، ويصير الشمال في وجوههم، حتى يأتوا إلى قبيلة من بلاد الزنج. وهي مدينة ممتلكهم، وتصير قبيلتهم للصلاة إلى جدة.

قال: وبعض الأنهار الأربعة يأتي من بلاد الزنج لأنه يأتي في الخشب الزنجي. وسورة مدينة العلوي شرقي الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الأبيض والأخضر في الطرف الشمالي منها عند مجتمعهما، وشرقيها النهر الذي يجف ويسكن بطنه. وفيها أبنية جسان ودور واسعة وكنايس كثيرة الذهب وبساتين، ولها رباط فيه جماعة من المسلمين.

وممتلك علوة أكثر مالا من ممتلك المقر، وأعظم جيشا، وعنده من الخيل ما ليس عند المقر، وبلده أخصب وأوسع، والنخل والكرم عندهم يسير. وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الأرز، منها خبزهم ومزهم، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة العظيمة الشعة، حتى إنه لا يوصل إلى الجبل إلا في أيام.

وعندهم خيل عتاق، وجمال صهت عراب، ودينهم النضرانية يعاقبة، وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة، وكبشهم بالرومية، يُفسرونها بلسانهم، وهم أقل فهما من النوبة. ومليكهم يشتري من شاء من رعيه بجزم وبغير جزم، ولا يُنكرون ذلك عليه، بل يسجدون له ولا يفتنون أمره على المكروه الواقع بهم. ويتأدون: الملك يعيش، فليكن أمره. وهو يتزوج بالذهب، والذهب كثير في بلده.

ومما في بلده من العجائب أن في الجزيرة الكبرى التي بين البحرين جنسا يُعرف بالكزينا، لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر، فإذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر، واختط على مقدار ما معه، وزرع في أربعة أركان الخطية يسيرا، وجعل البذر في وسط الخطية وشيئا من المزر، وانصرف عنه. فإذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر. فإذا كان وقت الحصاد حصده يسيرا منه ووضعته في موضع أرادته ومعه مزر وينصرف، فيجد الزرع قد حصده بأسره وجرن فإذا أراد دراسته وتذريته فعل به كذلك. وربما أراد أخذهم أن ينقي زرعهم من الحشيش، فيلطف بقلع شيء من الزرع فيصبح وقد قلع جميع الزرع.

وهذه النَّاحِيَةُ الَّتِي فِيهَا مَا ذَكَرْتَهُ بُلْدَانٌ وَاسِعَةٌ مَسِيرَةٌ شَهْرَيْنِ فِي شَهْرَيْنِ ، يُزْرَعُ جَمِيعُهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ .

وَمِيرَةُ بَلَدِ عِلْوَةَ وَمُتَمَلِّكُهُمْ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، فَيُوجِّهُونَ الْمَرَائِبَ فَتُوسَقُ ، وَرُبَّمَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ .

٥ قَالَ : وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ صَحِيحَةٌ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ الثُّوبَةِ وَالْعِلْوَةِ ، وَكُلٌّ مِنْ يَطْرُقُ ذَلِكَ الْبَلَدَ مِنْ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَشْكُونَ فِيهِ ، وَلَا يَزْتَابُونَ بِهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ اشْتِهَارَهُ وَانْتِشَارَهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ التَّوَاتُؤُ عَلَى مِثْلِهِ ، لَمَا ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْهُ لَشِنَاعَتِهِ . فَأَمَّا أَهْلُ النَّاحِيَةِ فَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْجِنَّ تَفَعَّلَ ذَلِكَ ، وَأَنَّهَا تَظْهَرُ لِبَعْضِهِمْ وَتَخْدُمُهُمْ بِحِجَارَةٍ يَنْطَاعُونَ لَهَا ، وَتَعْمَلُ لَهُمْ عَجَائِبَ ، وَأَنَّ السَّحَابَ يُطِيعُهُمْ .

١٠ قَالَ : وَمِنْ عَجَائِبِ مَا حَدَّثَنِي بِهِ مُتَمَلِّكُ الْمُقَرَّةِ لِلثُّوبَةِ ، أَنَّهُمْ يَمْطُرُونَ فِي الْجِبَالِ ، وَيَلْتَقِطُونَ مِنْهُ لِلْوَقْتِ سَمَكًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ . وَسَأَلْتُهُمْ عَنْ جِنْسِهِ فَذَكَرُوا أَنَّهُ صَغِيرُ الْقَدْرِ بِأَذْنَابِ حُمْرٍ . قَالَ : وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً وَأَجْنَاسًا مِمَّنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ أَكْثَرِهِمْ ، يَعْتَرِفُونَ بِالْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْبَارِي وَيَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالنَّارَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ كُلَّ مَا اسْتَحْسَنَهُ مِنْ شَجَرَةٍ أَوْ بَهِيمَةٍ .

١٥ وَذَكَرَ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي مَجْلِسِ عَظِيمِ الْمُقَرَّةِ سَأَلَهُ عَنْ بَلَدِهِ فَقَالَ : مَسَافَتُهُ إِلَى النَّيْلِ ثَلَاثَةٌ أَهْلَةٌ . وَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِ فَقَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، وَرَبُّ الْمَلِكِ وَرَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَاحِدٌ ؛ وَأَنَّهُ قَالَ لَهُ : فَأَيْنَ يَكُونُ ؟ قَالَ : فِي السَّمَاءِ وَحْدَهُ .

وَقَالَ إِنَّهُ إِذَا أَبْطَأَ عَنْهُمْ الْمَطَرُ ، أَوْ أَصَابَهُمُ الْوَبَاءُ ، أَوْ وَقَعَ بِدَوَابِهِمْ آفَةٌ ، صَعِدُوا الْجَبَلَ ، وَدَعَاؤُا اللَّهَ فَيُجَابُونَ لِلْوَقْتِ ، وَتُقْضَى حَاجَتُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلُوا . وَسَأَلَهُ : هَلْ أُزِيلَ فِيكُمْ رَسُولٌ ؟ قَالَ : لَا ؛ فَذَكَرَ لَهُ بَعْثَةَ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ ، وَمَا أُيِّدُوا بِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ ، فَقَالَ : إِذَا كَانُوا فَعَلُوا هَذَا فَقَدْ صَدَقُوا ؛ ثُمَّ قَالَ : قَدْ صَدَّقْتُهُمْ إِنْ كَانُوا فَعَلُوا .

قَالَ مُؤَلِّفُهُ : وَقَدْ غَلَبَ أَوْلَادُ كَنْزِ الدُّوَلَةِ^١ عَلَى الثُّوبَةِ وَمَلَكَوْهَا مِنْ سَنَةِ^(a) وَبَنِي بَدْنُقَلَةَ جَامِعَ يَأْوِي إِلَيْهِ الْعَرَبَاءُ .

(a) بياض في الأصل .

^١ انظر حول بني الكنز فيما يلي ٥٣٩ .

واعلم أن على ضفة النيل أيضا الكانم ، ومليها مسلم ، وبينه وبين بلاد مالي مسافة بعيدة جدا ، وقاعدة ملكه بلدة اسمها جيمي^(a) ، وأول مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زلا^(b) ، وأجرها طولا بلدة يقال لها كاكّا ، وبينهما نحو ثلاثة أشهر .

وهم يتكلمون ، ومليهم متحجب لا يرى إلا يومي العيدين ، بكرة وعند العصر ، وطول السنة لا يكلمه أحد إلا من وراء حجاب .

وغالب عيشهم الأرز ، وهو يثبت من غير بذر . وعندهم القمح والذرة والتين والليثون والباذنجان واللنت والرطب . ويتعاملون بقماش يُنسج عندهم اسمه دندي ، طول كل ثوب عشرة أذرع ، يشترون به من رُبَع ذراع فأكثر . ويتعاملون أيضا بالودع والخرز والنحاس المكسر والورق ، وجميع ذلك يسعر ذلك القماش .

وفي جنوبها شعاري وصحاري فيها أشخاص متوحشة كالفيول ، قرية من شكل الآدمي ، لا يلحقها الفارس ، تؤذي الناس . ويظهر في الليل أيضا شبه نار تُضيء ، فإذا مشى أحد ليلحقها بعت عنه ، ولو جرى إليها لا يصل إليها بل لا تزال أمامه ، فإذا رماها بحجر فأصابها تشظى منها شرر . وتعظم عندهم اليقطينة حتى تُصنع منها مراكب يُعبر فيها في النيل .

وهذه البلاد بين إفريقية وبرقة ممتدة في الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط . وهي بلاد قحط وشنن وسوء مزاج . وأول من بث بها الإسلام الهادي العثماني ، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وصارت بعده لليزيين من بني سيف بن ذي يزن . وهم على مذهب الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - والعدل قائم بينهم ، وهم يابسون في الدين لا يلينون . وبنوا بمدينة مصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق في سني أربعين وست مائة ، وصارت وفودهم تنزل بها ، وسيرد ذكرها في المدارس إن شاء الله .^١

(a) بولاق : جيمي . (b) بولاق : زرلا ، القلقشندي : دلا .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٨٠-٢٨١ (ومصدره مسالك الأبصار للعمري) ، وانظر فيما يلي ٢ : ٣٦٥ .

ذِكْرُ البَجَّةِ

ويقال إنهم من البزبر

اعلم أن أول بلد البجة ، من قرية تُعرف بالخربة معدن الزمرد في صحراء قوص^١ . وبين هذا الموضع وبين قوص نحو من ثلاث مراحل . وذكر الجاحظ أنه ليس في الدنيا معدن للزمرد غير هذا الموضع . وهو يوجد في مغاير بعيدة مظلمة ، يُدخل إليها بالمصايح ويجبال يُشتدل بها على الرجوع خوف الضلال . ويُحفر عليه بالمعاول فيوجد في وسط الحجازة وحوله غشيم دونه في الصبغ والجوهر . وآخر بلاد البجة أول بلاد الحبشة ، وهم في بطن هذه الجزيرة - أعني جزيرة مصر - إلى سيف البحر الملح مما يلي جزائر سواكن وباضع وذهلك . وهم بادية يتبعون الكلاً حيثما كان الرعي بأخبية من مجلود ، وأنسابهم من جهة النساء . ولكل بطن منهم رئيس ، وليس عليهم متملك ولا لهم دين^٢ . وهم يُورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح ، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال .

المقرئزي يذكر أنهم أسلموا في إمارة عبد الله بن سعد بن أبي سرح فإن الثقافة الإسلامية لم تنتشر بينهم فيصفهم ابن جبير في النصف الثاني للقرن السادس الهجري بأنهم أفضل من الأنعام سيلاً وأقل عقولاً ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام ... ورجالهم ونساؤهم يتصرفون غرابة ، ألا جزقاً يسترون بها عوراتهم ، وأكثرهم لا يُشتررون (الرحلة ٤٨ - ٤٩) ، ولم ينتشر الإسلام حقيقة بينهم إلا في القرنين الثامن والتاسع للهجرة بسبب الهجرات العربية التي اتجهت على نطاق واسع إلى السودان عبر أراضيهم في أعقاب سقوط بغداد . وينقسم البجة في الوقت الحاضر إلى أربع قبائل كبيرة هي : البشاريون في الشمال والأمرار والهدندوه وبني عامر إلى الجنوب من طوكر في الشمال إلى داخل حدود إريتريا في الجنوب . (راجع ، القلقشندي : صبح الأعشى ٥ : ٢٧٣ - ٢٧٤ ؛ مصطفى محمد مسعد : «البجة والعرب في العصور الوسطى» ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢١ (ديسمبر ١٩٥٩) ، ١ - ٥٩ ، Holt ، P.M. ، El² art. Bedja I, pp. 1192-93 .

^١ سيفضل المقرئزي الحديث عن معدن الزمرد فيما يلي ٦٣٢ .
^٢ البجة أو البجة وضبطها القلقشندي : البجة بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف في الآخر (ويعرفون في الوقت الحاضر باسم البجة) قبائل حامية تسكن الصحراء الشرقية جنوبي مصر بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد ، وهم شعب قديم تعرف عليه العرب الفاتحون منذ بدايات الإسلام في مصر وعقد معهم والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح معاهدة عرفت باسم «البقطة» (فيما يلي ١٩٩ : ٢٠٠) ، وهم ينقسمون إلى قبائل وبتون كثيرة كما أنهم بادية يتبعون الكلاً حيثما كان الرعي . وأهم مصدر يحدثنا عن البجة وحياتهم ونظامهم كتاب «أخبار النوبة» لابن سليم الأسواني الذي نقل عنه المقرئزي أغلب معلوماته عن النوبة والبجة في القرون الأربعة الأولى للإسلام (فيما تقدم ٥١٧ هـ) . ورغم أن

وكان لهم قديماً رئيس يزوج جميع رؤسائهم إلى حكمه ، يسكن قرية تُعرف بهجر هي أقصى جزيرة البجة .

ويزكبون الثعب الصهب ، وتنتج عندهم ، وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضاً .
والمواشي من البقر والغنم والضأن غاية في الكثرة عندهم . وبقرهم حسان مملعة بقرون عظام ،
ومنها جثم ، وكباشهم كذلك منتمرة ولها ألبان . وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن ، وأكلهم للخبز
قليل وفيهم من يأكله ، وأبدانهم صحاح ، وبطنوهم خماص ، وأوائهم مشرقة الصفرة ، ولهم
سرعة في الجزى يُباينون بها الناس .

وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليه وعلى العطش ، يسابقون عليها الخيل ، ويقابلون
عليها ، وتدور بهم كما يشتهون ، ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره ، ويتطاردون عليها
في الحزب ، فيزمي الواحد منهم الحزبة فإن وقعت في الرميّة طار إليها الجمل فأخذها صاحبها ،
وإن وقعت في الأرض ضرب الجمل بجرانه الأرض فأخذها صاحبها .

وتبع منهم في بعض الأوقات رجل يُعرف بكلاز ، شديد مقدام ، وله جمل ما سمع بمثله في
السرة ، وكان أعور وصاحبه كذلك ، التزم لقومه أنه يُشرف على مصلّى مصر يوم العيد ، وقد
قرب العيد قريباً لا يكون للبؤغ إليها في مثله حقيقة ، فوفى بذلك ، وأشرف على المقطم ،
وضربت الخيل خلفه فلم يلحق .

وهذا هو الذي أوجب أن يكون في السفح طلعة يوم العيد . وكان الطولونية وغيرهم من أمراء
مصر يوقفون في سفح الجبل المقطم - مما يلي الموضع المعروف بالحباش - جيشاً كثيفاً مراعيًا للناس
حتى ينصرفوا من عيدهم في كل عيد .

وهم أصحاب ذمّة ، فإذا غدر أحدهم رفع المغدور به ثوباً على حزبة وقال : هذا عرس^(b) فلان -
يعني أنا الغادر^(c) - ، فتصير سيئة عليه إلى أن يترضاه .

وهم يُبالغون في الضيافة ، فإذا طرّق أحدهم الضيف دبح له ، فإذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب
الأنعام إليه سواء كانت له أو لغيره ، وإن لم يكن شيء نحر راحلة الضيف وعوضه ما هو خير منها .
وسلاحهم الحراب السباعية ، مقدار طول الحديد ثلاثة أذرع ، والعود أربعة أذرع ، وبذلك
سميت سباعية ؛ والحديدة في عرض السيف لا يُخرجونها من أيديهم إلا في بعض الأوقات ، لأن

(a) بولاقي : للجين . (b) بولاقي : عرس . (c) بولاقي : أبا الغادر .

في آخر العود شيئاً شبيهاً بالفلكة يمتنع خروجها عن أيديهم . وصنّاع هذه الحراب نساء في موضع لا يختلط بهن رجل إلا المشتري منهن : فإذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتهن ، وإن ولدت غلاماً قتلتها ، ويقلن إن الرجال بلاء وخزب .

وذرقتهم من جلود البقرة مشعرة ، وذرقت مقلوبة تُعرف بالأكسومية من جلود الجواميس - وكذلك الدهلكية - ومن دابة في البحر .

وقبيثهم عريضة كبار غلاظ من الصدر والشوخط ، يزئمون عليها ببئيل مسموم . وهذا السم يُعمل من عروق شجر الغلقة يُطبخ على النار حتى يصير مثل الغرا . فإذا أرادوا تجربته شرط أخذهم جسده وسيل الدم ثم سَمَّه هذا السم ، فإذا تراجع الدم علم أنه جيد ، ومسح الدم لئلا يرجع إلى جسمه فيقتله . فإذا أصاب الإنسان قُتل لو قته ، ولو مثل شرطة الحجام . وليس له عمل في غير الجرح والدم ، وإن شرب منه لم يضر .

وبلدانهم كلها معادن ، وكلما تصاعدت كانت أجود ذهباً وأكثر . وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنيطيس والمرقشيتا والجمشت والزمرود وحجارة يشطا ، فإذا بلت الشطية منها بزيت ، وقَدَّت / مثل الفيلة ، وغير ذلك مما شغلهم طلب معادن الذهب عما سواه . والبجّة لا تتعرض لعمل شيء من هذه المعادن .

وفي أوديتهم شجر المقل والإهليلج والإذخر والشيح والسنا والحنظل وشجر البان ، وغير ذلك . وبأقصى بلدتهم النخل وشجر الكرم والرياحين ، وغير ذلك مما لم يزرعه أحد . وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والثور والفهود والقردة وعناق الأرض والزباد ، ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لؤن الذهب ، قليلة البقاء إذا صيدت ، ومن الطيور البيغا والنقيط والنوبي والقماري ودجاج الحبش وحمّام بازين ، وغير ذلك .

وليس منهم رجل إلا منزوع البيضة اليمنى ، وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن ، وأنه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج بمقدار ذكر الرجل ، ثم قل هذا الفعل عندهم . وقيل إن السبب في ذلك أن ملكاً من الملوك حاربهم قديماً ، ثم صالحهم وشرط عليهم قطع نذي من يولد لهم من النساء وقطع ذكور من يولد من الرجال ، أراد بذلك قطع النسل منهم ، فوفوا بالشرط ، وقلّبوا المعنى في أن جعلوا قطع الثدي للرجال والفروج للنساء .

وفيهم جنس يقلعون ثناياهم ويقولون : لا تشبهه بالحمير . وفيهم جنس آخر في آخر بلاد البجّة يقال لهم البازة ، نساء جميعهم يتسمون باسم واحد ، وكذلك الرجال ، فطرقهم في وقت رجل

مُسْلِمًا له جمال ، فدَعَا بعضهم بعضًا وقالوا : هذا الله قد نَزَلَ من السَّمَاء ، وهو جالسٌ تحت الشجرة ، فجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إليه من بُعد .

وتَعَظُم الحَيَاتُ ببلدِهِم وتكثُر أَصْنَافُهَا ، ورُئيت حَيَّةٌ في غدير ماءٍ قد أُخْرِجَتْ ذَنبُهَا والتفت على امرأةٍ ورَدَّت فقتلتها ، فرُئي شَحْمُهَا قد خَرَجَ من ذُبُرِهَا من شِدَّةِ الضُّعْفَةِ .

وبها حَيَّةٌ ليس لها رأسٌ ، وطرفاها سَوَاءٌ ، مُنْقَشَةٌ ليست بالكبيرة ، إذا مَشَى الإنسانُ على أثرها مات ، وإذا قُتِلت وأمسك القاتِلُ ما قَتَلَهَا به من عُودٍ أو حَزْبَةٍ في يده ولم يُلقِه من سَاعَتِهِ مات . وقُتِلت حَيَّةٌ منها بِخَشَبَةٍ ، فأنشقت الخَشَبَةُ . وإذا تأمَّل هذه الحَيَّةَ أَحَدٌ وهي مَيِّتَةٌ أو حَيَّةٌ أصابه ضَرَرُهَا .

وفي البُجَّةِ شَرٌّ وتَسْرَعُ إليه ، ولهم في الإسلام وقَبْلَهُ أذِيَّةٌ على شَرْقِ صَعِيدِ مِصْرَ ، خَرَّبُوا هناك قُرَى عَدِيدَةً . وكانت فَرَاعِنَةُ مِصْرَ تَغزُوهم وتوادِعُهُم أحيانًا لحاجتِهِم إلى المَعَادِنِ ، وكذلك الرُّومُ لما أن مَلَكَوا مِصْرَ . ولهم في المَعَادِنِ آثارٌ مشهُورَةٌ ، وكان أصحابُهُم بها وقد فُتِحَت مِصْرَ .

قال عبدُ الرَّحْمَنِ بن عبد الله بن عبد الحكيم : وتَجَمَّعَ لعَبْدِ اللَّهِ بن سَعْدِ بن أَبِي سَرْحٍ في انصِرَافِهِ مِنَ التَّوْبَةِ على شاطئِ النَّيْلِ البُجَّةِ ، فسأل عن شَأْنِهِم فَأخْبِرَ أن ليس لهم مَلِكٌ يَرْجِعُونَ إليه ، فهانَ عليه أمرُهُم وتَرَكَهم ، فلم يَكُنْ لهم عَقْدٌ ولا صُلْحٌ .

وكان أوَّلُ من هادَنَهُم عُبيدُ اللَّهِ بن الحَبَّاحِ السَّلُولِي . ويُذكَرُ أنَّه وُجِدَ في كتابِ ابنِ الحَبَّاحِ : لهم ثلاث مائة بَكْرٍ في كُلِّ عامٍ حين يَنزِلُونَ الرِّيفَ مُجْتَازِينَ ، تُجَارًا غير مُقِيمِينَ ، على ألا يَقْتُلُوا مُسْلِمًا ولا ذَمِيًّا ، فإن قَتَلوه فلا عَهْدَ لهم . ولا يُؤوُّوا عبيدَ المُسْلِمِينَ ، وأن يَرُدُّوا آبِقِيهِم إذا وَقَعُوا إليهِم . ويُقالُ إنَّهُم كانوا يُؤَاخِذُونَ بهذا ، وبكُلِّ شاةٍ أَخَذَهَا البُجَاوِي فعليه أربعة دنانير ، وللبَقْرَةِ عشرة ، وكان وَكَيْلُهُم مُقِيمًا بالرِّيفِ رَهينَةً بيد المُسْلِمِينَ ^١ .

ثم كَثُرَ المُسْلِمُونَ في المَعْدِنِ فخالَطُوهم وتزوَّجوا فيهِم . وأَسْلَمَ كَثِيرٌ من الجِنْسِ المعروف بالحدارِبِ إِسلامًا ضَعيفًا ، وهم شَوْكَةُ القَوْمِ ووُجُوهُهم ، وهم ممَّا يلي مِصْرَ من أوَّلِ حَدِّهم إلى العَلَّاقِي وَعَيْدَابِ المَعْبَرِ منه إلى جُدَّةٍ وما وراءَ ذلك ^٢ .

Islamisation de la Nubie Chrétienne VII-XVI^o
siècles, Paris Geuthner 1986

^١ ابن عبد الحكيم : فتوح مصر ١٨٩ .

^٢ حول إسلام أهل التوبة انظر دراسة كيوك ، Cuoq, J.

ومنهم جنس آخر يُعرفون بالزنافج، هم أكثر عددًا من الحدارب، غير أنهم تَبِعَ لهم،
وَحُقْرَاؤُهُمْ يَحْمُونَهُمْ وَيَحْبُونَهُمُ الْمَوَاشِي. ولكل رئيس من الحدارب قَوْمٌ من الزنافج في حملته،
فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الزنافج قديمًا أظهرَ عليهم^١.

ثم كثرت أذيتهم على المسلمين، وكان ولاية أسوان من العراق، فرفع إلى أمير المؤمنين المأمون
خبرهم، فأخرج إليهم عبد الله بن الجهم، فكانت له معهم وقائع، ثم وادعهم وكتب بينه وبين
كنون، رئيسهم الكبير الذي يكون بقريتهم هجر المقدم ذكرها^٢، كتابًا نُسخته:

«هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مؤلى أمير المؤمنين، صاحب جيش
الغزاة، عامل الأمير أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله، في شهر
ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة
بأسوان.

إِنَّكَ سَأَلْتَنِي وَطَلَبْتَ إِلَيَّ أَنْ أُوْمِنَكَ وَأَهْلَ بَلَدِكَ مِنَ الْبِجَّةِ، وَأَعْقِدَ لَكَ
وَلَهُمْ أَمَانًا عَلَيَّ وَعَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَجَبْتُكَ إِلَى أَنْ عَقَدْتَ لَكَ وَعَلَى
جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَمَانًا مَا اسْتَقَمْتُ وَاسْتَقَامُوا، عَلَى مَا أَعْطَيْتَنِي وَشَرَطْتَ لِي
فِي كِتَابِي هَذَا.

وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر
إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكًا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين
أعزه الله تعالى، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين، إلا أنك
تكون في بلدك ملكًا على ما أنت عليه في البجة.

وعلى أن تؤدِّي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة،
وذلك مائة من الإبل، أو ثلاث مائة دينار وازنة داخلة في بيت المال، والخيار
في ذلك لأمير المؤمنين ولولاياته. وليس لك أن تحرم شيئًا عليك من الخراج.
وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمدًا رسول الله صلى الله عليه / الله عليه
وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به، أو قتل أحدًا من
المسلمين حرًا أو عبدًا، فقد برئت منه الذمة: ذمة الله، وذمة رسوله ﷺ،

^٢ فيما تقدم ٥٢٨.

^١ فيما تقدم ٥٢١.

وذممة أمير المؤمنين أعزّه الله ، وذممة جماعة المسلمين ، وحلّ دمه كما يحلّ دم أهل الحرب وذريتهم .

وعلى أن أحدًا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال ، أو دله على عورة من عورات المسلمين أو أثر لعزتهم ، فقد نقض ذمته وعهده ، وحلّ دمه .

وعلى أن أحدًا منكم إن قتل أحدًا من المسلمين عمدًا أو سهوًا أو خطأ ، حُرًّا أو عبدًا أو أحدًا من أهل ذممة المسلمين ، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجّة ، أو ببلاد الإسلام ، أو ببلاد الثوبة ، أو في شيء من البلدان برًّا أو بحرًا : فعليه في قتل المسلم عشر ديات ، وفي قتل العبد المسلم عشر قيم ، وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم ، وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه . وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجّة تاجرًا أو مقيمًا أو مُجتازًا أو حاجًا ، فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم .

ولا تُؤووا أحدًا من أباقي المسلمين ، فإن أتاكم آت ، فعليكم أن تردوه إلى المسلمين .

وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك .

وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مُجتازين ، لا تُظهرون سلاخًا ، ولا تدخلون المدائن والقرى بحال .

ولا تمنعوا أحدًا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برًّا ولا بحرًا ، ولا تُخيفوا السبيل ، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ، ولا تشرقوا مسلم ولا ذمي مالا .

وعلى ألا تهدموا شيئًا من المساجد التي ابنتى المسلمون بصنجة^a وهجر ، وبسائر بلادكم طولًا وعرضًا ، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة .

(a) بولاق : صيحة .

وعلى أن كَنُون بن عبد العزيز يُقيم بريف صعيد مصر، وَكَيْلاً يفي للمسلمين بما شَرَطَ لهم من دَفْعِ الخِرَاجِ، وَرَدِّ ما أَصابَهُ البُحْجَةُ للمسلمين من دَمٍ وَمالٍ.

وعلى أن أَحَدًا من البُحْجَةِ لا يَغْتَرِضُ حَدَّ القَصْرِ إلى قَرْيَةٍ يُقالُ لها قَبان من بَلَدِ الثَّوْبَةِ حَدِّ الأَعْمِدَةِ.

عَقَدَ عبد الله بن الجَهْمُ مَوَالِيَ أمير المؤمنين لَكَنُون بن عبد العزيز كبير البُحْجَةِ الأمانَ على ما سَمَّينا وشَرَطْنَا في كِتابِنَا هذا، وعلى أن يُوافي به أمير المؤمنين. فإن زَاغَ كَنُون أو عاثَ، فلا عَهْدَ له ولا ذِمَّةَ.

وعلى كَنُون أن يُدْخِلَ عُمَّالَ أمير المؤمنين بِبلادِ البُحْجَةِ لِقَبْضِ صَدَقَاتٍ مَن أَسْلَمَ من البُحْجَةِ.

وعلى كَنُون الوَفاءَ بما شَرَطَ لَعَبْدِ الله بن الجَهْمِ، وَأَحَدَ بِذلك عَهْدَ الله عليه بأَعْظَمَ ما أَحَدَ على خَلْقِهِ من الوَفاءِ والميثاقِ.

ولكَنُون بن عبد العزيز ولجميع البُحْجَةِ عَهْدُ الله وميثاقُهُ، وَذِمَّةُ أمير المؤمنين، وَذِمَّةُ الأمير أبي إِسحاق بن أمير المؤمنين الرَّشيدِ، وَذِمَّةُ عبد الله بن الجَهْمِ، وَذِمَّةُ المسلمين، بِالوَفاءِ بما أَعْطاه عبد الله بن الجَهْمِ ما وَفَى كَنُون ابن عبد العزيز بِجميعِ ما شَرَطَ عليه. فإن غَيَّرَ كَنُون أو بَدَّلَ أَحَدٌ من البُحْجَةِ، فَذِمَّةُ الله جَلَّ اسمُهُ وَذِمَّةُ أمير المؤمنين وَذِمَّةُ الأمير أبي إِسحاق ابن أمير المؤمنين الرَّشيدِ وَذِمَّةُ عبد الله بن الجَهْمِ وَذِمَّةُ المسلمين بَرِيئةٌ مِنْهُمْ.

وتَرْجَمَ جَمِيعَ ما في هذا الكتابِ حَرْفًا حَرْفًا زَكْرِيَّا بن صالِحِ الخَزْزَمِيِّ من سُكَّانِ جُدَّةَ، وَعَبْدُ

الله بن إِسْماعيلِ القُرَشِيِّ. ثم نَسَقَ جَماعَةً من شُهودِ أَشْوانِ.

فأقامَ البُحْجَةُ على ذلك بُرْهَةً، ثم عادُوا إلى عَزْوِ الرِّيفِ من صعيدِ مصر، وَكَثُرَ الضُّجْبُجُ مِنْهُمْ إلى أمير المؤمنين جَعْفَرَ المَتَوَكِّلِ على الله، فَتَدَبَّ لِحَرْبِهِمُ مُحَمَّدُ بن عبد الله القُتَيْبِيُّ، فَسَأَلَ أن يَخْتارَ من الرِّجالِ من أَحَبَّ، ولم يَزْعَبْ إلى الكَثْرَةِ لُصُوعَةِ المَسائِلِكِ^١. فَخَرَجَ إليهم من مصر في

^١ انظر تفاصيل حملة محمد بن عبد الله القُتَيْبِيُّ على بلاد

١٣٨:٦ - ١٤٠:٤ أبي المحاسن: النجوم الزاهرة ٢: ٢٩٥-

البُحْجَةِ في ولاية عُثْبَةَ بن إِسحاقِ عند، الطبري: تاريخ

٢٩٩.

الرسول والملوك ٩: ٢٠٢-٢٠٦؛ المقرئ: المفدى الكبير

عِدَّةٌ قَلِيلَةٌ وَرِجَالٍ مُنْتَخَبَةٌ ، وَسَارَتْ الْمَرَائِبُ فِي الْبَحْرِ ؛ فَاجْتَمَعَ الْبُجَّةُ لَهُمْ فِي عَدَدٍ كَثِيرٍ عَظِيمٍ قَدْ رَكِبُوا الْإِبِلَ فَهَابَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ ، فَشَغَلَهُمْ بَكِتَابِ طَوِيلٍ كَتَبَهُ فِي طُومَارٍ وَلَفَّهُ بِثَوْبٍ ، فَاجْتَمَعُوا لِقِرَائَتِهِ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ وَفِي أَعْنَاقِ الْخَيْلِ الْأَجْرَاسُ فَتَقَرَّتِ الْجِمَالُ بِالْبُجَّةِ ، وَلَمْ تَثْبُتْ لَصَلْصَلَةَ الْأَجْرَاسِ ، فَزَكَبَ الْمُسْلِمُونَ أَقْفِيَّتَهُمْ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ .

فَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُ أَخِيهِ ، وَبَعَثَ يَطْلُبُ الْهُدَنَةَ ، فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَنْ يَطَّأُ بِسَاطِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَسَارَ إِلَى بَغْدَادٍ وَقَدِمَ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ بِسُرٍّ مَنْ رَأَى فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَضُورِحَ عَلَى أَدَاءِ الْإِتَاوَةِ وَالْبَقْطِ ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَمْتَنِعُوا الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَمَلِ فِي الْمَعْدِنِ .

وَأَقَامَ الْقُصَيِّ بِأَسْوَانَ مُدَّةً ، وَتَرَكَ فِي خَزَائِنِهَا مَا كَانَ مَعَهُ مِنَ السَّلَاحِ وَآلَةِ الْغَزْوِ ، فَلَمْ تَزَلِ الْوَلَاةُ تَأْخُذُ مِنْهُ حَتَّى لَمْ يُبْقُوا مِنْهُ شَيْئًا .

فَلَمَّا كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَعَادِنِ وَاجْتَلَطُوا بِالْبُجَّةِ قَلَّ شَرُّهُمْ ، وَظَهَرَ التَّبَرُّ لكَثْرَةِ طُلَّابِهِ ، وَتَسَامَعَ النَّاسُ بِهِ فَوَقَدُوا مِنَ الْبُلْدَانِ ، وَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْعُمَرِيُّ ، بَعْدَ مُحَارَبَتِهِ النَّوْبَةَ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَخَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَمَعَهُ رَيْبَعَةٌ وَجُهَيْنَةٌ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ؛ فَكَثُرَتْ بِهِمُ الْعِمَارَةُ فِي الْبُجَّةِ ، حَتَّى صَارَتْ الرُّوَاجِلُ الَّتِي تَحْمِلُ الْمِيرَةَ إِلَيْهِمْ مِنْ أُسْوَانَ سِتِينَ أَلْفَ رَاحِلَةً ، غَيْرَ الْجِلَابِ الَّتِي تَحْمِلُ مِنَ الْقَلْزُومِ إِلَى عَيْدَابِ ، وَمَالَتْ الْبُجَّةُ إِلَى رَيْبَعَةٍ وَتَزَوَّجُوا إِلَيْهِمْ ^١ .

وَقِيلَ إِنَّ كُهُنَّ الْبُجَّةِ قَبْلَ إِسْلَامِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، ذَكَرَتْ عَنْ مَعْبُودِهِمُ الطَّاعَةَ لِرَيْبَعَةٍ وَلَكُنُونَ مَعًا ، فَهَمَّ عَلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا قُتِلَ الْعُمَرِيُّ ، وَاسْتَوْلَتْ رَيْبَعَةٌ عَلَى الْجَزَائِرِ ، وَالْأَهْمُ عَلَى ذَلِكَ الْبُجَّةِ / ، فَأَخْرَجَتْ مِنْ خَالَفَهَا مِنَ الْعَرَبِ ، وَتَصَاهَرُوا إِلَى رُؤَسَاءِ الْبُجَّةِ ، وَبِذَلِكَ كُفُّ ضَرَرُهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ .

وَالْبُجَّةُ الدَّاخِلَةُ فِي صَخْرَاءِ بَلَدِ عُلُوَّةٍ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ الْمِلْحَ إِلَى أَوَّلِ الْحَبَشَةِ ، وَرِجَالُهُمْ فِي الظُّغْنِ وَالْمَوَاشِي وَاتِّبَاعِ الرِّغْيِ وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَرَائِبِ وَالسَّلَاحِ ، كَحَالِ الْحَدَارِبِ ، إِلَّا أَنَّ الْحَدَارِبَ أَشْجَعُ وَأَهْدَى مِنَ الدَّاخِلَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِكُهُانِهِمْ .

وَلِكُلِّ بَطْنٍ كَاهِنٌ يَضْرِبُ لَهُ قُبَّةً مِنْ أَدَمٍ مَعْبُودُهُمْ فِيهَا ؛ فَإِذَا رَأَوْا اسْتِخْبَارَهُ عَمَّا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، تَعَرَّى وَدَخَلَ إِلَى الْقُبَّةِ مُسْتَنْدَبًا ، وَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَبِهِ أَثَرُ جُنُونٍ وَصَرَخٍ ، يَقُولُ : الشَّيْطَانُ يُقْرِئُكُمْ

^١ عن دور أبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد عبد العزيز بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب يكنى أبا عبد الرحمن ؛ المقرئ الكبير ٤: ٤٠٣-٤١٥ . سيرة أحمد بن طولون ٦٤-٦٧ ، وهو فيه عبد الحميد بن عبد الله بن (ترجمة حافلة) .

السَّلام ، ويقولُ لكم اِرْحَلُوا عن هذه الحِيلةِ فَإِنَّ الرَّهْطَ الفُلاني يَمُوتُ بكم ؛ وسألْتُم عن الغَزْوِ إلى بَلَدِ كذا ، فسيروا فإنكم تَظْفَرُونَ وتَغْتَمُونَ كذا وكذا ، والجِمالُ التي تَأْخُذُونها من مَوْضِعِ كذا هي لي ، والجاريةُ الفُلانيَّةُ التي تَمِيدُونها في الحِياءِ الفُلاني ، والغَنَمُ التي من صِفَتِها كذا ، ونحو هذا القول .

٥ فيزْعَمُونَ أَنَّهُ يَصْدُقُهُمْ في أَكْثَرِ من ذلك ، فإذا غَنِمُوا أَخْرَجُوا من الغَنِيمَةِ ما ذَكَر ، ودَفَعُوهُ إلى الكاهِنِ يَتَمَوَّلُهُ ، ويُخَرِّمُونَ ألبانَ نُوقِها على من لم يَقْبَل . فإذا أَرادُوا الرِّحيلَ ، حَمَلَ الكاهِنُ هذه القُبَّةَ على جَمَلٍ مُفْرَدٍ ، فيزْعَمُونَ أَنَّ ذلك الجَمَلَ لا يَثُورُ إِلا بِجُهْدٍ - وكذلك سَيَرُهُ - وَيَتَصَبَّبُ عَرَقًا ، والحِيمَةُ فارِغَةٌ لا شيءَ فيها .

وقد بَقِيَ في الحَدَارِبِ جَماعَةٌ على هذا المَذْهَبِ ، ومنهم من يَتَمَسَّكُ بِذلك مع إِسلامِهِ .
١٠ قال مُؤرِّخُ النُّوبَةِ ، ومنه لَخُصَّتْ ما تَقَدَّمَ ذِكرُهُ : وقد قَرَأْتُ في خُطْبَةِ الأَجْناسِ لِأَميرِ المُؤمِنينِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ - رضي اللهُ عنهُ - ذِكرَ البُجَّةِ والكُجَّةِ ، ويقولُ عنهُم : شَدِيدٌ كَلْبُهُم ، قَليلٌ سَلْبُهُم . فالبُجَّةُ كذلك ، وأما الكُجَّةُ فلا أَعْرِفُهُم . انتهى ما ذَكَرَهُ عبدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ مُؤرِّخُ النُّوبَةِ .
وقال أبو الحسنِ المَسْعُودِي : فأما البُجَّةُ فإنها نَزَلَتْ بينَ بَحْرِ القُلُومِ ونيْلِ مِصرَ ، وتَشَعَّبُوا فِرَقًا وَمَلَكَوا عَلَيْهِم مَلِكًا . وفي أَرْضِهِم مَعادِنُ الذَّهَبِ - وهو التُّبْرُ - ومَعادِنُ الزُّمْرُودِ . وتَتَّصِلُ سَرايَاهُم وَمَناسِرُهُم على التُّجْبِ إلى بِلادِ النُّوبَةِ ، فيَغَيِّرُونَ^(a) وَيَسْتَبُونَ ؛ وقد كانتِ النُّوبَةُ قَبْلَ ذلك أَشدَّ من البُجَّةِ إلى أن قَوِيَ الإِسْلامُ وَظَهَرَ ، وَسَكَنَ جَماعَةٌ من المُسْلِمينَ مَعدينَ الذَّهَبِ وبِلادِ العَلَّاقِي وَعَيْذابِ ، وَسَكَنَ في تلكِ الدِّيَارِ خَلْقٌ من العَرَبِ من رَبيعةِ بنِ نِزارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عَدنانَ ، فاشتَدَّتْ شوْكُهُم وتَزَوَّجُوا من البُجَّةِ ، فَقَوِيَتِ البُجَّةُ ، ثم صاهَرها قَوْمٌ من رَبيعةِ ، فَقَوِيَتِ رَبيعةُ بالبُجَّةِ على من ناورَها وجاورَها من قَحطانَ وغيرِهِم مِمَّنْ سَكَنَ تلكَ الدِّيَارِ .

٢٠ وصاحِبُ المَعدينَ في وَقْتِنَا هذا^١ - وهو سَنَةُ اثنتينِ وثلاثينِ وثلاثِ مائةٍ - أبو مَرْوانَ بَشْرُ بنِ إِسحاقَ وهو من رَبيعةِ^(b) ، يَزُكُّ في ثلاثةِ آلافِ ألفٍ من رَبيعةِ وأَخلافِها من مِصرَ واليَمَنِ ، وثلاثينِ ألفِ حَرَّابِ على التُّجْبِ من البُجَّةِ في الحَجَفِ البِجاوِيَّةِ^(c) ، وهم الحَدَارِبَةُ^(d) ، وهم

(a) بولاق : يغزون . (b) في الأصل وبولاق : بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة ، والتصويب من مروج الذهب .

(c) بولاق : النحاوية . (d) بولاق : الحدارب والتصويب في مروج الذهب .

^١ أي وقت المسعودي الذي انتهى إلى هذا الموضع من كتابه في هذه السنة وكان بفسطاط مصر (مروج ١٢٦:٢) .

مسلمون من بين سائر البجة ، والدأخلة من البجة كُفَّار يَعْبُدُونَ صَنَمًا لَهُمْ ^١ .
 والبجة المألكة لمعدين الزمرد يتصل ديارها بالعلاقي ، وهو معدن الذهب ، وبين العلاقي والنيل
 خمس عشرة مَرَحَلَة ، وأقرب العِمَارَة إليه مدينة أسوان .
 وجزيرة سواكن أقل من ميل في ميل ، وبينها وبين البحر الحبشي بحرٌ قصير يُخاض . وأهلها
 طائفة من البجة تُسَمَّى الخاس ، وهم مسلمون ، ولهم بها ملك .
 وقال الهمداني : نكح كنعان بن حَام أرتيب بنت تباويل ^(a) بن ترس بن يافث ، فولدت له حقا
 والأساوذ وثوبة وفزان والزنج والرغاوة وأجناس السودان ^٢ .
 وقيل البجة من ولد حَام بن نُوح ، وقيل من ولد كُوش بن كنعان بن حَام .
 وقيل البجة قبيلة من الحبش أصحاب أخبية من شعر ، وألوانهم أشد سوادًا من الحبشة ، يتزيون
 بزِّي العرب . وليس لهم مُدُن ولا قُرَى ولا مزارع ، ومعيشتهم ممَّا يُنقل إليهم من أرض الحبشة
 وأرض مصر و الثوبة .
 وكانت البجة تعبد الأصنام ، ثم أسلموا في إمارة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وفيهم كرم
 وسماعة .
 وهم قبائل وأفخاذ ، لكل فخذ رئيس . وهم أهل نجعة ، وطعامهم اللحم واللبن فقط .

ذكر مدينة أسوان ^٣

أسوان من قولهم أَسَى الرَّجُلُ يَأْسَى أَسَى ، إذا حزن . ورجل أشيان وأسوان ، أي حزين .
 وأسوان في آخر بلاد الصعيد ، وهي ثغر من ثغور الإقليم يفصل بين الثوبة وأرض مصر .

(a) بولاق : شاويل . (b) بولاق : قران .

١ محافظة أسوان . (البكري : جغرافية مصر ٨٣-٨٤) ؛
 مجهول المؤلف : الاستبصار ٨٧ ؛ الإدريسي : نزهة المشتاق
 ٣٩-٤١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٩١-١٩٢ ؛
 القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٣٩٨ ؛ علي مبارك :
 الخطط التوفيقية ٨ : ٦٤-٧١ ؛ محمد رمزي : القاموس
 الجغرافي للبلاد المصرية ٢ / ٤ : ٢١٦-٢١٧ ، ولحمود محمد
 الخوري : أسوان في العصور الوسطى ، القاهرة (١٩٨٠) .

١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٢٧ .

٢ الهمداني : الإكليل ١ : ٦٥ .

٣ أسوان بضم الهمزة كما في معجم البلدان والطالع
 السعيد للأدقوي ١٧ ، من المدن المصرية الأكثر قدمًا واسمها
 المصري Soun أو Sounou بمعنى «السوق أو محل التجارة»
 حيث كانت تُبادَل فيها أنواع التجارة بين مصر والسودان
 فهي آخر بلد في صعيد مصر الأعلى . وهي اليوم قاعدة

وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضراوات والبقول . وكانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر والغنم ، ولحمانها هناك غاية في الطيب والسمن . وكانت أسعارها أبدا رخيصة ، وبها تجارات وبضائع تُحمل منها إلى بلاد الثوبة .

ولا يتصل بأسوان من شرقها بلد إسلامي ، وفي جنوبها جبل به معدن الزمرد ، وهو في برية منقطعة عن العمارة ، وعلى خمسة عشر يوما من أسوان معدن الذهب .

ويتصل بأسوان من غربيها الواحات ، ويُسلك من أسوان إلى عيذاب ، ويتوصل من عيذاب إلى الحجاز وإلى اليمن والهند .

(a) قال المسعودي : ومدينة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان / ويزار بن ربيعة ومضر وخلق كثير من قريش ، وأكثرهم من الحجاز . والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير تودع الثروة في الأرض ، فتنبت نخلة ، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين .

ولمن بأسوان [من المسلمين] (b) ضياع كثيرة داخله بأرض الثوبة ، يؤذون خراجها إلى ملك الثوبة ، واتبعت هذه الضياع من الثوبة في صدر الإسلام في دولة بني أمية وبني العباس .

وقد كان ملك الثوبة اشتغدى المأمون - حين دخل مصر - على هؤلاء القوم ، يوفد وفدهم إلى القسطنطين ذكروا عنه أن أناسا من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاؤهم من أهل أسوان ، وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم ، وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العامرين فيها ؛ فجعل المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ، ومن بها من أهل العلم والشيوخ .

وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستزرع من أيديهم ، فاحتالوا على ملك الثوبة بأن يقدموا إلى من ابتاع منهم من الثوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم ألا يقرروا لملكهم بالعبودية ، وأن يقولوا : سبيلنا معاشر الثوبة سبيلكم مع ملككم ، يجب علينا طاعته وترك مخالفته ، فإن كنتم أنتم عبيدا لملككم وأموالكم له ، فنحن كذلك .

فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك ، أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما أوقفهم عليه من هذا المعنى ، فمضى البيع - لعدم إقرارهم بالرق لملكهم - إلى هذا الوقت ، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض الثوبة من بلاد مريس .

(a-a) ساقط من الأصل . (b) إضافة من المسعودي .

وصار الثوبَةُ أهلَ مَمْلَكَةِ هذا الملكِ تَوْعِينٌ : مَنْ وَصَفْنَا أُخْرَارَ غيرِ عبيدٍ ، والنُّوعُ الآخرُ من أهلِ مملكته عبيدٌ ، وهم من سَكَنَ الثوبَةَ في غير هذه البلادِ المُجاوِزَةِ لِأُسْوَانَ ، وهي بلادُ مَريسَ^١ .

قال : وأما الثوبَةُ فافترقتَ فِرْقَتَيْنِ : فِرْقَةٌ في شَرْقِ النَّيْلِ وَعَرْبِهِ ، فَأَنَاخَتْ على شاطئِهِ ، وَأَنْصَلَتْ ديارُها بديارِ القِبْطِ من أرضِ صَعِيدِ مصرَ ، وَأَتَسَّعَتْ مساكِنُ الثوبَةَ على شاطئِ النَّيْلِ مُصْعَدَةً ، وَلَحِقُوا بِقَرِيبٍ من أعاليهِ ، وَبَنَوْا^(a) دارَ مَمْلَكَةِ ، وهي مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ تُدْعَى دُنْقَلَةَ . والفِرْقَةُ الأُخْرَى من الثوبَةَ يُقالُ لها عِلْوَةٌ ، وَبَنَوْا مَدِينَةً عَظِيمَةً سَمَّوها سَوْبَةَ^(b) .

والبَلَدُ المُتَّصِلُ بِمَمْلَكَتِهِ بِأَرْضِ أُسْوَانَ يُعرَفُ بِمَريسَ ، وإليه تُضافُ الرِّيحُ المَريسيَّةُ ، وَعَمَلُ هذا المَلِكِ مُتَّصِلٌ بِأَعْمَالِ مصرَ من أرضِ الصَّعِيدِ ومَدِينَةِ أُسْوَانَ^٢ .

قال : وفي الجانِبِ الشَّرْقيِّ من صَعِيدِ مصرَ جَبَلٌ رُخامٌ عَظِيمٌ كانتِ الأوائِلُ تَقْطَعُ منه العُمُدَ وغيرَها . فَأَمَّا العُمُدُ والقَواعِدُ والرُّؤوسُ التي يُسَمِّيها أهلُ مصرَ «الأُسْوانِيَّةَ» ، ومنها جِجَارَةُ الطُّواحينِ ، فتلِكُ نَقَرُها الأُولونَ قبلَ حُدُوثِ النُّصْرانيَّةِ بِمِثْنِ من السَّنِينِ ، ومنها العُمُدُ التي بالإسْكَندَرِيَّةِ^٣ .

وفي ذِي الحِجَّةِ سَنَةَ أربَعٍ وأربَعينَ وثلاثِ مائةِ أَغارَ ملكُ الثوبَةَ على أُسْوَانَ ، وَقَتَلَ جَمْعًا من المُسلمينَ ، فَخَرَجَ إليه مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ الخازِنِ على عَشْكَرِ مصرَ من قِبَلِ أوْتوُجُورِ بنِ الإخشيدِ ، في مُحَرَّمِ سَنَةِ خَمْسٍ وأربَعينَ ، فسارُوا في البَرِّ والبَحْرِ ، وَبَعَثُوا بَعْدَهُ من الثوبَةَ أَسْرُوهمَ ، فَضَرَبَتْ أَعناقَهُمَ بعدَ ما أُوقِعَ بِملكِ الثوبَةَ . وسارَ الخازِنُ حَتَّى فَتَحَ مَدِينَةَ أَثْرِيمَ وَسَبَى أَهْلَها . وَقَدِمَ إلى مصرَ في نِصْفِ جُمادَى الأُولى سَنَةَ خَمْسٍ وأربَعينَ بِمائةِ وخَمْسِينَ أُسيرًا وَعِدَّةَ رُؤوسٍ^٤ .

وقال القاضي الفاضِلُ : إنَّ مُتَّحَصِلَ ثَغْرِ أُسْوَانَ في سَنَةِ خَمْسٍ وَثمانينَ وخمسةِ مائةِ بَلَغَ خَمسةَ وَعشرينَ أَلْفَ دِينَارٍ .

(a) نهاية السقط الذي بدأ في الصفحة السابقة . (b) بولاق : سرقته .

^١ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٣١ - ١٣٢ . ٤٣٢ .

^٢ نفسه ٢ : ١٢٦ . ^٤ انظر المقرئزي : المفى الكبير ٦ : ١٣٧ - ١٣٨ .

^٣ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٧٨ وفيما تقدم

وقال الكَمَالُ جَعْفَرُ الأَدْفُوي: وكان بأُسْوَانَ ثمانون رَسُولًا من رُسُلِ الشُّرع. وتَحَصَّلَ من أُسْوَانَ في سنة واجِدَة ثلاثون ألفَ أَرْدَبٍ تَمْرًا. وأخْبَرْنَا من وَقَفَ على مَكْتُوبٍ كان فيه أَرَبَعُونَ شَرِيفًا خَاصَّةً، وأن مَكْتُوبًا آخَرَ رَأَى فيه ستين شَرِيفًا دون من عَدَاهُم؛ قال: ووَقَفْتُ أنا على مَكْتُوبٍ فيه نَحْوُ من أربعين، مُؤرَّخٌ بما بعد العشرين وست مائة من الهجيرة.

وكان بَشَّرَ أُسْوَانَ بَنُو الكَنْزِ من رَيْبَعَة، أَمْرَاءُ مَمْدُوحُونَ مَقْضُودُونَ، صَنَعَ لَهُمُ الفاضِلُ الشَّدِيدُ أبو الحَسَنِ بن عَرَّامٍ سِيرَة ذَكَرَ فيها مَنَاقِبَهُمُ وَأَسْمَاءَ مَن مَدَحَهُمُ وَمَن وَرَدَ عَلَيْهِمُ. ولَمَّا أَرْسَلَ السُّلْطَانُ صَلَاحَ الدِّينِ يُوْسُفَ بن أَيُّوبَ جَيْشًا إلى كَنْزِ الدَّوْلَة وَأَصْحَابِهِ، تَرَحَّلُوا عن البلاد، فَدَخَلُوا بِيوتَهُمُ فَوَجَدُوا بِهَا قَصَائِدَ من مَدَحِهِمُ، منها قَصِيدَةُ أَبِي مُحَمَّدِ الحَسَنِ بن الزُّبَيْرِ^١، قال فيها:

١٠ [الطويل]

وَيُنَجِّدُهُ - إن خَانَهُ الدَّهْرُ أو سَطَا -
أَجَارُوا فما تَحْتَ الكَوَاكِبِ خَائِفٌ
أَناسٌ إذا ما أُنْجِدَ الذُّلُّ أَنَّهُمُوا
وَجَادُوا فما فَوْقَ البَسِيطَةِ مُعَدَّمٌ

وأنَّهُ أَجَارَهُ عَلَيْهَا بِألفِ دِينَارٍ، ووَقَفَ عَلَيْهِ ساقِيَة تُساوي ألفَ دِينَارٍ^٢.

وكان بأُسْوَانَ رِجالٌ من العَسْكَرِ مُسْتَعِدُونَ بِالأَسْلِحَةِ لِحِفْظِ الثَّغْرِ من هُجُومِ التُّوبَة والشُّودانِ عَلَيْهِ؛ فَلَمَّا زالتِ الدَّوْلَةُ الفاطِمِيَّةُ أَهْمِلَ ذلكَ^٣، فَسارَ مَلِكُ التُّوبَة في عَشْرَةِ آلافٍ، وَنَزَلَ تِجاهَ أُسْوَانَ في جَزِيرَة، وَأَسَرَ مَن كانَ فيها من المُسْلِمِينَ.

ثم تَلاشَى بعد ذلكَ أَمْرُ الثَّغْرِ، واسْتَوَلَى عَلَيْهِ أَوْلادُ الكَنْزِ من بعد سنة تسعين وسبع مائة، فَأَفْسَدُوا فسادًا كَبيرًا، وكانت لَهُمُ مع وِلاةِ أُسْوَانَ عِدَّةٌ حُرُوبٍ، إلى أن كانتِ المِحْنُ منذ سنة سِتِّ وثمان مائة، وَخَرِبَ إِقْلِيمُ الصُّعَيْدِ، فَارْتَفَعَتْ يَدُ السُّلْطَنَةِ عن ثَغْرِ أُسْوَانَ، ولم يَبْقَ / لِلسُّلْطَانِ في مَدِينَةِ أُسْوَانَ والٍ، وَاتَّضَعَ حالُهُ عِدَّةَ سَنِينَ.

٢٠

^٤ عن بني الكَنْزِ الذين أُسْشُوا في منتصفِ القرنِ الرابعِ الهجري إِمارةً جنوبَ مِصرٍ أولاً في منطقة العِلاقي ثم انتقلت إلى أُسْوَانَ إلى أن ضعفت دولتهم بعد تغلب قبيلة هَوارة عليهم في مطلع القرن التاسع الهجري، انظر المقرئزي: البيان والإعراب ٤٤-٤٦؛ عطية القوصي: تاريخ دولة الكَنْزِ الإسلامية، القاهرة ١٩٧٦؛ Holt, P.M., *El*² art. ١٩٧٦. *Banûl Kanz IV*, p. 590

^١ الحَسَنُ بنِ عَلِيِّ بنِ إِبراهيمِ بنِ الزُّبَيْرِ الأَسْوانِيِّ المعروف بِالْمَهْدَبِ بنِ الزُّبَيْرِ المَتوفى سَنَةَ ٥٦١هـ/١١٦٦م. (خريدة القصر ١: ٢٠٤؛ معجم الأدياء ٩: ٤٧). والبيت في الديوان ...

^٢ الأَدْفُوي: الطالِعُ السَّعِيدُ ٢٩-٣١.

^٣ أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مِصر ٧٢٣.

ثم زحفت هُوارة في محرم سنة خمس عشرة وثمان مائة إلى أسوان ، وحازبت أولاد الكثر وهزموهم ، وقتلوا كثيرا من الناس ، وسبوا ما هناك من النساء والأولاد ، واشترقوا الجميع ، وهدموا سور مدينة أسوان ، ومضوا بالسبي ، وقد تركوها خرابا يابا لا سكن بها . فاستمرت على ذلك بعد ما كانت بحيث يقول عنها عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني في كتاب «أخبار الثوبة» : إن أبا عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري لما غلب على المقدن ، كتب إلى أسوان يسأل التجار الخروج إليه بالجهاز من طريق المقدن ، فخرج إليه رجل يعرف بعثمان بن حنجلة التميمي في ألف راحلة فيها الجهاز والبر .

وذكر أن العمري لما عاد إلى بلاد البجة بعد حروبه للثوبة ، كثرت العمارة حتى صارت الرواجل التي تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة ، غير الجلاب التي تحمل من القلزم إلى عذاب^١ . قال : ومما شاهدته جماعة من شيوخنا الثقات بأسوان بقريّة تُدعى أساسي ، هي من أسوان على مَرَحَلَتَيْنِ ونصف ، أنهم رأوا شرقها من جانب النيل قريّة بشورٍ وخارج بابها جُمَيْزَة ، وناسٌ يَدْخُلُون وَيَخْرُجُونَ ، فإذا عَبَرُوا إلى الموضع لم يجدوا شيئا ؛ وهذا يكون في الشتاء دون الصيف قبل طلوع الشمس . والناس مُجْمِعُونَ على رؤيتها ، وصحّة هذا الخبر . وكان بها أنواع من الثمر ، وأنواع من الرطب ، منها نوع من الرطب أشد ما يكون من خضرة السلق . وأمّر هارون الرشيد أن يُجمَع له من ألوان تمر أسوان من كل صنف ثمرة واحدة ، فجمع له وثية ، ولا يُعرف في الدنيا بشر يتّمّر قبل أن يصير رطبًا إلا بأسوان .

ذِكْرُ بِلَاقٍ

بِلاَقٍ أَجَلٌ حصن للمسلمين ، وهي جزيرة تقرب من الجنادل مُحِيطٌ بها النيل ، فيها بلدٌ كبيرٌ يسكنه خلقٌ كثيرٌ من الناس . وبها نخلٌ عظيمٌ ، ومينبٌ في جامعٍ وإليها تنتهي سفنُ الثوبة وسفنُ المسلمين من أسوان . وبينها وبين القرية التي تُعرف بالقصر - وهي أولُ بلدِ الثوبة - ميل واحد^٢ . وبينها وبين أسوان أربعة أميال . ومن أسوان إلى هذا الموضع جنادلٌ في البحر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة ودلالة من يُخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك .

^١ انظر فيما تقدم ٥٣٤ . سليم الأسواني .

^٢ أورد المقرئ هذا النص فيما تقدم ٥١٧ نقلًا عن ابن

وبالقصر مَسْلُحَةٌ وباب إلى بَلَدِ الثُّوبَةِ^١.

ذِكْرُ حَائِطِ الْعَجُوزِ

هذا الحائطُ كان حِصْنًا لأرض مصر يُخَدِّقُ بِجَمِيعِهَا، وكان فيه مَحَارِسٌ وَمَسَالِحٌ، ومن ورائه خَلِيجٌ يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، مَعْقُودٌ عَلَيْهِ الْقَنَاطِرُ، عَمِلَتْهُ دُلُوكَةُ بِنْتُ زَبَاءَ، وَقَدْ وَهَى وَتَلَاشَى، ولم يَتَّقِ مِنْهُ إِلَّا يَسِيرَ فِي سَطِّ النَّيْلِ الشَّرْقِيِّ يَنْتَهِي إِلَى أُسْوَانَ^٢.

قال أبو القاسم عبد الرَّحْمَنِ بن عبد الله بن عبد الحَكَمِ، فِي كِتَابِ «فَتْوحِ مِصْرَ»: فَبَقِيَتْ مِصْرٌ بَعْدَ غَرْقِهِمْ - يَعْنِي فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ - وَلَيْسَ فِيهَا مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِهَا أَحَدٌ، وَلَمْ يَتَّقِ بِهَا إِلَّا الْعَبِيدُ وَالْأَجْرَاءُ وَالنِّسَاءُ. فَأَعْظَمَ أَشْرَافُ مِنْ مِصْرٍ مِنَ النِّسَاءِ أَنْ يُؤَلِّينَ مِنْهُنَّ أَحَدًا، وَأَجْمَعَ رَأْيُهُنَّ أَنْ يُؤَلِّينَ امْرَأَةً مِنْهُنَّ يُقَالُ لَهَا دُلُوكَةُ بِنْتُ زَبَاءَ، وَكَانَ لَهَا عَقْلٌ وَمَعْرِفَةٌ وَتَجَارِبٌ، وَكَانَتْ فِي شَرَفٍ مِنْهُنَّ وَمَوْضِعٍ، وَهِيَ يَوْمئِذٍ بِنْتُ مِائَةِ سَنَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً؛ فَمَلَكُوهَا، فَخَافَتْ أَنْ يَتَنَاولَهَا مُلُوكُ الْأَرْضِ، فَجَمَعَتْ نِسَاءَ الْأَشْرَافِ فَقَالَتْ لَهُنَّ: إِنَّ بِلَادَنَا لَمْ يَكُنْ يَطْمَعُ فِيهَا أَحَدٌ، وَلَا يَمُدُّ عَيْنَهُ إِلَيْهَا، وَقَدْ هَلَكَ أَكْبَرُنَا وَأَشْرَافُنَا، وَذَهَبَ السَّحْرَةُ الَّذِينَ كُنَّا نَقْوَى بِهِمْ. وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَتْبَنِي حِصْنًا أُخَدِّقُ بِهِ جَمِيعَ بِلَادِنَا، فَأَضَعُ عَلَيْهِ الْمَحَارِسَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَإِنَّا لَا نَأْمَنُ مِنْ أَنْ يَطْمَعَ فِيْنَا النَّاسُ.

فَبَنَتْ جِدَارًا أَحَاطَتْ بِهِ عَلَى جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا، الْمَزَارِعُ وَالْمَدَائِنُ وَالْقُرَى، وَجَعَلَتْ دُونَهُ خَلِيجًا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، وَأَقَامَتْ الْقَنَاطِرَ وَالتَّرْعَ، وَجَعَلَتْ فِيهِ مَحَارِسَ وَمَسَالِحَ، عَلَى كُلِّ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مَحْرَسَ وَمَسْلُحَةَ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مَحَارِسَ صِغَارًا عَلَى كُلِّ مِيلٍ. وَجَعَلَتْ فِي كُلِّ مَحْرَسَ رِجَالًا، وَأَجْرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ. وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُجْرَسُوا بِالْأَجْرَاسِ، فَإِذَا أَتَاهُمْ أَحَدٌ يَخَافُونَهُ ضَرَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِالْأَجْرَاسِ، فَأَتَاهُمُ الْخَبِيرُ

البلدان ١: ٤٤٧٨؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ١٨٨؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ١٦٧، ١٨٧، ٢/٤: ٢١٦-٢١٧).

٢ النويري: نهاية الأرب ١: ٣٩٢؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١: ٢٣٩.

١ بلاق. كلمة مصرية قديمة بمعنى الموردة أو المرساة التي ترسو بها السفن، فكما كانت أسوان تقع بالطرف البحري من الشلال كانت بلاق تقع بالطرف الجنوبي منه ميناء للسفن الحاملة للأصناف الواردة من السودان والصادرة إليه. وبدل على موقعها اليوم جزيرة المعبد وجزيرة أنس الوجود جنوب أسوان (الإدريسي: نزهة المشتاق ٣٨-٣٩؛ باقوت: معجم

من أي وجه كان^(a) فَمَنَعَتْ بِذَلِكَ مِصْرَ مِمَّنْ أَرَادَهَا .

وَفَرَعَتْ مِنْ بَنَائِهِ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ . وَهُوَ الْجِدَارُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ جِدَارُ الْعَجُوزِ بِمِصْرَ ، وَقَدْ بَقِيَتْ بِالصُّعَيْدِ مِنْهُ بَقَايَا كَبِيرَةً . وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^١ .

ذِكْرُ الْبَقَطِ

الْبَقَطُ مَا يُقْبَضُ مِنْ سَبِي الثُّوبَةِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَيُحْمَلُ إِلَى مِصْرَ ضَرِيئَةً عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ^(b) عَرَبِيَّةً فَهِيَ إِمَّا مِنْ قَوْلِهِمْ : فِي الْأَرْضِ بَقَطٌ مِنْ بَقْلٍ وَعُشْبٍ ، أَيْ نَبْتُ مَنْ مَرَعَى ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ عَلَى هَذَا : نَبْتَةٌ مِنَ الْمَالِ ، أَوْ / يَكُونُ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّ فِي بَنِي تَمِيمٍ بَقَطًا مِنْ رَيْبَعَةٍ أَيْ فِرْقَةٍ أَوْ قِطْعَةٍ ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ عَلَى هَذَا : فِرْقَةٌ مِنَ الْمَالِ أَوْ قِطْعَةٌ مِنْهُ ؛ وَمِنْهُ بَقَطُ الْأَرْضِ فِرْقَةٌ مِنْهَا ، وَبَقَطَ الشَّيْءَ فَرَقَهُ ؛ وَالْبَقَطُ أَنْ تُعْطِيَ الْحَبَّةَ عَلَى الثُّلُثِ أَوْ الرَّبْعِ ؛ وَالْبَقَطُ أَيْضًا مَا سَقَطَ مِنَ الثَّمَرِ إِذَا قُطِعَ فَأَخْطَاهُ الْمِخْلَبُ^(c) ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ عَلَى هَذَا بَعْضُ مَا فِي أَيْدِي الثُّوبَةِ .

وَكَانَ يُؤَخَّذُ مِنْهُمْ فِي قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا الْقَصْرُ ، مَسَافَتُهَا مِنْ أَشْوَانَ خَمْسَةَ أَمْيَالٍ فِيمَا بَيْنَ بَلَدِ بِلَاقٍ وَبَلَدِ الثُّوبَةِ ، وَكَانَ الْقَصْرُ فُرْصَةً لِقُوصٍ ^٢ .

وَأَوَّلُ مَا تَقَرَّرَ هَذَا الْبَقَطُ عَلَى الثُّوبَةِ فِي إِمَارَةِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، لَمَّا بَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ بَعْدَ فَتْحِ مِصْرَ إِلَى الثُّوبَةِ سَنَةَ عِشْرِينَ - وَقِيلَ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ - فِي عِشْرِينَ أَلْفًا ، فَمَكَثَ بِهَا زَمَانًا ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٍو بِأَمْرِهِ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ .

فَلَمَّا مَاتَ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَقَضَ الثُّوبَةَ الصُّلْحَ الَّذِي جَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ ، وَكَثُرَتْ سَرَايَاهُمْ إِلَى الصُّعَيْدِ فَأَخْرَبُوا وَأَفْسَدُوا . فَغَزَاهُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ وَهُوَ عَلَى إِمَارَةِ مِصْرَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَنَةَ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ ، وَخَصَرَهُمْ بِمَدِينَةِ دُنُقَلَةَ حِصَارًا شَدِيدًا ، وَرَمَاهُمْ بِالْمُنْجَنِيْقِ - وَلَمْ تَكُنْ الثُّوبَةُ تَعْرِفُهُ - وَخَسَفَ بِهِمْ كَيْسَتَهُمْ بِحَجْرٍ ؛ فَبَهَرَهُمْ ذَلِكَ وَطَلَبَ مَلِكُهُمْ - وَاسْمُهُ قَلِيدُورُوثُ - الصُّلْحَ ، وَخَرَجَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ وَأَبْدَى ضَعْفًا وَمَشْكَنَةً وَتَوَاضَعَا ؛ فَتَلَقَاهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَفَعَهُ وَقَرَّبَهُ ، ثُمَّ قَرَّرَ الصُّلْحَ مَعَهُ عَلَى ثَلَاثِ مِائَةِ وَسْتِينَ

(a) بولاق : من أي جهة كانت . (b) بولاق : الكلمة . (c) بولاق : المخرف .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٦-٢٧ وفيما تقدم ^٢ انظر فيما تقدم ٥١٧ ، ٥٤٠ .

رَأْسًا فِي كُلِّ سَنَةٍ^١، وَوَعَدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بِحُبُوبٍ يُهْدِيهَا إِلَيْهِ لِمَا شَكَاهُ لَهُ قِلَّةَ الطَّعَامِ بِيَلَدِهِ، وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا نُسَخَتْهُ بَعْدَ الْبِشْمَلَةِ:

«عَهْدٌ مِنَ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ لِعَظِيمِ الثُّوبَةِ وَالْجَمِيعِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، عَهْدٌ عَقَدَهُ عَلَى الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ مِنَ الثُّوبَةِ مِنْ حَدِّ أَرْضِ أُسْوَانَ إِلَى حَدِّ أَرْضِ عُلُوَّةٍ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدٍ جَعَلَ لَهُمْ أَمَانًا وَهُدْنَةً جَارِيَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ جَاوَزَهُمْ مِنْ أَهْلِ صَعِيدِ مِصْرَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الذُّمَّةِ. إِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الثُّوبَةِ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَأَمَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا نُحَارِبَكُمْ، وَلَا نَنْصُبُ لَكُمْ حَرْبًا، وَلَا نَغْزُواكُمْ، مَا أَقَمْتُمْ عَلَى الشَّرَائِطِ الَّتِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ؛ عَلَى أَنْ تَدْخُلُوا بِلَدَنَا مُجْتَازِينَ غَيْرَ مُقِيمِينَ فِيهِ، وَتَدْخُلَ بِلَدَكُمْ مُجْتَازِينَ غَيْرَ مُقِيمِينَ فِيهِ.

وَعَلَيْكُمْ حِفْظٌ مِنْ نَزَلِ بِلَدِكُمْ أَوْ يَطْرُقَهُ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ مُعَاهِدٍ حَتَّى يَخْرُجَ عَنْكُمْ. وَإِنْ عَلَيْكُمْ رَدٌّ كُلُّ آبِي خَرَجَ إِلَيْكُمْ مِنْ عِبِيدِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَرُدُّوهُ

مقره والنوبة في رجب سنة ١٤١هـ/٧٥٨م، متضمنة الحديث عن البقط الذي يجب عليه دفعه إلى الحكومة الإسلامية في مصر. ويُرجح أن هذه الوثيقة ليست هي الوثيقة الأصلية لأنها لا تشتمل على أية إشارات، وإنما صورة نسخت عنها في نفس التاريخ لتحفظ في أرشيف النوبة. (راجع، Plumley, M., «An Eighth - Century Arabic Letter to the King of Nubia». *JEA* 61 (1975), pp. 241-45، الذي قدم ترجمة لنص الوثيقة؛ كما نشر حمدي السكوت ومارتين هينز النص العربي للوثيقة انظر، Hinds, M. & Sakkut, H., «A Letter from the Governor of Egypt to the King of Nubia and Muqurra concerning Egyptian - Nubian Relations in 141/758», in *Studia Arabica et Islamica: Festschrift for Ihsan 'Abbās on his sixtieth birthday*. Ed. Wadād al-Qādi, Beirut - AUB 1981, pp. 209-24; Halm, H., «Der nubische baqt» in Vermeulen, U. & De Smet, D. (eds.) *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, Leuven (1998, pp. 63-103

^١ البقط هو الضريبة السنوية التي كانت تدفعها النوبة المسيحية للدولة الإسلامية في مصر مقابل الهدنة المعقودة بينهما، وهي عبارة عن ٣٦٥ رأسًا من الشنبل لبيت مال المسلمين بالإضافة إلى أربعين رأسًا تحتمل لأمر مصر وعشرين رأسًا لوالي أسوان الذي يتولى قبض البقط، وخمسة للأمر المقيم بأسوان، واثني عشر رأسًا للثنى عشر شاهد غذل الذين يحضرون مع الحاكم قبض البقط في قرية القصر (انظر إضافة إلى نص المقريري، البلاذري: فتوح البلدان ٢٨١، ٢٨٢؛ المسعودي: مروج الذهب ٢: ١٢٩، ١٣٠؛ Lokkegaard, F., *El² art. Bakt I*, p. 996; Beshir, B.I., «New Lights on the Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), p. 16 أثناء سنة ١٩٧٢ عشر في منطقة قصر إبريم في النوبة على عدد من لقائف البردي بينها بردية تعد من أروع الوثائق البردية المكتشفة حتى الآن طولها ٢٥٥ سم وعرضها ٣٥,٥ سم مكتوب على وجهها ٦٩ سطرًا بخط جميل، وهي خطاب رسمي موجه من والي مصر موسى بن كعب إلى صاحب

إلى أرض الإسلام ، ولا تستولوا عليه ، ولا تمنعوا منه ، ولا تعرضوا لمسلم
قصدَه وحاوَرَه إلى أن ينصرف عنه .

وعليكم حفظ المسجد الذي ابنتاه المسلمون ببناء مدينتكم ، ولا تمنعوا
منه مصلياً ، وعليكم كئسه وإسراجه وتكريمته .

وعليكم في كل سنة ثلاث مائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين
من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب ، يكون فيها ذُكران وإناث ، ليس فيها
شَيْخٌ هَرِمٌ ولا عَجُوزٌ ولا طِفْلٌ لم يتلغ الحلم ؛ تدفعون ذلك إلى والي
أشوان .

٥

وليس على مسلم دفع عدوٍّ عرض لكم ، ولا منعه عنكم من حدِّ أرض
علوة إلى أرض أشوان ؛ فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم ، أو قتلتم مسلماً أو
مُعاهداً ، أو تعرضتم للمسجد الذي ابنتاه المسلمون ببناء مدينتكم بهدم ، أو
منعتم شيئاً من الثلاث مائة رأس والستين رأساً ، فقد برئت منكم هذه الهدنة
والأمان ، وعُدنا نحن وأنتم على سواء ، ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ ﴿ بَيْنَنَا ﴾ وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿ [الآية ١٠٩ سورة يونس] ؛ عَلَيْنَا بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ وَذِمَّتُهُ
وَذِمَّةُ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تديثون به من ذمَّة
المسيح وذمَّة الخواريين وذمَّة من تُعظّمونه من أهل دينكم ومليّكم ، الله
الشاهد بيننا وبينكم على ذلك .

١٠

١٥

كتبه عمرو بن شرحبيل^١ في رمضان سنة إحدى وثلاثين .

وكانت التوبة دفعت إلى عمرو بن العاص ما صولجوا عليه من البقظ قبل نكبتهم ، وأهدوا إلى
عمرو أربعين رأساً من الرقيق فلم يقبلها وردَّ الهدية إلى كبير القبط^(a) - ويُقال له نستقوس^(b) -
فاشترى له بذلك جهازاً وخمراً ووجهه إليه^٢ .

٢٠

(a) الأصل وبولاق : كبير القبط والمثبت من فتوح مصر لابن عبد الحكم وفيه : عظيم من عظماء القبط . (b) بولاق :
سقموس ، الأصل : سقموس والمثبت من فتوح مصر .

^١ أبو ميثرة عمرو بن شرحبيل الهمداني الكوفي (ابن أعلام النبلاء ٤: ١٣٥-١٣٦) .

سعد : الطبقات الكبرى ٦: ١٠٦-١٠٩ ؛ الذهبي : سير^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٨٩ .

وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الْحُبُوبِ : قَمْحًا وَشَعِيرًا وَعَدَسًا ، وَثِيَابًا ، وَخَيْلًا . ثُمَّ تَطَاوَلَ الرَّسْمُ عَلَى ذَلِكَ فَصَارَ رَسْمًا يَأْخُذُونَهُ عِنْدَ دَفْعِ الْبَقَطِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، وَصَارَتْ الْأَرْبَعُونَ رَأْسًا الَّتِي أُهْدِيَتْ إِلَى عَمْرٍو يَأْخُذُهَا وَالْيَ مِصْرَ .

وَعَنْ أَبِي خَلِيفَةَ حَمِيدِ بْنِ هِشَامِ الْبُخْتَرِيِّ أَنَّ الَّذِي صُوِّلِحَ عَلَيْهِ الثُّوبَةُ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُونَ رَأْسًا لِقِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلصَاحِبِ مِصْرَ أَرْبَعُونَ رَأْسًا ، وَيُدْفَعُ إِلَيْهِمْ أَلْفُ أَرْدَبٍ قَمْحًا ، وَلرُّسُلِهِ ثَلَاثَ مِائَةٍ أَرْدَبٍ ، وَمِنَ الشَّعِيرِ كَذَلِكَ ، وَمِنَ الْخَمْرِ أَلْفَ أَقْنِينَ^(a) ، لِلْمُتَمَلِّكَ وَلرُّسُلِهِ ثَلَاثَ مِائَةٍ أَقْنِينَ^(a) ، وَفَرَسَيْنِ مِنْ بِنَاجِ خَيْلِ الْإِمَارَةِ ، وَمِنَ أَصْنَافِ الثِّيَابِ مِائَةَ ثَوْبٍ ، وَمِنَ الْقَبَاطِيِّ أَرْبَعَةَ أَثْوَابٍ لِلْمُتَمَلِّكَ وَلرُّسُلِهِ ثَلَاثَةَ ، وَمِنَ الْبَقَطَرِيَّةِ ثَمَانِيَةَ أَثْوَابٍ ، وَمِنَ الْمُعَلِّمَةِ خَمْسَةَ أَثْوَابٍ ، وَجُبَّةً مُجَمَّلَةً لِلْمَلِكِ ، وَمِنَ قُمْصِ أَبِي بُقَطْرَ عَشْرَةَ أَثْوَابٍ ، وَمِنَ أَحَاصِي عَشْرَةَ أَثْوَابٍ ، وَهِيَ ثِيَابُ غِلَازٍ .

قَالَ أَبُو خَلِيفَةَ : لَيْسَ فِي كِتَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهَبٍ ، وَلَا فِي كِتَابِ الْوَائِدِيِّ ، تَسْمِيَةٌ يُنْتَهَى إِلَيْهَا ، وَإِنَّمَا أَخَذْتُ التَّسْمِيَةَ مِنْ أَبِي زَكَرِيَّا ، قَالَ أَبُو زَكَرِيَّا : سَمِعْتُ وَالِدِي عُثْمَانَ^(b) بْنَ صَالِحٍ يَقُولُ هَذَا الْخَبَرَ ، فَحَفِظْتُ مِنْهُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ .

وَقَالَ : حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ، وَهُوَ عَلَى مِصْرَ ، فَقَالَ / : أَنْتَ عُثْمَانُ بْنُ صَالِحِ الَّذِي وَجَّهْنَا إِلَيْكَ فِي كِتَابِ بَقَطِ الثُّوبَةِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ مَحْفُوظُ بْنُ سُلَيْمَانَ فَقَالَ : مَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ! وَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ نَطْلُبُ عِلْمًا مِنْ عُلُومِهِمْ وَإِلَى هَذَا الشُّيْخِ ، فَمَا شَفَانَا أَحَدٌ مِنْهُمْ ؛ فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، إِنَّ الَّذِي طَلَبْتُ مِنْ خَبَرِ الثُّوبَةِ عِنْدِي ، قَدْ حَفِظَهُ شُيُوخُ عَنِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ حَضَرُوا هُنَا ، وَالْهُدْنَةَ وَالصُّلْحَ الَّذِي جَرَى بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ وَبَيْنَ الثُّوبَةِ ؛ ثُمَّ حَدَّثَنِي عَنْ أَخْبَارِهِمْ كَمَا سَمِعْتُ ، فَأَنْكَرَ عَطِيَّةَ الْخَمْرِ ، فَقُلْتُ : قَدْ أَنْكَرَهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ ابْنُ مَرْوَانَ . وَكَانَ هَذَا الْمَجْلِسُ بِفُسْطَاطِ مِصْرَ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ ، بَعْدَ أَنْ تَمَّ الصُّلْحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّرِيِّ بْنِ الْحَكَمِ التَّمِيمِيِّ الْأَمِيرِ كَانَ قَبْلَهُ .

قَالَ عُثْمَانُ بْنُ صَالِحٍ : فَوَجَّهَ الْأَمِيرُ إِلَى الدِّيْوَانِ بَطْنِ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِمِصْرَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ خَبَرَ الثُّوبَةِ فَوَجَدَهُ كَمَا ذَكَرْتُ ، فَسَرَّهُ ذَلِكَ .

(a) بولاق : أقتبز . (b) في النسخ : عمرو ، والصواب ما أثبتناه فالخبر عن أبي زكريا يحيى بن عثمان بن صالح ، وكما صوبه المقرئ في السطور التالية .

وعن مالك بن أنس أنه كان يرى أن أرض الثوبة إلى حد غلوة صلح، وكان لا يُجيز شراء رقيقهم، وكان أصحابه مثل عبد الله بن عبد الحكم وعبد الله بن وهب والليث بن سعد ويزيد بن أبي حبيب وغيرهم من فقهاء مصر يزؤون بخلاف ذلك.

قال الليث بن سعد: نحن أعرف بأرض الثوبة من الإمام مالك بن أنس، إنما صولجوا على ألا تغزروهم ولا تمنع منهم عدوًا، فما اشتروهم ممتلكهم أو غزا بعضهم بعضًا فشاؤهم جائز، وما اشتروهم بغاة المسلمين وشراقتهم فغير جائز. وكان عند جماعة منهم جوار نوبيات لقرشهم.

ولم يزل الثوبة يؤدون البقظ في كل سنة، ويدفع إليهم ما تقدم ذكره، إلى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله أبي إسحاق بن الرشيد، وكبير الثوبة يومئذ زكرياء بن يحنس. وكانت الثوبة ربما عجزت عن دفع البقظ، فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القرييون من بلادهم، ويمنع من إخراج الجهاز إليهم، فأنكر قيرقي ولد كبيرهم زكرياء على أبيه بذله الطاعة لغيره، واستعجزه فيما يدفع، فقال له أبوه: فما تشاء؟ قال: عصيائهم ومحاربتهم. قال أبوه: هذا شيء آراه السلف من آباؤنا صوابًا، وأخشى أن يُفضي هذا الأمر إليك فتقدم على محاربة المسلمين، غير أنني أوجهك إلى ملكهم رسولًا، فأنت ترى حالنا وحالهم، فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربتناهم على خبيرة، وإلا سألته الإحسان إلينا.

فشخص قيرقي إلى بغداد، وكانت البلدان تزين له ويسير على المدن، وانحدر بانحداره رئيس البجة بأسبابه، ولقيا المعتصم فنظرا إلى ما بهرهما من حال العراق في كثرة الجيوش وعظم العمارة مع ما شاهداه في طريقهما. فقرب المعتصم قيرقي وأذناه، وأحسن إليه إحسانًا تامًا، وقبل هديته وكافاه بأضعافها، وقال له: تمم ما شئت؛ فسأله في إطلاق المحبوسين فأجابته إلى ذلك.

وكبر في عين المعتصم، ووهب له الدار التي نزلها بالعراق، وأمر أن يشتري له في كل منزل من طريقه دار تكون لرسلهم، فإنه امتنع من دخول دار لأحد في طريقه، فأخذ له بمصر دار بالجيزة، وأخرى ببني وائل.

وأجرى لهم في ديوان مصر سبع مائة دينار، وفرسا وسرجا ولجاما، وسيفا محلي، وثوبًا ثقلاً، وعمامة من الخز، وقميص شرب ورداء شرب، وثيابا لرسله غير محدودة عند وصول البقظ إلى مصر، ولهم حملان وخلع على المتولي لقبض البقظ، وعليهم رسوم معلومة لقايض البقظ والمنصرفين معه، وما يُهدى إليهم بعد ذلك فغير محدود، وهو عندهم هدية يُجازون عليها.

وَنَظَرَ الْمُعْتَصِمُ إِلَى مَا كَانَ يَدْفَعُهُ الْمُسْلِمُونَ فَوَجَدَهُ أَكْثَرَ مِنَ الْبَقْطِ ، وَأَنْكَرَ عَطِيَّةَ الْخَمْرِ ، وَأَجْرَى الْحُبُوبَ وَالثِّيَابَ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا ، وَقَرَّرَ دَفْعَ الْبَقْطِ بَعْدَ انْقِضَاءِ كُلِّ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا بِذَلِكَ بَقِيَ فِي يَدِ الثُّوبَةِ .

وَادَّعَى الثُّوبِيُّ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ أُسْوَانَ أَنَّهُمْ اشْتَرَوْا أَمْلَاكًا مِنْ عبيده ، فَأَمَرَ الْمُعْتَصِمُ بِالنَّظَرِ فِي ذَلِكَ ، فَأَحْضَرَ وَالِيَّ الْبَلَدِ وَالْمُخْتَارَ لِلْحُكْمِ فِيهِ التَّابِعِينَ مِنَ الثُّوبَةِ وَسَأَلَهُمْ عَمَّا ادَّعَاهُ صَاحِبُهُمْ مِنْ يَتَعَمَّهُمْ ، فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ وَقَالُوا : نَحْنُ رَعِيَّةٌ ، فَزَالَ مَا ادَّعَاهُ .

وَطَلَبَ أَشْيَاءَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ إِزَالَةِ الْمَسْلُخَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْقَضْرِ عَنْ مَوْضِعِهَا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ الْمَسْلُخَةَ عَلَى أَرْضِهِمْ ، فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ . وَلَمْ يَزَلِ الرَّسْمُ جَارِيًا بِدَفْعِ الْبَقْطِ عَلَى هَذَا التَّقْرِيرِ ، وَيُدْفَعُ إِلَيْهِمْ مَا أَجْرَاهُ الْمُعْتَصِمُ ، إِلَى أَنْ قَدِمَتِ الدَّوْلَةُ الْفَاتِمِيَّةُ إِلَى مِصْرَ^١ ، ذَكَرَ ذَلِكَ مُؤَرِّخُ الثُّوبَةِ .

وقال أبو الحسن المسعودي : والبقط هو ما يقبض من السبئي في كل سنة ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم ، وهو ثلاث مائة رأس وخمسة وستون رأسا ليبيت المال^٢ ، بشرط الهدنة بين الثوبية والمسلمين ؛ وللأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأسا ، ولخليفته المقيم بأسوان - وهو المتولي لقبض البقط - عشرون رأسا ، وللحاكم المقيم بأسوان الذي يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤس ، ولأثني عشر شاهداً غدول من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأسا من السبئي على حسب ما جرى به الرسم في صدر الإسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والثوبية^٣ .

وقال البلاذري في كتاب «الفتوحات» : إن المقرر على الثوبية أربع مائة رأس يأخذون بها طعاما - أي غلة - وألزمهم أمير المؤمنين المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور ثلاث مائة وستين رأسا وزرافة^٤ . / وفي سنة أربع وسبعين وست مائة كثر خبث داود متملك الثوبية ، وأقبل إلى أن قرب من مدينة أسوان ، وخرق عدة سواقي بعدما أفسد بعينذاب فمضى إليه والي قوص فلم يذركه ، وقبض

^٢ أضاف المسعودي : «وأراه رسم على عدد أيام السنة»

(مروج الذهب : ٢ : ١٣٠) .

^٣ المسعودي : مروج الذهب : ٢ : ١٣٠ .

^٤ البلاذري : فتوح البلدان : ٢٨١ .

^١ عن العلاقة بين النوبة والدولة الإسلامية انظر مقال

فورون Forand, P., «Early Muslim Relations with Nubia», *Der Islam* 48 (1972), pp. 111-21 ومع

الدولة الفاطمية انظر مقال : بشير إبراهيم بشير Beshir, B.I., «New Lights on Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), pp. 15-24

على صاحب الخيل في عدة من الثوبة ، وحملهم إلى السلطان الملك الظاهر يبرز البندقداري بقلعة الجبل فوسطهم .

وقدم شكندة^(a) ابن أخت^(b) متملك الثوبة متظلمًا من خاله داود ، فجرد السلطان معه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني الأستاذار ، والأمير عز الدين أيتك الأفرم ، وأمير جاندار ، في جماعة كثيرة من العسكر ومن أجناد الولايات وعزبان الوجه القبلي والزرايين والرعاة ورجال الحراريق .

فساروا في أول شعبان من القاهرة حتى وصلوا إلى أرض الثوبة ، فخرجوا إلى لقاءهم على النجيب ، بأيديهم الحراب وعليهم ذكادك سود ، فاقتتل الفريقان قتالًا كبيرًا ، انهزم فيه الثوبة ، وأغار الأفرم على قلعة الدر ، وقتل وسبى . وأوغل الفارقاني في أرض الثوبة بزا وبحرا يقتل ويأسر ، فحاز من المواشي ما لا يُعد ، ونزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل ، ونفر المراكب من الجنادل . ففر الثوبة إلى الجزائر ، وكتب لقمرة الدولة نائب داود متملك الثوبة أمانًا ، فحلف لشكندة^(a) على الطاعة ، وأحضر رجال المريس ومن فر .

وخاض الأفرم إلى بوزج في الماء وحصره حتى أخذه ، وقتل به مائتين ، وأسرا أخوا لداود ، فهرب داود والعسكر في أثره مدة ثلاثة أيام ، وهم يقتلون ويأسرون ، حتى أذعن القوم . وأسرت أم داود وأخته ، ولم يقدر على داود فتقرر شكندة^(c) عوضه ، وقرر على نفسه القطيعة في كل سنة ثلاث فيلة وثلاث زرافات وخمس فهود من إناثها ، ومائة نجيب أصهب وأربعمائة رأس من البقر المنتجة ، على أن تكون بلاد الثوبة نصفين : نصفها للسلطان ، ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ، ما خلا بلاد الجنادل ، فإنها كلها للسلطان لقربها من أسوان ، وهي نحو الربع من بلاد الثوبة . وأن يحمل ما بها من الثمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان . وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على النضرائية ، فيدفع كل بالغ منهم في السنة دينارًا عيّنًا⁽¹⁾ .

(a) بولاق : سكندة . (b) في كنز الدرر وتاريخ ابن شداد : ابن عم . (c) بولاق : سكندة .

¹ انظر خبر هذه الموقعة عند ابن عبد الظاهر : الروض الأرب ٣٠ : ٣٤٤-٣٤٨ ؛ ابن أبي الفضائل : النهج الزاهر ٤١٦ ؛ ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر ١٢٩-١٣١ ؛ السديد ٢١١ ، ٢٣٤-٢٣٦ ؛ المقرئ : السلوك ابن أيتك : كنز الدرر ٨ : ١٨٣-١٨٦ ؛ النويري : نهاية ١ : ٦٢١-٦٢٣ .

وَكَتَبَ نُسخَةَ يَمِينٍ بِذَلِكَ حَلَفَ عَلَيْهَا الْمَلِكُ سُكْنَدَةَ ، وَنُسخَةَ يَمِينٍ أُخْرَى حَلَفَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ ^١ .

وَخَرَّبَ الْأَمِيرَانِ كَنَائِسَ الثُّوبَةِ ، وَأَخِذَ مَا فِيهَا ، وَقَبِضَ عَلَى نَحْوِ عَشْرِينَ أَمِيرًا مِنْ أَمْرَاءِ الثُّوبَةِ ، وَأَفْرَجَ عَمَّنْ كَانَ بِأَيْدِي الثُّوبَةِ مِنْ أَهْلِ أَشْوَانَ وَعَيْذَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَشْرِهِمْ .

وَأَلْبَسَ سُكْنَدَةَ تاجَ الْمَلِكِ ، وَأَقْعَدَ عَلَى سَرِيرِ الْمَمْلَكَةِ ، بَعْدَ مَا حَلَفَ وَالتَّزَمَ أَنْ يَحْمِلَ جَمِيعَ مَا لِدَاوُدَ وَلِكُلِّ مَنْ قُتِلَ وَأُسِرَ مِنْ مَالٍ وَدَوَابِّ إِلَى السُّلْطَانِ مَعَ الْبَقِطِ الْقَدِيمِ ، وَهُوَ أَرْبَعُ مِائَةِ رَأْسٍ مِنَ الرُّبَيْقِ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَزَرَافَةَ (مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ لِلْخَلِيفَةِ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتُونَ رَأْسًا ، وَ لِنَائِيهِ بِمِصْرَ أَرْبَعُونَ رَأْسًا) ، عَلَى أَنْ يُطَلَّقَ لَهُمْ إِذَا وَصَلُوا بِالْبَقِطِ تَامًا مِنْ الْقَمَحِ أَلْفَ أَرْدَبٍ لِمَتْلِكِهِمْ ، وَثَلَاثَ مِائَةِ أَرْدَبٍ لِرُسُلِهِ .

ذِكْرُ صَحْرَاءِ عَيْذَابٍ

اعْلَمَ أَنَّ حُجَّاجَ مِصْرَ وَالْمَغْرِبِ أَقَامُوا زِيَادَةً عَلَى مِائَتِي سَنَةٍ لَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَكَّةَ - شَرَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى - إِلَّا مِنْ صَحْرَاءِ عَيْذَابٍ ، يَزْكَبُونَ النَّيْلَ مِنْ سَاحِلِ مَدِينَةِ مِصْرَ الْفُسْطَاطِ إِلَى قُوصٍ ، ثُمَّ يَزْكَبُونَ الْإِبِلَ مِنْ قُوصٍ وَيَعْبُرُونَ هَذِهِ الصَّحْرَاءَ إِلَى عَيْذَابٍ ^٢ ، ثُمَّ يَزْكَبُونَ

١٣٥٩م عندما توقّف التجار عن استخدامه بسبب ثورة القبائل الجنوبية (البجة وهوارة والثوبة) وتمردوا الذي جعل من طريق عَيْذَابٍ - قوص طريقًا غير آمن . وتظنّ معلوماتنا حول انهيار ميناء عَيْذَابٍ وزوال دوره بكتفه الغموض ، فتتوقف المعلومات المدوّنة عنه بطريقة غريبة في منتصف القرن الثامن الهجري إلى أن يخبرنا الرحالة المغربي الحسن بن محمد الوزان Jean - Léon l'Africain في مطلع القرن العاشر الهجري - وهو يتحدث عن جماعة البجة - أنهم كانت لهم في الماضي مدينة ضخمة على البحر الأحمر تدعى عَيْذَابٍ حيث كان يقوم ميناء يقع مباشرة تجاه مدينة جدة ميناء مكة ، ولكن منذ مائة عام قام هؤلاء البجة بنهب قافلة كانت تنقل السلع والأقوات إلى مكة ، فأرسل سلطان مصر أسطولاً احتلّ المدينة وخرّب ميناءها (وصف إفريقيا ٥٥٨-٥٥٩) ، وواضح أنّ السلطان الذي قام بهذا العمل هو السلطان المملوكي =

^١ انظر نصّ هذه الأيمان عند التويري : نهاية الأرب ٣٠ : ٣٤٦-٣٤٧ .

^٢ عَيْذَابٍ : ميناء على الساحل المصري للبحر الأحمر ، ما زالت تُرى أنقاضه على أرض منبسطة لا يصل إليها الماء على بُعد عشرين كيلومترًا شمال مدينة خلاب الحالية . ورد ذكرها في المصادر العربية منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي كميناء يتردّد عليه حُجَّاجُ بَيْتِ اللَّهِ والتجار المتوجّهين إلى اليمن والهند . واستمدّت عَيْذَابُ أهميتها ابتداءً من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي مع تنامي الاستراتيجية الشرقية للفاطميين وازدهار التجارة الكارمية (ناصر خسرو : سفرنامه ١١٨ ؛ ابن جبیر : الرحلة ٤٥ ؛ المقرئزي : السلوك ٦٤ : ١) (المكوس التي ألفها صلاح الدين) ؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٤٩٨-٥٠٠ . وبدأ ميناء عَيْذَابٍ يفقد أهميته ابتداءً من عام ٥٧٦٠هـ /

البحر في الجلاب^١ إلى جُدَّة ساحل مَكَّة . وكذلك تُجَارُ الهِنْد واليَمَن والحَبَشَة ، يَرِدُونَ فِي الْبَحْرِ إِلَى عَيْذَاب ، ثُمَّ يَسْلُكُونَ هَذِهِ الصَّخْرَاءَ إِلَى قُوص ، وَمِنْهَا يَرِدُونَ مَدِينَةَ مِصْر .

فَكَانَتْ هَذِهِ الصَّخْرَاءُ لَا تَزَالُ عَامِرَةً أَهْلَةً بِمَا يَصْدُرُ أَوْ يَرِدُ مِنْ قَوَائِلِ التُّجَّارِ وَالْحُجَّاجِ ، حَتَّى إِنْ كَانَتْ أَحْمَالُ الْبَهَارِ كَالْقِرْفَةِ وَالْفُلْفُلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَتُوجَدُ مُلْقَاةً بِهَا ، وَالْقُفُولُ صَاعِدَةً وَهَابِطَةً ، لَا يَغْتَرِضُ لَهَا أَحَدٌ ، إِلَى أَنْ يَأْخُذَهَا صَاحِبُهَا :

فَلَمْ تَزَلْ مَسْلُكًا لِلْحُجَّاجِ فِي ذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ زِيَادَةً عَلَى مَائَتِي سَنَةٍ : مِنْ أَعْوَامِ بَضْعِ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ ، إِلَى أَعْوَامِ بَضْعِ وَسْتِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ؛ وَذَلِكَ مِنْذُ كَانَتْ الشُّدَّةُ الْعِظْمَى فِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ الْمُشْتَنَصِرِ بِاللَّهِ أَبِي تَمِيمٍ مَعَدَّ بْنِ الظَّاهِرِ وَانْقِطَاعِ الْحَجِّ فِي الْبَرِّ ، إِلَى أَنْ كَسَا السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ رُكْنَ الدِّينِ يَبْيُزْسَ الْبُنْدُقْدَارِي الْكَعْبَةَ وَعَمِلَ لَهَا مُفْتَاخًا ، ثُمَّ أَخْرَجَ قَافِلَةَ الْحَاجِّ مِنَ الْبَرِّ فِي سَنَةِ سِتِّ وَسْتِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، فَقَلَّ سُلُوكُ الْحَاجِّ لِهَذِهِ الصَّخْرَاءِ ، وَاسْتَمَرَّتْ بَضَائِعُ التُّجَّارِ تُحْمَلُ مِنْ عَيْذَابَ إِلَى قُوصِ حَتَّى بَطُلَ ذَلِكَ بَعْدَ سَنَةِ سِتِينَ وَسَبْعِ مِائَةٍ ، وَتَلَاشَى أَمْرُ قُوصِ مِنْ حَيْثُذِي . وَهَذِهِ الصَّخْرَاءُ مَسَافَتُهَا مِنْ قُوصِ إِلَى عَيْذَابِ سَبْعَةَ عَشْرِ يَوْمًا ، وَيُفْقَدُ فِيهَا الْمَاءَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ ، وَتَارَةً يُفْقَدُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ .

وَعَيْذَابُ مَدِينَةٌ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ جُدَّةَ ، وَهِيَ غَيْرُ مُسَوَّرَةٍ ، وَأَكْثَرُ بُيُوتِهَا أَخْصَاصُ . وَكَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ مَرَاسِي الدُّنْيَا ، بِسَبَبِ أَنَّ مَرَاكِبَ الْهِنْدِ وَالْيَمَنِ تَحُطُّ فِيهَا الْبَضَائِعُ وَتُقْلَعُ مِنْهَا مَعَ مَرَاكِبِ الْحُجَّاجِ الصَّادِرَةِ وَالْوَارِدَةِ^٢ . فَلَمَّا انْقَطَعَ وُرُودُ مَرَاكِبِ الْهِنْدِ وَالْيَمَنِ إِلَيْهَا ، صَارَتْ الْمَرَسَى

الموسم الثقافي الثاني ١٩٦٨ ، ١٨٥ - ٢٢٠ ، Gibb, H.A.R., *El' art. 'Aydhab I*, pp. 805-806; Garcin, J.-C., «Jean - Léon l'Africain et 'Aydhab», *An. Isl. XI* (1972), pp. 194-95; id., «La Méditerranéisation» de l'empire mamlouk sous les sultans bahrides», *RSO XLVIII* (1973-74), pp. 113-14; Darrag, A., *L'Égypte sous le Règne de Barsbay*, pp. 201-203, 209-10 محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٣٣٨-٣٣٩ .

^١ جلبة جد جلاب انظر وصفها فيما يلي ٥٥١ نقلًا عن ابن جبير .

^٢ نقلًا عن ابن جبير : الرحلة ٤٥ .

= الأشرف برسباي الذي احتكر التجارة الشرقية في القرن التاسع الهجري وسيطر على السفن الحاملة لهذه التجارة ورفع المكوس المفروضة عليها . ويُعرف الآن مكان عَيْذَابِ عِنْدَ قِبَائِلِ عَرَبِ الصَّخْرَاءِ الشَّرْقِيَّةِ بِاسْمِ سِوَاكِنِ الْقَدِيمَةِ وَتَقَعُ عَلَى خَطِّ عَرْضِ ٢٢ دَرَجَةٍ وَ ٢٠ ثَانِيَةً فِي مِوَاجِهَةِ بَلَدَةِ أَبِي سَمْبَلِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَى النَّيْلِ وَبَلَدِ رَابِعِ شِمَالِ جُدَّةِ عَلَى الشَّاطِئِ الشَّرْقِيِّ لِلْبَحْرِ الْأَحْمَرِ ، بَيْنَمَا تَقَعُ سِوَاكِنُ الْحَالِيَّةِ عَلَى خَطِّ عَرْضِ ١٩ دَرَجَةٍ . (راجع ، البكري : جغرافية مصر ٨٤ - ٨٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٥١٩ - ٥٢٠ ؛ أحمد دراج : «إيضاحات جديدة عن التحوُّل في تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري» ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية -

العظيمة عَدَنَ من بلاد اليمن، إلى أن كانت أغوام بضع / وعشرين وثمان مائة فصارت جُدَّةً
أَعْظَمَ مَراسِي الدُّنْيَا، وكذلك هُرْمُزُ فَإِنَّهَا مَرَسَى جَلِيلٍ^١.

وعَيْذَابُ فِي صَحْرَاءٍ لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَكُلُّ مَا يُؤْكَلُ بِهَا مَجْلُوبٌ إِلَيْهَا حَتَّى الْمَاءِ. وَكَانَ لِأَهْلِهَا
مِنَ الْحُجَّاجِ وَالتُّجَّارِ فَوَائِدٌ لَا تُحْصَى، وَكَانَ لَهُمْ عَلَى كُلِّ حَمَلٍ يَحْمِلُونَهُ لِلْحُجَّاجِ ضَرْبِيَّةٌ مُقَرَّرَةٌ،
وَكَانُوا يُكَارُونَ الْحُجَّاجَ الْجِلَابَ الَّتِي تَحْمِلُهُمْ فِي الْبَحْرِ إِلَى جُدَّةٍ وَمِنَ جُدَّةٍ إِلَى عَيْذَابٍ، فَيَجْتَمِعُ
لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَالٌ عَظِيمٌ. وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ عَيْذَابٍ إِلَّا مَنْ لَهُ جَلْبَةٌ فَأَكْثَرُ عَلَى قَدْرِ يَسَارِهِ^٢.
وَفِي بَحْرِ عَيْذَابٍ مَغَاصُّ اللُّؤْلُؤِ فِي جَزَائِرٍ قَرِيبَةٍ مِنْهَا، تَخْرُجُ إِلَيْهِ الْعَوَاصِمُونَ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ مِنْ
كُلِّ سَنَةٍ فِي الزُّوَارِقِ، حَتَّى يُوَافِقُوهُ بِتِلْكَ الْجَزَائِرِ فَيُتَقِيمُونَ هُنَاكَ أَيَّامًا ثُمَّ يَعُودُونَ بِمَا قَسِمَ لَهُمْ مِنْ
الْحِطِّ وَالْمَغَاصِ فِيهَا قَرِيبَ الْقَعْرِ. وَعَيْشُ أَهْلِ عَيْذَابٍ عَيْشُ الْبَهَائِمِ، وَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْوَحْشِ فِي
أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ.

وَكَانَ الْحُجَّاجُ يَجِدُونَ فِي رُكُوبِهِمُ الْجِلَابَ عَلَى الْبَحْرِ أَهْوَالًا عَظِيمَةً؛ لِأَنَّ الرِّيحَ تُلْقِيهِمْ فِي
الغَالِبِ بِمَرَاسِي فِي صَحَارَى بَعِيدَةٍ مِمَّا يَلِي الْجَنُوبَ، فَيَنْزِلُ إِلَيْهِمُ التُّجَّارُ مِنْ جِبَالِهِمْ فَيُكَارُونَهُمْ
الْجِمَالَ، وَيَسْتَلْكُونُ بِهِمْ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَرُبَّمَا هَلَكَ أَكْثَرُهُمْ عَطَشًا وَأَخَذَ التُّجَّارُ مَا كَانَ مَعَهُمْ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ وَيَهْلِكُ عَطَشًا. وَالَّذِي يَسْلَمُ مِنْهُمْ يَدْخُلُ إِلَى عَيْذَابٍ كَأَنَّهُ نُشِيرٌ مِنْ كَفَنٍ، قَدْ
اسْتَحَالَتْ هَيْبَاتُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ صِفَاتُهُمْ. وَأَكْثَرُ هَلَاكِ الْحُجَّاجِ بِهَذِهِ الْمَرَاسِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَاعِدُهُ
الرِّيحُ فَتَحَطُّهُ بِمَرَسَى عَيْذَابٍ، وَهُوَ الْأَقْلُ.

وَجِلْبَاتُهُمُ الَّتِي تَحْمِلُ الْحُجَّاجَ فِي الْبَحْرِ لَا يُسْتَعْمَلُ فِيهَا مَسْمَارُ الْبَتَّةِ، إِذَا يُحَيِّطُ خَشْبُهَا بِالْقِنْبَارِ -
وَهُوَ مُتَّخَذٌ مِنْ شَجَرِ النَّارِجِيلِ - وَيُخَلَّلُونَهَا بِدُسْرِ مِنْ عِيدَانِ التُّخْلِ، ثُمَّ يَسْقُونَهَا بِسَمْنٍ أَوْ دُهْنِ
الْحَزْوَعِ أَوْ دُهْنِ الْقِرْشِ، وَهُوَ حَوْثٌ عَظِيمٌ فِي الْبَحْرِ يَتَّلَعُ الْغُرَقَى، وَقِلَاحٌ هَذِهِ الْجِلَابِ مِنْ
خُوصِ شَجَرِ الْمُقْلِ.

وَلِأَهْلِ عَيْذَابٍ فِي الْحُجَّاجِ أَحْكَامُ الطَّوَاغِيَتِ، فَإِنَّهُمْ يُبَالِغُونَ فِي شَحْنِ الْجَلْبَةِ بِالنَّاسِ حَتَّى
يَبْتَلِي بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ جِزْءًا عَلَى الْأَجْرَةِ، وَلَا يُبَالُونَ بِمَا يُصِيبُ النَّاسَ فِي الْبَحْرِ، بَلْ يَقُولُونَ
دَائِمًا: عَلَيْنَا بِالْأَلْوَاحِ، وَعَلَى الْحُجَّاجِ بِالْأَزْوَاحِ.

^١ المقرئزي: السلوك ٤: ٦٨١.

وَعَنِ الْجَلْبَةِ ج. جِلَابٌ وَجَلْبَاتٌ انظُرْ دَرُوشَ النَّخِيلِي:

السفن الإسلامية على حروف المعجم ٢٧-٢٩.

^٢ نقلًا عن ابن جبير: الرحلة ٤٥.

وأهل عيذاب من البجاة ، ولهم ملك منهم ، وبها وال من قتل سلطان مصر . وأذركت قاضيها عندنا بالقاهرة أسود اللون . والبجاة قوم لا دين لهم ولا عقل ، ورجالهم ونساؤهم أبداً غرارة ، وعلى عوراتهم خرق ، وكثير منهم لا يشترون عوراتهم^١ .
وعيذاب حرها شديد بشموم مخرق .

ذكر مدينة الأقصر

هذه المدينة من مدائن الصعيد العظيمة ، يُقال إن أهلها المريس ، ومنها الحمير المريسية^٢ .

ذكر البليتا

ذكر الكمال الأذفوي أنه وقع بين أهل البلاد ووالي قوص [مخاصمة]^(b) ، فتوجهوا إلى القاهرة وصرفوه ، ووُلِّي غيره ؛ وطلع الخطيب بالبليتا صُحبته ، وكان إقطاعه تَزَمَّتْ^(c) ، فلما وصل إليها أضافه أهلها بستين منسفاً من طعام اللبن ، فقال للخطيب : في بلادكم مثل هذا ؟ فقال الخطيب : وحلوى . فلما وصل إلى إخميم تقدّم الخطيب إلى البليتا ، فعندما وصل الوالي إليها أخرجوا له ستين منسفاً حلوى وستين منسفاً شواء^٥ .

(a) ساقطة من الأصل . (b) زيادة من الأذفوي . (c) بولاق : أرمنت وعند الأذفوي : ترمنت من عمل البهنسا .

«Luxor und Heliopolis: Ein Aufruf zum Denkmalschutz aus dem 13 Jahrhundert n. Chr.»، *MDAIK* 40 (1984), pp. 153-57

^٣ البليتا : بضم الباء الموحدة وسكون اللام ثم باء آخر الحروف ثم نون ثم ألف (الأذفوي : الطالع السعيد ١٨) ، وضبطها محمد رمزي البليتا بفتح الباء ، مدينة على شاطئ النيل من غريبه بمحافظة سوهاج . (القاموس الجغرافي ٤/٢ : ٩٦-٩٧) .

^٤ راجع ، ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٤٦ ؛ ابن الجيعان : التحفة السنية ١٦٥ .

^٥ الأذفوي : الطالع السعيد ٣٩-٤١ .

^١ نقلًا عن ابن جبير : الرحلة ٤٧-٤٨ .

^٢ الأقصر . مدينة تاريخية كانت عاصمة مصر في العصر الفرعوني ، وهي الآن إحدى مدن محافظة قنا وتشتمل على معبدي الكرنك والأقصر شرقي النيل ، ووادي الملوك والملكات غربي النيل وهي أكثر مدن العالم آثارًا . (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٢٣٧ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢ / ٤ : ١٦١-١٦٢) . والفريب أن المقرئ لم يشر إلى البرابي المنتشرة في مدينة الأقصر سواء في البر الشرقي أو البر الغربي ، وإن كان الشريف أبو جعفر الإدريسي قد ذكرها في كتابه وقال عنها : «إنها من أكبر البرابي ساحة وأوسعها وأعلىها جدرانًا وأرفعها» (أنوار علوي : الأجرام ٤٤٥ ، Haarman, U.)

قال: وبعضُ الحُكَّامِ بها في عيدٍ من الأعياد امتدَّحَ من أهلها خمسة وعشرون شاعرًا. وفيها من لا يَرُضَى بِمَدْحِ القَاضِي، وفيها من تَقْصُرُ رُتْبَتُهُ عن ذلك. قال: وكان فيها عِدَّةُ مَسَابِكٍ للشُّكْرِ، ويوصَفُ أهلُها بالمكارم^١.

ذُكِرَ سَهْمُود

- ٥ هذه المَدِينَةُ بالجانبِ الغَربي من النَّيْلِ، قال الأَدْفَوِيُّ: كان بِسَهْمُود سبعة عشر حَجَرًا لا غِيتِصار قَصَبِ الشُّكْرِ، ويُقالُ إِنَّ الفَأَرَ لا يَأْكُلُ (b) قَصَبِها^٢.

ذُكِرَ إِزْجَتُّوس

- ١٠ هذه المَدِينَةُ من جملة عمل البَهَنَسَا، بها كَنِيَسَةٌ بظَاهِرِها فيها يقرأ يُقالُ لها بِئر سِيرَس صَغِيرَةٌ لها عيد يُعْمَلُ في اليوم الخامس والعشرين من بَشَنَسٍ أحدِ شُهور القِبْطِ، فيُفُورُ بها الماءُ عند مُضِيِّ سِتِّ ساعاتٍ من النَّهارِ حتى يَطْفُؤُ ثم يَعودُ إلى ما كان عليه^٣. وَيَسْتَدِلُّ النَّصَارَى على زيادة النَّيْلِ في كُلِّ سنة بِقَدْرِ ما على الماء من الأَرْضِ، فيَزْعُمُونَ أَنَّ الأَمْرَ في النَّيْلِ وزيادته يكون موافقًا لذلك.

ذُكِرَ أَبَوَيْط

٢٠٤ هذه المَدِينَةُ أيضًا من جملة البَهَنَسَاوية، كان بها مَنَارَةٌ مُحَكَّمَةٌ البِنَاءِ، إذا هَزَّها الرَّجُلُ تَحَوَّكَتَ يَمِينًا وشمالًا، فيزِي / مِيلُها رُويَةٌ ظَاهِرَةٌ بانْتِقَالَ ظِلِّها عن مَوْضِعِها^٤.

(a) ساقطة من الأصل. (b) بولاق: يدخل.

^١ الأَدْفَوِيُّ: الطالِع السعيد ٣٩. قوانين ١٠٤؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٠: ٥٧؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٣/٢: (٢١٣).

^٢ نفسه ١٨ وفيه: سَهْمُود بسين مهملة مضمومة وميم ساكنة وهاء مضمومة ودال مهملة، وانظر كذلك علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٢: ٥١-٥٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٤/٢: ١٩٧.

^٣ تعرف اليوم بـ «الجزئوس» وهي تقع في مركز بني مزار بمحافظة المنيا (ياقوت: معجم البلدان ١: ١٤٤؛ ابن ممتي: ٣/٢: ١١٢٥؛ Maspero & Wiet, *Matériaux I*, 57).

^٤ وتضبط أحيانًا أبويط بكسر الواو، من القرى القديمة تقع اليوم في مركز الواسطي بمحافظة بني سويف (ياقوت: معجم البلدان ١: ٨٢؛ ابن ممتي: قوانين ١٠٧؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٣؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٣/٢: ١١٢٥؛ Maspero & Wiet, *Matériaux I*, 57).

ذکر مسلوی

هذه المدينة بالجانب الغربي من النيل، وأرضها معروفة بزراعة قصب السكر، وكان بها عدة أحجار لاغتصاره. وآخر من كان بها أولاد فضيل، بلغت زراعتهم في أيام الناصر محمد بن قلاوون ألفاً وخمسة مائة فدان من القصب في كل سنة. فأوقع النشو - ناظر الخاص^١ - الحوطة على موجودهم في سنة ثمان وثلاثين وسبع مائة، فوجد من جملة مالهم أربعة عشر ألف قنطار من القند^٢ حملها إلى دار القند بمصر، سوى العسل، وألزمهم بحمل ثمانية آلاف قنطار بعد ذلك؛ وأفرج عنهم، فوجدوا لهم حاصلًا لم يهتد له النشو فيه عشر آلاف قنطار قند، سوى ما لهم من عبيد وغلل وغير ذلك^٣.

ذکر مدينة أنصنا

اعلم أن مدينة أنصنا إحدى مدائن صعيد مصر القديمة، وفيها عدة عجائب، منها الملعب، ويقال إنه كان مقياس النيل، وإنه من بناء دلوكة أحد من ملوك مصر، وكان كالطيلسان، وفي دائره عمود على عدة أيام السنة الشمسية، كلها من الصوان الأحمر الماتع، ومسافة ما بين كل عمودين مقدار خطوة إنسان. وكان ماء النيل يدخل إلى هذا الملعب من فوهة عند زيادة الماء؛ فإذا بلغ ماء النيل الحد الذي كان إذ ذاك يحصل منه ري أرض مصر وكفايتها، جلس الملك عند ذلك في مشرف له، وصعد القوم من خواصه إلى رؤوس الأعمدة المذكورة، فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت، ويتساقطون من الأعمدة إلى الملعب وهو ممتلئ بالماء^٤.

(a) ساقطة من الأصل.

^١ هو شرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله ناظر الخاص الشريف المتوفى سنة ٧٤٠هـ (ابن حجر: الدرر الكامنة ٣: ٤٢ - ٤٤؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي ٧: ٣٩٠ - ٣٩٣).

^٢ القند هو عسل قصب السكر.

^٣ كانت إحدى قرى ولاية الأشمونين ونظرًا لوقوع

^٤ النويري. نهاية الأرب ١: ٣٩٣ وانظر كذلك =

الأشمونين بعيدًا عن النيل نقل ديوان الولاية منها إلى ملوي سنة ١١٣٣هـ/١٧٢١م. وفي سنة ١٨٣١ ألغي اسم الأشمونين وسميت مأمورية أسيوط، وأصبحت ملوي إحدى قرى محافظة أسيوط (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/

٤: ٤٦٨ Maspero & Wiet, Matériaux I, 197).

قال أبو عبيد البكري: أَنْصِينَا - بفتح أوله وإشكان ثانيه بعده صاد مهملة مكسورة ونون وألف - كُورَة من كُور مصر معروفة ، منها كانت مارية^a سرية النبي ﷺ أم ابنه إبراهيم من قرية يُقال لها حَفْن من قُرَى هذه الكُورَة^١.

ويقال إنَّ سَحْرَة فِرْعَوْن كانوا منها ، وإنَّه جَلَبَهُمْ منها يومَ المُوْعَد للقاء موسى عليه السلام .
ويقال إنَّ التَّمْساح لا يَضُرُّه بساحِل أَنْصِينَا لطلايِمَ وُضِعَتْ بها ، وإنَّه إذا حاذَى بَرِّها انقلَبَ على ظهره حتى يُجاوِزَها^٢.

ويقال إنَّ الذي بَنَى مَدِينَةَ أَنْصِينَا أَشْمُون بن مِصْرَيم بن بَيْصَر بن حَام بن نُوح .
وهي واقِعَة في شَرْقي النَّيل ، وكانت حَسَنَة البساتين والمنتزَحات ، كثيرة الثمار والفواكه ، وهي الآن خراب^٣.

وقال أبو حنيفة الدينوري: ولا يَثْبُت البِنْجُ إلا بِأَنْصِينَا ، وهو عُود ينشر منه ألواح للشُّقْن ، ورُبَّما أَرَعَفَتْ ناسِرها . ويُباع اللُّوْحُ منها بخمسين دينارًا ونحوها . وإذا شُدُّ لَوْحٌ منها بلَوْحٍ وطُرِحَ في الماء سِتَّةَ أَيامٍ ، صارَ لَوْحًا واجِدًا^٤.

وكان لِأَنْصِينَا سُورٌ عَتِيقٌ هَدَمَهُ السُّلْطَانُ صَلاَحُ الدِّينِ يُوسُفُ بن أَيُّوبَ ، وجَعَلَ على كُلِّ مَرْكَبٍ مُنْحَدِرٍ في النَّيلِ جِزْيًا من حَمَلِ صَخْرِهِ إلى القَاهِرَة ، فنُقِلَ بأُسرِهِ إليها .

ذِكْرُ الْقَيْسِ

اعْلَمَ أَنَّ الْقَيْسَ من البلاد التي تُجاوِرُ مَدِينَةَ البَهْئَسَا ؛ وكان يُقالُ الْقَيْسُ والبَهْئَسَا^٥.

(a) ساقطة من بولاق . (b) ساقطة من الأصل .

= البكري: جغرافية مصر ٨١-٨٢؛ مجهول المؤلف: النيل بمركز ملوي بمحافظة المنيا (محمد رمزي: القاموس الاستبصار ٨٥؛ ياقوت: معجم البلدان ١: ٢٦٥-٢٦٦ .
الجغرافي ١: ١٣٢، ٤/٢: ٦٣).

^١ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ١٩٩ .
^٢ لا يوجد هذا النَّصُّ فيما وصل إلينا من كتاب النبات

^٣ أبو عبيد البكري: جغرافية مصر من الممالك
لأبي حنيفة الدينوري .

والمسالك ٨٢ .
^٤ من المدن القديمة كانت تقع غرب النيل فتحها قيس بن

^٥ الحارث المرادي ولكنها لم تسم به لأنها كانت معروفة بهذا
الاسم قبل فتح العرب لها وتصادف فقط تشابه اسمه مع =
^٣ مكانها اليوم الأطلال الواقعة في حوض مدينة النصلة
(المحرقة عن أنصينا) بأراضي ناحية الشيخ عبادة الواقعة شرقي

قال ابن عبد الحكم: بَعَثَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ قَيْسَ بْنَ الْحَارِثِ إِلَى الصُّعَيْدِ، فَسَارَ حَتَّى أَتَى الْقَيْسَ فَتَزَلَّ بِهَا فَسُمِّيَتْ بِهِ^١.

وقال ابن يونس^٢: قَيْسُ بْنُ الْحَارِثِ الْمُرَادِيُّ ثُمَّ الْكُفَيْيُّ، شَهِدَ فَتَحَ مِصْرَ يَزُوي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَكَانَ يُفْتِي النَّاسَ فِي زَمَانِهِ. رَوَى عَنْهُ سُؤَيْدُ بْنُ قَيْسٍ - وَقِيلَ شَدِيدُ بْنُ قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ - وَرَوَى عَنْهُ عَشْكَرُ بْنُ سَوَادَةَ. وَهُوَ الَّذِي فَتَحَ الْقَرْيَةَ بِصُعَيْدِ مِصْرَ الْمَعْرُوفَةَ بِالْقَيْسِ فَسُمِّيَتْ إِلَيْهِ.

وقال ابن الكندي: وَلَهُمْ ثِيَابُ الصُّوفِ، وَالْأَكْسِيَّةُ الْمَرْعَزُ، وَنَيْسٌ هِيَ بِالْدُنْيَا إِلَّا بِمِصْرَ. وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا كَبُرَ كَانَ لَا يَدْفَأُ، فَأَجْمَعُوا أَنَّهُ لَا يَدْفِيهِ إِلَّا أَكْسِيَّةٌ تُعْمَلُ بِمِصْرَ مِنْ صُوفِهَا الْمَرْعَزُ الْعَسَلِيُّ الْغَيْرُ الْمَضْبُوعِ. فَعَمِلَ لَهُ مِنْهَا عَدَدٌ، فَمَا اخْتِجَ مِنْهَا إِلَّا إِلَى وَاحِدٍ. وَلَهُمْ طِرَازُ الْقَيْسِ وَالبَهْنَسَا فِي الشُّتُورِ وَالْمَضَارِبِ، يُعْرَفُونَ بِهِ، وَمِنْهُ طِرَازُ أَهْلِ الدُّنْيَا^(a)^٣.

وظَهَرَ بِهَا بِالْقُرْبِ مِنَ الْبَهْنَسَا سَرَبٌ فِي أَيَّامِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ أَيُّوبَ، فَأَمَرَ مُتَوَلِّي الْبَهْنَسَاوِيَةَ بِكَشْفِهِ، فَجَمَعَ لَهُ أَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِالْعَوْمِ وَالغَطْسِ، فَكَانُوا مَا يَنْبَغُ عَلَى مَائِي رَجُلٍ مَا فِيهِمْ إِلَّا مِنْ نَزْلِ الشَّرْبِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ قَرَارًا وَلَا جَوَائِبَ.

فَأَمَرَ بِعَمَلِ مَرْكَبِ طَوِيلِ رَفِيقٍ بِحَيْثُ يُمْكِنُ إِدْخَالَهُ مِنْ رَأْسِ الشَّرْبِ وَشَعْنَهُ بِالْأَزْوَادِ وَالرِّجَالِ، وَرَكَّبَ فِيهِ جِبَالًا مَرْبُوطَةً فِي خَوَازِيقٍ عِنْدَ رَأْسِ الشَّرْبِ، وَحَمَلَ مَعَ الرِّجَالِ آلَاتَ يُعْرَفُونَ بِهَا أَوْقَاتَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَعِدَّةُ شَمُوعٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا تُسْتَخْرَجُ بِهِ النَّارُ وَتُشْعَلُ بِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْلُكُوا بِالْمَرْكَبِ فِي الشَّرْبِ حَتَّى يَنْقُذَ نِصْفَ مَا مَعَهُمْ مِنْ الزَّادِ. فَسَارُوا بِالْمَرْكَبِ فِي ظُلْمَةِ وَهُمْ يُلْقُونَ الْحِيَالَ وَلَا يَجِدُونَ لَهَا مِمَّا سَائِرُونَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ جَوَائِبَ. فَمَا زَالُوا حَتَّى قَلَّتْ أَزْوَادُهُمْ،

(a) في فضائل مصر: ما يفوقون به طراز أهل الدنيا.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٦٩ وفيما يلي ٦٧٥.

^٢ انظر عنه فيما تقدم ٦١.

^٣ ابن الكندي: فضائل مصر ٤٨-٤٩؛ وانظر عن

الصوف المرعز Serjeant, R.B., *Islamic Textiles*, pp.

161, 252-53.

= اسمها القديم، وكانت تعد من جملة الأعمال البهنساوية،

وتقلد القيس والبهنسا في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي

المؤرخ المصري الأمير المختار عز الملك المستبحي، وهي الآن تابعة

لمركز بني مزار بمحافظة المنيا (باقوت): معجم البلدان

٤: ٤٢٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ٢١٥.

فَأَبْطَلُوا حَرَكَةَ الْمَرْكَبِ بِالْمَجَازِيفِ إِلَى دَاخِلِ الشَّرْبِ وَجَرُّوا الْحِيَالَ لِيَرْجِعُوا إِلَى حَيْثُ دَخَلُوا ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى رَأْسِ الشَّرْبِ .

فَكَانَتْ مُدَّةُ غَيْبَتِهِمْ فِي الشَّرْبِ سِتَّةَ أَيَّامٍ : أَرْبَعَةٌ مِنْهَا دُخُولًا إِلَى جَوْفَةِ وَتَطَوُّافٍ جَوَانِبِهِ ، وَيَوْمَانِ رُجُوعًا إِلَى رَأْسِ الشَّرْبِ . وَلَمْ يَقْفُوا فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ عَلَى نَهَايَةِ الشَّرْبِ .

- ٥ فَكَتَبَ بِذَلِكَ الْأَمِيرُ عَلَاءَ الدِّينِ الطُّنْبُجَانِيَّ وَالِيَّ الْبَهْنَسَا إِلَى الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، فَتَعَجَّبَ عَجَبًا كَثِيرًا ، وَاسْتَعْلَلَ عَنْ ذَلِكَ بِمُحَازَبَةِ الْفِرْيُجِ عَلَى دِمْيَاطَ . فَلَمَّا رَحَلُوا عَنْ دِمْيَاطَ وَعَادُوا إِلَى الْقَاهِرَةِ ، خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى شَاهَدَ الشَّرْبَ الْمَذْكُورَ .

ذِكْرُ دَرُوطِ بَلْهَاسَةَ

اعْلَمْ أَنَّ دَرُوطَ - وَهِيَ بَفَتْحِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَضَمِّ الرَّاءِ وَشُكُونِ الْوَاوِ وَطَاءِ - اسْمٌ لثَلَاثِ قُرَى : دَرُوطَ أَشْمُونٍ مِنَ الْأَشْمُونِيِّينَ ، وَدَرُوطَ سَرِيَانَ مِنَ الْأَشْمُونِيِّينَ أَيْضًا ، وَدَرُوطَ بَلْهَاسَةَ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَهْنَسَا بِالضُّعَيْدِ ^١ .

١٠ وَبِهَا جَامِعٌ أَنْشَأَهُ زِيَادُ بْنُ الْمُغِيرَةَ بْنِ زِيَادِ بْنِ عَمْرِو الْعَتَكِيِّ ^٢ ، وَمَاتَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَمِائَةً فَدُفِنَ بِهِ ، وَقَالَ فِيهِ الشُّاعِرُ :

[الخفيف]

عَلَفَ الْجُودَ حَلْفَةً بَرًّا فِيهَا مَا بَرًّا اللَّهُ وَاجِدًا كَزِيَادِ

١٥ كَانَ غَيْثًا لِمَصْرَ إِذْ كَانَ حَيًّا وَأَمَانًا مِنَ السَّنِينِ الشُّدَادِ

وَمَاتَ أَخُوهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُغِيرَةَ سِتَّةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةً ، فَقَالَ الشُّاعِرُ فِيهِ :

[البيط]

ابْنُ الْمُغِيرَةَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ ذَهَبٍ يَزْدَادُ حُسْنًا عَلَى طُولِ الذَّهَارِيرِ

لَوْ كَانَ يَمْلِكُ مَا فِي الْأَرْضِ عَجَلَهُ إِلَى الْعُقَاةِ وَلَمْ يَهْتُمَّ بِتَأْخِيرِ

٢٠ وَمَاتَ أَحْمَدُ بْنُ زِيَادِ بْنِ الْمُغِيرَةَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ سِتِّ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَقَالَ الشُّاعِرُ

فِيهِ :

[الخفيف]

أَحْمَدُ مَاتَ مَا جِدًّا مَفْقُودًا وَلَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ مَخْمُودًا

وَرِثَ الْمَجْدَ عَنْ أَبِي ثُمَّ عَمِّ مِثْلَهُ لَيْسَ بَعْدَهُ مَوْجُودًا

^١ هي المعروفة الآن بقرية الشيخ زياد بمركز متغاغة بمحافظة المنيا (محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٣: ٢٤٥) .

^٢ مازال هذا الجامع قائما ويعرف بجامع الأمير زياد بقرية الشيخ زياد بمحافظة المنيا (سعاد ماهر : مساجد مصر ١: ٣١٠-٣١٣) .

ذِكْرُ أَشْكَرٍ

هي من الإطفيحية، تجاهها وادٍ به إلى وقتنا هذا شكلُ جَمَلٍ من الحجرِ كأكبر ما يُرى من الجمال وأحسنها هيئة. وهو قائمٌ على أربعة وقد استقبل بوجهه المشرق، وعلى فخذه الأيمن كتابةً بقلمهم، وهي أحرفٌ مقطّعة في ثلاثة أسطر.

ثم على نحو مائة وخمسين خطوةً منه جَمَلٌ آخرٌ مثله سواء، ووجهه إلى وجه الجَمَلِ الأول، وليس عليه كتابة.

وفيما بين الجَمَلَيْنِ المذكورَيْنِ هيئةٌ أُعدال قد ملئت قماشًا عدتها أربعون زكبةً موضوعةً بالأرض، عشرين تجاه عشرين، وجميعها من حجارة، ولا يشكُّ من رآها أنها أحمال قماش.

وبعد مائة وخمسين خطوةً منها جَمَلٌ ثالثٌ على هيئة الجَمَلَيْنِ المذكورَيْنِ، وهو أيضًا قائمٌ، وظهره إلى ظهر الجَمَلِ الثاني، ووجهه إلى الجبل، وهناك آخر الوادي، وليس على هذا الجَمَلِ أيضًا كتابة. أخبرني بذلك من لا أتهم روايته.

ذِكْرُ مَنِيَّةِ الْخَصِيبِ

هذه المدينة تُنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد، صاحب خراج مصر من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد^٢.

(a) ساقطة من الأصل.

^١ من القرى القديمة تقع شرقي النيل، وضبطها ياقوت أشكر، وهي تقع اليوم بمركز الصف بمحافظة الجيزة (ياقوت، معجم البلدان ١: ١٨٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢٥: ٣/٢).

^٢ ورد ذكرها عند الإدريسي باسم منية ابن الخصيب، وعند ياقوت: منية أبي الخصيب، وترد أحيانًا باسم منية بني

خصيب، وهي تقع على الضفة الغربية للنيل. وتحول اسمها إلى المنيا ابتداءً من سنة ١٢٣٦ هـ. وهي قاعدة محافظة المنيا التي تنسب إليها المحافظة وتكونت لأول مرة في جغرافية مصر سنة ١٨٣٣ (الإدريسي: نزهة المشتاق ١٢٤؛ ياقوت: معجم البلدان ٥: ٢١٨؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٣/٢: ١٩٦-١٩٨).

ذِكْرُ مُنْيَةِ الْبَاسَاكِ^(a)

هي بَلْدَةٌ مِنْ جُمْلَةِ الْإِطْفِيحِيَّةِ^١ عُرِفَتْ بِالْبَاسَاكِ^(a) أَخِي الْوَزِيرِ بَهْرَامِ الْأَزْمِنِيِّ فِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ الْحَافِظِ لَدَيْنَ اللَّهِ أَبِي الْمُيْمُونِ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَوَلِيٍّ مِنْ قِبَلِ أَخِيهِ مَدِينَةَ قُوصٍ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ - وَوَلَايَةَ قُوصٍ يَوْمَئِذٍ أَجَلٌ وَوَلَايَاتٍ مِصْرَ^٢ - فَجَارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَاشْتَدَّ عَشْفُهُ وَأَذَاهُ لَهُمْ. فَعِنْدَمَا وَصَلَ الْخَبِيرُ بِقِيَامِ رِضْوَانَ بْنِ وَخْشِيِّ عَلَى بَهْرَامٍ وَهَزِيمَتِهِ مِنْهُ وَتَقَلُّدِهِ الْوِزَارَةَ بَعْدَهُ، نَارَ أَهْلَ قُوصٍ بِالْبَاسَاكِ^(a) فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ وَقَتَلُوهُ، وَرَبَطُوا كَلْبًا مَيْتًا فِي رِجْلِهِ، وَسَحَبُوهُ حَتَّى أَلْقَوْهُ عَلَى مَرْبَلَةٍ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا^٣.

ذِكْرُ الْجِيْزَةِ

قَالَ ابْنُ سَيِّدَةَ: الْجِيْزَةُ النَّاحِيَّةُ وَالْجَانِبُ، وَجَمْعُهَا جِيْرٌ وَجِيْرٌ. وَالْجِيْرُ جَانِبُ الْوَادِي، وَقَدْ يُقَالُ فِيهِ الْجِيْزَةُ^٤.

وَاعْلَمَ أَنَّ الْجِيْزَةَ اسْمٌ لِقَرْيَةٍ كَبِيرَةٍ جَمِيلَةٍ الْبُنْيَانِ عَلَى النَّيْلِ مِنْ جَانِبِهِ الْعَرَبِيِّ تَجَاهَ مَدِينَةِ قُوصٍ مِصْرَ، لَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَحَدِ سَوَاقٍ عَظِيمٍ يَجِيءُ إِلَيْهِ مِنَ النَّوَاحِي أَصْنَافٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَيَجْتَمِعُ فِيهِ عَالَمٌ عَظِيمٌ؛ وَبِهَا عِدَّةٌ مَسَاجِدَ جَامِعَةٍ.

وَقَدْ رَوَى / الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ ثَابِتِ الْخَطِيبِ، مِنْ حَدِيثِ نُبَيْطِ بْنِ شُرَيْطٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجِيْزَةُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِصْرُ خَزَائِنِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ».

(a) الأصل وبولاق: الناسك.

Centre musulman de la Haute - Égypte médiéval: Qûs, pp. 83-85؛ وفيما يلي (٢٣٦:١).

^١ انظر تفصيل ذلك عند ابن الطوير: نزهة المقلتين ٤٥ - ٤٤٧؛ ابن ميسر: أخبار مصر ١٢٤ - ١٢٥؛ النويري: نهاية الأرب ٢٨: ٣٠١ - ٣٠٢؛ المقرئ: اتعاظ الخنفا ٣: ١٦١؛ المقفى ٢: ٥١٤ - ٥١٦. وإلى هنا ينتهي الجزء الثالث من نشرة جاستون فييت.

^٤ ابن سيده: المحكم ٧: ٣٦٣.

^١ إحدى قرى مركز الصف بمحافظة الجيزة مجاورة لناحيتي الشرفا والعطيات وتعرف بالمتيا (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٣١: ٣/٢).

^٢ كانت ولاية قوص في العصر الفاطمي أعظم ولايات الديار المصرية ويحكم واليها على جميع بلاد الصعيد وكانت تعد أكبر الأعمال بعد الوزارة (أمين فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر ٣٣٠ - ٣٣٢؛ Garcin, J.-Cl., *Un*

ويقال إن مسجد التوبة الذي بالجيزة كان فيه تابوت موسى - عليه السلام - الذي قذفته أمه فيه بالنيل ؛ وبها النخلة التي أَرْضَعَتْ مَرْيَمُ تحتها عيسى ، فلم يُثمر غيرها .

وقال ابن عبد الحكم ، عن يزيد بن أبي حبيب : فاستحبت همدان ومن والها الجيزة ، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - يُعلمه بما صنع الله للمسلمين ، وما فتح عليهم ، وما فعلوا في خطيهم ، وما استحبت همدان من النزول بالجيزة . فكتب إليه عمر يحمده الله على ما كان من ذلك ، ويقول له : كيف رضيت أن تُفَرِّقَ أصحابك ؟ لم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر ، ولا تدرى ما يفجأهم ، فلعلك لا تقدر على غيابهم حين ينزل بهم ما تكره ؛ فاجمعهم إليك ، فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك ، فابن عليهم من فيء المسلمين حصنا .

فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا ، وأعجبهم موضعهم بالجيزة - ومن والاهم على ذلك من رهطهم نافع وغيرها - وأحبوا ما هنالك . فبني لهم عمرو بن العاص الحصن في الجيزة في سنة إحدى وعشرين ، وفرغ من بنائه في سنة اثنتين وعشرين .

ويقال إن عمرو بن العاص لما سأل أهل الجيزة أن ينضموا إلى الفسطاط ، قالوا : مقدم قدمناه في سبيل الله ، ما كنا لنرحل منه إلى غيره . فنزلت نافع الجيزة فيها مبرح بن شهاب ، وهمدان وذو أصبح فيهم أبو شمر بن أبرهة ، وطائفة من الحجر^١ .

وقال القضاعي : ولما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية ، ونزل الفسطاط ، جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك الناحية ، فجعل فيها آل ذي أصبح من حمير وهم كثير ونافع بن زيد من رعين ، وجعل فيها همدان ، وجعل فيها طائفة من الأزديين بني الحجر ابن الهبو بن الأزد ، وطائفة من الحبشة ، وديوانهم في الأزد .

فلما استقر عمرو في الفسطاط ، أمر الدين خلفهم بالجيزة أن ينضموا إليه ، فكرهوا ذلك وقالوا : هذا مقدم قدمناه في سبيل الله وأقمنا به ، ما كنا بالذين نرغب عنه ونحن به منذ أشهر . فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - بذلك ، يُخبره أن همدان وآل ذي أصبح ونافعا ومن كان معهم أحبوا المقام بالجيزة . فكتب إليه : كيف رضيت أن تُفَرِّقَ عنك أصحابك وتجعل بينك وبينهم بحرا ، لا تدرى ما يفجأهم ، فلعلك لا تقدر على

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٢٨ - ١٢٩ .

غِيَاثِهِمْ ، فَاجْتَمَعَهُمْ إِلَيْكَ وَلَا تُفَرِّقَهُمْ ، فَإِنَّ أَبْوَابَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ مَكَانَهُمْ فَأَبْنَى عَلَيْهِمْ حِصْنَآ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ .

فَجَمَعَهُمْ عَمْرُو وَأَخْبَرَهُمْ بِكِتَابِ عُمَرَ ، فَامْتَنَعُوا مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْجِيْزَةِ . فَأَمَرَ عَمْرُو بِنِيبَاءِ الْحِصْنِ عَلَيْهِمْ ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَقَالُوا : لَا حِصْنَآ أَحْصَنَ لَنَا مِنْ سُيُوفِنَا . وَكَرِهَتْ ذَلِكَ هَمْدَانُ وَنَافِعٌ ، فَأَقْرَعَ عَمْرُو بَيْنَهُمْ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى نَافِعٍ ، فَبَنَى فِيهِمُ الْحِصْنَآ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ ، وَفَرَعَ مِنْ بِنَائِهِ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ .

وَأَمَرَهُمْ عَمْرُو بِالْحِطِّطِ بِهَا : فَاخْتَطَّ ذُو أَصْبَحَ مِنْ جَمِيرٍ مِنَ الشَّرْقِ ، وَمَضُوا إِلَى الْغَرْبِ حَتَّى بَلَغُوا أَرْضَ الْحَزْتِ وَالزُّرْعِ ، وَكَرِهُوا أَنْ يُبْنَى الْحِصْنَآ فِيهِمْ . وَاخْتَطَّ نَافِعُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ رُغَيْنَ بَوَسَطِ الْجِيْزَةِ ، وَبُنِيَ الْحِصْنَآ فِي حِطِّطِهِمْ ، وَخَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ عَنِ الْحِصْنِ أَنْفَةً مِنْهُ . وَاخْتَطَّتْ بَكِيلُ بْنُ جُشَمِ بْنِ نَوْفٍ - مِنْ هَمْدَانَ - فِي مَهَبِّ الْجَنُوبِ مِنَ الْجِيْزَةِ فِي شَرْقِيَّهَا . وَاخْتَطَّتْ حَاشِدُ بْنُ جُشَمِ بْنِ نَوْفٍ فِي مَهَبِّ الشَّمَالِ مِنَ الْجِيْزَةِ فِي غَرْبِيَّهَا . وَاخْتَطَّتْ الْحَيَاوِيَةُ بَنُو عَامِرِ بْنِ بَكِيلِ فِي قِبْلِي الْجِيْزَةِ . وَاخْتَطَّتْ بَنُو حَجْرِ بْنِ أَرْحَبِ بْنِ بَكِيلِ فِي قِبْلِي الْجِيْزَةِ . وَاخْتَطَّتْ بَنُو كَعْبِ ابْنِ مَالِكِ بْنِ الْحَجْرِ بْنِ الْهَبْبِيِّ بْنِ الْأَزْدِ فِيمَا بَيْنَ بَكِيلِ وَنَافِعٍ . وَالْحَبَشَةُ اخْتَطَّطُوا عَلَى الشَّرَاحِ الْأَعْظَمِ ١ .

وَالْمَسْجِدُ الْجَامِعُ بِالْجِيْزَةِ بِنَاءُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخَازِنِ ، فِي الْمَحْرَمِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ ، بِأَمْرِ الْأَمِيرِ عَلِيِّ بْنِ الْإِخْشِيدِ ، فَتَقَدَّمَ كَافُورٌ إِلَى الْخَازِنِ بِنَائِهِ وَعَمِلَ لَهُ مُسْتَعْلًا . وَكَانَ النَّاسُ قَبْلَ ذَلِكَ بِالْجِيْزَةِ يُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ فِي مَسْجِدِ هَمْدَانَ ، وَهُوَ مَسْجِدُ مُرَاجِقِ بْنِ عَامِرِ بْنِ بَكِيلِ ، كَانَ يُجْمَعُ فِيهِ الْجُمُعَةَ فِي الْجِيْزَةِ ؛ وَشَارَفَ بِنَاءَ هَذَا الْجَامِعِ ، مَعَ الْخَازِنِ ، أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَبِي جَعْفَرِ الطُّحَاوِيِّ .

وَاجْتَاوُوا إِلَى عُمْدٍ لِلْجَامِعِ ، فَمَضَى الْخَازِنُ فِي اللَّيْلِ إِلَى كَنِيسَةِ بِأَعْمَالِ الْجِيْزَةِ فَقَلَعَ عُمْدَهَا وَنَصَبَ بَدَلَهَا أَزْكَانًا ، وَحَمَلَ الْعُمْدَ إِلَى الْجَامِعِ ؛ فَتَرَكَ أَبُو الْحَسَنِ ابْنَ الطُّحَاوِيِّ الصَّلَاةَ فِيهِ مُذْ ذَاكَ تَوْرَعًا .

قَالَ الْيَمَنِيُّ ٢ : وَقَدْ كَانَ ابْنُ الطُّحَاوِيِّ يُصَلِّي فِي جَامِعِ الْفُسْطَاطِ الْعَتِيقِ وَبَعْضُ عُمْدِهِ ، أَوْ

١ نقل ابن دقماق نص القضاء في الانتصار ٤: ١٢٥-١٢٦ . القضاء فقد نقل عنه في موضع آخر انظر فيما يلي

٢ لم أستطع تحديد اسم هذا المؤرخ وهو من مصادر ٢: ١٦١ ، وكذلك ابن دقماق : الانتصار ٤: ١١٠ من ٦ .

أكثرها ، ورُخامه من كنائس الإسكندرية وأرياف مصر ، وبعضه بناه قرّة بن شريك عامل الوليد ابن عبد الملك ^١ .

ويقال إن بالجيزة قبر كعب الأخبار ، وإنه كان بها أحجار ورُخام قد صوّرت فيها التماسيح ، فكانت لا تظهر فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علواً وسفلاً .

وفي سنة أربع وعشرين وسبع مائة ، منع الملك الناصر محمد بن قلاوون الوزير أن يتعرض إلى شيء مما يتحصّل من مال الجيزة ، فصار جميعه يُحمّل إليه .

١ ذكر سجن يوسف عليه السلام

قال القاضي : سجن يوسف - عليه السلام - ببوصير من عمل الجيزة ^٢ ، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحّة هذا المكان . وفيه أثر نبين : أحدهما يوسف ، سجن به المدة التي ذكر أن مبلّغها سبع سنين ، وكان الوحي ينزل عليه فيه .

وسطح السجن موضع معروف بإجابة الدعاء ، يُذكر أن كافور الإخشيدي سأل أبا بكر بن الحداد عن موضع معروف بإجابة الدعاء ليذغو فيه ، فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن ^٣ .

والنبي الآخر موسى - عليه السلام - وقد بُني على أثره مسجد هناك يُعرف بمسجد موسى . أخبرنا أبو الحسن علي بن إبراهيم الشرفي بالشرف ^٤ قال : حدّثنا أبو محمد عبد الله بن الوزد - وكان قد هلكت أخته وورث منها مورثاً ، وكُنّا نسمع عليه دائماً ، وكان لسجن يوسف وقت يمضي الناس إليه يتفرجون - فقال لنا يوماً : يا أصحابنا ، هذا أو أن السجن ، وتريد أن نذهب إليه ؛ وأخرج عشرة دنانير فناولها لأصحابه وقال لهم : ما اشتهيتموه فاشتروه ؛ فمضى أصحاب الحديث واشتروا ما أرادوا ؛ وعَدّينا يوم أحد الجيزة كُنّا ، وبثنا في مسجد همدان ، فلمّا كان الصّباح مشينا حتى جئنا إلى مسجد موسى ، وهو الذي في السهل ، ومنه يُطلّع إلى

^١ ابن دقماق : الانتصار ٤ : ١٢٧ .
^٢ (عجل أيس) بصحراء سقارة قرب الهرم المدرج (Stricker, B.M., «La Prison de Joseph», *Acta Orientalis* (XIX (1942), pp. 101-137 .

^٣ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٢٨٠ .
^٤ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٣٧ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ١ : ٢٣٨ . ودّرّس الأستاذ ستريكر جميع النصوص العربية التي ذكرت سجن يوسف لتحديد هذا الموضع ، وتوصل إلى أن المقصود به هو معبد السرايوم

^٤ بعد ذلك في الانتصار لابن دقماق : في جمادى الآخر سنة أربع وأربع مائة .

السُّجْنِ ، وَبَيْنَ السُّجْنِ تَلٌّ عَظِيمٌ مِنَ الرَّمْلِ ، فَقَالَ الشَّيْخُ : مَنْ يَحْمِلُنِي وَيَطَّلِعُ بِي إِلَى هَذَا السُّجْنِ حَتَّى أُحَدِّثَهُ بِحَدِيثٍ لَا أُحَدِّثُهُ لِأَخِي بَعْدَهُ حَتَّى تُفَارِقَ رُوحِي الدُّنْيَا ؟ قَالَ الشَّرَفِيُّ : فَأَخَذْتُ الشَّيْخَ وَحَمَلْتُهُ حَتَّى صِرْتُ فِي أَغْلَاهُ ، فَتَزَلَّ وَقَالَ : مَعَكَ وَرَقَةٌ ؟ قُلْتُ : لَا . قَالَ : أَبْصِرْ لِي بِلَاطَةَ . فَأَخَذَ فَحَمَةً وَكَتَبَ : حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ ، عَنْ يَحْيَى بْنِ بُكَيْرٍ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، ابْنِ يَسَّارٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَى إِلَى يُوسُفَ فِي هَذَا السُّجْنِ ، فِي هَذَا الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ ، فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ : مَنْ أَنْتَ الَّذِي مُدَّ دَخَلْتُ السُّجْنَ مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ وَجْهًا مِنْكَ ؟ فَقَالَ لَهُ : أَنَا جِبْرِيلُ . فَكَلَّمَ يُوسُفَ فَقَالَ : مَا يُنْكِيكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : إِيَّاهُ يَعْمَلُ جِبْرِيلُ فِي مَقَامِ الْمُدْنِيِّينَ ؟ فَقَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُطَهِّرُ الْبِقَاعَ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَاللَّهُ لَقَدْ طَهَّرَ اللَّهُ بِكَ السُّجْنَ وَمَا حَوْلَهُ ؛ فَمَا أَقَامَ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ حَتَّى أُخْرِجَ مِنَ السُّجْنِ ^١ !

١٠ قال القُضَاعِيُّ : سَقَطَ بَيْنَ يَحْيَى وَزَيْدِ رَجُلٍ .

وقال الفقيه أبو محمد أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ، وذَكَرَ سِجْنَ يُوسُفَ : لَوْ سَافَرَ الرَّجُلُ مِنَ الْعِرَاقِ لِيُصَلِّيَ فِيهِ وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ ، لَمَا عَنَّفَتْهُ فِي سَفَرِهِ .

وقال الفقيه أبو إسحاق المزوزي : لَوْ سَافَرَ الرَّجُلُ مِنَ الْعِرَاقِ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِ مَا عَنَّفَتْهُ .

وَذَكَرَ الْمَسْبُحِيُّ فِي حَوَادِثِ شَهْرِ رَجَبِ الْآخِرَةِ ^(a) سَنَةَ خَمْسِ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ : أَنَّ الْعَامَّةَ

١٥ وَالسُّوقَةَ طَافَتْ الْأَسْوَاقَ بِمِصْرَ بِالطُّبُولِ وَالثُّبُوقَاتِ ، يَجْمَعُونَ مِنَ التُّجَّارِ وَأَزْبَابِ الْأَسْوَاقِ مَا يُنْفِقُونَهُ فِي مُضِيِّهِمْ إِلَى سِجْنِ يُوسُفَ ، فَقَالَ لَهُمُ التُّجَّارُ : شُغَلْنَا بِعَدَمِ الْأَقْوَاتِ يَمْتَنَعُنَا مِنْ هَذَا .

وَكَانَ قَدْ اشْتَدَّ الْغَلَاءُ . وَأَنْهَوْا حَالَهُمْ إِلَى الْحَضْرَةِ الْمُطَهَّرَةِ - يَعْنِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الظَّاهِرَ لِإِعْرَازِ دِينِ

اللَّهِ أبا الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ - فَرَسَمَ لِسَامِي ^(b) الدَّوْلَةَ أَبِي طَاهِرِ بْنِ كَافِي - مُتَوَلِّيَ

الشَّرْطَةَ السُّفْلَى - التَّرْسِيمَ عَلَى التُّجَّارِ حَتَّى يَذْفَعُوا إِلَيْهِمْ مَا بَجَرَتْ بِهِ رُسُومُهُمْ ، وَرَسَمَ لَهُمْ

٢٠ بِالخُرُوجِ إِلَى سِجْنِ يُوسُفَ ، وَوَعَدُوا أَنْ يُطَلَّقَ لَهُمْ مِنَ الْحَضْرَةِ ضِعْفَ مَا أُطْلِقَ لَهُمْ فِي السَّنَةِ

الْمَاضِيَةِ مِنَ الْهَبَةِ ، فَخَرَجُوا ^٢ .

(a) بولاق : الأول والتصويب من المسبحي . (b) بولاق : لنائب والتصويب من المسبحي .

^١ ابن دقماق : الانتصار ٤ : ١٢٨ - ١٢٩ . الحنفا ٢ : ١٤٤ - ١٤٥ .

^٢ المسبحي : أخبار مصر ٣٩ - ٤٠ : المقرئ : اتعاض

وفي يوم السبت لتسع نخلون من جمادى الأولى ركب القائد الأجل عز الدولة وسناها مفضاض الخاديم الأسود^١ في سائر الأثرانك ووجوه القواد، وشق البلد ونزل إلى الصنائة التي بالجسر بمن معه. ثم خرج من هناك وعدى في سائر عساكره إلى الجيزة، حتى رتب لأمر المؤمنين عساكر تكون معه مقيمة هناك لحفظه؛ لأنه عدى يوم الاثنين لإحدى عشرة نخلت منه في أربع عشريات وأربع عشرة بغلة من بغال الثقل، وفي جميع من معه من خاصيته وحرمة إلى سجن يوسف - عليه السلام - وأقام هناك يومين وليتين، إلى أن عاد الرمادية الخارجون إلى السجن بالثمايل والمضاحك والحكايات والسماجات^٢، فضحك منهم واستظرفهم، وعاد إلى قصره بكرة يوم الأربعاء لثلاث عشرة نخلت منه.

وأقام أهل الأسواق نحو الأسبوعين يطوفون^٣ الشوارع بالحكايات^٤ والسماجات والثمايل، ويطلعون إلى القاهرة بذلك ليشاهدتهم أمير المؤمنين، ويعودون معهم سجل قد كتب لهم: ألا يعارض أحد منهم في ذهابه وعوده، وأن يعتمد إكرامهم وصيانتهم.

ولم يزالوا على ذلك إلى أن تكامل جميعهم، وكان دخولهم من سجن يوسف يوم السبت لأربع عشرة بقيت من جمادى الأولى، وشقوا الشوارع بالحكايات والسماجات والثمايل، فتعطل الناس في ذلك اليوم عن أشغالهم ومعاشهم. واجتمع في الأسواق خلق كثير لتظيرهم، وظل الناس أكثر هذا اليوم على ذلك؛ وأطلق لجميعهم ثمانية آلاف درهم، وكانوا اثني عشر سوقاً، ونزلوا مشرورين^٥.

(a) بولاق: يطرقون. (b) بولاق: الخيال والتصويب من المسيحي.

^١ عن القائد معضاد انظر المسيحي: أخبار مصر ٢٤ - ٢٧، والكشاف ١٣١.
^٢ سماجة ج. سماجات. نوع من الأقنعة (Masques) تبعث على السخرية والضحك، كانت معروفة في مصر. ذكر أمية بن أبي الصلت في وصفه لأهل مصر: «ومن ظريف ما سمعته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للمارستان يشتدعى للمرضى كما تشتدعى الأطباء، فيدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة وخرافات مسلية ويخرج له وجوهاً مضحكة؛ أي سماجات (الرسالة المصرية ٣٤)؛ وانظر Dozy, R., *Suppl. Dict. Ar. I*, 680؛ ومقال صمويل موريه Moreh, S., «Masks in Medieval Arabic Theatre», *Assaph C9* (1993), pp. 89-94 وفيما يلي ١: ٢٦٨، ٤٩٣.
^٣ المسيحي: أخبار مصر ٤٢ - ٤٣؛ المقرئ: اتعاط الحنفا ٢: ١٤٦.

وبخارج مدينة الجيزة مَوْضِعٌ يُعْرَفُ بِأَبِي هُرَيْرَةَ، فَيُظَنُّ مِنْ لَا عِلْمٍ لَهُ أَنَّهُ أَبُو هُرَيْرَةَ الصَّحَابِيُّ، وليس كذلك، بل هو منسوبٌ إلى ابن ابنته.

١ / ذِكْرُ قَرْيَةِ بَيْزَسَا

قال القُضَاعِيُّ: وذكر أن القاسم بن عبيد الله بن الحَبَّاب، عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر، بنى في الجيزة قرية تُعْرَفُ بِبَيْزَسَا^١.

والقاسم هذا خرج إلى مصر وولي الخلافة عن أبيه عبيد الله بن الحَبَّاب السلولي على الخراج في خلافة هشام بن عبد الملك. ثم أمره هشام على خراج مصر حين خرج أبوه إلى إمارة إفريقية في سنة ست عشرة ومائة، فلم يزل إلى سنة أربع وعشرين ومائة، فترغ عن مصر، وجميع الخفص ابن الوليد عربها وعجمها، فصار يلي الخراج والصلاة معا. وبيزسا هذه كانت وقعة مزوان بن محمد الجعدي.

ذِكْرُ مَنَسِيَةِ أُنْدُونَةَ

هي إحدى قرى الجيزة^٢، عُرفت بأندونة كاتب أحمد المدائني الذي كان يتقلد ضياع موسى ابن بُغَا التي بمصر، فقَبِضَ أحمد بن طولون على أندونة هذا - وكان نصرانياً - فأخذ منه خمسين ألف دينار.

ذِكْرُ وَسِيم

قال ابن عبد الحكم: وخرج عبد الله بن عبد الملك بن مزوان أمير مصر إلى وسيم^٣، وكانت لرجلٍ من القبط، فسأل عبد الله أن يأتيه إلى منزله ويجعل له مائة ألف دينار، فخرج إليه عبد الله ابن عبد الملك.

^١ ابن دقماق: الانتصار ٤: ١٣٦. ^٢ هي المعروفة الآن بقرية المناوات بمركز الجيزة قاعدة محافظة الجيزة (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ٨). ^٣ هي المعروفة الآن بقرية أوسيم التابعة لمركز إمبابة بمحافظة الجيزة (علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٧: ٥٩ - ٦١؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ٥٧-٥٨).

وقيل إنما مخرج^(a) عبد الله إلى قرية أبي النمرس^١ مع رجل من الكتاب يقال له ابن حنظلة، فأتى عبد الله العزل وولاية قرة بن شريك وهو هناك، فلما بلغه ذلك قام ليلبس سراويله فلبسه منكوساً^٢.

وقيل إن عبد الله لما بلغه العزل، رد المال على صاحبه وقال: قد عزلنا. وكان عبد الله قد ركب معه إلى المعدية، وعدى أصحابه قبله وتأخر، فورد الكتاب بعزله فقال صاحب المال: والله لا بد أن تُشرف منزلي، وتكون ضيفي، وتأكل طعامي. والله لا عاد لي شيء من ذلك، ولا أدعك مُصرفاً، فعدي معه.

ذكر مشيئة عقبة

هذه القرية بالجيزة^٣ عرفت بعقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه.

قال ابن عبد الحكم: كتبت عقبة بن عامر إلى معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - يسأله أرضاً يشترق فيها عند قرية عقبة، فكتب له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع، فقال له مولى له كان عنده: انظر أصلحك الله أرضاً سالحة؛ فقال عقبة: ليس لنا ذلك، إن في عهدهم شروطاً ستة: منها ألا يؤخذ من أرضهم شيء، ولا من نسائهم ولا من أولادهم، ولا يزداد عليهم، ويُدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم، وأنا شاهد لهم بذلك.

وفي رواية: كتبت عقبة إلى معاوية يسأله بقيعاً^(b) في قرية يتني فيها منازل ومساكن، فأمر له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع، فقال له مواليه ومن كان عنده: انظر إلى أرض تُعجبك فاخترت فيها واثن؛ فقال: إنه ليس لنا ذلك، لهم في عهدهم ستة شروط: منها ألا يؤخذ من أرضهم شيء، ولا يزداد عليهم، ولا يكلّفوا غير طاقتهم، ولا تؤخذ ذراريهم، وأن يُقاتل عنهم عدوهم من ورائهم^٤.

(a) بولاق: خرج والتصويب من فتوح مصر. (b) بولاق: نقيعاً.

^١ مازالت معروفة بهذا الاسم وتقع بمركز الجيزة (محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٣/٢: ٣).
^٢ هي المعروفة الآن باسم ميت عقبة، وتقع على الشاطئ الغربي للنيل وتتبع مركز إمبابة بمحافظة الجيزة.

^٣ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٢٣٨.
^٤ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٨٥-٨٦.

قال أبو سعيد بن يونس: وهذه الأرض التي اقتطعها عُقْبَةُ هي المُنِيَّةُ المعروفة بِمُنِيَّةِ عُقْبَةَ في جِيْزَةَ فُسْطَاطِ مِصْرَ: عُقْبَةُ بن عامر بن عَبْس بن عمرو بن عَدِي بن عمرو بن رِفَاعَةَ بن مَوْدُوْعَةَ بن عَدِي بن غَنَم بن الرَّبِيعَةَ بن رَشْدَانَ بن قَيْس بن جُهَيْنَةَ، كذا نَسَبَهُ أَبُو عَمْرٍو الكِنْدِيُّ^١.

وقال الحافظ أبو عمرو بن عبد البر: عُقْبَةُ بن عامر بن عَبْس^(a) الجُهَنِيُّ من جُهَيْنَةَ بن زَيْد بن سَوْدِ ابنِ أَسْلَم بن عمرو بن الحَاف بن قُضَاعَةَ - وقد اِخْتَلَفَ في هذا النَّسَبِ - يُكْنَى أبا حَمَّادٍ، وقيل أبا أسد، وقيل أبا عمرو، وقيل أبا سعاد، وقيل أبا الأسود. وقال خَلِيفَةُ بن خَيَّاط: وقُتِلَ أَبُو عَامِرٍ عُقْبَةُ بن عامر الجُهَنِيُّ يَوْمَ النَّهْرَوَانِ شَهِيدًا، وذلك سنة ثمان وثلاثين. وهذا غَلَطٌ منه، وفي كِتَابِهِ بعد: وفي سنة ثمان وخمسين تُوفِّي عُقْبَةُ بن عامر الجُهَنِيُّ. قال أبو عَمْرٍو: سَكَنَ عُقْبَةُ بن عامر مِصْرَ، وكان وَالِيًا عَلَيْهَا، وابتنى بها دارًا، وتُوفِّي في آخِرِ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ. رَوَى عَنْهُ مِنَ الصُّحَابَةِ جَابِرٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو أَمَامَةَ وَمَسْلَمَةُ بن مَخْلَدٍ، وَأَمَّا رِوَاؤُهُ مِنَ التَّابِعِينَ فَكَثِيرٌ^٢.

وقال الكِنْدِيُّ: ثم وَلِيَهَا عُقْبَةُ بن عامر، من قِبَلِ مُعَاوِيَةَ، وَجَمَعَ لَهُ صَلَاتَهَا وَخَرَّاجَهَا، فَجَعَلَ عَلَى شُرَيْطَتِهِ حَمَّادًا. وكان عُقْبَةُ قَارِئًا فَقِيهًا فَرَضِيًّا شَاعِرًا، له الهِجْرَةُ والصُّحْبَةُ السَّابِقَةُ. وكان صَاحِبَ بَعْلَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الشُّهْبَاءِ الَّذِي يَقُودُهَا فِي الْأَسْفَارِ. وكان صَرَفُ عُقْبَةَ عن مِصْرَ بِمَسْلَمَةَ بن مَخْلَدٍ، لِعَشْرِ بَقِيْنَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سنة أربعين، فَكَانَتْ وِلايَتُهُ سِتِّينَ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ^٣.

وقال ابنُ يونس: تُوفِّي بِمِصْرَ سنة ثمانٍ وخمسين، وَدُفِنَ فِي مَقْبَرَتِهَا بِالْمُقَطَّمِ، وكان يُحَضَّبُ بِالسُّوَادِ، رَحِمَهُ اللَّهُ / تعالَى.

(a) بولاق: حسن.

١ الكِنْدِيُّ: وِلاةُ مِصْرَ ٥٩. ٢٢٥: ٢٧٠. والتاريخ الصحيح لوفاة عقبه بن عامر هو سنة ثمان وخمسين كما عند الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢: ٤٦٨، ٤٦٩، وقد انتقد قول خليفة بن خياط كذلك أبو المحاسن في النجوم الزاهرة ١: ١٢٨.

٣ الكِنْدِيُّ: وِلاةُ مِصْرَ ٥٩ - ٦٠، ٦١.

٢ هذا النص نقله المقرئ عن كتاب الاستيعاب لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة - مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠، ٣: ١٠٧٣، والاستشهاد بتاريخ خليفة ابن خياط يرجع لابن عبد البر لا المقرئ، وهو موجود في تاريخ خليفة بن خياط (تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٦٧)

ذِكْرُ حُلْوَانَ^١

يُقَالُ إِنَّهَا تُنْسَبُ إِلَى حُلْوَانَ بْنِ بَابِلْيُونَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ امْرِئِ الْقَيْسِ مَلِكِ مِصْرَ بْنِ سَبَأَ بْنِ يَشْجُبَ بْنِ يَعْزُبَ بْنِ قَحْطَانَ . وَكَانَ حُلْوَانَ هَذَا بِالشَّامِ عَلَى مُقَدِّمَةِ أُبْرَهَةَ ذِي الْمَنَارِ أَحَدِ التَّبَائِعَةِ .

قال ابن عبد الحكم : وكان الطاعون قد وَقَعَ بالفُسْطَاطِ ، فَخَرَجَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ مِنَ الْفُسْطَاطِ فَتَنَزَلَ بِحُلْوَانَ دَاخِلًا فِي الصُّخْرَاءِ فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهُ أَبُو قَرْقُورٍ ، وَهُوَ رَأْسُ الْعَيْنِ الَّتِي اخْتَفَرَهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ وَسَاقَهَا إِلَى نَخِيلِهِ الَّتِي غَرَسَهَا بِحُلْوَانَ ؛ فَكَانَ ابْنُ حُدَيْجٍ يُرْسِلُ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِخَبْرٍ مَا يَحْدُثُ فِي الْبَلَدِ مِنْ مَوْتٍ وَغَيْرِهِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ رَسُولًا فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ : مَا اسْمُكَ ؟ فَقَالَ : أَبُو طَالِبٍ ؛ فَتَقَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ وَغَاظَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ : أَسَأَلُكَ عَنْ اسْمِكَ فَتَقُولُ أَبُو طَالِبٍ ! مَا اسْمُكَ ؟ فَقَالَ : مُدْرِكٌ ، فَتَفَاعَلَ بِذَلِكَ . وَمَرِضَ فِي مَخْرَجِهِ ذَلِكَ وَمَاتَ هُنَاكَ ، فَحُمِلَ فِي الْبَحْرِ يُرَادُ بِهِ الْفُسْطَاطِ حَتَّى تَغَيَّرَ ، فَأُنزِلَ فِي بَعْضِ خُصُوصِ سَاحِلِ مَرِيَسَ فَعُغِّلَ فِيهِ وَأُخْرِجَتْ مِنْ هُنَاكَ جَنَازَتُهُ ، وَخُرِجَ مَعَهُ بِالْحَجَامِرِ فِيهَا الْعُودُ لَمَّا كَانَ قَدْ تَغَيَّرَ مِنْ رِيحِهِ . وَأَوْصَى عَبْدُ الْعَزِيزِ أَنْ يُمَرَّ بِجَنَازَتِهِ إِذَا مَاتَ عَلَى مَنَزِلِ جَنَابِ بْنِ مَرْثَدَ بْنِ زَيْدِ بْنِ هَانِي الرُّعَيْنِيِّ صَاحِبِ حَرَسِيهِ - وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ ، وَقَدْ تُوفِّيَ قَبْلَ عَبْدِ الْعَزِيزِ - فَمُرَّ بِجَنَازَتِهِ عَلَى بَابِ جَنَابِ ، وَقَدْ خَرَجَ عِيَالُ جَنَابِ وَلِبَسَنَ السَّوَادَ وَوَقَفْنَ عَلَى الْبَابِ صَائِحَاتٍ ثُمَّ اتَّبَعْنَهُ إِلَى الْمَقْبَرَةِ .

وَكَانَ لِنُصَيْبِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ نَاحِيَةً ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ فِي مَرَضِهِ فَأَذِنَ لَهُ ، فَلَمَّا رَأَى شِدَّةَ مَرَضِهِ أَنْشَأَ يَقُولُ :

^١ من أقدم المدن التي أنشأها العرب في مصر تقع على الشاطئ الشرقي للنيل وجنوبي القاهرة على بعد عشرين كيلومترًا من مصر القديمة . وما ورد في رواية المقرئ هنا من أن المدينة وجدت قبل قدوم العرب إلى مصر غير صحيح ، فالثابت من الروايات التاريخية (وخاصة عند ابن عبد الحكم وياقوت الحموي) أن والي مصر عبد العزيز بن مروان هو أول من اختطها وتحول إليها في سنة ٧٠ هـ بعد أن اشتراها من القبط بعشرة آلاف دينار (النجوم الزاهرة ١: ١٨٥) . واختار

عبد العزيز بن مروان لهذه المدينة اسم حلوان لأنها تشبه في موضعها ومزاياها موضع حلوان التي كانت بالعراق العجمي ، وهي الآن تمثل الضاحية الجنوبية لمحافظة القاهرة . (راجع ، ياقوت : معجم البلدان ٢: ٢٩٣-٢٩٤ ؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٠: ٧٦-٨٤ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٣/٢ : ١٢-١٤ ، Maspero & Wiet, *Matériaux I*, 74; Jones. M.B., *El* art. *Hulwân* (III, pp. 591-92) .

[الكامل]

وَنَزُورُ سَيِّدِنَا وَسَيِّدِ غَيْرِنَا لَيْتَ التَّشْكِيِّ كَانَ بِالْعَوَادِ
 لَوْ كَانَ يُقْبَلُ فِدْيَةٌ لَفَدَيْتُهُ بِالْمُضْطَفَى مِنْ طَارِفِي وَتِلَادِي
 فَلَمَّا سَمِعَ صَوْتَهُ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَأَمَرَ لَهُ بِالْفِ دِينَارٍ ، وَاسْتَبَشَرَ بِذَلِكَ آلَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَفَرِحُوا بِهِ ، ثُمَّ
 مَاتَ ^١ .

وقال الكندي: وَوَقَعَ الطاعونُ بمصر في سنة سبعين ، فخرجَ عبدُ العزيز بن مَرْوَانَ مِنْهَا إِلَى
 الشَّرْقِيَّةِ مُتَبَدِّيًا^(a) ، فَنَزَلَ حُلْوَانَ فَأَعْجَبَتْهُ ، فَاتَّخَذَهَا وَسَكَنَهَا وَجَعَلَ بِهَا الْحَرَسَ وَالْأَعْوَانَ وَالشَّرْطَ ،
 فَكَانَ عَلَيْهِمْ جَنَابُ بْنُ مَرْثَدَةَ بِحُلْوَانَ . وَبَنَى عَبْدُ الْعَزِيزِ بِحُلْوَانَ الدُّورَ وَالْمَسَاجِدَ ، وَعَمَّرَهَا أَحْسَنَ
 عِمَارَةً وَأَحْكَمَهَا ، وَعَرَسَ نَخْلَهَا وَكَرَّمَهَا ، فَقَالَ ابْنُ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ ^٢ :

[المسرح]

سَقِيَا حُلْوَانَ ذِي الْكُرُومِ وَمَا صَنَّفَ مِنْ تَيْبِهِ وَمِنْ عَيْنِيهِ
 نَخْلٌ مَوَاقِيرُ بِالْقَنَاءِ مِنَ الْـ جَبْرُنِي غُلْبٌ يَهْتَزُّ فِي سَرِيهِ^(b)
 أَسْوَدُ سُكَّانِهِ الْحَمَامُ فَمَا يَنْفَكُ غَرِبَانُهُ عَلَى رُطْبِهِ

وَلَمَّا عَرَسَ عَبْدُ الْعَزِيزِ نَخْلَ حُلْوَانَ وَأَطْعَمَ ، دَخَلَهُ وَالْجُنْدُ مَعَهُ ، فَجَعَلَ يَطُوفُ فِيهِ وَيَقِفُ عَلَى
 غُرُوبِهِ وَمَسَاقِيهِ ، فَقَالَ يَزِيدُ بْنُ عُرْوَةَ الْجَمَلِيُّ : أَلَا قُلْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ مَا
 شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الآية ٣٩ سورة الكهف]؟! فَقَالَ : ذَكَرْتَنِي ، شَكَرًا يَا غُلَامَ ، قُلْ لِأَتِينَا يَزِيدُ
 فِي عَطَائِهِ عَشْرَةَ دَنَانِيرٍ ^٣ .

عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ الْقُرَشِيِّ
 الْأُمَوِيِّ أَبُو الْأَصْبَغِ ، أُمُّهُ لَيْلَى ابْنَةُ زَبَّانِ بْنِ الْأَصْبَغِ الْكِنْدِيِّ . رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعُقْبَةَ بْنِ عَامِرِ
 الْجُهَنِيِّ ، وَرَوَى عَنْهُ عَلِيُّ بْنُ رَبَاحٍ وَبُحَيْرِ بْنِ دَاخِرَةَ وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ مَالِكِ الْخَوْلَانِيِّ وَكَعْبُ بْنُ
 عُلْقَمَةَ ، وَوَثَّقَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ سَعْدٍ ^٤ .

(a) بولاق : متديا . (b) في بولاق ومعجم البلدان : برني يهتز ثم في سره ، والمثبت من الديوان .

^١ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٣٦-٢٣٧ .

^٢ الكندي : ولاة مصر ٧١-٧٢ .

^٣ الأبيات في ديوان ابن قيس الرقييات ، تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت - دار صادر ١٩٥٨ ، ١٣٤ ، وعند
^٤ انظر ترجمة عبد العزيز بن مروان عند ابن سعد : الطبقات الكبرى ٥ : ٤٢٣٦ الكندي : ولاة مصر ٧٠-٧٩ ؛
 الصفدي : الوافي بالوفيات ١٨ : ٥٥٨-٥٦١ ؛ أبي =
 ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٢٩٤ .

ولما سار أبوه مزوان إلى مصر، بعثه في جيش إلى أيلة ليدخل مصر من تلك الناحية، فبعث إليه ابن جحدم أمير مصر بجيش عليهم زهير بن قيس البلوي، فلقي عبد العزيز ببصاق - وهي سطح عقبة أيلة - فقاتله فانهزم زهير ومن معه .

فلما غلب مزوان على مصر في جمادى الآخرة سنة خمس وستين، جعل صلاتها وخراجها إلى ابنه عبد العزيز بعد ما أقام بمصر شهرين، فقال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له مزوان: يا بُني، غمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينا على غيره، ويتقاد قومه إليك. وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيئاً. وما عليك يا بُني أن تكون أميراً بأقصى الأرض، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك؟

وأوصاه عند مخرجه من مصر إلى الشام فقال: أوصيك بتقوى الله في سرٍ أمرك وعلانيته ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [الآية ١٢٨ سورة النحل]، وأوصيك ألا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً، فإن المؤذن يدعو إلى فريضة افترضها الله، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [الآية ١٠٣ سورة النساء]، وأوصيك ألا تعد الناس موعداً إلا أنفذته لهم، وإن حملته على الأيسنة، وأوصيك ألا تعجل في شيء من / الحكم حتى تستشير، فإن الله لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً ﷺ عن ذلك بالوحي الذي يأتيه، قال الله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الآية ١٥٩ سورة آل عمران].

وخرج مزوان من مصر ليهلال رجب سنة خمس وستين، فوليتها عبد العزيز على صلاتها وخراجها.

وتوفي مزوان ليهلال رمضان، وبويع ابنه عبد الملك بن مزوان، فأقر أخاه عبد العزيز. ووفد على عبد الملك في سنة سبع وستين، وجعل على الحرس والخيل والأغوان جناب بن مرثد الرعيني، فاشتد سلطانه. وكان الرجل إذا أغلظ لعبد العزيز وخرج، تناوله جناب ومن معه فضربوه وحبسوه.

واعبد العزيز أول من عرف بمصر في سنة إحدى وسبعين؛ قال يزيد بن أبي حبيب: أول من أحدث القعود يوم عرفة في المسجد بعد العصر عبد العزيز بن مزوان.

^١ من هنا ينقل المقرئ عن ولاة مصر للكندي.

وفي سنة اثنتين وسبعين ، صَرَفَ بَعَثَ الْبَحْرَ إِلَى مَكَّةَ لِقِتَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ مَالِكُ بْنُ شُرْحَبِيلِ الْخَوْلَانِي ، وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ رَجُلٍ فِيهِمْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ يُحْنَسَ مَوْلَى ابْنِ أَبِيزَيْدٍ ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ ابْنَ الزُّبَيْرِ^١ .

وَخَرَجَ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ ، وَوَقَدَ عَلَى أَخِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ ، وَهَدَمَ جَامِعَ الْفُسْطَاطِ كُلَّهُ ، وَزَادَ فِيهِ مِنْ جَوَائِبِهِ كُلِّهَا فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ ، وَأَمَرَ بِضَرْبِ الدُّنَايِرِ الْمَنْقُوشَةِ .

وَقَالَ ابْنُ عُفَيْرٍ : كَانَ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ أَلْفُ جَفْنَةٍ كُلَّ يَوْمٍ تُنْصَبُ حَوْلَ دَارِهِ . وَكَانَتْ لَهُ مِائَةٌ جَفْنَةٍ يُطَافُ بِهَا عَلَى الْقَبَائِلِ تُحْمَلُ عَلَى الْعَجَلِ^٢ .

وَكَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَيْهِ أَنْ يَنْزِلَ لَهُ عَنِ وِلَايَةِ الْعَهْدِ لِيَتَّعَدَ إِلَى الْوَلِيدِ وَسُلَيْمَانَ ، فَأَتَى ذَلِكَ وَكَتَبَ إِلَيْهِ : «إِنْ يَكُنْ لَكَ وَلَدٌ فَلَنَا أَوْلَادٌ ، وَيَقْضِي اللَّهُ مَا يَشَاءُ» . فَغَضِبَ عَبْدُ الْمَلِكِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْعَزِيزِ بَعْلِيَّ بْنَ رَبَاحٍ يَتَرَضَّاهُ . فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، اسْتَعَطَفَهُ عَلَى أَخِيهِ ، فَشَكَكَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَالَ : «فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ» . فَلَمْ يَزَلْ بِهِ عَلِيٌّ حَتَّى رَضِيَ ، فَقَدِمَ عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ فَأَخْبَرَهُ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ وَعَنْ حَالِهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ بِدَعْوَتِهِ فَقَالَ لَهُ : أَفَعَلَ؟ أَنَا وَاللَّهِ مُفَارِقُهُ ، وَاللَّهُ مَا دَعَا دَعْوَةً قَطُّ إِلَّا أُجِيبَتْ .

وَكَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ يَقُولُ : قَدِمْتُ مِصْرَ فِي إِمْرَةٍ مَسْلَمَةَ بْنِ مَخْلَدٍ ، فَتَمَنَّيْتُ بِهَا ثَلَاثَ أَمَانِي فَأَذْرَكْتُهَا : تَمَنَّيْتُ وِلَايَةَ مِصْرَ ، وَأَنْ أَجْمَعَ بَيْنَ امْرَأَتِي مَسْلَمَةَ ، وَيَخْجُبَنِي قَيْسُ بْنُ كَلْبٍ حَاجِبَهُ . فَتَوَفَّى مَسْلَمَةَ ، وَقَدِمَ مِصْرَ فَوَلَّيْتُهَا ، وَحَجَبَهُ قَيْسُ ، وَتَزَوَّجَ امْرَأَتِي مَسْلَمَةَ .

وَتُوَفِّيَ ابْنُهُ الْأَصْبَعُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِتِسْعِ بَقِيْنَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةَ سِتِّ وَثَمَانِينَ . فَمَرِضَ عَبْدُ الْعَزِيزِ ، وَتُوَفِّيَ لَيْلَةَ الْاِثْنَيْنِ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ سِتِّ وَثَمَانِينَ . فَحُجِّلَ فِي النَّيْلِ مِنْ حُلْوَانَ إِلَى الْفُسْطَاطِ فَدُفِنَ بِهَا^٣ .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ : رَأَيْتُ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ مَرْوَانَ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ يَقُولُ : «أَلَا لَيْتَنِي لَمْ أَكُ شَيْئًا مَذْكُورًا ، أَلَا لَيْتَنِي كُنَابِتَةٌ مِنَ الْأَرْضِ أَوْ كِرَاعِي لِبَلِّ فِي طَرْفِ الْحِجَازِ» .

^٣ نفسه ٧٥-٧٦ .

^١ الكندي : ولاة مصر ٧٢ .

^٢ نفسه ٧٣ .

ولما مات لم يُوجد له مالٌ ناض^١ إلا سبعة آلاف دينار، وحُلوان والقيساريّة، وثياب بعضها مَرْقُوع، وخَيْلٌ، ورَقِيق. وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً، ولم يَلها في الإسلام قَبْلَه أطول ولاية منه^٢.

وكان بحُلوان في النَّيل مَعْدِيَّة من صَوَّان تُعَدِّي بالخيَل، تحمل فيها الناس وغيرهم من البَرِّ الشَّرْقِي بحُلوان إلى البَرِّ الغَرْبِي. فلَمَّا كان^٣.

وهذا من الأسرار التي في الخليقة؛ فإن جميع الأجسام المعدنية، كالحديد والنحاس والفضة والرصاص والذهب والقصدير، إذا عُمِلَ من شيءٍ منها إناءٌ يسع من الماء أكثر من وزنه فإنه يَعمُومُ على وَجْه الماء، ويَحْمِل ما يُمكنه ولا يَغْرُق.

وما بَرِحَ المُسافرون في بَحر الهِنْد - إذا أَظْلَمَ عليهم اللَّيْل ولم يَرَوْا ما يَهْدِيهم من الكواكب إلى مَعْرِفَةِ الجِهَاتِ - يَحْمِلون حَدِيدَةً مُجَوَّفَةً على شَكْلِ سَمَكَةٍ وَيُبالِغون في تَرْقيقها جَهْدَ المَقْدِرَةِ، ثم يُعْمَل في فَمِ السَمَكَةِ شيءٌ من مَغْناطيس جَيِّدًا، وَيُحَكَّ فيها بالمَغْناطيس، فإنَّ السَمَكَةَ إذا وُضِعَتْ في الماء دَارَتْ واستَقْبَلَت القُطْبَ الجَنُوبِي بِفَمِها، واستَدْبَرَت القُطْبَ الشَّمَالِي، وهذا أيضًا من أسرار الخليقة.

فإذا عَرَفُوا جِهَتِي الجَنُوبِ والشَّمَالِ، تَبَيَّنَ مِنْهُمَا المَشْرِقُ والمَغْرِبُ، فإنَّ من استَقْبَلَ الجَنُوبَ فقد استَدْبَرَ الشَّمَالِ وصارَ المَغْرِبُ عن يَمِينِهِ والمَشْرِقُ عن يَسَارِهِ. فإذا تَحَدَّدَتِ الجِهَاتُ الأَرْبَعُ، عَرَفُوا مَوَاقِعَ البِلادِ بها، فيَقْصِدون حينئذٍ جِهَةَ النَّاحِيَةِ التي يُريدونها.

ذِكْرُ مَدِينَةِ العَرِيشِ

العَرِيشُ مَدِينَةٌ فيما بين أَرْضِ فِلَسْطِينِ وإقليمِ مِصْرَ، وهي مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ، من جَمَلَةِ المَدَائِنِ التي اخْتَطَّتْ بَعْدَ الطُّوفانِ^٢.

(a) بياض بالنسخ. والفقرة التالية يبدو أنها طيّارة أقحمها الشُّاخ في غير موضعها فلا علاقة لها بترجمة عبد العزيز بن مروان.

^١ المال الناض والنض. الدرهم والدينار. على شاطئ البحر المتوسط قرب نهاية الحد الشرقي لأرض

^٢ الكندي: ولاية مصر ٧٦-٧٧.

^٣ مدينة العريش هي قاعدة محافظة شمال سيناء تقع وفلسطين ٤٥ كيلومترا (راجع، ابن زولاق: فضائل مصر =

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه عن مِصْرَامِ بْنِ بَيْصَرِ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَكَانَ عَلَامًا مَرْفُوعًا ، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْ مِصْرَ بَنِي لَه عَرِيشًا مِنْ أَغْصَانِ الشَّجَرِ وَسْتَرَهُ بِحَشِيشِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ بَنَى لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَدِينَةً وَسَمَّاهَا دُرْسَانَ - أَي بَابَ الْجَنَّةِ - فَزَرَعُوا وَغَرَسُوا الْأَشْجَارَ وَالجِنَانِ مِنْ دُرْسَانَ إِلَى الْبَحْرِ ، فَكَانَتْ كُلُّهَا زُرُوعًا وَجِنَانًا وَعِمَارَةً ^١ .

وقال آخر : إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ بَيْصَرَ بْنَ حَامِ بْنِ نُوحٍ تَحَمَّلَ فِي وَلَدِهِ ، وَهُمْ أَرْبَعَةٌ وَمَعَهُمْ / أولادهم ، فَكَانُوا ثَلَاثِينَ مَا بَيْنَ ذَكَرٍ وَأُنثَى . وَقَدِمَ ابْنُهُ مِصْرُ بْنُ بَيْصَرَ أَمَامَهُ نَحْوَ أَرْضِ مِصْرَ حَتَّى خَرَجَ مِنْ حَدِّ الشَّامِ ، فَتَاهُوا وَسَقَطَ مِصْرُ فِي مَوْضِعِ الْقَرِيشِ - وَقَدْ اشْتَدَّ تَعَبُهُ - وَنَامَ ، فَرَأَى قَائِلًا يُبَشِّرُهُ بِحُصُولِهِ فِي أَرْضِ ذَاتِ خَيْرٍ وَذُرٍّ وَمُلْكٍ وَفَخْرٍ ، فَانْتَبَهَ فَرِعًا ، فَإِذَا عَلَيْهِ عَرِيشٌ مِنْ أَطْرَافِ الشَّجَرِ ، وَحَوْلَهُ عُيُونٌ مَاءً . فَحَمِدَ اللَّهَ وَسَأَلَهُ أَنْ يَجْمَعَهُ بِأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ ، وَأَنْ يُبَارِكَ لَهُ فِي أَرْضِهِ ، فَاسْتَجِيبَ لَهُ ، وَقَادَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَتَزَلُّوا فِي الْقَرِيشِ وَأَقَامُوا بِهِ . فَأَخْرَجَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ دَوَابَّ مَا بَيْنَ خَيْلٍ وَحُمْرٍ وَبَقَرٍ وَغَنَمٍ وَإِبِلٍ ، فَسَاقُوهَا حَتَّى آتَوْا مَوْضِعَ مَدِينَةِ مَنْفٍ فَتَزَلُّوهُ ، وَبَنَوْا فِيهِ قَرْيَةً سُمِّيَتْ بِالْقِبْطِيَّةِ مَاقَةً ، يَعْنِي قَرْيَةً ثَلَاثِينَ ^٢ .

فَمَتَّ ذُرِّيَّةُ بَيْصَرَ حَتَّى عَمَّرُوا الْأَرْضَ وَزَرَعُوا ، وَكَثُرَتْ مَوَاشِيهِمْ . وَظَهَرَتْ لَهُمُ الْمَعَادِنُ ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَسْتَخْرِجُ الْقِطْعَةَ مِنَ الزُّبُرُوجِدِ يَعْمَلُ مِنْهَا مَائِدَةً كَبِيرَةً ، وَيُخْرِجُ مِنَ الذَّهَبِ مَا تَكُونُ الْقِطْعَةُ مِنْهُ مِثْلَ الْأَسْطُوَانَةِ ، وَكَالْبَعِيرِ الرَّابِضِ .

وقال ابنُ سَعِيدٍ عَنِ الْبَيْهَقِيِّ : كَانَ دُخُولُ إِخْوَةِ يُوسُفَ وَأَبَوَيْهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - عَلَيْهِ بِمَدِينَةِ الْقَرِيشِ ، وَهِيَ أَوَّلُ أَرْضِ مِصْرَ ؛ لِأَنَّهُ خَرَجَ إِلَى تَلْقِيهِمْ حَتَّى نَزَلَ الْمَدِينَةَ بِطَرَفِ سُلْطَانِهِ . وَكَانَ لَهُ هُنَاكَ عَرْشٌ - وَهُوَ سَرِيرُ السُّلْطَانَةِ - فَأَجْلَسَ أَبَوَيْهِ عَلَيْهِ . وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَدِينَةُ تُسَمَّى فِي الْقَدِيمِ بِمَدِينَةِ الْعَرْشِ لِذَلِكَ ، ثُمَّ سَمَّيْتُهَا الْعَامَّةُ مَدِينَةَ الْقَرِيشِ فَغَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهَا .

وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ لِيُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَرْشٌ فِي أَطْرَافِ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا ؛ فَلَمَّا أَصَابَ الشَّامَ الْقَحْطُ ، وَسَارَتْ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَتَمْتَّارٍ مِنْ مِصْرَ ، أَقَامُوا بِالْقَرِيشِ . وَكَتَبَ

^١ النويري : نهاية الأرب ٤٤: ١٥ عن ابن وصيف شاه ؛

المسعودي : أخبار الزمان ١٥٢-١٥٣ ، وأورد المقرئ نفس

النص فيما تقدم ٤٨ نقلًا عن المسعودي ؛

^٢ قارن مع ابن عبد الحكم : فتوح ٤٩ ؛ النويري : نهاية

= وأخبارها ٥٩ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٤ : ١١٣-١١٤ ؛

ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٥٥ ؛ علي مبارك : الخطوط

التوفيقية ١٤ : ٣٩-٤٨ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي

Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 125 ; ٤/٢ : ٢٦٣ ؛

صاحب الحرس إلى يوسف: إن أولاد يعقوب الكنعاني يريدون البلد لخطب نزل بهم. فعمل إخوة يوسف عند ذلك عرشاً يستظلون به من الشمس حتى يعود الجواب، فسُمي الموضع العريش. وكتب يوسف بالإذن لهم، فكان من شأنهم ما قد ذكر في موضعه^١.

ويقال للعرش الج.. فهذا كما ترى. وابن وصيف شاه أعرف بأخبار مصر.

وفي سنة خمس عشرة وأربع مائة، طرق عبد الله إدريس الجعفري العريش بمعاونة بني الجراح، وأحرقها وأخذ جميع ما فيها^٢.

وقال القاضي الفاضل: وفي جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وخمس مائة، ورد الخبر بأن نخل العريش قطع الفرج أكثره وحملوا جذوعه إلى بلادهم، ومليت منه، ولم يجدوا مخاطباً على ذلك.

ونقل عن ابن عبد الحكم أن الجفار بأجمعه كان أيام فرعون موسى في غاية العماره بالمياه والقري والشكان، وأن قول الله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الآية ١٣٧ سورة الأعراف] عن هذه المواضع، وأن العماره كانت متصلة منه إلى اليمن، ولذلك سُميت العريش عريشاً.

وقيل إنها نهاية التخوم من الشام، وإن إليه كان ينتهي رعاة إبراهيم الخليل - عليه السلام - بمواشيه، وأنه - عليه السلام - اتخذ به عريشاً كان يجلس فيه حتى تحلب مواشيه بين يديه، فسُمي العريش من أجل ذلك.

وقيل إن مالك بن دعر بن حنجر بن جزيلة بن لحم كان له أربعة وعشرون ولداً، منهم العريش ابن مالك، وبه سُميت العريش لأنه نزل بها وبناها مدينة^٣. وعن كعب الأخبار أن بالعريش قبور عشرة أنبياء.

^١ انظر فيما يلي ٦٦١، وأورد ابن سعيد هذا الحديث اتعاظ الحنفا ٢: ١٤٣؛ وانظر فيما تقدم ٥٠٤.

فيما لم يصل إلينا من القسم المصري من كتاب «المغرب» (انظر فيما يلي ٢٣٠:١).
^٣ انظر ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة ١٩٧٧، ٤٢٤.

^٢ قارن مع المسبحي: أخبار مصر ٣٤-٣٥؛ المقرئ:

ذِكْرُ مَدِينَةِ الْفَرَمَاءِ

قال البكري: الفرما - بفتح أوله وثانيه ممدود على وزن «فَعْلَاء» وقد تُقَصَّر - مدينةٌ تَلْقَاء مصر^٢.

وقال ابنُ خَالَوَيْه في كتاب «ليس»: الفرما هذه سُمِّيَتْ بأخي الإسكندر، كان يسمي الفرما، وكان كافرًا، وهي قَرْيَةٌ أُمُّ إِسْمَاعِيل بن إبراهيم^٣، انتهى.

ويُقَالُ اسْمُهُ الْفَرَمَاءُ بن فيلقوس، ويُقَالُ فِيهِ ابن فليس، ويقال بليس. وكانت الفرما على شَطِّ بُحَيْرَةِ تَيْس، وكانت مَدِينَةٌ خَضْبَاء، وبها قَبْرُ جَالِينُوسِ الْحَكِيمِ.

وَبَنَى بِهَا الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ حِصْنًا عَلَى الْبَحْرِ، تَوَلَّى بِنَاءَهُ عَنبَسَةُ بن إسحاق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين عندما بنى حِصْنَ دِمْيَاطِ وَحِصْنَ تَيْس، وَأَنْفَقَ فِيهَا مَالًا عَظِيمًا.

وَلَمَّا فَتَحَ عَمْرُو بن العاص عَيْنَ شَمْسٍ أَنْفَذَ إِلَى الْفَرَمَاءِ أَبْرَهَةَ بن الصَّبَّاحِ، فَصَالَحَهُ أَهْلُهَا عَلَى خَمْسِ مِائَةِ دِينَارٍ هِرْقَلِيَّةٍ وَأَرْبَعِ مِائَةِ نَاقَةٍ وَأَلْفِ رَأْسٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَرَحَلَ عَنْهُمْ إِلَى الْبُقَارَةِ.

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِ مِائَةِ نَزَلَ الرُّومُ عَلَيْهَا، فَفَتَرَ النَّاسُ إِلَيْهِمْ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ. ثُمَّ نَزَلُوا فِي جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ وَأَخَذُوا مِنْهُمْ مَرْكَبًا، وَقَتَلُوا مَنْ فِيهِ وَأَسْرَوْا عَشْرَةَ.

وقال اليعقوبي: الفرما أولُ مُدُنِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، وَبِهَا أَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ^٤.

وقال ابن الكندي: ومنها الفرما، وهي أَكْثَرُ عَجَائِبِ، وَأَقْدَمُ آثَارًا، وَيَذْكَرُ أَهْلُ مِصْرَ أَنَّهُ كَانَ مِنْهَا طَرِيقٌ إِلَى جَزِيرَةِ قُبْرُسَ فِي الْبَرِّ، فَغَلَبَ عَلَيْهَا الْبَحْرُ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ

^١ اندثرت اليوم مدينة الفرما وتعرف آثارها بتل الفرما على بُعد ثلاثة كيلومترات عن ساحل البحر المتوسط وعلى بعد ٢٣ كيلومترًا شرقي محطة الطينة الواقعة على الطريق الذي يربط بين بورسعيد والإسماعيلية. ويوجد بالقرب من تل الفرما أطلال قلعة قديمة تسمى قلعة الطينة لوقوعها في أرض موحلة، وكانت هذه القلعة تستخدم كمنفى لغير المرغوب فيهم من المصريين إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. (البكري: جغرافية مصر ٩٢-٩٣؛ مجهول:

الاستبصار ٨٩؛ ياقوت: معجم البلدان ٤: ٢٥٥؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٥٣؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ٩١-٩٢؛ (Maspero & Wiet, Matériaux p. 138).

^٢ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ١٠٢٢.

^٣ لا يوجد هذا الخبر فيما وصل إلينا من كتاب «ليس في كلام العرب» لابن خالويه.

^٤ اليعقوبي: كتاب البلدان ٣٣٠.

الاستبصار ٨٩؛ ياقوت: معجم البلدان ٤: ٢٥٥؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٥٣؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١: ٩١-٩٢؛ (Maspero & Wiet, Matériaux p. 138).

^٢ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ١٠٢٢.

^٣ لا يوجد هذا الخبر فيما وصل إلينا من كتاب «ليس في كلام العرب» لابن خالويه.

^٤ اليعقوبي: كتاب البلدان ٣٣٠.

كان فيما غلب عليه البحرُ مَقَطْعُ الرُّخَامِ الأَبْلَقِ، وَأَنَّ مَقَطْعَ الأَبْيَضِ بِلُونِيَّةٍ .

وقال يحيى بن عُثْمَانَ : كُنْتُ أُرَابِطُ فِي الفَرَمَا ، وَكَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ البَحْرِ قَرِيبٌ مِنْ يَوْمٍ ، يُخْرَجُ النَّاسُ وَالْمُرَابِطُونَ فِي أَخْصَاصٍ عَلَى السَّاحِلِ ، ثُمَّ عَلَا البَحْرُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ .

/ وقال ابنُ قُدَيْدٍ : تَوَجَّهَ ابْنُ المَدْبُرِّ - وَكَانَ بَيْتِيَسَ - إِلَى الفَرَمَا فِي هَدْمِ أَبْوَابٍ مِنْ حِجَارَةِ شَرْقِي الحِصْنِ اِحْتِجَاجٌ أَنْ يَعْمَلَ مِنْهَا جِيْرًا . فَلَمَّا قُلِعَ مِنْهَا حَجَرٌ أَوْ حَجْرَانِ خَرَجَ أَهْلُ الفَرَمَا بِالسَّلَاحِ فَمَنْعُوا مِنْ قَلْعِهَا وَقَالُوا : هَذِهِ الأَبْوَابُ الَّتِي قَالَ اللهُ فِيهَا عَلَى لِسَانِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ [الآية ٦٧ سورة يوسف] .

والفَرَمَا بِهَا النَّخْلُ العَجِيبُ الَّذِي يُثْمِرُ حِينَ يَنْقَطِعُ البُشْرُ والرُّطْبُ مِنْ سَائِرِ الدُّنْيَا ، فَيَبْتَدِئُ هَذَا الرُّطْبُ مِنْ حِينَ يَلِدُ النَّخْلُ فِي الكَوَانِينِ ، فَلَا يَنْقَطِعُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى يَجِيءَ البَلْحُ فِي الرَّبِيعِ . وَهَذَا لَا يُوجَدُ فِي بَلَدٍ مِنَ البُلْدَانِ ، لَا بِالبَصْرَةِ ، وَلَا بِالحِجَازِ ، وَلَا بِالبَيْتِمْنِ ، وَلَا بِغَيْرِهَا مِنَ البُلْدَانِ . وَيَكُونُ فِي هَذَا البُشْرِ مَا وَزَنَ البُشْرَةَ الوَاحِدَةَ فَوْقَ العَشْرِينَ دِرْهَمًا ، وَفِيهِ مَا طُولُ البُشْرَةِ نَحْوَ الشُّبْرِ والفِئْرِ^١ .

وقال ابنُ المأمونِ البَطَّائِحِيُّ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسٍ مِائَةٍ : وَوَصَلَتْ التَّجَابُونَ مِنْ وَاليِ الشَّرْقِيَّةِ تُخِيرُ بِأَنَّ بُغْدُوِيْنَ [Baldwin] مَلِكُ الفِرْنَجِ وَصَلَ إِلَى أَعْمَالِ الفَرَمَا ؛ فَسَيَّرَ الأَفْضَلَ بْنَ أَمِيرِ الجُيُوشِ لِلوَقْتِ إِلَى وَاليِ الشَّرْقِيَّةِ بِأَنَّ يُسَيِّرَ المَرْكَزِيَّةَ والمُقَطَّعِينَ بِهَا ، وَسَيَّرَ الرَّاجِلَ مِنَ العُطُوفِيَّةِ ، وَأَنَّ يَسِيرَ الوَاليِ بِنَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى العُرْبَانِ بِأَسْرِهِمْ بِأَنَّ يَكُونُوا فِي الطُّوَالِجِ ، وَيُطَارِدُوا الفِرْنَجَ ، وَيُشَارِفُوهُمْ بِاللَّيْلِ قَبْلَ وُضُوعِ العَسَاكِرِ إِلَيْهِمْ ، فَاعْتَمَدَ ذَلِكَ . ثُمَّ أَمَرَ بِإِخْرَاجِ الخِيَامِ وَتَجْهِيزِ الأَصْحَابِ وَالْحَوَاشِي ؛ فَلَمَّا تَوَاصَلَتْ العَسَاكِرُ وَتَقَدَّمَا العُرْبَانِ ، وَطَارَدُوا الفِرْنَجَ ، وَعَلِمَ بُغْدُوِيْنَ [Baldwin] مَلِكُ الفِرْنَجِ أَنَّ العَسَاكِرَ مُتَوَاصِلَةٌ إِلَيْهِ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ الإِقَامَةَ لَا تُمَكِّنُهُ ، أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالنَّهْبِ وَالتَّخْرِيْبِ وَالإِحْرَاقِ ، وَهَدَمَ المَسَاجِدَ ، فَأَحْرَقَ جَامِعَهَا وَمَسَاجِدَهَا وَجَمِيعَ البَلَدِ ، وَعَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ ، فَأَخَذَهُ اللهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَعَجَّلَ بِنَفْسِهِ إِلَى النَّارِ . فَكَتَمَ أَصْحَابُهُ مَوْتَهُ ، وَصَارُوا بَعْدَ أَنْ شَقُّوا بَطْنَ بُغْدُوِيْنَ وَمَلَأُوهُ مِلْحًا حَتَّى بَقِيَ إِلَى بِلَادِهِ ، فَذَقْنُوهُ بِهَا^٢ .

وَأَمَّا العَسَاكِرُ الإِسْلَامِيَّةُ ، فَإِنَّهُمْ شَنُّوا الغَارَاتِ عَلَى بِلَادِ العَدُوِّ ، وَعَادُوا بَعْدَ أَنْ خَيَّمُوا عَلَى ظَاهِرِ عَشَقْلَانَ .

^١ ابن الكندي : فضائل مصر ٣٤ - ٣٥ ؛ وقارن ابن زولاقي : فضائل مصر وأخبارها ٥٧ - ٥٨ ؛ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ٥٤ .

^٢ قارن ، المقرئزي : اتعاظ الحنفا ٣ : ٥٣ ، المقفى الكبير ٢ : ٤٤٠ ؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٥ : ١٧١ وفيه : فشق أصحابه بطنه وصبروه ، ورموا حشوته هناك ، فهي ترجم =

وَكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ ظَهيرِ الدِّينِ طُغْدَكِينِ - صَاحِبِ دِمَشْقِ - بِأَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى بِلَادِ الْفَرِجِجِ ، فَسَارَ إِلَى عَشَقْلَانَ ، وَحَمَلَتْ إِلَيْهِ الضِّيَافَاتِ .

وَطَوَّلَعَ بِخَبَرِ وُصُولِهِ فَأَمَرَ بِحَمْلِ الْخِيَامِ وَعِدَّةِ وَافِرَةٍ مِنَ الْخَيْلِ وَالْكَسْوَاتِ وَالْبُثُودِ وَالْأَعْلَامِ وَسَيْفِ ذَهَبٍ وَمِنْطَقَةِ ذَهَبٍ وَطَوْقِ ذَهَبٍ وَبَدَلَةَ طَقْمٍ وَخَيْمَةَ كَبِيرَةً مُكَمَّلَةً وَمَرْتَبَةَ مُلُوكِيَّةٍ وَفَرَشَهَا وَجَمِيعَ آلاتِهَا وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ آلاتِ الْفِضَّةِ .

وَسُيِّرَ بِرِشْمِ شَمْسِ الْخَوَاصِّ - وَهُوَ مُقَدَّمٌ كَبِيرٌ - خِلْعَةً مُذَهَّبَةً وَمِنْطَقَةَ ذَهَبٍ وَسَيْفٌ وَسُيِّرَ بِرِشْمِ الْمُعَيَّرِينَ مِنَ الْوَاصِلِينَ خِلْعٌ وَسُيُوفٌ ، وَسُلِّمَ ذَلِكَ بِثَبْتِ لِأَحَدِ الْحُجَّابِ ، وَسُيِّرَ مَعَهُ فَرَّاشَانِ بِرِشْمِ الْخِيَامِ .

وَأَمَرَ بِضَرْبِ الْخَيْمَةِ الْكَبِيرَةِ وَفَرَشَهَا ، وَأَنْ يَرْكَبَ وَالِي عَشَقْلَانَ وَظَهيرِ الدِّينِ وَشَمْسِ الْخَوَاصِّ وَجَمِيعِ الْأَمْراءِ الْوَاصِلِينَ وَالْمُقِيمِينَ بِعَشَقْلَانَ إِلَى بَابِ الْخَيْمَةِ وَيُقْبَلُوهُ ، ثُمَّ إِلَى بِسَاطِهَا وَالْمَرْتَبَةِ الْمَنْصُوبَةِ ، ثُمَّ يَجْلِسَ الْوَالِي وَظَهيرِ الدِّينِ وَشَمْسِ الْخَوَاصِّ وَالْمُقَدَّمُونَ وَيَقِفُ النَّاسُ بِأَجْمَعِهِمْ إِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا . وَيُخْلَعُ عَلَى الْأَمِيرِ ظَهيرِ الدِّينِ وَشَمْسِ الْخَوَاصِّ ، وَتُشَدُّ الْمَنَاطِقُ فِي أَوْسَاطِهِمَا ، وَيُقَلَّدَا بِالسُّيُوفِ ، وَيُخْلَعُ بَعْدَهُمَا عَلَى الْمُعَيَّرِينَ ، ثُمَّ يَسِيرُ ظَهيرُ الدِّينِ وَالْمُقَدَّمُونَ بِالشَّرِيفِ وَالْأَعْلَامِ وَالرَّايَاتِ الْمُسَيَّرَةِ إِلَيْهِمْ ، إِلَى أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْخِيَامِ الَّتِي ضُرِبَتْ لَهُمْ . فَإِذَا كَانَ كُلُّ يَوْمٍ يَرْكَبُ الْوَالِي وَالْأَمِيرَانِ وَالْمُقَدَّمُونَ وَالْعَسَاكِرُ إِلَى الْخَيْمَةِ الْمُلُوكِيَّةِ ، وَيَتَفَاوَضُونَ فِيهَا يَجِبُ مِنْ تَذْيِيرِ الْعَسَاكِرِ ، فَاثْمَثَلَ ذَلِكَ .

وَتَوَاصَلَتِ الْغَارَاتُ عَلَى بِلَادِ الْعَدُوِّ ، وَأَسْرَوْا وَقَتَلُوا ، فَسُيِّرَتْ إِلَيْهِمُ الْخِلْعُ ثَانِيًا ، وَجُعِلَ لِشَمْسِ الْخَوَاصِّ خَاصَّةً فِي هَذِهِ الشَّفْرَةِ عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، وَتَسَلَّمَ ظَهيرُ الدِّينِ الْخَيْمَةَ الْكَبِيرَةَ بِمَا فِيهَا . وَكَانَ تَقْدِيرُ مَا حَصَلَ لَهُ وَالْأَصْحَابِ ثَلَاثِينَ آلَافِ دِينَارٍ . وَبَلَغَ الْمُنْفَقُ فِي هَذِهِ النُّوْبَةِ وَعَلَى ذَهَابِ بُغْدُودِينَ وَهَلَائِكِهِ مِائَةَ آلَافِ دِينَارٍ^١ .

وَفِي شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسٍ مِائَةَ نَزَلَ الْفَرِجِجُ عَلَى الْفَرَمَا فِي جَمْعٍ كَبِيرٍ وَأَحْرَقُوهَا وَنَهَبُوا أَهْلَهَا^٢ .

^١ = إِلَى الْيَوْمِ بِالسَّبْحَةِ .

^٢ ابْنِ مَيْسَرٍ : أَخْبَارُ مِصْرَ ١١٤٤ : النُّوْبِيُّ : نَهَايَةُ الْأَرْبِ

^١ ابْنُ الْمَأْمُونِ : أَخْبَارُ مِصْرَ ١٣-١٤ : الْمُقْرِيزِيُّ : اتِعَاظُ ٣١٣:٢٨-٣١٤ : الْمُقْرِيزِيُّ : اتِعَاظُ الْخَنْفَا ٣: ٢٠١ .

الْخَنْفَا ٣: ٥٣-٥٤ .

وَأَخِرُ أَمْرُهَا أَنَّ الْوَزِيرَ شَاوَرَ خَرَّبَهَا لَمَّا خَرَجَ مِنْهَا مُتَوَلِّيًا مِنْهُمْ أَخُو الضَّرْعَامِ فِي سَنَةِ...^(a)
فَاسْتَمَرَّتْ خَرَابًا لَمْ تُعْمَرَ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَكَانَ بِالْفَرَمَا وَالبُقَارَةَ وَالْوَرَادَةَ عَرَبٌ مِنْ جُدَامٍ يُقَالُ لَهُمُ القَاطِعُ ، وَهُوَ جَزْيِيُّ بْنُ عَوْفِ بْنِ
مَالِكِ بْنِ شَنْوَةَ بْنِ بُدَيْلِ بْنِ جُشَمِ بْنِ جُدَامٍ ، مِنْهُمْ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ الْوَزِيرِ بْنِ صَابِي بْنِ مَالِكِ بْنِ
عَامِرِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ خَرَّشِ بْنِ نَفَرِ بْنِ نَضْرِ بْنِ القَاطِعِ ، مَاتَ فِي صَفْرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَمِائَتَيْنِ .
وَاللُّسْرِيُّ^(b) وَالجَزَوِيُّ هُنَا أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ أَتَيْنَا^(c) عَلَيْهَا فِي كِتَابِ «عِقْدِ جَوَاهِرِ الْأَسْفَاطِ فِي أَخْبَارِ
مَدِينَةِ القُسْطَاطِ»^١ .

وَقَالَ ابْنُ الكِنْدِيِّ : وَبِهَا مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ ، وَهُوَ البَرْزَخُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ : ﴿مَرَجَ
البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَتَّصِيَانِ﴾ [الآيَاتُ ١٩ ، ٢٠ سُورَةُ الرَّحْمَنِ] ، وَقَالَ : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ
حَاجِزًا﴾ [الآيَةُ ٦١ سُورَةُ النَّمْلِ] ، وَهُمَا بَحْرُ الرُّومِ وَبَحْرُ الصِّينِ ، وَالحَاجِزُ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةٌ لَيْلَةٌ مَا بَيْنَ
القُلْزُومِ وَالفَرَمَا ، وَليس يَتَقَارَبَانِ فِي بَلَدٍ مِنَ البُلْدَانِ أَقْرَبَ مِنْهُمَا بِهَذَا المَوْضِعِ ، وَبَيْنَهُمَا فِي الشَّفَرِ
مَسِيرَةٌ شُهُورٌ^٢ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ القُلْزُومِ

/القُلْزُومُ - بَضَمُّ القَافِ وَشُكُونُ اللَّامِ وَضَمُّ الزَّايِ وَمِيمٌ - بَلَدَةٌ كَانَتْ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ اليَمَنِ
فِي أَقْصَاهُ مِنْ جِهَةِ مِصْرَ . وَهِيَ كُورَةٌ مِنْ كُورِ مِصْرَ ، وَإِلَيْهَا يُنْسَبُ بَحْرُ القُلْزُومِ^٣ ، وَبِالقُرْبِ مِنْهَا
غَرِقٌ فِرْعَوْنُ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ مَدِينَةِ مِصْرَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ؛ وَقَدْ خَرِبَتْ ، وَيُعْرَفُ اليَوْمَ مَوْضِعُهَا بِالشُّوَيْسِ
تَجَاهَ عَجْرُودٍ^٤ .

وَلَمْ يَكُنْ بِالقُلْزُومِ مَاءٌ وَلَا شَجَرٌ وَلَا زَرْعٌ ، وَإِنَّمَا يُحْمَلُ المَاءُ إِلَيْهَا مِنْ آبَارٍ بَعِيدَةٍ . وَكَانَ بِهَا فُرْضَةٌ
مِصْرَ وَالشَّامَ ، وَمِنْهَا تُحْمَلُ الحُمُولَاتُ إِلَى الحِجَازِ وَاليَمَنِ .

(a) بياض بالنسخ ولعلها ٥٥٩ . (b) بولاق : السروي . (c) بولاق : نبها .

^١ هذه الإشارة الوحيدة في الخطط إلى هذا الكتاب الذي يتناول فيه المقرئ تاريخ مصر قبل العصر الفاطمي .

^٢ ابن الكندي : فضائل مصر ٤٨ .

^٣ انظر فيما تقدم ٤٠ .

^٤ انظر ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٣٨٧ - ٣٨٨

الزبيدي : تاج العروس ٩ : ٣٢ ؛ محمد رمزي : القاموس

الجغرافي ١ : ٩٩ ؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, 149

.Ebied, R. Y., *El² art. al-Kulzum* V, pp. 368-69

ولم يكن بين القُلْزُومِ وفاران قَرْيَةً ولا مَدِينَةً ، سوى ^(a) نَحْلٌ يَسِيرٌ فِيهِ صَيَّادُونَ لِلسَّمَكِ . وكذلك من فاران وجبيلان ^(b) إلى أَيْلَةَ .

قال ابنُ الطَّوَيْرِ : والبَلَدُ المعروفُ بالقُلْزُومِ أَكْثَرُهَا باقِي إلى اليوم ، وَيَرَاهَا الرَّاكِبُ السَّائِرُ من مصر إلى الحجاز . وكانت في القَدِيمِ سَاحِلًا من سَوَاحِلِ الدَّوْلَةِ ^(c) المِصْرِيَّةِ ، ورَأَيْتُ شَيْقًا من حِسابِهِ من جِهَةِ مُسْتَحْدَمِيهِ فِي حَوَاصِلِ القَصْرِ وما يُنْفَقُ على وَآلِيهِ وَقَاضِيهِ وَدَاعِيهِ وَخَطِيْبِهِ وَالْأَجْنَادِ المُرَكِّزِينَ بِهِ لِحِفْظِهِ وَقُرْبِهِ وَجَامِعِهِ وَمَسَاجِدِهِ ، وكان مَسْكُونًا مَأْهُولًا .

قال المُسَبِّحِيُّ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ : وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَامَحَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ أَهْلَ مَدِينَةِ القُلْزُومِ مِمَّا كَانَ يُؤْخَذُ مِنْ مُكُوسِ المَرَاكِبِ ^١ .

وقال ابنُ خُرْدَاذِبَةَ عَنِ التُّجَّارِ : فَيَزْكَبُونَ فِي البَحْرِ الغَرْبِيِّ ، وَيَخْرُجُونَ بِالْفَرَمَا وَيَحْمِلُونَ تِجَارَاتِهِمْ عَلَى الظُّهْرِ إِلَى القُلْزُومِ - وَبَيْنَهُمَا خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرَسَخًا - ثُمَّ يَزْكَبُونَ البَحْرَ الشَّرْقِيَّ مِنَ القُلْزُومِ إِلَى الجَارِ ^(d) وَجُدَّةً ، ثُمَّ يَمْضُونَ إِلَى السُّنْدِ وَالهِنْدِ وَالصِّينِ ^٢ .

وَمِنَ القُلْزُومِ يَنْزِلُ النَّاسُ فِي بَرِّيَّةٍ وَصَخْرَاءٍ سِتَّ مَرَاجِلَ إِلَى أَيْلَةَ ، وَيَتَرَوَّدُونَ مِنَ المَاءِ لِهَذِهِ السَّتِّ مَرَاجِلَ . وَيُقَالُ إِنَّ بَيْنَ القُلْزُومِ وَبَحْرِ الرُّومِ ثَلَاثَ مَرَاجِلَ ، وَإِنَّ مَا بَيْنَهُمَا هُوَ البَرَزَخُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿بَيْنَهُمَا بَرَزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [آيَةُ ٢٠ سُورَةِ الرَّحْمَنِ] .

التَّيِّبِ

١٥

هُوَ أَرْضٌ بِالقُرْبِ مِنْ أَيْلَةَ ، بَيْنَهُمَا عَقَبَةٌ لَا يَكَادُ الرَّاكِبُ يَضَعُدُ مِنْ عَلَيْهَا لَصُعُوبَتِهَا ، إِلَّا أَنَّهَا مُهَدَّتْ مِنْ زَمَنِ خُمَارِوَيْهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ . وَيَسِيرُ الرَّاكِبُ مَرَحَلَتَيْنِ فِي فَحْصِ التَّيِّبِ هَذَا حَتَّى يُوَافِيَ سَاحِلَ بَحْرِ فَارَانَ ، حَيْثُ كَانَتْ مَدِينَةُ فَارَانَ ، وَهُنَاكَ غَرِقَ فِرْعَوْنُ .
وَالتَّيِّبُ مِقْدَارُ أَرْبَعِينَ فَرَسَخًا فِي مِثْلِهَا ، وَفِيهِ تَاهَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، لَمْ يَدْخُلُوا مَدِينَتَهُ وَلَا أُورَا إِلَى يَتِّبِ ، وَلَا بَدَّلُوا ثَوْبًا ، وَفِيهِ مَاتَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَيُقَالُ إِنَّ طُولَ التَّيِّبِ نَحْوَ مِنْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ^٣ .

٢٠

(a) بولاق : وهي . (b) بولاق : جيلان . (c) بولاق : الديار . (d) بولاق : تجار .

^١ المقرئزي : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٥ . (باقوت : معجم البلدان ٢ : ٦٩٩ ؛ محمد رمزي : القاموس

^٢ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ١٥٣ . (الجغرافي ١ : ٣٨) .

^٣ هو المعروف اليوم بوادي التيب في محافظة جنوب سيناء

وَاتَّفَقَ أَنَّ الْمَمَالِيكَ الْبَحْرِيَّةَ لَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْقَاهِرَةِ هَارِبِينَ ، فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ^١ ، مَرَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِالثِّيِّهِ فَتَاهُوا فِيهِ خَمْسَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ تَرَاءَى لَهُمْ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ سَوَادٌ عَلَى بُعْدٍ ، فَقَصَدُوهُ فَإِذَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ لَهَا سُورٌ وَأَبْوَابٌ كُلُّهَا مِنْ رُحَامٍ أَخْضَرَ ، فَدَخَلُوا بِهَا وَطَافُوا بِهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا الرَّمْلُ حَتَّى طَمَّ أَشْوَاقُهَا وَدُورُهَا ، وَوَجَدُوا بِهَا أَوَانِي وَمَلَابِسَ ، وَكَانُوا إِذَا تَنَاوَلُوا مِنْهَا شَيْئًا تَنَاطَرَ مِنْ طُولِ الْبَلَى . وَوَجَدُوا فِي صَيْنِيَّةٍ بَعْضَ الْبُرَّازِينِ تِسْعَةَ دِنَانِيرٍ ذَهَبًا ، عَلَيْهَا صُورَةٌ غَزَالٍ وَكِتَابَةٌ عِبْرَانِيَّةٌ ، وَخَفَرُوا مَوْضِعًا ، فَإِذَا حَجَرٌ عَلَى صِبْهِجٍ مَاءٌ فَشَرِبُوا مِنْهُ مَاءً أَفْرَدَ مِنَ الثَّلْجِ . ثُمَّ خَرَجُوا وَمَشَوْا لَيْلَةً ، فَإِذَا بِطَائِفَةٍ مِنَ الْعُرَبِيَّانِ حَمَلُوهُمْ إِلَى مَدِينَةِ الْكَرْكِ ، فَدَفَعُوا الدَّنَانِيرَ لِبَعْضِ الصَّيَّارِفَةِ ، فَإِذَا عَلَيْهَا أَنَّهَا ضُرِبَتْ فِي أَيَّامِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَدَفَعَ لَهُمْ فِي كُلِّ دِينَارٍ مِائَةَ دِرْهَمٍ^٢ .

١٠ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ الْخَضْرَاءَ مِنْ مَدُنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَهَا طُوفَانٌ رَمْلٌ يَزِيدُ تَارَةً وَيَنْقُصُ أُخْرَى ، لَا يَرَاهَا إِلَّا تَائِبَةٌ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ دِمْيَاطَ

١٥ اعْلَمَ أَنَّ دِمْيَاطَ كُورَةٌ مِنْ كُورِ أَرْضِ مِصْرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ تَيْبَسَ اثْنَا عَشَرَ فَرْسَخًا ؛ وَيُقَالُ سُمِّيَتْ بِدِمْيَاطَ مِنْ وَالدِ أَشْمُنَ بْنِ مِصْرَايِمَ بْنِ بَيْصَرَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَيُقَالُ إِنَّ إِدْرِيسَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ أَوَّلَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ ذُو الْقُوَّةِ وَالْجَبْرُوتِ : أَنَا اللَّهُ مُدِينُ الْمَدَائِنِ ، الْقَلْكَ بِأَمْرِي وَصُنْعِي ، أَجْمَعَ بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمِلْحِ وَالنَّارِ وَالثَّلْجِ ، وَذَلِكَ بِقُدْرَتِي وَمَكْنُونِ عِلْمِي الدَّالِ وَالْمِيمِ وَالْأَلْفِ وَالطَّاءِ .

قِيلَ هُمْ بِالشُّرْيَانِيَّةِ دِمْيَاطَ ، فَتَكُونُ دِمْيَاطَ كَلِمَةً سُورْيَانِيَّةً أَصْلُهَا دَمَطٌ : أَيُّ الْقُدْرَةِ ، إِشَارَةٌ إِلَى مَجْمَعِ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ^٣ .

^١ انظر فيما يلي ١: ٣٨٣ .

^٢ ابن أبيك : كثر الدرر ٨: ٢٦-٢٨ ؛ المقرئ : السلوك ١: ٣٩١ ؛ ويرى كاترمير أن المدينة التي مر بها هؤلاء المماليك هي مدينة البتراء (Quatremère, E., *Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte*, I/1 p. 49, n.

سنة ٦٣٣ هـ (أبو عبيد البكري : جغرافية مصر ٨٩-٩٠ ؛ مجهول : الاستبصار ٨٨ ؛ ياقوت : معجم البلدان =

وقال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: دِمْيَاطُ بَلَدٌ قَدِيمٌ بُنِيَ فِي زَمَنِ فُلَيْمُونِ بْنِ أَثْرِيْبِ بْنِ قُبْطِيمِ بْنِ مِضْرَائِمِ عَلَى اسْمِ غُلامٍ لَهُ (a) كَانَتْ أُمَّهُ سَاحِرَةً لِفُلَيْمُونِ^١.

وَلَمَّا قَدِمَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ، كَانِ عَلَى دِمْيَاطِ رَجُلٌ مِنْ أَسْحَوَالِ الْمُقَوْقِسِ يُقَالُ لَهُ الْهَامُوكُ؛ فَلَمَّا انْفَتَحَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِصْرَ، امْتَنَعَ الْهَامُوكُ بِدِمْيَاطِ وَاسْتَعَدَّ لِلْحَرْبِ، فَأَنْقَذَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْمُقَدَّادَ بْنَ الْأَسْوَدِ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَحَارَبَهُمُ الْهَامُوكُ، وَقُتِلَ ابْنُهُ فِي الْحَرْبِ، فَعَادَ إِلَى دِمْيَاطِ، وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَصْحَابَهُ فَاسْتَشَارَهُمْ فِي أَمْرِهِ.

وَكَانَ عِنْدَهُ حَكِيمٌ قَدْ حَضَرَ الشُّورَى، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ جَوْهَرَ الْعَقْلِ لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَمَا اسْتَعْنَى بِهِ أَحَدٌ إِلَّا هَدَاهُ إِلَى سَبِيلِ الْفَوْزِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْهَلَاكِ، وَهَؤُلَاءِ / الْعَرَبُ مِنْ بَدَأَ أَمْرَهُمْ لَمْ تُرَدِّ لَهُمْ رَايَةٌ، وَقَدْ فَتَحُوا الْبِلَادَ وَأَذَلُّوا الْعِبَادَ، وَمَا لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ قُدْرَةٌ، وَلَسْنَا بِأَشَدَّ مِنْ جُيُوشِ الشُّامِ وَلَا أَعَزُّ وَأَمْتَعُ، وَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ أُيِّدُوا بِالنُّصْرِ وَالظُّفْرِ، وَالرَّأْيُ أَنْ تَعْقِدَ مَعَ الْقَوْمِ ضُلْحًا نَنَالُ بِهِ الْأَمْنَ وَنَحْنُ الدَّمَاءُ وَصِيَانَةُ الْحَرَمِ، فَمَا أَنْتَ بِأَكْثَرَ رِجَالًا مِنَ الْمُقَوْقِسِ.

فَلَمْ يَغْبَأَ الْهَامُوكُ بِقَوْلِهِ، وَغَضِبَ مِنْهُ فَقَتَلَهُ. وَكَانَ لَهُ ابْنٌ عَارِفٌ عَاقِلٌ، وَلَهُ دَارٌ مُلَاصِقَةٌ لِلشُّورِ، فَخَرَجَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فِي اللَّيْلِ وَدَلَّهُمْ عَلَى عَوْرَاتِ الْبَلَدِ، فَاسْتَوْلَى الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا وَتَمَكَّنُوا مِنْهَا. وَبَرَزَ الْهَامُوكُ لِلْحَرْبِ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَهُمْ يُكَبِّرُونَ عَلَى سُورِ الْبَلَدِ وَقَدْ مَلَكَوهُ، فَعِنْدَمَا رَأَى شَطَا بْنَ الْهَامُوكِ الْمُسْلِمِينَ فَوْقَ الشُّورِ، لَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ وَمَعَهُ عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَفَتَّ ذَلِكَ فِي غَضَبٍ أَيْبِهِ وَأَسْتَأْمَنَ لِلْمِقْدَادِ، فَتَسَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ دِمْيَاطَ، وَاسْتَخْلَفَ الْمُقْدَادُ عَلَيْهَا، وَسِيرَ بِحَبْرٍ الْفَتْحَ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ.

وَخَرَجَ شَطَا - وَقَدْ أَسْلَمَ - إِلَى الْبُرْسِ وَالذَّمِيرَةِ وَأَشْمُومِ طَنَاحٍ، فَحَشَدَ أَهْلَ تَلِكِ النُّوَاحِي وَقَدِمَ بِهِمْ مَدَدًا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَوَّنَا لَهُمْ عَلَى غَدْوِهِمْ. وَسَارَ بِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِفَتْحِ تَيْسِ، فَبَرَزَ

(a) إضافة من التويري.

Maspero & Wiet, *Matériaux* pp. 92-93; Holt, P. 258; ابن بطوطة: الرحلة ١: ٢٣-٢٥؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٩٣-٩٥؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٨٠-٨٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٤٠٢؛ وعلي مبارك: الخطط التوفيقية ١١: ٣٦-٥٧؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١/٢: ٨٠.

١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧٨.

لأهلها وقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى قُتِلَ رَحِمَهُ اللهُ فِي المَعْرَكَةِ شَهِيدًا ، بَعْدَ مَا أَنْكَى فِيهِمْ وَقَتَلَ مِنْهُمْ ، فَحَمِلَ مِنَ المَعْرَكَةِ وَدُفِنَ فِي مَكَانِهِ المَعْرُوفِ بِه خَارِجَ دِمْيَاطَ . وَكَانَ قَتْلُهُ فِي لَيْلَةِ الجُمُعَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ، فَلذَلِكَ صَارَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ مَوْسِمًا يَجْتَمِعُ النَّاسُ فِيهَا مِنَ النَّوَاجِي عِنْدَ شَطَا وَيُخَيِّونَهَا ، وَهَمَّ عَلَى ذَلِكِ إِلَى اليَوْمِ .

وما زالت دِمْيَاطُ بِيَدِ المُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ نَزَلَ عَلَيْهَا الرُّومُ فِي سَنَةِ تِسْعِينَ مِنَ الهِجْرَةِ فَأَسْرَوْا خَالِدَ ابْنِ كَيْسَانَ - وَكَانَ عَلَى البَحْرِ هُنَاكَ - وَسَيَّرُوهُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ ، فَأَنْفَذَهُ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ الوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ مِنْ أَجْلِ الهُدْنَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرُّومِ .

فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ نَازَلَ الرُّومُ دِمْيَاطَ فِي ثَلَاثِ مِائَةٍ وَسِتِّينَ مَرَكَبًا ، فَقَتَلُوا وَسَبُّوا ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ .

وَلَمَّا كَانَتْ الفِئْتَةُ بَيْنَ الأَخْوَيْنِ مُحَمَّدِ الأَمِينِ وَعَبْدِ اللهِ المَأْمُونِ ، وَكَانَتْ الفِئْتَةُ بِأَرْضِ مِصْرَ ، طَمَعِ الرُّومِ فِي البِلَادِ ، وَنَازَلُوا دِمْيَاطَ فِي أَغْوَامِ بَضْعِ وَمِائَتَيْنِ .

ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المَتَوَكَّلِ عَلَى اللهِ ، وَأَمِيرِ مِصْرَ يَوْمئِذٍ عَنبَسَةَ بْنِ إِسْحَاقَ ، نَزَلَ الرُّومُ دِمْيَاطَ يَوْمَ عَرَفَةَ مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَمَلَكُوهَا وَمَا فِيهَا ، وَقَتَلُوا بِهَا جَمْعًا كَثِيرًا مِنَ المُسْلِمِينَ ، وَسَبُّوا النِّسَاءَ والأَطْفَالَ وَأَهْلَ الذُّمَّةِ . فَنَفَرَ إِلَيْهِمْ عَنبَسَةُ بْنُ إِسْحَاقَ يَوْمَ النَّخْرِ فِي جَيْشِهِ ، وَنَفَرَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يُدْرِكُوهُمْ ^١ . وَمَضَى الرُّومُ إِلَى تَنْبِيسَ فَأَقَامُوا بِأَشْتُومِهَا ، فَلَمْ يَتَّبِعَهُمْ عَنبَسَةُ ، فَقَالَ يَحْيَى بْنُ الفُضَيْلِ لِلْمَتَوَكَّلِ ^٢ :

[الطويل]

أَتْرَضَى بَأَنْ يُوطَا حَرِيمُكَ عَنوَةً
جِمَارٌ أَتَى دِمْيَاطَ والرُّومَ وَثَبَ
مُقِيمُونَ بِالأَشْتُومِ يَتَّعُونَ مِثْلَ مَا
فَمَا رَامَ مِنْ دِمْيَاطَ شَيْبًا وَلَا دَرَى
وَأَنْ يُسْتَبَاحَ المُسْلِمُونَ وَيُحْرَبُوا
بِتَنْبِيسَ مِنْهُ رَأَى العَيْنُ وَأَقْرَبُ
أَصَابِوهُ مِنْ دِمْيَاطَ والحَرْبُ تُرْتَبُ
مِنَ العَجْزِ مَا يَأْتِي وَمَا يُتَجَنَّبُ

Kubiak, W. B., «The Byzantine Attack on Damietta in 853 and the Egyptian Navy in the 9th century», *Byzantion* XL (1970), pp. 45-66

وانظر كذلك أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ١: ٤٦-٤٩ .

^٢ انظر الأبيات في معجم البلدان ٢: ٤٧٣ .

^١ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٢: ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

وراجع ، Levi Della - Vida, G., «A papyrus reference to the Damietta raid of 853 A.D.», *Byzantion* XVII (1944-45), pp. 212-21; Rémondon, R., «A propos de la menace byzantine sur Damiette sous le règne de Michel III», *Byzantion* XXIII (1953), pp. 254-60;

فَلَا تَنَسْنَا إِنَّا بَدَارِ مَضِيْعَةٍ بِمَصْرَ، وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ كَادَ يَذْهَبُ
فَأَمَرَ الْمُتَوَكِّلُ بِنَاءِ حِصْنِ دِمْيَاطَ، فَابْتُدِيَ فِي بِنَائِهِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لثَلَاثِ خَلْوَنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ
سَنَةِ تِسْعِ وَثَلَاثِينَ^١، وَأَنْشَأَ مِنْ حَيْثُذِ الْأَسْطُولِ بِمَصْرَ.

فَلَمَّا كَانَ فِي سَنَةِ تِسْعِ^٢ طَرَقَ الرُّومُ دِمْيَاطَ فِي نَحْوِ مَائَتِي مَرْكَبٍ، فَأَقَامُوا يَعْيشُونَ فِي
السُّوَاجِلِ شَهْرًا وَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ، وَكَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ مَعَهُمْ مَعَارِكُ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الْفِتْنُ بَعْدَ مَوْتِ كَافُورِ الْإِخْشِيدِيِّ، طَرَقَ الرُّومُ دِمْيَاطَ لِعَشْرِ خَلْوَنَ مِنْ رَجَبِ
سَنَةِ سَبْعِ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِ مِائَةٍ فِي بَضْعِ وَعِشْرِينَ مَرْكَبًا، فَقَتَلُوا وَأَسْرَوْا مِائَةَ وَخَمْسِينَ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي سَنَةِ ثَمَانِ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ، ظَهَرَ بِدِمْيَاطَ سَمَكَةٌ عَظِيمَةٌ طَوَّلَهَا مِائَتَانِ وَسِتُونَ ذِرَاعًا، وَعَرَضَهَا
مِائَةَ ذِرَاعٍ. وَكَانَتْ حَمِيرُ الْمِلْحِ تَدْخُلُ فِي جَوْفِهَا مَوْسُوقَةً فَتَفْرُغُ وَتَخْرُجُ، وَوَقَفَ خَمْسَةُ رِجَالٍ
فِي قَعْفِهَا وَمَعَهُمُ الْمَجَارِيفُ يَجْرِفُونَ الشَّحْمَ وَيُنَاوِلُونَهُ النَّاسَ، وَأَقَامَ أَهْلُ تِلْكَ النَّوَاجِي مِدَّةً طَوِيلَةً
يَأْكُلُونَ مِنْ لَحْمِهَا.

وَفِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ الْفَائِزِ بَنَصْرَ اللَّهِ عَيْسَى، وَالْوَزِيرِ حَيْثُذِ الصَّالِحِ طَلَائِعِ بْنِ زُرَّيْكَ، نَزَلَ عَلَى
دِمْيَاطَ نَحْوَ سِتِينَ مَرْكَبًا فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ بَعَثَ بِهَا جِيَوْمَ بْنِ
رُجَارِ صَاحِبِ^٣ صِقْلِيَّةِ^٤، فَعَاثُوا وَقَتَلُوا، وَنَزَلُوا تَيْسَ وَرَشِيدَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا
الْفَسَادَ.

ثُمَّ كَانَتْ خِلَافَةُ الْعَاضِدِ لَدِينِ اللَّهِ فِي وَزَارَةِ شَاوَرَ بْنِ مُجِيرِ السَّعْدِيِّ - الْوَزَارَةَ الثَّانِيَةَ - عِنْدَمَا
حَضَرَ مَلِكُ الْفِرَنْجِ مُرِّي [Amaury] إِلَى الْقَاهِرَةِ وَحَصَرَهَا، وَقَرَّرَ عَلَى أَهْلِهَا الْمَالَ، وَاخْتَرَقَتْ
مَدِينَةَ الْقُسْطَاطَ، فَنَزَلَ عَلَى تَيْسَ وَأَشْمُومَ وَمُنِيَّةَ عَمْرِ، وَصَاحِبِ أُسْطُولِ الْفِرَنْجِ فِي عِشْرِينَ
شُورَةَ، فَقَتَلَ وَأَسَرَ وَسَبَى.

(a) بولاق: سبع. (b) بولاق: لوجيز بن رجا وصاحب، الأصل: بوجير والمثبت من المصادر.

^١ الكندي: ولاية مصر ٢٢٧؛ وقارن النجوم الزاهرة ١١٥٣م، وحتى ١١٦٦/٥٦١م هو جيوم الأول بن رجار
Guillaume fils de Roger. ٢٩٤:٢

^٢ كان ملك صقلية في ذلك الوقت من ١٠٤٨/

وفي وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعايد، وصل الفرينج إلى دمياط في شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وخمس مائة، وهم فيما يزيد على ألف ومائتي / مراكب. فخرجت العساكر من القاهرة، وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمس مائة ألف وخمسين ألف دينار. فأقامت الحرب مدة خمسة وخمسين يوماً، وكانت صعبة شديدة. اتهم في هذه الثورة عدة من أعيان المصريين بمالأة الفرينج ومكاتبهم، وقبض عليهم الملك الناصر وقتلهم.

وكان سبب هذه الثورة أن الغز لما قدموا إلى مصر من الشام صعبة أسد الدين شيركوه، تحرك الفرينج لغزو ديار مصر خشية من تمكن الغز بها، فاستمدوا إخوانهم أهل صقلية فأمدوهم بالأموال والسلاح، وبعثوا إليهم بعدة وافرة. فساروا بالدبابات والمجانيق، ونزلوا على دمياط في صفر. وهم في العدة التي ذكرنا من المراكب - وأحاطوا بها بحرًا وبرًا. فبعث السلطان بابن أخيه تقي الدين عمرو، وأتبعه بالأمير شهاب الدين الحارمي في العساكر إلى دمياط، وأمددهما بالأموال والميرة والسلاح. واشتد الأمر على أهل دمياط وهم ثابتون على محاربة الفرينج.

فسيّر صلاح الدين إلى نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام يستنجده، ويغلبه بأنه لا يمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرينج خوفاً من قيام المصريين عليه. فجهز إليه العساكر شيئاً بعد شيء، وخرج نور الدين من دمشق بنفسه إلى بلاد الفرينج التي بالساحل وأغار عليها واستباحها. فبلغ ذلك الفرينج وهم على دمياط، فخافوا على بلادهم من نور الدين أن يتمكن منها، فرحلوا عن دمياط في الخامس والعشرين من ربيع الأول، بعد ما غرق لهم نحو الثلاث مائة مراكب، وقتل رجالهم بقتلهم، وأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها^١.

وكان صلاح الدين يقول: ما رأيت أكرم من العايد أرسل إليّ مدة مقام الفرينج على دمياط ألف ألف دينار، سوى ما أرسله إليّ من الثياب وغيرها.

وفي سنة سبع وسبعين وخمس مائة، رُبت المقاتلة على البروجين، وشدت مراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البروجين، ورمّ شعث سور المدينة وشدت ثلثه،

^١ راجع، ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٤٣-١٤٤، ابن الفرات: تاريخ ١٧٩:١-١٨٣؛ ابن خلكان: وفيات ٧:١٥٢؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا ٣:٣١٥-٣١٦؛ أمين فؤاد: الدولة الفاطمية ٣٠٢-٣٠٣. أبا شامة: الروضتين ١:٤٥٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب

وَأْتَقِنَتِ السُّلَيْسَةَ الَّتِي بَيْنَ الْبُرْجَيْنِ ، فَبَلَغَتِ النَّفَقَةَ عَلَى ذَلِكَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ . وَاعْتَبِرَ الشُّورَ ، فَكَانَ قِيَاسُهُ أَرْبَعَةَ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا ^١ .

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ ، أَمَرَ السُّلْطَانُ بِقَطْعِ أَشْجَارِ بَسَاتِينِ دِمِشَاطٍ وَخَفَرِ خَنْدَقِهَا ، وَعَمَلَ جِسْرًا عِنْدَ سِلْسِلَةِ الْبُرْجِ ^٢ .

- ٥ وَفِي سَنَةِ خَمْسِ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، كَانَتْ وَاقِعَةُ دِمِشَاطِ الْعُظْمَى ^٣ ؛ وَكَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ أَنَّ الْفَرِجَّ فِي سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِائَةٍ تَتَابَعَتْ أَمْدَادُهُمْ مِنْ رُومِيَةِ الْكِبْرَى مَقَرَّ الْبَابَا وَمِنْ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْفَرِجِ . وَسَارُوا إِلَى مَدِينَةِ عَكَا فَاجْتَمَعَ بِهَا عِدَّةٌ مِنْ مُلُوكِ الْفَرِجِ ، وَتَعَاقَدُوا عَلَى قَصْدِ الْقُدْسِ وَأَخْذِهِ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، فَصَارُوا بِعَكَا فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ . وَبَلَغَ ذَلِكَ الْمَلِكُ أَبُو بَكْرَ بْنَ أَيُّوبَ ، فَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ فِي الْعَسَاكِرِ إِلَى الرَّهْمَلَةِ ، فَبَرَزَ الْفَرِجُ مِنْ عَكَا فِي جُمُوعٍ عَظِيمَةٍ ؛ فَسَارَ الْعَادِلُ إِلَى بَيْسَانَ ، فَقَصَدَهُ الْفَرِجُ فَخَافَهُمْ لكَثْرَتِهِمْ وَقِلَّةِ عَشِكَرِهِ ، فَأَخَذَ عَلَى عَقَبَةِ فَيْتَقَ يُرِيدُ دِمَشَقَ .

- ١٠ وَكَانَ أَهْلُ بَيْسَانَ وَمَا حَوْلَهَا قَدْ اطْمَأَنَّنُوا لِنُزُولِ السُّلْطَانِ هُنَاكَ ، فَأَقَامُوا فِي أَمَاكِينِهِمْ . وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَارَ السُّلْطَانُ ، وَإِذَا بِالْفَرِجِ قَدْ وَضَعُوا السَّيْفَ فِي النَّاسِ ، وَنَهَبُوا الْبِلَادَ ، فَحَازُوا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً ، وَأَخَذُوا بَيْسَانَ وَبَانِيَّاسَ وَسَائِرَ الْقُرَى الَّتِي هُنَاكَ وَأَقَامُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَرْجِ عَكَا بِالْغَنَائِمِ وَالسَّبْيِ ، وَهَلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَلْقٌ كَثِيرٌ . فَاسْتَرَحَ الْفَرِجُ بِالْمَرْجِ أَيَّامًا ، ثُمَّ عَادُوا ثَانِيًا وَنَهَبُوا صَيْدًا وَالشَّقِيفَ ، وَعَادُوا إِلَى مَرْجِ عَكَا فَأَقَامُوا بِهِ . وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِيمَا بَيْنَ النُّصْفِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ وَعِيدِ الْفِطْرِ ، وَالْمَلِكُ الْعَادِلُ مُقِيمٌ بِمَرْجِ الصُّفْرِ ، وَقَدْ سَيَّرَ ابْنَهُ الْمُعْظَمَ عَيْسَى بِعَشِكَرٍ إِلَى نَابُلُسَ لِمَنْعِ الْفَرِجِ مِنْ طُرُوقِهَا وَالْوُضُولِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

- ١٥ فَنَازَلَ الْفَرِجُ قَلْعَةَ الطُّورِ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا ثُمَّ عَادُوا إِلَى عَكَا ؛ وَعَزَمُوا عَلَى قَصْدِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فَرَكِبُوا بِجَمُوعِهِمِ الْبَحْرَ ، وَسَارُوا إِلَى دِمِشَاطٍ فِي صَفَرٍ فَتَزَلُّوا عَلَيْهَا يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ رَابِعَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ خَمْسِ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِائَةٍ - الْمُؤَافِقَ لِثَامِينَ حُزَيْرَانَ - وَهُمْ نَحْوُ السَّبْعِينَ أَلْفَ فَارِسٍ وَأَرْبَعِ مِائَةِ أَلْفِ رَاجِلٍ ، فَحَيَّيْمُوا تَجَاهَ دِمِشَاطٍ فِي الْبَرِّ الْعَرَبِيِّ ، وَخَفَرُوا عَلَى عَشِكَرِهِمْ خَنْدَقًا ، وَأَقَامُوا عَلَيْهِ سُورًا ؛

^١ المقرئزي: السلوك ١: ٧٤ . وانظر كذلك ابن الأثير: الكامل ١٢: ٣٢٣-٣٣١؛

^٢ نفسه ١: ١١١ . النويري: نهاية الأرب ٢٩: ٨٧-٩٣ ، ٩٤-٩٥؛

^٣ ينقل المقرئزي خبر واقعة دِمِشَاطِ الْعُظْمَى عَنْ ابْنِ

واصل: مفرج الكروب ٣: ٢٥٤-٢٦١ ، ٤: ١٥-٢٠ ؛ ٢٠٥-٢١٠ .

وشرعوا في قتال بُرْجِ دِمِيَاطَ ، فإنه كان بُرْجًا مَنِيعًا فيه سلاسل من حديد غِلاظٌ تُمدُّ على النَّيْلِ لَتَمْنَعَ المَرَائِبَ الوَاصِلَةَ في البَحرِ المِلْحِ من الدُّخُولِ إلى ديارِ مِصرَ في النَّيْلِ . وذلك أنَّ النَّيْلَ إذا انتهى إلى فُسطاطِ مِصرَ مرَّ عليه في ناحية الشَّمَالِ إلى شَطْنُوفَ ، فإذا صارَ إلى شَطْنُوفَ انقسمَ قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُما يَمُرُّ في الشَّمَالِ إلى رَشِيدٍ فيصُبُّ في البَحرِ المِلْحِ ، والشَّطْرُ الآخرُ يَمُرُّ من شَطْنُوفَ إلى جَوْجَرَ ؛ ثم يتفرَّقُ من عند جَوْجَرَ فُرْقَتَيْنِ : فُرْقَةٌ تمرُّ إلى أَشْمُومَ فتصُبُّ في بُحَيْرَةِ تَيْسَ ، وفُرْقَةٌ تمرُّ من جَوْجَرَ إلى دِمِيَاطَ فتصُبُّ في البَحرِ المِلْحِ هناك . وتصيرُ هذه الفُرْقَةُ من النَّيْلِ فاصِلَةً بين مَدِينَةِ دِمِيَاطَ والبَرِّ الغَربِيِّ ^١ .

وهذا البَرُّ الغَربِيُّ من دِمِيَاطَ يُعرَفُ بِجَزِيرَةِ دِمِيَاطَ ، يُحيطُ بها ماءُ النَّيْلِ والبَحرِ المِلْحِ . وفي مُدَّةِ إقامَةِ الفِرِجْ بِهذا البَرِّ الغَربِيِّ ، عَمِلُوا الآلاتِ والمِرماتِ ^(a) ، وأقاموا أُبراجًا يَزْحَفُونَ بها / في المَرَائِبَ إلى بُرْجِ السُّلَيْسِلَةِ لِيَمْلِكُوهُ ، فإنَّهُم إذا مَلَكوهُ تَمَكَّنُوا من العبُورِ في النَّيْلِ إلى القَاهِرَةِ ومِصرَ . وكان هذا البُرْجُ مَشْحُونًا بالمُقَاتِلَةِ ، فَتَحِيلُ الفِرِجْ عليه ، وَعَمِلُوا بُرْجًا من الصُّواري على بَسْطَةِ كَبِيرَةٍ ، وأقْلَعُوا بها حتى أَستَدَوْها إليه وقاتلوا مَنْ به حتى أَخَذُوهُ .

فَبَلَغَ نُزُولُ الفِرِجْ على دِمِيَاطَ المَلِكِ الكَامِلِ - وكان يَخْلُفُ أباه المَلِكَ العادِلَ على ديارِ مِصرَ - فَخَرَجَ بِمَنْ مَعَهُ من العَسَاكِرِ في ثالِثِ يَوْمٍ من وُقُوعِ الطَّائِرِ بِخَبَرِ نُزُولِ الفِرِجْ لِخَمْسِ خَلَوْنَ مِنْهُ ، وَأَمَرَ واليَ الغَزَبِيَّةِ بِجَمْعِ الغُزبانِ ، وسارَ في جَمْعِ كَبِيرٍ .
وخرَجَ الأَسْطُولُ فأقامَ تَحْتِ دِمِيَاطَ ، ونَزَلَ السُّلْطَانُ بِمَنْ مَعَهُ من العَسَاكِرِ بِمَنْزِلَةِ العادِلِيَّةِ ^٣ قُرْبَ دِمِيَاطَ ، وامتدَّتْ عَسَاكِرُهُ إلى دِمِيَاطَ لَتَمْنَعَ الفِرِجْ من الشُّورِ ، والقِتالِ مُسْتَمِرًّا والبُرْجُ مُتَمْنِعٌ مُدَّةَ أربَعَةِ أَشْهُرٍ . والعادِلُ يُسِيرُ العَسَاكِرَ من البلادِ الشَّامِيَةِ شيئًا بعدَ شيءٍ ، حتى تَكَامَلَتْ عندَ المَلِكِ الكَامِلِ .

(a) بولاق : والمراسي والمثبت من النسخ ومفرج الكروب .

^١ انظر فيما تقدم ١٦٦ الحديث عن تحول الدلتا المصرية ، وأن شطنوف كانت في هذا الزمان هي رأس الدلتا .
^٢ مَرْمَةٌ ج. مَرِمَاتُ : نوع من السفن الحربية الكبيرة يظهر أنها من أصل إيطالي Maremma وهي اسم ناحية في إيطاليا ، تردَّد ذكرها في المصادر التاريخية لهذه الفترة
^٣ العادلية من القرى القديمة أسسها الملك العادل أبو بكر ابن أيوب سنة ٦١٤ ليتخذها قاعدة يواجه منها الفرج =

واهتمَّ الملكُ لثُزولِ الفِرَنجِ على دِمِياطِ واشتدَّ خَوْفُهُ ، فرَحَلَ من مَرَجِ الصُّقْرِ إلى غالِقين ، فنَزَلَ به المرضُ وماتَ في سابعِ جمادى الآخرة . فكَتَمَ الملكُ المُعَظَّمُ عيسى مَوْتَهُ ، وَحَمَلَهُ في مَحْفَةِ وجَعَلَ عندهِ خادِمًا وطَبِيبًا رَاكِبًا إلى جانبِ المَحْفَةِ ، والشُّرابُ دارُ يُضَلِّحُ الشُّرابَ وَيَحْمِلُهُ إلى الخادِمِ فيشْرَبُهُ ، ويُوهِمُ النَّاسَ أَنَّ السُّلْطَانَ شَرِبَهُ ، إلى أن دَخَلُوا به إلى قَلْعَةِ دِمَشْقَ ، وصارت إليها الخَزَائِنُ والبُيُوتاتُ ، فأَعْلَنَ بِمَوْتِهِ وتَسَلَّمَ ابنُهُ الملكُ المُعَظَّمُ جميعَ ما كان معه ، ودَفَنَهُ بِالْقَلْعَةِ ، ثم نَقَلَهُ إلى مَدْرَسَةِ العادِليَةِ بِدِمَشْقَ .

وبَلَغَ الملكُ الكامِلُ مَوْتُ أبيه وهو بِمَنْزِلَةِ العادِليَةِ قُرْبَ دِمِياطِ ، فاستَقَلَّ بِمَمْلَكَةِ ديارِ مصرِ . واشتدَّ الفِرَنجُ وَالْحُوا في القِتالِ حتى اسْتَوَلُوا على بُرْجِ السُّلَيْسِلَةِ ، وقَطَعُوا السُّلَيْسِلَةَ المُتَّصِلَةَ به لِتَجُوزَ مَراكِبُهُم في بحرِ النَّيْلِ وَيَتَمَكَّنُوا من البلادِ . فنَصَبَ الملكُ الكامِلُ بَدَلَ السُّلَيْسِلِ جِسْرًا عَظِيمًا لَمَنَعَ الفِرَنجَ من عُبورِ النَّيْلِ ، فقَاتَلَتِ الفِرَنجُ عليه قِتالًا شَدِيدًا إلى أن قَطَعُوهُ ، وكان قد أَنْفَقَ على البُرْجِ والجِسْرِ ما يَنيفُ على سَبْعين ألفَ دينارِ .

وكان الكامِلُ يَرْكَبُ في كُلِّ يومٍ عِدَّةَ مِرارٍ من العادِليَةِ إلى دِمِياطِ لِتَذْيِيرِ الأُمُورِ ، وإعمالِ الحِيلَةِ في مُكايَدَةِ الفِرَنجِ . فأَمَرَ الملكُ الكامِلُ أن يُفَرِّقَ عِدَّةً من المَراكِبِ في النَّيْلِ حتى تَمْنَعِ الفِرَنجُ من سُلُوكِ النَّيْلِ . فَعَمَدَ الفِرَنجُ إلى خَلِيجٍ هَناكَ يُعْرَفُ بِالْأزْرَقِ ، كان النَّيْلُ يَجْرِي فيه قَدِيمًا ، فَحَفَرُوهُ وَعَمَّقُوهُ حَفْرَهُ وَأَجْرُوا فيه المِاءَ إلى البحرِ المِلْحِ ، وَأَصْعَدُوا مَراكِبَهُم فيه إلى بُورَةٍ على أرضِ جِيزَةِ دِمِياطِ ، مُقابِلِ المَنْزِلَةِ التي بها السُّلْطَانُ لِيُقَاتِلُوهُ هَناكَ . فلَمَّا صَارُوا في بُورَةٍ جاءوه وَقَاتَلُوهُ في المِاءِ ، وَزَحَفُوا إليه عِدَّةَ مِرارٍ فلم يَظْفَرُوا منه بِطائِلِ .

ولم يَتَغَيَّرِ على أَهلِ دِمِياطِ شَيْءٌ ، لأنَّ المِيرَةَ والأَمْدادَ مُتَّصِلَةَ إليهم ، والنَّيْلُ يَحْجِزُ بَينَهُم وَبَينَ الفِرَنجِ ، وَأَبوابُ المَدِينَةِ مُفْتَحَةٌ ، وليسَ عليها من الحَصرِ ضِيقٌ ولا ضَرَرٌ ، والعُزْبانُ تَتَخَطَّفُ الفِرَنجَ في كُلِّ ليلَةٍ بِحيثِ امْتَنَعُوا الرِّقادَ^(a) خَوْفًا من غاراتِهِم ، فلَمَّا قَوِيَ طَمَعُ العَرَبِ في الفِرَنجِ حتى صاروا يَحْطِفُونَهُم نهارًا ، وَيَأْخُذُونَ الحَيِّمَ بَينَها ، أَكْمَنَ الفِرَنجُ لَهُم عِدَّةَ كَمِئاءٍ وَقَتَلُوا مِنْهُم

(a) بولاق : من الرقاد .

= عندما نزلوا دِمِياطَ في هذه السَنة . ذَكَرَها مُحَمَّدُ رَمزِي (٢٤٢:١) ، وهي في التَقْسيمِ الإِدْاري الحَالي تَابِعَةٌ لِمُحافظةِ تَابِعَةٌ لِمَرْكَزِ فارِسْكَورِ بِمُحافظةِ الدِقْهَلِيَةِ (القاموسُ الجِغرافي ٢ / دِمِياطِ .

خَلَقًا كَثِيرًا . وَأَذْرَكَ النَّاسَ الشُّتَاءَ ، وَهَاجَ الْبَحْرُ عَلَى مُخَيِّمِ الْمُسْلِمِينَ وَغَرَّقَهُمْ ، فَعَظُمَ الْبَلَاءُ وَتَزَايَدَ
الْغَمُّ . وَأَلْحَ الْفَرِجُ فِي الْقِتَالِ ، وَكَادُوا أَنْ يَمْلِكُوا ، فَبَعَثَ اللَّهُ رِيحًا قَطَعَتْ مَرَاسِي مَرْمَةِ الْفَرِجِ - وَكَانَتْ
مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا - فَمَرَّتْ إِلَى بَرِّ الْمُسْلِمِينَ فَأَخَذُوهَا ، فَإِذَا هِيَ مُصَفَّحَةٌ بِالْحَدِيدِ لَا تَعْمَلُ فِيهَا النَّارُ ،
وَمَسَاحَتُهَا خَمْسُ مِائَةِ ذِرَاعٍ ، فَكَسَرُوهَا إِذَا فِيهَا مَسَامِيرُ زِنَّةِ الْوَاحِدِ مِنْهَا خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَطْلًا .

وَبَعَثَ الْكَامِلُ إِلَى الْآفَاقِ سَبْعِينَ رُسُولًا ، يَسْتَنْجِدُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَخَوِّفُهُمْ
مِنْ غَلْبَةِ الْفَرِجِ عَلَى مِصْرَ . فَسَارُوا فِي سُؤَالٍ ، وَأَتَتْهُ النَّجْدَاتُ مِنْ حِمَاةٍ وَحَلَبَ .

وَبَيْنَمَا النَّاسُ فِي ذَلِكَ ، إِذْ طَمِعَ الْأَمِيرُ عِمَادُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي الْحُسَيْنِ
عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ الْهَكَارِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْمَشْطُوبِ فِي الْمَلِكِ الْكَامِلِ عِنْدَمَا بَلَغَهُ مَوْتُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ .

وَكَانَ لَهُ لَفِيفٌ يَنْقَادُونَ إِلَيْهِ وَيُطِيعُونَهُ ، وَكَانَ أَمِيرًا كَبِيرًا مُقَدَّمًا عَظِيمًا فِي الْأَكْرَادِ الْهَكَارِيَّةِ ، وَافِرٌ
الْحُرْمَةِ عِنْدَ الْمُلُوكِ ، مَعْدُودًا بَيْنَهُمْ مِثْلَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ . وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ عَالِي الْهَيْمَةِ ، غَزِيرَ الْجُودِ ،

وَاسِعَ الْكَرَمِ ، شُجَاعًا ، أَبِي النَّفْسِ ، تَهَابَهُ الْمُلُوكُ ، وَلَهُ الْوَقَائِعُ الْمَشْهُورَةُ . وَهُوَ مِنْ أَمْرَاءِ الدَّوَلَةِ
الصَّلَاحِيَّةِ يُوسُفُ ^(a) . فَاتَّفَقَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْجُنْدِ وَالْأَكْرَادِ عَلَى خَلْعِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، وَإِقَامَةِ أَخِيهِ

الْمَلِكِ الْفَائِزِ إِبْرَاهِيمَ لِيَصِيرَ لَهُ الْحُكْمُ . وَوَأَفَّقَهُ الْأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ الْحَمِيدِيُّ ، وَالْأَمِيرُ أَسَدُ الدِّينِ
الْهَكَارِيِّ ، وَالْأَمِيرُ مُجَاهِدُ الدِّينِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْأَمْرَاءِ .

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ ، دَخَلَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ وَالْمُضْحَفُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لِيُخْلِفُوا
لِلْفَائِزِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ انْفَضُّوا ، فَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ وَخَرَجَ ^(b) .

فَاتَّفَقَ وَصُولُ الصَّاحِبِ صَفِيِّ الدِّينِ بْنِ شُكْرٍ مِنْ آمِدٍ إِلَى الْمَلِكِ الْكَامِلِ - فَإِنَّهُ كَانَ اسْتَدْعَاهُ
بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ - فَتَلَقَّاهُ وَأَكْرَمَهُ وَذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ فِيهِ ، فَضَمَّنَ لَهُ تَحْصِيلَ الْمَالِ . فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ

رَكِبَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ وَتَوَجَّهَ مِنَ الْعَادِلِيَّةِ فِي جَرِيدَةٍ إِلَى أَشْمُومِ طَنَاحٍ ، فَتَزَلَّهَا . وَأَصْبَحَ الْعَسْكَرُ بِغَيْرِ
سُلْطَانٍ ، فَرَكِبَ كُلُّ مَنْهُمْ هَوَاهُ ، وَلَمْ يَعْطِفِ الْأَخُّ عَلَى أَخِيهِ ، وَتَرَكَوا أَثْقَالَهُمْ / وَخِيَامَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَلَحِقُوا بِالسُّلْطَانِ . فَبَادَرَ الْفَرِجُ فِي الصَّبَاحِ إِلَى مَدِينَةِ دِمْيَاطَ ، وَنَزَلُوا الْبِرَّ
الْشَرْقِيِّ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ سَادِسَ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ بِغَيْرِ مُنَازَعٍ وَلَا مُدِافِعٍ ، وَأَخَذُوا سَائِرَ مَا كَانَ فِي

عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ شَيْقًا لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ . وَدَاخَلَ السُّلْطَانُ وَهُمْ عَظِيمٌ ، وَكَادَ أَنْ يُفَارِقَ
الْبِلَادَ ، فَإِنَّهُ تَخَيَّلَ مِنْ جَمِيعٍ مِنْ مَعَهُ .

(a) بولاق : دولة صلاح الدين يوسف . (b) بولاق : فخرج .

واشتدَّ طَمَعُ الإِفْرِينجِ^(a) في أرضِ مصرِ كُلِّهَا ، وظَنُّوا أَنَّهُم قد مَلَكُوهَا ، إِلَّا أَنَّ اللهَ سَبَّحَانَهُ وتعالى أَغاثَ المسلمينَ وثَبَّتَ السُّلْطَانَ . ووافاه أَخُوهُ الملكُ المَعْظَمُ بِأَشْمُومِ طَنَاحٍ فاشتدَّ بِهِ أَرْزُهُ وَقَوِيَّ جَأْشُهُ ، وَأَظَلَعَهُ على ما كانَ من ابنِ المَشْطُوبِ ، فوَعدَهُ بِإِزَاحَةِ ما يَكْرَهُ .

ثم إنَّ المَعْظَمَ رَكِبَ إلى خَيْمَةِ ابنِ المَشْطُوبِ واشتدَّعاه للركوبِ معه ومُسايرته ، فاستَمَهَلَهُ حتى يَلْبَسَ خُفَّيْهِ وَثِيابَ الرُّكُوبِ فلم يُيْمِلهُ وَأَعَجَلَهُ . فَرَكِبَ معه وسائِرَهُ حتى خَرَجَ بِهِ من العَسْكَرِ الكامِلي ، ثم قالَ لَهُ : يا عِمادَ الدينِ ، هَذِهِ البِلادُ لَكَ ، وَأَشْتَهِي أن تَهَبِّها لَنَا . وَأَعْطاه نَفَقَةً ، وسَلَّمَهُ إلى جِماعَةٍ من أَصْحابِهِ يَثِقُ بِهِم ، وقالَ لَهُم : أَخْرِجُوهُ مِنَ الرَّمْلِ ، ولا تُفَارِقُوهُ حتى يَخْرُجَ إلى^(b) الشَّامِ . فلم يَسعَ ابنُ المَشْطُوبِ إِلَّا امْتِثالَ ما قالَ المَعْظَمُ ، لأنَّهُ معه بِمُفْرَدِهِ ولا قُدْرَةَ لَهُ على الممانعة . فسارُوا بِهِ إلى حِمَاةٍ ، ثم مَضَى مِنْها إلى الشَّرْقِ^(c) .

- ١٠ ولما سَمِعَ الملكُ المَعْظَمُ ابنَ المَشْطُوبِ ، رَجَعَ إلى الملكِ الكامِلِ ، وأَمَرَ أَخاهُ الفايِزَ إبراهيمَ أنْ يَسِيرَ إلى مُلُوكِ الشَّامِ في رِسالَةٍ عن أَخِيهِ الملكِ الكامِلِ لِاسْتِذْعالِهِم إلى قِتالِ الفِرْجِ . فمَضَى إلى دِمَشِقَ ، وخَرَجَ مِنْها إلى حِمَاةٍ فماتَ بِها مَشْمُومًا على ما قيلَ ، فَثَبَّتَ لِلملكِ الكامِلِ أَمْرَ الملكِ ، وَسَكَنَ رَوْعَهُ هَذَا وَالإِفْرِينجِ^(a) قد أَحاطُوا بِدِمَشِيطِ بَرًّا وَبِحَرًّا ، وَأَخَذُوا وَضَيَّقُوا على أَهْلِها ، وَمَنَعُوا القُوَّةَ مِنَ الوُصُولِ إِلَيْهِمْ ، وَخَفَرُوا عَلَيْهِ عَسْكَرَهُم المَحِيطَ بِدِمَشِيطِ خَنْدَقًا ، وَبَنُوا عَلَيْهِ سُورًا ؛ وَأَهْلُ دِمَشِيطِ يُقَاتِلُونَهُمْ أَشَدَّ القِتالِ ، وَمُيَمِّنُونَهُمْ ، وَقَدْ عَلَّتْ عِنْدَهُم الأَسْعاضُ لِقَلَّةِ الأَقْواتِ .

١٥ ثم إنَّ المَعْظَمَ فَارَقَ الملكَ الكامِلِ ، وسارَ إلى بِلادِ الشَّامِ ؛ وَأقامَ الكامِلُ لِمُحارَبَةِ الفِرْجِ وانْتَدَبَ سَمائِلَ - أَحَدَ الجائِنداريةِ في الرُّكابِ - لِلدُّخُولِ إلى دِمَشِيطِ ، فَكانَ يَسْبِحُ في المائِ وَيَصِلُ إلى أَهْلِ دِمَشِيطِ فيعِدُّهُم بِوُصُولِ النُّجُجاتِ . فَحَظِيَ بِذلكَ عِنْدَ الكامِلِ ، وَتَقَرَّبَ مِنْهُ حتى عَمِلَهُ وَالِي القاهِرَةِ ، وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ خِزانَةُ سَمائِلَ بِالقاهِرَةِ^١ .

- ٢٠ فلم يَزَلِ الحالُ على ذلكَ إلى أنْ دَخَلَتْ سَنَةٌ سِتُّ عَشْرَةَ ، فَجَهَّزَ الملكُ المَنْصُورُ مُحَمَّدَ بنَ عَمَرُو بنِ شاهِنشاهِ بنِ أَيُّوبِ صاحِبِ حِمَاةِ ابنِهِ المَظْفَرِ تَقِيَّ الدِّينِ مُحَمَّدًا إلى مِصرَ ، نَجْدَةً لِحالِهِ

(a) بولاق : الفرينج . (b) بولاق : من . (c) بولاق : المشرق .

^١ يستمر المقرئ في النقل عن ابن واصل : مفرج الكروب ٤ : ١٧ - ٢٠ ؛ وعن خزانة شمائل انظر فيما يلي ٢ : ١٨٨ .

الملك الكامل على الفِرْنَج ، في جيشٍ كثيف . فَوَصَلَ إلى العَشْكَر ، وتَلَقَّاه الملكُ الكاملُ وأنزَلَه في مَيْمَنَةِ العَشْكَرِ مَنْزِلَةً أبيه وَجَدَه عند السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ . فَالْحَ الفِرْنَجُ في القِتَالِ ، وكان بِدِمْيَاطِ نحو العشرين ألفَ مُقَاتِلِ ، فَهَكَكْتَهُمُ الأَمْرَاضُ ، وَغَلَّتْ عِنْدَهُمُ الأَسْعَازُ حَتَّى بَلَغَتْ يَبِضَّةُ الدَّجَاجَةِ عِنْدَهُمُ عِدَّةَ دَنَانِيرِ .

قال الحافظُ عبد العَظِيمِ المُنْذِرِيُّ ^١ : سَمِعْتُ الشَّيْخَ أبا إِسْحَاقَ عَلِيَّ بنِ قُفْلٍ ^(a) يَقُولُ : كان لبعض بني خيار بقرّة فذبحوها وباعوها في الحصار ، فجاءت ثمان مائة دينار .

وقال في « المعجم المترجم » ^٢ : سَمِعْتُ الأَمِيرَ أبا بَكْرَ بنِ حَسَنَ بنِ خَسُوِيَامٍ يَقُولُ : كُنْتُ بِدِمْيَاطِ في حِصَارِ العَدُوِّ بِهَا ، فَبِيعَ السُّكْرُ بِهَا بِمِائَةِ وَأَرْبَعِينَ دِينَارًا الرُّطْلِ ، وَالدَّجَاجَةُ بِثَلَاثِينَ دِينَارًا . قَالَ : وَاشْتَرَيْتُ ثَلَاثَ دَجَاجَاتٍ بِتِسْعِينَ دِينَارًا ، وَالرَّأوِيَةَ بِأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا ، وَالقَبْرُ يُخْفَرُ بِأَرْبَعِينَ مِثْقَالًا . وَأَخَذْتُ أُخْتِي جَمَلًا فَشَقَّتْ جَوْفَهُ وَمَلَأَتْهُ دَجَاجًا وَفَاكِهَةً وَبَقْلًا وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَخَاطَطْتُهُ وَرَمْتُهُ فِي البَحْرِ ، وَكَتَبْتُ إِلَيْهِ تَقُولُ : قَدْ فَعَلْتُ كَذَا إِذَا رَأَيْتُمْ جَمَلًا مَيْتًا فَخُذُوهُ ، فَوَقَعَ لَنَا لَيْلًا فَأَخَذْنَاهُ ، وَكَانَ فِيهِ مَا يُسَاوِي جُمْلَةَ ، فَفَرَّقْتُهُ عَلَى النَّاسِ . ثُمَّ عَمِلَ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ جِمَالٍ عَلَى هَيْئَتِهِ ، فَفَطَنَ لَهَا الفِرْنَجُ فَأَخَذُوهَا .

(a) بولاق : أبا الحسن علي بن فضل .

المنذري وكتابه التكملة ، النجف (١٩٦٨) .
وهذا النقل ربما كان من كتابه «تاريخ من دخل مصر» ، ووضع ولده القاضي الرشيد أبو بكر محمد بن عبد العظيم الذي توفي شابًا في حياة أبيه سنة ١٢٤٤هـ/١٢٤٦م كتابًا على حروف المعجم عنوانه «تاريخ مصر» نحا فيه منحى الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ، وقف عليه ابن سعيد المغربي ونقل عنه (ابن سعيد : النجوم الزاهرة ٣٦٤؛ الصفدي : الوافي ٣ : ٢٦٤-٢٦٥؛ أيمن فؤاد : مصادر تاريخ الفاطميين في مصر ١٧١) .

^٢ لم يصل إلينا كتاب «المعجم المترجم» للحافظ زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري .

^١ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري الشامي الأصل المصري المولد والدار والوفاة ، ولد بفسطاط مصر سنة ١١٨٥هـ / ١١٨٥م وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٥٦هـ / ١٢٥٨م . كان محدثًا فقيها مؤرخًا ، ودرس بالجامع الظافري بالقاهرة مدة ، ثم ولي مشيخة دار الحديث الكاملة وانقطع بها مكثًا على التصنيف والتخريج عشرين سنة ؛ وبلغ عدد مؤلفاته نحو ٢٥ كتابًا أكثرها في الحديث وعلم الرجال أهمها كتاب «التكملة لوفيات النقلة» و«المعجم المترجم» و«تاريخ من دخل مصر» (راجع ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٣ : ٣١٩-٣٢٤؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٨ : ٢٥٩-٢٦١ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ١٩ : ١٤-١٦ ؛ أبا المحاسن : المنهل الصافي ٧ : ٣٠٩-٣١١ ؛ وبشار عواد معروف :

وَأَمْتَلَأَتْ مَسَاكِنَهُمْ وَطُرُقَاتُ الْبَلَدِ مِنَ الْمَوْتَى ، وَغَدِمَتْ الْأَقْوَاتُ ، وَصَارَ الشُّكْرُ كَعِزَّةِ الْيَاقوتِ ، وَفُقِدَتْ اللَّحُومُ فَلَمْ يُقَدَّرْ عَلَيْهَا بَوَجْهٍ ، وَأَلَتْ بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ بِهَا سِوَى قَلِيلٍ مِنَ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ فَقَطْ . فَتَسَوَّرَ الْفِرْنَجُ السُّورَ^(a) وَأَخَذُوا مِنْهُ الْبَلَدَ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ لِحَمْسِ بَقِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ ، وَكَانَتْ مُدَّةُ الْحِصَارِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا وَاثْنَيْ عَشْرِينَ يَوْمًا .

٥ وَلَمَّا أَخَذُوا الْبَلَدَ وَضَعُوا السَّيْفَ فِي النَّاسِ ، فَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْقَتْلِ ، وَأَسْرَفُوا فِي مِقْدَارِ الْقَتْلِ . وَبَلَغَ ذَلِكَ السُّلْطَانَ ، فَرَحَلَ بَعْدَ أَخْذِ دِمِيَاطَ بِيَوْمَيْنِ ، وَنَزَلَ قُبَالَةَ طَلْحَا عَلَى رَأْسِ بَحْرِ أَشْمُومَ وَرَأْسِ بَحْرِ دِمِيَاطَ ، وَخَيْمَ^(b) فِي الْمَنْزِلَةِ الَّتِي صَارَ يُقَالُ لَهَا الْمَنْصُورَةَ .

١٠ وَحَصَّنَ الْفِرْنَجُ أَسْوَارَ دِمِيَاطَ ، وَجَعَلُوا الْجَامِعَ كَنِيسَةً ، وَبَنَوْا سَرَايَاهُمْ فِي الْقَرْيَةِ فَقَتَلُوا وَنَهَبُوا . وَسَيَّرَ السُّلْطَانُ الْكُتُبَ إِلَى الْآفَاقِ لِيَسْتَحِثَّ النَّاسَ عَلَى الْحُضُورِ لِدَفْعِ الْفِرْنَجِ عَنْ مُلْكِ مِصْرَ ، وَشَرَعَ الْعَسْكَرُ فِي بِنَاءِ الدُّورِ وَالْفَنَائِدِ وَالْحَمَّامَاتِ وَالْأَشْوَاقِ بِمَنْزِلَةِ الْمَنْصُورَةِ^(c) .

١٥ وَجَهَّزَ الْفِرْنَجُ مَنْ أَسْرَوْهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَحْرِ إِلَى عَكَا ، وَخَرَجُوا مِنْ دِمِيَاطَ وَنَازَلُوا السُّلْطَانَ تَجَاهَ الْمَنْصُورَةَ ، وَصَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بَحْرُ أَشْمُومَ وَبَحْرُ دِمِيَاطَ . وَكَانَ الْفِرْنَجُ فِي مَائَتِي أَلْفِ رَاجِلٍ وَعِشْرَةَ آلَافِ فَارِسٍ . فَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ شَوَانِيَهُمْ أَمَامَ الْمَنْصُورَةَ وَعِدَّتْهَا مِائَةَ قِطْعَةٍ ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَسَائِرِ النَّوَاحِي مِنَ أَسْوَانَ إِلَى الْقَاهِرَةِ . وَوَصَلَ الْأَمِيرُ حُسَامُ الدِّينِ يُوسُفَ ، وَالْفَقِيهُ / تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الطَّاهِرِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ^(d) بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَحَلِّيِّ ، فَأَخْرَجَا النَّاسَ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ ، وَنُودِيَ بِالنَّفِيرِ الْعَامِ . وَخَرَجَ الْأَمِيرُ عَلَاءُ الدِّينِ جَلْدَكَ وَجَمَالُ الدِّينِ بْنُ صَيْرَمَ لَجَمْعِ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى آخِرِ الْحَوْفِ الشَّرْقِيِّ ، فَاجْتَمَعَ عَالَمٌ لَا يَبْقَى عَلَيْهِ حَضْرٌ .

٢٠ وَأَنْزَلَ السُّلْطَانُ عَلَى نَاحِيَةِ شَارِمَسَاحِ أَلْفَ فَارِسٍ فِي آلَافٍ مِنَ الْعُرْبَانِ ، لِيُحُولُوا بَيْنَ الْفِرْنَجِ^(e) وَبَيْنِ دِمِيَاطَ . وَسَارَتْ الشُّوَانِي وَمَعَهَا حَرَّاقَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى رَأْسِ بَحْرِ الْمَحَلَّةِ ، وَعَلَيْهَا الْأَمِيرُ بَدْرُ الدِّينِ ابْنُ حَسُونٍ ، فَانْقَطَعَتِ الْمِيرَةُ عَنِ الْفِرْنَجِ مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . وَسَارَتْ عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الشَّرْقِ وَالشَّامِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ . وَكَانَ قَدْ خَرَجَ الْفِرْنَجُ مِنْ دَاخِلِ الْبَحْرِ لِمَدَدِ الْفِرْنَجِ عَلَى دِمِيَاطَ ، فَقَدِمَ مِنْهُمْ أُمَّمٌ لَا تُحْصَى يُرِيدُونَ التَّوَعُّلَ فِي أَرْضِ مِصْرَ . فَلَمَّا تَكَامَلُوا بِدِمِيَاطَ ، خَرَجُوا مِنْهَا فِي حُدُومِ

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : وحيز . (c) بولاق : الحسن . (d) بولاق : بين الفرنج ودمياط .

^١ ابن واصل : مفرج الكروب ٤ : ٣٢ - ٣٣ .

وحديدهم ، ونزلوا تجاه الملك الكامل كما تقدم . فقديمت التجدات يقدّمها الملك الأشرف موسى ابن العادل ، وعلى ساقيتها الملك المعظم عيسى ، فتلقاهم الملك الكامل ، وأنزلهم عنده بالمنصورة في ثالث عشري جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة .

وتتابع مجيء الملوك ، حتى بلغت عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس ، فحاربوا الفرينج في البر والبحر ، وأخذوا منهم ست شواني وجلاسة^١ وبطسة ، وأسروا من الفرينج ألفين ومائتين ، ثم ظفروا المسلمون بثلاث قطائع أخر ، فتضعف الفرينج لذلك وضاق بهم المقام ، فبعثوا يطلبون الصلح .

فقدم عند مجيء رسلهم أهل الإسكندرية في ثمانية آلاف مقاتل . وكان الذي طلب الفرينج القدس وعسقلان وطبرية وجبلّة واللاذقية ، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف من الساحل ، ليترحلوا عن ديار مصر .

فبذل المسلمون لهم سائر ما ذكر من البلاد خلا مدينة الكرك والشوبك ، فامتنع الفرينج من الصلح وقالوا : لا بد من أخذهم الكرك والشوبك ، ومبلغ ثلاث مائة ألف دينار ، عوضا عما خرّبه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق من أسوار القدس .

وكان المعظم لما مات أبوه العادل ، واستولى الفرينج على دمياط ، ونازلوا الملك الكامل قبالة المنصورة ، خاف أن يصل منهم في البحر من يأخذ القدس ويتحصنوا به ، فأمر بتخريب أسواره . وكانت أسواره وأبراجه في غاية العظمة والمنعة - فأتى الهدم على جميعها ما خلا برج داود ، وانتقل أكثر الناس من القدس ، ولم يبق به إلا القليل ، ونقل المعظم ما كان بالقدس من الأسلحة والآلات .

فامتنع المسلمون من إجابة الفرينج إلى ذلك وقاتلوهم ، وعبر جماعة من المسلمين في بحر الحلة إلى الأرض التي عليها الفرينج ، وحفروا مكانا عظيما في النيل - وكان في قوة الزيادة - فركب الماء أكثر تلك الأرض وصار حائلا بين الفرينج ومدينة دمياط . وانحصروا ، فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة ، فأمر السلطان للوقت بنصب الجسور عند أشموم طنّاح ، فعبرت العساكر عليها ، وملك الطريق التي يسلكها الفرينج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول إليها . فاضطربوا ، وضاعت عليهم الأرض .

^١ الجلاسة . نوع من السفن الحربية الكبيرة تدير بالشرع والجماديف وهي أثقل وأقوى من الشيني ، كانت شائعة الاستعمال في البحر المتوسط واسمها بالفرنسية Goléace أو Goléasse (درويش النخيلي : السفن الإسلامية ٢٧) .

وَاتَّفَقَ مَعَ ذَلِكَ وَصُولَ مَرِيَّةٍ^١ عَظِيمَةٍ لِلْفِرْجِ فِي الْبَحْرِ حَوْلَهَا عِدَّةُ حَرَاقَاتٍ تَحْمِيهَا ، وَقَدْ مُلِئَتْ كُلُّهَا بِالْمِيْرَةِ وَالْأَسْلِحَةِ ، فَقَاتَلْتَهُمْ شَوَانِي الْمُسْلِمِينَ وَظَفَّرَهَا اللهُ بِهِمْ فَأَخَذَهَا الْمُسْلِمُونَ .

وَعِنْدَمَا عَلِمَ الْفِرْجُ ذَلِكَ أَتَقَنُوا بِالْهَلَاكِ ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ يَزْمُونَهُمْ بِالنُّشَابِ وَيَحْمِلُونَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ . فَهَدَمُوا حَيْثُ خِيَامَهُمْ وَمَجَانِيقَهُمْ ، وَأَلْقَوْا فِيهَا النَّارَ ، وَهَمُّوا بِالزُّخْفِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَمُقَاتَلَتِهِمْ لِيُخَلِّصُوا إِلَى دِمِشَاطٍ ، فَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ كَثْرَةُ الْوَحْلِ وَالْمِيَاهِ الرَّائِبَةِ عَلَى الْأَرْضِ . وَخَشَوْا مِنَ الْإِقَامَةِ لِقَلَّةِ أَقْوَاتِهِمْ ، فَذَلُّوا وَسَأَلُوا الْأَمَانَ عَلَى أَنْ يَتْرَكُوا دِمِشَاطَ الْمُسْلِمِينَ .

فَاسْتَشَارَ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ ، فَاخْتَلَفَ النَّاسُ عَلَيْهِ : فَمِنْهُمْ مَنْ امْتَنَعَ مِنْ تَأْمِينِ الْفِرْجِ ، وَرَأَى أَنْ يُؤْخَذُوا عَنَوَةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَنَحَ إِلَى إِعْطَائِهِمُ الْأَمَانَ خَوْفًا مِمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنَ الْفِرْجِ فِي الْجَزَائِرِ وَغَيْرِهَا . ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى الْأَمَانِ ، وَأَنْ يُعْطِيَ كُلٌّ مِنَ الْقَرِيْقَيْنِ رَهَائِنَ . فَتَقَرَّرَ ذَلِكَ فِي تَاسِعِ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانِ عَشْرَةَ .

وَسَيَّرَ الْفِرْجُ عَشْرِينَ مَلِكًا رَهْنًا عِنْدَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، وَبَعَثَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ بَابْنِهِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ وَجَمَاعَةَ مِنَ الْأَمْرَاءِ إِلَى الْفِرْجِ . وَجَلَسَ السُّلْطَانُ مَجْلِسًا عَظِيمًا لِقُدُومِ مُلُوكِ الْفِرْجِ ، وَقَدْ وَقَفَ إِخْوَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَصَارَ فِي أُبْهَةِ وَنَامُوسٍ مَهِيْبٍ .

وَخَرَجَ قُسُوسُ الْفِرْجِ وَرُهْبَانُهُمْ إِلَى دِمِشَاطٍ ، فَسَلَّمُوا لِلْمُسْلِمِينَ فِي تَاسِعِ عَشْرِهِ ، وَكَانَ يَوْمٌ تَسْلِيمِيًّا يَوْمًا عَظِيمًا . وَعِنْدَمَا تَسَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ دِمِشَاطَ وَصَارَتْ بِأَيْدِيهِمْ ، قَدِمَتْ نَجْدَةٌ فِي الْبَحْرِ لِلْفِرْجِ ، فَكَانَ مِنْ جَمِيلِ صُنْعِ اللهِ تَأَخَّرَهَا حَتَّى مُلِكَتْ دِمِشَاطَ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهَا لَوْ قَدِمَتْ قَبْلَ ذَلِكَ لَقَوِيَ بِهَا الْفِرْجُ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَجَدُوا مَدِينَةَ دِمِشَاطَ قَدْ حَصَّنَهَا الْفِرْجُ وَصَارَتْ بِحَيْثُ لَا تُرَامُ .

وَلَمَّا تَمَّ الْأَمْرُ ، بَعَثَ الْفِرْجُ بَوْلَدَ السُّلْطَانِ وَأَمْرَائِهِ إِلَيْهِ ، وَسَيَّرَ إِلَيْهِمُ السُّلْطَانُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُلُوكِ فِي الرَّهْنِ ، وَتَقَرَّرَتِ الْهُدْنَةُ بَيْنَ الْفِرْجِ وَالْمُسْلِمِينَ مُدَّةَ ثَمَانِي سِنِينَ . وَكَانَ مِمَّا وَقَعَ الصُّلْحُ عَلَيْهِ أَنْ كَلَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْفِرْجِ يُطْلِقُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَشْرَى . وَخَلَفَ السُّلْطَانُ وَإِخْوَتَهُ ، وَخَلَفَتْ مُلُوكُ الْفِرْجِ . وَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ ، وَدَخَلَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ إِلَى دِمِشَاطَ بِإِخْوَتِهِ وَعَسَاكِرِهِ ، وَكَانَ يَوْمٌ دُخُولُهُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَيَّامِ الْمَذْكُورَةِ .

^١ مَرِيَّةُ نَوْعٌ مِنَ السَّفِينِ انظُرْ فِيمَا تَقَدَّمَ ٥٨٦ .

وَرَحَلَ الْفِرْنَجِيُّ إِلَى بِلَادِهِمْ ، وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى مَقَرِّ مُلْكِهِ . وَأُطْلِقَتِ الْأَشْرَى مِنْ دِيَارِ مِصْرَ ، وَكَلَنَ فِيهِمْ مِنْ لَهْ مِنْ أَيَّامِ السُّلْطَانِ صَلاَحِ الدِّينِ يُوسُفَ . وَسَارَتِ مُلُوكُ الشَّامِ بِعَسَاكِرِهَا إِلَى بِلَادِهَا .

وَعَمَّتْ بِشَارَةً أَخَذَ الْمُسْلِمِينَ مَدِينَةَ دِمْيَاطَ مِنَ الْفِرْنَجِيِّ سَائِرِ الْآفَاقِ ، فَإِنَّ التَّتَرَ كَانُوا قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَى تَمَالِكِ الْمَشْرِقِ ، فَأَشْرَفَ الْفِرْنَجِيُّ عَلَى أَخْذِ دِيَارِ مِصْرَ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .
وَكَانَتْ مُدَّةُ نُزُولِ الْفِرْنَجِيِّ عَلَى دِمْيَاطَ ، إِلَى أَنْ أَقْلَعُوا عَنْهَا سَائِرِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ ، ثَلَاثَ سِنِينَ وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، مِنْهَا مُدَّةُ اسْتِيْلَانِهِمْ عَلَى مَدِينَةِ دِمْيَاطَ سَنَةً وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ وَأَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ يَوْمًا ^١ .

فَلَمَّا كَانَ فِي سَنَةِ سِتِّ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، حَدَّثَ بِالسُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ ابْنَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ مُحَمَّدَ وَرَثَمَ فِي مَأْبُضِهِ تَكُونُ مِنْهُ نَاصُورُ فُتَيْحَ وَعِشْرُ بُرْؤُهُ ، فَمَرَضَ مِنْ ذَلِكَ ، وَانْضَافَ إِلَيْهِ قُرْحَةٌ فِي الصُّدْرِ ، فَلَزِمَ الْفِرَاشَ ، إِلَّا أَنَّ غُلُوقَ هِمَّتِهِ اقْتَضَى مَسِيرَهُ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ . فَسَارَ فِي مَحْفَةٍ وَنَزَلَ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ ، فَوَرَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ الْإِمْبِرَاطُورِ مَلِكِ الْفِرْنَجِيِّ الْأَلْمَانِيَةِ بِجَزِيرَةِ صِيقَلِيَّةٍ فِي هَيْئَةِ تَاجِرٍ ، وَأَخْبَرَهُ سِرًّا بِأَنَّ بَوَاشَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ « رِيدَا فَرَنْسَ » ^٢ عَازِمٌ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ وَأَخْذِهَا .

(a) بولاق : رواد فرنس .

بالفرنسية القديمة ؛ وانظر كذلك الصفدي : الوافي بالوفيات ٣١٣:١٠ - ٣١٦؛ ابن شاکر: فوات الوفيات ٢٣١:١ - ٢٣٣؛ أبا المحاسن : المنهل الصافي ٤٣٩:٣ - ٤٤٢؛ وثلثتهم ترجموه تحت اسم : بواش ؛ ولتفاصيل أكثر راجع ، محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، القاهرة ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر - هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، الإسكندرية ١٩٨٤ ؛ Joinville, *Histoire de Saint Louis*, éd. N. de Wailly, Paris 1874; Gabrieli, Fr., *Chroniques arabes des Croisades*, Paris, Sindbad - Actes sud, 1996, pp. 314-31

^١ راجع عن هذه الحملة أيضًا ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٢٣:١٢ - ٣٣١ .

^٢ ريدا فرنس أو رواد فرنس أي Roi de France صيغ استخدمها المؤرخون العرب للتعبير عن ملك فرنسا والمقصود هنا هو لويس التاسع Louis IX (تذكره المصادر العربية باسم بواش) الذي قاد حملة على السواحل المصرية عند دمياط في زمن الصالح نجم الدين أيوب تعرف بالحملة الصليبية السابعة ، وأضاف المقرئ في السلوك ٣٣٣:١ « ريدا فرنس - ويقال له الفرنسي واسمه لويس بن لويس - وريدا فرنس لقب بلغة الفرنج معناه ملك إفرنس » ، وريد تعني ملك

فسار السلطان من دمشق وهو مريض في محفة، ونزل بأشموم طنّاح في المحرم سنة سبع وأربعين، وجمع في مدينة دمياط من الأقوات والأزواد والأسلحة وآلات القتال شيئاً كثيراً، خوفاً أن يجري على دمياط ما جرى في أيام أبيه، فأخذت بغير ذلك.

ولما نزل السلطان بأشموم، كتب إلى الأمير محسام الدين أبي علي بن أبي علي الهذباني - نائبه بديار مصر - أن يجهز الأسطول من صناعة مصر. فشرع في الاهتمام بذلك، وشحن الأسطول بالرجال والسلاح وسائر ما يحتاج إليه، وسيره شيئاً بعد شيء. وجهز السلطان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ومعه الأمراء والعساكر، فنزل بجيزة^a دمياط من برّها الغربي، وصار النيل بينه وبينها. فلما كان في الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر، وردت مراكب الفريج البحرين، وفيها جموعهم العظيمة، وقد انضم إليهم فريج الساحل، وأرسوا بإزاء المسلمين؛ وبعث ملكهم إلى السلطان كتاباً نصه:

«أما بعد، فإنه لم يخف عليك أنني أمين الأمة العيسوية، كما أنه لا يخفى علي أنك أمين الأمة المحمدية. وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونشتأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار.

وأنا قد أبدت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصيح إلى النهاية. فلو حلفت لي بكل الأيمان، وأدخلت علي الأقساء والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، لكنت واصلاً إليك، وقاتلك في أعزّ البقاع إليك. فإما أن تكون البلاد لي، فإيا هدية حصلت في يدي، وإما أن تكون البلاد لك والغلبة علي، فتدك العليا ممتدة إلي.

وقد عرفتك وحدرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاة».

(a) بولاق: بحيرة.

فلما قرئ الكتابُ على السلطان ، وقد اشتدَّ به المرضُ ، بكى واسترجع ، فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين .

أما بعدُ ، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أربابُ السيف ، وما قُتِلَ مئتا قرُوناً^a إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمَرناه .

ولو رأت عينك أيها المغرور حدَّ سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواجل ، وتخريننا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعضَّ على أناميك بالندم ، ولا بد أن تزلَّ بك القدمُ ، في يوم أوَّلُه لنا وآخره عليك . فهناك تُسيء الظنون ، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ متقلبٍ ينقلبون﴾ .

فإذا قرأت كتابي هذا ، فتكون فيه على أول سورة النحل ﴿أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه﴾ [الآية ١ سورة النحل] وتكون على آخر سورة ص ﴿ولتعلمنَّ نبأه بعد حين﴾ ، وتعود إلى قول الله تعالى وهو أصدقُ القائلين ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرةً باذن الله ، والله مع الصابرين﴾ [الآية ٢٤٩ سورة البقرة] وقول الحكماء : إنَّ الباغي له مضرع ، وبغيتك يضرعك ، وإلى البلاء يقلبك . والسلام^٢ .

(a) بولاق : فرد .

^١ بهاء الدين زهير ، القاضي أبو الفضل زهير بن محمد ابن علي المهلب شاعر من العصر الأيوبي ، كان كاتب الإنشاء في مصر في نهاية هذا العصر (القلقشندي : صبح الأعشى ١: ٩٧) انظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيان الأعيان ٢: ٣٣٢-٣٣٨ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٤: ٢٣١-٢٤٣ ؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ٧: ٦٢-

^٢ قارن نص الرسالتين مع ابن أبيك : كنز الدرر ٣٦٦:٧-٣٦٨ وبينهما خلاف كبير في الألفاظ ؛ المقرئزي : السلوك ١: ٣٣٤-٣٣٥ .

١ بهاء الدين زهير ، القاضي أبو الفضل زهير بن محمد ابن علي المهلب شاعر من العصر الأيوبي ، كان كاتب الإنشاء في مصر في نهاية هذا العصر (القلقشندي : صبح الأعشى ١: ٩٧) انظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيان الأعيان ٢: ٣٣٢-٣٣٨ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٤: ٢٣١-٢٤٣ ؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ٧: ٦٢-

وفي يَوْمِ السَّبْتِ غَدِ وُزُودِ الْفِرْنَجِ^(a) وَضَرَبُوا حِيَامَهُمْ فِي أَكْثَرِ الْبِلَادِ الَّتِي فِيهَا عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَتْ خَيْمَةُ الْمَلِكِ رَيْدَا فَرَنْسِ^(b) حَمْرَاءَ . فَنَاوَشَهُمُ الْمُسْلِمُونَ الْقِتَالَ ، وَاسْتَشْهِدَ يَوْمَئِذٍ الْأَمِيرُ نَجْمُ الدِّينِ يُوسُفَ ابْنَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، وَالْأَمِيرُ صَارِمُ الدِّينِ أَرْبَكَ الْوَزِيرِي .

فَلَمَّا أَمْسَى اللَّيْلُ ، رَحَلَ الْأَمِيرُ فَخَرَّ الدِّينِ يُوسُفَ ابْنَ شَيْخِ الشُّيُوخِ بِعَسَاكِرِ الْمُسْلِمِينَ مُجْتَمِعًا وَصَلَفًا ، وَسَارَ بِهِمْ فِي بَرِّ دِمِياط ، وَسَارَ إِلَى جِهَةِ أَشْمُومِ طَنَاحَ . فَخَافَ مَنْ كَانَ فِي مَدِينَةِ دِمِياط وَخَرَجُوا مِنْهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي اللَّيْلِ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ ، وَتَرَكُوا الْمَدِينَةَ خَالِيَةً مِنَ النَّاسِ ، وَلَحِقُوا بِالْعَشْكَرِ فِي أَشْمُومِ وَهُمْ حُفَاةٌ عَرَايَا جِيَاعِ حَيَارَى ، بَيْنَ مَعَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ ، وَمَرُّوا هَارِبِينَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَأَخَذَ مِنْهُمْ قَطَاعُ الطَّرِيقِ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّيَابِ / وَتَرَكُوهُمْ عَرَايَا .

فَسُنَّتِ الْقَائِلَةُ عَلَى الْأَمِيرِ فَخَرَّ الدِّينِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَعُدَّةٌ جَمِيعٌ مَا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْبَلَاءِ بِسَبَبِ هَزِيمَتِهِ ، فَإِنَّ دِمِياطَ كَانَتْ مَشْحُونَةً بِالْمُقَاتِلَةِ وَالْأَزْوَادِ الْعَظِيمَةِ وَالْأَسْلِحَةِ وَغَيْرِهَا ، خَوْفًا أَنْ يُصِيبَهَا فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ مَا أَصَابَهَا فِي أَيَّامِ الْكَامِلِ ، فَإِنَّهُ مَا أَتَى عَلَيْهَا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ قِلَّةِ الْأَقْوَاتِ بِهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ امْتَنَعَتْ مِنَ الْفِرْنَجِ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ حَتَّى فَنِيَ أَهْلُهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

وَلَمَّا أَصْبَحَ الْفِرْنَجُ يَوْمَ الْأَحَدِ لَسِبَ بَقِيْنَ مِنْ صَفَرٍ ، قَصَدُوا دِمِياطَ ، فَإِذَا أَبْوَابُ الْمَدِينَةِ مُفْتَحَةٌ وَلَا أَحَدَ يَدْفَعُ عَنْهَا ، فَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مَكِيدَةٌ ، وَتَمَهَّلُوا حَتَّى ظَهَرَ لَهُمْ حُلُوهَا فَدَخَلُوا إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ مَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى مَا بِهَا مِنَ الْأَسْلِحَةِ الْعَظِيمَةِ وَأَلَاتِ الْحَرْبِ وَالْأَقْوَاتِ الْخَارِجَةِ عَنِ الْحَدِّ فِي الْكثْرَةِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَمْتِعةِ ، صَفَوْا بِغَيْرِ كُفَّةٍ ، فَأُصِيبَ الْإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ بِبَلَاءٍ لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ لِحْيِ اسْمِ الْإِسْلَامِ وَرَسْمِهِ بِالْكَلِيَّةِ .

وَإِنزَعَجَ النَّاسُ فِي الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ انزِعَاجًا عَظِيمًا لَمَّا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ مَعَ شِدَّةِ مَرَضِ السُّلْطَانِ وَعَدَمِ حَرَكَتِهِ . وَأَمَّا السُّلْطَانُ فَإِنَّهُ اشْتَدَّ حَنْقُهُ عَلَى الْأَمِيرِ فَخَرَّ الدِّينِ وَقَالَ : أَمَا قَدَّرْتَ أَنْتَ وَالْعَسَاكِرُ أَنْ تَقِفُوا سَاعَةً بَيْنَ يَدَيِ الْفِرْنَجِ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الْقِيَامَةَ ، لَكِنْ الْوَقْتُ لَمْ يَكُنْ يَسَعُ غَيْرَ الصَّبْرِ وَالْإِغْضَاءِ . وَغَضِبَ عَلَى الْكِنَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا بِدِمِياطِ وَوَبَّخَهُمْ فَقَالُوا : مَا نَعْمَلُ إِذَا كَانَتْ عَسَاكِرُ السُّلْطَانِ بِأَجْمَعِهِمْ وَأَمْرَاؤُهُمْ^(c) هَرَبُوا وَأَحْرَقُوا^(d) الزُّرْدَخَانَاتِ ، كَيْفَ لَا نَهْرُبُ نَحْنُ ؟ فَأَمَرَ بِسَنْقِهِمْ لِكُونِهِمْ خَرَجُوا مِنْ دِمِياطِ بِغَيْرِ إِذْنٍ . وَكَانَتْ عِدَّةٌ مِنْ سُنْقٍ مِنَ الْأَمْرَاءِ الْكِنَانِيَّةِ زِيَادَةٌ عَلَى خَمْسِينَ أَمِيرًا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَمَنْ جَمَلْتَهُمْ أَمِيرٌ جَسِيمٌ لَهُ ابْنٌ جَمِيلٌ ، سَأَلَ أَنْ يُسْنَقَ قَبْلَ ابْنِهِ ،

(a) بولاق : السبت ورد الفرغ . (b) بولاق : رواد فرانس . (c) بولاق : أمراؤه . (d) بولاق : وأخربوا .

فأمر السلطان أن يُسْتَقَ ابنه قَبْلَهُ ، فَسُتِقَ الابن ثم الأب . ويُقال إنَّ سْتَقَ هؤلاء كان بفتوى الفقهاء فخاف جماعة من الأمراء وهَمُّوا بالقيام على السلطان ، فأشارَ عليهم الأميرُ فخر الدين ابن شيخ الشيوخ بأنَّ السلطانَ على حِطَّة ، فإن مات فقد كُفِيتُم أمره ، وإلا فهو بين أيديكم .

وأخذ السلطانُ في إصلاح سور المنصورة ، وانتقل إليها لخمسة بقين من صفر ، وجعل الستائر على السور . وقدمت الشوانى إلى تجاه المنصورة وفيها العُدَد الكاملة ، وشرع العسكرُ في تجديد الأبنية هناك ، وقدم من العُزبان وأهل النواحي ومن المطوعة خلق لا يُحصى عددهم ، وأخذوا في الإغارة على الفِرْنَج . فملاً الفِرْنَجُ أسوارَ مدينة دِمياط بالمقاتلة والآلات .

فلما كان أول ربيع الأول ، قديم إلى القاهرة من أسرى الفِرْنَج الذين تخطفهم العُزبان ستة وثلاثون ، منهم فارسان ؛ وفي خامس ربيع الآخر ورد منهم تسعة وثلاثون ؛ وفي سابعه ورد اثنان وعشرون أسيراً ؛ وفي سادس عشره ورد خمسة وأربعون أسيراً ، منهم ثلاثة خيالة ؛ وفي ثامن عشر جمادى الأولى ورد خمسون أسيراً ؛ هذا ، ومرض السلطان يتزايد ، وقواه تتناقص ، حتى أيس الأطباء منه .

وفي ثالث عشر رجب ، قديم إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيراً وأخذ عشر فارساً ، وظفر المسلمون بمسطح للفِرْنَج في البحر فيه مقاتلة بالقرب من نسراوة .

فلما كانت ليلة الأحد لأربع عشرة مضت من شعبان ، مات الملك الصالح بالمنصورة ، فلم يُظهر موته ، وحمل في تابوت إلى قلعة الروضة ، وقام بأمر العسكر الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، فإن شجرة^a الدر زوجة السلطان لما مات أخضرت الأمير فخر الدين ، والطواشي جمال الدين مُحسِنًا - وإليه أمر المماليك البحرية والحاشية - وأعلمتهما بموته ، فكتما ذلك خوفاً من الفِرْنَج ؛ لأنهم كانوا قد أشرفوا على تملك ديار مصر . فقام الأمير فخر الدين بالتدبير ، وسيروا إلى الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا الفارس أقطاي لإخضاره^١ .

(a) بولاق : شجرة .

^١ النويري : نهاية الأرب ٣٣٦:٢٩-٣٣٧ وأورد النويري نص الكتاب الذي أرسله الملك الصالح إلى الملك المعظم تورانشاه بحصن كيفا يسند إليه فيه الملك ويوصيه بجملة من الوصايا قال : «وقد وقفت على الكتاب المذكور - وهو بخط السلطان الملك الصالح بجمته» (نهاية الأرب ٣٤٠:٢٩-٣٥٢) ؛ وفيما يلي ٢ : ٣٧٤ .

وَأَخَذَ الْأَمِيرُ فَخْرُ الدِّينِ بَتَخْلِيفِ الْعَشْكَرِ لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَابْنِهِ الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ بَوْلَايَةِ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِهِ ؛ وَاللَّامِيرُ فَخْرُ الدِّينِ بِأَتَابِكِيَّةِ الْعَشْكَرِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ الْمَلِكِ حَتَّى حَلَفَهُمْ كُلَّهُمْ بِالْمَنْصُورَةِ وَبِالْقَاهِرَةِ فِي دَارِ الْوِزَارَةِ عِنْدَ الْأَمِيرِ حُسَّامِ الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ لِاثْنَيْ عَشْرَةَ بَقِيَتْ مِنْ شَعْبَانَ . وَكَانَتْ الْعَلَامَاتُ تَخْرُجُ مِنَ الدَّهَالِيزِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْمَنْصُورَةِ إِلَى الْقَاهِرَةِ بِخَطِّ خَادِمٍ يُقَالُ لَهُ سُهَيْلٌ ، لَا يَشْكُ مِنْ رَأْيِهَا أَنَّهَا خَطُّ السُّلْطَانِ . وَمَشَى ذَلِكَ عَلَى الْأَمِيرِ حُسَّامِ الدِّينِ بِالْقَاهِرَةِ .

وَلَمْ يَتَّفِقُوهُ أَحَدٌ بِمَوْتِ السُّلْطَانِ ، إِلَى أَنْ كَانَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِثَمَانِ بَقِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ ، وَرَدَّ الْأَمْرُ إِلَى الْقَاهِرَةِ بِدُعَاءِ الْخُطْبَاءِ فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ لِلْمَلِكِ الْمُعْظَمِ بَعْدَ الدُّعَاءِ لِلْسُّلْطَانِ ، وَأَنْ يُنْقَشَ اسْمُهُ عَلَى السُّكَّةِ .

- ١٠ فَلَمَّا عَلِمَ الْفِرْنَجُ بِمَوْتِ السُّلْطَانِ ، خَرَجُوا مِنْ دِمِشَاطٍ بِفَارِسِهِمْ وَرَاجِلِهِمْ - وَشَوَانِيهِمْ تُحَاذِيهِمْ فِي الْبَحْرِ - حَتَّى نَزَلُوا فَارِسْكَورَ يَوْمَ الْخَمِيسِ لِحَمْسِ بَقِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ فَوَرَدَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنَ الْغَدِ كِتَابٌ إِلَى الْقَاهِرَةِ مِنَ الْعَشْكَرِ ، أَوَّلُهُ : ﴿ ائْتِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الآية ٤١ سورة التوبة] ، وَفِيهِ مَوَاعِظٌ بَلِيغَةٌ بِالْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ فَقَرَأَ عَلَى مِئْتَرِ جَامِعِ الْقَاهِرَةِ وَقَدْ جُمِعَ النَّاسُ لِسَمَاعِهِ ، فَازْتَجَتِ الْقَاهِرَةُ وَمِصْرُ وَظَوَاهِرُهُمَا بِالْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ ، وَأَتَقَنَ النَّاسُ بِاسْتِيْلَاءِ الْفِرْنَجِ عَلَى الْبِلَادِ لِحُلُوقِ الْوَقْتِ مِنْ مَلِكٍ يَتَّقُونَ بِالْأَمْرِ ، لَكُنْهُمْ لَمْ يَهْتُوا ، / وَخَرَجُوا مِنَ الْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ ، فَاجْتَمَعَ عَالَمٌ عَظِيمٌ .
- ١٥ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ أَوَّلِ شَهْرِ رَمَضَانَ ، أَقْتَلَ الْمُسْلِمُونَ وَالْفِرْنَجُ ، فَاسْتَشْهِدَ الْعَلَائِيَّ أَمِيرَ مَجْلِسِ وَجَمَاعَةِ ، وَنَزَلَ الْفِرْنَجُ شَارِمِسَاحَ . وَفِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ سَابِعِهِ نَزَلُوا الْبَرْمُونِ ، فَاضْطَرَبَ النَّاسُ وَزُلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا لَقُرْبِهِمْ مِنَ الْعَشْكَرِ . وَفِي يَوْمِ الْأَحَدِ ثَالِثِ عَشْرِهِ ، وَصَلُوا تَجَاهَ الْمَنْصُورَةِ ، وَصَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَحْرُ أَشْمُومٍ وَخَنْدَقُوا عَلَيْهِمْ ، وَأَدَارُوا عَلَى خَنْدَقِهِمْ سُورًا سَتَرُوهُ بِكَثِيرٍ مِنَ السُّنَائِرِ ، وَنَصَبُوا الْمَجَانِيقَ لِيَرْمُوا بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَصَارَتْ شَوَانِيهِمْ بِإِزَائِهِمْ فِي بَحْرِ الثَّلِيبِ ، وَشَوَانِي الْمُسْلِمِينَ بِإِزَاءِ الْمَنْصُورَةِ ، وَالتَّحَمَّ الْقِتَالُ بَرًّا وَبَحْرًا . وَفِي سَادِسِ عَشْرِهِ ، نَفَرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ سِتَّةَ خَيَْالَةٍ أَخْبَرُوا بِمُضَايِقَةِ الْفِرْنَجِ . وَفِي يَوْمِ عِيدِ الْفِطْرِ أَسْرَوْا مِنَ الْفِرْنَجِ كُنْدًا مِنْ أَقَارِبِ الْمَلِكِ .

^١ لعل المقصود كونت Comte وهو أحد الألقاب الشرقية لطائفة النبلاء في فرنسا .

وأبلى عوام المسلمين في قتال الفِرْنَجِ بلاءً كبيرًا، وأنكروهم نكايَةً عَظِيمَةً؛ وصاروا يَقْتُلُونَ منهم في كُلِّ وَقْتٍ وَيَأْسِرُونَ، ويلقون أنفسهم في الماء ويمرّون فيه إلى الجانب الذي فيه الفِرْنَجُ ويتخيّلون^a في اختطاف الفِرْنَجِ بكلِّ حيلة، ولا يهابون الموت، حتى إنَّ إنسانًا قَوَّرَ بِطَيْخَةٍ وحمّلها على رأسه، وغطّس في الماء حتى حاذى الفِرْنَجُ، فظنّه بعضهم بِطَيْخَةٍ ونزل حتى يأخذها، فخطّفه وأتى به إلى المسلمين.

وفي يوم الأربعاء سابع شَوَّالٍ، أخذ المسلمون سُونةً للفِرْنَجِ فيها كُنْدٌ ومائتا رجل. وفي يوم الخميس النصف منه، ركب الفِرْنَجُ إلى بَرِّ المسلمين واقتتلوا، فقتل منهم أربعون فارسًا، وسير في عِدَّةٍ إلى القاهِرَةِ بسبعة وستين أسيرًا، منهم ثلاثة من أكابر الدّوادارية. وفي يوم الخميس ثاني عشره، أحرقت للفِرْنَجِ مَرْمَةٌ عَظِيمَةٌ في البحر، واستظهر المسلمون عليهم.

وكان بحرٌ أُشْمومٌ فيه مخايض، فدلَّ بعضُ من لا دين له مَن يُظْهَرُ الإسلامَ الفِرْنَجِ عليها، فركبوا سحر يوم الثلاثاء خامس ذي القعدة أو رابعه، ولم يشعُر المسلمون بهم إلا وقد هجموا على العسكر.

وكان الأميرُ فخر الدين قد عبّر إلى^b الحَمَّامِ، فأتاه الصّريخُ بأنَّ الفِرْنَجَ قد هجموا على العسكر. فركب دَهشًا غير مُعتدِّ ولا مُتَحَفِّظٍ، وساق ليأمر الأمراء والأجناد بالركوب في طائفة من مماليكه، فلقية عِدَّةٌ من الفِرْنَجِ الدّوادارية، وحمّلوا عليه ففر أصحابه، وأتته طعنة في جنبه، وأخذته السيوفُ من كلِّ جانب، حتى لحق بالله عزٌّ وجلٌّ، وفي الحال غدت مماليكه في طائفة إلى داره، وكسروا صناديقه وخزائنه، ونهبوا أمواله وخيوله.

وساق الفِرْنَجُ عند مقتل الأمير فخر الدين إلى المنصورة فنقر^c المسلمون خوفًا منهم، وتفرقوا يئمةً ويسرةً، وكادت الكسرة أن تكون، وتمخّوا الفِرْنَجُ كلمة الإسلام من أرض مصر.

ووصل الملك ريدا فرنس^d إلى باب قصر السلطان، ولم يثق إلا أن يملكه. فأذن الله تعالى أن طائفة المماليك من البحرية والجمدارية الذين استجدهم الملك الصالح، ومن جملتهم بيبرس البندقداري، حملوا على الفِرْنَجِ حملةً صدقوا فيها اللقاء، حتى أراحوهم عن موافقهم، وأبلا في مكافحتهم بالسيوف والدبابيس فانهزموا.

(a) الأصل: بتحيلوا. (b) ساقطة من الأصل. (c) بولاق: ففر. (d) بولاق: رواد فرنس.

وَبَلَغَتْ عِدَّةً مِنْ قُتِلَ مِنْ فُرْسَانَ الْفِرْنَجِ الْخَيْالَةَ فِي هَذِهِ التَّوْبَةِ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةِ فَارِسٍ ، وَأَمَّا الرَّجَالَةُ فَإِنَّهَا كَانَتْ وَصَلَتْ إِلَى الْجِسْرِ لَتَعْدِي ، فَلَوْ تَرَاخَى الْأَمْرُ حَتَّى صَارُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ لِأَعْضَلَ الدَّاءَ . عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ كَانَتْ بَيْنَ الْأَزِقَّةِ وَالدُّرُوبِ ، وَلَوْلَا ضَيْقُ الْمَجَالِ لَمَا أَفَلَّتْ مِنَ الْفِرْنَجِ أَحَدٌ . فَتَجَا مِنْ بَقِيٍّ مِنْهُمْ ، وَضَرَبُوا عَلَيْهِمْ سُورًا ، وَحَفَرُوا خَنْدَقًا . وَصَارَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فِي الْبَرِّ الشَّرْقِيِّ ، وَمُعْظَمُهُمْ فِي الْجَزِيرَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِدِمِشَاط .

وَكَانَتْ الْبَطَاقَةُ عِنْدَ الْكَبْسَةِ سَرَحَتْ عَلَى جَنَاحِ الطَّائِرِ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، فَانزَعَجَ النَّاسُ انزِعَاجًا عَظِيمًا ، وَوَرَدَتِ السُّوقَةُ وَبَعْضُ الْعَسْكَرِ ، وَلَمْ تُغْلَقْ أَبْوَابُ الْقَاهِرَةِ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَفِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ سَقَطَ الطَّائِرُ بِالْبِشَارَةِ بِهَزِيمَةِ الْفِرْنَجِ وَعِدَّةً مِنْ قُتِلَ مِنْهُمْ ، فَزِيَّتِ الْقَاهِرَةَ ، وَضَرَبَتِ الْبِشَائِرُ بَقْلَعَةَ الْجَبَلِ ، وَسَارَ الْمُعْظَمُ ثُورَانَ شَاهٍ إِلَى دِمَشَقٍ فَدَخَلَهَا يَوْمَ السَّبْتِ آخِرَ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَاسْتَوَلَى عَلَى مِنْ بَهَا . وَأَزْبَعَ مَضِينَ مِنْ شَوَالِ سَقَطَ الطَّائِرُ بِوُضُوءِهِ إِلَى دِمَشَقٍ ، فَضَرَبَتِ الْبِشَائِرُ فِي الْعَسْكَرِ بِالْمَنْصُورَةِ وَفِي قَلْعَةِ الْجَبَلِ .

وَسَارَ مِنْ دِمَشَقٍ لثَلَاثَ بَقِينَ مِنْهُ ، فَتَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ بِقُدُومِهِ ، وَخَرَجَ الْأَمِيرُ حُسَامُ الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ إِلَى لِقَائِهِ ، فَوَافَاهُ بِالصَّالِحِيَّةِ لِأَرْبَعِ عَشْرَةَ بَقِيَّتِ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَمِنْ يَوْمئِذٍ أُعْلِنَ بِمَوْتِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ ، بَعْدَمَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَنْطِقُ أَحَدٌ بِمَوْتِهِ أَلْبَثَّةً ، بَلِ الْأُمُورُ عَلَى حَالِهَا ، وَالذُّهْلِيُّ الشُّلْطَانِيُّ بِحَالِهِ ، وَالسُّمَاطُ عَلَى الْعَادَةِ ، وَشَجَرَهُ^(a) الدَّرْ أُمُّ خَلِيلِ زَوْجَةِ الشُّلْطَانِ تُدَبِّرُ الْأُمُورَ وَتَقُولُ : الشُّلْطَانُ مَرِيضٌ مَا إِلَيْهِ وَضُورٌ . ثُمَّ سَارَ مِنَ الصَّالِحِيَّةِ ، فَتَلَقَّاهُ الْأَمْرَاءُ وَالْمَمَالِكُ ، وَاسْتَقَرَّ بِقَصْرِ السُّلْطَنَةِ مِنَ الْمَنْصُورَةِ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ تَاسِعَ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَفِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْمُدَّةِ ، عَمِلَ الْمُسْلِمُونَ مَرَاكِبَ وَحَمَلُوهَا عَلَى الْجِمَالِ إِلَى بَحْرِ الْحَمْلَةِ وَالْقَوْهَا فِيهِ ، وَشَحَنُوهَا بِالْمُقَاتِلَةِ . فَعِنْدَمَا حَادَتْ مَرَاكِبُ الْفِرْنَجِ بِبَحْرِ الْحَمْلَةِ - وَتِلْكَ الْمَرَاكِبُ فِيهِ مُكَمَّنَةٌ - خَرَجَتْ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَعَتْ^(b) الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا .

وَكَانَ الْأَسْطُولُ الْإِسْلَامِيُّ مِنْ جِهَةِ الْمَنْصُورَةِ وَأَحَاطَ بِالْفِرْنَجِ ، فَطَفَرَ بَاثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ مَرَكِبًا لِلْفِرْنَجِ ، وَقَتَلَ / وَأَسَرَ مِنْهُمْ نَحْوَ أَلْفِ رَجُلٍ . فَانْقَطَعَتِ الْمِيرَةُ عَنِ الْفِرْنَجِ ، وَاشْتَدَّ عِنْدَهُمُ الْغَلَاءُ ، وَصَارُوا مَخْصُورِينَ .

فلَمَّا كان أوَّل يومٍ من ذي الحِجَّةِ ، أَخَذَ الفَرَنْجُ من المراكب التي في بَحْرِ المَحَلَّةِ سبعَ حَرَارِيقٍ ، وَفَرَّ مَنْ كان فيها من المُسْلِمِينَ .

وفي يوم عَرَفةَ ، بَرَزَتِ الشُّوَانِي الإِسْلامِيَّةُ إلى مراكب قَدِمَتِ لِلْفَرَنْجِ فيها مِيرةٌ ، فَأُخِذَتِ منها اثْنين وثلاثين مَرَكِبًا منها تسع شِوَانِي ، فوَهَنَتِ قُوَّةُ الفَرَنْجِ ، وَتَزَايَدَ الغَلَاءُ عندهم ، وَشَرَعُوا في طَلَبِ الهُدَنَةِ من المُسْلِمِينَ ، على أن يُسَلِّمُوا دِمِياطَ ، وَيَأْخُذُوا بَدَلًا منها القُدْسَ وَبَعْضَ بلادِ السَّاحِلِ ، فلم يُجَابُوا إلى ذلك .

فلَمَّا كان اليَوْمُ السَّابعُ والعشرون من ذي الحِجَّةِ ، أَخْرَقَ الفَرَنْجُ أُخْشابَهُم كَلِّها ، وَأَتْلَفُوا مراكِبَهُم يُريدون التَّحَصُّنَ بِدِمِياطَ . وَرَخَلُوا في لَيْلَةِ الأربَعاءِ لثلاثِ مَضِينَ من المَحْرَمِ سنة ثمان وأربعين وستَ مائةٍ إلى دِمِياطَ ، وَأَخَذَتِ مراكِبَهُم في الانحِدارِ قُبائِلَهُم . فَرَكِبَ المُسْلِمُونَ أَقْفِيَتَهُم بعدما عَدَّوا إلى بَرِّهِم ، وَطَلَعَ الفَجْرُ من يومِ الأربَعاءِ وقد أَحاطَ المُسْلِمُونَ بِالفَرَنْجِ ، وَقَتَلُوا وَأَسْرَوْا منهم كَثِيرًا . حتى قيل إنَّ عددَ من قُتِلَ من الفُزْسانِ على فَارَشْكورَ يزيدَ على عَشْرَةِ آلافٍ ، وَأُسِرَ من الخِيَّالَةِ والرَّجَّالَةِ والصُّنَّاعِ والشُّوقَةِ ما يُناهِزُ مائةَ ألفٍ ، وَنُهِبَ من المَالِ والذُّخائِرِ والخِيُولِ والبِغالِ ما لا يُحصى .

وانحازَ الملكُ ريدا فرنس^a وأكابرَ الفَرَنْجِ إلى تَلٍّ ، وَوَقَّفُوا مُسْتَسْلِمِينَ وسألوا الأمانَ ، فَأَمَّتَهُم الطُّواشِي جمالُ الدين مُحسنُ الصَّالِحِي ، وَنَزَلُوا على أمانِهِ ، وَأُحِيطَ بِهِم وسيقوا إلى المَنْصُورَةِ . فَقُبِدَ ريدا فرنس^a واعتقلَ في الدَّارِ التي كان يَنْزِلُ فيها القاضي فَخْرُ الدين إبراهيمُ بنُ لُقْمانِ كاتبِ الإنشاءِ ، وَوُكِّلَ بِهِ الطُّواشِي صَبِيحُ المُعْظَمِي ، واعتقلَ معه أخوه ، وَرُتِبَ لَهُ راتِبٌ يُحْمَلُ إليه في كُلِّ يومٍ^١ .

وَرَسَمَ الملكُ المُعْظَمُ لسيِّفِ الدِّينِ يُوْسُفِ بنِ الطُّورِي - أَخَدُ من وَصَلِ صُحْبَتَهُ من الشُّرُوقِ - أن يَتَوَلَّى قَتْلَ الأَسْرَى . فكان يُخْرَجُ منهم كُلُّ لَيْلَةٍ ثلاثِ مائةِ رَجُلٍ وَيَقْتُلُهُم وَيُلْقِيهِم في البَحْرِ حتى قَتَلُوا^٢ .

(a) بولاق : رواد فرنس .

^٢ النويري : نهاية الأرب ٢٩ : ٣٥٦ .

^١ انظر أبا شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع

١٨٣ - ١٨٤ ؛ العيني : عقد الجمان ١ : ١٨٠ - ١٩ .

ولما قُبِضَ عَلَى الْمَلِكِ رِيْدَا فَرَنْسِ^(a)، وَرَحَلَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ مِنَ الْمَنْصُورَةِ، وَنَزَلَ بِالْدُّهْلِيْزِ السُّلْطَانِي عَلَى فَارِسْكَورٍ، وَعَمِلَ لَهُ بُرْجًا مِنْ خَشَبٍ، وَتَرَاخَى فِي قَصْدِ دِمِشَاطٍ. وَكَتَبَ بِحَطِّهِ إِلَى الْأَمِيرِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ يَغْمُورِ نَائِيهِ بِدِمَشَقٍ.

وَلَدَهُ^(b) ثُورَانَ شَاهٍ: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِخُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ [يَنْصُرُ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ]^(c)، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ، وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا. نُبَشِّرُ الْجَمَلِسَ السَّامِيَّ الْجَمَالِيَّ - بَلْ نُبَشِّرُ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً - بِمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الظُّفْرِ بَعْدُ الدِّينِ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَفْحَلَ^(d) أَمْرَهُ وَاسْتَحْكَمَ شَرَّهُ، وَيَمَسُّ الْعِبَادُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ، فَتُودُوا ﴿لَا تَأْتِيَسُوا مِنْ رَوْحِ

اللَّهِ﴾ [الآية ٨٧ سورة يوسف].

وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ مُسْتَهْلَ السَّنَةِ الْمُبَارَكَةِ - وَهِيَ سَنَةٌ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ تَمَّمَ اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ بَرَكَتَهَا - فَتَحْنَا الْخَزَائِنَ، وَبَدَّلْنَا الْأَمْوَالَ، وَفَرَّقْنَا السُّلَاحَ، وَجَمَعْنَا الْعُرْبَانَ وَالْمُطَوَّعَةَ، وَخَلَقْنَا لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، وَجَاءُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَمَكَانٍ سَحِيقٍ. فَلَمَّا رَأَى الْعَدُوُّ ذَلِكَ، أَرْسَلَ يَطْلُبُ الصُّلْحَ عَلَى مَا وَقَعَ الْاِتِّفَاقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَلِكِ الْكَامِلِ، فَأَتَيْنَا.

وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْأَرْبَعَاءِ، تَرَكُوا خِيَامَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَثْقَالَهُمْ وَقَصَدُوا دِمِشَاطَ هَارِيَيْنَ، فَمِيزْنَا فِي آثَارِهِمْ طَالِيَيْنَ. وَمَا زَالَ السَّيْفُ يَعْمَلُ فِي أَذْبَارِهِمْ عَامَّةَ اللَّيْلِ، وَقَدْ حَلَّ بِهِمُ الْخِزْيُ^(e) وَالْوَيْلُ.

فَلَمَّا أَصْبَحْنَا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، قَتَلْنَا مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا غَيْرَ مَنْ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي اللَّجَجِ، وَأَمَّا الْأَسْرَى فَحَدِّثْ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرْجٍ. وَالتَّجَأَ الْفَرَنْسِيْسُ إِلَى الْمُثْنِيَّةِ^١ وَطَلَبَ الْأَمَانَ، فَأَمَّنَاهُ وَأَخَذْنَاهُ وَأَكْرَمْنَاهُ، وَسَلَّمْنَاهُ دِمِشَاطَ

(a) بولاق : رواد فرنس . (b) بولاق : وولده . (c) إضافة من النويري . (d) بولاق : استكمل . (e) الأصل : الحزن .

^١ أي مثنية أبي عبد الله ، وهي مازالت موجودة باسم منية مركز فارسكور بمحافظة الدقهلية (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة الخولي عبد الله وتقع على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط وتتبع ٦: ٣٦٥هـ) .

بَعُونَ الله تعالى وَقُوَّتَهُ ، وَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ^١ .

وَبَعَثَ مَعَ الْكِتَابِ غِفَّارِيَّةً ^٢ الْمَلِكِ فَرَنْسِيْسِ فَلَيْسَهَا الْأَمِيرُ جَمَالُ الدِّينِ بْنِ يَغْمُورٍ ، وَهِيَ أَشْكَرْلَاطٌ ^٣ أَحْمَرُ بَفَرُو سِنْجَابِ . فَقَالَ الشَّيْخُ نَجْمُ الدِّينِ بْنِ إِسْرَائِيلَ :

[الخفيف]

إِنَّ غِفَّارَةَ الْفَرَنْسِيْسِ الَّتِي جَاءَتْ جِبَاءً ^b لِسَيِّدِ الْأُمَرَاءِ
كَبِيَّاتُ الْقِرْطَاسِ لَوْنَا وَلَكِنْ صَبَغَتْهَا شِيوْفُنَا بِالْدُمَاءِ

وقال ^c :

[الطويل]

أَسَيِّدَ أَمْلَاكِ الزَّمَانِ بِأَسْرِهِمْ تَنَجَّزَتْ مِنْ نَضْرِ الْإِلَهِ وَوَعْدِهِ
فَلَا زَالَ مَوْلَانَا يُبِيحُ حِمَى الْعِدَى وَيُلِيسُ أَشْلَابٌ ^d الْمَلُوكِ عَبِيدِهِ

وَأَخَذَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ يُهْدِدُ زَوْجَةَ أَبِيهِ شَجَرَ ^e الدَّرِّ وَيُطَالِبُهَا بِمَالِ أَبِيهِ ، فَخَافَتْهُ وَكَاتَبَتْ تَمَالِيكَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ تُحَرِّضُهُمْ عَلَيْهِ .

وَكَانَ الْمُعْظَمُ لَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الْفَارِسِ أَقْطَايَ إِلَى حِصْنِ كَيْفَا ، وَعَدَّهُ أَنْ يُعْطِيَهُ إِمْرَةً فَلَمْ يَفِ لَهَا بِهَا ، وَأَعْرَضَ مَعَ ذَلِكَ عَنْ تَمَالِيكَ أَبِيهِ وَأَطْرَحَ أَمْرَاءَهُ ، وَصَرَفَ الْأَمِيرَ حُسَامَ الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ عَنِ نِيَابَةِ السُّلْطَنَةِ وَأَخْضَرَهُ إِلَى الْعَسْكَرِ وَلَمْ يَعْثَبْ بِهِ ، وَأَبْعَدَ غُلَمَانَ أَبِيهِ ^٤ .

وَاخْتَصَّ مِنْ وَصَلَ مَعَهُ مِنَ الْمَشْرِقِ ، وَجَعَلَهُمْ فِي الْوِزَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ ، فَجَعَلَ الطَّوَّاشِي مَشْرُورًا - خَادِمَةً - أَسْتَاذَارًا ، وَعَمَلَ صَبِيحًا - وَكَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَحَلًا - أَمِيرَ جُنْدَارِهِ ^f ، وَأَمَرَ أَنْ / تَكُونَ لَهُ عَصَا مِنْ ذَهَبٍ ، وَأَعْطَاهُ مَالًا جَزِيلاً وَإِقْطَاعَاتٍ جَلِيلَةً .

وَكَانَ إِذَا سَكِرَ جَمَعَ الشَّمْعَ وَضَرَبَ رُؤُوسَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى تَنْقَطِعَ ، وَيَقُولُ : « هَكَذَا

(a) بولاق : غفارة . (b) بولاق : جاءت حقاً . (c) بولاق : وقال آخر . (d) بولاق : أثواب . (e) بولاق : شجرة . (f) بولاق : خازنداره .

^١ النويري : نهاية الأرب ٣٥٦:٢٩-٣٥٧ .
^٢ الغفارية : زرد من الدرع ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .
^٣ الأشكرلاط . نوع من الملابس الصوفية .
^٤ النويري : نهاية الأرب ٣٥٨:٢٩-٣٥٩ .
المقريزي : السلوك ٣٥٦:١-٣٥٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٣٦٧:٦-٣٦٨ ومصدره سبط ابن الجوزي .

أَفْعَلُ بِالْبَحْرِيَّةِ « فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِ هَرَجٌ وَخِيفَةٌ . وَاحْتَجَبَ عَلَى الْعُكُوفِ بِمَلَاذِهِ ، فَتَفَرَّتْ مِنْهُ النَّفُوسُ ^١ .

وَبَقِيَ كَذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ تَاسِعٍ ^(a) عَشْرِي الْمَحْرَمِ ، وَقَدْ جَلَسَ عَلَى السَّمَاطِ ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ أَحَدُ الْمَمَالِكِ الْبَحْرِيَّةِ وَضَرَبَهُ بِسَيْفٍ قَطَعَ أَصَابِعَ يَدَيْهِ ، فَفَرَّ إِلَى الْبُرْجِ ، فَاقْتَحَمُوا عَلَيْهِ وَسَيُوفُهُمْ مُضَلَّتَةً ، فَصَعِدَ أَعْلَى الْبُرْجِ الْخَشَبِ فَرَمَوْهُ بِالنُّشَابِ وَأَطْلَقُوا النَّارَ فِي ^(b) الْبُرْجِ . فَأَلْقَى نَفْسَهُ وَمَرَّ إِلَى الْبَحْرِ وَهُوَ يَقُولُ : مَا أُرِيدُ مُلْكَكُمْ ، دَعُونِي أَرْجِعْ إِلَى الْحِصْنِ ، يَا مُسْلِمِينَ ، مَا فِيكُمْ مِنْ يَصْطَنِعُنِي وَيُجِيرُنِي ، وَسَائِرَ الْعَسَاكِرِ بِالسُّيُوفِ وَاقِفَةً ، فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، وَالنُّشَابُ يَأْخُذُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ . وَأَذْرَكُوهُ فَقُطِعَ بِالسُّيُوفِ ، وَمَاتَ حَرِيْقًا غَرِيْقًا قَتِيلًا فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ الْمَذْكُورِ ، وَتَرَكَ عَلَى السَّمَاطِ ^(c) ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ دُفِنَ ^٢ .

١٠. وَلَمَّا قُتِلَ الْمَلِكُ الْمُعْظَمُ ، اتَّفَقَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ عَلَى إِقَامَةِ شَجَرٍ ^(d) الدَّرِّ وَالِإِدَّةِ نَحْلِيلٍ فِي مَمْلَكَةِ مِصْرَ ، وَأَنْ يَكُونَ مُقَدِّمَ الْعَسْكَرِ الْأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ أَيْتِكُ التُّرْكْمَانِي الصَّالِحِي ^٣ ، وَخَلَفَ الْكُلَّ عَلَى ذَلِكَ ، وَسَيَّرُوا إِلَيْهَا عِزَّ الدِّينِ الرَّومِيَّ ، فَقَدِمَ عَلَيْهَا فِي قَلْعَةِ الْجَبَلِ وَأَعْلَمَهَا بِمَا اتَّفَقَ ، فَرَضِيَتْ بِهِ ، وَكَتَبَتْ عَلَى التَّوَاقِيْعِ عِلَامَتَهَا وَهِيَ « وَالِإِدَّةُ نَحْلِيلٍ » ، وَخُطِبَتْ لَهَا عَلَى الْمَنَابِرِ بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ .

١٥. وَجَزَى الْحَدِيثُ مَعَ الْمَلِكِ رِيْدَا فَرَنْسٍ ^(e) فِي تَسْلِيمِ دِمِيَاطَ ، وَتَوَلَّى مُفَاوَضَتَهُ فِي ذَلِكَ الْأَمِيرُ حُسَامُ الدِّينِ بِنُ أَبِي عَلِيٍّ الْهَذْبَانِي ، فَأَجَابَ إِلَى تَسْلِيمِهَا ، وَأَنْ يُخَلِّيَ عَنْهُ بَعْدَ مُحَاوَرَاتٍ . وَسَيَّرَ إِلَى الْفِرْنَجِ بِدِمِيَاطَ يَأْمُرُهُمْ بِتَسْلِيمِهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَسَلَّمُوهَا - بَعْدَ جُهْدٍ جَهِيدٍ مِنْ كَثْرَةِ الْمُرَاجَعَاتِ - فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ثَالِثِ صَفَرٍ ، وَرُفِعَ الْعَلَمُ السُّلْطَانِي عَلَى سُورِهَا ، وَأُغْلِنَ فِيهَا بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَشَهَادَةِ الْحَقِّ ، بَعْدَمَا أَقَامَتْ بِيَدِ الْفِرْنَجِ أَحَدَ عَشْرٍ شَهْرًا وَسَبْعَةَ أَيَّامٍ .

٢٠. وَأَفْرَجَ عَنِ الْمَلِكِ رِيْدَا فَرَنْسٍ ^(e) وَعَنْ أَخِيهِ وَزَوْجَتِهِ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَى الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ . وَرَكِبُوا الْبَحْرَ مِنَ الْعَدِّ - وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ رَابِعِ صَفَرٍ - وَأَقْلَعُوا إِلَى عَكَّا .

(a) السلوك : سادس ، والنويري : سادس أو سابع . (b) بولاق : على . (c) بولاق : الشط . (d) بولاق : شجرة . (e) بولاق : رواد فرانس .

^١ المقرئزي : السلوك ١ : ٣٥٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم السلوك ١ : ٣٥٩ - ٣٦٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم ٦ : ٣٧١ .
^٢ نفسه ٢٩ : ٣٦٢ - ٣٦٣ ؛ وفيما يلي ٢ : ٢٣٧ .
^٣ النويري : نهاية الأرب ٢٩ : ٣٦٠ - ٣٦١ ؛ المقرئزي :

وفي هذه التوبة يقول الوزير جمال الدين يحيى بن مطروح^١:

[السريع]

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتَهُ
أَجْرَكَ اللهُ عَلَى مَا جَزَى
أَتَيْتَ مِصْرَ تَبْتَغِي مُلْكَهَا
فَسَاقَكَ الْحَيْنُ إِلَى أَذْهِمِ
وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ
خَمْسُونَ أَلْفًا لَا يُرَى مِنْهُمْ
وَفَقَّكَ اللهُ لِأَمْثَالِهَا
إِنْ كَانَ بَابَاكُمْ بِذَا رَاضِيًا
قُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً
دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا

وقدّر الله أن الفرّنسيّس هذا بعد خلاصه من هذه الواقعة، جمّع عدّة جُمُوع وقصد ثونس، فقال شاب من أهلها يُقال له أحمد بن إسماعيل الزيّات:

[الحفيد]

يَا فَرَنْسِيِّسِ هَذِهِ أَخْتُ مِصْرٍ
لَكَ فِيهَا دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ قَبْرٍ
فَتَأْهَبْ لِمَا إِلَيْهِ تَصِيرُ
وَطَوَاشِيكَ، مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ
فَكَانَ هَذَا قَوْلًا حَسَنًا، فَإِنَّهُ مَاتَ وَهُوَ عَلَى مُحَاصِرَةِ ثُونَسِ^٢.

(a) بولاق: نصح. (b) ساقطة من بولاق.

^١ الأمير صاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح من أهل صعيد مصر، قدم مع الملك الصالح نجم الدين أيوب بأمد وحران وحصن كيفا، فلما تسلطن بمصر ولأه نظر الخزانة، ثم ورّز له بدمشق إلى أن عزله وتقيّر عليه وتوفي في شعبان سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م. (راجع، أبا شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع ١٨٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢٥٨:٦-٢٦٦؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣:٢٧٣-٢٧٤؛ المقرئ: السلوك ١:٣٨٢؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٧:٢٤ (في وفيات سنة ٦٤٩) و٧:٢٧ (في وفيات سنة ٦٥٠). ونشر ديوان ابن مطروح في إستانبول - مطبعة عامرة ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م. وانظر الأبيات عند الصفدي: الوافي بالوفيات ١٠:٣١٥؛ ابن شاعر: فوات الوفيات ١:٢٣٢؛ المقرئ: السلوك ١:٣٦٣-٣٦٤؛ أبي المحاسن: النجوم الزاهرة ٦:٣٧٠ والمنهل الصافي ٣:٤٤١.

^٢ قارن المقرئ: السلوك ١:٣٦٤-٣٦٥؛ وانظر الأبيات عند الصفدي: الوافي بالوفيات ١٠:٣١٥-

وَلَمَّا تَسَلَّمَ الْأَمْرَاءُ دِمْيَاطَ ، وَرَدَتِ الْبُشْرَى إِلَى الْقَاهِرَةِ ، فَضُرِبَتِ الْبَشَائِرُ وَزُيِّنَتِ الْقَاهِرَةُ وَمِصْرُ ، فَقَدِمَتِ الْعَسَاكِرُ مِنْ دِمْيَاطَ يَوْمَ الْخَمِيسِ تَاسِعَ صَفَرٍ^١ .

فَلَمَّا كَانَ فِي سَلْطَنَةِ الْأَشْرَفِ مُوسَى ابْنِ الْمَلِكِ الْمَشْعُودِ أَقْسِيسِ ابْنِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ وَالْمَلِكِ الْمُعْزِ عَزَّ الدِّينِ التُّرْكُمَانِي ، وَكَثُرَ الْاِخْتِلَافُ بِمِصْرَ ، وَاسْتَوْلَى الْمَلِكُ النَّاصِرُ يَوْسُفُ بْنُ الْعَزِيزِ عَلَى دِمَشْقَ ، اتَّفَقَ أَرْبَابُ الدَّوْلَةِ بِمِصْرَ - وَهِيَ الْمَمَالِكُ الْبَحْرِيَّةُ - عَلَى تَخْرِيْبِ مَدِينَةِ دِمْيَاطَ ، خَوْفًا مِنْ مَسِيرِ الْفَرَجِ إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى . فَسَيَّرُوا إِلَيْهَا الْحَجَّارِينَ وَالْفَعْلَةَ ، فَوَقَعَ الْهَدْمُ فِي أَسْوَارِهَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، حَتَّى خَرِبَتْ كُلُّهَا ، وَمُجِيتِ آثَارِهَا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الْجَامِعِ ، وَصَارَ فِي قَبْلِهَا أَنْحِصَاصٌ عَلَى النَّيْلِ سَكَنَهَا النَّاسُ الضُّعْفَاءُ ، وَسَمَّوْهَا الْمُنْشِيَّةَ^٢ . وَهَذَا الشُّورُ هُوَ الَّذِي بَنَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ^٣ .

١٠ فَلَمَّا اسْتَبَدَّ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْبُزَسُ الْبُنْدُقْدَارِي / الصَّالِحِي بِمَمْلَكَةِ مِصْرَ بَعْدَ قَتْلِ الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ قُطْرُ ، أَخْرَجَ مِنْ مِصْرَ عِدَّةً مِنَ الْحَجَّارِينَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ لِرَدْمِ قَمِّ بَحْرِ دِمْيَاطَ ؛ فَمَضَوْا وَقَطَعُوا كَثِيرًا مِنَ الْقَرَايِصِ^٤ وَأَلْقَوْهَا فِي بَحْرِ النَّيْلِ الَّذِي يَنْصَبُ مِنْ شَمَالِ دِمْيَاطَ فِي الْبَحْرِ الْمِلْحِ حَتَّى ضَاقَ وَتَعَدَّرَ دُخُولُ الْمَرَاكِبِ مِنْهُ إِلَى دِمْيَاطَ^٥ وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ عَلَى ذَلِكَ ، لَا تَقْدِرُ مَرَاكِبُ الْبَحْرِ الْكِبَارِ أَنْ تَدْخُلَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا يُنْقَلُ مَا فِيهَا مِنَ الْبَضَائِعِ فِي مَرَاكِبِ نَيْلِيَّةٍ تُعْرَفُ عِنْدَ أَهْلِ دِمْيَاطَ بِالْجُرُومِ (وَاحِدُهَا جَزْمٌ) وَتَصِيرُ مَرَاكِبُ بَحْرِ الْمِلْحِ وَاقِفَةً بِآخِرِ الْبَحْرِ ، قَرِيبًا مِنْ مُلْتَقَى الْبَحْرَيْنِ .

٢٠ وَيَزْعَمُ أَهْلُ دِمْيَاطَ الْآنَ أَنَّ سَبَبَ امْتِنَاعِ دُخُولِ مَرَاكِبِ الْبَحْرِ جَبَلٌ فِي قَمِّ الْبَحْرِ ، أَوْ رَمْلٌ يَتَرَبَّى هُنَاكَ . وَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ مَا يَجِدُونَهُ مِنْ تَلَافِ الْمَرَاكِبِ إِذَا هَجَمَتْ عَلَى هَذَا الْمَكَانِ ، وَجَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ الْمَوْجُودِ ، وَمَا مَرَّ مِنَ الْوَقَائِعِ . وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا يُخَافُ عَلَى الْمَرَاكِبِ عِنْدَ وُرُودِهَا قَمِّ الْبَحْرِ ، وَكَثِيرًا مَا تَتَلَفُ فِيهِ . وَقَدْ سِرْتُ إِلَيْهِ حَتَّى شَاهَدْتُهُ ، وَرَأَيْتُهُ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ .

^٣ فيما تقدم ٥٨٣ .

= ٣١٦ ؛ ابن شاکر: فوات الوفیات ١: ٢٣٢ ؛ أبي

^٤ القرباص ج. القراييص هي الحجارة (Dozy, R.)

المحاسن: المنهل الصافي ٣: ٤٤٢ .

• (Suppl. Dict. Ar. II, p. 332)

^١ المقرئزي: السلوك ١: ٣٦٦ .

^٥ المقرئزي: السلوك ١: ٤٤٦ .

^٢ نفسه ١: ٣٧٢ ؛ أبو المحاسن: النجوم ٧: ٢٠ ، ٢٣ .

وأما دِمياطُ الآن فإنَّها حَدَّثت بعد تَخريب مَدِينة دِمياط ، وعَمِلَ هناك أخصاصٌ ، وما بَرَحت تَزْدادُ إلى أن صارت بَلَدَةً كَبيرة ذات أشواق وحمَّامات وجوامع ومدارس ومساجد ، ودورها تُشرف على النيل الأعظم ، ومن ورائها البساتين ، وهي أحسنُ بلاد الله منظرًا . وقد أَخْبَرَنِي الأميرُ الوَزيزُ المُشيرُ الأستادُارُ يَلْبغا السَّالبي - رَحِمَهُ اللهُ - أنه لم ير في البلاد التي سَلَكَها من سَمَرْقند إلى مصر أحسنَ من دِمياط هذه ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَغلو في مَدْحِها إلى أن شاهدتها ، فإذا هي أَحسنُ بَلَدٍ وَأَنزَهه ، وفيها أقول :

[الطويل]

سَقَى عَهْدَ دِمياطَ وَحَيَّاهُ من عَهْدِ
ولا زالت الأَنْواءُ تَشقي سِحابِها
فيا مُحسنَ هاتيك الدِّيارِ وطيبِها
فالله أَنهَارٌ تَحِفُّ بِرَوْضِها
وبشَنِينِها الرِّيانَ يَحكي مُشِيمًا
فقامَ على رِجْلَيْهِ في الدَّمعِ غارقًا
وظلَّ على الأقدامِ تَحسِبُ أَنَّهُ
ولا سِيَّما تلكَ النُّواعيرُ إنَّها
أطارِحُها شَجوي وصارت كَأَمَّا
فقد خِلَتْها الأفلاكُ فيها نُجومِها
وفي البركِ الغرَّاءِ يا مُحسنَ نَوْفَرِ
سَماءَ من البَلُورِ فيها كَواكِبُ
وفي شاطئِ النيلِ المُقدَّسِ نُزْهَةٌ
وتُنشِي رِياحًا تَطْرُدُ الهَمَّ والأسى
وفي مَرَجِ البَحْرَيْنِ جَمُّ عَجائِبِ
كَأنَّ التِّقاءَ النيلِ بالبَحْرِ إِذْ غَدَا
وقد نَزَلَا للحَرْبِ واحْتَدَمَ اللُّقا
فظلَّأ كَمَا باتَا وما بَرِحَا كَمَا
فَكَمْ قد مَضَى لي من أَفانينَ لَذَّةِ
وكم قد نَعِمْنَا في البساتينِ بُرْهَةً
وفي البُرْزَخِ المائوسِ كم لي خَلْوةِ

فقد زادني ذِكْرُاه وَجَدًا على وَجْدِ
ديارًا حَكَتْ من مُحسِنِها جَنَّةَ الخَلْدِ
فَكَمْ قد حَوَتْ مُحسِنًا يَجَلُّ عن العَدِّ
لكالمُزْهَفِ المَضْمُولِ أو صَفْحَةِ الخَدِّ
تَبَدَّلَ من وَصَلَ الأَجِبَةَ بالصَّدِّ
يُراعي نُجومَ الليلِ من وَخْشَةِ الفَقْدِ
لَطولِ انْتِظارٍ من حَبيبِ على وَغْدِ
تُجَدِّدُ حُزْنَ الوالِهِ المَدْنِفِ الفَرْدِ
تُطارِحُ شَكواها بِمِثْلِ الذي أُبْدِي
تَدورُ بِمَحْضِ النُّفْعِ منها وبالشَّعْدِ
حَلَا وَغَدَا بالزُّهُوِ يَسْطُو على الوَرْدِ
عَجيبَةَ صَبغِ اللُّونِ مُحكمة التُّضدِ
تُعِيدُ شَبابَ الشَّيبِ في عَيْشِهِ الرَّغْدِ
وتُنشِي ليالي الوَصلِ من طيبِها عِنْدِي
تَلُوحُ وتَبْدو من قَرِيبِ ومن بُعْدِ
مَلِيكانَ سارا في الجَحافلِ من جُنْدِ
ولا طَعْنَ إلا بِالمُشَقَّفَةِ المُلْدِ
هُما من جَليلِ الخُطْبِ في أَعْظَمِ الجُهْدِ
بشاطِئِها العَذْبِ الشَّهِيِّ لَدوي الوَرْدِ
بَعِيشَ هَنِيءٍ في أمانٍ وفي سَعْدِ
وعندَ سَطَا عن أَيْمَنِ العَلَمِ الفَرْدِ

١٠

١٥

٢٠

٢٥

هناك تَرَى عَيْنَ البَصِيرَةِ ما تَرَى من الفضل والأفضال والخير والمجد
فيا رَبِّ هَيِّئْ لي بفضلك عَوْدَةً ومُنَّ بها في غير بَلْوَى ولا جُهدٍ

وبدمياط - حيث كانت المدينة التي هُدِمت - جامعٌ من أجل مساجد المسلمين، تُسمِّيه العامة
مَسْجِدُ فَتْحٍ، وهو المَسْجِدُ الذي أسَّسه المسلمون عند فَتْحِ دِمْيَاطِ أَوَّلَ ما فَتَحَ اللهُ أَرْضَ مصرَ على
يدِ عَمْرُو بنِ العاصِ، وعلى بابهِ مَكْتُوبٌ بالقلم الكوفي «إِنَّهُ عُمَرُ بعد سنة خمس مائة من
الهجرة»؛ وفيه عِدَّةٌ من عُمَدِ الرخامِ، منها ما يَعْزُزُ وُجُودَ مِثْلِهِ. وإنما عُرِفَ / بجامع فَتْحٍ، لِتُزُولِ
شَخْصٍ يُقَالُ له فَاتِحٌ به، فقالت العامةُ جامعُ فَتْحٍ. وإنما هو فاتح بن عُثْمَانَ الأَسْمَرُ التُّكْرُورِيُّ قَدِيمٌ
من مَرَاكُشٍ إلى دِمْيَاطِ على قَدَمِ التُّجْرِيدِ، وسَقَى بها الماءَ في الأسواقِ احتِسَابًا من غير أن يَتَنَاوَلَ
من أَحَدٍ شَيْئًا، ونَزَلَ في ظاهِرِ الثَّغْرِ، ولَزِمَ الصَّلَاةَ مع الجماعة. وتَرَكَ النَّاسَ جميعًا، ثم أقامَ
بناحية ثُوْنَةٍ من بُحَيْرَةِ تَيْسٍ وهي خراب نحو سبع سنين، ورَمَّ مَسْجِدَها. ثم انتقلَ من ثُوْنَةٍ إلى
جامعِ دِمْيَاطِ، وأقامَ في وَكْرِ بِأسْفَلِ المنارة من غير أن يُخالِطَ أَحَدًا، إلا إذا أُقيمتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ
وَصَلَّى، فإذا سَلَّمَ الإمامُ عادَ إلى وَكْرِه، فإن عارضَه أَحَدٌ بِحديثِ كَلِمَةٍ وهو قائمٌ بعد انصِرافِهِ
من الصَّلَاةِ؛ وكانت حالُهُ أَبَدًا اتِّصَالًا في انفِصالِ، وقُرْبًا في ائْتِعادِ، وأنسا في نِفارِ.

وَحَجٌّ، فكان يُفارقُ أصحابَهُ عند الرِّحيلِ، فلا يَرَوْنَهُ إلا وَقْتَ التُّزُولِ. ويكون سَيْرُهُ مُنْفَرِدًا
عَنهم، لا يُكَلِّمُ أَحَدًا، إلى أن عادَ إلى دِمْيَاطِ فأخَذَ في تَرْميمِ الجامعِ وتَنْظيفِهِ بِنَفْسِهِ، حتى نَقَّى ما
كان فيه من الوَطْواطِ بِسُقُوفِهِ، وساقَ الماءَ إلى صَهَارِيحِهِ، وبَلَّطَ صَحْنَهُ، وَسَبَكَ سَطْحَهُ
بِالجِيسِ، وأقامَ فيه. وكان قَبْلَ ذلكَ من حينِ خَرِبَتْ دِمْيَاطُ لا يُفْتَحُ إلا في يومِ الجُمُعَةِ فقط،
فَرُتِبَ فيه إمامًا راتِبًا يُصَلِّي الخُمُسَ. وسَكَنَ في بَيْتِ الخُطَابَةِ، وواظَبَ على إقامَةِ الأورادِ
به، وجَعَلَ فيه قُرَاءَةَ يَتْلُونَ القُرْآنَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وقَرَّرَ فيه رَجُلًا يقرأ مِيعادًا يُذَكِّرُ النَّاسَ
ويُعَلِّمُهُم.

وكان يقول: لو عَلِمْتُ بِدِمْيَاطِ مكانًا أَفْضَلَ من الجامعِ لأَقَمْتُ به، ولو عَلِمْتُ في الأرضِ
بلدًا يكون فيه الفَقيرُ أَحْمَلٌ من دِمْيَاطِ لَرَحَلْتُ إليه، وأَقَمْتُ به. وكان إذا وَرَدَ عليه أَحَدٌ من
الفُقراءِ ولا يَجِدُ ما يُطْعِمُهُ، باعَ من لِياسِهِ ما يُضَيِّفُهُ به. وكان يَبِيتُ وَيُصْبِحُ وليس له مَعْلُومٌ، ولا
ما يَقَعُ عليه العَيْنُ، أو تَسْمَعُهُ الأُذُنُ. وكان يُؤثِّرُ في السُّرِّ الفُقراءِ والأراملِ، ولا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا،
ولا يَقْبَلُ غَالِيًا، وإذا قَبِلَ ما يَفْتَحُ اللهُ عليه أثرَ به. وكان يَبْدُلُ جُهدِهِ في كَثْمِ حالِهِ، والله تعالى
يُظهِرُ خَيْرَهُ وَبَرَكَتَهُ من غير قَصْدٍ منه لذلك.

وَعُرِفَتْ لَهُ عِدَّةُ كَرَامَاتٍ ، وَكَانَ سُلُوكُهُ عَلَى طَرِيقِ السَّلَفِ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَالتَّفُورِ عَنِ الْفِتْنَةِ ، وَتَرْكِ الدَّعَاوَى وَاطْرَاجِهَا ، وَسِتْرِ حَالِهِ ، وَالتَّحْفُظِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . وَكَانَ لَا يُرَافِقُ أَحَدًا فِي اللَّيْلِ ، وَلَا يُعَلِّمُ أَحَدٌ يَوْمَ صَوْمِهِ مِنْ يَوْمِ فِطْرِهِ ، وَيَجْعَلُ دَائِمًا قَوْلَ « إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » مَكَانَ قَوْلِ غَيْرِهِ « وَاللَّهِ » .

٥ ثم إنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ الْعَزِيزِ الدَّمِيرِيَّ أَشَارَ عَلَيْهِ بِالنُّكَاحِ ، وَقَالَ لَهُ : النُّكَاحُ مِنَ السُّنَّةِ ؛ فَتَزَوَّجَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بِامْرَأَتَيْنِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نَهَارًا أَلْبَتَّةَ ، وَلَا أَكَلَ عِنْدَهُمَا وَلَا شَرِبَ قَطًّا . وَكَانَ لَيْلُهُ ظَرْفًا لِلْعِبَادَةِ ، لَكِنَّهُ يَأْتِي إِلَيْهِمَا أَحْيَانًا ، وَيَنْقَطِعُ أَحْيَانًا لِاسْتِغْرَاقِ زَمَنِهِ كُلِّهِ فِي الْقِيَامِ بِوُضَائِفِ الْعِبَادَاتِ وَإِثَارِ الْخُلُوةِ .

١٠ وَكَانَ خَوَاصُّ خَدَمِهِ لَا يَعْلَمُونَ بِصَوْمِهِ مِنْ فِطْرِهِ ، وَإِنَّمَا يَحْمِلُ إِلَيْهِ مَا يَأْكُلُ وَيُوضَعُ عِنْدَهُ بِالْخُلُوةِ ، فَلَا يُرَى قَطًّا آكِلًا . وَكَانَ يُحِبُّ الْفَقْرَ ، وَيُؤَثِّرُ حَالَ الْمَسْكِينَةِ ، وَيَتَطَارَحُ عَلَى الْحُمُولِ وَالْجَفَا ، وَيَتَوَاضَعُ مَعَ الْفُقَرَاءِ ، وَيَتَعَاطَمُ عَلَى الْعُظَمَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ .

١٥ وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْمُصْحَفِ ، وَيُطَالِعُ الْكُتُبَ ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ يَخُطُّ بِيَدِهِ شَيْئًا . وَكَانَتْ تِلَاوَتُهُ لِلْقُرْآنِ بِخُشُوعٍ وَتَدْبِيرٍ . وَلَمْ يَعْمَلْ لَهُ سِجَّادَةٌ قَطًّا ، وَلَا أَخَذَ عَلَى أَحَدٍ عَهْدًا ، وَلَا لَيْسَ طَاقِيَةً ، وَلَا قَالَ أَنَا شَيْخٌ وَلَا أَنَا فَقِيرٌ ، وَمَتَى قَالَ فِي كَلَامِهِ « أَنَا » ، تَفَطَّنَ لِمَا وَقَعَ مِنْهُ ، وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ قَوْلِ أَنَا ، وَلَا حَضَرَ قَطًّا سَمَاعًا ، وَلَا أَنْكَرَ عَلَى مَنْ يَحْضُرُهُ .

وكان سُلُوكُهُ صَلَاحًا مِنْ غَيْرِ إِصْلَاحٍ ، وَيُيَالِغُ فِي التَّرَفُّعِ عَلَى أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، وَيَتَرَامَى عَلَى الْفُقَرَاءِ ، وَيُقَدِّمُ لَهُمُ الْأَكْلَ ، وَلَمْ يُقَدِّمْ لِعَنِيٍّ أَكْلًا أَلْبَتَّةَ .

وإذا اجْتَمَعَ عِنْدَهُ النَّاسُ ، قَدَّمَ الْفَقِيرَ عَلَى الْغَنِيِّ . وَإِذَا مَضَى الْفَقِيرُ مِنْ عِنْدِهِ ، سَارَ مَعَهُ وَشَيْعَتُهُ عِدَّةَ حُطُوتٍ وَهُوَ حَافٍ بِغَيْرِ نَعْلِ ، وَوَقَفَ عَلَى قَدَمَيْهِ يَنْظُرُهُ حَتَّى يَتَوَارَى عَنْهُ .

٢٠ وَمَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَرَاءِ يُشَارُ إِلَيْهِ بِمَشِيخَةٍ جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَدَبٍ مَعَ إِمَامَتِهِ . وَتَقَدَّمَهُ فِي الطَّرِيقِ وَيَقُولُ : مَا أَقُولُ لِأَحَدٍ أَفْعَلُ أَوْ لَا تَفْعَلُ ، مِنْ أَرَادَ السُّلُوكَ يَكْفِيهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى أَفْعَالِهِ ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَسْأَلْكَ بِنَظَرِهِ لَا يَسْأَلْكَ بِسَمْعِهِ .

٢٥ وَقَالَ لَهُ شَخْصٌ مِنْ خَوَاصِّهِ : يَا سَيِّدِي ، اذْعُ اللَّهُ لَنَا أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْنَا فَتَحُنُ فُقَرَاءٍ ؛ فَقَالَ : إِنْ أَرَدْتُمْ فَتْحَ اللَّهِ ، فَلَا تُبْقُوا فِي الْبَيْتِ شَيْئًا ثُمَّ اطْلُبُوا فَتْحَ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَدْ جَاءَ : « لَا تَسْأَلُ اللَّهُ وَلَكَ خَاتَمٌ مِنْ حَدِيدٍ » . وَمِنْ كَلَامِهِ : الْفَقِيرُ بِحَالِ الْبِكْرِ ، إِذَا سَأَلَ زَالَتْ بَكَارَتُهُ .

وسأله بعضُ خَوَاصِّهِ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ بِسَعَةٍ ، وَشَكَاَ لَهُ الضُّيْقَ ، فَقَالَ : أَنَا مَا أَدْعُوُ لَكَ بِسَعَةٍ ، بَلْ أَطْلُبُ لَكَ الْأَفْضَلَ وَالْأَكْمَلَ .

وكان مع اشتغاله بالعبادة واشتغراق أوقاته فيها لا يغفل عن صاحبه ، ولا ينسى حاجته حتى يقضيها ، ويلتزم الوفاء لأصحابه ويحسن معاشرتهم ، ويعرف أحوال الناس على طبقاتهم ، ويعظم العلم ، ويكرم الأيتام ، ويشفق على الضعفاء والأرامل ، ويتدخل شفاعته في قضاء حوائج الخاص والعام من غير أن يمل ولا يتبرم بكثرة ذلك ، ويكثر من الإيثار في السر ، ولا يمسك لنفسه شيئاً ، ويستقل ما منه مع كثرة إحسانه ، ويستكثر ما يذفع إليه وإن كان يسيراً ، ويكافئ عليه بأحسن منه . ولم يصب قط أميراً ولا وزيراً ، بل كان في سلوكه وطريقه يرفع في تواضع ، ويعزز مع مسكنة ، وقرب في ابتعاد ، واتصال في انفصال ، وزهد في الدنيا وأهلها . وكان أكبر من خبره .

١٠ / ومن دعائه لنفسه ، ولمن يسأل له الدعاء : « اللهم بعدنا عن الدنيا وأهلها ، وبعدها عنا » . وما زال على ذلك إلى أن مات آخر ليلة أسفر صباحها عن الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وست مائة ، وترك ولدين ليس لهما قوت لينة ، وعليه مبلغ ألفي درهم ديناً ، ودفن بجوار الجامع ، وقبره يُزار إلى يومنا هذا .

ذِكْرُ شَطَا

١٥ شَطَا مَدِينَةٌ عِنْدَ تَيْسٍ وَدِمْيَاطَ ، وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ الثِّيَابُ الشُّطَوِيَّةُ^١ . وَيُقَالُ إِنَّهَا عُرِفَتْ بِشَطَا بْنِ الْهَامُوكِ ، وَكَانَ أَبُوهُ خَالَ الْمُقَوْقِسِ ، وَكَانَ عَلَى دِمْيَاطَ ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ الْحِصْنَ عَلَى يَدِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أَرْضِ مِصْرَ ، جَهَّزَ بَعَثًا لِفَتْحِ دِمْيَاطَ ، فَنَازَلُوهَا إِلَى أَنْ مَلَكَوا سُورَ الْمَدِينَةِ ، فَخَرَجَ شَطَا فِي الْفَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ ؛ وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُحِبُّ الْخَيْرَ وَيَمِيلُ إِلَى مَا يَسْمَعُهُ مِنْ سِيرَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

٢٠ وَلَمَّا مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ دِمْيَاطَ ، امْتَنَعَ عَلَيْهِمْ صَاحِبُ تَيْسٍ ، فَخَرَجَ شَطَا إِلَى الْبُرُؤْسِ وَالذُّمَيْرَةِ وَأَشْمُومَ طَنَاحَ يَسْتَنْجِدُ ، فَجَمَعَ النَّاسَ لِقِتَالِ أَهْلِ تَيْسٍ ، وَسَارَ بِهِمْ مَعَ مَنْ كَانَ بِدِمْيَاطَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ قَدِمَ مَدَدًا مِنْ عِنْدِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ تَيْسٍ . فَالْتَقَى الْفَرِيقَانِ ، وَأَبْلَى شَطَا فِيهِمْ^(a)

(a) بولاق : منهم .

^١ إحدى مدن مركز فارسكور بمحافظة دمياط (ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٤٢ - ٣٤٣ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي

بلاءً حسناً وقتل من أبطال تَيْسِ اثني عشر رجلاً . واستشهد في ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة إحدى وعشرين من الهجرة ، فقبر - حيث هو الآن - خارج دِمْيَاط ، وبني على قبره ، وصار الناس يجتمعون هناك في ليلة النصف من شعبان كل عام ، ويتعدون للحضور من القرى . وهم على ذلك إلى يومنا هذا .

وكانت تُعمل كُسوة الكعبة بشطاً ؛ قال الفاكهي : ورأيتُ فيها كُسوة من كُسا أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطي مصر ، مكتوباً عليها :

« بِسْمِ اللَّهِ ، بَرَكَه من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ،
مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعه في طراز شطاً ، كُسوة
للعبد^a سنة إحدى وتسعين ومائة »^١ .

ومن المواضع المشهورة بدِمْيَاط :

البسزخ : وهو مسجدٌ بُحَيْرَة دِمْيَاط ، تُسميه العامة البسزخ ، ولا أعرف مُستندهم في ذلك . وشاهدتُ فيه عَجَباً ، وهو أن به منارة كبيرة مبنية من الحجر ، إذا هزها أحد اهتزت ، فلما صعدتُ أعلاها - حيث يقف المؤذنون - وحركتها ، رأيتُ ظلها قد تحرك بتحريكها لها . ويُوجد حول هذا المسجد رُمٌّ أموات يُشبه أن تكون ممن استشهد في وقائع الفرج ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

زَيْبِق

قرية من قرى دِمْيَاط ، يُنسب إليها الثياب الثقيلة ، والعمائم الشرب الملونة^٢ . والدِّيقي : العلم المذهب . وكانت العمائم الشرب المذهبة تُعمل بها ، ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع ، وفيها رقعات منسوجة بالذهب ، فتبلغ العمامة من الذهب خمس مائة

(a) بولاق وثبيت : للكعبة .

^١ لم أعر على هذا النص فيما نشره واستفد من «تاريخ الفاكهي» ، وانظر فيما تقدم ٤٨٩ - ٤٩٠ .

^٢ ذيق كأمير من المدن المصرية الصناعية القديمة كانت بالقرب من تيس ، وقد اندثرت اليوم ويعرف مكانها بتل ديقو أو ديجو بالقرب من شاطئ بحيرة المنزلة في الشمال الشرقي

لناحية صان الحجر بمركز فاقوس بمحافظة الشرقية وعلى بعد ٥٥٠ متر من صان الحجر (ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٤٣٨ ؛ الزبيدي : تاج العروس ٦ : ٣٤١ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١ : ٢٤٣ ؛ Maspero & Wiet, Matériaux p. 178; Wiet, G., El² art. Dabik II, p. 74 .

دينار، سوى الحرير والغزل. وحدثت هذه العمائم وغيرها في أيام العزيز بالله بن المعز، سنة خمس وستين وثلاث مائة، إلى أن مات في شعبان سنة ست وثمانين وثلاث مائة.

التخريبية

قوية من الأعمال الغربية، أسس حكرها الأمير شمس الدين سنقر السعدي نقيب الجيش في أيام الناصر محمد بن قلاوون، وبالغ في عمارتها، فبلغت في أيامه عشرة آلاف درهم فضة. ثم خرج عنها فعمرت للسلطان، واتسع أمرها حتى أنشئ فيها زيادة على ثلاثين بُستاناً، ووصل حكرها لكثرة سكانها إلى ألف درهم فضة لكل فدان، وصارت بلدًا كبير العمل، يبلغ في السنة ما بين خراجي وهلالتي ثلاث مائة ألف درهم فضة، عنها خمسة عشر ألف دينار ذهبًا. ومات سنقر هذا في سنة ثمان وعشرين وسبع مائة، وإليه تُنسب المدرسة السعدية بخط حذرة البقر خارج باب زويلة^١.

جزيرة بني نصر

منسوبة إلى بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، وذلك أن بني حماس بن ظالم بن جعيل ابن عمرو بن دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن كانت لهم شوكة شديدة بأرض مصر، وكثروا حتى ملأوا أسفل الأرض، وغلبوا عليها حتى قويت عليهم قبيلة من البربر تُعرف بلواته - ولواته تزعم أنها من قيس - فأجلت بني نصر وأسكنتها الجدار، فصاروا أهل قرى في مكان عُرف بهم وسط النيل، وهي جزيرة بني نصر هذه^٢.

^١ ١٢٢-١٢٣؛ وانظر فيما يلي ٦٧٦، ٢: ٣٩٧.

^٢ تشمل جزيرة بني نصر المنطقة الواقعة على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد من محلة اللبن التي بمركز كفر الزيات شمالاً إلى زاوية رزين بمركز منوف جنوباً؛ وسميت جزيرة لأن ماء النيل كان يحيط بها فكان يحدها من الغرب فرع رشيد ومن الشرق ترعة الباجورية وفروعها (ابن مماتي: قوانين ٩٥؛ القلقشندي: صبح ٤٠٥: ٣-٤٠٦؛ أبو المحاسن: النجوم ٣٨: ٩هـ^٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢١٣: ١-٢١٤).

^١ التخريبية. من القرى القديمة كانت في بدء تكوينها ضيعة أنشأها نحرير الأرخلي الإخشيدي، المعروف بابن الشوزاني في القرن الرابع الهجري فعرفت به، وهي من أعمال الغربية وورد رسمها كذلك النحرارية في بعض المصادر وهو تحريف، ثم حُرف للمرة الثانية إلى التُّخارِيَّة وهو اسمها الحالي الذي وردت به في تاج العروس وفي فك الزمام سنة ١٢٢٨هـ مما يدل على أن هذا التحريف وقع في العهد العثماني وهي الآن تابعة لمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية (ابن دقماق: الانتصار ٥: ٨٦؛ الزبيدي: تاج العروس ٣: ٥٥٨؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٧: ٥-٦؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٢:

ذكر الطريق فيما بين مدينة مصر ودمشق^١

اعلم أن البريد أول من رتب دوابه الملك دارا بن بهمن بن كيشتاف بن لهراسف^(a)، أخذ ملوك الفرس .

وأما في الإسلام فأول من أقام البريد أمير المؤمنين المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور، أقامه فيما بين مكة والمدينة - ^(b) على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام^(b) واليمن، وجعله بغالاً وإبلًا، وذلك في سنة ست وستين ومائة . وأصل هذه الكلمة « بريد ذنب » فإن دارا أقام في سلك البريد دواب مَحذوفة الأذنان سُميت « بريد ذنب »، ثم عُزبت وحذف منها نصفها الأخير فقبل « بريد » .

وهذا الدرب / الذي يسلكه العساكر والتجار وغيرهم من القاهرة على الرمل إلى مدينة غزة، ليس هو الدرب الذي يسلك في القديم من مصر إلى الشام . ولم يحدث هذا الدرب الذي يسلك فيه من الرمل الآن إلا بعد الخمس مائة من سني الهجرة، عندما انقرضت الدولة الفاطمية^٢ .

وكان الدرب أولاً قبل استيلاء الفرنج على سواحل البلاد الشامية غير هذا؛ قال أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة في كتاب « المسالك والممالك » : وصفة الأرض والطريق من دمشق إلى الكشوة اثنا عشر ميلاً، ثم إلى جاسم أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى فيق أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى طبرية مدينة الأزدن ستة أميال، ومن طبرية إلى اللجون عشرون ميلاً، ثم إلى القلشوة عشرون ميلاً، ثم إلى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلاً، والطريق من الرملة إلى أزدود اثنا عشر ميلاً، ثم إلى غزة عشرون ميلاً، ثم إلى العريش أربعة وعشرون ميلاً في رمل، ثم إلى الوردادة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى أم العرب^٣ عشرون ميلاً، ثم إلى القرما أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى جرجير ثلاثون ميلاً، ثم إلى الغاضرة^(c) أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى

(a) بولاق : كيستاف بن كيهراسف . (b-b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : القاصرة .

^١ نقل سلفستر دي ساسي هذا الفصل إلى الفرنسية

بعنوان De Sacy, S., «Route de la capitale de l'Égypte à Damas (Extrait de la Description de

l'Égypte à Damas (Extrait de la Description de l'Égypte par Makrizi)», *Magazin Encyclopédique*

^٢ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٧ - ٢٨ .

^٣ جاء على هامش نسخة الأصل هنا : «أم العرب» .

مَسْجِدَ قُضَاعَةَ ثَمَانِيَةَ عَشْرَ مِيلاً ، ثُمَّ إِلَى بَلْبَيْسٍ أَحَدَ وَعِشْرُونَ مِيلاً ، ثُمَّ إِلَى الْقُسْطَاطِ مَدِينَةَ مِصْرَ أَرْبَعَةَ وَعِشْرُونَ مِيلاً ^١ .

فَهَذَا كَمَا تَرَى إِذَا كَانَ الدَّرْبُ الْمَسْلُوكُ مِنْ مِصْرَ إِلَى دِمَشْقَ ، عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ الْآنَ ، فَيُسَلِّكُ مِنْ بَلْبَيْسٍ إِلَى الْفَرَمَا فِي الْبِلَادِ الَّتِي تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِبِلَادِ السَّبَاخِ ، مِنَ الْخَوْفِ ، وَيُسَلِّكُ مِنَ الْفَرَمَا - وَهِيَ بِالْقُرْبِ مِنْ قَطِيَّةَ - إِلَى أُمِّ الْعَرَبِ - وَهِيَ بِلَادُ خَرَابٍ عَلَى الْبَحْرِ فِيمَا بَيْنَ قَطِيَّةَ وَالْوَرَّادَةَ ، وَيَقْصِدُهَا قَوْمٌ مِنَ النَّاسِ ، وَيَحْفَرُونَ فِي كَيْمَانِهَا فَيَجِدُونَ دَرَاهِمَ مِنْ فِضَّةٍ خَالِصَةٍ ، ثَقِيلَةَ الْوِزْنِ ، كَبِيرَةَ الْمِقْدَارِ - وَيُسَلِّكُ مِنْ أُمِّ الْعَرَبِ إِلَى الْوَرَّادَةَ ، وَكَانَتْ بَلَدَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا الْآنَ ، قَدْ ذُكِرَتْ فِي هَذَا الْكِتَابِ ^٢ .

فَلَمَّا خَرَجَ الْفَرَنْجُ مِنْ بَحْرِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي سَنَةِ تِسْعِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ لَأَخْذِ الْبِلَادِ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، وَأَخَذَ بُغْدُوينَ [Baldwin] الشُّوْبَكَ وَعَمَّرَهُ فِي سَنَةِ تِسْعِ وَخَمْسِ مِائَةٍ ، وَكَانَ قَدْ خَرِبَ مِنْ تَقَادُمِ السِّنِينَ ، وَأَغَارَ عَلَى الْعَرِيشِ - وَهُوَ يَوْمئِذٍ عَامِرٌ - بَطُلُ السَّفَرِ حِينَئِذٍ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ ، وَسَارَ يُسَلِّكُ عَلَى طَرِيقِ الْبَرِّ مَعَ الْعَرَبِ مَخَافَةَ الْفَرَنْجِ ، إِلَى أَنْ اسْتَتَقَدَّ السُّلْطَانُ صَلاَحُ الدِّينِ يُوسُفَ بْنَ أَيُّوبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مِنْ أَيْدِي الْفَرَنْجِ فِي سَنَةِ ثَلَاثِ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْإِيقَاعِ بِالْفَرَنْجِ ، وَافْتَتَحَ مِنْهُمْ عِدَّةَ بِلَادٍ بِالسَّاحِلِ ، وَصَارَ يُسَلِّكُ هَذَا الدَّرْبَ عَلَى الرَّهْمَلِ ^٣ . فَسَلَّكَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ حِينَئِذٍ إِلَى أَنْ وَلِيَ مُلْكَ مِصْرَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبَ بْنَ الْكَامِلِ مُحَمَّدَ بْنَ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرَ بْنَ أَيُّوبَ ، فَأَنْشَأَ بِأَرْضِ السَّبَاخِ ، عَلَى طَرَفِ الرَّهْمَلِ ، بَلَدَةً عُرِفَتْ إِلَى الْيَوْمِ بِالصَّالِحِيَّةِ وَذَلِكَ فِي سَنَةِ أَرْبَعِ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، وَصَارَ يُنْزَلُ بِهَا وَيُقِيمُ فِيهَا ، وَنَزَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ الْمَلُوكُ ^٤ .

فَلَمَّا مَلَكَ مِصْرَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْبُوسُ الْبُنْدُقْدَارِي ، رَتَّبَ الْبَرِيدَ فِي سَائِرِ الطَّرِيقَاتِ ، حَتَّى صَارَ الْخَبْرُ يَصِلُ مِنْ قَلْعَةِ الْجَبَلِ إِلَى دِمَشْقَ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَيَعُودُ فِي مِثْلِهَا . فَصَارَتْ أَخْبَارُ الْمَمَالِكِ تَرِدُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّتَيْنِ ، وَيَتَحَكَّمُ فِي سَائِرِ مَمَالِكِهِ بِالْعَزْلِ وَالْوَلَايَةِ وَهُوَ مُقِيمٌ بِالْقَلْعَةِ ، وَأَنْفَقَ فِي ذَلِكَ

كتب من الأصل .

= آثارها باقية إلى اليوم على البحر بينها وبين الفرما سباخ ويوجد بها دراهم فضة كبار يظفر بها من يتبعها . ووجد بها في زماننا رجلٌ مالا نحو عشرة آلاف دينار في قدر من ... وغلب البحر بها على موضع منها فكشف عن عدة حوانيت ووجد فيها عدة قطع من ذهب يشبه أنها كانت الصاعغة .

^١ ابن خردادبه : المسالك والممالك ، ٨٠ ، ٢١٩ - ٢٢٠ .

^٢ انظر فيما تقدم ٤٩٩ - ٥٠٠ .

^٣ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٨ .

^٤ فيما تقدم ٥٠٠ .

مالاً عظيماً ، حتى تمّ ترتيبه . وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وست مائة^١ .

وما زال أمر البريد مُستَمِرّاً فيما بين القاهرة ودمشق ، يُوجد بكلّ مَرَكز من مَرَاكِزِهِ عِدَّة من الخيول المُعدَّة للركوب - وتُعرَف بِخَيْلِ البَريد - وعندها عِدَّة سُؤاس ، وللخَيْلِ رِجَالٌ يُعرَفون بالسُؤاقين ، واجدُهُم سُؤاق ، يَركَب مع من رُسيم يَركوبه خَيْلِ البَريد لِيَسُوق له فَرَسَه وَيُخَدِمه مُدَّة مَسيره . ولا يَركَب أَحَدٌ خَيْلَ البَريد إلا بِمَرُسوم سُلطانِي ، فتارة يُمنَع الناس من رُكوبه إلا من انتدبه السُلطان لمَهَمَّاته ، وتارة يركبه من يُريد السُفر من الأعيان بِمَرُسوم سُلطانِي .

وكانت طُرُقُ الشَّامِ عامِرة ، يُوجد بها عند كلِّ بَريد ما يَحْتَاجُ إليه المُسافر من زاد وعَلَف وغيره . ولكثرة ما كان فيه من الأمان أَدْرَكنا المَرأة تُسافر من القاهرة إلى الشَّامِ بِمُفْرَدِها - رَاكِبَةً أو ماشِيَةً - لا تَحْمِلُ زادًا ولا ماءً .

فلَمَّا أَخَذَ تَيَمُوزُ لَنُك دِمَشقَ وَسَبَى أَهْلَها ، وَحَرَقَها في سنة ثلاث وثمان مائة ، خَرِبَت مَراكِزُ البَريد واشتَعَلَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ بما نَزَلَ بِالبلاد من الحِجَن ، وما دُهِوا به من كَثْرَةِ الفِتَنِ ، عن إقامَةِ البَريد^٢ ، فاختَلَّ بانقِطاعِهِ طَريقُ الشَّامِ خَللاً فَاحِشًا ؛ والأمرُ على ذلك إلى وَقْتِنا هذا ، وهو سنة ثمان عشرة وثمان مائة .

ذِكْرُ مَدِينَةِ حِطِّينِ

هذه المَدِينَةُ آثارُها إلى اليوم باقِيَةٌ فيما بين حَبْوة والعاقُولَةُ بأرضِ العاقُولَةِ فيما بين قَطِيَّة والغريش ، تَجاهها بِمِيلِ مائة عَدْب تُسَمِّيهِ العَرَبُ أبا العُرُوق ، وهو شَرقِها^٣ . وهذه المَدِينَةُ تُنسَبُ إلى حِطِّينِ ، ويُقالُ حِطِّي بن الملك أبي جاد المَدِينِي . وأهل قَطِيَّة اليوم يُسَمُّون تلك الأرض ببلاد حِطِّينِ والجَفَر .

ومَلِك حِطِّينِ هذا أرضَ مصر بعد مَوْتِ أبيه ، وكان صَاحِبَ حَرْبٍ وَبَطْشٍ ، وكان يَنزُلُ بِقَلْعَةٍ في جبال الأردن قَربًا من طَبْرِيَّة ، وإليه تُنسَبُ قَريَّة حِطِّينِ التي بها / الآن قَبْرُ شُعَيْبِ القُرُوبِ من صَفَد^٤ .

^١ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٨ . ^٣ ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٢٧٣-٢٧٤ وفيه أنها

^٢ راجع دراسة سوفاجيه الهامة عن بريد الخيول في العصر

المملوكي Sauvaget, J., *La poste aux cheveaux dans*

l'Empire des Mamelouks, Damas - IFEAD 1941 . ^٤ وهي الموضع الذي جرت فيه الموقعة المشهورة التي انتصر فيها صلاح الدين على جيوش الفرنج (الصليبيين) =

ذِكْرُ مَدِينَةِ الرَّقَّةِ

هذه المدينة من جُمْلَةِ مَدَائِنِ مَدِينِ فِيمَا بَيْنَ بَحْرِ الْقُلْزُمِ وَجَبَلِ الطُّورِ . كَانَ بِهَا عِنْدَمَا خَرَجَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ قَوْمٍ مِنْ لَحْمٍ آلِ فِرْعَوْنَ يَعْبُدُونَ الْبَقْرَ ، وَإِيَّاهُمْ عَنَى اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَتَّبِعُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ [الآية ١٣٨ سورة الأعراف] . قَالَ قَتَادَةَ : أَوْلَيْكَ الْقَوْمُ مِنْ لَحْمٍ ، وَكَانُوا نُزُولًا بِالرَّقَّةِ . وَقِيلَ كَانَتْ أَصْنَامُهُمْ تَمَائِيلَ الْبَقْرَ ، وَلِهَذَا أَخْرَجَ لَهُمُ الشَّامِرِيُّ عِجْلًا .
وَأَثَارُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ بَاقِيَةٌ إِلَى الْيَوْمِ ، فِيمَا بَقِيَ مِنْ مَدِينَةِ فَارَانَ وَالْقُلْزُمِ وَمَدِينِ وَأَيْلَةَ ، تَمَرُّ بِهَا الْأَعْرَابُ ^١ .

ذِكْرُ عَيْنِ شَمْسٍ ^٢

١٠ (a) كَانَتْ عَيْنُ شَمْسٍ هَيْكَلًا يَحْجَّ النَّاسُ إِلَيْهِ وَيَقْصِدُونَهُ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، فِي جُمْلَةِ مَا كَانَ يُحْجَّ إِلَيْهِ مِنَ الْهَيْكَلِ الَّتِي كَانَتْ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ . وَيُقَالُ إِنَّ الصَّابِئَةَ أَخَذَتْ هَذِهِ الْهَيْكَلَ عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ عَنْ شِيثَ بْنِ آدَمَ ، وَعَنْ هِرْمَسِ الْأَوَّلِ - وَهُوَ إِدْرِيسُ - فَإِنَّ (b) إِدْرِيسَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْجَوَاهِرِ الْعُلُويَّةِ وَالْحَرَكَاتِ النَّجُومِيَّةِ وَبَنَى الْهَيْكَلَ وَمَجَّدَ اللَّهَ فِيهَا .

(a) قبل ذلك في بولاق : كان يقال لها في القديم رعمساس ، وهذه العبارة موجودة في الأصل بعد الفقرة التي تبدأ فيما يلي بـ: قال ابن وصيف شاه . (b) بولاق : وإن .

الآن من هذه المدينة المصرية القديمة (راجع : يا قوت : معجم البلدان ٤: ١٧٨ - ١٧٩ ؛ النويري : نهاية الأرب ١: ٣٩٣ - ٣٩٤ ؛ وجمع عصام الدين البنا النصوص العربية التي ذكرت عين شمس في رسالة إلى جامعة باريس انظر El-Banna, E.S., *Matériaux pour servir à l'histoire d'Héliopolis*, thèse de 3^e cycle EPHE, V^e section, Université de Paris-Sorbonne 1975 وانظر كذلك Becker, C.H., *El² art. 'Ayn Shams I*, pp. 811-12.

= سنة ١١٨٧/٥٨٣ م ، وانظر Cahen, Cl., *El² art. Hittin ou Hattin III*, p. 528.

^١ انظر فيما تقدم ٥١٠ .

^٢ أخبار عين شمس كثيرة في كتب الجغرافيا والرحلات وهي مدينة «أون» القديمة أطلق عليها العرب عين شمس ، وهي أول مدينة في مصر بنيت على الضفة الشرقية لنهر النيل . وظلت بقايا هذه المدينة موجودة حتى دخول العرب المسلمين إلى مصر سنة ١٩/٦٤٠ م . ونجد الآن في ضاحية المطرية شمال القاهرة مسلة مصرية منعزلة هي الشاهد الوحيد الباقي

ويقال إن الهياكل كانت عدتها في الزمن الغابر اثني عشر هيكلًا ، وهي : هيكل العلة الأولى ، وهيكل العقل ، وهيكل السياسة ، وهيكل الصورة ، وهيكل النفس - وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات - وهيكل السادس هيكل زحل وهو مُسدس ، وبعده هيكل المشتري وهو مثلث ، ثم هيكل المريخ وهو مُربع ، وهيكل الشمس وهو أيضًا مُربع ، وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل ، وهيكل عطارد مثلث في جوف مُربع مُستطيل ، وهيكل القمر مُثلث .

وعلموا عبادتهم للهياكل بأن قالوا : لما كان صانع العالم مُقدسًا عن صفات الحدوث وجب العجز عن إدراك جلاله ، وتعين أن يتقرب إليه عباده بالمقرين لديه ، وهم الروحانيون ، ليشفعوا لهم ، ويكونوا وسائط لهم عنده .

وعنوا بالروحانيين الملائكة ، وزعموا أنهم^a المدبرات للكواكب السبعة السيارة في أفلاكها ، وهي هياكلها ، وأنه لا بد لكل روحاني من هيكل ، ولا بد لكل هيكل من فلك ، وأن نسبة الروحاني إلى الهيكل نسبة الروح إلى الجسد .

وزعموا أنه لا بد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم حتى يتوجه إليه العبد بنفسه ، ويستفيد منه . ففزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات ، فعرفوا بيوتها من الفلك ، وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها ، وما لها من الأيام والليالي والساعات والأشخاص والصور والأقاليم ، وغير ذلك مما هو معروف في موضعه من العلم الرياضي .

وسموا هذه السبعة السيارة أربابًا وآلهة ، وسموا الشمس إله الآلهة ورب الأرباب ، وزعموا أنها المقيضة على السنة أنوارها ، والمظهرة فيها آثارها . فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقربًا إلى الروحانيين لتقربهم إلى الباري ، لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين ، وكل من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روجه .

وكانوا يصلون لكل كوكب يومًا يزعمون أنه رب ذلك اليوم ، وكانت صلاتهم في ثلاثة أوقات : الأولى عند طلوع الشمس ، والثانية عند استوائها في الفلك ، والثالثة عند غروبها . فيصلون لزحل يوم السبت ، وللمشتري يوم الأحد ، وللمريخ يوم الاثنين ، وللشمس يوم الثلاثاء ، وللزهرة يوم الأربعاء ، ولعطارد يوم الخميس ، وللقمر يوم الجمعة .

(a) بولاق : أنها .

وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَبْلُغُ هَيْكَلَ بَنَاهُ بَنُو حِمَيْرٍ عَلَى اسْمِ الْقَمَرِ لِتُعَارِضَ بِهِ الْكَعْبَةَ ، فَكَانَتْ الْفُرْسُ تَحُجُّهُ وَتَكْسُوهُ الْحَرِيرَ ، وَكَانَ اسْمُهُ نُوبَهْرَ . فَلَمَّا تَمَجَّجَتْ الْفُرْسُ عَمَلَتَهُ بَيْتَ نَارٍ ، وَقِيلَ لِلْمُوَكَّلِ بِسَدَانَتِهِ بَرَمَكَ - يَعْنِي وَالِي مَكَّةَ وَأَنْتَهَتْ الْبِرْمَكَةُ إِلَى جَدِّ خَالِدِ جَدِّ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ .

٥ وَخَرَّبَ هَذَا الْهَيْكَلَ قَيْسُ بْنُ الْهَيْثَمِ فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ . وَكَانَ بِنَاءً عَظِيمًا حَوْلَهُ أَرْوَاقٌ وَثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُونَ مَقْصُورَةً لِسَكْنِ خُدَّامِهِ .

وَكَانَ بِصَنْعَاءَ قَصْرُ عَمْدَانَ مِنْ بِنَاءِ الضُّحَّاكِ ، وَكَانَ هَيْكَلَ الزُّهْرَةَ ، وَهُدِمَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ ابْنِ عَفَّانٍ .

وَكَانَ بِالْأَنْدَلُسِ ، فِي الْجَبَلِ الْفَارِقِ بَيْنَ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ ، وَالْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ ، هَيْكَلُ الْمُشْتَرِيِّ مِنْ بِنَاءِ كِلُوبَطْرَةَ^(a) بِنْتُ بَطْلَمَيْوسَ .

١٠

وَكَانَ بِفَرَّغَانَةَ بَيْتٌ يُقَالُ لَهُ كَوْشَانُ^(b) هَيْكَلٌ لِلشَّمْسِ ، بَنَاهُ بَعْضُ مُلُوكِ فَارِسِ الْأَوَّلِ ، خَرَّبَهُ الْمُعْتَصِمُ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي مَنْ بَنَى هَيْكَلَ عَيْنِ شَمْسٍ ، وَسَأَقْصُ مِنْ أَخْبَارِهِ مَا لَمْ أَرَهُ مَجْمُوعًا فِي كِتَابٍ . قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٍ : ^(c) وَكَانَ يُقَالُ لَهَا فِي الْقَدِيمِ رَعْمَسَاسُ ^(c) وَقَدْ كَانَ الْمَلِكُ مَنَقَاوسَ إِذَا رَكِبَ عَمِلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ التَّخَايِيلَ الْعَجِيبَةَ ، فَيَجْتَمِعُ النَّاسُ وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ . وَأَمَرَ أَنْ يُبْنَى لَهُ هَيْكَلٌ لِلْعِبَادَةِ يَكُونُ لَهُ / خُصُوصًا ، وَيَجْعَلُ فِيهِ قُبَّةٌ فِيهَا صُورَةُ الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَجَعَلَ حَوْلَهَا أَصْنَامًا وَعَجَائِبَ ، فَكَانَ الْمَلِكُ يَرْكَبُ إِلَيْهِ ، وَيُقِيمُ فِيهِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ . وَجَعَلَ فِيهِ عَمُودَيْنِ زَبْرَ عَلَيْهِمَا تَارِيخَ الْوَقْتِ الَّذِي عَمِلَهُ فِيهِ - وَهُمَا بَاقِيَانِ إِلَى الْيَوْمِ - وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ عَيْنُ شَمْسٍ ، وَنَقَلَ إِلَى عَيْنِ شَمْسٍ كُنُوزًا وَجَوَاهِرَ وَطِلَّسَمَاتٍ وَعَقَاقِيرَ وَعَجَائِبَ ، وَدَفَنَهَا بِهَا وَبَنَوَاحِيهَا .

٢٠

وَأَقَامَ مَلِكًا إِحْدَى وَتِسْعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ مِنَ الطَّاعُونَ ، وَقِيلَ مِنْ شَمٍّ ؛ وَعَمِلَ لَهُ نَاوُوسُ فِي صَحْرَاءِ الْعَرَبِ ، وَقِيلَ فِي غَرْبِيِّ قُوصَ ، وَدُفِنَ مَعَهُ ^(d) مَصَاحِفُ الْحِكْمَةِ وَالصَّنْعَةِ ، وَتَمَاثِيلُ الذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ ، وَمِنْ الذَّهَبِ الْمَضْرُوبِ شَيْءٌ كَثِيرٌ . وَدُفِنَ مَعَهُ ^(d) تِمْتَالُ رُوحَانِي الشَّمْسِ مِنْ ذَهَبٍ يَلْمَعُ ، وَلَهُ بَجَنَاحَانِ مِنْ زَبْرَجَدٍ ، وَصَنَّمَتْ عَلَى صُورَةِ امْرَأَتِهِ ، وَكَانَ يُحِبُّهَا ؛ فَلَمَّا مَاتَتْ أَمَرَ أَنْ تُعْمَلَ

(a) الأصل: كلاوبطرة. (b) بولاق: كلوسان. (c-c) ساقطة من بولاق، وانظر أول الحديث عن عين شمس.

(d-d) ساقطة من الأصل: اختلاف نظر.

صورتها في الهياكل كلها، وعمل صورتها من ذهب بدوايتين سوداوين، وعليها حلة من جواهر منظومة وهي جالسة على كرسي. وكان يجعلها بين يديه في كل موضع يجلس فيه، يتسلى بذلك عنها، فدفت هذه الصورة معه تحت رجليه كأنها تخاطبه^١.

وقال الحكيم الفاضل أحمد [بن القاسم]^(a) بن خليفة [المعروف بـ ابن أبي أصيبعة]^(a) في كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»: واشتاق فيثاغورس إلى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا بمصر، فورد على أهل مدينة الشمس - المعروفة في زماننا بعين شمس - فقبلوه قبولاً كريهاً، وامتحنوه زماناً فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً؛ فوجهوا به إلى كهنة منب كي يُبالغوا في امتحانه، فقبلوه على كراهة، واشتقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيباً، ولا أصابوا له عثرة؛ فبعثوا به إلى أهل ديوسوليس^(b) ليتمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقاً ولا إلى إذحاضه سبيلاً [للعناية ملكهم به]^(c)، فعرضوا^(d) عليه فرائض صعبة كما يمتنع من قبولها فيدحضوه، ويخرموه طليته مخالفةً لفرائض اليونانيين، فقيل ذلك وقام به؛ فاشتد إعجابهم به، وفشا بمصر ورعته، حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر، فأعطاه سلطاناً على ضحايا الرب وعلى سائر قرابينهم، ولم يُعط ذلك لغريب قط^٣.

ويقال إنه كان للكواكب السبعة السيارة هياكل، يحج الناس إليها من سائر أقطار الدنيا، وضعها القدماء، فجعلوا على اسم كل كوكب هيكلًا في ناحية من نواحي الأرض. زعموا أن البيت الأول هو الكعبة، وأنه مما أوصى إدريس - الذي يُسمونه هرمس الأول المثلث^٤ - أن يحج إليه، وزعموا أنه منسوب لرحل. والبيت الثاني بيت المريخ، وكان

(a) إضافة اقتضاها السياق. (b) بولاق: ديوسوس. (c) إضافة من عيون الأنباء. (d) بولاق: ففرضوا.

الذي اعتمد عليه كثيرًا فيما يخص الأطباء القدماء (الصفدي: الوافي بالوفيات ٧: ٢٩٥؛ أبو المحاسن:

النجوم الزاهرة ٧: ٢٢٩؛ Vernet, J., *El² art. Ibn Abi* (Usaybi'a III, pp. 715-16).

^٣ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١: ٣٩.

^٤ عن هرمس الأول انظر فيما تقدم ٣١٩-٣٢٠.

^١ النويري: نهاية الأرب ٦٦: ٦٧-٦٦: ١٥ نقلًا عن ابن وصيف شاه.

^٢ موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م طبيب معروف ألف تاريخًا للأطباء عنوانه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» يعد أهم كتاب في موضوعه بعد كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلدج الأندلسي

بمدينة صور من الساحل الشامي . والبيت الثالث للمشتري ، وكان بدمشق ، بناه جيرون بن سعد بن عاد ، وموضعه الآن جامع بني أمية . والبيت الرابع بيت الشمس بمصر ، ويقال إنه من بناء هوشنك^(a) ، أحد ملوك الطبقة الأولى من ملوك الفرس ، وهو المسمى بعين شمس . والبيت الخامس بيت الزهرة ، وكان بمنبج^(b) . والبيت السادس بيت عطارد ، وهو بصيدا من ساحل البحر الشامي . والبيت السابع بيت القمر ، وكان بحرّان - ويقال إنه قلعتها - ويسمى المدور ، ولم يزل عامرا إلى أن خربه التتر ؛ ويقال إنه كان هو هيكل الصابئة الأعظم .

وقال شافع بن علي في كتاب «عجائب البنيان»^(c) : وعين شمس مدينة صغيرة ، تُشاهد سورها مُحَدِّقا بها مَهْدوما ، ويظهر من أمرها أنها كانت بيت عبادة . وفيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل ، من نجيت الحجارة ، ما يكون طول الصنم بقدر ثلاثين ذراعا ، وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم ، وكل هذه الأصنام قائمة على قواعد ، وبعضها قاعد على نضبات عجيبية وإثقات مُحَكِّمة ؛ وباب المدينة موجود إلى الآن^(d) .

وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير على شكل الإنسان وغيره من الحيوان ، وكتابة كثيرة بالقلم الجهول ، وقلما ترى حجرا غفلا^(e) من كتابة أو نقش أو صورة .

وفي هذه المدينة المسلتان المشهورتان ، وتسميان مسلتيّ فزعون . وصفة المسلة قاعدة مربعة ، طولها عشرة أذرع في مثلها عرضا في نحوها سُمكا ، قد وضعت على أساس ثابت في الأرض ، ثم أقيم عليها عمود مثلث مخروط ينيف طوله على مائة ذراع ، يتدنى من القاعدة لعل^(f) قُطرها خمسة أذرع ، وينتهي إلى نقطة ، وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس إلى نحو ثلاثة أذرع منها كالقمع ، وقد تزجر بالمطر وطول المدّة ، وانخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة ، وكلها عليها كتابات بذلك القلم . وكانت المسلتان قائمتين ، ثم خربت إحداهما ، وانصدعت من نصفها لعظم الثقل ، وأخذ النحاس من رأسها .

ثم إن حوّلها من الأصنام شيئا كثيرا لا يُحصى عدده ، على نصف تلك العظمى أو ثلثها^(g) ، وقلما يوجد في هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة ، بل فصوصها بعضها

(a) بولاق : هرشيك . (b) بولاق : منتيج . (c) جميع النسخ : البلدان والصواب ما أثبتته ، انظر فيما تقدم

١٢٠ : ١ . (d) الإفادة والاعتبار : اليوم . (e) بولاق : خلا . (f) بولاق : بسيطة . (g) بولاق : يليها .

على بعض ، وقد تهذم أكثرها وإنما بقيت قواعدها^١ .

وقال محمد بن إبراهيم الجزري في « تاريخه »^٢ : وفي رابع شهر رمضان - يعني من سنة ست وخمسين وست مائة - وقعت إحدى مسال^٣ فرعون ، التي بأراضي المطرية من ضواحي القاهرة ، فوجدوا داخلها مائتي قنطار من نحاس ، وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار .

ويقال إن عين شمس بناها الوليد بن دؤمغ من الملوك العماليق ؛ وقيل بناها الرزيان بن الوليد ، وكانت سرير ملكه . والفرس تزعم أن هوشنك^٤ بناها . ويقال طول العمودية مائة ذراع ، وقيل / أربعة وثمانون ذراعاً ، وقيل خمسون ذراعاً .

ويقال إن بُحْت نصر هو الذي خرب عين شمس لما دخل إلى مصر .

وقال القضاعي : وعين شمس - وهي هيكل الشمس - بها العمودان اللذان لم ير أعجب منهما ولا من شأنهما ، طولهما في السماء نحو من خمسين ذراعاً ، وهما مخمولان على وجه الأرض ، وبينهما صورة إنسان على ذابة ، وعلى رأسهما شبه الصؤمعتين من نحاس ؛ فإذا جاء النيل قطر من رأسيهما ما تشببه وتراه منهنهما واضحاً يتبع حتى يجري من أسافلها ، فيثبت في أصلهما القوسج وغيره .

وإذا دخلت الشمس دقيقة من الجدي - وهو أقصر يوم في السنة - انتهت إلى الجنوبي منها ، فطلعت عليه على قمة رأسه . ثم إذا دخلت دقيقة من السرطان - وهو أطول يوم في السنة - انتهت إلى الشمالي منها ، فطلعت على قمة رأسه ؛ وهما منتهى الميلين ، ونحط الاستواء في الواسطة منهما ، ثم خطرت بينهما ذاهبةً وجائيةً سائر السنة ، كذا يقول أهل العلم بذلك^٣ .

(a) بولاق : مسلي . (b) بولاق : هرشيك .

حوادث سنة ٦٥٦ فيما وصل إلينا من نسخ الكتاب (راجع Brockelmann, C., GAL S II, 45؛ صلاح الدين المنجد : معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧٨ ، ١٤٥ - ١٤٦ ، ٤٤٤ ؛ ونشر عمر عبد السلام تدمري حوادث السنوات من سنة ٦٨٩ - ٦٩٩ هـ وصدر في صيدا - بيروت عن المكتبة العصرية سنة ١٩٩٨) .

^٣ فيما تقدم ٨٤ .

^١ عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٥٠ - ٥١ ، وانظر التعليق على كتاب «عجائب البيان» لشافع بن علي فيما تقدم ٣٢٥ .

^٢ تاريخ الجزري ويسمى «حوادث الزمان وأبناؤه ووفيات الأكابر والأعيان من أبناؤه» ألفه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٣٩ م ، رُجِّه على السنين على نسق «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام» للذهبي ، ولا توجد

وقال ابنُ سَعِيدٍ في كتاب «المُغْرِبِ»: وكانت عَيْنُ شَمْسٍ، في قَدِيمِ الزَّمَانِ، عَظِيمَةً الطُّولِ والعَرْضِ، مُتَّصِلَةً البِنَاءِ بِمِصْرَ القَدِيمَةِ حيثُ مَدِينَةُ القُسْطَاطِ الآنَ^١ (وَمَا قَدِيمَ عَمْرُو بنِ العَاصِ، نَازَلَ عَيْنُ شَمْسٍ - وَكَانَ جَمَعَ القَوْمِ - حَتَّى فَتَحَهَا^٢).

وقال جَامِعُ «السِّيَرَةِ الطُّولُونِيَّةِ»: كانَ بَعَيْنِ شَمْسٍ صَنَمٌ بِمِقْدَارِ الرَّجُلِ المُعْتَدِلِ الخَلْقِ، من كَذَانِ أبيضِ مُخَكَّمِ الصَّنَعَةِ، يَتَخَيَّلُ من اسْتَعْرَضَهُ أَنَّهُ نَاطِقٌ. فَوُصِفَ لِأَحْمَدِ بنِ طُولُونٍ، فَاشْتاقَ إلى تَأَمُّلِهِ، فَتَهَاها نَدُوسَةٌ عنه وقال: ما رَأَى وَالِ قَطُّ إِلَّا عُزْلًا. فَركِبَ إليه - وَكَانَ هَذَا في سَنَةِ ثَمَانٍ وخَمْسِينَ ومِائَتَيْنِ - وتَأَمَّلَهُ، ثم دَعَا بِالقَطَّاعِينَ وأَمَرَهُم بِاجْتِثَاثِهِ مِنَ الأَرْضِ، وَلَمْ يَثْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا. ثم قال لندوسة خازنه: ياندوسة، مَنْ صَرَفَ مِنَّا صَاحِبَهُ؟ قال: أنت أَيُّها الأمير. وعاشَ بَعْدَها أَحْمَدُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً أَمِيرًا^٣.

وَبَنَى العَزِيزُ بِاللَّهِ نِزارَ بنَ المُعِزِّ قُصُورًا بِعَيْنِ شَمْسٍ^٤.

وقال أبو عُبيد البكري: عَيْنُ شَمْسٍ - بِفَتْحِ الشَّيْنِ وإسْكَانِ ثَانِيهِ بَعْدَهُ سِينٍ مَهْمَلَةٍ - عَيْنُ مَاءٍ مَعْرُوفَةٌ. قال مُحَمَّدُ بنُ حَبِيبٍ: عَيْنُ شَمْسٍ حيثُ بَنَى فِرْعَوْنُ الصُّرُحَ. وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ عَيْنَ شَمْسٍ إلى هَذَا المَاءِ أَضْيَفٌ. وَأَوَّلُ من سُمِّيَ هَذَا الأَسْمَ سَبَأُ بنُ يَشْجُبَ. وَذَكَرَ الكَلْبِيُّ أَنَّ شَمْسًا الذي تَسَمَّوْا بِهِ صَنَمٌ قَدِيمٌ^٥.

(a-a) هذه العبارة موجودة في هامش الأصل وغير موجودة فيما نسبته ابن دقماق إلى ابن سعيد. (b) أقحمت نسخة الأصل هنا العبارة المذكورة في (a-a). (c) بولاق: عين.

^٣ كان للخلفاء الفاطميين منظره أو قصرًا صغيرًا للنزهة في عين شمس، يقول ناصر خسرو: «وللسلطان حديقة تسمى «حديقة عين شمس» على فرسخين من القاهرة، وهناك عين ماء عذبة يُسَمَّى البستان بها» (سفرنامه ٩٨)، وأورد المسيحي في تاريخه المناسبات التي كان الخليفة الفاطمي الرابع الظاهر لإعزاز دين الله يتوجه فيها إلى نواحي عين شمس للنزهة (أخبار مصر ٩، ١٨، ٢٣، ٤١، ٧٧).

^٤ أبو عبيد البكري: معجم ما استعجم ٨٠٨-٨٠٩،

^١ هذا النص من كتاب «منية النفس في حلى مدينة عين شمس» - أحد أقسام الجزء المصري من كتاب «المغرب» - وهو من الأقسام المفقودة من الكتاب (انظر زكي محمد حسن: مقدمة المغرب لابن سعيد (قسم مصر)، ٢٨-٢٩)؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٤٣-٤٤.

^٢ البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٢٨٨-٢٨٩؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ١٠٢-١٠٣ (نقلًا عن ابن الداية)؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة ١٢١؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٤٤.

وقال ابنُ خُرَدَاذْبَه : وَأَسْطُوَانَتَيْنِ بَعَيْنِ شَمْسٍ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ، وَمِنْ بَقَايَا أُسَاطِينِ كَانَتْ هُنَاكَ ، فِي رَأْسِ كُلِّ أُسْطُوَانَةٍ طَوِّقٌ مِنْ نُحَاسٍ ، يَقْطُرُ مِنْ إِحْدَاهُمَا مَاءٌ مِنْ تَحْتِ الطَّوِّقِ إِلَى نِصْفِ الْأُسْطُوَانَةِ لَا يُجَاوِزُهُ ، وَلَا يَنْقَطِعُ قَطْرُهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ، فَمَوْضِعُهُ مِنَ الْأُسْطُوَانَةِ أَخْضَرُ رَطْبٌ ، وَلَا يَصِلُ الْمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ . وَهُوَ مِنْ بِنَاءِ أَوْشَهَنَكَ ^١ .

وذكر محمد بن عبد الرَّحِيمِ فِي كِتَابِ « تَحْفَةُ الْأَلْبَابِ » أَنَّ هَذَا الْمِنَارَ مُرَبَّعَ عُلُوِّهِ مِائَةَ ذِرَاعٍ [مِنَ الرَّخَامِ الْمَجْزُوعِ الصَّافِي] ^(a) قِطْعَةً وَاحِدَةً ، مُخَدَّدة الرَّأْسِ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْ حَجَرٍ ، وَعَلَى رَأْسِ الْمِنَارِ غِشَاءٌ مِنْ صُفْرٍ كَالذَّهَبِ ، فِيهِ صُورَةٌ لِإِنْسَانٍ عَلَى كُرْسِيٍّ قَدْ اسْتَقْبَلَ الْمَشْرِقَ ، وَيَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ ذَلِكَ الْغِشَاءِ الصُّفْرُ مَاءٌ يَسِيلُ مِقْدَارَ عَشْرَةِ أَذْرُعَ ، وَقَدْ نَبَتَ مِنْهُ شَيْءٌ كَالطُّحْلَبِ ، فَلَا يَبْرُحُ لِمَعَانِ الْمَاءِ عَلَى تِلْكَ الْخُضْرَةِ أَبَدًا صَيْفًا وَشِتَاءً ، لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَصِلُ إِلَى الْأَرْضِ مِنْهُ شَيْءٌ ^٢ .

وَبَعَيْنِ شَمْسٍ نَبَتْ يُزْرَعُ كَالْقُضْبَانِ يُسَمَّى « الْبَلْسَمِ » ، يُتَّخَذُ مِنْهُ دُهْنُ الْبَلْسَانَ ، لَا يُعْرَفُ بِمَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا هُنَاكَ ، وَتُؤْكَلُ لِحَى هَذِهِ الْقُضْبَانَ فَيَكُونُ لَهُ طَعْمٌ ، وَفِيهِ حَرَارَةٌ وَخِرَافَةٌ لَذِيذَةٌ ^(b) ^٣ .

وَبِنَاحِيَةِ الْمَطْرِيَّةِ ، مِنْ حَاضِرَةِ عَيْنِ شَمْسٍ ، الْبَلْسَانَ ، وَهُوَ شَجَرٌ قِصَارٌ يُسْقَى مِنْ مَاءِ بَيْرٍ هُنَاكَ ، وَهَذِهِ الْبَيْرُ تُعْظَمُهَا النَّصَارَى ، وَتَقْصِدُهَا وَتَغْتَسِلُ بِمَائِهَا وَتَسْتَشْفِي بِهِ .
وَيَخْرُجُ لِاعْتِصَارِ الْبَلْسَانَ - أَوْانِ إِدْرَاكِهِ - مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانَ مِنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ وَيَحْفَظُهُ ، وَيُحْمَلُ إِلَى الْخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ ، ثُمَّ يُنْقَلُ مِنْهُ إِلَى قِلَاعِ الشَّامِ وَالْمَارِشَتَانَاتِ لِمُعَالَجَةِ الْمَبْرُودِينَ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا مِنْ خِزَانَةِ السُّلْطَانَ ، بَعْدَ أَخْذِ مَرْشُومٍ بِذَلِكَ .

وَلِلْمُلُوكِ النَّصَارَى - مِنَ الْحَبَشَةِ وَالرُّومِ وَالْفَرَنْجِ - فِيهِ عُلُوٌّ عَظِيمٌ ، وَهُمْ يَتَهَادَوْنَهُ مِنْ صَاحِبِ مِصْرَ ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ لَا يَصِيحُّ عِنْدَهُمْ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْتَصِرَ إِلَّا أَنْ يَنْعَمِسَ فِي مَاءِ الْمَعْمُودِيَّةِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ

(a) زيادة من تحفة الألباب . (b) هذه الفقرة توجد في الأصل بين نص ابن خرداذبه ونص تحفة الألباب .

^١ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ١٦١ .

^٢ أبو حامد الفَرْنَاطِي : تحفة الألباب ٧٣-٧٤ .

^٣ عن دهن البلسان راجع ، ابن حوقل : صورة الأرض

١٦١-١٦٢ ؛ المقدسي : أحسن التقاسيم ٢٠٩ ؛ عبد

اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٢٣-٢٥ ؛ ابن فضل

الله العمري : مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ١٣ ،

٦٨ ، الفلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ١٨١ ، ٣ : ٢٨٧ ، أبا

الحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٤٣ ؛ الحسن الوزان : وصف

إفريقيا ٥٨٨ ؛ وفيما تقدم ٧٤ .

لايَبْدُ أن يكون في ماءِ المَعْمُودِيَّةِ شيءٌ من دُهْنِ البَلْسَانِ ، وَيُسَمُّونَهُ المَيرونَ ^١ .

وكان في القَدِيمِ إذا وَصَلَ مِنَ الشَّامِ خَبْرٌ انْتَهَى إلى صَاحِبِ عَيْنِ شَمْسٍ ، ثم يَرِدُ من عَيْنِ شَمْسٍ إلى الحِصْنِ الذي عُرفَ بِقَصْرِ الشَّمْعِ حيثُ الآنَ مَدِينَةُ مِصْرَ ، ثم يَرِدُ من الحِصْنِ إلى مَدِينَةِ مَنفُ حيثُ كانت مَنفُ تحتَ المَلِكِ .

٥ وَسَبَبُ تَعْظِيمِ النُّصَارَى لِدُهْنِ البَلْسَانِ ما ذَكَرَهُ في كِتَابِ « السِّنْكَسَارِ » ^٢ - وهو يَشْتَمِلُ على أُخْبَارِ النُّصَارَى - أنَّهُ المَسِيحُ لما خَرَجَتْ بِهِ أُمُّهُ ، وَمَعَهُمَا يُوْسُفُ النُّجَّارُ ، من بَيْتِ المَقْدِسِ ، فِرَاراً من هِيروُدُسِ مَلِكِ اليَهُودِ ، نَزَلَتْ بِهِ أوَّلَ مَوْضِعٍ من أَرْضِ مِصْرَ مَدِينَةَ بَشَطَةَ في رَابعِ عَشْرِي بَشَسٍ ، فلم يَقْبَلْهُمُ أَهْلُهَا ، فنَزَلُوا بِظَاهِرِهَا ، وَأَقَامُوا أَيَّاماً ؛ ثم سَارُوا إلى مَدِينَةِ سَمَنْوُدِ ، وَعَدَّوْا النَّيْلَ إلى الغَزِيَّةِ ، وَمَشَوْا إلى مَدِينَةِ الأَشْمُونِيِّنَ ، وكانَ بأَعْلَاهَا إذْ ذَاكَ شَكْلُ فَرَسٍ من نُحَاسٍ قائِمٍ على أَرْبَعَةِ أَعْمِدَةٍ ، فإذا قَدِمَ إليها غَرِيبٌ صَهَلُ ، فَجَاءُوا وَنَظَرُوا في أَمْرِ القَادِمِ ، فعَندَما وَصَلَتْ مَرْيَمُ بِالمَسِيحِ - عليه السَّلَامُ - إلى المَدِينَةِ سَقَطَ الفَرَسُ المَذْكُورُ وَتَكَسَّرَ / ، فدَخَلَتْ بِهِ أُمُّهُ .

١٠ وَظَهَرَتْ لَهُ - عليه السَّلَامُ - في الأَشْمُونِيِّنَ آيَةٌ ، وهو أَنَّ خَمْسَةَ جِمَالٍ مُحَمَّلَةً رَحْمَتُهُمْ ^(a) في مُرُورِهِمْ ، فَصَرَخَ فِيهَا المَسِيحُ في الأَشْمُونِيِّنَ ، فَصَارَتْ حِجَارَةً .

ثم إنَّهُمْ سَارُوا مِنَ الأَشْمُونِيِّنَ ، وَأَقَامُوا بِقَرْيَةٍ تُسَمَّى فيكْسَ ^(b) مُدَّةً أَيَّامٍ ، ثم مَضَوْا إلى مَدِينَةٍ تُسَمَّى قَسَ قَامَ ^(c) - وهي التي يُقَالُ لها اليَوْمُ القُوصِيَّةُ - فَنَطَقَ الشَّيْطَانُ من أَجْوَافِ الأَصْنَامِ التي بِهَا ، وقالَ : إِنَّ امْرَأَةَ أَتَتْ وَمَعَهَا وَلَدُهَا يُرِيدُونَ أنْ يُخْرَبُوا بِيوتِ مَعَابِدِكُمْ ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مائةُ رَجُلٍ بِسِلَاحِهِمْ ، وَطَرَدُوهُمْ عن المَدِينَةِ .

١٥ فَمَضَوْا إلى نَاجِيَةِ مِيرَ ^(d) في غَزِيَّةِ القُوصِيَّةِ ، وَنَزَلُوا في المَوْضِعِ الذي يُعْرَفُ اليَوْمَ بِدَيْرِ المَحْرُوقِ ، وَأَقَامُوا بِهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَأَيَّاماً ، فَرَأَى يُوْسُفُ النُّجَّارُ في مَنامِهِ قَائِلاً يُخْبِرُهُ بِمَوْتِ هِيروُدُسِ ، وَيَأْمُرُهُ أنْ

(a) بولاق : زاحمتهم . (b) بولاق : فيلس . (c) الأصل وبولاق : قس وقام ، والمثبت هو الاسم القبطي

للمدينة . (d) بولاق : ميرة .

Coptic Encyclopedia art. *Synaxarion* VII, pp.

2171-90، وتوجد له نشرة عربية في جزئين أعدها عبد

المسيح ميخائيل وأرمانبوس حبشي، القاهرة ١٩٣٥-

١٩٣٧ .

^١ نقلًا عن ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار

(ممالك مصر والشام) ٦٨ .

^٢ عن كتاب السنكسار، وهو عبارة عن قائمة أسماء

القدسين المستخدمة في الكنيسة القبطية، انظر *The*

يَرْجِعُ بِالْمَسِيحِ إِلَى الْقَدْسِ . فَعَادُوا مِنْ مِير^(a) حَتَّى نَزَلُوا حَيْثُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُعْرَفُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ مِصْرَ بِقَصْرِ الشَّمْعِ ، وَأَقَامُوا بِمَغَارَةِ تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِكَنِيسَةِ بُويسُوجَةَ^١ .

ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى عَيْنِ شَمْسٍ ، فَاسْتَرَاخُوا هُنَاكَ بِجَوَارِ مَاءٍ ، فَغَسَلَتْ مَرْيَمُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ ثِيَابَ الْمَسِيحِ وَقَدْ اُنْسَخَتْ ، وَصَبَّتْ غُسَّالَتَهَا بِتِلْكَ الْأَرْضِي ، فَأَثْبَتَ اللَّهُ هُنَاكَ الْبَلْسَانَ ، وَكَانَ إِذْ ذَلِكَ بِالْأَزْدُنِ ، فَانْقَطَعَ مِنْ هُنَاكَ وَبَقِيَ بِهَذِهِ الْأَرْضِ^٢ . وَعَمُرَتْ^(b) هَذِهِ الْبَيْرُ ، الَّتِي هِيَ الْآنَ مَوْجُودَةٌ هُنَاكَ ، عَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ الَّذِي غَسَلَتْ مِنْهُ مَرْيَمُ .

وَبَلَّغَنِي أَنَّهَا إِلَى الْآنَ إِذَا اعْتَبِرْتَ يُوجَدُ مَأْوَاهَا عَيْنًا جَارِيَةً فِي أَسْفَلِهَا ؛ فَهَذَا سَبَبُ تَعْظِيمِ النَّصَارَى لِهَذِهِ الْبَيْرِ وَلِلْبَلْسَانِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُسْقَى^(c) مِنْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

المنصورة

هَذِهِ الْبَلْدَةُ عَلَى رَأْسِ بَحْرِ أَشْمُومِ^٣ ، تَجَاهَ نَاحِيَةِ طَلْحَا ، بَنَاهَا السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْكَامِلُ نَاصِرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَيُّوبَ ، فِي سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِائَةٍ ، عِنْدَمَا مَلَكَ الْفِرْنَجُ مَدِينَةَ دِمِيَاطِ^٤ . فَتَنَزَلَ فِي مَوْضِعِ هَذِهِ الْبَلْدَةِ وَخَيَّمَ بِهِ ، وَبَنَى قَصْرًا لِسُكْنَاهُ ، وَأَمَرَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْعَسَاكِرِ بِالْبِنَاءِ ، فَبُنِيَ هُنَاكَ عِدَّةُ دُورٍ ، وَنُصِبَتِ الْأَسْوَاقُ ، وَأَدَارَ عَلَيْهَا سِوْرًا مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ ، وَسَتَّرَهُ بِالْآلَاتِ الْحَرَبِيَّةِ وَالسُّتَائِرِ . وَسَمِيَ^(d) هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ الْمَدِينَةَ الْمَنْصُورَةَ ، وَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى

(a) بولاق : ميرة . (b) بولاق : غمرت . (c) بولاق : سقي . (d) بولاق : وتسمى .

^١ بحيرة تيس ، وهي اليوم قاعدة محافظة الدقهلية وتقع على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط (ياقوت : معجم البلدان ٥ : ٢١٢ ، وهو أول الجغرافيين العرب الذين ذكروا هذه المدينة ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ٤ : ٣٣ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٧١ ؛ المقرئ : السلوك ١ : ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٥ : ٨٨ - ٩٣ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ١/٢ : ٢١٥ - ٢١٧ ؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* I, p. 198; Halm, H., *El*² art. (al-Mansûra VI, pp. 425-26

^٢ انظر عنها فيما يلي ٥١١ : ٢ .
^٣ Le Synaxaire arabe Jacobite, texte arabe publié, traduit et annoté par René Basset, *Patr. Or.* XVI (1922), pp. 407-10
^٤ بحر أشموم هو المعروف الآن بالبحر الصغير . (علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٥ : ٨٨) .
^٥ مدينة المنصورة بناها الملك الكامل محمد عند هجوم الفرنج على مصر سنة ٦١٦ عند مفرق البحرين الآخذ أحدهما إلى دمياط والآخر إلى أشمون طنح ومصبه في

استزوج مدينة دمياط - كما تقدم ذكره عند ذكر مدينة دمياط من كتابنا هذا - فصارت مدينة كبيرة، بها الحمامات والفنادق والأسواق^١.

ولما استنقذ الملك الكامل دمياط من الفريخ، ورخل الفريخ إلى بلادهم، جلس بقصره في المنصورة وبين يديه إخوته: الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى صاحب بلاد الشرق، وغيرهما من أهله وخواصه، فأمر الملك الأشرف جاريته^٢ فغنت على عودها^٣:

[الطويل]

ولما طعى فزعون عكا وقومه وجاء إلى مصر ليفسد في الأرض

أتى نحوهم موسى وفي يده العصا فأغرقهم في اليم بغضا على بغض

فطرب الأشرف، وقال لها: « بالله كرري »؛ فشق ذلك على الملك الكامل وأشكتها، وقال

لجاريته: « غني أنت »، فأخذت العود وغنت:

[الطويل]

أيأهل دين الكفر قوموا لتنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددا

أعباد عيسى إن عيسى وقومه^٤ وموسى جميعا ينصران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حجارة أولها:

« أتي الوجد إلا أن آيت مسهدا^٥ »

فأعجب ذلك الملك الكامل، وأمر لكل من الجاريتين بخمس مائة دينار.

فنهض القاضي الصدر الأجل الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزة - وكان من جملة

الجلساء - على قدميه، وأنشد يقول:

[الطويل]

هنيئا فإن السعد جاء مخلدا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا

حباتنا إله الخلق فتحا لنا بدا مبينا وإنعاما وعزا مؤبدا

تهلل وجه الأرض بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا

(a) بولاق: وحزبه. (b) هذه العبارة في هامش الأصل.

الكروب ٤: ١٠٥.

^١ انظر فيما تقدم ٥٨٨ - ٥٩٤.

^٢ ابن واصل: مفرج الكروب ٤: ١٠٥.

^٣ اسمها ست الفخر بنت التاج (ابن واصل: مفرج

ولمَّا طَعَى الْبَحْرُ الْخِضَمَّ بِأَهْلِهِ الطُّغَاةَ وَأَضْحَى بِالْمَرَائِبِ مُزِيدًا
أَقَامَ لِهَذَا الدِّينِ مَنْ سَلَّ عَزْمَهُ صَقِيلًا كَمَا سَلَّ الْحُسَامُ الْمُهَيِّدَا
فَلَمْ يَنْجِ إِلَّا كُلَّ شَيْلٍ مُجَدَّلٍ نَوَى مِنْهُمْ أَوْ مَنْ تَرَاهُ مُقَيِّدَا
وَنَادَى لِسَانُ الْكَوْنِ فِي الْأَرْضِ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ فِي الْخَافِقِينَ وَمُنْشِدَا
أَعْبَادَ عَيْسَى إِنَّ عَيْسَى وَجِزْبَهُ وَمُوسَى جَمِيعًا يَنْصُرَانِ مُحَمَّدَا

فَكَانَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ بِالْمَنْصُورَةِ مِنْ أَحْسَنِ لَيْلَةٍ مَرَّتْ لِمَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ ^١.

وكان عند إنشاده يُشير، إذا قال عيسى، إلى / عيسى المعظم، وإذا قال موسى، إلى موسى الأشراف، وإذا قال محمدًا، إلى السلطان الملك الكامل. وقد قيل إن الذي أنشد هذه الأبيات إنما هو راجح الحلبي ^(a) الشاعر ^٢.

العَبَّاسَةُ

هذه القرية فيما بين بلبيس والصالحيّة من أرض السدير، ولم تزل ^(b) مُتَنَزَّهًا لملوك مصر، وبها وُلد العبّاس بن أحمد بن طولون فسَمَّاهُ لذلك أبوه العبّاس، ووُلِدَ بها أيضًا الملك الأمجد تقي الدين عبّاس بن العادل أبي بكر بن أيوب.

وكان الملك الكامل محمد بن العادل يُقيم بها كثيرًا، ويقول: هذه قِفْل ^(c) مصر؛ إذا أقمتُ بها أضطادُّ الطير من السماء، والسّمك من الماء، والوَخَش من الفِضَاء، ويَصِل الخُبْرُ من قَلْعَةِ الجَبَلِ إِلَيَّ بها في قَلْعَتِي، وهو سُخْن. وبني بها آدْرًا وَمَنَاطِرَ وَبَسَاتِينَ، وبني أمْرأُوهُ بها أيضًا عِدَّة مَسَاكِينَ فِي الْبَسَاتِينَ.

ولم تزل العبّاسَةُ على ذلك، حتى أنشأ الملك الصّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُّوبُ بنَ الكَامِلِ الْمُنَزَّلَةَ الصّالِحِيَّةَ، فَنَظَرَ حَيْثُ أَمْرُ الْعَبَّاسَةِ، وَخَرِبَتِ الْمَنَاطِرُ فِي سَلْطَنَةِ الْمَلِكِ الْمُعِزِّ أَيْتِكَ ^٣.

(a) بولاق: المحلي. (b) بولاق: لم يزل. (c) بولاق: تعلق.

^١ (الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤: ٥٣-٥٨).

^٢ المقرئ: السلوك ١: ٢٠٩-٢١٠.

^٣ فيما تقدم ٥٠٠.

^٢ شرف الدين أبو الوفاء راجح بن إسماعيل بن أبي القاسم الأسدي الحلبي الشاعر المتوفى بدمشق سنة ٦٢٧هـ.

فلَمَّا كَانَتْ سُلْطَنَةُ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنَ الدِّينِ بَيْبُزُسَ ، مَرَّ عَلَى السُّدَيْرِ - وَهُوَ فِئْمُ الْوَادِي - فَأَعْجَبَ بِهِ ، وَبَنَى فِي مَوْضِعِ اخْتَارِهِ ، مِنْهُ قَرْيَةٌ سَمَّاهَا « الظَّاهِرِيَّة » ، وَأَنْشَأَ بِهَا جَامِعًا ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سِتِّ وَسِتِّينَ وَسِتِّ مِائَةَ ١ .

وَسُمِّيَتْ بِالْعَبَّاسَةِ بِنْتُ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ ، فَإِنَّهَا خَرَجَتْ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مُوَدَّعَةً لِبِنْتِ أَخِيهَا قَطْرَ النَّدَى بِنْتُ حُمَارَوَيْهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ ، لَمَّا حُمِلَتْ إِلَى الْمُعْتَصِدِ ، وَضَرَبَتْ هُنَاكَ فَسَاطِطَهَا ، ثُمَّ بُنِيَتْ (a) قَرْيَةٌ فَسُمِّيَتْ بِاسْمِهَا ٢ .

زَكَرَ مَدِينَةَ قِفْطَ بِصَعِيدِ مِصْرَ

هَذِهِ الْمَدِينَةُ بِصَعِيدِ مِصْرَ عُرِفَتْ (b) بِقِفْطَرِيمَ بْنِ قِبْطِيمَ بْنِ مِصْرَايِمَ بْنِ بَيْتَصَرَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَكَانَتْ فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ مَدِينَةَ الْإِقْلِيمِ ، وَإِنَّمَا بَدَأَ خَرَائِبُهَا بَعْدَ الْأَرْبَعِ مِائَةِ مِنْ تَارِيخِ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ (c) . وَآخِرُ مَا كَانَ فِيهَا - بَعْدَ السَّبْعِ مِائَةِ مِنْ سِنِي الْهِجْرَةِ - أَرْبَعُونَ مَسْبِكًا لِلسُّكْرِ ، وَسِتِّ مَعَاصِرَ لِلْقَصَبِ ٣ .

وَيُقَالُ كَانَ فِيهَا قِيَابٌ بِأَعَالِي دُورِهَا ، تَكُونُ (d) إِشَارَةً مِنْ مَلِكٍ مِنْ أَهْلِهَا عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ ، أَنْ يَجْعَلَ فِي دَارِهِ قُبَّةً . وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مَعْدِنُ الزُّمْرَدِ ، وَلَمْ يَتَّطَّلِ إِلَّا مِنْ قَرِيبٍ .

قِفْطَرِيمَ (e) وَلِي الْمَلِكُ بَعْدَ أَبِيهِ قِبْطِيمَ . قَالَ ابْنُ وَصِيفِ شَاهٍ : كَانَ أَكْبَرَ وَلَدِ أَبِيهِ ، وَكَانَ جَبَّارًا عَظِيمَ الْخَلْقِ ، وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ أُسَاسَاتِ الْأَهْرَامِ الدَّهْشُورِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَةَ دَنْدَرَةَ ٤ .

(a) بولاق : بنت . (b) بولاق : المدينة تعرف . (c) الأصل : الهجرة . (d) بولاق : وكانت . (e) بولاق : فإن قفطريم .

١ انظر تفصيل ذلك عند ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ٢٩١ .
٢ هذه رواية ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤ : ٧٥ .
٣ قِفْطَ (قِفْطَ ، قِفْطَ) ، مدينة قديمة في صعيد مصر ، في المنطقة التي يقترب فيها مجرى النهر أكثر ما يكون من شاطئ البحر الأحمر ، على نحو ٤٠ كيلومترًا شمال الأقصر وعلى بعد كيلومترين شرقي النيل ، وهي تتبع اليوم مركز قنا بمحافظة

قنا (البكري : جغرافية مصر ٨٣ ؛ مجهول : الاستبصار ٨٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٣٨٣ ؛ ابن جبير : الرحلة ٤٠ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٣٢-٣٣ ؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٤ : ١٠٤-١٠٥ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٤/٢ : ١٧٧-١٧٨ ؛ Maspero & Wiet, Matériaux p. 148; Garcin, J.C., El² art. Kift. V, (p. 101 .

ومدينة الأضنام، وهلكت عاد بالريح في آخر أيامه؛ وأثار من المعادن ما لم يُبْرَه غيره، وكان يتخذ من الذهب مثل حجر الرحي، ومن الزبرجد مثل الأسطوانة، ومن الأسبازشم في صحراء الغروب كالقلة. وعمل من العجائب شيئاً كثيراً، وبنى مناراً عالياً على جبل فقط يرى منه البحر الشرقي، ووجد هناك معدن زئبق فعمل منه تمثالاً كالعمود لا يتحل ولا يذوب. وعمل البركة التي سماها صيادة الطير، إذا مر عليها طائر سقط فيها، ولم يقدر على الحركة حتى يؤخذ. وهذه البركة يقال إنها هناك إلى الآن، وأما المنار فسقط.

وعمل عجائب كثيرة. وفي أيامه أثار عبادة الأضنام التي كان الطوفان غرقها، وزين الشيطان أمرها وعبادتها؛ ويقال إنه بنى المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب.

وبنى غربي النيل وخلف الواحات الداخلة، مُدناً عمل فيها عجائب كثيرة، ووكل بها الروحانيين الذين يمتعون منها، فما يستطيع أحد أن يذنو إليها ولا يَدْخُلها إلا أن يعمل قرابين لأولئك الروحانيين.

وأقام قُطْرِيم ملكاً أربع مائة وثمانين سنة، وأكثر العجائب عملت في وقته ووقت ابنه البودسير. ولذلك كان الصعيذ أكثر عجائب من أسفل الأرض^(a)، لأن حيز قُطْرِيم فيه.

ولما حضرت^(b) قُطْرِيم الوفاة، عمل له^(c) ناووس في الجبل الغربي قرب مدينة الكهان، في سرب تحت الأرض مغمود على أزج إلى الأرض، ونقر تحت الجبل داراً واسعة، وجعل دورها خزائن منقورة، وفي سقفها مسارب للرياح، وتلط الشرب وجميع الدار بالمزمر؛ وجعل في وسط الدار مجلساً على ثمانية أركان، مُصَفَّحاً بالزجاج الملون المسبوك، وجعل في سقفه جواهر تُسرح، وجعل في كل ركن من أركان المجلس تمثالاً من الذهب بيده كالبوق الذي يوق به؛ وتحت القبة دكة مُصَفَّحة بذهب، ولها حواف من زبرجد، وفوق الدكة فرش من حرير، وجعل عليها جسده بعد أن لطخ بالأدوية المحقفة، ووضع في جانبه آلات كافور، وسدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب، ووجهه مكشوف، وعلى رأسه تاج مكلل، وعن جوانب الدكة أربعة تماثيل مُجَوِّفات من زجاج مسبوك، في صور النساء بأيديهن مراوح من ذهب، وعلى صدره من فوق الثياب سيف فاخر قائمته من زبرجد. وجعل في تلك الخزائن من الدخائر وسبائك الذهب والتيجان والجواهر وبراني الحكم وأصناف العقاقير والطلسمات ومصاحف العلوم ما لا يحصى كثرة.

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: حضر. (c) زيادة من النويري.

وَجَعَلَ / على باب المجلس ديكًا من ذهب ، على قاعدة من زجاج أخضر ، منشور الجناحين ، مزبورًا عليه آيات مائة .

وَجَعَلَ على مدخل كل^a أزج صورتين من نحاس بأيديهما سيفان ، وقدامهما بلاطة تحتها لوالب من وطئها ضرباه بأسيافهما فقتلاه ، وفي سقف كل أزج كُرّة ، وعليها لُطوخ مدبر ، يُسرج فيقد طول الزمان .

وَسُدَّ باب الأزج بالأساطين المرصصة ، ورصوا على سقفيه البلاط العظام ، ورَدَمُوا فوقها الرمال ، وزَبَرُوا على باب الأزج :

« هذا المدخل إلى جسد الملك المعظم ، المهيب الكريم الشديد قُطْرِيم ، ذي الأيد والفخر والغلبة والقهر ، أقل نجمه ، وبقي ذكره وعلمه ، فلا يصل أحد إليه ، ولا يقدر بحيلة عليه ، وذلك لسبع مائة وسبعين ودورات مضت من السنين »^١ .

وقال المسعودي : ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الأعلى من أعمال^b مدينة قِطْ ، ومنها يُخرج إلى هذا المعدن ، والموضع الذي هو فيه يُعرف بالخزبة ، وهي مفازة^c وجبال ، والبجة تحمي هذا المكان المعروف بالخزبة ، وإليها يُؤدى الخفارات من يرد إلى حفر الزمرد^٢ .

ووجدت جماعة من صعيد مصر من ذوي الدراية - ممن اتصّلت معرفته بهذا المعدن ، وعرف هذا النوع من الجوهر - يخبرون أنه يكثر ويقل في فصول السنة ، فيكثر في قوة من^b مواد الهواء وهبوب نوع من الرياح الأربع ، وتقوى الخضرة فيه والشعاع الثوري في أوائل الشهر ، والزيادة في نور القمر .

ويين الموضع المعروف بالخزبة الذي فيه معدن الزمرد ، وبين ما اتصّلت من العمارّة وقرب منه من الديار ، مسيرة سبعة أيام . وهي قِطْ وقوص وغيرهما من صعيد مصر ، وقوص راكبة النيل . وبين النيل وقِطْ نحو من ميلين .

ولمدينتي قِطْ وقوص أخبارٌ عجيبة في بدء عمارتهما ، وما كان في أيام القبط من أخبارهما ، إلا أن مدينة قِطْ في هذا الوقت متداعية للحراب ، وقوص أعمر ، والناس فيها أكثر^٣ .

(a) بولاق : كل مدخل . (b) ساقطة من بولاق . (c) مروج : مفاوز .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٦ - ٤٩ ؛ وفيما يلي

^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٣٢ .

^٣ نفسه ٢ : ١٣٥ .

وكان يقف بزبا موكل بها زوحاني في صورة جارية سوداء تحمل صبياً أسود صغيراً، حكي أنها رُئيت بها مراراً.

ومعدن الزمرد^١ في البر المتصل بأسوان، وكان له ديوان فيه شهود وكتاب، ويُنفق على العمال به، وتُنال لهم المون لحفره، واستخراج الزمرد منه. وهو في جبال مرملة يُحفر فيه، وربما سقط على الجماعة به فماتوا. وكان يُجمع ما يخرج منه، ويُحمل إلى الفسطاط، ومنه يُحمل إلى البلاد^٢.

وقد كان الناس يسيرون من قوص إلى معدن الزمرد في ثمانية أيام بالسير المعتدل، وكانت البجاة تنزل حوله وقريباً منه لأجل القيام بحفره وحفظه. وهذا المعدن في الجبل الآخذ على شرقي النيل، في بحري قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى أقرشندة، وليس هناك من الجبال أعلى منها، وهو في منقطع من البر لا عمارة عنده ولا حوله ولا قريباً منه، والماء عنه مسيرة نصف يوم أو أزيد، وهو ما يتحصّل من المطر، ويُعرف بغدير أعين، يكثر بكثرة المطر ويقل بقلته.

وهذا المعدن في صدر مغارة^٣ طويلة في حجر أبيض يُستخرج منه الزمرد، وهذا الحجر الأبيض ثلاثة أنواع: أحدها يُقال له طلق كافوري، والثاني يُقال له طلق فضي، والثالث يُقال له حجر جزوي. ويُضرب في هذه الحجارة حتى يخرج الزمرد، وهو كالعروق^٤ فيه.

وأنواعه الذبابي^٥، وهو أقل من القليل، لا يخرج إلا في النادر، وإذا استخرج ألقبي في الزيت الحار، ثم يُحط في قطن، ويُصر ذلك القطن في خزقة خام^٦ أو نحوها. وكان الاختراز على هذا المعدن كثيراً جداً، ويُفتش الفعلة عند الخروج منه كل يوم حتى تُفتش عوراتهم، ومع ذلك فيختلسون منه بصناعات لهم في ذلك^٧.

(a) بولاق: مغارة. (b) الأصل وبولاق: كالغريق. (c) بولاق: الرباني. (d) بولاق: خرق وفي مسالك الأبصار خرق كتان.

^١ عن هذا المعدن ومواضعه في مصر راجع، المسعودي: مروج الذهب ٢: ١٣٢-١٣٦؛ التيفاشي: أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ٧٨-٩١، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ١١-١٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ١٠٧-١١٠، ٣: ٢٨٢-٢٨٣؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة ٢: ٣٣٢.

^٢ نقلًا عن ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام) ٦٧.

^٣ نقلًا عن مسالك الأبصار ١١-١٣ وقارن مع القلقشندي: صبح ٢: ١٠٨-١٠٩.

ولم يزل هذا المَعْدِن يُسْتَخْرَج منه الزُّمْرُود ، إلى أن أُبْطِلَ العَمَلُ منه الوَزِيرُ الصَّاحِبُ عِلْمُ الدِّينِ عبد الله بن زُنْبُور ، في أَيَّامِ المَلِكِ النَّاصِرِ حَسَنِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ قَلَاوُونَ ، في سَنَةِ بَضْعِ وَسْتِينَ وَسِيعِ مائَةٍ .

وفي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَخَمْسَ مائَةٍ ، كَانَتْ فِتْنَةٌ كَبِيرَةٌ بِمَدِينَةِ قِفْطٍ ، سَبَبُهَا أَنَّ دَاعِيًا مِنْ بَنِي عَبْدِ القَوِيِّ ادَّعَى أَنَّهُ دَاوُدُ بنِ العَاظِدِ ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، فَبَعَثَ السُّلْطَانُ صَلاَحَ الدِّينِ يُوْسُفَ ابنِ أَيُّوبَ أَخَاهُ المَلِكِ العَادِلِ أبا بَكْرَ بنِ أَيُّوبَ عَلِيَّ جَيْشٍ ، فَقَتَلَ مِنْ أَهْلِ قِفْطٍ نَحْوَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، وَصَلَبَهُمْ عَلَى شَجَرِهَا ظَاهِرًا قِفْطٍ بَعْمَائِمَهُمْ وَطِيَالِسْتَهُمْ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ دَنْدَرَةَ^١

أَحَدًا^(a) مُدُنِ الصُّعَيْدِ الأَعْلَى القَدِيمَةِ ، بَنَاهَا قُفْطَرِيمُ بنِ مِضْرَايِمِ بنِ يَنْصَرِ بنِ حَامِ بنِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَانَ فِيهَا بَرْبًا عَظِيمَةً فِيهَا مِائَةٌ وَثَمَانُونَ كُوَّةً تَدْخُلُ الشَّمْسُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ كُوَّةٍ حَتَّى تَأْتِيَ عَلَى آخِرِهَا ، ثُمَّ تَكُورُ رَاجِعَةً إِلَى حَيْثُ بَدَأَتْ . وَكَانَتْ رُوحَانِيَّتُهَا المُوَكَّلَةَ بِهَا تَظْهَرُ فِي هَيْئَةِ إِنْسَانٍ لَهُ رَأْسُ أَسَدٍ بِقَرْنَيْنِ .

وَكَانَ بِهَا أَيْضًا شَجَرَةٌ - تُعْرَفُ بِشَجَرَةِ العَبَّاسِ - مَتَوَسِّطَةٌ ، وَأُورَاقُهَا تُحْضَرُ مُسْتَدِيرَةً ، إِذَا قَالَ الإِنْسَانُ عِنْدَهَا : يَا شَجَرَةَ العَبَّاسِ جَاءَكَ الفَاسُ ، تَجْتَمِعُ أُورَاقُهَا وَتَحْتَرِقُ^(b) لَوَقْتِهَا ثُمَّ تَعُودُ كَمَا كَانَتْ .

وَبَيْنَ دَنْدَرَةَ وَبَيْنَ قُوصٍ بَرِيدٌ وَاحِدٌ . وَكَانَتْ بَرْبًا عَظِيمَةً مِنْ بَرْبِ إِخْمِيمِ^٢ .

(a) بولاق : هي إحدى . (b) بولاق : وتخزن .

^١ دَنْدَرَةَ . مِنْ المَدِينِ القَدِيمَةِ بِصُعَيْدِ مِصْرَ تَقَعُ غَرْبِي النِّيلِ دُونَ قُوصٍ ، وَقَدْ خَرِبَتْ مَدِينَةُ دَنْدَرَةَ القَدِيمَةَ الَّتِي كَانَتْ تَقَعُ بِجَوَارِ حَاجِرِ الجَبَلِ الغَرْبِيِّ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا أَطْلَالُهَا وَمَعْبَدُ هَاتُورٍ ، وَتَقَعُ فِي الجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ لِبَلَدَةِ دَنْدَرَةَ الحَالِيَةِ الَّتِي أَنشَأَهَا العَرَبُ عَلَى النِّيلِ فِي شَاطِئِهِ الغَرْبِيِّ غَرْبِي مَدِينَةِ قَنَا .

وهي الآن تابعة لمركز قنا بمحافظة قنا . (ابن جبير : الرحلة ٤٠ : ٤٤٠ : ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٤٧٧ - ٤٧٨ : علي مبارك : الخطة التوفيقية ١٠ : ٦٠ - ٦٥ : محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢ : ٤/١٧٦) .

^٢ نقلًا عن ابن جبير : الرحلة ٤٠ .

/ ذكر الواحات الداخلة

الواحات مُنْقَطِعَةٌ وَرَاءَ الْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ فِي مَغَارِبِهِ ، وَلَا تُعَدُّ فِي الْوِلَايَاتِ وَلَا فِي الْأَعْمَالِ ، وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ وَالِ ، وَإِنَّمَا يُحْكَمُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ مُقْطِعِهَا .

وبلاذ الواحات ، بين مِضْرَ وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ وَالصُّعَيْدِ وَالنُّوبَةَ وَالْحَبَشَةَ ، بَعْضُهَا دَاخِلٌ بَعْضُ .
وهو بَلَدٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ غَيْرُ مُتَّصِلٍ بغيره ، وَلَا مُفْتَقِرٌ^(a) إِلَى سِوَاهُ . وَفِي^(b) أَرْضِهَا شَبِيَّةٌ وَزَاجِيَّةٌ ، وَغُيُونٌ حَامِضَةٌ الطَّعْمُ تُسْتَعْمَلُ كَاسْتِعْمَالِ الْخَلِّ ، وَغُيُونٌ مُخْتَلِفَةٌ الطَّعْمُ مِنَ الْحَامِضِ وَالْقَابِضِ وَالْمَلْحِ .
وَلِكُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا خَاصِيَّةٌ وَمَنْفَعَةٌ ، وَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : وَاحَاتٍ دَاخِلَةٌ ، وَوَاحَاتٍ خَارِجَةٌ . جَمَلَتِهَا أَرْبَعُ وَاحَاتٍ .

وَيُقَالُ إِنَّ الْوَاحَاتِ وَلَدٌ^(c) حَوِيلًا بِنِ كَوْشِ بِنِ كَنْعَانَ بِنِ حَامِ بِنِ نُوحٍ ، وَأَنَّهُ أَخُو سَبَأَ بِنِ كَوْشِ أَبُو الْحَبَشِ وَأَبُو شَقَا بِنِ كَوْشِ أَبُو زَغَاوَةَ وَأَبُو شَحْنَتَا^(d) بِنِ كَوْشِ أَبُو الدَّقْمَدِمِ^(e) .

قَالَ ابْنُ وَصِيفِ شَاهٍ : وَيُقَالُ إِنَّ قُفْطَرِيمَ بَنَى الْمَدَائِنَ الدَّاخِلَةَ ، وَعَمِلَ فِيهَا عَجَائِبَ : مِنْهَا الْمَاءُ [الْمَلْفُوفُ]^(f) الْقَائِمُ كَالْعَمُودِ لَا يَتَحَلَّلُ وَلَا يَذُوبُ ، وَالْبِرْكَةُ الَّتِي تُسَمَّى فِلَسْطِينَ - أَيِ صَيَادَةَ الطَّيْرِ - إِذَا مَرَّ عَلَيْهَا الطَّيْرُ سَقَطَ فِيهَا ، وَلَمْ يُمَكِّنْهُ الْخُرُوجُ مِنْهَا حَتَّى يُؤْخَذَ .

وَعَمِلَ أَيْضًا عَمُودًا مِنْ نُحَاسٍ عَلَيْهِ صُورَةٌ طَائِرٌ ، إِذَا قَرَّبَ الْأَسَدُ أَوْ الْحَيَّاتُ ، أَوْ غَيْرَهَا مِنْ الْأَشْيَاءِ الْمَضْرُوءَةِ ، مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ ، صَفَّرَ تَصْفِيرًا عَالِيًا ، فَتَرْجَعُ تِلْكَ الدَّوَابُّ هَارِبَةً .

وَعَمِلَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ هَذِهِ الْمَدِينَةَ أَرْبَعَةَ أَصْنَامٍ مِنْ نُحَاسٍ ، لَا يَقْرَبُ مِنْهَا غَرِيبٌ إِلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِ النَّوْمُ وَالسُّبَاتُ ، فَيَنَامُ عِنْدَهَا ، وَلَا يَتَرَحَّحُ حَتَّى يَأْتِيَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَيَنْفُخُوا فِي وَجْهِهِ لِيَقُومَ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ لَا يَزَالُ نَائِمًا عِنْدَ الْأَصْنَامِ حَتَّى يَهْلِكَ .

وَعَمِلَ مَنَارًا لَطِيفًا مِنْ زُجَاجٍ مُلَوَّنٍ ، عَلَى قَاعِدَةٍ مِنْ نُحَاسٍ ، وَعَمِلَ عَلَى رَأْسِ الْمَنَارِ صُورَةَ صَنَمٍ مِنْ أَخْلَاطٍ كَثِيرَةٍ ، وَفِي يَدِهِ كَالْقَوْسِ كَأَنَّهُ يَزْمِي عَنْهَا ، فَإِنْ عَايَنَهُ غَرِيبٌ وَقَفَ فِي مَوْضِعِهِ ، وَلَمْ يَتَرَحَّحُ حَتَّى يُنَحِّيَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ . وَكَانَ ذَلِكَ الصَّنَمُ يَتَوَجَّهُ إِلَى مَهَبِّ الرِّيحِ الْأَرْبَعِ مِنْ نَفْسِهِ .

(a) بولاق : يفتقر . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : ولدوا . (d) بولاق : تسفحتا . (e) بولاق : أبو الحبش

الررم . (f) زيادة من النويري .

وقيل إنَّ هذا الصَّنَمَ على حاله إلى الآن ، وإنَّ الناسَ تحاموا تلك المدينة - على كثرة ما فيها من الكُنُوزِ والعجائب الظاهرة - خوفاً من ذلك الصَّنَمِ أن تقع عينُ إنسانٍ عليه ، فلا يزالُ قائماً حتى يتلف . وكان بعضُ الملوك عميلَ على قلبه فما أمكنه ، وهلك لذلك خلقٌ كثير .

ويقال إنَّه عميلٌ في بعض المدائن الداخلة مرآة يرى فيها جميع ما يسأل الإنسانُ عنه .

- ٥ وبني غربي النيل ، وخلف الواحات الداخلة ، مُدُنًا عميلَ فيها عجائب كثيرة ، ووكل الروحانيين بها الذين يمتنعون منها ، فما يستطيع أحدٌ أن يذنو إليها ولا يدخلها ، أو يعمل قرابين أولئك الروحانيين ، فيصل إليها حينئذٍ ، ويأخذ من كنوزها ما أحب من غير مشقة ولا ضرر^١ .
- وبني الملك صبا بن أنساد - وقيل صبا بن مرقونس - بداخل الواحات مدينة ، وغرس حولها نخلاً كثيراً ، وكان يسكن منى ، وملك الأخياز كلها ، وعميلٌ عجائب وطلسمات ، ورد الكهنة إلى مراتبهم ، ونفى الملهم وأهل الشر ممن كان يصحب أنساد بن مرقونس ، وجعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجري في حدودهم ، وعميلٌ على غربي النيل منابر يوقد عليها إذا حزبهم أمرٌ أو قصدهم قاصدٌ .

- وكان لما ملك البلد بأسره ، جمع الحكماء إليه ، ونظر في نجومه - وكان بها حاذقاً - فرأى أن بلده لابد أن تغرق بالطوفان من نيلها ، ورأى أنها تحزب على يد رجلٍ يأتي من ناحية الشام ، فجمع كل فاعلٍ بمصر ، وبني في ألواح الأقصى مدينة ، جعل طول حصنها في الارتفاع خمسين ذراعاً ، وأودعها جميع الحكم والأموال ؛ وهي المدينة التي وقع عليها موسى بن نصير في زمن بني أمية لما قدم من المغرب . فلما دخل مصر أخذ على ألواح الأقصى - وكان عنده علمٌ منها - فأقام سبعة أيام يسير في رمال بين الغرب والجنوب ، فظهرت له مدينة عليها حصنٌ وأبوابٌ من حديد ، فلم يتمكن فتح الأبواب . وكان إذا صعد إليها الرجال ، وعلوا الحصن وأشرفوا على المدينة ، ألقوا بأنفسهم فيها ، فلما أغياها أمرها مضى ، وهلك من أصحابه عدة^٢ .

قال : وفي تلك الصحاري كانت متنزهاً القوم ومدنهم العجيبة وكنوزهم ، إلا أن الرمال غلبت عليها ، ولم يتبق يملك ملك إلا وقد عميل للرمل طلسمًا لدفعه ، ففسدت طلسماتها لقدم الزمان^٣ .

^١ النويري : نهاية الأرب ٤٧:١٥ - ٤٨ ، وانظر فيما

^٢ نفسه ٨٨:١٥ - ٨٩ .

^٣ نفسه ٨٩:١٥ .

قَالَ: وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُنْكِرَ كَثْرَةَ بُنْيَانِهِمْ، وَلَا مَدَائِنِهِمْ وَلَا مَا نَصَبُوهُ مِنَ الْأَعْلَامِ الْعِظَامِ، فَقَدْ كَانَ لِلْقَوْمِ بَطْشٌ لَمْ يَكُنْ لغيرِهِمْ، وَإِنَّ آثَارَهُمْ لَبَيِّنَةٌ، مِثْلَ الْأَهْرَامِ وَالْأَعْلَامِ وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَمَا فِي صَحَارِي الشَّرْقِ، وَالْجِبَالِ الْمُنْحَوْتَةِ الَّتِي جَعَلُوا كَنْوَزَهُمْ فِيهَا وَالْأَدْوِيَّةَ الْمُنْحَوْتَةَ، وَمِثْلَ مَا بِالصَّعِيدِ مِنَ الْبَرَابِيِّ وَمَا نَقَشُوهُ عَلَيْهَا مِنْ حِكْمَتِهِمْ؛ فَلَوْ تَعَاطَى جَمِيعُ مُلُوكِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّبِعُوا مِثْلَ الْهَرَمِيِّنَ مَا تَهَيَّأَ لَهُمْ، وَكَذَلِكَ أَنْ يَنْقُشُوا بِزُجَا لَطَالِ بِهِمِ الْأَمَدِ وَلَمْ يَمَكْنَهُمْ.

وَحُكِّيَ عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْبَنَاتِيِّنَ، فِي ضِيَاعِ الْعَرَبِ، أَنَّ عَامِلًا عَنْدهُمْ غَنَفٌ بِهِمْ، فَفَرَّوْا فِي صَحْرَاءِ الْعَرَبِ وَمَعَهُمْ زَادٌ إِلَى أَنْ تَنْصَلِحَ أحوَالُهُمْ وَيَرْجِعُوا؛ فَلَمَّا كَانُوا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَبَعْضِ آخَرَ، قَدَّمُوا إِلَى سَفْحِ جَبَلٍ، فَوَجَدُوا غَيْرَ أَهْلِيًّا قَدْ خَرَجَ مِنْ بَعْضِ الشُّعَابِ، فَتَبِعَهُ بَعْضُهُمْ، فَأَتَتْهُمُ إِلَى مَسَاكِينِ وَأَشْجَارٍ وَنَخْلٍ وَمِيَاهٍ تَطْرِدُ^١، وَقَوْمٌ هُنَاكَ / يَزْعُونَ وَلَهُمْ مَسَاكِينُ، وَكَلَّمَهُمْ وَأَعْجَبَ بِهِمْ. فَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَقَدِمَ بِهِمْ عَلَى أَوْلِيكِ الْقَوْمِ، فَسَأَلُوهُمْ عَنْ خَالِهِمْ فَأَخْبَرُوهُمْ، وَأَقَامُوا عَنْدهُمْ حَتَّى صَلُحَتْ أحوَالُهُمْ، وَخَرَجُوا لِيَأْتُوا بِأَهْلِيهِمْ وَمَوَاشِيَهُمْ وَيُقِيمُوا عَنْدهُمْ، فَسَارُوا مُدَّةً وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الطَّرِيقَ وَلَا يَتَأْتَى لَهُمُ الْعَوْدُ، فَأَسِفُوا عَلَى مَا فَاتَهُمْ.

وَضَلَّ آخَرُونَ عَنِ الطَّرِيقِ فِي الْعَرَبِ، فَوَقَعُوا عَلَى مَدِينَةٍ عَامِرَةٍ كَثِيرَةِ النَّاسِ وَالْمَوَاشِيِّ وَالنَّخْلِ وَالشُّجْرِ، فَأَضَافُوهُمْ وَأَطْعَمُوهُمْ وَسَقَوْهُمْ، وَبَاتُوا فِي طَاحُونَةٍ، فَسَكِرُوا مِنَ الشُّرَابِ وَنَامُوا، فَلَمْ يَتَّبِعُوا إِلَّا مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ، فَإِذَا هُمْ فِي مَدِينَةٍ خَرَابٍ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ؛ فَخَافُوا وَخَرَجُوا، وَظَلُّوا يَوْمَهُمْ سَائِرِينَ إِلَى الْمِيسَاءِ، فَظَهَرَتْ لَهُمْ مَدِينَةٌ أَكْبَرُ مِنَ الْأُولَى وَأَعْمَرُ، وَأَكْثَرُ أَهْلًا وَشَجَرًا وَمَوَاشِيًا، فَأَنَسُوا بِهِمْ وَأَحْبَبُوهُمْ بِخَيْرِ الْمَدِينَةِ الْأُولَى، فَجَعَلُوا يَعْجَبُونَ مِنْهُمْ وَيَضْحَكُونَ، وَأَنْطَلَقُوا بِهِمْ إِلَى وَاوِلِيَّةٍ لِبَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا وَغَنُّوهُمْ^(a) حَتَّى سَكِرُوا.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدَاثِ تَبَّهُوا، فَإِذَا هُمْ فِي مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، وَحَوْلَهَا نَخْلٌ قَدْ تَسَاقَطَ ثَمَرُهُ وَتَكَدَّسَ. فَخَرَجُوا، وَهُمْ يَجِدُونَ رِيحَ الشُّرَابِ وَمَعَانِي^(b) الْخُمَارِ، فَسَارُوا يَوْمًا إِلَى الْمِيسَاءِ، وَإِذَا رَاعٍ يَزْعَى غَنَمًا، فَسَأَلُوهُ عَنِ الطَّرِيقِ فَذَلَّهُمْ، فَسَارُوا بَعْضُ يَوْمٍ مِنَ الْعَدَاثِ، فَوَصَلُوا مَدِينَةَ الْأَشْمُونِيِّنَ بِالصَّعِيدِ.

(a) بولاق: غنوا بهم. (b) بولاق: مبادي.

^١ تطرد: تجري.

قال : وهذه مدائن القوم الداخلة القديمة قد غلب عليها الجان ، ومنها ما سترته عن العيون ، فلا يُنظر إليها أحد^١ .

وقال : إن البودسير بن قُطَيرم بن قُبطيم بن بيسر بن حَام بن نُوح عليه السلام ، في أيامه بُنيت بصحراء العرب مناير ومُنزَّهات ، وحَوَّلَ إليها جماعة من أهل بيته ، فعَمَرُوا تلك النواحي ، وبنوا فيها حتى صارت أرض العرب عامرة كلها . وأقامت على ذلك مُدَّة كثيرة ، فخالطهم البربر ونكحوا منهم ، ثم تحاسدوا ، فكانت بينهم حروب خربت فيها تلك الجهات وبادت ، إلا بقية منازل تُسمى الواحات .

ذِكْرُ مَدِينَةِ سَنْتَرِيَّةَ

ومدينة سنترية من جُملة الواحات^٢ ، بناها مناقيوش باني مدينة إخميم ، كان أحد ملوك القبط القدماء^٣ .

قال ابنُ وصيف شاه : وكان في حزم أبيه وحُنكته ، فعظم في أعين أهل مصر . وهو أول من عمِل الميدان ، وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه ، وأول من عمِل المارستان لعلاج المرضى والزمنى ، وأودعه العقاقير ، ورُتِبَ فيه الأطباء ، وأجرى عليهم ما يسمعهم ، وأقام الأمتاء على ذلك . وصنع لنفسه عيداً ، فكان الناس يجتمعون إليه فيه ، وسماه « عيد الملك » في يوم من السنة ، فيأكلون ويشربون سبعة أيام ، وهو مُشرف عليهم من مجلس على عمُد قد طُوِّقت بالذهب ، وألبست فاخر الثياب المنسوجة بالذهب ، وعليه قبة مُصَفَّحة من داخل بالرخام والزجاج والذهب .

وفي أيامه بُنيت سنترية في صحراء الواحات ، عملها من حجر أبيض مُرَبَّعة ، وفي كل حائط باب في وسطه شارع إلى حائط مُحاذٍ له ، وجعل في كل شارع يمينه ويساره أبواباً تنتهي طُرقاتها إلى داخل المدينة ، وفي وسط المدينة ملعب يدور به من كل ناحية سبع دَرَج ، وعليه قبة من

^١ النويري : نهاية الأرب ٩٠ : ٩١ - ونص النويري ٥ : ١٤ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٤/٢ : ٢٥٨ .

نقلًا أيضًا عن ابن وصيف شاه ولكنه أكثر تفصيلاً . ^٣ عند ابن وصيف شاه - كما نقل عنه النويري - أن

^٢ هي الواحة المعروفة اليوم بواحة سيوة عُرفت بذلك منذ القرن العاشر الهجري ، وهي تتبع اليوم محافظة مرسى مطروح (ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٢٦٦ ؛ ابن دقماق : الانتصار النويري .

نَحْشَب مَذْهُون ، عَلَى عُمْدٍ عَظِيمَةٍ مِنْ رُحَام ، وَفِي وَسَطِهِ مَنَارٌ مِنْ رُحَام ، عَلَيْهِ صَنْمٌ مِنْ صَوَانِ
 أُسُودٍ يَدُورُ مَعَ الشَّمْسِ بِدَوْرَانِهَا ، وَبَسَائِرِ نَوَاحِي القُبَّةِ صُورٌ مُعَلَّقةٌ تُصَفَّرُ وَتُصَيِّحُ بُلْغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ .
 فَكَانَ المَلِكُ يَجْلِسُ عَلَى الدَّرَجَةِ العَالِيَةِ مِنَ المَلْعَبِ وَحَوْلَهُ بَنُوهُ وَأَقَارِبُهُ وَأَبْنَاءُ المُلُوكِ ، وَعَلَى الدَّرَجَةِ
 الثَّانِيَةِ رُؤَسَاءُ الكَهَنَةِ وَالمُؤَزَّرَاءُ ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ رُؤَسَاءُ الجَيْشِ ، وَعَلَى الرَّابِعَةِ القَلَائِيفَةُ وَالمُنْجَمُونَ
 وَالأَطِبَّاءُ وَأَزْبَابُ العُلُومِ ، وَعَلَى الخَامِسَةِ أَصْحَابُ العِمَارَاتِ ، وَعَلَى السَّادِسَةِ أَصْحَابُ المِيهِنِ ،
 وَعَلَى السَّابِعَةِ العَامَّةُ . فَيُقَالُ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ : انظُرُوا إِلَى مَنْ دُونَكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ فَوْقَكُمْ ،
 فَإِنَّكُمْ^(a) لَا تَلْحَقُونَهُمْ ، وَهَذَا صَرَبٌ مِنَ التَّأْدِيبِ . وَقَتَلَتْهُ امْرَأَتُهُ بِسَكِينٍ فَمَاتَ ، وَكَانَ مُلْكُهُ سِتِينَ
 سَنَةً^١ .

وَسَتْرِيَّةُ الآنُ بَلَدٌ صَغِيرٌ ، يَسْكُنُهُ نَحْوُ سِتِّ مِائَةِ رَجُلٍ مِنَ البَزْبَرِ يَعْرِفُونَ بِسَيُوهٍ ، وَلُغَتُهُمْ تُعْرَفُ
 بِالسَيُوهِيَّةِ تَقْرُبُ مِنْ لُغَةِ زَنَاتَةَ . وَبِهَا حَدَائِقُ نَخْلٍ ، وَأَشْجَارُ مِنْ زَيْتُونٍ وَتِينٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَكَرْمٌ
 كَثِيرٌ . وَبِهَا الآنُ نَحْوُ العِشْرِينَ عَيْثًا تَسِيحُ بِمَاءِ عَذْبٍ . وَمَسَافَتُهَا مِنَ الإسْكَانْدَرِيَّةِ أَحَدُ عَشْرٍ يَوْمًا ،
 وَمِنْ جِيزَةَ مِصْرَ أَرْبَعَةَ عَشْرٍ يَوْمًا .

وَهِيَ قَرْيَةٌ يُصِيبُ أَهْلَهَا الحُمَّى كَثِيرًا ، وَثَمَرُهَا غَايَةٌ فِي الجَوْدَةِ ، وَتَعْبَثُ الجِرَّ بِأَهْلِهَا كَثِيرًا ،
 وَتُخْتَطِفُ مِنَ انْفِرَادٍ مِنْهُمْ ، وَتَسْمَعُ النَّاسُ بِهَا عَزِيفَ الجِرِّ .

ذِكْرُ الوَاحَاتِ الخَارِجَةِ

بَنَاهَا أَحَدُ مُلُوكِ القِبْطِ الأوَّلِ ، وَيُقَالُ لَهُ البُودْسِيرُ بْنُ قُطَيْمِ بْنِ قُطَيْمِ بْنِ مِصْرَائِمِ بْنِ بَيْصَرَ بْنِ
 حَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قَالَ ابْنُ وَصِيفِ شَاهٍ : وَأَرَادَ البُودْسِيرُ أَنْ يَسِيرَ مُغْرَبًا لِيَنْظُرَ إِلَى مَا هُنَالِكَ ، فَوَقَعَ عَلَى أَرْضٍ
 وَاسِعَةٍ مُتَحَرِّقَةٍ / بِالمِيَاهِ وَالعَيُونِ كَثِيرَةِ العُشْبِ ، فَبَنَى فِيهَا مَنَائِرَ وَمُتَنَزِّهَاتٍ ، وَأَقَامَ فِيهَا جَمَاعَةً مِنْ
 أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَعَمَّرُوا تِلْكَ النُّوَاحِي وَبَنَوْا فِيهَا حَتَّى صَارَتْ أَرْضُ الغَرْبِ عِمَارَةً كُلَّهَا . وَأَقَامَتْ
 كَذَلِكَ مُدَّةً كَثِيرَةً ، وَخَالَطَهُمُ البَزْبَرُ ، فَتَكَحَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ تَحَاسَدُوا وَبَغَى بَعْضُهُمْ

(a) ساقطة من بولاق .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٢ - ٧٤ ؛ وقارن ابن دقماق : الانتصار ٥ : ١٤ .

على بعض ، فكانت بينهم محروب ، فحرب ذلك البلد وباد أهلُه ، إلا بقية منازل تسمى الواحات ^١ .

وقال المسعودي : وأما بلاد الواحات فهي بين بلاد مصر والإسكندرية وصعيد مصر والغرب وأرض الأحابش من الثوبة وغيرهم . وبها أرض شبيبة وزاجية ، وغيون حامضة وغير ذلك من الطعوم . وصاحب الواحات في وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة - عبد الملك بن مزوان ، وهو رجل من لواته ، إلا أنه مزواني المذهب ، ويتركب في آلاف من الناس خيلا ونجبا ، وبينه وبين الأحابش نحو من ستة أيام ، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة . وفي أرضه خواص وعجائب ، وهو بلد قائم بنفسه ، غير متصل بغيره ولا مفتقر ^(a) إليه . ويُحتمل من أرضه التمر والزبيب والعتاب ^٢ .

وحدثني وكيل أبي الشيخ المعمر ^(b) حسام الدين عمرو بن محمد بن زكي الشهرزوري ، أنه سمع ببلاد الواحات أن فيها شجرة نارنج يُقطف منها ، في سنة واحدة ، أربعة عشر ألف حبة نارنج صفراء ، سوى ما يتناثر وسوى ما هو أخضر . فلم أصدق ذلك لقرابته ، وقمت حتى شاهدت الشجرة المذكورة ، فإذا هي كأعظم ما يكون من شجر الجميز بمصر وأكبر . وسألت مشتوفي البلد عنها ، فأخضر إلي جرائد حساباناته ، وتصحفها حتى أوقفني منها في سنة كذا قطف من الثارنجة الفلانية أربعة عشر ألف حبة نارنج مستوية صفراء ، سوى ما بقي عليها من الأخضر ، وسوى ما تناثر منها وهو صغير ^٣ .

وبالواحات الشب الأبيض بواد تجاه مدينة أذفو ، كان في زمن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر ، وفي زمن ابنه الصالح نجم الدين أيوب ، على مقطعي الواحات حمل ألف قنطار شب أبيض في كل سنة إلى القاهرة ، ويُطلق لهم في نظير ذلك جوالي الواحات ، ثم أهمل هذا فبطل . وفي سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة ، سار ملك الثوبة في جيش عظيم إلى الواحات ، فأوقع بأهلها وقتل منها وأسّر كثيرا ^٤ .

(a) بولاق : يفتقر . (b) بولاق : المعز .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٤٩ . وفيه أن ذلك كان سنة ٧٠١ هـ .

^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ١٣٦ . ^٤ انظر فيما تقدم ٥٣٨ ، وفيه أن إغارة ملك النوبة على

^٣ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ١١ (تقلا عن المقرئ) أسوان كانت في سنة ٣٤٤ هـ .

زُكْرُ مَدِينَةِ قَوْصٍ

اعْلَمَ أَنَّ قَوْصَ أَعْظَمَ مَدَائِنِ الصَّعِيدِ ، وَهِيَ عَلَى النَّيْلِ ، بُنِيَتْ بَعْدَ قِفْطٍ فِي أَيَّامِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْقِبْطِ الْأَوَّلِ يُقَالُ لَهُ شَدَّاتٌ^(a) بِنِ عَدِيمِ بْنِ الْبُودَسِيرِ بْنِ قُفْطَرِيمٍ^١ . قِيلَ سُمِّيَتْ بِاسْمِ قَوْصِ بْنِ قِفْطِ ابْنِ إِحْمِيمِ بْنِ سَيْفَانَ بْنِ أُشْمَنِ بْنِ مِصْرٍ^٢ .

قَالَ ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٍ : شَدَّاتٌ^(b) بِنِ عَدِيمِ هُوَ الَّذِي بَنَى الْأَهْرَامَ الدَّهْشُورِيَّةَ مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي قُطِعَتْ فِي زَمَانِ أَبِيهِ ، وَعَمِلَ مَصَاحِفَ النَّيْرِجَاتِ وَهَيْكَلَ أَرْزَمَنْتَ ، وَعَمِلَ فِي الْمَدَائِنِ الدَّاخِلَةِ مِنْ أَنْصِنَا هَيْكَلًا وَأَقَامَ قُبَّةً^(b) فِي أَثْرِيْبِ ، وَهَيْكَلًا فِي شَرْقِيِّ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ ، وَبَنَى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مَدَائِنَ ، وَفِي أَيَّامِهِ بُنِيَتْ قَوْصُ الْعَالِيَةِ ، وَأَسْكَنَ فِيهَا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْحِكْمَةِ وَأَهْلِ الصَّنَاعَاتِ .

وَكَانَتْ الْحَبَشُ وَالشُّودَانُ قَدْ عَاثُوا فِي بَلَدِهِ ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ ابْنَهُ مِنْقَاوَشَ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ وَسَبَى ، وَاسْتَعْبَدَ الَّذِينَ سَبَّاهُمْ وَصَارَ ذَلِكَ سُنَّةً لَهُمْ ، وَاقْتَطَعَ مَعْدِنَ

(a) بولاق : شدان . (b) بولاق : فيه .

محافظة قنا . (البكري : جغرافية مصر ٨٢-٨٣ ؛ مجهول : الاستبصار ٨٥-٨٦ ؛ ابن جبير : الرحلة ٤٠-٤١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٤١٣ ؛ عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ٤٨٤-٥٨٥ ؛ التجيبي : استفاد الرحلة والاعتبار ١٧٣-١٧٥ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (مالك مصر والشام) ٨٦-٨٧ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٢٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٣٩٧ ؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ١٤ : ١٢٨-١٤٠ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٤/٢ : ١٨٧-١٨٩ Maspero & Wiet, *Matériaux*, pp. 155-57; ١٨٩ Garcin, J.C., *Un centre musulman de la Haute - Égypte médiévale : Qûs*, le Caire 1976; id., *El*² art. *Kûs* V, pp. 517-19 . (٥٤٩ .

^١ قوص . تقع على الشاطئ الشرقي للنيل على بعد نحو ٣٠ كيلومترًا شمال مدينة الأقصر في الموقع الذي يكون فيه مجرى النيل أكثر قربًا من شاطئ البحر الأحمر حيث يفصله عن القصير مائتي كيلومترًا .

وازدهرت مدينة قوص في النصف الثاني من العصر الفاطمي مع الإصلاحات الإدارية التي أدخلها أمير الجيوش بدر الجمالي حيث كانت عاصمة الصعيد الأعلى ، بفضل استراتيجية الفاطميين الشرقية للسيطرة على تجارة الهند عن طريق ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، وأصبح منصب والي قوص هو الرتبة التي تلي رتبة الوزارة كما أصبح بها دار لضرب النقود . وحافظت قوص على مكانتها طالما كانت التجارة الكارمية في ازدهار . واعتبارًا من سنة ١٣٧٤هـ/١٣٧٤م نتيجة لجفاف أصاب المدينة أخذت تفقد قيمتها كمركز لنقل التجارة خاصة مع انهيار ميناء عيذاب الذي تم في القرن التاسع الهجري ، وهي اليوم إحدى مدن

^٢ الأدفوي : الطالع السعيد ١٣-١٤ .

الذهب من أرضهم، وأقام ذلك الشبي يعملون فيه ويحملون الذهب إليه .
وهو أول من أحب الصيد، واتخذ الجوارح، ووُلد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب
الأهلية، وعمل من العجائب والطلسمات لكل فن ما لا يحصى كثرة^١.

وقال الأذفوي في «تاريخ الصعيد»: وقوص بجانب قفط، حكى بعض المؤرخين أنها شرعت
في العمارة، وشرعت قفط في الخراب من سنة أربع مائة^٢. قيل إنه حضر مرة قاضي قوص،
فخرج من أسوان أربع مائة راكب بعلّة إلى لقائه^٣.

وفي شهر رمضان سنة اثنتين وستين وست مائة، أُحضِر إلى الملك الظاهر بيبرس فلوس
ووجدت مدفونة بقوص؛ فأخذ منها فلس، فإذا على أحد وجهيه صورة ملك واقف وفي يده
اليمنى ميزان وفي اليسرى سيف، وعلى الوجه الآخر رأس فيه أذن كبيرة وعين مفتوحة؛ وبدائر
الفلس كتابة، فقرأها راهب يوناني، فكان تاريخه إلى وقت قراءته ألفين وثلاث مائة سنة، وفيه
«أنا غياث الملك: ميزان العدل والكرم في يميني لمن أطاع، والسيف في يساري لمن عصى» .
وفي الوجه الآخر: «أنا غياث الملك: أذني مفتوحة لسماع المظلوم، وعيني مفتوحة أنظر بها
مصالح ملكي» .

وقوص كثيرة العقارب والسام أبرص، وبها صنّف من العقارب القتلات حتى إنه كان يُقال
فيها [عن الملسوع]:^(a) أكلته العقرب؛ لأنه كان لا يُزجى لمن لسعته حياة. واجتمع بها مرة، في
يوم صائف، على حائط الجامع سبعون سام أبرص صفاً واحداً. وكان الواحد من أهلها إذا مشى
في الصيف ليلاً خارج داره يأخذ يأخدي يديه مشرحة تضيء له، وبالأخرى مشك^(b) من حديد
يشك به العقارب^٤. ثم إنها تلاشت بعد سنة ثمان مائة.

فلما كانت الحوادث والمحن، مات بها سبعة عشر / ألف إنسان في سنة ست وثمان مائة .
وكانت من العمارة بحيث إنه تعطل منها في شرقي البلاد سنة ست وسبعين وسبع مائة، مائة

(a) إضافة من مسالك الأبصار مصدر النقل. (b) الأصل. مسك .

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦١-٦٣.

^٢ الأذفوي: الطالع السعيد ١٣.

^٣ نفسه ٢٩؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٢٨.

^٤ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (بمالك مصر

والشام) ٨٦.

وخمسون مغلّقا (والمغلّق عندهم بُشْتَانٌ من عشرين فدانًا فصاعدًا، وله ساقية بأربعة وُجُوه) وذلك سيوى ما تعطلّ مما هو دون ذلك، وهو كثيرٌ جدًا.

ذِكْرُ مَدِينَةِ إِسْنَا

قال الأذفوي: وَذُكِرَ أَنَّ إِسْنَا فِي سَنَةِ حَصَلَ مِنْهَا أَرْبَعُونَ أَلْفَ إِزْدَبِ تَمْرٍ، وَائْتْنَا عَشْرَ أَلْفِ إِزْدَبِ زَيْبٍ. وَإِسْنَا تَشْتَمِلُ عَلَى مَا يُقَارِبُ ثَلَاثَةَ عَشْرِ أَلْفِ مَنَزِلٍ، وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ بِهَا فِي وَقْتِ سَبْعُونَ شَاعِرًا^١.

ذِكْرُ مَدِينَةِ أُذْفُو

ومدينة أذفو (يُقالُ بالبدال المهملة، ويُقالُ أيضًا بالهاء المشّاة من فَوْق) ^٢، قال الأذفوي: أَخْبَرَنِي الْخَطِيبُ الْعَدْلُ أَبُو بَكْرٍ، خَطِيبُ أُذْفُو، أَنَّ جُبَّارَةً^(a) طَرَحَتْ ثَلَاثَةَ سَمَارِيخٍ فِي كُلِّ شَمْرُوحٍ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَنَّ قَلْعَ الْجُبَّارَةِ^(a) بِأَصْلِهَا وَوَزْنُهَا فَجَاءَتْ خَمْسَةَ وَعَشْرِينَ دَرَهْمًا، كُلُّهَا بِجَرِيدِهَا وَخَشْبِهَا، وَذَلِكَ بِأُذْفُو^٤.

ولما كان بعد سنة سبع مائة، حَفَرَ صُنَائِعُ الطُّوبِ، فَظَهَرَتْ صُورَةُ شَخْصٍ مِنْ حَجَرٍ شَكْلُ امْرَأَةٍ مُتْرَبَّعَةٍ عَلَى كُرْسِيٍّ، وَعَلَيْهَا مِثَالُ شَبَكَةٍ، وَفِي ظَهْرِهَا لَوْحٌ مَكْتُوبٌ بِالْقَلَمِ الْبِرْبَائِيِّ^(b)، رَأَيْتُهَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ فِي مَدِينَةِ أُذْفُو.

(a) بولاق: جمارة. (b) بولاق: اليوناني.

٢٤، ٥٥٥ - ٥٥٦؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٨: ٤٤ -

٥٠. محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٤/٢: ٢١١؛ Maspero & Wiet, *Matériaux* p. 136, id., *El² art.* (Adfū I, pp. 191-92).

^٣ على هامش الاصل: الجبارة من النخل التي فاقت

اليد، يقال: نخلة جبارة وناقعة جبار إذا عظمت وفوة الجبارة الرفلة وهي النخلة الطويلة وهي دون الحرق وجمع الرفلة رفل.

^٤ الأذفوي: الطالع السعيد ٢٦ - ٢٧.

^١ الأذفوي: الطالع السعيد ٢٥ - ٢٦؛ ابن دقماق:

الانتصار ٥: ٣٠؛ وانظر كذلك، ياقوت: معجم البلدان ١: ١٨٩؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٤/٢: ١٥١؛

علي مبارك: الخطط التوفيقية ٨: ٥٦ - ٦٤؛ Ritter, H., *El² art. Isnā IV*, p. 216.

^٢ أذفو. بضم الهمزة وسكون الدال وضم القاء وسكون الواو، من المدن المصرية القديمة تقع بين أشوان وقوص وبها الكثير من المعابد المصرية، وهي تابعة الآن لمحافظة أسوان (ياقوت: معجم البلدان ١: ١٢٦؛ الأذفوي: الطالع السعيد

أهناس

كورة من كور الصعيد^١، يُقال إن عيسى ابن مريم - عليه السلام - وُلد بها، وإن نخلة مريم - عليها السلام - التي ذُكرت في قوله تعالى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجُدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [الآية ٢٥ سورة مريم] لم تزل بها إلى آخر أيام بني أمية. والذي عليه الجماهير أن عيسى - عليه السلام - إنما وُلد بقرية بيت لحم من مدينة بيت المقدس^٢.
وبأهناس شجر اللبخ^(a).

ذكر مدينة البهنسا

هذه المدينة في جهة الغرب من النيل^٣، بها تُعمل الستور البهنسية، ويُنسج المطرز والمقاطع السلطانية، والمضارب الكبار والثياب المتخيّزة^(b). وكان يُعمل بها من الستور ما يتلغ طول الستر الواحد ثلاثين ذراعاً، وقيمة الزوج مائتا مثقال ذهباً.
وإذا صنّع بها شيء من الستور والأكسيّة والثياب، من الصوف أو القطن، لا بُدّ أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوباً، على ذلك مضوا جيلاً بعد جيل.
وقبّط مصر مُجمِعون على أن المسيح وأمه مريم كانا بالبهنسا، ثم انتقلا عنها إلى القدس.
وقال بعض المُفسرين في قوله تعالى عن المسيح وأمه: ﴿وَأَوْتَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [الآية ٥٠ سورة المؤمنون]: الربوة: البهنسا.
وهذه المدينة بناها ملك من القبط يُقال له مناوش بن منقاوش.

(a) بولاق: البينج. (b) بولاق: الحيرة.

^٣ من المدن القديمة تقع على الضفة الغربية للنيل من خليج المنهى (بحر يوسف)، وهي إحدى قرى مركز بني مزار التابع لمحافظة المنيا. (ياقوت: معجم البلدان ١: ٥١٦-٥١٧؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٠: ٢-٥، محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ٢١١-٢١٢؛ Maspero & Wiet, *Matériaux I*, 51-52; Wiet, G., *El² art. al-* (Bahnasā I, p. 974).

^١ إحدى كور الأعمال البهنساوية بصعيد مصر وتعرف بأهناسية المدينة، لانزال أطلالها ظاهرة بالقرب من مساكن القرية الحالية المعروفة بأهناسية الخضراء بمركز بني سويف أحد مراكز محافظة بني سويف (ياقوت: معجم البلدان ١: ٢٨٤؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٨: ١٠٢؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/٣: ١٥٣).

^٢ فيما تقدم ٧٢.

قال ابن وصيف شاه : واشتخلف مناوش الملك ، فطلب الحكمة مثل أبيه ، واشتخرج كتبها ، وأكرم أهلها ، وبذل فيهم الجوائز ، وطلب الإغراب في عمل العجائب . وكان كل من ملوكهم يجهد جهده في أن يعمل له غريته من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله . وثبت في كتبهم ، وزير على الحجارة في تواريخهم .

وهو أول من عبد البقر من أهل مصر ؛ وكان السبب في ذلك أنه اعتل علة يمس منه فيها ، فرأى في منامه صورة روحاني عظيم يقول له : إنه لا يخرجك من علتك إلا عبادتك البقر ، لأن الطالع كان وقت حلولها بك صورة ثور بقرنين ؛ ففعل ذلك ، وأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة ، وعمل له مجلساً في قصره ، وسقفه بقبة مذهبة . فكان يخره ويطيب موضعه ، ووكل به سادناً^(a) يقوم به ويكنس تحته ، ويعبده سراً من أهل مملكته ، فبرأ من علته .

وهو أول من عمل العجل في علته ، فكان يركب عليها البيوت من فوقها قباب الخشب . وعمل ذلك مع^(b) من أحب من نسائه وخدمه إلى المواضع والمتنزهات ، وكانت البقر تجره^(c) ، فإذا مره بمكان نزه^(d) أقام فيه ، وإذا مره بمكان خراب أمر بعمارته فيها^(b) ؛ فيقال إنه نظر إلى ثور من البقر الذي يجر عجلته ، أبلق حسن الشية ، فأمر بترفيه وسوقه بين يديه إعجاباً به ، وجعل عليه جلاً من ديباج ؛ فلما كان في يوم ، وقد خلا في موضع صار إليه ، وقد انفرد عن عبده وخدمه ، والثور قائم ، إذ خاطبه الثور وقال له : لو رفهني الملك عن السير معه ، وجعلني في هيكل وعبدني ، وأمر أهل مملكته بعبادتي ، كفيتهم جميع ما يريدونه ، وعاونته على أمره ، وقوته في مملكته ، وأزلت عنه جميع عله ؛ فازتاع لذلك ، وأمر بالثور فغسل وطيب وأدخل في هيكل ، وأمر بعبادته .

فأقام ذلك الثور يُعبد مدة ، وصار فيه آية ، وهو أنه لا يبول ولا يزوث ، ولا يأكل إلا أطراف ورق القصب الأخضر في كل شهر مرة ، فافتتن الناس به / وصار ذلك أصلاً لعبادة البقر^١ .

(a) بولاق : سائسا . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : وكان البقر يجره . (d) بولاق : نزهة .

^١ ربما يقصد ابن وصيف شاه بذلك العبادة المعروفة عند قدماء المصريين بعبادة العجل أيس .

وَبَنَى مَوَاضِعَ كَثْرَ فِيهَا كُنُوزًا، وَأَقَامَ عَلَيْهَا أَعْلَامًا. وَبَنَى فِي صَحْرَاءِ الْعَرَبِ مَدِينَةَ يُقَالُ لَهَا دِيمَاسٌ، وَأَقَامَ فِيهَا مَنَارًا، وَدَفَنَ حَوْلَهَا كُنُوزًا^١. وَيُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الْمَدِينَةَ قَائِمَةٌ، وَإِنَّ قَوْمًا جَازُوا بِهَا مِنْ نَوَاحِي الْعَرَبِ وَقَدْ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَسَمِعُوا بِهَا عَزِيفَ الْجَيْنِ، وَرَأَوْا ضَوْعًا يَتَرَاءَى بِهَا.

وَفِي بَعْضِ كُتُبِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ الثُّورَ، بَعْدَ مُدَّةٍ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لَهُ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا صُورَتَهُ مِنْ ذَهَبٍ أَجْوَفَ، وَيُؤْخَذَ مِنْ رَأْسِهِ شَعْرَاتٌ وَمِنْ ذَنْبِهِ وَمِنْ نُحَاتِهِ قُرُونُهُ وَأُظْلَافُهُ، وَيُجْعَلُ فِي التَّمْثَالِ الْمَذْكُورِ؛ وَعَرَفَهُمْ أَنَّهُ يَلْحَقُ بِعَالِمِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا جَسَدَهُ فِي جُرُونٍ مِنْ حَجَرٍ أَحْمَرَ، وَيُدْفَنَ فِي الْهَيْكَلِ، وَيُنْصَبَ تَمَثَالُهُ عَلَيْهِ، وَزُحِلَ فِي شَرْفِهِ، وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ تَثْلِيثٍ^(٥) الْقَمَرُ زَائِدٌ الثُّورَ، وَيُنْقَشُ عَلَى التَّمْثَالِ عِلَامَاتُ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ؛ فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَكَلَّلُوهُ بِجَمِيعِ الْأَصْنَافِ مِنَ الْجَوَاهِرِ، وَجَعَلُوا عَيْنَيْهِ جَزْعَتَيْنِ، وَغَرَسُوا فِي الْهَيْكَلِ عَلَيْهِ شَجَرَةً، بَعْدَ مَا دَفَنُوهُ فِي الْجُرُونِ الْأَحْمَرَ، وَبَنَوْا مَنَارًا طَوَّلَهُ ثَمَانُونَ ذِرَاعًا، عَلَى رَأْسِهِ قُبَّةٌ تَتَلَوَّنُ كُلَّ يَوْمٍ لَوْنًا حَتَّى تَمُضِيَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى اللَّوْنِ الْأَوَّلِ.

وَكَسَوْا الْهَيْكَلَ أَلْوَانِ الثِّيَابِ، وَشَقُّوا نَهْرًا مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْهَيْكَلِ، وَجَعَلَ حَوْلَهُ طَلُّشِمَاتٌ، رُؤُوسَهَا زُرُوسُ الْقُرُودِ عَلَى أَبْدَانِ النَّاسِ، كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهَا لِدَفْعِ مَضْرُوعَةٍ وَجَلْبِ مَنَفَعَةٍ.

وَأَقَامَ عِنْدَ الْهَيْكَلِ أَرْبَعَةَ أَصْنَامٍ عَلَى أَرْبَعَةِ أَبْوَابٍ، وَدَفَنَ تَحْتَ كُلِّ صِنْمٍ صِنْفًا مِنَ الْكُنُوزِ، وَكَتَبَ عَلَيْهَا قُرْبَانَهَا وَبِخُورَهَا، وَأَسْكَنَهَا الشَّجَرَةَ^(ب)، فَكَانَتْ تُعْرَفُ بِمَدِينَةِ الشَّجَرَةِ^(ب)، وَمِنْهَا كَانَتْ أَصْنَافُ الشَّجَرَةِ^(ب) تَخْرُجُ^٢.

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ الثُّورُوزَ بِمِصْرَ. وَفِي زَمَانِهِ بُنِيَ الْبَهْنَسَا. وَأَقَامَ بِهَا أُسْطُوَانَاتٌ، وَجَعَلَ فِيهَا فَوْقَهَا مَجْلِسًا مِنْ زُجَاجٍ أَصْفَرٍ، عَلَيْهِ قُبَّةٌ مُذَهَّبَةٌ، إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ أَلْقَتْ شُعَاعَهَا عَلَى الْمَدِينَةِ^٣.

وَيُقَالُ إِنَّهُ مَلَكَهُمْ ثَمَانِ مِائَةٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَدُفِنَ فِي أَحَدِ الْأَهْرَامِ الصُّغَارِ الْقِبْلِيَّةِ، وَقِيلَ فِي غَزْبِي الْأَشْمُونِيِّ. وَدُفِنَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ وَالْجَوْهَرِ وَالْعَجَائِبِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأَصْنَامٌ^(ج) الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ^{٢٠}.

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: الشجرة. (c) بولاق: أصناف.

^١ فيما تقدم ٣٧٦. شاه؛ المسعودي: أخبار الزمان ١٧٧، وانظر فيما تقدم

^٢ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٦٧-٦٩. ٣٧٦ وفيما يلي ٧٢٧ نسب عمل الثوروز إلى مناوش ابن

^٣ النويري: نهاية الأرب ١٥: ٧١ (عن ابن وصيف مناقوش).

التي تَرَى الدِّفِين والخَبِيئَةَ ، وأَلْف سَرَج ذَهَبًا وَفِضَّةً ، وعَشْرَةَ آلاَفِ جَامِ وَغِضَارٍ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَزُجَاجٍ ، وَأَلْفِ عُقَارٍ^(a) لِفُنُونِ الأَعْمَالِ . وَزُبَيْرٌ^(b) عَلَيْهِ اسْمُهُ وَمُدَّةٌ مُلْكُهُ وَوَقْتُ مَوْتِهِ .

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعٍ مِائَةٍ ، ظَهَرَ بِالأَشْمُونِيِّينَ ، فِي وَادِي بَيْنِ جَبَلَيْنِ ، فَسَاقِي مُرَبَّعَةٍ مَمْلُوءَةٍ مَاءً عَذْبًا صَافِيًا ، فَمَشَى شَخْصٌ عَلَى حَافَتِهَا طُولَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَلَمْ يَتَلَعْ أَحْرَاهَا . وَيُقَالُ إِنَّهَا مِنْ عَمَلِ سُورِيَدِ بَنِي الأَهْرَامِ ، لِتَكُونَ عُذَّةً لِمَا كَانُوا قَدْ تَوَقَّعُوهُ مِنْ حُدُوثِ طُوفَانٍ نَارِيٍّ ، فَرُدِمَ هَذَا الوَادِي بَعْدَ ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ تَلَافِ النَّاسِ⁽¹⁾ .

يَقُولُ الشَّيْخُ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الفَرَّيَانِي⁽²⁾ : حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ حَسَنِ بْنِ خَالِدِ الشَّعْبِيِّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَخْتَلَفْ قَوْلُهُ عَلَيَّ فِيهَا ، قَالَ : حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ فَرَاةِ السَّائِكِينَ بِكُورَةِ البَهْتَسَا ، قَالَ : خَرَجْتُ أَنَا وَرَجُلٌ رَفِيقٌ لِي نَزَتَادِ البَلَادِ وَنَطَلَبُ الرِّزْقِ فِي الأَرْضِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ سَنَةِ عَشْرٍ وَثَمَانِ مِائَةٍ ، فَقَطَعْنَا الجَبَلَ العَرَبِيَّ مِنْ نَاحِيَةِ البَهْتَسَا ، وَسِيرْنَا مَتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَأَقَمْنَا أَيَّامًا وَنَحْنُ نَمُشِي مَا بَيْنَ العَرَبِ وَالجَنُوبِ ، فَوَقَعْنَا فِي وَادٍ كَثِيرِ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ وَالمَاءِ وَالكَلَأِ ، لَيْسَ فِيهِ أُنَيْسٌ . وَهُوَ وَادٍ وَاسِعٌ فِي الطُّولِ وَالعَرْضِ ، نَحْوُ يَوْمٍ فِي الطُّولِ وَيَوْمٍ فِي العَرْضِ ، كَلَّهُ أَعْيُنُ وَبَسَاتِينُ نَحْلٍ وَزَيْثُونٍ ، كَثِيرِ الإِبِلِ وَالمِعْزِ ، وَالدُّبِّ وَالصُّبُعِ بِهِ كَثِيرٌ ، وَالإِبِلُ بِهِ مُتَوَحِّشَةٌ وَكَذَلِكَ المِعْزُ قَدْ صَارَتْ بِهِ وَخَشِيَّةً ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ آنِسِيَّةً^(c) ، وَلَيْسَ بِالوَادِي لَاحِظٌ وَلَا غَايِدٌ مِنَ النَّاسِ .

قَالَ : فَأَخْبَرَنِي أَنَّهَا^(d) أَقَامًا بِالوَادِي نَحْوًا مِنْ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ ، وَأَنَّهَا رَأَى فِي وَسَطِ الوَادِي مَدِينَةً حَصِينَةً مَنِيعَةً عَالِيَةَ السُّورِ شَامِيخَةَ القُصُورِ ، فَإِذَا تَقَرَّبَا مِنْ سُورِهَا سَمِعَا ضَجِيجًا عَظِيمًا وَأَصْوَاتًا مَهُولَةً مَخُوفَةً ، وَرَأَى دُخَانًا يَرْتَفِعُ إِلَى جَوْ السَّمَاءِ حَتَّى يُغَطِّي سُورَ المَدِينَةِ وَجَمِيعَ مَا فِيهَا ؛ وَأَنَّ تِلْكَ الإِبِلَ الوَخَشِيَّةَ عَدَّتْ عَلَى زَوَاجِلِهِمَا الإِنْسِيَّةَ فَأَذَتْهَا وَقَتَلَتْهَا .

(a) بولاق : عقاقير . (b) بولاق : زبروا . (c) بولاق : أنه بهم . (d) حتى نهاية الفقرة تستخدم نسخة الأصل صيغة الجمع .

¹ في هامش الأصل : وبأصل المصنف ورقة فيها مكتوب ما مثاله بخط أظنه مغربي : الحمد لله وحده يقول محمد بن أحمد الفريري ، حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ حَسَنِ ، الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ بِرَمْتِهِ إِلَى قَوْلِهِ ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

² انظر عن الشيخ محمد بن أحمد الفريري فيما تقدم ٤٣٧ ، ٥١١ ، وفيما يلي ٢ : ٢٠٩ ، ٣٠٢ فهو أحد المصادر الشفهية للمقريزي .

فَتَحَيَّلَ عِنْدَ ذَلِكَ الرَّجُلَانِ الْفَزَارِيَانِ بِحَيْلٍ ، وَقَتَلَا جِبَالًا وَأَشْرَاكَ شِبَاكًا مِنْ لَيْفِ النَّخْلِ ، وَقَيَّدَا تِلْكَ الْإِبِلَ الْوَحْشِيَّةَ ، وَقَتَلَا نَحُوصًا ، وَضَفَّرَا قِفَافًا مِنَ الْخُوصِ لَزَادِهِمَا وَمَلَأَهَا تَمْرًا ، وَزَلَّلا مِنْ تِلْكَ الْإِبِلِ الْوَحْشِيَّةِ مَكَانَ رَوَاجِلِهِمَا ، عِوَضًا عَنْهَا ، وَرَكِبَاهَا مُتَوَجِّهِينَ نَحْوَ الشَّرْقِ ، وَحَمَلَا مَعَهُمَا مِنَ الْجَرِيدِ - أَعْنَى جَرِيدِ النَّخْلِ - مَا يَعْرِفَانُ بِهِ الطَّرِيقَ الَّتِي بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهَا ، وَيَجْعَلَانِ ذَلِكَ أَمَارَاتٍ لِمُرورِهِمَا إِلَيْهَا .

فَكَانَا كُلُّمَا مَرَّ عَلَى شَرْفٍ ، جَعَلَا عَلَيْهِ جَرِيدَتَيْنِ عَلَمًا ، حَتَّى وَصَلَا إِلَى الْجَبَلِ الْعَرَبِيِّ مِنْ مِصْرَ ، فَتَزَلَّوْا إِلَى الْبَهْتَسَا ، فَعَرَفَا قَوْمَهُمَا ، وَتَحَمَّلَا بِأَهَالِيهِمَا .
فَلَمَّا عَلَوْا سَطْحَ الْجَبَلِ الْعَرَبِيِّ ، وَجَدَا كُلُّ مَا فَرَّقَاهُ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ عَلَى رُؤُوسِ الْآكَامِ مُجْتَمِعًا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ فِي أَعْلَى الْجَبَلِ ، فَرَجَعَا عِنْدَ ذَلِكَ لِأَهَالِيهِمَا وَمَنْ مَعَهُمْ إِلَى أَرْضِ الْبَهْتَسَا .
وَهَذَا مَا حَدَّثَنِي بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ الْأَشْمُونِيِّينَ

كَانَتْ مِنْ عَظَائِمِ مَدَائِنِ ^(a) الصَّعِيدِ ، يُقَالُ إِنَّهَا مِنْ بِنَاءِ أَشْمُونِ بْنِ مِضْرَ بْنِ بَيْصَرَ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ . وَقَالَ / ابْنُ وَصِيفٍ شَاهٍ : كَانَ أَشْمُونٌ أَعْدَلٌ وَلَدَ أَبِيهِ ، وَأَرْغَبُهُمْ فِي صَنْعَةِ تَبْقَى وَيَتَقَى ذِكْرُهَا ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْمَجَالِسَ الْمُصَفَّحَةَ بِالزُّجَاجِ الْمَلُونِ وَسَطَ النَّيْلِ .

وَتَقُولُ الْقِبْطُ : إِنَّهُ بَنَى سَرَبًا تَحْتَ الْأَرْضِ ، مِنَ الْأَشْمُونِيِّينَ إِلَى أَنْصِنَا تَحْتَ النَّيْلِ ، وَقِيلَ إِنَّهُ حَفَرَهُ وَعَمِلَهُ لِبِنَاتِهِ لِأَنَّهُنَّ كُنَّ يَمْضِينَ إِلَى هَيْكَلِ الشَّمْسِ . وَكَانَ هَذَا الشَّرْبُ مُبَلِّطُ الْأَرْضِ وَالْحَيْطَانِ وَالشَّقْفِ بِالزُّجَاجِ الثُّخِينِ الْمَلُونِ .

(a) بولاق : أعظم مدن .

معجم البلدان ١ : ٢٠٠ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ١٥ ؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٨ : ٧٤-٧٦ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٢/٤ : ٥٩-٦٠ ؛ وتعليقاته على النجوم الزاهرة ٩ : ٤٠ هـ ، ٢ ، ١ - El² art. al- Ayman F. Sayyid, Ushmunayn X, p...

^١ الأشمونيين . من المدن المصرية القديمة ، عرفت في العصرين اليوناني والروماني باسم Hermopolis Magna ، كانت تقع غربي النيل بصعيد مصر تجاه مدينة أنصنا التي حل محلها الآن قرية الشيخ عبادة الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل . وهي الآن إحدى مدن مركز مَلُوي الواقعة في محافظة المنيا بالوجه القبلي (الإدريسي : نزهة المشتاق ١٢٥ ؛ ياقوت :

وقيل : إن أشمون كان أطول إخوته ملكاً ؛ وقال أهل الأثر : إنه ملك ثمان مائة سنة ، وإن قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ست مائة سنة من ملكه ، وأقاموا تسعين سنة ، واشتولوا على البلد ، فانتقلوا إلى الدثينة من طريق الحجاز إلى وادي القرى فعمروها ، واتخذوا بها المنازل والمصانع ، وسلط الله عليهم الذر فأهلكهم ، وعاد ملك مصر إلى أشمون .

ويقال إنه عمل على باب الأشمونين إوزة من نحاس ، فكان الغريب إذا جاء ليُدخل المدينة صاحت الإوزة وشفقت بجناحيها فيعلم به ، فإن أحبوا متعوه ، وإن أحبوا تركوه . وكثرت الحيات في وقته ، فكانوا يصيدونها ويعملون من لحومها أدوية وزيافات ، ثم ساقوها بسحرهم إلى وادي الحيات في جبال لوثيه ومراقية ، فسجنوها هناك ^١ .

^a وفي « تواريخ النصارى » أن المسيح - عليه السلام - لما قدمت به أمه وهو طفل إلى أرض مصر نزلت أولاً ظاهر مدينة بسطه ، ثم مضت وعدت النيل إلى الجانب الغربي ومضت إلى الأشمونين ، وكان على أعلى المدينة صورة فرس على أربعة أعمدة إذا قدم غريب صهلت ، فعندما قدم المسيح سقط هذا الفرس وتكسر ^a ^٢ .

وقال في « كتاب هروشيوش » : إن أشمون بن قبط أول ملوك المصريين ، وإنه كان في زمان ساروج ^b بن راعو بن فالغ ^c بن عابر بن شالغ بن أرفخشيد بن سام بن نوح ، وإن سني الدنيا صارت إلى زمان ساروج ^b ألفين وتسع مائة وخمسة سنين ^d ، يكون ذلك بعد الطوفان بست مائة وثلاث وستين سنة ^٣ .

وبها كانت فرهة الخيل والبغال والحمير ، وكان يعمل بها فرس القرمز الذي يشبه الأزمني . وكان ينزل بأرض الأشمونين عدة بطون من بني جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - وكانوا بادية أصحاب شوكة - وكان معهم بنو مسلمة بن عبد الملك بن مزوان خلفاء لهم ، ومعهم بطون آخر يقال لهم بنو عسكر ، يقال إن أباهم كان مولى لعبد الملك بن مزوان ، ويؤمنون أنهم من بني

(a-a) هذه الفقرة ساقطة من بولاق . (b) بولاق : شاروح وفي أصل أورو سيوس Serug . (c) بولاق : بالغ وعند

أورو سيوس : فالق . (d) عند أورو سيوس : اثنين وستين .

^٣ أورو سيوس : تاريخ العالم ٩١ .

^١ التويري : نهاية الأرب ٧٠ : ١٥ - ٧١ .

^٢ انظر فيما تقدم ٦٢٥ - ٦٢٦ .

أُمَّيَّة صُلْبِيَّة . وكان معهم أيضًا حُلَفَاء لهم بنو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان يَنْزِلُونَ أَرْضَ دِلْجَةَ عند أَشْمُونَ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ إِخْمِيمَ

- صَبَطَهَا الْبَكْرِيُّ بِكُشْرِ الهمزة وإسكان الحاء ثم ميم وياء وميم على بناء إفعال^١ . وهي في الجانب الشرقي من النيل ، والذي بناها مناقبوش بن أحد ملوك القبط الأول^٢ .
- قال ابن وصيف شاه : كان جلدًا مُحَنَكًا ، فاستأنف العمارة ، وبني القرى ، ونصب الأعلام ، وجمع الحكم ومصاحف الملوك والحكماء ، وعمل العجايب ، وبني لنفسه مدينة انفرد بها ، وعمل عليها حصنًا ، ونصب عليه أربعة أعلام ، في كل ركن من أركانه علم ، وبين تلك الأعلام ثمانون صنمًا من نحاس وأخلط في أيديها السلاح ، وزبر على صدرها آياتها .
- وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة ، من أعلم الناس بالسحر ، وأبصرهم بأخذ التماسيح والسباع ، وكان يُعلم الغلمان السحر ، فإذا حذقوا علم غيرهم . فأمر الملك أن يُبنى له مدينة ، ويُحوَّل إليها وهي إخميم .
- فملكهم مناقبوش نيقًا وأربعين سنة ، ومات فدفن في الهرم المحاذي لإطفيح ، ومعه شيء كثير من المال والجوهر والآنية والتماثيل ، وزبر عليه اسمه والوقت الذي هلك فيه^٣ .
- قال : وذكر أهل إخميم أن رجلاً أتى من الشرق ، وكان يلزم البربا ، ويأتي إليه كل يوم يتخور وخلق ، فيبخر ويُطيب صورة في عضادة الباب ، فيجد تحتها دينارًا فيأخذه ويتصرف . ففعل ذلك مدة حتى وشى به غلام له إلى عامل البلد ، فقُبض عليه ، فبذل مالًا وخرج عن البلد .

(a) بياض بالأصل .

^١ ياقوت : معجم البلدان ١ : ١٢٣ - ١٢٤ ؛ الفلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٣٩٦ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٥ : ٢٥ - ٢٦ ؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٨ : ٣٥ - ٤٣ ؛ محمد رمزي : القاموس الجغرافي ٤/٢ : ٨٩ - ٩٠ . Wiet, G., *El*² art. (Akhmim I, p. 340).

^٢ النويري : نهاية الأرب ١٥ : ٧٢ .

^١ أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ١٢٥ .

^٢ إخميم (وتضبط أحيانًا إخميم) من أقدم المدن المصرية تقع في شرقي النيل ، اشتهرت بمعبدتها المعروف ببربا إخميم الذي هدم بعد القرن الخامس الهجري . وهي الآن إحدى مدن محافظة سوهاج في صعيد مصر (البكري : جغرافية مصر ٨١ ؛ مجهول المؤلف : الاستبصار ٨٤ ؛ ابن جبير : الرحلة ٣٥ - ٣٨ ؛ الإدريسي : نزهة المشتاق ١٢٥ - ١٢٦ ؛

وكانت بزبا إخميم من أعجب البرابي وأعظمها ، قد بُيّت لخزن بُرهم ، فإنهم قَضُوا على أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرائن ، لكنهم اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : تكون نارٌ فتَحرق جميع ما على وجه الأرض ، وقال آخرون : بل يكون ماءً ، فَعَمِلُوا هذه البرابي قبل الطوفان .

وكان في هذه البربا صُورُ الملوك الذين يَمْلِكُون مصر ، وكانت مَبْنِيَةٌ بِحَجَرِ المَزَمَر ، وطولُ كُلِّ حَجَرٍ منها خمسة أذرع في سَمَكِ ذِرَاعَيْن ، وهي سبعة دَهاليز سُقُوفُها حِجَارَةٌ ، طول الحَجَرِ منها ثمانية عشر ذِرَاعًا في عرضِ خمسة أذرع ، مَدُهونَةٌ بالأزورد وغيره من الأصباغ التي يَحْسِبُها النَّاظِرُ كأنما فُرِعَ الدُّهَانُ منها الآن لِجِدَّتِهَا ^١ .

وكان كُلُّ دِهَلِيزٍ منها على اسمِ كَوَكَبٍ من الكواكب السَّبْعَةِ السِّيَّارَةِ ، وَجُدْرَانُ هذه الدُهاليز مَنقُوشَةٌ بِصُورِ مختلفة الهَيْئَاتِ والمَقَادِيرِ ، فيها زُمُورٌ عُلوْمُ القِبْطِ ، من الكِيميَاءِ والسِّيْمِيَاءِ والطلُّسماتِ والطَّبِّ والنُّجومِ والهِندَسَةِ وغير ذلك ، أودَعوها تلك الصُّورَ .

وذكر ابنُ جُبَيْرٍ في « رِحْلَتِهِ » أَنَّ طُولَ هذه البربا مائتان وعشرون ذِرَاعًا ، وسعتها مائة وسبعون^(a) ذِرَاعًا ، وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ على أربعين سارية سوى الحيطان ، دَوْرٌ كُلُّ سارية خمسون شِبْرًا ، وبين كُلِّ ساريتين ثلاثون شِبْرًا ، ورؤوسها في نهاية العِظَمِ كُلِّها مُنْقَشَةٌ^(b) من أسفلها إلى أعلاها ، ومن رأسِ كُلِّ سارية إلى الأخرى لَوْحٌ عَظِيمٌ من الحَجَرِ المَنحُوتِ فيها ما دَرَعُهُ ستة وخمسون شِبْرًا طولًا ، في عَرْضِ عَشْرَةِ أَشْبَارٍ وارتفاع ثمانية أَشْبَارٍ ؛ وَسَطُحُهَا^(c) من ألواح الحِجَارَةِ ، كأنها فَرَشٌ واحد ، فيه التَّصَاوِيرُ البديعة / والأصْبِغَةُ الغريبة ، كَهَيْئَةِ الطُّيُورِ والآدميين ، وغير ذلك في داخلها وخارجها ؛ وَعَرْضُ حَائِطِ البربا ثمانية عَشَرَ شِبْرًا من حِجَارَةِ مَرصُوصَةٍ ^٢ ، كذا قاسها ابنُ جُبَيْرٍ في سنة ثمانٍ وسبعين وخمسة مائة .

ويقال إنَّ ذَا التُّونِ عَرَفَ منها عِلْمَ الكِيميَاءِ .

وما زالت هذه البربا قَائِمَةٌ إلى سنة ثمانين وسبع مائة ، فَخَرَّبَهَا رَجُلٌ من أهل إخميم ، يُعْرَفُ بِالخَطِيبِ كمالِ الدين بن بَكْرِ الخَطِيبِ عِلْمُ الدين عليّ ، ونالَ منها مالًا ، فلم تَطُلْ

(a) رحلة ابن جبیر : ستون . (b) رحلة ابن جبیر : منقوشة . (c) رحلة ابن جبیر : سقف هذا الهيكل .

^١ قارن ؛ النويري : نهاية الأرب ١ : ٣٩٤ ؛ ابن فضل الله

^٢ ابن جبیر : الرحلة ٣٦ ، ٣٧ .

العمری : مسالك الأبصار ١ : ٢٣٩ - ٢٤٠ .

حياته ومات . ومن حينئذٍ تلاشى أمر إخميم إلى أن خربت .
وقد ذكر جماعة أن بزبا إخميم كانت في هيئة غلام أمرد غزيان ، وأن قوماً دخلوها مرة ،
فتبعهم وأخذ يضربهم ضرباً وجيعاً حتى خرجوا هارين . وحكي مثل ذلك عن دخل الأهرام
أيضاً .

- ٥ وقد حكي أن رجلاً ألصق على صورة من بزبا إخميم شمعة ، فكان إذا تزكها في موضع
التجأت العقارب إليها ، وإذا وضع الشمعة في تابوت اجتمعت العقارب حوله .
ويقال إنه كان في بزبا إخميم شيطان قائم على رجلٍ واحدة ، وله يدٌ واحدة وقد رفعها إلى
السماء ، وفي جبهته وحواليه كتابة ، وله إخليلٌ ظاهرٌ ملتصق بالحائط . وكان يُذكر أن من احتال
حتى ينقب على ذلك الإخليل حتى يُخرجه من غير أن يتكسر ، ويُعلقه على وسطه ، فإنه لا يزال
مُنِعْظاً إلى أن ينزعه ، ويُجامع ما أحب ولا يفتر ما دام مُعلقاً عليه ، وأن بعض من ولي إخميم
اقتلعه فوجد منه شيئاً عجيباً من ذلك .

وكانت الأنطاع تجلب من إخميم ، وبها تُعمل ، ويُقال إنه كان بها اثنا عشر ألف عريف على
الشجرة ، وكان بها شجر البنج .

- ١٥ ويُقال إن الذي بنى بزبا إخميم اسمه دومريا ، وإنه جعل هذه البرزا مثلاً للأمم الآتية بعده ،
وكتب فيها تواريخ الأمم والأجيال ومفاجرتهم التي يفتخرون بها ، وصوّر فيها الأنبياء والحكماء ،
وكتب فيها من يأتي من الملوك إلى آخر الدهر .
وكان بناؤه إيها والنسر برأس الحمل ، والنسر يُقيم عندهم في كل بُرج ثلاثة آلاف سنة .
قلت : والنسر في زماننا بأخر باب بُرج الجدّي ، فيكون على ذلك لهذه البرزا منذ بُنيت نحو
الثلاثين ألف سنة .

- ٢٠ وذكر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم القيسي ، في كتاب « تحفة الألباب » ، أن هذه البرزا
مربعة من حجارة منحوتة ، ولها أربعة أبواب ، يُفضي كل باب إلى بيت له أربعة أبواب ، كلها
مظلمة ، ويُصعد منها إلى بيوت كالغرف على قدرها .^٢

^١ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٣ عن ابن وصيف

^٢ أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ٧٧ .

ذِكْرُ مَدِينَةِ الْعُقَابِ

قال المشعودي: مَدِينَةُ الْعُقَابِ غَرْبِيٌّ أَهْرَامٌ بَوْصِيرِ الْجِيْزَةِ^(a)، عَلَى مَسِيرَةِ خَمْسَةِ أَيَّامٍ بَلْيَالِيهَا لِلرَّائِبِ الْجُدِّ، وَقَدْ غَوَّرَ طَرِيقَهَا، وَعُمِّي الْمَسْلِكُ إِلَيْهَا وَالسُّمْتُ الَّذِي يُؤَدِّي نَحْوَهَا، وَفِيهَا عَجَائِبُ الْبُنْيَانِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَمْوَالِ^١.

وقال ابنُ وَصِيفِ شَاهٍ^٢: وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ دَوْمَعِ الْعَمَلِيْقِيِّ قَدْ خَرَجَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ يَنْتَقِلُ فِي الْبُلْدَانِ وَيَقْهَرُ مُلُوكَهَا، فَلَمَّا صَارَ بِالشَّامِ وَجَّهَ غُلَامًا لَهُ يُقَالُ لَهُ عَوْنٌ، فَسَارَ إِلَى مِصْرَ وَفَتَحَهَا، ثُمَّ سَارَ فَتَلَقَّاهُ عَوْنٌ وَدَخَلَ مِصْرَ فَاسْتَبَاحَ أَهْلَهَا. ثُمَّ سَنَّحَ لَهُ أَنْ يَقِفَ عَلَى مَصْبِ النَّيْلِ، فَخَرَجَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، وَاسْتَخْلَفَ عَوْنًا عَلَى مِصْرَ، وَأَقَامَ فِي غَيْبَتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَإِنَّ عَوْنًا، بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ مِنْ مَسِيرِهِ، تَجَبَّرَ وَادَّعَى أَنَّهُ الْمَلِكُ، وَأَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ غُلَامَ الْوَلِيدِ وَأَنَّ مَا هُوَ أَحْوَهُ، وَغَلَبَ بِالسُّحْرِ، وَسَبَى الْحَرَائِرَ، فَمَالَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَدَعِ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ مُلُوكِ مِصْرَ إِلَّا نَكَحَهَا، وَلَا مَالًا إِلَّا أَخَذَهُ وَقَتَلَ صَاحِبَهُ. وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُكْرِمُ الْكَهَنَةَ، وَيُعْظِمُ الْهَيَاكِلَ^(b). فَاتَّفَقَ أَنَّهُ رَأَى الْوَلِيدَ فِي مَنَامِهِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ: مِنْ أَمْرِكَ أَنْ تَتَسَمَّى بِاسْمِ الْمَلِكِ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مِنْ فَعَلِ ذَلِكَ اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ؟ وَنَكَحَتْ بَنَاتَ الْمُلُوكِ، وَأَخَذَتْ الْأَمْوَالَ بِغَيْرِ وَاجِبٍ. ثُمَّ أَمَرَ بِقُدْرٍ مَلَكَتْ زَيْتًا، وَأُحْمِيَّتَ حَتَّى غَلَّتْ، وَنَزَعَ ثِيَابَهُ لِيُلْقِيَهُ فِيهَا، فَأَتَاهُ عُقَابٌ فَاخْتَطَفَهُ وَخَلَقَ بِهِ فِي الْجَوِّ، وَجَعَلَهُ فِي هُوَّةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، فَسَقَطَ إِلَى وَادٍ فِيهِ حَمَاءٌ مُنْتَبَةٌ^(c). فَانْتَبَهَ مَرَعُوبًا، وَقَصَّ ذَلِكَ عَلَى كَهَنَتِهِ، فَقَالُوا: نَحْنُ نُخَلِّصُكَ مِنْهُ بِأَنْ تَعْمَلَ عُقَابًا وَتَعْبُدَهُ، فَإِنَّهُ الَّذِي خَلَّصَكَ فِي نَوْمِكَ؛ فَقَالَ: أَشْهَدُ لَقَدْ قَالَ لِي: اعْرِفْ لِي هَذَا الْمَقَامَ وَلَا تَنْسَهُ.

فَعَمِلَ عُقَابًا مِنْ ذَهَبٍ، وَجَعَلَ عَيْنَيْهِ جَوْهَرَتَيْنِ، وَوَشَّحَهُ بِالْجَوْهَرِ، وَعَمِلَ لَهُ هَيْكَلًا لَطِيفًا، وَأَرْزَحَى عَلَيْهِ سُتُورَ الْحَرِيرِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى تَبْخِيرِهِ وَقُرْبَانِهِ حَتَّى نَطَقَ لَهُمْ، فَأَقْبَلَ عَوْنٌ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ فَأَجَابُوهُ.

(a) بولاق: أبو صير بالجيزة، المشعودي: بوصير والجيزة. (b) النويري نقلًا عن ابن وصيف شاه: وكان مع ذلك يلزم

الهياكل ويكرم الكهنة. (c) النويري: واد فيه حية.

^٢ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١١٥-١١٨.

^١ المشعودي: مروج الذهب ٢: ٧٨.

ثم أَمَرَ فَجَمَعَ لَهُ كُلُّ صَانِعٍ بِمِصْرَ، وَأَخْرَجَ أَصْحَابَهُ إِلَى صَخْرَاءِ الْغَرْبِ لَطَلَبِ أَرْضِ سَهْلَةٍ حَسَنَةِ الْإِسْتِوَاءِ، يُدْخَلُ إِلَيْهَا مِنْ مَوَاضِعِ صَعْبَةٍ وَجِبَالٍ وَعِزَّةٍ، بِحَيْثُ تَقْرُبُ مِنْ مَغِيضِ الْمَاءِ - الَّتِي هِيَ الْيَوْمَ الْفَيْيُومُ، وَكَانَتْ مَغِيضًا لِمَاءِ النَّيْلِ حَتَّى أَصْلَحَهَا يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِيَجْرِيَ الْمَاءُ مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ.

٥ فَخَرَجُوا، وَأَقَامُوا شَهْرًا يَطُوفُونَ حَتَّى وَجَدُوا بُغْيَتَهُ، فَلَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ فَاعِلٌ وَلَا مُهَنْدِسٌ، وَلَا أَحَدٌ لَهُ بَصَرٌ بِالْبِنَاءِ وَقَطْعِ الصُّخُورِ وَنَحْتِهَا إِلَّا وَجْهٌ إِلَيْهَا، وَأَنْفَذَ أَلْفَ رَجُلٍ مِنَ الْجَيْشِ وَسَبْعَ مِائَةِ سَاحِرٍ لِمَعَاوَنَتِهِمْ، وَأَنْفَذَ مَعَهُمُ الْآلَاتِ وَالْأَزْوَادَ عَلَى الْعَجَلِ؛ وَطَرِيقَ هَذِهِ الْعَجَلِ إِلَى الْفَيْيُومِ فِي صَخْرَاءِ الْغَرْبِ وَاضِحَةٌ مِنْ خَلْفِ الْأَهْرَامِ.

فَلَمَّا تَكَامَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ نَحْتِ الْحِجَارَةِ، خَطُّوا الْمَدِينَةَ فَرَسَخِينَ فِي مِثْلِهِمَا، وَحَفَرُوا فِي /

٢٤١:٧

١٠ الْوَسْطِ بَيْتًا جَعَلُوا فِيهَا تِمْنَالًا خِنْزِيرٍ مِنْ نُحَاسٍ بِأَخْلَاطٍ، وَنَصَبُوهُ عَلَى قَاعِدَةِ نُحَاسٍ وَوَجَّهَهُ إِلَى الشَّرْقِ، وَذَلِكَ بِطَالِعِ بَيْتِ زُحَلٍ وَاسْتِقَامَتِهِ وَسَلَامَتِهِ - وَكَانَ فِي شَرْفِهِ - وَذَبَّحُوا خِنْزِيرًا، وَلَطَّخُوا التَّمْنَالِ بِدَمِهِ فِي وَجْهِهِ، وَبَخَّرُوا بِشَيْءٍ مِنْ شَعْرِهِ، وَخَشَّوْا جَوْفَهُ بِدَمِهِ وَشَعْرِهِ وَعِظَامِهِ وَلَحْمِهِ وَمَرَارَتِهِ، وَجَعَلُوا فِي أُذُنَيْهِ مِنْ مَرَارَتِهِ، وَحَرَّقُوا بَقِيَّةَ الْخِنْزِيرِ، وَجَعَلُوا رَمَادَهُ فِي قُلَّةٍ مِنْ نُحَاسٍ بَيْنَ يَدَيْ التَّمْنَالِ، وَنَقَشُوهُ بِآيَاتِ زُحَلِ.

١٥ ثُمَّ شَقُّوا فِي الْبَيْتِ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ، فِي كُلِّ جِهَةٍ سَرَبًا إِلَى حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ، وَعَمَلُوا عَلَى أَقْوَاهِهَا مَنَافِسَ تَجْذِبُ الْهَوَاءَ، وَسَدُّوا الْبَيْتَ، وَعَقَدُوا فِيهَا قُبَّةً عَلَى عُمْدٍ مَرْتَفَعَةٍ عَلَى حَيْطَانِ الْمَدِينَةِ، وَجَعَلُوا فِيهَا شَوَارِعَ يَتَّصِلُ كُلُّ شَارِعٍ بِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، وَقَصَلُوهَا بِالطَّرِيقَاتِ وَالْمَنَازِلِ، وَجَعَلُوا حَوْلَ الْقُبَّةِ تَمَائِيلَ فُرْسَانَ مِنْ نُحَاسٍ بِأَيْدِيهَا حِرَابٍ، وَوُجُوهُهَا تَجَاهَ الْأَبْوَابِ. وَجَعَلُوا أَسَاسَ الْمَدِينَةِ مِنْ حَجَرٍ أَسْوَدَ، فَوْقَهُ حَجَرٌ أَحْمَرَ، عَلَيْهِ حَجَرٌ أَضْفَرُ، مِنْ فَوْقِهِ حَجَرٌ أَخْضَرُ، وَفَوْقَ الْجَمِيعِ حَجَرٌ أَيْضُ يَشْفَى، وَكُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ بِالرَّصَاصِ الْمَصْبُوبِ بَيْنَ الْحِجَارَةِ، وَفِي قُلُوبِهَا أَعْمِدَةٌ مِنْ حَدِيدٍ عَلَى بِنَاءِ الْأَهْرَامِ.

٢٠ وَجَعَلُوا طَوْلَ حِصْنِهَا سِتِينَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ عِشْرِينَ، وَعَلَى رَأْسِ كُلِّ بَابٍ حِصْنَ بِأَعْلَاهُ عُقَابٌ كَبِيرٌ مِنْ صُفْرِ وَأَخْلَاطٍ قَدْ نَشَرَ جَنَاحَيْهِ وَهُوَ أَجْوَفٌ، وَعَلَى كُلِّ رُكْنٍ فَارِسٌ بِيَدِهِ حَرْبَةٌ وَوَجَّهَهُ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ.

٢٥ وَسَاقَ الْمَاءَ إِلَى الْبَابِ الشَّرْقِيِّ، يَتَّحَدَّرُ فِي صَبِّهِ إِلَى الْبَابِ الْغَرْبِيِّ وَيَخْرُجُ إِلَى صَهَارِيَجٍ، وَكَذَلِكَ مِنَ الْبَابِ الْجَنُوبِيِّ إِلَى الشَّمَالِيِّ، وَقَرَّبَ لِلْعُقَابِ عُقْبَانًا ذُكُورًا، وَاجْتَلَبَ الرِّيَّاحَ إِلَى أَقْوَاهِ

الثمائل ، فصارت يُسمع لها أصوات هائلة ، ووكل بها أزواجاً تمنع الدخيل إليها إلا أن يكون من أهلها .

ونصب العقاب الذي يُعبد له تحت القبّة في وسط المدينة ، على قاعدة بأربعة أركان على كل ركن وجه شيطان ، وجعلها على عمود يُديرها . فكان العقاب يدور إلى الجهات ، فيقيم في كل جهة ربع السنة .

فلما تم ذلك ، نقل إلى المدينة الأموال والجواهر التي بمصر من عهد الملوك ، والثمائل والحكم وثراب الفضة والعقاقير والسلاح ، وحول إليها كبار السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار ، وقسم المساكن بينهم ، فلا يختلط أهل صناعة بسواهم .

وعمل لها^(a) ريبضاً [يحيط بها وبني فيه منازل]^(b) لأصحاب المهن والزراعة ، وعقد على تلك الأنهار قناطر يمشي عليها الدخيل إلى المدينة ، وجعل الماء يدور حول الربض ، ونصب عليها أعلاماً وحرساً ، ثم غرس وراء ذلك مما يتصل بالبرية النخل والكرم ، وجميع أصناف الشجر على أقسام مقسومة ، ومن وراء ذلك كله مزارع الغلات من كل جهة ، كل ذلك خوفاً من الوليد .

قال : وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام ، وكان يُقيم فيها ويخرج إليها ، ثم يعود إلى منف ، وكان لها أربعة أعياد في السنة ، وهي الأوقات التي يتحول العقاب فيها .

فلما تم لعون ذلك اطمأن قلبه ، إلى أن وافى إليه كتاب الوليد من الثوبة ، يأمره بحمل الأزواد ونصب الأسواق . فوجه إليه في البر والبحر بما أراد ، وحول أهله ومن اضطفاه من بنات الملوك والكبراء إلى المدينة . فلما قرب الوليد ، خرج إليها وتحصن فيها ، واستخلف على منف .

فقدّم الوليد ، وقد سمع ما فعله عون ، فعضب وهم أن يتعت إليه جيشاً ، فعرف بخبر المدينة ومنعتها وخبر السحرة ، فكتب إليه أن يقدم عليه ، ويحذره عاقبة التخلف ؛ فأجابته : ما على الملك مني مشورة ولا تعرض ، ولا عبت في بلده لأنني عبده ، وأنا له رذء في هذا المكان من كل عدو يأتيه من الغرب ، ولا أقدر على المسير إليه لخوفي منه ، فليقرني الملك بحالي كأحد عماله ، وأوجه إليه

(a) بولاق : بها . (b) زيادة من النوري .

ما يَلْزَمُنِي مِنْ خَرَاجِهِ وَهَدَايَاهُ؛ وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِأَمْوَالٍ جَلِيلَةٍ وَجَوْهَرِ نَفِيسٍ، فَكَفَّ عَنْهُ. وَأَقَامَ الْوَلِيدُ بِمِصْرَ حَتَّى مَاتَ^١.

ذِكْرُ مَدِينَةِ الْفَيْيُومِ

أَعْلَمُ أَنَّ مَوْضِعَ الْفَيْيُومِ كَانَ مَغِيضَ مَاءِ النَّيْلِ، فَلَمَّا وَلِيَ السَّيِّدُ يُوسُفَ الصُّدَيْقَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَذْيِيرَ أُمُورِ مِصْرَ، عَمَّرَهَا^٢.

قال ابنُ وَصِيفِ شَاهٍ: ثُمَّ مَلَكَ الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَهُوَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ، وَالْقَبِيْطُ تُسَمِّيهِ نَهْرَاوَشَ - فَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ، وَكَانَ عَظِيمَ الْخَلْقِ، جَمِيلَ الْوَجْهِ، عَاقِلًا مُتَمَكِّنًا؛ فَوَعَدَ بِالْجَمِيلِ، وَأَسْقَطَ عَنِ النَّاسِ خَرَاجَ ثَلَاثِ سِنِينَ، وَفَرَّقَ الْمَالَ فِي الْخَاصِّ وَالْعَامِّ^٣. وَمَلَكَ عَلَى الْبَلَدِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ يُقَالُ لَهُ أَطْفِين^(a)، وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ أَهْلُ الْأَثَرِ: الْعَزِيزُ، فَأَمَرَ أَنْ يُنْصَبَ لَهُ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ سَرِيرٌ مِنْ فِضَّةٍ يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَيَعْدُو فِيهِ وَيَزُوحُ إِلَى بَابِ الْمَلِكِ، وَيُخْرِجُ الْعُمَّالَ وَالْكَتَّابَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَكَفَى نَهْرَاوَشَ مَا خَالَفَ سِتْرَهُ، وَقَامَ بِجَمِيعِ أُمُورِهِ، وَخَلَّاهُ لِلذُّتِّ^٤.

فَانْتَمَسَ نَهْرَاوَشَ فِي لَهْوِهِ وَلَمْ يَنْظُرْ فِي عَمَلٍ، وَلَا ظَهَرَ لِلنَّاسِ حِينًا، وَالْبَلَدُ عَامِرٌ وَهُوَ لَا يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ، وَعَمِلَ لَهُ مَجَالِسٌ مِنْ زُجَاجِ مِثْلُونٍ، وَخَوَّلَهَا مَاءً فِيهِ أَشْمَاكٌ مُفْرِطَةٌ وَيَلُورُ مِثْلُونٌ، فَكَانَ إِذَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ظَهَرَ لَهُ شُعَاعٌ عَجِيبٌ. وَعَمِلَتْ لَهُ عِدَّةٌ مُنْتَزَهَاتٍ عَلَى عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ، فَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا، وَعَمِلَ لَهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْآيِنَةِ وَالْفَرَشِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ.

(a) بعد ذلك في نهاية الأرب: وقيل في اسمه قطفير، وقيل قوطيفر، وقرأه Wiet أطفير.

^١ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١١٥-١١٩.

^٢ الفَيُومُ. من المدن المصرية القديمة ويطلق اسمها أيضًا على الإقليم وهي تقع في مصر الوسطى في الصحراء الغربية غربي النيل قرب أسبوط، يربطها بالنيل خليج المنهي المعروف ببحر يوسف وهي اليوم عاصمة محافظة الفيوم (ياقوت: معجم البلدان ٤: ٢٨٦-٢٨٨؛ مجهول المؤلف: الاستبصار ٩٠-٩١؛ ابن ممتي: قوانين ٧٩، ٢٢٩؛ القلقشندي: ٣: ٣٧٦، ٣٩٣-٣٩٤؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١٤: ٨٤-٩٤؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/ ٣: ٩٦؛ Maspero & Wiet, *Matériaux*, pp. 142-43).

^٣ النويري: نهاية الأرب ١٥: ١٢٠.

^٤ فيما تقدم ٣٨٤.

فأتصل بملوك / النواحي تُشاغله بلذته وتذبير أطفين . فسار ملك من العماليق - يُقال له أبو قابوس عاكن بن بيجوم^(a) - إلى مصر ، ونزل على حدودها ، فجهز إليه العزيز جيشاً عليه قائد يُقال له بريانس ، فأقام يُحاربه ثلاث سنين ، فظفر به العمليقي وقتله ، وهدم الأعلام والمصانع ، وقوي طمعه في البلد . فاجتمع الناس إلى قصر الملك واستغاثوا ، فخرج إليهم ، وعرض لجيوشه ، وخرج في ست مائة ألف مقاتل سوى الأتباع ، فالتقوا من وراء الحوف ، وكان بينهما قتال شديد ، فانهزم العمليقي ، وتبعه نهاروش إلى حد الشام ، وقتل خلقاً من أصحابه ، وأفسد زروعهم وأشجارهم ، وحرق وصلب ، ونصب أعلاماً على الأماكن التي وصلها ، وزبر عليها : «إني لمن يُجاوز هذا المكان بالمرصاد» .

وقيل إنه بلغ الموصل ، وضرب على أهل الشام خراجاً ، وبني عند العريش مدينة لطيفة وشحنها بالرجال . ورجع إلى مصر ، فحشد من جميع الأعمال جنوداً ، واستعد لغزو ملك الغزب ، وخرج في سبع مائة ألف ، فمر بأرض البربر ، وأجلى كثيراً منهم ، وجهز قائداً في السفن من ناحية رقودة إلى جزائر بني يافث ، فعاث فيها ، وخرج من ناحية أرض البربر ، فقتل وصالح بعضهم على مال حملوه إليه .

ومضى إلى إفريقية وقزطاجنة ، فصالحوه على مال ، ومر حتى بلغ مصب البحر الأخضر إلى بحر الروم - وهو موضع الأصنام النحاس - فأقام هناك صنماً زبر عليه اسمه وتاريخ خروجه ، وضرب على أهل تلك النواحي الخراج . وعدى إلى الأرض الكبيرة ، وسار إلى الأندلس ، فحاربه ملكها أياماً ، ثم صالحه على مال ، وأن يمنح من يغزو مصر من ناحيته . وانصرف على غير البحر مشرقاً في بلاد البربر ، فلم يمر بأمة إلا ودخلت في طاعته .

ومر في الجنوب فقتل خلقاً ، وبعث قائداً إلى مدينة على البحر الأسود ، فخرج إليه ملكها ، وذكر له حال الرهبان ومصالحه الملوك له ، فقال : ما بلغنا أحد قط . وسأله القائد عن البحر : هل ركبته أحد قط ؟ فقال : ما يقدر أحد على ركوبه ، وربما أظله غمام فلا يرى أياماً ؛ وقدم الرهبان ، فحملوا الهدايا إليه ، فأكهت أكثرها الموز ، وحجارة سوداء إذا جعلت في الماء صارت بيضاء . ثم سار الملك على أمم السودان إلى مملكة الدمدم الذين يأكلون الناس ، فخرجوا إليه عراً ، فهزمتهم وظفر بهم .

(a) بولاق : عاكر بن بخوم .

ومرَّ على البحر المظلم ، فغشيهم منه غمام ، فترجع شمالاً حتى انتهى إلى تمثالٍ من حَجَرٍ أحمر يومئ بيده : ارجعوا ، وعلى صدره مزبور : « ما ورائي أخذ » .

فسار إلى مدينة النحاس فلم يصل إليها ، ومضى إلى الوادي المظلم ، وكانوا^(a) يسمعون منه جلبة عظيمة ، ولا يرون أحداً لشدَّة ظلمته .

٥ وسار إلى وادي الرَّمْل ، فرأى على مغبره أضناماً عليها أسماء الملوك ، فأقام عليه صنماً زبر عليه اسمه ، فلما أثبت الرَّمْل جاز عليه إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود ، فرأى سباعاً يزأر بعضها على بعض ، فحكمت أنه لا مذهب له من ورائها .

فرجع وعدى وادي الرَّمْل ، ومرَّ بأرض العقارب ، فهلك بعض أصحابه ، ودفعوا عن أنفسهم

أذاها بالرقى ، وجازها إلى مدينة الحكماء - وتعرف بمدينة الكند - ففرَّوا منه إلى جبل ، فأقام عليه

١٠ أياماً حتى كاد يهلك جيشه عطشاً ؛ فنزل إليه من الجبل رجلٌ من أفاضل الحكماء ، وقد ليس

شعره جسدته ، فقال للملك : أين تريد أيها المغرور الممدود له في الأجل ، المزروق فوق الكفاية ؟

أتعبت نفسك وجيشك ، ألا اجتزأت بما تملكه ، واتكلت على خالقك ، وربحت الراحة ،

وتركت العناء والغرر بهذا الخلق ؟ فعجب من قوله ، وسأله عن الماء فدله عليه . وسأله عن

موضعهم ، فقال : موضع لا يصل إليه أحد ، ولا بلغه قبلك أحد ؛ فقال : ما عيشك ؟ قال : من

١٥ أصول النبات نقتع به ، ويكفينا اليسير . قال : فمن أين تشربون ؟ قال : من الأمطار والثلوج .

قال : فلم هربتم منا ؟ قال : زهادة في مخالطكم ، وألا فليس لنا ما نخافكم عليه ؛ قال : فكيف

بكم إذا حيمت الشمس ؟ قال : نأوي إلى غيران تحت هذا الجبل ؛ قال : فهل لكم في مالٍ أخلفه

لكم ؟ قال : إنما يريد المال أهل الترف ، ونحن لا نستعمل منه شيئاً ، استغنينا عنه بما قد اكتفينا

به ، وعندنا منه ما لو رأيت لاحتقرت ما عندك ؛ قال : فأرنيه ، فأنطلق بتقير من أصحابه إلى أرض

٢٠ في سفح جبلهم فيها قضبان ذهب نايمة ، وأراهم وادياً لهم في حافتيه حجارة زبرجد وفيروز .

فأمر نهاروش أصحابه أن يحملوا من كبار تلك الحجارة ، ففعلوا .

ورأى الحكيم جماعة الملك يصلون إلى صنم يحملونه معهم ، فسأل الملك ألا يقيم بأرضهم ،

وخوفه من عبادة الأضنام ؛ فودعه وسار ، فلم يمر بأمة إلا أثر فيها ، حتى بلغ الثوبة فصالحهم على

مال ، وأقام على دنقلة صنماً وزبر عيه اسمه ومسيره . وسار يريد مدينة منف ، فكان أهل كل

(a) بولاق : فكانوا .

مدينة من مدائن مصر يتلقونه بالفرح والسرور والرياحين والطيب إلى أن بلغ منف، فخرج أهلها إليه مع العزيز بأصناف الرياحين والطيب .

وكان العزيز قد بنى له مجلسًا من زجاج ملون، وفرشه بأحسن فرش، وعرس حوله الأشجار والرياحين، وجعل فيه بحرة^a من زجاج سماوي، وفي أرضه شبه السمك من زجاج أبيض، فنزل الملك فيه، وأقام الناس يأكلون ويشربون أيامًا كثيرة .

وتفقد جيشه، ففقد منهم سبعين ألفًا، ووجد فيهم ممن أسره نيفًا وخمسين ألفًا . فكانت / مدة غيبته عن مصر، في مسيره هذا، إحدى عشرة سنة .

فلما بلغ الملوك قدومه هائوه، واشتد بأسه وتجر، وبنى في الجانب الشرقي قصورًا من رخام، ونصب عليها أعلامًا، وأمر بالعمارة وإصلاح الجسور واستنباط الأراضي، حتى زاد الخراج على مائة ألف دينار^١ .

ودخل إلى البلد في أيامه غلام من أهل الشام اختال عليه إخوته وباعوه - وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف اليوم - فوقف الغلام ونودي عليه، وهو يوسف الصديق بن يعقوب بن إبراهيم خليل الرحمن - صلوات الله عليهم وسلامه - فاشتراه أطفين العزيز^b ليهديه إلى الملك^٢، فلما أتى به قصره رآته امرأته زليخا، وهي ابنة عمه، فقالت: اتركه لنا نربيه ليتفعلنا، ففعل^b، وكان من أمرها ما قصه الله تعالى في القرآن .

فكانت تكتم حبه حتى غلبت، فحلت به وتزيت له، وعرفته أنها تحبه، وأنه إن اتاها على ما تريده منه حبه بمال عظيم، فامتنع من ذلك . ورامت^c أن تغليه، فما زالت تُعاركه، وهو يمتنع عليها^d، إلى أن وافى زوجها، ورآه وهو هارب منها - وكان العزيز عينا لا يأتي النساء - فجعل يوسف يعتذر إليه، وقالت: إني كنت نائمة فأتاني يراودني عن نفسي . وتبين من شاهد أهلها أن الأمر من قبل امرأته، فقال ليوسف: ﴿أعرض عن هذا﴾ - أي عن اعتذارك - وقال لها: ﴿استغفري لذنبك﴾ [الآية ٢٩ سورة يوسف] .

(a) عند النوري: صهريجا . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق: ورات . (d) بولاق: ممتنع عنها .

^١ النوري: نهاية الأرب ١٥: ١٢٠-١٢٥ . ^٢ فيما يلي ١: ٣٤٦ .

وقد كان خَيْرُ أَطْفِينِ وَالغُلَامِ بَلَغَ الْمَلِكُ ، وَكَانَ نَهْرَاوَشَ عَاوَدَ الْعُكُوفَ عَلَى اللَّهْوِ وَالِاخْتِجَابِ
عَنِ النَّاسِ .

وَإِتَّصَلَ خَيْرُ زُلَيْخَا وَيُوسُفُ بِنِسَاءِ الْخَاصَّةِ ، فَعَيَّرَنَهَا بِذَلِكَ ، فَدَعَتِ جَمَاعَةً مِنْهُنَّ ، وَصَنَعَتْ
لَهُنَّ طَعَامًا وَشَرَابًا ، وَعَمِلَتْ مَجْلِسَيْنِ مُذَهَّبَيْنِ ، وَفَرَشَتْهُمَا بِدِيَّاجِ أَصْفَرٍ مُذَهَّبٍ ، وَأَزْرَحَتْ عَلَيْهِمَا
سُتُورَ الدِّيَّاجِ ، وَأَمَرَتْ الْمَوَاشِطَ بِتَزْيِينِ يُوسُفَ وَإِخْرَاجِهِ مِنَ الْمَجْلِسِ الَّذِي يُحَاذِي الْمَجْلِسَ الَّذِي
كَانَتْ مَعَ النَّسْوَةِ فِيهِ ، وَكَانَ الْمَجْلِسُ مُحَاذِيًا لِلشَّمْسِ .

فَأَخَذَتْهُ الْمَوَاشِطُ ، وَنَظَّمْنَ شَعْرَهُ بِأَصْنَافِ الْجَوَاهِرِ ، وَالْبَسْنَةَ ثَوْبَ دِيَّاجِ أَصْفَرٍ قَدْ نُسِجَ بِدَارَاتِ
حُمْرٍ مُذَهَّبَةٍ فِيهَا أَطْيَارٌ صِبْغًا خُضِرَ ، مُبْطُنٌ بِبِطَانَةِ خَضِرَاءَ ، وَمِنْ تَحْتِهِ غِلَالَةٌ حُمْرَاءَ ، وَعَلَى رَأْسِهِ
تَاجٌ قَدْ نُظِمَ بِالذَّرِّ وَالْجَوْهَرِ ، وَأَخْرَجْنَ مِنْ تَحْتِ التَّاجِ أَطْرَافَ شَعْرِهِ عَلَى جَبْهَتِهِ ، وَرَدَدْنَ ذَوَائِبَهُ
عَلَى صَدْرِهِ ، وَجَعَلْنَ جَبْهَتَهُ مَكشُوفَةً وَالتَّاجَ مُحِيطًا بِهَا ، وَفِي أُذُنَيْهِ قُرْطَيْنِ جَوْهَرٍ ، وَمِنْ خَلْفِ
طَوْقِ الْقَبَاءِ شَعْرٌ مُسْتَبَلٌ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مَنظُومٌ مُشَبَّكٌ بِالذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ ، وَفِي عُنُقِهِ طَوْقٌ مَنظُومٌ
بِذَهَبٍ ، مُشَدَّدٌ بِجَوْهَرٍ أَحْمَرَ وَدُرٍّ فَاجِرٍ ، وَفِي وَسَطِهِ مِئْطَقَةٌ ذَهَبٍ ، فِيهَا كَوَاكِبٌ^a جَوْهَرٍ مَلُونٍ ،
وَلِهَا مَعَالِيقٌ مَنظُومَةٌ ، وَالْبَسْنَةُ خُفَيْنٌ أَيْضِينَ مَنقُوشِينَ بِأَخْضَرٍ عَلَى نُقُوشِ ذَهَبٍ ، وَجَعَلْنَ لِلْقَبَاءِ
الَّذِي عَلَيْهِ وَشَاحِينَ عَلَى كَتِفَيْهِ^b وَفَرَاوِزَ يُحِيطُ بِأَسْفَلِهِ ، وَكُمِيَّةً مِنْ جَوْهَرٍ أَخْضَرَ ، وَعَقْرَبَيْنِ
صَدَعِيَّةً عَلَى خَدَيْهِ ، وَكَحْلَيْنِ عَيْنِيَّةً ، وَدَفَعْنَ إِلَيْهِ مَذْبَعَةَ شَعْرِهَا أَخْضَرَ .

فَلَمَّا فَرَغَ النِّسَاءُ مِنْ طَعَامِيهِنَّ ، وَشَرِبْنَ أَقْدَاحًا ، قَدَّمَتْ إِلَيْهِنَّ سَكَكِينَ نَضْلُهُنَّ^c مِنْ جَوْهَرٍ
لِيَقْطَعْنَ بِهَا الْفَاكِهَةَ . فَيُقَالُ إِنَّهُنَّ أَخَذْنَ أَتْرُجًا وَهِيَ يُقْطَعُ بِهَا ، إِذْ قَالَتْ لِهِنَّ : قَدْ بَلَغْنِي حَدِيثُكَ فِي
أَمْرِي مَعَ عَبْدِي ؛ فَقُلْنَ لَهَا : الْأَمْرُ كَمَا بَلَغَكَ ، لِأَنَّكَ أَعْلَى قَدْرًا مِنْ هَذَا ، وَمِثْلُكَ يَرْتَفِعُ عَنْ أَوْلَادِ
الْمُلُوكِ الْحُسْنَى وَشَرَفِكَ ، فَكَيْفَ تَرْضَيْنَ بِغُلَامِكَ ؟ فَقَالَتْ : لَمْ يَتَلْغَكَنَّ الصُّدُقُ ، وَلَا هُوَ عِنْدِي
بِهَذَا ؛ وَأَوْمَأَتْ إِلَى الْمَوَاشِطِ أَنْ يُخْرِجْنَ يُوسُفَ ، فَرَفَعْنَ السُّتُورَ عَنِ الْمَجْلِسِ الَّذِي يُحَاذِي
مَجْلِسَهَا ، وَبَرَزَ مِنْهُ يُوسُفُ مُحَاذِيًا بِوَجْهِهِ الشَّمْسِ ، فَأَشْرَقَ الْمَجْلِسُ وَمَا فِيهِ مِنْ وَجْهِ يُوسُفَ ،
وَأَقْبَلَ بِالْمَذْبَعَةِ - وَهِيَ يَرْمُقُنَهُ - فَوَقَفَ عَلَى رَأْسِ زُلَيْخَا يَدْبُ عَنْهَا . فَاشْتَغَلَ النِّسَاءُ بِرُؤْيَيْهِ ، وَجَعَلْنَ
يُقْطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ مَوْضِعَ الْفَاكِهَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُنَّ ، وَلَا يَعِينُ الْكَلَامَ ذَهُولًا مِنْهُنَّ بِمَا رَأَيْنَ مِنْ حُسْنِ
يُوسُفَ ؛ فَقَالَتْ لِهِنَّ زُلَيْخَا : مَا لَكِنَّ قَدْ اسْتَغْلَتَنَّ عَنِ خِطَابِي بِالنَّظَرِ إِلَى عَبْدِي ؟ فَقُلْنَ : مَعَاذَ اللَّهِ !

(a) بولاق : لوالب . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : مفضهن .

ما هذا عبْدك ، إن هذا إلا مَلِكٌ كريم ! ولم يَتَّقِ منهن امرأة إلا حاصت ، وأنزلت شهوة من محبته ؛ فقالت زليخا عند ذلك : فهذا الذي مُتُّني فيه ؛ فقلن : ما يَتَّبِعِي لأحد أن يلومك في هذا ، ومن لامك فقد ظلمك ، فدونكه ، قالت : قد فعَلتُ فأبى عليّ ، فخاطبته لي .

فكانت كل واحدة منهن تُخاطبه ، وتدعوه سِرًّا إلى نفسها ، وتبديل له وهو يمتنع عليها ، فإذا يكسبت منه أن يجيبها لنفسها ، فخاطبته من جهة زليخا ، وقالت : مولائك تُحبك وأنت تُكرهها ، ما يَتَّبِعِي أن تُخالِفها ، فقال : ما لي بذلك حاجة ؛ فلما رأين ذلك أجمعن على أخذه غضبا ، فقالت زليخا : لا يجوز هذا ، لكنه إن لم يفعل لأمتعه اللذات ، ولأسجنته ، وأنتزع جميع ما أعطيته ؛ فقالت يوسف : ﴿ رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [آية ٣٣ سورة يوسف] .

فأقسمت باللهما - وكان صنما من زبرجد أخضر باسم عطار - أنه إن لم يفعل لتعجلن له ذلك . ثم أمرت بنزع ثيابه ، وألبسته الصوف ، وسألت العزيز حبسه ليزول ما قدفها به ، فأمر به فحبس .

ورأى الملك في منامه كأن آتيا أتاه فقال له إن فلانا وفلانا قد عزمنا على قتلك - يُريد صاحبي طعامه وشرايه - فلما أصبح قررها ، فاعترفا له ، وقيل اعترف أحدهما وأنكر الآخر ، فأمر بحبسهما . وكان اسم صاحب الطعام « راسان » ، واسم صاحب الشراب « مرطس » .

وكان يوسف وهو في السجن ، زعوقا بمن فيه ويعدهم / الفرج ؛ فأخبره صاحبا طعام الملك وشرايه برؤياهما التي قصها الله في كتابه ، فوقع كما قصه يوسف .

ورأى الملك البقرات والسنابل ، فعرفه الساقى خبير يوسف ، فمضى إليه وقصها عليه . فلما عاد إلى الملك ، قال : جيئوني به ؛ فقال يوسف : ما أخرج ، أو يكشف أمر النسوة اللاتي من أجلهن حبست ؛ فكشف عن ذلك ، فاعترفت زليخا بالقصة .

ووجه إليه ، فأخرج وغسيل من درن السجن وألبس ما يليق بالدخول على الملوك . فلما رآه امتلا قلبه من حبه وإكباره ، وسأله عن الرؤيا ، ففسرها كما قال الله تعالى ؛ فقال الملك : ومن يقوم لي بذلك ؟ فقال : أنا . فخلع عليه خلع الملوك ، وألبسه تاجا ، وأمر أن يطاف به ، وركب الجيش معه ، وتردد إلى قصر الملك ، وجلس على سرير العزيز ، واستخلفه الملك على ملكه مكانه .

ويقال : إن العزيز أطفين كان قد مات ، فزوجته امرأته ؛ وقال لها يوسف : هذا أصلح مما أردت ؛ فقالت : اعذرني إن زوجي كان عينا ، ولم ترك امرأة إلا صبا قلبها إليك من حنينك .

وجاءت سنو خصب في مصر ، فجمع يوسف الغلال وخرزنها وأكثر منها . فلما جاءت سنو الجذب بدأ النيل في النقصان ، وكان ينقص كل سنة أكثر من التي قبلها ، فقحط البلد حتى بيع القمح بالمال والجوهر والدواب والثياب والآنية والعقار ، وكاد أهل مصر يرحلون عنها لولا تدبير يوسف .

٥ وقحط الشام أيضا ، وكان من مجيء إخوة يوسف ما قصه الله تعالى ، ووجه إلى أبيه فحميل إلى مصر وجميع أهله ، وخرج في وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك .

وكان يعقوب مهيبا^a ، فأعظمه الملك ، وسأله عن سنه وصناعته وعبادته ؛ فقال : سني عشرون ومائة سنة ، وأما صناعتي فلنا غنم ترعى نتفع بها ، وأعبد رب العالمين الذي خلقك وخلقني ، وهو إله آبائي وإلهك وإله كل شيء .

١٠ وكان في مجلس الملك كاهن جليل القدر ، فقال للملك : إني أخاف أن يكون خراب مصر على يد ولد هذا ؛ فقال له الملك : فأني لنا خبره ، فقال الكاهن ليعقوب : أرني إلهك أيها الشيخ ؛ قال : إلهي أعظم من أن يرى ، قال : فإننا نرى آلهتنا ، قال : إن آلهتكم من ذهب وفضة وججارة وجوهر ونحاس وخشب مما يعمله بنو آدم ، وهم عبيد إلهي ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ؛ قال الكاهن : إن كل شيء لا تراه العيون ليس بشيء . فغضب يعقوب وكذبه ، وقال : إن الله شيء لا كالأشياء ، وهو خالق كل شيء لا إله إلا هو . قال : فصفه لنا ؛ قال : إنما يوصف المخلوق ، لكنه خالق واحد قديم مدبر أزلي ، يرى ولا يرى .

وقام يعقوب مغضبا ، فأجلسه الملك ، وأمر الكاهن فكف عنه . فقال الكاهن : إنا نجد في كتبنا أن خراب مصر يجري على أيدي هؤلاء ؛ فقال الملك : هذا يكون في أيامنا ؟ قال : لا ، ولا إلى مدة كثيرة ، والصواب أن يقتله الملك ولا ينقي من ذريته أحدا ، فقال الملك : إن كان الأمر كما تقول فلا يمكننا أن ندفعه ، ولا نقدر على قتل هؤلاء .

٢٠ وأنزل يعقوب ومن معه بوادي السدير إلى أن مات ، فحميل إلى قرية إبراهيم - عليه السلام - ودفن عنده .

ويقال إن نهر اوش الملك آمن ، وكنتم إيمانه خوفا من فساد أمره ، وأقام ملكا مائة وعشرين سنة .

(a) بولاق : مهايا .

وفي وقته عمِلَ يُوْسُفَ الفَيُّومَ ، فَإِنَّ أَهْلَ مِصْرَ كَانُوا وَشَوْا بِهِ إِلَى الْمَلِكِ ، وَقَالُوا : قَدْ كَبِرَ وَنَقَصَ نَفْعُهُ ، فَاخْتَبِرْهُ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي وَهَبْتُ هَذِهِ النَّاحِيَةَ لِابْنَتِي - وَكَانَتْ مَغَايِضَ لِلْمَاءِ - فَذَبْرُهَا لَهَا ، فَعَمِلَهَا يُوْسُفَ ، وَاخْتَالَ لِلْمِيَاهِ حَتَّى أَخْرَجَهَا وَقَلَعَ أَذْغَالَهَا^(a) ، وَسَاقَ الْمَنْهَى وَبَنَى اللَّأْهُونَ ، وَجَعَلَ الْمَاءَ فِيهَا مَقْسُومًا مَوْزُونًا ، وَفَرَّغَ مِنْهَا فِي شُهُورٍ أَرْبَعَةٍ ، فَعَجِبُوا مِنْ حِكْمَتِهِ .

وَيُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ هَنْدَسَ بِمِصْرَ .

وَمَاتَ نَهْرَاوِشَ ، فَخَلَفَ ابْنَهُ دَرِيْمُوسَ^(b) ، وَسَمَّيْتَهُ أَهْلُ الْأَثَرِ دَارِمَ بْنَ الرَّيَّانِ ، هُوَ الْفِرْعَوْنُ الرَّابِعُ عِنْدَهُمْ ، فَخَالَفَ سُنَّةَ أَبِيهِ^١ . وَكَانَ يُوْسُفَ خَلِيفَتَهُ ، فَقَبِلَ مِنْهُ بَعْضًا ، وَخَالَفَهُ فِي الْبَعْضِ .

فَمَاتَ يُوْسُفَ فِي أَيَّامِهِ وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، فَكَفَّنَ وَجَعَلَ فِي تَابُوتٍ مِنْ رُخَامٍ ، وَدُفِنَ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ فَأُخْصِبَ وَنَقَصَ الشَّرْقِيُّ ، فَحُوِّلَ إِلَيْهِ فَأُخْصِبَ وَنَقَصَ الْغَرْبِيُّ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي الشَّرْقِيِّ عَامًا وَفِي الْغَرْبِيِّ عَامًا ، ثُمَّ حَدَّثَ لَهُمْ مِنَ الرَّأْيِ أَنْ يَجْعَلُوا لَهُ خَلْقًا وَثَاقًا وَيَشُدُّوا التَّابُوتَ فِي وَسْطِ النَّيْلِ ، فَأُخْصِبَ الْجَانِبَانِ كِلَاهُمَا^٢ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : فَمَلَكَهُمُ الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ دَوْمَغَ ، وَهُوَ صَاحِبُ يُوْسُفَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ رُؤْيَاهُ الَّتِي رَأَى وَعَبَّرَهَا يُوْسُفَ ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ فَأَخْرَجَهُ مِنَ السُّجْنِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ : أَلْقِ عَنكَ ثِيَابَ السُّجْنِ ، وَالْبِسْ ثِيَابًا جَدِّدًا ، وَقُمْ إِلَى الْمَلِكِ ، فَدَعَا لَهُ أَهْلُ السُّجْنِ ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا أَتَاهُ ، رَأَى غُلَامًا حَدَّثًا فَقَالَ : أَيَعْلَمُ هَذَا رُؤْيَايَ وَلَا تَعْلَمُهَا السَّحْرَةُ وَالْكَهَنَةُ ؟ وَأَقْعَدَهُ قُدَّامَهُ وَقَالَ لَهُ : لَا تَخَفْ ؛ قَالَ : فَلَمَّا اسْتَنْطَقَهُ وَسَأَلَهُ ، عَظُمَ فِي عَيْنَيْهِ ، وَجَلَّ أَمْرُهُ فِي قَلْبِهِ^(c) ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ خَاتَمَهُ ، وَوَلَّاهُ مَا خَلَفَ بِأَبِيهِ ، وَالْبَسَهُ طَوَاقًا مِنْ ذَهَبٍ وَثِيَابَ حَرِيرٍ ، وَأَعْطَاهُ دَابَّةً مُسْرَجَةً مُزَيَّنَةً كَدَابَّةِ الْمَلِكِ ، وَضَرَبَ بِالطُّبْلِ بِمِصْرَ أَنَّ يُوْسُفَ خَلِيفَةَ الْمَلِكِ .

وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ لِيُوْسُفَ : قَدْ سَلَطْتُكَ عَلَى مِصْرَ ، غَيْرَ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ كُرْسِيَّ أَطْوَلَ مِنْ كُرْسِيِّكَ بِأَرْبَعِ أَصَابِعَ ؛ وَأَجْلَسَهُ / عَلَى الشَّرِيرِ ، وَدَخَلَ الْمَلِكُ بَيْتَهُ مَعَ

(a) بولاق : أوحالها . (b) بولاق : ذرمجوش . (c) بولاق : وجعل إليه أمره .

^١ فيما تقدم ٣٨٤ - ٣٨٥ . ١٣ : ١٣٦ - ١٥٦ ؛ وقارن مع ابن عبد الحكم : فتوح مصر

^٢ انظر تفاصيل قصة يوسف عند النويري : نهاية الأرب ١٨ - ١٩ .

- نسائه، وفَوْضَ أَمْرَ مِصْرَ كُلِّهَا إِلَيْهِ، فَسَبَّبَ عِبَارَةَ رُؤْيَا الْمَلِكِ، مَلَكَ يُوْسُفَ مِصْرَ.
- وعن اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَشِيخَةٌ لَنَا، قَالُوا: اشْتَدَّ الْجُوعُ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ، فَاشْتَرَوْا الطَّعَامَ بِالذَّهَبِ حَتَّى لَمْ يَجِدُوا ذَهَبًا، فَاشْتَرَوْا بِالْفِضَّةِ حَتَّى لَمْ يَجِدُوا فِضَّةً، فَاشْتَرَوْا بِأَغْنَامِهِمْ حَتَّى لَمْ يَجِدُوا غَنَمًا. فَلَمْ يَزَلْ يَبِيعُهُمُ الطَّعَامَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ فِضَّةٌ وَلَا ذَهَبٌ وَلَا شَاةٌ وَلَا بَقَرَةٌ فِي تِلْكَ السَّنَتَيْنِ، فَأَتَوْهُ فِي الثَّلَاثَةِ فَقَالُوا لَهُ^(a): لَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا أَنْفُسُنَا وَأَهْلُونَا وَأَرْضُونَا، فَاشْتَرَى يُوْسُفَ أَرْضَهُمْ كُلَّهَا لِفِرْعَوْنَ، ثُمَّ أَعْطَاهُمْ يُوْسُفَ طَعَامًا يَزْرَعُونَهُ عَلَى أَنْ لِفِرْعَوْنَ الْخُمْسَ^١.
- وَيُقَالُ فِي خَبَرِ بِنَاءِ يُوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَدِينَةِ الْفَيْئُومِ: إِنَّهُ لَمَّا وَزَرَ لِفِرْعَوْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَزَلَهُ، فَقَالَ: لَمْ عَزَلْتَنِي؟ قَالَ: لَمْ أُعْزِلْكَ عَنْ رِيَّةٍ^(b)، وَلَا أَنْسَى بَرَكَتَكَ، وَلَكِنْ آبَائِي عَاهَدُوا إِلَيَّ الْأَنْتَوَلَى لَنَا وَزِيرٌ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَتَأَصَّلَ الْوَزِيرُ حَتَّى يُدْبِرَ عَلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ يُوْسُفُ: قَدْ عَلِمْتَ نَصِيحِي لَكَ حَتَّى صَيَّرْتَ دِيَارَ مِصْرَ كُلِّهَا مُلْكًا لَكَ، فَأَقْطِئْنِي أَرْضًا تَكُونُ لِقُوتِي وَقُوتِ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: اخْتَرِ حَيْثُ شِئْتَ.
- فَمَشَى يُوْسُفُ فِي قِفَارِ الْأَرْضِ، حَتَّى رَأَى أَرْضَ الْفَيْئُومِ فِيهَا جَبَلٌ حَائِلٌ بَيْنَ النَّيْلِ وَبَيْنَهَا، فَوَزَنَ مَاءَ النَّيْلِ حَتَّى رَأَى أَنَّ قَاعَهَا يَزْكِبُهُ النَّيْلُ، فَخَرَقَ خَرَقًا فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ، وَسَاقَ الْمَاءَ فِيهِ إِلَى الْفَيْئُومِ فَسَقَى الْأَرْضَ.
- وَعَمِلَ فِي جَوَانِبِ الْمَاءِ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتِينَ قَرْيَةً عَلَى عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَشَحَنَهَا بِالْغِلَالِ وَالْأَقْوَاتِ الَّتِي ازْدَرَعَهَا، فَكَانَ إِذَا نَقَصَ النَّيْلُ وَوَقَعَ الْجُوعُ بِأَرْضِ مِصْرَ، بَاعَ كُلُّ يَوْمٍ مَا جَمَعَهُ فِي قَرْيَةٍ مِنْ قَرْيِ الْفَيْئُومِ، حَتَّى مَلَكَ مِصْرَ لِنَفْسِهِ كَمَا جَمَعَهَا لِلْمَلِكِ.
- فَعَظُمَ شَأْنُ يُوْسُفَ وَكَثُرَ مَالُهُ، فَزَدَهُ الْمَلِكُ بَعْدَ مَدَّةٍ إِلَى وَزَارَتِهِ. وَتُوْفِّيَ وَهُوَ وَزِيرٌ، فَأَوْصَى بِخُرُوجِ جُثَّتِهِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَخَرَجَ بِهَا هَارُونَ بْنُ أَفْرَائِيمَ بْنِ يُوْسُفَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَهَزَمَتْهُ الْجَبَابِرَةُ فِيمَا بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَهَلَكَ أَكْثَرُ مِنْ مَعَهُ، وَعَادَ بَيْنَ بَقِيَّةِ مَعَهُ إِلَى مِصْرَ، فَأَقَامُوا بِهَا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَخَرَجَ بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ وَمَعَهُ جُثَّةُ يُوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: لرية.

^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٣-١٤.

وفي ذلك الزمان استئبطت الفيوم ، كان سبب ذلك أن يوسف لما ملك مصر ، وعظمت منزلته من فيرعون ، وجاوزت بيته مائة سنة ، قال وزراء الملك له : إن يوسف قل علمه ، وتغير عقله ، ونفدت حكيمته . فعنفهم فيرعون ، ورد عليهم مقاتتهم ، وأساء اللفظ لهم ، فكفوا .

ثم عاودوه بذلك القول بعد سنين ، فقال لهم : هلموا ما شئتم ، من أي شيء أختبره به ؟ وكان بلد الفيوم يومئذ يدعى الجوبة ، وإنما كانت لمصالة ماء الصعيد وفصوله ، فاجتمع رأيهم على أن تكون هي المحنة التي يمتحنون بها يوسف ، فقالوا لفيرعون : سل يوسف أن يصرف ماء الجوبة عنها ويخرجه منها ، فتزداد بلدا إلى بلدك ، وخراجا إلى خراجك .

فدعا يوسف فقال : تعلم مكان ابنتي فلانة مني ، وقد رأيت إذا بلغت أن أطلب لها بلدا ، وإنني لم أصيب لها إلا الجوبة - وذلك أنه بلد بعيد قريب ، لا يؤتى من وجه من الوجوه إلا من غابة أو صحراء ، وكذلك ليست هي تؤتى من ناحية من النواحي من مصر إلا من مفازة وصحراء ، فالفيوم وسط مصر كمثل مصر في وسط البلاد ، لأن مضر لا تؤتى من ناحية من النواحي إلا من صحراء أو مفازة - قال : وقد أقطعها إياها ، فلا تترك وجهها ولا نظرا إلا بلغت . فقال يوسف : نعم أيها الملك ، متى أردت ذلك فابعث إلي ، فإنني إن شاء الله فاعل ذلك ؛ قال : إن أحببه إلي وأوفقه أعجله .

فأوجي إلى يوسف أن تحفر ثلاثة خلج : خليجا من أعلى الصعيد من موضع كذا إلى موضع كذا ، وخليجا شرقيا من موضع كذا إلى موضع كذا ، وخليجا غربيا من موضع كذا إلى موضع كذا . فوضع يوسف العمال ، فحفر خليج المنهى من أعلى أشمون إلى اللاهون ، وأمر البتائين أن يحفروا اللاهون ، وحفر خليج الفيوم وهو الخليج الشرقي ، وحفر خليجا بقرية يقال لها تنهمت^(a) من قرى الفيوم وهو الخليج الغربي . فخرج ماؤها من الخليج الشرقي فصب في النيل ، وخرج من الخليج الغربي فصب في صحراء تنهمت إلى الغرب ، فلم يبق في الجوبة ماء . ثم أدخلها الفعلة ، فقطع ما كان فيها من القصب والطرفاء ، وأخرجه منها . وكان ذلك ابتداء جزى النيل ، وقد صارت أرض الجوبة أرضا^(b) نقيية برية ، وارتفع ماء النيل فدخل في رأس المنهى ، فجرى فيه حتى انتهى إلى اللاهون ، فقطعه إلى الفيوم فدخل خليجها فسقاها ، فصارت لجة من النيل .

(a) بولاق : نهمت . (b) ساقطة من بولاق .

^١ النص التالي عن ابن عبد الحكم .

وَخَرَجَ إِلَيْهَا الْمَلِكُ وَوُزَرَائِهِ - وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ فِي سَبْعِينَ يَوْمًا - فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا الْمَلِكُ قَالَ لَوُزَرَائِهِ
أَوْلَعُكَ : هَذَا عَمَلُ أَلْفِ يَوْمٍ ، فَسُمِّيَتْ الْفَيْئُومُ ، وَأَقَامَتْ تُزْرَعُ كَمَا تُزْرَعُ غَوَائِطُ مِصْرَ .

قَالَ : وَقَدْ سَمِعْتُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْفَيْئُومِ غَيْرَ هَذَا ، أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَلِكُ مِصْرَ وَهُوَ
ابن ثلاثين ، فَأَقَامَ يُدَبِّرُهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَقَالَ أَهْلُ مِصْرَ : قَدْ كَبِرَ يُوسُفُ وَاخْتَلَّ^(a) رَأْيُهُ فَعَزَلُوهُ ،
وَقَالُوا : اخْتَرْنَا لِنَفْسِكَ مِنَ الْمَوَاتِ أَرْضًا تُقَطِّعُهَا لِنَفْسِكَ وَتُضَلِّحُهَا وَتَعْمَلُ رَأْيِكَ فِيهَا ، فَإِنَّ رَأْيَنَا مِنْ
رَأْيِكَ وَحُشِنَ تَدْبِيرُكَ مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ فِي زِيَادَةِ مِنْ عَقْلِكَ ، رَدَدْنَاكَ إِلَى مُلْكِكَ ؛ فَاعْتَرَضَ الْبِرِّيَّةُ فِي
نَوَاحِي مِصْرَ ، فَاخْتَارَ مَوْضِعَ الْفَيْئُومِ ، فَأَعْطَاهَا ، فَسَقَّ إِلَيْهَا خَلِيجٌ / الْمَنْهَى مِنَ النَّيْلِ حَتَّى أَدْخَلَهُ
الْفَيْئُومَ كُلِّهَا ، وَفَرَّغَ مِنْ حَفْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي سَنَةٍ .

٢٤٦:١

قَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا عَمِلَ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ ، وَقَوِيَ عَلَى ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْفَعْلَةِ
وَالْأَعْوَانِ ، فَتَنظَرُوا فَإِذَا الَّذِي أَحْيَاهُ يُوسُفُ مِنَ الْفَيْئُومِ لَا يَعْلَمُونَ لَهُ بِمِصْرَ كُلِّهَا مِثْلًا وَلَا نَظِيرًا ،
فَقَالُوا : مَا كَانَ يُوسُفُ قَطُّ أَفْضَلَ عَقْلًا وَلَا رَأْيًا وَلَا تَدْبِيرًا مِنْهُ الْيَوْمَ ، فَزِدُوا إِلَيْهِ الْمَلِكُ ، فَأَقَامَ سِتِّينَ
سَنَةً أُخْرَى تَمَامَ مِائَةِ سَنَةٍ ، حَتَّى مَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِينَ وَمِائَةِ سَنَةٍ .

قَالَ : ثُمَّ بَلَغَ يُوسُفَ قَوْلُ وَزَرَائِهِ الْمَلِكِ وَأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ^(b) عَلَى الْحِيَنَةِ مِنْهُمْ لَهُ ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ :
عِنْدِي مِنَ الْحِكْمَةِ وَالتَّدْبِيرِ غَيْرُ مَا رَأَيْتَ ؛ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : أَنْزَلَ الْفَيْئُومَ مِنْ كُلِّ كُورَةٍ مِنْ
كُورِ مِصْرَ أَهْلَ بَيْتٍ ، وَأَمَرَ أَهْلَ كُلِّ بَيْتٍ أَنْ يَتَيْنُوا لِأَنْفُسِهِمْ قَرْيَةً - وَكَانَتْ قُرَى الْفَيْئُومِ عَلَى عَدَدِ كُورِ
مِصْرَ - فَإِذَا فَرَعُوا مِنْ بِنَاءِ قُرَاهِمَ ، صَيَّرَتْ لِكُلِّ قَرْيَةٍ مِنَ الْمَاءِ بِقَدْرِ مَا أُصْبِرُ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ ، لَا يَكُونُ فِي
ذَلِكَ زِيَادَةٌ وَلَا نَقْصٌ ، وَأُصْبِرُ لِكُلِّ قَرْيَةٍ شَرِبًا فِي زَمَانٍ لَا يَتَأَلَّهُمُ الْمَاءُ إِلَّا فِيهِ ، وَأُصْبِرُ مُطَاطِنًا لِلْمُرْتَفِعِ
وَمُرْتَفِعًا لِلْمُطَاطِنِ بِأَوْقَاتٍ مِنَ السَّاعَاتِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأُصْبِرُ لَهَا قَبْضَاتٍ ، فَلَا يَقْصُرُ بِأَحَدٍ دُونَ
حَقِّهِ ، وَلَا يُزَادُ^(c) فَوْقَ قَدْرِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : هَذَا مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

فَبَدَأَ يُوسُفُ فَأَمَرَ بِبُنْيَانِ الْقُرَى وَحَدَّدَ لَهَا حُدُودًا ، وَكَانَتْ أَوَّلَ قَرْيَةٍ عُمِّرَتْ بِالْفَيْئُومِ قَرْيَةً يُقَالُ
لَهَا شَانَةٌ^(d) ، وَهِيَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كَانَتْ تَنْزِلُهَا بِنْتُ فِرْعَوْنَ . ثُمَّ أَمَرَ بِحَفْرِ الْخَلِيجِ وَبُنْيَانِ الْقَنَاطِرِ ، فَلَمَّا
فَرَعُوا مِنْ ذَلِكَ اسْتَقْبَلَ وَزْنَ الْأَرْضِ وَوَزْنَ الْمَاءِ . وَمِنْ يَوْمَئِذٍ حَدَّثَتِ الْهِنْدَسَةُ ، وَلَمْ يَكُنِ النَّاسُ
يَعْرِفُونَهَا قَبْلَ ذَلِكَ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَاسَ النَّيْلَ بِمِصْرَ يُوسُفُ ، وَوَضَعَ مِقْيَاسًا بِمَنْفٍ^(١) .

(a) بولاق : واختلفت . (b) ساقط من بولاق . (c) بولاق : يزداد . (d) بولاق : سانه .

قال جامعُهُ : وفي التَّوراة أَنَّ فِرْعَوْنَ أَلْزَمَ بني إِسْرَائِيلَ الْبِنَاءَ وَضَرَبَ اللَّبْنَ ، فَبَتُّوا لَهُ عِدَّةَ مُدُنٍ مُحَصَّنَةٍ مِنْهَا فَيْثُومٌ وَعَزْمَسِيسُ ، قال الشَّارِحُ : هي الْفَيْثُومُ وَحَوْفُ رَمْسِيسِ .

وفي^١ زَمَانِ الرَّيَّانِ بنِ الْوَلِيدِ دَخَلَ يَعْقُوبُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَوَلَدَهُ مِصْرَ ، وَهُمْ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ نَفْسًا مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ ، فَأَنْزَلَهُمْ يُوسُفُ مَا بَيْنَ عَيْنِ شَمْسٍ إِلَى الْفَرَمَا ، وَهِيَ أَرْضٌ رَيْفِيَّةٌ بَرِيَّةٌ .

وَكَانَ يَعْقُوبُ لَمَّا دَنَا مِنْ مِصْرَ ، أَرْسَلَ يَهُودًا إِلَى يُوسُفَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ يُوسُفُ فَلَقِيَهُ فَالْتَزَمَهُ وَبَكَى . فَلَمَّا دَخَلَ يَعْقُوبُ عَلَى فِرْعَوْنَ كَلَّمَهُ - وَكَانَ يَعْقُوبُ شَيْخًا كَبِيرًا خَلِيمًا ، حَسَنَ الْوَجْهِ

وَاللُّحْيَةِ ، جَهِيرَ الصَّوْتِ - فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، كَمْ أَتَى عَلَيْكَ ؟ قَالَ : عِشْرُونَ وَمِائَةٌ . وَكَانَ بَيْنَ (a) سَاجِرِ فِرْعَوْنَ قَدْ وَصَفَ صِفَةً يَعْقُوبُ وَيُوسُفُ وَمُوسَى - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -

فِي كُتُبِهِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ خَرَابَ مِصْرَ وَهَلَاكَ أَهْلِهَا يَكُونُ عَلَى أَيْدِيهِمْ ، وَوَضَعَ الْبِرَبَايَاتِ وَصِفَاتِ مِنْ تَحْرُوبِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ . فَلَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ قَامَ إِلَى مَجْلِسِهِ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ أَنْ قَالَ : مَنْ

تَعْبُدُ أَيُّهَا الشَّيْخُ ؟ قَالَ لَهُ يَعْقُوبُ : أَعْبُدُ اللَّهَ إِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَقَالَ : فَكَيْفَ تَعْبُدُ مِنْ لَا تَرَى ؟ قَالَ يَعْقُوبُ : إِنَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ . قَالَ : فَتَحْنُ نَرَى إِلَهَتَنَا ؟ قَالَ يَعْقُوبُ : إِنَّ إِلَهَتَكُمْ مِنْ

عَمَلِ أَيْدِي بَنِي آدَمَ مِنْ يَمُوتٍ وَيَتَلَى ، وَإِنَّ إِلَهِي لِأَعْظَمُ وَأَرْفَعُ ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . فَظَنَرَ بَيْنَ (a) إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَالَ : هَذَا الَّذِي يَكُونُ هَلَاكُ بِلَادِنَا عَلَى يَدَيْهِ ، قَالَ فِرْعَوْنُ : أَفِي أَيَّامِنَا

أَوْ فِي أَيَّامِ غَيْرِنَا ؟ قَالَ : لَيْسَ فِي أَيَّامِكَ وَلَا أَيَّامِ بَنِيكَ ؛ قَالَ الْمَلِكُ : فَهَلْ تَجِدُ هَذَا فِيمَا قَضَى بِهِ إِلَهُكُمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَكَيْفَ تَقْدِرُ أَنْ تَقْتُلَ مَنْ يُرِيدُ إِلَهُهُ هَلَاكَ قَوْمِهِ عَلَى يَدَيْهِ فَلَا تَعْبَأُ بِهَذَا

الكلام ؟

وَعَنْ كَعْبِ أَنَّ يَعْقُوبَ عَاشَ فِي أَرْضِ مِصْرَ سِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِيُوسُفَ : لَا تَدْفِنِي بِمِصْرَ ، فَإِذَا مِتُّ فَاحْمِلُونِي فَادْفِنُونِي فِي مَغَارَةِ جَبَلِ حَبْرُونَ - وَحَبْرُونَ (b)

مَسْجِدُ إِبرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَيَبْنَاهُ بَيْنَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثَمَانِيَةَ عَشْرٍ مِيلاً .

(a) بولاق : بهمن . (b) بولاق : جيرون .

^١ يستمر المقرئ ابتداء من هنا في النقل عن ابن عبد الحكم .
معجم البلدان ٢ : ٢١٢ ؛ El² art. al-Khalil IV, pp. 987-94 . Sharon, M.,

^٢ عين حبرون وهي مدينة الخليل الحالية انظر ياقوت :

قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ لَطَّخُوهُ بِمُرٍّ وَصَبَّرَ، وَجَعَلُوهُ فِي تَابُوتٍ مِنْ سَاجٍ، فَكَانُوا يَفْعَلُونَ بِهِ ذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، حَتَّى كَلَّمَ يُوسُفَ فِرْعَوْنَ فَأَعْلَمَهُ أَنَّ أَبَاهُ قَدْ مَاتَ، وَأَنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يَقْبُرَهُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، فَأَذِنَ لَهُ، وَخَرَجَ مَعَهُ أَشْرَافُ أَهْلِ مِصْرَ حَتَّى دَفَنَهُ وَانْصَرَفَ.

وقيل: قَبِرَ يَعْقُوبُ بِمِصْرَ فَأَقَامَ بِهَا نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ، ثُمَّ حُمِلَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَوْصَاهُمْ بِذَلِكَ عِنْدَ مَوْتِهِ^١.

قَالَ: ثُمَّ مَاتَ الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَمَلَكَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ دَارِمُ بْنُ الرَّيَّانِ. وَفِي زَمَانِهِ تُوُفِّيَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَخْرُجُونَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ آبَائِكُمْ، فَاحْمِلُوا عِظَامِي مَعَكُمْ. فَمَاتَ فَجَعَلُوهُ فِي تَابُوتٍ وَدَفَنُوهُ فِي أَحَدِ جَانِبَيْ النَّيْلِ، فَأَخْصَبَ الْجَانِبُ الَّذِي كَانَ فِيهِ وَأَجْدَبَ الْجَانِبُ الْآخَرَ، فَحَوَّلُوهُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ فَأَخْصَبَ الْجَانِبُ الَّذِي حَوَّلُوهُ إِلَيْهِ وَأَجْدَبَ الْآخَرَ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، جَمَعُوا عِظَامَهُ فَجَعَلُوهَا فِي صَنْدُوقٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَجَعَلُوا فِيهِ سِلْسِلَةً، وَأَقَامُوا عَمُودًا عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ، وَجَعَلُوا فِي أَصْلِهِ سِكَّةً مِنْ حَدِيدٍ، وَجَعَلُوا السِّلْسِلَةَ فِي السِّكَّةِ، وَأَلْقَوْا الصَّنْدُوقَ فِي وَسْطِ النَّيْلِ، فَأَخْصَبَ الْجَانِبَانِ جَمِيعًا^٢.

وَكَانَ سَبَبُ حَمْلِ عِظَامِ يُوسُفَ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ، أَنَّ سَارِحَ^٣ ابْنَةَ أُشِيرَ بْنِ يَعْقُوبَ عُمِّرَتْ حَتَّى صَارَتْ عَجُوزًا كَبِيرَةً ذَاهِبَةَ الْبَصَرِ، فَلَمَّا سَرَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَيْنِي إِسْرَائِيلَ غَشِيَتْهُمْ ضَبَابَةٌ حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الطَّرِيقِ أَنْ يُنْصَرُوهَ، وَقِيلَ لِمُوسَى: لَنْ تَعْبُرَ إِلَّا وَمَعَكَ عِظَامُ يُوسُفَ؛ قَالَ: وَمَنْ يَذْرِي أَيْنَ / مَوْضِعُهَا؟ قَالُوا: عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ ذَاهِبَةُ الْبَصَرِ تَرَكْنَاهَا فِي الدِّيَارِ، فَرَجَعَ مُوسَى، فَلَمَّا سَمِعَتْ جِسْمَهُ، قَالَتْ: مَا رَدُّكَ؟ قَالَ: أَمِرْتُ أَنْ أُحْمَلَ عِظَامُ يُوسُفَ، قَالَتْ: مَا كُنْتُمْ لَتَعْبُرُوا إِلَّا وَأَنَا مَعَكُمْ، قَالَ: ذُلِّينِي عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ، فَذَلُّتُهُ عَلَيْهَا، فَأَخَذَ عِظَامَ يُوسُفَ مَعَهُ إِلَى التِّيهِ.

يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، أَخَذَ الْأَسْبَاطَ الْاِثْنَيْ عَشَرَ، وَوُلِدَ بِأَرْضِ كَنْعَانَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، وَرَأَى الْأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَهُ سَاجِدِينَ، وَعُغْمِرَهُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً.

(a) بولاق: سارة.

^٢ نفسه ١٨-١٩.^١ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ١٧-١٨.

وكأده إخوته على ذلك ، وباعوه من قوم مَدَنِيِّين ، فساروا به إلى مصر وباعوه لقائِد فِرْعَوْنَ . فأقام في منزله اثني عشر شهرًا ، ثم رَاوَدته امرأة العزيز عن نفسه فاعتصم ، وكذبت عليه إلى أن حُبِسَ ، ومكث في السُّجْنِ عشر سنين ، وقيل غير ذلك .

فلم يزل في السُّجْنِ إلى أن رأى السَّاقِي والحَبَّاز ذَنبَكَ المَنَامِينَ ، وفَسَّرَ لهما يُوسُفَ وخرجا ، فَأُنْسِيَ السَّاقِي يُوسُفَ سنتين ، إلى أن رأى الملكُ البَقَرَ والسَّنَائِلَ ، فذَكَرَهُ وأتاه فَقَصَّ عليه الرؤيا وَعَبَّرَهَا ، فَأُخْرِجَ من السُّجْنِ وله حينئذٍ ثلاثون سنة ، فاستوزره الملك .

ومن ذلك الوقت إلى أن صارَ يَعْقُوبَ إلى مصرِ سَبْعَ سنين ، منها سَبْعَ سنين من سني الشَّبَعِ ، وستان من سني الجُوع .

وكان ليعقوبَ في السَّنَةِ التي صارَ فيها إلى مصرِ مائة سنة وثلثون سنة ، وكان أهلُ بيته حينئذٍ سبعين نفسًا . ومنذ سارَ إلى مصرِ إلى أن وُلِدَ مُوسَى - عليه السَّلام - مائة وثلثون سنة أخرى .

فلَمَّا مَضَى له بمصرِ سبعَ عشرة سنة توفي وعمره مائة وسبع وأربعون سنة . فخافَ الأَسْبَاطُ حينئذٍ مُقَابِلَةَ يُوسُفَ إِثَاهِمَ ، فقالوا : إِنَّ أَبَاكَ أَوْصَى أَنْ تَغْفِرَ ذَنْبَ إِخْوَتِكَ ، فَإِنَّكَ وَهَمَ عبيد الله إله أهلك ، فَبَكَى يُوسُفَ وقال لهم : لا تَحْتَاجُونَ إلى ذلك ، ووَعَدَهُمَ بِخَيْرٍ تَمَّمَهُ لَهُمْ . وماتَ يُوسُفَ وله مائة سنة وعشر سنين ، والله أعلم .

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الْفَيْئُومِ وَخَلْجَانِهَا وَضِيَاعِهَا

قال اليعقوبي : كان يُقَالُ في مُتَقَدِّمِ الأَيَّامِ : مصر والفيئوم ، لجلالة الفيئوم وكثرة عمارتها ، وبها القمح الموصوف ، وبها يُعْمَلُ الخَيْشُ^١ . وحكى المسعودي أن معنى الفيئوم : أَلْفُ يَوْمٍ^٢ .

قال القضاعي : الفيئوم ، وهي مدينة دَبَّرَهَا يُوسُفُ النَّبِيُّ - عليه السَّلام - بالوحي ، وكانت ثلاث مائة وستين ضيعة ، تَمِيرُ كُلُّ ضَيْعَةٍ منها مصر يومًا واحدًا ، فكانت تَمِيرُ مصر السَّنَةَ .

وكانت تُرْوَى من اثني عشر ذراعًا ، ولا يَسْتَبْحِرُ ما زادَ على ذلك ، فَإِنَّ يُوسُفَ - عليه السَّلام - اتَّخَذَ لَهُمْ مَجْرَى ، ورَتَّبَهُ لِيُدْومَ لَهُمْ دُخُولُ المَاءِ فيه ، وقومه بالحجارة المنضدة ، وبني به اللاهون .

^١ اليعقوبي : كتاب البلدان ٣٣١ . أنه أتى على خبر الفيوم وخلجانها في «الكتاب الأوسط»

^٢ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٧٢ ؛ وأضاف المسعودي فأغنى ذلك عن إعادته في مروج الذهب .

وقال ابنُ رِضْوَانَ : الْفَيْئُومُ يُخْزَنُ فِيهِ مَاءُ النَّيْلِ ، وَيُزْرَعُ عَلَيْهِ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ ، حَتَّى إِنَّكَ تَرَى هَذَا الْمَاءَ إِذَا خُلِّيَ يَغْتَيَّرُ لَوْنُ النَّيْلِ وَطَعْمُهُ ، وَأَكْثَرُ مَا تُحَسُّ هَذِهِ الْحَالَةَ فِي الْبُحَيْرَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَيَّامِ الْقَيْظِ بِسَفَطٍ وَنَهْيًا وَصَاعِدًا إِلَى مَا يَلِي الْفَيْئُومَ ، وَهَذِهِ حَالَةٌ تَزِيدُ فِي رَدَاءَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ - يَعْنِي مِصْرَ - وَلَا سِوَا إِذَا هَبَّتْ رِيحُ الْجَنُوبِ ^١ ، فَإِنَّ الْفَيْئُومَ فِي جَنُوبِ مَدِينَةِ مِصْرَ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنْ أَرْضِهَا .

وقال القاضي السَّعِيدُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْقَاضِي الْمُؤْتَمِنِ بَقِيَّةَ الدَّوْلَةِ أَبِي عَمْرٍو عُثْمَانُ بْنُ يُوسُفِ الْقُرَشِيِّ الْخَزْرُومِيِّ فِي كِتَابِ « الْمِنْهَاجِ فِي عِلْمِ الْخَرَاجِ » : وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ مِنْ أَحْسَنِ الْأَشْيَاءِ تَدْبِيرًا ، وَأَوْسَعِهَا أَرْضًا وَأَجُودَهَا قَطْرًا ، وَإِنَّمَا غَلَبَ عَلَى بَعْضِهَا الْخَرَابُ لَخُلُوعِهَا مِنْ أَهْلِهَا ، وَاسْتِيْلَاءِ الرُّمْلِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَرْضِهَا . وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى دُسْتُورِ عَمِلِهِ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ جَعْفَرَ بْنِ الْحَسَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ ، لِذِكْرِ خُلُجَانِ الْأَعْمَالِ الْمَذْثُورَةِ وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الضِّيَاعِ . وَقَدْ أُوْرِدَتْ هَهُنَا وَإِنْ كَانَ مِنْهُ مَا قَدْ دَثَرَ ، وَمِنْهُ مَا تَغَيَّرَتْ أَسْمَاؤُهُ ، وَمِنْهُ مَا جُهَلَتْ مَوَاضِعُهُ بِالذُّثُورِ وَلَكِنْ أُوْرِدَتْهُ لِتُعْلَمَ مِنْهُ حَالُ الْعَامِرِ الْآنَ ، وَيَسْتَنْصِيءُ ^٢ بِهِ مِنْ لَهُ رَغْبَةً فِي عِمَارَةِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْغَايِمِ . وَفِي إِيرَادِهِ مَضْلِحَةٌ لِيَعْلَمَ شُرْبَ كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ مَوْضِعِهِ ^٣ . وَنُسَخَتْهُ :

« دُسْتُورُ يَشْتَمِلُ ^٤ عَلَى مَا أَوْضَحَهُ الْكَشْفُ مِنْ حَالِ الْخُلُجِ الْأُمَّهَاتِ بِمَدِينَةِ الْفَيْئُومِ ، وَمَا لَهَا مِنَ الْمَوَاضِعِ ، وَشُرْبِ كُلِّ صَيِّغَةٍ مِنْهَا ، وَرَسْمِهَا فِي السُّدِّ وَالْفَتْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّخْرِيرِ وَزَمَانَ ذَلِكَ ، عَمِلَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ .

نَبْتَدِي ، بِعَوْنِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، بِذِكْرِ حَالِ الْبَحْرِ الْأَعْظَمِ الَّذِي مِنْهُ هَذَا الْخَلِيجُ ^٥ ، فَتَذَكُرُ مَا دَتَّهُ الَّتِي صَلاَحُهُ بِصَلاَحِهَا .

٢٠ خَلِيجُ الْفَيْئُومِ الْأَعْظَمُ : يَصِلُ الْمَاءُ إِلَى هَذَا الْخَلِيجِ مِنَ الْبَحْرِ الصَّغِيرِ الْمَعْرُوفِ بِالْمَنْهَى ذِي الْحَجَرِ الْيُوسُفِيِّ ، وَفَوْقَهُ هَذَا الْبَحْرُ عِنْدَ الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِكُرْسِيِّ السَّاجِرَةِ مِنْ أَعْمَالِ الْأَشْمُونِيِّنَ ، وَمِنْهُ شُرْبُ بَعْضِ الضِّيَاعِ

(a) بولاق : ويستقصي . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : هذه الخلع .

^١ ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٦٥-١٦٦ .

الأشمونية والقَيْسِيَّة والأَهْناسِيَّة، وعلى جانبيه ضياع كثيرة شربها منه وشرب كروم ما له كروم منها.

قال: «الحَجْرُ اليُوسُفي»: والحَجْرُ اليُوسُفي جِدَارٌ مَبْنِي بالطُوب والجير المعروف عند المتقدمين بالصَّارُوج، وهو الجيرُ والزَّيْت. وبنائُه من جِهَة الشمال إلى الجنوب، ويتَّصل من نهايته من الجنوب بجِدَارٍ بناؤُه مثل بنائه، على استقامةٍ من الغرب إلى الشرق، ويحصره / ميلان منه في نهايته، وطوله مائتا ذراع بِذراع العَمَل. ويتَّصل بهذا الجِدَار، على طول ثمانين ذراعًا منه من جِهَة الغرب، نهاية الجِدَارِ الأعْظَم من الجنوب.

وفائدةُ بناء الجِدَارِ الأعْظَم، رَدّ الماء إذا انتهى إلى حُدُودِ اثني عشرة ذراعًا إلى مَدِينَةِ القَيْوم. وطُول ما يتَّصل منه الجِدَارِ الذي من جِهَة الغرب إلى الشرق، ثم يتَّصل بالمَيْل، ثم يَنْخَفِض من حُدُودِ هذا المَيْل إلى مَيْلٍ مثله يُقَابِلُه من جِهَة الشُّمال، خمسون ذراعًا. وتُبعَد ما بين هذين الميَلين - وهو المُنْخَفِض - مائة ذراعٍ وعشرة أذرع. ومِقْدَارُ المُنْخَفِضِ منه أربعة أذرع. وهذا المُنْخَفِضُ هو الذي يُسَدُّ بِجِشْرٍ من حَشِيشٍ يُسَمَّى لَمْشًا: وعَرَضُ ما يجري عليه الماء وقت النَّيْلِ^(a) - وهو مَوْضِعُ اللَّمْشِ وما قابله إلى جِهَة الشرق - أربعون ذراعًا، وعليه^(b) تجري المراكب في وقت النَّيْلِ ويحصر موضع اللمش ميلان فائدتهمَا^(b) مَسْكُ اللَّمْشِ الثاني.

ويتَّصل بهذا الميَل إلى جِهَة الشُّمال ما طوله ثلاث مائة واثنان وسبعون ذراعًا، ثم يتَّصل به - على نهاية هذا الطول - جِدَارٌ رُيَسِمٌ^(c) على استقامته إلى المشرق^(d) مبني بالحَجْر، طوله على استقامته إلى جِهَة الشرق مائة ذراع - ثم يَنْخَفِضُ أيضًا من حيث يتَّصل بهذا الجِدَارِ ما طوله عشرون ذراعًا، وقَدْرُ المُنْخَفِضِ منه ذراعان. وهذا المُنْخَفِضُ أيضًا يُسَدُّ بِجِشْرٍ حَشِيشٍ يُسَمَّى اللِّكَنْد.

وطُولُ بَقِيَّةِ الجِدَارِ إلى نهايته إلى^(e) جِهَة الشُّمال مائة وستة وثلاثون ذراعًا، وقُبَالَةَ هذا بطوله منه مُبَلَّطٌ، وفيه قَنَاطِرٌ مَبْنِيَّةٌ بالحَجْر، كانت قَدِيمًا

(a) ساقطة من بولاق. (b-b) ساقطة من بولاق. (c) بولاق: يمر. (d) بولاق: الحجر. (e) بولاق: من.

تردّ الماء إلى الفيوم من الخليج القديم الذي عنده الشدود اليوم ، وكان عليها أبواب ، وعدّتها عشر قناطر قديمة . فيكون جميع ذرع الجدار الأعظم من نهايته سبع مائة واثنين وسبعين ذراعاً بذراع العمل ، دون الجدار المعترض من الغرب إلى الشرق .

° ويمرّ هذا الجدار الأعظم من كلتا جهتيه جميعاً حتى يتصل بالجبل ، فتوجد آثاره في الغيط^(a) مروراً على غير استقامة ، وعرضه مختلف . وكلما انتهى إلى سطحه قلّ عرضه . وعرض أغلاه مع الظاهر من أسفله جميعاً ستة عشر ذراعاً . وفيه منافس يخرج منها الماء ، وهي برايق زجاج ملوّنة تشبه المينا وأزرق وسليمانى .

١٠ وهو من العجائب الحسنة في عظم البناء وإثقانه ؛ لأنه من الأئينة اللاحقة بمنارة الإسكندرية وبناء الأهرام . فمن معجزته أن النيل يمرّ عليه من عهد يوسف - عليه السلام - إلى هذه الغاية وما تغيّر عن مستقرّه .

١٥ ويدخل الماء من هذا البحر ، في هذا الزمان ، إلى مدينة الفيوم من خليجها الأعظم ، ما بين أرض الضيعة المعروفتين بدمونة واللاهون ، ومنه شرب هاتين الضيعةين وغيرهما سبخاً ، ومنه شرب كرومها بالدوايب على أعناق البقر . وإن قصر النيل عن الصعود إلى سوادها ، سقيت منه على أعناق البقر وزرعت .

وينتهى في الخليج الأعظم إلى خليج يُعرف بخليج الأواسي ، وليس عليه رسم في سدّ ولا فتح ولا تعديل .

٢٠ وينتهي إلى الضيعة المعروفة ببياض ، فيملاً بركتها وغيرها من البرك ، وللبرك مقاسم يصل إلى كلّ مقسم منها كفايته ومقدار شرب ما عليه . وينتهي إلى الضيعة المعروفة بالأوسية الكبرى ، فمنه شربها من مقسمين لها ، وبرسمها باب ، ومنه يشرب نخلها وشجرها ، وعلى هذا الحدّ طاحونة تعمل بالماء .

(a) بولاق : القيط .

ثم ينتهي إلى ثلاثة مقاسم آخرها الضيعة المعروفة بمزطينة : منها مقسم لها ، ومقسم لقبالات عدة ، والمقسم الثالث يسقي أحد أحياء النخل . وبهذا الحَي سواق وبساتين قد خربت ، وجميز دائر به . وكان بها يوت في أفنية النخل . ثم ينتهي إلى حَي ثانٍ على صفة الأول ، ثم ينتهي إلى الضيعة المعروفة بالخربة^a فيملاً بركها . وينتهي إلى ثلاثة مقاسم في صف ، وفوقها خليج مقطل ، ويشرب من هذه المقاسم عدة ضياع . ثم ينتهي الماء من هذا الخليج إلى البطس ، وهو نهايته .

وعلى الخليج الأعظم بعد هذا أباليز ، شربها منه من أفواه لها سيحا ؛ فإذا نضب النيل نصب على أفواهاها ، يرسم صيد السمك ، شبك .

ثم ينتهي الخليج الأعظم ، على يمنة من يريد الفيوم ، إلى خليج يُعرف بـ «خليج سمشطوس» منه شرب سمشطوس وغيرها ، وأباليز كثيرة تُجاوز الصخراء من المشرق منه ومن قبله ، وهي ما بين هذا الخليج وخليج الأواسي .

ثم ينتهي الخليج الأعظم أيضا إلى «خليج دهالة» ، ومنه شرب عدة ضياع ، وعليه يُزرع الأرز وغيره ، ثم ينتهي الخليج الأعظم إلى ثلاثة خلج . ثم ينتهي إلى «خليج تبتاوة» ، وبهذا الخليج ثلاثة أبواب قديمة يوسفية ، سعة كل باب منها ذراعان بذراع العمل ، ويمر فيه الماء . وينتهي أيضا إلى باين يوسفين .

ورسم هذا الخليج : أن يسد هو وسائر المطاطة على استقبال عشر تخلو من هاتور إلى سلخه ، ويفتح على استقبال كيهك إلى عشر تبقى منه ، ثم يسد إلى عشر تخلو من طوبة ، ثم يفتح لئلة الغطاس إلى سلخ طوبة ، ثم يسد على استقبال أمشير إلى عشرة تبقى منه ، ثم يفتح لعشر تبقى منه إلى عشر تخلو من برمهات ، ثم يفتح إلى عشر تخلو من برمودة ، ثم يعدل في موضعه . وقد خرب ما على بحريه من الضياع ، ويشرب منه عدة ضياع ولهذا الخليج مفيض معمول تحت الجبل بقبو يخرج منه الماء في زمان تكاثره .

(a) بولاق : بالجوبة .

ثم يَنْتَهِي الْخَلِيْجُ الْأَعْظَمُ إِلَى «خَلِيْجِ دَلَه»، وَهُوَ الْمُطَاطَةُة، وَحُكْمُهُ فِي السَّدِّ وَالْفَتْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّحْسِينِ كَمَا تَقَدَّمَ. وَهُوَ / عَلَى يَسْرَةٍ مِنْ يُرِيدُ الْمَدِيْنَةَ، وَلَهُ بَابَانِ يُوسُفِيَّانِ مَبْنِيَانِ بِالْحَجَرِ سَعَةً كُلُّ مِنْهُمَا ذِرَاعَانِ وَرُبْعٌ، وَمِنْهُ شُرْبٌ عِدَّةٌ ضِيَاعِ أُمَّهَاتٍ وَغَيْرِهَا، وَفِي وَسَطِهِ مَفِيضٌ لَزَمَانَ الْاسْتِيْحَارِ يُفْتَحُ فَيَفِيضُ الْمَاءُ إِلَى الْبِرْكَةِ الْعُظْمَى، وَفِي أَقْصَى هَذِهِ الْبِرْكَةِ أَيْضًا مَفِيضٌ لَهُ أَبْوَابٌ، يُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ حَدِيدٍ، فَإِذَا زَادَتْ فَتُحْتِ الْأَبْوَابُ فَيَمْضِي الْمَاءُ إِلَى الْغَرْبِ، وَقِيلَ إِنَّهُ يَمُرُّ إِلَى سَنْتَرِيَّةٍ.

وَكَانَ عَلَى هَذَيْنِ الْخَلِيْجَيْنِ بَسَاتِينُ وَكُرُومٌ كَثِيْرَةٌ تَشْرَبُ عَلَى أَغْنَاقِ الْبَقَرِ.

وَيَنْتَهِي الْخَلِيْجُ الْأَعْظَمُ إِلَى «خَلِيْجِ الْمَجْتُوْنَةَ»، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِعَظَمِ مَا يَصِيْرُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ. وَحُكْمُهُ فِي السَّدِّ وَغَيْرِهِ عَلَى مَا ذُكِرَ. وَمِنْهُ شُرْبٌ ضِيَاعٍ كَثِيْرَةٌ، وَبِهِ تُدَارُ طَوَاحِيْنٌ، وَإِلَيْهِ تَصِيْرُ فَضَالَاتِ مِيَاهِ الضِّيَاعِ الْقَبِيْلِيَّةِ، وَإِلَى بِرْكَةٍ فِي أَقْصَى مَدِيْنَةِ الْفَيْوْمِ تُجَاوِرُ الْجَبَلَ الْمَعْرُوفَ بِأَبِي قَطْرَانَ، وَتَلْتَقِي مَا يَنْصَبُ مِنْ فَضَالَاتِ الضِّيَاعِ الْبَحْرِيَّةِ فِيهَا وَهِيَ الْبِرْكَةُ الْعُظْمَى.

ثم يَنْتَهِي الْخَلِيْجُ الْأَعْظَمُ إِلَى «خَلِيْجِ تَلَالَه»، وَلَهُ بَابَانِ يُوسُفِيَّانِ مَبْنِيَانِ بِالْحَجَرِ، سَعَةً كُلُّ مِنْهُمَا ذِرَاعَانِ وَثَلَاثَا ذِرَاعٍ، وَلَيْسَ فِيهِ رَسْمٌ سَدِّ وَلَا فَتْحٌ وَلَا تَعْدِيلٌ وَلَا تَحْيِيْزٌ، إِلَّا فِي تَقْصِيْرِ النَّيْلِ فَإِنَّهُ يُحْيِيْزُ بِحَشِيْشٍ، وَمِنْهُ شُرْبٌ طَوَائِفِ الْمَدِيْنَةِ وَعِدَّةٌ أَرْضٍ وَضِيَاعٍ، وَفِيهِ فُوْهَةٌ خَلِيْجِ الْبَطْسِ الَّذِي تَصِيْرٌ^(a) إِلَيْهِ مَفَاضِلُ الْمِيَاهِ، وَفِيهِ أَبْوَابٌ تُسَدُّ حَتَّى يَصْعَدَ الْمَاءُ إِلَى أَرْضٍ مَرْتَفِعَةٍ بِقَدْرِ مَعْلُومٍ. وَإِذَا حَدَّثَ بِالسَّدِّ حَدَّثَ يُفْسِدُهُ، كَانَتْ التَّنْفِقَةُ عَلَيْهِ مِنَ الضِّيَاعِ الَّتِي تَشْرَبُ مِنْهُ بِقَدْرِ اسْتِحْقَاقِهَا.

ثم يَنْتَهِي الْخَلِيْجُ الْأَعْظَمُ إِلَى خُلُجَانٍ مِنْ جَانِبِيْهِ فِي قَبْلِيْهِ وَبَعْرِيْهِ.

ثم يَنْتَهِي إِلَى «خَلِيْجِ بَمُوَه»^(b)، وَهُوَ عَلَى يَمِيْنَةٍ مِنْ يُرِيدُ مَدِيْنَةَ الْفَيْوْمِ، وَهُوَ مِنَ الْمُطَاطِطَةِ، وَلَهُ بَابَانِ يُوسُفِيَّانِ سَعَةً كُلُّ مِنْهُمَا ذِرَاعَانِ وَنِصْفٌ، وَحُكْمُهُ حُكْمُ مَا تَقَدَّمَ، وَمِنْهُ شُرْبٌ طَوَائِفَ كَثِيْرَةٍ وَعِدَّةٌ ضِيَاعٍ. وَيَنْتَهِي إِلَى أَرْبَعَةٍ

(a) ساقطة من بولاق. (b) بولاق: سموة.

مَقَاسِمَ بِأَبْوَابٍ ، وَإِلَى ^(a) خَلِيجٍ فِيهِ شَاذِرَوَانٌ^١ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْمَاءُ وَيَنْتَهِي الْخَلِيجُ الْأَعْظَمُ إِلَى عِدَّةٍ ^(a) خُلُجَانٍ تَسْقِي ضِيَاعًا كَثِيرَةً ، مِنْهَا «خَلِيجُ تَبْدُودٍ» فِيهِ عَيْنٌ مَحْلُوءَةٌ ، فَإِذَا سُدَّ هَذَا الْخَلِيجُ سَقَى مِنْهَا أَرْضِي مَا جَاوَزَهَا . وَظَهَرَتْ هَذِهِ الْعَيْنُ لَمَّا غَدِمَ الْمَاءُ ، وَخَفِيَ هَذَا الْمَوْضِعُ لِيَعْمَلَ بِئْرًا ، فَظَهَرَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْعَيْنُ فَانْكُفِيَ بِهَا .

ثُمَّ يَنْتَهِي الْخَلِيجُ الْأَعْظَمُ إِلَى خُلُجَانٍ بِهَا شَاذِرَوَانَاتٌ وَمَقَاسِمٌ قَدِيمَةٌ يُوسُفِيَّةٌ . وَبِهَا أَبْوَابٌ يُوسُفِيَّةٌ لَهَا رُسُومٌ فِي السُّدِّ وَالْفَتْحِ يَشْرَبُ مِنْهَا عِدَّةٌ ^(b) ضِيَاعٍ كَثِيرَةٍ .

وَرَسُمُ الثَّرْعِ : أَنْ يُسَدَّ جَمِيعُهَا عَلَى اسْتِيقْبَالِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ تَخْلُو مِنْ هَآثِرٍ إِلَى سَلْخِهِ ، وَتُفْتَحُ عَلَى اسْتِيقْبَالِ كَيْهَتْكَ مُدَّةَ عَشْرِينَ يَوْمًا ، وَتُسَدُّ لِعَشْرِ تَبْقَى مِنْهُ إِلَى الْغِطَاسِ ، وَتُفْتَحُ يَوْمَ الْغِطَاسِ إِلَى سَلْخِ طُوبَةِ ، وَتُسَدُّ عَلَى اسْتِيقْبَالِ أَمْشِيرِ عَشْرِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ تُفْتَحُ لِعَشْرِ تَبْقَى مِنْهُ إِلَى عَشْرِينَ مِنْ بَرْمَهَاتٍ ، وَتُفْتَحُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ تَخْلُو مِنْ بَرْمُودَةٍ ، ثُمَّ تُعَدَّلُ فِيهِتَمَ بَعْمَارَتِهَا . وَلَهُمْ فِي التَّعْدِيلِ قِسْمٌ تُعْطَى مِنْهُ كُلُّ نَاحِيَةٍ شُرْبَهَا بِالْعَدْلِ ، بِقَوَانِينٍ مَعْرُوفَةٍ عِنْدَهُمْ .

وَقَدْ اخْتَصَرْتُ أَسْمَاءَ الضِّيَاعِ الَّتِي ذَكَرَهَا لِحْرَابِ أَكْثَرِهَا الْآنَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ذِكْرُ فَتْحِ الْفَيْيُومِ وَمَبْلَغِ خَرَابِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَرَاقِقِ

١٥ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : فَلَمَّا تَمَّ الْفَتْحُ لِلْمُسْلِمِينَ ، بَعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ جَرَائِدَ الْخَيْلِ إِلَى الْقُرَى الَّتِي حَوْلَهَا ، فَأَقَامَتِ الْفَيْيُومُ سَنَةً لَا يَعْلَمُ الْمُسْلِمُونَ بِمَكَانِهَا ، حَتَّى أَتَاهُمْ رَجُلٌ فَذَكَرَهَا لَهُمْ . فَأَرْسَلَ عَمْرُوٌ مَعَهُ رِبِيعَةَ بْنَ حُبَيْشِ بْنِ عَرْفُطَةَ الصَّدْفِي ، فَلَمَّا سَلَكُوا فِي الْمَجَابَةِ لَمْ يَرَوْا شَيْئًا ، فَهَمُّوا بِالْانْصِرَافِ ، فَقَالُوا : لَا تَعْجَلُوا ، سِيرُوا ، فَإِنْ كَانَ قَدْ كَذَّبَ فَمَا أَقْدَرَ كَمْ عَلَى مَا أَرَدْتُمْ . فَلَمْ يَسِيرُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَ لَهُمْ سَوَادُ الْفَيْيُومِ ، فَهَجَمُوا عَلَيْهَا ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ قِتَالٌ وَالْقُوا بِأَيْدِيهِمْ .

٢٠ قَالَ : وَيُقَالُ بَلْ خَرَجَ مَالِكُ بْنُ نَاعِمَةَ الصَّدْفِي ، وَهُوَ صَاحِبُ الْأَشْقَرِ ، عَلَى فَرَسِهِ يَنْقُضُ الْمَجَابَةَ وَلَا يَعْلَمُ لَهُ بِمَا خَلَفَهَا مِنَ الْفَيْيُومِ ، فَلَمَّا رَأَى سَوَادَهَا رَجَعَ إِلَى عَمْرُوٍ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ .

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) ساقطة من بولاق .

^١ عن الشاذروان انظر فيما يلي ٢: ٦٢ ، ٤٠٢ .

قَالَ : وَيُقَالُ بِلِ بَعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ قَيْسَ بْنَ الْحَارِثِ إِلَى الصُّعَيْدِ ، فَسَارَ حَتَّى أَتَى الْقَيْسَ فَتَزَلَّ بِهَا ، وَبِهِ سُمِّيَتِ الْقَيْسُ ^١ .

فَرَاثٌ عَلَى عَمْرُو خَبْرَهُ ، فَقَالَ رَيْعَةُ بْنُ حُبَيْشٍ : كُفَيْتَ . فَرَكِبَ فَرَسَهُ فَأَجَارَ عَلَيْهِ الْبَحْرَ - وَكَانَتْ أُنْثَى - فَأَتَاهُ بِالْخَبْرِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ أَجَارَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْفَيْيُومِ ، وَكَانَ يُقَالُ لِفَرَسِهِ الْأَعْمَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^٢ .

وَقَالَ ابْنُ الْكِنْدِيِّ فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ مِصْرَ» : وَمِنْهَا كُورَةُ الْفَيْيُومِ ، وَهِيَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُونَ قَرْيَةً دُبِّرَتْ عَلَى عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ لَا تَنْقُصُ عَنِ الرَّيِّ . فَإِنْ قَصَرَ النَّيْلُ فِي سَنَةٍ مِنَ السَّنِينَ ، مَارَ بِلَدِّ مِصْرَ كُلِّ يَوْمٍ قَرْيَةً ^٣ . وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا مَا يُنْبِئُ بِالْوَحْيِ غَيْرَ هَذِهِ الْكُورَةِ ، وَلَا بِالْدُّنْيَا بِلَدِّ أَنْفُسٍ مِنْهُ وَلَا أَنْخَصَبٌ وَلَا أَكْثَرَ خَيْرًا وَلَا أَغْزَرَ أَنْهَارًا . وَلَوْ قَائِسْنَا بِأَنْهَارِ الْفَيْيُومِ أَنْهَارَ الْبَصْرَةِ وَدِمَشْقَ ، لَكَانَ لَنَا بِذَلِكَ الْفَضْلُ .

وَلَقَدْ عَدَّدَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالْمَعْرِفَةِ مَرَافِقَ الْفَيْيُومِ وَخَيْرَهَا فَإِذَا هِيَ لَا تُحْصَى ، فَتَرَكَوْا ذَلِكَ وَعَدُّوْا مَا فِيهَا مِنَ الْمُبَاحِ - مِمَّا لَيْسَ عَلَيْهِ مِلْكٌ لِأَحَدٍ مِنْ مُسْلِمٍ وَلَا مُعَاهِدٍ يَسْتَعِينُ بِهِ الْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ - فَإِذَا هُوَ فَوْقَ السَّبْعِينَ صِنْفًا ^٤ .

وَقَالَ ابْنُ زَوْلَاقٍ فِي كِتَابِ «الدُّبِيلِ عَلَى أَمْرَاءِ مِصْرَ» لِلْكِنْدِيِّ : وَعَقَدَتْ لِكَافُورِ الْإِحْشِيدِيِّ الْفَيْيُومَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ - يَعْنِي سَنَةَ سِتِّ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ - سِتِّ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَنِيفًا وَعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ .

وَقَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ / فِي كِتَابِ «مُتَجَدِّدَاتِ الْحَوَادِثِ» ، وَمِنْ خَطِّهِ نَقَلْتُ : إِنَّ الْفَيْيُومَ بَلَغَتْ فِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ مَبْلَغَ مِائَةِ أَلْفٍ وَاثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَسَبْعَ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ دِنَانِيرٍ ^٥ . وَقَالَ الْبَكْرِيُّ : وَالْفَيْيُومُ مَعْرُوفٌ هُنَالِكَ ، يُغْلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفِي مِثْقَالٍ ذَهَبًا ^٥ .

(a) النص عند ابن الكندي : مارت كل قرية منها مصر يوماً واحداً .

^١ فيما تقدم ٥٥٦ . أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم ٢٥٢ . وانظر

^٢ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٦٩ . أيضًا ، سعيد عاشور : «الفيوم في العصور الوسطى» ، بحوث

^٣ ابن الكندي : فضائل مصر ٣٣-٣٤ . ودراسات في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧ ، ٣٢٣-

^٤ انظر فيما تقدم ٢٣٣ . ^٥ ٣٥٠ .

مَدِينَةُ النَّخْرِيَّةِ^١

كانت أَرْضًا مُقَطَّعَةً لِعَشْرَةِ مِنْ أَجْنَادِ الْحَلَقَةِ^٢ مِنْ جُمْلَتِهِمْ شَمْسُ الدِّينِ سُنُقْرُ السَّعْدِيِّ ، فَأَخَذَ قِطْعَةً مِنْ أَرْضِي زِرَاعَتِهَا ، وَجَعَلَهَا إِصْطَبًا لِلدَّوَابِّ وَخَيْلِهِ ، فَشَكَاهُ شُرَكَاءُؤُهُ إِلَى السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَهُ جَامِعًا تُقَامُ فِيهِ الْخُطْبَةُ ، فَأَذِنَ لَهُ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ .

فابتدأ عِمَارَتَهُ فِي أُخْرِيَاتِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ حَتَّى كَمُلَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ ، فَعَمِلَ لَهُ السُّلْطَانُ مِئْبَرًا ، وَأَقِيمَتْ بِهِ الْجُمُعَةُ وَاسْتَمَرَّتْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

وَأَنْشَأَ السَّعْدِيُّ حَوَانِيَتَ حَوْلِ الْجَامِعِ ، فَلَمْ تَزَلْ بِيَدِهِ حَتَّى مَاتَ . وَوَرِثَهَا ابْنَاهُ غَرْسُ الدِّينِ^(a) خَلِيلُ وَرُكْنُ الدِّينِ عُمَرُ ، فَبَاعَهَا بَعْدَ مُدَّةٍ لِلْأَمِيرِ شَيْخِ الْوَعْمَرِيِّ ، فَجَعَلَهَا مَسْجِدًا وَقَفَّهَ عَلَى الْخَائِنِكَاةِ وَالْجَامِعِ اللَّذَيْنِ أَنْشَأَهُمَا بِحُطِّ صَلِيْبَةَ جَامِعِ ابْنِ طُولُونَ خَارِجَ الْقَاهِرَةِ . فَعَمَّرَتْ هَذِهِ الْأَرْضَ بِعِمَارَةِ الْجَامِعِ ، وَسَكَنَهَا النَّاسُ ، فَصَارَتْ مَدِينَةً مِنْ مَدَائِنِ أَرْضِي مِصْرَ بَحِيثَ بَلَّغَتْ أَنْوَالَ الْقَزَازِينَ فِيهَا عِدَّةٌ كَثِيرَةٌ .

وَتَرَقَّى سُنُقْرُ السَّعْدِيِّ فِي الْخِدْمِ حَتَّى صَارَ مِنَ الْأَمْرَاءِ ، وَوَلِيَ نَقِيبَ الْمَمَالِكِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَأَنْشَأَ الْمَدْرَسَةَ السَّعْدِيَّةَ خَارِجَ الْقَاهِرَةِ قَرِيبًا مِنْ حُدْرَةِ الْبَقْرَاءِ^٣ ، فِيمَا بَيْنَ قَلْعَةِ الْجَبَلِ وَبِرْكَةِ الْفَيْلِ ، فِي سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ ، وَبَنَى أَيْضًا رِبَاطًا لِلنِّسَاءِ . وَكَانَ شَدِيدَ الرَّغْبَةِ فِي الْعِمَائِرِ ، مُجِيبًا لِلزَّرَاعَةِ ، كَثِيرَ الْمَالِ ظَاهِرَ الْغِنَى .

ثُمَّ إِنَّهُ أَخْرَجَ إِلَى طَرَابُلُسَ ، وَبِهَا مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِ مِائَةٍ^٤ .

(a) بولاق : عز الدين .

^٤ لم ترد ترجمة لسنقر السعدي سوى عند ابن حجر :

الدرر الكامنة ٢ : ٢٧٣ .

^١ انظر فيما تقدم ٦١٣ .

^٢ عن أجناد الحلقة انظر فيما يلي ٢ : ٢١٦ .

^٣ انظر فيما يلي ٢ : ٣٩٧ .

ذِكْرُ تَارِيخِ الْخَلِيقَةِ

اعلم أنه لما كانت الحوادث لا بد من ضبطها، وكان لا يُضبط ما بين العصور وبين أزمنة الحوادث إلا بالتأريخ المُستعمل العام الذي لا يُنكره الجماعة أو أكثرها، وذلك أن التأريخ المُجمَع عليه لا يكون إلا من حادثٍ عظيم يملأ ذكره الأسماع.

وكانت زيادة ماء النيل ونقصانه إنما يُعتبرهما أهل مصر ويحسبون أيامهما بأشهر القبط، وكذلك خراج أراضي مصر إنما يحسبون أوقاته بذلك، وهكذا زراعات الأراضي إنما يعتمدون في أوقاتها أيام الأشهر القبطية عادةً، وسلكوا فيها سبيل أسلافهم، واقتفوا مناهج قدامائهم - وما برح الناس من قديم الدهر أسراء العوايد - احتجج في هذا الكتاب إلى إيراد جملة من تواريخ^(a) الخليفة لتعيين موقع تاريخ القبط منها، فإن بذكر ذلك يتم الغرض.

١٠ فاقول: التأريخ عبارة عن يوم يُنسب إليه ما يأتي بعده، ويقال أيضًا: التأريخ عبارة عن مُدة معلومة، تُعد من أول زمن مفروض، لتعرف بها الأوقات المحدودة؛ ولا غنى عن التأريخ في جميع الأحوال الدنيوية والأمر الدينية؛ ولكل أمة^(b) من أمم البشر^(b) تاريخٌ تحتاج إليه في معاملاتها وفي معرفة أزمنتها، تتفرد به دون غيرها من بقية الأمم.

وأول الأوائل القديمة وأشهرها هو كون مبدأ البشر، ولأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس في كنيسته وسياسة التأريخ منه خلاف لا يجوز مثله في التواريخ. وكل ما تتعلق معرفته ببدء الخلق وأحوال القرون السالفة، فإنه مُختلط بتزويرات وأساطير، لبعد العهد وعجز المعتنى به عن حفظه. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِيَكُم نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الآية ٩ سورة إبراهيم]. فالأولى ألا يُقبل من ذلك إلا ما يشهد به كتاب أنزل من عند الله يُعتمد على صحته لم يرد فيه نسخ ولا طرفة تبديل، أو خبر يُنقله الثقات.

٢٠ وإذا نظرنا في التأريخ وجدنا فيه بين الأمم خِلافًا كبيرًا. وسأئلو عليك من ذلك ما لا أظنك تجده مجموعًا في كتاب، وأقدم بين يدي هذا القول ما قيل في مُدة بقاء الدنيا^(c).

(a) بولاق: تاريخ. (b-b) ساقطة من ظ. (c) ظ: وسأئص عليك من نيا ذلك - ومن ذلك ما قيل في مدة بقاء

الدنيا - ما لا تجده مجموعًا في غير هذا الكتاب.

ذكر ما قيل في مدة أيام الدنيا وبقائها وماضيها (a)

اعلم أن الناس قد اختلفوا قديماً وحديثاً في هذه المسألة ، فقال قوم من القدماء الأول بالأشوار والأدوار ، وهم الدهرية ، وهؤلاء هم القائلون بعود العوالم كلها على ما كانت عليه بعد ألف من السنين معدودة ؛ وهم في ذلك غالطون من جهة طول أدوار النجوم . وذلك أنهم وجدوا قوماً من الهند والفرس قد عملوا أدواراً للنجوم ليصححوا بها في كل وقت مواضع الكواكب ، وظنوا (b) أن العدد المشترك لجميعها هو عود^(c) سني العالم أو أيام العالم ، وأنه كلما مضى / ذلك العدد عادت الأشياء إلى حالها الأول . وقد وقع في هذا الظن ناس كثير مثل أبي معشر^١ وغيره ، وتبع هؤلاء خلق .

وأنت تفق على فساد هذا الظن إن كنت تخبر من العدد شيئاً ما ، وذلك أنك إذا طلبت عدداً مشتركاً بعده أعداد معلومة ، فإنك تقدر أن تضع لكل زيغ أياماً معلومة كالذي وضعه الهند والفرس ؛ فهؤلاء حيث جهلوا صورة الحال في هذه الأدوار ، ظنوا أنها عدد أيام العالم ، فتفطن ترشد .

وعند هؤلاء أن الدور هو (d) أخذ الكواكب من نقطة وهي سائرة حتى تعود إلى تلك النقطة (e) ، وأن الكور هو (f) استئناف الكواكب في أدوارها سيراً آخر إلى أن تعود إلى مواضعها مرة بعد أخرى .

وزعم أهل هذه المقالة أن الأدوار منحصرة^(g) في أنواع خمسة : الأول أدوار الكواكب السيارة في أفلاك تداويرها ؛ الثاني أدوار مراكز أفلاك التدوير في أفلاكها الحاملة ؛ الثالث أدوار أفلاكها الحاملة في فلك البروج ؛ (h) الرابع أدوار الكواكب الثابتة في فلك البروج (h) ؛ الخامس أدوار الفلك المحيط بالكل حول الأركان الأربعة .

(a) ظ : ذكر ما قيل في مدة ما مضى من أيام الدنيا وما قد بقي منها ، وفي بولاق : ... ماضيها وبقاياها . (b) الأصل وبولاق : وظنوا والتصويب من ظ . (c) بولاق وظ : عدد . (d) ظ : معنى الدور أخذ . (e) ظ : تعود إليها . (f) ظ : ومعنى الكور . (g) ظ : قد انحصرت . (h-h) ساقطة من ظ .

^١ أبو معشر انظر عنه فيما تقدم ١٨٠ هـ .

وهذه الأدوار المذكورة : منها ما يكون في كلِّ زمانٍ طَوِيلَ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، ومنها ما يكون في كلِّ زمانٍ قَصِيرَ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ . فَأَقْصَرُ هَذِهِ الْأَدْوَارِ أَدْوَارُ الْفَلَكَ الْمَحِيطِ بِالْكُلِّ حَوْلِ الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ ، فَإِنَّهُ يَدُورُ فِي كُلِّ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً دَوْرَةَ وَاحِدَةٍ . وَبَاقِي الْأَدْوَارِ يَكُونُ فِي أَزْمِنَةِ أُخْرٍ أَطْوَلُ مِنْ هَذِهِ ، لَا حَاجَةَ بِنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَى ذِكْرِهَا .

٥ قالوا : وَأَدْوَارُ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ فِي فَلَكِ الْبُرُوجِ تَكُونُ فِي كُلِّ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَحِينَئِذٍ تَنْتَقِلُ أَوْجَاتُ الْكَوَاكِبِ وَجُوزَهْرَاتِهَا إِلَى مَوَاضِعِ خَضِيضِهَا وَنُوبَهْرَاتِهَا وَبِالْعَكْسِ ، فَيُوجِبُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَوْدَ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْوَالِ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْأَشْخَاصِ وَالْأَوْضَاعِ ، بَحِيثٌ لَا يَتَخَالَفُ دَرَّةً وَاحِدَةً . وَهَمَّ مَعَ ذَلِكَ مُخْتَلِفُونَ فِي كَمِّيَّةِ مَا مَضَى مِنْ أَيَّامِ الْعَالَمِ وَمَا بَقِيَ .

١٠ فقال البراهمة من الهند في ذلك قولاً غريباً ، وهو على^(a) ما حكاه عنهم الأستاذ أبو الرِّيحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب «القانون المسعودي» ، أَنَّهُمْ يُسَمُّونَ^(b) الطَّبِيعَةَ بِاسْمِ مَلِكٍ يُقَالُ لَهُ بَرَاهِمٌ^(c) ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مُخَدَّثٌ مَخْضُورٌ الْمُدَّةُ^(d) بَيْنَ مَبْدَأِ وَأَنْتِهَاءِ ، عُمُرُهُ كَعُمُرِهَا فِي مِقْدَارِ^(e) مِائَةِ سَنَةٍ بَرَهْمِيَّةٍ ، كُلُّ سَنَةٍ مِنْهَا ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُونَ يَوْمًا ، زَمَانُ النَّهَارِ مِنْهَا بِقَدْرِ مُدَّةِ دَوْرَانِ الْأَفْلَاقِ وَالْكَوَاكِبِ لِإِثَارَةِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ^١ ، وَهَذِهِ الْمُدَّةُ بِقَدْرِ مَا بَيْنَ كُلِّ اجْتِمَاعَيْنِ لِلْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ فِي أَوَّلِ بُرْجِ الْحَمَلِ بِأَوْجَاتِهَا وَجُوزَهْرَاتِهَا ، وَمِقْدَارُهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ سَنَةٍ وَثَلَاثُ مِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ ، وَهُوَ زَمَانُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دَوْرَةَ لِلْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ ، عَلَى أَنَّ زَمَانَ الدَّوْرَةِ الْوَاحِدَةِ ثَلَاثُ مِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ وَسِتُونَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ^٢ .

وَاسْمُ هَذَا النَّهَارِ بِلُغَتِهِمْ «الْكَلْبَةُ»^(e) ، وَزَمَانُ اللَّيْلِ عِنْدَهُمْ كَزَمَانِ النَّهَارِ ، وَفِي اللَّيْلِ تُشْكِنُ الْمُتَحَرِّكَاتُ ، وَتَسْتَرِيحُ الطَّبِيعَةُ مِنْ إِثَارَةِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ ، ثُمَّ يَتَوَرَّضُ فِي مَبْدَأِ الْيَوْمِ الثَّانِي بِالْحَرَكَةِ

(a) ساقطة من بولاق . (b) البيروني : يعبرون عن . (c) الأصل وبولاق : براهيم ، والتصويب من البيروني . (d) الأصل وبولاق : الموت ، والتصويب من البيروني . (e) بولاق : الكلبه .

^١ في ظلم يرد ما نقله المقرئ هنا عن كتاب «القانون المسعودي» بل أورد النص الوارد في ٦٨٥ وأوله : وقال أصحاب الهاذرون من قدماء أهل الهند

^٢ الكلبة Kalpa كلمة سنسكريتية تعبر عن طريقة اتباعها الهند في تعليم حساب حركات الأجرام السماوية . فقد =

والتكوّن ، فيكون زمانُ اليوم بليّته من سنيّ الناس ثمانية آلاف ألف سنة وستّ مائة ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة .

فإذا ضربنا ذلك في ثلاث مائة وستين ، تبلغ سنو أيام السنّة البرّهْمويّة ثلاثة آلاف ألف سنة وعشرة آلاف ألف سنة وأربع مائة ألف ألف سنة شمسيّة ؛ فإذا ضربناها في مائة ، يتلغ عمر المَلِك الطّبيعي البرّهْموي ، من سنيّ الناس ، ثلاث مائة ألف ألف سنة وأحد عشر ألف ألف سنة وأربعين ألف ألف سنة شمسيّة . فإذا تمّت هذه السنون بطلّ العالم عن الحركة والتكوّن ما شاء الله ، ثم يستأنف من جديد على الوضع المذكور .

وقسموا زمانَ النهار المذكور إلى تسع وعشرين قطعة ، وسَمّوا كلَّ أربع عشرة قطعة منها نُوبًا ، وسَمّوا الخُمس عشرة قطعة الباقية فُصولًا ، وجعلوا كلَّ نُوبة مَحْصُورَة بين فصلين ، وكلَّ فصل مَحْصُورًا بين نُوبتين ، وقَدّموا زمانَ الفصل على النُّوبة إلى تمام المُدّة .

وزمانُ الفصل هو خُمسُ الدُّور ، والدُّور جزء من ألف جزء من المُدّة . فإذا قَسَمنا المُدّة على ألف ، تحَصّل زمانُ الدُّور أربعة آلاف ألف سنة وثلاث مائة ألف سنة وعشرين ألف سنة ، وخُمسُها - أعني زمانَ الفصل - ألف ألف سنة وسبع مائة ألف سنة وثمانية وعشرون ألف سنة . وزمانُ النُّوبة عندهم أحد وسبعون دُورًا ، يقَدّارُها من السنين ثلاث مائة ألف ألف سنة وستة آلاف ألف سنة وسبع مائة ألف سنة وعشرون ألف سنة .

وقد قَسَموا الدُّور أيضًا بأربع قطع : أوّلها أعظُمها ، وهي مُدّة الفصل المذكور ، وثانيها ثلاثة أرباع الفصل ، ومُدّتها ألف ألف سنة ومائتا ألف سنة وستة وتسعون ألف سنة ؛ وثالثها نصف الفصل ، ومُدّته ثمان مائة ألف سنة وأربعة وستون ألف سنة ؛ ورابعها رُبع الفصل ، وهو عُشر الدُّور المذكور ، ومُدّته أربع مائة ألف سنة واثنان وثلاثون ألف سنة .

ولكلِّ واحدٍ من هذه القِطَع الأربعة اسمٌ يُعرَف به ، فاسمُ القِطَعَة الرابعة عندهم «كَلْكَال» لأنّهم يزعمون أنّهم في زمانها ، وأنّ الذي مضى من عُمر المَلِك / الطّبيعي - على زعم حكيمهم

الشمسية النجومية (أي الزمان الذي تستغرقه الشمس للرجوع إلى نجم ثابت مفروض) الفائتة بين الاجتماعين الكليين تسمى كلبه Kalpa. (نلينو: علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى)، روما ١٩١١، (١٥١-١٥٢).

= زعم الهنود أن كل الكواكب غير الثابتة خلقت مجتمعة مع أوجاتها وجوزهراتها في أول برج الحمل - أي في نقطة الاعتدال الربيعي - ثم أخذت تتحرك حركات مختلفة السرعة ، وبعد ألوف ألوف أدوار تامة ستجتمع كلها ثانية هي وأوجاتها وجوزهراتها في أول الحمل . وجملة السنين

الأعظم المسمى عندهم بَرَهْمَكُوت [Brahmagupta] - ثمان سنين وخمسة أشهر وأربعة أيام .
ونحن الآن في نهار اليوم الخامس من الشهر السادس من السنة التاسعة ، ومضى من النهار
الخامس سبُّ ثوب وسبعة فصول وسبعة وعشرون دَوْرًا من النَّوْبَةِ السَّابِعَةِ ، وثلاث قطع من الدَّوْرِ
المذكور - أعني تسعة أعشاره - ومضى من القِطْعَةِ الرَّابِعَةِ - أعني من أوَّل كَلْكَالٍ إلى هلاك
شَكْكَالٍ عظيم ثلوكهم ، الواقع في آخر سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة للإسكندر - ثلاثة آلاف
سنة ومائة سنة وتسع وسبعون سنة .

وقال : إنما عَرَفْنَا هذا الزَّمان من عِلْمِ إلهي وَقَعَ إلينا من عَظَمَاءِ أَنْبِيائِنَا المتألهين برواياتهم جيلًا
بعد جيل على مَمَرِ الدُّهور والأزمان .

وزَعَمُوا أَنَّ في مَبْدَأِ كُلِّ دَوْرٍ أو فَضْلٍ أو قِطْعَةٍ أو نَوْبَةٍ تتجدد أزمِنَةُ العوالم وتنتقل من حالٍ إلى
حال ، وأنَّ الماضي من أوَّل كَلْكَالٍ إلى شَكْكَالٍ ثلاثة آلاف ومائة وتسع وسبعون سنة .
والماضي من النهار المذكور ، إلى آخر سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة للإسكندر ، ألف ألف
سنة وتسع مائة ألف سنة واثنان وسبعون ألف سنة وتسع مائة ألف سنة وسبعة
وأربعون ألف سنة ومائة سنة وسبع وسبعون سنة .

فيكون الماضي من عُمُرِ المَلِكِ الطَّبِيعِيِّ إلى آخر هذه السَّنَةِ : ستة وعشرين ألف ألف سنة
سنة وثلاث مائة ألف ألف سنة وخمسة عشر ألف ألف سنة وسبع مائة ألف ألف سنة واثنين
وثلاثين ألف ألف سنة وتسع مائة ألف سنة وسبعة وأربعين ألف سنة ومائة سنة وتسعًا وسبعين
سنة .

فإذا زدنا عليها الباقي من تأريخ الإسكندر ، بعد نُقْصَانِ السَّنِينَ المذكورة منه ، تحصل الماضي
من عُمُرِ المَلِكِ بالوقت المفروض ؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

وقال الخطأ والإيغر^(a) في ذلك قولاً أعجب من قول الهند وأغرب ، على ما نقلته من «زيج
أدوار الأنوار» ، وقد لخص هذا القول من كُتُبِ أهل الصين ، وذلك أنهم جعلوا مبادئ سنيهم
مبنيّة على ثلاثة أدوار :

الأوّل يُعرَفُ بالعشري^(b) ، مدته عشر سنين ، لكل سنة منها اسم يعرف به ؛ والثاني
يُعرَفُ بالدَّوْرِ الاثني عشري ، وهو أشهرها خصوصًا في بلاد التُّرك ، يُسمُّون سنيّه بأسماء

(a) بولاق : الخطأ والإيغر . (b) بولاق : العشر .

حيوانات بُلغَتِي الخطَا والإيغرا^١. والثالث مُرْكَب من الدُّورَيْن جَمِيعًا، ومُدَّتَه ستون سنة، وبه يُورِّخون سِنِي العَالَمِ وأَيَّامه، ويقوم عندهم مَقَام أَيَّام الأُسْبُوع عند العَرَب وغيرها. واسمُ كُلِّ سَنَةٍ منها مُرْكَب من اسْمَيْهَا في الدُّورَيْن جَمِيعًا، وكذلك كُلُّ يَوْمٍ من أَيَّام السَّنَةِ. ولهذا الدُّور ثلاثة أَسْمَاء وهي: شَانِكُون [Shank-wan]، وجُونِكُون [jûnk-wan]، وخَاوَن [Khâ-wan]، وتَصِيرُ بِحَسَبِهَا مَرَّةٌ أَعْظَم، ومَرَّةٌ أَوْسَط، ومَرَّةٌ أَصْغَر. فيُقَالُ: دَوْرُ شَانِكُون الأَعْظَم، ودَوْرُ جُونِكُون الأَوْسَط، ودَوْرُ خَاوَن الأَصْغَر.

وبهذه الأَدْوَارِ يَعْتَبِرُونَ سِنِي العَالَمِ وأَيَّامه، ومُجْمَلَتُهَا مائة وثمانون سنة، ثم تَدُور الأَدْوَارُ الثلاثة عليها مَرَّةً أُخْرَى.

وَاتَّفَقَ وَقُوعُ مَبْدَأِ الدُّورِ الأَعْظَمِ فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ من سنة ثلاثة وثلاثين وست مائة لِيَزْدَجِرْد، واسمها بَلغَتهم «كَارَه»^(a) وبلغة العرب: سنة الفأر.

وكان أَوَّلُ دُخُولِ فَرُوزْدِين^(b) هذه السَّنَةِ من سِنِي العَرَبِ يَوْمَ الخَمِيسِ، وهو بَلغَتهم تين جو [tîn-jû]^(c)، ومن هذا اليَوْمِ وعلى هذا التَّارِيخِ تَتَرْتَّبُ مَبَادِي سِنِيهِمْ وأَيَّامِهِمْ فِي المَاضِي والمُسْتَقْبَلِ.

وشهورهم اثنا عشر شهرًا، لكل شهر منها اسم بلغة الخطَا وبلغة الإيغرا، لا حاجة بنا هنا إلى ذكرها.

ويُقَسَّمُونَ اليَوْمَ الأَوَّلَ بِلَيْلَتِهِ اثني عشر قِسْمًا، كُلُّ قِسْمٍ منها يُقَالُ لَهُ جَاغ [jag]، وكل جَاغ ثمانية أَقْسَامٍ، كُلُّ قِسْمٍ منها يُقَالُ لَهُ كِه [Kah].

ويُقَسَّمُونَ اليَوْمَ بِلَيْلَتِهِ أَيضًا عَشْرَةَ آلافِ فَنَك [fank]، وكلُّ فَنَكٍ منها مائة مَيَاو [miyâu]، فيُصِيبُ كُلَّ جَاغِ ثمان مائة وثلاثة وثلاثين فَنَكًا وثُلُثَ فَنَكٍ، وكلُّ كِه مائة وأربعة أَفْنَاكٍ وسُدُسُ

(a) بولاق: كادره والأصل: كاره. (b) بولاق: فرودين. (c) الأصل: بولاق: سن جن، والتصويب من مقال Pelliot.

ونشره في نهاية الجزء الثالث من نشرته للخطط؛ وكذلك مقال بوزورث، Bosworth, C.E., *El² art. Karâ Khitay IV*, pp. 604-607. والضبط اللاتيني من مقال Pelliot.

^١ عن تاريخ الخطَا والإيغرا انظر Ideler, «Sur la chronologie de Khatâ et d'Igour» (annoté par Klaproth), *JA* (1835) I, pp. 305-48 وانظر ما كتبه Paul Pelliot حول هذا الموضوع وخص به جاستون فييت

فَنَكَ . وَيُنْسَبُونَ كُلَّ جَاغٍ إِلَى صُورَةٍ مِنَ الصُّورِ الْإِثْنَيْ عَشْرَةَ ؛ وَمَبْدَأُ الْيَوْمِ بَلَيْلَتِهِ عِنْدَهُمْ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ ، وَفِي مَنْتَصِفِ جَاغٍ كَشَكُو يَتَغَيَّرُ أَوَّلُ النَّهَارِ وَأَخْرَجَهُ بِحَسَبِ الطُّولِ وَالْقِصْرِ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ كُلَّ جَاغٍ سَاعَتَانِ مَسْتَوِيَتَانِ ، وَفِي مَنْتَصِفِ النَّهَارِ يَنْتَصِفُ جَاغٌ يُونَدُ .

وَهُمْ يَكْبِسُونَ فِي كُلِّ ثَلَاثِ سِنِينَ قَمَرِيَّةً شَهْرًا وَاحِدًا يُسَمُّونَهُ سِيُونُ ، لِيَحْفَظُوا بِالْكَبْسِ مَبَادِي سِنِي الشَّمْسِ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ مِنْ سَنَةِ أُخْرَى ، وَيَكْبِسُونَ أَحَدَ عَشْرَ شَهْرًا فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ سَنَةً قَمَرِيَّةً . وَلَا يَقَعُ عِنْدَهُمْ شَهْرُ الْكَبْسِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ بَعِينَهُ مِنَ السَّنَةِ ، بَلْ يَقَعُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا .

وَكَلُّ شَهْرٍ عِدَّةُ أَيَّامِهِ إِثْمًا ثَلَاثُونَ يَوْمًا أَوْ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا ، وَلَا يُمْكِنُ عِنْدَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مُتَوَالِيَةٍ تَامَّةً ، وَلَا أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ نَاقِصَيْنِ .

وَمَبَادِي شُهُورِهِمْ يَوْمُ الْاجْتِمَاعِ ، إِنْ وَقَعَ اجْتِمَاعُ النَّيِّزَيْنِ نَهَارًا ، فَإِنْ وَقَعَ الْاجْتِمَاعُ لَيْلًا كَانَ أَوَّلُ الشَّهْرِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ .

وَزَمَانُ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ - بِحَسَبِ أَرْصَادِهِمْ - ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةٌ وَسِتُونَ يَوْمًا ، وَأَلْفَانِ وَأَرْبَعُ مِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَثَلَاثَةُ فَنَكَا .

وَالسَّنَةُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ قِسْمًا : كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا خَمْسَةٌ عَشْرَ يَوْمًا ، وَأَلْفَانِ وَمِائَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ فَنَكَا وَخَمْسَةٌ أَسْدَاسُ فَنَكَا . وَلِكُلِّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ اسْمٌ ، وَكُلُّ سِتَّةِ أَقْسَامٍ مِنْهَا فَضْلٌ مِنْ فُضُولِ السَّنَةِ . فَاسْمُ أَوَّلِ قِسْمٍ مِنْ فُضُولِهَا لِيَجُنَ [Lijun]^a ، وَأَوَّلُهُ أَبَدًا حَيْثُ تَكُونُ الشَّمْسُ فِي سِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً مِنْ / بُرْجِ الدَّلْوِ ، وَهَكَذَا أَوَائِلُ كُلِّ فَضْلٍ إِثْمًا تَكُونُ فِي حُدُودِ أَوَائِلِ الْبُرُوجِ الثَّابِتَةِ .

وَكَانَ بَعْدَ مَدْخَلِ لِيَجُنَ^a ، مِنْ أَوَّلِ الدَّوْرِ السُّتِينِيِّ فِي السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ : أَحَدَ عَشْرَ يَوْمًا ، وَسَبْعَةَ أَلْفٍ وَسِتِّ مِائَةٍ وَسِتِينَ فَنَكَا .

وَاسْمُ مَدْخَلِهِ يِي خَاي [Yi-khây] ، وَكَانَ بَعْدَ دُخُولِ السَّنَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ بَنَحْوِ عِشْرِينَ يَوْمًا ، وَيَتَعَدُّ مَدْخَلُهُ عَنْ أَوَّلِ الدَّوْرِ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِقَدْرِ فَضْلِ سَنَةِ الشَّمْسِ عَلَى سَنَةِ الدَّوْرِ ، وَهُوَ خَمْسَةٌ أَيْامٌ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرِينَ فَنَكَا . فَإِنْ زَادَتِ الْأَيَّامُ عَلَى سِتِينَ يَوْمًا ، كَانَ الْبَاقِي بَعْدَ لِيَجُنَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَنْ أَوَّلِ الدَّوْرِ السُّتِينِيِّ .

(a) الأصل: الحن، وبولاق: الحن، والتصويب من مقال Pelliot.

ويتفاضل البعد بينها في كل سنة بقدر فضل سنة الشمس على سنة القمر التي هي ثلاث مائة وأربعة وخمسون يوماً، وثلاثة آلاف وست مائة واثان وسبعون فنكاً. ومقدار الفضل بينهما عشرة أيام، وثمانية آلاف وسبع مائة وأربعة وستون فنكاً. فإن زادت الأيام على زمان الشهر القمري الأوسط، الذي هو تسعة وعشرون يوماً وخمسة آلاف وثمان مائة وستة أفنك، نقص منها هذا العدد واحتسب بالباقي .

فإذا عرفت هذا من حسابهم، فاعلم أن عُمر العالم عندهم ثلاث مائة ألف ون [Wan] وستون ألف ون، كل ون عشرة آلاف سنة، مضي من ذلك إلى أول سنة ثلاث وثلاثين وست مائة ليزدجرد - وهي دور شانكون [Shank-wan] الأعظم - ثمانية آلاف ون وثمان مائة وثلاثة وستون ونًا وتسعة آلاف وسبع مائة وأربعون سنة، فتكون المدّة العظمى على هذا: ثلاثة آلاف ألف ألف ألف سنة وست مائة ألف ألف ألف سنة (بهذه الصّورة ٣٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) والماضي منها إلى السنّة المذكورة: ثمانية وثمانون ألف ألف سنة وست مائة ألف سنة وتسعة وثلاثون ألف سنة وسبع مائة سنة وأربعون سنة (بهذه الصّورة ٨٨٦٣٩٧٤٠)^١؛ ﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾ [الآية ١٢٣ سورة هود].

وإنما ذكرت طرفاً من حساب سيني البراهمة، وطرفاً من حساب سيني الخطا والإيغر المشتخرج من حساب الصين، ليعلم المُنصف أن ذلك لم يضعه حكماؤهم غيبًا، ولأمر ما جدع قصير أنفه .

وكم من جاهل بالثعاليم، إذا سمع أقوالهم في مدّة سيني العالم، يُدير إلى تكذيبهم من غير علم بدليلهم عليه؛ وطريق الحق أن يتوقف فيما لا يعلمه حتى يتبين أحد طرفيه فيرجحه على الآخر ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ .

وآ قال أصحاب «السند هند»^٢ - ومعناه الدهر الداهر: إن الكواكب وأوجاتها وجوزهراتها

١ بغداد سنة ١٥٤هـ/٧٧١م رجل هندي قدم على الخليفة المنصور العباسي. وكلّف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر للكتاب، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية واستخراج كتاب منه تتخذ العرب أصلًا في حساب حركات الكواكب وما يتعلق بها من الأعمال. وتولّى نقله محمد بن إبراهيم الفزاري وعمل منه زيجا اشتهر بين علماء العرب وظلوا =

١ آخر الفقرة التي ترجمها وعلّق عليها Pelliot.

٢ يلتقي نص نسخة ظ مرة أخرى مع الأصل.

٣ السند هند، حساب فلكي هندي مبني على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه براهمسپهتسّد هانت Brāhmasphutasiddhanta ألفه سنة ٦٢٨م الفلكي والرياضي الهندي برهمكبتا Brahmagupta، وجاء به إلى

تجتمع كلها في أول^(a) بُرْج الحَمَلِ ، عند كل أربعة آلاف ألف سنة وثلاث مائة ألف سنة وعشرين ألف سنة شمسية ، وعندهم أن هذه السنين هي مُدَّة العالم ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهَا إِذَا اجْتَمَعَتْ بِرَأْسِ بَرَجِ^(b) الحَمَلِ فَتَسَدَّتْ المَكُونَاتُ الثَلَاثُ الَّتِي يَحْوِيهَا عَالَمُ الكَوْنِ وَالفَسَادُ ، المُعْبَّرُ عَنْه بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالمَكُونَاتُ الثَلَاثُ هِيَ^(c) : المَعْدِنُ وَالنَّبَاتُ وَالحَيَوَانَ ، قالوا^(d) : إِذَا فَتَسَدَّتْ بَقِي العَالَمِ السُّفْلِيِّ خَرَابًا ذَهْرًا طَوِيلًا إِلَى أَنْ تَتَفَرَّقَ الكَوَاكِبُ وَالأَوْجَاتُ وَالجُوزَهْرَاتُ فِي بُرُوجِ الفَلَكِ ، إِذَا تَفَرَّقَتْ فِيهَا بَدَأَ الكَوْنُ بَعْدَ الفَسَادِ ، فَعَادَتْ أَحْوَالُ العَالَمِ السُّفْلِيِّ إِلَى الأَمْرِ الأَوَّلِ ، وَهَذَا يَكُونُ عَوْدًا بَعْدَ بَدْءٍ إِلَى غَيْرِ نِهَائِيَّةٍ .

قالوا^(e) : وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الكَوَاكِبِ وَالأَوْجَاتِ وَالجُوزَهْرَاتِ عِدَّةٌ أَذْوَارٍ فِي هَذِهِ المُدَّةِ ، يَدُلُّ كُلُّ دَوْرٍ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ مِنَ المَكُونَاتِ ، كَمَا هُوَ مَذْكَورٌ فِي كُتُبِهِمْ ، نَمَّا لَا حَاجَةَ بِنَا هُنَا إِلَى ذِكْرِهِ ، وَهَذَا القَوْلُ مُنْتَرَعٌ مِنْ قَوْلِ البِرَاهِمَةِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

⁽¹⁾ وَقَالَ أَصْحَابُ الهَاذِرَوَانَ مِنْ قُدَمَاءِ الهِنْدِ^١ : إِنَّ كُلَّ ثَلَاثِ مِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ وَسِتِّينِ أَلْفِ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ يَهْلِكُ العَالَمُ بِأَسْرِهِ ، وَيَبْقَى مِثْلُ هَذِهِ المُدَّةِ ، ثُمَّ يَعُودُ بَعَيْنُهُ وَيَعْقِبُهُ البَدَلُ ، وَهَكَذَا أَبَدًا يَكُونُ الحَالُ لَا إِلَى نِهَائِيَّةٍ .

قالوا : وَمَضَى مِنْ أَيَّامِ العَالَمِ المَذْكُورَةِ إِلَى طُوفَانِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِائَةُ أَلْفٍ وَثَمَانُونَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ ، وَمَضَى مِنَ الطُّوفَانِ إِلَى سَنَةِ الهِجْرَةِ المَحْمُودِيَّةِ ثَلَاثَةُ أَلْفٍ وَسَبْعُ مِائَةٍ وَثَلَاثَ وَعِشْرُونَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَأَيَّامٍ ، وَبَقِيَ مِنَ سِنِي العَالَمِ حَتَّى يَبْتَدِئُ وَيَقْنَى مِائَةُ أَلْفٍ وَبِضْعِ وَسَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ ، أَوَّلُهَا تَارِيخُ الهِجْرَةِ الَّذِي يُورِّخُ بِهِ أَهْلُ الإِسْلَامِ^(f) .

(a) ظ : رأس . (b) الأصل ويولاق : وهذه مدة سني العالم . قالوا : وإذا جمعت برأس الحمل . (c) الأصل ويولاق : وهذه المكونات هي . (d) زيادة من ظ . (e) ظ : ويزعمون أن . (f-f) هذه الفقرة وردت في ظ موضع النص المطول المنقول عن القانون المسعودي للبيروني .

= يعملون به إلى أيام المأمون عندما بدأ في الانتشار مبدأ بطليموس في الحساب والجداول الفلكية . ولفظ بيدماتت معناه بالسنسكريتية : معرفة وعلم ومذهب ، فيكون معنى الكتاب الأصلي «كتاب الهيئة المصحح المنسوب إلى برهم» وحذف العرب ثلثي اللفظ مقتصرين على الثلث الأخير وهو سد هنت ثم تحولت تحت تأثير الاشتقاق الشعبي إلى «السندهند» الذي تنعكس فيه التسمية العربية لشطري الهند : الهند والسند . وسماه بعض المتأخرين «السندهند الكبير» تمييزاً له عن كتاب «السندهند» الذي أُلّفه في عهد المأمون ، محمد بن موسى الخوارزمي . (نللينو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، ١٤٩-١٥٢ ، ٣٥١ ؛ كرتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٧٧-٧٩ ؛ Pimgree, P. El² art. Sinhind IX, p. 665-66) ، وذكر المسعودي في أخبار الزمان ٩ أن كتاب السندهند هو الذي عمل عنه المجسطي وغيره من الزيجات .^١ الهازرزان . هو مدة ستة وثلاثين ألف سنة مضروبة =

وقال أصحاب الأرجب^(a) ١: مُدَّةُ الْعَالَمِ، الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا الْكَوَاكِبُ بِرَأْسِ بَرَجٍ^(b) الْحَمَلِ هِيَ وَأَوْجَاتُهَا وَجَوَازِرُهَا، جُزْءٌ مِنْ أَلْفِ جُزْءٍ مِنْ مُدَّةِ السُّنْدِ هِنْدٍ، وَهَذَا أَيْضًا مُنْتَزَعٌ مِنْ قَوْلِ الْبَرَاهِمَةِ^٢.

وقال أَبُو مَعْشَرَ^٣ وَابْنُ نُوبَخْتِ^٤: إِنَّ بَعْضَ الْفُرسِ يَرَى أَنَّ عُمَرَ الدُّنْيَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ سَنَةٍ بَعْدَ الْبُرُوجِ، لِكُلِّ بُرْجٍ أَلْفَ سَنَةٍ. فَكَانَ ابْتِدَاءُ أَمْرِ الدُّنْيَا فِي أَوَّلِ أَلْفِ الْحَمَلِ، لِأَنَّ الْحَمَلَ وَالْقُورَ وَالْجَوَازِيَ تُسَمَّى أَشْرَفَ الشَّرَفِ، وَيُنْسَبُ إِلَى الْحَمَلِ الْفَضْلُ، وَفِيهَا تَكُونُ الشَّمْسُ فِي شَرَفِهَا وَعُلُوُّهَا وَطُولُ نَهَارِهَا، وَلِذَلِكَ الدُّنْيَا كَانَتْ إِلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ عَلْوِيَّةَ رُوحَانِيَّةَ طَاهِرَةٍ.

وَلِأَنَّ السَّرَطَانَ وَالْأَسَدَ وَالسُّنْبُلَةَ مُنْتَقِصَةٌ، فَإِنَّ الشَّمْسَ تَنْحَطُّ مِنْ عُلُوِّهَا فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ السَّرَطَانَ، وَكَانَ قَدْرُ الدُّنْيَا وَأَبْنَائِهَا مُنْحَطًّا فِي الثَّلَاثَةِ الْآلَافِ الثَّانِيَةِ. وَلِأَنَّ الْمِيزَانَ أَهْبَطَ الْهَبُوطِ وَبَثَرَ الْآبَارَ وَضَدَ الْبُرْجِ الَّذِي فِيهِ شَرَفُ الشَّمْسِ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَصَابَتِ الدُّنْيَا وَاسْتَسَبَّ أَهْلُهَا الْمَعْصِيَةَ، وَالْمِيزَانَ وَالْعَقْرَبَ وَالْقَوْسَ إِذَا نَزَلَتْهَا الشَّمْسُ لَمْ تَزِدْ إِلَّا انْحِطَاطًا وَالْأَيَّامَ إِلَّا نُقْصَانًا؛ / فَلِذَلِكَ دَلَّتْ عَلَى الْبَلَايَا وَالضُّيُوقِ وَالشَّدَّةِ وَالشَّرِّ.

(a) ظ وبولاق: الأرجهير. (b) زيادة من ظ: المطول المقول عن القانون المسعودي للبيروني.

^٢ بعد ذلك في نسخة الظاهرية (ظ): وقال أصحاب الأركيز من قدماء الهند خلاف ذلك. وهذه كلها أقوال لا دليل عليها ولا مستند لقائلها إلا تقليد قدماء الصابئة. وأما أقول أهل الإسلام... ثم انتقل بعد ذلك إلى ما جاء هنا فيما يلي نهاية ١: ٢٥٦.

^٣ أبو معشر انظر عنه فيما تقدم ١٨٠ هـ.

^٤ ابن نوبخت، هو أبو سهل الفضل بن نوبخت فارسي الأصل، كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد، اعتمد في علمه على كتب الفرس ونقل الكثير من الكتب من الفارسية إلى العربية (ابن النديم: الفهرست ٣٣٣؛ القفطي: تاريخ الحكماء ٢٥٥).

= في اثني عشر ألف عام (المسعودي: مروج الذهب ١: ٨٥-٨٦، التنبيه والإشراف ٢٠١، ٢٢١).

^١ أَرَيْبَهُطَ Aryabhata أحد حكماء الهند سماه العرب الأَرْجَبِيرَ، وعرف نظام الحساب الذي توصل إليه باسم سني الأَرْجَبِيرِ أو أيام الأَرْجَبِيرِ، وزعم بعض العرب القدماء أن الأَرْجَبِيرِ اسم الجزء من ألف جزء من سني السندهند أو اسم كتاب مستخرج من كتاب السندهند. وجعل أصحاب الأَرْجَبِيرِ سني عالمهم أربع مائة ألف واثني وثلاثين ألف سنة. (المسعودي: التنبيه والإشراف ٢٢٠، مروج الذهب ١: ٨٥؛ البيروني: الآثار الباقية ٢٥؛ مطهر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ ٢: ١٤٦؛ نلينيو: علم الفلك ١٥٣-١٥٤).

وحيث تبلغ الآلاف إلى أول الجدي الذي فيه أول ارتفاع الشمس وإشراقها على شرفها ، وفيه تزداد الأيام طولاً ، والدُّلُو والحوت اللذان تزداد الشمس فيهما صعوداً حتى تصل لشرفها ، فيندل على ظهور الخير وضعف الشر ، وثبات الدين والعقل ، والعمل بالحق والعدل ، ومعرفة فضل العلم والأدب في تلك الثلاثة الآلاف سنة .

- ٥ وما يكون في ذلك فعلى قدر صاحب الألف والمائة والعشرة ، وعلى حسب اتفاق الكواكب في أول سلطان صاحب الألف . فلا يزال ذلك في زيادة حتى يعود أمر الدنيا في آخرها إلى مثل ما كان عليه ابتدائها وهي في ألف الحمل .
- ١٠ وكلما تقارب آخر كل ألف من هذه الألف ، اشتد الزمان وكثرت البلايا ، لأن أوامر البرج في حدود النحوس ، وكذلك في آخر المعين والعشرات ، فعلى هذا الانقضاء للدنيا إذا كان الزمان يعود إلى الحمل كما بدأ أول مرة .

- ١٥ وزعموا أن ابتداء الخلق بالتحرك ، كان والشمس في ابتداء المسير : فدار الفلك ، وجرت المياه ، وهبت الرياح ، واتقدت النيران ، وتحرك سائر الخلائق بما هم عليه من خير وشر . والطالع تلك الساعة تسع عشرة درجة من برج السرطان وفيه المشتري ، وفي البيت الرابع الذي هو بيت العافية ، وهو برج الميزان ، زحل ، وكان الذئب في القوس ، والمريخ والجدي والزهرة وعطارد في الحوت ، ووسط السماء برج الحمل ، وفي أول دقيقة منه الشمس ، وكان القمر في الثور وفي بيت السعادة ، وكان الرأس في برج الجوزاء وهو بيت الشقاء .

وفي تلك الدقيقة من الساعة كان استقبال أمر الدنيا ، فكان خيرها وشرها وانحطاطها وارتفاعها وسائر ما فيها ، على قدر مجاري البروج والنجوم وولاية أصحاب الألف وغير ذلك من أحوالها .

- ٢٠ ولأن المشتري كان في السرطان في شرفه ، وزحل في الميزان في شرفه ، والمريخ والشمس والقمر في إشراقها ، دلت على كائنة جليلة ، فكان نشو العالم .
- وانتبرز زحل فتولى الألف هو والميزان ، وكان المشتري في الطالع مقبولاً ، وكذلك جميع الكواكب كانت مقبولة ، فدل على نماء العالم وحسن نشوه .
- ٢٥ وكان زحل هو المستولي والعالي في الفلك والبرج طويل المطالع ، فطالت أعمار تلك الألف ، وقويت أبدانهم ، وكثرت مياههم .

وكون الميزان تحت الأرض ، دل على خفاء أول حدوث العالم ، وعلى أن أهل ذلك الزمان ينظرون في عمارة الأرضين وتشديد البنيان .

ثم ولي الألف الثاني العقرب والمريخ، وكان في الطالع المريخ، فدل على القتل في ذلك الألف، وسفك الدماء والسبي والظلم والجور والخوف والهَم والأحزان والفساد وجور الملوك. وولي الألف الثالث القوس، وشاركه عطارد والزهرة بطلوعهما، وكان الذنب في القوس: فدل المشتري على النجدة في تلك الألف والشدة والجلد والبأس والرياسة والعدل، وتقسيم الملوك الدنيا وسفك الدماء بسبب ذلك؛ ودلت الزهرة على ظهور ثبوت العبادة وعلى الأنبياء؛ ودل عطارد على ظهور العقل والأدب والكلام. وكَوْن البُرج مُنْقَلِبًا، دل على انقلاب الخير والشر في تلك الألف مرّات، وعلى ظهور ألوان من آيات الحق والعدل والجور.

ثم ولي الألف الرابع الجدي - وكان فيه المريخ - فدل على ما كان في تلك الألف من إهراق الدماء، ودلت الشمس على ظهور الخير والعلم ومعرفة الله تعالى وعبادته وطاعته وطاعة أنبيائه، والرغبة في الدين مع الشجاعة والجلد. وكَوْن البُرج مُنْقَلِبًا هو والبُرج الذي فيه الشمس، دل على انقلاب ذلك في آخرها، وظهور الشر والتفريق والغشم^(a) والقتل وسفك الدماء والغضب في أصناف كثيرة، وتحوّل ذلك وتلّونه. وكَوْن الجدي مُنْحَطًا، دل على أنه يظهر في آخر تلك الألف الجنس^(b) الشبيه بصفة زحل والمريخ، وانقطاع العظماء والحكماء وبوارهم، وارتفاع السفلة، وخراب العامر، وعمارة الخراب، وكثرة تلّون الأشياء.

وولي الألف الخامس الدلو بطلوع القمر - وكان القمر في الثور - فدل الدلو لبرودته وعشره على سقوط العظماء وعطلة أمرهم، وارتفاع السفلة والعبيد، ومحمدة البخلاء، وظهور الجنس^(c) الأسود والسواد، وعلى كثرة التفتيش والتفكر وظهور الكلام في الأديان ومحبة الخصومات. وكَوْن القمر في شرفه يدل على قهر الملوك، وظهور ولاة الحق، ونفاذ الخير، وظهور ثبوت العبادة، والكف عن الدماء، والراحة والسعادة في العامة، وثبات ما يكون من العدل والخير وطول المدّة فيه. وكَوْن البُرج مائياً يدل على كثرة الأمطار والعرق، وآفة من البرد يهلك فيها الكثير.

ويلي الألف السادس بُرج الحوت بطلوع المشتري والرأس، فيدل على المحمّدة في الناس عامّة، وعلى الصّلاح والخير والسرور وذهاب الشرّ وحسن العيش. ولكل واحد من الكواكب ولاية ألف سنة، فصار عطارد خاتماً في بُرج السنبلة.

(a) بولاق: القسم. (b) بولاق: الحسن. (c) بولاق: الجيش.

وَزَعَمَ ابْنُ نُؤَيْبٍ أَنَّ مِنْ يَوْمِ سَارَتْ الشَّمْسُ إِلَى تَمَامِ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ مِنْ مُلْكِ أَنْوَشُرَوَانَ ،
ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَثَمَانِ مِائَةٍ وَسَبْعٍ وَسِتُونَ سَنَةً ، وَذَلِكَ فِي أَلْفِ الْجَدْيِ وَتَدْيِيرِ الشَّمْسِ . وَمِنْهُ / إِلَى
اليَوْمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْهِجْرَةِ سَبْعٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً شَمْسِيَّةً وَسِتَّةً وَعَشْرُونَ يَوْمًا . وَمِنْ الْهِجْرَةِ إِلَى قِيَامِ
يَزْدَجِرْدَ تِسْعَ سِنِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَسَبْعَةَ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا ، فَذَلِكَ الْجَمِيعُ إِلَى أَنْ قَامَ يَزْدَجِرْدَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ
وَتِسْعَ مِائَةٍ وَسِتِّ وَسِتُونَ سَنَةً .

وَقَالَ أَبُو مَعْمَرٍ : وَزَعَمَ قَوْمٌ مِنَ الْفُرْسِ أَنَّ عُمُرَ الدُّنْيَا سَبْعَةَ آلَافٍ سَنَةً بَعْدَ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ ،
وَزَعَمَ أَبُو مَعْمَرٍ أَنَّ عُمُرَ الدُّنْيَا ثَلَاثَ مِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ وَسِتُونَ أَلْفَ سَنَةٍ ؛ وَأَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ فِي
النُّصْفِ مِنْ ذَلِكَ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ أَلْفِ وَثَمَانِينَ أَلْفِ سَنَةٍ .

وَقَالَ قَوْمٌ : عُمُرُ الدُّنْيَا تِسْعَةَ آلَافٍ سَنَةً : لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ أَلْفُ
سَنَةٍ ، وَلِلرَّأْسِ أَلْفُ سَنَةٍ ، وَلِلذَّنْبِ أَلْفُ سَنَةٍ ، وَشَرَّهَا أَلْفُ الذَّنْبِ . وَأَنَّ الْأَعْمَارَ طَالَتْ فِي تَدْيِيرِ
آلَافِ الثَّلَاثَةِ الْعُلُويَّةِ ، وَقَصُرَتْ فِي آلَافِ الْكَوَاكِبِ السُّفْلِيَّةِ .

وَقَالَ قَوْمٌ : عُمُرُ الدُّنْيَا تِسْعَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَنَةً بَعْدَ الْبُرُوجِ الْإِثْنَيْ عَشَرَ لِكُلِّ بُرْجٍ أَلْفُ سَنَةٍ ،
وَبَعْدَ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ لِكُلِّ كَوْكَبٍ أَلْفُ سَنَةٍ .

وَقَالَ قَوْمٌ : عُمُرُ الدُّنْيَا أَحَدَ وَعَشْرُونَ أَلْفَ سَنَةً ، بِزِيَادَةِ أَلْفِ لِلرَّأْسِ وَأَلْفٍ لِلذَّنْبِ .

وَقَالَ قَوْمٌ : عُمُرُ الدُّنْيَا ثَمَانِيَةَ وَسَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةً : فِي تَدْيِيرِ بُرْجِ الْحَمَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ سَنَةً ، وَفِي
تَدْيِيرِ بُرْجِ الثُّورِ أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ سَنَةً ، وَفِي تَدْيِيرِ الْجُوزَاءِ عَشْرَةَ آلَافٍ سَنَةً . فَكَانَتْ الْأَعْمَارُ فِي هَذَا
الرُّبْعِ أَطْوَلَ ، وَالزَّمَانُ أَجَدَّ . ثُمَّ تَدْيِيرِ الرَّبْعِ الثَّانِي مُدَّةُ أَرْبَعَةٍ وَعَشْرِينَ أَلْفَ سَنَةً ، فَتَكُونُ الْأَعْمَارُ
دُونَ مَا كَانَتْ فِي الرَّبْعِ الْأَوَّلِ . وَتَدْيِيرِ الرَّبْعِ الثَّلَاثِ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَنَةً . وَتَدْيِيرِ الرَّبْعِ الرَّابِعِ
سِتَّةَ آلَافٍ سَنَةً .

وَقَالَ قَوْمٌ : كَانَتْ الْمُدَّةُ مِنْ آدَمَ إِلَى الطُّوفَانِ أَلْفِينَ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ
يَوْمًا ، وَمِنْ الطُّوفَانِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تِسْعَ مِائَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَخَمْسَةَ
عَشَرَ يَوْمًا ، فَذَلِكَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَمِائَتَانِ وَثَلَاثَ وَعَشْرُونَ سَنَةً .

وَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ : عُمُرُ الدُّنْيَا سَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةً مُنْخَصِرَةً فِي أَلْفِ جِيلٍ ، وَلَفَّقُوا ذَلِكَ مِنْ
قَوْلِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي صَلَاتِهِ : «إِنَّ الْجِيلَ سَبْعُونَ سَنَةً» ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي الزَّبُورِ : «إِنَّ

إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطَعَ مَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَهْدًا لِبَقَاءِ الْبَشَرِ أَلْفَ جِيلٍ» ، فَجَاءَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مُدَّةَ الدُّنْيَا
سَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةً ، وَاسْتَنْظَرُوا لِقَوْلِهِمْ هَذَا بِمَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ قَوْلِهِ : «وَاعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ إِلَهَكَ هُوَ الْقَادِرُ
الْمُهَيِّمُ الْحَافِظُ الْعَهْدُ وَالْفَضْلُ الْحُبِّيُّ وَحَافِظِي وَصَايَاهُ لِأَلْفِ جِيلٍ» .

وذكر أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي في كتاب «أخبار الزمان» عن الأوائل أنهم قالوا: كان في الأرض ثمان وعشرون أمة ذات أزواج وأيد وبطش وصور مختلفات، بعدد منازل القمر، لكل منزلة أمة منفردة تُعرف بها تلك الأمة. ويؤمنون أن تلك الأمم كانت الكواكب الثابتة تدبرها، وكانوا يعبدونها^١.

ويقال^(a): لما خلق الله تعالى البروج الاثني عشر قسم دوامها في سلطانيها^(b): فجعل للحمل اثني عشر ألف عام، وللثور أحد عشر ألف عام، وللجوزاء عشرة آلاف عام، وللشيطان تسعة آلاف عام، وللأسد ثمانية آلاف عام، وللشئبلة سبعة آلاف عام، وللميزان ستة آلاف عام، وللعقرب خمسة آلاف عام، وللقوس أربعة آلاف عام، وللجدي ثلاثة آلاف عام، وللذئب ألفي عام، وللحوت ألف عام، فصار الجميع ثمانية وسبعين ألف عام. فلم يكن في عالم الحمل والثور والجوزاء حَيوان، وذلك ثلاثة وثلاثون ألف عام؛ فلما كان عالم الشيطان تكوّنت دواب الماء وهوام الأرض؛ فلما كان عالم الأسد تكوّنت ذوات الأربع من الوحش والبهائم، وذلك بعد تسعة آلاف عام من خلق دواب الماء والهواء؛ فلما كان عالم الشئبلة تكوّن الإنسانان الأولان، وهما آدمانوس وحيوانوس، وذلك لتمام سبعة عشر ألف عام لخلق دواب الماء وهوام الأرض، ولتمام ثمانية آلاف عام من خلق ذوات الأربع^٢.

وخلقت الأرض في عالم الميزان، ويُقال بل خلقت الأرض أولاً، وأقامت خالية ثلاثة وثلاثين ألف عام ليس فيها حَيوان ولا عالم رُوحاني، ثم خلق الله تعالى هوام الماء ودواب الأرض وما بعد ذلك على ما تقدّم ذكره. فلما تم أربعة وعشرون ألف عام لخلق دواب الماء وهوام الأرض، ولتتمام خمسة عشر ألف عام من خلق ذوات الأربع، ولتتمة سبعة آلاف عام من لدن تكوّن الإنسانين، خلقت الطيور.

ويقال إن مدة مقام الإنسانين ونسليهما في الأرض مائة ألف وثلاثة وثلاثون ألف عام: منها لرحل ستة وخمسون ألف عام، وللمشترى أربعة وأربعون ألف عام، وللمريخ ثلاثة وثلاثون ألف عام.

(a) عند المسعودي: وقال هرمس. (b) عند المسعودي: قسم لها دوامها في سلطانه.

^٢ نفسه ٧-٨.

^١ المسعودي: أخبار الزمان ٦.

وَيُقَالُ إِنَّ الأُمَّةَ المَخْلُوقَاتِ قَبْلَ آدَمَ هِيَ كَانَتِ الجِبِلَّةَ الأُولَى ، وَهِيَ ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ أُمَّةً بِإِزَاءِ مَنَازِلِ القَمَرِ ، خُلِقَتْ مِنْ أَمْرِجَةِ مَخْتَلِفَةٍ أَضْلَهَا المَاءُ وَالهَوَاءُ وَالنَّارُ ، فَتَبَايَنَ خَلْقُهَا :

فَمِنْهَا أُمَّةٌ خُلِقَتْ طَوَالًا زُرْقًا ذَوَاتِ أَجْنِحَةٍ ، كَلَامُهُمْ قَرَقَعَةٌ عَلَى صِفَةِ الأَسْوَدِ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ أُنْبَدَانُهُم أُنْبَادَانُ الأَسْوَدِ ، وَرُؤُوسُهُمْ رُؤُوسُ الطَّيْرِ ، لَهُمْ شُعُورٌ وَأَذَانٌ طَوَالٌ ، وَكَلَامُهُمْ ذَوِيٌّ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ لَهَا وَجْهَانٌ : وَجْهَةٌ أَمَامَهَا ، وَوَجْهَةٌ خَلْفَهَا ، وَلَهَا أَرْجُلٌ كَثِيرَةٌ ، وَكَلَامُهُمْ / كَلَامُ الطَّيْرِ . وَمِنْهَا أُمَّةٌ ضَعِيفَةٌ فِي صُورِ الكَلَابِ ، لَهَا أُذُنَابٌ ، وَكَلَامُهُمْ هَمَّهْمَةٌ لَا يُعْرَفُ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ تُشْبِهُ بَنِي آدَمَ ، أَفْوَاهُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، يُصَفَّرُونَ إِذَا تَكَلَّمُوا تَضْفِيرًا ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ يُشْبِهُونَ نِصْفَ إِنْسَانٍ ، لَهُمْ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ ، وَرِجْلٌ يَتَقَفَّزُونَ بِهَا قَفْزًا ، وَيَصِيحُونَ كَصِيحِ الطَّيْرِ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ لَهَا وَجُوهٌ كَوُجُوهِ النَّاسِ ، وَأَصْلَابٌ كَأَصْلَابِ السَّلَاحِيفِ ، فِي رُؤُوسِهِمْ قُرُونٌ طَوَالٌ ، لَا يُفْهَمُ كَلَامُهُمْ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ مُدَوَّرَةٌ الْوُجُوهَ ، لَهُمْ شُعُورٌ بِيضٌ وَأُذُنَابٌ كَأُذُنَابِ البَقَرِ ، وَرُؤُوسُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، لَهُمْ شُعُورٌ وَثِيدِي وَهُمْ إِنَاثٌ كُلُّهُنَّ لَيْسَ فِيهِنَّ ذَكَرٌ ، يُلْقَحْنَ مِنَ الرِّيحِ وَيَلِدْنَ أَمْثَالَهُنَّ ، وَلَهُنَّ أَصْوَاتٌ مُطْرَبَةٌ ، يَجْتَمِعُ إِلَيْهِنَّ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ لِحُسْنِ أَصْوَاتِهِنَّ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ عَلَى خَلْقِ بَنِي آدَمَ ، سُودٌ وَجُوهُهُمْ ، وَرُؤُوسُهُمْ كَرُؤُوسِ الغِرْبَانِ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ فِي خَلْقِ الهَوَامِّ وَالحَشَرَاتِ ، إِلَّا أَنَّهَا عَظِيمَةُ الأَجْسَامِ ، تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ مِثْلَ الأَنْعَامِ ؛ وَمِنْهَا أُمَّةٌ كَوُجُوهِ دَوَابِّ البَحْرِ ، لَهَا أَنْيَابٌ كَأَنْيَابِ الخَنَازِيرِ وَأَذَانٌ طَوَالٌ . وَيُقَالُ إِنَّ هَذِهِ الثَّمَانِيَةَ وَالعِشْرِينَ أُمَّةً تَنَاجَتْ^(a) فَصَارَتْ مِائَةً وَعِشْرِينَ أُمَّةً^٢ .

٢٥٦:١

١٥

وَسُئِلَ أميرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : هَلْ كَانَ فِي الأَرْضِ خَلْقٌ قَبْلَ آدَمَ يُعْبُدُونَ اللهُ تَعَالَى ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ ، وَخَلَقَ فِيهَا [أُمَّةً مِنْ] ^(b) الجِنِّ يُسَبِّحُونَ اللهُ وَيُقَدِّسُونَهُ لَا يَفْتَرُونَ ؛ وَكَانُوا يَطِيرُونَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَيَلْقَوْنَ المَلَائِكَةَ وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ ، وَيَسْتَعْلَمُونَ مِنْهُمْ خَبْرَ مَا فِي السَّمَاءِ ؛ ثُمَّ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ^(c) تَمَرَّدَتْ ، وَعَتَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ، وَبَغَتْ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ، وَعَدَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَجَحَدُوا الرُّبُوبِيَّةَ ، وَكَفَرُوا بِاللهِ وَعَبَدُوا مَا سِوَاهُ ، وَتَغَايَرُوا عَلَى المَلِكِ حَتَّى سَفَكُوا الدَّمَاءَ ، وَأَظْهَرُوا فِي الأَرْضِ الفَسَادَ ، وَكَثُرَ تَقَاتُلُهُمْ ، وَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ وَأَقَامَ المُطِيعُونَ اللهُ تَعَالَى عَلَى دِينِهِمْ ، وَكَانَ إبْلِيسُ مِنَ الطَّائِفَةِ

٢٠

(a) بولاق : تناكحت . (b) زيادة من المسعودي . (c) المسعودي : من الجن .

٢ المسعودي : أخبار الزمان ١٠ - ١١ .

١ من هنا يتابع المقرئ النقل عن المسعودي .

المطبعة لله والمستبحين له ، وكان يصعد إلى السماء فلا يُحجب عنها لحسن طاعته .
 ويُروى أن الجن كانت تفترق على إحدى وعشرين قبيلة ، وأن بعد خمسة آلاف سنة ملكوا
 عليهم ملكا يقال له شمائل^(a) بن آرس ، ثم افترقوا فملكوا عليهم خمسة ملوك ، وأقاموا على
 ذلك ذمرا طويلا ؛ ثم أغار بعضهم على بعض وتحاسدوا ، فكانت بينهم وقائع كثيرة ، فأهبط الله
 تعالى إليهم إبليس - وكان اسمه بالعربية : الحارث ، وكنيته أبو مرة - ومعه عدد كثير من
 الملائكة ، فهزمهم وقتلهم . وصار إبليس ملكا على وجه الأرض فتكبر وطغى ، وكان من امتناعه
 من الشجود لآدم ما كان . فأهبطه الله تعالى إلى الأرض ، فسكن البحر وجعل عرشه على الماء ،
 فألقيت عليه شهوة الجماع ، وجعل لقاحه كلقاح الطير ويبيضه [كبيضه]^(b) .

ويقال إن قبائل الجن من الشياطين خمس وثلاثون قبيلة : خمس عشرة قبيلة تطير في الهواء ،
 وعشر قبائل مع لهب النار ، وثلاثون قبيلة يشترقون السمع من السماء . ولكل قبيلة ملك موكل
 بدفع شرها .

ومنهم صنف من السعالي يتصورون في صور النساء الحسان ، ويتزوجن برجال الإنس ،
 ويلدن منهم ؛ ومنهم صنف على صور الحيات ، إذا قتل أحد منهم واحدة هلك من وقته ، فإن
 كانت صغيرة هلك ولده أو عزيزه عنده^١ .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : إن الكلاب من الجن ، فإذا رأوكم تأكلون فألقوا
 إليهم من طعامكم ، فإن لهم أنفسا - يعني أنهم يأخذون بالعين^٢ .

وروي أن الأرض كانت معمورة بأمم كثيرة ، منهم الطم والرم والحين^(c) والبن والحيث
 والبس^(d) ، وأن الله تعالى لما خلق السماء عمرها بالملائكة ، ولما خلق الله الأرض عمرها بالجن ،
 فعاشوا وسفكوا الدماء ، فأنزل الله إليهم جنودا من الملائكة ، فأتوا على أكثرهم قتلا وأسرا . فكان
 ممن أسر إبليس - وكان اسمه عزازيل - فلما صعد به إلى السماء ، أخذ نفسه بالاجتهاد في العبادة
 والطاعة رجاء أن يتوب الله عليه ، فلما لم يجد ذلك عليه شيئا خامر الملائكة القنوط ، فأراد الله

(a) الأصل وبولاق : شلال ، والتصويب من المسعودي . (b) الأصل وبولاق : لقاحه لقاحه الطير ويبيضه ، والمثبت من
 المسعودي . (c) بولاق : الجن . (d) بولاق : الحسن والبسن .

أَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ حُبَّ طَوَيْتِهِ وَفَسَادَ نَيْتِهِ ، فَخَلَقَ آدَمَ ، فَامْتَحَنَهُ بِالشُّجُودِ لَهُ لِيُظْهِرَ لِلْمَلَائِكَةِ تَكْبِيرَهُ وَإِبَانَةَ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ مِنْ مَكْتُومِ أَنْبِيَائِهِ .

وإلى عمارة الأرض قبل آدم من أفسد فيها ، أشار بقوله تعالى حكاية عن الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [الآية ٣٠ سورة البقرة] ؟ يَغْنُونُ كَمَا فَعِلَ بِهَا مِنْ قَبْلِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ .

وقال أبو بكر أحمد بن علي بن وحشية في كتاب «الفلاحة» : إِنَّهُ عَرَّبَ هَذَا الْكِتَابَ وَنَقَلَ مِنْ لِسَانِ الْكَلْدَانِيِّينَ^(a) إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِنَّهُ وَجَدَهُ مِنْ وَضَعِ ثَلَاثَةِ حُكَمَاءَ قَدَمَاءَ ، وَهُمْ صَغْرِيَتُ ، وَنِيُوسَادُ ، وَقُوْثَامِي^(b) .

ابتدأه الأول وكان ظهوره في الألف السابعة من سبعة آلاف سني زحل ، وهي الألف التي يُشَارِكُ فِيهَا زُحَلُ الْقَمَرِ ؛ وَتَمَّتْهُ الثَّانِي وَكَانَ ظُهُورُهُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْأَلْفِ ؛ وَأَكْمَلَهُ الثَّلَاثُ وَكَانَ ظُهُورُهُ بَعْدَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ آلَافٍ سَنَةٍ مِنْ دَوْرِ الشَّمْسِ الَّذِي هُوَ سَبْعَةُ آلَافٍ سَنَةٍ ، وَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَى مَا بَيْنَ زَمَانِ الْأَوَّلِ وَالثَّلَاثِ ، فَكَانَ ثَمَانِيَةَ عَشْرِ أَلْفِ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ وَبَعْضُ الْأَلْفِ التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ^١ .

وقد اختلف أهل الإسلام في هذه المسألة أيضًا ، فرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّهُ قَالَ : الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جُمُعِ الْآخِرَةِ ، وَالْيَوْمُ أَلْفُ سَنَةٍ ، فَذَلِكَ سَبْعَةُ آلَافٍ سَنَةٍ . وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ / الْأَعْمَشِ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ قَالَ : قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ : الدُّنْيَا سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ .

وعن وهب بن منبه أنه قال : قد خَلَا مِنَ الدُّنْيَا خَمْسَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَسِتُّ مِائَةَ سَنَةٍ ، إِنِّي لِأَعْرِفُ كُلَّ زَمَانٍ مِنْهَا وَمَنْ فِيهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَ^(c) الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَقِيلَ لَهُ : فَكَمْ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ^٢ .

ورَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «أَجَلُكُمْ فِي أَجَلٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ» . وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : «الْحَقْبُ ثَمَانُونَ عَامًا ، الْيَوْمُ مِنْهَا سُدُسُ الدُّنْيَا» ، وَالْحَقْبُ هُنَا بِكسْرِ الْحَاءِ وَضَمِّهَا .

(a) بولاق : الكلدانيين . (b) بولاق : ضميرت وسوساد وفوقاي . (c) الكلمتان زيادة من نسخة الظاهرية .

^٢ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ١ : ١٠٠ .

^١ ابن وحشية : الفلاحة النبطية ١ : ٩ .

قال أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني في كتاب «الإكليل»: فكانت الدنيا جزءاً من أربعة آلاف وسبع مائة وثلاثة وعشرين جزءاً وثلاث جزء من الحقب، على أن السنة القمرية ثلاث مائة وأربعة وخمسون يوماً وخمسة وسدس يوم. فإذا كانت الدنيا ستة آلاف سنة واليوم ألف سنة، تكون سنين قمرية ستة آلاف ألف سنة.

فإذا جعلناه جزءاً وضربناه في أجزاء الحقب - وهي أربعة آلاف وسبع مائة سنة وثلاث وعشرون وثلاث - خرج من السنين ثمانية وعشرون ألف ألف وثلاث مائة ألف ألف وأربعون ألف ألف. وإذا كانت جمعة من جمع الآخرة، زدنا مع هذا العدد مثل سدسه، وهذا عدد الحقب^١.

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه الكبير^(a): الصواب من القول ما دل على صحته الخبر^(b) الوارد، فذكر قوله - عليه السلام - : «أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس»، وقوله عليه السلام: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ» وأشار بالسبابة والوسطى، وقوله عليه السلام: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ جَمِيعًا إِنْ كَادَتْ لَتَسِفُنِي»^٢.

قال: فمعلوم إذا^(c) كان اليوم أوله طلوع الشمس^(d) وآخره غروب الشمس، وكان صحيحاً عن النبي ﷺ قوله: «أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس»، وقوله: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وأشار بالسبابة والوسطى. وكان قدر ما بين أواسط أوقات صلاة العصر - وذلك إذا صار ظل كل شيء مثليه - على التحري إنما يكون قدر نصف سبع اليوم يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً، وكذلك فضل ما بين الوسطى والسبابة إنما يكون نحواً من ذلك. وكان صحيحاً مع ذلك قوله عليه السلام: «لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ أَنْ يُؤَخِّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ» يعني نصف اليوم الذي مقداره ألف سنة، فأولى القولين، اللذين أحدهما عن ابن عباس والآخر عن كعب، قول ابن عباس: «إِنَّ الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جُمُعِ الْآخِرَةِ سَبْعَةَ آلَافٍ [سنة]»^(e).

وإذا كان [ذلك]^(e) كذلك، وكان قد جاء عنه عليه السلام: «إِنَّ الْبَاقِيَّ مِنْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ نِصْفَ يَوْمٍ»، وذلك خمس مائة عام إذا كان ذلك نصف يوم من الأيام التي قدر الواحد منها ألف

(a) الكلمتان زيادة من نسخة الظاهرية. (b) ظ: ما دل عليه صحة الخبر. (c) بولاق: إن. (d) الطبري: الفجر.

(e) زيادة من الطبري.

^١ لم أقف عليه فيما وصل إلينا من أجزاء الإكليل. ^٢ الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١: ١١، ١٢، ١٥.

عام ، كان معلوماً أنَّ الماضي من الدُّنيا ، إلى وَقْتِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ستَّة آلاف سنة وخمسة مائة سنة أو نحو ذلك ^١ .

وقد جاء عنه - عليه السَّلَامُ - خَبْرٌ يَدُلُّ عَلَى صِحِّحَةِ قَوْلٍ مِنْ قَالَ : إِنَّ الدُّنْيَا كَلَّهَا ستَّة آلاف سنة ، لو كان صحيحاً [سَنَدُهُ] ^(a) لم نَعُدْ القَوْلَ بِهِ إِلَى غَيْرِهِ ؛ وَهُوَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ : «الْحَقُّبُ ثَمَانُونَ عَامًا ، الْيَوْمَ مِنْهَا سُدُسُ الدُّنْيَا» فَتَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الخَبَرِ أَنَّ الدُّنْيَا كَلَّهَا ستَّة آلاف سنة .
وذلك أنَّ ^(b) اليوم ، الذي هو من أَيَّامِ الآخِرَةِ ، بِمِقْدَارِهِ أَلْفُ سَنَةٍ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا ، وَكَانَ الْيَوْمُ الْوَاحِدُ مِنْ ذَلِكَ سُدُسُ الدُّنْيَا ، كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ جَمِيعَهَا ستَّة أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الآخِرَةِ ، وَذَلِكَ ستَّة آلاف سنة ^٢ .

وقال أبو القاسم السَّهَيْلِيُّ ^(c) فِي كِتَابِ «الرُّؤُوسِ الْأَنْفِ» ، وَقد ذَكَرَ قولَ الطَّبْرِيِّ الَّذِي تَقَدَّمَ ^(c) :
وَقَدْ مَضَّتْ الخَمْسُ مِائَةٍ مِنْ وَفَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْيَوْمِ بَنِيْفٍ عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ : «لَنْ يُعْجِزَ اللهُ أَنْ يُوَخِّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ» مَا يَنْفِي الزِّيَادَةَ عَلَى النِّصْفِ ، وَلَا فِي قَوْلِهِ : «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ» مَا يُقْطَعُ بِهِ عَلَى صِحِّحَةِ تَأْوِيلِهِ - يَعْنِي الطَّبْرِيُّ - ، فَقَدْ نَقَلَ فِي تَأْوِيلِهِ غَيْرَ هَذَا ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاعَةِ نَبِيٌّ وَلَا شِرْعَةٌ غَيْرَ شِرْعَتِهِ مَعَ التَّقْرِيبِ لِحِينِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [الآية ١ سورة القم] ، وَقَالَ : ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوه﴾ [الآية ١ سورة النحل] .
ولكن إذا قلنا إنَّه عليه السَّلَامُ إِنَّمَا بُعِثَ فِي الْأَلْفِ الْآخِرِ بَعْدَ مَا مَضَتْ مِنْهُ سِنُونَ ، وَنَظَرْنَا إِلَى الحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ وَجَدْنَاها أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا ، يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ : «أَلَمْ يَسْطَعِ نَصْحُ كَرِهٍ» ، ثُمَّ نَأْخُذُ العَدَدَ عَلَى حِسَابِ أَبِي جَادٍ ، فَيَجِيءُ تِسْعَ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ ^٣ .
وَلَمْ يُسَمِّ اللهُ تَعَالَى فِي ^(d) أَوَائِلِ السُّورِ إِلَّا هَذِهِ الحُرُوفَ ، فَلَيْسَ يَتَّعَدُّ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَعْضِ مُقْتَضِيَّاتِهَا وَبَعْضُ فَوَائِدِهَا ، الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا العَدَدِ مِنَ السِّنِينَ ، لَمَّا قَدَّمْنَا مِنْ حَدِيثِ الْأَلْفِ السَّابِعِ الَّذِي بُعِثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ .

(a) زيادة من الطبري . (b) بولاق : أنه حيث كان . (c-c) زيادة من ظ . (d) ساقطة من بولاق .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٦: ١-١٧ .
^٢ نفسه ١: ١٧ .
^٣ ابن خلدون : المقدمة ٨٢٣-٨٢٥ .
ومجموع هذه الحروف الأربعة عشره ٦٩٣ وهو ما يتفق مع أورده المقرئ نقلًا عن يعقوب بن إسحاق الكندي (فيما يلي ٦٩٧) وهي طريقه المشاركة في الحساب ، أما =

غير أن الحِسابَ يحتمل أن يكون من مَبْعَثِهِ ، أو من وَفَاتِهِ ، أو من هِجْرَتِهِ - وكلُّ قريبٍ بعضُهُ من بَعْضٍ - فقد جاءَ أشراطُها : وَلَكِنْ ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الآية ١٨٧ سورة الأعراف] .

وقد روي ^(a) أن المتوكل العباسي سأل جعفر بن عبد الواحد القاضي عمًا بقي من الدنيا ، فحدّثه بحديث رفعه إلى النبي ﷺ ^(a) أنه قال : «إن أَحْسَنَتِ أُمَّتِي فَبَقَاؤُهَا يَوْمَ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ - وذلك ألف سنة - وإن أساءت فيصِفَ يَوْمٌ» . ففي هذا ^(b) الحديث تسميمٌ للحديث المتقدم وبيانٌ له ، إذ قد انقضت الخمس مائة والأمة باقية .

وقال ^١ شاذان البلخي المنجم : مُدَّةُ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ ثَلَاثٌ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنِينَ ^(c) ؛ وقد ظَهَرَ كَذِبُ قَوْلِهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ .

وقال أبو معشر : يَظْهَرُ بَعْدَ الْمِائَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنْ سِنِي الْهِجْرَةِ / اِخْتِلَافٌ كَثِيرٌ .
وقال جراش ^(d) : ^(e) رأيت في كتب الأقدمين ^(e) إنَّ الْمُنْجِمِينَ أَخْبَرُوا كِشْرَى أَنْوَشُرُونَ بِتَمَلُّكِ الْعَرَبِ وَظُهُورِ الثُّبُوتِ فِيهِمْ ، وَأَنَّ دَلِيلَهُمُ الزُّهْرَةَ وَهِيَ فِي شَرْفِهَا وَالزُّهْرَةَ دَلِيلُ الْعَرَبِ ، فَتَكُونُ مُدَّةُ مُلْكِ نُبُوتِهِمْ أَلْفًا وَسِتِينَ سَنَةً ، وَلِأَنَّ طَالِعَ الْقِرَانِ الدَّالَ عَلَى ذَلِكَ بُرْجَ الْمِيزَانِ وَالزُّهْرَةَ صَاحِبَتَهُ فِي شَرْفِهَا ^٢ .

قال : وَسَأَلَ كِشْرَى وَزِيرَهُ بَرَزَجَمَهُرَ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْمَلِكَ يَخْرُجُ مِنْ فَارِسٍ وَيَنْتَقِلُ إِلَى الْعَرَبِ ، وَتَكُونُ وِلَايَةُ الْقَائِمِ بِإِمْرَةِ الْعَرَبِ لِحَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ وَقْتِ الْقِرَانِ ، وَأَنَّ الْعَرَبَ تَمْلِكُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْمَشْرِي دَلِيلُ فَارِسٍ قَدْ قَبَلَ تَدْيِيرَ الزُّهْرَةَ دَلِيلُ الْعَرَبِ ، وَالْقِرَانُ قَدْ انْتَقَلَ مِنَ الْمَثَلَةِ الْهَوَائِيَّةِ إِلَى الْمَثَلَةِ الْمَائِيَّةِ وَإِلَى بُرْجِ الْعَقْرَبِ مِنْهَا وَهُوَ دَلِيلُ الْعَرَبِ أَيْضًا ؛ وَهَذِهِ الْأَدِلَّةُ تَقْتَضِي بَقَاءَ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِقَدْرِ دَوْرِ الزُّهْرَةَ ، وَهُوَ أَلْفٌ وَسِتُونَ سَنَةً شَمْسِيَّةً ^٣ .

(a-a) هذه العبارة من ظ وجاء عوضها في الأصل وبولاق : وقد روي أنه - عليه السلام - قال . (b) ساقطة من بولاق . (c) عند ابن خلدون : وعشرون . (d) في الأصل : حراش ، وعند ابن خلدون وبولاق : حراس . (e-e) زيادة من ظ .

= بطريقة المغاربة يكون مجموع هذه الحروف ٩٠٣ (ابن خلدون : المقدمة ٤٢٩ هـ ٣٣٦) .

^١ من هنا يتفق نص المقرئ مع نص ابن خلدون في المقدمة ٨٣١-٨٣٣ حيث إن هذه النقول مُضَمَّنَةٌ فِي نص جراش بن أحمد الحاسب في الكتاب الذي ألفه
^٢ ابن خلدون : المقدمة ٨٣١ ، ٨٣٢ .
^٣ نفسه ٨٣٢ .

وقال نوفيل^(a) الرومي ، وكان في أَيَّامِ بني أُمَيَّة : تَبَقِيَ مِلَّةُ الإِسْلَامِ بِقَدْرِ مُدَّةِ القِرَانِ الكُبْرَى ، وهي تسع مائة وستون سنة شمسية ؛ فإذا عادَ القِرَانُ بعد هذه المُدَّةِ إلى بُرْجِ العَقْرَبِ كما كان في ابتداء المِلَّةِ ، وَتَغَيَّرَ وَضْعُ تَشْكِيلِ الفَلَكِ عن هَيْئَتِهِ في الاِبتِداءِ ، فحينئذٍ يَفْتَرُ العَمَلُ ، ويتجدد ما يُوجِبُ خِلَافَ الظَّنِّ^١ .

قال : وَاتَّفَقُوا على أَنَّ خَرَابَ العَالَمِ يكون باستيلاء الماء والنار حتى تَهْلِكَ المَكُونَاتُ بِأَسْرَهَا ، وذلك إِذَا قَطَعَ قَلْبُ الأَسَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً من بُرْجِ الأَسَدِ ، الذي هو حَدُّ المَرْيَخِ ، بعد تسع مائة وستين سنة شمسية من قران المِلَّةِ .

ويُقالُ إِنَّ مَلِكَ زَابِلِسْتَانَ - وهي غَزَنَةُ^(b) - بَعَثَ إلى عبد الله أمير المؤمنين المأمون بحكيم اسمه ذوبان في جملة هَدِيَّةٍ ، فَأَعْجَبَ به المأمون وسأله عن مُدَّةِ مُلْكِ بني العَبَّاسِ ، فَأَخْبَرَهُ بِخُرُوجِ المَلِكِ عن عَقِبِهِ واتِّصَالِهِ في عَقِبِ أَخِيهِ ، وَأَنَّ العَجَمَ تَغْلِبُهُم على الخِلَافَةِ ، فيتغلب الذُّيْلُ أَوْلًا ثم يسوء حالهم ، حتى يظهر التُّرْكُ من شَمَالِ المَشْرِيقِ فيَمْلِكُوا الفُرَاتَ والرُّومَ والشَّامَ^٢ .

وقال يَعْقُوبُ بن إِسْحاقَ الكِنْدِيِّ^٣ : مُدَّةُ مِلَّةِ الإِسْلَامِ ست مائة وثلاث وتسعون سنة^٤ . (c) وَعَلَّلَ ذلك بتعاليل نجومية ، ثم قال : وَتُعْضِده الحُرُوفُ الواقعة في أوائل الشُّورِ بحذف المكرر واعتباره بحساب الجُمَّل . ومن هنا أخذ السَّهَيْلِيُّ ما تقدَّم ذكره عنه^(d) .

ويُقالُ إِنَّ الكِنْدِيَّ هذا وَضَعَ كِتَابًا في القِرَانِ الكائِنِ في المِلَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ وتكلم عليها ، وَأَنَّهُ حَكَّمَ بانقراض دولة بني العَبَّاسِ في منتصف المائة السابعة من الهجرة وَأَنَّ بانقراضها تنقضي^(c)

(a) بولاق : نفيل . (b) بولاق : عزبة . (c-c) زيادة من ظ . (d) في المقدمة : قلت : وهذا هو الذي ذكره السهيلي ، والغالب أن الأول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه .

ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ١ : ٢٠٦ - ٢١٤ ؛ Sezgin,

F., GASVII, pp. 130-34; Joliver, J. & Rashed, R., El² art. al-Kindi V, pp. 124-26 وللشيخ مصطفى

عبد الرازي : فيلسوف العرب والمعلم الثاني ، القاهرة (١٩٤٥) .

٤ ابن خلدون : المقدمة ٨٣٢ ، وكل هذه النصوص

مضمنة أيضًا في النص الذي نقله ابن خلدون .

١ ابن خلدون : المقدمة ٨٣٢ .

٢ نفسه ٨٣٣ وهو نهاية المنقول من نص جراش عند

المقريزي .

٣ أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي ،

فيلسوف العرب ومُنْجِمُ الرُّشِيدِ والمأمون ، المتوفى سنة

٢٥٦هـ / ٨٧٠م (راجع ، ابن النديم : الفهرست ٣١٥ -

٣٢٠ ؛ ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ٧٣ - ٧٤ ،

(a) مِلَّةُ الإِسْلَامِ وَهَكَذَا وَقَعَ فَإِنَّ هُوَ لَا كَوَ قَتَلَ الخليفة المُسْتَعَصِمَ وَأزال دولة بني العَبَّاسِ فِي صَفَرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ وَكَانَ هُوَ وَسَلَفُهُ عَلَى غَيْرِ المِلَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ^١. وَالشُّبُهَةُ الَّتِي أَدَّتْ بِالقَوْمِ إِلَى القَوْلِ بِقيامِ السَّاعَةِ فِي هَذَا الوَقْتِ أَنَّهُ تَقَرَّرَ عِنْدَهُمْ مِنْ جِهَةِ الشَّرِيعَةِ أَنَّهَا خاتمةُ الشَّرَائِعِ وَعَلَى أَهْلِهَا تَقُومُ السَّاعَةُ، وَذَلَّتْهُمُ الأَوْضَاعُ الفَلَكِيَّةُ عَلَى تَلَافِ المِلَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالقائِمِينَ بِهَا عَلَى يَدِ قائِمٍ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا، فَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ وَقْتُ قيامِ السَّاعَةِ، فَأَصَابُوا بَعْضًا وَأَخْطَأُوا بَعْضًا، وَزَالَتْ دَوْلَةُ الإِسْلَامِ مِنْ بِلَادِ المَشْرِقِ بِانقِراضِ خُلَفَاءِ بني العَبَّاسِ وَقامَتِ المَغُولُ بِأَمْرِ المَلِكِ وَهَمَّ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ الإِسْلَامِ، وَثَبَّتَ اللهُ أَهْلَ مِصْرَ حَتَّى حارَبُوا مَلُوكَ المِغْلِ وَالتَّبَرَّ غَيْرَ مَرَّةٍ وَدَفَعُوهُمْ عَنِ مِصْرَ وَالشَّامِ حَتَّى أَسْلَمَ مِنْ مَلُوكِ المِغْلِ مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَصارَ المَشْرِقُ بِحَمْدِ اللهِ دَارَ إِسْلَامٍ إِلَى اليَوْمِ وَلَمْ تَقُمْ السَّاعَةُ، وَاللهُ يَعلِّمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(a).

وقال الفقيه الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم^٢ في كتاب [الفصل في]^(b) الملل [والأهواء]^(b) والنحل: «وأما اختلافُ الناس في التاريخ، فإنَّ اليهودَ يقولون أربعةَ آلاف سنة، والنصارى يقولون الدنيا خمسةَ آلاف سنة، وأما نحن - يعني أهل الإسلام - فلا نَقْطَعُ عَلَى عِلْمٍ عَدَدٍ معروفٍ عندنا.»

ومن ادَّعى في ذلك سبعةَ آلاف سنة أو أكثر أو أقل، فقد قال ما لم يأت قطُّ عن رسول الله ﷺ فيه لَفْظَةٌ تَصِحُّ، بَلْ صَحَّ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خِلَافُهُ. بَلْ نَقْطَعُ عَلَى أَنَّ لِلدُّنْيَا أَمَدًا لَا يَعلِّمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا أَشْهَدُتُّهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الآية ٥١ سورة الكهف]، وَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ:

(a-a) بقية النص المضاف من ظ. (b) زيادة اقتضاها السياق.

^١ «الفصل في الأهواء والملل والنحل» و«طوق الحمامة» و«جوامع السيرة» (راجع، الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ١٩٥٢، ٢٩٠-٢٩٣؛ ياقوت: معجم الأدباء ١٢: ٢٣٥-٢٥٧؛ ابن خلكان: وفيات ٣: ٣٢٥-٣٣٠؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨: ١٨٤-٢١٢؛ المقرئ: نفع الطيب ٢: ٧٧-٨٤، Annaldez, R., *El² art. Ibn Hazm III*, (pp. 814-22).

^٢ قال ابن خلدون عن هذا الكتاب: «ولم نقف على شيء من خبر هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه، ولعله غرق في كتبهم (أي العباسيين) التي طرحها هولاء في دجلة عند استيلائهم على بغداد» (المقدمة ٨٣٤).

^٣ الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، شاعر ومؤرخ وفقه وملك أندلسي، أحد كبار مفكري الإسلام أذاع المذهب الظاهري، ووضع العديد من المؤلفات من أشهرها

«ما أنتم في الأمم قبلكم إلا كالشجرة البيضاء في الثور الأسود، والشجرة السوداء في الثور الأبيض» .

وهذه نسبة من تدبرها، وعرف مقدار عدد أهل الإسلام، ونسبة ما بأيديهم من معثور الأرض وأنه الأكثر، علم أن للدنيا أمدا لا يعلمه إلا الله تعالى .

وكذلك قوله عليه السلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وضم أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى - وقد جاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون إلا الله تعالى لا أحد سواه - فصح أنه ﷺ إنما عني شدة القرب لا فضل السبابة على السبابة، إذ لو أراد ذلك لأخذت نسبة ما بين الأصبعين ونسب من طول الأصبع، فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة، وهذا باطل .

وأیضا فكان تكون نسبته ﷺ إيانا إلى من قبلنا بأننا كالشجرة في الثور كذبا - ومعاذ الله من ذلك - فصح أنه عليه السلام إنما أراد شدة القرب .

وله ﷺ منذ بعث أربع مائة عام وتيف، والله تعالى أعلم بما بقي للدنيا . فإذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عند ما سلف، لقلته وتفاهته بالإضافة إلى ما مضى، فهو الذي قاله ﷺ من أننا فيمن مضى كالشجرة في الثور أو الرقمة في ذراع الحمار .

وقد رأيت بخط الأمير أبي محمد عبد الله بن الناصر قال: حدثني محمد بن معاوية القرشي أنه رأى بالهند بُدًّا^(a) له اثنتان وسبعون ألف سنة .

وقد وجد محمود بن سُبُكْتِكِين بالهند مدينة يُورُخون بأربع مائة ألف سنة . قال أبو محمد: إلا أن لكل ذلك أولا ولا بُدَّ ونهاية، لم يكن شيء من العالم موجودا قبله، ﴿لِللّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾^٢ [الآية ٤ سورة الروم] .

(a) بولاق: بلدنا .

^١ هذا كلام ابن حزم، حيث توفي سنة ٤٥٦هـ / ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة

١٣٢٠هـ، ٢: ١٠٥-١٠٦ .

١٠٦٤م .

ذكر تواريخ التي كانت للأمم قبل تاريخ القبط

التاريخ كلمة فارسية أصلها ماه روز^(a)، ثم عُرِّبَتْ^(b). قال محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف البلخي^١ في كتاب «مفاتيح العلوم»، وهو كتاب جليل القدر^(c): وهذا اشتقاق بعيد لولا أن الرواية جاءت به^٢.

وقال قدامة بن جعفر في كتاب «الخراج»: تاريخ كل شيء آخره، وهو في الوقت غايته، يقال فلان تاريخ قومه، أي إليه ينتهي شرفهم. ويقال: ورخت الكتاب تؤريخًا، أوزخته تأريخًا. اللغة الأولى لتسيم، والثانية لقيس. ولكل مملكة و^(d) أهل ملة تاريخ^٣.

فكانت الأمم تُورَّخ أولاً بتاريخ / الخليفة وهو ابتداء كون النسل من آدم عليه السلام، ثم أرخت بالطوفان، وأرخت بيخت نصر، وأرخت بفيلبش، وأرخت بالإسكندر، ثم بأغسطس، ثم بأنطونس^(e)، ثم بدقلديانوس^(f) وبه تُورَّخ القبط، ثم لم يكن بعد تاريخ القبط إلا تاريخ الهجرة، ثم تاريخ يزيد جرد. فهذه تواريخ الأمم المشهورة، وللناس تواريخ أخر قد انقطع ذكرها.

(a) بولاق: ماروز. (b) بولاق: عرب. (c) ظ: جليل المقدر. (d) ساقطة من بولاق. (e) بولاق: بأنطنتس. (f) الأصل وبولاق: دقلطيانوس ولكن نسخة الأصل فيما يلي نكتبها دقلديانوس.

^١ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الخوارزمي البلخي المتوفى نحو سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، لم أقف على ترجمة له. ألف كتابه «مفاتيح العلوم» لأبي الحسن عبيد الله بن أحمد الغثبي وزير نوح بن نصر الشاماني. وهو من أوائل الكتب الموسوعية في الأدب العربي.

^٢ الخوارزمي: مفاتيح العلوم، القاهرة - إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٢هـ، ٥٠؛ وانظر الشهاب الخفاجي: شفاء

الغلبل فيما في كلام العرب من الدخيل، القاهرة - المطبعة الوهية ١٢٨٢هـ، ٥٩ وفيه أنه «تعريب غريب». وذكر أبو منصور الجواليقي أن التاريخ الذي يورخه الناس ليس بعربي محض وأن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب... وقيل إنه

^٣ ورد هذا النص نقلًا عن كتاب «الخراج» لأبي الفرج قدامة بن جعفر أيضًا عند ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١، ١: ٢١.

فَأَمَّا تَارِيخُ الخَلِيقَةِ - وَيُقَالُ لَهُ ائْتِدَاءُ كَوْنِ النُّسْلِ ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ بَدُو التَّحْرُوكِ - فَإِنَّ لِأَهْلِ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى ، وَالمَجُوسِ فِي كَيْفِيَّتِهِ وَسِيَاقَةِ التَّارِيخِ مِنْهُ خِلَافًا كَثِيرًا ^١ .

قال المَجُوسُ والفُرسُ ^٢ : عُمُرُ العَالَمِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ عَلَى عَدَدِ بُرُوجِ الفَلَكِ وشُهُورِ السَّنَةِ . وَزَعَمُوا أَنَّ زَرَادُشْتَ صَاحِبُ شَرِيعَتِهِمْ قَالَ : إِنَّ المَاضِي مِنَ الدُّنْيَا إِلَى وَقْتِ ظُهُورِهِ ثَلَاثَةَ أَلْفِ سَنَةٍ مَكْتُوبَةٌ الأَزْبَاعِ . وَبَيْنَ ظُهُورِ زَرَادُشْتَ وَأَوَّلِ تَارِيخِ الإِسْكَانْدَرِ ^(a) مِائَتَا سَنَةٍ وَثَمَانٍ وَخَمْسُونَ سَنَةً تَامَّةً ، فَيَكُونُ المَاضِي مِنَ أَوَّلِ العَالَمِ إِلَى الإِسْكَانْدَرِ ^(a) ثَلَاثَةَ أَلْفِ وَمِائَتَا سَنَةٍ وَثَمَانٍ وَخَمْسُونَ سَنَةً . وَإِذَا حَسَبْنَا مِنَ أَوَّلِ كُيُومَرْتِ - الَّذِي هُوَ عِنْدَهُمُ الإِنْسَانُ الأَوَّلُ ^٣ - وَجَمَعْنَا مُدَّةَ كُلِّ مَنْ مَلَكَ بَعْدَهُ - فَإِنَّ المَلِكَ مُتَّسِقًا ^(b) فِيهِمْ غَيْرَ مُنْقَطِعٍ عَنْهُمْ - كَانَ العَدَدُ مِنْهُ إِلَى الإِسْكَانْدَرِ ثَلَاثَةَ أَلْفِ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَأَرْبَعًا وَخَمْسِينَ سَنَةً ؛ فَلَيْسَ ^(c) يَتَّفِقُ التَّفْصِيلُ مَعَ الجُمْلَةِ ^٤ .

١٠ وقال قَوْمٌ : الثَلَاثَةُ الأَلْفِ المَاضِيَةُ إِنَّمَا هِيَ مِنَ خَلْقِ كُيُومَرْتِ ، فَإِنَّهُ مَضَى قَبْلَهُ أَلْفٌ ^(d) سَنَةً وَالفَلَكُ فِيهَا واقِفٌ غَيْرَ مُتَحَرِّكٍ ، وَالمَطْبَاطِعُ غَيْرُ مُسْتَحْيِلَةٍ ، وَالأُمُهَاتُ غَيْرُ مُتَمَارِجَةٍ ، وَالكَوْنُ وَالفَسَادُ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِيهَا ، وَالأَرْضُ غَيْرُ عَامِرَةٍ . فَلَمَّا تَحَرَّكَ الفَلَكُ ، حَدَثَ الإِنْسَانُ الأَوَّلُ فِي مُعَدَلٍ ^(e) النُّهَارِ ، وَتَوَلَّدَ الحَيَوانُ وَتَوَالَدَ ، وَتَنَاسَلَ الإِنْسَانُ فَكَثُرُوا ، وَامْتَرَجَتِ أَجْزَاءُ العَنَاصِرِ لِلكَوْنِ وَالفَسَادِ ، فَعَمُرَتِ الدُّنْيَا وَانْتَضَمَ العَالَمُ ^٥ .

١٥ وقال اليَهُودُ : المَاضِي مِنَ آدَمَ إِلَى الإِسْكَانْدَرِ ثَلَاثَةَ أَلْفِ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ وَثَمَانٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً . وَقَالَ النَّصَارَى : المُدَّةُ بَيْنَهُمَا خَمْسَةَ أَلْفِ وَمِائَةٍ وَثَمَانُونَ سَنَةً ، وَزَعَمُوا أَنَّ اليَهُودَ نَقَصُوهَا لِيَقَعَ خُرُوجُ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الأَلْفِ الرَّابِعِ وَسَطِ السَّبْعَةِ أَلْفِ الَّتِي هِيَ مِقْدَارُ العَالَمِ

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : ملصق . (c) الأصل وبولاق : فإذا لم ، والمثبت من البيروني . (d) البيروني : سنة آلاف . (e) بولاق : معدن .

^١ راجع ما كتبه المسعودي في التنبيه والإشراف ١٩٦ - اسمه : حيي ناطق ميت (الآثار الباقية ٩٩) ، وذكر القلقشندي أن كيومرت - ويقال جيومرت - هو مبدأ النسل عند الفرس .

^٢ من هنا ينقل المقرئ عن البيروني .

^٣ كيومرت هو أول ملوك الطبقة الأولى من الفرس المعروفين بـ «البيشداذية» ولقبه كرشاه أي ملك الطين (الخورزمي : مفاتيح العلوم ٦٣) ، وأضاف البيروني أن تفسير

^٤ نقلًا عن البيروني : الآثار الباقية ١٤ .

^٥ نفسه ١٤ - ١٥ .

عندهم ، حتى تُخالف ذلك الوقت الذي سبقت البشارة من الأنبياء الذين كانوا بعد موسى بن عمران عليه السلام بولادة المسيح عيسى^١ .

وإذا جُمِع ما في التوراة التي بيد اليهود ، من المدة التي بين آدم - عليه السلام - وبين الطوفان ، كانت ألفاً وست مائة وستاً وخمسين سنة . وعند النصارى في إنجيلهم ألفان ومائتا سنة واثنان وأربعون سنة .

وتزعم اليهود أن توراتهم بعيدة عن التخاليط ، وتزعم النصارى أن توراة السبعين - التي هي بأيديهم - لم يقع فيها تحريف ولا تبديل ، وتقول اليهود فيها خلاف ذلك ، وتقول السامرية بأن توراتهم هي الحق وما عداها باطل ، وليس في اختلافهم ما يُزيل الشك بل يُقوي الجأية له^٢ .

وهذا الاختلاف بعينه بين النصارى أيضاً في الإنجيل ، وذلك أن له عند النصارى أربع نسخ مجموعة في مصحف واحد : أحدها إنجيل متى ، والثاني لمازقوس ، والثالث للوقا ، والرابع ليوحنا ، قد أُلّف كل من هؤلاء الأربعة إنجيلاً على حسب دعوته في بلاده ؛ وهي مختلفة اختلافاً كثيراً حتى في صفات المسيح - عليه السلام - وأيام دعوته ، ووقت الصلب بزعمهم ، وفي نسبه أيضاً ، وهذا الاختلاف لا يُحتمل مثله^٣ .

ومع هذا فعند كل من أصحاب مرقيون وأصحاب ابن ديصان إنجيل يُخالف بعضه بعض^٤ هذه الأناجيل ، ولأصحاب ماني إنجيل على حدة يُخالف ما عليه النصارى من أوله إلى آخره ، ويَزعمون أنه هو الصحيح وما عداه باطل ، ولهم أيضاً إنجيل يسمى إنجيل السبعين يُنسب إلى بلامس^٥ ، والنصارى وغيرهم يُنكروونه^٤ .

وإذا كان الأمر من الاختلاف بين أهل الكتاب كما قد رأيت ، ولم يكن للقياس والرأي مدخل في تمييز حق ذلك من باطله ، امتنع الوقوف على حقيقة ذلك من قبيلهم ، ولم يُعول على شيء من أقوالهم فيه .

(a) زيادة من البيروني . (b) بولاق : تلامس .

الأربعة ورأي العلماء المسلمين فيها^١ Anawati, G.C., *El* art. *Indjil* III, pp. 1235-38 .

^١ البيروني : الآثار الباقية ١٥ .

^٢ قارن مع البيروني : الآثار الباقية ٢٠ - ٢١ .

^٤ نفسه ٢٣ .

^٣ البيروني : الآثار الباقية ٢٢ ؛ وانظر عن الأناجيل

وأما غير أهل الكتاب ، فإنهم أيضًا مختلفون في ذلك . قال أثينوس^(a) : بين خَلْقِ آدَمَ وبين لَيْلَةِ الجُمُعَةِ أوَّلِ الطُّوفَانِ ألفا سنة ومائتا سنة وستَ وعشرون سنة وثلاثة وعشرون يومًا وأربع ساعات^١ .

وقال ما شاء الله - واسمه مِنشًا بن أثري^٢ - مُنَجِّمُ المَنصُورِ والمأمُونِ في كتاب «القِرَانات» : أوَّلُ قِرَانٍ وَقَعَ بين زُحَلِ والمُشْتَرِي في بَدءِ التَحْرُوكِ - يعني ابتداء النُّشَلِ من آدَمَ - كان على مُضِيِّ خمس مائة وتسع سنين وشهرين وأربعة وعشرين يومًا مَضَتْ من أَلْفِ المَرِّيخِ ، فَوَقَعَ القِرَانِ في بُرْجِ الثُّورِ من المثلثة الأرضية على سَبْعِ دَرَجِ واثنين وأربعين دقيقة .

وكان انتقال المَمَرِّ من بُرْجِ الميزان ومثلثته الهوائية إلى بُرْجِ العَقْرَبِ ومثلثته المائية ، بعد ذلك بألفي سنة وأربع مائة سنة واثنين عشرة سنة وستة أشهر وستة وعشرين يومًا ، ووقَعَ الطُّوفَانُ في الشهر الخامس من السنة الأولى من القِرَانِ الثاني من قِرَانات هذه المثلثة المائية .

وكان بين وَقْتِ القِرَانِ الأوَّلِ الكائِنِ في بَدءِ التَحْرُوكِ ، وبين الشهر الذي كان فيه الطُّوفَانُ ، ألفان وأربع مائة وثلاث وعشرون سنة وستة أشهر واثنان عشر يومًا .

قال : وفي كُلِّ سبعة آلاف سنة وستين وعشرة أشهر وستة أيام ، يرجع القِرَانُ إلى مَوْضِعِهِ من بُرْجِ الثُّورِ الذي كان / في بَدءِ التَحْرُوكِ .

وهذا القَوْلُ - أعزَّكَ اللهُ - هو الذي اسْتُهِرَ حَتَّى ظَنَّ كثيرٌ من المَلَلِ أنْ مُدَّةَ بَقَاءِ الدنيا سبعة آلاف سنة . فلا تَعْتَرِّبه ، وتنبِّه إلى أصله تجده أوْهَى من يَبْتَ العَنْكَبُوتِ ، فاطْرَحْه .

(a) الأَصْلُ : أثينوس ، بولاق : أسوس والمثبت من البيروني .

والأديان والملل) (راجع ابن النديم : الفهرست ٣٣٣ ؛ صاعد الأندلسي : التعريف بطبقات الأمم ٢٢٣ Kennedy, E.S. & D. Pingree, *The Astrological History of Mashâ'allâh*, Cambridge, Massachusetts 1971 القفطي : تاريخ الحكماء ٣٢٧ ؛ Pringree, D., *Dictionary of Scientific Biography*, N.Y. 1974, pp. 159-62; Sezgin, F., *GAS VII*, pp. 102-8; Samsó, J., *El art. Mashâ'allâh VI*, pp. 699-700 ، وانظر فيما يلي ٧٧١ .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٢١ ، وأثينوس راوي الخبر وصفه البيروني بأنه أحد أصحاب الأخبار .

^٢ ما شاء الله بن أثري (أو سارية) فلكي يهودي أصله من البصرة ، وكان اسمه اليهودي مِنشًا (وكتبه ابن النديم والقفطي ميشي) ، اشتغل بعلم الفلك والنجوم في العراق منذ أيام أبي جعفر المنصور وحتى أيام المأمون (١٣٦-٢١٨هـ/ ٧٥٤-٨٣٣م) ولكن من المؤكد أنه كان موجودًا سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م . أورد له ابن النديم تسعة عشر مؤلفًا . واسم الكتاب الذي ينقل عنه المقرئ هنا كتاب في القِرَانات

وقيل : كان بين آدم وبين الطوفان ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمسة وثلاثون سنة ، وقيل كانت بينهما مدة ألفين ومائتين وست وخمسين سنة ، وقيل ألفان وثمانون سنة .

وأما تأريخ الطوفان فإنه يتلو تأريخ الخليقة ، وفيه من الاختلاف ما لا يطمع في حقيقته ، من أجل الاختلاف فيما بين [تأريخ]^(a) آدم وبينه ، وفيما بينه وبين تأريخ الإسكندر . فإن اليهود عندهم أن بين الطوفان وبين الإسكندر ألفا وسبع مائة واثنين وتسعين سنة ؛ وعند النصارى بينهما ألفا سنة وتسع مائة وثمانين وثلاثون سنة ؛ والفرس وسائر الجوس ، والكسدانيون^(b) أهل بابل ، والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ، يُنكرون الطوفان . وأقر بعض الفرس ، لكنهم قالوا : لم يكن الطوفان بيسوى الشام والمغرب ، ولم يعم العمران كله ، ولا غرق إلا بعض الناس ، ولم يتجاوز عقبة حلوان ، ولا بلغ إلى ممالك المشرق . قالوا : ووقع في زمان طهمورث^(c) ، وأن أهل المغرب لما أُنذِرَ حكماؤهم بالطوفان ، واتخذوا المباني العظيمة ، كالهَرَمَيْنِ بمصر ونحوهما ، ليَدْخُلُوا فيها عند حدوثه .

ولما بَلَغَ طهمورث الإنذار بالطوفان ، قبل كونه بمائة وإحدى وثلاثين سنة ، أمرَ باختيار مواضع في مملكته صحيحة الهواء والتربة ، فوجد ذلك بأصْبَهان ، فأمر بتجليد العلوم ودفنها فيها في أسلم المواضع . ويشهد لهذا ما وُجِدَ بعد الثلاث مائة من سني الهجرة ، في حيٍّ من مدينة أصْبَهان ، من التلال التي انشقت عن بيوت مملوءة أعدالاً عدّة كثيرة ، قد ملئت من لحاء الشجر التي تلبس بها القيسي وتسمى الثوز ، مكتوبةً بكتابة لم يدر أحد ما هي .^(d)

وأما المتجمون فإنهم صححوا هذه السنين من القرآن الأول من قرانات العلويين زُحَل والمُشَرِّي ، التي أثبت علماء أهل بابل والكلدانيين مثلها إذ كان الطوفان ظهوره من جهة^(d) ناحيتهم ، فإن السفينة استقرت على الجودي ، وهو غير بعيد من تلك النواحي . قالوا : وكان هذا القرآن قبل الطوفان بمائتين وتسع^(a) وعشرين سنة ومائة وثمانية أيام ، واعتنوا بأمرها وصححوا ما بعدها ، فوجدوا ما بين الطوفان وبين أول ملك بُحْت نصر الأول ألفي سنة وست مائة وأربع سنين ، وبين بُحْت نصر هذا وبين الإسكندر أربع مائة وست وثلاثون سنة ؛ وعلى ذلك بتي

(a) إضافة من البيروني . (b) بولاق : الكلدانيون . (c) بولاق : طهمورث . (d) ساقطة من بولاق .

أبو مَعَشَرٍ أَوْسَاطِ الْكَوَاكِبِ فِي زِيْجَةٍ ، وَقَالَ : كَانَ الطُّوفَانُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْكَوَاكِبِ فِي آخِرِ بُرْجِ الْحُوتِ وَأَوَّلِ بُرْجِ الْحَمَلِ ، وَكَانَ بَيْنَ وَقْتِ الطُّوفَانِ وَبَيْنَ تَأْرِيخِ الْإِسْكَانْدَرِ قَدْرَ أَلْفِي سَنَةٍ وَسَبْعِ مِائَةٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً مَكْبُوسَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَسِتَّةَ وَعَشْرِينَ يَوْمًا ^١ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِ الْخَمِيْسِ أَوَّلِ الْحَرَمِ مِنَ السَّنَةِ الْأُولَى مِنْ سِنِي الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَلْفُ أَلْفٍ يَوْمٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ أَلْفٍ يَوْمٍ وَتِسْعَةَ وَخَمْسُونَ أَلْفَ يَوْمٍ وَتِسْعَ مِائَةٍ يَوْمٍ وَثَلَاثَةَ وَسَبْعُونَ يَوْمًا ، يَكُونُ مِنَ السَّنِينَ الْفَارِسِيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ ثَلَاثَةَ آلَافِ سَنَةٍ وَسَبْعَ مِائَةٍ سَنَةٍ وَخَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً وَثَلَاثَ مِائَةٍ يَوْمٍ وَثَمَانِيَةَ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَعِنْدَ أَبِي مَعَشَرٍ أَنَّهُ كَانَ يَوْمَ الْخَمِيْسِ .
وَلَمَّا تَقَرَّرَ عِنْدَهُ الْجُمْلَةُ الْمَذْكُورَةُ ، وَخَرَجَتْ لَهُ الْمُدَّةُ الَّتِي تُسَمَّى أَدْوَارَ الْكَوَاكِبِ - وَهِيَ بَزْعِمِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ أَلْفٍ وَسِتُونَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ ، وَأَوَّلُهَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى وَقْتِ الطُّوفَانِ بِمِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ - حَكَمَ بِأَنَّ الطُّوفَانَ كَانَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَسَيَكُونُ فِيمَا بَعْدَ كَذَلِكَ . وَمِثْلُ هَذَا لَا يُقْبَلُ إِلَّا بِحُجَّةٍ ، أَوْ مِنْ مَعْصُومٍ ^٢ .

وَأَمَّا تَأْرِيخُ بُخْتِ نَصْرٍ فَإِنَّهُ عَلَى سِنِي الْقَيْطِ وَعَلَيْهِ يَعْمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ [السِّيَارَةِ] ^٣ مِنْ كِتَابِ الْمَجِيْسُطِيِّ ، ثُمَّ أَدْوَارَ فَالْلِبِسِ ^٤ ، وَأَوَّلُ أَدْوَارِهِ فِي سَنَةِ ثَمَانِيَةِ عَشْرَةٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ لِبُخْتِ نَصْرٍ ، وَكُلُّ دَوْرٍ مِنْهَا سِتٌّ وَسَبْعُونَ سَنَةً شَمْسِيَّةً ^٥ . وَكَانَ فَالْلِبِسُ مِنْ جُلَّةِ أَصْحَابِ التَّعَالِيمِ .

وَبُخْتِ نَصْرٍ هَذَا لَيْسَ هُوَ الَّذِي خَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، وَإِنَّمَا هُوَ آخِرُ مَا كَانَ قَبْلَ بُخْتِ نَصْرٍ مُخَرَّبَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِمِائَةِ وَثَلَاثَ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَهُوَ اسْمٌ فَارِسِيٌّ أَصْلُهُ «بُخْتِ نَرْسِي» وَمَعْنَاهُ : كَثِيرُ الْبُكَاءِ وَالْأَنِينِ ، وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ : نَصَارٌ ، وَقِيلَ تَفْسِيرُهُ عَطَارِدٌ ، وَهُوَ يُنْطَقُ وَذَلِكَ لِتَحْتِنِهِ ^٦ عَلَى الْحِكْمَةِ وَتَغْرِيْبِ أَهْلِهَا ، ثُمَّ عُرِّبَ فَقِيلَ بُخْتِ نَصْرٌ ^٧ .

وَأَمَّا تَأْرِيخُ فِيلِبْشٍ فَإِنَّهُ عَلَى سِنِي الْقَيْطِ ، وَكَثِيرًا مَا يُسْتَعْمَلُ هَذَا التَّأْرِيخُ مِنْ مَوْتِ الْإِسْكَانْدَرِ الْبَنَاءِ الْمَقْدُونِيِّ ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ سَوَاءٌ ، فَإِنَّ الْقَائِمَ بَعْدَ الْبَنَاءِ هُوَ فِيلِبْشٌ ، فَسَوَاءٌ كَانَ مِنْ مَوْتِ الْأَوَّلِ

(a) زيادة من البيروني . (b) بولاق : قالليس . (c) في بولاق : لنحييه .

^٣ نفسه ٢٧ .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٢٤ - ٢٥ .

^٤ نفسه ٢٧ .

^٢ نفسه ٢٥ - ٢٦ .

أو من قيام الآخر، فإن الحالة المؤرخة هي كالفضل المشترك بينهما، وفيلبش هذا هو أبو الإسكندر المقدوني. ويُعرف هذا التاريخ بتاريخ الإسكندرانيين وعليه بنى ثاون الإسكندراني في زيجه^(a) المعروف بالقانون^١.

وأما تاريخ الإسكندر فإنه على سني الروم، وعليه يعمل أكثر الأمم إلى وقتنا هذا، من أهل الشام وأهل بلاد الروم وأهل المغرب والأندلس والفرنج واليهود، وقد تقدم الكلام عليه عند ذكر الإسكندرية من هذا الكتاب^٢.

وأما / تاريخ أغسطس فإنه لا يُعرف اليوم أحد يستعمله. وأغسطس هذا هو أول القيصرية، ومعنى قيصر بالرومية: شق عنه، فإن أغسطس هذا لما حملت به أمه ماتت في المخاض، فشق بطنها حتى أخرج منه، فقيل قيصر، وبه يُلقب من بعده من ملوك الروم. ويتزعم النصارى أن المسيح - عليه السلام - وُلِدَ لأربعين سنة من ملكه، وفي هذا القول نظر، فإنه لا يصح عند سياقة السنين والتواريخ، بل يجيء تعديل ولادته عليه السلام في السنة السابعة عشر من ملكه^٣.

وأما تاريخ أنطونينس فإن بطلميوس صحح الكواكب الثابتة في كتابه المعروف بالمجسطي لأول ملكه على الروم، وسنو هذا التاريخ رومية^٤.

ذكر تاريخ القبط

اعلم أن السنة الشمسية عبارة عن عود الشمس في فلک البروج إذ تحركت على خلاف حركة الكل، إلى أي نقطة فرضت ابتداء حركتها، وذلك أنها تستوفي الأزمنة الأربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء، وتحوّز طبائعها الأربع، وتنتهي إلى حيث بدأت [منه]^(b)^٥.

وفي هذه المدة يستوفي القمر اثني عشرة عودة وأقل من نصف عودة، ويستهل اثني عشرة مرة، فجعلت المدة التي فيها عودات القمر اثنتا عشرة في فلک البروج سنة للقمر على جهة

(a) بولاق : تاريخه . (b) زيادة من البيروني .

^٤ نفسه ٢٩ .

^٥ نفسه ٩ .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٢٨ .

^٢ نفسه ٢٨ وفيما تقدم ٤١١ - ٤١٤ .

^٣ نفسه ٢٩ .

الاضطلاح، وأُسْقِط الكَشر الذي هو أحد عشر يومًا بالتقريب، فصارت السنة على قسمين: سنة شمسية، وسنة قمرية^١.

وجميع من على وجه الأرض من الأمم، أخذوا تواريخ سنيهم من مسير الشمس والقمر: فالأخذون بسير الشمس خمس أمم، هم اليونانيون والشريانيون والقبط والرُّوم والفُرس. والأخذون بسير القمر خمس أمم، هم الهند والعرب واليهود والنصارى والمسلمون^٢.

فأهل قسطنطينية والإسكندرية وسائر الروم والشونانيون والكلدانيون وأهل مصر ومن يعمل برأي المعتضد، أخذوا بالسنة الشمسية التي هي ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ورُبْع يوم بالتقريب، وصيروا السنة ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا، وألحقوا الأرباع بها في كل أربع سنين يومًا حتى انجبرت السنة، وسَمُوا تلك السنة كبيسة لانكباس الأرباع فيها^٣.

وأما قبط مصر القدماء فإنهم كانوا يتركون الأرباع حتى يجتمع منها أيام سنة تامة، وذلك في كل ألف وأربع مائة وستين سنة، ثم يكبسونها سنة واحدة، ويتفقون حينئذ في أول تلك السنة مع أهل الإسكندرية وقسطنطينية^٤.

وأما الفُرس فإنهم جعلوا السنة ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا من غير كبس، حتى اجتمع لهم من رُبْع اليوم - في مائة وعشرين سنة - أيام شهر تام، ومن خمس الساعة - الذي يتبع رُبْع اليوم عندهم - يوم واحد، فألحقوا الشهر التام بها في كل مائة وست عشرة سنة. واقتفى أثرهم في هذا أهل خوارزم القدماء والصغد ومن دان بدين فارس^٥.

وكانت الملوك البيشدازية منهم - وهم الذين ملكوا الدنيا بخدافيرها - يعملون السنة ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا، كل شهر منها ثلاثون يومًا سَوَاء، وكانوا يكبسون السنة كل ست سنين يوم ويسمونها كبيسة، وكل مائة وعشرين سنة بشهرين: أحدهما بسبب الخمسة الأيام، والثاني بسبب رُبْع اليوم. وكانوا يُعظّمون تلك السنة ويسمونها المباركة^٥.

^١ البيروني: الآثار الباقية ١٠.

الإسكندراني.

^٢ هذه الفقرة من كلام المقرئ.

^٤ نفسه ١٠-١١.

^٣ البيروني: الآثار الباقية ١٠ نقلًا عن زيج ثاؤن

^٥ نفسه ١١.

وأما قَدَماء القِبْط وأهل فارس في الإسلام وأهل خُوَازْم والصُّغْد^a، فتركوا الكُشور، أغني
الرُّبْع وما يتبعه أصلاً^١.

وأما العِبْرانيُّون وجميعُ بني إسرائيل والصَّابِثون والحَرَانيُّون، فإنَّهم أخذوا السَّنَةَ من مسير
الشَّمْس وشهورها من مسير القَمَر، لتكون أعيادهم وصيامهم على حساب قَمَرِيٍّ، وتكون مع
ذلك حافظةً لأوقاتها من السَّنَةِ، فكَبَسوا كلَّ تسع عشرة سنة قَمَرِيَّةً بسبعة^b أشهر. ووافقهم
النُّصَارِيُّ في صَوْمِهم وبعض أعيادهم، لأنَّ مدار أمرهم على فِضْح اليهود، وخالفهم في الشُّهور
إلى مذهب الرُّوم والشَّرْيانين^٢.

وكانت العَرَبُ في جاهليتها^c تنظر إلى فضل ما بين سنتهم وسنة القَمَر، وهو عشرة أيام
وإحدى وعشرون ساعة وخمسة ساعة، فيلحقون ذلك بها شهراً كلما تم منها ما يستوفي أيام
شهر، ولكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام وعشرون ساعة، وكان يتولى ذلك النِّسَاءُ من
بني كِنانة المعروفون بالقلاميس - واجدُهم قَلَمِس، وهو البحرُ الغزير - وهم^d أبو ثَمَامَةَ جُنَادَةَ بن
عَوْف بن أمية بن قَلَع [بن عباد بن قَلَع بن خديفة وكانوا كلهم نساءً]^e؛ وأول من فعل ذلك منهم
خديفة بن عبد فقيم، وآخر من فعله أبو ثَمَامَةَ^٣.

وأخذ العَرَبُ الكَبَسَ من اليهود قبل مجيء دين الإسلام بنحو المائتي سنة، وكانوا يكبسون في
كل أربع وعشرين سنة تسعة أشهر، حتى تبقى أشهر السنة ثابتة مع الأزمنة على حالة واحدة، لا
تأخر عن أوقاتها ولا تتقدم؛ إلى أن حجَّ رسولُ الله ﷺ [حجة الوداع]^e، وأنزل الله تعالى
عليه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا
عِدَّةَ / مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^١
[آية ٣٧ سورة التوبة]، فخطب ﷺ، وقال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ» فبطل النسِيء، وزالت شهور العَرَبِ عما كانت عليه، وصارت أسماءها غير دالة
على معانيها^٤.

(a) بولاق: الصغد. (b) بولاق: ستة. (c) بولاق: جهاتها. (d) بولاق: وهو. (e) زيادة من البيروني.

^١ البيروني: الآثار الباقية ١١ نقلًا عن كتاب المجسطي.

^٣ نفسه ١١-١٢.

^٤ نفسه ١٢، وفيما يلي ٧٦٦-٧٦٨.

^٢ نفسه ١١.

وأما أهل الهند، فإنهم يشتعملون رؤية الأهلة في شهورهم، ويكبسون كل تسع مائة سنة وستة^(a) وسبعين يوماً بشهر قمري، ويجعلون ابتداء تأريخهم اتفاق اجتماع في أول دقيقة من برج ما، وأكثر طلبهم لهذا الاجتماع أن يتفق في إحدى نقطتي الاعتدالين، ويسمونه السنة الكبيسة بدماسة^(b) ١.

فهذه آراء الخليفة في السنة .

وأما اليوم فإنه عبارة عن عود الشمس بدوران الكل إلى دائرة قد فرضت . وقد اختلف فيه : فجعله العرب من غروب الشمس إلى غروبها من الغد . ومن أجل أن شهور العرب مبنية على مسير القمر، وأوائلها مقيدة برؤية الهلال - والهلال يرى لدن غروب الشمس - صارت الليلة عندهم قبل النهار ٢.

١٠ وعند الفرس والروم اليوم بليته من طلوع الشمس بارزة من أفق المشرق إلى وقت طلوعها من الغد، فصار النهار عندهم قبل الليل . واحتجوا على قولهم بأن الثور وجود الظلمة عدم، والحركة تغلب على الشكون، لأنها وجود لا عدم وحياة لا موت، والسماء أفضل من الأرض، والعايل الشاب أصح، والماء الجاري لا يقبل عفونة كالراكد ٣.

١٥ واحتج الآخرون بأن الظلمة أقدم من الثور والثور طارئ عليها فالأقدم يبدأ به، وغلبوا الشكون على الحركة بإضافة الراحة والدعة إليه، وقالوا: الحركة إنما هي الحاجة، والضرورة والتعب تنتجها الحركة، والشكون إذا دام في الاستقصاءات مدة لم يؤلّد فساداً، فإذا دامت الحركة في الاستقصاءات واشتخكت أفسدت، وذلك كالزلازل والعواصف والأمواج وشبهها ٤.

٢٠ وعند أصحاب التنجيم أن اليوم بليته من موافاة الشمس فلک نصف النهار إلى موافاتها إياه في الغد، وذلك من وقت الظهر إلى وقت العصر، وبنوا على ذلك حساب أزياجهم . وبعضهم ابتداء باليوم من نصف الليل، وهو ضايب زيغ شهر ياران الشاه^(c) ٥، وهذا هو حد اليوم على الإطلاق

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : بدمات . (c) بولاق : شهر ياران شاه .

^٤ نفسه ٦ وورد فيه هذا الخبر سابقاً على الخبر المتقدم .

^٥ راجع عن زيغ شهر ياران الشاه، نلينو: علم الفلك

تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ١٨٣-١٨٦ .

^١ البيروني : الآثار الباقية ١٢-١٣ .

^٢ نفسه ٥ .

^٣ نفسه ٦ .

إذا اشترط الليلة في التركيب . فأما على التفصيل : فاليوم بانفراجه والنهار بمعنى واحد ، وهو من طلوع جِزْمِ الشَّمْسِ إلى غروب جِزْمِهَا ، واللَّيْلُ خِلاف ذلك وَعَكْسُهُ^١ .

وَخَدَّ بَعْضُهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ ، وَآخِرَهُ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [الآية ١٨٧ سورة البقرة] ، وَقَالَ : هَذَانِ الْحَدَّانِ هُمَا طَرَفَا النَّهَارِ . وَعُورِضَ بِأَنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا فِيهَا بَيَانُ طَرَفِي الصُّومِ لَا تَعْرِيفُ أَوَّلِ النَّهَارِ ، وَبِأَنَّ الشَّفَقَ ، مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ نَظِيرُ الْفَجْرِ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ ، وَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ فِي الْعِلَّةِ ، فَلَوْ كَانَ طُلُوعُ الْفَجْرِ أَوَّلَ النَّهَارِ لَكَانَ غُرُوبُ الشَّفَقِ آخِرَهُ ، وَقَدْ التَّزَمَ ذَلِكَ بَعْضُ الشَّيْعَةِ^٢ .

فَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَتَقُولُ : تَأْرِيخُ الْقَيْطِ يُعْرَفُ عِنْدَ نَصَارَى مِصْرَ الْآنَ بِتَأْرِيخِ الشُّهَدَاءِ ، وَيُسَمِّيهِ بَعْضُهُمْ تَأْرِيخُ دِقْلِيطْيَانُوسِ^٣ .

ذِكْرُ دِقْلِيطْيَانُوسِ^٤ الَّذِي يُعْرَفُ تَأْرِيخُ الْقَيْطِ بِهِ^٥ - اعْلَمْ أَنَّ دِقْلِيطْيَانُوسَ^٦ [Diocletianus] هَذَا أَحَدُ مُلُوكِ الرُّومِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْقِيَاصِرَةِ ، مَلَكَ فِي مِنتَصَفِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَتِسْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ مِنْ سَنِي الْإِسْكَانْدَرِ^٧ . وَكَانَ مِنْ غَيْرِ بَيْتِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا مَلَكَ تَجَبَّرَ ، وَامْتَدَّ مُلْكُهُ إِلَى مَدَائِنِ الْأَكَايِسِرَةِ وَمَدِينَةِ بَابِلَ ، فَاسْتَخْلَفَ ابْنَهُ عَلَى مَمْلَكَةِ رُومَةَ ، وَاتَّخَذَ تَحْتَ مُلْكِهِ بِمَدِينَةِ أَنْطَاكِيَةِ ، وَجَعَلَ لِنَفْسِهِ بِلَادَ الشَّامِ وَمِصْرَ إِلَى أَقْصَى الْمَغْرِبِ .

فَلَمَّا كَانَ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ عَشَرَ مِنْ مُلْكِهِ ، وَقِيلَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ ، خَالَفَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا ، وَأَوْقَعَ بِالنُّصَارَى ، فَاسْتَبَاحَ دِمَاءَهُمْ ، وَغَلَقَ كِنَائِسَهُمْ ، وَمَنَعَ مِنْ دِينِ النُّصَارَى ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَبَالَغَ فِي الْإِشْرَافِ فِي قَتْلِ النُّصَارَى .

(a) كذا في الأصل وببولاقي ولكنه صوب رسم الكلمة فيما يلي في الأصل إلى ديقلديانوس وديقلديانوس . (b) ببولاقي : دقليطيانوس .

المقريزي ٢٥٥-٢٥٧ .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٦ ، ٧ .

^٤ راجع حول ترجمة الإمبراطور ديقلديانوس (٢٤٥-)

نفسه ٧ ، ٨ .

Frend, W. H., CE art. Diocletian 3, pp. ٣١٣ (م٣١٣) ،

^٣ نشر عبد المجيد دياب هذا الفصل في كتابه

تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزي للعلامة 904-8 وما ذكر من مراجع .

وأقام ملكاً إحدى وعشرين سنة، وهلك بعد علي صعبة دود منها بدنه، وسقطت أسنانه. وهو آخر من عبدة الأصنام من ملوك الروم^١، وكل من ملك بعده فإمما كان على دين النصرانية، فإن الذي ملك بعده ابنه سنة واجدة، وقيل أكثر من ذلك. ثم ملك قسطنطين الأكبر، فأظهر دين النصرانية ونشره في الأرض^٢.

ويقال إن رجلاً ثار بمصر يقال له «أجلة» [Achilleus]، وخرج عن طاعة الروم، فسار إليه دقلديانوس وحصر الإسكندرية - دار الملك يومئذ - ثمانية أشهر حتى أخذ أجلة وقتله، وعم أرض مصر كلها بالسبني والقتل^٣.

وبعث قائدة فحاربت سائور ملك فارس، وقتل أكثر عسكره، وهزمه وأسر امرأته وإخوته، وأثخن في بلاده، وعاد بأسرى كثيرة من رجال فارس، ثم أوقع بعامة بلاد رومة فأكثر في قتلهم وسبيهم، فكانت أيامه شينة، قتل فيها من أوصاف الأمم، وهدم من بيوت العبادات ما لا يدخل تحت حصر.

وكانت واقعة بالنصارى / هي الشدة العائرة، وهي أشنع شدايدهم وأطولها، لأنها دامت عليهم مدة عشر سنين، لا يفتر يوماً واحداً يحرق فيها كنائسهم، ويعذب رجالهم، ويطلب من استتر منهم أو هرب ليقتل، يريد بذلك قطع أثر النصارى وإبطال دين النصرانية من الأرض، فهذا اتخذوا ابتداء ملك دقلديانوس تاريخاً.

وكان ابتداء ملكه يوم الجمعة، وبينه وبين يوم الاثنين أول يوم من ثوت، وهو أول أيام ملك الإسكندر بن فيلبش المقدوني، خمس مائة وأربع وتسعون سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة أيام وبين يوم الجمعة، أول يوم من تاريخ دقلديانوس، وبين يوم الخميس أول يوم من سنة الهجرة النبوية ثلاث مائة وثمان وثلاثون سنة قمرية وتسعة وثلاثون يوماً.

وجعلوا شهور السنة القبطية اثني عشر شهراً، كل شهر منها عدده ثلاثون يوماً سواء. فإذا تمت الأشهر الاثنا عشر، أتبعوها بخمسة أيام زيادة على عدد أيامها، وسموا هذه الخمسة الأيام أبو غمنا، وتعرف اليوم بأيام النسيء^٤.

^٢ أوروبسيوس: تاريخ العالم ٤٥٥. وانظر *The Coptic Encyclopedia I*, pp. 55-56.

^١ البيروني: الآثار الباقية ٢٩، وقارن ابن العربي: تاريخ مختصر الدول ٧٧-٧٨.

^٤ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٩٩.

^٢ انظر فيما يلي ٧٢١.

فيكون الحال في النسيء على ذلك ثلاث سنين متواليات ، فإذا كان في السنة الرابعة جعلوا النسيء ستة أيام ، فتكون سنوهم ثلاث سنين متواليات كل سنة ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً ، والرابعة يصير عددها ثلاث مائة وستة وستين يوماً .

ويؤرجع حكم سنيتهم إلى حكم سنة اليونانيين ، بأن تصير سنيتهم الوسطى ثلاث مائة وخمسة وستين يوماً وزربع يوم ، إلا أن الكبس يختلف فإذا كان كبس القبط في سنة ، كان كبس اليونانيين في السنة الداخلة .

وأسماء شهور القبط - ثوت ، بابه ، هاتور ، كيهك ، طوبة ، أمشير ، برمهاات ، برمودة ، بشنس ، بؤونة ، أييب ، مشرى^١ . فهذه اثنا عشر شهراً ، كل شهر منها عدده ثلاثون يوماً ، وإذا كانت عددة شهر مشرى ، وهو الشهر الثاني عشر ، زادوا أيام النسيء بعد ذلك ، وعملوا التوزوز أول يوم من شهر ثوت^٢ .

ذكر أسابع الأيام

اعلم أن القدماء من الفرس والصغدة^a وقبط مصر الأول لم يكونوا يستعملون الأسابع من الأيام في الشهور ، وأول من استعملها أهل الجانب الغربي من الأرض ، لا سيما أهل الشام وما حواليه ، من أجل ظهور الأنبياء عليهم السلام فيما هنالك ، وإخبارهم عن الأسبوع الأول وبدء العالم فيه ، وأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام من الأسبوع .

ثم انتشر ذلك منهم في سائر الأمم ، واستعملته العرب العاربة بسبب تجاور ديارهم وديار أهل الشام ، فإنهم كانوا قبل تحولهم إلى اليمن بابل ، وعندهم أخبار نوح عليه السلام ، ثم بعث الله تعالى إليهم هوداً ثم صالحاً عليهما السلام ، وأنزل فيهم إبراهيم خليل الرحمن وابنه إسماعيل عليهما السلام ، فتعرب إسماعيل .

وكانت القبط الأول تستعمل أسماء الأيام الثلاثين من كل شهر ، فتجعل لكل يوم منها اسماً كما هو العمل في تاريخ الفرس ؛ وما زالت القبط على هذا إلى أن ملك مصر أغسطس بن يوجس ، فأراد أن يحيلهم على كبس السنين ليوافقوا الروم أبداً فيها ، فوجدوا الباقي حيثئذ إلى

(a) بولاق : الصغد .

^٢ انظر فيما يلي ٧٣٠ .

^١ انظر فيما يلي ٧٣٠ - ٧٣٩ .

تمام السنة الكبيسة الكبرى خمس سنين ، فانتظر حتى مضى من ملكه خمس سنين ، ثم حملهم على كبس الشهور في كل أربع سنين يوم كما تفعل الروم . فترك القبط من حينئذ استعمال أسماء الأيام الثلاثين لاختياجهم في يوم الكبس إلى اسم يخصه ^١ ، وانقرض بعد ذلك مستعملوا أسماء الأيام الثلاثين من أهل مصر والعارفون بها ، ولم يبق لها ذكر يُعرف في العالم بين الناس ، بل دثرت كما دثرت غيرها من أسماء الرسوم القديمة والعادات الأول ، سنة الله في الدين خلوا من قبل .

وكانت أسماء شهور القبط في الزمن القديم : ثوت ، باؤني ^٢ ، أثور ، شواقي ^٣ ، طوبى ، ماكير ، فامينو ، بزموثي ، ناخون ، باوني ، أفيفي ، أبيقا ، وكل شهر منها ثلاثون يوماً ، ولكل يوم اسم يخصه . ثم أخذت بعض رؤساء القبط ، بعد استعمالهم الكبس ، الأسماء التي هي اليوم متداولة بين الناس بمصر ؛ إلا أن من الناس من يُسمي كيهك كياك ، ويقول في بزّمهات بزّمهوط ، وفي بشنس بشانس ، وفي مشري ماسوري .

ومن الناس من يُسمي الخمسة الأيام الزائدة أيام النسيء ، ومنهم من يُسميها أبو غمنا ^٤ ، ومعنى ذلك : الشهر الصغير ، وهي كما تقدم تلحق في آخر مشري ، وفيه يُزاد اليوم الكبس ، فيكون أبو غمنا ^٤ ستة أيام حينئذ ، ويُسمون السنة الكبيسة النقط ، ومعناه العلامة ^٢ .

ومن خرافات القبط أن شهورهم هي شهور سني نوح وشيث وآدم منذ ابتداء العالم ، وأنها لم تزل على ذلك إلى أن خرج موسى ببني إسرائيل من مصر ، فعملوا أول سنتهم خامس عشر نيسان كما أمروا به في التوراة ، إلى أن نقل الإسكندر رأس سنتهم إلى أول تشرين .

وكذلك المصريون نقل بعض ملوكهم أول سنتهم إلى أول يوم من ملكه ، فصار أول ثوت عندهم يتقدم أول يوم / خلق فيه العالم بمائتين وثمانية أيام ، أولها يوم الثلاثاء وآخرها يوم السبت . وكان ثوت أوله في ذلك الوقت يوم الأحد ، وهو أول يوم خلق الله فيه العالم ، الذي يُقال له الآن تاسع عشري بزّمهات .

٢٦٤:١

(a) بولاق : بؤوني . (b) بولاق : شواقي . (c) بولاق : أبو عمنا .

^١ مصدر هذه المعلومات البيروني : الآثار الباقية ^٢ نفسه ٤٩ - ٥٠ .

وذلك أن أول من ملك على الأرض ، بعد الطوفان ، نمرود بن كنعان بن حام بن نوح ، فعمر بابل ، وهو أبو الكلدانيين . وملك بنو مضر بن حام بن نوح - عليه السلام - منفس^(a) ، فبنى بمصر منف على النيل ، وسماها باسم جدّه مضر بن مضر ، وهو ثاني ملك على الأرض . وهذا الملكان اشتعلا تاريخ جدّهما نوح - عليه السلام - واشتنّ بشنتهم من جاء بعدهم حتى تغيّرت كما تقدّم .

ذكر أعياد القبط من النصارى بديار مصر

رَوَى ابنُ يونس ، عن عُمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - أنه قال : اجْتَنِبُوا عِيدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَإِنَّ الشَّخْطَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فِي مَجَامِعِهِمْ ، وَلَا تَعْلَمُوا رَطَانَتَهُمْ فَتُخْلَقُوا بِيَعْسِ خُلُقِهِمْ .

^(b) وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الآية ٧٢ سورة الفرقان] قال : أعيادُ المشركين ؛ فقليل له : أو ما هذا في الشهادة بالزور ؟ فقال : لا ، إنما آية شهادة الزور : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُورًا﴾ [الآية ٣٦ سورة الإسراء] .

اعلم أن نصارى مصر من القبط يتتجلون مذهب اليعقوبية كما تقدّم ذكره ؛ وأعيادهم الآن ، التي هي مشهورة بديار مصر ، أربعة عشر عيداً في كل سنة من سنيهم القبطية : منها سبعة أعياد يُسمونها أعياداً كباراً ، وسبعة يُسمونها أعياداً صغاراً .

فالأعياد الكبار عندهم : عيدُ البشارة ، وعيدُ الزيثونة ، وعيدُ الفصح ، وعيدُ خميس الأربعين ، وعيدُ الخمسين^(c) ، وعيدُ الميلاد ، وعيدُ الغطاس .

والأعياد الصغار : عيدُ الحيتان ، وعيدُ الأربعين ، وخميسُ العهد ، وسبتُ الثور ، وأحدُ الحدود ، والتجلي ، وعيدُ الصليب .

(a) بولاق : متش . (b-b) هذه الفقرة ساقطة من نسخة ظ . (c) في جميع النسخ : عيد الخميس .

¹ نشر هذا الفصل ونقله إلى الفرنسية جريفو بعنوان Griveau, «Les fetes des Coptes par al-Maqrizî», Part. Or. X (1915), pp. 313-43 كما نشره عبد الحميد دياب في كتاب «تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزي» للعلامة المقرئزي ، ٢٣١ - ٢٥٠ ، وهو موجود في الكراسة التي بخط المقرئزي والمحفوطة في مكتبة Liège وفي نسخة الظاهرية (ظ) المنقولة عن مسودة المقرئزي .

ولهم مواسمٌ آخر ليست هي عندهم من الأعياد الشرعيّة ، لكنّها عندهم من المواسم العادية ، وهو يومُ التّوزوز .

وسأذكر من خبر هذه الأعياد ما لا تجده مجموعاً في غير هذا الكتاب ، على ما استخرجته من كُتب النّصارى وتواريخ أهل الإسلام^١ .

- ٥ عيدُ البشارة - هذا العيد عند النّصارى ، أضله إشارة جبريل مرّيم بميلاد المسيح - عليهما السلام - وهم يُسمّون جبريل غبريال ، ويقولون مارت مرّيم ، ويُسمّون المسيح ياشوع ، وربما قالوا الشّيّد يشوع . وهذا العيدُ عمله نصارى مصر في اليوم التاسع والعشرين من شهر برّمهات^٢ .
- ١٠ عيدُ الزّيثونة - ويُعرف عندهم بعيد الشعانين ، ومعناه التّسبيح ، ويكون في سابع أحدٍ من صومهم . وسنتهم في عيد الشعانين أن يخرجوا بسعف^٣ النّخل من الكنيسة ، ويرون أنّه يومُ رُكوب المسيح اليغفور^٤ (وهو الحمار) في القُدس ودُخوله إلى صهيون وهو راكب ، والناس بين يديه يُسبّحون ، وهو يأمر بالمعروف ، ويحث على عمَل الخير ، وينتهي عن المُتكر ويُباعد عنه^٥ .
- وكان عيدُ الشعانين من مواسم النّصارى بمصر التي تُزيّن فيها كنائسهم . فلمّا كان لعشرٍ خلّون من شهر رجب سنة ثمانٍ وتسعين^٦ و ثلاث مائة ، كان عيدُ الشعانين ، فَمَنع الحاكمُ بأمر الله أبو عليّ منصور بن العزيز بالله ، النّصارى من تزيّن كنائسهم وحملهم الخوص على ما كانت عادتهم ، وقبض على عدّة مَن وَجَدَ معه شيئاً من ذلك ، وأمر بالقبض على ما هو مُحَبَس على الكنائس من الأملاك ، وأدخّلها في الدّيوان ، وكتب لسائر الأعمال بذلك ، وأُحرقت عدّة من صُلبانهم على باب الجامع العتيق بمصر^٧ والشُرطة^٨ .

عيدُ الفِضح^٩ - هذا العيدُ عندهم هو العيد الكبير ، ويَزعمون أنّ المسيح - عليه السلام - لما تمّالاً اليهودُ عليه ، واجتمَعوا على تَضليله وقُتله ، قَبضوا عليه وأحضروه إلى خَشَبَة ليُصلب عليها ،

(a) بولاق : سفف . (b) بولاق : العفور . (c) بولاق : سبعين . (d) ساقطة من بولاق . (e) الأصل وبولاق وظ : الفسح .

^١ اعتمد المقرئ في ذكره أعياد القبط ربما على أوتخيوس Eutychius أو المكين بن العميد ، وهي تقريرا نفس المصادر التي اعتمد عليها القلقشندي عند ذكره لأعياد القبط في مصر وإن لم يُصرّح كلٌّ منهما بمصدره (صبح الأعشى ٤٢٥:٢-٤٣٥ ، ٢٨٤:١٣) . وأورد المقرئ ذكر أعياد

القبط في الكراسة الموجودة بخطه في مكتبة Liège ببلجيكا ورقة ١٨٥ ظ-١٨٦ ظ .

^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٤٢٥:٢ .

^٣ نفسه ٤٢٥:٢ .

^٤ المقرئ : اتعاظ الحنفا ٧١:٢ .

فُصِّلَ عَلَى خَشْبَةِ عَلَيْهَا لِيَصَانَ . وعندنا - وهو الحق - أَنَّ الله تعالى رَفَعَهُ إِلَيْهِ ، ولم يُصَلِّبْ ولم يُقْتَلْ ، وَأَنَّ الذي صُلِّبَ عَلَى الخَشْبَةِ مع اللُّصِينِ ، غير المَسِيحِ أَلْقَى اللهُ عَلَيْهِ شَبَهَ المَسِيحِ ^١ .
قالوا : واقتسم الجندُ ثيابه ، وغشي الأرض ظلمة من الساعة السادسة من النهار إلى الساعة التاسعة من يوم الجمعة خامس عشر هلال نيسان للعبرانيين ، وتاسع عشري برمهات ، وخامس عشري آذار سنة [٥٧٠٣ قمرية] ^(a) .

وَدُفِنَ الشَّيْبَةُ فِي ^(b) آخِرِ النَّهَارِ بِقَبْرِ ، وَأُطْبِقَ عَلَيْهِ حَجَرٌ عَظِيمٌ ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ رُؤْسَاءُ الْيَهُودِ ، وَأَقَامُوا عَلَيْهِ الحَرَسَ بِاِكْرَ يَوْمِ السَّبْتِ كَيْلَا يُسْرَقَ . فزَعَمُوا أَنَّ المَقْبُورَ قَامَ مِنَ القَبْرِ لَيْلَةَ الأَحَدِ سَحْرًا ، وَمَضَى بُطْرُسُ وَيُوحَنَّا التُّلْمِيزَانِ إِلَى القَبْرِ ، وَإِذَا الثِّيَابُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى المَقْبُورِ فَقَطَّ ^(c) بِغَيْرِ مَيِّتٍ ، وَعَلَى القَبْرِ مَلَكَ اللهُ ثِيَابٍ بِيضٍ ، فَأَخْبَرَهُمَا بِقِيَامَةِ ^(d) المَقْبُورِ مِنَ القَبْرِ .

قالوا : وفي عَشِيَّةِ يَوْمِ الأَحَدِ هَذَا ، دَخَلَ المَسِيحُ عَلَى تَلَامِيذِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَأَكَلَ مَعَهُمْ وَكَلَّمَهُمْ وَأَوْصَاهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِأُمُورٍ قَدْ تَضَمَّنَتْهَا إِنْجِيلُهُمْ .
وهذا العيدُ عندهم بعد عيد الصَّلْبِوتِ / بثلاثة أيام .

خَمِيسُ الأَرْبَعِينَ - وَيُعْرَفُ عِنْدَ أَهْلِ الشَّامِ بِالسَّلَاقِ ^(e) ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا عِيدُ الصُّعُودِ ، وَهُوَ اليَوْمُ ^(b) الثَّانِي والأَرْبَعُونَ مِنَ الفِطْرِ ^٢ . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ المَسِيحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بعد أربعين يومًا من قِيَامَتِهِ ، خَرَجَ إِلَى بَيْتِ عَنِّيَا وَالتَّلَامِيذِ مَعَهُ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَبَارَكَ عَلَيْهِمْ وَصَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ . فَرَجَعَ التَّلَامِيذَةُ إِلَى أُورَاشَلِيمَ - يَعْنِي بَيْتَ المَقْدِسِ - وَقَدْ وَعَدَهُمْ بِاشْتِهَارِ أَمْرِهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ . فَهَذَا اعْتِقَادُهُمْ فِي كَيْفِيَّةِ رَفْعِ المَسِيحِ : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [الآية ٨٧ سورة النساء] .

عِيدُ الخَمْسِينَ ^(f) - وَهُوَ العُنْصُرَةُ ، وَيَعْمَلُونَهُ بعد خَمْسِينَ يَوْمًا مِنَ القِيَامِ ^٣ ، وَزَعَمُوا أَنَّ بعد عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنَ الصُّعُودِ وَخَمْسِينَ يَوْمًا مِنَ قِيَامَةِ المَسِيحِ ، اجْتَمَعَ التَّلَامِيذُ فِي عِلْيَةِ صَهْيُونِ ، فَتَجَلَّى

(a) بياض بجميع النسخ ، والمثبت من نشرة فييت نقلًا عن تاريخ المكين . (b) زيادة من ظ . (c) ساقطة من بولاق .

(d) بولاق : بقيام . (e) بولاق : بالسلاق . (f) جميع النسخ : عيد الخميس .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٦ . ^٣ نفسه ٢ : ٤٢٦ وفيه أنه يحتفل به في السادس

^٢ نفسه ٢ : ٤٢٦ . والعشرين من بشنس .

لهم رُوح القدس في شبه ألسنة من نار، فامتلاوا من رُوح القدس، وتكلموا بجميع الألسن، وظهرت على أيديهم آيات كثيرة، فعاداهم اليهود وحبسواهم، فنجاهم الله منهم، وخرجوا من السجن فساؤوا في الأرض متفرقين يدعون الناس إلى دين المسيح.

الميلاد - يزعمون أنه اليوم الذي وُلِدَ فيه المسيح، وهو يوم الاثنين، فيجعلون عشيّة الأحد ليلة الميلاد^(a). وسنتهم فيه كثرة التوقود بالكنايس وتزيينها، ويعملونه بمصر في التاسع والعشرين من كيهك^١. ولم يزل بديار مصر من المَواسيم المشهورة فكان يُفَرَّق فيه - أيام الدولة الفاطميّة - على أرباب الرُشوم من الأُستاذين المحنكين والأمرء المطوقين وسائر العوالي^(b) من الكُتاب وغيرهم الجأّات من الحلاوة القاهريّة، والمثارد التي فيها السמיד، وقرابات الجلاب، وطيافير الزلاية، والسّمك المعروف بالبوري^٢.

١٠ ومن رَسَم النَّصَارَى فِي الْمِيلَادِ اللَّعِبُ بِالنَّارِ؛ وَمِنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ :

[البسيط]

ما اللَّعِبُ بِالنَّارِ فِي الْمِيلَادِ مِنْ سُنَّةٍ^(c) وَأَمَّا فِيهِ لِلْإِسْلَامِ مَقْصُودٌ

فَفِيهِ بُهِتَ النَّصَارَى أَنَّ رَبَّهُمْ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ مَخْلُوقٌ وَمَوْلُودٌ

وأدركنا الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر إقليم مصر مؤسماً جليلاً، يُباع فيه من الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة والتمائيل البديعة بأموال لا تنحصر، فلا يتقى أحد من الناس أغلاهم وأذنانهم حتى يشتري من ذلك لأولاده وأهله. وكانوا يُسَمُّونها القوانيس (واجدها فانوس)^٣، ويُعلّقون منها في الأسواق بالخوانيت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة والملاحة. ويتنافس الناس في المغلاة في أثمانها، حتى لقد أدركت شمعة عُمِلت فبلغ مضرؤها ألف درهم وخمس مائة درهم فضة، عنها يومئذ ما ينيف على سبعين مثقالاً من الذهب.

٢٠ وأُعرِف السُّؤال فِي الطُّرُقَات أَيَّامَ هَذِهِ الْمَوَاسِمِ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يُتَّصَدَّقَ عَلَيْهِمْ بِفَانُوسٍ، فَيَشْتَرِي لَهُمْ مِنْ صِغَارِ الْقَوَانِيسِ مَا يَبْلُغُ ثَمَنُهُ الدَّرْهَمَ وَمَا حَوْلَهُ.

(a) بولاق : فيحيون عشيّة ليلة الميلاد . (b) بولاق : الموالى . (c) بولاق : سفه .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٦ .

^٢ انظر فيما يلي ١ : ٤٩٤ .

^٣ هذه إشارة مهمة لأصل استخدام الفانوس في مصر عادات شهر رمضان في مصر عند المسلمين .

ثم لما اختلت أمور مصر ، كان من جملة ما بطل من عوائد الترف عمل الفوانيس في الميلاد إلا قليلاً .
الغطاس - ويُعمل بمصر في اليوم الحادي عشر من شهر طوبة ؛ وأصله عند النصارى أن يحيى
ابن زكرياء - عليهما السلام - المعروف عندهم بيوحنا المعمدانى - عمّد المسيح (أي غسله) في
بُحيرة الأزْدَن ، وعندما خرج المسيح عليه السلام من الماء اتّصل به رُوح القدس ؛ فصار النصارى
لذلك يغمسون أولادهم في الماء في هذا اليوم ، ويترلون فيه بأجمعهم ، ولا يكون ذلك إلا في
شدة البرد ، ويُسمونه يوم الغطاس ، وكان له بمصر مؤسّم عظيم إلى الغاية ^١ .

قال المشعودي : وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ، لا يتأم الناس فيها ، وهي ليلة
الحادي عشر من طوبة . ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاث مائة ليلة الغطاس بمصر والإخشيد
محمد بن طنج - أمير مصر - في داره المعروفة بالمختار في الجزيرة الراكبة للنيل ^٢ ، والنيل يُطيفُ
بها ، وقد أمر فأسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر
من المشاعل والشمع . وقد حضر بشاطئ النيل في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين ومن
النصارى : منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدائنة من النيل ، ومنهم على سائر الشطوط ، لا
يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المأكّل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر
والملاهي والعزف والقصف ؛ وهي أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سرورًا ، ولا تُغلق فيها
الدروب ، ويُغطس أكثرهم في النيل ، ويترعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة للداء ^٣ .

وقال المسبحي في «تاريخه» من حوادث سنة سبع وستين وثلاث مائة : مُنع النصارى من
إظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء وإظهار الملاهي ، ونودي أن من عمل
ذلك نُفي من الحضرة ^٤ .

وقال : في سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة كان الغطاس ، فضربت الخيام والمضارب والأسيرة
في عدة مواضع على شاطئ النيل ، ونصبت أسيرة للرئيس فهد بن إبراهيم النصراني كاتب الأستاذ
برجوان ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وحضر المغنون والملهون ، وجلس مع أهله يشرب إلى
أن كان / وقت الغطاس فغطس وأنصرف ^٥ .

^٣ المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٦٩ - ٧٠ .

^٤ المسبحي : نصوص ضائعة ١٢ .

^٥ نفسه ١٨ - ١٩ وفيما يلي ١ : ٤٩٤ .

^١ الفلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٦ وفيه : يقول

المصريون : غطستم صبيحتم ، ونورزتم شئتم .

^٢ انظر عنه ، ابن سعيد : المغرب ١٦٠ - ١٦١ .

وقال: في سنة إحدى وأربع مائة، وفي ثامن عشري جمادى الأولى، وهو عاشر طوبى، مُنع النَّصَارَى من الغطاس، فلم يُغطس أحدٌ منهم في البحر^١.

وقال في حوادث سنة خمس عشرة وأربع مائة: وفي ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة: كان غطاس النَّصَارَى، فجزى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضأن وغيره، ونزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله لقصر جدّه العزيز بالله في مصر، لتظر الغطاس ومعه الحرّم، وتؤدي ألا يتخلط المسلمون مع النَّصَارَى عند نزولهم في البحر في الليل^٢.

وضرب بذر الدولة، الخادم الأسود متولي الشرطتين، خيمة عند الجسر وجلس فيها، وأمر أمير المؤمنين بأن توفد النار والمشاعل في الليل، وكان وقيدًا كثيرًا، وحضر الرهبان والقسوس بالصُّلبان والنيران، فقسسوا هناك طويلًا إلى أن غطسوا^٣.

وقال ابن المأمون في «تاريخه» من حوادث سنة سبع عشرة وخمس مائة، وذكر الغطاس: ففرق أهل الدولة ما جرت به العادة لأهل الرسوم من الأترج والليمون المراكبي^٤، وأطنان القصب والبوري، بحسب الرسوم المقررة بالديوان لكل أحد^٥.

الخيطان - يُعمل في سادس شهر بثونة، ويؤمنون أن المسيح حُتِن في هذا اليوم، وهو الثامن من الميلاد، والقبط من دون النَّصَارَى تحتن^٦ بخلاف غيرهم^٧.

الأزتمون - وهو عندهم دخول المسيح الهيكل، ويؤمنون أن سَمعان الكاهن دخل بالمسيح مع أمّه [الهيكل]^٨ وبارك عليه، ويُعمل في ثامن شهر أمشير^٩.

خميس العهد - ويُعمل قبل الفصح بثلاثة أيام، وسنتهم فيه أن يملأوا إناء من ماء ويُزمرمون عليه، ثم يغسل البشرى به^{١٠} أزجل سائر النَّصَارَى، ويؤمنون أن المسيح فعل هذا بتلاميذته في مثل هذا اليوم كي يعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد ألا يتفرقوا، وأن يتواضع بعضهم لبعض.

(a) بولاق: النيل. (b) بولاق: الليمون في المراكب وفيما يلي ١١٨:٢. (c) بولاق: واحد. (d) بولاق: تختن. (e) بولاق: تختن. (f) زيادة من صبح الأعشى. (g) الأصل: المتبرك به، بولاق: للتبرك به والمثبت من ظ.

^١ ابن المأمون: أخبار مصر ٦٣ وفيما يلي ٤٩٥.

^٢ المسيحي: نصوص ضائعة ٣٠.

^٣ القلقشندي: صبح الأعشى ٤٢٧:٢.

^٤ المسيحي: أخبار مصر ٧٠-٧١؛ المقرئ: اتعاظ

^٥ نفسه ٤٢٧:٢.

الحنفا ٢: ١٦٣ وفيما يلي ٤٩٤.

وعوام أهل مصر في وقتنا يقولون : خميس العَدَس ، من أجل أن النَّصَارَى تطبخ فيه العَدَس المَصْفَى^١ ؛ ويقول أهل الشام : خميس الأرز وخميس البيض ؛ ويقول أهل الأندلس : خميس إبريل ، وإبريل اسم شهر من شهورهم .

وكان في الدولة الفاطمية تُضْرَب في خميس العَدَس هذا خمس مائة دينار ، فتعمل خرايب تُفَرَّق في أهل الدولة برسوم مُقَرَّرَة^٢ ، كما ذُكِرَ في أخبار القصر من القاهرة عند ذكر دار الضرب من هذا الكتاب^٣ .

وأذكرنا خميس العَدَس هذا في القاهرة ومصر وأعمالهما من جملة المواسم العظيمة ، فيباع في أسواق القاهرة من البيض المصْبُوغِ عِدَّة ألوان ما يتجاوز حدَّ الكثرة ، فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء ، ويُتَدَب لذلك من جهة المحتسب من يزدهم في بعض الأحيان ، ويُهادي النَّصَارَى بعضهم بعضاً ، ويُهدون إلى المسلمين أنواع السمك المتنوع مع العَدَس المَصْفَى والبيض . وقد بطل ذلك لما حلَّ بالناس ، وبقيت منه بقية .

سَبْتُ الثُّور - وهو قبل الفصح بيوم ، ويزعمون أن الثور يظهر على قبر المسيح - بزعمهم - في هذا اليوم بكنيسة القمامة من القدس ، فتشعل مصابيح الكنيسة كلها^٤ . وقد وقف أهل القصر والتفتيش على أن هذا من جملة مخاريق النَّصَارَى بصناعة يعملونها .

وكان بمصر هذا اليوم من جملة المواسم ، ويكون ثالث يوم من خميس العَدَس ، ومن توابعه . حدُّ الحدود - وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، فيعمل أول أحد بعد الفطر لأن الأحاد قبله مشغولة بالصوم ، وفيه يُجددون الآلات والأثاث واللباس ، ويأخذون في المعاملات والأمور الدنيوية والمعاش^٥ .

عيد التجلي - يعمل في ثالث عشر شهر مشري ، يزعمون أن المسيح تجلى لتلاميذه بعد ما رُفِع ، وتمنوا عليه أن يُحضر لهم إيلياء وموسى - عليهما السلام - فأخضرتهما إليهم بمصلى بيت المقدس ، ثم صعد إلى السماء وتركهم^٥ .

(a) بولاق : مفردة .

^٤ نفسه ٢ : ٤٢٨ .

^٥ نفسه ٢ : ٤٢٨ .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٧ .

^٢ فيما يلي ١ : ٤٥٠ .

^٣ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٧ .

عيد الصليب - ويُعمل في اليوم السابع عشر من شهر ثوت ، وهو من الأعياد المحدثّة ، وسببه ظهور الصليب - بزعمهم - على يد هيلانا أم قسطنطين^١ ، وله خبرٌ طويلٌ عندهم ملخصه ما أنت تراه .

ذكر قسطنطين^٢ - وقسطنطين هذا هو ابن قسطنش بن وليطوس بن ولنطينوس بن دقيون بن كلوديش بن غايش بن أكتبيان أغشت الأعظم الملقب قيصر ؛ وهو أول من ثبت دين النصرانية ، وأمر بقطع الأوثان وهدم هياكلها وبنيان البيع ، وآمن من الملوك بالمسيح . وكانت أمه هيلانة من مدينة الرها ، فتشأ بها مع أمه وتعلم العلوم ، ولم يزل في غاية من الظفر والسعادة ، معانًا منصورًا على كل من حاربه .

وكان في أول أمره على دين المجوس ، شديدًا على النصارى ماقتًا لدينهم ، وكان سبب رجوعه عن ذلك إلى دين النصرانية أنه ابتلي بجذام ظهر عليه ، فاعتق لذلك عمًا شديدًا ، وجمع الحدائق من الأطباء ، فاتفقوا على أدوية ذبروها له ، وأوجبوا أن يستتيع - بعد أخذ تلك الأدوية - في صهريج مملوء من دماء أطفال رضع ساعة يسيل منهم .

فتقدم أمره بجمع جملة من أطفال الناس ، وأمر بذبحهم في صهريج ليشتتيع في دمائهم وهي طرية ، فجمعت الأطفال لذلك ، وبزز ليضمي فيهم ما تقدم به من ذبحهم ، فسمع ضجيج النساء اللاتي أخذ / أولادهن فرجمهن وأمر فدفع لكل واحدة ابنا ، وقال : احتمال علتى أولى بي وأوجب من هلاك هذه العدة العظيمة من البشر . فأنصرف النساء بأولادهن وقد سرزن سرورًا كثيرًا .

فلما صار من الليل إلى مضجعه ، رأى في منامه شيخًا يقول له : إنك رحمت الأطفال وأمهاتهم ، ورأيت احتمال علتك أولى من ذبحهم ، فقد رحمك الله ووهبك السلامة من علتك ، فابتعت إلى رجل من أهل الإيمان يدعى «سلبشتر» قد فر خوفًا منك ، وقف عند ما يأمرك

وانظر كذلك البيروني : الآثار الباقية ٩٥ . وولد قسطنطين في

مدينة Naisos سنة ٢٧٣ م وحمل لقب أغسطس في ٢٥

يونية سنة ٣٠٦ م وأصبح اسمه Constantine I the Great

وتوفي في Nikomedia في ٢٢ مايو سنة ٣٣٧ م (راجع ،

The Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford

. (1991 I, pp. 448-500

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤٢٨ .

نشر عبد الحميد دياب هذه الفقرة في كتابه تاريخ

الأقباط المعروف بالقول الإبريزي للعلامة المقريري ٢٥٨ -

٢٦٠ .

^٢ نقل المقريري ترجمة قسطنطين من الترجمة العربية

لكتاب «تاريخ العالم» لبولوس أوريوس (هروشيوش) ،

به ، والتزم ما يخصك عليه تتم لك العافية . فانتبه مذعورًا ، وبعث في طلب شلبشتر الأسقف ، فأتى به إليه وهو يظن أنه يريد قتله ، لما عهده من غلظته على النصارى ومقتله لدينهم ؛ فعندما رآه تلقاه بالبشر وأعلمه بما رآه في منامه ، فقصر عليه دين النصارى ، وكانت له معه أخبارًا طويلةً مذكورة عندهم . فبعث قسطنطين في جمع الأساقفة المنفيين والمسييرين ، والتزم دين النصارى ، وشفاه الله من الجذام ، فأيد الديانة ، وأعلن بالإيمان بدين المسيح .

ويتنا هو في ذلك ، إذ توقع وثوب أهل رومة عليه وإيقاعهم به ، فخرج عنها وتنى مدينة قسطنطينية بُنيانا جليلًا فعرفت به ، وسكنتها فصارت موضع تخت الملك من عهده .^١

وقد كان النصارى ، من لدن زمان نيرون^(a) الملك الذي قتل [بيطر وبولس]^(b) الخواريين ومن بعده ممن ملك رومة ، في كل وقت يقتلون ويحبسون ويشردون بالنفي ، فلما سكن قسطنطين مدينة قسطنطينية ، جمع إلى نفسه أهل المسيح وقود^(c) وجوهمهم ، وأذل عبادة الأوثان . فسق ذلك على أهل رومة ، وخلعوا طاعته ، وقدموا عليهم ملكًا ، فأهمه ذلك ، ومررت له معهم عدة أخبار مذكورة في تاريخ رومة . ثم إنه خرج من قسطنطينية يريد رومة ، وقد استعدوا لحربه ، فلما قاربهم أذعنوا له ، والتزموا طاعته ، فدخلها فأقام إلى أن رجع لحرب الفرس ، وخرج إليهم فقهرهم ، ودانت له أكثر ممالك الدنيا . فلما كان في عشرين سنة من دولته ، خرجت القوط^(d) على بعض أطرافه ، فغزاهم وأخرجهم عن بلاده .

ورأى في منامه كأن بُودًا شبه الصليب قد رفعت ، وقائلًا يقول له : إن أردت أن تظفر بمن خالفك ، فاجعل هذه العلامات على جميع برك^٢ وشكليك^(e) . فلما انتبه أمر بتجهيز أمه

(a) بولاق : بيرون . (b) زيادة من أروسيوس . (c) بولاق : قوي . (d) بولاق : الفرس . (e) بولاق : برك وسكك ، والتصويب من الأصل وظ وتاريخ أروسيوس .

^١ راجع عن تأسيس مدينة القسطنطينية Costantinople التي أضحت بعد دخول السلطان

العثماني محمد الفاتح إليها سنة ١٤٥٣م هي مدينة إستانبول الحالية وعاصمة الدولة العثمانية (The Oxford Dictionary of Byzantium I, pp. 508-12، وعن سقوط المدينة على يد السلطان محمد الفاتح انظر ،

^٢ راجع حول كلمة برك التي قرأها Griveau «برنكك» و Casanova «بيرق» والاستخدامات المختلفة في المصادر لكلمة «برك» هامش^{١٤} صفحة ٢٣٨-٢٣٩ من الجزء الثالث من نشرة Wiet، وانظر فيما تقدم ٢٣٣ .

هيلانة [Helana] إلى بيت المقدس في طلب آثار المسيح - عليه السلام - وبناء الكنائس وإقامة شرائع^١ النصرانية، فسارت إلى بيت المقدس، وبنت الكنائس^١.

فيقال إن الأسقف مقاريوس دلها على الخشبة التي زعموا أن المسيح صلب عليها، وقد قص عليها ما عمل به اليهود، فحفرت، فإذا قبر وثلاث خشبات على شكل الصليب، فرعموا أنهم ألقوا الثلاث خشبات على ميت، واجدة بعد واجدة، فقام حيا عندما وضعت عليه الخشبة الثالثة منها. فاتخذوا ذلك اليوم عيدًا، وسمّوه «عيد الصليب»، وكان في اليوم الرابع عشر من أيلول والسابع عشر من ثوت، وذلك بعد ولادة المسيح بثلاث مائة وثمان وعشرين سنة. وجعلت هيلانة لخشبات الصليب غلافًا من ذهب، وبنت كنيسة القمامة ببيت المقدس على قبر المسيح بزعمهم، وكانت لها مع اليهود أخبار كثيرة قد ذكرت عندهم، ثم انصرفت بالصليب معها إلى أئنها^٢.

وما زال قُسْطَنْطِينِ على ممالك الروم إلى أن مات بعد أربع وعشرين سنة من ولايته، فقام من بعده بممالك الروم ابنه قُسْطَنْطِينِ [Constantius] الأصغر^٣.

وقد كان لعيد الصليب بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه إلى بني وإيل بظاهر قسطنطاط مصر، ويتظاهرون في ذلك اليوم بالمتكرات من أنواع المحرمات، ويمر لهم فيه ما يتجاوز الحد.

(a) بولاق : شعائر.

عربية لكتاب يوسيبوس .

٢ حول هيلانة وقصة العثور على صليب الصلبوت انظر Frolov, A., *Les reliquaires de la vraie Croix*, Paris 1965; *The Oxford Dictionary of Byzantium* II, 909, III, 2121-26؛ إسحاق عبيد: «قصة العثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم واقع»، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٩)، ٥ - ٢١.

٣ أورويسوس : تاريخ العالم ٤٦٠، ونهاية ما نشره عبد

المجيد دياب .

١ أورويسوس : تاريخ العالم ٤٥٧ - ٤٦٠، وبعد ذلك في تاريخ أورويسوس أن ما قامت به هيلانة في بيت المقدس وخبرها مع اليهود مدون في كتاب أوسايوس Eusebius العام الوصف لقصص البيعة وأثمتها . والمقصود هو كتاب «التاريخ الكنسي» *Historia Ecclesiastica* ليوسيبوس القيصري Eusebius de Caesarea والذي يذكر فيه أبرز الحوادث التي جرت في تاريخ الكنيسة المسيحية حتى سنة ٣٢٤ م، والذي كتبه باليونانية .

وواضح مما ذكره المقريري بعد ذلك وما ذكره عن الديانة المسيحية في آخر الكتاب أنه اعتمد فيه على ترجمة

فلما قَدِمَت الدَّوْلَةُ الفاطِميَّةُ إلى ديار مصر وبنوا القاهرة واشتوطنوها ، وكانت خلافة أمير المؤمنين العزيز بالله ، أمر في رابع شهر رجب في سنة إحدى وثمانين وثلاث مائة - وهو يوم الصليب - فَمَنَعَ النَّاسَ من الخروج إلى بني وائل ، وضَبَطَ الطُّرُقَ والدُّرُوبَ ^١ .

ثم لما كان عيد الصليب في اليوم الرابع عشر من شهر رجب سنة اثنتين وثمانين وثلاث مائة خَرَجَ النَّاسُ فيه إلى بني وائل ، وجرؤا على عاداتهم في الاجتماع واللُّهُو ^٢ .

وفي صفر سنة اثنتين وأربع مائة ، قُرِئَ في سابعه سِجِلٌ بالجامع العتيق وفي الطُّرُقَاتِ ، كُتِبَ عن الحاكم بأمر الله ، يَشْتَمِلُ على مَنع النَّصارَى من الاجتماع على عمَلِ عيد الصليب ، وألَّا يَظْهَرُوا بزيتهم فيه ، ولا يَقْرَبُوا كَنَائِسَهُمْ ، وأن يُمْتنعوا منها ^٣ .

ثم بَطَلَ ذلك حتى لم يَكُد يُعْرَف اليوم بديار مصر البتَّة .

^{١٠} ^(a) - وهو أول السنة القبطية بمصر ، وهو أول يوم من ثوت ، وسُنَّتُهُمْ فيه إشعال النيران والتراش بالماء ، وكان من مواسم لهُو المصريين قديماً وحديثاً ^٤ .

^(b) قال وهب : بَرَدَتِ النَّارُ في الليلة التي أُلْقِيَ فيها إبراهيم وفي صبيحتها على الأرض كلها ، فلم يَتَنَفَّعَ بها أَحَدٌ في الدنيا تلك الليلة وذلك الصباح ، فمن أجل ذلك بات النَّاسُ على النار في تلك الليلة التي رُمِيَ فيها إبراهيم - عليه السلام - ووثبوا عليها وتبخروا بها ، وسَمَّوا تلك الليلة نَيْرُوزًا ؛ والنَّيْرُوزُ في اللسان السرياني ، العيد . ^{١٥}

وسُئِلَ ابنُ عَبَّاسٍ عن النَّيْرُوزِ : لِمَ اتَّخَذُوهُ عِيدًا ؟ فقال : إِنَّهُ أَوَّلُ السَّنَةِ المُسْتَأْنَفَةِ وآخِرُ السَّنَةِ المُنْقَطَةِ ، فكانوا يَسْتَحِبُّونَ أن يَقدِّموا فيه على مُلُوكِهِمْ بالطُّرْفِ والهِدَايَا ، فَاتَّخَذَتْهُ الأَعَاجِمُ سُنَّةً ^(b) .

^{٢٠} قال الحافظ أبو القاسم علي بن عساكر في «تاريخ دمشق» ، من طريق ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : إِنَّ فِرْعَوْنَ لما قال للملأ من قومه : ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [آية ٣٤ سورة الشعراء] ؛

(a) بولاق : النيروز . (b-b) هذه الفقرة ساقطة من ظ .

^١ المقرئ : اتعاط الحنفا ١ : ٢٧٢ .

^٢ نفسه ١ : ٢٧٦ .

^٣ نفسه ٢ : ٨٩ .

^٤ النيروز والنوروز : فارسي معرب ، وقد تكلمت به

العرب (الجواليقي : المعرب ٣٤٠) .

قالوا له : ابعث إلى الشجرة ؛ فقال فِرْعَوْنُ لِمُوسَى : يا مُوسَى ، ﴿اجْعَل يَمِينًا وَيَسَارًا لِي﴾ فقال مُوسَى : ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ [الآية ٥٩ سورة طه] . قَالَ : ووافق ذلك يوم السبت في أول يوم من السنة وهو يوم النيروز .

- ٥ وفي رواية : أن الشجرة قالوا لِفِرْعَوْن : أيها الملك واعد الرجل ، فقال : قد واعدته يوم الزينة وهو عيدكم الأكبر ، ووافق ذلك يوم السبت ، فخرج الناس لذلك اليوم .
قَالَ : والنوروز أول سنة الفرس ، وهو الرابع عشر من آذار وفي شهر برمهات .
ويقال : أول من أخذته جمشيد من ملوك الفرس ، وأنه ملك الأقاليم السبعة ، فلما كمل ملكه ولم يتق له عدو ، اتخذ ذلك اليوم عيدًا ، وسماه نوروزًا في اليوم الجديد .
١٠ وقيل إن سليمان بن داود - عليهما السلام - أول من وضعه ، في اليوم الذي رجع إليه فيه خاتمته .^٢

وقيل : هو اليوم الذي شفي فيه أيوب عليه السلام ، وقال الله سبحانه وتعالى له : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [الآية ٤٢ سورة ص] ، فجعل ذلك اليوم عيدًا ، وسنوا فيه رش الماء .

- ١٥ ويُقال : كان بالشام سبط من بني إسرائيل أصابهم الطاعون ، فخرجوا إلى العراق ، فبلغ ملك العجم خبرهم ، فأمر أن تبنى عليهم حظيرة يُجعلون فيها ، فلما صاروا فيها ماتوا ، وكانوا أربعة آلاف رجل . ثم إن الله تعالى أوحى إلى نبي ذلك الزمان : أرأيت بلاد كذا وكذا ، فحاربهم بسبط بني فلان ؛ فقال : يارب ، كيف أحارب بهم وقد ماتوا ؟ فأوحى الله إليه أني أخيبهم لك .

- ٢٠ فأمطرهم الله ليلة من الليالي في الحظيرة ، فأصبحوا أحياء ، فهم الذين قال الله فيهم : ﴿الْم تَرَى إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [الآية ٢٤٣ سورة البقرة] . فرفع أمرهم إلى ملك فارس ، فقال : تبركوا بهذا اليوم ، وليصّب بعضكم على بعض الماء ، فكان ذلك اليوم يوم النوروز ، فصارت سنة إلى اليوم .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٤١٨ ؛ وفيما يلي ^٢ أورد المقرئ هذا الخبر فيما يلي ١ : ٤٩٤ ونسبه إلى

الحافظ ابن عساكر .

وسئِلَ الخَلِيفَةُ المَأْمُونُ عَنِ رَشِّ المَاءِ فِي النُّورِوزِ ، فَقَالَ : قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ ، هَؤُلاءِ قَوْمٌ أَجَدَبُوا - تَقُولُ مَاتَ فُلَانٌ هُزَالًا - فَعِثُوا فِي هَذَا اليَوْمِ بَرَشَّةً مِنْ مَطَرٍ فَعَاشُوا ، فَأَخْصَبَ بَلَدُهُمْ ، فَلَمَّا أَحْيَاهُمُ اللَّهُ بِالغَيْثِ - وَالغَيْثُ يَسْمَى الحَيَا - جَعَلُوا صَبَّ المَاءِ فِي مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ سُنَّةً يَتَّبَعُونَ بِهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ^١ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ ، قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَرَّوْا مِنَ الطَّاعُونَ . وَقِيلَ : أَمَرُوا بِالجِهَادِ ، فَخَافُوا المَوْتَ بِالقَتْلِ فِي الجِهَادِ ، فَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَارًا مِنْ ذَلِكَ فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ لِيَعْرِفَهُمْ أَنَّهُ لَا يُنَجِّيهِمْ مِنَ المَوْتِ شَيْءٌ ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ عَلَى يَدِ حَزْقِيلَ أَحَدِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّفْسِيرِ .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ حَمْزَةَ الأَصْفَهَانِي ^٢ فِي كِتَابِ «أَعْيَادِ الفُرْسِ» : إِنَّ أَوَّلَ مَنْ اتَّخَذَ النُّورِوزَ : النُّورِوزَ جَمَشِيدَ - وَيُقَالُ جَمَشَادَ - أَحَدُ مُلُوكِ الفُرْسِ الأَوَّلِ .

وَمَعْنَى النُّورِوزِ اليَوْمِ الجَدِيدِ . وَالنُّورِوزُ عِنْدَ الفُرْسِ يَكُونُ يَوْمَ الاِعْتِدَالِ الرَّبِيعِيِّ ، كَمَا أَنَّ المَهْرَجَانَ أَوَّلَ الاِعْتِدَالِ الخَرِيفِيِّ .

وَيَزْعُمُونَ أَنَّ النُّورِوزَ أَقْدَمُ مِنَ المَهْرَجَانِ ، فيقولون : إِنَّ المَهْرَجَانَ كَانَ فِي أَيَّامِ أَفْرِيدُونَ ، وَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ عَمِلَهُ لَمَّا قَتَلَ الضُّحَّاكَ - وَهُوَ بِيوراشبَ - فَجَعَلَ يَوْمَ قَتْلِهِ عِيدًا سَمَّاهُ المَهْرَجَانَ ، وَكَانَ حُدُوثُهُ بَعْدَ النُّورِوزِ بِأَلْفِي سَنَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ^٣ .

^١ انظر رواية مخالفة للقلقشندي عن سبب رش الماء (صبح الأعشى ٢: ٤١٩) .
^٢ أبو الحسن علي بن حمزة بن عمارة بن حمزة بن يسار ابن عثمان الأصفهاني من أولاد يسار أخي أبي مسلم الخراساني . أحد أدباء أصفهان المشهورين بالعلم والشعر ، توفي سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م . من مصنفاته كتاب «الشعر» ، وكتاب «فقر البلغاء» يشتمل على الاختيار من شعر عامة الشعراء ، وكتاب «قلائد الشرف في مفاتيح أصبهان وأخبارها» . ولم يذكر له ياقوت أو الصفدي - اللذين ترجما له - كتاب «أعياد الفرس» الذي ينقل عنه هنا المقرئ . وفيما يلي ١: ٤٩٤ . (معجم الأدباء ١٣: ٢٠٤)

^٣ بين النوروز والمهرجان مائة وتسعة وستون يوماً ، والمهرجان نسبة إلى أحد ملوك الفرس القدماء كان يسمى «مهر» ، وكانوا يسمون الشهور بأسماء الملوك ف قيل «مهرماه» ومعنى «ماه» هو الشهر . وطال عمر هذا الملك واشتدت شوكته فلما مات في النصف من هذا الشهر وهو «مهرماه» سمي اليوم الذي مات فيه «مهرجان» وتفسيره : نفس مهر ذهبت . ويجعل أهل المروءات بالعراق وغيرها من مدن =

وقال ابنُ وَصِيفِ شَاهٍ فِي ذِكْرِ مَنَاوِشِ بْنِ مَنَاوِشٍ ، أَحَدِ مُلُوكِ الْقَيْطِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ : وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَ التُّورُوزَ بِمِصْرَ ، فَكَانُوا يُقِيمُونَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ إِكْرَامًا لِلْكَوَاكِبِ ^١ .
 وَقَالَ ابْنُ رِضْوَانَ : وَلَمَّا كَانَ النَّيْلُ هُوَ السَّبَبُ الْأَعْظَمُ فِي عِمَارَةِ أَرْضِ مِصْرَ ، رَأَى الْمِصْرِيُّونَ الْقَدَمَاءَ - وَخَاصَّةً الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ دِقْلُدِيَانُوسِ الْمَلِكِ - أَنْ يَجْعَلُوا أَوَّلَ السَّنَةِ فِي أَوَّلِ الْخَرِيفِ عِنْدَ اسْتِكْمَالِ النَّيْلِ الْحَاجَةِ فِي الْأَمْرِ الْأَكْثَرِ ، فَجَعَلُوا أَوَّلَ شَهْرِهِمْ ثَوْتٌ ثُمَّ يَابَةٌ ثُمَّ هَاتُورٌ ، وَعَلَى هَذَا الْوَلَاءِ بِحَسَبِ الْمَشْهُورِ مِنْ تَرْتِيبِ هَذِهِ الشُّهُورِ ^٢ .

وَقَالَ ابْنُ زُوَلَّاقٍ : وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ - يَعْنِي سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ - مَنَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعِزُّ لِدِينِ اللَّهِ مِنْ وَقُودِ النَّيِّرَانِ لَيْلَةَ التُّورُوزِ فِي السُّكَّكِ ، وَمِنْ صَبِّ الْمَاءِ يَوْمَ التُّورُوزِ ^٣ .

وَقَالَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ : وَفِي يَوْمِ التُّورُوزِ ، زَادَ اللَّعِبُ بِالْمَاءِ وَوَقُودِ النَّيِّرَانِ ، وَطَافَ أَهْلُ الْأَشْوَاقِ وَعَمِلُوا فَيْلَةً ^٤ ، وَخَرَجُوا إِلَى الْقَاهِرَةِ بِلَعِبِهِمْ ، وَلَعِبُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَأَظْهَرُوا السَّمَاجَاتِ ^٥ وَالْحُلِيِّ فِي الْأَشْوَاقِ . ثُمَّ أَمَرَ الْمُعِزُّ بِالنَّدَاءِ بِالْكَفِّ ، وَأَلَّا تُوقَدَ نَارٌ وَلَا يُصَبَّ مَاءٌ ، وَأُخِذَ قَوْمٌ فَحَبِسُوا ، وَأُخِذَ قَوْمٌ فَطِيفَ بِهِمْ عَلَى الْجِمَالِ ^٥ .

وَقَالَ ابْنُ الْمَأْمُونِ فِي «تَارِيخِهِ» : وَحَلَّ مَوْسِمُ التُّورُوزِ فِي الْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سَبْعِ عَشْرَةَ وَخَمْسَ مِائَةٍ ، وَوَصَلَتِ الْكُشُورَةُ الْمُخْتَصَّةُ بِالتُّورُوزِ مِنَ الطَّرَازِ وَتَغْرُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، مَعَ مَا يَتَّبِعُهَا مِنَ اللَّذَاتِ ^٦ الْمَذْهَبَةِ وَالْحَرِيرِيِّ وَالسُّوَادِجِ ، وَأُطْلِقَ جَمِيعُ مَا هُوَ مُسْتَقَرٌّ مِنَ الْكُشُورَاتِ الرَّجَالِيَّةِ وَالنِّسَائِيَّةِ ، وَالْعَيْنِ وَالْوَرِقِ ، وَجَمِيعِ الْأَصْنَافِ الْمُخْتَصَّةِ بِالمَوْسِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا بِتَفْصِيلِهَا وَأَسْمَاءِ أَرْبَابِهَا .

وَأَصْنَافُ التُّورُوزِ : الْبِطِيخُ وَالرُّمَّانُ ، وَعَنَاقِيدُ الْمَوْزِ ، وَأَفْرَادُ / الْبُسْرِ ، وَأَقْفَاصُ الثَّمْرِ الْقُوصِيِّ ،

٢٦٩:١

(a) بولاق : فيه . (b) بولاق : الآلات .

^٢ ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٤٢ .

^٣ المقرئزي : اتعاظ الحنفا ١: ٢١٤ وفيما يلي ١: ٤٩٣ .

^٤ عن السماجيات انظر فيما تقدم ٥٦٤ هـ^٢ وفيما يلي

١: ٤٩٣ .

^٥ المقرئزي : اتعاظ الحنفا ١: ٢٢٤ (Serjeant, R.B.)

. (Islamic Textiles pp. 158, 215)

^٦ اللاذ جـ. لاذات ، نوع من الحرير الأحمر .

= العجم هذا اليوم أول يوم من الشتاء فتغير فيه القرش

والآلات وكثيراً من الملابس (المسعودي : مروج الذهب

٢: ٣٣٧-٣٧٨) ، وقارن القلقشندي : صبح الأعشى

٢: ٤٢٠-٤٢٢ .

^١ النويري : نهاية الأرب ١٥: ٧١ (عن ابن وصيف

شاه) ؛ المسعودي : أخبار الزمان ١٧٧ وفيهما أن الذي بدأ

بعمله أشمون بن قبطيم ؛ وانظر فيما تقدم ٣٧٦ ، ٦٤٥ .

وأقفاصُ السَّفَرَجَل ، وبُكَل الهَرِيَسَة المعمولة من لحم الدُّجَاج ومن لحم الضَّان ومن لحم البَقَر ، من كلِّ لَوْن بُكَلَة ، مع خُبْز بُرِّ مَارِق .

قَالَ : وَأَخْضَرَ كَاتِبُ الدُّفْتَرِ الإِثْبَاتَات^(a) بِمَا بَجَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ ، مِنْ إِطْلَاقِ الْعَيْنِ وَالْوَرِقِ وَالْكُشْوَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، فِي يَوْمِ التُّورُوزِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ الْأَصْنَافِ ، وَهُوَ : أَرْبَعَةُ آلَافِ دِينَارٍ ذَهَبًا ، وَخَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فِضَّةً ، وَالْكُشْوَاتِ عِدَّةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ شُقُقِ دَبِيْقِيَّةِ مُذْهَبَاتٍ وَخَرِيرِيَّاتٍ ، وَمَعَاجِرَ وَعَصَائِبِ نِسَائِيَّاتٍ مُلَوَّنَاتٍ ، وَشُقُقِ لَازِذِ مُذْهَبٍ وَخَرِيرِيٍّ وَمُشَفَّعٍ ، وَفُوطِ دَبِيْقِيَّةِ خَرِيرِيَّةٍ . فَأَمَّا الْعَيْنُ وَالْوَرِقُ وَالْكُشْوَاتُ ، فَذَلِكَ لَا يَخْرُجُ عَمَّنْ تَحْوِزِهِ الْقُصُورُ وَدَارُ الْوَزَارَةِ وَالشُّيُوخِ وَالْأَصْحَابِ وَالْحَوَاشِي الْمُسْتَعْدِمِينَ وَرُؤَسَاءِ الْعُشَارِيَّاتِ وَبُحَّارِيهَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَمْرَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ فِي ذَلِكَ نَصِيبٌ .

وَأَمَّا الْأَصْنَافُ مِنَ الْبِطِيخِ وَالرُّمَّانِ وَالْبُشْرِ وَالْمُوزِ وَالسَّفَرَجَلِ وَالْعِنَابِ وَالْهَرَائِسِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، فَيَشْمَلُ ذَلِكَ جَمِيعَ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ ، وَيَشْرُكُهُمْ فِيهِ جَمِيعُ الْأَمْرَاءِ أَرْبَابِ الْأَطْوَاقِ وَالْأَقْصَابِ^(b) ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمَائِلِ وَالْأَغْيَانِ مِمَّنْ لَهُ جَاءَةٌ وَرَسْمٌ فِي الدَّوْلَةِ^(c) .

وَقَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ : يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ رَابِعَ عَشَرَ رَجَبِ يَوْمِ التُّورُوزِ الْقِبْطِيِّ ، وَهُوَ مُسْتَهْلٌ ثَوْتٌ ، وَثَوْتٌ أَوَّلُ سَنَتِهِمْ .

وَقَدْ كَانَ بِمِصْرَ ، فِي الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ وَالِدَّوْلَةِ الْخَالِيَةِ ، مِنْ مَوَاسِمِ بَطَالَتِهِمْ ، وَمَوَاقِيتِ ضَلَالَتِهِمْ ، فَكَانَتْ الْمُنْكَرَاتُ ظَاهِرَةً فِيهِ ، وَالْفَوَاحِشُ صَرِيحَةً فِيهِ . وَيَزُكَّبُ فِيهِ أَمِيرٌ مَوْسُومٌ بِأَمِيرِ التُّورُوزِ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَى النَّاسِ فِي طَلَبِ رَسْمِ رُتْبِهِ ، وَيُرْسَمُ عَلَى دُورِ الْأَكْبَارِ بِالْحُجَلِ الْكِبَارِ ، وَيَكْتُبُ مَنَاشِيرَ ، وَيُنْدَبُ مُرْسَمِينَ ، كُلُّ ذَلِكَ يَخْرُجُ مَخْرَجِ الطَّنْزِ^(c) ، وَيَقْنَعُ بِالْمَيْسُورِ مِنَ الْهَبَاتِ .

وَيَتَجَمَّعُ الْمُؤَثُّونُ^(d) وَالْفَاسِقَاتُ تَحْتَ قَصْرِ اللُّؤْلُؤَةِ ، بَحِيثٌ يُشَاهِدُهُمُ الْخَلِيفَةُ وَبِأَيْدِيهِمُ الْمَلَاهِي ، وَتَرْتَفِعُ الْأَصْوَاتُ ، وَيُشْرَبُ الْخَمْرُ وَالْمَزْرُ شُرْبًا ظَاهِرًا بَيْنَهُمْ وَفِي الطَّرِيقَاتِ ، وَيَتَرَّاشُ النَّاسُ بِالْمَاءِ ، وَبِالْمَاءِ وَالْخَمْرِ وَبِالْمَاءِ مَمْرُوجًا بِالْأَقْدَارِ .

وَإِنْ غَلِطَ مَسْتَوْرٌ وَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ ، لَقِيَهِ مَنْ يَرُشُّهُ وَيُفْسِدُ ثِيَابَهُ وَيَسْتَخِفُّ بِحُرْمَتِهِ ، فَإِنَّمَا أَنْ يَفْئِدِي

(a) بولاق : الحسابات . (b) بولاق : الأنصاف . (c) بولاق : الطير . (d) بولاق : ويجتمع المغنون .

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٦٥ وفيما يلي ٤٩٣ .

^٢ الطَّنْز : السخرية .

نَفْسَهُ وَإِنَّمَا أَنْ يُفْضَحَ . وَلَمْ يَجْرِ الْحَالُ عَلَى هَذَا ، وَلَكِنْ قَدْ رَشَّ الْمَاءُ فِي الْحَارَاتِ ، وَقَدْ أَحْيَا
الْمُنْكَرَاتِ فِي الدُّورِ أَرْبَابَ الْخَسَارَاتِ .

وَقَالَ فِي «مُتَجَدِّدَاتِ» سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ : وَجَرَى الْأَمْرُ فِي النَّوْرُوزِ عَلَى الْعَادَةِ
مِنْ رَشِّ الْمَاءِ ، وَاسْتُجِدَّ فِيهِ هَذَا الْعَامُ التَّرَاجُمُ بِالْبَيْضِ وَالتَّصَاوُفِ بِالْأَنْطَاعِ ، وَانْقَطَعَ النَّاسُ عَنِ
التَّصَرُّفِ ، وَمِنْ ظَفِرَ بِهِ فِي الطَّرِيقِ رُشٌّ بِمِياهِ نَجِيسَةٍ ، وَخُرِقَ بِهِ ^١ .

وَمَا زَالَ يَوْمُ النَّوْرُوزِ يُعْمَلُ فِيهِ مَا ذُكِرَ مِنَ التَّرَاشِ بِالْمَاءِ ، وَالتَّصَاوُفِ بِالْجُلُودِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى أَنْ كَانَتْ
أَعْوَامٌ بَضَعَتْ وَثْمَانِينَ وَسَبْعَ مِائَةٍ ، وَأَمْرُ الدَّوْلَةِ بِدِيَارِ مِصْرٍ وَتَذْيِيرِهَا إِلَى الْأَمِيرِ الْكَبِيرِ بَرْقُوقٍ ، قَبْلَ أَنْ
يَجْلِسَ عَلَى سَرِيرِ الْمَلِكِ وَيَتَسَمَّى بِالسُّلْطَانِ ، فَمَنَعَ مِنْ لَعِبِ النَّوْرُوزِ ، وَتَهَدَّدَ مِنْ لَعِبِ الْعُقُوبَةِ .

فَانْكَفَى النَّاسُ عَنِ اللَّعْبِ فِي الْقَاهِرَةِ ، وَصَارُوا يَعْمَلُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فِي الْخُلْجَانِ وَالْبِرْكَ وَنَحْوِهَا مِنْ
مَوَاضِعِ التَّنَزُّهِ ، بَعْدَ مَا كَانَتْ أَسْوَاقُ الْقَاهِرَةِ تَعْتَطِلُ فِي يَوْمِ النَّوْرُوزِ مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، وَيَتَعَاطَى النَّاسُ
فِيهِ مِنَ اللَّهْوِ وَاللُّعْبِ مَا يَخْرُجُونَ بِهِ ^(a) عَنِ حَدِّ الْحَيَاءِ وَالْحَيْشَمَةِ إِلَى الْغَايَةِ مِنَ الْفُجُورِ وَالْعُهْرِ ^(b) .

وَقَلَّمَا انْقَضَى يَوْمُ نَوْرُوزِ ، إِلَّا وَقُتِلَ فِيهِ قَتِيلٌ أَوْ أَكْثَرُ ، وَلَمْ يَبْقَ الْآنَ لِلنَّاسِ مِنَ الْفَرَاغِ مَا يَقْتَضِي
ذَلِكَ ، وَلَا مِنَ الرَّفَقَةِ وَالْبَطَرِ مَا يُوجِبُ لَهُمْ عَمَلَهُ . وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِهِمْ :

[البسيط]

كَيْفَ اتِّهَاجُكَ بِالنَّوْرُوزِ يَا سَكْنِي وَكُلُّ مَا فِيهِ يَحْكِيْنِي وَأَحْكِيهِ
فِتَارَةَ كَلْهَيْبِ النَّارِ فِي كَيْدِي وَتَارَةَ كَثَوَالِي دَمْعَتِي فِيهِ

وَقَالَ آخَرُ :

[الرملي]

نَوْرَزَ النَّاسُ وَنَوْرَزُ تَ وَلَكِنْ بِدُمُوعِي
وَذَكَتْ نَارُهُمْ وَالنَّارُ سَارُ مَا بَيْنَ ضُلُوعِي

وَقَالَ آخَرُ :

[الطويل]

وَلَمَّا أَتَى النَّوْرُوزُ يَا غَايَةَ الْمُنَى وَأَنْتِ عَلَى الْإِعْرَاضِ وَالْهَجْرِ وَالصُّدَى
بَعَثْتُ بِنَارِ الشُّوقِ لَيْلًا إِلَى الْحَشَا فَتَوْرَزْتُ صُبْحًا بِالدُّمُوعِ عَلَى الْخَدَى ^٢

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : المهود .

^٢ انظر فيما يلي ١ : ٤٩٤ .

^١ المقرئ : السلوك ١ : ١٣٦-١٣٧ وفيما يلي ١ : ٤٩٤ .

ذكر ما يوافق أيام الشهور القبطية من الأعمال في الزراعات

وزيادة النيل وغير ذلك على ما نقله أهل مصر عن قدامتهم واعتمدوا عليه في أمورهم

اعلم أن المصريين القدماء اعتمدوا في تاريخهم السنة الشمسية - كما تقدم ذكره - ليصير الزمان محفوظاً، وأعمالهم واقعة في أوقات معلومة من كل سنة، لا يتغير وقت عمل من أعمالهم بتقديم ولا تأخير البتة^١.

توت [Tût] - بالقبطي هو أيلول، وكانت عادة مصر منذ عهد فراعنتها، في استخراج خراجها وجباية أموالها، أنه لا يشتتم استيفاء الخراج من أهلها إلا عند تمام الماء، واقتراشه على سائر أرضها، ويقع إتمامه في شهر توت.

فإذا كان كذلك، ورُبما كانت زيادة عن ذلك، أُطلق الماء في جميع نواحيها من ترعها، ثم لا يزال يترجح في الزيادة والتقصان حتى يفرغ توت.

وفي أوله يكون يوم الثوروز، ورابعه أول أيلول، وسابعه يلقط الزيتون، وثاني عشره يطلع الفجر بالصرفة^٢.

وسابع عشره عيد الصليب، فيشرط البلسان، ويستخرج دهنه، ويفتح ما يتأخر من الأبحر والترع، وترتب المدامسة لحفظ الجشور.

وفي ثامن عشره تُنقل الشمس إلى برج الميزان، فيدخل فصل الخريف. وفي خامس عشره يطلع الفجر بالعواء، ويكبر صغار السمك.

وفي هذا الشهر يعم ماء النيل أراضي مصر. وفيه تسجل النواحي، وتشتزع السجلات والقوانين، وتطلق التقاوي من الغلال لتخضير الأراضي. وفيه يدرك الرمان والبشر والرطب والزيتون والقطن والسفرجل.

وفيه يكون هبوب ريح الشمال أقوى من هبوب ريح الجنوب، وهبوب الصبا أقوى من الدبور.

^١ انظر حول الشهور القبطية: المقدسي: أحسن التقاسيم ٢١١-٢١٢؛ البيروني: الآثار الباقية ٤٤٩؛ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٣٣٥-٣٣٦؛ الخزومي: المنهاج ٦-٨؛ ابن مئتي: قوانين الدواوين ٢٣٤-٢٥٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٨٣-٣٩١؛ Céréz Wissa Wassef, *The Coptic Encyclopedia II*, pp. 438-41.

^٢ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٥٢.

وكان قداماء المصريين لا يتصبون فيه أساساً وفيه يكثر بمصر العنب الشتوي، وتبذر المحمضات .

بابه [Bâbah] - في أوله يُحصد الأرز، ويُزرع القول والبرسيم وسائر الحبوب التي لا تُشق لها الأرض .

وفي رابعه أول تشرين الأول .

وفي ثامنه طلوع الفجر بالسماك^١، وهو نهاية زيادة النيل وابتداء نقصه، وقد لا يتم الماء فيه، فيعجز بعض الأرض عن أن يركبها الماء، فيكون من ذلك نقص الحراج عن الكمال .

وفي تاسعه يكون مجيء الكراكي إلى أرض مصر، وفي عاشره يُزرع الكتان .

وفي ثاني عشره يكون ابتداء شق الأرض بصعيد مصر، لتبذر القمح والشعير .

وفي ثامن عشره تُنقل الشمس إلى بوج العقرب، ويُقطع الخشب .

وفي تاسع عشره يكون ابتداء نقص ماء النيل، ويكثر البغوض .

وفي حادي عشره يطلع الفجر بالغفر^٢ .

وفي هذا الشهر تُصرف المياه عن الأراضي، ويُخرج المزارعون لتخضير الأراضي: فيبتدأون بتبذر زراعة القروط، ثم بزراعة الغلة البدرية أولاً فثانياً .

وفيهِ يُستخرج دهن الآس ودهن النيلوفر، ويُدرك الثمر والزبيب والشمس والقلقاس .

وفيهِ يكثر صغار السمك ويقل كباره، ويسمن الراي والإبرميس من السمط خاصة وتشتحك حلاوة الرمان، ويكون فيه أطيب منه في سائر الشهور التي يكون فيها، ويضع الضأن والمعز والبقر الحنسية .

وفيهِ يملح السمك المعروف بالبوري، ويهزل الضأن والمعز والبقر ولا تطيب لحومها، وتُدرك المحمضات .

وفيهِ يجب كتابة التذاكر بالأعمال القوصية . وفيهِ يُغرس المنثور ويزرع السلجم .

هاتور [Hâtur] - في خامسه يكون أول تشرين الثاني، ويطلع الفجر بالزبانان^٣ في رابعه^٣ .

(a) بولاق : بالزبانان .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٣ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٥٣ .

^٣ نفسه ٢ : ٣٥٢ .

وفي سادسه يُزْرَع الخُشخاش . وفي سابعه يُصْرَف ماءُ الثَّيْل عن أراضي الكَثَّان ، ويُتَدْر في النُّصْف منه ، وبعْد تمام شهر يُسْبَخ .

وفي ثامنه أو أن المطر المؤسسي ، وفي حادي عشره تهب ريح الجنوب ، وفي خامس عشره تبرد المياه بمصر ، وفي سابع عشره يطلع الفجر بالأكليل^١ ، وفي ثامن عشره تحل الشمس بوج القوس ، وفي تاسع عشره يغلق البحر الملح ، وفي سابع عشره تهب الرياح اللواقح .

وفي هذا الشهر يلبس أهل مصر الصوف من سابعه .
وفيه يكسر ما يحتاج إليه من قصب السكر يرسم المعاصر ، وبراح الغلة في جميع ما يحتاج إليه فيها ، ويهتم بعلف أبقارها وجمالها بعد بيع شاربها وعاجزها والتعويض عنه بغيره ، وإفراد الأتبان برسم وقود القنود ، وترتيب القوامصة لعمل الأبالج والقواديس ، والأمطار برسم القنود والأغسال .

وفيه يُدْرِك البتفسج والتيلوفر والمنثور ، ومن البقولات الإسفاناخ والبلسان .
واختار قداماء المصريين في هاتور نصب الأساسات ، وزرع القمح . وأطيب حملان السنة حملة وفيه يكثر العنب الذي كان يحمل من قوص .

كِيَهَك [Kiyahk] - أوله الأربعينات بمصر ، ويدخل الطير وكره .

وفي سادسه إشارة مزيم بحمل عيسى عليهما السلام . وفي سابعه أول كانون الأول .
وفي عاشره آخر الليالي البلق ، وأولها أول هاتور . وفي حادي عشرة أول الليالي السود ، ويدخل الثمل الأحجرة .

وفي ثالث عشره يطلع الفجر بالشولة^٢ ، وتظهر البراغيث ، ويسخن باطن الأرض .

وفي سادس عشره يسقط ورق الشجر .
وفي سابع عشره تنقل الشمس إلى برج الجدي ، فيدخل فصل الشتاء ، ويزرع الهليون .
وفي حادي عشره يكون آخر الليالي البلق ، وفي ثاني عشره عيد البشارة ، وفي ثالث عشره تزرع الحلبنة والتزؤمس .

وفي سادس عشره يطلع الفجر بالتعائم^٣ .

^٣ نفسه ٢: ٣٥٣ .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢: ٣٥٣ .

^٢ نفسه ٢: ٣٥٣ .

وفي ثامن عشره يبيض النعام ، وفي تاسع عشره الميلاد .
 وفي هذا الشهر يُزرع الخيار بعد/ إغراق أرضه .
 وفيه يتكامل بذور القمح والشعير والبرسيم الخريفي .
 وفيه يُستخرج خراج البرسيم بدار الوجه القبلي ، وفيه تُرتب حُرَّاس الطير .
 وفيه كسر قصب السكر واعتصاره ، واستيخدام الطباخين لطبخ القنود .
 وفيه يكون إدراك النرجس والمحمضات والفول الأخضر والكرنب والجزر والكراث الأبيض
 واللفت .

وفيه يقل هبوب ريح الشمال ، ويكثر هبوب ريح الجنوب .
 وفيه يجود الجدا ، ويكون أطيب منها في جميع الشهور التي يكون فيها .
 وفيه يُزرع أكثر حبوب الحرت ، ولا يُزرع بعده في شيء من أرض مصر غير الشمس والمقائي
 والقطن .

طوبة [Tûbah] - في ثلثه ابتداء زراعة الحمص والجلبان والعدس .

وفي سادسه أول كانون الثاني .

وفي تاسعه يطلع الفجر بالبلدة^١ ، وعاشره صوم الغطاس ، وحادي عشره الغطاس .

وفي ثاني عشره يشتد البرد ، وفي رابع عشره يرتفع الوباء بمصر ، ويُغرس النخل .

وفي سابع عشره تحل الشمس أول بوج الدلو ، ويكثر الندى ، ويكون ابتداء غرس
 الأشجار .

وفي العشرين منه يكون آخر الليالي السود ، وحادي عشره الليالي البلق الثانية ، وفي ثاني

عشره يطلع الفجر بسعد الدابح^٢ ، وفي ثالث عشره تهب الرياح الباردة .

وفي رابع عشره تُفرخ جوارح الطير . وفي خامس عشره يكون إنتاج الإبل المحمودة . وفي
 سابع عشره يصفو ماء النيل .

وفي ثامن عشره يتكامل إدراك القروط .

وفي هذا الشهر تقلم الكروم ، ويُنظف زرع الغلة من اللسان وغيره ، ويُنظف زرع الكتان من
 الفجل وغيره .

^٢ نفسه ٢: ٣٥٤ .

^١ الفلقشندي : صبح الأعشى ٢: ٣٥٣ .

وفيه تُبْرَش الأراضى أوّل سَكَّة برسم الصّيافي والمقائي والقطن والسّمسم ، وينتهي بُرْشها في أوّل أمشير .

وفيه تُسَقَى أرض القلقاس والقصب ، وتُسَقَّى الجسور في آخره .

وفيه تُسْتَخْرَج أراضى الخرس ، ويكثر القصب الرأس بعد إفراز ما يُحتاج إليه من الزريعة ، وهو لكلّ فدان طين قيراط طيب قصب رأس .

وفيه يُهْتَمَّ بِعِمَارَةِ الشّواقى ، وحفر الآبار ، وايتباع الأبقار .

وفيه يَظْهَر اللّوز الأخضر والنبق والهلّيون .

وفيه أيضًا يكون هبوب ریح الجنوب أكثر من هبوب الشمال ، وهبوب الصّبا أكثر من هبوب الدبور .

وفيه يكون الباقل الأخصر والجزر أطيب منهما في غيره .

وفيه يتناهى ماء النيل في صفائه ، ويخزن فلا يتغير في أوانيه ولو طال لبثه فيها .

وفيه تطيب لحوم الضأن أطيب منها في سائر الشهور .

وفيه تُرَبَط الخيول والبغال على القرط من أجل ربيعها .

وبطوبة يطالب الناس بافتتاح الخراج ، ومُحَاسَبَةِ الْمُتَقَبِّلِينَ عَلَى الثمن من السجلات عن جميع ما بأيديهم من المحلول والمعقود .

أمشير [Amshîr] - في أوّله تختلف الرياح ، وفي خامسه يَطْلُع الفجر بسعد بلع^١ ، وفي سادسه يكون أوّل شباط .

وفي تاسعه يجري الماء في العود ، وحادي عشره أوّل جمرة باردة ، وسادس عشره تحلّ الشمس بأوّل بُرْج الحوت .

وفي سابع عشره يخرج الثمل من الأحجرة ، وفي ثامن عشره يَطْلُع الفجر بسعد السعد^٢ . وفي العشرين منه ثاني جمرة فاترة ، وفي ثالث عشره تَقْلَم الكروم ، وخامس عشره يَفْرُخ النحل .

وسابع عشره ثالث جمرة حامية ، ويورق الشجر وهو آخر غرسها ، وفي آخره يكون آخر الليالي البلق .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٤ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٥٤ .

وفي هذا الشهر يُقْلَع السُّلْجَمُ وَيُسْتَخْرَج خِرَاجُهُ ، وفيه يُنْتَى برش الصِّياْفِي ، وتُبْرَش أيضًا ثَالِث سَكَّة .

وفيهِ يُعْمَل مَقَاطِعُ الجُسُور ، وتُمسَح الأَرْضِي ، ويُرَقَّد البَيْضُ فِي المَعَامِل أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ آخِرِهَا بَشْنَس .

وفيهِ يَكُون رِيحُ الشَّمَالِ أَكْثَرَ الرِّيَاحِ هُبُوبًا .

وفيهِ يَنْبَغِي أَنْ تُعْمَلَ أَوَانِي الخَزَفِ للمَاءِ لِتُسْتَعْمَلَ فِيهِ طُولَ السَّنَةِ ، فَإِنَّ مَا عُمِلَ فِيهِ مِنْ أَوَانِي الخَزَفِ يُبْرَدُ المَاءُ فِي الصَّيْفِ أَكْثَرَ مِنْ تَبْرِيدِ مَا يُعْمَلُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ .
وفيهِ يَتكَامَلُ غَرْسُ الشَّجَرِ وَتَقْلِيمُ الكُرُومِ وفيهِ يُذْرِكُ التُّبُقُ وَاللُّوزُ الأَخْضَرُ وَيَكْثُرُ البَتْفِيسِجُ وَالمُنْشُورُ .

ويُقَالُ : أَمْشِيرُ يَقُولُ لِلزَّرْعِ سِيرٌ ، وَيُلْحِقُ بِالتَّوِيلِ القَصِيرِ .

وفيهِ يِقَلُّ البُرْدُ ، وَيَهْبُ الهَوَاءُ الَّذِي فِيهِ سُخُونَةٌ مَا .

وفي أَمْشِيرٍ يُؤَخِّدُ النَّاسُ فِيهِ بِإِتْمَامِ رُبْعِ الخِرَاجِ مِنَ السُّجِلَّاتِ .

بَرَمَهَات [Baramhat] - أوَّلُ يَوْمٍ مِنْهُ يُطْلَعُ الفَجْرُ بِالأَخْبِيَّةِ ، وفي خَامِسِهِ يَحْضُنُ دُودَ القَزِّ ، وَسادِسِهِ يُزْرَعُ السَّمْسِيمُ .

وثَانِي عَشْرِهِ يُقْلَعُ الكَثَّانُ ، وَرَابِعِ عَشْرِهِ يَكُونُ أوَّلُ الأَعْجَازِ ، وَيَطْلَعُ الفَجْرُ بِالفَرْعِ المَقْدَمِ^١ .

وفي سَادِسِ عَشْرِهِ تَفْتَحُ الحَيَّاتُ أَعْيُنَهَا ، وفي سَابِعِ عَشْرِهِ تُثَقَلُ الشَّمْسُ إِلَى بُرْجِ الحَمَلِ ، وَهُوَ أوَّلُ فَضْلِ الرَّبِيعِ ، وَرَأْسُ سَنَةِ الجِنْدِ ، وَرَأْسُ سَنَةِ العَالَمِ .

وفي العِشْرِينَ مِنْهُ يَكُونُ آخِرُ الأَعْجَازِ ، وَثَانِي عَشْرِهِ يَتَاجُ الخَيْلُ المَحْمُودَةُ ، وَثَالِثِ عَشْرِهِ يَظْهَرُ الذُّبَابُ الأَزْرَقُ ، وَخَامِسِ عَشْرِهِ تَظْهَرُ هَوَامُ الأَرْضِ ، وَسَابِعِ عَشْرِهِ يَطْلَعُ الفَجْرُ بِالفَرْعِ المُوَخَّرِ^٢ ، وفي آخِرِهِ يَتَفَرَّقُ السَّحَابُ .

وفي هَذَا الشَّهْرِ تَجْرِي المَرَاكِبُ السَّفَرِيَّةُ فِي البَحْرِ المِلْحِ إِلَى دِيَارِ مِصْرٍ مِنَ المَغْرِبِ وَالرُّومِ ، وَيُهْتَمُّ فِيهِ بِتَجْرِيدِ الأَجْنَادِ إِلَى الثُّغُورِ كَالإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَدِمْيَاطِ وَتَيْسِ وَرَشِيدِ .
وفيهِ كَانَتْ تُجَهَّزُ الأَسَاطِيلُ وَالمَرَاكِبُ الشَّوَانِي لِحِفْظِ الثُّغُورِ .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٤ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٥٤ .

وفيه زرع المقائي والصيفي ، ويُدرك الفول والعدس ، ويُقلع الكتان ، وتزرع أقصاب السكر في الأرض المبروشة المختارة لذلك ، البعيدة العهد/ عن الزراعة ، ويأخذ المقشرون في تنظيف الأرض المزروعة من القش في وقت الزراعة ، ويأخذ القطاعون في قطع الزريعة ، ويأخذ المزارعون في رمي قطع القصب .

٥ وفيه يؤخذ في تحصيل النطرون ، وحمله من وادي هيب إلى الشونة السلطانية .

وفيه يكون ريح الشمال أكثر الرياح هبوتاً .

وفيه تزهر الأشجار ، ويتعقد أكثر ثمارها .

وفيه يكون اللبن الرائب أطيب منه في جميع الشهور التي يعمل فيها .

وفي برمهاط يطالب الناس بالرُّبَع الثاني والثمن من الخراج .

١٠ برمودة [Baramudah] - في سادسه أول نيسان ، وفي عاشره يطلع الفجر بالرشاء^١ ، وفي ثاني

عشره يطلع الفجل ، وفي سابع عشره تحل الشمس أول بروج الثور .

وفي ثالث عشره يطلع الفجر بالشرطين^٢ ، وهو رأس الحمل وأول منازل القمر ، وفيه ابتداء

كسار الفول وحصاد القمح وهو ختام الزرع .

وفي هذا الشهر يُهتَم بقطع خشب السنط من الخراج الذي كان بمصر في القديم أيام الدولة

١٥ الفاطمية والأيوبيّة ، ويُجرى إلى السواحل لتيسر حمله في زمن النيل إلى ساحل مصر ، ليُعمل

شواني وأخطاباً يرسم الوقود في المطابخ السلطانية .

وفيه يكثر الورد ، ويزرع الخيار سنبر والملوخية والبادنجان ، وفيه يُقطف أوائل عسل النحل ،

ويُنقَض بزر الكتان . وأحسن ما يكون الورد فيه من جميع زمانه .

وفيه يظهر البطن الأول من الجميز . وفيه تقع المساحة على أهل الأعمال ، ويطلب الناس

٢٠ بإغلاق نصف الخراج من سجلاتهم ، ويُحصَد بذري الزرع .

بشنس [Bashans] - في خامسه تكثر الفاكهة . وسادسه أول أيار ، وفيه طلوع الفجر بالبطين^٣ .

وثامنه عيد الشهيد ، وتاسعه انفتاح البحر المالح ، ورابع عشره يزرع الأرز ، وثامن عشره تحل

الشمس أول بروج الجوزاء ، وفيه يطيب الحصاد .

وفي تاسع عشره يطلع الفجر بالثريا^٣ ، وفيه زراعة الأرز والشمس .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢: ٣٥٤ حيث أطلق عليه

^٢ نفسه ٢: ٣٥١ .

^٣ نفسه ٢: ٣٥١ .

ورابع عشره يكون عيدُ البَلَسَانِ بالمَطْرِيَّةِ ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَتْ فِيهِ مَرْيَمٌ إِلَى مِصْرَ .
وفي هذا الشَّهْرِ يكونُ دِرَاسُ الْعَلَّةِ ، وَهَذَا الْكِتَّانُ ، وَنَقْضُ الْبَرِّ وَالْتِقَاوِي وَالْأَتْبَانُ وَحَمَلُهَا .
وفيه زِرَاعَةُ الْبَلَسَانِ وَتَقْلِيمُهُ وَسَقْيُهُ ، وَتَكْرِيمُ أَرْضِيهِ مِنْ بَثُونَةٍ إِلَى آخِرِ هَاتُورِ ، وَاسْتِخْرَاجُ دُهْنِهِ
بَعْدَ شَرْطِهِ فِي نِصْفِ تَوْتِ ، وَإِنْ كَانَ فِي أَوَّلِهِ فَهُوَ أَصْلَحُ إِلَى آخِرِ هَاتُورِ . وَصَلَاحُ أَيَّامِهِ أَيَّامُ
النَّدَى ، وَيُقِيمُ فِي النَّدَى سَنَةً كَامِلَةً إِلَى أَنْ يَشْرَبَ أَعْكَارَهُ وَأَوْسَانَهُ . وَيُطْبَخُ الدُّهْنُ فِي الْفَضْلِ
الرَّبِيعِيِّ فِي شَهْرِ بَرْمَهَاتِ ، فَيَعْمَلُ لِكُلِّ رَطْلٍ مِصْرِيٍّ أَرْبَعَةً وَأَرْبَعُونَ رَطْلًا مِنْ مَائَةٍ ، فَيَحْضَلُ مِنْهُ
قَدْرُ عَشْرِينَ دِرْهَمًا وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الدُّهْنِ .

وفي هذا الشهر أكثر ما يهب من الرياح الشمال^(a).

وفيه يُدْرِكُ التُّفَّاحُ الْقَاسِمِي ، وَيَبْدَأُ فِيهِ التُّفَّاحُ الْمِشْكِيُّ وَالْبَطِيخُ الْعَبْدَلِيُّ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَا
عُرِفَ بِمِصْرَ عِنْدَمَا قَدِمَ إِلَيْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ بَعْدَ الْمَائِتِينَ مِنْ سِنِي الْهَجْرَةِ ، فَسَبَّ إِلَيْهِ وَقِيلَ لَهُ
الْعَبْدَلِيُّ^١ .

وفيه أيضًا يَبْدَأُ الْبَطِيخُ الْحَوْفِيُّ^(b) وَالْمَشْمَشُ وَالخَوْخُ الزَّهْرِيُّ ، وَيُجَنَّى الْوَرْدُ الْأَبْيَضُ .

وفيه تُقَرَّرُ الْمِسَاحَةُ ، وَيُطَالِبُ النَّاسُ بِمَا يُضَافُ إِلَى الْمِسَاحَةِ مِنْ أَبْوَابٍ وَمَجُوهٍ الْمَالِ - كَالصَّرْفِ
وَالجَهْبَذَةِ وَحَقِّ الْمَرَاعِيِّ وَالْقُرْطِ وَالْكَتَّانِ - عَلَى رُسُومِ كُلِّ نَاحِيَةٍ .

ويُسْتَخْرَجُ فِيهِ إِيَّامُ الرَّبِيعِ مِمَّا تَقَرَّرَتْ عَلَيْهِ الْعُقُودُ وَالْمِسَاحَةُ ، وَيُطَلَّقُ الْحِصَادُ لِجَمِيعِ النَّاسِ .
بَثُونَةٌ [Ba'ûnah] - فِي ثَانِيهِ يَطْلُعُ الْفَجْرُ بِالذَّبْرَانِ^٢ ، وَفِي خَامِسِهِ يَنْتَفِسُ النَّيْلُ ، وَفِي تَاسِعِهِ
أَوْانُ قَطْفِ النَّخْلِ .

وفي حَادِي عَشْرِهِ تَهَبُ رِيَّاحُ السَّمُومِ ، وَفِي ثَانِي عَشْرِهِ عِيدُ مِيكَائِيلَ فَيُؤَخَذُ قَاعُ النَّيْلِ ، وَفِي
ثَالِثِ عَشْرِهِ يَشْتَدُّ الْحَرُّ ، وَفِي خَامِسِ عَشْرِهِ يَطْلُعُ الْفَجْرُ بِالْهَقَّةِ^٣ .

وفي عَشْرِيهِ تَحُلُّ الشَّمْسُ أَوَّلَ بُرْجِ السَّرَطَانِ ، وَهُوَ أَوَّلُ فَضْلِ الصَّيْفِ .
وفي سَابِعِ عَشْرِيهِ يُنَادَى عَلَى النَّيْلِ بِمَا زَادَهُ مِنَ الْأَصَابِعِ . وَفِي ثَامِنِ عَشْرِيهِ يَطْلُعُ الْفَجْرُ بِالْهَقَّةِ^٤ .

(a) بولاق : الشمالية . (b) بولاق : الحربي .

^٣ نفسه ٢ : ٣٥٢ .

^٤ نفسه ٢ : ٣٥٢ .

^١ فيما تقدم ١١١ .

^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٥٢ .

وفي هذا الشهر تُسَقَّر المَرَائِبُ لإخضرار الغلال والتبن والقنود والأغسال وغير ذلك، من الأعمال القوصية ونواحي الوجه البحري.

وفيه يُقَطَّف عَسَل النحل، وتُخْرَص الكروم، ويُسْتَخْرَج زكاتها.

وفيه يُنْدَى الكَثَان، ويُقَلَّب أربعة أوجه في بؤنة وأيب.

وفيه زراعة النيلة بالصعيد الأعلى، وتُحْصَد بعد مائة يوم، ثم تُتْرَك وتُحْصَد في كل مائة يوم حصدة، ويُحْضَل في أول كيهك وطوبة وأمشير وبرمهاة، ويُطَّلَع في برمودة، وتُحْصَد في عشرة أيام من أيب، وتُقِيم في الأرض الجيدة ثلاث سنين، وتُسْقَى كل عشرة أيام دفتين، وثاني سنة ثلاث دفتات، وثالث سنة أربع دفتات.

وفي هذا الشهر يكون الثين الفيومي، والخوخ الزهري، والكمثرى والقراضيا والقثاء والبلح والحضرم، ويتدى إدراك العصفور.

وفيه يَدْخُل بعض العنب، ويطيب الثوت الأسود، ويُقَطَّف جمهور العسل فتكون رياحه قليلة، والثين يكون فيه أطيب منه في سائر الشهور، وفيه يَطَّلَع النحل، وفيه يُسْتَخْرَج تمام نصف الخراج مما بقي بعد المساحة.

أيب [Abib] - في سابعه أول تموز، وفي عاشره آخر قطع الخشب، وفي حادي عشره يَطَّلَع الفجر بالذراع^١، وثاني عشره ابتداء تعطين الكَثَان.

وفي خامس عشره يقل ماء الآبار، وتُدْرِك الفواكه، ويموت الدود. وفي حادي/ عشره تحل الشمس أول بروج الأسد، وتذهب البراغيث، ويتزد باطن الأرض، وتهيج أوجاع العين. وفي خامس عشره يَطَّلَع الفجر بالثيرة^٢، وفي سادس عشره تَطَّلَع الشعري العبور اليمانية. وفي هذا الشهر أكثر ما يهب من الرياح الشمال، ويكثر فيه العنب ويجود.

وفيه يَطَّبُ الثين المقرون بمجىء العنب، ويتغير البطيخ العبدلي وتقل حلاوته، وتكثر الكمثرى السكرية، ويطيب البلح.

وفيه يُقَطَّف بقايا عسل النحل، وتقوى زيادة ماء النيل فيقال: «في أيب يدب الماء ديب». وفيه يُنْقَع الكَثَان بالمبلات، ويباع بزسيم البذر برسم زراعة القرط والكثان. وفيه تُدْرِك ثمرة العنب، ويُحْصَد القرطم وفيه تُسْتَم ثلاثة أرباع الخراج.

^١ الفلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٥٢.

^٢ نفسه ٢: ٣٥٢.

مِسرَى [Misra] = في سابعه يَطْلَع الفَجْرُ بالطَّرْفِ ١، وفي ثامنه أوَّل آب، وفي حادي عشره يجمع القُطن، وفي رابع عشره يَحْمَى الماء ولا يترد، وفي سابع عشره استِكْمال الثمار.

وفي عشره يَطْلَع الفَجْرُ بالجِبْهَةِ ٢، وفي حادي عشره تَحُلُّ الشَّمْسُ بُرْج السُّنْبَلَةِ.

٥ وفي ثالث عشره يَتَغَيَّرُ طَعْمُ الفَاكِهَةِ لِعَلْبَةِ ماء النَّيْلِ على الأرض، وفي خامس عشره يكون آخِر السَّموم، وفي تاسع عشره يَطْلَع سَهَيْل بِمصر.

وفي هذا الشهر يكون وِفَاءُ النَّيْلِ ستة عشر ذِرَاعًا في غَالِبِ السَّنِينَ، حتَّى قيل إن لم يُوفِّ النَّيْلُ في مِسرَى فانتظره في السَّنَةِ الأُخْرَى.

وفيه يَجْرِي ماء النَّيْلِ في خَلِيج الإسكَنْدَرِيَّة وتُسَافِرُ فيه المَرَاكِبُ بِالغِلَالِ والبهار والشكر وسائر

١٠ أصناف المتاجر وفيه يَكْثُرُ البُشْرُ. وكانوا يَخْرُصُونَ النَّخْلَ، ويُخْرِجُونَ زَكَاةَ الثَّمَارِ في هذا الشهر، عندما كانت الزُّكُوتُ يَجْبِيهَا السُّلْطَانُ من الرِّعِيَّةِ.

وأَكْثَرُ ما يَهْبُ في هذا الشهر رِيحُ الشَّمَالِ.

وفيه يَغْصِرُ قِبْطُ مصر الخمر، ويُعْمَلُ الخَلُّ من العنب وفيه يُذْرِكُ المَوْزُ، وَأَطْيَبُ ما يكون المَوْزُ بِمصر في هذا الشهر.

١٥ وفيه يُذْرِكُ اللَّيْمُونُ التُّفَاحِي، وكان من جُمَّلَةِ أصناف اللَّيْمُونِ بأَرْضِ مصر لَيْمُونٌ يُقَالُ له التُّفَاحِي، يُؤْكَلُ بغير سُكَّرٍ لِقَلَّةِ حِمْضِهِ وَلَذَّةِ طَعْمِهِ. وفيه يكون اِبْتِدَاءُ إِذْرَاكِ الرَّمْثَانِ.

وإذا انْقَضَتْ أَيَّامُ مِسرَى، اِبْتَدَأَتْ أَيَّامُ النَّسِيءِ، ففي أولها اِبْتِدَاءُ هَيْجِ النَّعَامِ، وفي رابعها يَطْلَعُ الفَجْرُ بِالخَرْتَانِ ٣.

٢٠ وفي مِسرَى يُغْلِقُ الفَلَّاحُونَ خَرَاجَ أَرْضِي زِرَاعَاتِهِمْ، وكانوا يُؤَخَّرُونَ البَقَايَا على دَقِّ الكَثَّانِ في مِسرَى وأَيْبِ، لأنَّ الكَثَّانَ يُبَلِّ في ثَوْتٍ، ويُذَقُّ في بَابِهِ.

١ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٥٢.

٣ نفسه ٢: ٣٥٢.

٢ نفسه ٢: ٣٥٢.

ذكر تحويل السنة الخراجية الفبطية إلى السنة الهجرية العربية

وكيف عمل ذلك في الملة الإسلامية^(a)

قد تقدم، فيما سلف من هذا الكتاب، التعريف بالسنة الشمسية والسنة القمرية، وما للأتم في كبس السنين من الآراء. فلما جاء الله تعالى بالإسلام، تحرّز المسلمون من كبس السنين خشية الوقوع في النسيء^٢ الذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية ٣٧ سورة التوبة].

ثم لما رأوا تداخل السنين القمرية في السنين الشمسية، أشقطوا عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنة قمرية سنة، وسمّوا ذلك الازدلاف^(b)، لأن كل^(c) ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب. وسأتلو عليك من نبتأ ذلك ما لم أره مجموعاً.

قال أبو الحسن^(d) عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر^٣ في كتاب «أخبار أمير المؤمنين المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن أبي أحمد طلحة الموفق ابن المتوكل» ومنه نقلت: وخرج أمر المعتضد في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين ومائتين، بتصيير النوروز لإحدى عشرة ليلة نخلت من حزيران، رافة بالرعية وإشاراً لإزفائها.

وقالوا: خرج التوقيع في المحرم سنة اثنتين وثمانين ومائتين، بإنشاء الكتب إلى جميع العمال في النواحي والأمصار، بتزك افتتاح الخراج في النوروز الفارسي الذي يقع يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة نخلت من صفر، وأن يجعل ما يفتتح من خراج سنة اثنتين وثمانين ومائتين يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وهو اليوم الحادي عشر من حزيران -

(a) بولاق: الإسلام. (b) بولاق: الازدلاق. (c) بولاق: لكل. (d) في النسخ: أبو الحسين.

^١ يوجد بداية هذا الفصل في طيارة في الكراسة التي بخط المقرئ المحفوظة في مكتبة Liège.
^٢ انظر عن النسيء فيما يلي ٧٦٦-٧٦٩.
^٣ أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة ٣١٣هـ، روى عن أبيه كتابه المصنف في أخبار بغداد وذكر ملوكها، كما ذكر له الصفدي تأليفه ذبلاً على تاريخ أبيه في أخبار بغداد، الذي يبدو أن العنوان الذي أورده المقرئ يمثل قسماً منه (راجع، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠: ٣٤٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٩: ٣٤٩؛ Rosenthal, F., *El art. Ibn abi Tâhir Tayfûr III*, (p. 715).

^١ يوجد بداية هذا الفصل في طيارة في الكراسة التي بخط المقرئ المحفوظة في مكتبة Liège.
^٢ انظر عن النسيء فيما يلي ٧٦٦-٧٦٩.
^٣ أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة ٣١٣هـ، روى عن أبيه كتابه المصنف في أخبار

ويُسمى هذا التوروز المعتضدي - تزفيها لأهل الخراج ، ونظرًا لهم ^١ .

ونسخة التوقيع الخارج في تَصِيرِ افْتِتاح الخراج في حَزيران :

«أما بعد ، فإن الله لما حَوَّل أمير المؤمنين للمحل الذي أحله به من أمور عبادِه وبلاده ، رأى أن من حقَّ الله عليه ألاَّ يُكَلِّفها إلا ما به العدل والإنصاف لها والسيرة القاصدة ، وأن يتولَّى لها صلاحُ أمورها ، ويستقرئ السَّير والمعاملات التي كانت تُعامل بها ، ويُقرَّ منها ما أوجب الحقُّ إقراره ، ويُزيل ما أوجب إزالته ، غير مُستَكثير لها كثير ما يُسقطه العدل ، ولا مُستَقيل لها قليل ما يلزمه إياها الجور .

وقد وَفَّق الله أمير المؤمنين لما يَرجو أن يكون لِحَقِّ الله فيها قاضيًا ، ولنصيبها من العدل مُوازيًا . وبالله يستعين أمير المؤمنين على حِفْظ ما اشتَرعاه منها ، وحياطة ما قلَّده من أمورها ، وهو خَيْرٌ مُوفَّق ومُعِين .

وأنَّ أبا القاسم عبيد الله رَفَعَ إلى أمير المؤمنين - فيما أَمَرَ أمير المؤمنين به ، من رَدِّ التوروز الذي يُفْتتح به الخراج بالعراق والمشرق وما يتَّصل بهما ويَجري مَجراهما ، من الوقت/ الذي صار فيه من الزَّمان إلى الوقت الذي كان عليه مُتَقَدِّمًا ، مع ما أَمَرَ به في مُستَقْبَل السنين من الكبس ، حتى يصير العدلُ عامًّا في الزَّمان كُلِّه ، باقيا على غاير الدَّهر ومرَّ الأيام - مُؤامرة أمر^a أمير المؤمنين بنسخها^b لك في آخِر كتابه ، مع ما وَقَعَ به فيها لتمثيله ، فأفعل ذلك إن شاء الله تعالى ، والسلامُ عليك ورَحمةُ الله وبرَّكاته .

وكتبت يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة إحدى

وثمانين ومائتين .

نسخة المؤامرة ^٢ :

«أنهيت إلى أمير المؤمنين أن ممَّا أَنْعَمَ اللهُ به على رَعِيَّتِهِ ، ورزَقها إِيَّاه من

(a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : بتسجيلها .

^٢ المؤامرة . انظر فيما تقدم ٣٤٥ هـ ^٢ .

^١ قارن مع البيروني : الآثار الباقية ٣٦ .

رَأْفَتِهِ وَحُسْنِ نَظَرِهِ ، وَإِقَامَتِهِ عَلَيْهَا مِنْ عَدْلِهِ وَإِنصَافِهِ ، وَرَفْعِهِ عَنْهَا فِي خِلَافَتِهِ مِنْ الظُّلْمِ الشَّامِلِ مَا كَانَ الْأَقْصَى وَالْأَدْنَى ، وَالصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ ، وَالْمُسْلِمَ وَالذُّمِّيَّ فِيهِ سِوَاءٌ ، مَا حَرَزَتْهُ مِنْ نَقْلِ كُتُبِ الخِرَاجِ عَنِ السَّنَةِ الَّتِي كَانَتْ تُنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ سِنِي الهِجْرَةِ ، إِلَى السَّنَةِ الَّتِي فِيهَا تُدْرِكُ الغَلَّاتُ وَيُسْتَخْرَجُ المَالُ .

وَإِنَّ ذَلِكَ مَا كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الجَهْلِ حَاوِلَهُ وَبَعْضُ الْمُتَغَلِّبِينَ اسْتَعْمَلَهُ ، مِنْ تَثْبِيتِ الخِرَاجِ عَلَى أَهْلِهِ ، وَمُطَابَلَتِهِمْ بِهِ قَبْلَ وَقْتِ الزَّرَاعَةِ ، وَإِعْنَاتِهِمْ^(a) بِذِكْرِ سَنَةِ مِنَ السَّنَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُنْسَبُ الخِرَاجُ لِإِحْدَاهُمَا ، وَتُدْرِكُ الغَلَّاتُ وَيَقَعُ الاسْتِخْرَاجُ فِي الْأُخْرَى مِنْهُمَا ، فِي حِسَابِ شُهُورِ الفُرْسِ الَّتِي عَلَيْهَا يَجْرِي العَمَلُ فِي الخِرَاجِ بِالسُّوَادِ وَمَا يَلِيهِ ، وَالْأَهْوَازِ وَفَارِسَ وَالجَبَلِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِي المَشْرِقِ وَمَا يُضَافُ إِلَيْهِ .

إِذْ كَانَ عَمَلُ الشَّامِ وَالجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ جَرَى عَلَى حِسَابِ شُهُورِ الرُّومِ الْمُوَافِقَةِ لِلْأَزْمِنَةِ ، فَلَيْسَتْ تَخْتَلِفُ أَوْقَاتُهَا مَعَ الكَبِيَسَةِ المُسْتَعْمَلَةِ فِيهَا .
وَالعَمَلُ فِي خِرَاجِ مِصْرَ وَمَا وَالِهَا عَلَى شُهُورِ القِبْطِ المُوَافِقَةِ لِشُهُورِ الرُّومِ ، وَكَانَتْ مِنْ شُهُورِ الفُرْسِ قَدْ خَالَفَتْ مَوَاقِعَهَا مِنَ الزَّمَانِ بِمَا تُرِكَ مِنَ الكَبِيسِ ، مُنْذُ أزالَ اللهُ مُلْكَ فَارِسَ ، وَفَتَحَ لِلْمُسْلِمِينَ بِلَادَهُمْ ، فَصَارَ النُّورُوزُ - الَّذِي كَانَ الخِرَاجُ يُفْتَتَحُ فِيهِ بِالعِرَاقِ وَالْمَشْرِقِ - قَدْ تَقَدَّمَ فِي تَرْكِ الكَبِيسِ شَهْرَيْنِ ، وَصَارَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِدْرَاكِ الغَلَّةِ .

فَأَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - بِمَا جَبَلَ اللهُ عَلَيْهِ رَأْيَهُ فِي التَّوَصُّلِ إِلَى كُلِّ مَا عَادَ بِصَلَاحِ رَعِيَّتِهِ ، وَحَسْمًا لِلْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى إِعْنَاتِهَا^(b) - بِتَأخِيرِ النُّورُوزِ الَّذِي يَقَعُ فِي شُهُورِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ مِنْ سِنِي الهِجْرَةِ ، عَنِ الوَقْتِ الَّذِي يَتَّفِقُ فِيهِ أَيَّامُ سَنَةِ الفُرْسِ - وَهُوَ يَوْمُ الجُمُعَةِ لِإِحْدَى عَشْرَةَ تَخْلُو مِنْ صَفَرٍ - مِثْلَ عِدَّةِ أَيَّامِ الشَّهْرَيْنِ مِنْ شُهُورِ الفُرْسِ الَّتِي تُرِكَ كَبِيسُهَا وَهِيَ سِتُونَ يَوْمًا ، حَتَّى يَكُونَ نَوْرُوزُ السَّنَةِ واقِعًا يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ لَيْلَةً تَخْلُو مِنْ شَهْرٍ

(a) بولاق : وإعنائهم . (b) بولاق : إعنائهم .

ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، وهو الحادي عشر من حَزْران ؛ وهو يتصل بهما ويجري مجزأهما ، ويتنسب ويضاف إليهما ، وسائر أعمالهم ، وما يعمله أصحاب الحساب من التَّقويمات وجميع الأعمال ، وما يعده الفُرْس من شهورهم إلى شهوره الكبيسة الأول والآخر ، ثم يُكَبَسُ بعد ذلك في كل أربع سنين من سني الفُرْس ، ولا يقع تفاوت بينه وبينها على مُرور الأيام .

ولیکن أبداً واقعا في حَزْران ، وغير خارج عنه ، وأن يُلغى ذِكر كل سنة من أربع سنين تُنسب إلى الخراج بالعراق ، وفي المشرق والمغرب وسائر النواحي والآفاق ، إذ كان مقدار سني أيام الهجرة والسنة الجامعة للأزمنة التي تتكامل فيها الغلات .

وأن يخرج التوقيع بذلك ، لتتسأ الكتب به من ديوان الرسائل إلى ولاة المعاون والأحكام ، وتقرأ على المناير ، ويحمل أصحاب المعاون الرعية عليه ، وتأخذها بامثال ما أمر به أمير المؤمنين وسنته الحكم في ديوان حكمهم ، ليُمثّل الضمّناء والمقاطعون^(a) ذلك على حسبه ، واستطلع رأي أمير المؤمنين في ذلك ، فرأى أمير المؤمنين في ذلك مُرفقاً^(b) إن شاء الله تعالى ، وكانت نسخة التوقيع : يُتخذ ذلك إلى شاء الله تعالى .

وكتب في شهر ذي الحجة لسنة إحدى وثمانين ومائتين .

قال^١ : وكان السبب في نقل الخراج إلى حَزْران في أيام المعتضد ، ما حدثني به أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم النديم^(c) ، قال : كنتُ أحدث أمير المؤمنين المعتضد ، فذكرت خبز المتوكل في تأخير التوروز ؛ فاستحسنه ، وقال لي : كيف كان ذلك ؟ قلت : حدثني أبي ،

(a) الأصل وبولاق : لتمثيل الضمّناء والمقاطعين . (b) بولاق : موفق . (c) بولاق : القديم .

^١ مازال الحديث لابن أبي طاهر طيفور .

^٢ أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى بن المنجم النديم ، ٢٠ : ٢٨ - ٢٩ ؛ ابن خلكان : وفیات الأعيان ٦ : ١٩٨ -

ناظم جماعة آخرهم الخليفة المكتفي وتوفى سنة ٣٠٠هـ / (٢٠١) .

٩١٢ م (ابن النديم : الفهرست ١٦٠ - ١٦١ ؛ الخطيب

قال : دَخَلَ الْمُتَوَكَّلُ ، قبل تأخير النُّوروز بعض بسايننه الخاصَّة التي كانت في يَدَيَّ - وهو مُتَوَكِّلٌ عليَّ يُحَادِثُنِي ، وَيَنْظُرُ إِلَيَّ ما أُحَدِّثُ في ذلك البُستان - فَمَرَّ بِزُرْعِ أَخْضَرَ ، فقال : يا عليَّ ، إنَّ الزُّرْعَ أَخْضَرَ بعد ما أَدْرَكَ ! وقد اسْتَأْمَرَنِي عبيدُ اللهِ بن يحيى^١ في اسْتِيفْتاحِ الخِراجِ ، فكيف كانت الفُرْسُ تَسْتَفْتَحُ الخِراجَ في النُّوروزِ ، والزُّرْعُ لم يُدْرِكْ بعد ؟ قال : فقُلْتُ له : ليس يَجْرِي الأمرُ اليومَ على ما كان يَجْرِي عليه في أَيَّامِ الفُرْسِ ، ولا النُّوروزِ في هذه الأيَّامِ في وَقْتِه الذي كان في أَيَّامِها ؛ قال : وكيفَ ذاكَ ؟ فقُلْتُ : لأنَّها كانت تُكْبَسُ في كلِّ مائةٍ وعشرين سنةً شهرًا ، وكان النُّوروزُ إذا تَقَدَّمَ شهرًا ، وصارَ في خمسٍ من حُزَيْرانِ ، كَبِيتَ ذلكَ الشهرَ ، فصارَ في خَمْسٍ من أيارِ ، وأسْقَطَتْ شهرًا ورَدَّتْهُ إلى خمسٍ من حُزَيْرانِ ، فكان لا يتجاوزُ هذا .

فلَمَّا تَقَدَّمَ العِراقَ خالِدُ بن عبد اللهِ القَشْرِيَّ ، وحضَرَ الوُقُوثُ الذي تُكْبَسُ فيه الفُرْسُ ، مَنَعَهَا من ذلك وقال : هذا من النَّسِيءِ الذي نَهَى اللهُ عنه فقال : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ ﴾ ، وأنا لا أُطْلِقُه حتى اسْتَأْمَرَ فيه أميرُ المُؤمِنينَ ؛ فبَدَلُوا على ذلكَ ما لا جَلِيلًا ، فامْتَنَعَ عليهم / من قبوله ، وكتبَ إلى هشامِ ابن عبد الملكِ يُعَرِّفُه ذلكَ ويَسْتَأْمِرُه ، ويُعَلِّمُه أنَّه من النَّسِيءِ الذي نَهَى اللهُ عنه ، فأمرَ بِمَنَعِهِم من ذلك . فلَمَّا امْتَنَعُوا من الكَبْسِ ، تَقَدَّمَ النُّوروزُ تَقَدُّمًا شديدًا حتى صارَ يَقَعُ في نيسانَ والزُّرْعُ أَخْضَرَ ، فقال له المُتَوَكَّلُ : فاعْمَلْ لهذا يا عليَّ عَمَلًا تَرُدُّ النُّوروزَ فيه إلى وَقْتِه الذي كان يَقَعُ فيه في أَيَّامِ الفُرْسِ ، وعَرِّفْ بذلكَ عبيدَ اللهِ بن يحيى ، وأدِّ إليه رِسالةً مِنِّي في أن يَجْعَلَ اسْتِيفْتاحَ الخِراجِ فيه ؛ قال : فصِرَتْ إلى أبي الحسنِ عبيدَ اللهِ بن يحيى ، وعَرَفْتَه ما جَرَى بيني وبين المُتَوَكَّلِ ، وأدَّيتُ إليه رِسالَتَه ؛ فقال لي : يا أبا الحسنِ ، قد والله فَرَّجَتْ عَنِّي وعن الناسِ ، وعَمِلْتَ عَمَلًا كثيرًا يُعْظَمُ ثوابُك عليه ، وكَسَبْتَ لِأَميرِ المُؤمِنينَ أَجْرًا وشُكرًا ، فأحسَنَ اللهُ جِزَاءَكَ ، فمِثْلُكَ مَنْ يُجالِسُ الخُلَفاءَ . وأحِبُّ أن يَتَقَدَّمَ بالعمَلِ الذي أمرَ به المُتَوَكَّلُ ، ويُنفِذَه إليَّ حتى أُجْرِيَ الأمرُ عليه ، وأتَقَدَّمَ في كُتُبِ الكُتُبِ باسْتِيفْتاحِ الخِراجِ .

قال : فَرَجَعْتُ وحَزَرْتُ الحِسابَ ، فَوَجَدْتُ النُّوروزَ لم يكن يتقدَّم في أَيَّامِ الفُرْسِ أَكْثَرَ من شهرٍ يتقدَّم من خَمْسٍ تَخْلُو من حُزَيْرانِ فيصيرُ في خمسةِ أَيَّامٍ تَخْلُو من أيارِ ، فتُكْبَسُ سَنَّتُها وتُرَدُّه إلى خمسةِ أَيَّامٍ من حُزَيْرانِ .

^١ عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل الوزراء والكتاب ٢٥٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات العباسي المتوفى سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م (الجهشياري: ١٩: ٤١٦-٤١٩).

وَأَنْفَذْتَهُ إِلَى عبيد الله بن يحيى ، فَأَمَرَ أَنْ يُسْتَفْتَحَ الْحَرَّاجُ فِي خَمْسٍ مِنْ حَزْرَانَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ فِي أَنْ يُنْشَى كِتَابًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ يُنْفِذُ نُسَخَتَهُ إِلَى النَّوَاحِي ، فَعَمِلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ [الصُّوْلِيُّ] ^(a) كِتَابَهُ الْمَشْهُورَ فِي أَيْدِي النَّاسِ . قَالَ أَبُو أَحْمَدَ : فَقَالَ لِي الْمُعْتَضِدُ : يَا يَحْيَى ، هَذَا وَاللَّهِ فِعْلٌ حَسَنٌ ، وَيَتَّبِعِي أَنْ يُعْمَلَ بِهِ . فَقُلْتُ : مَا أَحَدٌ أَوْلَى بِفِعْلِ الْحَسَنِ وَإِحْيَاءِ الشُّنَنِ الشَّرِيفَةِ مِنْ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، لِمَا جَمَعَهُ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الْحَاسِنِ ، وَوَهَبَهُ لَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ . فَدَعَا بِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ ^٢ ، وَقَالَ لَهُ : اسْمَعْ مِنْ يَحْيَى مَا يُخْبِرُكَ بِهِ ، وَأَمْضِ الْأَمْرَ فِي اسْتِفْتَاكِ الْحَرَّاجِ عَلَيْهِ . قَالَ : فَصِرْتُ مَعَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ إِلَى الدِّيَّانِ ، وَعَرَفْتُهُ الْخَبَرَ ، فَأَحَبُّ تَأْخِيرِهِ عَنْ ذَلِكَ لِئَلَّا يَجْرِيَ الْأَمْرُ الْمَجْرِي الْأَوَّلَ بَعِينَهُ ، فَجَعَلَهُ فِي أَحَدِ عَشْرٍ مِنْ حَزْرَانَ ، وَاسْتَأْمَرَ الْمُعْتَضِدُ فِي ذَلِكَ فَأَمْضَاهُ ^٣ .

فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ شِعْرًا أَنْشَدْتَهُ لِلْمُعْتَضِدِ فِي هَذَا الْمَعْنَى ^٤ :

[الرملة]

يَوْمٌ نَوْرُوزِكَ يَوْمٌ وَاحِدٌ لَا يَتَأَخَّرُ
مِنْ حَزْرَانَ يُوَافِي أَبَدًا فِي أَحَدِ عَشَرَ

قَالَ : وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ مَشَايخِ الْكُتَّابِ ، قَالَ : كَانَتْ الْخُلَفَاءُ تُؤَخَّرُ النَّوْرُوزَ عَنْ وَقْتِهِ عَشْرِينَ يَوْمًا وَأَقَلَّ وَأَكْثَرَ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِتَأْخِيرِ افْتِتَاحِ الْحَرَّاجِ عَلَى أَهْلِهِ .
فَأَمَّا ^(b) الْمَهْرَجَانُ فَلَمْ تَكُنْ تُؤَخَّرُهُ عَنْ وَقْتِهِ يَوْمًا وَاحِدًا ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَدَّمَهُ عَنْ وَقْتِهِ يَوْمًا ، الْمُعْتَمِدُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَأَمَرَ الْمُعْتَضِدُ بِتَأْخِيرِ النَّوْرُوزِ عَنْ وَقْتِهِ سِتِّينَ يَوْمًا .

(a) زيادة من البيروني . (b) بولاق : وأما .

^١ أبو إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد الصولي ، أحد الشعراء المشهورين والكتاب المذكورين المتوفى سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م (أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ١٠: ٤٣-٤٦٨ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ١: ١٦٤-١٩٨ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٦: ٢٤-٢٨) .
^٢ قارن أبا هلال العسكري : الأوائل ٢٧٠-٢٧٣ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣: ٥٥-٥٧ .
^٣ انظر البيتين عند البيروني : الآثار الباقية ٣٣ .

^٢ أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب الكاتب وزير

وقال أبو الرُّيحان محمد بن أحمد البيروني في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» ومنه نَقَلْتُ - [يعني]^(a) ما ذَكَرَ ابن أبي طاهر - وزادَ : وَنَفَذَتِ الكُتُبُ إلى الآفاق - يعني عن المتوَكِّل - في مُحَرَّم سنة ثلاث وأربعين ومائتين ، وَقُتِلَ المتوَكِّلُ ولم يَتِمَّ له ما دَبَّرَ .

واستمرَّ الأمرُ حتى قامَ المُعْتَضِدُ فاحتَدَى ما فَعَلَهُ المتوَكِّلُ في تأخيرِ النُّوروز ، غيرَ أَنَّهُ نَظَرَ فإذا المتوَكِّلُ أَخَذَ ما بين سنته وبين أوَّلِ تاريخِ مُلْكِ^(b) يَزْدَجِرْدَ ، فأَخَذَ المُعْتَضِدُ ما بين سنته وبين السنة التي زالَ فيها مُلْكُ الفُرسِ بهلاكِ يَزْدَجِرْدَ ، ظَنًّا أَنَّ إهمالَهُم أمرَ الكَبَسِ من ذلك الوقت ، فَوَجَدَهُ مائتي سنة وثلاثًا وأربعين سنة ، حِصَّتُها من الأرباعِ ستونَ يومًا وكَثرَ ، فزادَ ذلك على النُّوروز في سنته ، وجَعَلَهُ مُنتَهَى تلك الأيام - وهو [أوَّلُ يومٍ]^(a) من خُزداذماه في تلك السنة - وكان يومَ الأربعاء ، ويُوَافِقُه اليوم الحادي عشر من حُزيران ، ثم وَصَعَ النُّوروزَ على شهورِ الرُّومِ لتتَكَبَسَ شهورُهُ إذا كَبَسَتِ الرُّومُ شهورَها^١ .

وقال القاضي السَّعيد ثِقَّة الثُّقاتِ ذُو الرِّياسَتَيْنِ أبو الحَسَنِ عَلِيُّ بنِ القاضِي المُؤمَّن ثِقَّة الدولة أبي عمرو عُثْمان بنِ يوسُفِ الخَزْزُومِيِّ في كتاب «المنهاج في عِلْمِ الخِراجِ» : والسَّنَةُ الخِراجِيَّةُ مُرَكَّبَةٌ على حُكْمِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ ، لأنَّ السَّنَةَ الشَّمْسِيَّةَ^٢ ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ورُبْعَ يومٍ ، ورُتِبَ المصريونَ سَنَتَهُم على ذلك ، ليكونَ أداءُ الخِراجِ عند إدراكِ العَلَّاتِ من كلِّ سنة . ووافقَها السَّنَةُ القِبْطِيَّةُ لأنَّ أيامَ شهورِها ثلاث مائة وستون يومًا ، ويتَّبَعُها خمسة أيامِ النَّسِيءِ ورُبْعَ يومٍ بعد تَقْضِي مِسرَى ، وفي كلِّ أربع سنين تكون أيامُ النَّسِيءِ ستة أيامٍ ليتنجِبرَ الكَشرُ ، ويُسمُّونَ تلك السَّنَةَ كَبِيسَةَ ، وفي كلِّ ثلاث وثلاثين سنة تَسْقُطُ سنة ، فيُحتَاجُ إلى نَقْلِها لأجلِ الفُضْلِ بين السَّنِينِ الشَّمْسِيَّةِ والسَّنِينِ الهِلاليَّةِ ، لأنَّ السَّنَةَ الشَّمْسِيَّةَ ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ورُبْعَ يومٍ ، والسَّنَةَ الهِلاليَّةَ ثلاث مائة وأربعة وخمسون يومًا وكَشرَ .

(a) زيادة من البيروني . (b) ساقطة من بولاق .

^١ البيروني : الآثار الباقية ٣٢-٣٣ ، وواضح أن النسخة التي نقل عنها المقرئ تختلف عن النسخة التي وصلت إلينا ، واعتمد البيروني في روايته على ما ذكره أبو بكر الصولي في كتاب «الأوراق» ووَصَفَه حمزة بن الحسن الأصبهاني في رسالته
^٢ في الأشعار السائرة في النُّوروز والمهرجان (الآثار الباقية ٣١) .
^٢ نجد بداية هذه الفقرة في نسخة المنهاج التي وصلت إلينا ثم يوجد بعد ذلك خرم في النسخة يمتد من ورقة ٥٠ و-
 ١٠١ ظ (الخزرومي : المنهاج ٨) .

ولما كان كذلك احتيج إلى استعمال النقل الذي تطابق به إحدى السنتين الأخرى .

وقد قال أبو الحسن علي بن الحسن الكاتب^١ ، رحمه الله : عهده جباية أموال الخراج في سنين ، قبل سنة إحدى وأربعين ومائتين من خلافة أمير المؤمنين / المتوكل على الله - رحمة الله عليه - تجرى كل سنة في السنة التي بعدها ، بسبب تأخير الشهور الشمسية عن الشهور القمرية في كل سنة أحد عشر يوماً ورُبْع يوم وزيادة الكسر عليه ؛ فلما دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، كان قد انقضى من السنين التي قبلها ثلاث وثلاثون سنة ، أولهن سنة ثمان ومائتين من خلافة أمير المؤمنين المأمون - رحمة الله عليه - واجتمع من هذا المتأخر فيها أيام سنة شمسية كاملة ، وهي ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً ورُبْع يوم وزيادة الكسر ، وبها إدراك غلات وثمار سنة إحدى وأربعين ومائتين في صفر سنة اثنتين وأربعين ومائتين^٢ .

- ١٠ وأمر أمير المؤمنين المتوكل على الله - رحمة الله عليه - بإلغاء ذكر سنة إحدى وأربعين ومائتين ، إذ كانت قد انقضت ، ويُنسب الخراج إلى سنة اثنتين وأربعين ومائتين . فجرت الأعمال على ذلك سنة بعد سنة . إلى أن انقضت ثلاث وثلاثون سنة ، آخِرهن انقضاء سنة أربع وسبعين ومائتين ، فلم يَنْتَبِه كُتَّابُ أمير المؤمنين المعتمد على الله - رحمة الله عليه - على ذلك ، إذ كان رؤسائهم في ذلك الوقت إسماعيل بن بلبل^٣ وبنو الفرات ، ولم يكونوا عمِلوا في ديوان الخراج والضياح في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله - رحمة الله عليه - ولا كانت أسنانهم أسناناً بلغت معرفتهم معها هذا النقل ، بل كان مَوْلِدُ أحمد بن محمد بن الفرات قبل هذه السنة بخمس سنين ، ومَوْلِدُ علي أخيه فيها ، وكان إسماعيل بن بلبل يتعلم في مجلس لم يبلغ أن يتسخ ؛ فلما تقلدت للناس

جميع ما يحتاج إليه من استثمار واستدعاء وتوقيع (الحوارزمي : مفاتيح العلوم ٣٨ وفيما تقدم ٣٤٥هـ)^٢ وانظر ترجمة علي بن الحسن عند ابن النديم : الفهرست ١٥٠ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٣:١٥ - ١٨ .

^٢ الفلقشندي : صبح الأعشى ١٣:٥٧ .

^٣ أبو الصقر إسماعيل بن بلبل الكاتب الشيباني ، ولي الوزارة للمعتمد على الله سنة ٢٦٥هـ وعزل وأعيد إليها سنة ٢٧٢هـ ، وتوفي سنة ٢٧٨هـ (الصفدي : الوافي بالوفيات ٩:٩٥-٩٨) .

^١ أبو الحسن علي بن الحسن الكاتب ، قال ابن النديم يلقب بابن الماشطة ظلماً ، كان في أيام المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) وله صناعة في الخراج وتقدم في الحساب ، أحد العاملين بأمر الكتابة والخراج ، تقلد في أيام حامد بن العباس بن الفضل - وزير المقتدر - ديوان بيت المال . ومن تصانيفه كتاب «جواب المغت» ، وكتاب «الخراج» ، وكتاب «تعليم نقض المؤامرات» - وهو الكتاب الذي ينقل عنه المقرئ وكذلك معاصره الفلقشندي - والمؤامرات مفردة مؤامرة ، وهي أعمال تجمع فيها الأوامر الخارجة ويوقع السلطان في آخرها بإجازة ذلك ، وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان تجمع

للدين أبي أحمد طلحة الموفق - رحمه الله - أعمال الضياع بقزوين وتواحيها لسنة ست وسبعين ومائتين - وكان مقيماً بأذربيجان ، وخليفته بالجبل (أحمد بن محمد^a) جرادة بن محمد وحمد^b ابن محمد كاتبه - واحتججت إلى رفع جماعتي إليه ، ترجمتها بجماعة سنة ست وسبعين ومائتين التي أدركت غلاتها وثمارها في سنة سبع وسبعين ومائتين ، ووجب إلغاء ذكر سنة ست وسبعين ومائتين ؛ فلما وقفا على هذه الترجمة أنكراها ، وسألاني عن السبب فيها ، فشرحت لهما ، وأكدت ذلك بأن عرفتهما أنني قد استخرجت حساب السنين الشمسية والسنين القمرية من القرآن الكريم بعدما عرضته على أصحاب التفسير ، فذكروا أنه لم يأت فيه شيء من الأثر ، فكان ذلك أوكد في لطف استخراجي ؛ وهو أن الله تعالى قال في سورة الكهف : ﴿وَلْيَبُثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [آية ٢٥ سورة الكهف] فلم أجد أحداً من المفسرين عرف معنى قوله : ﴿وازدادوا تسعاً﴾ ، وإنما خاطب الله - عز وجل - نبيه ﷺ بكلام العرب وما تعرفه من الحساب ؛ فمعنى هذه التسع أن الثلاث مائة كانت شمسية بحساب العجم ومن كان لا يعرف السنين القمرية ، فإذا أضيف إلى الثلاث مائة القمرية زيادة التسع ، كانت سنين شمسية صحيحة فاستحسنناه ؛ فلما أنصرف جرادة مع الناصر لدين الله إلى مدينة السلام ، وتوفي الناصر - رحمه الله - وتقلد أبو القاسم عبيد الله بن سليمان كتابة أمير المؤمنين المعتضد بالله ، أجرى له جرادة ذكر هذا النقل ، وشرح له سببه تقريباً إليه ، وطعنا على أبي القاسم عبيد الله في تأخيره إيّاه .

فلما وقف المعتضد على ذلك ، تقدم إلى أبي القاسم بإنشاء الكتب بنقل سنة ثمان وسبعين إلى سنة تسع وسبعين ومائتين ، وكان هذا النقل بعد أربع سنين من وجوبه ؛ ثم مضت السنون سنة بعد سنة ، إلى أن انقضت الآن ثلاث وثلاثون سنة : أولاهن السنة التي كان النقل واجب فيها وهي سنة خمس وسبعين ومائتين ، وأخبرتهن انقضاء سنة سبع وثلاث مائة ، وقد تهيأ إدراك الغلات والثمار في صدر سنة ثمان وثلاث مائة ونسبته إليها وقد عملت نسخة هذا النقل ، نسختها تحت هذا الموضع ليوقف عليها^١ .

(a-a) ساقطة من بولاق . (b) بولاق : أحمد .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ٥٨ - ٥٩ ، و ٢ : ٣٩٨ .

وقد كان أصحاب الدواوين في أيام المتوكل ، لما نقل سنة إحدى وأربعين ومائتين إلى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، جَبَّوا الجوالي والصدقات لسنتي إحدى واثنتين وأربعين ومائتين في وقت واحد ، لأن الجوالي بشر من رأى ومدينة السلام وقصب المذن^(a) المشهورة كانت تُجَبَّى على شهور الأهلَّة ، وما كان من جماجم أهل القرى في الخراج والضياح والصدقات والمستغلات ، كان يُجَبَّى على شهور الشمس .

وفي الثلاث^(b) و ثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة ، فألزم أهل الذمة خاصة بالجوالي ، ورَفَعها العُمَّال في حساباتهم ، فمن لم يَرَفَعها ألزموه بجوالي السنة الزائدة ، فأحفظ أنه اجتمع من ذلك ألوف ألوف^(c) ذراهم ، ثم مُجِدَّت الكُتُب إلى العُمَّال بأن تكون حساباتهم الجوالي على شهور الأهلَّة ، فجزى الأمر على ذلك^١ .

قال القاضي أبو الحسن^٢ : وقد كان النقلُ أُغْفِلَ في الديار المصرية ، حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربع مائة الهلالية تجرى مع سنة سبع وتسعين الحراجية ، فتقلت سنة سبع وتسعين وأربع مائة إلى سنة إحدى وخمسة مائة ، هكذا رأيتُ في تعليقات أبي رحمه الله [قال]^(d) : وأجر ما نُقِلت السنة في وقتنا هذا سنة خمس وستين وخمسة مائة إلى سنة سبع وستين وخمسة مائة الهلالية ، فتطابقت السنتان . وذلك أنني لما قلتُ للقاضي الفاضل أبي عليّ / عبد الرحيم بن عليّ البيساني أنه قد آن نقلُ السنة ، فأنشأ سِجلاً بنقلها نُسِخَ في^(e) الدواوين ، وحِيلَ الأمر على حكمه . وما برح الملوك والوزراء يفتنون بنقل السنين في أحيانها^٣ .

وقال أبو الحسين هلال بن المحسن الصائبي^٤ : حَدَّثني أبو عليّ قال : لما أرادَ الوزيرُ أبو محمد المهلبِي نقلَ سنة خمس وثلاث مائة الهلالية ، أمرَ أبا إسحاق والدي وغيره من كتابه في الخراج

(a) عند الفلقشندي : ومضافاتهما . (b) بولاق : ثلاث . (c) ساقطة من بولاق . (d) زيادة من الفلقشندي . (e) ساقطة من بولاق .

^١ الفلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ٥٧-٥٨ نقلًا عن كتاب «المنهاج في صنعة الخراج» للمخزومي انظر المنهاج ٨-٩ .

^٢ أي أبو الحسن علي بن عثمان المخزومي صاحب كتاب «المنهاج» .

^٣ الفلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ٦٠ ، وهو جزء سن الأربعين كان من كبار العلماء والأدباء وتوفي سنة =

^٤ أبو الحسين هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال الكاتب الصائبي ، كان أبوه وجده صابيين ، وأسلم هو وهو في

والرسائل ، بإنشاء كتاب عن المطيع لله في هذا المعنى ؛ فكتب كل منهم ، وكتب والذي الكتاب الموجود في رسائله ، وعرضت النسخ على الوزير فاختره منها ، وتقدم بأن يكتب إلى أصحاب الأطراف ، وقال لأبي الفرج بن أبي هشام خليفته : اكتب إلى العمال بذلك كتباً مُحَقَّقة ، وأنسخ في أواخرها هذا الكتاب السلطاني ؛ فغاضد أبا الفرج وقوع التفضيل والاختيار لكتاب والذي - وقد كان عميل نسخة اطرح في جملة ما اطرح - وكتب : «قد رأينا نقل سنة خمسين إلى إحدى وخمسين ، فاعمل على ذلك» . ولم ينسخ الكتاب السلطاني ؛ وعرف الوزير ما كتب به أبو الفرج فقال له : لماذا أغفلت نسخ الكتاب السلطاني في آخر الكتب إلى العمال وإثباته في الديوان ؟ فأجاب جواباً غل فيه ؛ فقال له : يا أبا الفرج ما تركت ذلك إلا حسداً لأبي إسحاق ، وهو والله في هذا الفن أكتب أهل زمانه ^١ ، فأعد الآن الكتب ، وأنسخ الكتاب في أواخرها .

قال القاضي أبو الحسن ^٢ : وأنا أذكر بمشيئة الله نسخة الكتاب الذي أشار إليه أبو الحسن علي ابن الحسن الكاتب ، وكتاب أبي إسحاق وكتاب القاضي الفاضل ، ليستبين للناظر طريق نقل السنين الخراجية إلى السنين الهلالية . فإذا قاربت الموافقة وحسنت فيها المطابقة ، فالكتاب الفاضلي أكثر نجازاً وأعظم إعجازاً ، ولا يخفى على المتأمل قدر ما أورد فيه من البلاغة ، كما لا يخفى على العارف قدر ما تضمنه كتاب الصايي من الصناعة .

نسخة الكتاب الذي أشار إليه أبو الحسن الكاتب :

«[أما بعد] ^a فَإِنَّ أَوْلَى مَا صَرَفَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنَايَتَهُ ، وَأَعْمَلَ فِيهِ فِكْرَهُ وَرِوِيَّتَهُ ، وَشَغَلَ بِهِ تَفَقُّدَهُ وَرِعَايَتَهُ ، أَمْرَ النَّبِيِّ الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ وَالزَّمَهُ جَمْعَهُ وَتَوْفِيرَهُ ، وَحَيَاطَتَهُ وَتَكْثِيرَهُ ، وَجَعَلَهُ عِمَادَ الدِّينِ ، وَقَوَامَ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَفِيمَا يُصْرَفُ مِنْهُ إِلَى أَعْطِيَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْجُنُودِ ؛ وَمَنْ يُسْتَعَانُ بِهِ لِنَحْصِينَ الْبَيْضَةِ وَالذُّبِّ عَنِ الْحَرِيمِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَجِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَسَدِّ الثُّغُورِ ، وَأَمْنِ السَّبِيلِ ، وَحَقْنِ الدَّمَاءِ ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ

(a) زيادة من القلقشندي .

= ٤٤٨ هـ . وهو صاحب كتاب التاريخ الذي ذيل به تاريخ الوزراء .

^١ نفسه ١٣ : ٥٩ - ٦٠ .

^٢ أي القاضي علي بن عثمان الخرومي .

يسأل الله راغبًا إليه ، ومتوكلًا عليه ، أن يُحسِنَ عَوْنَهُ عَلَى مَا حَمَلَهُ مِنْهُ ، وَيُدَيِّمَ تَوْفِيقَهُ لِمَا أَرْضَاهُ ، وَإِرْشَادَهُ إِلَى مَا يَقْضِي عَنْهُ وَلَهُ .

وقد نظر أمير المؤمنين فيما كان يجري عليه أمرُ جباية هذا الفئء في خلافة أبيه الراشدين فوجدَه على حَسَبِ مَا كَانَ يُدْرِكُ مِنَ الْعَلَاتِ وَالْثَمَارِ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوَّلًا أَوَّلًا عَلَى مَجَارِي شُهُورِ سِنِي الشَّمْسِ فِي النُّجُومِ الَّتِي يَحُلُّ مَالُ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا فِيهَا ، وَوَجَدَ شُهُورَ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ تَتَأَخَّرُ عَنْ شُهُورِ السَّنَةِ الْهَلَالِيَّةِ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا وَرُبْعًا وَزِيَادَةً عَلَيْهِ ، وَيَكُونُ إِدْرَاكُ الْعَلَاتِ وَالْثَمَارِ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَسَبِ تَأَخُّرِهَا .

فَلَا تَزَالُ السُّنُونَ تَمُضِي عَلَى ذَلِكَ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ حَتَّى تَنْقُضِي مِنْهَا ثَلَاثَ وَثَلَاثُونَ سَنَةً وَتَكُونُ عِدَّةُ الْأَيَّامِ الْمَتَأَخَّرَةِ مِنْهَا أَيَّامَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ كَامِلَةٍ ، وَهِيَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةٌ وَسِتُونَ يَوْمًا وَرُبْعُ يَوْمٍ وَزِيَادَةٌ عَلَيْهِ ، فَحِينَئِذٍ يَتَهَيَّأُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ إِدْرَاكُ الْعَلَاتِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا الضَّرَائِبُ وَالطُّسُوقُ فِي اسْتِقْبَالِ الْحَرَمِ مِنْ سِنِي الْأَهْلِ . وَيَجِبُ مَعَ ذَلِكَ الْإِغَاءُ ذِكْرَ السَّنَةِ الْخَارِجَةِ إِذْ كَانَتْ قَدْ انْقَضَتْ وَنَسَبْتُهَا إِلَى السَّنَةِ الَّتِي أُدْرِكُ الْعَلَاتِ وَالْثَمَارُ فِيهَا . وَإِنَّهُ وَجَدَ ذَلِكَ قَدْ كَانَ وَقَعَ فِي أَيَّامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - عِنْدَ انْقِضَاءِ ثَلَاثِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، آخِرْتُهُنَّ سَنَةٌ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَاسْتَعْنِي عَنْ ذِكْرِهَا بِالْغَائِبِ وَنَسَبْتُهَا إِلَى سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ ؛ فَجَرَتْ الْمَكَاتِبُ وَالْحُسْبَانَاتُ وَسَائِرُ الْأَعْمَالِ بَعْدَ ذَلِكَ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ إِلَى أَنْ مَضَتْ ثَلَاثَ وَثَلَاثُونَ سَنَةً ، آخِرْتُهُنَّ انْقِضَاءُ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَوَجِبَ إِثْنَاءُ الْكُتُبِ بِالْإِغَاءِ ذِكْرَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَنَسَبْتُهَا إِلَى سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ . فَذَهَبَ ذَلِكَ عَلَى كُتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَمِدِ عَلَى اللَّهِ وَتَأَخَّرَ الْأَمْرُ أَرْبَعَ سِنِينَ إِلَى أَنْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَصِدُ بِاللَّهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ بِنَقْلِ خَرَاجِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ إِلَى سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ؛ فَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ انْقَضَتْ فِي هَذَا الْوَقْتِ ثَلَاثَ وَثَلَاثُونَ سَنَةً : أَوْلَاهُنَّ السَّنَةُ الَّتِي كَانَ يَجِبُ نَقْلُهَا فِيهَا ، وَهِيَ سَنَةُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَآخِرْتُهُنَّ انْقِضَاءُ شُهُورِ خَرَاجِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثَ مِائَةٍ ؛ وَوَجِبَ افْتِتَاحُ خَرَاجِ مَا تَجْرِي عَلَيْهِ الضَّرَائِبُ وَالطُّسُوقُ فِي أَوْلَاهَا وَإِنْ مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ وَاسْتِقَامَةِ الْأَعْمَالِ ، وَاسْتِعْمَالِ مَا يَخْفُ عَلَى

الرعية معاملتها به نقل سنة الخراج لسنة سبع وثلاث مائة إلى سنة ثمان وثلاث مائة ، فرأى أمير المؤمنين - لما يلزمه نفسه ويؤاخذها به ، من العناية بهذا الفيء وحياطة أسبابه ، وإجرائها مجاريها ، وسلوك سبيل آباءه الراشدين رحمة الله عليهم فيها - أن يُكْتَبَ إليك وإلى سائر العُمَّال في النواحي بالعمل على ذلك ، وأن يكون ما يَصْدُرُ إليكم من الكُتُبِ وتُصَدِّرونه عنكم وتجري عليه أعمالكم ورُفُوعكم وحُسابانائكم وسائر مُناظراتكم على هذا النُّقْلِ .

فَاعْلَمْ ذلك من رأي أمير المؤمنين وَاَعْمَلْ به مستشعرا فيه وفي كل ما تُمضيه تقوى الله وطاعته ، ومستعمِلاً عليه ثِقَاتِ الأعوان وكُفَاتِهِمْ ، مُشْرِفاً عليهم ومَقُوماً لهم ، واكتب بما يكون منك في ذلك ، إن شاء الله تعالى .

نُسْخَةُ كِتَابِ (a) أَبِي إِسْحَاقَ الصَّائِي : ١٠

«أما بعد ، فإن أمير المؤمنين لا يزال مجتهداً في مصالح المسلمين ، وابعثاً لهم على مَرَاشِدِ الدنيا والدين ، ومهيئاً لهم إلى أحسن الاختيار فيما يُورِدون ويُصَدِّرون ، وأصوبِ الرأي فيما يُتْرَمون وينقُضون ، فلا تُلَوِّحْ له خَلَّةً داخلَةً على أمورهم إلا سَدَّها وتلافها ولا حالَّ عائدة بحظِّ عليهم إلا اعتمدها وأتاها ولا سُنَّةً عادلةً إلا أخذهم بإقامة رَسْمِها ، وإمضاء حُكْمِها ، والافتداء بالسلف الصالح في العمل بها والاتباع لها ، وإذا غَرِضَ من ذلك ما تعلمه الخاصَّة بوفور ألبابها ، وتجهله العامة بقُصور أفهامها ، وكانت أوامره فيه خارجةً إليك وإلى أمثالك من أعيانِ رجاله ، وأمائلِ عُمَّاله ، الذين يكتفون بالإشارة ، ويجتزئون بيسير الإبانة والعبارة ، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللَّفْظِ وإيضاح المعنى إلى الحدِّ الذي يُلْحِقُ المتأخر بالمتقدم ، ويجمع بين العالم والمتعلم ؛ ولا يسيما إذا كان ذلك فيما يتعلق بمعاملات الرعية ، ومن لا يعرف إلا الظواهرِ الجليَّةِ دونَ البواطنِ الخفيَّةِ ، ولا يتسهل عليه الانتقال عن العادات المتكرره ، إلى الرسوم المتغيرة ، ليكون القولُ بالمشروح لمن برز في المعرفة مذكراً ، ولمن تأخر فيها مبصراً ؛ ولأنه ليس من الحق أن تُمنع هذه الطبقة من يزد

(a) ساقطة من بولاق .

اليقين في صدورها ، ولا أن يُقتصر على اللُّمحة الدالَّة في مخاطبة جمهورها ،
حتى إذا استوت الأقدام بطوائف النَّاس في فهم ما أمروا به وفقه ما دُعوا إليه
وصاروا فيه على كلمة سواء لا يعترضهم شكُّ الشاكِّين ولا استِراة المستريين ،
اطمأنت قلوبهم ، وانشرحت صدورهم ، وسقط الخلاف بينهم ، واستمر
الاتفاق فيهم ، واستيقنوا أنهم مسوسون على استقامة من المنهاج ، ومحروسون
من جرائر الزَّيغ والاعوجاج ؛ فكان الانقياد منهم وهم دازون عالمون ، لا مقلدون
مُسلَّمون ؛ وطائعون مختارون ، لا مكرهون ولا مُجبرون .

وأمر المؤمنين يستمدُّ الله تعالى في جميع أغراضه ومراميه ، ومطالبه ومغازيه ،
مادَّة من صنعه تقيف به على سنن الصِّلاح ، وتفتح له أبواب النَّجاح ، وتنهضه بما
أهله لحمله من الأعباء التي لا يدعي الاستقلال بها إلا بتوفيقه ومعونته ، ولا يتوجه
فيها إلا بدلالته وهدايته ، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل .

وأمر المؤمنين يرى أنَّ أولى الأقوال أن يكون سدادا ، وأحرى الأفعال أن
يكون رِشادا ، ما وُجد له في السابق من حكم الله أصول وقواعد ، وفي
النَّص من كتابه آيات وشواهد ؛ وكان مُفضِّيا بالأمة إلى قوام من دين ودنيا ،
ووفاق في آخرة وأولى ، فذلك هو البناء الذي يثبت ويعلو ، والعُرس الذي
يُثبت ويزكو ، والسعي الذي تنجح مبادئه وهواديه ، وتُبهج عواقبه وتواليه ،
وتستنير سبله لسالكها ، وتورد لهم موارد السعود في مقاصدهم فيها ، غير
ضالِّين ولا عادِلين ، ولا مُنحرفين ولا زائلين .

وقد جعل الله - عزَّ وجلَّ - لعباده من هذه الأفلاك الدائره ، والنجوم
السائره ، فيما تتقلب عليه من اتِّصالٍ وافتراق ، ويتعاقب عليها من اختلاف
واتِّفاق ، منافع تظهر في كُرور الشهور والأعوام ، ومُرور الليالي والأيام ،
وتناوب الضياء والظلام ، واعتدال المساكين والأوطان ، وتغاير الفصول
والأزمان ، ونشء النبات والحيوان ، فما في نظام ذلك خلل ، ولا في صنعة
صانعه زلل ، بل هو منوط بعضه ببعض ، ومحوط من كلُّ ثلثة ونقض ،
قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ
لِيَتَعَلَّمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الآية ٥ سورة
يونس] ، وقال جلُّ من قائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ

النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ [الآية ٢٩ سورة لقمان] ، وقال : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الآية ٢٨ سورة يس] . وقال عزت قدرته : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [الآية ٣٩ سورة يس] . ففَضَّلَ اللهُ تعالى في هذه الآيات بينَ الشمسِ والقمرِ ، وأنبأنا في الباهر من حِكْمِهِ ، والمعْجِز من كَلِمِهِ ، أن لكلُّ منهما طريقًا سُخِّرَ فيها وطبيعةً جُبلَ عليها ، وأن كلَّ تلك المباينةِ والمخالفةِ في المسيرِ ، تُؤدِّي إلى موافقةٍ وملازمةٍ في التدبيرِ ؛ فمن هُنالك زادتِ السنةُ الشمسيةُ فصارت ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا ورُبْعًا بالتقريب المعمول عليه ، وهي المدَّة التي تقطع الشمسُ فيها الفلكَ مرَّةً واحدةً ، ونقصتِ السنةُ الهلاليةُ فصارت ثلاث مائة وأربعة وخمسين يومًا وكسْرًا ، وهي المدَّة التي يُجامع القمرُ فيها الشمسَ اثنتي عشرة مرَّةً ، واحتيج إذا انساق هذا الفضلُ إلى استعمال النُّقل الذي يُطابقُ إحدى السنتين بالأخرى إذا افرقتا ، ويُداني بينهما إذا تفاوتتا .

وما زالت الأُممُ السَّالِفةُ تُكَيِّسُ زياداتِ السنين على افتنانٍ من طُرُقها ومذاهبها ، وفي كتابِ اللهِ - عزَّ وجلَّ - شهادةٌ بذلك إذ يقول في قِصَّةِ أهلِ الكهفِ : ﴿وَلْيُتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الآية ٢٥ سورة الكهف] . فكانت هذه الزيادة بأن الفضل في السنين المذكورة على تقريب التقريب .

فأمَّا الفُرُسُ فإنهم أُجْرُوا معاملاتهم على السنة المعتدلة التي شهروها اثنا عشر شهرًا ، وأيامها ثلاث مائة وستون يومًا ، ولقَّبوا الشهورَ اثني عشر لقبًا ، وسمَّوا أيامَ الشهر منها ثلاثين اسمًا ، وأفردوا الأيامَ الخمسةَ الزائدة ، وسمَّوها المسترقةً وكَبَسُوا الرُّبْعَ في كل مائة وعشرين سنةً شهرًا .

فلَمَّا انقضى مُلكُهم ، بطل في كَبَسِ هذا الربعِ تدييرُهُم ، وزال نُورُوزُهُم عن سُنَّتِهِ ، وانفرج ما بينه وبين حقيقةِ وقْتِهِ ، انفراجًا هو زائدٌ لا يقف ، ودائر لا ينقطع ، حتَّى إن موضوعهم فيه أن يقع في مَدْخَلِ الصَّيْفِ وسينتهي إلى أن يقع في مَدْخَلِ الشِّتَاءِ ، ويتجاوز ذلك ، وكذلك مَوْضُوعُهُم في المهرجان أن يقع في مَدْخَلِ الشِّتَاءِ ، وسينتهي إلى أن يقع في مَدْخَلِ الصَّيْفِ ويتجاوزه .

وأما الرُّومُ فكانوا اتقنَ منهم حِكْمَةً وأبعدَ نظرًا في عاقبةٍ : لأنهم رَبُّوا شهورَ السنة على أَرْصَادِ رِصْدُوهَا ، وَأَنْوَاءِ عَرْفُوهَا ، وَفَضُّوا الخُمسةَ الأيامَ

الزائدة على الشهور، وساقوها معها على الدهور، وكتبوا الربع في كل أربع سنين يوماً، ورسّموا أن يكون إلى شباط مضافاً فقرّبوا ما بعده غيرهم، وسهّلوا على الناس أن يقتفوا أثرهم، لا جرم أن المعتضد بالله - صلوات الله عليه - على أصولهم بنى، ومثلهم احتذى في تصيره تؤوزوه اليوم الحادي عشر من حزيران، حتى سلّم مما لحق النواريز في سالف الأزمان، وتلاقوا الأمر في عجز سني الهلال عن سني الشمس، بأن جبروها بالكبس، فكلما اجتمع من فضول سني الشمس ما بقي بتمام شهر جعلوا السنة الهلالية التي يتفق ذلك فيها ثلاثة عشر هلالاً، فرّبما تمّ الشهر الثالث عشر في ثلاث سنين ورّبما تمّ في سنتين بحسب ما يوجب الحساب، فتصير سنتا الشمس والهلال عندهم متقاربتين أبداً لا يتباعداً ما بينهما.

وأما العرب فإن الله - جلّ وعزّ - فضّلها على الأمم الماضية، وورّثها ثمرات مساعيها المتعبة، وأجرى شهر صيامها ومواقيت أعيادها وزكاة أهل ملّتها، وجزية أهل ذمّتها، على السنة الهلالية، وتعبّدها فيها برؤية الأهلة، لإرادة منه أن تكون مناهجها واضحة، وأعلامها لائحة، فيتكافأ في معرفة الغرض ودخول الوقت الخاصّ منهم والعام، والناقض الفقه والتام، والأنثى والذكر، وذو الصغر والكبير، فصاروا حينئذٍ ينجّبون في سنة الشمس حاصل الغلات المقشومة وخراج الأرض المسوحة، ويحبّون في سنة الهلال الجوالي والصدقات والأرجاء والمقاطعات والمستغلات، وسائر ما يجري على المشاهرات، وحدث من التعاظّل والتداخل بين السنين ما لو استمر لقبح جداً، وازداد بقداً، إذ كانت الجباية الخراجية في السنة التي تنتهي إليها تُنسب في التسمية إلى ما قبلها فوجب مع هذا أن تُطرح تلك السنة وتُلغى، ويُتجاوز إلى ما بعدها ويُخطى، ولم يَجْزُ لهم أن يقتدوا بمخالفيهم في كبس سنة الهلال بشهر ثالث عشر؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزحت الأشهر الحرم عن مواقعها، وانحرفت المناسك عن حقائقها، ونقصت الجباية عن سني الأهلة القبطية بقسط ما استغرقه الكبس منها، فانتظروا بذلك الفضل إلى أن تيمّم السنة، وأوجب الحساب المقرّب أن يكون كل اثنتين وثلاثين سنة

شمسية ثلاثا وثلاثين سنة هلالية ؛ فنقلوا المتقدمة إلى المتأخرة نقلًا لا يتجاوز
الشمسية ، وكانت هذه الكلفة في دنياهم مستسهلة مع تلك النعمة في دينهم .
وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلاث مائة الخراجية إلى سنة إحدى
وخمسين وثلاث مائة الهلالية جمعًا بينهما ، ولزومًا لتلك السنة فيهما .
فاعمل بما ورد به أمر أمير المؤمنين عليك ، وما تضمنته كتابه هذا إليك ،
ومر الكتاب قبلك أن يحتدوا رسمه فيما يكتبون به إلى عمال نواحيك ،
ويخلدونه في الدواوين من ذكورهم وزفوعهم ، ويقررونه في ذُوج
الأموال ، وينظّمونه في الدفاتر والأعمال ، ويتنون عليه الجماعات
والحسابات ، ويوعزون بكتبه من الرُوزنامجات والبراءات ، وليكن
المنسوب كان من ذلك إلى سنة خمسين وثلاث مائة التي وقع النقل عنها
معدولًا به إلى سنة إحدى وخمسين التي وقع النقل إليها ، وأقم في نفوس
من بحضرتك من أصناف الجند والرعية وأهل الملة والذمة أن هذا النقل لا
يغير لهم رسمًا ، ولا يلحق بهم ثلما ، ولا يعود على قابضي العطاء بنقصان
ما استحقوا قبضه ، ولا على مؤدي حق بيت المال بإغضاء عمًا وجب
أداؤه ، فإن قرائح أكثرهم فقيرة إلى إفهام أمير المؤمنين الذي يؤثر أن تزاح فيه
العلة ، وتسد به منهم الخلة ، إذ كان هذا الشأن لا يتجدد إلا في المدد
الطوال التي في مثلها يحتاج إلى تعريف الناسي ، وإذكار الناسي ، وأجب بما
يكون منك جوابًا يحسن موقعه لك ، إن شاء الله تعالى»^١ .

وقال ابن المأمون^٢ في «تاريخه» من حوادث سنة إحدى وخميس مائة : وأول ما تحدث فيه نقل
السنة الشمسية إلى العربية ، وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين ، فتحدث القائد أبو عبد
الله محمد بن فاتك البطائحي مع الأفضل بن أمير الجيوش في ذلك ، فأجابته إليه وخرج أمره إلى

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣ : ٦٥ - ٧٠ .

^٢ فاتك بن مختار المعروف والده بابن البطائحي عفا الله عنه .

في هذه السنة - يعني سنة ٥٠١ - فتح ديوان التحقيق تولاه

ابن أبي الليث النضراني وأضيف إليه ديوان المجلس . (فيما يلي

٤٠١ : ١) فأول ما تحدث فيه نقل السنة الشمسية إلى

وردت هذه الفقرة في الكراسة التي بخط المقرئ

والمحفوظة في مكتبة Liège بلجيكا ، وبدأها بالعبارة التالية :

«الحمد لله . مختار من «سيرة المأمون البطائحي» تأليف الأمير

جمال الملك أبي علي موسى بن المأمون أبي عبد الله محمد بن

العربية ... (ورقة ١٥٧) .

الشيخ أبي القاسم بن الصيبري^١ بإنشاء سجل^a به^a فُتِخَ نصه في دواوين الأموال والجيوش وتُخَلد بعد ذلك في بيت المال^a، فأنشأ ما نُسخته :

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي ارتضى أمير المؤمنين أمينه في أرضه وخليفته، وألهمه أن
يعمَّ بحسن / التدبير عبيده وخليفته، ووقفه لمصالح يستمد أسبابها، ويفتح
بحسن نظره أبوابها، وأورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف
المفخر، وجعل اعتقاد ولائهم^b سبب النجاة في المحشر، وعناهم بقوله :
﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آية ١٥٧ سورة الأعراف]، وأعلى
منار سلطانه بمدير أفلاك دولته ومبيد أعداء مملكته، وأشرف من نصب
للمجد^c علماً وراية، ووقف على مصلحة البرية نظره ورأيه وأزهد بهدايته
الألباب الحائرة، وأذهب بمعدته الأحكام الجائرة السيد الأجل الأفضل،
ونتّم الثعوت بالدعاء للذي كمل تدبيره نظام الصلاح وتممه، وسدّد
تقريره الأمور في كل ما قصده ويّممه، وتنبه^d في السياسة على ما أهمله من
سبقه وأغفله من تقدّمه، وتتبع أحوال المملكة فلم يدع مُشكلاً إلا أوضحه
وبين الواجب فيه، ولا خللاً إلا أصلحه وبادر بتلافيه، ولا مهملاً إلا
اشتغله على ما يوافق الصواب ولا يُنافيه إيثاراً لعمارة الأعمال وقصداً لما

(a-a) إضافة من كراسة المقريري المحفوظة في Liège. (b) بولاق : موالائهم. (c) بولاق : للجنّد. (d) بولاق :

ونبه.

الرسائل» وكتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» وكتاب
«الأفضليات» (راجع، السلفي: معجم الشقر ٢٤٦؛
ياقوت: معجم الأدباء ١٥: ٧٩-٨١؛ ابن سعيد: النجوم
الزاهرة ٢٥٢-٢٥٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات
٢٢: ٢٢٨-٢٣٣؛ أيمن فؤاد: مقدمة القانون في ديوان
الرسائل ٢٠-٢٥؛ El² Gamâl el-Dîn el-Shayyâl,
(art. Ibn al-Sayrafî, pp. 956-57).

^١ تاج الرئاسة أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان
الكاتب المعروف بابن الصيبري، المتوفى سنة ٥٤٢هـ/
١١٤٧م، كاتب ديوان الإنشاء منذ وزارة الأفضل شاهنشاه
ابن بدر الجمالي، ثم تولى رئاسة الديوان في أيام الخليفة
الحافظ لدين الله وحتى وفاته. وأغلب السجلات التي
وصلت إلينا من عهد الخليفة الأمر بأحكام الله أنشأها ابن
الصيبري وهو لم يزل كاتباً في الديوان. ولابن الصيبري من
المؤلفات - التي وصلت إلينا - كتاب «القانون في ديوان

يَقْضِي بِتَوْفِيرِ الْأَمْوَالِ وَتَوْخِيحًا لِمَا عَادَ بِضُرُوبِ الْأَسْتِقْلَالِ^(a)، وَاعْتِنَاءَ بِرِجَالِ الدَّوْلَةِ الْعَلَوِيَّةِ وَأَجْنَادِهَا، وَاهْتِمَامًا بِمَصَالِحِهِمْ الَّتِي ضَعُفَتْ قَوَاهِمُ عَنْ ارْتِيَادِهَا، وَرِعَايَةً لِمَنْ ضَمَّتْهُ أَقْطَارُ الْمَمْلَكَةِ مِنَ الرِّعَايَا، وَحَمَلًا لَهُمْ^(b) عَلَى أَعْدَلِ السَّنَنِ وَأَفْضَلِ الْقَضَايَا.

يَعْمَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَعَانَهُ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ النَّظَرِ لِلْأُمَّةِ، وَادُّخْرِهِ لِأَيَّامِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي صَفَّتْ بِهَا مَلَائِسُ النُّعْمَةِ، وَوَفَّقَهُ لِمَا يَعُودُ عَلَى الْكَافَّةِ بِشُمُولِ الْإِنْتِفَاعِ، حَتَّى صَارَ اسْتِئْدَاءً^(c) الْحَقُوقِ بِوَأَجِبَاتِ الشَّرِيعَةِ الْوَاضِحَةِ الْأَدِلَّةِ، وَاسْتِيفَاؤِهَا بِمُقْتَضَى الْمَعْدَلَةِ فِيمَا يَجْرِي عَلَى أَحْكَامِ الْخَرَاجِ وَأَوْضَاعِ الْأَهْلَةِ، وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ الَّذِي مَيَّرَهُ بِالْحِكْمَةِ وَفَضْلِ الْخِطَابِ، وَيَبَيِّنُ مَا اسْتَبَهَمَ مِنْ سُبُلِ الصَّوَابِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ الْكِتَابِ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِيسَابِ﴾ [الآية ٥ سورة يونس]، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أُخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ أَيُّهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَافِيهِ فِيمَا أَعْضَلَ لِمَا عُذِمَ الْمُسَاعِدُ، وَوَأَقِيهِ بِنَفْسِهِ لِمَا تَخَاذَلَ الْكُفُّ وَالسَّاعِدُ، وَعَلَى الْأَئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا الْعَامِلِينَ بِرِضَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا يَقُولُونَ وَيَفْعَلُونَ، وَالَّذِينَ ﴿يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الآية ١٨١ سورة الأعراف]، وَإِنَّ أَوْلَى مَا أَوْلَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا وَإِفْيَا مِنْ تَفَقُّدِهِ وَأَسْهَمَ لَهُ جُزْءًا وَافِرًا مِنْ كَرِيمِ تَعَهُدِهِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ اهْتِمَامِهِ وَاخْتَصَّصَهُ بِالْقِسْمِ الْأَجْزَلِ مِنْ اسْتِمَالَةِ أَمْرِ الْأَمْوَالِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى سَدِّ الْخَلَلِ، وَبِرَجَائِهَا يُسْتَدْفَعُ مَا يَطْرُقُ مِنَ الْحَادِثِ الْجَلَلِ، وَبِوَفُورِهَا تَسْتَبِيبُ شُئُونِ الْمَمْلَكَةِ وَتَسْتَقِيمُ أَحْوَالُ الدَّوَلِ، وَبِاسْتِخْرَاجِهَا عَلَى حُكْمِ الْعَدْلِ الشَّامِلِ وَقَضِيَّةٍ^(d) إِنْصَافِ الْمَعَامِلِ تَكُونُ الْعِمَارَةَ الَّتِي هِيَ أَضَلُّ زِيَادَتِهَا وَمَادَّةُ كَثْرَتِهَا وَغَزَارَتِهَا، وَلَمَّا كَانَتْ جِبَايْتُهَا عَلَى حُكْمِينَ: أَحَدُهُمَا يَجِيءُ هِلَالِيًّا، وَذَلِكَ مَا لَا يَدْخُلُهُ عَارِضٌ وَلَا إِشْكَالٌ وَلَا إِتِهَامٌ وَلَا يُخْتَاغُ فِيهِ إِلَى إِيضَاحٍ وَلَا إِفْهَامٍ، لِأَنَّ شَهْرَ الْهِلَالِ يَشْتَرِكُ فِي مَعْرِفَتِهَا الْمُبْرَزِ^(e) وَالْمَقْصَرِ، وَيَسْتَوِي

(a) بولاق: الاستقلال. (b) الأصل: حملانهم. (c) بولاق: استبدال. (d) بولاق: وصية. (e) بولاق: الأمير.

في الفهم بها المتقدم في العلم والمتأخر، إذ كان الناس آلفين لأزمينة مُتَعَبِّدَاتِهِمُ السنين مما يحفظ لهم نظام مرسومهم. والآخر يجيء خراجيًا ويثبت بنسبته إلى الخراج، لأنها تضبط أوقات ما يجري ذلك لأجله من النيل المبارك والزراعة، وتحفظ أحيانه دون السنة الهلالية وتحرس أوضاعه، ولا يستقل بمعرفته إلا من باشره وعلم^(a) موارده ومصادره، فوجب أن يُوفَّر^(b) على السنة الخراجية النظر ويفعل فيها ما تعظم به الفائدة ويحسن فيه الأثر، ويعتمد في إيضاح أمرها وتقديم حُكْمِهَا على ما تتحلَّى به التواريخ وتزئِن به السِّيرُ، ويكون ذلك شاهدًا لمساعي السَّيِّدِ الأجلِّ الأفضَل الذي لا يزال ساهِرًا ليله في حياة الهاجعين، ساهِرًا سَيْفَهُ في حماية الوداعين، مُطْلِعًا للدولة بدور السعادة وشموسها، مُذَلِّلًا لها صُغْبِ الحوادث، وشموسها ناطقة تارة بأن أمة هو راعيها قد فضل الله سائسها وأسعد مسوسها، وهذا حين التَّبَصُّرِ والإرشاد وأوان التبيين للغرض والمراد، لتساوى العامة والخاصة في عمله، وتسعهم الفائدة في معرفة حكمه، وتحقق المنفعة لهم فيما يمتنع من تداخل السنين واشتباكها^(c)، وتيقن المعادلة عليهم فيما يؤمن من المضار التي يُحتاج إلى استدراكها. معلوم أن أيام السنة الخراجية - وهي السنة الشمسية - بخلاف السنة الهلالية، لأن أيام السنة الخراجية من استقبال التَّوَرُوزِ إلى آخر النسيء ثلاث مائة وخمسة وستون يومًا ورُبْعَ يوم، وأيام السنة الهلالية لاستقبال المحرم إلى آخر ذي الحجة ثلاث مائة وأربعة وخمسون يومًا، والخلاف في كل سنة بالتقريب أحد عشر يومًا، وفي كل ثلاث وثلاثين سنة سنة واحدة على حُكْمِ التَّقْدِيمِ^(d)، ويُقْتَضِيهِ ما تقدّم من الترتيب. فإذا اتَّفَقَ أن يكون أول الهلالية موافقًا لمُدْخَلِ السنة الخراجية وكانت نسبتها واحدة، استمر اتفاق التَّشْمِيَةِ فيهما وبقي ذلك جاريا عليهما ولم تزالا متداخلتين لكونه مُدْخَلِ الخِراجِيَّةِ في أثناء شهور الهلالية إلى انقضاء ثلاث وثلاثين سنة، فإذا انقضت هذه المدة بطلت المداخلة ونحلت السنة / الهلالية

(a) بولاق: عرف. (b) بولاق: يقصر. (c) بولاق: استقبالها. (d) بولاق: التقريب.

من نُوروز يكون فيها ، وبحكم ذلك بطل اتفاق التسمية ويكون التفاوت سنة واحدة لليلة المقدم ذكرها . ومن أين يستمر بينهما ائتلاف أو يُعَدَم لهما اختلاف ؟ أم كيف يُعْتَقَد ذلك أحد من البشر والله تعالى يقول : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [الآية ٤٠ سورة يس] فقد وَضَحَ دليلُ التَّبَاعَدِ بما جاء مَنصُوبًا في الكتاب ، وظَهَرَ بُرْهَانُهُ بما اقتضاه مُوجب الحِساب ، فيحتاج بحكم ذلك إلى نَقْلِ السَّنَةِ بالتسمية^(a) إلى التي تليها لتكون موافقةً للهلالية بالتسمية^(b) وجارية معها ، وفائدة النُّقل أن لا تخلو السَّنَةُ الهلالية من مالٍ خاصٍّ يُنسَب إلى السَّنَةِ الموافقة لها ، لأنَّ واجبات العسكرية على عِظَمِهَا واتساعها ، وأزراق المُرتزقة على اختلاف أجناسها وأوضاعها ، جارية على أحكام الهلالية غير معدول بها عن ذلك في حالٍ من الأحوال ، والمحافظة على ثَمَرَةِ ارتفاعها متعيّنة ومنفعة العناية بما تجري عليه واضحة مبينة .

ولما أهلت سنة إحدى وخمسة مائة ودخلت فيها سنة تسع وتسعين وأربع مائة الخراجية الموافقة لسنة إحدى وخمسة مائة الهلالية ، كان في ذلك من الثبائن والتعارض والتفاوت والتنافر بحكم إهمال النقل فيما تقدم ، ما صارت السنة الهلالية الحاضرة لا يُجَبَى^(c) خراج ما يوافقها فيها ولا تُدْرِك غلات السنة المجزى مالها عليها إلا في السنة التي تليها ، فهي تُسْتَهَلُّ وتنقضي وليس لها في الخراجي ارتفاع ، والأعمال تطيف بالزراعة ولا حظ لها في ذلك ولا انتفاع ، وهذه الحال فالمضرة^(d) بها على بيت المال غير خفيفة ، والأذية فيها للرجال المقطعين بادية وأسباب تحيفها^(e) إياهم مستمرة ، ولاسيما من وقع له يائبات وأنعم عليه بزيادات ، فإنهم يتعجلون الاستقبال ويتأجلون الاستغلال ؛ ومتى لم تُنقل هذه السنة الخراجية كانت مُتداخلة بين سنتين هلالية وهي موافقة لغيرها ، ومالها يجري على سنة تجري بينهما ، لأنَّ مَدْخَلَهَا في اليوم العاشر من المحرم سنة إحدى وخمسة مائة وانقضاؤها

(a) بولاق : الشمسية . (b) ساقطة من بولاق . (c) بولاق : بجبيء . (d) بولاق : المضرة . (e) بولاق : لحوقها .

في العشرين من المحرم سنة اثنتين وخمسة مائة ، وهي مُتداخلة بين هاتين السنتين ومألهاما يجري على سنة إحدى وخمسة مائة ، والحال في ذلك لا ينتهي إلى أمد ، ولا يزال الفساد يتزايد طول الأبد .

وقد رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه ، ما خرج به أمره إلى السيد الأجل الأفضل ، الذي نبه على هذا الأمر وكشف غامضه ، وأزال بحسن توصله متنافيه وتناقضه ، أن يُوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل مُضمّنا ما رآه ودبره ، مودعا إنفاذ ما أحكمه وقرره من نقل سنة تسع وتسعين وأربع مائة إلى سنة إحدى وخمسة مائة لتكون مُوافقة لها ويجري عليها مالها ، ويكون ما يشتادونه من إقطاعاتهم ويستخرجونه من واجباتهم جاريا على نظام محروس ونطاق مُحيط غير منحوس ، وشاهدا بنصيب مُوفى^(a) غير منقوص ، ويتضح ما أبهم إشكاله التسمية ، ويزول الاشتكراه في اختلاف التسمية ، ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمسة مائة ، ويُنسب إلى^(b) مال الخراج والمقاسمات وما يُشتغل ويُجبي من الإقطاعات مما كان جاريا على ذكر سنة تسع وتسعين وأربع مائة إلى سنة إحدى وخمسة مائة ، وتجري الإضافة إليها مجرى ما يرفع من الهلالي فيها لتكون سنة إحدى من هذه مشتملة على ما يخصها من مالها وعلى مال السنة الخراجية بما يُشرح من انتقالها ، وكذلك نقل سنة تسع^(c) وتسعين وأربع مائة الخراجية الثابتة بالتسمية إلى سنة إحدى وخمسة مائة المشار إليها ويكون مالها جاريا عليها .

فليُعتمد ذلك في الدواوين بالخصرة وفي سائر أعمال الدولة قاصيها ودانيها ، وقريبها ودانيها^(d) ، وليتنبه كافة الكتاب والمستخدمين وجميع العمال والمتصرفين إلى اقتفاء هذا السن وأتباعه ، وليحذروا الخروج عن أحكامه المقررة وأوضاعه ، وليبادروا إلى امتثال المرسوم فيه وليحذروا من تجاوزه وتعدّيه ، ولينسخ في دواوين الأموال

(a) بولاق : موافى . (b) ساقطة من بولاق . (c) الأصل وظ : سبع . (d) بولاق : وفارسها وشامياها .

والجُيُوش المَنصُورَة وليُخَلَّد بعد ذلك في بيت المال المعمور^(a).
وكتب في مُحَرَّم سنة إحدى وخمسة مائة^١.

وقال القاضي الفاضل في «متجددات» سنة سبع وستين وخمسة مائة، ومن خطه نقلت:
مستهل المحرم نسخ منشور بنقل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية، والمطابقه بين اسمهما لموافقة
الشهور العربية للشهور القبطية، وخلو سنة سبع من نوروز، فنقلت سنة خمس وستين وخمسة
مائة الخراجية إلى هذه السنة؛ و^(b) كان آخر نقل نقلته هذه السنة في الأيام^(b) الأفضلية، فإن سنة
ثمان وتسعين وأربع مائة وسنة تسع وتسعين الخراجيتين، نقلنا إلى سنة إحدى وخمسة
مائة^(c) ٢.

وسبب هذا الانفراج بينهما زيادة عدد السنة الشمسية على عدد الهلالية أحد عشر يوماً،
وإغفال النقل في سنة ثلاث وثلاثين في أيام الوزير الأفضل رضوان بن ولحشي، وانسحب ذيل
هذه الزيادة وتداخل السنين بعضها في بعض، إلى أن صار التفاوت بينهما ستين في هذه السنة،
فنقلت؛ وهو انتقال لا يقدو^(d) التسمية، ولا يتجاوز اللفظ، ولا ينقص / مالا لديوان ولا لمقطع،
ولما يقصد به إزالة الإلباس وحل الإشكال.

وقال القاضي أبو الحسن^(e): ونسخة الكتاب الذي أنشأه القاضي الفاضل:

«خرجت الأوامر الملكية الناصرية - زاد الله في علائها^(f) - بإيداع هذا
المنشور: إنا نؤثر من حُسن النظر ما يؤثر أحسن الخبر، ولا ينصرف بنا
الفكر عما يحلّي السير ويجلّي الغير^(g)، ولا تزال خواطرننا تغتلي فتطلع
الذراري، وتغوص فتخرج الدرر. وإن أولى ما استجدت به البصائر،
وخرست فيه المصائر، كل أمر يصحح المعاملات ويشرحها، ويطلق
عقولهم من عقول الإشكال ويشرحها.

(a) بولاق: بيوت المال المعمورة. (b-b) ساقطة من ظ. (c) بولاق: وخمسمائة الخراجية. (d) بولاق: يتعدى.

(e) بولاق: أبو الحسين. (f) بولاق: إعلانها. (g) بولاق: تحلى به السير وتجلّى به الغير.

^١ ابن المأمون: أخبار مصر ٣-٤٨؛ وقارن المقرئ: ^٢ المقرئ: اتعاظ الحنفا ٣: ٣٢٤.
اتعاظ الحنفا ٣: ٤٠.

ولما وَجِبَ نَقْلُ السَّنَةِ الْخَرَاجِيَّةِ وَالْمُطَابَقَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْهِلَالِيَّةِ ، لِانْفِرَاجِهِمَا
سنتين وموافقة الشهور الخراجية والهلالية في هذه السنة مَطْلَعُ الْمُسْتَهْلِينَ ،
أَمْضِيْنَا هَذِهِ السَّنَةَ الْخَالِيَةَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْآتِيَةِ ، وَاسْتَخْرْنَا اللَّهَ تَعَالَى فِي نَقْلِ
سِنْتِي خَمْسَ وَسِتِّ وَخَمْسَ مِائَةَ إِلَى سِنَةِ سَبْعِ وَسِتِّينَ وَخَمْسَ مِائَةَ ،
الَّتِي سُمِّيَتْ بِهَذَا النُّقْلِ هِلَالِيَّةً خَرَاجِيَّةً ، نَفْيًا لِلْأُمُورِ الْمُشْتَبِهَةِ وَالتَّسْمِيَةِ
الْمُؤَوَّهَةِ ، وَتَنْزِيْهَا لِسِنِي الْإِسْلَامِ عَنِ التَّكْبِيْسِ وَالتَّأْرِيخِ عَنْ مُلَابَسَةِ التَّلْبِيْسِ ،
وَإِعْلَامًا بِالْوِفَاقِ الَّذِي اسْتَشْعَرْتَهُ آبَاؤُنَا^(a) وَبَنُوهَا ، وَإِعْلَانًا بِاتِّبَاعِنَا عَوَايِدَ^(b)
السَّلَفِ الَّتِي خَلَفُوهَا لِلخَلْفِ وَبِيئِوهَا .

وَفِي ذَلِكَ مَا تُحْمَدُ بِهِ الْعَوَاقِبُ ، وَتَنْفَسِحُ بِهِ الْمَذَاهِبُ ، وَتَتَيَسَّرُ بِهِ
الْمَطَالِبُ ، وَيَزُولُ بِهِ الْإِشْكَالُ ، وَيُؤْمَنُ بِهِ الْاِخْتِلَالُ ، وَيُنْحَسِمُ بِهِ الْعَلَطُ فِي
الْحِسَابِ ، وَيُؤَلَّفُ بَيْنَ السَّنِينَ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَنْسَابِ ، وَيَحْفَظُ عَلَى الْعُمُرِ^(c)
مُعَامَلَتَهُ وَيُتَعَدُّ عَنِ التَّأْرِيخِ مُعَاطَلَتَهُ ، وَيُقَرَّبُ عَلَى الْكَاتِبِ مُحَاوَلَتَهُ ،
وَيَضْرَفُ عَنِ نِعْمَةِ اللَّهِ هُجَّتَهُ كَوْنَهَا مُقَدَّمَةً فِي التَّسْنِيَةِ مُؤَخَّرَةً فِي التَّسْمِيَةِ ،
وَعَنِ مُعَامَلَةِ بَيْتِ الْمَالِ وَصُحْبَتِهِ^(d) كَوْنَهَا مَعْدُوقَةٌ بِالْمَطْلِ وَقَدْ بَالِغَتْ فِي
التَّوْفِيَةِ ، لِأَنَّ مَنْ أُعْطِيَ فِي سِنَةِ سَبْعِ وَسِتِّينَ وَخَمْسَ مِائَةَ اسْتَحْقَاقَ سِنَةِ
خَمْسَ ، فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ مَطَّلَ بِحُكْمِ السَّمْعِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَنْجَزَ بِحُكْمِ الشُّرْعِ .
فَتُوسَمُ هَذِهِ السَّنَةُ الْمُبَارَكَةُ بِالْهِلَالِيَّةِ الْخَرَاجِيَّةِ ، وَتُرْفَعُ الْحُسْبَانَاتُ بِهَذَا
الْوَضْعِ ، وَيُعْمَلُ فِي التَّقْرِيرَاتِ وَالتَّسْجِيْلَاتِ عَلَى هَذَا . فَلْيُفْعَلْ فِي ذَلِكَ
مَا يَقْضِي بَارْتِيَاغَ هَذَا الْإِنْفِرَاجِ وَجِبْرَ هَذَا الصَّدْعِ ، وَلِيُعْلَمَ فِي الدَّوَاوِينِ
عِلْمَهُ ، وَلِيَتَّقَدَّ فِيهَا حُكْمُهُ بَعْدَ ثُبُوتِهِ ، بِحَيْثُ^(e) يَثْبُتُ مِثْلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى .

(a) بولاق : أبأؤها . (b) بولاق : باتباع عناية بعوائد . (c) الأصل وظ : الغمر ، وبولاق : القمر . (d) بولاق :
وصمة . (e) بولاق : إلى حيث .

وأما تأريخ العرب

فإنه لم يزل في الجاهلية والإسلام يُعمل بشهور الأهلّة، وعدّة شهور السنة عندهم اثنا عشر شهراً، إلا أنهم اختلفوا في أسمائها.

فكانت العرب العاربة تُسمّيها: ناطق، ونقيل، وطلق، وأسنح، وأنتح^(a)، وحلك، وكسح، وزاهر، ونوط، وحوّف، وبغش، فناطق هو المحرم، ونقيل هو صفر... وهكذا ما بعده على سرد الشهور^٢.

وكانت ثمود تُسمّيها: موجب، وموَجِر، ومورد، ومُنزِم، ومُضدِر، وهَوْبِر، وهَوْبِل، ومَوْهَاء، ودَيْمِر، ودَايِر، وحَيْقَل، ومُسْبِل. فموجب هو المحرم، وموَجِر صفر، إلا أنهم كانوا يتدأون بالشهور من دَيْمِر وهو شهر رَمضان، فيكون أول شهور السنة عندهم^٣.

ثم كانت العرب تُسمّيها بأسماء أخر، وهي: مؤتمِر، وناجر، وخَوّان، وصوّان، وحتّم، وزبّاء، والأصمّ، وعادل، ونايق، وواغل^(b)، وهوّاع، وبرك^٤. ومعنى المؤتمِر أنه يَأْتَمِر بكل شيء مما تأتي به السنة من أفضيتها؛ وناجر من النجر وهو شدة الحرّ؛ وخَوّان «فَعَال» من الخيانة، وصوّان - بكسر الصاد وضمتها - «فُعَال» من الصيانة؛ والزبّاء الداهية العظمية المتكاثفة، سُمّي بذلك لكثرة القتال فيه؛ ومنهم من يقول: بعد صوّان الزبّاء، وبعد الزبّاء بائدة، وبعد بائدة الأصمّ، ثم واغل، وباطل، وعادل، ووزنه، وبرك؛ فالبائد من القتال، إذ كان فيه يبيد كثير من الناس، وجرى المثل بذلك فقيل: «العجب كل العجب بين جمادى ورجب»، وكانوا

(a) بولاق: وأتح . (b) بولاق: ناطق وواغل.

^١ من هنا وحتى بداية الجزء الثاني غير موجود في نسخة الظاهرية التي رجحت أنها منقولة من مسودة المؤلف.

^٢ قارن مع المسعودي: مروج الذهب ٢: ٣٤٩-٣٥٠.

^٣ البيروني: الآثار الباقية ٦٩.

^٤ ذكرها النويري باسم: «مؤتمِر، ناجر، خَوّان، صوّان».

(ويقال فيه بُصان)، رُنَى، أَيْدَة، الأصمّ، عادل، ناظِل، واغل، ووزنة، برك. وأضاف أن في هذه الأسماء خلافاً عند أهل اللغة وأن الذي ذكره منها هو المشهور (نهاية الأرب ١: ١٥٧).

يَسْتَعِجِلُونَ فِيهِ وَيَتَوَخَّوْنَ بُلُوغَ مَا [كَانَ لَهُمْ مِنْ] ^a النَّارِ وَالغَارَاتِ قَبْلَ [دُخُولِ] ^a رَجَبٍ فَإِنَّهُ شَهْرٌ حَرَامٌ، وَيَقُولُونَ لَهُ «الْأَصَمُّ» لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُونَ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ، فَلَا يُسْمَعُ فِيهِ صَوْتُ سِلَاحٍ؛ وَالْوَاغِلُ الدَّاخِلُ عَلَى شَرَابٍ وَلَمْ يَدْعُوهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَهَجَّمُ عَلَى شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكَانَ يَكْثُرُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ شُرْبُهُمْ الْخَمْرَ، لِأَنَّ الَّذِي يَتْلُوهُ هِيَ شُهُورُ الْحَجِّ؛ وَنَاطِلٌ هُوَ مِكَيَالُ الْخَمْرِ، سُمِّيَ بِهِ لِإِفْرَاطِهِمْ فِيهِ فِي الشُّرْبِ، وَكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِمْ لِذَلِكَ الْمِكَيَالِ؛ وَأَمَّا الْعَادِلُ فَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ، لِأَنَّهُ مِنْ أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَكَانُوا يَسْتَعِجِلُونَ فِيهِ عَنِ الْبَاطِلِ؛ وَأَمَّا الرَّئِثَةُ ^b فَلِأَنَّ الْأَنْعَامَ كَانَتْ تَرن ^c فِيهِ لِقُرْبِ النَّحْرِ؛ وَأَمَّا بُرُكٌ فَهُوَ لِبُرُوكِ الْإِبِلِ إِذَا أَحْضَرَتْ ^d الْمَنَحَرَ ^١.

وَقَدْ رُوي أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ الْمَحْرَمَ مُؤْتَمِرًا، وَصَفَرَ نَاجِرًا، وَرَبِيعَ الْأَوَّلَ نَصَارًا، وَرَبِيعَ الْآخَرَ خَوَانًا، وَجُمَادَى الْأُولَى حَمِينَ، وَجُمَادَى الْآخِرَةَ الرَّئِثَةَ، وَرَجَبَ الْأَصَمَّ - وَهُوَ شَهْرٌ مُضَرٌّ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَصُومُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَتْ تَمْتَارُ فِيهِ وَتَمِيرُ أَهْلِهَا، وَكَانَ يَأْمَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيهِ، وَيَخْرُجُونَ إِلَى الْأَسْفَارِ وَلَا يَخَافُونَ - وَشَعْبَانَ عَادِلًا، وَرَمَضَانَ نَاتِقًا، وَشَوَّالَ وَاعِلًا، وَذُو الْقَعْدَةِ هَوَاعًا، وَذُو الْحِجَّةِ بُرُكًا، وَيُقَالُ فِيهِ أَيْضًا أَبْرُوكًا، وَكَانُوا يَسْمُونَهُ الْمَيْمُونًا.

ثُمَّ سَمَّتِ الْعَرَبُ أَشْهُرَهَا بِالْمَحْرَمِ، وَصَفَرَ، وَرَبِيعَ الْأَوَّلِ، وَرَبِيعَ الْآخِرِ، وَجُمَادَى الْأُولَى، وَجُمَادَى الْآخِرَةَ، وَرَجَبَ، وَشَعْبَانَ وَرَمَضَانَ، وَشَوَّالَ، وَذِي الْقَعْدَةِ، وَذِي الْحِجَّةِ ^٢.

/وَاشْتَقُّوا أَسْمَاءَهَا مِنْ أُمُورٍ اتَّفَقَ وَقُوعُهَا عِنْدَ تَسْمِيَّتِهَا: فَالْمَحْرَمُ كَانُوا يُحْرَمُونَ فِيهِ الْقِتَالُ، وَصَفَرَ كَانَتْ تُصَفَّرُ فِيهِ بِيُوتِهِمْ لَخُرُوجِهِمْ إِلَى الْعَزْوِ، وَشَهْرًا رَبِيعَ كَانَا زَمَنَ الرَّبِيعِ، وَشَهْرًا جُمَادَى كَانَا يَجْمُدُ فِيهِمَا الْمَاءُ لِشِدَّةِ الْبَرْدِ، وَرَجَبَ الْوَسَطِ، وَشَعْبَانَ يَشْعُبُ فِيهِ الْقِتَالُ، وَرَمَضَانَ مِنَ الرَّمْضَاءِ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْتِي فِيهِ الْقَيْظُ، وَشَوَّالُ تَشِيلٌ فِيهِ الْإِبِلُ أَذْنَابَهَا، وَذُو الْقَعْدَةِ لِقُعُودِهِمْ فِي دُورِهِمْ، وَذُو الْحِجَّةِ لِأَنَّهُ شَهْرُ الْحَجِّ ^٣.

٢٨٣:١

(a) زيادة من البيروني . (b) بولاق : الزباء . (c) بولاق : ترب . (d) بولاق : حضرت .

^١ نقلًا عن البيروني : الآثار الباقية ٦٠ - ٦١ . ^٢ قارن مع المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣٤٦ - ٣٤٧ ؛

^٢ نفسه ٦٠ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٧٣ - البيروني : الآثار الباقية ٣٢٥ .

٣٨٢ ، وبينها خلاف في رسم الكلمات .

وأنت إذا تأملت اشتقاق أسماء شهور الجاهلية أولاً ، ثم اشتقاقها ثانياً ، تبين لك أن بين التسميتين زماناً طويلاً ، فإن صفر في أحدهما هو صميم الحر^(a) وفي الآخر رمضان ، ولا يمكن ذلك في وقت واحد أو وقتين متقاربتين .

وكانت العرب أولاً تستعمل هذه الشهور على نحو ما يستعمله أهل الإسلام ، إما بطريق إلهي أو لأن العرب لم يكن لها ديانة بمرعاة حساب حركات النيرين ، فاحتاجت إلى استعمال مبادي الشهور لرؤية الأهله ، وجعلت زمان الشهر بحسب ما يقع بين كل هلالين : فربما كان بعض الشهور تاماً ، أعني ثلاثين يوماً ، وربما كان ناقصاً أعني تسعة وعشرين يوماً ، وربما كانت أشهر متواليه تامه أكثرها أربعة وهذا نادر ، وربما كانت أشهر متواليه ناقصه أكثرها ثلاثة .

وكان يقع حج العرب في أزمته السنه كلها ، وهو أبداً عاشر ذي الحجه من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فإذا انقضى موسم الحج تفرقت العرب طاليتة أماكنها ، وأقام أهل مكة بها . فلم يزالوا على ذلك ذهراً طويلاً إلى أن غيروا دين إبراهيم وإسماعيل ، فأحبوا أن يتوسعوا في معيشتهم ، ويجعلوا حجهم في وقت إدراك شغلهم من الأدم والجلود والثمار ونحوها ، وأن يثبت ذلك على حالة واجده في أطيب الأزمنه وأخصبها ، فتعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا يثرب من عهد شمويل نبي بني إسرائيل ، وعملوا النسيء قبل الهجره بنحو مائتي سنة ، وكان الذي يلي النسيء يقال له القلمس ، يعني الشريف^١ .

وقد اختلف في أول من أنسا الشهور منهم : فقيل القلمس هو عدي بن زيد ؛ وقيل القلمس هو شريز بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، وأنه قال : أرى شهور الأهله ثلاث مائه وأربعة وخمسين يوماً ، وأرى شهور العجم ثلاث مائه وخمسة وستين يوماً . فبيننا وبينهم أحد عشر يوماً ، ففي كل ثلاث سنين ثلاثة وثلاثون يوماً ، ففي كل ثلاث سنين شهر . وكان إذا جاءت ثلاث سنين قدم الحج في ذي القعدة ، فإذا جاءت ثلاث سنين أخر في المحرم . وكانت العرب إذا حجت قلدت الإبل النعال وألبستها الجلال وأشعرتها ، فلا يتعرض لها أحد إلا خضع .

(a) بولاق : الحروب .

^١ في لسان العرب لابن منظور (٦٥:٨) القلمس : البحر الغزير .

وكان النسيء^١ في بني كِنانة ، ثم في بني ثعلبة بن مالك بن كِنانة ، وكان الذي يلي ذلك منهم أبو ثمامة المالكي . ثم من^(a) بني فقيم .

وبنو فقيم هم النسياء ، وهو منسئ الشهر ، وكان يقوم على باب الكعبة فيقول : إن آلهتكم العزى قد أنست صفر الأول ، وكان تحله عامًا وتحرمه^(b) عامًا ، وكان أتباعهم على ذلك غطفان وهوازن وسليم وتميم .

وآخر النسياء جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة بن عبد بن فقيم . وقيل القلمس هو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كِنانة ، ثم توارث ذلك منه بنوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو ثمامة جنادة .

١٠ وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه ، فأحل لهم من الشهر وحرم ، فأحلوا ما أحل وحرموا ما حرم . وكان إذا أراد أن يئسي منها شيئًا ، أحل المحرم فأحلوه ، وحرم مكانه صفر فحرموه ، ليواطئوا عدة الأربعة [الأشهر الحرم]^(c) .^٢

١٥ فإذا أرادوا الهدي ، اجتمعوا إليه فقال : اللهم إني لا أجد ولا أعاب في أمري ، والأمر لما قضيت ، اللهم إني قد أحللت دماء المحلين من طيبى وخثعم ، فاقتلوهم حيث تقيتوهم - أي ظفرتوهم بهم - اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين : الصفر الأول ، وأنست الآخر من العام المقبل . وإنما أحل دم طيبى وخثعم ، لأنهم كانوا يعدون على الناس في الشهر الحرام من بين جميع العرب .

وقيل أول من أنست سرير بن ثعلبة وانقرض ، فأنست من بعده ابن أخيه القلمس ، واسمه عدي ابن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كِنانة ، ثم صار النسيء في ولده ، وكان آخرهم أبو ثمامة

(a) بولاق : في . (b) بولاق : يحله ... يحرمه . (c) الأصل : العدة الأربعة ، والإضافة من سيرة ابن هشام مصدر النقل .

^١ انظر عن النسيء فيما تقدم ٧٠٨ ، ٧٤٠ وكذلك المسعودي : التنبيه والإشراف ٢١٧-٢١٨ ؛ البيروني : الآثار

الباقية ١١-١٢ ، ٦٢-٦٣ ؛ ابن هشام : السيرة النبوية ٤٤:١-٤٦:١ ؛ النويري : نهاية الأرب ١٦٥:١-١٦٧:١ .

٢ نقلًا عن ابن هشام : السيرة النبوية ١٦٦:١ . (النويري : نهاية الأرب ١٦٦:١) .

نلليو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى

جُنَادَةَ . وَقِيلَ أَخَذَ^(a) عَوْفُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ قَلْعٍ ، عَنْ أَبِيهِ أُمَيَّةَ بْنِ قَلْعٍ ، عَنْ جَدِّهِ قَلْعِ بْنِ عَبَّادٍ ، عَنْ جَدِّ أَبِيهِ عَبَّادِ بْنِ مُحَمَّدِيفَةَ ، عَنْ جَدِّ جَدِّهِ مُحَمَّدِيفَةَ بْنِ عَبْدِ بْنِ فُقَيْمٍ .
وَكَانَ يُقَالُ لِحُدَيْفَةَ الْقَلَمْسِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَسَأَ^(b) الشُّهُورَ عَلَى الْعَرَبِ ، فَأَخَلَّتْ مِنْهَا مَا أَخَلَّ ، وَحَرَّمَ^(c) مَا حَرَّمَ .

٥ ثم كان بعد عوف المذكور ولده أبو ثمامة جنادة بن عوف ، وعليه قام الإسلام ، وكان أبعدهم ذكراً وأطولهم أمداً ، يُقال إنه نَسَأَ^(b) أربعين سنة .
ولهم يقول عمير بن قيس جدل الطعان يفتخر :

[الوافر]

وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ يَسْبِقْ بَوَثِرٍ وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ يَغْلِكْ لِجَامَا
أَلَسْنَا النَّاسِيْنَ عَلَى مَعَدِّ شُهُورَ الْحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا
وقال^(d) عَبَّادُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَنْفِ الْكَلْبِ الصُّيْدَاوِيِّ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ خُرَيْمَةَ :

[الطويل]

/أَتَزْعَمُ أَنِّي مِنْ فُقَيْمٍ بْنِ مَالِكٍ لَعْمَرِي لَقَدْ عَيَّرْتُ مَا كُنْتُ أَعْلَمُ
لَهُمْ نَاسِيٌّ يَمْشُونَ تَحْتَ لِيَوَائِهِ يُحِلُّ إِذَا شَاءَ الشُّهُورَ وَيُحْرِمُ

١٥ وقيل كانت العرب تكبس في كل أربع وعشرين سنة قمرية بتسعة أشهر ، فكانت شهورهم ثابتة مع الأزمنة ، جارية على سنن واحد ، لا تتأخر عن أوقاتها ولا تتقدم .

وكان النسيء الأول للمحرّم ، فسُمِّيَ صَفَرٌ بِاسْمِهِ ، وَشَهْرُ رَيْبِيعِ الْأَوَّلِ بِاسْمِ صَفَرٍ . ثُمَّ وَالْوَايِنِ أَسْمَاءُ الشُّهُورِ ، فَكَانَ النَّسِيءُ الثَّانِي بَصَفَرٍ فَسُمِّيَ الَّذِي كَانَ يَتْلُوهُ بَصَفَرًا أَيْضًا ، وَكَذَلِكَ حَتَّى دَارَ النَّسِيءِ فِي الشُّهُورِ الْإِثْنِي عَشَرَ وَعَادَ إِلَى الْمُحَرَّمِ ، فَأَعَادُوا فِعْلَهُمُ الْأَوَّلِ .

٢٠ وكانوا يعدون أذوار النسيء ، ويحددون بها الأزمنة فيقولون : قد دارت السنون ، من لذن زمان كذا إلى زمان كذا وكذا ، دَوْرَةٌ ؛ فَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ تَقَدُّمُ شَهْرٍ عَنْ فَضْلِهِ مِنَ الْفُضُولِ الْأَرْبَعَةِ ، لَمَّا يَجْتَمِعُ مِنْ كُسُورِ سَنَةِ الشَّمْسِ وَبَقِيَّةِ فَضْلِ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَنَةِ الْقَمَرِ الَّذِي أَحَقُّوه بِهَا ، كَبَسُوهَا كَبَسًا ثَانِيًا ، وَكَانَ يَظْهَرُ لَهُمْ ذَلِكَ بِطُلُوعِ مَنَازِلِ الْقَمَرِ وَسُقُوطِهَا ، حَتَّى هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَكَانَتْ نَوْبَةُ النَّسِيءِ بَلَّغَتْ شَعْبَانَ ، فَسُمِّيَ مُحَرَّمًا وَشَهْرَ رَمَضَانَ صَفَرًا .

(a) ساقط من بولاق . (b) بولاق : أنسا . (c) بولاق : فأحل ... وحرم . (d) بولاق : قال آخر .

وقيل إن الناس الأول نسأ المحرم وجعله كبسًا ، وأخر المحرم إلى صفر ، وصفر إلى ربيع الأول ، وكذا بقية الشهور . فوقع لهم في تلك السنة عاشر المحرم ، وجعل تلك السنة ثلاثة عشر شهرًا ، ونقل الحج بعد كل ثلاث سنين شهرًا . فمضى على ذلك مائتان وعشر سنين ، وكان انقضاؤها سنة حجة الوداع .

٥ وكان وقوع الحج في السنة التاسعة من الهجرة عاشر ذي القعدة ، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بالناس .

ثم حج رسول الله ﷺ في السنة العاشرة حجة الوداع ، لوقوع الحج فيها عاشر ذي الحجة كما كان في عهد إبراهيم وإسماعيل ، ولذلك قال ﷺ في حجته هذه : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض» ، يعني رجوع الحج والشهور إلى الوضع^١ .

وأَنزَلَ اللهُ تَعَالَى إِبْطَالَ النَّسِيءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ [آية ٣٧ سورة التوبة] ، فبطل ما أحدثته الجاهلية من النسيء ، واستمر وقوع الحج والصوم برؤية الأهلة ، والله الحمد .

١٥ وكانت العرب لها تواريخ معروفة عندها قد بادت ، فمما كانت تُورخ به أن كنانة أرخت من موت كعب بن لؤي ، حتى كان عام الفيل أرخوا^(a) به ، وهو عام مولد رسول الله ﷺ . وكان بين كعب بن لؤي والفيل خمس مائة وعشرون سنة ، وكان بين الفيل وبين الفجار أربعون سنة . ثم عدوا من الفجار إلى وفاة هشام بن المغيرة فكان ست سنين ، ثم عدوا من وفاة هشام بن المغيرة إلى بُنيان الكعبة فكان تسع سنين ، ثم كان بين بنائها وبين هجرة رسول الله ﷺ خمس عشرة سنة .

(a) بولاق : فارخوا .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ٣٩٧ .

ثم وَقَعَ التَّأْرِيخُ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ قَالَ : جَمَعَ عُمرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - النَّاسَ فَسَأَلَهُمْ : مِنْ أَيِّ يَوْمٍ يُكْتَبُ التَّأْرِيخُ ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : مِنْ يَوْمِ هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَرَكَ أَرْضَ الشُّرْكِ ، فَفَعَلَهُ عُمرُ ^١ .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ قَالَ : أَخْطَأَ النَّاسُ فِي الْعَدَدِ ، مَا عَدُّوا مِنْ مَبْعَثِهِ وَلَا مِنْ وَفَاتِهِ ، إِثْمًا عَدُّوا مِنْ مَقْدِمَةِ الْمَدِينَةِ ^٢ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ التَّأْرِيخُ مِنَ السَّنَةِ الَّتِي قَدِمَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ ^٣ .

وَقَالَ قُرَّةُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ كَانَ عِنْدَ عُمرِ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَامِلٌ جَاءَ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ لِعُمرَ : أَمَا تُؤَرِّخُونَ ؟ تَكْتُبُونَ فِي سَنَةِ كَذَا وَكَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَكَذَا . فَأَرَادَ عُمرُ وَالنَّاسُ أَنْ يَكْتُبُوا مِنْ مَبْعَثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالُوا مِنْ عِنْدِ وَفَاتِهِ ، ثُمَّ أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ الْهِجْرَةِ . ثُمَّ قَالُوا : مِنْ أَيِّ شَهْرٍ ؟ فَأَرَادُوا أَنْ يَكُونَ مِنْ رَمَضَانَ ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ فَقَالُوا مِنَ الْحَرَمِ ^٤ .

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : رُفِعَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمرِ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - صَبٌّ وَمَحَلُهُ شَعْبَانُ ، فَقَالَ : أَيُّ شَعْبَانَ هُوَ ؟ أَشَعْبَانُ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَوْ الْآتِي ^٥ ؟ ثُمَّ جَمَعَ وُجُوهُ الصُّبْحَانَةِ فَقَالَ : إِنَّ الْأَمْوَالَ قَدْ كَثُرَتْ ، وَمَا قَسَمْنَا مِنْهَا غَيْرَ مُوقَّتٍ ، فَكَيْفَ التَّوَصَّلُ إِلَى مَا يُضْبَطُ بِهِ ذَلِكَ ؟ فَقَالُوا : يَجِبُ أَنْ يُعْرَفَ ذَلِكَ مِنْ رُسُومِ الْفُرْسِ . فَعِنْدَهَا اسْتَحْضَرَ عُمرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - الْهُزْمَانَ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ : إِنَّ لَنَا حِسَابًا يُسَمِّيهِ «مِائَةُ رَوْزٍ» مَعْنَاهُ حِسَابُ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ ؛ فَعَرَّبُوا الْكَلِمَةَ ، وَقَالُوا مُؤَرِّخٌ ، ثُمَّ جَعَلُوهُ اسْمَ التَّأْرِيخِ وَاسْتَعْمَلُوهُ ^٦ . ثُمَّ طَلَبُوا وَقَتًا يَجْعَلُونَهُ أَوَّلًا لِتَأْرِيخِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمَبْدَأُ مِنْ سَنَةِ الْهِجْرَةِ .

وَكَانَتْ الْهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ تَصَرَّمَ مِنْ شُهُورِ السَّنَةِ وَأَيَّامِهَا الْحَرَمِ وَصَفَرَ وَأَيَّامِ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ . فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى تَأْسِيسِ الْهِجْرَةِ ، رَجَعُوا الْقَهْقَرَى ثَمَانِيَةَ وَسِتِينَ يَوْمًا ، وَجَعَلُوا التَّأْرِيخَ مِنْ أَوَّلِ مُحَرَّمِ هَذِهِ السَّنَةِ . ثُمَّ أَحْصَوْا مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فِي الْحَرَمِ إِلَى آخِرِ عُمرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَكَانَ عَشْرَ سِنِينَ وَشَهْرَيْنِ .

^٤ نفسه ٢ : ٣٨٩ .

^٥ نفسه ٢ : ٣٨٨ - ٣٨٩ .

^٦ انظر فيما تقدم ٧٠٠ .

^١ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢ : ٣٩١ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٨٩ .

^٣ نفسه ٢ : ٣٨٩ .

وأما إذا/ حُصِبَ عُمُرُهُ الْمُقَدَّسُ مِنَ الْهِجْرَةِ حَقِيقَةً ، فَيَكُونُ قَدْ عَاشَ ﷺ بَعْدَهَا تِسْعَ سِنِينَ وَأَخَذَ عَشْرَ شَهْرًا وَاثْنِينَ وَعِشْرِينَ يَوْمًا .

وَكَانَ بَيْنَ مَوْلِدِهِ ﷺ ، وَبَيْنَ مَوْلِدِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - خَمْسَ مِائَةٍ وَثَمَانٍ وَسَبْعُونَ سَنَةً ، تَنْقُصَ شَهْرَيْنِ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .

٥ وابتداءً تاريخ الهجرة يوم الخميس أول شهر الله المحرم ، وبين الطوفان ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمسة وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنتان وعشرون يومًا ، على ما عرّفنا من الخلاف في ذلك . وبين تاريخ الإسكندر بن فيليبش المجدوني الرومي تسع مائة وإحدى وستون سنة قمرية وأربعة وخمسون يومًا ، تكون من السنين الشمسية تسع مائة واثنتين وثلاثين سنة ومائتين وتسعة وثمانين يومًا ، عنها تسعة أشهر وتسعة عشر يومًا . وبين تاريخ القبط ثلاث مائة وسبع

١٠ وثلاثون سنة وتسعة وثلاثون يومًا .

وقال ابن ما شاء الله ^١ : ^(a) إن انتقال الممر ^(a) من المثلثة الهوائية التي هي بُرْج الجوزاء وذواتها ^(b) ، إلى بُرْج السرطان ومثلثته المائية التي كانت دَوْلَةُ الإسلام فيها ، عند تمام ستة آلاف وثلاث مائة وخمسة وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يومًا من وقت القِران الأول الواقع في بدء التحرك - يعني خلق آدم عليه السلام - ، وأن القِران من هذه المثلثة وَقَعَ في أربع دَرَجٍ ودقيقة واحدة من بُرْج العقرب ، وهو قِران المِلَّة الإسلامية .

١٥ قال : وفي السنة الثانية من هذا القِران وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وكان بين دخول الشمس بُرْج الحمل في هذه السنة وبين أول يوم من سنة الهجرة ، سُتُونَ فارسية عدتها إحدى وخمسون سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام وست عشرة ساعة ، وكان ^(c) من وقت الطوفان إلى وقت قِران المِلَّة ثلاثة آلاف وتسع مائة واثنان عشرة سنة وستة أشهر وأربعة عشر يومًا . وزعمت اليهود أن من آدم - عليه السلام - إلى سنة الهجرة أربعة آلاف واثنتين وأربعين سنة وثلاثة أشهر . وزعمت النصارى أن بينهما خمسة آلاف وتسع مائة وتسعين سنة وثلاثة أشهر . وزعمت الجوس - أعني الفرس - أن بينهما أربعة آلاف ومائة واثنتين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يومًا . وقد عرّفنا أن شهور تاريخ الهجرة

(a) بولاق : المر . (b) بولاق : دولتها . (c) بولاق : فكان .

^١ عن ابن ما شاء الله انظر فيما تقدم ٧٠٣ .

قَمَرِيَّة ، وَأَيَّام كُلِّ سَنَةٍ مِنْهُ عِدَّتُهَا ثَلَاث مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ يَوْمًا وَخُمْسٌ وَسُدُسٌ يَوْمٌ .
 وَجَمِيعُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مَبْنِيَةٌ عَلَى رُؤْيَةِ الْهِلَالِ عِنْدَ جَمِيعِ فِرْقِ الْإِسْلَامِ ، مَا عَدَا الشِّيْعَةَ فَإِنَّ
 الْأَحْكَامَ مَبْنِيَةَ عِنْدَهُمْ عَلَى عَمَلِ شُهُورِ السَّنَةِ بِالْحِسَابِ ، عَلَى مَا سَتَرَاهُ فِي ذِكْرِ الْقَاهِرَةِ وَخُلَفَائِهَا .
 ثُمَّ لَمَّا اخْتَجَّ مُنْجَمُو الْإِسْلَامِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَهْلَةِ وَسَمْتِ الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ
 ذَلِكَ ، بَنَوْا أَزْيَاجَهُمْ عَلَى التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ ، وَجَعَلُوا شُهُورَ السَّنَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَهْرًا كَامِلًا وَشَهْرًا نَاقِصًا ،
 وَابْتَدَأُوا بِالْمَحْرَمِ اقْتِدَاءً بِالصُّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . فَجَعَلُوا الْمَحْرَمَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَصَفَرَ تِسْعَةَ
 وَعِشْرِينَ يَوْمًا ، وَرَبِيعًا الْأَوَّلَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَرَبِيعًا الْآخَرَ تِسْعَةَ وَعِشْرِينَ يَوْمًا ، وَجُمَادَى الْأُولَى
 ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَجُمَادَى الْآخِرَةَ تِسْعَةَ وَعِشْرِينَ يَوْمًا ، وَرَجَبَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَشَعْبَانَ تِسْعَةَ وَعِشْرِينَ
 يَوْمًا ، وَرَمَضَانَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَشَوَّالًا تِسْعَةَ وَعِشْرِينَ يَوْمًا ، وَذَا الْقِعْدَةِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَذَا الْحِجَّةِ
 تِسْعَةَ وَعِشْرِينَ يَوْمًا . وَزَادُوا مِنْ أَجْلِ كَثْرَةِ الْيَوْمِ ، الَّذِي هُوَ خُمْسٌ وَسُدُسٌ ، يَوْمًا فِي ذِي الْحِجَّةِ
 إِذَا صَارَ هَذَا الْكَثْرَ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ يَوْمٍ ، فَيَكُونُ شَهْرُ ذِي الْحِجَّةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ،
 وَيَسْمَوْنَ تِلْكَ السَّنَةَ كَبِيسَةَ ، وَيَصِيرُ عَدَدُهَا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ وَخَمْسِينَ يَوْمًا ، وَيَجْتَمِعُ فِي كُلِّ
 ثَلَاثِينَ مِنَ الْكَبِيسِ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا تَارِيخُ الْفُرسِ وَيُعْرَفُ أَيْضًا بِ«تَارِيخِ يَزْدَجِرْد» ، فَإِنَّهُ مِنْ ابْتِدَاءِ تَمَلُّكِ يَزْدَجِرْدِ بْنِ شَهْرِيَارِ
 ابْنِ كِشْرَى أَبْرُويز ، أَرَّخَ بِهِ الْفُرسَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَزْدَجِرْدَ قَامَ فِي الْمَمْلَكَةِ ، بَعْدَمَا تَبَدَّدَ مُلْكُ فَارِسَ ،
 وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ النُّسَاءُ وَالْمُتَغَلَّبُونَ ، وَهُوَ أَيْضًا آخِرُ مُلُوكِ فَارِسَ ، وَبَقِيَّتُهُ تَمَزَّقَ مُلْكُهُمْ ^١ .

وَأَوَّلُ هَذَا التَّارِيخِ يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ تَارِيخِ الْهِجْرَةِ تِسْعَ سِنِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ
 وَثَلَاثُونَ يَوْمًا ؛ وَأَيَّامُ سَنَةِ هَذَا التَّارِيخِ تَنْقُصُ عَنِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ رُبْعَ يَوْمٍ ، فَيَكُونُ فِي كُلِّ مِائَةٍ
 وَعِشْرِينَ سَنَةً شَهْرًا وَاحِدًا ، وَلَهُمْ فِي كَبِيسِ السَّنَةِ آرَاءٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ إِيرَادِهَا . وَعَلَى هَذَا التَّارِيخِ
 يَعْتَمِدُ فِي زَمَانِنَا أَهْلُ الْعِرَاقِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ ، وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ^٢ .

^١ البيروني: الآثار الباقية ٣١؛ المسعودي: مروج الذهب ٢: ٣٤٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ٣٩٩.
^٢ نهاية الجزء الرابع من نشرة Gaston Wiet؛ وبعد ذلك في نسخة الأصل باب لا علاقة له بسياق الموضوع أو بموضوع الكتاب، عنوانه: «الخبر عن الحفصيين ملوك تونس» ويليهِ «الخبر عن أجناس السودان» وآخرها: وقد ذكر أخبار

مالي وملوكها [في] كتاب «درر العقود الفريدة» في ترجمة منشا موسى؛ وهو عبارة عن مذكرات كتبها المقرئ في نهاية مجلد الأصل المنقول عنه هذه النسخة لاستخدامها في مؤلفاته الأخرى تمامًا مثل ما جاء في نهاية الجزء الثالث من أصل المؤلف خاصًا بذكر أمراء العرب في بيروت، تمامًا له علاقة بموضوع الخطط أو تاريخ مصر.